صفوة الأخبار

وَمُنتقى الآثارِ

فِي الأخلاقِ والآدابِ والطّرائفِ واللطائفِ والنّوادِرِ ومحاسنِ الأشْعارِ

تأليف

موسى محمد الأسود

طبعة جديدة مزيدة ومنقحة ومعدلة

اشتملت على إضافات بلغت ضعف حجم الكتاب الأصلي

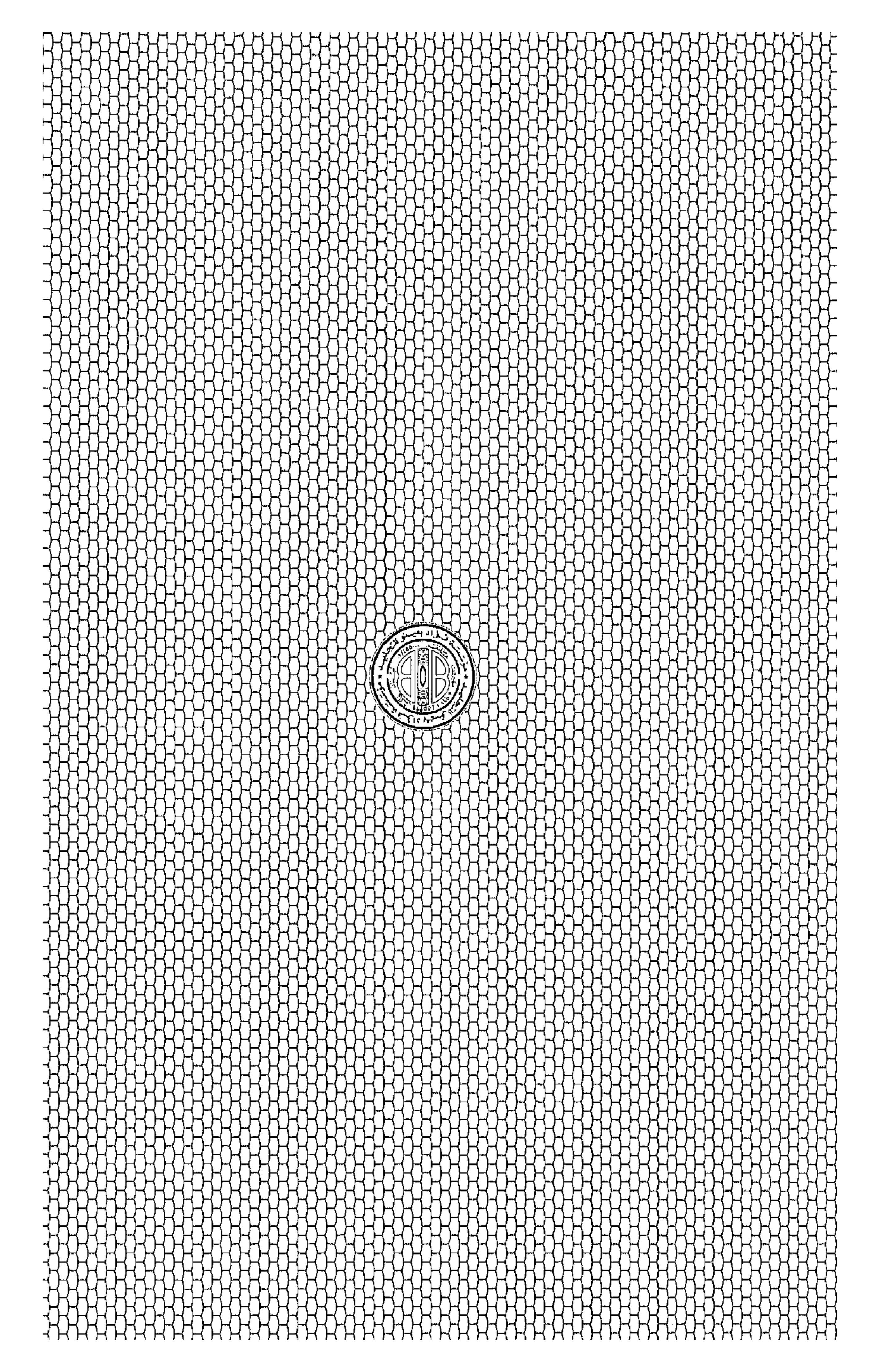


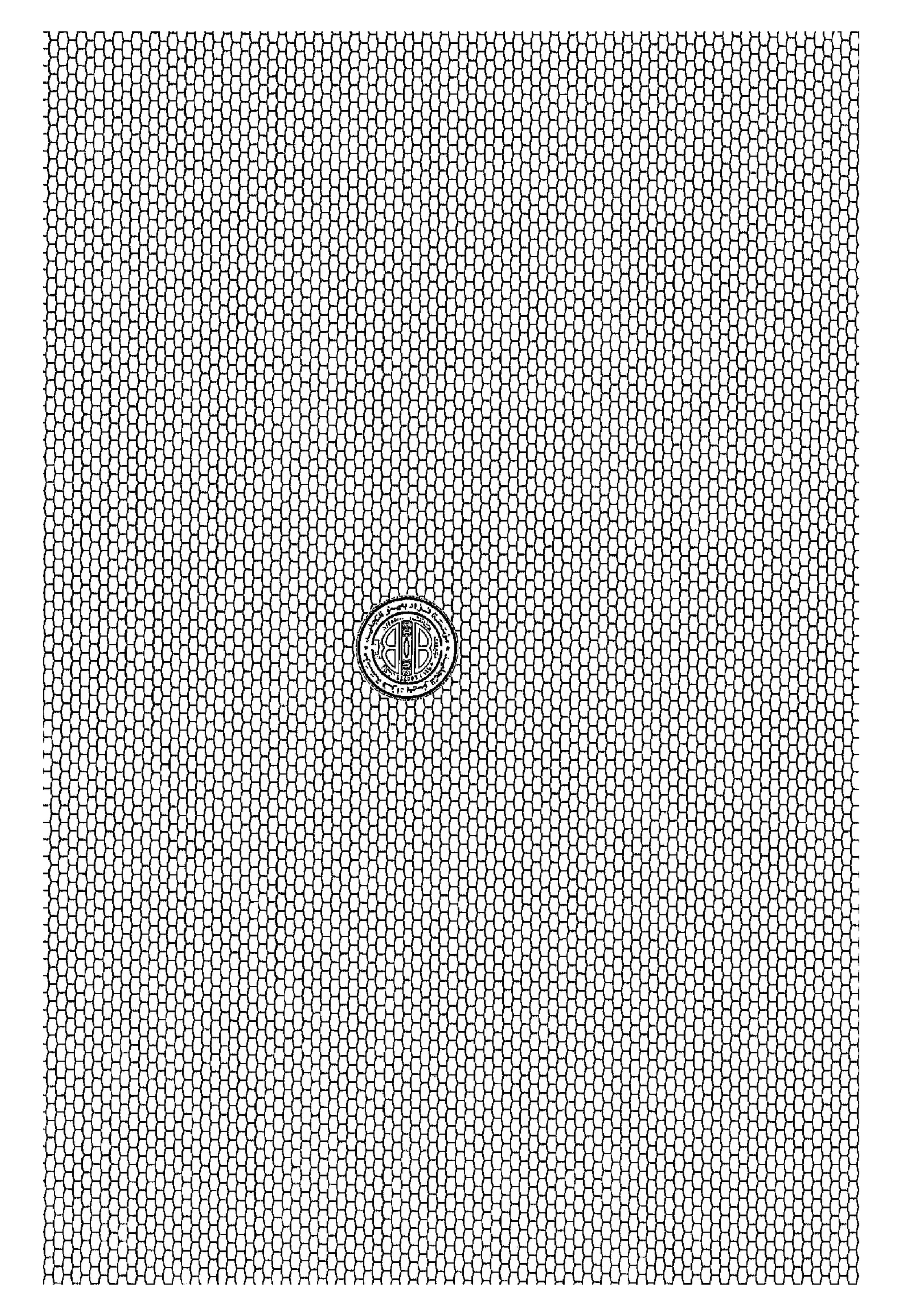
مكتبة المنار الإسلامية



لتحميل المزيد من الكتب
تفضلوا بزيارة موقعنا

www.books4arab.me





صَفْوَةُ الأَخْبَارِ

وَمُنْتَقَى الآثَارِ

فِي الأَخْلَاقِ وَالآدَابِ وَالطَّرَائِفِ
وَاللَّطَائِفِ وَالنَّوَادِرِ وَمَحَاسِنِ الأَشْعَارِ

بسم الله الرحمن الرحيم

صَفْوَةُ الأَخْبَارِ
وَمُنْتَقَى الآثَارِ

فِي الأَخْلَاقِ وَالآدَابِ وَالطَّرَائِفِ وَاللَّطَائِفِ وَالنَّوَادِرِ وَمَحَاسِنِ الأَشْعَارِ

تأليف
موسى محمد الأسود

الطَّبعة الثَّالِثة
١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م

طبعة جديدة مزيدة ومنقحة ومعدلة
اشتملت على إضافات بلغت ضعف حجم الكتاب الأصلي



مكتبة المنار الإسلامية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الثالثة

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

الكتب التي تصدرها المكتبة تعبر عن آراء واجتهادات اصحابها ولاتعبر بالضرورة عن رأي المكتبة



مكتبة المنار الإسلامية

الكويت ـ حولي ـ شارع المثنى ـ ص.ب ٤٣٠٩٩ الرمز البريدي ٣٢٠٤٥

المكتبة: ٢٦١٥٠٤٥ الإدارة والتسويق: ٢٦٥٤٦٣٩

فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤ (٠٠٩٦٥)

E - mail: almannar@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد،،

فقد لاقى كتاب «صفوة الأخبار» قبولاً لدى عموم القراء ـ ولله الحمد والمنّة ـ وتلقفته مختلف الأوساط بحرص شديد واهتمام بالغ، وأبدوا إعجابهم به، وثناءهم عليه، وكانت تراودني فكرة إضافة بعض الموضوعات إليه، وإجراء تعديل عليه، فكانت فرصة مناسبة لتحقيق هذه الرغبة حينما تمّ الاتفاق مع مكتبة المنار الإسلامية في الكويت لإعادة طباعته، فأجريت تعديلاً شاملاً على الكتاب، وأضفت إليه، وزدت فيه موضوعات كثيرة، فجاء الكتاب مختلفاً عما كان عليه في الطبعتين السابقتين، بترتيبه وتنسيقه وتقسيمه والزيادات التي اشتمل عليها، حتى بلغ ضعف حجمه الأصلي. وآمل أن أكون قد وُفّقت في هذا التعديل، وفي اختيار هذه الإضافات والزيادات.

وعملية الاختيار والانتقاء والترتيب ليست بالأمر السهل، يقول عبدالله بن وهب: إنما يُحسن الاختيار لغيره مَنْ يحسن الاختيار لنفسه، وقال ابن الجوزي في بعض كتبه: وإنما أُنْقل عن القوم محاسن ما نُقل، ولا أُنْقل كلّ ما نُقل، إن لكل شيء صناعة، وصناعة العقل حسن الاختيار! والذي يتولى الاختيار يشبه منسق الزهور والثمار في الحديقة الغناء، وهذه تتطلب مهارة وكفاءة، وصولاً لجمال العرض وحسن الترتيب، ولتقديم باقة من الزهور الجميلة، وحزمة من الورود الأنيقة، وسلّة من الفاكهة الطازجة الشهية!

* وموضوعات الكتاب اشتملت على المواقف الإيمانية والطرائف الأدبية، والصور البطولية، واختيارات من سِير وقصص، وأخبار ومآثر علماء وقادة وأدباء وشعراء وأمراء، من كل ما يحرك العاطفة ويشعل المواهب ويلهب الحماس، ويقوي العزائم، ويطهر الوجدان، ويوقظ الضمير ويرهف الإحساس، ويشعر النفس بنشوة عارمة وسعادة غامرة.

* أحاديث لو صيغت لألهتْ بحسنها عن الوشي أو شُمَّت لأغنت عن المسك

* إيهِ أحاديث نَعْمانٍ وساكنهِ إنّ الحديث عن الأحباب أسمارُ

* وحَدَّثتني يا سعدُ عنها فزِدْتني جنوناً فزدْني من حديثك يا سعدُ

هَواها هَوىً لم يعرف القلب غيرَه فليس له قبلٌ وليس له بعدُ

* وفي قراءة سير الرجال وفضائلهم وأخبارهم، فوائد جمّة ومنافع كثيرة،

* فللناس في الماضي بصائر يهتدي عليهن غاوٍ أو يسير رشيدُ

* اقرأ التاريخ إذْ فيه العبر ضاع قوم ليس يدرون الخبر

* وللقصص والأخبار تأثير كبير في النفوس، ودور فاعل في التربية والتوجيه، ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦)﴾ (الأعراف) ويروىٰ عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله أنه قال: الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحبّ إليّ من كثير من الفقه، لأنها آداب القوم وأخلاقهم، وشاهده من كتاب الله قوله سبحانه وتعالىٰ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٩٠) وقوله جل شأنه ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ (يوسف: ١١١) وقال مالك بن دينار: الحكايات تُحَفُ الجنّة! وقال الجنيد: الحكايات جند من جنود الله عز وجل يقوي بها إيمان المريدين، وشاهد ذلك قوله تعالىٰ ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (هود: ١٢٠) وقال أحد الصالحين: استكثروا من الحكايات فإنها دُرر، وربما كانت فيها الدّرة اليتيمة! أي الحكاية التي تؤدي المعنىٰ وتفي بالغرض.

* قال ابن الجوزي رحمه الله: واعلم أن في ذكر السير والتاريخ فوائد كثيرة، من أهمها أن يُطّلع بذلك علىٰ عجائب الأمور، وتقلّبات الزمن، وتصاريف القدر، وسماع الأخبار، والنفس تجد راحة بسماع الأخبار! قيل لرجل من بكر بن وائل - وقد كبر وأسنّ وذهبت منه لذة المأكل والمشرب والمنكح: أتحب أن تموت؟ قال: لا، قيل: فما بقي من لذتك في الدنيا؟ قال: أستمع العجائب! وقال عبدالله بن المبارك رحمه الله: إن وجدتَ علىٰ الحائط موعظة فانظر فيها تتعظ! قيل: فالفقه؟ قال: لا يستقيم إلا بالسماع.

******

* ولم يَخْلُ الكتاب من القصص الظريفة والنكات اللطيفة، والنوادر العجيبة، والمِلَح والمفاكهات والمداعبات، واللهو البريء، وحوىٰ حزمة أنيقة من الآثار والقصائد والحكم والأشعار والأقوال والأمثال، وأرقّ المعاني وأجمل المباني، ومثل هذا النوع من الطرائف يبعث الحيوية في النفوس، والنشاط في العقول، بعد الجهد والعمل، وكدّ الذهن.

ولابد للمرء من الترويح عن نفسه والاستراحة من ضغط العمل وزحمة الأحداث، ليقوىٰ علىٰ مواجهة الحياة وقسوتها، ويستأنف النشاط من جديد، ومن هنا كانت الإجازات والعطل الرسمية والأسبوعية التي تساعد علىٰ إجمام النفوس وراحتها، لتعود إلىٰ العمل بهمة وحيوية، يقول علي كرم الله وجهه: إن القلوب تمل كما تملّ الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة! وقال: روّحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلب إذا أكره عمي!

* وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إني لأستجم ببعض الباطل ليكون أنشط لي في الحق! ـ والإجمام: إراحة القلوب ـ وكان هارون الرشيد يقول: النوادر تشحذ الأذهان وتفتق الآذان! قال أبو فراس الحمداني:

أروِّح القلب ببعض الهزل ... تجاهلاً مني بغير جهلِ
أمزح فيه مزْحَ أهل الفضل ... والمزحُ أحياناً جلاءُ العقل!

* وقال بعض الشعراء:

أفد طبعك المكدود بالهمّ راحة ... يجمّ وعلّله بشيء من المزحِ
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن ... بمقدار ما تعطي من الملح

ذلك أن كل شيء إذا زاد عن مقداره وحدّه، انقلب إلىٰ عكسه وضده.

* وجاء في وصف رسول الله ﷺ أنه: دائم البشر، وكان عليه السلام يمازح أصحابه، ويشاركهم في أفراحهم وأحزانهم وآلامهم، ويستمع إلىٰ قصصهم ونوادرهم

ويضحك معهم. قال زيد بن ثابت ـ وقد طلب الصحابة منه أن يحدثهم عن حال رسول الله ـ: كنت جاره، فكان إذا نزل عليه الوحي بعث إليّ فكتبته له، فكان إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا، ثم قال: فكل هذا أحدثكم عن رسول الله ﷺ. وقد وصفه أصحابه بأنه صلوات الله عليه كان من أَفْكَه الناس! وكان الصحابة الكرام والتابعون وأهل القرون الأولى الخيّرة يمزحون ويضحكون، اقتداءً به عليه السلام، ولبعضهم نوادر ومواقف في المزاح والفكاهة تبعث على العجب وتدعو للاستغراب!

* وكانت نفوس العلماء تنشرح في اللهو المباح، لأنه يُكْسِبها النشاط والهمة ويبعث فيها الحيوية، وكانوا يرتاحون لسماع الطرفة والنادرة والموقف الهزلي الضاحك، كان الإمام الزهري يقول لأصحابه: هاتوا من أشعاركم، هاتوا من حديثكم، هاتوا من ظرفكم، أفيضوا في بعض ما يخفّ عليكم وتأنس به طباعكم فإن الأذن مجاجة، والقلب ذو تقلب! وقال مالك بن دينار: كان الرجل ممن كان قبلكم إذا ثقل عليه الحديث قال: إن الأذن مجاجة، والقلب حمض، فهاتوا من طرف الأخبار! وقال عبدالرحمن بن زيد العدوي، قال لي أبي: إنْ كان عطاء بن يسار ليحدثنا أنا وأبا حازم حتى يبكينا، ثم يحدثنا حتى يضحكنا! ثم يقول: مرة هكذا، ومرة هكذا! ولا يزال العلماء والفضلاء يعجبون بالمِلَح ويفرحون بها، لأنها تريح القلب من كدّ الفكر، كان شعبة بن الحجاج يحدث تلامذته، فإذا رأى أبا زيد سعيد بن أوس قال:

استعجمت دارُ ميٍّ ما تُكلِّمنا والدارُ لو كلّمتنا ذات أخبار

ثم يناديه فيتحادثان ويتناشدان الأشعار، فقال له بعض الحاضرين: يا أبا بسطام، نقطع إليك ظهور الإبل فتدعنا وتقبل على الأشعار؟ فقال: أنا أعلم بالأصلح لي! أنا والله الذي لا إله إلا هو في هذا أسلم مني في ذلك! كأنه يروّح قلبه عند السآمة.

وكان أبو عبدالرحمن عبيدالله بن محمد المعروف بابن عائشة، يروي أحاديث مِلاحاً في بعضها رفث! فقال له رجل: أيأتي من مثلك هذا؟! فقال له: ويحك، أما ترى

أسانيدها؟ ما أحد ممن رويْتُ عنه إلا هو أفضل من جميع أهل زماننا! ولكنكم ممن قبح باطنه فرأىٰ ظاهره، وإن باطن القوم فوق ظاهرهم!

ووُصف رجل من النساك عنده فقالوا: هو جدّ كلّه! فقال: لقد أضاق علىٰ نفسه المرعىٰ!

* وفي ختام هذه الكلمات الموجزة حول التقديم للكتاب، لا يسعنا إلا أن نترحم علىٰ كلّ من نقلنا عنهم واستفدنا منهم، وانتفعنا بعلمهم وآثارهم وأخبارهم، سائلين المولىٰ عز وجل أن يتغمدهم بواسع رحمته، ويشملهم بواسع عفوه وجميل إحسانه، ويجزل لهم الأجر والمثوبة، قال أحد الحكماء: الحرُّ من راَعَىٰ وِدادَ لَحْظة، وانتمىٰ إلىٰ مَنْ تعلّم منه لَفْظة! وقال أبو محمد التميمي الحنبلي البغدادي: يَقْبحُ بكم أن تَسْتفيدوا منا، ثم تذكرونا ولا تترحّموا علينا! رحمه الله، ورحم الله الجميع، وعفا عنا وعنهم وغفر لنا ولهم، ولآبائنا وأمهاتنا والمسلمين أجمعين، بمنّه وكرمه، هذا وبالله التوفيق، والحمدلله أولاً وآخراً، وبدءاً وختاماً، ،

موسى محمد الأسود

الكويت ١/ ١١/ ٢٠٠٦

تراثنا الأدبي (*)

تراثنا الأدبي مليء بالكنوز الدفينة والجواهر المندثرة واللآلئ المخفية، وفيه من الآثار والذخائر والأخبار، ما يحفز النفس ويغريها لترتفع إلىٰ مصاف أولي الهمم العالية والشيم الرفيعة، وما يدفعها للتحليق في عالم من الصفاء والنقاء، تزينه مواقف الأطهار الأبرار، وحِكَم الأصفياء الكبار وأدب الأفاضل الأخيار.

* ولعل في كبر حجم كتب التراث وضخامة أسفار أدبنا العربي والإسلامي، سبباً مباشراً في صرف كثير من القراء والمثقفين عن مطالعتها والاستفادة منها، في عصر تميزه السرعة والعجلة في كل شيء، ومن أبرز سماته الخفة والرشاقة والاختصار في كل أمر، وانطلاقاً من هذا التصور عن الواقع المشاهد، وما يقابله من واقع سلفنا والأجيال التي سبقتنا من التأني والتؤدة والروية التي ميزت عصورهم، فإن من أراد من مثقفي اليوم القراءة في مثل هذه الأسفار، فإنه يتيه في بيدائها، ويغرق في خضم بحارها، وإذا كان ذا نزعة معينة وحاول البحث عما يشبع نهمته ويروي ظمأه في هذا الخط أو ذاك الاتجاه، فكيف سيعثر علىٰ بغيته ويحصل علىٰ مطلبه؟! وسط مجلدات ضخمة وأجزاء كثيرة العدد، يضيع في بحارها الربان الماهر والقائد المتمرس، فكيف بالمبتدئ الذي لا يزال يتعثر ويقوم، ويكبو ويستقيم؟! لا شك أن الملل والسآمة ستدرك من حاول الغوص بحثاً عن جوهرة ثمينة أو لؤلؤة فريدة، وسيناله التعب والإعياء فيحجم بالتالي عن المتابعة بعد أن شُلَّ نشاطه وتقاعست همته، فينصرف عن الطلب ويقعد عن البحث، ويدع العوم خوفاً من الغرق!!

* وقد انصب الجهد علىٰ الانتقاء والاختيار، مما يفيد القارئ ويثري ثقافته وينمي مداركه ويزيد من معلوماته، ويعطيه الصورة الصادقة عن التراث الأصيل، والأدب النقي الشريف!

* ومن الملاحظ أن تراثنا طرأت عليه عدة عوامل شوهت جماله وطمست معالمه المشرقة وبهاءه المضيء، فاختلط الغث بالسمين والحابل بالنابل، ودُس السم بالعسل،

والعلقم بالشهد. وإنك لتجد نفسك أحياناً عندما تطالع في أحد هذه الكتب الأدبية، وكأنك تطالع كتاب سخف وتهريج؛ من شدة الإسفاف ودرجة الانحطاط التي وصل إليها المؤلف، والكلمات الفاضحة والجُمل القبيحة والقصص العفنة التي أوردها! وإن كانت له وجهة نظر في إيراد مثل هذا، بحجة أن المحظور هو شتم الأعراض والطعن في الأنساب وقذف الناس، أما حكاية الواقعة وإيراد الألفاظ النابية في القصة فلا يرىٰ به بأساً، لأنه أرسل النفس علىٰ سجيتها فسجلت وسطرت ـ دون حذف ـ ما ورد في الواقعة أو الحادثة!

* وقد بذلت ما بوسعي لاستخلاص القصة المفيدة والحكمة البليغة، والقول المؤثر، والأشعار النقية الهادفة العفيفة، التي هي لقاح عقول العلماء ونتاج أفكار الحكماء، وأفضل ما قاله البلغاء، وخير ما نطق به الشعراء، وأجود ما ورد في سير الملوك وآثار الأدباء، وتجنبت كل لفظ فاضح أو قول سخيف أو قصة فاحشة أو جملة فاسدة، طالما أن في العبارة المهذبة والألفاظ التي لا تجرح الحياء غنىً عما سواها! وهذا لا يعني أني ضربت صفحاً عن كل ما يتعلق بتنشيط النفس وشدّها لمتابعة القراءة، فلقد ضمنت هذه المقالات قصصاً ومواقف ظريفة، وحكايات ممتعة، وكلمات لطيفة ونوادر غريبة، فيها ما يشرح الصدر ويُثلج الفؤاد، وهي لا تخلو ضمناً من عبرة أو فائدة جاءت في أسلوب مرح، لكنه هادف!

* وهذه المواضيع والمباحث التي أخذتُها من كثير من كتب التراث والأدب، وانتقيتها من مختلف الفنون مما يفيد المرء في دينه ودنياه؛ رجوتُ أن تكون إضافة جديدة في ميدان الأخلاق والفضائل والآداب، فلقد اخترت النصوص والقصص والآثار والأخبار، والأشعار المليئة بالمثل الصالح والقول الشريف والحكمة النافعة، وما اشتملت عليه هذه وتلك من أنواع المعارف والفوائد التي تحيي النفس والقلب، وتشحذ الذهن واللب وتبعث علىٰ المكارم، وتنهىٰ عن الدنايا والمحارم، وألّفتُ بينها وربطت بين بعضها البعض لتظهر كل فئة بمظهر الموضوع المستقل والمتكامل.

* وقد غطت موضوعات الكتاب معظم الجوانب الأخلاقية والأدبية، وهي تناسب

جميع المستويات وتلائم مختلف الثقافات وترضي كل الأذواق بإذن الله، مهما تباينت الانتماءات وتنوعت الاتجاهات، فالمحور الأساسي الذي تدور عليه هو هدف الجميع ومطلب الكل، وهي تفيد الواعظ في محرابه، والخطيب في خطبته، والعابد في تنسكه وخلوته، والمثقف لتنمية ثقافته، والأديب في أدبه وكتاباته، والعامي لزيادة معلوماته واطلاعه، وأرجو الله أن ينفع بها، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* كان هذا الموضوع مقدمة الكتاب في الطبعة الأولى.

تأملات

* قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أوصيكم بأربع لو ضربتم إليها آباط الإبل لكُنَّ لها أهلاً: لا يرجونَّ أحد منكم إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه، ولا يستحي أحدٌ إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم، ولا إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه، وإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس ذهب الجسد، وكذلك إذا ذهب الإيمان!

* إياكم وما يسبق للناس إنكاره، وإن كان لديكم اعتذارُه، فربَّ سامعٍ نُكْراً لا تستطيعُ إسماعه عُذراً!

قالوا:

* انظر إلى المرأة ولا تسمع لها!

* إذا أردت أن تذيع خبراً فأسره إلى امرأة وحذرها من أن تبوح به!

* الجمال عند المرأة.. يعادل النبوغ عند الرجل!

* إياك ومخالطة النساء.. فإن لحظ المرأة سهم، ولفظها سم!

* صدَّر أحد المؤلفين كتابه بهذه العبارة: إلى زوجتي التي لولا غيابها ما كان في الاستطاعة إخراج هذا الكتاب!

* وقال أديب آخر مخاطباً زوجته: لولا وجودك لأنجزت الكتاب في نصف المدة التي استغرقها تأليفه!

شرف العلم

* جاء عن علي رضي الله عنه في خطبة خطبها: واعلموا أن الناس أبناء ما يحسنون وقدر كل امرئ ما يُحْسن، فتكلموا في العلم تتبين أقداركم، وقال: المرء مخبوء تحت لسانه. والمرء بأصغريه: قلبه ولسانه.

ومما يروىٰ عنه رضي الله عنه:

النـاسُ مـن جهـة التمـثيل أكفـاء ... أبـوهـم آدم والأم حـواء
فـإنْ أتيـتَ بـفـخـرٍ مـن ذوي نسـبٍ ... فـإنَّ نـسـبـتـنـا الـطـينُ والمـاءُ
مـا الفـخـرُ إلاَّ لأهـلِ العـلـمِ إنـهـم ... علـىٰ الهُـدىٰ لمـن استـهـدىٰ أدلاءُ
وقيـمـةُ المـرءِ ما قـد كـان يحـسـنـهُ ... والجـاهـلـون لأهـل العـلـم أعـداءُ
فاطلبْ لنفسك علماً واكتسبْ أدباً ... فـالنـاسُ مـوتـىٰ وأهلُ العـلـم أحيـاءُ

* لذلك كان فَقْد العالم مصيبة، وغيابه كارثة، ولله در القائل:

إذا مـا مـات ذو عـلـمٍ وتـقـوىٰ ... فـقـد ثُـلـمـت مـن الإسـلام ثـلـمـةْ
ومـوت الـعـابـد الـقـوّام لـيـلاً ... يـنـاجـي ربّـهُ فـي كـل ظـلـمـة
ومـوت فـتـىٰ كـثـيـر الجـود مـحـلٌ ... فـإنَّ بـقـاءه خـصـبٌ ونـعـمـة
ومـوت الـفـارس الـضـرغـام هـدمٌ ... فـكـم شـهـدت لـه بـالـنـصـر عـزمـة
ومـوت الحـاكـم الـعـدل المـولـىٰ ... لحـكـم الأرض مـنـقـصـة ونـقـمـة
أولـئـك خـمـسـة يُـبـكـىٰ عـلـيـهـم ... وبـاقـي الـنـاس تـخـفـيـفٌ ورحـمـة
وبـاقـي الخـلـق دهـمـاءٌ رعـاعٌ ... وفـي إيـجـادهـم لـلـه حـكـمـةْ

* وطلب العلم يحتاج إلىٰ جد واجتهاد، وهمة ونشاط، حكي أن الطلبة كانوا

يتناوبون مجلس أبي علي البغدادي، واتفق أنه كان يوم مطر ووحَل، فلم يحضر من الطلبة سوى واحد، فلما رأى الشيخ حرصه على الاشتغال وإتيانه في تلك الحال أنشده:

دَبَبْتَ للمجدِ والسَّاعُون قَدْ بَلَغُوا ... حَدَّ النفوسِ وأَلْقَوا دونه الأُزُرَا
وكابَدُوا المجدَ حتَّى مَلَّ أكثرُهم ... وعانقَ المجدَ مَنْ وافى وَمَنْ صَبَرا
لا تَحْسبِ المجدَ تمراً أنت آكِلَهُ ... لَنْ تَبْلُغَ المجدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرَا

* قال أبو نصر أحمد بن محمد بن عبدالقاهر خطيبُ الموصل: لما جئت إلى بغداد، قاصداً الشيخ أبا إسحاق الشيرازي، رحَّب بي، وقال: من أي البلاد أنت؟ فقلت: من الموصل، فقال: مرحباً أنت بَلَدِيِّي، فقلت: يا سيدنا، أنا من الموصل، وأنت من فيروز آباد؟ فقال: يا ولدي، أما جمعتنا سفينة نوح؟ فشاهدت من حسن أخلاقه، ولطافته، وزهده ما حبب إليَّ لزومه، فصحبته إلى أن مات. وكان الشيخ أبو إسحاق يقول: من قرأ علي مسألة فهو ولدي! ويقول: العوام يُنْسبون بالأولاد، والأغنياء بالمال، والعلماءُ بالعلم!

* قال أمير الشعراء أحمد شوقي في المعلم وشرف رسالته:

قُمْ للمعلم وفِّه التبجيلا ... كادَ المعلم أن يكون رسولا
أعلمتَ أشرفَ أو أجلَّ من الذي ... يبني وينشئ أنفساً وعقولاً
سُبْحانكَ اللهُمَّ خَيرَ معلِّمٍ ... علَّمت بالقلم القرون الأولى
أخرجت هذا العقل من ظلماته ... وهديته النور المبين سبيلا
أَرْسلت بالتوراة موسى مرشداً ... وابنَ البتول فعلَّم الإنجيلا
وفجَّرْتَ ينبوعَ البيان محمداً ... فسقى الحديث وناول التنزيلا

* وقال إبراهيم طوقان يعارض قصيدة شوقي:

شوقي يقول وما درى بمصيبتي ... قم للمعلم وفِّه التبجيلا
أُقْعُدْ فديتُك هل يكون مبجَّلاً ... من كان للنشئ الصغار خليلا؟
ويكادُ يفلُقُني الأمير بقوله ... (كاد المعلم أن يكون رسولا)
لو جرّب التعليم شوقي ساعةً ... لقضى الحياة شقاوة وخمولا
حسبُ المعلم غمةً وكآبةً ... مرأى الدفاتر بُكرة وأصيلا
مئةٌ على مئة إذا هي صُحِّحت ... وَجَدَ العمى نحو العيون سبيلا
فأنا أصحح غلطة نحوية ... مثلا وأتخذ الكتاب دليلا
مسترشداً بالغر من آياته ... أو بالحديث مفصلاً تفصيلاً
وأكاد أبعث سيبويه من الثرى ... وذويه من أهل العصور الأولى
وترى حماراً بعد هذا كله ... رفع المضاف إليه والمفعولا
لا تعجبوا إنْ صحْتُ يوماً صيحةً ... ووقعتُ ما بين البنوك قتيلا
يا من يريدُ الانتحار وجدته ... إن المعلم لا يعيش طويلا

التأليف

* قال ابن الجوزي رحمه الله: كتابُ العالِم ولده المخلد! وكانوا يقولون عن الكتب التي يخلفها المؤلفون: هي أولاد أفكاره وبنات بنانه.

* وقال أبو الفتح البستي:

يقولون: ذِكْرُ المرءِ يحيا بنسله ... وليس له ذِكْرٌ إذا لم يكن له نسل

فقلت لهم: نسلي بدائع حِكَمي ... فإنْ فاتنا نَسْل فإنا به نسلو

* وقال الشهاب الحجازي:

قالوا: إذا لم يخلفْ ميت ذكراً … ينسى، فقلت لهم في بعض أشعاري

بعد الممات أصحابي ستذكرني … بما أخلِّف من أولاد أفكاري

* وقال ابن الجوزي: ينبغي للإنسان أن يسعى في تحصيل ذرية تذكر الله تعالى بعده، فيكون الأجر له، أو يصنف كتاباً من العلم، فإن تصنيف العالم ولده المخلد.

* الكتب هي أعز ما يملك الإنسان، فهي التي حفظت بين دفتيها ومازالت تحفظ كل ما أنتجته البشرية من أعمال، وأنجبته من أفكار، وكل ما كسبته بلا استثناء.

* جمال ذي الأرض كانوا في الحياة وهم … بعد الممات جمال الكتب والسير

تأملات

* عندما نتكلم فكلنا أصحاب مبادئ، وعندما نعمل فكلنا أصحاب مصالح.

* الناس ثلاثة أنواع: أناس تصنعهم الأحداث، وأناس يصنعون الأحداث، وأناس يتفرجون على الأحداث.

* سعيد من يجد الصديق، والأسعد من لا يحتاج صديقاً!

* الحياة كالملاكمة أن تصمد وتتحمل وتنتظر المفاجآت!

* سألت إحدى السيدات كاتباً ظريفاً: هل صحيح أن الأدباء يفضلون النساء الثرثارات على الأخريات؟ فأجاب وقد ارتسمت الابتسامة على شفتيه: الأخريات.. أية أخريات؟!

* يستدل على نباهة الرجل من الماضين بتباين الناس فيه، ألا ترى أنَّ علياً كرم الله وجهه هلك فيه فئتان: محب أفرط ومبغض فرَّط!

العلماء.. بين الأنبياء والشهداء!

* من فضيلة العلم على المال، أن الله فهّم سليمان مسألة فمنَّ عليه وقال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ (الأنبياء: ٧٩) وأعطاه الملك ولم يمنّ عليه بل قال: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩)﴾ (ص: ٣٩).

* وقال ابن عباس رضي الله عنهما: العلم أفضل من المال، لأن العلم ميراث الأنبياء، والمال ميراث الفراعنة، ولأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، ولأن العلم لا يعطيه الله إلا لمن يحبه، والمال يعطيه من يحب ومن لا يحب، ولأن العلم لا ينقص بالبذل والإنفاق، والمال ينقص بهما، ولأن صاحب المال إذا مات انقطع ذكره، والعالم إذا مات فذكره باقٍ.

* وقال الشافعي رحمه الله: من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم.

* وقال: من تعلم القرآن عظُمت قيمته، ومن نظر في الفقه نُبل قَدْره، ومن نظر في اللغة رقَّ طبعه، ومن نظر في الحساب جَزُل رأيه، ومن نظر كتب الحديث قويت حجته، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه!

* وقال علي كرم الله وجهه: كفى بالعلم شرفاً أن يدعيه من لا يحسنه ويفرح به إذا نسب إليه، وكفى بالجهل ذماً أن يتبرأ منه من هو فيه!

* وقد رفع الله قدر العلم والعلماء، وأعلى مكانتهم ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة: ١١).

* وليس هناك أفضل من العلم، وأَعْظِمْ بدرجة تلت النبوة وسبقت الشهادة «يوزن يوم القيامة مِداد العلماء بدم الشهداء» وقد ميز الله الإنسان بالعلم عن سائر المخلوقات، والإنسان إنسان بما هو شريف لأجله وليس ذلك لقوته، فإن الجمل أقوى منه، ولا لعِظَمه فإن الفيل أعظم منه، ولا لشجاعته فإن السبع أشجع منه، ولا لأكله فإن الجمل أوسع بطناً منه، ولا لجِماعه فإن أخس العصافير أقوى على السِّفاد منه، بل لم يتميز إلا بالعلم.

* العلمُ مُبْلغ قوم ذروةَ الشرَفِ   وصاحب العلم محفوظ من التلفِ
يا صاحبَ العلمِ مهلاً لا تُدَنسه   بالموبقات، فما للعلمِ من خلفِ
العلمُ يرفعُ بيتاً لا عماد لهُ   والجهل يهْدم بيت العزِّ والشرفِ

* العلمُ يغرسُ كل فَضْلٍ فاجتهد   ألاّ يفوتكَ فضلُ ذاكَ المغْرَسِ
واعلم بأنَّ العلمَ ليس ينالُه   من همّه في مطعم أو ملبَسِ
إلا أخو العلم الذي يزهو به   في حالتيه عارياً أو مكتسي
فاجعل لنفسك منه حظاً وافراً   واهْجُر له طيب الرّقادِ وعبّس
فلعل يوماً إن حضرت بمجلس   كنت الرئيس وفَخْر ذاك المجلس

* العلمُ زَيْنٌ وتشريف لصاحبه   فاطلب هُديت فنون العلم والأدَبَا
كم سيِّدٍ بَطَلٍ آباؤه نُجُبٌ   كانوا الرؤوس فأمْسى بعدهم ذَنَبَا
ومُقرفٍ خاملِ الآباء ذي أدبٍ   نالَ المعاليَ بالآداب والرُّتَبا
العلمُ كنْزٌ وذخْرٌ لا فناء لهُ   نعم القرين إذا ما صاحِبٌ صَحِبا
قد يجمع المالَ شخصٌ ثم يحرمُهُ   عمَّا قليل فيلقى الذل والحَربا
وجامع العلم مغبوط به أبداً   ولا يُحاذِرُ منه الفوت والسلبا
يا جامع العِلمِ نعم الذخر تجمعه   ولا تعدلَنَّ به دُرّاً ولا ذَهَبَا

* والعلم نور والجهل ظلام، والعلماء سرج الأزمنة يستضاء بهم، ويهتدىٰ بنورهم. قال الأصمعي لرجل: ألا أدلك علىٰ خليل إن صحبته زانك، وإن احتجت إليه مانك، وإن استعنت به أعانك؟ قال: نعم، فقال: عليك بالأدب.

لذة العلم

* والعلماء وإن كانوا فقراء، ولا يجدون لذة العيش، فإنهم سُعداء بعلمهم ويشعرون بلذة تفوق كل لذائذ الدنيا وأطايبها. كان أحدهم إذا أخذته هزة المسائل يقول: أين الملوك من لذة ما نحن فيه؟! لو فطنوا لقاتلونا عليه! وقيل: من خلا بالعلم لم توحشه الخلوة، ومن تسلى بالكتب لم تفته السلوة. وقيل لابن المبارك: من تجالس؟ قال: أصحاب النبي ﷺ، إني أنظر في كتب آثارهم وأخبارهم. ولذلك فإنهم كانوا يحرصون على تعلم العلم حتى في أحرج الأوقات وأشد الساعات. لما حضرت ابن المبارك رحمه الله الوفاة، كان بالقرب منه رجل يكتب له العلم، فقيل له: في مثل هذه الحالة تتعلم؟! قال: لعل الكلمة التي تنفعني لم تبلغني بعد. وقيل له: لو أن الله تعالى أوحى إليك، أنك ميت العشية ما أنت صانع اليوم؟ قال: أطلب فيه العلم!

نِعْمَ الأنيس إذا خلوْتَ كتابُ ... تلهو به إن خانك الأحبابُ
لا مُفْشياً سراً إذا اسْتَوْدَعْتَه ... وتُفاد منه حكمةٌ وصوابُ

طلب الاستزادة

* والعالم يحرص على الاستزادة من العلم، لأن العلم بحر، وما وصل أعظم العلماء إلا لشواطئه ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)﴾ (الإسراء).

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)﴾ (طه) ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾ (يوسف).

* قيل: لما اجتمع موسى عليه السلام بالخضر جاء عصفور فأخذ بمنقاره من البحر قطرة، ثم حط قريباً منهما ثم طار، فنظر الخضر إلى موسى عليه السلام، وقال: يا نبي الله، إن هذا العصفور يقول: يا موسى أنت على علم من علم الله علمكه الله لا يعلمه الخضر، والخضر على علم من علم الله علمه الله إياه لا تعلمه أنت، وأنا على علم من علم الله علمنيه الله، لا تعلمه أنت ولا الخضر، وما علمي وعلم الخضر في علم الله إلا كهذه القطرة من هذا البحر! ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ (البقرة: ٢٥٥).

* وقال قتادة: لو كان أحد منا مكتفياً من العلم لاكتفى نبي الله موسى عليه السلام إذ قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦)﴾ (الكهف).

* ولا يزال المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم، فقد جهل! وطالب العلم لا يشبع منه: منهومان لا يشبعان، طالب دين وطالب دنيا. وقيل: الشَّرَه في المال دناءة، وفي العلم نباهة! والقلب كلما أفرغت فيه العلم زاد اتساعاً. وكل إناء يفرغ فيه شيء فإنه يضيق إلا القلب، فإنه كلما أفرغ فيه علم اتسع.

* وقد دعا الحكماء إلى أن يتناول العالم من كل العلوم طرفاً، ولا يقتصر على فن واحد منه. وقيل: من لا يعلم إلا فناً واحداً من العلم، سمي الخصي من العلماء!

* قال ابن سيرين: العلم أكثر من أن يحاط به، فخذوا من كل شيء أحسنه.

وقال ابن عباس: العلم كثير فارعوا أحسنه. وقال: ذللت طالباً فعززت مطلوباً. وقيل لدَغْفل النسابة: بم أدركت ما أدركت من العلم؟ فقال: بلسان سؤول، وقلب عقول، وكنت إذا لقيت عالماً أخذت منه وأعطيته.

* وقالوا: إذا جالست العلماء، فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول!

مخالطة الجهال

* وطالما أن الجهل خسة وظلام، فإن عدم الاكتراث بالجاهل أمر طبيعي، ومن يأبه بمن انحط إلى مستوى البهائم؟! كان الوليد بن يزيد يلاعب عبدالله بن معاوية بالشطرنج فاستأذن عليه ثقفي موصوف بالثروة، فستر الشطرنج بمنديل، فلما دخل وجلس استنطقه فقال: أحفظت القرآن وشيئاً من الفقه؟ قال: لا، يا أمير المؤمنين، شغلتني عنهما أمورٌ وهَنات. قال: أَفَرويْت شيئاً من الآثار والأشعار وأيام العرب؟ قال: لا! قال: فكشف المنديل عن الشطرنج وقال: العب، فقال عبدالله بن معاوية: يا أمير المؤمنين! قال: اسكت فما معنا أحد!

* ودخل حكيم دار رجل جاهل، فرأى أثاثاً وهيئة فاخرة، فأراد الحكيم أن يبزق،

فبزق على الرجل، فقيل له: ما تفعل؟ قال: نظرت فلم أجد في هذه الدار أخس منه لخلوه من المعاني الفاضلة، وإنما يرمى بالبزاق إلى أخس المواضع، فلذلك رميت به عليه! وهذا التصرف من الحكيم فيه حماقة ولا يليق بمثله.

* وقد نفّر العقلاء والعلماء من الجهال فلم يجالسوهم أو يخالطوهم، لأن في مجالسة الجاهل مرضاً للعاقل. قال أبو الأسود: إذا أردت أن تُعذِّب عالماً فاقرن به جاهلاً! وقالوا: إذا أردت أن تُفْحم عالماً فأحضره جاهلاً. وفي الحكم «ارحموا عالماً بين جهال».

* ويروى عن الشافعي رحمه الله أنه قال: ما جادلني عالم إلا غلبته، وما جادلني جاهل إلا غلبني! والجاهل يجاب على قدر عقله وإدراكه. سأل رجل جاهل عمرو بن قيس عن الحصاة يجدها الإنسان في ثوبه أو في خفه أو جبهته من حصى المسجد، فقال: ارم بها، قال: زعموا أنها تصيح حتى ترد إلى المسجد! فقال: دعها تصيح حتى ينشق حلقها، فقال: سبحان الله، ولها حلق؟ قال: فمن أين تصيح؟!

صيانة العلم

* وينبغي للعالم أن يصون علمه، فلا يمنحه لغير أهله ولا يمنعه أهله ومستحقه، وأن لا يُذلَّ نفسه. وجه الرشيد إلى مالك بن أنس رحمه الله ليأتيه فيحدثه، فقال مالك: إن العلم يؤتى! فذهب الرشيد إلى منزله فاستند معه إلى الجدار، فقال: يا أمير المؤمنين، من إجلال الله تعالى إجلال العلم، فقام وجلس بين يديه! وبعث إلى سفيان بن عيينة فأتاه وقعد بين يديه وحدثه! فقال الرشيد بعد ذلك: يا مالك تواضعنا لعلمك فانتفعنا به، وتواضع لنا علم سفيان فلم ننتفع به!

* وفي أمثال العرب: تحاكم الثعلب والغراب إلى الضب فقالا: اخرج واحكم بيننا، فقال: في بيته يُؤْتى الحَكَم!

* ودنا سقّاء من فقيه على باب سلطان فسأله عن مسألة! فقال: أهذا موضع المسألة؟ قال السقاء: أو هذا موضع الفقيه؟!

* ويروىٰ أن المسيح عليه السلام قال: لا تضعوا الحكمة في غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، وكن كالطبيب الحاذق يضع الدواء حيث يعلم أنه يُنتفع به.

* وقال: يا بني إسرائيل، لا تطرحوا الدّرّ بين أيدي الخنازير فتطؤه وهي لا تعرفه!

* قال الشافعي رحمه الله:

ومن مَنَحَ الجهال علماً أضاعه ... ومن مَنَع المستوجبين فقد ظَلَمْ

* ولذلك كرهوا تعليم الأوغاد ومن لا يقدّر قيمة العلم ويصونه ويحفظه. لا تعلمنّ الدنيء علماً يستفيده منك ويصير به عدواً لك، فلأن يتّضع ألف من عليين أولىٰ أن يرتفع دنيء واحد!

* وقيل لأبي سنان: تموت وتُدخل علمك معك القبر؟ فقال: ذاك أحب إلي من أن أجعله في إناء سوء!

* ورأىٰ حكيم رجلاً يعلم دنيئاً علماً فقال له: أَتَبْرِي سهماً تُرْمىٰ به يوماً؟!

أُعلِّمه الرماية كل يوم ... فلما اشتد ساعدُه رماني

وكم عَلَّمْتُهُ نَظْمَ القوافي ... فلما قال قافيةً هَجَاني!

* قال بعضهم: رأيت في منامي رجلاً يعدو والماء خلفه يناديه! فعبِّر بأنه رجل يفر من العلم، وعالم يناديه ليفيده وهو يمتنع منه.

لا أدري

* وإذا تأكد أن أي عالم لا يحيط بكل العلوم فليس عيباً إذا سئل عن مسألة فلم يعرفها أن يقول: لا أعلم. وفي الأثر: «إذا أخطأ العالم قول لا أدري فقد أصيبت مقاتله» وسئل الشعبي عن مسألة فقال: لا أدري، فقيل: ألا تستحي من قولك هذا وأنت فقيه العراقين - الكوفة والبصرة -؟ فقال: إن الملائكة لم تستح إذ قالت ﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾

(البقرة: ٣٢). تكلم شاب يوماً عند الشعبي بكلام.. فقال الشعبي ما سمعنا بهذا! فقال الشاب: أكل العلم سمعت؟ قال: لا، قال: فشطره؟ قال: نعم، قال: فاجعل هذا في الشطر الذي لم تسمعه، فأفحم الشعبي!!

* وقال علي رضي الله عنه، في جملة نصائح: ولا يستحي مَنْ لا يعلم أن يتعلم، ولا يستحي إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: الله أعلم.

* ويروىٰ أن الإمام مالك رحمه الله سئل عن أربعين مسألة فأجاب عن أربع ولم يعرف البقية، فقيل له: ماذا نقول للناس؟ فقال: قولوا لهم: قال مالك: لا أدري! قالوا: كلمة لا أدري نصف العلم. وقد لاطف بعض الظرفاء من قال هذه الكلمة، فقالوا له: لكنه النصف الأخس! وقال رجل عن مسألة: لا أدري. وهي نصف العلم. فقيل له: فقلها مرتين، تحز العلم كله!

العالم قدوة

* ومن نصب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، فإن تأثير الحال أقوىٰ من تأثير المقال، والكلام إذا خرج من القلب استقر في القلب، وإذا خرج من اللسان لم يجاوز الآذان!

* قال أبو الأسود الدؤلي:

حسدوا الفتىٰ إذ لم ينالوا سعيه ... فالقوم أعداء له وخصوم
وترىٰ اللبيبَ مُحسَّداً لم يجترم ... شتمَ الرجال وعرضه مشتومُ
وكذا من عظُمت عليه نعمةٌ ... حُسَّاده سيفٌ عليه ضرومُ
فاترك مجاراة السفيه فإنها ... ندمٌ وغِبٌّ بعد ذاك وخيم
فإذا جريت مع السفيه كما جرىٰ ... فكلاكما في جرْيه مذموم
وإذا عتبتَ علىٰ السفيه ولُمْتَه ... في مثل ما تأتي فأنت ظلومُ

يا أيها الرجلُ المُعَلِّمُ غيرَه ... هلاَّ لنفسك كان ذا التعليمُ
تَصفُ الدواءَ لذي السقامِ وذي الضنى ... كيما يصحَّ به وأنتَ سقيمُ
ونراك تُصْلِحُ بالرشادِ عقولَنا ... أبداً وأنت من الرشادِ عديمُ
فابدأ بنفسك فانْهها عن غَيِّها ... فإذا انتهتْ عنهُ فأنتَ حكيمُ
فهناك يُقْبَلُ ما تقولُ ويُهْتدى ... بالقولِ منكَ وينفعُ التعليمُ
لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتي مثلَهُ ... عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ!

* قال أبو تمام:

إذا جاريت في خُلُقٍ دنيئاً ... فأنت ومَنْ تُجاريه سواءُ
رأيت الحُر يجتنبُ المخازي ... ويحميه عن الغَدْرِ الوفاءُ
وما من شدّة إلا سيأتي ... لها من بعد شدتها رخاءُ
لقد جربتُ هذاالدهر حتى ... أفادتني التجاربُ والعناءُ
يعيش المرءُ ما استحيا بخير ... ويبقى العود ما بقي اللحاءُ
إذا لم تخش عاقبة الليالي ... ولم تستح فاصنع ما تشاءُ

* نظر رجل إلى امرأته وهي صاعدة على السلم فقال لها: أنت طالق إن صعدت، وطالق إن نزلت، وطالق إن وقفت! فرمت نفسها إلى الأرض!! فقال لها: فداك أبي وأمي، إنْ مات الإمام مالك احتاج إليكِ أهل المدينة في أحكامهم!

* زَلَّة العالم مضروب بها الطبل، وزلّة الجاهل يخفيها الجهل! العامل بغير علم كالسائر على غير طريق.

* ازدحم الناس يوماً على باب ابن عيينة أيام الموسم، وبالقرب منه رجل من العجم قد حطَّ رَحْله، فَدِيس وكُسِر ما كان معه، وانْتُهب طعامه، فقام يسير إلى سفيان ويدعو

ويقول: إني لا أُحِلّ لك ما صنعت! فقال سفيان: ما يقول؟ فقال بعض الظرفاء: يقول لك: زدنا في السماع رحمك الله!!

تأملات

* كان لأبي الأسود الدؤلي - ظالم بن عمرو - جيران في البصرة يخالفونه في الاعتقاد ويؤذونه، وكانوا يرجمونه في الليل بالحجارة ويقولون له: إنما يرجمك الله تعالى! فكان يقول لهم: كذبتم، لو رجمني الله لأصابني، وأنتم ترجمون فلاتصيبونني! ثم باع داره، فقيل له: بعت دارك؟ فقال: بل بعت جاري! فأرسلها مثلاً!

* قال أبو العلاء المعري:

الناس للناس من بدوٍ وحاضرة   بعضٌ لبعض وإن لم يشعروا خَدم

* قيل للحسن البصري رحمه الله: ما سر زهدك في الدنيا؟ فقال أربعة أشياء:

- علمت أن رزقي لا يأخذه غيري فاطمأن قلبي..

- وعلمت أن عملي لا يقوم به سواي فاشتغلت به..

- وعلمت أن الله مطلّع علي فاستحييت أن يراني على معصية.

- وعلمت أن الموت ينتظرني فأعددت الزاد للقاء الله..!

* كان أرسطو يقول: إن الموت والحياة سواء فقال له أحدهم: ما دام الأمر كذلك فلم لا تقتل نفسك؟ فأجاب: قلت إنهما متساويان، ولم أفضل الموت على الحياة!

* متى يكمل البنيان يوماً تمامه   إذا كنت تبنيه وغيرك يهدمُ

ولو ألف بانٍ خلفهم هادمٌ كفى   فكيف ببانٍ خلفه ألف هادم

علو الهمة وعزة النفس

يقول القاضي الجرجاني:

يقولون لي: فيك انقباضٌ وإنما رأَوْا رجلاً عن مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحجَمَا
أَرىٰ النّاسَ من داناهُمُ هانَ عندهم ومن أكرمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكرِما
ولم أَقضِ حَقَّ العلم إن كنتُ كلَّما بدا مَطْمَعٌ صَيَّرتُه لي سُلَّماً
وما زِلتُ منُحازاً بعِرْضيَ جانباً عن الذُّلِّ أعتَدُّ الصِّيانةَ مَغْنَمَاً
إذا قيل: هذا مَنْهَلٌ قلتُ: قد أَرَىٰ ولكنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحتَمِلُ الظَّمَا
أُنزِّهُهَا عن بعضِ ما لا يَشِينُها مَخافَةَ أقوالِ العِدَا: فِيمَ أو لِمَا؟
فأُصْبِحُ عن عَيْبِ اللئيم مُسلَّماً وقد رُحْتُ في نفس الكريم مُعَظَّما
وإني إذَا ما فاتَنِي الأمرُ لم أَبِتْ أُقلِّبُ كَفِّيْ إِثْرَهُ مُتَنَدِّمَا
ولكنه إن جاء عَفْواً قَبِلْتُه وإنْ مالَ لم أُتبِعْهُ: هَلاَّ ولَيْتَمَا
وأَقبِضُ خَطْوي عن حُظوظٍ كثيرةٍ إذا لم أَنَلْها وافِرَ العِرضِ مُكْرَما
وأُكرِمُ نفسي أن أُضاحِكَ عابِساً وأنْ أَتلَقَّىٰ بالمديحِ مُذَمَّماً
وكَمْ طالبٍ رِقِّي بنُعْمَاهُ لم يَصِل إليه وإن كان الرئيسَ المُعَظَّما
وكم نِعمةٍ كانت علىٰ الحُرِّ نِقْمَةً وكم مَغْنمٍ يعتدُّهُ الحُرُّ مَغْرَما
ولم أَبتذِل في خِدمة العلمِ مُهْجَتي لأِخْدُمَ من لاقَيْتُ لكِنْ لأُخْدَما
أَأَشْقَىٰ به غَرْساً وأَجنيه ذِلَّةَ إذاً فاتِّبَاعُ الجهلِ قد كان أحْزما
وإني لَراضٍ عن فَتىٰ مُتعَفِّفٍ يَروحُ ويَغدُو ليس يَملِكُ دِرْهَما
يَبِيتُ يُراعِي النجمَ من سُوءِ حالِهِ ويُصبحُ طَلْقاً ضاحِكاً مُتَبَسِّمَا

ولا يَسْـألُ المُثْرِيـن مـا بـأكُـفِّـهِـمْ ... ولو مـاتَ جُـوْعـاً عِـفَّـةً وتـكـرُّمَـا

فإنْ قلـتَ: زَنْـدُ العلـمِ كـابٍ، فإنما ... كَبَا حين لم نَحرُسْ حِماهُ وأظلَمـا

ولو أنَّ أهلَ العلمِ صانوهُ صَانَهُمْ ... ولو عَظَّمُوه في النفوسِ لعَظَّمـا

ولكنْ أهانوهُ فهانُـوا ودَنَّسُـوا ... مُحَيَّاهُ بالأطماعِ حتى تَجَهَّما!(١)

وما كلُّ بَرْقٍ لاحَ لي يَستفزُّني ... ولا كلُّ من لاقَيْتُ أرضاهُ مُنْعِما

ولكن إذا ما اضطرَّني الضُّرُّ لم أَبِتْ ... أُقلِّبُ فِكري مُنْجِداً ثم مُتْهِما(٢)

إلى أن أرىٰ ما لا أَغَصُّ بذكرِهِ ... إذَا قلتُ: قد أَسدَىٰ إليَّ وأنعَمَا

* قال التاج السبكي رحمه الله تعالىٰ(٣)، بعد أن أوردَ هذه القصيدةَ الفائقةَ في ترجمة القاضي أبي الحسن الجُرجاني رحمه الله تعالىٰ: للّه هذا الشعرُ ما أبلغَهُ وأصنَعَه! وما أعلىٰ علىٰ هَامِ الجَوْزَاءِ مَوْضِعَه! وما أنفَعَهُ لو سَمِعهُ مَنْ سَمِعَه! وهكذا فليكُنْ ـ وإلاَّ فَلا ـ أدبُ كلِّ فقيه، ولِمثلِ هذا الناظمِ يحسُنُ النظمُ الذي لا نظير لهُ ولا شبيه، وعند هذا يَنطَبِقُ المنصف بعظيم الثناء علىٰ ذهنه الخالص لا بالتمويه!

---

(١) محياه: وجهُهُ. وتجهَّمَ: صار جَهْماً، وهو الكريهُ المنظر.

(٢) قوله: الضُّرُّ، أراد به هنا شِدَّة الإملاق والفاقة. ومُنجداً: متجهاً جهةَ نجد، وهي بلاد كثيرة تقع تقريباً في شرق بلاد الحجاز من جزيرة العرب، ومنها مدينة الرياض الآن. ومُتْهِماً: متجهاً جهة تِهَامة، وهي بلاد كثيرة تقع في غرب جزيرة العرب، ومنها مكة والمدينة وجُدَّة، وهذا منه كناية عن التلفتِ إلىٰ الناس يميناً وشمالاً، بُغيَةَ أن يجد منهم من يدفع عنه العَوَزَ والفقر.
يقول في هذين البيتين الأخيرين: إني لا أفعلُ ذلك، بل إني إذا نزل بي الضُّرُّ، وأطبَقَ عليَّ الإملاق لستُ من يَبيتُ الليالي الطوال، ساهراً قلقاً مفكراً، باحثاً عمن يكشفُ غُمَّتَهُ ويُزيلُ غُصَّتَهُ من الكرام النبلاء، الذين لا يجدُ الأبيُّ غضاضة في قبوله إسداء المعروف منهم، بل إني أشمخُ وأعلو بتجلدي وصبري فوق الشدة واللأواء، إعزازاً للعلم وشَمَماً وإباءَ نفس.
وبات يُريني الخطبُ كيف اعتداؤه ... وبتُّ أُريه الصبر كيف يكونُ

* عن كتاب: صفحات من صبر العلماء للشيخ عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله.

(٣) طبقات الشافعية الكبرىٰ للسبكي: ٣/ ٤٦١ ط دار إحياء الكتب العربية.

الكتابة والكُتّاب.. والخط والخطاطون

في كثير من الأحيان تتبدل بعض المعاني، وتستعمل الألفاظ لغير معناها الأصلي الذي وضعت له، فيغلب المعنى الجديد الأصلي الصحيح على مر الأيام وخاصة في زمن المتغيرات وعالم المتناقضات. وهذا ما طرأ على كلمة «محرّر» فاليوم تعني الشخص الذي يكتب الأخبار ويجمع المقالات وينقحها، وفي الأصل وضعت هذه الكلمة لـ «الخطاط». حيث كان الكاتب يصوغ الخبر أو القرار للملك ويعطيه لـ «المحرر» ليكتبه بخطه الجميل الأنيق. وبالطبع فالمعنى الأصلي لا ينطبق على محرري الصحف إطلاقاً! وحسن الخط اليوم يبدو غريباً في الوسط الصحفي «وطوبى للغرباء». ولو أن كتابة الجرائد تتم بخط اليد، وأن كل «محرر» يسطر خبره وزاويته بخطه، ويوزع على القراء بهذا الشكل لرأينا العجائب والغرائب، ولاحْتَجْنا في حلّ ألغاز الخطوط وطلاسم الكتابة إلى قواميس لا تدرك إلا في عالم الوهم والخيال!! ولرأينا أشكالاً وأنواعاً من الخطوط لم يعرف الأوائل لها مثيلاً. فمن رحمة الله أن وُجدت المطابع لتستر على «المحررين» وغيرهم ممن ساءت خطوطهم، وحظوظهم! ومن النعمة الكبرى أيضاً ظهور معاهد لتحسين الخطوط وتجميلها وأجهزة الكمبيوتر.

الخط الجميل

* وفي عصر انتشار الثقافة الإسلامية وازدهارها كان للوراقين و«المحررين» سوق رائجة، ومكانة مرموقة. وكانوا يتبارون في حسن الخط والإجادة والإبداع فيه حتى أنهم عابوا من لا يحسن الخط وقالوا عنه: تلك الزِّمانة الخفية.

* وقالوا: الخط لسان اليد، والخط الحسن يزيد الحق وضوحاً، والقلم أحد اللسانين، والخط هندسة روحانية ظهرت بآلة جسمانية، والعلم شجر و الخط ثمر.

* القلم صائغ الكلام، يفرغ ما يجمعه العلم.

* وقالوا: عقول الرجال في أطراف أقلامها.

* وقال أحدهم: لم أر باكياً أحسن تبسماً من القلم.

* ومن أعجوبة الخطوط كثرة اختلافها مع اتفاق أصولها، كاختلاف الأشخاص مع اتفاقها في الصنعة. وعجب بعض الكتاب من إلحاق القافة بالولد، بالشبه، فقال له قائف: أعجب من هذا ما يبلغنا من تمييزكم الخطوط وإلحاق كل بصاحبه!

* وحكي أن رجلاً ادعى على آخر بخط له معه، فجحد المدَّعى عليه خطه، فتحاكما إلى سليمان بن وهب، فأحضر الخط، وأملى على الرجل كتاباً طويلاً، ردد فيه الحروف، فتصنّع الرجل في كتابته فأبت سجيته في أحرف إلا أن تأتي كما جرت به عادته، فتبين لسليمان كذبه، فاستقضى عليه حتى اعترف بخطه!

* قال بعضهم في قبح خطّه:

جزعت من قُبح خطي ... وفيه وضعي وحَطِّي
رجعتُ من بعد حذقي ... إلى تعلُّم حُطِّي

ونظر عبدالله بن طاهر إلى خط بعض كتّابه فلم يرضه فقال: نحُّوا هذا عن مرتبة الديوان، فإنه عليل الخط، ولا يُؤمن أن يُعْدي غيره!

* ومما ورد في تفضيل الخط الحسن: أن الحسن بن رجاء نظر إلى خط حسن فقال: متنزه الألحاظ، ومجتنى الألفاظ.

* وقالوا: فلان فصيح القلم.

* ونظر أعرابي إلى كاتب بين يدي المأمون فقال: ما رأيت أطيش من قلمه وأثبت من حُكْمه.

* وسئل ابن المستنير عن خط وزير ليس بالجيد فقال: رأيت حظه أحسن من خطّه!

* وكل صناعة تحتاج إلى ذكاء واحد إلا الكتابة فإنها تحتاج إلى ذكائين: جمع المعاني بالقلب، والحروف بالقلم.

* ومن المعروف أن بعض الناس يقرؤون ولا يكتبون، وكان بعضهم يكتب ولا يقرأ! وكان عمر بن هبيرة والي العراق يحفظ جمل حسابها ولا يكتب! وقالوا: كتاب الرجل منبئ عن عقله.

* قال يزيد بن المهلب لابنه حين استخلفه على خراسان: إذا كتبت كتاباً فأكثر النظر فيه، فإنما هو عقلك تضع عليه طابعك، وإن كتاب الرجل موضع عقله، ورسوله موضع رأيه.

* وقال زياد: ما قرأت كتاباً قط إلا عرفت مقدار عقل مرسله فيه!

* ومما عابه الأولون في الخط والكتابة كثرة الحك و«الشطب» حتى قالوا: من كثر شكه جاد حكّه.

* وقال أديب لجماعة من الكتاب رأى في كتاباتهم حكّاً كثيراً: ما زلتم تغلطون وتحكون حتى حذقتم في الحك!

* ورأى الصاحب حَكّاً كثيراً في حساب دُفع إليه فقال: أرى فيه تأثير السكين أكثر من تأثير القلم!

* وكتب رجل كتاباً وعرضه على آخر، فقال: فيه خطأ كثير. فقال الكاتب: عَلِّم على الخطأ لأصلحه، فقال: بل أعلم على الصواب فهو أسهل!!

الكُتّاب

* وقد مدح الله الكتابة والكتاب حيث جعل سبحانه كتبة الملائكة كراماً كاتبين ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾ (الانفطار). والآيات والأحاديث والآثار التي تدل على فضل العلم والتعلم والكتابة والكتاب كثيرة. ويروى أن رسول الله ﷺ أوصى كاتباً فقال: «ضع القلم على أذنك فإنه أَذْكر للمُمْلي به».

* كل علم ليس في القِرطاس ضاع　　　كل سر جاوز الإثنين شاع

ويكفي الكتابة والخط فضلاً أن فيهما حفظ العلم وصيانته، وفي الحديث «قيدوا العلم بالكتاب». رواه الطبراني وأبونعيم.

العلمُ صيدٌ والكتابة قَيْدُه ... قيِّدْ صيودَك بالحِبالِ الواثقة
فمِنَ العجائب أن تصيدَ غزالةً ... وتَدَعَهَا بينَ الأَنامِ طالقة

* أمر أبو جعفر المنصور بسجن طائفة من الكتاب غضب عليهم، فكتب إليه بعضهم من طريق السجن:

أطالَ الله عُمْرَكَ في صَلاحٍ ... وعزٍّ يا أميرَ المُؤْمِنينَا
بعفْوِكَ نستجيرُ فإنْ تُجِرْنا ... فإنك رحمةٌ للعالمينَا
ونحنُ الكاتِبُون وقد أسَأْنا ... فَهْبنا للكِرَامِ الكاتِبِينَا!

فعفا عنهم وأمر بتخليتهم!

* وقالوا: من أول ما ينبغي للكاتب أنْ يأخذ به نفسه حُسْن الخط، ومن الوصايا في تعليم الخط: لا تكتب حرفاً حتى تَسْتفرغ مجهودك في كتابة الحرف، وتجعل في نفسك أنك لا تكتب غيره حتى تعجز عنه، ثم تنتقل إلى ما بعده.

* ولا يكون الكاتب كاتباً حتى يتمكن من البلاغة ويأخذ بناصية الأدب ويتمرس في العربية، فينطق ويكتب بلا تكلف ولا استكراه أو اغتصاب.

* جاء صديق لكلثوم العتابي فقال: اصنع لي رسالة، فاستعدّ مدة ثم علّق القلم، فقال له صاحبه: ما أرى بلاغتك إلا شاردة عنك، فقال: إني لما تناولت القلم تداعَتْ عليّ المعاني من كل جهة فأحْبَبْتُ أن أترك كل معنى حتى يرجع إلى موضعه ثم أجْتَني لك أحْسنها!!.

* ومثل هؤلاء هم الذين يتذوقون بلاغة القرآن الكريم ويدركون إعجازه ويعرفون فضله، وأن لا طاقة للبشر بالإتيان بمثله، فكان أحدهم يطرب لسماع آية قرآنية أعجب ببلاغتها أو فصاحتها وبيانها فكان عقله يسجد لها قبل بدنه!

* سمع أعرابي رجلاً يتلو قول الله تعالىٰ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ (الحجر: ٩٤) فسجد وقال: سجدت لفصاحته!

* وفي قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمانَ وإِنَّهُ بِسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ ألا تَعْلُوا عليَّ وَأْتُوني مُسلمينَ﴾ (النمل: ٣٠-٣١) من البلاغَة والإعجاز، أنْ جمع في ثلاث كلمات بين العنوان والكتاب والحاجة.

* سمع الأصمعي جارية تتكلم فقال لها: قاتلك الله ما أفْصَحَكِ! فقالت: أوَ يُعَدُّ هذا فصاحةً بعد قول الله تعالىٰ: ﴿وأَوْحَيْنا إلى أُمِّ موسىٰ أنْ أرْضِعيه فإذا خِفْتِ عليه فألْقيه في اليَمِّ ولا تَخَافي ولا تَحْزَني إنّا رَادُّوهُ إليكِ وجاعِلُوهُ من المُرْسلين﴾ (القصص: ٧) فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخَبرَيْن وبِشَارتين!

الرسائل

* ومما أشار إليه الأولون في الكتب والرسائل: ضرورة ختم الكتاب وعنوانه، وكان الحال قبل ذلك، أن الكتب كانت مشهورة يُقرأ ما فيها، وغير مُعنونة ولا مختومة حتىٰ كُتبت صحيفة المتلمس، فلما قرأها خُتمت الكتب وعُنْونت. وكان يُؤتىٰ بالكتاب فيقال: مَنْ عُنِيَ به؟ فسمّي عنواناً! وقالوا: من كرامة الكتاب ختمه. ولابد من تأريخ الكتاب، لأنه لا يُدلّ علىٰ تحقيق الأخبار وقرب عهد الكتاب وبُعده إلا بالتاريخ، فإذا أردت أن تُؤرّخ كتابك فانظر إلىٰ ما مضىٰ من الشهر وما بقي منه فإنْ كان ما بقي أكثر من نصف الشهر، كتبت: لكذا وكذا ليلة مضتْ من شهر كذا، وإنْ كان الباقي أقلّ من النصف، جعلت مكان مضت: بقيتْ.

* كتبَ بديعُ الزَّمانِ الهَمذَاني إلىٰ مُعلِّمه كتاباً قال فيه: واثنان قلَّما يجتمعان، الخراسانيةُ والإنسانيةُ، وإني وإنْ لم أكُنْ خُراسنيَّ الطينة، فإنِّي خُراسانيّ المدينة، والمرءُ من حيث يوجد، لا من حيث يُولد، والإنسان من حيث يَثْبُتُ، لا من حيث يَنْبتُ، فإذا انضاف إلىٰ تُرْبة خراسان، ولادة همذان، ارتفع القلم، وسقط التكليف، والجَرْحُ جُبَار.

أي هدر لا أرش فيه ولا مؤاخذة ـ والجاني حمار، فليحملني على هناتي ـ عيوبي وسوءاتي ـ أليس صاحبنا يقول:

لا تَلُمْني على رَكَاكةِ عَقْلي   إنْ تَصوَّرْتَ أنني همذاني

* وللعرب أساليب وطرق في كتابة الرسائل التي تتضمن الأسرار التي يجهدون في ألا يطلع عليها سوى المرسلة إليه. فمن ذلك أنهم كانوا يعمدون إلى كتابتها باللبن والحليب، فَيَذُرُّ المكتوب له عليها رماداً سُخْناً من رماد القراطيس، فيظهر ما كتب فيها!!

* وقالوا: إنْ أحببْتَ أن لا يُقْرأ الكتاب بالنهار ويُقرأ بالليل، فاكتبه بمرارة السّلحفاة!

* قال كاتب في القلم: ما عبراتُ الغواني في خُدودهن بأحسن من عبرات الأقلام في خدود الكتب!

* وذكر أحدهم القلم فقال: أصمّ يسمع النّجْوىٰ أعيا من باقل، وأبلغ من سحبان وائل، يُجهل الشاهد، ويخبر الغائب، ويجعل الكتب بين الإخوان ألسُناً ناطقة، وأعيُناً لاحظة، وربما ضمّنها من ودائع القلوب ما لا تبوح به الألسن عند المشاهدة!

* كان الكاتب الصحافي يفض بريده اليومي، فعثر على رسالة لم يجد فيها إلا كلمة واحدة هي: حمار.. وفي صباح اليوم التالي نشر الصحفي صورة لهذه الرسالة وكتب تحتها التعليق التالي: من عادة الناس أن يكتب بعضهم خطاباً ثم ينسى أن يوقع بإمضائه، ولكن صاحب هذه الرسالة قد ابتكر عادة جديدة فكتب توقيعه ثم نسي أن يكتب الرسالة!

* سأل بعض الأكابر إنساناً فقال له: هل تعرف لعب الشطرنج؟ فقال لا يا مولانا! ولكن لي أخ اسمه عز الدولة، كان حصل بيني وبينه خصومة فسافر من مدة أعوام عشرة، وسكن مدينة في المغرب، وبلغني أنه فتح دكان عطارة، وإلى الآن لم يصلني منه أي كتاب، وقد سألته مرة إن كان يستطيع أن يعلمني الشطرنج فأجاب بأنه لا يعرف!!

أقصر الرسائل

* سئل جعفر بن يحيىٰ البرمكي عن أوجز كلام فقال: قول سليمان عليه السلام إلىٰ ملكة سبأ (بلقيس): ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١)﴾ (النمل).

* أرسل الكاتب الفرنسي فيكتور هيجو رسالة إلىٰ ناشر كتابه «البؤساء» يريد أن يسأله فيها عن عدد النسخ المباعة من هذه الرواية فكتب في الرسالة فقط إشارة الاستفهام«؟» فكانت هذه أقصر رسالة معروفة، وجاءه الرد ظريفاً أيضاً حيث رد عليه الناشر في رسالة كتب فيها« ! » إشارة التعجب.

* أُتي الحجاج بن يوسف الثقفي بصندوق مقفل.. كان قد غنمه من كسرىٰ.. فأمر أن يكسر فكسر.. فإذا بداخله صندوق آخر مغلق.. فقال الحجاج لمن في مجلسه.. من يشتري مني هذا الصندوق؟ قال أحد الحاضرين: أنا أشتريه بمبلغ خمسة آلاف دينار.. قال الحجاج: بعتك الصندوق، وتقدم المشتري ليفتح الصندوق.. ويسعد بما فيه.. فإذا به رقعة مكتوب عليها: من أراد أن تطول لحيته فليمشِّطها إلىٰ أسفل!!

* وقالوا: القلم أحدُ اللسانين، والعمّ أحد الأبوين، والتَّثبّتُ أحد العفوين، والمطل أحد المنعين، وقلّة العيال أحد اليَسارين، والقناعة أحد الرزقين، والوعيد أحد الضَّرْبين، والإصلاح أحد الكَسْبين، والرواية أحد الهاجيين، والهَجْر أحد الفراقين، واليأس أحد النُّجحين، والمزاح أحد السَّبابين.

تأملات

* سمع عمر بن عبدالعزيز رجلاً ينادي: يا أبا العمرين! فقال: لو كان عاقلاً لكفاه أحدهما!.

* قال بعضهم: إنْ مُنعْت من الكذب، انشقَّتْ مراراتي!

مَلَكة الحفظ والذكاء

* قد يكون للمَدَنيّة الحديثة وما أنتجته من وسائل الرفاهية، وما طرأ على الحياة من تعقيدات، وكثرة مشاغل، تأثيرٌ على الذكاء وملكة الحفظ لدى الإنسان، نتيجة تشتت الذهن وتراكم الأحداث وزحمتها في العقل: فقديماً كان العربي سريع الحفظ حاضر البديهة، متوقد الذهن، مصقول الفكر نقي القلب، وكان من عادة العرب إرسال أبنائهم إلى البادية، لطيب هوائها ونقاء جوها وبدائية حياة أهلها، لبعدهم عن ضجيج المدينة وصخبها ولغطها، فينشأ الصبي صافي الذهن حادّ الذكاء، فيحفظ ما يسمع ولا ينسى ما حفظ. ونعلم أن نبينا المصطفى ﷺ قد استُرضع في بادية بني سعد، جرياً على عادة قومه في إرسال أبنائهم بعيداً عن المدينة.

* وكانت العقول هي سجل الأحداث ودواوين الأشعار، ومعرفة الأنساب والوقائع. قال الأصمعي: ما بلغت الحُلُم حتى رويت اثني عشر ألف أرجوزة للأعراب! فقال له رجل: منها البيت والبيتان، فقال: ومنها المائة والمائتان!

* الأرجوزة: قصيدة من بحر الرجز.

* وكان أحدهم يحفظ كتاب الأغاني للأصفهاني، والكتاب يقع في واحد وعشرين جزءاً وقال: إنه من أقل محفوظاته، ولما امتحنوه من أوله ووسطه وآخره، لم يغير حرفاً ولم يبدل فاءاً أو واواً! وأثر المبالغة واضح في هذا الخبر!

ولما توجه أبو مسعود الرازي إلى أصبهان، أملى على تلامذته مائة ألف حديث عن ظهر قلبه، فلما وصلت كتبه بعد ذلك، قوبلت بها فلم يعثر منها على سقطة إلا في متن حديثين!

الحفّاظ

* وقد كثر على مر العصور حفاظ القرآن الكريم والحديث الشريف فكان في كل زمان رواة ومحدثون وقرّاء يجاوزون الآلاف ممن يحفظون القرآن والحديث عن ظهر قلب.

* وذُكر أن الخوارزمي حفظ كتاب الأمثال لأبي عبيدة في ليلة. ورُوي أنه قرئ عليه أوراق من حساب البقالين فأعادها على الترتيب!

* وكان عمرو بن هبيرة يضبط حساب العراق وهو أميّ!

* قال الأصمعي: أقبل فتيان إلى أبي ضمضم بعد العشاء، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا نتحدث إليك، قال: كذبتم يا خبثاء! ولكن قلتم، كبر الشيخ فهلمّ بنا عسى أن نأخذ عليه سقطة؛ قال: فأنشدهم لمائة شاعر كلهم اسمه عمرو!

ويضيف الأصمعي - الراوية الحافظ اللغوي - فيقول: فعددْتُ أنا وخلف الأحمر، فلم نزِدْ على أكثر من ثلاثين!

* والعرب يضربون المثل ويشبهون من كثر حفظه ورسخ فيقولون: فلان أحفظ من الرمل للماء. وهذا أثبت في صدره من «الحمدلله» أو من الفاتحة.

* يروى أن الشعبي كان يقول: لو أن رجلاً حفظ ما نسيتُ كان عالما!

* وقال مرة: لست لشيء من العلوم أقلَّ رواية مني للشعر، ولو شئت لأنشدت شهراً ولا أعيد بيتاً!!

* وقال يوماً: لولا أني زُوحِمْت في الرّحم ما قامت لأحد معي قائمة، وكان توْأماً! وقال: ما كتبت سوداء في بيضاء إلا حفظتها!

* وقالت عائشة رضي الله عنها: رحم الله لبيداً كان يقول:

قَضٍّ اللُّبانةَ لا أبالَكَ واذهبِ ... والحْقْ بأسرتِكَ الكرام الغُيَّبِ

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم ... وبقيتُ في خَلف كجِلْد الأجْربِ

فكيف لو أدرك زماننا هذا! ثم قالت: إني لأروي ألف بيت له، وإنه أقلُّ ما أروي لغيره!

* وقال أبو نواس: ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة، منهن الخنساء وليلى، فما ظنك بالرجال!

* وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة: ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بالحديث، ولا أحفظ له من محمد بن إسماعيل البخاري، حتىٰ كان يقال: إن حديثاً لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث! وقال البخاري رحمه الله: أحفظ مائة ألف حديث صحيح ومائتي ألف حديث غير صحيح. وقال: ما وضعت في كتابي الصحيح حديثاً إلا اغتسلْتُ قبل ذلك، وصلّيْت ركعتين، وقال: أخرجْته من ستمائة ألف حديث، وصنفته في ست عشرة سنة، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالىٰ.

مراتب وألقاب

* ومن هنا كثر العلماء وتسابقوا في الحفظ، حتىٰ لقد جعل علماء الحديث مراتب وألقاباً لا تمنح لشخص إلا إذا حفظ كمية من الأحاديث قدَّروها وحدّدوها.

* «فالحافظ»، من حفظ مائة ألف حديث متناً وإسناداً، ووعىٰ ما يحتاج إليه.

* و«الحجة» من أحاط بثلاثمائة ألف حديث.

* و«الحاكم» من أحاط علمه بجميع الأحاديث النبوية المروية متناً وإسناداً وجرحاً وتعديلاً وتاريخاً.

وكذلك «أمير المؤمنين» من أحاط بجميع المرويات. ترىٰ هل هذه عقول بشر، أم «أجهزة كمبيوتر» تخزن فيها هذه المعلومات؟ فلا تتبدد ولا تضيع أو تُنسىٰ!

* كان الشعبي والزهري يقولان: ما سمعنا حديثاً قط وسألنا إعادته! ولكأن العقل آلة تسجيل أو جهاز «كمبيوتر» يستوعب كل ما يودع فيه!

* ولا يخفىٰ أن الأخبار التي أوردناها فيها كثير من المبالغة، ولكنهم حقاً كانوا أذكياء وحفَّاظ.

* إننا الآن نعيد النص أو القصيدة أو الآيات، مرات ومرات، ونحفظ ونتعثر، ونقوم ونكبو، فإذا ما أدينا الغرض الذي حفظنا من أجله «تبخرت» المعلومات وأصبحت في خبر «كان»! أو «تقيأنا» هذه المعلومات! علىٰ حد تعبير الشيخ محمد الغزالي رحمه الله.

* قال حمّاد الراوية: أرسل إليّ أبو مسلم ليلاً فراعني ذلك. فلبستُ أكفاني ومضيْتُ، فلما دخلت عليه تركني حتىٰ سَكَن جأشي، ثم قال لي: ما شِعْرٌ فيه «أوتاد»؟ قلت: من قائله أصلح الله الأمير؟ قال: لا أدري! قلت: فمن شعراء الجاهلية أم من شعراء الإسلام؟ قال: لا أدري! قال: فأطرقْتُ حيناً أفكر فيه حتىٰ بدر إلىٰ وهمي شعر الأفوه الأَوْديّ حيث يقول:

لا يَصلح الناسُ فوضَىٰ لا سراةَ لهم ... ولا سَرَاة إذا جُهّالهم سادوا

والبيتُ لا يُبْتنىٰ إلاّ له عمدٌ ... ولا عِمادَ إذا لم تُرْسَ أوْتادُ

فإنْ تَجمّع أوْتادٌ وأعمدةٌ ... يوماً فقد بلغُوا الأمْر الذي كَادُوا

فقلت: هو قوْلُ الأفوه الأودي أصلح الله الأمير، وأنشدته الأبيات. فقال: صدقت، انصرف إذا شئت، فقمت، فلما خطوت الباب لحقني أعوان له معهم بَدْرة ـ «البدْرة: عشرة آلاف درهم» ـ فصحبوني إلىٰ الباب، فلما أردْتُ أن أقبضها منهم، قالوا: لابد من إدْخالها إلىٰ موضع منامك، فدخلوا معي، فعرضْتُ أن أُعطيهم منها، فرفضوا. وسبحان مقسم العقول والأرزاق و«كل شيء بقضاء وقدر حتىٰ العجز والكَيْس».

كبوة جواد

* ورغم الذاكرة القوية التي يتمتع بها أولئك الحفظة إلا أنه وكما يقال فلكل جواد كبوة، ولكل سيف، نبوة، ولكل عالم هفوة.

* قال أحدهم يوماً: ما نسيت شيئاً قط! ثم قال علىٰ إثره: يا غلام ائتني بنعلي. فقال له الغلام: أليس نَعْلك في رجلك؟! وكان قد نسيه!

* وقال آخر: ما فاتني الأذان في مسجد رسول الله ﷺ منذ أربعين سنة! ثم قام يريد الصلاة فيه، فوجد الناس قد خرجوا من المسجد!

* وصف رجلٌ رجلاً فقال: كان يَغْلط في علمه من وجوهٍ أربعة: يسمع غير ما يقالُ له، ويحفظ غير ما يَسمع، ويَكْتب غير ما يحفظ، ويُحدّث بغير ما يكتب!

العقلاء... والحمقى

* العقل هو القوة المدركة لحقائق الأشياء، والمتهيئة لقبول العلم، وهو ضد الحمق، والعقل ـ كما يقول الفقهاء ـ هو مناط التكليف في الإنسان، ولذلك فإن غير العاقل، لا يكلف بشيء من التكاليف الشرعية، ولا تعتبر تصرفاته المالية، وتسلب منه جميع الولايات. وفي الحديث الشريف «رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل» رواه أبو داود والحاكم.

* ولو صور العقل لأضاء معه الليل: ولو صور الجهل لأظلم معه النهار، والعقل وزير رشيد وظهير سعيد، من أطاعه أنجاه، ومن عصاه أرداه، وكل شيء إذا كثر رخُص إلا العقل، فإنه كلما كثر كان أغلى، ولو بِيعَ لما اشتراه إلا العاقل؛ لمعرفته بفضله، وأول شرف العقل أنه لا يُشترى بالمال، ولكل شيء غاية وحد، سوى العقل فإنه لا حد له ولا غاية، ولكن الناس يتفاوتون فيه كتفاوت الأزهار في الرائحة والطيب! ولا يدرك قيمة نعمة العقل ويقدرها قدرها إلا من رأى إنساناً فَقَدها وسُلِبها.

* وأفضل قسْمِ اللهِ للمرء عَقلُه ... فليس من الخيرات شيءٌ يُقاربُه
يعيش الفتى بالعقل في الناس إنه ... على العقل يجري علمه وتجاربه
يشين الفتى في الناس قِلةُ عقله ... وإن كرُمت أعراقه ومناسبه
إذا أكمل الرَّحمنُ للمرء عقله ... فقد كملت أخلاقه ومآربه

* ومنذ القدم عاب أهل الرأي والحكمة، الجهل والحُمْق، وحسب الجهل خِسَّة وَضَعة أن أحداً لا يرضى أن ينسب إليه ولو كان فيه!

* يُروى أن عمر عزل زياد بن أبي سفيان، وكان كاتباً لأبي موسى الأشعري فقال زياد: أعن عجز عزلتني يا أمير المؤمنين، أم عن خيانة؟ فقال: لا عن ذاك ولا عن هذا، ولكني كرهت أن أحمل على العامة فضل عقلك!! والعاقل لا ينطق إلا إذا رأى النطق ضرورياً، ولا يفعل أمراً إلا إذا نظر في عواقبه، وتبصّر أبعاده ومراميه، لا يتعجل الخطى

ولا يستبق الأحداث ولا يتسرع في الحكم على الأمور، يَزِن الأشياء بميزان دقيق، ويقدّر المواقف وينظر إلى ما هو أبعد من اللحظة الراهنة والساعة الحاضرة بنظرة ثاقبة فاحصة وخطوة متأنية تحسب كل حساب.

* يُعَدُّ رفيع القوم من كان عاقلاً ... وإن لم يكن في قومه بحَسيب
وإنْ حل أرضاً عاش فيها بعقله ... وما عاقل في بلدة بغريب

* قيل لبهلول: عُدَّ لنا المجانين، فقال: هذا يطول، ولكني أعدّ العقلاء!!

* ومن العجب أن العرب تمثلت في جميع الخصال بأقوام جعلوهم أعلاماً فيها، فضربوا بها المثل إذا أرادوا المبالغة، فقالوا: أحلم من الأحنف، وأجود من حاتم، وأبين من سحبان، ولم يقولوا: أعقل من فلان، فلعلهم لم يستكملوا عقل أحد، على حسب ما قال الأعرابي إذ قيل له: حُدَّ لنا العقل، فقال: وكيف أحده ولم أره كاملاً في أحد قط؟!

* وكانوا يحذرون من مجالسة الجاهل ومصاحبته: فهو يريد أن ينفعك فيضرك وقالوا: لا تغررك من الجاهل قرابة ولا أخوة ولا إلف، فإن أحق الناس بتحريق النار أقربهم منها! ولا تجالس الحمقى فإنه يعلق بك من مجالستهم من الفساد ما لا يعلق بك من مجالسة العقلاء دهراً من الصلاح، فإن الفساد أشد التحاماً بالطباع. قال أحد الحكماء: لا تعاشر الأحمق وإن كان ذا جمال، وانظر إلى السيف ما أحسن منظره!

* ولا تجادل الأحمق، فقد يخطئ الناس في التفريق بينكما!

* والعاقل يعتبر مجالسة الأحمق الجاهل - إذا ألجأته الظروف لذلك - عقوبة يقاسيها ويعانيها، ولذلك قالوا: لما غضب كسرى على عاقل، سجنه مع جاهل أحمق.

* وكان الحسن إذا أُخبر عن أحد بصلاح، قال: كيف عقله؟ ثم يقول: ما يتم دين امرئ حتى يتم عقله. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ كان إذا بلغه عن إنسان عبادة، يسأل: كيف عقل الرجل؟

* ويُروىٰ في الآثار أن جبريل عليه السلام أتىٰ آدم عليه السلام فقال له: إني أتيتك بثلاث فاختر واحدة، قال: وما هي؟ قال: العقل والحياء والدين، قال: قد اخترت العقل، فخرج جبريل إلىٰ الحياء والدين فقال: ارتفعا فقد اختار العقل عليكما، فقالا: أُمرنا أن نكون مع العقل حيث كان!!

* علم العليم وعقل العاقل اختلفا	أيٌّ الذي منهما قد أحرز الشرفا
فالعلم قال أنا أحرزت غايتهُ	والعقل قال أنا الرحمن بي عُرِفا
فأفصح العلم إفصاحاً وقال لهُ	بأيِّنا الله في فرقانه اتَّصفا
فبان للعقل أن العلمَ سيدُهُ	فقبَّل العقل رأس العلم وانصرفا!

* وذكر المغيرة بن شعبة يوماً عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: كان والله أفضل من أن يَخْدع وأعقل من أن يُخْدع. وكان عمر يقول: لست بخبٍّ ولا الخِبُّ يخدعني!! . - الخب: الرجل الخداع - والحُمْق، يعني الكساد، بمعنىٰ أن الأحمق كاسد العقل لا ينتفع برأيه ولا بعزمه، ولا يُشاوَر ولا يلتفت إليه في أمر من الأمور، والحُمْق غريزة لا تنفع فيها الحيلة، وهو داء دواؤه الموت! قال عيسىٰ عليه السلام: عالجت الأكمه والأبرص فأبرأتهما وعالجت الأحمق فأعياني!

لكل داءٍ دواءٌ يُسْتَطَبُّ به	إلاَّ الحماقةَ أَعْيَتْ مَنْ يُداويها
* لا تيأسنَّ إذا ما كنت ذا أدب	علىٰ خُمولك أن ترقىٰ إلىٰ الفلكِ
فبينما الذهب الإبريز مختلطٌ	بالترْبِ إذ صار إكليلاً علىٰ الملكِ
* من لم يكن عقله مؤدِّبه	لم يغنه واعظٌ من النسبِ
كم من وضيع الأصول في أمم	قد سوَّدوه بالعقل والأدبِ
* لكلِّ شيء زينة في الورَىٰ	وزينة المرء تمامُ الأدبِ
قد يَشرُف المرءُ بآدابه	فينا وإن كان وضيعَ النسبِ

* وقيل: أوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ عليه السلام، أتدري لم رَزَقْتُ الأحمق؟ قال: لا يا رب، قال: ليعلم العاقل أن طلب الرزق ليس بالاجتهاد والحيلة.

* وقيل: إذا قيل لك: إن فقيراً استغنىٰ وغنياً افتقر، وحياً مات أو ميتاً عاش؛ فصَدِّقْ، وإذا بلغك أن أحمق استفاد عقلاً فلا تُصدق!

* وقد رضي قوم بالجهل فقالوا: ضَعْفُ العقل أمانٌ من الغم. والدنيا ثمرتُها السرور ولا سرور للعقلاء فيها.

ذو العقل يشقىٰ في النعيم بعقله ... وأخو الجَهَالة في الشقاوة يَنْعَم

* سمع الأحنف رجلاً يقول: ما أُبالي أمدحت أم هُجيتُ! فقال: استرحت من حيث تعب الكرام! ومن لا عقل له فقد استراح!

* ولا خير في حُسْن الجسوم وطولِها ... إذا لم يَزِنْ حُسْنَ الجسوم عُقولُ

* خطب الحجاج يوم جمعة فأطال، فقام إليه أعرابي فقال له: إن الوقت لا يَنْتظرك وإن الرب لا يَعْذرك، فَأَمَر به فحُبس، فأتاه أهله يشفعون فيه، وقالوا: إنه مجنون! فقال الحجاج: إن أقرَّ بالجنون خليت سبيله! فأتوه وسألوه ذلك، فقال: لا والله، لا أقول إن الله ابتلاني، وقد عافاني، فبلغ كلامه الحجَّاج، فعظُم في نفسه وأطلقه!

* وقال معن بن زائدة: ما رأيت قفا رجل قط، إلا عرفت عقله! فقيل له: فإن رأيت وجهه؟ قال: فذلك حينئذٍ في كتاب أقرأه!

* وقال الأصمعي: قلت لغلام من أبناء العرب، أيسرك أن يكون لك مائة ألف وأنت أحمق؟ قال: لا والله. قلت: ولم؟ قال: أخاف أن يجني علي حمقي جناية، فتذهب مني ويبقىٰ حُمْقي!

* وللأحمق صفات وعلامات، في الشكل والصورة والفعل والحركة، والمنطق والكلام. وقد يغرك الأحمق في أول مجلسه بتعاقله، فإذا انتهىٰ إلىٰ آخر كلامه تبين

حمقه، وكانوا إذا ذموا إنساناً قالوا: ليس معه من العقل إلا ما يوجب حجة الله عليه إذا أمر به إلىٰ النار!

* سئل أعرابي عن رجل فقال: لو كان في بني إسرائيل ووقعت قصة البقرة ما ذبحوا غيره! ونظر بعض الحكماء إلىٰ أحمق جالس علىٰ حجر فقال: حجر علىٰ حجر!! وكانوا يقولون للأبله السليم القلب: هو من بقر الجنة لا ينطح ولا يرمح، والأحمق المؤذي، هو من بقر سَقَر.

* وقد اتفقوا علىٰ صفات إن توفرت في شخص حكموا عليه بالحمق، فمنها: كثرة الالتفات، وسرعة الجواب في تهور وعدم انضباط، ومنها: الخفَّة والسَّفَه وكثرة السهو والغفلة والعجلة. قالوا: ومن طالت قامته، وصغرت هامته، وانسدلت لحيته؛ كان حقيقاً علىٰ من يراه أن يُقْرئه عن عقله السلام!

* قال مسلمة بن عبدالملك لجلسائه: يُعْرف حُمْق الرجل في أربع، طول لحيته، وبشاعة كنيته، وإفراط شهوته، ونقش خاتمه. فدخل عليه رجل طويل اللحية فقال: أما هذا فقد أتاكم بواحدة، فانظروا أين هو من الثلاث؟ فقيل له: ما كنيتك؟ فقال: أبو الياقوت - وفي بعض الروايات: أنا أبو الكوكب الدري - فقيل له: ما نَقش خاتمك؟ قال: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾ (النمل: ٢٠) - وفي رواية ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ (يوسف: ١٨) - قيل: فأيُّ الطعام أحب إليك؟ قال: الجَلَنْجبين (معجون يعمل من الورد والعسل). فقال مسلمة: وهل فيه ما بعد كُنْيته مع طول لحيته، مع نقش خاتمه، شكٌّ لمُعْتبر؟!!

* قال الجاحظ: دخلت علىٰ مؤدب، ورأسه في حجر صبي، وفي أذنه خرقة معلقة، وكان المؤدب أصلع، والصبي يكتب في رأسه، ويمحوه بالخرقة، ثم يكتب مرة أخرىٰ، فقلت له: ما هذا الذي يصنع الصبي في رأسك؟ قال لي: يا فلان، هذا الصبي يتيم، وليس له لوح، ولا ما يشتريه به، فأنا أعطيه رأسي يكتب فيه ابتغاء ثواب الله!

* قالوا في المثل: أعيا من باقل، وذلك أنه اشترىٰ عنزاً بأحد عشر درهماً، وجرّها

بحبل في يده، فسئل: بكم اشتريت العنز؟ ففتح كفيه، وفرق أصابعه، وأخرج لسانه - يريد أنه اشتراها بأحد عشر درهما - فشردت العنز منه، وضاعت!

* كان الحجاج، يوماً مع بعض ندمائه، وقد أدركته سِنَةٌ من النوم فعطس النديم عطسة منكرة. ففزع الحجاج، وقام منكراً مُغْضباً، وقال: ما أردت بهذه العطسة إلا أن تُروِّعني! فقال: أيها الأمير هذه والله عادتي! قال: والله إن لم تأتني بشاهد على ذلك، وإلا ضربت عنقك!. فخرج الرجل، فوجد بعض أصحابه، فقص عليه الأمر، فقال: أنا أشهد لك! فدخلا على الحجاج، فقال لصاحبه: بم تشهد؟ قال: أيها الأمير، أشهد أنه عطس يوماً عطسة وقع منها ضرسه! فضحك الحجاج حتى استلقى، وقال: حسبك! وأمر بإخراجهما!

* دخل رجل أحد المساجد ليصلي، فرأى المؤذن يؤذن من ورقة بيده! فقال له: ما تحفظ الأذان؟ فقال: اذهب فاسأل القاضي، فأتاه، فقال: السلام عليكم، فأخرج القاضي كتاباً فتصفحه، وقال: وعليكم السلام!. ما حاجتك؟ قال: أصلح الله القاضي، لقد جئت لأقول لك: أنَّ المؤذن معذور!

* والعرب تضرب المثل في الحُمْق بهبَنَّقة، شَرَدَ له بعير فقال: من جاء به فله بعيران، فقيل له: أتجعل في بعير بعيرين؟ فقال: إنكم لا تعرفون فرحة الوجدان!

* وقيل لعِجْل بن لُجَيْم: إنَّ لكل فرس جوادٍ اسماً، وإن فرسك هذا سابق فسمّه، ففقأ عينه وقال: سميته الأعور!

* ومن طريف ما يروى عن الحمقى وتصرفاتهم الغريبة العجيبة المتناقضة المضحكة، أنَّ أحمقين اصطحبا في طريق، فقال أحدهما للآخر: تعال نتمنّ على الله، فإن الطريق تُقْطع بالحديث، فقال أحدهما: أنا أتمنى قطائع غنم أنتفع بلبنها وصوفها، وقال الآخر: أنا أتمنى قطائع ذئاب أُرْسلها على غنمك، حتى لا تترك منها شيئاً! قال: ويحك، أهذا من حق الصحبة وحرمة العشرة؟! فتصايحا وتخاصما واشتدت الخصومة، حتى تماسكا بالأطواق ثم تراضيا، على أن أول من يطلع عليهما يكون حكماً بينهما، فطلع عليهما

شيخ بحمار عليه زقَّان من عسل، فحدثاه بحديثهما، فنزل بالزقين وفتحهما حتى سال العسل على التراب، ثم قال: صبّ الله دمي مثل هذا العسل إن لم تكونا أحمقين!!

* قال يونس بن حبيب البصري: ثلاثة والله أشتهي أن أُمكّن من مناظرتهم يوم القيامة، آدم عليه السلام فأقول له: قد مكنك الله تعالى من الجنة وحرم عليك الشجرة فقصدتها حتى طرحتنا في هذا المكروه!! ويوسف عليه السلام فأقول له: كنت بمصر، وأبوك بكنعان وبينك وبينه عشر مراحل يبكي عليك حتى ابيضت عيناه من الحزن ولم ترسل إليه أني في عافية وتريحه مما كان فيه من الحزن!! وطلحة والزبير أقول لهما: إن علي بن أبي طالب بايعتماه بالمدينة وخلعتماه بالعراق فأي شيء أحدث؟!

* كان بهلول يوماً جالساً والصبيان يؤذونه، وهو يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، يعيده مراراً، فلما طال أذاهم له أخذ عصاه، وقال:

حمي الوطيس، وطابت الحرب، وأنا على بينة من ربي، ثم حمل عليهم، وهو يقول:

أشدّ على الكتيبة لا أبالي ... أفيها كان حتفي أم سواها

فتساقط الصبيان بعضهم على بعض. وتهاربوا فقال: هزم القوم وولوا الدبر. أمرنا أمير المؤمنين - رضي الله عنه - ألا نتبع مُولّياً، ولا نذفف على جريح، ثم رجع وجلس وطرح عصاه وقال:

فألقت عصاها واستقر بها النوى ... كما قر عينا بالإياب المسافر

* سأل المأمون رجلاً من أهل حمص عن قضائهم فقال: يا أمير المؤمنين إن قاضينا لا يفهم، وإذا فهم وَهِم، قال: ويحك، كيف هذا؟! قال: قدم عليه رجلان فادعى أحدهما على صاحبه أربعة وعشرين درهماً، فأقرَّ الرجل فقال له القاضي: أعطه حقه، فقال: أصلح الله القاضي إن لي حماراً أكتسب عليه كل يوم أربعة دراهم، أنفق على الحمار درهماً وعليَّ درهماً، وأدفع له درهمين حتى إذا اجتمع ما له غاب عني فلم أره فأنفقتها..

وما أعرف وجهاً إلا أن يحبسه القاضي اثني عشر يوماً حتى أجمع له إياها! فحبس صاحب الحق حتى جمع ماله . . فضحك المأمون وعزله!!

* كان للحجاج قاض في البصرة من أهل الشام يقال له: أبو حِمْير وكانت فيه غفلة، فحضرت الجمعة فمضى يريدها، فلقيه رجل من العراق فقال له: يا أبا حِمْير أين تذهب! قال: إلى الجمعة، قال: وما بلغك أن الأمير قد أخَّر الجمعة اليوم؟ فانصرف راجعاً إلى بيته! فلما كان من الغد قال له الحجاج: أين كنت يا أبا حِمْير لم تحضر معنا الجمعة؟ قال: بلغني أن الأمير أخّر الجمعة فانصرفت . . ! فضحك الحجاج وقال: يا أبا حمير أما علمت أن الجمعة لا تؤخر؟

* كان مالك بن زيد مناة بن تميم أحمقاً، فتزوج، فلما دخل على امرأته كان مغضباً! فلما رأت ما به من الجهل والجفاء قالت له: ضع شملتك، قال: جسدي أحفظ لها! قالت: اخلع نعليك، قال: رجلاي أحقّ بهما، فلما رأت ذلك قامت وجلست إليه، فلما شَمَّ رائحة الطيب وَثَبَ عليها!

* يقول القاسم بن الأزرق:

لو أن بالحِيَل الغنى لوجدتني ... بنجوم أفلاك السماء تعلقي
لكن من رُزِق الحِجى حُرِم الغنى ... ضدان مفترقان أيّ تفرقِ
فإذا سمعت بأن محروماً أتى ... ماءً ليشربه فغاض فصدِّق
أو أن محظوظاً غدا في كفه ... عودٌ فأورق في يديه فحقّق
ومن الدليل على القضاء وصرفِه ... بؤسُ اللبيب وطيب عيش الأحمق

* يقول المتنبي:

ذو العقل يَشْقى في النّعيم بعقله ... وأخو الجهالة في الشقاوة يَنْعم
لا يخدعنَّك من عدو دمعهُ ... وارحم شبابك من عدو ترحمُ

لا يَسْلمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذىٰ حتىٰ يُراق علىٰ جوانبه الدمُ
والظّلمُ من شِيمَ النفوس فإن تجد ذا عفةٍ فلِعِلَّة لا يَظلمُ!
ومن البلية عَذْل من لا يَرْعوي عن جهله وخطابُ مَنْ لا يَفْهمُ
ومن العداوة ما ينالك نَفْعُه ومن الصَّداقة ما يَضرُّ ويُؤلمُ

* اتق الأحمق أن تصحبه إنما الأحمق كالثوب الخلق
كلما رقعت منه جانباً خرقته الريح وهناً فانخرق
أو كصدع في زجاج فاحش هل ترىٰ صدع زجاج يرتتق؟
كحمار السوق إن أقضمته رمح الناس وإن جاع نهق
أو غلام السوء إن أسغبته سرق الناس وإن يشبع فسق
وإذا عاتبته كي يرعوي أفسد المجلس منه بالخرق

* حكي عن الجاحظ أنه قال: ألفت كتاباً في نوادر المعلمين، وما هم عليه من التغفل؛ ثم رجعت عن ذلك وعزمت علىٰ تقطيع ذلك الكتاب، ودخلت يوماً مدينة فوجدت فيها معلماً في هيئة حسنة، فسلمت عليه فردّ عليَّ أحسن رد، ورحب بي، فجلست عنده، وباحثته في القرآن، فإذا هو ماهر فيه، ثم فاتحته في الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب، فإذا هو كامل الآداب، فقلت: هذا والله مما يقوي عزمي علىٰ تقطيع الكتاب، قال: فكنت أختلف إليه وأزوره، فجئت يوماً لزيارته، فإذا بالكُتَّاب مغلق ولم أجده، فسألت عنه فقيل: مات له ميت، فحزن عليه، وجلس في بيته للعزاء، فذهبت إلىٰ بيته وطرقت الباب، فخرجت إلي جارية وقالت: ما تريد؟ فقلت: سيدك، فدخلت وخرجت وقالت: باسم الله، فدخلت إليه وإذا به جالس، فقلت: عظم الله أجرك، لقد كان لكم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، وكل نفس ذائقة الموت، فعليك بالصبر، ثم قلت له: هذا الذي توفىٰ ولدك؟ قال: لا. قلت: فوالدك؟ قال: لا. قلت: فأخوك؟ قال: لا. قلت:

فزوجتك؟ قال: لا. فقلت: وما هو منك؟ قال: حبيبتي. فقلت في نفسي: هذا أول المناحس. فقلت: سبحان الله، النساء كثير، وستجد غيرها! فقال: أتظن أني رأيتها؟ قلت: وهذه منحسة ثانية. ثم قلت: وكيف عشقت من لم تر؟ فقال: اعلم أني كنت جالساً في هذا المكان، وأنا أنظر من الطاق، إذ رأيت رجلاً عليه برد وهو يقول:

يا أمَّ عمروٍ جزاك الله مكرمة ... ردي علي فؤادي أينما كانا

لا تأخذين فؤادي تلعبين به ... فكيف يلعب بالإنسان إنسانا

فقلت في نفسي: لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها، ما قيل فيها هذا الشعر فعشقتها! فلما كان منذ يومين، مرّ ذلك الرجل بعينه وهو يقول:

لقد ذهب الحمار بأم عمرو ... فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أنها ماتت، فحزنت وأغلقت الكُتَّاب وجلست في الدار! فقلت: يا هذا إني كنت ألفت كتاباً في نوادركم معشر المعلمين، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه، والآن قويت عزمي على إبقائه، وأول ما أبدأ بك إن شاء الله تعالى.

* يروى أنَّ أبان بن عثمان كان أحمقاً، فدخل يوماً على معاوية فقال له: زوجني ابنتك! فقال: يا ابن أخي، هما اثنتان وقد زوَّجتهما! قال: كنت أظنَّ أن لك ثالثة! قال: يا ابن أخي تخطب إليَّ ولا تدري لي بنت أم لا؟ رحم الله أباك!.

تأملات

* قال الإمام الغزالي رحمه الله: لعل انتفاع الإنسان بعدوٍّ مشاحن يذكّره عيوب نفسه، أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثني عليه ويمدحه ويخفي عنه عيوبه، إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو، وحمل ما يقوله على الحسد، ولكن البصير لا يخلو من الانتفاع بقول أعدائه، فإن مساويه لابد وأن تنتشر على لسانهم!

أشعب.. الطامع

قال ابن كثير عن أشعب الطامع: وهو أشعب بن جبير أبو العلاء، ويقال أبو إسحاق المديني، ويقال له أبو حميدة. وكان أبوه مولىٰ لآل الزبير، قتله المختار، وهو خال الواقدي. وكان صاحب مُزاح وتطفيل، ومع ذلك كُذب عليه، وعمّر أشعب طويلاً، وكان ظريفاً ماجناً يحبه أهل زمانه لخلاعته وطمعه، وكان حَمِيد الغناء، وقد وفد علىٰ الوليد بن يزيد دمشق فترجمه ابن عساكر ترجمة ذكر عنه فيها أشياء مضحكة، وأسند عنه حديثين.

* وله أخبار ظريفة، فمن ذلك ما روي عنه أنه سئل يوماً أن يحدث فقال: حدثني عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «خصلتان من عمل بهما دخل الجنة» ثم سكت فقيل له: وما هما؟ فقال: نسي عكرمة الواحدة ونسيت أنا الأخرىٰ! وروي هذا الخبر من جهة أخرىٰ قال الجاحظ: لما قدم أَشْعَبُ الطمَّاع من المدينة بغدادَ في أيام المهدي تلقَّاه أصحابُ الحديث، لأنه كان ذا إسنادٍ، فقالوا له: حدثنا، فقال: خُذُوا، حدثني سالم بن عبدالله ـ وكان يبغضني في الله! ـ قال: خصلتان لا تجتمعان في مؤمن، وسكت، فقالوا: أذكرهما، قال: نسي إحداهما سالم ونسيتُ الأخرىٰ! فقالوا: حدثنا عافاك الله بحديث غيره، فقال: خذوا، سمعت ظُلْمة ـ وكانت من عجائزنا! ـ تقول: إذا أنا متُّ فاحرقوني بالنار، ثم اجمعوا رَمَادي في صُرَّة، وأتربوا به كتبَ الأحباب، فإنهم يجتمعون لا محالة، وأتُوا به الخاتنات ليذررن منه علىٰ أجراح الصبيات، فإنهن يلهجن بـ. . . ! ما عِشْنَ! . قصدت ذَكَر الرجل، وهي ذَكَرتْه بالصريح لا بالكناية!

* وكان سالم بن عبدالله بن عمر يستخفه ويستحليه ويضحك منه ويأخذه معه إلىٰ الغابة، وكذلك كان غيره من أكابر الناس.

* وقال الشافعي: عبث الولدان يوماً بأشعب فقال لهم: إن ههنا أناساً يفرقون الجوز ـ ليطردهم عنه ـ فتسارع الصبيان إلىٰ ذلك، فلما رآهم مسرعين قال: لعله حق فتبعهم!

* قيل لأشعب: نُزوجك؟ قال: ابغوني امرأة أتجشى في وجهها تشبع، وتأكل فخذ جرادة تتتخم!

* وقيل: أسلمته أمه عند بزاز، ثم قالت له: ما تعلمت؟ قال: نصف الشغل، تعلمت النشر، وبقي الطي!

* شوى رجُل دجاجة، ثم ردها، فسخنت، ثم ردها. فقال: هذه من آل فرعون، ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾. (غافر: ٤٦).

* وقال لأمه: رأيتك في النوم مَطْليَّة بالعسل، وأنا مطلي بالعَذْرة!. فقالت: هذا عملك الخبيث، جعله الله تعالى كساء لك! فقال أشعب: إن للرؤيا بقية. قالت: وما هي؟ قال: رأيتني ألحسك وتلحسيني!

* مرّ أشعب بمن يعمل طبقاً من قش فقال: وسِّعْه، لعلهم يهدون لنا فيه!

* قال أبو عاصم: ومررت يوماً، فإذا هو ورائي، قلت: ما بك؟ قال: رأيت قلنسوتك مائلة، فقلت: لعلها تقع فآخذها. قال: فأعطيته إياها!

* قال أشعب: ما خرجت في جنازة، فرأيت اثنين يتساران، إلا ظننت أن الميت أوصى لي بشيء!

* يقال: مات سنة أربع وخمسين ومائة، وكانت ولادته سنة تسع من الهجرة، ولعل في هذا مبالغة، وقيل إنه أدرك زمن عثمان.

* قال الواقدي: لقيت أشعب يوماً فقال لي: يا ابن واقد وجدت ديناراً فكيف أصنع به؟ قلت: تُعرّفه، قال: سبحان الله، قلت: ما الرأي؟ قال: أشتري به قميصاً وأعرّفه، قلت: إذن لا يعرفه أحد، قال: فذاك أريد!

* وخرج سالم بن عبدالله إلى ناحية من نواحي المدينة متنزهاً ومعه حَرَمه، فبلغ أشعب خبره فوافى الموضع الذي هم فيه فصادف الباب مغلقاً فتسوَّر الحائط فقال له سالم:

ويحك بناتي وحرمي، فقال: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩)﴾ (هود: ٧٩) فوجه إليه بطعام أكل منه وحمل إلى منزله!

* وقال سليمان الشاذكوني: كان لي بُنيّ في المكتب فانصرف إليَّ يوماً فقال: يا أبه ألا أحدثك بطريف؟ فقال: هات، فقال: كنت أقرأ على المعلم: إن أبي يدعوك، وأشعب الطامع عنده جالس، فلبس نعله وقال: امشِ بين يدي! فقلت: إنما أقرأ عشري، فقال: عجبت أن تفلح أو يفلح أبوك!

* وقيل لأشعب: ما بلغ من طمعك؟ قال: ما زفت بالمدينة امرأة قط إلى زوجها إلا كنست بيتي ورفعت ستري طمعاً في أن تهدى إلي!

* قيل لأشعب: هل رأيت أطمع منك؟ قال: نعم، شاة كانت لي على سطح فنظرت إلى قوس قزح فظنته حبل قت فأهوت إليه واثبة من السطح فاندق عنقها! - القت: نبات لعلف الحيوانات..

* نظر أشعب إلى رجل قبيح الوجه فقال: ألم ينهكم سليمان بن داود عن الخروج في النهار؟!

* وحكى الهيثم بن عدي قال: لقيت أشعب فقلت له: كيف ترى أهل زمانك هذا؟ قال: يسألون عن أحاديث الملوك ويعطون عطاء العبيد!

* تغدى أشعب مع زياد بن عبيدالله الحارثي فجاءوه بمضيرة - نوع من الحلوى - فقال أشعب للخباز: ضعها بين يدي، فوضعها بين يديه، فقال زياد: من يصلي بأهل السجن؟ قالوا: ليس لهم إمام، فقال: أدخلوا أشعب يصلي بهم، قال: أو غير ذلك أصلح الله الأمير؟ أحلف لا آكل مضيرة أبداً!!

* قال رجل لأشعب: لو تغديت عندي العشية، قال: أكره أن يجيء ثقيل، قلت: ليس غيرك وغيري، قال: فإذا صليت الظهر فأنا عندك، فصلى وجاء، فلما وضعت الجارية الطعام إذا صديق لي يدق الباب، قال: ألا ترى؟ قد صرت إلى ما أكره، قلت: إن

لك عندي فيه عشر خصال، قال: فما هي؟ قلت: أولها أنه لا يأكل مع ضيف، قال: التسع خصال لك، أدخله!

* وقدم على يزيد بن حاتم مصر فجلس في مجلسه من الناس، فدعا يزيد بعض غلمانه وأسرَّ له بشيء، فقام أشعب فقبَّل يده، فقال له: ولم فعلت هذا؟ قال: رأيتك أسررت إلى غلامك بشيء فعلمت أنك قد أمرت لي بصلة! فضحك منه وقال: ما فعلت ولكني أفعل، وأمر له بصلة!

أمّ أشعب

ترجم في «الإصابة» لحُمَيْدة مولاة أسماء بنت أبي بكر الصديق وهي والدة أشعب الطامع فقال: قيل إنها كانت تدخل بين أزواج النبي ﷺ تُحرِّش بينهن! فأمر النبي ﷺ بتعزيرها! وقيل: دعا عليها فماتت، وهذا لا يصح، لأن أشعب ولد بعد النبي ﷺ بمدة، فلعلها أصابها بدعائه مرض اتصل بها إلى أن ماتت بعده بمدة.

وافتخر أشعب ولدها يوماً بذلك، فقيل له: ويحك أو يفتخر بهذا أحد!؟ فقال: لو لم يكن موثوقاً بها عندهن ما قبلن منها!! والتحريش: الإغراء والإيقاع بين الناس.

* نزل أشعب عند رجل يوماً، فقدم له الرجل أربعة أرغفة، وذهب ليحضر له لحماً فحمله وجاء فوجده قد أكل الخبز، فذهب وأتى بخبز فوجده أكل اللحم، ففعل معه ذلك مرات عدة فسأله الرجل: أين مقصدك؟ قال: إلى الشام..

قال: ولماذا؟ قال: ـ بلغني أن بها طبيباً حاذقاً لأسأله عما يصلح معدتي فإني قليل الشهوة للطعام! فقال له الرجل: إن لي إليك حاجة... قال أشعب: وما هي؟ قال الرجل: إذا ذهبت وأصلحت معدتك فلا تجعل رجوعك من هنا!

* مر أشعب على قوم فقال: سلام عليكم معشر اللئام! افرفعوا أبصارهم قائلين: لا والله، بل كرام، فقال: اللهم اجعلهم من الصادقين واجعلني من الكاذبين، ثم مد يده إلى صحن الطعام الذي بين أيديهم، وهو يقول: ماذا تأكلون؟ فقالوا من بغضه: نأكل سماً.

فحشا فمه وازدرد وهو يقول: الحياة بعدكم حرام! وأخذ يأكل حتىٰ كاد يأتي علىٰ طعامهم، فقالوا له: يا رجل هل عرفت أحداً منا؟! فأشار أشعب بأصبعه إلىٰ الطعام وقال: عرفت هذا!

* قال أشعب لصديقه: ألا تؤمن بالتعاون في الحياة؟ فرد الصديق: نعم بكل تأكيد! فقال أشعب: إذاً سأعاونك في تناول الطعام في منزلك اليوم!!

* حدث لأشعب وهو صبي أن كان والي الحجاز سائراً في الطريق فسأله هل تعرف القراءة يا غلام؟ فقال: نعم، فسأله أن يقول شيئاً: فقال: «إنا فتحنا لك فتحاً مبينا» فسُرَّ الوالي من هذا الجواب وأعطاه ديناراً.. فرفض أشعب أن يقبل الدينار.. فسأله الوالي عن سبب رفضه فقال أشعب: أخاف أن يضربني أبي.. فقال الوالي قل له أن الوالي هو الذي أعطاني الدينار.. فقال أشعب: إنه لن يصدقني!! فقال الوالي: ولماذا؟! فسكت أشعب لحظة ثم قال: سيقول لي: إن هذه ليس هي عطية الولاة!!

* جاءت جارية ذات يوم إلىٰ أشعب وأعطته ديناراً قائلة له: هذا وديعة عندك؟

فقال أشعب: حسنا سأضعه بين ثني الفراش. وبعد أيام عادت الجارية وقالت لأشعب: بأبي أنت وأمي، الدينار، يا أشعب، فقال: ارفعي فراشي، وخذي ولده، فإنه قد ولد! وكان أشعب قد ترك جنبه درهماً، فأخذت الجارية الدرهم وتركت الدينار، وعادت بعد أيام، فوجدت معه درهماً آخر، فأخذته وفي المرة الثالثة كذلك، ولما جاءت المرة الرابعة، ورآها أشعب، انفجر باكياً، فقالت له: ما يبكيك؟ قال: مات دينارك في النفاس؟ قالت: وكيف يكون للدينار نفاس؟ قال: يا خبيثة، تصدقينني بالولادة، ولا تصدقينني بالنفاس؟

* بينا قوم جلوس عند رجل يأكلون حيتاناً إذ استأذن عليهم أشعب، فقال أحدهم: إن من شأن أشعب البسط علىٰ أجلّ الطعام، فاجعلوا كبار هذه الحيتان في قصعة بناحية، ويأكل معنا الصغار، ففعلوا وأذنوا له، فقالوا: كيف رأيك في الحيتان؟ فقال: والله إن لي عليها لحنقاً شديداً، لأن أبي مات في البحر وأكلته الحيتان! فقالوا له: فدونك خذ بثأر

أبيك ، فجلس ومدّ يده إلى حوت صغير ، ثم وضعه عند أذنه وقد نظر إلى القصعة التي فيها الحيتان الكبار ، فقال : أتدرون ما يقول هذا الحوت؟ قالوا : لا . قال : إنه يقول : إنه لم يحضر موت أبي ولم يدركه ، لأن سنه يصغر عن ذلك ، فعليك بتلك الكبار التي في زاوية البيت ، فهي أدركته وأكلته!

* قال عبدالرحمن بن عبدالله الزهري : صلى أشعب إلى جانب مروان بن أبان بن عثمان ، وكان مروان عظيم الخلق والعجيزة ، فأفلتت منه ريح عند نهوضه لها صوت! فانصرف أشعب من الصلاة ، فأَوْهم الناس أنه هو الذي خرجت منه الريح! فلما انصرف مروان إلى منزله جاءه أشعب فقال له : الدية . فقال : ماذا؟! فقال : دية الريح التي أفلتت منك وحَمَلْتها عنك ، والله لأشهرنّك ، فلم يدعه حتى أخذ منه شيئاً صالحاً!

* مر رجل بأشعب ، وكان يجر حماره ؛ فقال له الرجل مازحاً : لقد عرفت حمارك يا أشعب ولم أعرفك! فقال أشعب : لا عجب في ذلك ، فالحمير تعرف بعضها!

* دخل أشعب على أبي جعفر المنصور فوجده يأكل من طبق من اللوز والفستق فألقى أبو جعفر إلى أشعب بواحدة من اللوز ، فقال أشعب : يا أمير المؤمنين ، ثاني اثنين إذ هما في الغار! فألقى إليه أبو جعفر اللوزة الثانية ، فقال أشعب فعززناهما بثالث! فألقى إليه الثالثة! فقال أشعب : خذ أربعة من الطير فصرهن إليك! فألقى إليه الرابعة . فقال أشعب : ويقولون خمسة سادسهم كلبهم! فألقى إليه الخامسة والسادسة . فقال أشعب : ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم! فألقى إليه السابعة والثامنة . فقال أشعب : وكان في المدينة تسعة رهط! فألقى إليه التاسعة . فقال أشعب : فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة! فألقى إليه العاشرة ، فقال أشعب : إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين! فألقى إليه الحادية عشرة ، فقال أشعب : والله يا أمير المؤمنين إن لم تعطني الطبق كله لأقولن لك : وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون! فأعطاه الطبق كله!

جحا... المغفل!

* جحا اسم مشهور ومعروف، وتنسب إليه النوادر والطرائف، وكثير من القصص والحكايات التي تدل على الفطنة والذكاء، إلا أن الغالب عليه التغفيل! وتذكر كتب التراجم أن جحا ولد في القرن الأول الهجري ويُعدُّ من التابعين، وسكن الكوفة، ويُدْعىٰ أبا الغصن واسمه: دجين بن ثابت، ونوادره في نهاية الحلاوة! وكانت أمه خادمة لأم أنس بن مالك رضي الله عنه، وكان الغالب عليه السماحة وصفاء السريرة. وقيل: إن بعض مَنْ كان يُعاديه وضع له حكايات، قال السيوطي: وغالب ما يذكر عنه من الحكايات المضحكة لا أصل له ونسبته إلىٰ قبيلة فزارة.

* وفيه يقول عمر بن أبي ربيعة:

دَلَّهْتِ عقلي وتلعَّبتِ بي ... حتىٰ كأني من جنوني جحا

* وذكره الميداني في مجمع الأمثال وهو يتحدث عن الأمثال العربية في الحمق فيقول: أحمق من جحا!

* ومن أظهر طرائفه ما ورد أنه لما قدم أبو مسلم الخراساني العراق قال ليقطين بن موسىٰ: أحب أن أرىٰ جحا، فتوجه إليه يقطين فدعاه، وقال: تهيأ حتىٰ تدخل علىٰ أبي مسلم، وإياك أن تُعلّق بشيء دون أن تستأذن، فإني أخشاه عليك، قال: نعم. فلما كان من الغد جلس أبو مسلم ووجه يقطين إليه فدعاه، وأُدْخل علىٰ أبي مسلم وهو في صدر المجلس، ويقطين إلىٰ جنبه، وليس معهما أحد فسلم ثم قال: يا يقطين أيكما أبو مسلم؟ فضحك أبو مسلم ووضع يده علىٰ فمه ولم يكن قبل ذلك ضاحكاً! وتمادىٰ جحا في تحامقه فقال لأبي مسلم: إني نذرت إن رأيتك أن آخذ منك ألف درهم! فقال أبو مسلم: إني رأيت أصحاب النذور يعطون ولا يأخذون! وأمر له بها!

* وقد ذهب بعضهم إلىٰ أن «جحا» شخص وهمي، ولعل من أسباب الشك في وجود جحا كثرة ما نسب إليه من النوادر، ولكن هذا يحتاج إلىٰ إعادة نظر، فالمعروف أن بعض

الشعر الذي يَرِد فيه اسم ليلىٰ قد نسب إلىٰ مجنون بني عامر قيس بن الملوح، وأن بعضه الذي يدعو إلىٰ المجون قد نُسِب إلىٰ أبي نواس! دون التحقيق في صحة نسبه في الحالتين، وقياساً عليه فلا غرابة أن نُسبت بعض النوادر التي فيها فطانة أو حماقة أو تغفيل إلىٰ جحا حتىٰ ولو لم تكن له!

* ويقال إن جحا هو أحد شيوخ الترك واسمه: نصر الدين خوجة، وكان من أهل الدعابة والتظرف، وعاش في زمن تيمورلنك، وقد يكون هناك، جحا عربي، وآخر تركي! ونسب إليهما الكثير من الحكايات المضحكة، ومما يروىٰ عن جحا التركي أن تيمورلنك لما أغار علىٰ بلاد الأناضول في أوائل القرن الثامن الهجري، وقرب من قرية نصر الدين خوجة، خرج إليه حاملاً له هدية، عبارة عن أوزة مشوية، فجاع أثناء الطريق، فأكل فخذاً، فلما حضر بها إليه، وعلم بمكانه من الدعابة قال له: أين فخذها؟ فقال: جميع الوز أيها الملك برجل واحدة، وإن لم تصدق فانظر إلىٰ أسرابه بين يديك! وكان أمامه مسرح للإوز، ومن عادة الإوز أنه إذا أراد الاستراحة وقف علىٰ رجل واحدة، وقبض الأخرىٰ، فلما رأىٰ تيمورلنك ذلك أمر بضرب الطبول، فلما ضربت هاج الوز ومشىٰ علىٰ رجليه! فقال للخوجة نصر الدين: ألا ترىٰ؟ فقال له مداعباً: إنك لو هددتني بمثل هذا لمشيت علىٰ أربع! فضحك من دعابته، وأمّن قريته لأجله!.

* قال مكي بن إبراهيم: رأيت جحا رجلاً كيِّساً ظريفاً وهذا الذي يقال عنه مكذوب عليه، وكان له جيران مخنثون يمازحهم ويمازحونه فوضعوا عليه. وقال أبو بكر الكلبي: خرجت من البصرة فلما قدمت الكوفة، إذا أنا بشيخ جالس في الشمس، فقلت: يا شيخ أين منزل الحكم؟ فقال لي: وراءك، فرجعت إلىٰ خلفي، فقال: يا سبحان الله! أقول لك وراءك وترجع إلىٰ خلفك! أخبرني عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالىٰ ﴿**وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً**﴾ قال: بين أيديهم، فقلت: أبو من؟ قال: أبو الغصن، فقلت: الاسم؟ قال: جحا! وأيا كان فقد علق في الأذهان أن جحا أصبح يضرب به المثل في الحماقة والبلاهة، وتنسب إليه الفكاهات والنوادر، فمن ذلك: وهذه بعض الحكايات المنسوبة لجحا، وقد تكون للعربي أو للتركي، أو لغيرهما وألصقت بهما وهذا في الغالب!

* قال رجل لجحا: سمعت من داركم صراخاً، قال: سقط قميصي من فوق، قال: وإذا سقط من فوق؟ قال: يا أحمق لو كنت فيه أليس كنت قد وقعت معه؟

* اشتاق الناس إلى وعظ جحا.. وطلبوا منه أن يعظهم، فصعد المنبر وقال: أيها الناس احمدوا الله الذي لم يجعل للأفيال أجنحة وإلا كانت تطير وتنزل على بيوتكم فتهدمها على رؤوسكم!

* سأل أحدهم جحا: إن الكلب احتك بحائطي فكيف يتم تطهيره؟! قال جحا: يُهدم ويُبنى سبع مرات!! فقال الرجل: ولكنه الحائط الذي بين داري ودارك! فقال جحا مسرعاً: إذا كان الأمر كذلك.. فيكفي قليل من الماء ليطهر الحائط!!

* ومات جار له، فأرسل إلى الحفار ليحفر له، فجرى بينهما لجاج في أجرة الحفر، فمضى جحا إلى السوق واشترى خشبة بدرهمين وجاء بها، فسئل عنها فقال: إن الحفار لا يحفر بأقل من خمسة دراهم، وقد اشترينا هذه الخشبة بدرهمين لنصلبه عليها ونربح ثلاثة دراهم ويستريح من ضغطة القبر ومسألة منكر ونكير!

* وحكي أن جحا تبخر يوماً فاحترقت ثيابه فغضب وقال: والله لا تبخرت إلا عرياناً!

* وهبَّت يوماً ريح شديدة، فأقبل الناس يدعون الله ويتوبون، فصاح جحا: يا قوم، لا تعجلوا بالتوبة وإنما هي زوبعة وتسكن.

* وذكر أنه اجتمع على باب دار أبي جحا تراب كثير من هدم وغيره، فقال أبوه: الآن يُلْزمني الجيران برمي هذا التراب، وأحتاج إلى مؤنة وما هو بالذي يصلح لضرب اللبن، فما أدري ما أعمل به؟، فقال له جحا إذا ذهب عنك هذا المقدار فليت شعري أي شيء تحسن! فقال أبوه: فعلمنا أنت ما تصنع به؟ فقال: يحفر له آبار ونكبسه فيها!

* واشترى يوماً دقيقاً وحمله على حمال فهرب بالدقيق، فلما كان بعد أيام رآه جحا فاستتر منه، فقيل له: ما لك فعلت كذا؟ فقال: أخاف أن يطلب مني كراه! ـ أجرته ـ

* ووجهه أبوه ليشتري رأساً مشوياً، فاشتراه وجلس في الطريق، فأكل عينيه وأذنيه ولسانه ودماغه، وحمل باقيه إلى أبيه، فقال: ويحك ما هذا؟ فقال: هو الرأس الذي طلبته. قال فأين عيناه؟ قال كان أعمى. قال: فأين أذناه؟ قال: كان أصم. قال: فأين لسانه؟ قال: كان أخرس. قال: فأين دماغه؟ قال: فكان أقرع: قال: ويحك، رده وخذ بدله، قال: باعه صاحبه بالبراءة من كل عيب!

* ومات أبوه فقيل له: اذهب واشتر الكفن، فقال: أخاف أن أشتري الكفن فتفوتني الصلاة عليه.

* توضأ جحا ذات يوم وكان الماء قليلا فبقيت رجله اليسرى بغير غسل، فلما وقف للصلاة رفعها كما يرفع الأوز رجله، فقالوا له: ماذا تصنع؟ فقال: رجلي اليسرى غير متوضئة!

* وحكي: أن المهدي أحضره ليمزح معه، فدعا بالنطع والسيف، فلما أقعد في النطع، قال للسياف أنظر لا تصب محاجمي فإني قد احتجمت!

* ورأوه يوماً في السوق يعدوا فقالوا ما شأنك؟ قال: هل مرت بكم جارية رجل مخضوب اللحية؟

* واجتاز يوماً بباب الجامع فقال: ما هذا؟ فقيل مسجد الجامع، فقال رحم الله جامعاً ما أحسن ما بنى مسجده!

* ومر بقوم وفي كمه خوخ، فقال: من أخبرني بما في كمي فله أكبر خوخة، فقالوا: خوخ، فقال: ما قال لكم هذا إلا من أمه زانية.

* وسمع قائلاً يقول ما أحسن القمر، فقال: أي والله خاصة في الليل.

* وقال له رجل: أتحسن الحساب بأصبعك؟ قال: نعم، قال: خذ جريبين حنطة، فعقد الخنصر والبنصر، فقال له: خذ جريبين شعيراً فعقد السبابة والإبهام وأقام الوسطى فقال الرجل لم أقمت الوسطى، قال: لئلا يختلط الحنطة بالشعير!

* ومر يوماً بصبيان يلعبون ببازي ميت، فاشتراه منهم بدرهم وحمله إلى البيت، فقالت أمه: ويحك ما تصنع به وهو ميت؟ فقال لها: أسكتي فلو كان حياً ما طمعت في شرائه بمائة درهم!

* كان جحا يبالغ في كلامه فقال له أحد أصدقائه، إذا لاحظت في كلامك مبالغة فسأجعل العلامة بيني وبينك أن أقول «أحم» وفي يوم جلس جحا مع بعض الناس فقال لهم: إني بنيت مسجداً في البلد طوله ألف متر فقال صديقه «أحم» فسكت جحا فسأله أحد الناس: وكم عرضه؟ فقال جحا: وعرضه متر واحد! فتعجب الناس وقالوا له: لماذا جعلته ضيقاً جداً؟ فالتفت إلى صديقه وقال: الله يضيقها على من ضيقها علينا!!

* مرّ عيسى بن موسى الهاشمي على أبي الغصن وهو يحفر بظهر الكوفة موضعاً، فقال له: مالك يا أبا الغصن؟ قال: إني قد دفنت في هذه الصحراء درهماً، ولست أهتدي إلى مكانها، فقال عيسى: كان يجب أن تجعل عليها علامة، قال: قد فعلت، قال: ماذا؟ قال: سحابة في السماء كانت تظلها، ولست أرى العلامة الآن!

* أراد جحا الذهاب لحج بيت الله الحرام. وكان في بيته قطع من الحديد، جاء بها لعمارة سقوف بيته، فأودعها عند أحد التجار. ولما عاد من الحج، ذهب إلى التاجر ليأخذ منه الحديد، فقال التاجر: إن الجرذان قد أكلته! فتظاهر جحا أنه قد صدق قول التاجر، وأضمر له شراً! وفي اليوم التالي، رأى جحا صبياً صغيراً للتاجر يلعب في الطريق، فأخذه وخبأه في بيته! وبحث التاجر عن صغيره فلم يعثر عليه. فجاء إلى جحا، وقال: هل رأيت إبني؟ قال جحا: نعم، رأيت حدأة كبيرة قد انقضت من السماء على ولدك فاختطفته، وطارت به! فقال التاجر: وهل من المعقول أن حدأة تخطف طفلاً وتأخذه؟ فقال جحا: وأي عجب في هذا؟ فإن المدينة التي تأكل فيها الجرذان الحديد، تخطف فيها الحدأة الصبيان!. فأعاد التاجر الحديد إلى جحا، فأعاد جحا ولده إليه، فأخذه وانصرف!

* جاء جحا إلى بزاز ليشتري ثوباً، فسامه البائع عليه بثلاثين درهماً. فقال للبائع: لقد عدلت عن هذا، فأعطني بدل الثوب جبة. فأعطاه البائع جبة، فأخذها جحا وذهب

لينصرف! . فقال البائع : أعطني ثمن الجبة ، قال : لقد تركت لك الثوب بدلاً عنها! . فقال : أنت لم تعطني ثمن الثوب! . فقال جحا : يا سبحان الله! أنا لم آخذ الثوب ، فكيف أعطيك ثمنه؟!

* جاء رجل إلىٰ جحا ، عندما كان قاضياً ، وقال : أصلح الله القاضي ، إن ثورك نطح ثوري فقتله . فهل يلزمك الضمان؟ قال : لا ، إن جرح العجماوات جبار! . فقال الرجل : لقد التبس علي الأمر ، إن ثوري هو الذي نطح ثورك ، فقتله ، فهل يلزمني الضمان؟ . فقال جحا : لقد تغير وجه الدعوىٰ ، وأشكلت المسألة ، فناولني ذلك الكتاب الذي على الرف لأنظر فيه! .

* طرق باب جحا يوماً سائل فخرج إليه ، فقال : ماذا تريد؟ فقال السائل : أنا ضيف الله! . فقال جحا : إتبعني ، فتبعه ، حتىٰ وصل إلىٰ الجامع ، فقال : لقد جئت إلىٰ بيتي خطأ ، فهذا بيت الله يا ضيف الله!!

* جلس جحا يتعشىٰ مع امرأته ، وكان العشاء حساء ، فتناولت إمرأته شيئاً من الحساء فاحترق فمها ، فدمعت عيناها . فقال لها : ما بالك تبكين؟ قالت : ذكرت أمي فبكيت! فتناول جحا من الحساء شيئاً فاحترق فمه ، فدمعت عيناه . فقالت له : مالك تبكي؟ قال : أبكي أمك الفاعلة التي خلفت لخناء مثلك!

* دخل جحا إلىٰ المدينة ، فسمع المؤذن وكان قبيح الصوت يؤذن في أعلىٰ المنارة ، فظن جحا أن المؤذن يستغيث ، فقال له : الشجرة عالية ، وليس لها أغصان ، وليس عندي سلم ، فكيف أقدر أن أصعد إليك فأعينك؟! .

* احتاج جحا إلىٰ بعض المال فرهن داره عند أحد المرابين ، وبعد مدة عجز عن الدفع فباع الدار إلىٰ المرابي ، إلا أنه اشترط عليه أن يُبقي المسمار الذي في حائط الغرفة ملكاً له ، وأن من حقه ، أن يأتي لزيارته أنىٰ يشاء! فوافق الرجل ، واشترىٰ الدار علىٰ ذلك الشرط! . وفي اليوم التالي ، جاء جحا في ساعة العشاء ليرىٰ مسماره . فعزم عليه الرجل أن يتعشىٰ ، فتعشىٰ! ثم جاء في اليوم التالي في ساعة الغداء ، فتغدىٰ! ثم جاء بعدها في

منتصف الليل. وبعدها في ساعة القيلولة! حتىٰ ملَّ الرجل، وبلغت روحه التراقي، فترك الدار، وفرَّ هارباً!

* اشترىٰ جحا لحافاً جديداً، وفي ذات ليلة كان يلتف بلحافه، فسمع ضوضاء، وصوت شجار، أمام باب داره، فنزل ليستطلع الأمر، وهو ملتف بلحافه الجديد، فانتهز بعض اللصوص حلول الظلام، فسحب اللحاف من جحا وفر هارباً! وفي تلك اللحظة انتهىٰ الشجار، وسكنت الضوضاء! فعاد جحا إلىٰ فراشه، فسألته امرأته عن سبب ذلك الشجار، وتلك الضجة، فقال: لقد كانت كلها من أجل اللحاف! فلما ذهب اللحاف! انتهىٰ الخلاف!.

* جاء جحا إلىٰ حاكم البلدة وقال: إني نظمت قصيدة في مدح مولانا، فإذا أراد ألقيتها بين يديه قال: قل، وبعدما قالها جحا لم يستحسنها الحاكم فأهداه بردعة حمار! فوضعها جحا علىٰ كتفه وخرج، وقابلته زوجة الملك وسألته: ما هذا الذي تضعه علىٰ كتفك يا جحا؟ قال يا مولاتي مدحت مولانا الحاكم بأفخر أشعاري فأهداني أفخر ملابسه!

* جاء رجل إلىٰ جحا في ارتباك واضح وقال له: لقد تشاجرت امرأتي وأختها وكادتا أن تخنق كل منهما الأخرىٰ، فأرجو أن تحضر لعلك تتخذ وسيلة لإصلاح ذات بينهما. فأجابه جحا: هل تشاجرتا من أجل العمر؟ فقال الرجل: كلا يا سيدي لم تبحثا عن الأعمار، فقال له جحا: اذهب إلىٰ البيت إذن فلا لزوم للارتباك فربما تكونان قد تصالحتا..!

* كان جحا جالساً في مجلس الطاغية «تيمورلنك» فقال له: يا نصير الدين - وهذا اسم جحا - إنني شديد الإعجاب بأسماء الخلفاء السابقين التي تختتم باسم الله، مثل: الواثق بالله.. والمستعين بالله. والمستنصر بالله،، وأريد أن تختار لي اسماً من هذا النوع، فالتفت إليه جحا وقال علىٰ عادته في خفة الدم وبأسلوبه الساخر اللاذع: إنني أختار لك اسم: أعوذ بالله!! فضحك تيمور.. ولم ويجب!

* قصد جحا ذات يوم جاراً له طالباً أن يعيره حماره.. لأنه كان بحاجة إليه لكي

يمضي لزيارة أحد أنسبائه . . فرحب به الجار كل الترحيب . . وجعل يحدثه عن العلاقة الوثيقة التي تربط بين الجار والجار . . وعدّد له أمثلة شتىٰ تبرز أهمية الجار فتجعله شبيهاً بالشقيق بل أقرب . . ولكنه ما أن انتهىٰ من كلامه حتىٰ قال بلهجة الاعتذار : أنت تعلم مقدار محبتي لك ورغبتي في مساعدتك . . ولكن لسوء الحظ جاء ابن عمتي . هذا الصباح وأخذ الحمار ولا أدري متىٰ يعود به . . وفيما هو يسترسل في الكلام والاعتذار نهق الحمار - وكان مربوطاً بجوار المنزل - فضحك جحا وقال لجاره : إنك بليغ حقاً في التعبير عن شعورك الحي نحو الجار . . ولكني أرىٰ أن نهيق الحمار أشد بلاغة . . واستأذنه ثم انصرف !

* وحدث مرة أن أحد جيرانه طلب الحمار لقضاء حاجة فاعتذر بأنه غير موجود ، وفي تلك اللحظة نهق الحمار ، فقال الجار : هذا صوت الحمار ونهيقه ، إنه موجود ، فقال جحا : تصدق الحمار ولا تصدقني ؟ !

* التقىٰ رجل بولد صغير يبكي فسأله عن سبب بكائه فقال الولد : سقط مني جنيه . فقال الرجل : لا تحزن سأعطيك جنيهاً . وبعدما أخذ الولد الجنيه عاد يبكي . . فسأله الرجل عن سبب بكائه فأجاب : لو لم أضيع الجنيه لكان معي الآن جنيهان !

* كان جحا يبيع زيتوناً ، فجاءته امرأة تشتري منه بالأجل ، فقال لها : ذوقيه لتعرفيه . فقالت : إني صائمة قضاء رمضان الماضي ، فقال لها : قومي يا ظالمة ، أنت تماطلين ربك وتطلبين مني الشراء بالأجل ؟ !

تأملات

* دعا منصور بن عمار يوماً فقال : اللهم اغفر لأعظمنا ذنباً ، وأقسانا قلباً ، وأقربنا بالخطيئة عهداً ، وأشدّنا على الدنيا حرصاً ! فقال له أبويعقوب الخريميّ : امرأتي طالق ، إنْ كنتَ دعوْتَ إلا لإبليس ! .

* إذا لم تعلم إلىٰ أين تذهب ، فكل الطرق تفي بالغرض !

أبو العيناء

* كان أبو العيناء من أفصح الناس لساناً وأحفظهم، وكان من ظرائف العالم، وفيه من اللَّسَنِ وسرعة الجواب والذكاء ما لم يكن في أحد من نظرائه، وله أخبار حسان وأشعار ملاح!

* حضر يوماً مجلس بعض الوزراء، فأفاضوا في حديث البرامكة وكرمهم وما كانوا عليه من البذل والإفضال، فقال الوزير: قد أكثرت من ذكرهم ووصفك إياهم، وإنما هذا تصنيف الوراقين وكذب المؤلفين، فقال أبو العيناء: فلم لا يكذب الوراقون عليك أيها الوزير؟ فسكت الوزير، وعجب الحاضرون من إقدامه عليه!

* مر أبو العيناء بباب عبدالله بن منصور وهو مريض وقد صح، فقال لغلامه كيف خبره؟ فقال: كما تحب، فقال: ما لي لا أسمع الصراخ عليه؟!

* ودخل أبو العيناء على أبي الصقر إسماعيل بن بلبل الوزير يوماً، فقال له: ما الذي أخرك عنا يا أبا العيناء، فقال سرق حماري، قال: وكيف سُرق؟ قال: لم أكن مع اللص فأخبرك! قال: فهلا أتيتنا على غيره؟ قال: قعد بي عن الشراء قلة يساري وكرهت ذلة المكاري ومنّة العواري!

* قال أبو العيناء: كنت يوماً في الوراقين إذ رأيت منادياً مغفلاً في يده مصحف مخلق الأداة فقلت له: ناد عليه بالبراءة مما فيه وأنا أعني أداته، فأقبل ينادي بذلك فاجتمع أهل السوق والمارة على المنادي وقالوا له: يا عدو الله تنادي على مصحف بالبراءة مما فيه! قال وأوقعوا به، فقال لهم: ذلك الرجل القاعد أمرني بذلك! فتركوا المنادي وأقبلوا علي ورفعوني إلى الوالي وكتب في أمري إلى السلطان فأمر بحملي فحملت مستوثقاً مني واتصل خبري بابن أبي دؤاد فلم يزل يتلطف في أمري حتى خلصني!

* وصار يوماً إلى باب صاعد بن مخلد، فاستأذن عليه، فقيل: هو مشغول بالصلاة، فقال: لكل جديد لذة، وكان صاعد قبل الوزراة نصرانياً!

* ودعا سائلاً ليعشيه فلم يدع شيئاً إلا أكله، فقال: يا هذا، دعوتك رحمة فتركتني رحمة!

* وكان بينه وبين ابن مكرم مداعبات فسمع ابن مكرم رجلاً يقول: من ذهب بصره قلت حيلته، فقال: ما أغفلك عن أبي العيناء! ذهب بصره فعظمت حيلته!

وقد ألم أبو علي البصير بهذا المعنى، يشير به إلى أبي العيناء:

قد كنت خِفْتُ يد الزما ... ن عليك إذ ذهب البصرْ

لم أدر أنك بالعمى ... تغْنى ويفتقرْ البشرْ

* قال أبو العيناء: كان وقوفي في الصف وراء الإمام، فذكر الإمام شيئاً، فقطع الصلاة وقدم المدني ليؤمهم، فوقف طويلاً، فلما أعيا الناس سبحوا لتنبيهه، وهو لا يتحرك، فنحوّه وقدموا غيره وعاتبوه، فقال: ظننته يقول لي: احفظ مكاني حتى أجيء!

* أخرج راع أحمق غنماً، وعاد مع الليل، والعصا على عنقه من دون غنم، فقيل له: وأين الغنم؟ قال: لا إله إلا الله، وأنا أقول: أي شيء نسيت في الجبل؟

* ولقيه بعض أصحابه في السحر، فجعل يتعجب من بكوره، فقال أبو العيناء: أراك تشركني في الفعل، وتفردني بالتعجب!

* قال أبو العيناء: كان سبب خروجي من البصرة وانتقالي عنها أني مررت بسوق النخاسين يوماً فرأيت غلاماً ينادى عليه وقد بلغ ثلاثين ديناراً وهو يساوي ثلاثمائة دينار فاشتريته، وكنت أبني داراً فدفعت إليه عشرين ديناراً على أن ينفقها على الصناع، فجاءني بعد أيام يسيرة فقال: نفدت النفقة، قلت: هات حسابك، فرفع حساباً بعشرة دنانير، قلت: فأين الباقي؟ قال: اشتريت به ثوباً مصمتا وقطعته، قلت: ومن أمرك بهذا! قال: يا مولاي لا تعجل فإن أهل المروآت والأقدار لا يعيبون على غلمانهم إذا فعلوا فعلاً يعود بالزين على مواليهم، فقلت في نفسي: أنا اشتريت الأصمعي ولم أعلم! قال: وكانت في نفسي امرأة أردت أن أتزوجها سراً من ابنة عمي، فقلت له يوماً: أفيك خير؟ قال: أي

لعمري، فأطلعته على الخبر فقال: أنا نعم العون لك، فتزوجت ودفعت إليه ديناراً فقلت له: اشتر لنا كذا وكذا، ويكون فيما تشتريه سمك هازبي فمضى ورجع وقد اشترى ما أردت إلا أنه اشترى سمكاً مارما هي، فغاظني، فقلت: أليس أمرتك أن تشتري هازبي؟ قال: بلى، ولكني رأيت بقراط يقول: إن الهازبي يولد السوداء، ويصف المارما هي ويقول إنه أقل غائلة، فقلت: أنا لم أعلم أني اشتريت جالينوس! وقمت إليه فضربته عشر مقارع، فلما فرغت من ضربه أخذني وأخذ المقرعة وضربني سبع مقارع وقال: يا مولاى الأدب ثلاث والسبع فضل ولذلك قصاص، فضربتك هذه السبع خوفا عليك من القصاص يوم القيامة! فغاظني جداً فرميته فشججته فمضى من وقته إلى ابنة عمي فقال لها: يا مولاتي الدين النصيحة، وقد قال النبي ﷺ «من غشنا فليس منا» وأنا أعلمك أن مولاي قد تزوج واستكتمني، فلما قلت له لابد من إعلام مولاتي ضربني بالمقارع وشجني! فمنعتني بنت عمي من دخول الدار وحالت بيني وبين ما فيها، فلم أر الأمر يصلح إلا بأن طلقت المرأة التي تزوجتها فصلح أمري مع ابنة عمي، وسمت الغلام الناصح فلم يتهيأ لي أن أكلمه، فقلت أعتقه وأستريح لعله أن يمضي عني، فأعتقته، فغاب علي عشرين يوماً ثم رجع، فقلت له: لم رجعت؟ قال: قطع الطريق وفكرت فإذا الله تعالى يقول ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾ وكنت غير مستطيع وفكرت فإذا حقك علي أوجب، فرجعت، ثم أراد الغزو فجهزته فشخص، فلما غاب عني بعت كل ما أملكه بالبصرة من عقار وغيره وخرجت عنها خوفاً من أن يرجع!

* سئل أبو العيناء عن حماد بن زيد بن درهم وحماد بن سلمة بن دينار فقال: بينهما في القدر ما بين أبويهما في الصرف!

* وقف بأبي العيناء - وكان ضريراً - رجل من العامة فأحس به، فقال: من هذا؟ قال: رجل من بني آدم. قال: مرحباً بك، أطال الله بقاءك، وبقيت في الدنيا، ما أظن هذا النسل إلا قد انقطع!

* كان أبو الحارث حسين يُظهر لجارية من المحبة أمراً عظيماً، فدعته وأخرت الطعام

إلى أن ضاق، فقال: يا سيدتي، ما لي لا أسمع للغداء ذكراً؟ فقالت: يا سبحان الله! أما يكفيك النظر إلي وما ترغبه فيّ من أن تقول هذا؟! فقال: يا سيدتي، لو جلس جميل وبثينة من بكرة إلى هذا الوقت لا يأكلان طعاماً لبصق كلٌّ واحد منهما في وجه صاحبه!

* عرضت على المتوكل جارية شاعرة. . فأمر أبا العيناء الشاعر ليختبرها وكان ضريراً، فقال أبو العيناء للجارية: أتقولين الشعر كما يقولون؟ فقالت الجارية: نعم أقوله وأجيده. قال أبو العيناء: إليك شطراً واحداً فأكمليه: الحمدلله كثيراً. . . . فقالت الجارية: حيث أنشاك ضريراً!

* دخل أبو العيناء بلدة والصبية فيها يلعبون، فرموه بالحجارة فوقع حجر على رأسه فشجه، فذهب أبو العيناء لأمير البلد يشكوهم له فقال له الأمير: في أي يوم دخلت؟ قال أبو العيناء: في يوم نحس مستمر! وفي ساعة العسرة! ونزلت بواد غير ذي زرع، فضحك وأنعم عليه بعطية!

تأملات

* من يذهب إلى وليمة الذئب، يجب أن يصحب كلبه معه.

* تصادق مع الذئاب على أن يكون فأسك مستعداً.

* إذا اختبرت إنساناً فوجدته لا يصلح أن يكون صديقاً، فاحذر من أن تجعله لك عدواً.

* لتكن قوسك مهيأة، ولكن أجّل إطلاق السهم.

* إذا ضربت فأوجع فإن الملامة واحدة.

* الانسحاب الجيد خير من المقاومة السيئة.

* الذي لا يعتبرك رأس مال، لا تره مكسباً.

نوادر وطرائف في لوحات

ـ اللوحة الأولى ـ

* قال الأصمعي : دخلت على هارون الرشيد وبين يديه بَدْرة ـ مقدار من المال بحدود عشرة آلاف درهم ـ فقال : يا أصمعي ، إنْ حدّثتني بحديث في العَجْز فأضحكتني وهبتك هذه البدرة! فقال : بينا أنا في صحاري الأعراب في يوم شديد البرد والريح ، وإذا بأعرابي قاعد على أَجَمة وهو عريان ، قد احتملت الريح كساءه ، فألقته على الأجمة ، فقلت له : يا أعرابي ، ما أجلسك هاهنا على هذه الحالة؟ فقال : جارية وعدتها يقال لها سلمى ، أنا منتظر لها! فقلت وما يمنعك من أَخْذ كسائك؟ فقال : العَجْز يوقفني عن أخذه! فقلت له : فهل قلتَ في سلمى شيئاً؟ فقال : نعم . فقلت : أسمعني لله أبوك ، فقال : لا أسمعك حتى تأخذ كسائي وتلقيه عليّ! قال : فأخذته ، فألقيته عليه ، فأنشأ يقول :

لعل الله أن يأتي بسلمى ... فيبطحُها ويُلقيني عليها

ويأتي بعد ذاك سحابُ مُزْن ... تطهّرُنا ولا نسعى إليها!

فضحك الرشيد حتى استلقى على ظهره ، وقال : أعطوه البدرة ، فأخذها الأصمعي وانصرف!

* مات رجل ، فوقفت جارية له تندبه وتصيح : وا أبتاه ، واخيلاه! . فقالت امرأة : ويلك! ومتى كان لأبيك خيل؟ قالت : كان يريد أن يشتري!

* ضرب نصيب المدني في الشراب ، وكان الجلاد قصيراً دميماً ، فقال له : تقاصر لينالك السوط! فقال : ويلك ، إلى أكل الخبيص تدعوني؟ والله لوددت أني أطول من عوج بن عنق ، وأنت أقصر من يأجوج ومأجوج! ـ وعوج بن عنق كما يُروى في الاسرائيليات والخرافات كان طوله أكثر من ثلاثة آلاف ذراع! وكان يستخرج السمك من قاع البحر ويشويه على حرارة الشمس كما تزعم الخرافة! ـ

* كان بعض الفتيان يشربون النبيذ في طريق مكة، فمرت بهم عجوز، فدعوها، وسقوها قدحاً. فطابت نفسها! فسقوها قدحاً آخر، فاحمر وجهها، وضحكت! ثم سقوها قدحاً ثالثاً، فقالت: هل تشرب نساؤكم النبيذ؟. قالوا: نعم، قالت: زَنَيْنَ ورب الكعبة! والله لو صدقتم فيما تقولون، لما كان فيكم من يعرف أباه!

* قيل لأبي الطَّمْحان الشاعر: أخبرنا عن أدنى ذنوبك!. قال: ليلة الدير! قيل: وما ليلة الدير؟ قال: نزلت بنصرانية، فأطعمتني مرقاً بلحم خنزير، وسقتني خمراً، وزنيت بها، وسرقت كساءها!

* قال بعضهم: إن أهل «هيت» يكون أكثرهم عوراً! فرأيت رجلاً منهم صحيح العينين، فقلت له: إن هذا لغريب!.. فقال: يا سيدي، إن لي أخاً أعمى قد أخذ نصيبه ونصيبي!.

* قال الأصمعي: رأيت جارية بسوق النخاسين ـ السوق التي يباع فيه العبيد ـ ينادَىٰ عليها.. وعلىٰ خدها خال.. فدعوتها.. فأتت.. فقلت لها: ما اسمك؟ قالت: مكة!! فقلت: الله أكبر.. لقد قرب زمن الحج.. أتأذنين أن أقبّل الحجر الأسود؟.. فقلت: إليك عني.. ألم تسمع قوله تعالىٰ: ﴿لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس﴾. قال: فأعطيتها كيساً فيه دراهم ودنانير. فأخذته. وقالت: إنْ شئت قَبِّل الحجر.. وإن شئت طُفْ.. وإن شئت أدخل البيت.. فتركتها.. ومضيت حذراً من فتنتها..!!

* قال أبو العَمَيْثل مولىٰ العباس بن محمد: تكاذب أعرابيان، فقال أحدهما: خرجت مرة علىٰ فرس لي، فإذا أنا بظلمة شديدة فيَمّمتها حتىٰ وصلت إليها، فإذا قطعة من الليل لم تَنْتبه، فما زلت أحمل عليها بفرسي حتىٰ أَنْبَهْتها، فانجابت! فقال الآخر: لقد رميت ظبياً مرة بسهم، فعدل الظبي يَمْنة، فعدل السهم خلفه، فتياسر الظبي، فتياسر السهم، ثم علا الظبي، فعلا السهم خلفه، ثم انحدر فانحدر حتىٰ أخذه!

* وسئل أبو عبيدة عن مثل هذه الأخبار من أخبار العرب فقال: إن العجم تكذب أيضاً فتقول: كان رجل نصفه من نحاس، ونصفه من رصاص، فتعارضها العرب بهذا وما

أشبهه! ولو كان صاحب السهم في زماننا ورأىٰ الصواريخ الموجهة لعلم أنه لا يبعد عن الحقيقة والواقع في حديثه!!

* كان بعض الخدم واقفاً علىٰ رأس سيده، وهو في الفراش يشكو من وجع ضرسه. فحضر الطبيب إليه، فشكا له ألمه، فقال: حُكَّ رجليك يسكن الألم! فضحك الخادم، وقال: سيدي يشكو أعلاه، وأنت تداوي أسفله!. فقال: أنت شاهدي علىٰ ذلك، لأن خصيتيك لما قطعت لم تنبت لك لحية!.

* كان أحد المغفلين يقود حماراً فقال بعض الأذكياء لرفيق له: يمكنني أن آخذ هذا الحمار ولا يعلم هذا المغفل، قال: كيف تعمل ومقوده بيده؟! فتقدم فحلّ المقود وتركه في رأس نفسه وقال لرفيقه: خذ الحمار واذهب، فأخذه ومشىٰ ذلك الرجل خلف المغفل والمقود في رأسه ساعة، ثم وقف فجذبه فما مشىٰ فالتفت فرآه فقال: أين الحمار؟ فقال: أنا هو! قال: وكيف هذا؟! قال: كنت عاقاً لوالدتي فمسخت حماراً، ولي هذه المدة في خدمتك، والآن قد رضيت عني أمي فعدت آدمياً! فقال: إذا كان كذلك فاذهب في دعة الله فذهب! ومضىٰ المغفل إلىٰ بيته فقال لزوجته: اسمعي الخبر: كان الأمر كذا وكذا وكنا نستخدم آدمياً ولا ندري، فبماذا نكفر عن عملنا هذا؟ وكيف نتوب؟ فقالت: تصدق بما يمكن، فبقي أياماً ثم قالت له زوجته: اذهب واشتر حماراً لتعمل عليه، فخرج إلىٰ السوق فوجد حماره ينادىٰ عليه، فتقدم وجعل فمه في أذنه وقال: يا مدبر عدت إلىٰ عقوق أمك!

* دخل مغفل علىٰ مخبر التحليل فسأل الدكتور: كم تأخذ أجرة تحليل الدم؟ فرد الطبيب: مائة ليرة. فقال المغفل: والدم من عندي أو من عندك!

* شاهد أحدهم رجلاً قد أوقف حماره في الشمس، والحمار يكاد يغرق من كثرة عرقه! والرجل يأخذ بيديه من عرق الحمار، فيغسل به خصيتيه! فقال له: ماذا تفعل يا هذا؟. قال: في هذا حديث نبوي!. قال: وما هو؟. قال: يستحب غسل خصي الحمار بماء عرقه!. فقال: أخزاك الله. إنما هو: يستحب غسل حصىٰ الجمار بماء عرفة!

* قال بعضهم: مررت ببهلول المجنون، وهو يأكل خبيصاً، فقلت: أطعمني! قال: هو ليس لي، وإنما هو لعاتكة بنت الخليفة، بعثته لي لآكله لها!

الخبيص: نوع من الحلوىٰ يصنع من التمر والسمن.

* حكي أن جماعة من النحويين اختلفوا في إعراب «سراويل» وهل تصرف، أم أنها ممنوعة من الصرف، فدخل أحد ظرفاء النحويين، فقال: فيم أنتم؟ قالوا: في إعراب «سراويل» فما عندك منه؟ قال: مثل ذِراع البَكر، أو أشد!.

* كان الشاعر جعيفران الموسوس هجّاءً خبيث اللسان، لا يسلم منه أحد، فاطلع يوماً في البئر، فرأىٰ وجهه قد تغير وشعره طال فقال:

ما جعفرٌ لأبيه ولا له بشبيه
أضحىٰ لقومٍ كثير وكلُّهم يدعيه
هذا يقول بُنَيَّ وذا يخاصمُ فيه
والأمُّ تضحك منهم لعلمها بأبيه!

* سئل مغفل عن مرضه وهل سكن وجعه فقال: والله ما أدري اسألوا أمي!

* قال رجل لمملوكه: اخرج وانظر هل السماء مصحية أو مغيمة فخرج ثم عاد فقال: والله ما تركني المطر أنظر هل هي مغيمة أم لا!

* غصب رجل رجلاً شيئاً وتصدق به، فقيل له في ذلك، فقال: أخذي إياه سيئة، وصدقتي به عشر حسنات، فمضت واحد وبقيت لي تسع!

* سئل أحد المشايخ المغفلين: أتذكر أن حج الناس في رمضان؟ ففكر ساعة ثم قال: بلىٰ أظن مرتين أو ثلاثاً.

* احترق متجر للملابس، وبعد أنْ تم إطفاء الحريق انتبه رجل الأمن إلىٰ صاحب المتجر، وهو يكرر حمده لله، فسأله: هل خسرت كثيراً بسبب هذا الحريق؟ فقال صاحب المتجر: الحمد لله ليس كثيراً، كنت معلناً عن تنزيلات في الأسعار!

* تزوج رجل إمرأة صغيرة الجسم. فقيل له في ذلك، فقال: المرأة شر كلها، وكلما أقللت من الشر كان خيراً!

* سمع أحد الولاة رجلاً ذات يوم وهو يُغني بهذا البيت:

أرقْتُ وما هذا السهاد المؤرِّق   وما بي سُقْمٌ لا ولا أنا عاشق!

فقال: ما يقول هذا الرجل؟ قالوا: يتغنىٰ، قال: بماذا؟ قالوا: زعم أنه سهر من غير مرض ولا عشق!. قال: إذن فهو لص!.

* سرق أحدهم قميصاً، فبعثه مع ابنه ليبيعه، فسرق منه في الطريق، فرجع إلىٰ أبيه، فقال له: أبعت القميص؟ قال: نعم! قال: بكم؟ قال: برأس المال!

* قال الفرزدق: ما أفحمني إلا نبطي، قال: أنت الفرزدق؟ قلت: نعم. قال: إن هجوتني أموت؟ قلت: لا. قال: تموت زوجتي عَيْشونة؟ قلت: لا. قال: فتموت حمارتي؟ قلت: لا. قال: فمن رجلي إلىٰ عنقي في رحم أمك! قلت: ويلك، فلم تركت رأسك؟ قال: حتىٰ أنظر ما تصنع؟.

* أُدخل مالك بن أسماء سجن الكوفة، فجلس إليه رجل من بني مرة، فاتكأ عليه يحدثه، ثم قال: أتدري كم قتلنا منكم في الجاهلية؟! قال: أما في الجاهلية فلا، ولكن أعرف مَنْ قتلتم منا في الإسلام؟ قال: ومَنْ قتلنا منكم في الإسلام؟ قال: أنا، فقد قتلتني بنتن إبطيك!.

* قال قاص بالمدينة: وَدَّ إبليس أنَّ لكل واحد منكم خمسين ألف درهم يطغىٰ بها! فقال رجل من القوم: اللهم أعط إبليس سؤله فينا!

* مر بهلول بسوق البزازين فرأىٰ قوماً مجتمعين علىٰ باب دكان قد نقب فنظر فيه وقال: ما تعلمون مَنْ عمل هذا؟ قالوا: لا، قال: فأنا أعلم! فقالوا: هذا مجنون يراهم بالليل ولا يتحاشونه فالطفوا به لعله يخبركم! فقالوا: خبرنا، قال: أنا جائع، فجاؤه بطعام سني وحلواء! فلما شبع قام فنظر في النقب وقال: هذا عمل اللصوص!

* لسعت عقرب يد أعرابي، فقال لصاحبه: هل عندك دواء؟. قال: نعم، قال: وما هو؟ قال: الصياح حتى الصباح!.

* ركب أبو علقمة النحوي بغلاً، ووقف على صديق له، فقال: يا أبا علقمة، هل مع حسن منظر بغلك خير؟ قال: أوما بلغك خبره؟ فقال: لا، قال: خرجت عليه مرة من مصر، فقفز بي قفزة إلى فلسطين، والثانية إلى الأردن، والثالثة إلى دمشق!. فقال له صديقه: تقدم إلى أهلك يدفنوه معك في قبرك، فلعله يقفز بك فتعبر به الصراط.

* دخلت أعرابية على قوم يصلون. فقرأ الإمام: ﴿**فانكحوا ما طاب لكم من النساء**﴾، ووقف، وجعل يرددها. فجعلت الأعرابية تعدو وهي هاربة، حتى جاءت إلى أختها، فقالت: يا أختاه، مازال الإمام يأمرهم أن ينكحونا، حتى خشيت أن يقعوا علي!

* كان حيان بن بشر قد تولى قضاء بغداد وأصبهان، وكان من جملة رواة الحديث، فروى يوماً: أن عَرفجة قُطع أنفه يوم الكلام! فقال أحد الحضور: أيها القاضي، إنما هو يوم الكِلاب! فأمر بحبسه، فدخل الناس إليه، فقالوا: ماذا دهاك؟ فقال: قُطع أنف عرفجة في الجاهلية، وابتليت أنا به في الإسلام!

* دخل رجل على قتيبة بن مسلم، وكان عظيم اللحية، وقتيبة خفيف اللحية، فقال: لقد كبرت لحيتك! قال: ﴿**والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، والذي خبث لا يخرج إلا نكداً**﴾. فقال قتيبة: ﴿**قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث**﴾.

تأملات

* قال أبو عمرو بن العلاء: أنكح ضرار بن عمرو الضبي ابنته معبد بن زرارة، فلما أخرجها إليه قال لها: يا بنية أمسكي عليك الفضلين، قالت: وما الفضلان؟ قال: فضل الغُلمة، وفضل الكلام! - الغلمة: الشبق والتوقان لكثرة الجماع -

* الطرق المفروشة بالورد، لن تقودك للمجد.

* أفضل وسيلة لكي تحقق أحلامك، هي أن تستيقظ من النوم!

اللوحة الثانية

* بعث عبيدالله بن مروان، عم الوليد، إلى الوليد بقطيفة حمراء، وكتب إليه: إني بعثت إليك بقطيفة حمراء حمراء! فكتب إليه الوليد: قد وصلت إلي القطيفة، وأنت يا عم أحمق أحمق! القطيفة: دثار أو كساء أو فراش مخمل.

* قال محمد بن بلال لوكيله دَبَّة: اشتر لي طيباً سيرافياً، قال: تريده سيرافي، أو سيرافي سيرافي؟! كأنه يقول: عادي.. أم ممتاز!! أصلي أم تقليد؟

* دخل أبو طالب على المأمون فقال: كان أبوك يا أبا، خيراً لنا منك، وأنت يا أبا، ليس تعدنا ولا تبعث إلينا، ونحن يا أبا، تجارك وجيرانك. والمأمون في كل ذلك يبتسم!. أراد أن يكنيه فذهل عن كنيته. وكنية المأمون: أبو جعفر.

* وفد ربيعة بن عِسْل على معاوية فقال له معاوية: ما حاجتك، قال: زوجني ابنتك، قال: اسقوا ابن عِسْل عسلاً، فأعاد عليه فأعاد عليه العسل ثلاثاً، فتركه وقد كاد ينقدّ بطنه - يتقطع - قال: فاستعملني على خراسان، قال: زياد أعلم بثغوره. قال: فاستعملني على شرطة البصرة، قال: زياد أعلم بشرطته، قال: هب لي مائة جذع لداري، قال: وأين دارك؟ قال: بالبصرة. قال: كم ذرعها؟ قال: فرسخان في فرسخين. قال: فدارك في البصرة أو البصرة في دارك؟!

* استعمل معاوية رجلاً من كلب فذكر يوماً المجوس وعنده الناس، فقال: لعن الله المجوس ينكحون أمهاتهم، والله لو أعطيت مائة ألف درهم ما نكحت أمي! فبلغ ذلك معاوية فقال: قاتله الله أترونه لو زادوه على مائة ألف فعل! فعزله.

* ظل شاب يردد على لسانه أن السيارة الجديدة ذات اللون الأحمر.. هي من القوة والسرعة بحيث أنها فور وضع «الغيار» الثاني تصل إلى القمر!! وأخيراً اشترى الأب لابنه السيارة.. وحقق له أمنيته.. فقاد الشاب السيارة بسرعة جنونية.. وارتطم على الفور بأحد الجدران.. ونقل إلى المستشفى فاقد الوعي.. فما صحا إلا وهو في غرفة العناية

المركزة. . ففتح عينيه. . وشاهد الأنوار المسلطة على وجهه. . والطاقم الطبي حوله والجميع يرتدي اللون الأبيض. . فظن نفسه أنه حقاً. . وصل القمر!! فخاطبهم قائلاً: أخوكم «جمعان». . من كوكب الأرض. . !!

* مرض بدوي عاش حياته كلها في البادية ولم ير المدينة أبداً. . فنقل للمستشفى بإحدى المدن ووضع في غرفة «الانعاش». . فبدأ يتعافى ويستعيد وعيه وإدراكه، ففتح عينيه فشاهد النور المبهر. . والأَسِرَّة التي غطيت «بالشراشف» البيضاء. . والممرضات وهن يرتدين الأبيض. . فظن نفسه أنه حقاً ميت، وأنه الآن في الجنة. . ! فنادى إحدى الممرضات. . وهو يظنها من الحور العين! فسألها عن صديق له مات قبله وقال: ألم يمر عليكم فلان. . صديقه؟ فقالت: لا، فقال: أنا عارف أنه كان قليل الصلاة!

* جلس عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند الحجام ـ الحلاق ـ يقص شعره، وكان عمر رجلاً مهيبا. . فتنحنح عمر. . فأحدث الحلاق. . !! فأمر له بأربعين درهما!!

* كتب رجل رقعة إلى المتوكل يقول: يا أمير المؤمنين إن أحمد بن حنبل يشتم آباءك ويرميهم بالزندقة، فكتب فيها المتوكل: أما المأمون فإنه خلط فسلط الناس على نفسه، وأما أبي المعتصم، فإنه كان رجل حرب ولم يكن له بصر بالكلام، وأما أخي الواثق فإنه استحق ما قيل فيه، ثم أمر أن يضرب الرجل الذي رفع إليه الرقعة مائتي سوط، فأخذه عبدالله بن اسحاق بن إبراهيم فضربه خمسمائة سوط فقال له الخليفة: لم ضربته خمسمائة سوط؟ فقال: مائتين لطاعتك ومائتين لطاعة الله، ومائة لكونه قذف هذا الشيخ الصالح أحمد بن حنبل! وقد كتب الخليفة إلى أحمد يسأله عن القول في القرآن سؤال استرشاد واستفادة لا سؤال تعنت ولا امتحان ولا عناد فكتب إليه أحمد ـ رحمه الله ـ رسالة حسنة فيها آثار عن الصحابة وغيرهم، وأحاديث مرفوعة.

* قال صدقة بن موسى: كان في جوارنا رجل اسمه حمار متزوج من امرأة تحبه كثيراً فقالت له: أحب أن تغير اسمك، فقال لها: أفعل، ثم قال لها: لقد تسميت بغلاً! فقالت له: هو أحسن من ذلك ولكنك مازلت في الاسطبل!

* انتبه قوم ليلة في رمضان وقت السحور فقالوا لأحدهم: انظر هل تسمع أذاناً؟ فأبطأ عنهم ساعة ثم رجع فقال: اشربوا فإني لم أسمع أذاناً إلا من مكان بعيد!

* قال أبو زيد: رأيت أعرابياً كأن أنفه كوز من عظمه، فرآنا نضحك منه فقال: ما يضحككم، فوالله لقد كنت في قوم ما كنت فيهم إلا أفطس!

* سأل سائح أراد عبور بحيرة طبرية، صاحب الزورق: ما أجرة عبور البحيرة بزورقك؟ فأجاب: مئتا دولار! فقال السائح: إنه مبلغ مرتفع، فأجاب: يمكن يا سيدي أن يكون مبلغاً مرتفعاً، ولكن تذكر أنها بحيرة تاريخية وأن السيد المسيح سار سباحة على الماء هاهنا! فقال السائح: لا عجب.. فهو لما رأى أسعاركم الفاحشة فَضّل أن يلجأ إلى وسائله الخاصة!

* رفع أعرابي قصة إلى المأمون، وسأله أن يأذن له في الدخول عليه للاستماع منه، فأذن له، فدخل فسلم، فقال المأمون: تكلم بحاجتك؟ قال: أُخبر أمير المؤنين أن مصائب الدهر، وأعاجيب الأيام، ومِحن الزمن قصدتني، فأخذت مني ما كانت الدنيا أعطتني، فلم تبق لي ضيعة إلا خربت، ولا نهر إلا اندفر أي فاض، ولا منزل إلا تهدم، ولا مال إلا ذهب، وقد أصبحت لا أملك سبداً ولا لبداً - أي الشعر والصوف - ولي عيال وأطفال وصبية صغار، وأنا شيخ كبير، قد قعدت بي المطالب، وكبرت عني المكاسب، وبي حاجة إلى أمير المؤمنين وعطفه! قال: فبينما هو في الكلام إذ خرج منه صوت، فقال: وهذا يا أمير المؤمنين من عجائب الدهر ومحنته، ولا والله ما ظهر مني قط إلا في موضعه! فقال المأمون لجلسائه: ما رأيت قط أقوى قلباً ولا أربط جأشاً ولا أشد نفساً من هذا الرجل، ثم أمر له بخمسين ألف درهم معجلة!

* قدم صديق لزيارة صديق له، ولما أطل على داره أبصر رأسه في النافذة، ولما سأل عنه الخادم قال له: إنه خرج منذ الصباح. فقال له: بلغه سلامي وقل له إذا خرج أن لا يترك رأسه في النافذة.

* قال هاشم بن القاسم: جمعني والفرزدق مجلس، فتجاهلته فقلت له: من أنت؟

قال: أما تعرفني؟! قلت: لا، قال أنا أبو فراس! قلت: ومن أبو فراس؟ قال: أنا الفرزدق! قلت: ومن الفرزدق؟ قال: أوما تعرف الفرزدق؟ قلت: أعرفه أنه شيء يتخذه النساء عندنا، يتسمَّن به، وهو الفتُوت. فضحك الفرزدق وقال له: الحمد لله الذي جعلني في بطون نسائكم!

* شهد مجنون على امرأة ورجل بالزنا، فقال الحاكم: تشهد أنك رأيته يُدخله ويخرجه؟ قال: والله أنْ لو كنت جلدة استها لما شهدت بهذا!

* كان بهلول من مجانين الكوفة، فكان بعض الفتيان يضربونه ويصفعونه على ظهره، فحشا قفاه نجساً، وجلس على قارعة الطريق فكلما قفده ـ صفعه ـ إنسان تركه حتى يجوز، ثم يصيح به: يا فتى، شمَّ يدك! فلم يعد بعدها أحد يقفده!

وكان يغني بقيراط ويسكت بدانق!

* جاء رجل إلى رجل من الوجوه فقال: أنا جارك. وقد مات أخي فمُر لي بكفن، قال: لا والله ما عندي اليوم شيء، ولكن تعهّدْنا وتعود بعد أيام، فسيكون ما تحب! قال: أصلحك الله، فنُملِّحه إلى أن يتيسر عندكم شيء؟!

* سأل أحدهم رجلاً فقال: هذا الدواء الذي جئت به قدرَكَمْ آخذ منه؟ قال: قَدْر بعرة!

رثاء

* سرق اللصوص حماراً للأستاذ عثمان لبيب كان يركبه في ذهابه إلى المدارس بالقاهرة، وبلغ الخبر محمود سلامة صاحب جريدة الواعظ فرثى الحمار المسروق، وواسى صاحبه بأبيات لطيفة فقال:

قف بسوق الحمير وانظر مليّا هل ترى أدهماً أغرَّ المحيا
خلسته يد اللصوص صباحاً موكفاً مُلجماً معدّاً مهيّا
فخلا اصطبله وأصبح قاعاً صفصفاً خاوي العروش خليّا

كـان يـا حسـرتـا عـليـه صـبـوراً　　قـانـع الـنـفـس راضـيـاً مـرضـيّـا
كـم لـيـالٍ عـلـىٰ الـطـوىٰ قـد طـواهـا　　حـامـداً شـاكـراً ولـم يـشـك شـيَّـا
لا لـفـقـر وضـيـقِ عـيـش ولـكـن　　كـان فـي الـزهـد راغـبـاً وتـقـيّـا
لـيـت شـعـري أيـن الأمـان وهـذا　　جـحـش عـثـمـان قـد عـدمـنـاه حـيّـا
كـان عـونـاً لـه إذا رام ظـعـنـاً　　وخـلـيـلاً لـدىٰ المـقـام صـفـيّـا
كـان إن قـلـت (هـشْ) أجـابـك طـوعـاً　　وإذا قـلـت (حـا) انـتـضـىٰ سـمـهـريّـا
لـك فـيـه الـعـزاء عـثـمـان أمـا　　سـالـبـوه فـسـوف يـلـقـون غـيّـا!

تأملات

* تزوج حصن بن خليد بنت الورد بن الحارث ثم طلقها، فجاء إخوتها ليحملوها، فقالت: مُرّوا بي على المجلس بالحي أسلم عليهم فنعم الأحماء كانوا، فأقبلت وهي في قبتها فقالت: جزاكم الله خيراً.. فما أكرم الجوار، وأكف الأذىٰ.. قالوا: ما كان الذي كان عن ملأ منا ولا هوىٰ.. قالت: إني أريد أن أشهد عليّ شهادة فإني حامل.. فوثب حصن فقال: كل مملوك لي حر إن كنت كشفت لها كنفاً! فقالت: الله أكبر.. إنما أردت أن أعلمكم أني لم أطلق من بغض ولا قلىً فعليكم السلام!!

* قال هشام بن عبدالملك للأبرش الكلبي: زوِّجني امرأة من كلب، ففعل، وصارت عنده، فقال له هشام بعد ذلك: لقد وجدنا في نساء كلب سعة! فقال الأبرش: يا أمير المؤمنين إن نساء كلب خُلِقْن لرجال كلب.

* كتب عمر بن عبدالعزيز إلىٰ الجراح بن عبدالله الحَكَمي: إن استطعت أن تدع مما أحلّ الله لك ما يكون حاجزاً بينك وبين ما حرّم الله عليك فافعل، فإنه من استوعب الحلال كله تاقت نفسه إلىٰ الحرام!

اللوحة الثالثة

* دخل رجل على الشعبي ومعه امرأته، فقال: أيكم الشعبي؟! فقال: هذه. وأشار إلى امرأته!

* سمع أعرابي رجلاً يقرأ القرآن حتى أتى على قوله تعالى: ﴿**الأعرابُ أشدُّ كفراً ونفاقا**﴾ فقال: لقد هجانا، ثم بعد ذلك سمعه يقرأ: ﴿**ومن الأعراب من يؤمنُ بالله واليوم الآخر**﴾. فقال: لا بأس هجا ومدح، هذا كما قال شاعرنا:

هجوت زهيراً ثم إني مدحته ... ومازالت الأشراف تهجى وتمدح

* جلس مقاتل بن سليمان يوماً وانتابته لحظات من الغرور بالعلم.. فقال لمن حوله: هلموا فاسألوني عما تحت العرش إلى أسفل الثرى! فقام من بين الجماعة رجل وقال له: نحن لا نسألك عن شيء من ذلك، إنما نسألك عما معك في الأرض؟ قال مقاتل: فاسألوا ما شئتم، فقال الرجل: أخبرني عن كلب أصحاب الكهف ما كان لونه؟ قال مقاتل: والله لقد أعجزتني!

* وقعد يوماً فقال سلوني عما دون العرش، فقال له رجل: آدم عليه الصلاة والسلام لما حج أول حجة من حلق رأسه؟ فقال: ليس هذا من علمكم ولكني ابتليت لما أعجبتني نفسي!

* وقيل إنه قيل له الذرة أو النملة أمعاؤها في مقدمها أو مؤخرها؟ فلم يدر ما يقول؟ فكانت عقوبة عوقب بها، وأنشد أبو عمرو بن العلاء في هذا المعنى:

من تحلى بغير ما هو فيه ... فضحته شواهد الامتحان

* صلى بعض الأعراب خلف إمام في الصف الأول، وكان اسم الأعرابي «مجرماً» فقرأ الإمام: والمرسلات.. إلى قوله «ألم نهلك الأولين» فتأخر البدوي إلى الصف الآخر فقال «ثم نتبعهم الآخرين» فرجع إلى الصف الأوسط فقال «كذلك نفعل بالمجرمين» فولى هارباً وهو يقول: ما أرى المطلوب غيري!

* وصلىٰ أعرابي خلف إمام صلاة الغداة، فقرأ الإمام سورة البقرة، وكان الأعرابي مستعجلاً ففاته مقصوده، فلما كان من الغد بكّر إلىٰ المسجد فابتدأ الإمام بسورة الفيل فقطع الأعرابي الصلاة وولىٰ وهو يقول: أمس قرأت «البقرة» فلم تفرغ إلىٰ نصف النهار، واليوم تقرأ «الفيل» ما أظنك تفرغ منها إلىٰ نصف الليل!

* خرج الأعمش ذات يوم من منزله بسحر، فمر بمسجد بني أسد وقد أقام المؤذن الصلاة، فدخل يصلي فافتتح إمامهم البقرة في الركعة الأولىٰ، ثم قرأ في الثانية آل عمران، فلما انصرف قال له الأعمش: أما تتقي الله؟ أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أمّ الناس فليخفف، فإنّ خلفه الكبير والضعيف وذا الحاجة. فقال الإمام: قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (البقرة: ٤٥) فقال الأعمش: فأنا رسول الخاشعين إليك أنك ثقيل!!

* سافر إنكليزي إلىٰ نيويورك وأقام في فندق. وقبل أن يعود لبلده طلب إلىٰ بواب الفندق أن يروي له أفضل نكتة يعرفها ليرويها بدوره لأصدقائه البريطانيين وتحوز إعجابهم، فقال له البواب مبتسماً: لا بأس، اسمع هذه: لأبي ولد ليس أخي فمن يكون؟ فأطرق الانكليزي مفكراً ولكنه عجز عن حلّ هذا اللغز، فقال البواب وقد رسمت على شفتيه ابتسامة الظفر: إنه أنا! فقال الانكليزي: إنها لنكتة مدهشة! وعاد الانكليزي إلىٰ لندن فاستقبله رهط كبير من ذويه ومعارفه، فراح يصف لهم عجائب أميركا واحدة واحدة حتىٰ قال: ولدي نكتة مدهشة سأرويها لكم فاسمعوها: لأبي ولد ليس أخي، فمن يكون؟ فتطلع بعضهم إلىٰ بعضهم. وأطالوا التفكير، فلما أعلنوا عجزهم عن حل اللغز، هزّ صاحبهم رأسه وقال مبتسماً: إنه بواب الفندق! فانفجر الجميع بالضحك استهزاءً وسخرية!

* جاء الأصدقاء الثلاثة إلىٰ المحطة ينتظرون القطار.. وعندما علموا بأنه سيتأخر ساعة عن موعده، دخلوا أحد المحلات وتناولوا الطعام.. وعندما وصل القطار تمكن اثنان منهما يساند أحدهما الآخر من الصعود إلىٰ إحدىٰ العربات، بينما بقي الثالث على

الرصيف وقد أخذته نوبة من الضحك المتواصل وهو يرى القطار يقلع مسرعاً. . فاقترب منه مدير المحطة وقال له: إذا كنت تضحك على رفيقيك فالأجدر بك أن تضحك على نفسك، لأنهما توصلا إلى ركوب القطار بينما أنت مازلت هنا! فازداد الشاب ضحكاً وأجاب: أنت لم تفهم الحقيقة. . إن الشابين اللذين ركبا القطار هما صديقان لي جاءا يودعاني. . فالمسافر أنا لا هما!

* جلس ابن أبي عتيق يوماً يتغدى مع أولاده، فجعلوا يتناولون اللحم من بين يديه، فقال: يا بني، إن الله أوصى بالوالدين **﴿فلا تقل لهما أف﴾**، والله لأن تقولوا لي «أف» ثلاثين مرة أيسر علي من أخذكم اللحم من بين يديّ!

* قال ابن عيينة: دعانا سفيان الثوري فقدم إلينا غداء ولبناً خاثراً، فلما توسطنا قال: قوموا بنا نصلي ركعتين شكراً لله تعالى! قال ابن وكيع ـ وكان حاضراً ـ لو قدم إلينا شيئاً من هذا اللوزينج ـ نوع من الحلوى ـ المحدث لقال: قوموا بنا نصلي التراويح!

* وقال أبو بكر بن عياش: كنت أنا وسفيان الثوري نمشي فرأينا شيخاً أبيض الرأس واللحية حسن السمت، فقال له سفيان: يا شيخ أعندك شيء من الحديث؟ قال: لا، ولكن عندي عتيق سنين، فنظرنا فإذا هو خمار!

* أراد أحد أقرباء ميت كتابة تعزية في إحدى الصحف وذهب إلى رئيس التحرير لأن الجريدة على وشك الدخول للمطبعة فوقع رئيس التحرير على مسودة الإعلان وكتب: إن كان له مكان! ويقصد الإعلان، فذهبت الجريدة إلى الطباعة وفي الصباح فوجئ الجميع بالجملة التالية في ختام التعزية: وأسكن الله الفقيد فسيح جناته إن كان له مكان!!

* وضعت أمام تحويلة مرورية وبالخط العريض: عمال يشتعلون! وبالفعل كان الجو حاراً جداً مما جعل الجملة صحيحة وغير صحيحة في نفس الوقت! والمقصود يشتغلون!

* كان قاص يقال له أبو موسى كُوش، فأخذ يوماً في ذكر قصر الدنيا وطول أيام الآخرة، وتصغير شأن الدنيا وتعظيم شأن الآخرة، فقال: هذا الذي عاش خمسين سنة لم

يعش شيئاً، وعليه فضل سنتين! قالوا: وكيف ذاك؟ قال: خمس وعشرون سنة ليل، هو فيها لا يعقل قليلاً ولا كثيراً، وخمس سنين قائلة، وعشرون سنة إما أن يكون صبياً، وإما أن يكون معه سُكر الشباب فهو لا يعقل، ولابد من صبحة بالغداء، ونَعْسة بين المغرب والعشاء، وكالغَشْي الذي يصيب الإنسان مراراً في دهره، وغير ذلك من الآفات، فإذا حصلنا ذلك فقد صح أن الذي عاش خمسين سنة لم يعش شيئاً، وعليه فضل سنتين!

* القائلة: النوم في الظهيرة. الصبحة، بضم الصاد وفتحها: النوم في الغداة.

* كان رجل كثير المخاصمة لامرأته، وله جار يعاتبه على ذلك، فلما كان في بعض الليالي خاصمها خصومة شديدة وضربها، فاطلع عليه جاره فقال: يا هذا. إعمل معها كما قال الله تعالى: «إما إمساك ايش اسمه... أو تسريح ما أدري ايش»!! الآية الكريمة ﴿**فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان**﴾.

* دخل رجل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: السلام عليك يا أبا غفر، حفص الله لك! فقال عمر رضي الله عنه: تعني: يا أبا حفص، غفر الله لك، فقال الرجل: أصلعتني فرقتك! يريد أن يقول: أفرقتني صلعتك!

* رأى يهودي مسلماً يأكل شواءً في نهار رمضان، فطلب منه أن يطعمه، فقال له المسلم: يا هذا، إن ذبيحتنا لا تحل لليهود! فقال: أنا في اليهود مثلك في المسلمين!

* كان أبو الحسن بن هلال إذا أخطأ الفرس تحته يأمر بقطع علفه تأديباً له.. فإذا قيل له في ذلك، قال: أطعموه ولا تعلموه أنني علمت بذلك!

* قال الجاحظ: كان جعيفران الموسوس يماشي رجلاً من إخوانه على قارعة الطريق، فدفع الرجل جعيفران على كلب فقال: ما هذا؟ قال: أردت أن أقرنك به! قال: فمع من أنا منذ الغداة؟!!

* ماتت أم ابن عياش، فأتاه سيفويه معزياً، فقال: يا أبا محمد! عظم الله مصيبتك! فتبسم ابن عياش، وقال: قد فعل، فقال: يا أبا محمد! هل كان لأمك ولد؟ فقام ابن عياش عن مجلسه، وضحك حتى استلقى على قفاه!

* غضب أحد الأمراء على مزيد المدني، فأمر الحجام بحلق لحيته! فقال له الحجام: إنفخ شدقيك حتى أتمكن من الحلاقة! فقال له: يا ابن الخبيثة، الوالي أمرك بحلق لحيتي، أو تعلمني الزمر؟!.

* تحاكم رجلان فيمن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ؟ فأتيا أبا نواس، فسألاه، فقال: أفضلهم بعده يزيد بن الفضل!. فقالا: ومن يزيد بن الفضل؟ فقال: رجل يعطيني كل سنة ثلاثة آلاف درهم!

* دخل شاعر على أحد الأمراء، فمد الأمير يده له فقبلها، فقال له: لقد عققتني أكثر مما بررتني، قال: بماذا؟ قال: بخشونة شاربك! فقال: إن شوك القنفذ لا يضر براثن الأسد! فقال: هذا والله أحب إلي من مدح ألف قافية! وأمر له بعشرة آلاف درهم!

* استسقى الفرزدقُ الحكمَ بن المنذر، ذات يوم لبناً، فأمر غلامه أن يجعل في القعب خمراً، ويحلب عليه لبناً، ويسقيه! فلما شرب، جعل الخمر ينبع من تحت اللبن! فشرب، وقال: بأبي أنت، إنك ممن تُخفي الصدقات، وتؤتيها الفقراء!

تأملات

* العباقرة شهب كُتب عليها أن تحترق لإنارة العصور!

* الأيام خمسة: يوم مفقود وهو أمس، ويوم مشهود وهو يومك الذي أنت فيه، ويوم مورود وهو غدك، ويوم موعود وهو آخر أيامك من الدنيا، ويوم ممدود وهو يوم القيامة.

* لقي الحسين رضي الله عنه الفرزدق وهو في طريقه إلى العراق قبل مأساة كربلاء فسأله عن الناس فقال: القلوب معك، والسيوف عليك، والنصر في السماء!

* قالت امرأة لزوجها البخيل: إنك لم تعد تأتيني بالهدايا كما كنت تفعل أيام خطبتنا!! فرد الزوج: هل رأيت صياداً يطعم السمكة بعد صيدها؟!!

اللوحة الرابعة

* خرج رجل للسوق يشتري حماراً، فلقيه صديق له فسأله: إلىٰ أين؟ فقال: إلىٰ السوق لاشتري حماراً.. فقال: قل، إن شاء الله، فقال: ليس هاهنا موضع إن شاء الله، الدراهم في كمي والحمار في السوق..! ثم دخل السوق.. فبينما هو يطلب الحمار سرقت منه الدراهم فرجع خائباً.. فلقيه صديقه فسأله: ما صنعت؟ فقال: سرقت الدراهم إن شاء الله! فقال له صديقه: ليس هاهنا موضع إن شاء الله!!

* تقدم أحمق إلىٰ بعض الفقهاء فسأله: الرجل إذا خرجت منه الريح تجوز صلاته؟ قال: لا، قال: قد فعلت أنا وجاز!!

* وسئل مغفل: أنت أكبر أم أخوك؟ فأجاب: إذا جاء رمضان استوينا!!

* ودعا أحدهم وهو بمكة فقال: اللهم إن كنت لا تعرفني فأنا فلان بن فلان، وأنني مررت بعبدك فلان وهو يقول شيئاً فيه فحش، فرفسته فانبطح يفحص برجليه ميتا.. اللهم قد أقررت لك الآن فاغفر لي كما تريد!!

* وقال رجل لآخر في يوم بارد: أصب عليك جرة ماء وأعطيك درهما؟! فتلكأ.. فقال له آخر: افعل ذلك عليَّ والدرهم بيني وبينه!!

* سرقت من مغفل دراهم فقيل له: نرجو أن تكون في ميزانك، فقال: من الميزان سرقت!

* مر طبيب بمغفل فشكا إليه ريحاً في بطنه فقال له: خذ الصعتر فقال: يا غلام.. دواة وقرطاس ـ ليكتب الوصفة ـ ثم قال: قلت ماذا أصلحك الله؟ فقال الطبيب: قلت كف صعتر ومكوك شعير.. فقال: لِمَ لم تذكر الشعير أولاً؟ قال: ما علمت أنك حمار إلا الساعة!!

* دعا مغفل مريضاً فعزىٰ أهله فيه، فقالوا له: إنه لم يمت فقال: يموت إن شاء الله!!

* كان ابن عمر رضي الله عنهما يمازح جارة له فيقول: خلقني خالق الكرام، وخلقك خالق اللئام.. فتغضب وتصيح وتبكي.. ويضحك ابن عمر!

* كان رجل يجلس إلى أبي يوسف فيطيل الصمت، فقال له أبو يوسف يوماً: ألا تتكلم؟ قال: بلى، متى يفطر الصائم؟ قال: إذا غابت الشمس، قال: فإن لم تغب إلى نصف الليل؟! فضحك أبو يوسف وقال: أصبت في صمتك وأخطأت أنا في استدعائي لنطقك ثم قال:

عجبت لإزراء العيي بنفسه وصمت الذي كان بالصمت أعلما

وفي الصمت ستر للعيي وإنما صحيفة لب المرء أن يتكلما

* لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

* لما غضب هارون الرشيد على ثمامة بن أشرس النميري المعتزلي، دفعه إلى سلام الأبرش - وكان أحمق جاهلاً - وأمره أن يضيق عليه، وأن يدخله بيتا ويطيّن عليه ويترك فيه ثقباً، ففعل دون ذلك، وكان يدس إليه الطعام، فجلس سلام يوماً وهو يقرأ في المصحف فكان مما قرأ «ويل يومئذ للمكذبون» فقال له ثمامة: إنما هو: (المكذبين) وجعل يشرح ويقول: المكذبون هم الرسل، والمكذبين هم الكفار.. فقال سلام: قد قيل لي إنك زنديق ولم أقبل!! ثم ضيق عليه أشد الضيق، وبعد مدة رضي الرشيد عن ثمامة فجالسه، فقال الخليفة يوماً لجلسائه: أخبروني عن أسوأ الناس حالاً؟ فقال كل واحد شيئاً، قال ثمامة: وبلغ القول لي، فقلت: يا أمير المؤمنين، عاقل يجري عليه حكم جاهل، قال فتبينت الغضب في وجهه فقلت: يا أمير المؤمنين ما أحسبني وقعت بحيث أردت، قال: لا والله، فانشرح فحدثته بحديث سلام فضحك حتى استلقى، وقال صدقت فلقد كنت أسوأ الناس حالاً!

* دخل أبو دلامة على أم سلمة المخزومية زوجة السفاح ليعزيها في وفاته، وهو يبكي، وأنشدها قصيدته في رثائه فلما أتم إنشادها قالت له: ما أصيب أحد بالسفاح غيري

وغيرك، فقال لها: لم يصب به أحد سواي، أنت لك ولد منه تتسلين به، وأنا لا ولد لي منه، فضحكت أم سلمة، ولم تكن ضحكت منذ مات زوجها، وقالت له: يا زَنْد ـ اسمه ـ أنت لا تدع أحداً إلا أضحكته!

* قيل لرجل: تحفظ القرآن؟ قال: نعم، قالوا: إيش أول الدخان؟ قال: الحطب الرطب!

* خرج رجل إلىٰ قرية، فأضافه خطيبها، فأقام عنده يوماً، فقال له الخطيب: أنا منذ مدة أصلي بهؤلاء القوم. وقد أشكل علي في القرآن بعض مواضع، فقال: سلني عنها. قال: منها في «الفاتحة» إياك نعبد وإياك. . . أي شيء تسعين؛ أو سبعين؟ أشكلت علي هذه، فأنا أقولها تسعين آخذ بالاحتياط!

* دخل اللصوص دار رجل، فأخذوا كل ما فيها فلما خرجوا تبعهم، وهو يحمل بعض ما تركوه، فقالوا له: إلىٰ أين يا رجل؟ وما تريد؟ قال: لم تُبقُوا لي شيئاً في داري، فخرجت وراءكم لأقيم بداركم. فضحكوا منه وردوا عليه متاعه!

* مرض ابن لأبي دلامة فداواه طبيب فلما عوفي قال له: ليس عندنا ما نعطيك، ولكن ادّع علىٰ فلان اليهودي بمبلغ ما تستحقه عندنا من أجرتك حتىٰ أشهد أنا وولدي عليه بالمبلغ المذكور!! قال: فذهب الطبيب إلىٰ قاضي الكوفة فادعىٰ عليه عنده، فأنكر اليهودي، فشهد عليه أبو دلامة وابنه، فأجاز القاضي شهادتهما خوفاً من لسان أبي دلامة، فأعطىٰ الطبيب المدعي المال من عنده وأطلق اليهودي. . !! وأبودلامة اسمه: زَنْد بن الجَوْن، وكان صاحب نوادر وحكايات وأدب ونظم، وكان أسود عبداً حبشياً، ونبغ في أيام بني العباس.

* يحكىٰ أن أبا محمد القاسم الحريري كان مولعاً بلحيته، بحيث يتشوه بذلك، فنهاه الأمير وتوعده علىٰ ذلك، وكان كثير المجالسة له، فبقي كالمقيد لا يتجاسر يعبث بها، فتكلم في بعض الأيام عند الأمير بكلام استحسنه منه، فقال له الأمير: سلني ما شئت حتىٰ أعطيك! فقال له: أقطعني لحيتي!! فقال له: قد فعلت!!

* كان مغفل يركب حماراً وهو يضربه، فقال له أحدهم: ارفق به، فقال المغفل: إذا لم يقدر يمشي فلم صار حمار!!

* قال أبو العنبس: اجتزت في بعض الطريق لحاجة، فإذا امرأة عرضت لي فقالت: هل لك أن أزوجك جارية فيجيئك منها ابن؟ قلت: نعم، قالت: وتدخله الكتاب فينصرف ويلعب فيصعد إلى السطح فيقع فيموت..! وصرخت ويلاه.. ولطمت..! ففزعتُ وقلت: هذه مجنونة وهربت من بين يديها.. فرأيت شيخاً على باب فقال: مالك يا حبيبي؟ فقصصت عليه القصة، فلما انتهيت إلى موضع لطمها استعظم ذلك.. وقال: لابد للنساء من البكاء إذا مات لهن ميت..! فإذا هو أحمق منها وأجهل!!

* دعا بعض المغفلين فقال: اللهم اغفر لأمي وأختي وامرأتي.. فقيل له: لم تركت ذكر أبيك؟ قال: لأنه مات وأنا صبي لم أدركه!!

* شهد رجل عند أحد الولاة فقال في شهادته: سمعت بأذني.. وأشار إلى عينيه! ورأيت بعيني.. وأشار إلى أذنيه.. بأنه جاء إلى رجل فتلبب بعنقه.. وأشار إلى صدره! ومازال يضرب خاصرته وأشار إلى فكه! فقال له الوالي: أحسبك قد قرأت كتاب: خلق الإنسان؟ قال: نعم، قرأته على الأصمعي!!

* استعرض هشام بن عبدالملك الجند ذات يوم فأتاه رجل حمصي بفرس.. فكان كلما قدَّمه نَفَر.. فقال هشام: ما هذا؟ فقال الحمصي: يا سيدي هو جيد.. ولكنه شبهك ببيطار كان يعالجه فنفر!!

* اختار أهل حمص شيخاً لهم لم يكن فيهم أعقل منه ولا أكمل، ليتوجه إلى الخليفة هارون الرشيد، فأوفدوه مع ابنين له معروفين عندهم بالعقل والكمال، وذلك لمظلمة كانت بهم، فلما دخلوا على الرشيد قال الشيخ: السلام عليك يا أبا موسى!! فعلم أنه أحمق، فأمره بالجلوس، ثم قال: أحسبك قد طلبت العلم وجالست العلماء؟ قال: نعم يا أبا موسى، قال: مَنْ جالست من العلماء؟ قال: أبي! قال: وما كان يقول في عذاب القبر؟ قال: كان يكرهه! فضحك الرشيد ومن حضر، ثم قال: يا شيخ من حفر البحار

فيما سمعت؟ فسكت الشيخ، فقال أحد ولديه: قد حفرها موسى حين طرق له! قال: فأين طينها؟ فقال الولد الثاني: الجبال.. ففرح الشيخ بحسن جواب ولديه وقال: والله ما علمتهما ما هو إلا إلهام من الله تعالى وله الحمد!

* دخل رجل على المعتضد فقال: يا أمير المؤمنين إن فلاناً العامل ظلمني.. قال: ومن فلان؟ قال: والله لا أدري اسمه ولكن في خده الأيمن خال أو ثؤلول أو أثر لطمة أو أثر حرق نار، أو أثر مسمار، أو في خده الأيسر.. وكان له مرة غلام يقال له: جرير، أو نجم، إلا أن في اسمه طاء أو لام!! فضحك المعتضد وقال: إنه موسوس؟ قال: سلني عما شئت حتى أجيبك؟ قال: كم أصبعاً لك؟ قال: ثلاثة أرجل: فأمر بإخراجه، فقال: ما أقول لبنتي إذا دخلت وقد فتحت حجرها لأطرح فيه الجوز يوم العيد؟! فأمر المعتضد أن يحمل معه إلى منزله طعام وجائزة!

* قيل لرجل: عندك مال وليس لك إلا والدة عجوز، إن مت ورثتْ مالك وأفسدته..! فقال: إنها لا ترثني.. قيل: وكيف؟ قال: لأن أبي طلقها قبل أن يموت!!

* كان لرجل جارية فوطئها سراً، ثم قال لأهله: إن مريم كانت تغتسل في هذه الليلة، فاغتسلوا، فاغتسل هو واغتسل أهله!

* جلس أعمى وبصير معاً يأكلان تمراً في ليلة مظلمة فقال الأعمى: أنا لا أرى ولكن لعن الله من يأكل ثنتين ثنتين، وعندما انتهى التمر صار نوى الأعمى أكثر من نوى البصير، فقال البصير: كيف يكون نواك أكثر من نواي؟ فقال الأعمى لأني آكل ثلاثا! فقال البصير: أما قلت: لعن الله من يأكل ثنتين ثنتين؟ قال: بلى ولكني لم أقل ثلاثاً!!

* اشترى رجل لولده بيجامة ولما غسلتها الأم قصرت عليه فلامت الأم الأب وقالت له: إنك لا تعرف أن تشتري أي شيء حتى البيجامة! فقال لها: ما الأمر؟ فأجابته: لما غسلنا البيجامة قصرت على الولد فقال لها: الحل بسيط اغسلي الولد.

* في مستشفى المجانين قابلوه وسألوه: أنت تفكيرك منظم فمن الذي وضعك هنا؟

فأجاب: أنا أقول إن الناس كلهم مجانين، والناس يقولون أنا وحدي مجنون، والناس أقوىٰ مني فأتوا بي إلىٰ هنا، وأنا أضعف من الناس فلم أستطع أن أحبسهم بدلاً مني!

* قال الطاهي لسيده: ماذا نطبخ اليوم؟ فأجابه سيده: والله لا أدري أنطبخ باذنجانا؟! فقال الطاهي: نعم ما ذكرت إنه لذيذ الطعم مفيد للجسم. قال السيد: ولكنه يتعب معدتي! فأجابه الطاهي: صدقت ما أثقله وما أعسر هضمه وما أقل فائدته! فقال سيده: إنك من لحظة واحدة تمدحه وتقرّ بفائدته! فقال الطاهي: اسمع يا سيدي أنا خادمك أم خادم الباذنجان؟

* سأل أبو عون رجلاً عن مسألة: فقال له: علىٰ الخبير بها سقطت، لقد سألت عنها أبي، فقال لي: سألت عنها جدك، فقال: لا أدري!

* عاد رجل مريضاً لم يكن به بأس، فقال: لا ضير، إذا رأيتم المريض هكذا فاغسلوا أيديكم منه، فقد كان أبي مريضاً بهذا الداء فمات!

* كان أحد الأشخاص يعامل في الأموال بمسألة العينة ـ نوع من البيوع لا يجوز ـ وكان به وسوسة كثيرة في الطهارة، فقال له رجل: بلغني عنك أنك تغسل العضو من أعضائك بإبريق من الماء، فلم لا تغسل اللقمة التي تأكلها لتستنظف قلبك وباطنك؟! ففهم الرجل مراد الناصح وترك التعامل بالبيع الحرام!

* كان لرجل علىٰ رجل أربعة دراهم، فجاء يوماً يقتضيه فقال: غداً أعطيك، فقال: لا أذهب حتىٰ تحلف لي أنك تعطينيها غداً، فحلف له: أنك أن جئت لا تذهب إلا وهي معك! وأشهد عليه بذلك ومضىٰ، فجاء من الغد فقال له: ما عندي شيء، وإنما حلفت أنك لا ترجع إلا وهي معك أعني لحيتك! فأشهد عليه بهذا القول، وذهب سريعاً إلىٰ الحجام وحلق لحيته وجاء إليه، وما برح حتىٰ أخذ دراهمه!

* ماتت جارية لرجل فلما دفنها قال: لقد كنت تقومين بحقوقي، فلأكافئنك اشهدوا علي أنها حرة!

* كان في الكوفة امرأة قد ضاق بزوجها المعاش فقالت له: لو خرجت فضربت في البلاد وطلبت من فضل الله تعالىٰ، فخرج إلىٰ الشام فكسب ثلاثمائة درهم، فاشترىٰ بها ناقة فارهة، وكانت زعرة فأضجرته واغتاظ منها، ومن زوجته حيث أمرته بالخروج، فحلف بالطلاق ليبيعنها يوم يدخل الكوفة بدرهم، ثم ندم! وأخبر زوجته، فعمدت إلىٰ سنور فعلقتها في عنق الناقة، وقالت: أدخلها السوق ونادِ عليها! من يشتري هذا السنور بثلاثمائة درهم والناقة بدرهم! ولا أفرق بينهما! ففعل فجاء أعرابي يدور حول الناقة، ويقول: ما أحسنك ما أفرهك لولا هذا السنور الذي في عنقك! والزعارة: شراسة الخلق.

* قال نافع: كان الفاخري من أحمق الناس، فقيل له: ما رأيت من حمقه؟ قال: قال لي مرة: البحر من حفره؟ وأين ترابه الذي خرج منه؟ وهل يقدر أحد أن يحفر مثله في ثلاثة أيام؟

* يحكىٰ في النوادر، أن مجنوناً مر به جماعة من بني راسب، وجماعة من بني طفاوة يختصمون في غلام، فقال لهم المجنون: القوا الغلام في البحر، فإن رسب فهو من بني راسب، وإن طفا علىٰ وجهه فهو من بني طفاوة!

طفا: علا علىٰ وجه الماء، ومنه السمك الطافي، أي الذي يموت في البحر فيطفو علىٰ وجه الماء، وكل ما علا علىٰ وجه الماء ولم يرسب فيه تسميه العرب طافياً، ومن ذلك قول عبدالله بن رواحة رضي الله عنه:

وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمين

* دخل ابن هرمة علىٰ أبي جعفر فأنشده، فقال: سل حاجتك، قال: تكتب إلىٰ عاملك في المدينة، متىٰ وجدني سكران لا يحدّني، قال: هذا حدّ ولا سبيل إلىٰ إبطاله، قال: مالي حاجة غير ذلك، قال: أكتب إلىٰ عاملنا في المدينة: من أتاك بابن هرمة وهو سكران فاجلده ثمانين، واجلد الذي جاء به مائة! فكانت الشرطة تمر به وهو سكران فلا يتعرضون له، ويقولون: من يشتري ثمانين بمائة؟! فيمرون ويتركونه!

* ذهب مغفل عجوز إلى المدينة لأول مرة في حياته فاستهواه مشهد المصعد فوقف يتفرج عليه . . ولم يمض على وقوفه لحظة حتى رأى سيدة عجوزاً تدخله وتصعد به إلى آخر طابق في البناية . وبعودة المصعد إلى الطابق الأرضي خرجت فتاة جميلة . . فاستغرب المغفل وظن أن العجوز انقلبت فتاة بمجرد استعمالها المصعد! وقال في نفسه : المرة المقبلة سأحضر معي زوجتي العجوز!

تأملات

* عندما حضرت الوفاة الأديب الفرنسي «فكتور هيجو» جاءه القس ليشهد ساعته الأخيرة - أو ليغفر له حسب الشعائر الدينية عندهم - فأبى أن يستقبله ، قائلاً : لا حاجة لي بك ، إنني أؤمن بالله وقد تصدقت بمالي .

* قرأ أحد الأدباء أن شرائع اليونان كانت تعاقب المرأة الفاسقة بجدع أنفها ، والرجل الفاسق بقلع عينيه! فكتب هذين البيتين :

فلو وصلت شرائعكم إلينا ... على ما نحن فيه من المجون
لأصبحت النساء بلا أنوف ... وأصبحت الرجال بلا عيون!

* قالت امرأة سقراط له : ما أقبح وجهك! فقال لها : لولا أنك من المرايا الصدئة لتبين لك حسن وجهي! وكانت امرأته كثيرة الأذى له ، أقبلت يوماً تشتمه وهو ينظر في كتاب ولا يلتفت إليها ، فأخذت غسالة الثياب وأراقتها عليه! فقال : مازلت تبرقين وترعدين حتى أمطرت! ولما مضى به ليُقتل أقبلت تبكي وتصيح : وامظلوماه ، فقال : أكَانَ يسرّك أن أقتل ظالماً!

* قال الرافعي : لو كنت قاضياً ورفع إلي شاب تجرأ على امرأة فمسها أو احتك بها ، وتحقق عندي أن المرأة كانت سافرة متبرجة ، لعاقبت هذه المرأة عقوبتين : احداهما : أنها اعتدت على عفة الشاب ، والثانية : أنها خرقاء حمقاء ، كشفت اللحم للهر! فما رأيك؟!

اللوحة الخامسة

* مرض صديق لحامد بن العباس فأراد أن ينفذ ابنه إليه ليعوده فأوصاه وقال: يا بني إذا دخلت فاجلس في أرفع المواضع، وقل للمريض ما تشكو؟ فإذا قال كذا وكذا، فقل له سليم إن شاء الله، وقل: من يجيئك من الأطباء، فإذا قال فلان فقل: ميمون، وقل: ما غداؤك؟ فإذا قال: كذا وكذا فقل: طعام محمود. فذهب فدخل على العليل وكان بين يديه منارة، فجلس عليها لارتفاعها فوقعت على صدر العليل فأوجعته، ثم قال للمريض: ما تشكو فقال: أشكو علة الموت، فقال سليم إن شاء الله، فمن يجيئك من الأطباء؟ قال ملك الموت، قال: مبارك ميمون، فما غداؤك؟ قال: سم الموت، قال: طعام طيب محمود!

* شهد رجل عند بعض القضاة على رجل، فقال المشهود عليه: أيها القاضي تقبل شهادته ومعه عشرون ألف دينار ولم يحج إلى بيت الله الحرام؟ فقال: بلى حججت، قال: فاسأله عن زمزم، فقال حججت قبل أن تحفر زمزم فلم أرها!

* قال رجل لرجل قد عرفت النحو، إلا أني لا أعرف هذا الذي يقولون: أبو فلان وأبا فلان وأبي فلان! فقال له: هذا أسهل الأشياء في النحو، إنما يقولون: أبا فلان لمن عَظُم قَدْره، وأبو فلان للمتوسطين، وأبي فلان للسِّفْلة!

* قال أبو الفتح محمد بن أحمد الحريمي: كان عندنا بخراسان إنسان قروي فكان له عجل، فدخل داره وأدخل رأسه ليخرجه من الحب فلم يقدر، فاستحضر معلم القرية فقال: قد وقعت واقعة، قال: فما هي؟ فأحضره وأراه العجل فقال: أنا أخلصك، أعطني سكيناً، فذبح العجل، فوقع رأسه في الحب، وأخذ حجراً وكسر الحب، فقال القروي: بارك الله فيك قتلت العجل وكسرت الحب! ـ الحب: الإناء من الفخار، الخابية ـ.

* نام رجل في مسجد، وتحت رأسه كيس فيه ألف دينار، قال: فما شعرت إلا بإنسان قد جذبه من تحت رأسي، فانتبهت فزعاً، فإذا بشاب قد أخذ الكيس وراح يعدو، فقمت لأعدو خلفه، فإذا برجلي مشدودة بحبل في وتد مضروب في آخر المسجد!

* اجتمع جماعة من اللصوص، فمر بهم رجل صيرفي معه كيس دراهمه، فقال أحدهم: ما تقولون فيمن يأخذ كيس هذا؟ قالوا: كيف؟ قال: انظروا، ثم تبعه إلى منزله، فدخل الرجل فرمى كيسه في صحن الدار وقال للجارية: أنا حاقن، فالحقيني بماء إلى الحمام، فدخل اللص وأخذ الكيس، وعاد إلى أصحابه فحدثهم بما صنع، فقالوا: ما عملت شيئاً، الآن يتهم الجارية ويضربها ويعذبها، قال: فماذا تريدون؟ قالوا: تخلص الجارية من الضرب وتبرئ ساحتها، وتأخذ الكيس! قال: نعم، فمضى وطرق الباب، فإذا بالرجل يضرب الجارية ويطالبها بالمال، فقال: من الطارق؟ قال: أنا غلام جارك في الدكان، فخرج إليه وقال: ماذا تريد؟ قال: سيدي يسلم عليك ويقول لك، إنك كبرت وتغيرت، تنسى كيسك في الدكان وتأتي إلى البيت؟! ولولا أننا رأيناه لسرق! وأخرج الكيس وقال: أليس هذا هو؟ قال: بلى، والله، ثم أخذه، فقال له السارق: بل أعطنيه وادخل فاكتب لي ورقة أنك قد تسلمت الكيس، حتى أتخلص أنا ويطمئن سيدي، ويرجع إليك مالك! فناوله إياه، ودخل ليكتب ورقة بالاستلام، فأخذ اللص الكيس ومضى!

* سرق محتالان حماراً، فمضى أحدهما إلى السوق ليبيعه، فلقيه رجل معه طبق فيه سمك، فقال له: أتبيع هذا الحمار؟ قال: نعم، قال: أمسك هذا الطبق حتى أركبه وأنظر إليه، فدفع إليه الطبق، ثم ركب الحمار، فمشى ثم عاد، ثم ركبه فدخل شارعاً ضيقاً ففرّ به، فلم يدر أين ذهب! فرجع المحتال، فلقيه رفيقه فقال: ماذا فعلت بالحمار؟ قال: بعناه بما اشتريناه، وربحنا هذا الطبق من السمك!

* مر بهلول بقوم تحت شجرة، فأرادوا أن يعبثوا به ويسخروا منه، فسمع كلامهم، فلما وقف عليهم قالوا: يا بهلول تصعد رأس هذه الشجرة وتأخذ عشرة دراهم؟ قال: نعم، فأعطوه الدراهم فجعلها في جيبه، ثم التفت وقال: أين السلم؟! قالوا: لم يكن هذا في الشرط! قال: كان في شرطي دون شرطكم!

* خرج واصل بن عطاء في سفر مع جماعة، فاعترضهم جيش من الخوارج، فقال

واصل: لا يتكلم أحد منكم، ودعوني أنا أتحدث إليهم، فقصدهم واصل، فلما قربوا بدأ الخوارج ليوقعوا بهم ويقتلوهم، فقال: كيف تستحلون هذا؟ وما تدرون من نحن؟ ولا لأي شيء جئنا؟ فقالوا: نعم، فمن أنتم؟ قال: قوم من المشركين، جئناكم لنسمع كلام الله! قال: فكفوا عنهم، وبدأ رجل منهم يقرأ عليهم القرآن، فلما انهى القراءة، قال واصل: قد سمعنا كلام الله، فأبلغونا مأمننا حتى ننظر فيه، وكيف ندخل في الدين! فقالوا: هذا واجب لكم، سيروا، فسرنا والخوارج معنا يحمونا عدة فراسخ، حتى قربنا إلى بلد لا سلطان لهم عليه فانصرفوا.

* قيل لأعرابي: كيف أصبحت؟ قال: بخير. وقال له آخر: كيف أصبحت؟ قال: كما أخبرت هذا!

* عض ثعلب أعرابياً فأتى راقياً فقال الراقي: ما عضك؟ فقال: سبع! واستحيا أن يقول ثعلب. فلما ابتدأ بالرقية، قال: واخلط بها شيئاً من رقية الثعلب!

* كان العتابي يأكل خبزاً على الطريق بباب الشام، فقال له أحد أصحابه: ويحك! أما تستحيي؟ فقال: أرأيت لو كنا في دار فيها بقر، كنت تستحيي وتحتشم أن تأكل وهي تراك؟! فقال: لا، قال: فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر! فقام ووعظ وقص ودعا، حتى كثر الزحام عليه، ثم قال لهم: روي لنا من غير وجه: أنه من بلغ لسانُه أرنبةَ أنفه لم يدخل النار! فما بقي واحد إلا وأخرج لسانه يومئ به نحو أرنبة أنفه ويقدره حتى يبلغها أم لا! فلما تفرقوا قال له العتابي: ألم أخبرك أنهم بقر!

* لا تغررك المظاهر والمناظر والصور فتسعة أعشار من ترى بقر!

* دعا بعض السلاطين مجنونين ليضحك من حديثهما وتصرفاتهما، فلما أسمعاه وأسمعهما غضب ودعا بالسيف.. فقال أحدهما لصاحبه: كنا مجنونين فصرنا ثلاثة!!

* أصاب الطلق امرأة أبي الهذيل فقالوا له: أحضر القابلة فجاءها فقال: امض إلى بيتنا حتى تقبِّلي امرأتي واحرصي أن يكون غلاماً ولك عليَّ دينار..!

* رأىٰ أحد المغفلين قذراً علىٰ باب داره فغضب وقال: هذا الذي قذر خلفنا إن كان صادقاً فليقذر في وجوهنا حتىٰ نعلم!! وولد لهذا الأحمق ولد فقيل له: ما تسميه؟ فقال: عمر بن عبدالعزيز! فهنأوه به فقال: إنما هو من الله ومنكم!

* قال أبو اسحق الجوني: كان لنا جار نخاس يقال له عباس قد أتىٰ عليه خمس وثمانون سنة، فسألته امرأة عن مسألة فقالت له: زوجي طلقني ثلاثاً فقال لها: أرضي أبوك وأمك؟ قالت: لا، قال: فإذن يجوز العود والمراجعة حتىٰ يرضىٰ أبوك وأمك..! قالت: قد سألت أبا إسحق فقال لي: قد طَلُقْتِ.. فقال: وما يدري أبا اسحق أنا أبصر منه وأعلم منه وأكبر منه، أنا ألقيت عليه مسألة فلم يخرج منها!!

* شوهد أحد المغفلين وهو يدغدغ نفسه فسئل عن ذلك فقال: اغتممت فأردت أن أضحك قليلاً!!

* وقع بيد أحد المغفلين وجار له يدعىٰ أبا عيسىٰ كلام، فأراد أن يدعو عليه فقال: اللهم خذ مني لأبي عيسىٰ، فقالوا: تدعو علىٰ نفسك؟ فقال: فخذ لأبي عيسىٰ مني!

* لقي رجل رجلاً ومعه كلبان، فقال: هب لي أحدهما.. فقال: أيهما تريد؟ فإن الأسود أحب إلي من الأبيض.. قال: فهب لي الأبيض قال: الأبيض أحب إليَّ من كليهما!!

* قبض علىٰ أحد المغفلين فأمر به إلىٰ السجن فقال: أصلحك الله.. علي يمين أن لا أبيت إلا في بيتي!

* سقط شخص في بئر فجاءه أخوه وكان مغفلاً فقال له: أنت في البئر؟ قال: أما تراني؟! قال: لا تذهب حتىٰ أجيئك بمن يخرجك!!

* قدم مغفل من بلده فقيل له: متىٰ قدمت؟ قال: غداً يا سيدي!! فقيل له: فأنت إذن في الطريق!!

* نزل الموت بزوج امرأة فقيل لها: لو دخلت علىٰ زوجك وودعتيه قالت: أخاف أن يعرفني ملك الموت!!

* دخل رجل إلىٰ صديق له يعوده، فقال له: كيف أصبحت جعلني الله فداك؟! قال: علىٰ الموت! قال: إذن لا جعلني الله فداك، فقد ظننت أن في الأجل فسحة!

* كان لرجل غلام من أكسل الناس، فأرسله، يوماً، ليشتري له عنباً وتيناً، فأبطأ عليه، حتىٰ عِيلَ صبره. ثم جاء بالعنب دون التين! فضربه الرجل، وقال له: ينبغي لك، إذا استقضيتك حاجة، أن تقضي حاجتين، ثم مرض الرجل، فأمر الغلام أن يأتيه بطبيب، فجاء الغلام بالطبيب ومعه رجل آخر، فقال: أما ضربتني وأمرتني أن أقضي لك حاجة في حاجتين؟ فجئتك بالطبيب، فإن شفاك الله، وإلا فهذا حفار القبور ليحفر لك قبرك!

* كان لتاجر ولد مدلل، فعشق يوماً جارية لبعض جيرانه! فكان يلتقي بها في غفلة عن أهله وأهلها، حتىٰ أحبلها! فولدت الجارية غلاماً! فقال الولد لأبيه: يا أبت، إشتره لي، فإنه والله ولدي! فاشتراه أبوه بخمسمائة درهم، وكان ثمن الجارية مائتي درهم! ثم أحبلها مرة أخرىٰ، فولدت غلاماً. فقال الولد لأبيه: يا أبت، اشتره لي، فإنه ولدي! فقال له أبوه: يا بني، إن كنت تحبها فأنا أشتريها لك، فقال: لا والله يا أبت، ولكنها نزوات الشيطان! فقال: إن كان ولابد فاعزل عنها، لئلا تُلْحقها جنيناً! فقال: والله يا أبت، لقد بلغني أن العزل مكروه! فقال أبوه: يا قرة عين الشامتين، بلغك أن العزل مكروه؟ أو ما بلغك أن الزنىٰ حرام؟

* كان أحد الحمقىٰ يضحي عن امرأته في كل عام بخروف يذبحه في عيد الأضحىٰ! وبقي علىٰ ذلك سنين طويلة، وفي ذات يوم سمع إمام الجامع يقول: يحشر الناس، يوم القيامة، وبين أيديهم تساق أضحياتهم! فقال الأحمق: إذا كان الأمر كما يقول الشيخ، فإن امرأتي ستبعث يوم القيامة راعية أغنام!

* كان أبو سلمة بن عبدالرحمن بن عوف مع قوم، فرأوا قطيعاً من غنم فقال أبو سلمة: اللهم إن كان في سابق علمك أن أكون خليفة فاسقنا من لبنها، فانتهوا إليها فإذا هي تيوس كلها!

* قال إسحاق: كنا عند المعتصم، فعرضت عليه جارية، فقال: كيف ترونها؟ فقال واحد من الحاضرين: امرأتي طالق إن كان الله عز وجل خلق مثلها، وقال الآخر: امرأتي

طالق إن كنت رأيت مثلها، وقال الثالث: امرأتي طالق وسكت، فقال المعتصم إن كان ماذا؟ فقال إذا كان لا شيء فضحك المعتصم حتى استلقى وقال: ويحك ما حملك على هذا؟ قال: يا سيدي هذان الأحمقان طلقا لعلة وأنا طلقت بلا علة.

* جاء أعرابي إلى المسجد، والإمام يخطب، فقال لرجل من القوم: ما هذا؟ قال له: دعوة إلى الطعام، قال: فما يقول الذي على المنبر؟ قال: يقول: إن الأعراب لا يرضون أن يأكلوا حتى يحملوا معهم بعض الطعام! فتخطى الأعرابي الناس حتى دنا من الخطيب، فقال له: يا هذا، إن الذين يفعلون ما تقول سفهاؤنا!

تأملات

* المجتمع بلا دين، كالسفينة بلا بوصلة.

* عزيزي: كثيراً ما أزورك ولا أجدك! رسالة من ضميرك المخلص!!

* لاحظت إحدى دور السينما في فرنسا أن بعض السيدات لا يخلعن قبعاتهن أثناء عرض الفيلم مما يضايق الجالسين خلفهن.. فعمدت إلى وضع هذا الاعلان في مقدمة العرض: إدارة السينما لا تفرض على أية سيدة خلع قبعتها إذا كان شعرها قد دب فيه الشيب. وكانت النتيجة بعد هذا الإعلان هو اختفاء القبعات من صالة العرض!!

* قيل لأعرابي: كيف حبك لزوجتك؟ قال: ربما كنت معها في الفراش، فمدت يدها إلى صدري، فوددت والله، أن آجرّة سقطت من السقف، فَقَدَّتْ يدها وضلعين من أضلاع صدري!

* قال رجلٌ من العرب: أربع لا يشبعن من أربعة: أنثى من ذكر، وعين من نظر، وأرض من مطر، وأذن من خبر!

تكاثرت الظِّباءُ على خِراشٍ فما يدري خراشٌ ما يصيد

- خِراش: اسم كلب صيد للشاعر -

اللوحة السادسة

* احتجم الحجاج ذات يوم، فلما ركّب الحجام المحاجم على رقبته قال له: أحب أيها الأمير أن تخبرني بخبرك مع ابن الأشعث، وكيف عصا عليك؟ فقال له: لهذا الحديث وقت آخر، وإذا فرغت من شأنك حدثتك! فأعاد الحجام مسألته وكررها، والحجاج يدفعه ويعده ويحلف له على الوفاء له، فلما فرغ ونزع المحاجم عنه وغسل الدم، أحضر الحجام وقال له: إنا وعدناك بأن نحدثك حديث ابن الأشعث معنا، وحلفنا لك، ونحن محدثوك، ثم نادى: يا غلام، السياط! فأتى بها، فأمر الحجاج بالحجام فجرد، وعلته السياط، وأقبل الحجاج يقص عليه قصة ابن الأشعث بأطول حديث، فلما فرغ استوفى الحجام خمسمائة سوط، فكاد يتلف! ثم رفع الضرب وقال له: قد وفينا لك بالوعد، وأي وقت أحببت أن تسأل عن خبرنا مع غير ابن الأشعث على هذا الشرط أجبناك!!

* قال الأصمعي: رأيت رجلاً من الأعراب، وقد تعلق بأستار الكعبة وهو يقول:

يا رب إني سائل كما ترى مشتمل شميلتي كما ترى
وشيختي جالسة فيما ترى والبطن مني جائع كما ترى
فما ترى يا ربنا فيما ترى؟!

* قال الشيخ أغا رضا:

يا ليلة بتُّ وفي جانبي جميلة في حسنها بارعة
جميلة في حسنها بارعة وقيل لي إن اسمها (رحمة)
وقيل لي إن اسمها (رحمة) قلت: لهذا أصبحت واسعة!

* قال محمد الداري: كان بالقرب منّا رجل وكان فيه غفلة، فخرج من داره ومعه عشرة أحمر، فركب واحداً وعدّها، فإذا هي تسعة، فنزل وعدّها فإذا عشرة، فلازال كذلك مراراً، فقال أنا أمشي وأربح حماراً خير من أن أركب ويذهب مني حمار، فرأيته يمشي حتى كاد يتلف إلى أن بلغ قريته!

* كان بالبصرة رجل يكنىٰ أبا حفص، ويلقب ببلاغة، فكان يمر بالقوم فيقول: أنتم لا صبحكم الله إلا بالخير، ويمر بآخرين ويقول: أنتم لا مساكم الله إلا بالكرامة، وكان لا يمر آخر كلامه حتىٰ يسبح.

* جاء رجل إلىٰ جعفر بن فطيرا فقال له: رأيت البارحة أمير المؤمنين علياً في المنام، فقال لي: اذهب إلىٰ ابن فطيرا فقل له يعطيك عشرة دنانير! فقال له ابن فطيرا: متىٰ رأيته؟ قال: أول الليل، فقال ابن فطيرا، وأنا رأيته آخر الليل فقال لي: إذا جاءك رجل من صفته كذا وكذا فطلب منك شيئاً فلا تعطه! فأدبر الرجل فاستدعاه ووهبه شيئاً!

* اختصم رجلان إلىٰ بعض الولاة فلم يحسن أن يقضي بينهما، فضربهما وقال: الحمدلله الذي لم يفتني الظالم منهما!

* دخل أبو الحسن السماك يوماً علىٰ جماعة، وكانوا يتكلمون في «أبابيل» فقال: في أي شيء أنتم؟ قالوا: في ألف أبابيل، هل هو ألف وصل أو ألف قطع؟ فقال: لا ألف وصل ولا ألف قطع، وإنما هو ألف سخط، ألا ترون أنه بلبل عليهم عيشهم!!

* لقي أبو نواس امرأة مليحة في الطريق، فقال: ما تصنع الحور بين الدور؟ فقالت: ما يصنع الشيطان بين الحيطان! فأفحمته!

* وَلِيَ بعضُ الأشراف قضاء مكة، فما رؤي مثله في العفاف والنبل، فبينما هو نائم ذات ليلة، إذ مرّ به سكران يتغنىٰ، ويلحن في غنائه! فأشرف الرجل عليه، فقال: يا هذا، شربت حراماً، وأيقظت نياماً، وغنيت خطأ! وأصلحه له!

* مات مجوسي، وكان عليه دين كبير، فقيل لولده: لو بعت دارك ووفيت بها دين أبيك؟ فقال الابن: إذا أنا بعت داري، وقضيت عن أبي دَيْنه، فهل يدخل الجنة؟ فقيل له: لا، قال: دعه في النار، وأنا في الدار!

* كان لرجل مغنيتان، إحداهما حسنة الغناء، والأخرىٰ علىٰ خلاف ذلك. وكان الرجل يدعوهما للغناء عندما يجلس للشراب. فكان إذا غنت الأولىٰ، واشتد به الطرب،

يهوي إلىٰ قميصه فيشقه من فرط الطرب! فإذا غنت الأخرىٰ قعد يخيط قميصه، ويرتق ما تمزق منه!

* حضر أعرابي مائدة أحد الأمراء، فقال الأمير: أفْرِجوا لأخيكم، فقال الأعرابي: لا حاجة لي بإفراجكم، إن أطنابي طوال - يريد أن سواعده طوال -! فلما مدّ يده خرج منه الريح! فضحك الأمير، وقال: يا أخا العرب، أظن أن طنباً من أطنابك قد انقطع!

* جاءت امرأة إلىٰ عبدة بن رياح صاحب الشرطة، فقالت: ابني يعقني، فبعث معها أعواناً فقالوا: إنْ أخذ ابنك قتله، قالت: كذا؟ قالوا: نعم، فمرت فرأت شمّاساً فقالت: هذا ابني، فأتوه به فقال: تعق أمك؟ قال: ما هي أمي، قال: وتجحدها؟ اضربوه ثم أركبها علىٰ عنقه، ونودي عليه: هذا جزاء من يعق أمه. فرآه صاحبٌ له فقال: ما هذا؟ قال: من لم يكن له أمّ فليذهب إلىٰ عبدة يجعل له أماً!

* جاء رجل إلىٰ ابن الأغلب صاحب المغرب فقال: قد عشقت جارية، وثمنها خمسون ديناراً، وما معي إلا ثلاثون، فوهبه مائة دينار، فسمع به آخر، فجاء، وقال: إني عاشق، قال: فما تجد؟ قال: لهيباً، قال: اغمسوه في الماء، فغمسوه مرات، وهو يصيح: ذهب العشق، فضحك وأمر له بثلاثين ديناراً.

* دفعت امرأة إلىٰ رجل يقرأ عند القبور رغيفاً وقالت له: اقرأ عند قبر ابني فقرأ (يوم يسحبون في النار علىٰ وجوههم ذوقوا مس سقر) فقالت له: هكذا يقرأ عند القبور؟ فقال لها: فإيش أردْتِ برغيف ﴿**متكئين على فرش بطائنها من استبرق**﴾؟ ذاك بدرهم!

* قال رجل لهارون الرشيد: إني أستطيع أن أقوم بعمل يعجز عنه جميع الناس، فقال له الرشيد: هات ما عندك حتىٰ نرىٰ - فأخرج علبة مليئة بالإبر، فغرس إحداها في الأرض، ثم أخذ يرميها بسائر الإبر بحيث إن كل إبرة تشتبك بثقب الإبرة السابقة، ولما انتهىٰ من رمي الإبر، وقف الرجل مزهواً بعمله، ومنتظراً إجازة سنية، فأمر الرشيد بضربه مائة جلدة، وإعطائه مائة دينار. . ولما سئل الرشيد عن سبب هذا التصرف؟! قال: أعطيته مائة دينار مكافأة علىٰ حذقه ومهارته، وأمرت بضربه مائة جلدة لأنه يضيع ذكاءه بما لا يفيد.

* يروىٰ من «غرائب أمر الله أفندي» الذي تولىٰ وزارة المعارف بعد الانقلاب العثماني: أنه كان في صيف إحدىٰ السنوات ساكناً في ضاحية علىٰ ضفاف البسفور فكان ينزل إلىٰ الآستانة في باخرة من البواخر الصغيرة المألوفة هناك، وجلس مرة في الدرجة الأولىٰ إلىٰ جانب رجل أوربي، فاتفق أن وضع أمر الله افندي يده في جيبه ليخرج منها منديلاً فدخلت يده في جيب جاره الأوربي وكان فيها فستق مملح من الفستق الحلبي اللذيذ، فظن أمر الله أفندي أن أهله وضعوه له، أو أنه هو وضعه في جيبه ونسي، وجعل يأخذ الفستق من جيب جاره ويأكل، فلما تكرر ذلك منه ضاق صدر جاره فقال له: أرجو أن تبقي قليلاً من الفستق لأولادي الصغار فإني أحضرته لأجلهم، فانتبه الأستاذ لخطأه واعتذر لجاره عما فرط منه!!

* تسلل لص إلىٰ بيت رجل مفلس في آخر الليل، وأخذ يفتش حجرات البيت حجرة حجرة لعله يجد شيئاً يسرقه.. وكان صاحب البيت مستيقظاً يراقب اللص فقال له بعد أن فرغ من تفتيش الحجرات: إنني في ضوء النهار لا أجد شيئاً في هذا البيت فكيف تستطيع أن تجد شيئاً في ظلام الليل؟

* قصد الزوج إلىٰ صديقه الطبيب وعلىٰ وجهه دلائل اليأس وقال له: الحقني يا دكتور. إن زوجتي علىٰ وشك الجنون إن لم تكن قد جنت فعلاً.. فسأله الطبيب: ماذا حدث؟ فقال له: إنها تريد أن أشتري لها عنزة.. فسأله: ولما لا تشتري لها عنزة؟ فقال له: لأنها تصرّ علىٰ الاحتفاظ بها في غرفة النوم.. فسأله: وما المانع؟ فقال: لأن العنزة سوف تجعل رائحة الحجرة لا تطاق.. فسأله الطبيب: ولماذا لا تفتح النافذة لتهوية الحجرة؟ فقال الزوج في تردد: هذا مستحيل.. لو فتحت النافذة لطار سرب الحمام الذي أحتفظ به في الحجرة!

* اعتاد مغفل أن يرسل لوالده رسالة تهنئة سنوية علىٰ إنجابه له، بمناسبة عيد ميلاده!

* قال عبدالله بن أحمد المقرئ: صلىٰ بنا إمام لنا وكان شيخاً صالحاً وقد اشترىٰ سطلاً فاستحيا أن يجعله قدّامه في الصلاة فجعله خلفه، فلما ركع شُغل قلبه به فظن أنه قد سرق، فرفع رأسه فقال: ربنا لك السطل! فقلت له: السطل خلفك لا بأس!

* قال الحسن بن موسى أضاف رجل رجلاً فقال المضيف يا جارية هات خبزاً وما رزق الله، فجاءت بخبز وكامخ، ثم قال أيضاً: يا جارية هات خبزاً وما رزق الله، فجاءت بخبز وكامخ، فقال الضيف: يا جارية هات خبزاً ودعي ما رزق الله!

* الكامخ: طعام يصنع من اللبن المجفف، صعب الهضم.

* قعد رجل يأكل مُجدَّرة - وهي نوع من الطعام يصنع من العدس والبرغل، ثقيلة على المعدة! - ونسي أن يسمِّي، فجلس الشيطان يأكل معه، وبعد قليل تضايق الشيطان من هذا الأكل ولم يستسغه فقال للرجل: لقد قتلتني! إما أن تُسمِّي، وإما أن تُغيِّر هذا الأكل!

* قال محمد بن حرب الهلالي: أُتيت بمزبد في تهمة فضربته سبعين درة، ثم تبين لي أنه كان مظلوماً، فدعوته وقلت أحلني منها، فقال: لا تعجل ودعها لي عندك فإني أجيء إليك كثيراً، فكلما وجب علي شيء قاصصتني! فكنت أوتى به في الشيء الذي يجب عليه فيه التقويم فأحاسبه على العشرة منها وعلى الخمسة حتى استوفى!

* تغدى أعرابي مع مزبد فقال له مزبد: كيف مات أبوك؟ فأخذ يحدثه بحاله وأخذ مزبد يمضي في أكله فلما فطن الأعرابي قطع الحديث وقال له: أنت كيف مات أبوك؟ فقال: فجأة، وأخذ يأكل!

* جهل رجل على بعض العلماء فقال العالم جرح العجماء جُبار! أي هدر، بمعنى أنه لا يؤاخذ.

* صلى إمام بقوم - وكانوا يكرهونه - فأرتج عليه في القراءة، وبدأ يردد الآية، فقال أحد كبار السن من خلفه: لا تردوه ولا تفتحوا عليه، دعوه مرتبكاً!

تأملات

* دعيت سيدة لأداء الشهادة في محكمة، فسألها القاضي: ما عمرك؟ - وكان فوق الأربعين - فأجابت: عمري خمسة وعشرون سنة، فقال لها: وما هو عدد السنين التي لم تحسبيها؟ فخجلت ثم أقرت بالحقيقة.

اللوحة السابعة

* ذهب بصر أحد الفقهاء، فدخل عليه بعض المغفلين، فقام بين يديه، وقال: يا أبا أُسَيْد، لا تجزعنَّ من ذهاب عينيك، وإن كانتا كريمتين عليك، فإنك لو رأيت ثوابهما في ميزانك، لتمنيت أن يكون الله قد قطع يديك، ورجليك، ودقَّ ظهرك، وأدمى ظلفك! فصاح به القوم، وضحك بعضهم!

* دخل رجل على المهدي، فأنشده شعراً، قال فيه: وجَوارٍ زَفِرات، . فقال المهدي: أي شيء زفرات؟ قال: وما تعرفها يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، قال: فأنت أمير المؤمنين، وخليفة رب العالمين، لا تعرفها، أعرفها أنا؟ كلا والله!

* مرض أحد الحمقى، فأوصى أنه إذا مات أن يدفن في مقبرة قديمة، ولما سئل عن ذلك، قال: إذا أتاني منكر ونكير، قلت لهما: إني ميت من زمان!

* سأل رجل أحد الحمقى: ما اسمك؟ قال: أبو عبدالله السميع العليم، منزل القطر من السماء تنزيلاً، الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه. فقال: مرحباً بك يا ثلث القرآن!

* قال المأمون لوكيله: ما حال غُلّتنا بالأهوار؟ قال: أمّا متاعُ أمير المؤمنين فقائم على سوقه! وأما متاع أمّ جعفر فمُسْترخٍ!. فقال: قبحك الله!

* قعد رجلٌ في سفينة وركب معه يهودي قد احتضن سلّة فيها قديد، فاستولى عليها الرجل، وأخذ يأكلها، حتى لم يُبْق إلا عظيمات! فلما أراد الخروج إلى البر رأى اليهودي السلّة فارغة، فسأل عنها، فقيل له: إن هذا الرجل قد أكل ما فيها!. فولول، وبكى، وصاح: أكلْتَ أبي! فسئل عن ذلك فقال: كان أبي قد أوصى أن يدفن في بيت المقدس، فلما مات قدّدناه وجففناه ليسهل حمله، فأكله هذا!

* دخل بعض الندماء الحمقى يوماً على بعض الخلفاء، وطرف قبائه مخرق، فسأله عن سبب ذلك، فقال: اجتزت في الدرب، وكان فيه كلب، فوطأت قباءه، فمزق ذنبي! فما تمالك الخليفة من الضحك!

* أتىٰ رجل إلىٰ صيرفي يستسلف منه مائتي درهم، فقال: وما تصنع بها؟ قال: أشتري بها حماراً فلعلي أربح فيه عشرين درهماً! قال: إذا أنا وهبتك العشرين فما حاجتك إلىٰ المائتين؟ قال: ما أريد إلا المائتين! فقال: أنت لا تريد أن تردها عليَّ!

* كان بمكة رجل يجمع بين النساء والرجال ويعمل لهم الشراب! فشُكي إلىٰ أمير مكة فنفاه إلىٰ عرفات، فبنىٰ بها منزلاً وأرسل إلىٰ أصحابه: ما يمنعكم أن تعاودوا ما كنتم فيه؟ قالوا: وكيف وأنت بعرفات؟ فقال: حمار بدرهمين وقد صرتم إلىٰ الأمن والنزهة! فكانوا يركبون إليه حتىٰ أفسد أحوال أهل مكة، فعادوا يشكونه إلىٰ الوالي فأرسل إليه فأُتي به فقال: يا عدو الله طردتك من حرم الله فصرت بفسادك إلىٰ المشعر الأعظم! فقال: يكذبون عليَّ! فقالوا: دليلنا أن نأمر بحمير مكة فتُجمع ويُرسل بها مع أمنائك إلىٰ عرفات، فإن لم تقصد منزله من بين المنازل فنحن مبطلون! فقال الوالي: إن هذا لشاهد ودليل، فجمع الحُمُر ثم أرسلها، فصارت إلىٰ منزله! فقال الأمير: ما بعد هذا شيء، فجردوه فلما نظر إلىٰ السياط قال: لابد لك من ضربي؟ قال: نعم، قال: والله ما عليَّ في ذلك أشد من أن يضحك منَّا أهل العراق ويقولون: أهل مكة يجيزون شهادة الحمير! فضحك الوالي.

* دخلت عجوز علىٰ قوم تعزيهم بميت، فرأت في الدار عليلاً، فرجعت وقالت: أنا والله يشق علي المشي، وأحسن الله عزاءكم في هذا العليل أيضاً!

* وجه عمرو بن سلمة ابن قتيبة أخاه ليشتري لأمه كفنا، فقال للبائع، لا تنتخبه فإنها رحمها الله، كانت رديئة اللبس!

* أتىٰ رجل أحد الولاة برجل فقال له: زعم هذا أنه احتلم بأمي! فقال: اذهب فأقمه بالشمس فاضرب ظلّه!

* سمع بعض الحمقىٰ قوماً يتذاكرون الموت وأهواله فقال: لو لم يكن في الموت إلا أنك لا تقدر أن تتنفس لكفىٰ!

* كان بواسط رجل من المغفلين، إلى جانب داره اصطبل، فقال له أهله: إنا نغسل الثياب في السطح فيطير بعضها إلى الاصطبل فلا يردونه علينا، فقال: وأنتم إذا طار لهم شيء فلا تردوه! قالوا: أي شيء يطير من أرض الإسطبل إلى سطحنا! قال: أي شيء طار مثل لجام ومقود وفرس وغيره!

* دخل بعض المغفلين: على مريض يعوده، فلما خرج التفت إلى أهله وقال: لا تفعلوا بنا كما فعلتم في فلان، مات وما أعلمتمونا، إذا مات هذا فأعلمونا حتى نصلي عليه.

* كان عند المهدي مؤدب يؤدب الرشيد فدعاه المهدي يوماً وهو يستاك فقال: كيف تأمر من السواك؟ قال: اسْتك يا أمير المؤمنين! فقال المهدي: إنا لله، ثم قال: التمسوا من هو أفهم من هذا، قالوا: رجل يقال له علي بن حمزة الكسائي من أهل الكوفة قدم من البادية قريباً، فلما قدم على الرشيد قال له: يا علي، قال: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: كيف تأمر من السواك؟ قال: سُكْ يا أمير المؤمنين، قال: أحسنت وأصبت، وأمر له بعشرة آلاف درهم.

* والسواك يجمع على أسوكة وسُوُك، والمسواك ـ السواك يجمع على مساويك.

* سئل بعض الوعاظ لِمَ لمْ تنصرف (أشياء)، فلم يفهم ما قيل له، ثم سكت ساعة فقال: تسأل سؤال الملحدين لأن الله يقول (لا تسألوا عن أشياء).

* كان أحد المغفلين ينظر في المصحف الشريف، فقرأ: (في بيوت) بالرفع. فقال له أحد الحاضرين: يا هذا إنما القراءة (في بيوتٍ) بالجر. فقال: يا مغفل، إذا كان الله تعالى قد قال: (في بيوت أذن الله أن ترفع)، تجرها أنت لماذا؟ يا جاهل!

* قيل لرجل من الأعراب: ما أشبهت أباك!. قال: لو أشبه كل رجل أباه، لكنا كآدم!

* قال أعرابي لرفيق له ذي مال: لو مت أنا، ماذا كنت تفعل؟ قال: كنت أكفنك، وأدفنك! قال: فاكسني الساعة ما تكفنني به، وإذا مت ادفني عرياناً!

* كان الطالقاني من أصحاب أبي حنيفة، وكان شديد الغفلة، فقال يوماً لابن عقيل: كيف مذهبكم في المرأة، هل يجوز أن يزوجها ابنها! قال له ابن عقيل: في ذلك تفصيل، إن كانت بكراً جاز، وإن كانت ثيباً لا يجوز! فقال: ما سمعت هذا التفصيل قط!

* قعد طائي وطائية في الشمس، فقالت له امرأته: والله لئن ترحّل الحي غداً لأتبعن قماشهم وأصوافهم ثم لأنفشنه ولأغسلنه ولأغزلنه، ثم لأبعثنه إلى بعض الأمصار فيباع وأشتري بثمنه بعيراً فأرتحل عليه مع الحي إذا اترحلوا، قال الزوج: أفتراك الآن تاركتني وابني بالعراء؟ قالت: أي والله! قال: كلا والله، ومازال الكلام بينهما حتى قام يضربها، فأقبلت أمها فقالت: ما شأنكم، فأخبروها فصرخت: يا آل فلانة أفتضرب ابنتي على كدّ يديها ورزق رزقها الله إياه! فاجتمع الحي فقالوا: ما شأنكم؟ فأخبروهم بالخبر!! فقالوا: ويلكم، القوم لم يرحلوا وقد تعجلتم الخصومة!

* كان فزارة صاحب مظالم البصرة وكان أطول خلق الله لحية وأقلهم عقلاً وهو الذي قال فيه الشاعر:

ومن المظالم أن تكون ... على المظالم يا فزاره

* أخذ الحجام يوماً من شعره فلما فرغ دعا بمرآة فنظر فيها فقال للحجام: أما شعر رأسي فقد جوَّدت أخذه، ولكنك والله يا ابن الخبيثة سلحت على شاربي ووضع يديه عليه!

* فكم لحيةٍ طالت على ذقن جاهل ... وما تحتها إلا الغباوةُ والجهلُ!

* انبثق «كنيف» - مرحاض - لجامع الصيدلاني، فقال لغلامه: بادر وأحضر من يصلحه حتى نتغدى به قبل أن يتعشى بنا!

* أهدى ابن الجصاص إلى العباس بن الأحنف الوزير نبقاً وكتب إليه:

تفيلت أن تبقى ... فأهديتك النبقا

وهو أراد التفاؤل باسم النبق - فكتب في جوابه: ما تفيلت يا أبا عبدالله ولكن تبقّرت! النبق: ثمر شجرة السدر. وتفيلت: أي تفاءلت. وتبقرت: أي لم تصبح فيلاً ولكنك أصبحت بقرة!

* تقدم رجل سيء الأدب إلىٰ حجام فقال له: تقدم يا ابن الفاعلة وأصلح شاربي! فقال له: إن كان خطابك للناس كذا فعن قليل تستريح منه.

* صلىٰ رجل صلاة خفيفة فقال له الجماز: لو رآك العجاج لسُرّ بك فقال: ولم؟ قال لأن صلاتك رَجَز! ـ الرجز: ضرب من الشعر خفيف.

* وقف قوم علىٰ مزبد وهو يطبخ قدراً فأخذ أحدهم قطعة لحم فأكلها وقال: تحتاج القدر إلىٰ خل، وأخذ آخر قطعة لحم فأكلها وقال: تحتاج القدر إلىٰ أبزار، وأخذ آخر قطعة لحم فأكلها وقال: تحتاح القدر إلىٰ ملح! فأخذ مزبد قطعة لحم فأكلها وقال تحتاج القدر إلىٰ لحم!

باهلة

* باهلة قبيلة خاملة الذكر، تبرّأ الناس منها، فلقد قيل: باهلة قبيلة من أخس قبائل العرب، ويضرب بلؤمها المثل، ولم تزل العرب تصف باهلة باللؤم في الجاهلية والإسلام، ثم خفت عنهم تلك السمة وشرفت بقتيبة بن مسلم القائد المسلم المشهور الذي فتح بلاد ما وراء النهر وبنيه، حتىٰ قيل:

إذا ما قريشٌ خلا ملكها فإن الخلافة في باهلة

* وكانت العرب تستنكف من الانتساب إلىٰ قبيلة باهلة حتىٰ قال الشاعر:

وما ينفع الأصل من هاشم إذا كانت النفس من باهلة

وقال الآخر:

ولو قيل للكلب يا باهليٌّ عوىٰ الكلب من لؤم هذا النسب!

* وقيل لأبي عبيدة: يقال إن الأصمعي دعيٌّ في نسبه إلىٰ باهلة، فقال: هذا لا يمكن، فقيل: ولم؟ فقال: لأن الناس إذا كانوا من باهلة تبرأوا منها، فكيف يجيء من ليس منها وينتسب إليها؟ ويروىٰ أن الأشعث ابن قيس الكندي قال لرسول الله ﷺ:

أتتكافأ دماؤنا؟ فقال: نعم، ولو قتلت رجلاً من باهلة لقتلتك به». وقال قتيبة بن مسلم لهبيرة بن مسروح: أي رجل أنت لو كان أخوالك من غير سَلُول؟ فلو بادلت بهم! فقال: أصلح الله الأمير، بادل بهم من شئت من العرب وجنبني باهلة!

* ويحكى أن أعرابياً لقي شخصاً في الطريق فسأله: ممن أنت؟ فقال: من باهلة، فرثى له الأعرابي، فقال ذلك الشخص: وأزيدك أني لست من صميمهم، ولكن من مواليهم، ! فأقبل الأعرابي عليه يقبل يديه ورجليه! فقال له: ولم ذاك؟ فقال: لأن الله تبارك وتعالى ما ابتلاك بهذه الرزية في الدنيا إلا ويعوضك الجنة في الآخرة! وقيل لبعضهم: أيسرك أن تدخل الجنة وأنت باهلي؟ فقال: نعم، بشرط ألا يعلم أهل الجنة أني باهلي!

* قال سعيد بن مسلم بن قتيبة بن مسلم الباهلي: خرجت حاجاً فمللت المحمل، فنزلت أساير القطرات - القطار من الإبل: القطعة منها يلي بعضها بعضاً على نسق واحد - فأتانا أعرابي فقال لي: يا فتى، لمن الجمال بما عليها؟ قلت: لرجل من باهلة.. قال الأعرابي: يا لله!.. أن يعطي الله باهلياً كل ما أرى..! قال سعيد: فأعجبني ازدراؤه بهم، ومعي صرّة فيها مائة دينار فرميت بها إليه، فقال: جزاك الله خيراً، وافقت مني حاجة.. فقلت: يا أعرابي، أيسرك أن تكون الجمال بما عليها لك وأنت من باهلة؟! قال: لا..! قلت: أفيسرك أن تكون من أهل الجنة وأنت باهلي؟! قال: بشرط أن لا يعلم أهل الجنة أني من باهلة..!! فقلت: يا أعرابي، الجمال بما عليها لي، وأنا من باهلة..! فرمى الأعرابي بالصرة إلي..! فقلت: سبحان الله، ذكرت أنها وافقت منك حاجة؟! قال: ما يسرني أن ألقى الله.. ولباهلي عندي يد!! قال سعيد: فحدثت المأمون بهذا، فجعل يتعجب ويقول: ويحك يا سعيد، ما كان أصبرك عليه..!!

تأملات

* إننا نحب كل شخص يقول لنا الصراحة، إذا كان هذا الرأي يتفق مع آرائنا!

* الجماهير تستدرج الخاصة، حتى إذا جدّ الجد، كان على الخاصة أن يدبروا حلاً!

الثقلاء

الثقلاء هم أصحاب الطباع الغليظة والأفهام السقيمة، وقد سئل أحدهم: أيكون المؤمن بغيضاً؟ قال: لا، ولكن يكون ثقيلاً! وربنا عز وجل ذكر الثقلاء في القرآن الكريم في قوله: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾ (الاحزاب: ٥٣). وقيل لحكيم: لأي شيء يكون الثقيل أثقل على الإنسان من الحمل الثقيل؟ فقال: لأن الثقيل يقعد على القلب، والقلب لا يحتمل ما يحتمل الرأس والبدن من الثقل!

* وكان أبو هريرة إذا استثقل رجلاً، قال: اللهم اغفر لنا وله، وأرحنا منه في عافية.

* وكان حماد بن سلمة إذا رأى من يستثقله قال: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢)﴾ (الدخان: ١٢).

* قال بعضهم: إذا كان عن يسارك في الصلاة ثقيل، فتكفيك تسليمة واحدة!

* ومرض الأعمش فعاده أحد الثقلاء، فقال له: يا أبا محمد: لولا أنه يثقل عليك، لعدتك كل يوم، فقال الأعمش: والله إنك يا ابن أخي ثقيل علي وأنت في بيتك! فكيف لو جئتني كل يوم؟! وقال ثقيل لمريض: ما تشتهي؟ قال: أشتهي ألا أراك! وكان الأعمش إذا حضر مجلسه ثقيل يقول:

فما الفيلُ تحملُه ميتاً ... بأثقلَ من بعض جُلاَّسنا!

* وذكر رجل ثقيلاً كان يجلس إليه، فقال: والله إني لأبغض شقي الذي يليه إذا جلس إلي!

* ولقد أفحش من قال في ثقيل:

وجه يحيى يدعو إلى البصق فيه ... غير أني أصون عنه بُصاقي!

* وقال آخر:

قميص أبي أمية ما علمتم ... وأوسخُ منه جِلْدُ أبي أمية!

* والثقيل لا يطيقه أحد، فمجالسته داء وهي حُمّىٰ الروح، ومن يقوىٰ علىٰ مجالسة من لا يقعد إلا علىٰ القلب؟!

أنت يا هذا ثقيلٌ وثقيل وثقيل
أنت في المنظر إنسان وفي الميزان فيلُ!

* ومجالسة الثقيل عذابٌ وبيل، وقد ضجر أحدهم من مجالسة ثقيل ورؤيته فقال:

إذا جلس الثقيلُ إليك يوماً أتتك عقوبةٌ من كل باب
فهل لك يا ثقيلُ إلىٰ خصال تنالُ ببعضها كرم المآب
إلىٰ مالي فتأخذَه جميعاً أَحَلَّ لديك من ماء السحاب
وتنتف لحيتي وتدقّ أنفي وما في فيّ من ضِرْس وناب
علىٰ ألاَّ أراك ولا تراني مقاطعةً إلىٰ يوم الحساب!!

* وسلم ثقيل علىٰ أحدهم فقال له: يا هذا! قد ـ والله ـ بلغت مني غاية الأذىٰ، وأسلفني سلام شهر وأرحني منك!

* ويقال في الأمثال العامة: فلان ثقيل علىٰ المعدة لا يهضم، وفلان خفيف الدم خفيف الروح قريب من القلب، وهذا حق وصدق، فالناس كما نعلم أنواع وأشكال وهم في مستويات مختلفة وعادات متباينة، فقد يترفع إنسان عن الدنايا ويتحلىٰ بالمكارم ويتجمل بالفضائل مع خفة دم وحلاوة روح، فيتشرب القلب حبه وتعشق الأذن سماع حديثه، وقد يتمادىٰ آخر في النقائص ويلتصق بالمفاسد فينفر القلب منه وتشمئز الأذن من سماع حديثه وتكره العين رؤيته لسماجته وغلظ طبعه، وربما مع فساد سريرته، فيخيل إليك من شدة كرهه أنه يمشي علىٰ كبدك ويطأ بطنك ويجلس علىٰ قلبك! كما يقال في الأمثال العامة. ويقول الأولون عن الثقيل: فلان إذا رآه الشيطان، صدّ عنه!

* كان الأعمش إذا رأىٰ ثقيلاً قال: كم غرضك تقيم في هذه البلدة؟!

* وجرى بينه وبين زوجته كلام، وكان يأتيه رجل يُقال له أبو ليلى مكفوف، فصيح يتكلم بالإعراب يتطلب الحديث منه، فقال: يا أبى ليلى، امرأتي نشزت عليَّ وأنا أحب أن تدخل عليها فتخبرها مكاني من الناس وموضعي عندهم، فدخل عليها وكانت من أجمل أهل الكوفة فقال: يا هنتاه إن الله قد أحسن قسمك، هذا شيخنا وسيدنا وعنه نأخذ أصل ديننا وحلالنا وحرامنا، فلا يغرنك عموشة عينيه ولا حموشة ساقيه، فغضب الأعمش وقال: يا أعمى يا خبيث، أعمى الله قلبك كما أعمى عينيك، قد أخبرتها بعيوبي كلها، اخرج من بيتي!

* وكتب إلى بعض إخوانه يعزيه

إنا نعزيك لا أنا على ثقة ... من البقاء ولكن سنّة الدين

فلا المعزّى بباقٍ بعد ميّته ... ولا المعزّي وإن عاشا إلى حين

* ومرض الأعمش فأبرمه الناس بالسؤال عنه، فكتب قصته في كتاب وجعله عند رأسه، فإذا سأله أحد قال: عندك القصة في الكتاب فاقرأها!

* قيل للشعبي هل تمرض الروح؟ قال: نعم من ظل الثقلاء! قال: بعض أصحابه فمررت به يوماً وهو بين ثقيلين فقلت: كيف الروح؟ قال: في النزع!

* أهدى رجل من الثقلاء إلى رجل من الظرفاء جملاً، ثم نزل عليه ضيفاً، حتى أضجره من طول مقامه عنده، فقال: فيه:

* يا مُبْرِماً أهدى جملْ ... خُذْ وانصرفْ ألفيْ جمل

قال: وما أوْقارُها ... قلت: زبيبٌ وعسلْ

قال: ومَنْ يقودها ... قلت له: ألفا رجل

قال: ومن يسوقها ... قلت له: ألفا بطل

قال: وما لباسهم ... قلت: حُلِيٌّ وحُلَل

قال: وما سلاحهم قلت: سيوف وأسَل

قال: عبيد لي إذن قلت: نعم، ثم خَوَلْ

قال: بهذا فاكتبوا إذن عليكم لي سِجِل

قلت له: ألفي سِجِل فاضمن لنا أن ترتحل

قال: وقد أضْجرتكم؟ قلت: أجل، ثم أجل

قال: وقد أبرمتكم؟ قلت له: الأمر جَلَل

قال: وقد أثقلتكم؟ قلت له: فوق الثِّقل

قال: فإني راحلٌ قلت: العَجَلْ ثم العَجَلْ

يا كوكبَ الشؤم ومَنْ أربى على نحسِ زُحَل

يا جبلاً من جبل في جبل فوقَ جبلْ!!

-الأسَل: الرماح.

* نزل بصري على مدني، وكان صديقاً له، فأطال المقام عنده، فقال المدني لامرأته: إذا كان يوم غد، فإني أقول لضيفنا: كم ذراعاً تقفز؟! فأقفز أنا، فإذا قفز فأغلقي الباب خلفه! فلما كان من الغد، قال المدني: كم قفزك يا أبا فلان؟ قال: جيد، فعرض عليه أن يقفز معه، فأجابه، فوثب المدني من داره إلى خارج أذرعاً، وقال للضيف: ثب أنت! فوثب الضيف إلى داخل الدار ذراعين! فقال له: وثبت أنا إلى خارج الدار أذرعاً، وأنت إلى داخلها ذراعين؟ فقال الضيف: ذراعان في الدار خير من أربع إلى خارج!

* قال أحدهم: رأيت رؤيا نصفها حق، ونصفها باطل، رأيت أني أحمل على عنقي بَدْرة فيها مائة ألف دينار، فمن ثقلها أحدثت في ثيابي! فاستيقظت، فرأيت الحَدَث، ولم أرَ البدرة!

* سأل رجل صديقاً له أن يمشي معه إلى إنسان في حاجة فقال : أحب أن تعفيني ، فإنه ثقيل ، بغيض ، غَثٌّ! فقال صاحبه : يا سيدي ، إحسبه الكَنيف الذي تأتيه كل يوم مرتين!

* كان أحد الأدباء يتبرم من زيارة الثقلاء . فكان يحتفظ بعمامته ، وعصاه ، خلف باب مسكنه ، فإذا دقَّ أحد بابه ، أسرع فوضع عمامته على رأسه ، وأمسك بعصاه ، ثم فتح الباب . فإن ظهر أن الزائر أحد الثقلاء ، قال : والله لولا أني خارج لمهمة لاستأنست بمجالستك! وإن كان الزائر مقبولاً لديه ، قال : تفضل بالدخول ، إني قد عُدْتُ من السوق بالتوِّ واللحظة!

* دعا حمزة بن بيض حجاماً وكان الحجام ثقيلاً كثير الكلام ، فلما أرهف المشاريط قال له : الساعة توجعني؟ قال : لا ، قال فانصرف اليوم ، قال : لا تفعل فإنك محتاج إلى إخراج الدم وذلك بيّن في وجهك وهي سنة نبوية! قال : انصرف وعد إليّ غداً ، قال : لست تدري ما يحدث إلى غد والمشاريط حادة وإنما هي لحظة ، قال : إن كان كما تقول فأعطني فردة بيضة من خصيتك تكون في يدي رهينة إن أوجعتني أوجعتك ، فقام الحجام وقال : أرى أن تدع الحجامة في هذا العام ، وانصرف .

* قال أحمد بن محمد بن يحيى القطان : قال لي يزيد بن هارون : أنت أثقل عندي من نصف حجر البزر ، قلت لِمَ لم تقل من الرحى كله؟ فقال : إنه إذا كان صحيحاً تدحرج ، فإذا كان نصفاً لم يرفع إلا بجهد!

* قال سفيان الثوري ما نظرت إلى ثقيل أو بغيض إلا كحلت عيني بماء ورد مخافة أن يكون قد التصق بها شيء!

* قال حفص بن غياث : رأيت إدريس الأودي جاء بابنه عبدالله إلى الأعمش فقال : يا أبا محمد هذا ابني إنّ من علمه بالقرآن ، من علمه بالفرائض إن من علمه بالشعر ، إن من علمه بالنحو ، إن من علمه بالفقه ، والأعمش ساكت ، ثم سأل الأعمش عن شيء فقال : سل ابنك!

* دعي الأعمش إلى عرس فنشر فروته ثم جاء فرده الحاجب ، فرجع فلبس قميصاً

وإزاراً وجاء، فلما رآه الحاجب أذن له فدخل وجاءوا بالمائدة فبسط كمه على المائدة وقال: كُلْ فإنما أنت دعيت ليس أنا، وقام ولم يأكل!!

* قال الأعمش لجليس له: تشتهي كذا وكذا من الطعام؟ فوصف طعاماً طيباً فقال: نعم، قال: فانهض بنا، فدخل به منزله فقدَّم رغيفين يابسين وكامخاً، وقال كُلْ: قال أين ما قلتَ؟ قال: ما قلت لك عندي، إنما قلت تشتهي!

* قال رجل للأعمش: كيف بت البارحة؟ قال: فدخل فجاء بحصير ووسادة ثم استلقى وقال كذا!

* وصف أمير الشعراء أحمد شوقي الشخص الثقيل الظل فقال:

سقط الحمار من السفينة في الدجى ... فبكى الرفاق لفقده وترحموا
حتى إذا طلع النهار أتت به ... نحو السفينة موجة تتقدم
قالت: خذوه كما أتاني سالماً ... لم أبتلعه لأنه لا يهضم!

* يقول البهاء زهير:

وثقيلٌ ما برحنا ... نتمنى البعد عنه
راح عنا ففرحنا ... جاءنا أثقل منه

* كتب أبو الحسن أحمد بن محمد بن عمير الأسدي لبعض إخوانه:

كنتُ يا سيدي على التَّطْفيلِ ... أمس لولا مخافة التثقيلِ
وتذكَّرْتُ دهشة القارع البا ... ب إذا ما أتى بغير رسول
وتخوّفت أن أكون على القو ... م ثقيلاً فَقَدْت كلّ ثقيلِ
لو تراني وقد وقفت أُروِّي ... في دخول إليك أو في قُفُول
لرأيْتَ العذراءَ حين تَحَايا ... وهي من شهوةٍ على التعجيل!

- أروي: أفكر وأتدبر، قفول: رجوع، تحايا: أي تبدي الحياء وتتكلّفه

* جاء أحد الثقلاء إلى الجاحظ وقال له: سمعت أن لك ألف جواب مسكت، فعلمني منها! فقال الجاحظ: نعم. فقال الثقيل: إذا قال لي شخص: يا زوج الفاعلة يا ثقيل الروح، أي شيء أقول له؟ قال الجاحظ: قل له: صدقت!

* قال أحد الشعراء في شخص ثقيل:

ليتني كنت ساعةً ملك المو ... ت فأفني الثقال حتى يَبيدوا

ولو أني في جنة الخلـ ... ـد لقلت: الخروجَ منها أريد

لَدخول الجحيم أهون من ... جنة خُلْدٍ أراك فيها تَرود

* وقال المقنع الكندي في بعض من صحبه:

ألا يا مركب المقْت ... الذي أرسى فلا يبرحْ

ويا مَنْ سكرات المو ... ت من طلعته أروح

لقد صورت في فكري ... فلا أدري لما تصلح

فلا تصلحُ أن تُهجى ... ولا تصلح أن تُمدح

بلى، تصلح أن تقتل ... أو تصلب أو تذبح

* وقال ابن سيرين: سمعت رجلاً من أهل البادية يقول: نظرت إلى ثقيل مرة فغشي عليّ!

* أتى طفيلي إلى بدوي يحلب ناقته وسأله: أي أبنائك خير؟ قال الأعرابي: لا أدري قال: فأي يديك خير؟ قال: العليا. قال: فأي أصابعك خير؟ قال: التي تساعدني على حلب الناقة. قال: فأي أيامك خير؟ قال: أرجو ألا يكون قد أتى بعد. قال: فأي طعامك خير؟ قال: ما شاركني فيه ضيف. قال: فأي دراهمك خير؟ قال: ما أغناني عن الحاجة. قال: فأي أدعيتك خير؟ قال: اللهم ارحمني من إلحاح المتطفلين والثقلاء!

* كان وكيع إذا جلس إليه ثقيل، غمض عينيه، وقام عنه!! وكان الشعبي ينشد:

ومن الناس من يخفّ ومنهم   كرحى البزر ركبت فوق ظهري

* قال عبيد الله بن عمر: جاء إلى يحيى بن سعيد - رحمه الله - رجل يستثقله، فقال لي: من بالباب؟ فقلت: فلان، فصك رأسه بأصابع يديه كلها! وقال: يا أبا سعيد، جبل، جبل! فلما انصرفت مررت بالرجل وهو جالس على الباب فلا أدري أذن له أم لا!

* حدث العباس بن بنان قال: كنا عند أبي بكر بن عياش يقرأ علينا كتاب مغيرة، فغمض عينيه، فحركه أحدنا وقال له: تنام يا أبا بكر؟. فقال: لا، ولكن مر ثقيل فغمضت عيني!

* لما دخل أبوالعلاء صاعد بن الحسن اللغوي مدينة دانِيَةَ وحضر مجلس الموفق مجاهد بن عبدالله العامري أمير البلد، كان في المجلس أديب يقال له بشار، فقال للموفق مجاهد: دعني أعبث بصاعد، فقال له مجاهد: لا تتعرض إليه فإنه سريع الجواب، فأبى إلا مشاكلته، فقال له بشار، وكان أعمى: يا أبا العلاء، فقال: لبَّيك، فقال: ما الْـجَرَنْفُلُ في كلام العرب؟ فعرف أبوالعلاء أنه قد وضع هذه الكلمة وليس لها أصل في اللغة، فقال له بعد أن أطرق ساعة: هو الذي يفعل بنساء العميان ولا يفعل بغيرهن، ولا يكون الجرنفل جرنفلاً حتى لا يتعداهن إلى غيرهن! وهو في ذلك كله يصرح ولا يكني! قال: فخجل بشار وانكسر، وضحك من كان حاضراً، فقال له الموفق: قلتُ لك لا تفعل فلم تقبل!.

* وألَّف صاعد كتاباً سماه الفصوص، نحا فيه منحى القالي في أماليه، وكان يُتَّهم بالكذب في نقله، فلهذا رَفَضَ الناس كتابه! ولما ظهر للمنصور بن أبي عامر - الوالي في الأندلس الذي ألَّف الكتاب له - كذبه في النقل، وعدم تثبته، رمى كتاب «الفصوص» في النهر، لأنه قيل له: جميع ما فيه لا صحة له، فعمل فيه بعض شعراء عصره:

قد غاص في البحر كتاب الفُصُوصْ   وهكذا كلُّ ثقيل يغوصْ

فلما سمع صاعد هذا البيت أنشد:

عـاد إلـى عُـنْـصُـره إنما يـخـرج   مـن قـعـر الـبـحـور الـفُـصـوص

تأملات

* أحزم الناس عاقل   لمس الجرح وابتسم.

* من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلاً!

* العقول كمظلات الطيارين لا تنفع حتى تُفتح!

* سئل أحد الفلاسفة: كيف تختار امرأتك؟ فأجاب: لا أريدها جميلة فيطمع فيها غيري، ولا قبيحة فتشمئز منها نفسي، ولا طويلة فأرفع لها هامتي، ولا قصيرة فأطأطئ لها رأسي، ولا سمينة فتسدّ علي منافذ النسيم، ولا هزيلة فأحسبها خيالي.. ولا بيضاء مثل الشمع، ولا سوداء مثل الشبح، ولا جاهلة فلا تفهمني، ولا متعلمة فتجادلني، ولا غنية فتقول هذا مالي، ولا فقيرة فيشقى من بعدها ولدي!!

* كانت لرجل زوجتان، فجلس معهما يتسامر وطاب لهما أن تحرجاه فسألتاه: أينا أحب إليك؟ قال: أنتما معاً حبيبتان إلى قلبي! قالتا: لا.. إنك لا تستطيع أن تضحك منا بهذه المراوغة، وأمامك هذه البركة نخيّرك في إغراق إحدانا بها، فمن منا تلقي بها في الماء الآن؟ وحار في أمره هنيهة، ثم التفت إلى الزوجة الأولى وقال لها: أذكر أنك تعلمت السباحة قديماً، يا عزيزتي!!

* الجماهير لا عقول لها!

* كان أحدهم يداعب زوجته فأغمض إحدى عينيها ووضع فوقها ديناراً، وطمعت الحبيبة بدينار آخر فأغمضت الثانية وقالت: لا تنس يا حبيبي أن الحب أعمى وليس أعور..

* مثل المتكبر مثل رجل فوق جبل يرى الناس صغاراً ويرونه صغيراً!

الطفيليون

* مما يُخِلّ بالمروءة ويتنافى مع الشرف، حضور الولائم والتعرض للطعام من غير دعوة، وهذا يسمى عند العرب: التطفيل، وهو مشتق من الطَّفَل، وهو الظلمة، لأن الفقير من العرب كان يحضر الطعام الذي لم يُدْعَ إليه مستتراً بالظلمة لئلا يُعْرف!! وقيل: سمي بذلك، لإظلام أمره على الناس، لا يُدرىٰ مَنْ دعاه! وقيل: من الطَّفَل لهجومه على الناس كهجوم الليل على النهار، وكل هذه المعاني تنطبق على الطفيليين.

* وأول من سمي بهذا الاسم، طفيل العرائس، وإليه ينسب الطفيليون، وهو فيلسوفهم وعرَّاب صنعتهم، ومن وصاياه وتوجيهاته لأصحابه: إذا دخل أحدكم عُرْساً فلا يلتفت تلفّت المريب، ويتخير المجالس، وإن كان العرس كثير الزحام، فليمض ولا ينظر في عيون الناس، ليظن أهل المرأة أنه من أهل الرجل، ويظن أهل الرجل أنه من أهل المرأة! ويضيف شيخ الطفيليين: وإن كان البواب فاحشاً غليظاً، فليبدأ، ويأمره وينهاه من غير أن يُعنّف عليه، ولكن بين النصيحة والإدلال!

* وأشهر من نُسب إليه هذا الاسم، بنان الطفيلي، وكان نقش خاتمه: «ما لكم لا تأكلون»! ومن وصاياه لبعض أصحابه: إذا قعدت على مائدة وكان موضعك ضيقاً فقل للذي يليك: لعلي ضيقت عليك! فإنه يتأخر إلى خلف، ويقول لك: موضعي واسع - فيوسع عليك كموضع رجل آخر! ومن وصاياه: إذا وجدت الطعام فكل منه أكل من لم يره قط، وتزود منه زاد من لا يراه أبداً، وإذا دعاك صديق، فاقعد يمنة البيت، فإنك تسود الحضور بكل شيء وتسبقهم إلى كل خير!

وتساق حوادث الطفيليين ونوادرهم للتسلية والتندّر بها في المجالس، ففيها من الظرف والذكاء ما يدخل السرور على النفس، رغم قبح أصحابها!

* مر طفيلي على قوم وعندهم وليمة، فاقتحم عليهم وأخذ مجلسه مع من دعي! فأنكره صاحب المنزل، فقال له: لو تأنيت أو وقفت حتى يؤذن لك، أو يُبْعث إليك؟

فقال: إنما اتُّخذت البيوت ليُدْخل إليها، ووضعت الموائد ليُؤْكل عليها، وما وجِّهْتُ بهدية فأتوقعُ دعوة، والحِشْمة قطيعة، واطراحُها صلة، وقد جاء في الأثر: صل من قطعك وأعط من حرمك! وشعار الطفيليين:

نحن قوم إن جفا النا ... س وصَلْنا من جفانا
لا نبالي صاحب الدا ... ر نَسِينَا أم دعانا!!

* ودخل طفيلي على قوم يأكلون، فقال: ما تأكلون؟ فقالوا من بغضه: سُماً! فأدخل يده وقال: لا خير في الحياة بعدكم!!

* ودخل آخر على قوم فقالوا: ما دعوناك! فما الذي جاء بك؟ فقال: إذا لم تدعوني ولم آت، وقعت وحشة وجفوة!

* ونظر طفيلي إلى قوم ذاهبين، فلم يشك أنهم ذاهبون إلى وليمة فتبعهم، فإذا هم شعراء قصدوا الخليفة بمدائح لهم، فلما أنشد كل واحد شعره، ولم يبق إلا هو، قال له الخليفة: أنشدْ شعرك، فقال: لست بشاعر، قال: فمن أنت؟ قال: من الغاوين قال الله في حقهم ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤)﴾ (الشعراء) فضحك منه وأمر له بجائزة الشعراء!

* ويروى أن المأمون أمر أن يحمل إليه عشرة من الزنادقة سُمُّوا له، فجُمعوا فأبصرهم طفيلي فقال: ما اجتمعوا إلا لصنيع، فدخل في وسطهم ومضى بهم الموكَّلون حتى انتهوا إلى زورق قد أُعدَّ لهم، فقال الطفيلي: هي نزهة! فدخل معهم الزورق فلم يكن بأسرع من أنْ قُيِّدوا، وقيد معهم الطفيلي، ثم سِيرَ بهم إلى بغداد، فأُدْخلوا على المأمون، فجعل يدعوهم بأسمائهم واحداً واحداً، ويأمر بضرب أعناقهم، حتى وصل إلى الطفيلي، وقد استوفى العِدَّة، فقال للموكلين: ما هذا؟ قالوا: والله ما ندري، غير أنا وجدناه مع القوم فجئنا به، فقال له المأمون: ما قصتك ويلك؟! فقال: يا أمير المؤمنين: امرأتي طالق إن كنت أعرف من أقاويلهم شيئاً ولا مما يدينون به، وإنما أنا رجل طفيلي، رأيتهم مجتمعين، فظننت صنيعاً يدعون إليه، فضحك المأمون وقال: يؤدب!

* قال منصور بن علي الجهضمي: كان لي جار طفيلي، وكان من أحسن الناس منظراً وأعذبهم منطقاً وأطيبهم رائحة وأجملهم ملبوساً، وكان من شأنه أني إذا دعيت إلى دعوة تبعني، فيكرمه الناس من أجلي! ويظنون أنه صاحب لي! فاتفق يوماً أن جعفر بن القاسم الهاشمي أمير البصرة أراد أن يختن بعض أولاده فقلت في نفسي كأني برسوله وقد جاء، وكأني بهذا الرجل تبعني، والله لئن تبعني لأفضحنه! فأنا على ذلك إذ جاء الرسول يدعوني، فما زدت على أن لبست ثيابي وخرجت، فإذا أنا بالطفيلي واقف على باب داره قد سبقني بالتأهب! فتقدمت وتبعني، فلما دخلنا دار الأمير جلسنا ساعة، ودعي بالطعام وحضرت الموائد، وكان كل جماعة على مائدة، والطفيلي معي، فلما مدّ يده ليتناول الطعام قلت: حدثنا درست ابن زياد عن أبان بن طارق، عن نافع عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: من دخل دار قوم بغير إذنهم فأكل طعامهم دخل سارقاً وخرج مغيراً! فلما سمع ذلك قال: أثبت لك عثراً والله من هذا الكلام، فإنه ما من أحد من الجماعة إلا وهو يظن أنك تعرض به دون صاحبه! أو لا تستحي أن تحدث بهذا الكلام على مائدة سيد من أطعم الطعام! وتبخل بطعام غيرك على من سواك! ثم لا تستحي أن تحدث عن درست بن زياد وهو ضعيف، عن أبان بن طارق وهو متروك، لحديث يحكم برفعه إلى النبي والمسلمون على خلافه، لأن حكم السارق القطع، وحكم المغير أن يعزر على ما يراه الإمام، وأين أنت عن حديث: حدثنا أبو عاصم النبيل عن ابن جريح عن أبي الزبير عن جابر قال، قال رسول الله ﷺ طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية، وهو إسناد صحيح! قال منصور بن علي فأفحمني فلم يحضرني له جواب! فلما خرجنا من الموضع للانصراف فارقني من جانب الطريق إلى الجانب الآخر بعد أن كان يمشي ورائي وسمعته يقول:

ومن ظن ممن يلاقي الحروب ... بأن لا يصاب فقد ظن عجزاً

* قال طفيلي إياك والكلام على الطعام، إلا أن تقول نعم فإنها مضغة!

* صحب طفيلي رجلاً في سفر فقال له الرجل: امض فاشتر لنا لحما، قال: لا والله

ما أقدر، فمضى هو واشترى، ثم قال له: قم فاطبخ، قال: لا أحسن، فطبخ الرجل ثم قال له قم فاثرد، قال: أنا والله كسلان، فثرد الرجل، ثم قال له: قم واغرف قال: أخشى أن ينقلب على ثيابي! فغرف الرجل، ثم قال له: قم الآن فكُلْ، قال الطفيلي: قد والله استحييت من كثرة خلافي لك، وتقدَّم فأكل!!

* قال بنان الطفيلي: التمكن على المائدة خير لك من زيادة أربعة ألوان!!

* وقال: حفظت القرآن كله ثم أنسيته إلا حرفين: آتنا غداءنا.

* مر طفيلي على قوم كانوا يأكلون، وقد أغلقوا الباب دونه، فتسور عليهم من الجدار وقال: منعتموني من الأرض فجئتكم من السماء!

* لزم طفيلي سفيان بن عيينة يسمع منه الحديث، فلما اعتزم السفر سأله سفيان عما أعجبه من الحديث فأجابه: ثلاثة أحاديث، حديث أم المؤمنين عن النبي أنه كان يحب الحلوى والعسل، وحديثه عليه الصلاة والسلام: إذا حَضَر العَشَاء والعِشاء فابدأوا بالعَشَاء، وحديث عائشة: ليس من البر الصوم في السفر!!

* قيل لطفيلي: أتعرف بستان فلان؟ قال: إي والله، إنه الجنة الحاضرة في الدنيا! فقيل: لِمَ لا تدخله وتأكل من ثماره، وتستظل بأشجاره، وتسبح في أنهاره؟! قال: لأن فيه كلباً لا يتمضمض إلا بدماء عراقيب الرجال!

تأملات

* كان أعرابي وزوجته يسيران في الصحراء فطلع عليهما قطاع طرق أوثقوا الرجل ثم اغتصبوا امرأته أمامه واحداً بعد الآخر، وحين انتهوا وغادروا استل الزوج خنجره وطعنها طعنة قاتلة وهو يصفها بالخائنة فجاء صوتها متحشرجاً ومستغرباً بأنهم كانوا يغتصبونها عنوة فلا حول لها ولا قوة! فقال الزوج.. نعم، لكن تأوهاتك لم تكن من الألم بل من.. اللذة!!

* الندم هو اكتشاف الخطأ بعد فوات الأوان!

واحرّ قلباه

* قال المتنبي :

وَا حَرَّ قلباهُ ممن قلبه شَبِمُ ... ومَنْ بجسمي وحالي عنده سَقَمُ
ما لي أكتّم حُباً قد برىٰ جَسَدي ... وتدّعي حُبَّ سيف الدولة الأمُمُ
إنْ كان يجمعُنا حُبٌّ لغُرّته ... فليتَ أنّا بقدْر الحب نقتسمُ
قد زُرْتُه وسيوفُ الهند مُغْمدةٌ ... وقد نظرتُ إليه والسيوفُ دمُ
يا أعدلَ الناس إلا في معاملتي ... فيكَ الخصامُ وأنت الخصم والحَكَمُ
أعيذها نظراتٍ منك صادقة ... أنْ تَحْسَبَ الشحم فيمن شحمُه وَرَمُ
وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظره ... إذا استوتْ عنده الأنوار والظُّلمُ
سيعلمُ الجمعُ ممن ضم مجلسنا ... بأنني خير من تسعىٰ به قدم
أنا الذي نظرَ الأعمىٰ إلىٰ أدبي ... وأسمعتْ كلماتي مَنْ به صَمَمُ
أنامُ ملءَ جُفوني عن شواردها ... ويسهر الخلق جَرّاها ويختصمُ
إذا رأيتَ نيوبَ الليث بارزةً ... فلا تظنَّنَّ أن الليث يبتسم
الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني ... والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ
صحبتُ في الفلوات الوحشَ منفرداً ... حتىٰ تعجّب مني القوز والأَكَمُ
يا من يَعِزُّ علينا أن نفارقهم ... وجداننا كل شيء بعدكم عدم
ما كان أخلقنا منكم بتكرمة ... لو أن أمركم من أمرنا أمم
إن كان سرّكمُ ما قال حاسدُنا ... فما لجُرْح إذا أرضاكم ألم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة ... إن المعارف في أهل النُّهىٰ ذِمَمُ

كـم تـطـلـبـون لـنـا عـيـبـاً فـيُـعـجـزُكـم ويـكـره الـلـه مـا تـأتـون والـكـرم

إذا تـرحَّـلْـتَ عـن قـوم وقـد قـدروا أن لا تُـفـارقـهـم فـالـراحـلـون هُـمُ

شـرُّ الـبـلاد بـلادٌ لا صـديـقَ بـه وشـرُّ مـا يكْـسـبُ الإنـسـان مـا يَـصِـمُ!

القَوْز : الكثيب العالي من الرمل .

تأملات

* حارب عدوك بالسلاح الذي يخشاه ، لا بالسلاح الذي تخشاه أنت .

* لا تتحدَّ إنساناً ليس لديه شيء يخسره .

* لا يغرنك ارتقاء السهل إذا كان المنحدر وعراً .

* إذا أحببت أن لا تفوتك شهوتك ، فاشته ما يمكنك الحصول عليه .

* قالوا : أمنا حواء هي المرأة الوحيدة التي لم تذكر لزوجها أسماء الرجال الذين تقدموا لخطبتها فرفضتهم ! !

* سأل أحدهم صديقاً له : كيف حال قرينتك؟ فأجاب : لا أدري والله كيف حالها ، لأني لم أر وجهها منذ عشر سنوات ، فسأله : وكيف ذلك؟ وأنا أعلم من قرينتي أنها مازالت في دارك؟ فأجاب : أي نعم : لم أر وجهها ، لأنها تطليه بالأحمر والأبيض منذ يوم زواجي !

* إن سلاح الكاريكاتير هو أقوى سلاح إنكليزي لم تستطع الأحوال الجوية أن تصيبه بالصدأ ! . (الشاعر الإنكليزي : بايرون)

* كاريكاتير : كلمة إيطالية تعني المبالغة في الخطوط . . في الأنف والعينين والساقين .

* اخجل من عيوبك ، وليس من تصحيحها !

* ليس هناك خطأ أكبر من عدم الاعتراف بالخطأ !

الوضاعون!

* صلى أحمد بن حنبل ويحيى بن معين بمسجد الرصافة، فقام بين أيديهم قاص فقال: حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، قالا: حدثنا عبدالرزاق عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله خلق الله من كل كلمة طيراً منقاره من ذهب وريشه من مرجان! واستمر يذكر فيه نحواً من عشرين ورقة، فجعل أحمد ينظر إلى يحيى، ويحيى ينظر إلى أحمد، فقال أنت حدثت بهذا؟ فقال: والله ما سمعت بهذا إلا الساعة، فلما انتهى أشار له يحيى فجاء متوهماً نوالاً!، فقال له يحيى: من حدثك بهذا؟ قال: أحمد بن حنبل ويحيى بن معين. فقال يحيى: أنا يحيى وهذا أحمد، ما سمعت بهذا قط في حديث رسول الله، فإن كان ولابد فعلى غيرنا!! فقال القاص: لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق ما تحققته إلا الساعة! فقال له يحيى: وكيف؟ فقال: أليس في الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما؟ لقد كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل ويحيى بن معين!!

* يذكر علماء الحديث أن العراق أول بيئة نشأ فيها وضع الحديث واختلاقه ونسبته إلى رسول الله ﷺ، كان الزهري يقول: يخرج الحديث من عندنا شبراً فيرجع إلينا من العراق ذراعاً! وكان مالك يسمي العراق دار الضرب! أي تضرب فيها الأحاديث وتخرج إلى الناس، كما تضرب الدراهم وتخرج للتعامل!

* كان كثير من الزهاد والعباد والصالحين، يحتسبون وضعهم للأحاديث في الترغيب والترهيب، ظناً منهم أنهم يتقربون إلى الله ويخدمون دين الإسلام، ويحببون الناس في العبادات والطاعات! ولما أنكر العلماء عليهم ذلك وذكروهم بقوله ﷺ: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار قالوا: نحن نكذب له ﷺ لا عليه!! وهذا كله من الجهل بالدين وغلبة الهوى والغفلة، ومن أمثلة ما وضعوه في هذا السبيل، حديث فضائل القرآن سورة سورة، فقد اعترف بوضعه نوح ابن أبي مريم، واعتذر لذلك بأنه رأى الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغازي ابن إسحاق!

* ومن هؤلاء الوضاعين غلام خليل، وقد كان زاهداً متخلياً عن الدنيا وشهواتها، منقطعاً إلى العبادة والتقوى، محبوباً من العامة، حتى إن بغداد أغلقت أسواقها يوم وفاته حزناً عليه، ومع ذلك فقد زين له الشيطان وضع أحاديث في فضائل الأذكار والأوراد حتى قيل له: هذه الأحاديث التي تحدث بها من الرقائق؟ فقال: وضعناها لنرقق بها قلوب العامة! ـ السنة ومكانتها في التشريع للسباعي ـ.

* دخل غياث بن إبراهيم على المهدي وهو يلعب بالحمام فروى له الحديث المشهور: لا سبق إلا في نصل أو خف أو حافر ـ الحديث رواه أحمد وأصحاب السنن ـ وزاد فيه «أو جناح» إرضاءً للمهدي، فمنحه المهدي عشرة آلاف درهم، ثم قال بعد أن ولى: أشهد أن قفاك قفا كذاب على رسول الله ﷺ، وأمر بذبح الحمام! وكان الأولى بالمهدي أن يعاقبه لا أن يكافئه.

* يقول ابن سيرين فيما يرويه عنه الإمام مسلم في مقدمة صحيحه: لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سمُّوا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيُؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم!

* كان محمد بن الحجاج النخعي يبيع الهريسة، فوضع حديثاً واختلقه لينفق سلعته ويروجها، فنسب إلى رسول الله ﷺ أنه قال: الهريسة تشد الظهر!

* قال ابن الجوزي: ما أحسن قول القائل: كل حديث رأيته تخالفه العقول، وتناقضه الأصول، وتباينه النقول، فاعلم أنه موضوع! وقال الرازي في المحصول: كل خبر أوهم باطلاً ولم يقبل التأويل فمكذوب أو نقص منه ما يزيل الوهم!

* قال أبو العباس المبرد في الكامل: أخبرت أن قاصاً كان يكثر الحديث عن هرم بن حيان، فاتفق هرم معه مرة في المسجد وهو يقول: حدثنا هرم بن حيان، فقال له: يا هذا أتعرفني؟ أنا هرم بن حيان ما حدثتك من هذا بشيء قط، قال له القاص: وهذا من عجائبك أيضاً، إنه ليصلي معنا في مسجدنا خمسة عشر رجلاً اسم كل رجل منهم هرم بن حيان، فكيف توهمت أنه ليس في الدنيا هرم بن حيان غيرك؟ قال: ويقرب من هذا أنه

كان في الرقة قاص يكنىٰ أبا عقيل يكثر من التحدث عن بني إسرائيل فنظن به الكذب، فقال له يوماً الحجاج بن حنتمة: ما كان اسم بقرة بني إسرائيل؟ قال: حنتمة، فقال له رجل من ولد أبي موسىٰ الأشعري: في أي الكتب وجدت هذا؟ قال: في كتاب عمرو بن العاص!

تأملات

* إن من ينقذ وطنه، لا يخرق أي قانون!

* إنني أتأذىٰ عندما تزوّر الانتخابات في بلدٍ ما، لا لأن نفراً من الشطار سوف يسرقون مناصب لا يستحقونها ـ وهذا وحده جريمة ـ بل مصدر الأذىٰ مرور الكذب في هدوء، واستقرار شهادة الزور دون اكتراث، وإلف الكبار والصغار أن تطمس الحقيقة دون نكير! وأمة تحيا بهذه الخلائق جديرة بالموت.

* كتب رجل إلىٰ قاض في أمر قوم من جيرانه اختصموا: إن الذي لم يجر بينهما غير مفهوم! وقد أردت الاستصلاح فعاد استفساداً، فإن رأىٰ القاضي ـ أدام الله عزله، أن يصفح عن كتابي فإن فيه نقصاً! فقال القاضي: لا، بل فيه زيادة لام، كفانا الله شرها! ـ أراد أن يقول: أدام الله عزه، فكتب عزله!

* أتىٰ رجل إلىٰ فقيه فقال: وضعت رأسي في حجر امرأتي فقالت: ما أثقل رأسك! فقلت: أنت طالق، إن كان رأسي أثقل من رأسك! فهل تطلق؟ فقال الفقيه الظريف: تطلق عليك! فقيل له: لِمَ؟ قال: لأن القصابين أجمعوا علىٰ أن رأس الكبش أثقل من رأس النعجة!

* قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: خذ الحكمة أنىٰ أتتك، فإن الحكمة تكون في صدر المنافق فتتلجلج في صدره حتىٰ تخرج فتسكن إلىٰ صواحبها!

* ذووا النفوس الدنيئة، يجدون اللذة في التفتيش عن أخطاء العظماء!

أبو نواس

* أبو نواس هو: أبو علي الحسن بن هانئ، ولد بالبصرة ونشأ فيها، ثم خرج إلى الكوفة ثم صار إلى بغداد، وقيل له: أبو نواس، لذؤابتين كانتا له تنوسان على عاتقيه.

* روي أن الخصيب صاحب ديوان الخراج بمصر سأل أبا نواس عن نسبه فقال: أغناني أدبي عن نسبي! فأمسك عنه. وكان قوي البديهة والارتجال.

* ومن شعره المشهور وقد قاله وهو صبي:

حامِلُ الهوىٰ تَعِبُ ... يَسْتَخِفُّه الطَّربُ
إنْ بَكَىٰ يَحِقُّ لَهُ ... ليس مَا به لعب
تضحكين لاهيةً ... والمحبُّ يَنْتحبُ
تعجبينَ من سَقَمي ... صحتي هي العَجَبُ

* وقال أبو نواس في الصمت والسكوت:

خلِّ جنبَيك لرامِ ... وامض عنه بسلامِ
مُتّ بداء الصمت خيرٌ ... لكَ من داء الكلام
إنما السالم من ألـ ... ـجم فاه بلجام

* ومما مدح به أبو نواس الخليفة محمد الأمين بن هارون الرشيد، قصيدته التي مطلعها:

يا دارُ ما صنعتْ بكِ الأيام ... لم يبقَ فيك بَشاشةٌ تُستام

ويقول من جملتها في صفة ناقته:

وتجشَّمتْ بي هَوْلَ كُل تنوفَةٍ ... هوجاء فيها جُرأة وإقدامُ

تَـذَر المـطـيَّ وراءهـا فـكـأنـهـا صـفٌّ تَـقَـدَّمـهُـنَّ وهـي إمـام

وإذا المـطـيُّ بـنـا بَـلَـغْـنَ مـحـمـداً فـظـهـورُهـن عـلـىٰ الـرجـال حـرام

* قال اسماعيل بن نصر: رأيت أبا نواس وقد صلىٰ الظهر وقام يتطوع فقلت له: ما بدا لك في هذا؟ قال: ليصعد إلىٰ السماء اليوم خبر ظريف! وهذا من مجونه!

* وأشيع عن أبي نواس أنه رجع عما كان عليه من البطالة وشرب الخمر وزهد في اللذات، فاجتمع أصحابه وأقبلوا عليه يهنئونه بذلك، فوضع بين يديه باطية وجعل لا يدخل عليه أحد يهنئه إلا شرب بين يديه رطلاً وأنشد:

قـالـوا نـزعـت ولـمَّـا يـعـلـموا وطـري فـي كـل أغـيـد ساجـي الـطـرف ميـاسِ

كـيـف الـنـزوع وقـلـبـي قـد تـقـسّـمـه لحـظ الـعـيـون وقـرع الـسـن بـالـكـاسِ

* قال أبو العتاهية: لقيت أبا نواس في المسجد الجامع فعذلته وقلت له: أما آن لك أن ترعوي؟ أما حان لك أن تزدجر؟ فرفع رأسه إلي وقال:

أتـــرانـــي يـــا عـــتـــاهـــي تـــاركـــاً تـــلـــك المـــلاهـــي

أتـــرانـــي مـــفـــســـداً بـــالـــنـــس كِ عـــنـــد الـــقـــوم جـــاهـــي

قال: فلما ألححت عليه بالعذل أنشأ يقول:

لـــن تـــرجـــع الأنـــفـــس عـــن غـــيِّـــهـــا مـــا لـــم يـــكـــن مـــنـــهـــا لـــهـــا زاجـــر

قال: فوددت أني قلت هذا البيت بكل شيء قلته.

* وقال أبو العتاهية: قد قلت عشرين ألف بيت في الزهد وددت أن لي مكانها الأبيات الثلاثة التي قالها أبو نواس وهي:

يـــا نـــواســـي تـــوقّـــر وتـــعـــزّ وتـــصـــبّـــر

إن يـــكـــن ســـاءك دهـــرٌ فـــلـــمـــا ســـرّك أكـــثـــر

يـا كـبـيـر الـذنـب عـفـو الـ　　لـه عـن ذنـبـك أكـبـر

* كان المأمون يقول: لو وَصفَتِ الدنيا نفسَها ما بلغت قول أبي نواس:

ألا كُـلُّ حَـيٍّ هـالـكٌ وابـنُ هَـالِـكِ　　وذُو نَـسَـبٍ فـي الـهـالـكـين عـريـقِ

إذا امْتَـحَنَ الـدنـيـا لبيبٌ تَكَشَّـفـتْ　　لـه عـن عـدوّ فـي ثـيـاب صـديـقِ

* وقال أبو حاتم: لو كتبت بيتيه هذين بالذهب لما كثر وهما:

ولـو أنـي اسْتَـزدْتُـك فـوقَ مـا بـي　　مـن الـبـلـوىٰ لأَعْـوزَك المـزيـدُ

ولـو عُـرِضـتْ عـلىٰ الموتىٰ حـيـاتـي　　بـعـيـشٍ مـثـل عـيـشـي لـم يُـريـدوا!

* قال عبدالله بن المعتز: أربعة من الشعراء سارت أسماؤهم بخلاف أفعالهم، فأبو العتاهية سار شعره بالزهد، وكان علىٰ الإلحاد! وأبو نواس سار شعره باللواط وكان أزنىٰ من قرد! وأبو حكيمة الكاتب، سار شعره بالعنّة وكان أهبَّ من تَيْس! ومحمد بن حازم سار شعره بالقناعة، وكان أحرص من كلب!

* ورأىٰ رجل أبا نواس في النوم فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: رحمني بأبيات قلتها، وهي:

يـا ربِّ إنْ عَـظُـمـت ذنـوبـي كـثـرةً　　فـلـقـد عـلـمـتُ بـأنَّ عـفـوك أعـظـمُ

إن كـان لا يَـرجـوك إلا مـحـسـنٌ　　فـبـمـنْ يَـلـوذُ ويـسـتـجـيـرُ المجـرم

أدعـوك ربِّ كـمـا أمـرْتَ تـضـرُّعـاً　　ولـئـن رَدَدْتَ يـدي فـمـن ذا يَـرْحـمُ

مـا لـي إلـيـك وسـيـلـةٌ إلا الـرجـا　　وجـمـيـلُ ظـنّـي ثـم إنـي مُـسْـلـمُ

* وقيل: رأىٰ بعضهم أبا نواس في المنام، فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي بأبيات قلتها في النرجس:

تـفـكَّـرْ فـي نـبـاتِ الأرض وانـظـرْ　　إلـىٰ آثـار مـا صَـنَـعَ المـلـيـكُ

عيونٌ من لُجَيْنٍ شاخصاتٌ بأبصارٍ هي الذهبُ السّبيكُ
على قُضبِ الزبرجد شاهداتُ بأن الله ليس له شريكُ

- اللجين : الفضة

تأملات

* المرأة موجعة بطبعها، فالدميمة توجع القلب، والجميلة توجع الرأس!

* عندما تبكي المرأة تتحطم مقاومة الرجل!

* القبح أفضل حارس للمرأة!

* يقول الرجل في المرأة ما يريد، ولكن تفعل المرأة في الرجل ما تريد!

* قيل إن ثعلباً جائعاً انطلق يبحث عن طعام، فرأى من سرداب طويل إناءً مشحوناً بما لذّ وطاب، فوثب داخل السرداب الضيق، وتلطف حتى بلغ الإناء، ثم أخذ يكرع منه حتى امتلأ! وحاول العودة من حيث جاء فعجز، لأن بدنه انتفخ فما يستطيع التقهقر، ولقيه في محبسه هذا ثعلب عجوز عرف القصة من بدايتها، فقال للثعلب الصغير: ابق في مكانك هذا حتى تجوع وتعطش وتخفّ وتنحف، وعندئذ تقدر على الخروج! وكما يقولون فالزمن جزء من العلاج!

* حين كانت النساء الانكليزيات يطالبن بحقوقهن الانتخابية والاشتراك في البرلمان، ذهب وفد منهن إلى رئيس تحرير احدى الصحف وأبلغوه مطالبهن.. فسألهن ساخراً: ولكن ماذا تفعلْنَ في أوقات الحرب بعد أن تُقرَّر مساواتكن بالرجال في كل شيء؟ فقالت إحداهن: تماماً كما يفعل رؤساء التحرير.. نبقى في أماكننا ونحث الآخرين على الذهاب إلى ميادين القتال!

* ما يمكن علاجه، يمكن تحمّله.

بشار بن برد

* قال الأصمعي: ولد بشار أعمىٰ فما نظر إلىٰ الدنيا قط، وكان يُشبّه الأشياء في شعره بعضها ببعض فيأتي بما لا يقدر البصراء علىٰ أن يأتوا بمثله، فقيل له يوماً وقد أنشد قوله:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا ... وأسيافنا ليلٌ تهاوىٰ كواكبه

ما قيل أحسن من هذا التشبيه، فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا قط ولا شيئاً فيها؟ فقال: إن عدم النظر يقوي ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء فيتوفر حسه وتذكو قريحته!

* قال محمد بن الحجاج: قلت لبشار: إني أنشدت فلاناً قولك:

إذا كنتَ في كلِّ الأمور معاتباً ... صديقك لم تلقَ الذي لا تعاتبه

فعشْ واحداً أو صِلْ أخاك فإنَّه ... مقارفُ ذنبٍ مرة ومجانبه

إذا أنت لم تشرب مِراراً علىٰ القذىٰ ... ظمئْتَ وأيُّ الناس تصفو مشاربه

فقال: ما كنت أظنه إلا لرجل كبير، فقال لي بشار: ويلك أفلا قلت له هو والله أكبر الإنس والجن؟

* **ومن جميل شعر بشار:**

لم يطل ليلي ولكن لم أنم ... ونفىٰ عني الكرىٰ طيفٌ ألم

روِّحي عنّي قليلاً واعلمي ... أنني يا عبد من لحم ودم

إن في بُرْديَّ جسماً ناحلاً ... لو توكأت عليه لانهدم

ختم الحب لها في عنقي ... موضع الخاتم من أهل الذمم

* دخل يزيد بن منصور الحِمْيري على المهدي وبشار بين يديه ينشده قصيدة امتدحه بها، فلما فرغ منها أقبل عليه يزيد بن منصور وكان فيه غفلة، فقال: يا شيخ ما صناعتك؟ قال: أثقب اللؤلؤ! فضحك المهدي ثم قال لبشار: اعزب، أتتنادر على خالي؟ فقال: وما أصنع به؟ يرى شيخاً أعمى ينشد الخليفة شعراً يسأله عن صناعته؟!

* وقيل: كان بشار جالساً في دار المهدي والناس ينتظرون الإذن، فقال بعض موالي المهدي لمن حضر: ما عندكم في قول الله عز وجل **﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً﴾**؟ فقال له بشار: النحل التي تعرفها الناس، فقال: هيهات يا أبا معاذ، النحل بنو هاشم وقوله **﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾** يعني أهل العلم، فقال له بشار: أراني الله شرابك وطعامك وشفاءك مما يخرج من بطون بني هاشم فقد أوسعت غثاثة! فغضب وشتم بشاراً، وبلغ المهدي الخبر فدعا بهما وسألهما عن القصة فحدثه بشار بها، فضحك حتى أمسك على بطنه! ثم قال للرجل: فجعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بني هاشم فإنك بارد غث!

* كان رجل من أهل البصرة ممن كان يتزوج النهاريات قال: تزوجت امرأة منهن فاجتمعت معها في علو بيت، وبشار تحتنا، مع امرأة، فنهق حمار في الطريق فأجابه حمار في الجيران وحمار في الدار، فارتجت الناحية بنهيقهما، وضرب الحمار الذي في الدار برجله وجعل يدقها دقاً شديداً! فسمعت بشاراً يقول للمرأة: نُفخ - يعلم الله - في الصور وقامت القيامة! أما تسمعين كيف يدق على أهل القبور حتى يخرجوا منها؟ قال: ولم تلبث أن فزعت شاة وكانت في السطح فقطعت حبلها وعَدَتْ فألقت طبقاً فيه عضارة إلى الدار، فانكسرت! وتطاير حمام ودجاج كان في الدار لصوت الغضارة! وبكى صغير في الدار! فقال بشار: صح الخبر يعلم الله! أزفت الآزفة وزلزلت الأرض، فعجبت من كلامه وغاظني، فسألت: من المتكلم؟ فقيل لي: بشار، فقلت: قد علمت أنه لا يتكلم بهذا غير بشار!!

* وقف على بشار بعض المجان وهو ينشد شعراً بسكة فقال له: استر شعرك كما تستر

عورتك، فصفق بشار بيديه وغضب وقال له: ويلك من أنت؟ فقال: أنا أعزك الله رجل من باهلة وأخوالي سلول وأصهاري عك، واسمي كلب، ومولدي بأضاخ، ومنزلي بنهر بلال، قال: فضحك بشار وقال: اذهب ويلك فأنت عتيق لؤمك، قد علم الله أنك استترت مني بحصون من حديد!

* قالت امرأة لبشار: ما أدري لم تهابك الناس مع قبح وجهك، فقال بشار: أليس من قبحه يهاب الأسد؟!

* رفع غلام بشار إليه في حساب نفقته جلاء مرآة عشرة دراهم، فصاح به بشار وقال: والله ما سُمع بأعجب من هذا، جلاء مرآة أعمى عشرة دراهم! والله لو صدئت عين الشمس حتى يبقى العالم في ظلمة ما بلغت أجرة من يجلوها عشرة دراهم!!

* حضر بشار باب محمد بن سليمان فقال له الحاجب: اصبر، فقال: الصبر لا يكون إلا عن ثلاثة، فقال الحاجب إني أظن وراء قولك هذا شراً! ولن أتعرض إليك، قم فادخل!

* يروى أن المهدي سمع أذاناً في ضحى النهار! فقال: انظروا ما هذا الأذان! فإذا بشار سكران. فقال له: يا زنديق يا عاض بظر أمه، عجبت أن يكون هذا غيرك، أتلهو بالأذان في غير وقت صلاة وأنت سكران؟! ثم دعا بأبي نهيك وأمره بضربه فضربه بين يديه على صدر الحراقة سبعين سوطاً أتلفه فيها، فكان إذا أصابه السوط يقول: حس حس، وهي كلمة تقولها العرب للشيء إذا أوجع، فقال له بعضهم: انظر إلى زندقته يا أمير المؤمنين، يقول حس ولا يقول: بسم الله، فقال: ويلك أطعام هو فأسمي عليه؟ قال له آخر: أفلا قلت: الحمدلله؟ قال: أو هي نعمة فأحمد الله عليها؟ إنما هي بلية أسترجع منها، فلما ضربه سبعين سوطاً بَانَ الموت فيه، فألقي في سفينة! ولما مات ألقيت جثته في البطيحة في موضع يُعرف بالجرار فحمله الماء فأخرجه إلى دجلة، فجاء بعض أهله فحملوه إلى البصرة لدفنه! فأخرجت جنازته فما تبعه أحد إلا جارية سوداء سندية عجماء مشت خلف جنازته تصيح: واسيداه، ما تفصح، ولما نُعي لأهل البصرة تباشر عامتهم وهنأ بعضهم بعضاً، وحمدوا الله وتصدقوا، لما كانوا قد بُلوا به من لسانه!

* قال محمد بن الحجاج: كنا مع بشار فجاءه رجل فسأله عن منزل رجل ذكره له، فجعل بشار يفهمه ولا يفهم، فأخذ بيده وقام يقوده إلى منزل الرجل وهو يقول:

أعمى يقودُ بصيراً لا أبَا لكم قد ضلَّ من كانت العميان تهديه

حتى صار إلى منزل الرجل، ثم قال له: هذا منزله يا أعمى!

* حَدَث يوماً أن الخليفة المهدي استدعى الشعراء إلى مجلس وكان فيهم أبو العتاهية وبشار بن برد الأعمى، فسمع صوت أبي العتاهية! فقال بشار لجليسه: أثم ههنا أبو العتاهية؟ قال: نعم! فانطلق يذكر قصيدته فيها التي أولها:

ألا ما لسيِّدتي مالها أَدلَّتْ فأجملَ إدلالها

فقال بشار لجليسه: ما رأيت أجسر من هذا! حتى انتهى أبو العتاهية إلى قوله:

أتته الخلافة منقادةً إليه تُجرِّرُ أذيالها

فلم تكُ تصلح إلا له ولم يكُ يصلحُ إلا لها

ولو رامها أحدٌ غيرُه لزَلزلت الأرض زلزالها

ولو لم تطعْهُ بناتُ القلوب لما قَبِلَ اللهُ أعمالها

فقال بشار لجليسه: انظروا أطار الخليفة عن فراشه أم لا؟! قال: فوالله ما خرج أحد من الشعراء يومئذ بجائزة غيره!

* أوصى أبو العتاهية أن يكتب على قبره ببغداد:

إن عيشاً يكون آخره الموت لعيشٌ مُعجَّل التنغيص!

* مات لبشار بن برد حمار فقال: رأيت حماري البارحة في النوم فقلت له: ويلك متَّ؟ قال: إنك ركبتني يوم كذا فمررنا على باب الأصبهاني، فرأيت أتاناً - أنثى الحمار - عند بابه فعشقتها، فمتُّ وأنشد الحمار:

سـيـدي خـذ لـي أمـانـاً | مـن أتـان الأصـبـهـانـي
إنّ بـالـبـاب أتـانـاً | فَـضَـلَـت كـلّ أتـانِ
تَـيَّـمَـتْـنـي يـوم رحـنـا | بـثـنـايـاهـا الحسـانِ!
وبـحـسـنٍ ودلالٍ | سَـلَّ جـسـمـي وبـرانـي
ولـهـا خَـدٌّ أسـيـلٌ | مـثـل خـد الـشـنـفـرانـي
فـبـهـا مـتُّ ولـو عـشـتُ | إذاً طـال هـوانـي

فقال رجل: يا أبا معاذ، ما الشنفراني؟ قال: هو شيء يتحدث به الحمير، فإذا لقيت حماراً فاسأله عنه!

تأملات

* الذين يستحقون الإطراء، هم الذين يتحملون الانتقادات بقلوب مبتسمة.

* ندنو من العظمة بقدر ما ندنو من التواضع.

* عظمة القائد في مقدرته على الاستعانة برجاله دون أن يستسلم لهم.

* للعظيم قلبان: قلب يتألم، وقلب يتأمل!

* يوجد عند العظماء عيوب تماثلهم في العظمة!

* قال سفيان الثوري: إنما العلم عندنا الرخصة عن الثقة.. فأما التشديد.. فكل إنسان يحسنه..! يقول لك: لا ينبغي كذا.. الأولى ترك كذا.. ونحوه! أما الرخصة عن دليل فلا يحسنها إلا العالم!

* قال سليمان التيمي: لو أخذت برخصة كل عالم.. اجتمع فيك الشر كله..!

* وقال سفيان: إذا ذكر الرجل الذي مات فلا تنظر إلى قول العامة، ولكن انظر إلى قول أهل العلم والعقل..!

ذو الرمّة

* كان الشاعر أبو الحارث غيلان بن عقبة المعروف بذي الرمة، أحد فحول الشعراء؛ ويقال إنه كان ينشد شعره في سوق الإبل، فجاء الفرزدق فوقف عليه، فقال له ذو الرمة: كيف ترىٰ ما تسمع يا أبا فراس؟ فقال: ما أحسن ما تقول! قال: فما لي لا أذكر مع الفحول؟ قال: قَصَّر بك عن غايتهم بكاؤك في الدِّمَن، وصفتك للأبعار والعَطَن! والرمة ـ بضم الراء ـ الحبل البالي، وبكسرها العظم البالي.

* وهو أحد عشاق العرب المشهورين بذلك، وصاحبته مية ابنة مقاتل بن طلبة بن قيس بن عاصم المنقري، وقيس بن عاصم هو الذي قدم على رسول الله ﷺ في وفد بني تميم فأكرمه، وقال له: أنت سيد أهل الوبر! وكان ذو الرمة كثير التشبيب بها في شعره ومكثت مية زماناً تسمع شعر ذي الرمة ولا تراه، فجعلت لله تعالىٰ عليها أن تنحر بدنة يوم تراه، فلما رأته رأت رجلاً دميماً أسود، وكانت من أهل الجمال، فقالت: واسوأتاه، وابؤساه! فقال ذو الرمة:

علىٰ وجه مَيٍّ مِسْحة من مَلاحةٍ ... وتحت الثياب العارُ لو كان باديا
ألم تر أن الماء يَخْبُثُ طعمه ... وإن كان لونُ الماءِ أبيضَ صافيا
فَواضَيْعَةَ الشعر الذي لجَّ فانقضىٰ ... بمَيٍّ ولم أملكْ ضلالَ فؤاديا

ويروىٰ أن ذا الرمة لم ير مية قط إلا في بُرْقُع، فأحب أن ينظر إلىٰ وجهها فقال:

جزىٰ الله البراقعَ من ثياب ... عن الفتيان شرّاً ما بقينا
يوارين الملاحَ فلا نراها ... ويُخْفين القباحَ فيزدهينا

فنزعت البرقع عن وجهها، وكانت باهرة الحسن، فلما رآها مسفرة قال: علىٰ وجه مي مسحة من ملاحة، البيت المقدم، فنزعت ثيابها وقامت عريانة، فقال: ألم تر أن الماء يخبث طعمه، البيت المذكور، فقالت له: أتحب أن تذوق طعمه؟ قال: إي والله، فقالت له: تذوق الموت قبل أن تذوقه!

ومن شعره السائر فيها:

إذا هبت الأرواح من نحو جانب ... به أهلُ ميٍّ هاجَ قلبي هُبوبُها
هَوَىً تذرفُ العينان منه وإنما ... هَوَىً كُلّ نفسٍ حيث كان حبيبُها

* قال أبو عمرو: سمعت ذا الرمة يقول: إذا نزل بنا نازل قلنا له: الحليب أحب إليك أم المخيض؟ فإن قال المخيض، قلنا: عبد من أنت؟ وإن قال الحليب، قلنا: ابن من أنت؟

تأملات

* من يتذكر مولد المرأة، وينسى عمرها، هو رجل دبلوماسي!

* الأعمار عند النساء تُحسب بطرح السنين لا بجمعها!

* إذا أردْتَ المرأة أن تكذب، فاسألها عن عمرها!

* إذا أردت أن تعرف السن الحقيقية للمرأة، فاسأل زوجة أخيها!

* بينا حذيفة بن اليمان وسلمان الفارسي يتذاكران أعاجيب الزمان، وتغيّر الأيام، وهما في عَرْصَة إيوان كسرىٰ، وكان أعرابي من غامد يرعى شويهات له نهاراً، فإذا كان الليل صيّرهن إلىٰ داخل العرصة، وفي العرصة سريرُ رخام كان كسرىٰ ربما جلس عليه، فصعدت غُنَيْمَات الغامدي علىٰ سرير كسرىٰ! فقال سلمان: ومن أعجب ما تذاكرنا صعود غنيمات الغامدي علىٰ سرير كسرىٰ!

* هدد أحدهم المهرج المعروف ثيبوله بأنه سيقضي عليه جلداً، فلجأ المهرج إلىٰ الملك فرانسوا الأول طالباً حمايته. فقال له الملك: إذا تجرأ أحد علىٰ قتلك فسأشنقه بعد ربع ساعة! فقال تريبوله: مولاي أرجوك اشنقه قبل ربع ساعة وليس بعد ربع ساعة!

* نحن نحب الماضي لأنه ذهب، ولو عاد لكرهناه!

الجمّاز

* كان الشاعر الجماز خبيث اللسان حسن النادرة، وهو ابن أخت سَلْم الخاسر. فمن نوادره أنه قال: أصبحت في يوم مطير، فقالت لي امرأتي: أي شيء يطيب في هذا اليوم؟ فقلت: لها: الطلاق، فسكتت عني!

* وخرج الناس بالبصرة ينظرون هلال شهر رمضان، فرآه رجلٌ واحد منهم، ولم يزل يومئ إليه حتى رآه معه غيره وعاينوه، فلما كان هلال الفطر ذهب الجماز إلى ذلك الرجل، فدق عليه الباب فقال: قم أخرجنا مما أدخلتنا فيه!

* ودخل عليه يوماً بعض إخوانه وقد طبخ وغرف الطعام، فقال الداخل: سبحان الله ما أعجب أسباب الرزق! فقال الجماز: الحرمان والله أعجب منه، امرأته طالق إن ذقتَه!

* وقال له السّرَوي الشاعر: ولدت امرأتي البارحة ولداً كأنه دينار منقوش، فقال له الجماز: لاعن أمه!!

* وكتب إلى صاحب له، وكان يلازم الجامع ثم انقطع عنه:

هجرت المسجد الجامع والهجرُ له ريبه
فلا نافلةً تأتي ولا تشهدُ مكتوبه
وأخبارك تأتينا على الأعلام منصوبه
فإن زدت من الغَيْبة زدناك من الغِيبة

تأملات

* الفرق بين الجاهل والحمار، أن الحمار يستفاد منه!

* حسنة الجاهل أنه دائماً في حالة رضى عن نفسه!

* طريق الجاهل مستقيم في نظره!

فن السؤال والجواب

* قال السبكي في طبقات الشافعية عن هذا اللون من الشعر : هذا من فن السؤال والجواب ، الذي لم أسمع فيه أظرف من قول وَضّاح اليمن :

قالت ألا لا تلِجَنْ دارنا ... إنّ أبانا رجل غائرُ
أما ترىٰ الباب ومَنْ بَيْننا ... قلتُ فإني كاسرٌ عابرُ
قالت فإنّ الليثَ عادٍ بِنَا ... قلت فَسَيْفي مُرْهَفٌ باترُ
قالت فإن القصر من دوننا ... قلت فإني فوقه طائرُ
قالت فإن البحر ما بيننا ... قلت فإني سابحٌ ماهرُ
قالت فإن الله من فوقِنَا ... قلت نعم وهو لنا غافرُ
قالت فحولي إخوةٌ سبعةٌ ... قلت فإني لهم حاذرُ
قالت لقد أعيْيتَنا حُجَّةً ... فأْتِ إذا ما هَجَعَ السامرُ
واسْقُطْ علينا كَسُقُوطِ الندىٰ ... ليلةَ لا ناهٍ ولا آمرُ

* وضاح اليمين هو : عبدالرحمن بن إسماعيل ، وهو الذي شبَّب بأم البنين بنت عبدالعزيز زوجة الوليد بن عبدالملك فقتله الوليد لذلك ، وغلب عليه لقب وضّاح لجماله وبهائه .

* قال تاج الملوك أبو سعيد بُوري بن أيوب ، وهو أخو صلاح الدين الأيوبي :

قالت لقد أَشْمَتَّ بي حُسَّدي ... إذْ بُحْت بالسر لهم مُعْلِنَا
قلت أنا؟ قالت نعم أَنْتَ هُوَ ... قلت أنا؟ قالت وإلا أَنَا؟
قلتُ نعم أنتِ التي أَلْبَسَتْ ... جُفُونُكِ المرضىٰ لِجِسْمِي الضَّنَا

قالتْ فلُمْ طَرْفك فهو الذي ... جَنَى على جِسْمِكَ ما قد جَنَى!
قلتُ فقد كانَ الذي كان مِنْ ... طَرْفي فهلاَّ كُنْتِ مَنْ أحْسَنا
قالت فما الإحسانُ؟ قلت: اللِّقَا ... قالت: لِقانا قَلَّ ما أمْكَنَا
قلتُ فمُنِّي بتَقْبيلةٍ ... قالتْ أُمَنِّيك بطول العَنَا
قلتُ فإني ميِّتٌ هالكٌ ... قالتْ ففي الموت بلوغُ المُنَا
قلتُ حرامٌ قتلُ نفسٍ بلا ... نفسٍ فقالت ذاكَ حِلٌّ لنا
مَنْ يَعْشقِ العينينِ مكحولةً ... بالسِّحْر لا يأمَنُ أنْ يُفْتنا!!

* وقال ابن الوردي:

نِمْتُ وإبليسُ أَتَى ... بحيلةٍ مُنْتدبه
فقال ما قولُك في ... حشيشةٍ مُطيبَّهْ
فقلت لا، قال ولا ... خَمْرةِ كرمٍ مُذَهّبه
فقلتُ لا، قال ولا ... أَمْردَ بالبَدْر اشتبهْ
فقلتُ لا، قال ولا ... مَليحةٍ مُكَتَّبهْ
فقلت لا، قال ولا ... آلةِ لهوٍ مُطَرّبهْ
فقلت لا، قال ولا ... نَرْدٍ رجاءَ المَكْسَبه
فقلت لا، قال فَنَمْ ... ما أنتَ إلاّ حَطَبهْ!!

* مُكَتّبه: مجتمعة الخلق!

مقصورة ابن دريد.. وصريع الدلاء

* من ظلم الناس تحاموا ظلمه ... وعزَّ عنهم جانباه واحتمى
من لم يعظه الدهر لم ينفعه ما ... راح به الواعظ يوماً أو غدا
من لم تفده عبراً أيامه ... كان العمى أولى به من الهدى
من عارض الأطماع باليأس رنت ... إليه عين العزِّ من حيث رنا
من عطف النفس على مكروهها ... كان الغنى قرينه حيث انتوى
والناس ألف منهم كواحد ... وواحد كالألف إن أمر عَنَى

* هذه الأبيات من مقصورة ابن دريد المشهورة، وقد عارضها هازلاً الشاعر صريع الدلاء- محمد بن عبدالواحد، بمقصورة عجيبة ساخرة. وصريع الدلاء، غير صريع الغواني فهذا اسمه مسلم بن الوليد، ويقال له أيضاً قتيل الغواني.

مقصورة صريع الدلاء الهزلية

من لم يرد أن تنثقب نعاله ... يحملها بكفِّه إذا مشى
ومن أراد أن يصون رجله ... فلبسها خير له من الحفى
من دخلت في عينه مسلَّة ... فاسأله من ساعته عن العمى
من أكل الفحم تسوَّدْ فمه ... وصار صحن خده مثل الدجى
من صفع الناس، ولم يدَعهم ... أن يصفعوه فعليهم اعتدى
من ناطح الكبش تفجّر رأسه ... وسال من مفرقه شبه الدما
من أكل الكرش ولم يغسله ... سال على شاربه ذاك الدوا
من طبخ الديك ولا يذبحه ... طار من القدر إلى حيث يشا

من شرب المسهل في فعل الدوا | أطال تردداً إلى بيت الخلا
من مازح السبع ولا يعرفه | مازحه السبع مزاحاً بجفا
من فاته العلم وأخطاه الغنى | فذاك والكلب على حد سوا
والدرج يلفى بالنشا ملتصقاً | والسرج لا يلصق إلا بالغرا
والذقن شعر في الوجوه نابت | وإنما الأست التي تحت الخصا
فاستمعوها فهي أولى بكم | من زخرف القول من طول المرا
فتلك كالدر يضيء لونها | وهذه في وزنها مثل الحذا . . !!

* الدرج : الورق . فتلك : أي مقصورة ابن دريد .

تأملات

* اتق من رفعك فوق قدرك!

* من أكرمك فأكرمه ، ومن استخف بك ، فأكرم نفسك عنه .

* ووضع الندى في موضع السيف بالعلا | مُضِرٌ كوضع السيف في موضع الندى

* قال الأصمعي : ولي رجل مُقِلٌ قضاء الأهواز ، فأبطأت عليه أرزاقه ، وحضر الأضحى وليس عنده ما يضحي به ولا ما ينفق ، فشكا ذلك إلى امرأته ، وأخبرها بما هو فيه من الضيق ، وأنه لا يقدر على الأضحية فقالت له : لا تغتم فإن عندي ديكاً جليلاً قد سمّنته ، فإذا كان يوم الأضحية ذبحناه ، فبلغ جيرانه الخبر ، فأهدوا له ثلاثين كبشاً وهو في المصلّى لا يعلم ، فلما صار إلى منزله ورأى ما فيه من الأضاحي قال لامرأته : من أين هذا؟ قالت : أهدى لنا فلان وفلان وفلان ، حتى سمَّت جماعتهم ، فقال لها : يا هذه تحفظي بديكنا هذا ، فلهو أكرم على الله من إسماعيل بن إبراهيم ، إنه فُدي بكبش واحد ، وفدي ديكنا هذا بثلاثين كبشاً ! !

السبحة.. والتسبيح

* الأصل أن يسبح المسلم بيده، ويعقد على أصابعه بالعدد، وفي الحديث بما معناه: اعقدوا بهن فإنهن مستنطقات، وكان التسبيح يجري باليد، ثم بالحصى، وكانت ساحات المساجد في الكوفة، والبصرة، مفروشة بالحصى، يسبح به المصلون، ويحصبون به الولاة والخطباء إذا سمعوا منهم ما لا يرضيهم، وكان عبدالملك بن هلال، عنده زنبيل ملآن حصى، فكان يسبح بواحدة، واحدة، فإذا ملّ شيئاً، طرح اثنتين، اثنتين، ثم ثلاثاً، ثلاثاً، فإذا ملّ، قبض قبضة، وقال: سبحان الله بعدد هذا! فإذا ضجر، أخذ بعروتي الزنبيل وقَلَبه، وقال: سبحان الله، بعدد هذا كله! وإذا بَكَّر لحاجة، وكان مستعجلاً، لحظ الزنبيل لحظة، وقال: سبحان الله، عَددَ ما فيه! ثم اتخذت السبحة، وهي خرزات منظومة في سلك، يجري التسبيح بها، ثم تعدى الأمر إلى اتخاذ السبحة للتسلية، وأصبح للسبحة هواة، يجمعون أنواعاً منها، ويغالون في أثمانها، وكان للمقتدر العباسي، سبحة قوّمت بمائة ألف دينار!!

* قالت عمرة، جارية المقتدر: استدعى المقتدر، بجواهر، فاختار منها مائة حبة، ونظمها سبحة يسبحّ بها، فعرضت على الجوهريين، فقوّموا كلّ حبة منها بألف دينار وأكثر! فكان إذا أراد أن يسبح، استدعى بها، ثم ردها إليّ، فأعلّقها في الخزانة في خريطة. فلما قتل المقتدر، وقع النهب، فأُخذت في جملة ما أُخذ، فلعل الذي أخذها، لا يدري ما هي!!

* مر عمر بن عبدالعزيز برجل يُسبّح بالحصى فإذا بلغ المائة عَزلَ حصاة! فقال له عمر: ألق الحصى وأخلص الدعاء!

* وفي تاريخ الخلفاء للسيوطي: أن المقتدر أعطى زيدان القهرمانة سُبْحة جوهر لم يُرَ مثلها، وكانت زيدان القهرمانة، متمكنة من جواهر الخلافة، فأخذت سبحة لم ير مثلها، وكان يضرب بها المثل، فيقال: سبحة زيدان! فلما وزر علي بن عيسى، قال للمقتدر: ما فعلت سبحة جوهر قيمتها ثلاثمائة ألف دينار، أخذت من ابن الجصاص؟ فقال: في

الخزانة، فقال: تطلب، فطلبت، فلم توجد، فأخرجها من كمّه، وقال: عرضت علي فاشتريتها، فإذا كانت خزانة الجوهر لا تحفظ، فما الذي يحفظ؟ فاشتد ذلك على المقتدر! وكانت لزيدان القهرمانة دار خاصة في دار الخلافة تعرف بدار زيدان القهرمانة، يحبس فيها وجوه الدولة والوزراء!

تأملات

* المطلوب من الطبيب أن يشفي الحمى، لا أن يهجوها!

* الإقلال من الضار خير من الإكثار من النافع.

* الضحك هو المسكّن الوحيد بدون أعراض جانبية.

* الطبيب رجل يحارب مصدر رزقه!

* استطاعت إحدى السيدات أن تحرق لصا بالمكواة الكهربائية أثناء دخوله غرفتها لسرقتها.. فجاء رجال الشرطة لتهنئة السيدة على شجاعتها النادرة.. فأجابت المهنئين: آسفة.. فقد كنت أظنه زوجي قد عاد متأخرا!!

* قال الابن لأبيه وقد رأى كثرة الشجار بينه وبين أمه: يا أبتي كنت منذ سنين أراك عندما تتخاصم أنت وأمي لا تمر عليكما ليلة إلا وقد اصطلحتما، وأراكما في الصباح وكأن شيئاً لم يكن! فلماذا أرى الخصام والمقاطعة تطول بينكما الآن؟ فأجاب الأب: يا بني لقد مات الذي كان يصلح بيننا!!

* يقال كان أحد ملوك إنكلترا مولعاً بسن القوانين الاستثنائية الغريبة.. ومرة سنّ قانوناً، حذر بموجبه النساء من التزين بالذهب والمجوهرات، ولكن القانون بقي غير نافذ؛ لامتناع النساء عن طاعته، فما كان منه إلا أن شفعه بملحق استثنى فيه المسنّات. فلم يبق في إنكلترا امرأة واحدة تخالف القانون!

ابتسم!

* وبعد أن قرأت ما قرأت من النوادر والطرائف والفكاهات، ألا يحق لك أن تبتسم؟ اطرد الهموم والأحزان، وابتعد عما يسبب لك الانفعالات والمثيرات.. وابتسم لتحافظ على صحتك وأعصابك!

* يقول إيليا أبو ماضي:

قال: السماءُ كئيبةٌ! وتجهَّما — قلت: ابتسم يكفي التجهُّمُ في السما!
قال: الصِّبا ولّى! فقلت له: ابتسم — لن يُرجع الأسفُ الصّبا المتصرِّما
قال: التي كانت سمائي في الهوىٰ — صارت لنفسي في الغرام جهنّما
خانت عهودي بعدما ملّكْتُها — قلبي، فكيف أُطيقُ أن أتبسّما!
قلت: ابتسم واطرب فلو قارنتها — قَضّيْت عمرك كله متألماً!
قال: التجارة في صراع هائل — مثل المسافر كاد يقتله الظما
أو غادة مسلولة محتاجة — لدم، وتنفُث كلما لهثت دَما!
قلت: ابتسم، ما أنت جالب دائها — وشفائها، فإذا ابتسمت فربما..
أيكون غيرك مجرماً، وتبيت في — وجل كأنك أنت صرت المُجرْما؟
قال: العِدىٰ حولي علت صيحاتهم — أأُسرُّ والأعداء حولي في الحِمَىٰ؟
قلت: ابتسم، لم يطلبوك بذمهم — لو لم تكن منهم أجلّ وأعظما!
قال: المواسم قد بدت أعلامها — وتعرضت لي في الملابس والدُّمىٰ
وعليَّ للأحباب فرض لازم — لكن كفي ليس تملك درهما
قلت: ابتسم، يكفيك أنك لم تزل — حيّاً، ولست من الأحبة مُعدما!

قال: الليالي جرعتني علقما | قلت: ابتسم ولئن جرعت العلقما
فلعل غيرك إن رآك مرنما | طرح الكآبة جانبا وترنما
أتراك تغنم بالتبرم درهما | أم أنت تخسر بالبشاشة مغنما؟
يا صاح، لا خطر على شفتيك أن | تتثلما، والوجه أن يتحطما
فاضحك فإن الشهب تضحك والدُّجى | متلاطم، ولذا نحبُّ الأنجما!
قال: البشاشة ليس تُسْعد كائناً | يأتي إلى الدنيا ويذهب مُرْغَما
قلتُ: ابتسم ما دامَ بينك والردى | شبرٌ، فإنك بعدُ لن تتبسما!

تأملات

* يختبر الذهب بالنار، وتختبر المرأة بالذهب، ويُختبر الرجل بالمرأة!

* أعداء المرأة اثنان: السمنة والزمان!

* المرأة نصف المجتمع، وهي التي تلد وتربي النصف الآخر!

* غيرة المرأة على الرجل تزيد غروره، وغيرة الرجل على المرأة تزيد خبثها!

* ليس أخطر من المرأة القوية، سوى الرجل الضعيف!

* كان الشيخ موفق الدين ابن يعيش يوماً عند القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد قاضي حلب، فجرى ذكر زرقاء اليمامة، وأنها كانت ترى الشيء من المسافة البعيدة، حتى قيل تراه من مسيرة ثلاثة أيام، فجعل الحاضرون يقولون ما علموه من ذلك، فقال الشيخ موفق الدين: أنا أرى الشيء من مسافة شهرين! فتعجب الكل من قوله، وما أمكنهم أن يقولوا له شيئاً، فقال له القاضي: كيف هذا يا موفق الدين؟ فقال: لأني أرى الهلال! فقال له: كان قلت. مسافة كذا كذا سنة! قال: لو قلت هذا عرف الجماعة الحاضرون غرضي، وكان قصدي الإبهام عليهم!

عنوان الحِكَم

هذه القصيدة من أطول وأشهر ما نظم أبو الفتح البُسْتي ، وتُسمى : عنوان الحكم ومنها :

زيادةُ المرء في دنياه نقصانُ ... وربْحه غيرَ مَحْضِ الخير خُسرانُ
وكلُّ وِجْدانِ حَظٍّ لا ثباتَ له ... فإن معناه في التحقيق فُقْدانُ
يا عامراً لخراب الدار مجتهداً ... بالله هل لخراب العُمْر عمرانُ؟
ويا حريصاً على الأموال يجمعُها ... أقْصِرْ فإنّ سرورَ المال أحزان
دع الفؤادَ عن الدنيا وزُخْرُفِها ... فصفْوُها كَدَرٌ والوصْلُ هِجْران
وأرْعِ سمعك أمثالاً أُفَصِّلُها ... كما يُفصَّلُ ياقوتٌ ومرجانُ
أحْسِنْ إلى الناس تَسْتعبدْ قلوبهمُ ... فطالما استعْبَدَ الإنسانَ إحسانُ
وإن أساء مسيءٌ فليكن لك في ... عُروضِ زلَّته صفحٌ وغفرانُ
واشدُدْ يديك بحبل الله معتصماً ... فإنه الركن إنْ خانتك أركانُ
من استعان بغير الله في طلب ... فإنّ ناصرَه عَجْزٌ وخِذْلانُ
مَنْ جَادَ بالمال مالَ الناسُ قاطبة ... إليه والمالُ للإنسان فتّانُ
مَنْ سالم الناس يَسْلمْ من غوائلهم ... وعاش وهو قريرُ العين جذلانُ
والناسُ أعوانُ مَنْ واتتْه دولتُه ... وهم عليه إذا خانته أعوانُ
يا ظالماً فرحاً بالسَّعْد ساعَدَه ... إنْ كنتَ في سِنَةٍ فالدهر يَقْظانُ
لا تحسبنّ سروراً دائماً أبداً ... مَنْ سرّه زمنٌ ساءته أزمانُ
لا تغترِرْ بشباب رائقٍ خَضِلٍ ... فكم تقدَّم قبل الشِّيبِ شُبّانُ
ويا أخا الشَّيْب لو ناصحت نفسك لم ... يكن لمثلك في اللذات إمعان

تأملات

* يبدأ الناس بالحديث عن عمرك إذا لم يجدوا فيك شيئاً آخر يستحق الكلام!

* قال رجل لامرأة: لماذا خلقت النساء في غاية الجمال؟ وفي غاية الغباء؟ فقالت له المرأة: في غاية الجمال من أجل أن تحبوهن، وفي غاية الغباء من أجل أن يحبوكم!!

* سأل الطفل جدته التي تبلغ السبعين من العمر: متى يا جدتي تبلغ المرأة سن اليأس؟ فقالت له الجدة: لا أعلم يا بني اسأل امرأة بلغت هذه السن!

* التقى رجل اسمه «سليم» وامرأة اسمها «وديعة» في منزل أحد الاصدقاء فدخلت كلبة ظريفة وتقدمت إلى السيدة «وديعة» وصارت تلمس يدها، فقال «سليم» للمرأة: إن هذه الكلبة «وديعة»!! فأجابته على الفور: وقلبها أيضاً «سليم»!!

* يحكى أن امرأة كانت تعيش في خلاف تام مع زوجها فذهبت ذات يوم إلى صديقة لها، وشرحت لها حالها مع زوجها، عندئذ نصحتها الصديقة أن تذهب إلى عراف لعله يستطيع أن يبعد عن بيتها تلك الخلافات! فذهبت المرأة إلى العراف، وعرضت عليه مشكلتها، ووعدها الرجل أن يساعدها على شرط أن تحضر له ثلاث شعرات من جسم أسد..! وخرجت المرأة من عنده، وهي تفكر في وسيلة تُحْضر بها ثلاث شعرات من جسم الأسد.. فأخذت حَمْلاً وراحت إلى الغابة، وعندما هجم عليها الأسد رمت بالحمل فأخذ يلتهمه وانصرف عنها، وأخذت المرأة تفعل هذا الفعل كل يوم حتى ألفها الأسد وأصبح يقترب منها في ودّ.. وذات يوم ربَتت المرأة على ظهر الأسد، فوجدت نفسها قابضة على ثلاث شعرات من لبدته، فأخذتها على الفور وذهبت إلى العرّاف. فلما رأى العراف الشعرات الثلاث قال لها: إذا كنت استطعت أن تروّضي الأسد، أفلا تستطيعين أن تروّضي زوجك..؟!

لامية العجم

اطْلُبِ العلمَ ولا تكسلْ فما ... أبْعد الخير على أهل الكسلْ
لا تَقُلْ قد ذهبتْ أيامُه ... كلُّ مَنْ سار على الدرب وصلْ
في ازديادِ العلمِ إرغامُ العِدا ... وجمالُ العلمِ إصلاحُ العملْ
جَمِّل المنطقَ بالنحْوِ فمَنْ ... يُحْرم الإعرابَ في النطق اخْتَبل
قاطعِ الدنيا فمِنْ عاداتِها ... تَخفضُ العالي وتُعلي مَنْ سَفَلْ
لا تقلْ أصلي وفَصْلي أبداً ... إنما أَصْلُ الفتى ما قد حَصَلْ
وكذا الوَرْدُ من الشّوك وما ... يَخْرُجُ النَّرجِسُ إلا مِنْ بَصَلْ
قيمةُ الإنسانِ ما يُحْسِنُه ... أكْثرَ الإنسانُ منه أو أقلّْ
ليس يخلُو المرءُ من ضِدٍّ ولو ... حاول العُزلة في رأسِ جبلْ
دَارِ جَارَ الدار إنْ جَارَ وإنْ ... لم تجد صبراً فما أحلى النُّقَلُ
خُذْ بنصْلِ السيف واترك غِمْدَهُ ... واعتبرْ فَضْلَ الفتى دون الحُلَلْ
لا يَغُرّنّك لينٌ من فتىً ... إنّ للحياتِ ليناً يُعْتزلْ
اعتزلْ ذِكْر الأغاني والغَزَلْ ... وقُل الفصلَ وجانبْ مَنْ هَزَلْ
ودعِ الذّكْرَ لأيام الصِّبا ... فلأيامِ الصّبا نجمٌ أَفَلْ
واهْجُرِ الخمرةَ إنْ كنت فتىً ... كيف يسعىٰ في جُنون مَنْ عَقَلْ
واتّقِ الله فتقْوىٰ الله ما ... جاورتْ قلبَ امرئٍ إلا وَصَلْ
ليس مَنْ يقطُع طُرْقاً بطلاً ... إنّما مَنْ يَتّقي اللهَ البَطَلْ

* هذه القصيدة للشاعر الطغرائي، واسمه الحسين بن علي وهو شاعر مجيد، اشتهر بقصيدته هذه «لامية العجم» التي يشكو فيها الزمان وسوء حاله، وقد ترجمت إلى عدة لغات، كان عارفاً بالكيمياء، وقتل سنة ١١٢١م.

تأملات

* المليونير هو رجل يساعد موته على حلّ أزمة الكثير من أقاربه!

* لو كان المال يغني عن الرجال، لما تزوجت بنات الملوك!

* رجل بلا مال، رجل فقير، ولكن الأفقر منه رجل ليس لديه إلا المال!

* لا يمكن لإنسان أن يحتفظ في يديه بأكثر من كرتين من ثلاث: الصحة والمال وراحة البال!

* الفرق الوحيد بين الفقير وصاحب الملايين أن الفقير يتعب بسبب وجبته اللاحقة، أما الغني فيتعب بسبب وجبته السابقة!

* قال علي بن زيد: قال لنا سعيد بن المسيب وهو ابن أربع وثمانين سنة وقد ذهبت إحدى عينيه وهو يَعْشُو بالأخرى! ما من شيء أخوف عندي من النساء! وقال سعيد: ما أيس الشيطان من شيء إلا أتاه من قِبَل النساء؟ وصدق الرسول ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء» «اتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» فاللهم حفظك وسترك.

* نظر شاب وهو في دار ابن سيرين إلى فَرْش ـ تفريش الدار: تبليطها ـ في داره، فقال: ما بال تلك الآجرّة أرفع من الآجُرّة الأخرى؟ فقال ابن سيرين: يا ابن أخي إن فضول النظر تدعو إلى فضول القول!

* كان الفقيه عبدالملك بن إبراهيم الهمداني ظريفاً لطيفاً، كان يقول: كان أبي إذا أراد أن يؤدبني أخذ العصا بيده ثم يقول: نويت أن أضرب ولدي تأديباً كما أمر الله! ثم يضربني! قال: وإلى أن ينوي ويتمم النية كنت أهرب!

التطلع نحو المجد

* قال الشاعر صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، وهو شاعر عاش في العصر الأيوبي ومات سنة ٧٦٤هـ:

لا يَمْتطي المجدَ مَنْ لم يركب الخَطَرا ... ولا يَنالُ العُلا مَنْ قَدّم الحَذَرا
ومن أراد العُلا عفواً بلا تعب ... قضى ولم يَقْضِ من إدراكها وَطَرا(*)
لابد للشّهْد من نَحْلٍ يُمَنِّعُه ... لا يجتني النّفعَ من لم يَحْملِ الضَّررا
لا يُبْلَغُ السُّؤْلُ إلا بعد مؤلمةٍ ... ولا تَتِمُّ المُنىٰ إلا لمن صَبَرا
وأحزمُ الناس مَنْ لو مات من ظمأٍ ... لا يَقْربُ الوِرْد حتىٰ يعرفَ الصَّدَرا
وأَغْزرُ الناس عقلاً من إذا نَظرتْ ... عيناه أمراً غدا بالغَيْرِ مُعْتَبرا
فقد يُقال عِثارُ الرِّجْل إنْ عثرتْ ... ولا يُقال عثار الرأىٰ إنْ عَثَرا
مَنْ دَبّر العيش بالآراء دام له ... صَفْواً وجاء إليه الخَطب معتذِرا
يهونُ بالرأي ما يجري القضاءُ به ... مَنْ أخطأ الرأي لا يَسْتذنِبُ القَدَرا
مَنْ فاته العزّ بالأقلام أدركه ... بالبيض يقدح من أطرفها الشررا
لا يَحْسُن الحِلْمُ إلا في مواضِعِه ... ولا يَليقُ النّدىٰ إلاّ لمن شَكَرا
ولا يَنالُ العلا إلاّ فتىً شَرُفتْ ... خِصالُه فأطاعَ الدّهرُ ما أَمرا!

* وطرا: أي مات ولم يدرك غايته. يمّنعه: يصونه ويحميه. السؤل: الطلب. لا يقرب الورد: لا يقرب الماء حتىٰ يعرف مصدره. الخطب. الأمر العظيم. يستذنب: يعدّه ذنباً. الحلم: العقل والتأني. الندىٰ: الكرم.

المتنبئون!

* قال رسول الله ﷺ: لا تقوم الساعة حتى يُبعث دجالون كذابون قريبٌ من ثلاثين كلُّهم يزعم أنه رسول الله» رواه الأربعة. وفي الحديث الآخر «لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائلُ من أمتي بالمشركين، وحتى يَعْبُدوا الأوثان، وإنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي». والذين ادعوا النبوة سلكوا طريق الدجل والمكر والخداع والتلبيس والتمويه وفضحهم الله وأهلكهم، وفي رواية عند الإمام أحمد «منهم أربعة نسوة». ومنهم من ظهر في عصر الرسول عليه السلام، ومنهم من ظهر بعده، ومنهم من سيظهر فيما بعد.

* ولما التقى الحجاج بأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها بعد مقتل ابنها عبدالله بن الزبير قال لها: كيف رأيتيني صنعت بعدو الله! قالت: رأيتُك أفسدتَ عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك! ثم قالت له: إن رسول الله ﷺ حدثنا أن في ثقيف - قبيلة الحجاج - كذاباً ومبيراً، فأما الكذاب فرأيناه - وهو المختار الثقفي الذي ادعى النبوة ثم هلك - وأما المبير فلا إخالك إلا إياه! فقام عنها ولم يراجعها! وسمي مُبيراً لكثرة إضراره بالناس وإهلاكهم وإهراقه الدماء.

* وكان هؤلاء المتنبئون أصحاب دعوات ضالة ولهم أهداف وغايات يسعون إليها، من حب الظهور، والوصول للسلطة، وجمع المال وبسط النفوذ، ولكن ظهر عبر التاريخ أناس مصابون بأمراض عصبية، أو لوثات عقلية فادعوا النبوة، وكانت لهم مواقف مضحكة وتصرفات غريبة، وإجابات طريفة حينما يسألون عن نبوتهم المزعومة! وسنورد قصصاً وطرائف عن هذا الصنف:

* تنبأ رجل في زمن المتوكل: فأحضر بين يديه فقال: أنت نبي. قال: نعم. قال فما الدليل على صحة نبوتك؟ قال: القرآن الكريم يشهد بنبوتي في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ①﴾ وأنا اسمي نصر الله. قال: فما معجزتك. قال: ائتوني بامرأة عاقر أنكحها تحمل بولد يتكلم الساعة، ويؤمن بي! فقال المتوكل لوزيره: أعطه زوجتك حتى

ننظر كرامته! فقال الوزير: أما أنا فأشهد أنه نبي، وإنما يعطي امرأته من لا يؤمن به، فضحك المتوكل وأطلقه!

* وتنبأ رجل في زمن المأمون، فطالبه المأمون بمعجزة، فقال: إني أطرح لكم حصاة في الماء فتذوب، فأخرج حصاة من جيبه فطرحها بالماء فذابت! فقال له: هذه حيلة، نعطيك حصاة من عندنا، ودعها تذوب، فقال: لستم أجلّ من فرعون، ولا أعظم كرامة من موسى، فلم يقل فرعون لموسى: لم أرض بما تفعله بعصاك حتى أعطيك عصا من عندي تجعلها ثعباناً! فضحك المأمون وعلم أنه رجل غلبت عليه السوداء فأمر بإخراجه. السوداء: مرض المناخوليا ـ فساد الفكر..

* وادعى رجل النبوة في أيام المهدي، فأدخل عليه فقال له: أنت نبي؟ فقال: نعم، قال: ومتى نبئت؟ فقال: وما تصنع بالتاريخ، قال: ففي أي المواضع جاءتك النبوة، فقال: وقعنا والله في شغل، ليس هذا من مسائل الأنبياء، فإن كان رأيك أن تصدقني في كل ما قلت فاعمل بقولي، وإن كنت عزمت على تكذيبي فدعني أذهب عنك! قال المهدي: هذا ما لا يجوز، إذ كان فيه فساد الدين، فقال: واعجباً لك، تغضب لدينك، ولا أغضب لفساد نبوتي! وأنت والله ما قويت إلا بمعن بن زائدة، والحسن بن قحطبة، وما أشبههما من قوادك، وكان على يمين المهدي شريك القاضي، فقال المهدي: ما تقول يا شريك في هذا النبي؟ قال: شاورت هذا في أمري وتركت أن تشاورني؟ قال: هات ما عندك؟ فقال: أحاكمك فيما جاء به الرسل قبلي، قال: رضيت، فقال: أكافر عندك أنا أم مؤمن؟ قال: كافر، فقال: فإن الله يقول: ﴿**ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم**﴾ فلا تطعني ولا تؤذني، ودعني أذهب إلى الضعفاء والمساكين، فإنهم أتباع الأنبياء، وأدع الملوك الجبابرة، فإنهم حطب جهنم، فضحك المهدي وخلى سبيله!

* ادعى رجل النبوة في زمن الرشيد، فلما مثل بين يديه، قال له: ما الذي يقال عنك؟ قال: أنا نبي كريم! قال: فأي شيء يدل على صدق دعواك؟ قال: سل عما شئت، قال: أريد أن تجعل هذه المماليك المرد بلحى! فأطرق برأسه، وقال: كيف يحلّ أن أجعل

هذه المماليك المرد بلحى، وأغير هذه الصورة الحسنة؟! وإنما أجعل أصحاب هذه اللحى مُرْداً في لحظة واحدة. فضحك الرشيد وخلى سبيله!

* تنبأ رجل في زمن المأمون، فقال له المأمون: أريد منك بطيخاً في هذه الساعة! قال: أمهلني ثلاثة أيام. قال: ما أريده إلا الساعة! قال: ما أنصفتني يا أمير المؤمنين! إذا كان الله تعالى الذي خلق السموات والأرض في سبعة أيام ما يخرجه إلا في ثلاث شهور، فما تصبر علي ثلاثة أيام؟! فضحك المأمون منه وأطلقه!

* تنبأ في مدينة أصبهان رجل في زمن أبي الحسين بن سعد، فأُتي به، وأُحضر العلماء والعظماء، والكبراء كلهم، فقيل له: من أنت؟ فقال: أنا نبي مرسل! فقيل له: ويلك، إن لكل نبي آية، فما آيتك وحجتك؟ فقال: ما معي من الحُجج لم يكن لأحد قبلي من الأنبياء والرسل! فقيل له: أظهرها! فقال: مَن كان منكم له زوجة حسناء، أو بنت جميلة، أو أخت صبيحة، فليُحضرها إليّ أُحبلها بابن، في ساعة واحدة! فقال أبو الحسين بن سعد: أما أنا فأشهد أنك رسول، وأَعْفني من ذلك! فقال له رجل: نساء ما عندنا، ولكن عندي عَنزٌ حَسناء، فأحبلها لي! فقام يمضي، فقيل له: إلى أين؟ قال: أمضي إلى جبريل وأُعرِّفه أن هؤلاء يريدون تيساً، ولا حاجة بهم إلى نبي! فضحكوا منه وأطلقوه! معجم الأدباء: ١/ ٣٥٩.

* تنبأ أحدهم فأحضر إلى الخليفة: فقال له: ما أنت؟ قال: أنا نبي! قال: فما معجزتك؟ قال: سل ما شئت! وكان بين يديه قفل، قال: خذ هذا القفل فافتحه! فقال: أصلحك الله، لم أقل إني حداد، قلت: أنا نبي!! فضحك الخليفة واستتابه!

* تنبأ رجل في زمن المنصور فقال له المنصور: أنت نبي سفلة، فقال: جعلت فداك كل نبي يبعث إلى قومه!

* تنبأ رجلٌ في أيام المأمون وادّعى أنّه إبراهيم الخليل، فقال له المأمون: إنّ إبراهيم كانت له معجزات وبراهين، قال: وما براهينه؟ قال: أُضرمت له نار وأُلقي فيها فصارت برداً وسلاماً، ونحن نُوقد لك ناراً ونطرحك فيها، فإن كانت عليك كما كانت عليه آمنّا

بك! قال: أريد واحدة أخفّ من هذه. قال: فبراهين موسى؟ قال: وما براهينه؟ قال: ألقى عصاه فإذا هي حيةٌ تسعى، وضرب بها البحر فانفلق، وأدخل يده في جيبه فأخرجها بيضاء، قال: وهذه أصعب من الأولى، قال: فبراهين عيسى؟ قال: وما براهينه؟ قال: إحياء الموتى، قال: مكانك، قد وصلت؟ أنا أضرب رقبة القاضي يحيى بن أكثم وأحييه لكم الساعة! فقال القاضي يحيى - وكان حاضراً - أنا أول من آمن بك وصدّق! فضحك الحضور ثم أمر المأمون بطرده.

* ادَّعى رجلٌ النُّبوَّة بالبصرة. فأُتِيَ به سُليمانَ بنَ عَلي مُقيداً. فقال لهُ: أنت نبيٌّ مُرسَلٌ؟ قال: أَمَّا السَّاعَةَ فأنا نبيٌّ مُقيَّدٌ! قال: ويحكَ، من بَعَثَكَ؟ قال: بهذا تُخاطب الأنبياءِ يا ضَعيفُ؟ والله لولا أنِّي مُقيَّدٌ لأمرتُ جبريل أن يُدمدمها عليكم! قال: فالمقيد لا تستجاب له دعوة؟ قال: نعم الأنبياء خاصة، إذا قُيدت لم يرتفع دُعاؤها! فضحك سُليمان، وقال: أنا أطلقُكَ، وأْمر جبريل، فإن أطاعك، آمنَّا بك وصَدَّقناك! قال: صدق الله العظيم حيث يقول: ﴿فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ فضحك سليمانُ، وكَشفَ عن أمرِهِ، فَشُهِدَ عندهُ أنه مَمرُورٌ، فخلّى سبيلَهُ!

تأملات

* إذا هبَّت رياحُك فاغْتَنِمْها ... فإنَّ لكل خافقة سكون
ولا تغفلْ عن الإحسانِ فيها ... فما تدري السكون متى يكون
إذا ظفرت يداك فلا تقصِّر ... فإنَّ الدهرَ عادتُه يخون!!

* يروى عن الشافعي رحمه الله أنه قال:

صبراً جميلاً ما أقرب الفرجا ... منْ راقب اللهَ في الأمورِ نجا
من صدق الله لم ينله أذى ... ومن رجاه يكون حيث رجا

البخل.. والبخلاء

* من أقبح الصفات التي يتصف بها المرء البخل: وهذا الخلق الذميم يدل على ضعف ثقة صاحبه بوعد الله وجزائه وخلفه على المنفقين، والبخيل لا يستحق اسم الحرية لأن ماله يملكه وقد استعبده، وأعجب ما في البخيل، أنه يعيش عيش الفقراء ويحاسب حساب الأغنياء، فليس في الناس أشقى منه، لقد اهتم في الدنيا لجمعه، وفي الآخرة يحاسب على منعه، وفي الحقيقة فإن البخيل لا مال له، وإنما هو لماله!

* دخل الحسنُ على عبدالله بن الأهتم يعودُه في مرضه، فرآه يُصَعِّد بصره ويُصوِّبه إلى صندوق في بيته، ثم التفت إليه فقال: يا أبا سعيد، ما تقول في مائة ألف دينار في هذا الصندوق لم أُؤدِّ منها زكاةً ولم أصِلْ بها رحماً؟ فقال: ثكلَتْك أُمُّكَ!.. ولِمَ كنت تجمعها؟ قال: لِرَوْعة الزمان، وجفوة السلطان، وتكاثُر العشير! ثم مات. فشهده الحسن، فلما فرغ من دفنه، ضرب بيده على القبر ثم قال: انظروا إلى هذا، أتاه شيطانُه فخوَّفَه روْعةَ زمانِه وجفوة سلطانه بما استودعه الله إياه وعَمّره فيه، انظروا إليه كيف خرج مذموماً مدحوراً! ثم التفت إلى وارثه فقال: أيها الوارث، لا تُخْدَعَنَّ كما خُدعَ صُوَيْحبُك بالأمس، أتاك هذا المال حلالاً، فلا يكونن عليك وبالاً، أتاك عفواً صفواً، ممن كان له جموعاً مَنُوعاً، من باطل جمعه، ومن حقٍّ منعه، قطع فيه لُجَجَ البحارِ ومفاوزَ القفَار ولم تكْدحْ لك فيه عينٌ، ولم يَعْرَقْ لك فيه جبينٌ، إنّ يوم القيامة يومٌ ذو حسرات وإنّ من أعظم الحسرات غداً، أنْ ترى مالك في ميزان غيرك، فيا لها حسرةٌ لا تُقال، وتَوْبةٌ لا تُنال!!

* قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما خلق الله جنة عدن قال لها: تكلمي، فقالت: طوبى لمن دخلني. فقال: وعزتي وجلالي لا يجاورُني فيك بخيل!

* قيل لإبليس: من أحب الناس إليك؟ قال: عابد بخيل! قيل: فمن أبغض الناس إليك؟ قال: فاسق سخي، فينجيه سخاؤه. وفي الحديث «ولجاهلٌ سخيٌّ أحبُّ إلى الله من عالم بخيل» رواه الترمذي.

* وقالت أم البنين أخت عمر بن عبدالعزيز : إن البخل لو كان قميصاً ما لبستُه أو كان طريقاً ما سلكته!

* وللبخلاء «إيديولوجية» خاصة في الحياة، تعبر عن الحرص والطمع الذي تربع على عرش قلوبهم، وحينما يطرحون فلسفتهم ونظريتهم يعمدون إلى تزيينها وتحسينها زخرف القول وبجميل العبارة، لتنفذ إلى القلوب وتقنع العقول، لكن آراءهم لن تجد ذناً صاغية إلا في الأوساط التي لا تعرف معنى السخاء والجود، ولا تدري ما الإيمان وما لإنفاق في سبيل الله.

* قال سهل بن هارون: لو قسمت في الناس مائة ألف لكان الأكثر لائمي.

* وقال ابن الجهم: مَنْعُ الجميع أرْضى للجميع!!

* وقيل لخالد بن صفوان: مالك لا تنفق ومالُك عريض؟ قال: الدهر أعرض منه.

* وقيل لأبي الأسود: أنت ظَرْفُ عِلمٍ ووعاءُ حِلْم، غير أنك بخيل! فقال: وما خيرُ ظرف لا يمسك ما فيه؟!. وقال أيضاً: إمساكُكَ ما بيدك خيرٌ من طلبك ما بيد غيرك. وقال عضهم: من أعْطى في الفضول قَصّر عن الحقوق، وقال آخر لسائل: إني لن أصِلَك حتى حرِمَ من هوَ أقرب إليّ منك.

* وقال رجل لسهل بن هارون: هَبْني ما لا مَرْزَأة عليك فيه، قال: وما ذاك؟ قال: درهماً واحداً، قال: يا بن أخي لقد هوّنت الدرهم، وهو طابع الله في أرضه الذي لا يُعْصى، والدرهم ـ ويحك ـ عُشْر العَشَرة، والعَشَرة عُشْر المائة، والمائة عُشْر الألف، والألف عُشْر دية المسلم! ألا ترى يا بن أخي كيف انتهى الدرهم الذي هوّنته؟ وهل بيوت لمال إلا درهم على درهم!!

طرائف البخلاء

* ورغم هذه الأفكار والآراء التي يطرحها البخلاء لتعبِّر عن نظرياتهم المالية

والاقتصادية ـ ولهم فضل السبق في سياسة شدّ الأحزمة وترشيد الإنفاق والاستهلاك ـ فإن لهم حكايات عجيبةً وطرائف غريبة ونوادر مليحة.

* قيل لأحد الموسرين ـ وكان له أخ لا يواسيه ـ: لو واسيت أخاك كان أشبه بك من هذا البخل! فقال: والله ما أنا ببخيل، لو ملكت ألف ألف لوهبت له الساعة خمسمائة درهم! ثم التفت إلى القوم فقال: يا قوم، رجل يَهَبُ لأخيه في مجلس واحد خمسمائة درهم، يقال له بخيل؟ قالوا: لا والله أنت أجود من يمشي على قدم!

* وبخلاء العرب أربعة: الحطيئة، وحُميْد الأَرقُط، وأبو الأسود الدُّؤلي، وخالد بن صفوان.

* أما الحطيئة فمرّ به ابنُ الحَمَامَة وهو جالس بفِناء بيته وبيده عصا فقال: السلام عليكم، فقال: قلت، ما لا يُنكر، فقال: إني خرجتُ من أهلي بغير زاد، فقال: ما ضمنْتُ لأهلك قِرَاك، قال: أفتأذن لي أن آتي بظل بيتك فأتفيّأ به؟ قال: دونك الجبلُ يَفيءْ عليك. قال: أنا ابن الحمامة! قال: انصرف وكن ابن أيّ طائر شئت! قال: فإنما أنا ضيف، فأشار إلى العصا، وقال: لِكِعَابِ الضيفان أعْدَدْتُها!

* وأما حُميد الأرقط، فكان هَجّاءً للضيف، فحّاشاً عليه، نزل به مرة أضياف فأطعمهم تمراً، وهجاهم، وادعى عليهم أنهم أكلوه بِنَواه! وكان يقول لامرأته إذا حلّ به ضيف: نزل بك البلاء!

* وأما أبو الأسود الدؤلي، فتصدّق على سائل بتمرة، فقال له: جعل الله نصيبك من الجنة مثلها.

* وكان يقول: لو أطعنا المساكين في أموالنا، كنا أسوأ حالاً منهم، وقال لبنيه: لا تُطْمِعُوا المساكين في أموالكم فإنهم لا يَقْنعون منكم، حتى يروكم في مثل حالهم!

* ووقف عليه أعرابي وهو يتغدّى فسلّم عليه، فردّ عليه، ثم أقبل على الأكل ولم يَعْرِض عليه، فقال الأعرابي: أما إني قد مررْتُ بأهلك، قال: كان ذلك طريقك! قال: وهم صالحون. قال: كذلك فارقْتُهم. قال: وامرأتك حُبْلى، قال: كذلك كان عَهْدي

بها، قال: وَلَدت. قال: ما كان بدٌّ لها أنْ تَلِد، قال: ولدت غلامين، قال: كذلك كانت أُمُّها، قال: مات أحدهما، قال: ما كانت لتقوىٰ علىٰ رضاع اثنين، قال: ثم مات الآخر، قال: ما كان ليَبْقىٰ بعد أخيه! قال: وماتت الأم، قال: جزعاً علىٰ ولديْها! قال: ما أطيب طعامك! قال: ذاك جزائي علىٰ أهلي، قال: أُفٍّ لك ما أَلأَمَك؟! قال: مَنْ شاء سَبَّ صاحبه!

* وأما خالد بن صفوان، فكان يقول للدرهم إذا دخل عليه: يا عيّار، كما تعير، وكم تطوف وتطير، لأطيلنَّ حَبْسك، ولأُديمنَّ لُبْثَك، طالما سرت في البلاد وقطعت الفيافي والنّهاد! ثم يطرحه في الصندوق ويقفل عليه!

أهل مرو

* وأجمعوا علىٰ بخل أهل مَروْ ثم أهل خراسان، ويقال: إنّ من عادتهم إذا ترافقوا في سفر أن يشتري كل واحد منهم قطعة لحم، ويشكها في خيط يربطها فيه، ويجمعون اللحم كله في قِدْر ويمسك كل واحد منهم طرف خيطه، فإذا نضج اللحم، جرّ كل منهم خيطه وأكل لحمه وتقاسموا المرق!

* حدَّثَ بعضُهم، قال: كنتُ عند شيخ من أهل مَرو، وصبيٌّ لهُ يلعبُ بين يديه. فقلتُ له: أطعمني من خُبزكُم، قال: لا تُريدُهُ! فهوَ مُرٌّ!. قلت: فاسقني من مائِكُم. قال: لا تُريدُهُ، فهو مالِحٌ، إلىٰ أنْ عَدَّدْتُ أصنافاً كثيرةً، كلُّ ذلك يَمْنَعنيه، ويُبغِّضُهُ إليَّ! فَضَحِكَ أبوهُ، وقال: ما ذَنْبُنا؟ هذا مَنْ عَلَّمَهُ ما تسمع؟ يعني: أنَّ البُخلَ طبعٌ فِيهِم!

* نزل رجل ضيفاً علىٰ أحد البخلاء، فَقدَّم له تَمراً، وأَرسَلَ غلامهُ بفَلس يشتري زَيتاً. فلما أتَىٰ الغلامُ بالزَّيت، قالَ لهُ: خُنتَني، وسرقت مالي!. قال وكيف أخُونكَ، وَأسرقُ، في فَلسٍ؟! قال: أخذت الفَلْسَ لنفسك، واستوهَبْتَ الزَّيت!

* التقىٰ مجموعة من البخلاء وأرادوا شراء زيت للسراج، فامتنع أحدهم عن المشاركة، فلما أوقدوا السراج، وضعوا عصابة علىٰ عينيه، لئلا يرىٰ الضوء!

* قرر سائلان زيارة مليونير بخيل عسى أن يشملهما بعطفه فقال أحدهما لصاحبه: انتظرني هنا في ركن الشارع حتى أقابله أولاً فإنني أعرف كيف أتفاهم مع هؤلاء الناس البخلاء!! واستطاع الرجل المثول بين يدي المليونير الذي استقبله بصدر رحب.. وأصغى إليه.. ثم أرسله إلى سكرتيره.. وأرسله السكرتير إلى القائم بأعمال الإحسان.. وأرسله هذا إلى كاتب الحسابات.. وأحاله هذا إلى البواب.. الذي أمسك به من عنقه وقذف به إلى الشارع.. وتدحرج الرجل حتى وصل إلى حيث ينتظره صاحبه فسأله هذا في لهفة: كم أعطاك؟! فقال: لا شيء.. ولكني أؤكد لك أن طريقتهم غاية في البراعة!!

* دَعا أَحد الخُلفاءِ طبيباً لجاريَةٍ لَهُ. وكانت قد اشتَكَت من عَينِها، فَعالجَها، وإذا بعينها شَوكَةُ سُنبُل لصقت بها، فَانتَزَعَها منها، فزال الألم في الحال، فَأعطاهُ الخليفة عشرة آلاف درهَم، وكان الخليفةُ بخيلاً! فلمَّا دَفَعها إليه نَدمَ! فقال لهُ: احفظها، فإنَّه مالٌ لهُ خَطَرٌ! فقال: نعم، وفارقَهُ، فناداهُ، وقال: لا تُنْفِقْ منها شيئاً حتَّى تَتَّفق ضيعَةٌ نَشتريها لك! قال: نعم. وَفارَقَهُ، ثمَّ ناداهُ، فقال الطبيب: إن رأيت، يا أمير المؤمنينَ، فاختِمها بختمكَ، حتى أَلقاكَ بها يوم القيامة على الصراط، من غير أن يزُول الخَتمُ! فضحك، وخلاَّهُ.

* كان أحدُ البخلاءِ يقولُ لجليسِهِ، إذا طالَ جلُوسُهُ: تغدَّيتَ اليومَ. فإن قال: نعم. قال: لولا أنَّك تَغدَّيتَ لَغدَّيتُك بطعام طيب!. وإن قال: لا. قال: لو كنتَ تغدَّيتَ لَسَقيتُك خمسةَ أقداح! فلا يصيرُ في يَدِهِ، في الوجهين، لا قليلٌ ولا كثيرٌ!

* ذنَب الكلب لا يعود سوياً   لو رموه في قالب ألف شهر!

* والبخلاء رغم قُبْح صنيعهم وسوء أفعالهم فإنّ نوادرهم تدعو للعجب والانبساط، وقد تكون مِلَحَ المجالس وتندّر أهلها.

* قال عمرو بن ميمون: مررت ببعض طرق الكوفة فإذا أنا برجل يخاصم جاراً له، فقلت: ما بالكما؟ فقال أحدهما: إن صديقاً لي زارني فاشتهى رأساً فاشتريته وتغدينا، وأخذت عظامه فوضعتها على باب داري أتجمّل بها، فجاء هذا فأخذها ووضعها على باب داره يُوهم الناس أنه هو الذي اشترى الرأس!

* والعرب تضرب المثل في اللؤم والبخل بمادر: تقول: أَلأَمُ من مَادِر، ويزعمون أنه بنى حوضاً وسقى إبله، فلما أصدرها سَلَحَ في الحوض، لئلا يسقي غيره فيه!

* والبخيل لا تهمه سمعته وصيته، ولا يبالي بحديث الناس عنه، بل إنه يرى في وصمه بالبخل وذمّه بالإمساك والكزازة سعادة وراحة، طالما أن الأمل لا ينعقد عليه والرجاء ينقطع دونه!

* قال محمد بن الجهم: وددت لو أنّ عشرة من الفقهاء، وعشرة من الخطباء، وعشرة من الشعراء، وعشرة من الأدباء، تواطؤوا على ذمّي واستسهلوا شتْمي، حتى ينتشر ذلك في الآفاق، فلا يَمْتدّ إلي أمَلُ آمِلٍ، ولا يُبسط نحوي رَجاءُ راجٍ.

* وقيل لغني بخيل: أرضيت أن يقال لك إنك بخيل؟ قال: لا أعدمني الله هذا الاسم، لأنه لا يقال: بخيل إلا لذي مالٍ، وادعُني بما شئت من الأسماء!

* قال أبو محمد إسحاق الموصلي في ذمّ البُخل:

وآمرة بالبُخل قلتُ لها اقصري ... فليس إلى ما تأمُرين سبيلُ

أرى الناس خُلان الجواد ولا أرى ... بخيلاً له في العالمين خليلُ

وإني رأيت البخلَ يُزري بأهله ... فأكرمتُ نفسي أن يقال بخيلُ

ومن خير حالاتِ الفتى لو علمته ... إذا نال شيئاً أن يكون ينيلُ

عطائي عطاءُ المكثرين تجمُّلا ... ومالي كما قد تعلمين قليل

وكيف أخاف الفقرَ أو أحرمُ الغِنى ... ورأيُ أمير المؤمنين جميلُ

البخلاء.. من الخلفاء

* ويُنْسَبُ بعض الخلفاء إلى البخل: وهذا يجلب بغض الناس لهم وكرههم إياهم، لأن من شأن الخلفاء الكرم والجود، واستعباد قلوب الناس بالإحسان وكثرة العطايا.

* خطب معاوية يوماً فقال: إن الله يقول: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١)﴾ (الحجر: ٢١) فَلِمَ نُلامُ نحن؟ فقام إليه الأحنف فقال: إنا والله ما نلومك على ما في خزائن الله تعالى، ولكن نَلومُك على ما أنزل الله علينا من خزائنه فأغلقت بابك دونه! فسكت معاوية.

* ويذكر الرواة أن عبدالملك بن مروان كان بخيلاً، وكان يلقب لبخله برشْح الحجر ولَبَن الطير!! وقالوا: كان أبو جعفر المنصور كذلك بخيلاً، وكان يلقب بأبي الدوانيق ولُقِّب بذلك لأنه لما بنى بغداد كان يباشرها بنفسه ويحاسب الصُّنّاع، فيقول لهذا: أنت ثمتَ القائلة، ولهذا: لَمْ تُبَكِّر، ولهذا انصرفت قبل أن تُكَمّل اليوم، فيُسقط لهذا دانقاً، ولهذا دانقين، فلا يكاد يعطي لأحد أُجْرة كاملة! وكان يقول: يزعمون أني بخيل، وما أنا ببخيل، ولكن رأيت الناس عبيد المال، فمنعتُهم عنه، ليكونوا عبيداً لي!

* وكتب سهل بن هارون كتاباً في مدح البخل وأهداه إلى الحسن بن سهل، وطلب منه ثواباً، فوقع على ظهره: قد جعلنا ثوابك ما حَسّنْتَه وأمرْتَ به!!

* يحكى أن محمد بن يحيى بن خالد بن برمك كان بخيلاً قبيح البخل، فسئل نسيب له كان يعرفه عنه فقال له قائل: صف لي مائدته، فقال: هي فتر في فتر، وصحافه منقورة من حب الخشخاش، قيل: فمن يحضرها؟ قال: الكرام الكاتبون! قال: فما يأكل معه أحد؟ قال: بلى الذباب! فقال: سوأتك بدت وأنت خاص به وثوبك مخرّق؟! قال: أنا والله ما أقدر على إبرة أخيطه بها، ولو ملك محمد بيتاً من بغداد إلى النوبة مملوءاً إبراً، ثم جاءه يعقوب ومعه الأنبياء شفعاء، والملائكة ضمناء، يطلبون منه إبرة ويسألونه إعارتهم إياها ليخيط بها قميص يوسف الذي قُدَّ من دُبُر ما فعل!! فكيف يكسوني!

مأدبة بخيل..!

* قال أبو نصر بن أبي الفتح في مأدبة بخيل:

صديقٌ لنا من أبرع الناسِ في البخلِ ... وأفضلهم فيه وليس بذي فضلِ

دعاني كما يدعو الصديقُ صديقَهُ فجئتُ كما يأتي إلىٰ مثلِه مثلي
فلمَّا جلسنا للطعامِ رأيتَهُ يرىٰ أنَّه من بعض أعضائه أكلي
ويغتاظُ أحياناً ويشتمُ عبدَه وأعلمْ أنَّ الغيظَ والشتمَ من أجلي
فأقبلت أستلُّ الغذاءَ مخافةً وألحاظ عينيه رقيب علىٰ فعلي
أمد يدي سراً لأسرق لقمةً فيلحظني شزراً فأعبث بالبقلِ
إلىٰ أن جنت كفي لحتفي جنايةً وذلك أن الجوعَ أعدمني عقلي
فجرت يدي للحين رجل دجاجةٍ فجرت كما جرت يدي رجلها رجلي
وقمتُ لو أني كنت بيَّت نية ربحت ثواب الصوم مع عدم الأكل!!

* ورد أن رسول الله ﷺ رأىٰ رجلاً رثّ الثياب فقال له: ألك مال؟ قال: نعم، قال: من أي المال هو؟ قال: من الذهب والفضة والإبل والغنم! فقال رسول الله ﷺ: «إذاً فَلْتُرَ أَثَرُ نعمة الله عليك، فإن الله يحب أن يرىٰ أثر نعمته علىٰ عبده» رواه الترمذي.

* وورد أن رسول الله ﷺ قال لقوم من العرب: مَنْ سيدكم؟ قالوا: الجدّ ابن قيس علىٰ بُخْل فيه! فقال: وأي داء أدوأ من البخل؟! ولكن سيدكم عمرو بن الجموح.

* روىٰ الجاحظ أن شحاذاً مكفوف البصر كان يجوب شوارع مدينة «مرو» المشهورة بالبخل يستجدي المارة.. وذات يوم أعطاه أحد المارة رغيفاً كاملاً.. فدعا له الشحاذ قائلاً: أبقاك الله وردّك سالماً لبلدك! استغرب الرجل دعاء الشحاذ وقال له: كيف عرفت أنني غريب عن بلدكم وأنت مكفوف البصر؟ أجاب الشحاذ ضاحكاً: لأنني أستجدي بهذه المدينة منذ عشرة أعوام.. ولم يسبق أن أعطاني أحد رغيفاً كاملاً.. فقلت لابد أنك غريب عن هذه المدينة! ضحك الرجل قائلاً: صدقت يا رجل.. والله ما وصلت إلا الساعة وأرجو أن أخرج منها بخير!

* سأل أعرابي رجلاً موسراً، فخيب ظنه ولم ينل منه شيئاً، فأنشد يقول:

والـلـه والـلـه مـرتـين لحـفـر بـئـر بـإبـرتـين

وكـنـس مـصـر بـريـشـتـين وغـسـل عـبـديـن أسـوديـن

حـتـى يـحـولا لأبـيـضـين وحـمـل ثـوريـن بـالـيـديـن

ونـزع طـوديـن راسـيـين ونـقـل بـحـريـن زاخـريـن

عـلـى صـعـيـد بمـنـخـلـين ولا وقـوفـي عـلـى لـئـيـم

يـضـيـع مـنـه حـيـاء عـيـنـي!!

* قال دعبل الخزاعي: كنا يوماً عند سهل بن هارون الكاتب البليغ، وكان شديد البخل، فأطلنا الحديث، واضطره الجوع إلى أن دعا بغدائه، فأتي بقصعة فيها ديك عاس هرم لا تخرقه سكين ولا يؤثر فيه ضرس! فأخذ كسرة خبز فخاض بها مرقته، وقلَّبَ جميع ما في القصعة، ففقد الرأس، فبقي مُطرقاً ساعة، ثم رفع رأسه وقال للطباخ: أين الرأس؟ فقال: رميتُ به، قال: ولم؟ قال: ظننت أنك لا تأكله، فقال: لبئس ما ظننت، ويحك والله إني لأمقت من يرمي برجليه فكيف من يرمي رأسه، والرأس رئيس، وفيه الحواس الأربع، ومنه يَصيحُ، ولولا صوته لما فُضّل، وفيه عُرْفه الذي يُتبرك به! وفيه عيناه اللتان يُضرب بهما المثل فيقال: شراب كعين الديك، ودماغه عجب لوجع الكليتين، ولم يُرَ عظم قط أهش من عظم رأسه، أو ما علمت أنه خير من طرف الجناح ومن الساق ومن العنق؟ وهب أنك ظننت أني لا آكله، العيال كانوا يأكلونه، فإن كان قد بلغ من نبلك أنك لا تأكله فعندنا من يأكله، فانظر أين هو! قال: والله لا أدري أين هو، رميتُ به، قال: لكني أدري أين هو، رميت به في بطنك فالله حسبك!

* ودِعْبل اسم الناقة الشارف، وكان يقول: مررت يوماً برجل قد أصابه الصَّرَع فدَنَوْت منه وصحت في أذنه بأعلى صوتي، دعبل، فقام يمشي كأنه لم يصبه شيء!

* كان تاجر النظارات البخيل يلقن ابنه درساً في بيع النظارات فقال له: إذا اختار الزبون النظارة التي تلائمه وسألك عن ثمنها فقل له: مائة جنيه. فإذا سكت فعليك أن

تبتسم وتقول له: إن هذا المبلغ ثمن للإطار فقط! أما عن ثمن الزجاج فهو خمسة وعشرون جنيهاً. فإذا صمت الزبون في هذه، فيجب أن تضيف في هذه الحالة جملة: لكل زجاجة!!

* كان بالكوفة رجل يقال له مصلح، فبلغه أن بالبصرة رجلاً من المصلحين مقدماً في شأنه، فسار الكوفي إلى البصرة، فلما قدم عليه قال له: من أنت؟ قال: أنا مصلح جئتك من الكوفة لما بلغني خبرك، فرحب به وأدخله موضعه، وخرج يشتري له ما يأمل، فأتى جبّاناً فقال له: أعندك جُبن؟ قال: عندي جبن كأنه سمن! فقال في نفسه: لِمَ لا أشتري سمناً طالما أنه يُضرب به المثل؟ فذهب إلى من يبيع السمن فقال له: أعندك سمن؟ فقال: عندي سمن كأنه زيت! فقال في نفسه: لِمَ لا أشتري زيتاً طالما أنه يُضرب به المثل؟ فذهب إلى زيّات وقال: أعندك زيت؟ قال: عندي زيت صافٍ كأنه الماء! فقال في نفسه، لِمَ لا أشتري ماء طالما أنه يُضرب به المثل؟! فرجع إلى بيته، وأخذ صفحة وملأها ماء، وقدمها للضيف مع كُسيرات يابسة، وعرّفه كيف جرى له، فقال الكوفي: أنا أشهد أنك بالإصلاح أحق من أهل الكوفة!

* قصد فقير أحد البخلاء الأثرياء فقال له: أنا أحد أقاربك، فقال البخيل: من أي جهة تأتي قرابتك؟ فرد الفقير: من جهة أبينا آدم! فأخرج البخيل من جيبه قرشاً وقال للفقير: اذهب إلى جميع أبناء العائلة ليعطيك كل واحد كما أعطيتك!

* قال أبو نواس في بخيل يدعى الفضل:

رأيت الفضلَ مكتئباً ... يناغي الخبز والسمكا
فأسبل دمعه لما ... رآني قادماً وبكى
فلما أن حلفت له ... بأني صائمٌ ضحكا!!

* راقب أحد البخلاء ابناً له.. فشاهده يقترب من بيت أحد الجيران ويخرج من جيبه رغيفاً.. راح يكسره ثم يضع كسرات الخبز أمام نافذة مطبخ الجيران.. قبل أن يأكلها..

فاقترب منه والده وسأله: ماذا تفعل يا ولد؟ فأجابه الصبي: يا أبي إن سكان هذا البيت قد طبخوا لحماً ومرقاً. . ولذلك أضع كسرات رغيفي أمام نافذتهم ليحمل بعض رائحة طبيخهم! عندئذ انهال عليه أبوه ضرباً وهو يقول له: هل تريد من الآن أن تتعوّد على أكل الخبز مغموساً بإدام!!

* ويروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال:

إذا اجتمع الآفات فالبخل شرها ... وشرٌ من البخل المواعيد والمطلُ
ولا خير في وعدٍ إذا كان كاذباً ... ولا خير في قولٍ إذا لم يكن فعلُ
إذا كنت ذا فعلٍ ولم تك عالماً ... فأنت كذي رجلٍ وليس له نعلُ
وإن كنت ذا علمٍ ولم تك عاملاً ... فأنت كذي نعلٍ وليس له رجلُ

* قال أبو العباس أحمد بن مروان:

وذي حرص تراه يلمُّ وفراً ... لوارثه ويدفع عن حماهُ
ككلب الصيد يمسك وهو طاوٍ ... فريسته ليأكلها سواهُ

* توفي والد أحد ملاك الأراضي، وكان غنياً ومشهوراً بالبخل الشديد، فألح عليه إخوته وأبناؤه بعمل نعي لوالده في الصحف، فخرج النعي في اليوم التالي كالآتي: فلان الفلاني ينعي والده، ويسره بهذه المناسبة أن يعلن بأن لديه أراضي للبيع والإيجار!!

* طرق أحد الشحاذين باب البخيل. . ففتح له. . فقال له الشحاذ: ياسيدي أعطني مما أعطاك الله. . فقال البخيل لزوجته: يا امرأة. . هات لهذا المتسول بعض الخبز. . فأجابت الزوجة: ليس في بيتنا خبز، فقال لها البخيل: إذن أحضري قطعة لحم لهذا المتسول، فأجابت الزوجة: ليس في بيتنا لحم، فقال لها البخيل: إذن أحضري جنيهاً لهذا المتسول. . فأجابته: ليس في بيتنا نقود. . عندئذ التفت البخيل إلى المتسول وقال له: والآن انصرف يا أحمق! فقال له المتسول: إنك لم تهبني شيئاً. . وشتمتني فوق ذلك؟

فقال له البخيل: ألم يكن طلبك أن تأخذ مني شيئاً مما أعطاني الله؟ فما ذنبي إن كان الله أعطاني لساناً طويلاً!

* ذهب رجل إلى بعض أصدقائه فوجدهم حول مائدة الطعام، فاتخذ مجلسه معهم وقال: لقد أكلت في بيتي.. ولكن لا مانع من «النأنأة» معكم ـ النأنأة تعني أكل الشبعان ـ ثم جلس الرجل فأكل بنَهَم وشَرَه! فأصاب من الطعام أكثر مما أصابوا، فقالوا له: في المرة القادمة نأنئ في بيتك.. ثم تعال وتغدّ معنا!!

* يقول أحمد شوقي:

المالُ حلّل كل غير محلّلِ ... حتى زواج الشيب بالأبكارِ
سَحَرَ القلوبَ فربَّ أمٍ قلبها ... من سحره حجرٌ من الأحجارِ
دفعت بُنَيَّتها لأشأم مضجعٍ ... ورمت بها في غربة وإسارِ!

* عاد تاجر يهودي من سفرة طويلة فوجد واحداً من أعز أصدقائه توفي.. وعندما توجه إلى المقبرة لزيارته وجد مكتوباً على شاهد القبر: هنا يرقد ايلي كوهين.. رجل طيب.. تاجر أمين. فتمتم الرجل موجهاً كلامه إلى صديقه الميت: يا عزيزي دفنوك في قبر واحد مع رجلين غريبين!

* قال شاعر يصف بخيلاً:

نوالك دونه خرط القتاد ... وخبزك كالثريا في البعادِ
ولو أبصرت ضيفاً في منامٍ ... لحرَّمت الرقاد على العبادِ!

* يقول ابن الرومي في وصف بخيل يدعى عيسى:

يُقتِّر عيسى على نفسه ... وليس بباقٍ ولا خالدِ
ولو يستطيع لتقتيره ... تنفَّس من منخرٍ واحدِ!

* رأىٰ «الصيف» مكتوباً علىٰ باب داره فصحفه «ضَيفاً» فقامَ إلىٰ السيف
فقلنا له «خيراً» فظنّ بأننا نقول له «خُبزاً» فمات من الخوف!

* قال الجاحظ: زعموا أن رجلاً بلغ في البخل غايته، وأنه إذا كان في يده الدرهم خاطبه وناجاه، وكان مما يقول له: كم من أرض قطعت؟ وكم من كيس قد فارقت؟ وكم من خامل قد رفعت؟ لك عندي ألا تَضْحىٰ ولا تَعْرىٰ، ثم يلقيه في كيسه ويقول له: اسكن علىٰ اسم الله في مكان لا تزعج فيه! وقيل: إنه لم يدخل فيه درهم قط فأخرجه! فكان أهله منه في بلاء عظيم، وكانوا يتمنون الخلاص منه بالموت والحياة بدونه، فلما مات ظنوا أنهم استراحوا منه، فقدم ابنه من سفر فاستولىٰ علىٰ ماله وداره، ثم قال: ماذا كان إدام أبي؟ فإن أكثر التبذير إنما يكون في الإدام! فقالوا: كان يأتدم بقطعة جبن عنده، فقال: أرونيها، فأتوا بها فإذا فيها خدوش من أثر مسح اللقمة! فقال لأهله: ما هذه الخدوش؟ فقالوا: كان لا يقتطع شيئاً من الجبن، وإنما كان يمسح علىٰ ظهره! ثم قالوا: كيف تريد أن تصنع؟ فقال: أضعها من بعيد فأشير إليها بلقمة الخبز!!

* كانت امرأة موسرة بالكوفة، وكانت لها علىٰ الناس ديون، فاستعانت بالحَكَم بن عبدل الشاعر في دَيْنها وقالت: إني امرأة ليس لي زوج، وجعلت تعرِّض بأنها تزوجه نفسها، فقام ابن عبدل في دينها حتىٰ استوفته فلما طالبها بالوفاء كتبت إليه:

سيخطيك الذي حاولت منِّي فقطِّعْ حبلَ وصلك من حبالي
كما أخطاك معروف ابن بشرٍ وكنت تعدُّ ذلك رأسَ مالِ

وكان ابن عبدل أتىٰ ابن بشر بالكوفة فسأله فقال: أخمسمائة أحب إليك العام أم ألف في قابل؟ فقال: ألف في قابل، فلما أتاه قال: ألف أحب إليك أم ألفان في قابل؟ قال: فلم يزل ذلك دأبه حتىٰ مات ابن بشر وما أعطاه شيئاً!

* طاف أحد المحسنين بين الناس يطلب منهم المساعدة في بناء سور للمقبرة فقال له أحد الخبثاء: لا لزوم لذلك، فإن الذين بداخلها لا يستطيعون الخروج، أما الذين خارجها فلا يرغبون أن يساقوا إليها!

* طلب أحد الأثرياء من مدير الفندق أن ينزله في أرخص غرفة في الفندق، فاستغرب مدير الفندق وقال: ولكن ابنك يا سيدي يستأجر عندما ينزل عندنا أفخم أجنحة الفندق..! فرد الرجل الثري وهو يبتسم في هدوء: أيها الشاب، إن لابني أباً ثرياً.. أما أنا فلا!!

* أقام ثري بخيل في أحد الفنادق أسبوعاً، ولما عزم على الرحيل اصطف الخدم ساعة خروجه ينتظرون أن يمنحهم «إكرامية»! لكنه تجاهل أمرهم ومضى خارجاً والحمال يتبعه بحقائبه، ولما انتهى الحمال من وضع الحقائب في العربة، مدّ يده للثري البخيل وقال: أما أنا فلا أحسب أنك ستنساني.. فأمسك البخيل يد الحمال مصافحاً بحرارة وقال: لن أنساك يا صديقي.. وسأكتب لك باستمرار!!

* جمع حاكم مالاً خبيثاً ثم بنى منه مسجداً! فكان الناس يمرون بالمسجد ويقولون: هذا هو المسجد الحرام!!

* قال بكر بن عبدالله المزني: أحوج الناس إلى لطمة من دعي إلى وليمة فذهب معه بآخر، وأحوج الناس إلى لطمتين رجل دخل دار قوم فقيل له: اجلس ههنا، فقال: لا، بل ههنا! وأحوج الناس إلى ثلاث لطمات: رجل قدّم إليه طعام فقال: لا آكل حتى يجلس معي رب البيت!

* كان ثمامة بن أشرس بخيلاً، وكان إذا أطعم أصحابه استلقى على قفاه ثم يتلو الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا ۝٩﴾ (الدهر).

* دخل عليه مرة رجل وبين يديه طبق فراريج فغطى الطبق بذيله وأدخل رأسه في جيبه وقال للرجل الداخل: ادخل في البيت الآخر حتى أفرغ من بخوري!

* وكان إذا دخل عليه أصحابه وقد تعشّوا عنده، قال لهم: كيف كان مبيتكم ومناكم؟ فإن قال أحدهم إنه نام ليلته في هدوء وسكون قال: النفس إذا أخذت قُوتها اطمأنت! وإذا قال أحدهم: إنه لم ينم ليلته قال: إنه من فرط الكظّة والإسراف من البطنة! ثم يقول: كيف كان شربكم للماء؟ فإن قال أحدهم: كثيراً، قال: التراب الكثير لا يبلّه إلا الماء الكثير، وإن قال: قليلاً، قال: ما تركت للماء مدخلاً!.

* وقال ثمامة: ما رأيت الديك قط في بلدة إلا وهو يدعو الدجاج ويثير الحب إليها ويلطف بها، إلا في مرو، فإني رأيته يأكل وحده، فعلمت أن لؤمهم في المآكل.

* وكان أحدهم يقول لزوّاره إذا أتوه: هل تغديتم اليوم؟ فإن قالوا: نعم، قال: والله لولا أنكم تغديتم لأطعمتكم لوناً ما أكلتم مثله، ولكن ذهب أول الطعام بشهوتكم! وإن قالوا: لا، قال: والله لولا أنكم لم تتغدوا لسقيتكم أقداحاً من نبيذ الزبيب ما شربتم مثله! فلا يصير في أيديهم منه شيء!

* قيل لبعضهم: أتغديت عند فلان؟ قال: لا، ولكنني مررت به يتغدىٰ! قيل: وكيف عرفت أنه يتغدىٰ؟ قال: رأيت غلمانه ببابه في أيديهم قسي البندق يرمون الذباب في الهواء لئلا يقترب!

تأملات

* الصداقة الحقة نبات بطيء النمو.

* من السهل جداً أن تضحي من أجل صديقك ولك الصعوبة أن تجد الصديق الذي يستحق هذه التضحية!

* الثراء يصنع الأصدقاء، ولكن المِحَن تختبرهم!!

* عاتب صديقك سراً، ولكن مجِّده أمام الآخرين!

* الجاهل عدو نفسه فكيف يكون صديقاً لغيره؟!

* وفي الجهل قبل الموت موت لأهله   وأجسادهم قبل القبور قبور

* اثنان لا يغيران رأيهما أبداً: الجاهل والميت!

* الجاهل يؤكد والعالم يشك، والعاقل يتروّىٰ.

* قال أسماء بن خارجة: إذا قَدُمت المودّةُ سَمُجَ الثناء!

الطب... والأطباء

* قال ثياذوق طبيب الحجاج: لا تأكل من اللحم إلا فتياً، وأَجِدْ مضغ الطعام، ولا تأكل ما تعجز أسنانك عن مضغه فتعجز معدتك عن هضمه، ثم لا تأكل طعاماً وفي معدتك طعام غيره، ولا تأكل الفاكهة إلا وهي في أوان نضجها، ولا تشرب الماء على الطعام، بل بعد أن تفرغ من الطعام بساعتين، فإن أصل الداء التخمة، وأصل التخمة الماء، وإذا أكلت نهاراً فنم قليلاً، وإذا أكلت ليلاً فامش ولو خمسين خطوة، وعليك بالسواك، ثم عليك بدخول الحمام - للاغتسال - مرة كل يومين، ولا تحبس البول، واعرض نفسك على الخلاء قبل النوم، ولا تشرب الدواء إلا من علة.

لا تكن حقل تجارب للأطباء!

* يوصي أبو بكر الرازي الطبيب العربي المسلم، بألا يكثر الإنسان مراجعة أكثر من طبيب لنفس المرض، لأن كل طبيب سيعطي خبرته ودواءه، فتكثر الأدوية وقد تختلف الآراء فيقع المريض فريسة للحيرة ويصبح حقلاً للتجارب، ولا يبرأ من المرض، يقول الرازي في هذا: إن من تطبب عند أطباء كثيرين أوشك أن يقع في خطأ كل واحد منهم، أما الطبيب الواحد فإن خطأه في جنب صوابه يسير جداً.

* وكان يوصي مريضه فيقول: اعلم أننا أنا وأنت والمرض ثلاثة، بيننا قضاء متبادل، فإذا انحزت إلى جانبي ولم تهمل ما آمرك به وامتنعت عن تناول ما أحرمه عليك من الطعام فسنكون حينئذ اثنين ضد واحد وسنتغلب على المرض! وكان يقول: إذا كان في استطاعتك أن تعالج بالغذاء فابتعد عن الأدوية، وإذا أمكنك بعقار مفرد فاجتنب الأدوية المركبة.

* وللحارث بن كَلَدة الثقفي طبيب العرب وصايا طبية مفيدة جداً منها قوله: أصل التطبيب الأمر بالجوع والحمية، والرجوع بالأجسام إلى ما كانت قد تعودته في أيام صحتها من المأكل والمشرب والراحة والعمل، والجاهل أكثر حاجة إلى عناية الطبيب من غير

الجاهل، وعلى الطبيب أن يداري المريض الجاهل حتى يحمله على قبول المداواة، والداء الدوي هو إدخال الطعام على الطعام، فهو الذي يفني البرية، ويهلك السباع في جوف البرية، والتخمة إن بقيت في الجوف قتلت، وإن تحللت أسقمت، ولا يجوز أن يدخل الرجل الحمام وهو شبعان، أو يأكل وهو غضبان!

* وقال أيضاً: من أراد البقاء - ولا بقاء للإنسان - فليجوّد الغذاء، وليأكل على نقاء، وليشرب على ظماء، وليقلّ من شرب الماء، ويتمدد بعد الغداء، ويتمشى بعد العشاء، ويعجل العشاء، ويباكر الغذاء، وليخفف الرداء، وليقلّ من غشيان النساء، ولا يبت حتى يعرض نفسه على الخلاء!

درهم وقاية خير من قنطار علاج

بلغ مجموع ما ورد عن النبي ﷺ من الأحاديث في الطب حوالي ثلاثمائة حديث، جمع فيها ﷺ التطبيق العملي لعلم الصحة والنظافة والوقاية والمداواة، ولابن القيم الجوزية كتاب بعنوان «الطب النبوي» جمع فيه ما ورد عنه ﷺ في علم الطب. ومن أشهر وصاياه ﷺ في مجال الوقاية الذي يعتمد مبدأ: درهم وقاية خير من قنطار علاج، قوله ﷺ: «المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء»، وقوله: «النظافة من الإيمان» وقوله: «تداووا عباد الله فإن الله ما أنزل من داء إلا وأنزل له دواء»، وقال ﷺ: «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب». ويذكر أن أحد الملوك الذين دعاهم رسول الله للإسلام، أرسل هدايا مختلفة للنبي ﷺ، ومن بينها طبيبه الخاص، وقد أمره أن يمكث مع النبي ﷺ ليعالج مرضى المسلمين، فمكث هذا الطبيب فترة طويلة لا يعالج أحداً لقلة المرضى في المدينة حتى كاد أن ينسى ما تعلمه، لأن علم الطب إذا لم يستمر الطبيب في عمله ومزاولته مثل كل علم أو مهنة آفته النسيان، فاستأذن النبي ﷺ في أن يعود إلى قومه ووطنه فأذن له، وكان قد سأل رسول الله عن قلة المرضى؟ فأجابه رسول الله ﷺ: «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع» فقال الطبيب: والذي بعثك بالحق لأنت أعلم بالطب مني!

- من مقال للدكتور مازن غانم، في مجلة الخيرية، عدد ٥٥ سنة ١٩٩٤م.

* كان القائد سبكتكين مولى المعز الديلمي قد ترقى في المراتب، حتى آل به الأمر إلى أنْ قلّده الطائع الإمارة وخلع عليه وأعطاه اللواء، ولقبه بنور الدولة، اتفق له أنه سقط مرة عن فرسه فانكسر صلبه فداواه الطبيب حتى استقام ظهره وقدر على الصلاة، إلا أنه لا يستطيع الركوع، فأعطاه شيئاً كثيراً من الأموال، وكان يقول للطبيب: إذا ذكرت وجعي ومداواتك لي لا أقدر على مكافأتك، ولكن إذا تذكرت وضعك قدميك على ظهري اشتد غضبي منك!

* قال الطبيب للمريض الذي يشكو علة في قدمه: يجب أن تتخلى عن تناول الأطعمة الدسمة والحلوى والفواكه واللحوم لفترة من الوقت! فقال المريض: إنني اشكو ألماً في قدمي يا دكتور وليس في معدتي! فقال الطبيب: هذا صحيح ولكن امتناعك عن تناول هذه الأطعمة سيوفر لك النقود وبذلك تستطيع أن تدفع لي نفقات العلاج بالكامل!

* دعا سقراط جماعة للطعام فلما رأى أحد ضيوفه بساطة الطعام وقلة الألوان قال له: كان الأجدر بك أن تزيد اهتمامك بضيوفك! فقال سقراط: إن كان ضيوفي عقلاء فعلى المائدة ما يكفيهم، وإن لم يكونوا عقلاء فعلى المائدة أكثر مما يستحقون.

* بعد أن أنهى الطبيب فحص الزوجة، تقدم نحو الزوج وقال بصوت منخفض: عفواً.. إن أعراض زوجتك وهمية فقط، وقد كتبت لها أدوية وهمية! وهنا بادر الزوج: ما دامت الأعراض وهمية، والعلاج وهمياً، فلتكن أتعابك وهمية إذن! وخرج من غرفة الطبيب!

* سأل أستاذ الطب أحد طلبة السنة الأخيرة في الكلية الطبية عن مقدار جرعة دواء معين تعطى للمريض فأجابه الطالب بسرعة وثقة تامة: خمس غرامات يا أستاذ! ولكن بعد دقيقتين رفع الطالب يده بخجل وقال: أستاذ حول سؤالك السابق! أعتقد أن الجواب يجب أن يكون كذا، فقال له الأستاذ: لا تقلق نفسك أيها الشاب! وهو ينظر إلى ساعته، إن مريضك قد مات منذ خمس وثلاثين ثانية!

* قال الطبيب للمريض: أرجوك.. إذا شعرت بتحسن أخبرني على الفور. المريض: لماذا يا دكتور؟ الدكتور: لأنني مصاب بنفس المرض.

* المريض: إنني أشعر بتعب في معدتي يا دكتور.. الطبيب: لا تأكل كثيراً. المريض: وهل الأكل متعب للمعدة؟ إن أجدادنا كانوا يأكلون كثيراً وكانت معدتهم مثل الحديد! الطبيب: أجدادنا كلهم قد ماتوا..!

* مرضت امرأة عجوز، فأتاها ابنها بطبيب، فرآها الطبيب متزينةً بأثواب مصبوغة، فعرف ما بها، فقال الطبيبُ: ما أحوجها إلى زوج! فقال الابن: وما حاجةُ العجائز للأزواج! فقالت الأم العجوز: ويحك! الطبيبُ أعلمُ منك على كل حال!!

* شَكى أحدُ الأمراءِ الأتراكِ من أَلَم شديد في بَطنه. فَجيء لهُ بطبيب ماهر كَيِّس، ففحصهُ وقال: أصلح اللهُ الأمير، يحتاج الأمُر إلى حُقْنَة! فقال لهُ التركي: وما الحُقنةُ؟ قال: إناءٌ فيه ماءٌ، ومنه طَرَفٌ رفيعٌ يدخل في الإست!. فاحْمَرَّت عينا الأمير، وقال: في إستِ مَنْ؟ فخاف الطبيبُ، وقال: في إستِي، أعزَّ اللهُ الأمير!

* شكا رجل إلى طبيب وجع بطنه فقال: ما الذي أكلت، قال: أكلت رغيفاً محترقاً! فدعا الطبيب بكحل ليكحله، فقال الرجل: إنما أشتكي وجع بطني لا عيني! قال: قد عرفت ولكن أكحلك لتبصر المحترق فلا تأكله!!

* عاد رجل مريضاً فقال له: ما علتك؟ قال: وَجَع الركبة، فقال الرجل: إن جريراً يقول بيتاً ذهب عني صدره، وآخره هو: وليس لداء الركبتين دواء! فقال له: ليتما ذهب عنك صدره مع نفسك.

* قال أحد الرسامين لصديقه الفيلسوف: لقد قضيت فترة أشتغل بالرسم ثم تركته إلى الطب، فقال له الفيلسوف: لقد أحسنت بذلك صنعاً، لأن عيوب الرسم وأخطاء التصوير تظهر جلية للعيان، أما أخطاء الطب فيسترها التراب!

* كان شاعر النيل حافظ إبراهيم يتردد على أحد الأطباء، ثم احتجب عنه فترة طويلة

من الزمن. واتفق أن رآه الطبيب فسأله: إزّاي صحتّك دلوقتِ؟ فأجاب بأنها ممتازة، ثم أردف يقول: لا مؤاخذة يا دكتور إذا كانت صحتي كويّسة، ده غصبٍ عنّي والله!

* توعَّكَت صحة الأديب عبدالرحمن الرافعي فعاده الشاعر حافظ إبراهيم، فشكا الرافعي من إمساك شديد يلازمه فقال له حافظ: أخذت مسهل؟ فأجاب: أيوه. أخذت ملح إنكليزي، قال: وخرجت عليه؟ فأجاب: لا، مع الأسف. فقال له حافظ: هُمَّ الإنكليز يدخلوا حِتّه ويخرجوا منها بسهولة؟

* تقابل زميلان قديمان، وكان أحدهما قد تخرج طبيباً، وأما الآخر فقد اشتغل صياداً، وفي يوم ما، أراد الطبيب أن يعبر النهر، وأخذه الصياد في قاربه.. وسأله الطبيب: هل تعرف شيئاً عن التشريح والطب؟ فأجاب الصياد: أبداً. فقال له الطبيب: لقد ضاع عليك نصف عمرك. وبعدها هبت عاصفة شديدة. فقال الصياد: هل تعرف شيئاً عن السباحة؟ فقال الطبيب: أبداً. فقال الصياد: إذن لقد ضاع عليك عمرك كله!

* إذا لم يكن عون من الله للفتىٰ ... فأول ما يجنيه عليه اجتهاده

* ولله درُّ القائل:

إن الطبيبَ له علمٌ يدلُّ به ... ما دام في أجل الإنسان تأخيرُ
حتَّىٰ إذا ما انقضتْ أيامُ مهلته ... حار الطبيبُ وخانته العقاقيرُ

* وقال آخر:

ذهبت أنادي طبيب الورىٰ ... وروحي تناجي طبيب السماء
طبيبين ذاك ليعطي الدواء ... وذاك ليجعل فيه الشفاء

* قيل في الأمثال التي تتناقلها بعض الأمم والشعوب: إن الله هو الذي يشافي، والطبيب يأخذ الأجرة!

* الإقلال من الضار، خير من الإكثار من النافع.

* من يأكل فوق الشبع، يحفر قبره بأسنانه!

علامات الكِبَر!!

دخل الهيثم بن الأسود بن العُريان، وكان خطيباً شاعراً، على عبد الملك بن مروان فقال له: كيف تجدك؟ فقال: أجدني قد ابيضَّ مني ما كنتُ أحبّ أن يسودّ، واسودّ مني ما كنتُ أحبّ أن يَبيضّ، واشتدّ منّي ما كنت أحب أن يلين، ولانَ مني ما كنت أحب أن يشتدّ! ثم أنشد:

اسْمع أنبِّيك بآيات الكِبَر — نومُ العِشاءِ وسُعالٌ بالسَّحرْ
وقلَّةُ النوم إذا الليل اعتكَرْ(*) — وقلَّةُ الطُّعم(*) إذا الزاد حَضرْ
وسرعة الطَّرف(*) وتحميج(*) النّظَرْ — وتركيَ الحسناءَ في قُبْل(*) الطُّهُرْ
وحذراً أزداده إلى حذَرْ — والنّاس يبلَوْن كما يبلى الشجرْ

* قال الشاعر الصلتان العبدي:

أشاب الصغيرَ وأفنى الكبيرَ — كرُّ الغداة ومرّ العشيِّ
إذا ليلة هرَّمتْ يومها — أتى بعد ذلك يوم فتي
نروحُ ونغدو لحاجاتنا — وحاجة من عاش لا تنقضي
ويسلبه الموتُ أثوابَه — ويمنعه الموتُ ما يشتهي
تموت مع المرء حاجاته — وتبقى له حاجةٌ ما بقي

* إذا بلغَ الفتى ستينَ حولاً — فنصفُ العمرِ تَمْحقُه الليالي
ونصفُ النصفِ يذهبُ ليس يَدْرِي — لِغَفْلَتِه يميناً مِنْ شِمَالِ
وبَاقِي النصفِ آمالٌ وحِرصٌ — وانشغالٌ بالمكاسبِ والعيالِ

(*) اعتكر الليل: اشتد سواده. الطعم: الطعام. الطرف: تحريك الجفون في النظر. التحميج: تصغير العين للتمكن من النظر. قُبْل: أي في أول الطهر بعد انقطاع الدم.

وبـاقـي الـعُـمْـرِ أسـقـامٌ وشـيـبٌ   وآفـةٌ تـدلُّ عـلـى انـتـقـالِ

* خرج أبو بكر رضي الله عنه تاجراً إلى بصرى ومعه نعيمان وسُويبط بن حرملة رضي الله عنهما ـ وكلاهما بدري أي ممن شهد غزوة بدر ـ وكان سُويبط على الزاد، فقال له نعيمان: أطعمني، قال: حتى يجيء أبو بكر، وكان نُعيمان مضحاكاً مزَّاحاً، فذهب إلى ناس جلبوا ظهراً فقال: ابتاعوا ـ اشتروا ـ مني غلاماً عربياً فارهاً ـ قوياً نشيطاً ـ قالوا: نعم، قال: إنه ذو لسان، ولعله يقول أنا حر، فإن كنتم تاركيه لذلك فدعوني لا تفسدوه عليَّ، فقالوا: بل نبتاعه، فابتاعوه منه بعشر قلائص ـ القلوص: الناقة الشابة ـ فأقبل بها يسوقها وقال: دونكم هو هذا! فقال سويبط: هو كاذب أنا رجل حر!! قالوا: قد أخبرنا خبرك، فطرحوا الحبل في رقبته فذهبوا به، فجاء أبو بكر فأُخبر، فذهب هو وأصحابه إليهم فردُّوا القلائص وأخذوه، ثم أخبروا النبي ﷺ بذلك فضحك هو وأصحابه منها حَوْلاً!!

* ولنعيمان موقف طريف آخر، فقد كان مخرمة بن نوفل بن أهيب الزهري شيخاً كبيراً بالمدينة أعمى، وكان قد بلغ مائة وخمس عشرة سنة، فقام يوماً في المسجد يريد أن يبول فصاح به الناس، فأتاه النعيمان بن عمرو فتنحى به ناحية المسجد ثم قال: اجلس ههنا، فأجلسه يبول وتركه، فبال وصاح به الناس، فلما فرغ قال: من جاء بي ويحكم إلى هذا الموضع؟ قالوا له: النعيمان بن عمرو، قال: فَعَلَ الله به وفعل! أما إنَّ لله عليَّ إن ظفرت به أن أضربه بعصاي هذه ضربة تبلغ منه ما بلغت! فمكث ما شاء الله حتى نسي ذلك مخرمة، ثم أتاه يوماً وعثمان رضي الله عنه قائم يصلي في ناحية المسجد ـ وكان عثمان إذا صلَّى لم يلتفت ـ فقال له: هل لك في نعيمان؟ قال: نعم، أين هو دلني عليه، فأتى به حتى أوقفه على عثمان فقال: دونك هذا هو، فجمع مخرمة يديه بعصاه فضرب عثمان فشجه، فقيل له: إنما ضربت أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، فسمعت بذلك بنو زُهرة فاجتمعوا في ذلك، فقال عثمان رضي الله عنه: دعوا نُعيمان قاتل الله نعيمان فقد شهد بدراً!!

* قال ثابت بن قرة: ليس على الشيخ أضر من أن يكون له طباخ حاذق وجارية حسناء، لأنه يستكثر من الطعام فيسقم، ومن الجماع فيهرم!

* وقال: راحة الجسم في قلة الطعام، وراحة النفس في قلة الآثام، وراحة القلب في قلّة الاهتمام، وراحة اللسان في قلة الكلام.

* كان ثابت مقرباً من المعتضد، وكان يمشي معه يوماً في «الفردوس» وهو بستان في دار الخلافة للرياضة، وكان المعتضد قد اتكأ على يد ثابت وهما يتماشيان، ثم نتر المعتضد يده من يد ثابت بشدة، ففزع ثابت، وكان المعتضد مهيباً جداً، فلما نتر يده من يد ثابت قال: يا أبا الحسن، وكان في الخلوات يكنيه وفي الملأ يسميه، سهوتُ ووضعتُ يدي على يدك واستندت عليها، وليس هكذا يجب أن يكون، فإن العلماء يَعلون ولا يُعلون!

* عاش أحد الأدباء مُعْدماً مُفْلِساً في شبابه، لا يجد درهماً ولا طعاماً ولا زوجة ولا بيتاً، فلما كبر وشاخ، اغتنى وأقبلت عليه الدنيا، فتألم وتحسّر وقال في ذلك:

ما كنتُ أرجوه إذْ كنتُ ابنَ عشرينا ... مُلِّكْتُه بعدما جاوزتُ سبعينا

تطوفُ بي من بنات التُّرْك أغْزِلةٌ ... مِثْلُ الظِّباءِ على كُثْبانِ يَبْرينا

قالوا: أنينُك طولَ الليل يُسْهِرُنا! ... فما الذي تشتكي؟ قلتُ: الثمانينا!

امتحان الأطباء

* كان أمين الدولة أبو الحسن هبة الله بن أبي العلاء صاعد بن إبراهيم بن التلميذ أَوْحَد أهل عصره في صناعة الطب والإلمام بفنونها، وكان رئيساً للمستشفى العضدي ببغداد إلى حين وفاته. وكان أمين الدولة والطبيب أبو البركات في خدمة المستضيء بأمر الله، وكان أبو البركات أفضل من ابن التلميذ في العلوم الفلسفية وله فيها مؤلفات جليلة، فأما ابن التلميذ فكان أكثر تبحراً منه في علم الطب، وكان بينهما عداوة، إلا أن ابن التلميذ كان أوفر عقلاً وأحسن أدباً من أبي البركات.

فمما يروى من آثار العداوة بينهما أن أبا البركات احتال على خصمه بحيلة سافلة رجع عليه شرها، وذلك أنه كتب رقعة نسب فيها إلى أمين الدولة أشياء تضع من قدره وتحط من كرامته وتجعله لا يليق بمجالسة الملوك، وأوعز إلى بعض خدمه بإلقائها في طريق الخليفة، فاتفق أن رآها الخليفة فأمر بإحضارها، فلما قرأها امتلأ ازدراءً بأمين الدولة، ولكنه أبى أن يوقع عليه عقوبة قبل التحقق من صدق الرقعة، فاستقصى الأمر بنفسه فوجده اختلاقاً محضاً، واهتدى إلى فاعله أبي البركات فغضب عليه ووهب دمه وجميع ماله وكتبه لأمين الدولة، ولكن هذا الأخير كان من شرف النفس وكبر الهمة بحيث لم يتعرض لخصمه بسوء، فسقط أبو البركات وانحطت منزلته وانقطع عن الخليفة. وكان أبوالبركات يهودي المذهب وأمين الدولة كان نصرانياً. ولبعضهم في أمين الدولة وأبي البركات:

أبو الحسن الطبيب ومقتفيه ... أبو البركات في طرفي نقيض

فهذا بالتواضع في الثريا ... وهذا بالتكبر في الحضيض!

* ومن نوادره أن الخليفة كان قد فوَّض إليه رئاسة الطب ببغداد، ولما اجتمع إليه سائر الأطباء ليرى ما عند كل واحد منهم من هذه الصناعة، كان من جملة من حضره شيخ له هيئة ووقار وعنده سكينة، فأكرمه أمين الدولة، وكانت لذلك الشيخ دربة ما بالمعالجة، ولم يكن عنده من علم صناعة الطب إلا التظاهر بها! فلما انتهى السؤال إليه قال له أمين الدولة: ما السبب في كون الشيخ لم يشارك الجماعة فيما يبحثون فيه حتى نعلم ما عنده من هذه الصناعة؟ فقال: يا سيدنا وهل شيء مما تكلموا فيه إلا وأنا أعلمه، وقد سبق إلى فهمي أضعاف ذلك مرات كثيرة! فقال له أمين الدولة: فعلى من كنت قد قرأت هذه الصناعة؟ فقال الشيخ: يا سيدنا إذا صار الإنسان إلى هذه السن ما يبقى يليق به إلا أن يسأل: كم له من التلاميذ؟ ومن هو المتميز فيهم؟ وأما المشايخ الذين قرأت عليهم فقد ماتوا من زمان طويل؟! فقال أمين الدولة: يا شيخ هذا شيء قد جرت العادة به ولا يضر ذكره، ومع هذا فما علينا، أخبرني أي شيء قد قرأته من الكتب الطبية؟ فقال الشيخ: سبحان الله

العظيم! صرنا إلى حد ما يسأل عنه الصبيان، يا سيدنا لمثلي لا يقال إلا أي شيء صنفته في صناعة الطب، وكم لك فيها من الكتب والمقالات؟ ولابد أنني أعرّفك بنفسي، ثم دنا إلى أمين الدولة وقال له فيما بينهما: اعلم أنني قد شخت وأنا أوسم بهذه الصناعة، وما عندي منها إلا معرفة اصطلاحات مشهورة في المداواة، وعمري كله أتكسّب بها، وعندي عائلة فسألتك بالله يا سيدنا أن لا تفضحني بين هؤلاء الجماعة، وأن لا تمنعني التكسب لعيالي! فقال له أمين الدولة: لك ذلك، ولكن على شريطة، وهي أنك لا تهجم على مريض بما لا تعلمه، ولا تشير بفَصْد ولا بدواء مسهل إلا لما قرب من الأمراض، فقال الشيخ: هذا مذهبي مذ كنت، ما تعديت السكنجبين والجلاب، ثم قال أمين الدولة له معلناً والجماعة تسمع: يا شيخ اعذرنا فإننا ما كنا نعرفك، والآن فقد عرفناك! استمر فيما أنت فيه، فإن أحداً ما يعارضك! ثم إنه عاد إلى ما كان فيه فالتفت إلى أحدهم وقال: على من تعلمت هذه الصناعة؟ فقال له: يا سيدنا أنا من تلاميذ هذا الشيخ الذي قد عرفته، وعليه كنت قد قرأت صناعة الطب! ففطن أمين الدولة بما أراد من التعريض بقوله وتبسم ثم امتحنه بعد ذلك!

حيلة طبيب

* زار أحد الأعاجم المستشفى الكبير الذي أنشأه السلطان العادل نور الدين الشهيد عام ٥٤٩هـ، فلما دخل المستشفى ـ وكان ذلك عام ٨٣١هـ ـ ونظر إلى كثرة أطبائه، وحسن العناية بمرضاه، وما يحتويه من المآكل والتحف واللطائف التي لا تحصى، أراد أن يختبر معرفة أطبائه، فتمارض وأقام به ثلاثة أيام ورئيس الأطباء يتردد إليه ليختبر ضعفه، فلما جس نبضه علم أنه غير مريض، وأنه إنما أراد اختبار أطبائه، فوصف له الأطعمة الحسنة والدجاج المسمنة والحلوى والأشربة والفواكه المتنوعة!! ثم بعد ثلاثة أيام كتب له ورقة يقول فيها: إن الضيافة عندنا ثلاثة أيام!! فعرف الأعجمي أنهم فطنوا لقصده، وأنهم استضافوه في المستشفى هذه المدة!

الطبيب البارع

* مر بعض الحاكة على طبيب فرآه يصف لهذا النقوع، ولهذا التمر هندي فقال: من لا يحسن مثل هذا؟ فرجع إلى زوجته فقال: اجعلي عمامتي كبيرة! فقالت: ويحك أي شيء قد طرأ لك؟ قال: أريد، أن أكون طبيباً! قالت: لا تفعل فإنك تقتل الناس فيقتلوك! قال: لابد فخرج أول يوم فقعد يصف للناس فحصَّل قراريط فجاء فقال لزوجته: أنا كنت أعمل كل يوم بحبة فانظري إيش يحصل! فقالت: لا تفعل، قال: لابد، فلما كان في اليوم الثاني اجتازت جارية فرأته فقالت لسيدتها، وكانت شديدة المرض: اشتهيت هذا الطبيب الجديد يداويك، قالت: ابعثي إليه، فجاء وكانت المريضة قد انتهى مرضها ومعها ضعف، فقال: عليّ بدجاجة مطبوخة، فجيء بها فأكلت فقويت ثم استقامت، فبلغ هذا إلى السلطان فجاء به فشكا إليه مرضاً يشتكيه فاتفق أنه وصف له شيئاً أصلح به، فاجتمع إلى السلطان جماعة يعرفون ذاك الحائك فقالوا له: هذا رجل حائك لا يدري شيئاً! فقال السلطان: هذا قد صلحت على يديه وصلحت الجارية على يديه فلا أقبل قولكم! قالوا: فنجربه بمسائل! قال: افعلوا فوضعوا له مسائل وسألوه عنها، فقال: إن أجبتكم عن هذه المسائل لم تعلموا جوابها لأن الجواب لهذه المسائل لا يعرفه إلا طبيب! ولكن أليس عندكم مارستان ـ مستشفى ـ؟ قالوا: بلى، قال: أليس فيه مرضى لهم مدة؟ قالوا: بلى قال: فأنا أداويهم حتى ينهض الكل في عافية في ساعة واحدة! فهل يكون دليلاً على علمي أقوى من ذلك؟ قالوا: لا، فجاء إلى باب المارستان وقال: اقعدوا لا يدخل معي أحد، ثم دخل وحده وليس معه إلا قيّم المارستان، فقال للقيّم: إنك والله إن تحدثت بما أعمل صلبتك، وإن سكت أغنيتك! قال: ما أنطق، قال فأحلفه بالطلاق، ثم قال: عندك في هذا المارستان زيت، قال: نعم، قال هاته، فجاء منه بشيء كثير، فصبه في قدر كبير ثم أوقد تحته فلما اشتد غليانه صاح بجماعة المرضى فقال لأحدهم: إنه لا يصلح لمرضك إلا أن تنزل إلى هذا القدر فتقعد في هذا الزيت!! فقال المريض: الله الله في أمري! قال: لابد، قال: أنا قد شفيت، وإنما كان بي قليل من صداع! قال: إيش يقعدك في المارستان وأنت

معافى؟ قال: لا شيء، قال: فاخرج وأخبرهم، فخرج وأخبرهم، فخرج يعدو ويقول: شفيت بإقبال هذا الحكيم! ثم جاء إلى آخر فقال: لا يصلح لمرضك إلا أن تقعد في هذا الزيت! فقال: الله الله أنا في عافية، قال: لابد! قال: لا تفعل فإني من أمس أردت أن أخرج! قال: فإن كنت في عافية فاخرج وأخبر الناس بأنك في عافية! فخرج يعدو ويقول شفيت ببركة الحكيم! ومازال على هذا الوصف حتى أخرج الكل شاكرين له!!

تأملات

أجمل لوحة في الحياة

* سئل الفنان البلجيكي «رونز فيليسن» عن أجمل لوحة رآها في حياته؟ فقال:

- صورة الأم بعد أن وضعت مولودها الصغير ثم مدت يدها وهي راقدة في فراشها لتحتضن هذا المخلوق الجديد الذي أمضت تسعة أشهر من حياتها تنتظر وصوله إلى هذه الدنيا.

- وصورة الجراح الذي أمسك بمبضعه وراح يعمل في هدوء وثقة بعد أن انتصف الليل يحاول أن يساعد في شفاء إنسان بين الموت والحياة.

- وصورة المدرس الذي بقي وحده بعد أن انصرف كل تلاميذ المدرسة ومدرسيها عائدين إلى بيوتهم لأنه وعد بعض تلاميذه أن يشرح لهم ما صعب عليهم فهمه!!

* عزت امرأةُ المنصورَ بأخيه أبي العباس السفاح، لما قدم مكة فقالت: عظَّم اللهُ أجرك، فلا مصيبة أعظم من مصيبتك، ولا عوض أعظم من خلافتك!

* قيل لعمر رضي الله عنه: فلان لا يعرف الشر، قال: ذلك أجدر أن يقع فيه!

عرفت الشر لا للشر ولكن لأتقيه
ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

* ذم رجل عند الأحنف الكمأة بالسمن، فقال الأحنف: ربَّ ملوم لا ذنب له!

القضاء... والقضاة

* القضاء فريضة مُحْكمة، وسنّة متّبعة، به قوام الأديان وعمود السلطان، وإذا اهتزّت ثقة الناس بالقضاء ونزاهة القضاة انفتح باب الشر وبدت عوامل الانهيار، ولا تقوم الممالك والدول إلا بالحق الذي قامت عليه السموات والأرض، والقرآن الكريم في كثير من الآيات يأمر بالحق والعدل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) ﴾ (النساء) ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴾ (ص: ٢٦).

* ولا يصلح للقضاء إلا من توفرت فيه خمس خصال: علمٌ بما كان قبله، ونزاهةٌ عن الطمع وحِلْمٌ على الخصم، واقتداءٌ بالأئمة، ومشاورةُ أهل العلم والرأي. وكتب عمر بن الخطاب إلى معاوية كتاباً يبين فيه الخطوط العريضة للقضاء والأسس التي يجب أن يتبعها القاضي في مجلس حكمه: إذا تقدّم إليك الخصمان فعليك بالبينة العادلة، أو اليمين القاطعة، وإدناء الضعيف حتى يشتدّ قلْبُه، وينبسط لسانه، وتعاهُد الغريب، فإنك إن لم تتعاهدْه سقط حقّه ورجع إلى أهله، وإنما ضيّع حقَّه من لم يرفُق به، وآسِ بين الناس في لحْظك وطرْفِك، وعليك بالصلح بين الناس ما لم يتبين لك فصْل القضاء.

* وقال عمر بن عبدالعزيز: إذا أتاك الخصم وقد فُقِئتْ عينُه فلا تحْكُم له، حتى يأتي خصمه، فلعلّه قد فُقِئتْ عيناه جميعاً!

قال ﷺ: «القضاة ثلاثة: اثنان في النار، وواحد في الجنة، رجل عرف الحق فقضى به فهو في الجنة، ورجل عرف الحق ولم يقض به فهو في النار، ورجل لم يعرف الحق فقضى الناس على جهل فهو في النار».

* وإذا أراد القاضي الجلوس للحكم، فعليه أن يكون فارغ القلب، لا يهمه إلا النظر في أمور المتظلمين، وإن تغيرت حاله بغضب أو غمّ أو سرور مُفْرط أو وجع أو ملالة، أو

اعتراء نوم أو جوع، فلْيَقُمْ إلى أن يزول ما به ويتمكن من رأيه وعقله ثم يجلس. وقد جاء في الحديث: «لا يقضينّ حكَمٌ بين اثنين وهو غضبان» رواه الخمسة.

تحرّج العلماء من القضاء

ولحساسية منزلة القضاء وخطر أمره، كره كثير من العلماء تولّيه، بل كانوا يهربون من وجه الخليفة إذا دعاهم للقضاء، وكانوا يقولون: القاضي كالغريق في البحر إلى متى يسبح، وإن كان سابحاً؟! «مَنْ جُعل قاضياً بين الناس فقد ذبح بغير سكّين» رواه أبو داود والترمذي.

* ويروى أن المنصور دعا أبا حنيفة والثوري ومسعراً وشريكاً ليولّيهم القضاء فقال أبو حنيفة: أنا أخمن فيكم تخميناً، أما أنا فأحتال فأتخلص، وأما مسعر فيتجانن فيتخلص، وأما سفيان فيهرب، وأما شريك فيقع، فلما دخلوا عليه قال أبو حنيفة: أنا رجل مولى ولست من العرب، ولا تكاد العرب ترضى بأن يكون عليهم مولى، ومع ذلك فإني لا أصلح لهذا الأمر، فإن كنت صادقاً في قولي فلست أصلحُ، وإن كنت كاذباً فلا يجوز أن يولّى كاذبٌ دماءَ المسلمين وفروجَهم. وأما سفيان فأدركه شخص في طريق فذهب لحاجته وانصرف والشخص منتظر فراغه، فبصر سفيان سفينة فقال للملاح: إن مكنتني من سفينتك وإلا أذبح، تأوّل قول النبي ﷺ من جُعل قاضياً فقد ذُبح بغير سكين، فأخذه الملاح تحت المباري. وأما مسعر فدخل على المنصور فقال: القضاء يدك كيف أنت وأولادك ودوابك! فقال: أخرجوه فإنه مجنون.

وأماشريك فدخل على المنصور فولاه القضاء، فهجره الثوري، وقال: أمكنك الهرب فلم تهرب! وهذا هو شريك بن عبدالله النخعي الكوفي أحد الأعلام!

* وذُكر أنّ رجلاً آلى بيمين أن لا يتزوج حتى يستشير مائة نفس، لما قاسى من بلاء النساء، فاستشار تسعة وتسعين نفساً وبقي واحد، فخرج على أن يسأل أول من يطرأ عليه، فرأى مجنوناً قد اتخذ قلادة من عظم وسوّد وجهه وركب قصبة وأخذ رمحه، فسلم

عليه وقال: لي مسألة فقال: سل ما يعنيك وإياك وما لا يعنيك واحذر رمحة هذا الفرس، قال: فقلت مجنون والله، ثم قلت: إني رجل لقيتُ من النساء بلاء وآليت أن لا أتزوج حتى أستشير مائة نفس وأنت تمام المائة فقال: اعلم أن النساء ثلاثة واحدة لك وواحدة عليك وواحدة لا لك ولا عليك، فأما التي لك فشابة طرية لم تمسّ الرجال فهي لك لا عليك، إن رأت خيراً حمدت وإن رأت شراً قالت كلُّ الرجال على مثل ذلك، وأما التي عليك لا لك فامرأة ذات ولد من غيرك فهي تسلخ الزوج وتجمع لولدها، وأما التي لا لك ولا عليك فامرأة قد تزوجت قبلك، إن رأت خيراً قالت هكذا يجب وإن رأت شراً حنّتْ إلى زوجها الأول، قال: فقلت: نشدتُكَ الله ما الذي غّير من أمرك ما أرى؟ قال: ألم أشترط عليك أن لا تسأل عما لا يعنيك. فأقسمت عليه فقال: إني رُشِّحت للقضاء فاخترتُ ما ترى على القضاء!

* قال رجل للقاضي إياس بن معاوية: إن فيك خصالاً لا تعجبني! فقال: ما هي؟ فقال: تحكم قبل أن تفهم، ولا تجالس كل أحد، وتلبس الثياب الغليظة! فقال له: أيها أكثر، الثلاثة أو الاثنان؟ قال: الثلاثة، فقال: ما أسرع ما فهمت وأجبتَ؟ فقال: أو يجهل هذا أحد؟ فقال: وكذلك ما أحكم أنا به! وأما أني لا أجالس كل أحد، فلئن أجلس مع مَنْ يعرف لي قدري أحب إلي من أن أجلس مع من لا يعرف لي قدري، وأما الثياب الغلاظ، فأنا ألبس ما يقيني، لا ما أقيه أنا!

* ودعي أبو قلابة إلى قضاء البصرة ففر إلى الشام، فقيل له: لو وليت فعدلت. . . وأنت من تعلم! فقال: كم عسى أن يسبح من وقع في البحر؟!

* ولما ولي شريك القضاء، قيل: أي رجل أفسدوا!!

* ولما ولي سحنون، قال بعض أهل الأندلس: وددنا والله أن لو رأيناك على أعواد نعشك، ولانراك في هذا المجلس!

* وكتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء رضي الله عنهما: بلغني أنك جعلت طبيباً تداوي! فإن كنت تبرئ فنعمّا، وإن كنت متطبباً فاحذر أن تقتل إنساناً فتدخل النار. . !

فكان أبو الدرداء رضي الله عنه إذا قضى بين اثنين ثم أدبرا، نظر إليهما ثم قال: ارجعا إلي.. أعيدا عليّ قضيتكما.. متطبب والله.. وأنشدوا في هذا المعنى:

إن السلامة من سلمى وجارتها أن لا تحل على حال بواديها!!

* لما ولي الحسن البصري رحمه الله القضاء، كان إذا سئل عن فريضة أخبر بها، فإن قيل له: احسبها، قال: اذهب إلى البقالين يحسبونها! وتقدم له يوماً رجلان من ثقيف يختصمان إليه، فقال الحسن: وأنتما أيضاً في أسنانكما وقرابتكما تختصمان! فقالا: يا أبا سعيد إنما أردنا الصلح، قال: فنعم إذا، فتكلما فوثب كل واحد منهما على صاحبه بالتكذيب، فقال الحسن: كذبتما ورب الكعبة، قال الله: «إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما» ما الصلح أردتما!

* ويقال إن أم الحسن صفية بنت الحارث كانت من أهل اليمن، وكانت مولاة لأم سلمة زوج النبي ﷺ، وولد الحسن بالمدينة لسنتين بقيتا من خلافة عمر، وكانت أم سلمة رضي الله عنها تبعث أم الحسن في الحاجة فيبكي وهو صبي، فتسكته بثديها، وكانت تخرجه إلى أصحاب النبي ﷺ وهو صغير، فكانوا يدعون له، فأخرجته إلى عمر بن الخطاب فدعا له وقال: اللهم فقهه في الدين وحببه إلى الناس، وكانت صفية أم الحسن تعلم النساء القرآن في آخر المسجد، وتقص عليهن، وكان الحسن يشبّه بأصحاب رسول الله ﷺ، وقال أبو قتادة العدوي: عليكم بهذا الشيخ - يعني الحسن البصري - فما رأيت رجلاً أشبه بعمر بن الخطاب منه!

* قال اسحاق الموصلي: كنت يوما عند الواثق وهو بالنجف، فدخل عليه أحمد بن أبي دؤاد، فقعدنا نتحدث، ولم يكن خرج الواثق بعد، فقال لي أحمد: أعجبني بيتان، قلت: أنشدني، فما أعجبك ففيه السرور، فأنشدني:

ولي نظرة لو كان يحبل ناظر بنظرته أنثى لقد حبلت مني

فإن ولدت ما بين تسعة أشهر إلى نظرتي ابناً فإن ابنها ابني!

فقلت: أجاد، ولكن أنشدك بيتين أرجو أن تستحسنهما وأنشدته:

ولما رمت بالطرف غيري ظننتها كما آثرت بالطرف تؤثر بالقلب

وإني بها في كل حال لواثق ولكن سوء الظن من شدة الحب

قال: أحسنت والله، وخرج الواثق فقال لنا: فيم أنتما؟ فحدثناه، فأمر لكل واحد منا بجائزة وخلع!

* قال القاسم بن معن: كنت أرى القاضي شريكاً يغضب على الخصم، فأعجب من غضبه، وأقول: أمره نافذ، وقوله جائز، ففيم الغضب! فلما وليت القضاء جعلت أكلم الخصوم فلا أغضب، فإذا ورد عليّ الأمر لا أعرفه غضبت! فإذا شريك إنما كان يغضب مما يرد عليه مما لا يعرف الجواب فيه! ولد القاضي شريك بن عبدالله سنة ست وتسعين، ومات سنة تسع وسبعين ومائة، وكان من أشهر القضاة.

* قال ابن فرحون في تبصرته: اعلم أن أكثر المؤلفين بالغوا في التحذير من ولاية القضاء حتى تقرر في ذهن كثير من الفقهاء والصلحاء أنَّ من ولي القضاء، فقد سهل عليه أمر دينه وألقى بيده إلى التهلكة، وهذا غلط فاحش بحيث تجب التوبة منه، والواجب تعظيم هذا المنصب الشريف، ومعرفة مكانته من الدين، فبه بعثت الرسل، وبالقيام به قامت السموات والأرض، وجعله ﷺ من النعم التي يباح التحاسد عليها فقال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس» وقال: «سبعة يظلهم الله بعرشه يوم لا ظل إلا ظله. . . إمام عادل. .» وما جاء من الوعيد في ذلك إنما هو في حق قضاة الجور من العلماء، وفي حق الجهال الذين يدخلون أنفسهم في هذا المنصب بغير علم.

* قال صاحب البهجة: وقوله إن المبالغة في التحذير من القضاء غلط فاحش، ليس كما قال، وإنما هو من باب النصيحة والاحتياط في الدين، فإن النفوس مجبولة على حب الدنيا والإمارة والميل للأقارب وذوي الجاه ومن يعاملها بالجميل، وذلك من أسباب الوقوع في الخطأ.

واجبات القاضي

* لا يبلغ القاضي أن يكون عادلاً مقسطاً حتى يواسي بين الناس في الحكم والنظر إليهم، وتحرّي الحق لكل طرف، كتب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى رسالة في القضاء، جاء فيها: أما بعد، فإن القضاء فريضة مُحْكَمة، وسنّة متّبعة، آس بين الناس في مجلسك ووجهك، البيّنة على من ادّعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلّ حراماً، أو حرّم حلالاً. ولا يمنعك قضاءٌ قضيته بالأمس ثم راجعت فيه نفسك، وهُديت فيه لرشدك، أنْ تَرْجعَ عنه، فإنّ الحقّ قديم لا يبطله شيء، والرجوع إليه خير من التمادي على الباطل، الفهم، الفهم فيما يتلَجْلَج في صدرك مما لم يبلغك به كتاب الله ولا سنة نبيه ﷺ، واعرف الأمثال والأشباه، وقِس الأمور عند ذلك، ثم اعمد إلى أحبها عند الله ورسوله وأشبهها بالحق، واجعل للمدّعي أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بيِّنة أخذْتَ له بحقّه، وإلا وجّهتَ عليه القضاء، فإنّ ذلك أجلى للعمى وأبلغ في العذر..».

* ويجب أنْ يكون القاضي في أقصى حالات اليقظة والانتباه، والإصغاء للخصوم، ليعرف وجه الحق من خلال الأدلة التي يدلي بها كل طرف، دخل عمر على أبي بكر رضي الله عنهما، فسلّم عليه فلم يردّ، فقال عمر لعبدالرحمن بن عوف: أخاف أن يكون وجد عليّ خليفة رسول الله ﷺ! فكلم عبدالرحمن أبابكر فقال: أتاني وبين يديّ خصمان قد فرّغت لهما قلبي وسمعي وبصري، وعلمت أن الله سائلي عنهما، وعمّا قالا.

* وهذا ما يدعو القاضي ألاّ يتأثر بالعواطف والأحاسيس والمؤثرات الخارجية، فلربما كان مظهر خصم مؤثراً ويدعو للشفقة، ولكن يجب ألاّ يتعجل في إصدار الحكم حتى يرى الخصم الثاني، فلربما كان حاله أكثر تأثيراً وأدعى للشفقة!، قال الشعبي: كنت جالساً عند شريح إذ دخلت عليه امرأة تشتكي زوجها وهو غائب، وتبكي بكاء شديداً، فقلت: أصلحك الله، ما أراها إلاّ مظلومة! قال: وما حجّتك؟ قلت: بكاؤها، قال: لا تفعل، فإن إخوة يوسف جاؤوا أباهم عشاءً يبكون وهم ظالمون.

من أعلام القضاء

* واشتهر كثير من الأعلام بالقضاء والنزاهة في الأحكام فيه، ولهم في ذلك مآثر حسنة وذكاء خارق، وبديهة حاضرة، وكان من أكثرهم شهرة القاضي شريح وإياس، ولهم أحكام وأقضية هي من الروعة بمكان! دخل عدي بن أرطأة على شريح فقال: أين أنت أصلحك الله؟ قال: بينك وبين الحائط! قال: إني رجل من أهل الشام، قال: نائي الدار سحيق المزار، قال: قد تزوجتُ عندكم، قال: بالرفاء والبنين، قال: ووُلد لي غلام، قال: ليَهْنِئك الفارس، قال: وأردْت أنْ أرحِّلَها قال: الرجل أحقّ بأهله، قال: وشرطْتُ لها دارها قال: الشّرْط أمْلك، قال: فاحكم الآن بيننا، قال: قد فعلت، قال: على مَنْ قضيْتَ؟ قال: على ابن أُمِّك، قال: بشهادة من؟ قال: بشهادة ابن أخت خالتك! يريد إقْراره على نفسه!

* قال الزبيدي: إذا قال له: بالرِّفَاءِ والبنين، أي بالالتئام والاتفاق، والبركة والنَّماء وجمع الشَّمل وحسن الاجتماع، قال ابن السكيت: وإن شئت كان معناه السُّكون والهدوء والطُّمَأنينة، وقد نهى رسول الله ﷺ أن يقال: بالرِّفاء والبنين، لأنها تهنئة الجاهلية. عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا رفَّأ الإنسانَ، أي: إذا تزوجَ، قال: «بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير»، وهو حديث صحيح. رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

* سأل رجل إياساً القاضي عن النبيذ؟ فقال: هو حرام، فقال الرجل: فأخبرني عن الماء؟ فقال: حلال، قال: فالكسور؟ قال: حلال قال: فالتمر؟ قال: حلال. قال: فما باله إذا اجتمع حرم؟ فقال إياس: أرأيتك لو رميْتُك بهذه الحفنة من التراب أتوجعك؟ قال: لا، قال: فهذه الحفنة من التبن؟ قال: لا توجعني، قال: فهذه الغرفة من الماء؟ قال: لا توجعني شيئاً، قال: أفرأيت إن خلطت هذا بهذا وهذا بهذا حتى صار طيناً ثم تركته حتى استحجر ثم رميتك به أيوجعك؟ قال: إي والله ويقتلني. قال: فكذلك تلك الأشياء إذا اجتمعت.. حَرُمتْ..!!

* نظر إياس بن معاوية إلى نسوة قد فزعن من بعير فأشار إليهنّ فقال: هذه بِكْر وهذه حامل وهذه مُرضع!! فقام إليهنّ رجل فسألهنّ فكُنّ كما قال. فقيل له: كيف علمته؟ قال: رأيتهن لما فزعن وضعَت كلّ واحدة منهنّ يدها على أهمّ المواضع إليها، فوضعت الحامل يدها على بطنها، ووضعت المرضع يدها على ثديها، ووضعت البكر يدها على قُبُلها!!

* استودع رجل رجلاً مالاً، ثم رجع فطلبه فجحده.. فأتى إياساً القاضي فأخبره، فقال له إياس: انصرف فاكتمْ أمرك ولا تُعلمه أنّكَ أتيْتَني، ثم عد إليّ بعد يومين، فدعا إياس المودع، فقال: قد حضر مال كثير، وأريد أن أسلمه إليك، أفحصين منزلك؟ قال: نعم، قال: فأعدّ له موضعاً وحمّالين!! وعاد الرجل إلى إياس، فقال: انطلق إلى صاحبك فاطلب المال، فإن أعطاك فذاك، وإن جَحَدك فقل له: إني أُخبر القاضي! فأتى الرجل صاحبه فقال: مالي، وإلا أتيت القاضي، وشكوت إليه، وأخبرته بأمري! فدفع إليه ماله. فرجع إلى إياس فقال: قد أعطاني المال، وجاء الأمين إلى إياس لموعده، فزجره وانتهره، وقال: لا تقربني يا خائن!!

* عرض شريح ناقة ليبيعها فقال له المشتري: يا أبا أمية كيف لبنها؟ قال: احلب في أي إناء شئت، قال: كيف الوطا؟ قال: افرش ونم، قال: كيف نجاؤها؟ قال: إذا رأيتها في الإبل عرفت مكانها، علّق سوطك ونم، قال: كيف قوتها؟ قال: احمل على الحائط ما شئت! فاشتراها فلم ير شيئاً مما وصفها به، قال: ما كذبتك، قال: أقلني، قال: نعم!!

* سُئِل ابن شُبْرُمة عن رجل، فقال: إنَّ له شَرَفاً وبيتاً وقَدَما - أي تقدماً ومنزلة رفيعة - فنظروا فإذا هو ساقط من السِّفلة! فقيل له في ذلك، فقال: ما كذبتُ، شرَفه أُذُناه، وقدمُه التي يمشي عليها، ولابدَّ من أن يكون له بيتٌ يأوي إليه!

قال أبو إسحاق النظام: قد - لعمري - كَذَب، إنما هو كقول القائل حين سأله بعضُ من أراد تزويج حُرمته عن رجل، فقال: هو يبيع الدّوابّ، فلما نظروا في أمره وجدوه يبيع السنانير، فلما سئل عن ذلك قال: ما كذبت؛ لأنّ السِّنَّور دابّة.

قال أبو إسحاق: بل لعمري لقد كذب، هذا مثل قول القائل حين سُئِل عن رجل في تزويج امرأة فقال: رزين المجلس، نافذ الطعْنة فحسبوه سيِّداً فارساً! فنظروا فوجدوه خَيَّاطاً! فسئل عن ذلك فقال: ما كذبت؛ إنّه لَطَويلُ الجلوس، جيِّد الطعن بالإبرة! قال أبو إسحاق: بل لعمري لقد كذب؛ لأنّه قد غرّهم منه! وكذلك لو سأله رجل عن رجل يريد أن يُسْلفه مالاً عظيماً، فقال: هو يملك مالاً ما كان يبيعه بمائة ألف ومائة ألف!، فلما بايعه الرجل وجده مُعْدِماً ضعيف الحيلة، فلما قيل له في ذلك قال: ما كذبت، لأنه يملك عينيه وأذنيه وأنفه وشفتيه ويديه! حتى عدَّ جميع أعضائه وجوارحه. ومن قال للمستشير هذا القولَ فقد غرّه، وذلك ما لا يحلُّ في دين ولا يحسُن في الحُرِّية - أي في كون الإنسان حراً - وهذا القول معصيةٌ لله، والمعصيةُ لا تكون صِدقاً، وأدنَى منازلِ هذا الخبرِ أن لا يُسمَّى صدقاً، فأمَّا التسمية له بالكذب فإن فيها كلاماً يطول! البيان والتبيين للجاحظ: ١/ ٣٣٨.

تأملات

* اجعل سرّك لواحد، ومشورتك إلى ألف.
* السر الوحيد الذي تستطيع المرأة أن تحتفظ به هو عمرها.
* أعط حبك لامرأتك، وأعط سرك لأمك.
* سرّك دمك، فلا تُجرينه في غير أوداجك.
* لسان المرأة آخر عضو يموت فيها!
* حتى الأحمق إذا صمت يعدّ حكيماً!
* أصعب من علم الكلام فن الصمت.
* الفم المطبق لا يدخله الذباب!
* الأشخاص الواثقون من أنفسهم، نادراً ما يشعرون بأنهم مجبرون على الكلام.
* إياك أن تقطع بلسانك عنقك!

من أساليب القضاة في الحكم

* لكل قاض أسلوب وطريق في الحكم ضمن إطار الحق وفي دائرة العدل، ولكن تختلف الأساليب وتتنوع وجهات النظر للوصول للصواب، ومنهم من يتشدد في الحق ويبلغ الغاية في العدل، ومنهم من يتلطف في إرضاء الخصم ويدعو للعفو والإحسان. قال رجل لقوم يتنازعون: هل لكم في الحق أو فيما هو خيرٌ من الحقّ؟ فقيل: وهل هناك شيء يكون خيراً من الحق؟! قال: نعم العفو والتحاطّ والهضْم، فإن أخَذَ الحق كلّه مرّ!

* وجاء رجل إلى إياس بن معاوية، فسأله عن مسألة فطول فيها، فقال إياس: إن كنت تريد الفُتْيا فعليك بالحسن معلّمي ومعلم أبي، وإن كنت تريد القضاء، فعليك بعبد الملك بن يعلى ـ وكان على قضاء البصرة يومئذ ـ وإن كنت تريد الصلح، فعليك بحُميْد الطويل، وتدري ما يقول لك؟ يقول لك: حط شيئاً، ويقول لصاحبك؛ زده شيئاً حتى نصلح بينكما! وإن كنت تريد الشّغب، فعليك بصالح السُّدوسي، وتدري ما يقول لك؟ يقول لك: اجحد ما عليك، ويقول لصاحبك: ادّع ما ليس لك وادّع بيِّنةً غُيَّباً!

* وجرت عادة بعضهم أن يختبروا القاضي ويمتحنوه قبل توليته ليتأكدوا من صلاحيته ومدى علمه وفقهه، لّما عُزل ابن شُبرُمة عن القضاء قال له والي اليمن: اختر لنا رجلاً نولّيه القضاء، فقال له ابن شبرمة: ما أعرفه، فذُكر له رجل من أهل صنعاء، فأرسل إليه فجاء، فقال له ابن شبرمة: هل تدري لِمَ دُعيتَ؟ قال: لا، قال: إنك قد دُعيت لأمر عظيم، للقضاء، قال: ما أيسر القضاء! فقال له ابن شبرمة: فنسألك عن شيء يسير منه، قال: سل، قال له ابن شبرمة: ما تقول في رجل ضرب بطن شاة حامل، فألقت ما في بطنها؟ فسكت الرجل، فقال له ابن شبرمة: إنّآ بلَوْناك فما وجدْنا عندك شيئاً. فقيل له: ما القضاء فيها؟ قال: تُقوَّم حاملاً وتُقوّم حائلاً ويُغَرّم قدر ما بينهما!

* وكان يحيى بن أكثم يمتحن من يريدهم للقضاء، فقال لرجل: ما تقول في رجلين زوّج كل واحد منهما الآخر أمّه فوُلد لكل واحد من امرأته ولد، ما قرابةُ ما بين الولدين؟ فلم يعرفها، فقال له يحيى: كل واحد من الولدين عمّ الآخر لأمه!

* وشبيه بهذا ما جاء أنّ رجلاً دخل على عبدالملك بن مروان فقال: إني تزوّجْت امرأة، وزوجت ابني أمّها، ولا غنى بنا عن رِفْدك، فقال له عبدالملك: إن أخبرتني ما قرابةُ ما بين أولادكما إذا أولدْتُما، فعلتُ. قال: يا أمير المؤمنين، هذا حميد بن بحدل قد قلّدْتَه سيفك وولّيته ما وراء بابك فسله عنها، فإن أصاب لَزِمَني الحرمانُ، وإن أخطأ اتسع لي العذر، فدعاه عبدالملك فسأله، فقال: يا أمير المؤمنين إنك ما قدّمتني على العلم بالأنساب، ولكن على الطعن بالرّماح، أحدهما عمُّ الآخر والآخر خاله!.

سمعة القاضي

* ومهما كان القاضي نزيهاً عادلاً ومتحرياً الحق، فإنه لا يَسلم من ألسنة العامة وغَمْزاتهم ولابد أن تلوك ألسنتهم سيرته وأحكامه، ويعملوا على طعنه والتعريض في قضائه.

* قيل لشريح رحمه الله: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت ونصف الناس عليّ غضبان! وقال له رجل يوماً: قضيت عليّ بالجور ولَيُدْخِلَنّكَ الله النارَ! فقال: إذاً يدخلها سبعة قبلي، من ولاّني، ومَنْ علّمني هذا الحكم، ومَنْ جاء بك مدّعياً، والشاهدان، والمزكّيان.

* ودخل رجل على الشعبي في مجلس القضاء ومعه امرأته، وهي من أجمل النساء، فاختصما إليه، فأَدْلت المرأة بحجتها وأحضرت بينتها، فقال الشعبي للزوج: هل عندك من حجة تدفع قولها؟ فأنشأ يقول:

فُتِنَ الشّعبيُّ لّما ... رفعَ الطرْفَ إليها
فَتَنَتْه ببَنانٍ ... وبخَطّيْ حاجبَيْها
قال للجلُوَاز قرّبها ... وأحْضِرْ شاهِدَيْها
ومَشَتْ مَشْياً رويداً ... ثمّ هزّتْ مَنْكبَيْها
فقضى جوراً على الخَصْم ... ولم يقْضِ عليها

كيف لو أبْصرَ منها نَحْرها أو ساعدَيْها؟
لَصَبَا حتىٰ تراه ساجداً بين يديها!

* الجلواز: الشرطي.

فتناشدها الناس وتداولوها، ولما انصرف الشعبي من مجلس القضاء، مرّ بخادمة تغسل الثياب وهي تقول: فتن الشعبي لّما، فتن الشعبي لّما، ولم تعرف بقية البيت، فَلَقّنَها الشعبي وقال: رفع الطرف إليها، ثم قال: أبعده الله أمّا أنا فما قضيْتُ إلا بالحق، ولما دخل الشعبي علىٰ عبدالملك ابن مروان، نظر إليه وتبسّمَ وقال:

فتن الشعبي لّما رفع الطرف إليها!

ثم قال: ما فعلت بقائل هذه الأبيات؟ فقال: أوْجعتُه ضرباً يا أمير المؤمنين بما انتهك من حُرْمتي في مجلس الحكومة، وبما افترىٰ به عليّ، فقال له: أحْسنْتَ!

* ويرُوىٰ أنّ الشعبي اضّطر إلىٰ الاستعفاء من القضاء بعد أن ولع الناس بهذه الأبيات وتناشدوها!

* ووقف رجل مع امرأته أمام أحد القضاة، فكأن القاضي مال إليها، فشعر الزوج بذلك بعد أن سمع القاضي يقول: يعمد أحدكم إلىٰ المرأة الكريمة فيتزوجها ثم يُسيء إليها! فقال: أصلح الله القاضي، إني شككت في هذه أهي زوجتي، ـ وكانت منتقبة ـ فمرها بأن تكشف عن وجهها، فأسفرت عن وجه خَشِنٍ كريهٍ، فقال القاضي: قومي، كلام مظلوم ووجه ظالم!

تأملات

* المرأة تضع كيس نقودها في يدها حتىٰ تراه النساء، والرجل يخفيه في جيبه حتىٰ لا تراه امرأته!

* مالي أراك علىٰ الكرسي منتفخاً إذا كان فيك احتباس الريح فاحتقن!

أول مَنْ جارَ في القضاء

* قيل إن أول قاضٍ جار في القضاء بلال بن أبي بردة، كان أمير البصرة وقاضياً فيها، ولم تكن سيرته في القضاء محمودة، وكان معروفاً بالجور، بخيلاً على الطعام، محتالاً خبيثاً، أصابه يوماً داءٌ، فوُصفـله السمن، فكان يجلس فيه ثم يأمر ببيعه، فترك أهل البصرة أكل السمن! وكان بلال يقول: ربما يُقدّم إليّ خصْمان، فأجد أحدهما أخفَّ على قلبي من الآخر فأحكم له! وبلا بينة!

* وقَدّم رجلٌ إلى بلال رجلاً في دْين له عليه، فأقّر الرجل بالدين، وكان بلال صديقاً للرجل، فقال المدعي: يعطيني حقي أو تحبسه بإقراره، فقال القاضي: إنه مفلس، قال: لم يذكر إفلاسه، قال وما حاجته إلى ذِكْره وأنا عارف به؟ فإن شئت أحبسُه، فالتزمْ نفقة عياله، فانصرف الرجل وترك خصمه!

* وأمر بلال ذات يوم داود بن أبي هند أن يحضره عند تقدّم الخصوم إليه، فإن حكم بخطأ رمى بحصاة فيرجع بلال، فتقدم إليه مولى له ينازع رجلاً، فحكم لمولاه ظلماً، فرمى داود بحصاة فلم يرجع، ثم بأخرى، فقال له بلال: ليس هذا مما تُرْمى له الحصاة، هذا مولاي! - الأوائل العسكري -.

* وفد بلال بن أبي بردة على عمر بن عبدالعزيز رحمه الله، فلزم سارية من سواري المسجد يصلي إليها، يُحسن الركوع والخشوع، وعمر ينظر إليه، فقال عمر للعلاء بن المغيرة ائتني بخبر الرجل، فقال: أفعل، فأتاه وهو يصلي بين المغرب والعشاء، فقال له: اشفع صلاتك فإن لي إليك حاجة، فلما سلم من صلاته قال له العلاء: تعرف منزلتي وموضعي من أمير المؤمنين.. فإن أشرت عليه أن يوليك العراق ما تجعل لي؟! قال: عمالتي سنة! - وكان مبلغها عشرين ومائة ألف - قال: فاكتب لي على ذلك خطاً، فقام من وقته فكتب له خطاً بذلك، فحمل ذلك الخط إلى عمر بنُ عبدالعزيز، فلما قرأه كتب إلى عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب، وكان والياً على الكوفة: أما بعد فإن بلالاً غرنا بالله، فكدنا نغتر به، ثم اختبرناه فوجدناه خبثاً كله!!

* يروى أن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري كان في حبس الحجاج، وكان يعذبه، وكان كل من مات من الحبس رفع خبره إلى الحجاج، فيأمر بإخراجه وتسليمه إلى أهله، فقال بلال للسجان: خذ مني عشرة آلاف درهم وأخرج اسمي إلى الحجاج في الموتى، فإذا أمرك بتسليمي إلى أهلي هربت في الأرض فلم يعرف الحجاج خبري، وإن شئت أن تهرب معي فافعل، وعليّ غناك أبداً! فأخذ السجان المال ورفع اسمه في الموتى! فقال الحجاج: مثل هذا لا يجوز أن يخرج إلى أهله حتى أراه! هاته، فعاد إلى بلال فقال: اعهد قال: وما الخبر؟ قال: إن الحجاج قال: كيت وكيت، فإن لم أحضرك إليه ميتاً قتلني، وعلم أني أردت الحيلة عليه، ولابد أن أقتلك خنقاً! فبكى بلال وسأله أن لا يفعل! فلم يكن إلى ذلك طريق فأوصى وصلى فأخذه السجان وخنقه وأخرجه إلى الحجاج، فلما رآه ميتاً قال: سلمه إلى أهله، فأخذوه وقد اشترى القتل لنفسه بعشرة آلاف درهم ورجعت الحيلة عليه!

* ومما جاء في ظلم القضاة وتجنبهم سفينة الحق والعدل، وركوبهم لجّة الباطل والجور ما قاله أحد الشعراء:

إذا خانَ الأميرُ وكاتباه ... وقاضي الأرض داهَن في القضاءِ

فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ ... لقاضي الأرض مِن قاضي السماءِ!

* وحكي أن ملكاً أصيب بمرض أعجز الأطباء، فقال لهم يوماً: إنكم تغشونني فإن داويتموني وإلا قتلتكم! فأجمعوا على أن يقولوا: إنّ دواءك أن تأخذ صبياً من أبناء العشر، فيأخذ أحد أبويه رأسه، والآخر رجليه، وتذبحه على موضع علتك وتشرب دمه، بطيب نفس منهما، وقالوا: قد تحققنا أنه لا يوجد! فقال: اطلبوا من يأتيني بابن هكذا، فأمر فنادوا في البلدان، فاتفق أن رجلاً كان إذا وُلد له وَلد وبلغ عشر سنين يموت لا محالة، وكان فقيراً، وكان له ابن شارف العشر، فقال لامرأته: تعالي نحمل هذا الابن إلى الملك ونأخذ المال، فإن هذا يموت لا محالة، فرضيا بذلك وحملاه إليه، وأخذ أحدهما برأسه والآخر برجليه، وأخذ الملك السكين، فلمّا همّ بذبحه، ضحك الصبي!

فقال الملك: مِمّ تضحك وأنت مقتول؟ فقال: رأيت الصبي أحْنى الخلْق عليه أُمُّه، ترضعه وتقيه بنفسها، ثم أبوه يحْميه، وإذا كبر فالملك يتولى أمره، وقد رأيتكم ثلاثتكم اجْتمعتم على قَتْلي، فإلى من المشْتَكى؟ فتوجع الملك لقوله ورمى السكين، فانفجر جرحه لما دهَمَه وبرأ، فخلّى سبيل الصبي وتبنّاه!

* ومما جاء في رد القضاة لبعض الشهود، أن معلماً شهد عند القاضي سوار بن عبدالله فقال له القاضي: لا أجيز شهادتك! فقال: ولِمَ؟ قال: لأنك تأخذ على كتاب الله تعالى الأجرة، فقال: وأنت تأخذها على القضاء؟! فقال: أنا أُكرهت! فقال: هبْ أنّك مُكْرَهٌ على القضاء هل أُكْرِهْتَ على أخذ الأجرة؟! فأجاز شهادته!

* كان في بني إسرائيل قاض عادل، فلما حضرته الوفاة أوصى إنهم إذا دفنوه أن ينبشوا قبره بعد مدة، فينظروا هل تغير منه شيء أم لا؟ وقال: إني لم أجرْ قط في حكم، ولم أُحابِ فيه، غير أنه دخل عليّ خصمان كان أحدهما صديقاً لي، فجعلت أصغي إليه بأذني أكثر من إصغائي إلى الآخر، ففعلوا ما أوصاهم به، فرأوا أذنه قد أكلها التراب، ولم يتغير جسده!

حكم قراقوش

كان أبو سعيد قرَاقُوشُ بن عبدالله الأسدي، الملقب بهاء الدين؛ خادم صلاح الدين، وقيل خادم أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين، فأعتقه. ولما استقلَّ صلاحُ الدين بالديار المصرية جعله زمام القصر، ثم ناب عنه مدة بالديار المصرية، وفوَّض أمورها إليه، واعتمد في تدبير أحوالها عليه، وكان رجلاً مسعوداً وصاحب همة عالية، وهو الذي بنى السور المحيط بالقاهرة ومصر وما بينهما وبنى قلعة الجبل، وبنى القناطر التي بالجيزة على طريق الأهرام، وهي آثار دالة على علو الهمة، وكان حسن المقاصد جميل النية. ولما أخذ صلاح الدين مدينة عكا من الفرنج سلمها إليه، ثم لما عادوا واستولوا عليها وقع أسيراً في أيديهم، ويقال إنه افتكَّ نفسه بعشرة آلاف دينار. والناس ينسبون إليه أحكاماً عجيبة في ولايته، حتى إن الأسعد بن مَمّاتي له جزء لطيف سماه «الفاشوش في أحكام قراقوش»

وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه، والظاهر أنها موضوعة، فإن صلاح الدين كان معتمداً في أحوال المملكة عليه، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فَوَّضها إليه!

* وقراقُوش: لفظ تركي تفسيره بالعربي العُقاب، الطائر المعروف، وبه سمي الإنسان، توفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة. الفاشوش: من فشا الخبر إذا ذاع.

* جاء رجل إلى قراقوش يشكو إليه من مماطلة غريمه في دفع دين له، فأمر قراقوش بإحضار المدين وسأله عن سبب تأخره في رد الدين لصاحبه.. فقال الرجل: إنني رجل فقير وكلما أتاني بعض المال القليل أذهب إلى دائني لأعطيه جزءاً من دينه ولكنني دائماً لا أجده.. وعندما أصرف المال يأتيني ويطالبني بماله فماذا أفعل له؟! فقال قراقوش: احبسوا صاحب الحق حتى إذا حصل المديون على شيء من المال أمكنه أن يذهب به إلى موضع معلوم ويدفع ما عليه!!

* دخل رجلان على قراقوش وادعى أحدهما على الآخر أنه عض أذنه.. فسأله قراقوش عن ذلك فقال: إنه هو الذي عض أذن نفسه.. فقام قراقوش ودخل بيته وجلس على كرسي وأخذ يحاول أن يعض أذنه فلم يفلح في ذلك ومال به الكرسي من كثرة التفاته ومحاولاته من أجل عض أذنه فوقع على يده فانكسرت! وخرج وهو بهذه الحالة وأمر بضرب المدعى عليه.. وقال: أنت الذي عضضت إذن الرجل هذا وكسرت ذراعي زيادة على ذلك!!

تأملات

* أنت تسب امرأتك إذا امتدحْتَ امرأة أخرى أمامها!

* السعادة تكمن في بيتك، فلا تبحث عنها في حديقة الغرباء.

* أذكى الأزواج وألطفهم معشراً، هو الذي ينادي زوجته مهما بلغ بها العمر: يا صغيرتي!

من نوادر القضاة وطرائفهم

* كان القاضي عبدالعزيز بن أحمد الجزري ظريفاً لطيفاً، تحاكم إليه وكيلان فبكىٰ أحدهما في أثناء الخصومة فقال له القاضي: أرني وكالتك، فناوله فقرأها ثم قال له: لم يجعل إليك أن تبكي عنه! فاستضحك الناس ونهض الوكيل خجلاً!

* قال إياس بن معاوية: ما غلبني أحدٌ سوىٰ رجل واحد، وذلك أني كنت في مجلس القضاء بالبصرة، فدخل عليَّ رجلٌ شهد عندي أنّ البستان الفلاني ـ وذكر حدوده ـ هو ملك فلان، فقلت له: كم عدد شجره؟ فسكت، ثمّ قال: منذ كم يحكم سيّدنا القاضي في هذا المجلس؟ فقلت: منذ كذا، فقال: كم عدد خشب سقفه؟ فقلت له: الحقّ معك، وأجزت شهادته!

* أتىٰ أعرابي يوماً إلىٰ شريح القاضي، فقال: ممن أنت؟ فقال: شريح إنما أنا ممن أنعم الله عليه بالإسلام، فخرج الأعرابي وهو يقول: والله ما رأيت قاضيكم يدري ممن هو!

* وجاء إلىٰ شريح شاهدان فقال أحدهما: أشهد عليه بكذا وكذا، وأشهد أنه ظالم! فقال له شريح: قم، فلا شهادة لك، وما يدريك أنه ظالم؟ وكان شريح يسأل الخصم عن الشاهد، فإن قال: هو رضا، أجازه عليه.

* قال معبد بن خالد: لقيني شريح القاضي، فقال: أكلت اليوم لحماً قد أتىٰ عليه عشر سنين! فقلت: إنك لا تزال تأتينا بالعجائب، فقال: كانت عندي ناقة منذ عشر سنين، فنحرتها اليوم فأكلتها!

* وكان شريح إذا لقيه الرجل فقال: كيف أنتم؟ قال: بنعمة الله ومواهبه.

* وكان يقول لأصحابه: قوموا بنا ننظر إلىٰ الإبل كيف خلقت!

* جاءت امرأة إلىٰ القاضي وذكرت أن زوجها طلقها فقال القاضي: لك بينة؟ قالت: نعم، جار لنا. قال فأحضريه. فلما حضر قال القاضي: أسمعت طلاق هذه المرأة؟ فقال: يا سيدي خرجت إلىٰ السوق فاشتريت لحما وخبزاً ودبساً وزعفراناً. . فقال له القاضي: ما

سألتك عن هذا. . هل سمعت طلاق هذه المرأة؟ قال: ثم تركته في البيت وعدت فاشتريت حطباً وخلاً. . فقال: دع عنك هذا. . فقال: ما أحسن الحديث من أوله. . ثم قال: جلت في الدار جولة فسمعت زعقاتهم وسمعت الطلاق الثالث، فما أدري أهي طلقته أم هو طلقها؟!

* رفعت امرأه قضيتها مع زوجها إلىٰ القاضي تبغي الفرقة وزعمت أنه يبول في الفراش كل ليلة، فقال الرجل للقاضي: يا سيدي لا تعجل حتىٰ أقص عليك قصتي: إني أرىٰ في منامي كأني في جزيرة في البحر وفيها قصر عال، وفوق القصر قبة عالية، وفوق القبة جمل وأنا علىٰ ظهر الجمل، وأن الجمل يطأطئ برأسه ليشرب من ماء البحر! فلما رأيت ذلك بُلْت من شدة الخوف! فلما سمع القاضي ذلك بال في ثيابه وقال: يا هذا أنا قد أخذني البول من هول حديثك، فكيف بمن يرىٰ الأمر عياناً؟!!

* اشتكت الزوجة.وكانت دميمة الوجه زوجها إلىٰ الوالي لأنه ضربها وأصابها بعاهة. . وقبل أن ينطق بالحكم قالت له المرأة الدميمة: أظنك يا سيدي ستنصفني وتضعه في السجن!! فرد الوالي وهو ينظر إليها متأذياً من شكلها: حقيقة سأحكم عليه بالسجن. . لا لأنه ضربك، ولكن شفقة عليه!!

* ماتت أم الوالي فجاء الناس يعزونه. . ودخل عليهم أحد الحمقىٰ يضحك فقالوا له: ويلك تضحك وأم مولانا ماتت؟! فأجابهم: لقد أبلغوني أن الوالي نفسه مات فلما عرفت أنها أمه. . فرحت بنجاة الوالي حفظه الله!!

* وقالوا: لما مات حمار القاضي خرج البلد كله مشيعاً، فلما مات القاضي نفسه، لم يخرج أحد. . !

* جاء رجل إلىٰ أبي حازم القاضي فقال: إنّ الشيطان يأتيني فيقول: إنك قد طلقت امرأتك فيشككني، فقال له: أوَ ليس قد طلقتها؟ قال: لا، قال: ألم تأتني أمس فتطلقها عندي؟ فقال: والله ما جئتك إلا اليوم ولا طلقتها بوجه من الوجوه، قال: فاحلف للشيطان كما حلفت لي وأنت في عافية!!

* حُكي أن أعرابياً أتىٰ ابن أبي ذئب، فسأله عن مسألةِ طلاق، فأفتاه بطلاق امرأته، فقال: انظر حسناً، قال: قد نظرتُ وقد بانتْ منك! فولّىٰ الأعرابي وهو يقول:

أتيتُ ابن ذِئْبٍ أبتغي الفقهَ عنده ... فطلّقَ حتىٰ البَتّ تَبّتْ أناملُهْ

أُطلّقُ في فتوىٰ ابن ذِئْب حَليلتي ... وعند ابن ذِئْبٍ أهلُهُ وحلائِلُه؟!

* اشتهر الإمام محمد عبده أيام توليه القضاء.. بأنه إذا أراد الحكم علىٰ متهم بالبراءة.. رفع عمامته إلىٰ ظاهر رأسه.. وإذا أراد الحكم بالسجن علىٰ متهم.. عوج العمامة بحيث تغطي نصف جبهته.. فوقف ذات يوم ليتلو حكماً علىٰ متهم.. فمد يده إلىٰ عمامته.. فصاح المتهم: سايق عليك النبي.. متعوجهاش لقدام!!

* كان القاضي والأديب حفني ناصيف ينتظر دوره في الترقية إلىٰ مكان خلا بموت صاحبه.. فعلم بذلك قاض بعده في الترتيب.. فسعىٰ لدىٰ ولاة الأمور خفية حتىٰ قلب حفني ناصيف وظفر بالوظيفة.. فأرسل إليه حفني بالبرقية التالية: أهنئكم «بقلبي»!!

* قابل حفني ناصيف أحد الشحاذين في الطريق.. فمد الشحاذ يده إليه وراح يقول له في ذلة ومسكنة: مسكين وحكم علي الزمان.. فقال حفني له: طيب ما تروح تستأنف يا أخي!!

* ولّي يحيىٰ بن أكثم قاضياً علىٰ أهل جبلة فبلغه أن الرشيد انحدر إلىٰ البصرة، فقال لأهل جبلة: إذا اجتاز الرشيد فاذكروني عنده بخير، فوعدوه بذلك، فلما جاء الرشيد تقاعدوا عنه، فسرح القاضي لحيته، وكبر عمّته، وخرج، فرأىٰ الرشيدومعه أبو يوسف القاضي، فقال: يا أمير المؤمنين، نعم القاضي قاضي جبلة! عَدَلَ فينا وفعل كذا وكذا، وجعل يثني علىٰ نفسه، فلما رآه أبو يوسف عرفه فضحك، فقال له الرشيد: مّم تضحك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، المثني علىٰ القاضي هو القاضي، فضحك الرشيد حتىٰ فحص برجله الأرض، ثم أمر بعزله فعُزل!

* تقدم رجلان إلىٰ أبي ضمضم القاضي فادعىٰ أحدهما علىٰ الآخر طنبوراً، وأنكر

المدعىٰ عليه، فقال المدعي: لي بينة، فجاء برجلين فشهدا له، فقال المدعىٰ عليه: أيها القاضي سلهما عن صناعتهما، فقال أحدهما: إنه نباذ - يصنع النبيذ - وقال الآخر: إنه قواد! فالتفت القاضي إلىٰ المدعىٰ عليه فقال له: أتريد علىٰ طنبور أعدل من هذين؟! قم فأعطه طنبوره!

* اختصم رجلان في شاة وكل واحد منهما قد أخذ بأذنها، فجاء رجل فقالا: قد رضينا بحكمك، فحلّفهما ألا يرجعا فيما يحكم به، فحَلَفا، فقال: خلّياها، فخلياها، فأخذ بأذنها وساقها إلىٰ بيته ومضىٰ، فجعلا ينظران إليه، ولا يقدران علىٰ كلامه!

* التفت القاضي إلىٰ أحد الشهود فرآه قصير القامة، فحلّفه علىٰ قول الحق في شهادته.. وبعد حلف اليمين، بدأ بالإدلاء بالشهادة، فسأله القاضي: ما اسمك؟ فقال: نخلة!.. قال القاضي: باشرنا في الكذب؟!!

* ولّي أعرابي ناحية فخطب: ألا إني لا أوتىٰ بظالم ولا مظلوم إلا أوجعتهما عقوبة، فتعاطىٰ الناس بينهم الإنصاف، ولم يترافعوا إليه في حق ولا باطل، حذراً من عقوبته!

* وكان بعض الولاة إذا اشتبه عليه حكمٌ حبسَ الخصمين حتىٰ يصطلحا، ويقول: دواء الّلبْس الحبْس!

* جاءت امرأة إلىٰ قاض فقالت: مات زوجي وترك أبويه وولداً وامرأة وأهلاً وله مال، فقال: لأبويه الثّكل، ولولديه اليتْم، ولامرأته الخلف، ولأهله القلة والدلة، والمال يُحمل إلينا حتىٰ لا تقع بينكم الخصومة!

* وذُكر أن شخصاً، يقال له إبراهيم، أصبح في منزله يوماً جُنُباً، ليس معه شيء يدخل به الحمّام، قال: فخرجت رَجاءَ صديق يُدخلني الحمّام، فإذا بغريم علىٰ بابي، يطالبني بخمسة دنانير، فحدثته حديثي، فقال: ما نفترق إلا إلىٰ القاضي، فتوجّهنا إلىٰ القاضي أبي عبيد، فوجدناه خارجاً من المسجد، وبين يديه غلامٌ أسودُ خَصِيٌّ، فقال له خَصْمي: أيّد الله القاضي، انظر في أمري، فإني بتُّ علىٰ بابك! والقاضي مطرق لا ينظر إلينا، حتىٰ دخل داره، وليس علىٰ بابه حاجب ولا أحد، ثم خرج إلينا الغلام، وقال:

ادخلا، فدخلنا فوجدناه جالساً في وسَط مَجْلِسه، فقال: تكلما، فسبقت أنا، فصرت المدَّعي، فقلت: أيّد الله القاضي: لي على هذا خمسة دنانير! فقال: مصريّة؟ فقلت: نعم. فقال: حالّة؟ فقلت: نعم. فقال للخصم: ما تقول؟ فضحك متعجّباً، فصاح القاضي صَيحَةً ملأت الدار! وقال: مِمَّ تضحك؟ لا أضحك اللّهُ سنَّك، ويحَك! تضحك في مجلس، الله مُطّلعٌ عليك فيه، ويحك! تضحك وقاضيك بين الجنة والنار! فأرعب القاضي الرجل، وقال: أنا أدفع إليه، فقال: قُم، فقمنا، فلما خرج قال لي: امض؛ فأنت في حِلٍّ، فقلت: ما نفترق إلا بخمسة دنانير، ارجع بنا إلى القاضي! فأعطاني ديناراً، ومرض ثلاثة أشهر، فكنت إذا عُدْته، يقول لي: صيحة القاضي في قلبي إلى الساعة، وأحسِبها تقتلني!

* ويروى عن القاضي يحيى بن أكثم أنّه كان يحسد حسداً شديداً، وكان مفنناً، فكان إذا نظر إلى رجل يحفظ الفقه سأله عن الحديث، وإذا رآه يحفظ الحديث سأله عن النحو، وإذا رآه يعلم النحو سأله عن الكلام، ليقطعه ويخجله، فدخل عليه رجل من أهل خراسان ذكي حافظ، فناظره، فرآه مفنناً، فقال له: نظرت في الحديث؟ قال: نعم، قال: ما تحفظ من الأصول؟ قال: أحفظ عن شريك عن أبي إسحاق عن الحارث أن علياً رضي الله عنه رجم لوطيّاً! فأمسك ولم يكلمه!! وكان يحيى يرمى بذلك!

* قال المبرد: كنت في مجلس أبي عاصم النبيل، وكان أبو بكر بن يحيى بن أكثم حاضراً، فنازع غلاماً فارتفع الصوت، فقال أبو عاصم: مهيم؟ فقالوا: هذا أبو بكر بن يحيى بن أكثم ينازع غلاماً، فقال: إن يسرق فقد سرق أب له من قبل!

تأملات

* حتى يشعر بك الآخرون، عليك أن تشعرهم بوجودهم.

* البشر مخلوقات عاطفية، تجذبهم الكلمة الطيبة وينفّرهم التوبيخ والتقريع.

من حماقات القضاة والولاة!

* كان أبو العباس سهل بن بشر، ممن ارتفعت في الدولة الديلمية رتبته، وعلت درجته ومنزلته، وضمن واسط والأهواز، على حماقة متمكّنة، ورقاعة متبيّنة. وكان دأبه تغليط الكتّاب، والردّ عليهم، وتغيير كتبهم التي ينشؤونها عنه، وعكس حساباتهم التي يرفعونها إليه، ويعرضونها عليه، بالمحال الفاسد، والمستحيل الباطل. ولقد قال يوماً لأحدهم: ويلك، لَمْ يجب أن تفصل في هذا الموضع، هذا التفصيل الواسع، كان يجب أن يكون بقدر ما تسلكه نملة، وقد جعلته بحيث تسلكه حيّة، أيش حية بل شاة، أيش شاة بل دابة، أيش دابة، بل جمل، أيش جمل بل فيل، أيش فيل بل كركدن، ثم خرّق الكتاب، ورمى به!!

وحكى القاضي أبو علي التنوخي، قال: رأيته عدّة دفعات، لا أحصيها كثرة، يجلس في مجلس العمل، فإذا كثر عليه الشغل، وضاق به صدره، وغلبت عليه سوداؤه، تركه مفكراً، ثم أخذ الدرج - الورق - الذي بين يديه، وخرّق منه، وفتله، وتخلّل به، وأخرجه من فيه، وشمّه، ثم رمى به حيث وقع من حجور الناس، أو وجوههم، أو لحاهم، أو عمائمهم. فاتفق في بعض الأيام، أن وقع من ذلك واحدة في لحية أحمد بن عمر الطالقاني الكاتب، فصوّت من فيه، كصوت البوق! فتنبّه سهل بن بشر من غفلته، وقال: ما هذا؟ وشتمه أفحش شتم، وسبّه أقبح سبّ. فقال له: نصب سيدنا الأستاذ في لحيتي هذا المطرد - المطرد: الرمح القصير - فظننت أنّه يريد الخروج إلى بعض الأسفار، فضربت بالبوق ليعلم ذلك، فيصحبه من يريد أن يصحبه، ويسير معه. فضحك منه الحاضرون!!

* وكان أحد القضاة يحكم اليوم في شيء بحكم، وفي الغد يحكم في مثله بخلافه، فقيل له في ذلك، فقال: القضاء بُخُوت وأرزاق، مَنْ رُزق شيئاً أخذه!

* وقال القاضي التنوخي: كان سهل حديداً، سفيهاً، شتّاماً للغلمان، ولم يكن يصبر

علىٰ خدمته أحد! وشتم يوماً بعض الفراشين، فتداخلت الفراش حميّة الإسلام، ودخل بقربته إلىٰ حجرة خالية، بعيدة عن الدار الكبيرة التي فيها الغلمان، وقام سهل وراءه، يتبعه ويشتمه!! ورأىٰ الفراش خلو الموضع من غيرهما، فصفعه بالقربة، إلىٰ أن قطعها علىٰ قفاه جميعها! ووقع سهل مغشياً عليه، فداس بطنه، ولَكَم جنوبه، فلما شفىٰ نفسه منه، تركه يتخبط وخرج، فأخذ ما كان له في خزانة الفرّاشين وانصرف!! ولما أفاق سهل بعد ساعة وعرف ما جرىٰ عليه، طلب الفراش بأصحاب الشرط والمراكز والجوازات، فلم يوقف له علىٰ خبر!!

* تقدم رجلان إلىٰ أحد القضاة وادّعىٰ أحدهما علىٰ الآخر شيئاً فقال للمدعىٰ عليه: ما تقول؟ فضرط بفمه - أي أخرج من بين شفتينه صوتاً، علىٰ جهة الاستهزاء، - وتسمّىٰ: عفطة! - فقال المدعي: يسخر بك يا أيها القاضي! فقال القاضي: اصفع يا غلام. فقال الغلام: من أصفع، الذي سخر منك، أم الذي ضرط عليك؟ فقال: بل دعهما، واصفع نفسك!!

تأديب مَنْ يزعج النائمين

* كانَ أَحدُ القُضاة نائماً وقتَ القَيلولَةِ، فَمرَّ بهِ رَجل غث يَصيحُ صياحاً مُزعجاً: شرَّاكُ النِّعالِ. . شرَّاكُ النِّعالِ - مصلح النعال - فأيقظه. فقال لغلامه: أخرجْ كلَّ نَعْل في الدَّار إلىٰ هذا الرَّجل ليَرُمَّها ويُصلِحَها، ثم أعطىٰ الشراك أجرة، ومضىٰ. فلما كان من الغد أتىٰ ذلك الرجل، في مثل ذلك الوقت، والقاضي نائمٌ، فصاحَ وأَنبهَهُ. فقال لغلامه: أَدْخله. فأدخله، فقال له: يا ابن الفاعِلَةِ. . أمس أصلحت لنا كل نعل عندنا. وعُدت إلينا اليوم تصيح علىٰ بابنا، أبلَغَكَ أنَّنا البارحة تصافعنا بالنِّعال وقطعناها؟ وقد عُدْتَ إلينا اليوم لإصلاحها! يا غُلام، قفاهُ! فما زال الغُلامُ يصفعُهُ حتىٰ حَلَفَ ألَّا يعود إلىٰ الدَّرب!

قضاة الأمس.. وقضاة اليوم!!

كـان الـقـضـاةُ لـهـم عَـدلٌ ومـنـقـبـةٌ ... فـأصـبـحـوا شَـفـرةً يُـبْـرَىٰ بـهـا الـقَـلـمُ
صُـمٌّ إذا مُـدِحُـوا بُـكـمٌ إذا سُـئِـلُـوا ... عُـمـيٌ فـلا نَـظَـرٌ يَـسـمُـو ولا هِـمَـمُ
رَضُـوا مـن الـدِّيـن والـدُّنيـا بـطَـنْـطَـنـةٍ ... كـأنّـهـم جَـرَس سِـيـقَـتْ بـه الـنَّـعَـمُ
لَـهْـفـي عـلـىٰ الـدِّيـن والـدُّنـيـا لـقد ذَهَـبـا ... دِيـنٌ ودُنْـيـا ولا عَـدْلٌ ولا كَـرَمُ
هـذا الـزَّمـانُ الـذي كـنّـا نُـحـذِّرُه ... طـابَ الـمـمـاتُ ألا لِـلـمـوتِ فـاغـتـنـمُـوا
تـالـلَّـهِ لـو قـد رآهُ مَـن قَـضَـىٰ ومَـضَـىٰ ... بَـكَوْا ونـاحُـوا علىٰ الإسلام بل لَطَمُوا!!

* وشتم سهل يوماً فرّاشاً، فردّ عليه، فنهض إليه، وعدا من بين يديه، فقال له: بحقّ محمد نبيّك، قف لي حتىٰ ألحقك! فقال له: بحق عيسىٰ ربك، ارجع عنّي واتركني! ومازالا يعدوان، حوالي البستان، وعثر الفراش، فوقعت عمامته، فأخذها سهل، ومازال يعضّها ويخرّقها ويقول: اشتفيت والله! ثم رجع فجلس في مكانه!!

* كان القاضي الرشيد بن الزبير علىٰ جلالته وفضله ومنزلتهِ من العلم، قبيح المنظر، أسودَ الجلدة، جَهْمَ الوَجْهِ، سَمْجَ الخِلْقَة - أي بَشِعَها - ذا شَفَة غليظة، وأَنْفٍ مبسوط، كخِلْقَةِ الزُّنوج، قصيراً. قال ياقوت الحموي: حدثني الشريف أبو عبدالله محمد بن أبي محمد العزيزُ الإدريسيُّ الحَسَنيُّ الصعيديُّ، عن أبيه قال: كنت أنا والرشيدُ بن الزبير والفقيه سُليمان الدَّيلمي، نجتمع بالقاهرة في منزل واحد، فغاب عنا الرشيد، وطال انتظارنا له، وكان ذلك في عُنْفُوان شبابه، وإبَّان صباه، وهبوب صباه، فجاءنا وقد مضىٰ معظم النهار، فقلنا له: ما أَبطأَ بك عنا؟ فتبسم وقال: لا تسألوا عما جرىٰ عليَّ اليوم. فقلنا: لابُدَّ من ذلك، فتمنَّع، وألححنا عليه فقال: مررتُ اليوم بالموضع الفلاني، وإذا امرأةٌ شابَّةٌ صبيحة الوجه، وضيئةُ المنظر، حُسَّانَةُ الخَلْق - أي بالغةُ الحسن جداً - ظريفة الشمائل، فلما رأتني، نظرت إليَّ نَظَرَ مُطمع لي في نفسِه، فتوهَّمتُ أنني وقعتُ

منهابموقع، ونَسيتُ نفسي!! وأشارتْ إليَّ بطَرْفها، فتبعتُها وهي تدخُلُ في سِكَّة وتخرج من أخرىٰ، حتىٰ دخلت داراً، وأشارت إليَّ فدخلتُ، ورَفَعَتْ النِّقَاب عن وجه كالقمر في ليلة تَمَامه! ثم صَفَّقَت بيديها مُنادِيةً: يا ستَّ الدار، فنزلت إليها طفلةٌ كأنها فِلْقَةُ قَمَر، وقالت لها: إن رَجَعْتِ تَبُولين في الفراش، تَرَكتُ سيدنا القاضي يأكُلُكِ! ثم التفَتَت إليَّ وقالت: لا أعدمني الله فَضْلَ سيدنا القاضي، أدام الله عِزَّه، فخرجتُ وأنا خزيانُ خَجِلٌ لا أهتدي إلىٰ الطريق!

* قال القاضي التنوخي: وحدّثني عبيدالله بن محمد الصروي الشاعر، وكان منقطعاً إلىٰ سهل، قال: رأيته يوماً، وقد سقط غراب، علىٰ حائط صحن داره، فنعب، فتطيّر من صياحه، وأمر بصفع البوّاب، لِمَ مكّن الغراب من دخول الدار!؟

* قال بعض قواد الديلم: كاتبي أحذق الناس بأمر الدواب، والضياع، وشراء الأمتعة والحوائج، وما له عيب، إلا أنه لا يقرأ، ولا يكتب!!

* ورؤي أحد كتاب الديلم مجروحاً، فقيل له: ما لك؟ قال: جاء إلىٰ الأمير اليوم، كتاب من وكيله في إقطاعه، فرمىٰ به إليّ، وقال: اقرأه، وكنت قبل ذلك، إذا جاءه كتاب، أخرج إلىٰ المعلم، حتىٰ يقرأه عليّ وأحفظه، وأدخل، فأقرؤه عليه، فلم أقدر اليوم أن أخرج من بين يديه. فقلت له باكياً: أنا لو كنت أحسن أقرأ وأكتب، كنت أكون كاتب الأمير علي بن بويه؟! فرماني وجرحني!!

* كان بأنطاكية، عامل من قِبَل أمير حلب، وكان له كاتب أحمق، فغرق في البحر شلنديان من مراكب المسلمين التي يقصدون فيها الروم، فكتب الكاتب عن صاحبه، إلىٰ الأمير بحلب: بسم الله الرحمن الرحيم، أعلم الأمير أعزّه الله، أنّ شلنديين، أعني مركبين، صفقا، أي غرقا، من خبّ البحر، أي من شدة موجه، فهلك من فيهما، أي تلفوا! فأجابه صاحب حلب: ورد كتابك، أي وصل، وفهمناه، أي قرأناه، فأدّب كاتبك، أي اصفعه، واستبدل به، أي اصرفه، فإنّه مائق، أي أحمق، والسلام، أي قد انقضىٰ الكتاب!!

* وكان أبو سعيد ماهك بن بندار، يكتب في صدر رقاعه إلىٰ عماله وأصحابه: أطال الله بقاءك وحوائجها، فقيل له: ما معنىٰ حوائجها؟ قال: وأدام عزك وتأييدك، ويكتب في آخر الرقعة، والحمدلله، وصلىٰ الله علىٰ محمد وحاشيته، فسئل عن ذلك، فقال: ذاك علي وفاطمة، وكلهم غلمانه وحاشيته!!

* يذكر صاحب كتاب نشوار المحاضرة عن القاضي أبي القاسم عمر بن حسان بن الحسين: أنّه بلغه عن رجل قليل الغيرة، رديء الدين، كان يجمع بين زوجته، وبين أهل الفساد في منزله، قال: عشق امرأته، رجلٌ، وكان ينفق عليها في منزله، وأحلفها بحضرته، أنّها لا تطاوع زوجها علىٰ الجماع. قال: وكانا ليلة علىٰ شأنهما، في أسفل الدار التي للزوج، فصعدت المرأة إلىٰ السطح هناك، واحتبست، فلما جاءت، خاصمها العشيق، وقال لعله فعل بك زوجك كذا! فقالت: وحلفت، أنّه ما جرىٰ من ذلك شيء. وسمع الزوج الكلام، فقام يصلّي في السطح، ويصيح: الله أكبر، ليُسْمع العشيق، ويُعْلمه، أنّه لم يكن ليصلي، وهو جنب، حتىٰ يصلح بينه وبين المرأة، بذلك! ويعلق محقق الكتاب الأستاذ عبود الشالجي فيقول: قرأت في كتاب زهر الربيع للسيد نعمة الله الجزائري: أن رجلاً كانت له زوجة رقيقة الحافر، وكان يعطيها في كل يوم درهماً، فإذا عاد إلىٰ داره ظهراً، وجد مائدته عامرة بالألوان، وماتت الزوجة، فتزوج بأخرىٰ، وأعطاها الدرهم في الصباح، وعاد ظهراً، فوجد علىٰ مائدته خبزاً وبصلاً، فتعجب من ذلك، وقال لها: إن المرحومة، كانت بهذا الدرهم، تعدّ مائدة عامرة، وفي اليوم التالي، عاد ظهراً فوجد مائدته عامرة، فأثنىٰ عليها، وسألها كيف أعدّت ذلك؟ فقالت: إن أحد عشاقها، خالفه إليها بعد مبارحته الدار، وأعطاها ما صرفته علىٰ إعداد المائدة، فانتفض غاضباً وصاح بها: إذا صنعت مثل هذا الصنيع في المستقبل فلا تخبريني، لأنني غيور!! التعليق: حمار!! - نشوار المحاضرة: ٨/ ٢٣٥ - والديوث من يرىٰ المنكر علىٰ أهله ويسكت، ولا يشم رائحة الجنة.

* رفع إلىٰ أحد القضاة رجل قد جنىٰ جناية ليس لها حد منصوص في كتاب الله ولا

في السنة، فأحضر الفقهاء فسألهم عن حدّ هذه الجناية، فقالوا: الأمر لك.. فقال: فإني رأيت أن أضرب المصحف بعضه ببعض ثلاث مرات، ثم أفتحه فما خرج من شيء عملت به! قالوا له: وُفقت، ففعل بالمصحف ما ذكر، ثم فتح فخرج قوله تعالى «سنسمه على الخرطوم» فقطع أنف الرجل ثم خلى سبيله!!

* كان قاضٍ وتاجر ماشيين معاً في الطريق فرأيا أبا الغصن وأرادا أن يضحكا منه، فأوقفاه وقالا له: أخبرنا يا أبا الغصن هل غلطت مرة في الوعظ؟ فأجاب: غلطت مرتين، الأولى قلت وأنا أعظ: وقاضٍ في النار بدلاً من: «وقاضيان في النار» والثانية قلت: وإن التجار لفي جحيم بدلاً من: «وإن الفجار».

* كان بالبصرة شيوخ يشهدون بالزور، وشَرْطُ بعضهم درهم، وآخرون يشهدون وشرطهم أربعة، وآخرون شرطهم عشرون درهماً، فسئل أحدهم عن ذلك فقال: أصحاب الدرهم يشهدون ولا يَحْلفون، وأصحاب الأربعة يشهدون ويحلفون، وأمّا أصحاب العشرين فيشهدون ويحلفون ويبْهتون!

* قال ابن الوردي:

لا تَقْصِدِ القاضي إذا أَدْبَرَتْ دُنْياكَ واقْصِدْ مِنْ جَوادٍ كَريمْ
كَيْفَ تُرَجِّي الرزقَ مِنْ عِنْدِ مَنْ يُفْتي بأنَّ الفَلْسَ مالٌ عَظيمْ

ومن شعره أيضاً:

سُبْحانَ مَنْ سَخَّرَ لي حاسِدي يُحْدِثُ لي في غَيْبَتي ذكْرا
لا أَكْرَه الغِيْبَةَ من حاسدٍ يُفيدُني الشُّهْرَةَ والأَجْرا

* نظر بعض العمال في ديوانه إلى رجل يصغي إلى سرّه فأمر بضربه وحبسه! فقال كاتب الحبس: كيف أكتب قصته؟ قال: اكتب استرق السمع فأتبعه شهاب ثاقب!!

الرفس والصفع

* كان الوزير أبو العباس أحمد بن أبي نصر الخصيب ينسب إلى الطيش والتهور، وله في ذلك أخبار، وكان قد ركب يوماً فوقف له متظلم وشكا حاله فأخرج رجله من الركاب وزجّ المتظلم ورفسه في فؤاده فقتله!

* وكان قاض يأمر الخصوم بأن يصفع بعضهم بعضاً! وكان غبياً ورقيعاً!

* قال أبو علي التنوخي: كتب عبدالله بن عمر بن الحارث السراج الواسطي بحضرتي مرة، تذكرة بأضاحي يريد تفرقتها في دار صاحبه، وقد قرب عيد الأضحى: القائد ثور، وامرأته بقرة، ابنه كبش، بنته نعجة، الكاتب تيس! قال: فقلت له: الروح الأمين ألقى هذا عليك؟ فلم يدر ما أردت!!

* كان أبو العاج والياً بمدينة واسط، وكان أحمقاً، فأتاه صاحب الشرطة بقوّادة، فقال: ما هذه؟ قال: قوّادة! قال: وما تصنع؟ قال: تجمع بين الرجال والنساء! قال: لماذا؟ قال: للزنا! قال: وإنما جئتني بها لتعرّفها بداري! خلّ عنها، لعنك الله ولعنها!

* تبع داود بن المعتمر امرأة ظنها من الفواسد، فقال لها: لولا ما رأيت عليك من سيما الخير ما تبعتك! فضحكت وقالت: إنما يعتصم مثلي من مثلك بسيما الخير، فأما إذا صارت سيما الخير من سيما الشر، فالله المستعان.

تأملات

* كتبت إحدى الأديبات: الحمدلله أنني لم أُخلق رجلاً لكي لا أتزوج امرأة!

* ونارٌ لو نفختَ بها أضاءت ... ولكن أنت تنفخ في رمادِ
لقد أسمعتَ لو ناديتَ حياً ... ولكن لا حياة لمن تنادي

* الذي يدع امرأته تحكمه، لا هو رجل ولا هو امرأة، إنه لا شيء! - نابليون -

* البيت الذي تمارس فيه الدجاجة عمل الديك يصير إلى خراب!

عقد اللؤلؤ المبارك

* قال ابن الجوزي: ذُكر لنا أن منجمين حَضَرا حين وُلد أبو بكر بن عبدالباقي، فأجمعا أن عمره اثنتان وخمسون سنة، قال: وها أنا قد تجاوزت التسعين! قال: ورأيته بعد ثلاث وتسعين صحيح الحواس لم يتغير منها شيء ثابت العقل، يقرأ الخط الدقيق من بُعد! ودخلنا عليه قبل موته بمُدَيدة فقال: قد نزلت في أذني مادة، فقرأ علينا من حديثه، وبقي على هذا نحواً من شهرين، ثم زال ذلك وعاد إلى الصحة، ثم مرض فأوصى أن يعمق قبره زيادة على العادة، وأن يكتب عليه ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) ﴾ (ص: ٦٧ - ٦٨) وبقي ثلاثة أيام قبل موته لا يفتر من قراءة القرآن!

* وحدث القاضي أبو بكر بن عبدالباقي عن نفسه فقال: كنت مجاوراً بمكة - حرسها الله تعالى - فأصابني يوماً جوع شديد لم أجد شيئاً أدفع به عني الجوع، فوجدت كيساً من إبريسم مشدوداً بشرابة إبريسم أيضاً، فأخذته وجئت إلى بيتي، فحللته فوجدت فيه عقداً من لؤلؤ لم أر مثله! فخرجت فإذا شيخ ينادي عليه ومعه خرقة فيها خمسمائة دينار، وهو يقول: هذا لمن يردُّ علينا الكيس الذي فيه اللؤلؤ، فقلت: أنا محتاج، وأنا جائع، فآخذ هذا الذهب فأنتفع به، وأرد عليه الكيس، فقلت له: تعال إليَّ، وجئت به إلى بيتي، فأعطاني علامة الكيس، وعلامة الشرابة، وعلامة اللؤلؤ، وعدده، والخيط الذي هو مشدود به، فأخرجته ودفعته إليه. فسلَّم إليَّ خمسمائة دينار، فما أخذتها، وقلت: يجب أن أعيده إليك ولا آخذ له جزاءً، فقال لي: لابد أن تأخذ، وألح عليَّ كثيراً، فلم أقبل، فتركني ومضى، وخرجت من مكَّة وركبت البحر، فانكسر المركب وغرق الناس وهلكت أموالهم، وسلمت أنا على قطعة من المركب، فبقيت مُدَّةً في البحر لا أدري أين أذهب، فوصلت إلى جزيرة فيها قوم، فقعدت في بعض المساجد، فسمعوني أقرأ، فلم يبق أحد إلا جاءني، وقال: علمني القرآن، فحصل لي منهم شيء كثير من المال، ثم رأيت في ذلك المسجد أوراقاً من مصحف، فأخذتها، فقالوا: تحسن تكتب؟ فقلت: نعم، فقالوا: علمنا الخطّ، وجاءوا بأولادهم من الصبيان والشباب، وكنت أعلمهم، فحصل لي أيضاً من

ذلك شيء كثير، فقالوا لي بعد ذلك: عندنا صبية يتيمة ولها شيء من الدنيا نريد أن تتزوج بها، فامتنعت، فقالوا: لابد، وألزموني، فأجبتهم فلما زفوها مددت عيني أنظر إليها فوجدت ذلك العقد بعينه معلقاً في عنقها، فما كان لي حينئذ شغل إلاّ النظر إليه، فقالوا: يا شيخ كسرت قلب هذه اليتيمة من نظرك إلى هذا العقد، ولم تنظر إليها، فقصصت عليهم قصة العقد، فصاحوا بالتهليل والتكبير، حتى بلغ إلى جميع أهل الجزيرة، فقلت: ما بكم؟ فقالوا: ذلك الشيخ الذي أخذ منك العقد أبو هذه الصبية، وكان يقول: ما وجدت في الدنيا مسلماً كهذا الذي ردَّ عليَّ هذا العقد! وكان يدعو ويقول: اللهم اجمع بيني وبينه حتى أزوجه بابنتي، والآن قد حصلت، فبقيت معها مدة ورزقت منها ولدين! ثم إنها ماتت فورثت العقد أنا وولدي، ثم مات الولدان، فحصل العقد لي فبعته بمائة ألف دينار، وهذا المال الذي ترون معي من بقايا ذلك المال!

تأملات

* لا يستطيع أحد ركوب ظهرك إلا إذا كنت منحنياً.

* إذا جعلت نفسك دودة على الأرض، فلا تلم من يدوسك بقدمه.

* الذي يولد ليزحف، لا يستطيع أن يطير.

* إذا كنت ديكاً فارفع عقيرتك بالصياح، أما إذا كنت دجاجة فضع بيضتك واصمت.

* إذا كان رأسك من شمع، فلا تمش في الشمس.

* كلما اعتلى القرد فوق الشجرة، انكشف المزيد من مؤخرته!

* النعاج التي تمّ تدجينها، ترضع منها كل الحملان دون أن تمانع من ذلك.

* قبيح بذي العقل أن يكون بهيمة، وقد أمكنه أن يكون إنساناً، أو يكون إنساناً، وقد أمكنه أن يكون مَلَكاً!

فتاوى طريفة.. وإجابات لطيفة!

* جاء رجل إلىٰ فقيه فقال: أفطرت يوماً في رمضان.. فقال: اقض يوماً مكانه، قال: قضيت، وأتيت أهلي وقد عملوا مامونية - نوع من الطعام الحلو - فسبقتني يدي إليها فأكلت منها، قال: اقض يوماً آخر مكانه. قال: قضيت، وأتيت أهلي وقد عملوا هريسة فسبقتني يدي إليها، فقال له: أرىٰ أن لا تصوم إلا ويدك مغلولة إلىٰ عنقك!!!

* حدث نزاع بين الخليفة هارون الرشيد وزوجته فأقسم عليها بالطلاق ألاّ تبيت الليلة في ملكه.. وملكه آنذاك مترامي الأطراف، يمتد من حدود الصين شرقاً إلىٰ مشارف باريس غرباً، فلابد إذاً أن يقع الطلاق، وإلا فكيف ستختزل زوجة الخليفة تلك المسافات الشاسعة الواسعة في ليلة واحدة.. في عصر أحدث وسائل النقل فيه، الفرس والبغل والحمار..! فاستدعىٰ العلماء ليجد لهذه المعضلة حلاً، وكان من بين الحضور القاضي أبو يوسف، فتولىٰ الإجابة علىٰ سؤال الخليفة فقال له: يا أمير المؤمنين إن يمينك لا يقع إن قضت زوجة الخليفة ليلتها في المسجد! فقال الخليفة: وكيف ذلك؟ فقال أبو يوسف: لأن المسجد ليس ملكاً لك، وإنما هو ملك لله، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ (الجن: ١٨)، فأُعجب هارون الرشيد بهذا الجواب وهذه الحيلة الشرعية الذّكية، وقضت زوجةُ الخليفة ليلتها في بيت الله، وأنقذت نفسها من وقوع الطلاق عليها!

* سأل رجل الشعبي في مجلسه عن حديث: تسحروا، ولو أن يضع أحدكم إصبعه علىٰ التراب ثم يضعه في فيه! وقال: أي الأصابع؟ فتناول الشعبي إبهام رجله وقال: هذه!! يشير إلىٰ أن الحديث موضوع!

* سأل بعض السوقة الشعبي عمن صلّىٰ العيد قبل أن يشتري لأهله ناطفة «نوع من الحلوىٰ» ما كفارته؟ فقال الشعبي: كفارته أن يتصدق بدرهمين!! فلما ولىٰ قيل له في ذلك، فقال: لا بأس يفرح قلوب المساكين بدراهم هذا الأحمق.

* قال مجاهد: دخل الشعبي الحمام فرأىٰ داود الأزدي بلا مئزر، فغمض عينيه. فقال داود: متىٰ عميت يا أبا عمر؟ قال: منذ هتك الله سترك!!

* سأل رجل الشعبي عن المسح على اللحية؟ فقال: خللها بأصابعك. فقال: أخاف ألا تبلها، فقال الشعبي: إن خفت فانقعها من أول الليل!!

* قال رجل لبعض الفقهاء: إذا نزعت ثيابي ودخلت النهر أغتسل، فهل أتوجه إلى القبلة أم إلى غيرها؟ قال: توجه إلى ثيابك التي نزعتها، حتى لا تُسرق!

* قالت امرأة أحد الظرفاء لزوجها - وكانت حبلى - ونظرت إلى قبح وجهه: الويل لي إن كان الذي في بطني يشبهك. قال: بل الويل لك إن كان لا يشبهني!

* سأل رجل الشعبي: ما تقول في رجل شتمني في أول يوم من شهر رمضان، أتراه يؤجر؟! فقال: إن قال لك يا أحمق، رجوت له ذلك.

* ولي أعرابي البحرين، فجمع يهودها، فقال: ما تقولون في عيسى بن مريم؟ قالوا: نحن قتلناه وصلبناه. فقال الأعرابي: لا جرم! والله لا تخرجون من عندي حتى تؤدوا إليَّ ديته. قال: فما خرجوا حتى أخذها منهم.

* قال أحدهم: رأيت على الأعمش فروة مقلوبة، صوفها خارج، فأصابها مطر، فمررنا بكلب، فتنحى الأعمش وقال: لا يحسبنا شاة!!!

* خرج الأعمش يوماً وهو يضحك، فقال لأصحابه: أتدرون ممَّ أضحك؟ قالوا: لا. قال: إني كنت قاعداً في بيتي، فجعلت ابنتي تنظر في وجهي، فقلت: يا بنية ما تنظرين في وجهي؟ قالت: أتعجب من رضا أمي بك!!

* مرّ الأعمش يوماً بابن له صغير وهو يلعب بالطين مع الصبيان فلم يعرفه، فقال لبعض من كانوا معه: انظروا إلى هذا ما أقذره من صبي! ويجوز أن يكون أبوه أقذر منه! فقال له أحدهم: هذا ابنك محمد، ففتح عينيه ومسحهما ثم قال: انظروا بحق الله عليكم، كيف يتقلب في الطين كأنه شبلُ أسد. عين الله عليه!

* جاء رجل إلى أحد الفقهاء يسأله ويقول: إني كلما أنغمس في النهر غمستين وثلاثاً لا أتيقن أنه قد غمرني الماء، ولا أني قد تطهرت، فكيف أصنع؟ قال له: لا تصل! فقيل

له: كيف قلت هذا؟! قال: لأن النبي ﷺ يقول: «رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتىٰ يبلغ، وعن النائم حتىٰ ينتبه، وعن المجنون حتىٰ يفيق» ومن ينغمس في النهر مرة أو مرتين أو ثلاثاً ويظن أنه ما اغتسل فهو مجنون!

* التفت بائع التذاكر إلىٰ الركاب في العربة وفاجأهم قائلاً: من وقع منه رزمة دنانير مربوطة برباط من مطاط..؟ فصاح الركاب جميعاً.. نعم.. نعم.. والكل يقول أنا.. أنا.. فقال ببرود وأعصاب هادئة: أنا لم أعثر إلا علىٰ رباط المطاط! ويظهر أنه كان يحزم كمية من المال!!

* سئل أحد البخلاء عن الفرج بعد الشدة، فقال: أن تحلف علىٰ الضيف فيعتذر بالصوم.

* ألح سائل علىٰ أعرابي أن يعطيه حاجة لوجه الله! فقال الأعرابي: والله ليس عندي ما أعطيه للغير، فالذي عندي أنا أولىٰ الناس به، وأحق!! فقال السائل: أين الذين يؤثرون علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة؟! فقال الأعرابي: ذهبوا مع الذين لا يسألون الناس إلحافاً.

* يروىٰ أن سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام مر بعصفور يدور حول عصفورة! فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول؟ قالوا: وما يقول يا نبي الله؟ قال يخطبها لنفسه ويقول تزوجيني أسكنك أي قصور دمشق شئت! قال سليمان وإنه عرف أن قصور دمشق مبنية بالصخر لا يقدر أن يسكنها، لكن كلّ خاطب كذاب!

* سرق أعرابي صرة فيها دراهم، ثم دخل المسجد يصلي، وكان اسمه موسىٰ، فقرأ الإمام: ﴿**وما تلك بيمينك يا موسى**﴾. فقال الأعرابي: والله إنك لساحر، ثم رمىٰ الصرة وخرج!

* حمل بعضهم قمحاً إلىٰ طحان ليطحنه، فقال له: أنا مشغول، فقال: اطحنه وإلا دعوت عليك وعلىٰ حمارك ورحالك! قال: وأنت مجاب الدعوة؟ قال: نعم. قال: فادع الله أن يصيِّر «حنطتك» دقيقاً فهو أنفع لك وأسلم لدينك!

* قال بعضهم لسعيد بن العاص: عرضت لي إليك «حويجة»! فقال: اطلب لها «رجيلاً»!

* جيء بأحد الأعراب لمحاسبته على جريمة ارتكبها، فكتب قصته في كتابه، ورفعه إلى الحاكم، وهو يقول: ﴿هاؤم اقرءوا كتابيه﴾ فقيل له: يا أعرابي، هذه آية من القرآن، تقال يوم القيامة. فقال الأعرابي: يومكم هذا شر من يوم القيامة! فقالوا متعجبين: وكيف ذلك؟ قال: إن يوم القيامة يؤتى فيه بحسناتي وسيئاتي، وأنتم اليوم جئتم بسيئاتي وتركتم حسناتي!

* سُرق خرج من رجل، فقيل له: لو قرأت عليه آية الكرسي ما سُرق! فقال: إنه كان فيه مصحف كامل!

* قال مطيع بن إياس: عبرت جسر بغداد على بغلتي، فاعترضني أعمى وحسبني من الجند، فقال: اللهم سخر الخليفة أن يعطي الجند أرزاقهم، فيشتروا من التجار الأمتعة، فتربح التجار عليهم، فتكثر أموالهم، فتجب عليهم الزكاة فيتصدقوا عليّ منها! فقلت له: يا أعمى سل الله أن يرزقك ولا تجعل بينك وبينه هذه الحوالات!

* وقف سائل على فوّال وطلب منه بصلة فأعطاه. فأخذها السائل وانتحى ناحية فشطرها نصفين، ثم عاد إلى الفوال وقدّم له أحد الشطرين وطلب به فولاً، ثم قدم الشطر الثاني وطلب به خبزاً! فابتسم الفوّال وقال للسائل: ليس الحق عليك، بل على الذي عمل لك رأس مال!

* قيل للعتابي: لِمَ لا تصحب السلطان على ما فيك من الأدب؟ قال: لأني رأيته يعطي عشرة آلاف في غير شيء، ويَرمي من السُّور في غير شيء، ولا أدري أيّ الرّجُلين أكون!

* قال أعرابي لامرأته: إذا متُّ فتزوّجي جارنا. فقالت له: لماذا؟ قال: لقد باعني مرّة بقرة وغشني فيها، وأنا أريد أن أثأر لنفسي منه!

* رُؤي ابن خَلَف الهمداني وهو يَعدُو في وسط داره عدواً شديداً، يقرأ بصوت عال، فسئل عن ذلك، فقال: أردت أن أسمع صوتي من بعيد!

* أهدىٰ وزير إلىٰ أديب حذاءً في يوم عيد، فأرسل إليه يشكره بقوله: كل شخص يحشر يوم القيامة تحت ظل صدقته!

* قال أحدهم: مررت بسائل علىٰ الجسر وهو يقول: مسكيناً ضريراً، فدفعت إليه قطعة وقلت له: لِمَ نصبتَ؟ فقال: فديتك، بإضمار ارحموا!

الصك العجيب!

* كان أبو سعيد ماهك بن بندار المجوسي الرازي من كبار كتاب الديلم المشهور تجلّفهم، الشائعة فيه أخبارهم، وكان يكتب لعلي بن سامان أحد قواد الديلم، فأراد الوزير أبو محمد المهلبي أن ينفذ ماهك في بعض الخدم فقال له، وقد أراد الخروج من عنده: يا أبا سعيد، لا تبرح من الدار حتىٰ أوقفك علىٰ شيء أُريده معك، فقال: السمع والطاعة لأمر سيدنا الوزير، ونهض من بين يديه، فقال الوزير: هذا رجل مجنون، وربما طال بي الشغل وضاق صدره فانصرف، فتقدموا إلىٰ البواب أن لا يدعه يخرج من الباب، فجلس ماهك طويلاً، وأراد دخول الخلاء، فقام يطلب ذلك فرأىٰ الأخلية مقْفَلة، وكان قد تقدم الوزير بذلك، وقال: كانت دار أبي جعفر الصيمري منتنة الرائحة لأجل خلاء كان بها لعامة الناس. فوجد ماهك الخلاء الخاص غير مقْفَل، وعليه ستر مسبل، فرفع الستر ليدخل، فجاء الفراش فمنعه ودفعه، فقال: يا هذا أليس هذا خلاء؟ فقال: بلىٰ، فقال: أُريد أن أعمل فيه حاجتي فلم تمنعني؟ قال: هذا خلاء خاص لا يدخله غير الوزير! قال: فبقية الأخلية مقفلة، فكيف أعمل وقد جئت أخرج فمنعني البواب فـ . . . . في ثيابي؟ فقال الفراش: استأذن في دخول الخلاء ليتقدم لك بذلك ويفتح لك أحد الأخلية فتقضي حاجتك، فاشتد به الأمر، فكتب إلىٰ الوزير رقعة وقال فيها: قد احتاج عبد سيدنا الوزير ماهك إلىٰ بعض ما يحتاج إليه الناس ولا يحسن ذكره، والفراش يقول لا تدخل، والبواب يقول لا تخرج، وقد تحير العبد في البين، والأمر في الشدة، فإن رأىٰ سيدنا الوزير أن يفسح

لعبده بأن يعمل ما يحتاج إليه في خلائه فعل إن شاء الله تعالى، والسلام. ودفع الرقعة إلى بعض الحجاب، فأوصلها إلى الوزير، فلم يعلم ما أراد بالرقعة، فاستعلم ما الصورة فعُرف بها، فضحك واستلقى على ظهره، ووقع على ظهر الرقعة: يقضي أبو سعيد أعزَّه الله حاجته بحيث يختار، إن شاء الله تعالى! فجاءه الحاجب بها فأخذه ودفعه إلى الفراش، وقال: هذا ما طلبت، وهو توقيع سيدنا الوزير، فقال الفراش: التوقيعات يقرؤها أبو العلاء بن أبرونا كاتب ديوان الدار، وأنا لا أحسن أن أكتب ولا أقرأ، فصاح ماهك في الدار: هات من يقرأ في الدار صك الـ . . . . . ! فضحك فرّاش آخر وأخذ بيده، وحمله إلى بعض الحجر حتى قضى حاجته! وهذه الحكاية وإن كانت سخيفة لكنها ظريفة، ولابد في المجاميع من الإحماض، ومزج الهزل بالجد! ويذكر ابن خلكان أنه نقل هذه الحكاية من كتاب لابن هلال بن المحسن الصابئ سماه: «الهفوات النادرة من المغفلين الملحوظين، والسقطات الباردة من المغفلين المحظوظين» جمع فيه كثيراً من الحكايات التي تتعلق بهذا الباب.

تأملات

* كل شيء يرخص إذا كثر إلا العلم، فإنه إذا كثر غلا!

* من اتخذ من الحكمة لجاماً، اتخذه الناس إماماً.

* اقرأ كتاباً جيداً ثلاث مرات، أنفع لك من أن تقرأ ثلاثة كتب جيدة.

* خرج الشافعي يوماً فإذا رجل يسفه على رجل من أهل العلم، فالتفت الشافعي إلى أصحابه فقال: نزهوا أسماعكم عن استماع الخنا، كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به، فإن المستمع شريك القائل، وإن السفيه ينظر إلى أخبث شيء في وعائه، فيحرص أن يفرغه في أوعيتكم، ولو ردت كلمة السفيه، لسعد رادها كما شقي بها قائلها.

ملكنا فكان العفو منا سجية ... فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وما عجب هذا التفاوت بيننا ... فكل إناء بالذي فيه ينضح!

وعّاظ... ومواعظ

* بينما الإمام ابن الجوزي يحدث الناس ويعظهم، إذ به يلتفت إلىٰ ناحية الخليفة المستضيء، فقال: يا أمير المؤمنين إنْ تكلمت خفت منك، وإن سكت خفت عليك. . وإنَّ قول القائل لك: اتق الله، خير لك من قوله لكم: إنكم أهل بيت مغفور لكم! وكان عمر بن الخطاب يقول: إذا بلغني عن عامل لي أنه ظلم فلم أغيره فأنا ظالم، يا أمير المؤمنين، وكان يوسف عليه السلام لا يشبع في زمن القحط حتىٰ لا ينسىٰ الجائع، وكان عمر يضرب بطنه عام الرمادة ويقول ـ لأمعائه ـ قرقروا ولا تقرقروا، والله لا ذاق عمر سمناً ولا سميناً حتىٰ يخصب الناس! قال فبكىٰ المستضيء وتصدق بمال كثير وأطلق المحابيس وكسىٰ خلقاً من الفقراء!

* يقول ابن كثير عن ابن الجوزي: لم يزل يؤرخ أخبار العالم حتىٰ صار تاريخاً، وما أحقه بقول الشاعر:

ما زلت تدْأبُ في التاريخ مجتهداً   حتىٰ رأيتُك في التاريخ مكتوباً!

* من أحسن ما اتفق لعبدالمغيث بن زهير الحربي أن بعض الخلفاء جاءه زائراً مستخفياً، فعرفه الشيخ عبدالمغيث ولم يُعْلمه بأنه قد عرفه! فسأله الخليفة عن يزيد أيلعن أم لا؟ فقال: لا أسوغ لعنه لأني لو فتحت هذا الباب لأفضىٰ الناس إلىٰ لعن خليفتنا! فقال الخليفة: ولم؟ قال: لأنه يفعل أشياء منكرة كثيرة، منها كذا وكذا، ثم شرع يعدد علىٰ الخليفة أفعاله القبيحة! وما يقع منه من المنكر لينزجر عنها! فتركه الخليفة وخرج من عنده وقد أثر كلامه فيه، وانتفع به!

* قيل لهرم بن حيان حين الاحتضار: أوصِ، فقال: إنما الوصية من المال، فلا مال لي، وأوصيكم بخواتيم سورة النحل.

نموذج.. من الوعاظ!!

قال أبو الحسين أحمد بن المبارك شقيق الفقيه الشافعي ابن الخل في بعض الوعاظ :

ومن الشقاوة أنهم ركنوا إلى — نزغات ذاك الأحمق التمتام
شيخٌ يبهرجُ دينه بنفاقه — ونفاقهُ منهم على أقوام
وإن رأى الكرسيَّ تاه بنفسه — أي أن هذا منصبي ومقامي
ويدق صدراً ما انطوى إلاّ على — غِلٍّ يواريه بكفٍّ عظام
ويقول إيش أقولُ! من حَصَرٍ به! — لا لازدحام عبارةٍ وكلام!!

* قال أبو الحسن المؤدب المعروف بالفالي، علي بن سلك :

لما تبدّلت المجالسُ أوجهاً — غيرَ الذين عهدتُ من علمائها
ورأيتها محفوفة بسوى الأولى — كانوا ولاة صدورها وفنائها
أنشدتُ بيتاً سائراً متقدماً — والعين قد شرقت بجاري مائها
أما الخيامُ فإنها كخيامهم — وأرى نساءَ الحيِّ غيرَ نسائها!

* ومن شعره أيضاً :

تصدّرَ للتدريس كلُّ مهوسٍ — بليدٍ تسمَّى بالفقيهِ المدرِّسِ
فحقَّ لأهل العلمِ أن يتمثّلوا — ببيتٍ قديم شاعَ في كل مجلسِ
لقد هزلت حتى بدا من هزالها — كلاها وحتى سامها كلُّ مفلسِ

* يقول عبدالله ابن المبارك ـ رحمه الله ـ : عشق هارون الرشيد جاريةً من جواريه فأرادها، فقالت : إن أباك مسني فشُغف بها فأصبح يقول :

أرى ماءً وبي ظمأٌ شديدٌ — ولكن لا سبيل إلى الورود

ألا يكفيك أنك تملكيني وأن الناس كلهم عبيدي
وأنك لو قطعت يدي ورجلي لقلت من الرضى: أحسنت زيدي

فسأل أبا يوسف عن ذلك، فقال أبو يوسف: أَوَكلما قالت جاريةٌ تُصدَّق؟ قال ابن المبارك: فلا أدري من أيهم أعجب؟ من هارون حين رغب فيها؟ أو منها حيث رغبت عنه؟ أو من أبي يوسف حيث سوَّغ له إتيانها!

* وقال أبو العلاء المعري في رياء الوُعَّاظ:

رُوَيْدَكَ قد غُرِرْتَ وأنت حُرٌّ بصاحِب حيلة يعظ النساء
يُحَرِّمُ فيكم الصهباءَ صبحاً ويشربها على عمد مساء
يقول لكم: غَدَوْتُ بلا كساء وفي لذَّاتها رهن الكِساء
إذا فعلَ الفتى ما عنه يَنْهى فمن جهتين، لا جهةٍ، أساء

دعاء غير مستجاب!

كان أزهر السمان يصحب أبا جعفر المنصور قبل أن يلي الخلافة، فلما وليها جاءه أزهر مهنئاً، فحجبه المنصور، فترصّد له يوم جلوسه العام وسلّم عليه، فقال له المنصور: ما جاء بك؟ قال: جئت مهنئاً بالأمر، فقال: المنصور: أعطوه ألف دينار، وقولوا له: قد قضيت وظيفة الهناء فلا تعد إليّ، فمضى وعاد في العام القابل فحجبه، فدخل عليه في مثل ذلك المجلس وسلم عليه، فقال له: ما جاء بك؟ فقال: سمعت أنك مرضت فجئت عائداً! فقال: أعطوه ألف دينار، وقولوا له: قد قضيت وظيفة العيادة فلا تعد إليّ فإني قليل الأمراض! فمضى وعاد في قابل، فقال له في مثل ذلك المجلس: ما جاء بك؟ فقال: سمعت منك دعاءً مستجاباً فجئت لأتعلمه منك! فقال له: يا هذا إنه دعاء غير مستجاب، إني في كل سنة أدعو الله به أن لا تأتيني، وأنت تأتي!!!

أعز الناس

* وكّل الخليفة المأمون الإمام الفرّاء ليلقن ابنيه النحو، فلما كان يوماً، أراد الفراء أن ينهض إلى بعض حوائجه، فابتدرا إلى نعل الفراء ليقدماها له. . ! فتنازعا أيهما يقدمها له. . ! ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما فردة. . ! فبلغ ذلك المأمون، فاستدعى الفراء، فلما دخل عليه، قال له: من أعزّ الناس؟ قال: لا أعرف أحداً أعز من أمير المؤمنين. . فقال: بلى، من إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه وليّا عهد أمير المؤمنين حتى يرضى كل واحد منهما أن يقدم له فردة! فقال: يا أمير المؤمنين! لقد أردت منعهما عن ذلك، ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها، وأكسر نفوسهم عن شريفة حرصا عليها. . وقد روي عن ابن عباس أنه أمسك للحسن والحسين ركابيهما حين خرجا من عنده، فقال له بعض من حضر: أتمسك لهذين الحَدَثين ركابيهما وأنت أسنّ منهما؟! فقال له: اسكت يا جاهل لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذووا الفضل! فقال له المأمون: لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوماً وعتباً، وألزمتك ذنباً، وما وضع ما فَعَلا من شرفهما، بل رفع من قدرهما، ولقد تبينت مخيلة الفراسة بفعلهما، فليس يكبر الرجل وإن كان كبيراً عن ثلاث: تواضعه لسلطانه، ولوالديه، ولمعلمه، ثم قال: قد عوضتهما مما فعلا عشرين ألف دينار. . ولك عشرة آلاف درهم على حسن أدبك لهما. . ! !

عيب البناء.. أم خسة الحجر؟

* حدث في أواخر سنة عشرين وثمانمائة أن مالت المئذنة التي بُنيت على البرج الشمالي بباب زُويلة بمصر من جامع المؤيد، وكادت تسقط، واشتد خوف الناس منها، وتحولوا من حواليها، فأمر السلطان بنقضها فنُقضت بالرّفق إلى أن أَمِنوا شرّها، وعامل السلطان من ولي بناءها بالحلم، وكان ناظر العمارة ابن البرجي، فقال تقي الدِّين بن حجة في ذلك:

علىٰ البرج من بابي زُويلة أُنشئت مَنَارةُ بيت الله والمعبد المُنجي

فأحنى بها البرج الخبيث أمالها ألا صرّحوا يا قوم باللعن للبرجي

* وقال الشّهاب بن حجر العسقلاني:

لجامع مولانا المؤيد رَونقٌ منارتُه بالحُسن تَزهُو وبالزّيْنِ

تقُولُ وقد مَالت عن القَصْد أمهلوا فليس على جسمي أضرَّ من العينَ

فغضب الشيخ بدر الدِّين العيني وظَنَّ أن ابن حجر عَرَّض به، فاستعان بالنّواجي الأبرص فنظم له بيتين معرّضاً بابن حجر، ونسبهما العينيُّ لنفسه، وهما:

منارةٌ كعروس الحُسن إذ جليت وهدمها بقضاء الله والقدر

قالوا: أصيبت بعين قُلت: ذَا غلط ما أوجب الهدمَ إلاّ خِسة الحجر!!

* في سنة ثمان عشرة وثمانمائة شاع بين الناس أن شمس الدِّين ابن عطاء الله الرَّازي، المعروف بالهَرَوي يحفظ اثني عشر ألف حديث! وأنه يحفظ «صحيح مسلم» بأسانيده، ويحفظ متون البخاري! فجرت مناظرة بينه وبين ابن حجر بحضرة الملك المؤيد، وظهر زيفه! ومن جملتها أنه سأله أن يزيد على السبعة الذين يظلهم الله في ظله! فعجز فزاد ابن حجر سبعة أخرىٰ بأحاديث حِسَان، وأربعة عشر بأحاديث ضِعَاف! وقد أوصلهم بعضهم إلى تسع وثمانين، وممن أوصلهم إلى هذا المقدار العَلاَّمة ابن عَلاّن المَكّي المدرك في كتابه «شرح رياض الصالحين للنووي. المسمى: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين.

* يحكى أن الحافظ السيوطي كان يغضُّ من الحافظ شهاب الدين أبو العباس القسطلاني ويزعم أنه يأخذ من كتبه ويستمد منها ولا ينسب النقل إليها، وأنه ادعى عليه بذلك بين يدي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري، فألزمه ببيان مدعاه، فعدّد مواضع قال: إنه نقل فيها عن البيهقي، وقال: إنه للبيهقي عدة مؤلفات فليذكر لنا، ذَكَرَه في أي مؤلفاته، لنعلم أنه نقل عن البيهقي! ولكنه رأى في مؤلفاتي ذلك النقل عن البيهقي فنقله برمته! وكان الواجب عليه أن يقول: نقل السيوطي عن البيهقي!

* وحكى الشيخ جار الله بن فهد أن الشيخ القسطلاني -رحمه الله- قصد إزالة ما في خاطر الجلال السُّيُوطي فمشى من القاهرة إلى الروضة إلى باب السُّيوطي، ودق الباب فقال له: من أنت فقال: أنا القسطلاني جئت إليك حافياً مكشوف الرأس ليطيب خاطرك عليَّ! فقال له: قد طاب خاطري عليك ولم يفتح له الباب ولم يقابله!!

المعتزلي.. والأشعري!

* يروى عن بعض الفضلاء هذان البيتان:

هبني صبوت كما ترون بزعمكم ... وحظيت منه بلثم خد أزهرِ
إني اعتزلت فلا تلوموا إنه ... أضحى يقابلني بوجه أشعري!!

* قال أبو العلاء المعرِّي في الشيوخ المتظاهرين بالصلاح:

* لئن قدرت فلا تفعل سوى حسن ... بين الأنام وجانب كل ما قبحا
فكم شيوخ غدوا بيضاً مفارقهم ... يسبحون وباتوا في الخنا سبحا
وليس عندهم دينٌ ولا نسكٌ ... فلا تغرّك أيد تحمل السبحا
لو تعقلُ الأرضُ ودت أنها صفرت ... منهم فلم ير فيها ناظرٌ شبحا
* لا يُعجبنك من خطيب خطبةٌ ... حتى يكون مع الكلام أصيلا
إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ... جُعل اللسان على الفؤاد دليلا

تأملات

* كلما ازددت معرفةً ببعض الناس، ازداد حبي لكلبي!
* أحَشَفاً وسوء كِيلة. يقال لمن يجمع سوأتين في وقت واحد!
* إذا وعظت فأوجز، فإن كثير الكلام يُنسي بعضُه بعضاً.
* من اتكل على زاد غيره طال جوعه!

مواعظ على ألسنة البهائم!!

* للعرب ذكاء عجيب وبلاغة رائعة وفهم ثاقب وتصرف بفنون الكلام جميل، فتراهم يضربون الأمثال على ألسنة الحيوانات والبهائم بأسلوب التورية، ويقصدون من وراء ذلك إيصال المثل والحكمة للإنسان ليفهم، ويأخذ الحذر، ويتجنب المكر والخداع والفتنة، ويتعلم كيف يتوصل إلى مراده ويوقع بعدوه.

* زعموا أن أسداً وذئباً وثعلباً اصطحبوا فخرجوا يتصيدون، فصادوا حماراً وظبياً وأرنباً، فقال الأسد للذئب: اقسم بيننا واعدل، فقال: الأمر أبين من ذلك، الحمار لك والأرنب للثعلب، والظبي لي! فغضب الأسد فضربه ضربة منكرة شجّ بها رأسه! ثم أقبل على الثعلب وقال: قاتله الله ما أجهله بالقسمة، ثم قال: هات أنت، قال الثعلب - وقد خشي أن يصيبه مثل الذي أصاب الذئب - الأمر أوضح من ذلك، الحمار لغدائك والظبي لعشائك، وأما الأرنب فخلالاً تتخلل به فيما بينك وبين الليل! فقال له الأسد: ويحك ما أقضاك! من علّمك هذا القضاء؟ قال: الرأس الذي بين يديك!!

* قبض ثعلب على أرنب، فقال له الأرنب: والله ما هذا لقوّتك، ولكن لضعفي!

* ذكر ابن الجوزي في كتابه الأذكياء عن الإمام الشعبي قال: مرض الأسد فعاده السباع كلُّها إلا الثعلب، فقال الذئب: أيها الملك انظر إلى الثعلب كيف استخفّ بك فلم يأتك، وتطاير الخبر إلى الثعلب فأتاه، فقال له الأسد: يا أبا الحصين مرضتُ فعادني السباع كلهم ولم تَعُدْني أنت؟ قال: بلغني مرضك فكنت في طلب الدواء لك! قال: فأي شيء وجدتَ؟ قال: قالوا لي خرزة في ساق الذئب ينبغي أن تخرج، فضرب الأسد بمخالبه ساق الذئب فانسل الثعلب وخرج، فقعد على الطريق فمرّ به الذئب والدم يسيل منه! فقال له الثعلب: يا صاحب الخف الأحمر إذا قعدت عند الملوك بعد هذا فاعقل كيف تتكلم، وانظر ما يخرج من رأسك!! قال أبو نعيم في الحلية: لم يقصد الشعبي من هذا سوى ضرب المثل وتعليم العقلاء، وتنبيه الناس، وتأكيد الوصية في حفظ اللسان وتهذيب الأخلاق والتأدب بكل طريق، وفي مثل ذلك قيل:

احفظ لسانك لا تقول فتبتلى   إن البلاء موكل بالمنطق

* قيل للحمار: لم لا تجتّر؟ قال: أكره مضغ الباطل! وهذا كمثل الأعرابي لما رمي إليه عِلْك فقال: تعب الحنجرة وخيبة المعدة!

* تصاحب ثعلبان فلقيا أسداً فخافا منه، فقال أحدهما للآخر: ما الحيلة؟ فقال: عليّ الحيلة، فقال الأسد: ما الخبر؟ فقالا: إنا ورثنا أغناماً من أبينا ونريد أن نقسمها بيننا! قال: أين هي؟ قالا: قريب. فتبعهما حتى أتيا إلى مجرى ماء يخرج من بستان فقال أحدهما للآخر: ادخل فأخرج الأغنام، فدخل فأبطأ، فقال أخوه: أنظر إلى بطئه حتى أدخل فأخرجه مع الغنم! فدخل، وجلس الأسد ينتظر، فصعدا إلى السطح، فقالا: اذهب فقد اصطلحنا! فغضب الأسد وزأر، فقالا: لا تكن بارداً، فما رأينا من يغضب من صلح الخصمين غيرك!!

* وقف جديٌ على سطح فمر به ذئب، فأخذ الجديُ يشتمه، فقال: لست تشتمني، إنما يشتمني المكان الذي تحصنت به!

* دخلت فأرةٌ الحمّام، فلما خرجت رأت هرّاً فقال لها: طاب حمامك! فقالت: لو لم أرك يا ابن الفاعلة!!

* أوْلم طائرٌ وليمةً فأرسل يدعو بعض إخوانه فغلط بعض رسله فجاء إلى الثعلب فقال: أخوك يدعوك! فقال: السمع والطاعة! فلما رجع أخبر الطائر فاضطربت الطيور، وقالوا: أهلكتنا وعرّضتنا للموت! فقالت القنبرة: أنا أصرفه عنكم بحيلة، فمضت إليه فقالت: أخوك يقرأ عليك السلام ويقول لك: الوليمة يوم الاثنين، فأين تحب أن يكون مجلسك، مع الكلاب السلوقية أو مع الكلاب الكردية؟! فتجرّعها الثعلب وقال: أبلغي أخي السلام وقولي له: أبو حصين يقرئك السلام ويعتذر عن الحضور لأنه قد تقدم لي نذر منذ دهر بصوم الاثنين والخميس!!

* نصب رجل من بني إسرائيل فخّاً من ناحية الطريق فجاء عصفور قريباً من الفخ،

فقال للفخ : ما لي أراك متباعداً عن الطريق؟ قال : أعتزل شرور الناس! قال : فمالي أراك ناحل الجسم؟ قال : أنحلتني العبادة! قال : فما هذا الحبل على عطفيك؟ قال : المسوح والشعر، لبس الرهبان والزهاد! قال : فما هذه العصا في يدك؟ قال : أتوكّأ عليها! قال : فما هذه الحَبّة في فيك؟ قال : رصدْتُها لابن سبيل أو محتاج! قال : فأنا ابن سبيل ومحتاج، قال : فدونك، قال، فوضع العصفور رأسه في الفخ، فأخذ بعنقه، فقال : لا غرَّني بعدك قارئ مُراءٍ أبداً!! وهذا مثال للذين يأكلون الدنيا باسم الدين ويراؤون الناس بأعمالهم.

* قال مالك بن دينار : مثل قرّاء هذا الزمان كمثل رجل نصب فخّاً ونصب فيه بُرّة، فجاء عصفور فقال : ما غيَّبك في التراب؟ قال : التواضع! قال : لأيِّ شيء أنحلت؟ قال : من طول العبادة! قال : فما هذه البرة المنصوبة في فيك؟ قال : أعددتها للصائمين! فقال : نعم الخيِّر أنت، فلما كان عند المغرب دنا العصفور ليأخذها فخنقه الفخ! فقال العصفور : العبادة تخنق كخنقك! فلا خير حينئذ في العبادة بعد اليوم!

* نظر الثعلب إلى عنقود فلم ينله فقال : إنه حامض!

* تحاكم الثعلب والأرنب إلى الضب فقالا : جئناك لتحكم بيننا. قال : في بيته يُؤتى الحكم! فقال الأرنب : إني التقطت تمرة. قال : حلواً جنيْت، قال : إن الثعلب أخذها. قال : لنفسه بغى الخير، قال : إني لطمته : قال : البادئ أظلم، قال : فلطمني، قال : كريم انتصر لنفسه، قال : احكم بيننا، قال : قضيت! فذهبت أقواله كلها أمثالاً!

* بلع ذئب عظْماً وبذل لكركيّ أجرة على أنْ يخرج العظم من حلقه، فأدخل الكركيّ رأسه فأخرج العظم، ثم قال للذئب : هات الأجرة، فقال : أنت لم ترض أن أدخلت رأسك في فم الذئب ثم أخرجته سالماً حتى تطلب الأجرة أيضاً؟!!

* أراد ثعلب أن يصعد على حائط فتعلّق بعوسجة فعقرت يده، فأخذ يلومها، فقالت : يا هذا قد أخطأت حين تعلقت بي، ومن عادتي أن أتعلق بكل شيء!

* توحّش حمار وجمل فوجدا مرعىً خالياً يرتعان فيه، فقال الحمار يوماً وقد بطر: إني أريد أن أُغَنّي. فقال الجمل: اتق الله فينا فإني أخشى أن يشعر بنا أحد فنؤخذ! قال: لابدّ، ثم نهق فسمعته قافلة مارة فأخذوهما، فأبى الحمار أن يمشي فَحمل على الجمل فمروا به في عقبة فقال الجمل: إني طربت لِغنائك المتقدم وأريد أن أرقص رقصة! فقال الحمار: اتق الله إني أسقط، فلا تفعل، فرقص، فسقط الحمار ودُقت عنقه!

* صاد رجل قنبرة فلما صارت في يده قالت: ما تريد أن تصنع بي؟ قال: أذبحك وآكلك! قالت: ما أشفي من مرض ولا أشبع من جوع، ولكن أعلّمك ثلاث خصال خير لك من أكلي. أما واحدة أعلمك وأنا في يدك، والثانية على الشجرة، والثالثة على الجبل! فقال: هات الأولى: قالت: لا تلهفّن على ما فاتك، فلما صارت على الشجرة قال لها: هات الثانية قالت له: لا تصدِّق بما لا يكون أن يكون، فلما صارت على الجبل قالت له: يا شقي لو ذبحتني أخرجت من حوصلتي درّتين في كل واحدة عشرون مثقالاً! فعضّ على شفتيه وتلهف، ثم قال لها: هات الثالثة، قالت: أنت قد نسيت اثنتين فكيف أحدِّثك بالثالثة؟ ألم أقل لك لا تلهفنّ على ما فاتك ولا تصدق بما لا يكون أن يكون؟! أنا وريشي ولحمي لا أزن عشرين مثقالا!!، ثم طارت وذهبت.

* من النوادر الطريفة التي تروى عن العلامة الشيخ محمد أبوزهرة رحمه الله، أنه كان ذات يوم يحاضر عن الميراث والتركات وتناول ميراث الأنثى والذكر، وأورد الآية الكريمة ﴿**للذكر مثل حظ الأنثيين**﴾ فقام أحد الطلبة معترضاً وقال: لماذا لم يقل القرآن: للأنثى نصف الذكر؟ فأجابه الشيخ - رحمه الله - على البديهة وبذكاء نادر: اسأل أمك هل ترضى بنصف الذكر؟

عندما يكون الثعلب واعظاً

يقول أحمد شوقي:

برز الثعلب يوماً في ثياب الواعظينا ... فمشى في الأرض يهذي ويسب الماكرينا

ويـقـول الحـمـدلـلـه إلـه الـعـالمـيـنـا　　وازهدوا في الطير إن العيش عيش الزاهدينا
واتركوا الديك يؤذن لصلاة الصبح فينا　　فأتى الديك رسولٌ من إمام الناسكينا
عرض الأمر عليه وهو يرجو أن يلينا　　فأجاب الديك عذراً يا أضلَّ المهتدينا
بلِّغ الثعلب عني عن جدودي الصالحينا　　عن ذوي التيجان ممن دخل البطن اللعينا
أنهم قالوا وخير القول قول العارفينا　　مخطئٌ من ظنَّ يوماً أن للثعلب دينا!

* يروى عن الشافعي رحمه الله أنه قال: كنا في سفر في أرض اليمن فوضعنا سفرتنا لنتعشى، وحضرت صلاة المغرب فقمنا نصلي ثم نتعشى، فتركنا السفرة كما هي، وقمنا إلى الصلاة، وكان فيها دجاجتان فجاء الثعلب فأخذ إحدى الدجاجتين، فلما قضينا الصلاة أسفنا عليها وقلنا: حرمنا طعامنا، فبينما نحن كذلك إذ جاء الثعلب وفي فمه شيء كأنه دجاجة، فوضعه، فبادرنا إليه لنأخذه ونحن نحسبه الدجاجة قد ردّها، فلما قمنا من السفرة جاء إلى الأخرى فأخذها.. ولما وصلنا إلى الذي رماه من فمه وكنا نحسبه الدجاجة قد ردها فإذا هو ليف قد جعله مثل الدجاجة!!

تأملات

* من السهل أن تكون شجاعاً من مسافة بعيدة!
* ليس شجاعاً ذلك الكلب الذي ينبح على جثة الأسد!
* زئير الأسد، لا يكفي لقتل الفريسة!
* الجبان هو شخص يفكر بساقيه ساعة الخطر!
* من يخف من الألم، فإنه سيتألم مما يخاف!
* الخوف هو أسوأ مستشار للإنسان.
* إذا هِبْت أمراً، فَقَعْ فيه، فإن شدة توقيه أعظم مما تخاف منه.

مثَل.. وقصة

* آشْبَقُ مِنْ حُبَّى! ! هي امرأة مَدَنية، كانت مِزْوَاجاً، فتزوجت على كبر سنها فَتىً يقال له: ابن أم كلاب، فقام ابن لها كَهْل، فمشى إلى مروان ابن الحكَم وهو والي المدينة، وقال: إن أمي السفيهة على كِبر سنها وسِنِّي تزوجت شاباً مُقْتَبِلَ السِّنِّ فصيرتني ونفسها حديثاً! فاستحضرها مروان وابنها، فلم تكترث لذلك، ولكنها التفتت إلى ابنها وقالت: يا برذعة الحمار، أما رأيت ذلك الشاب المَقْدُود العَنطْنَطَ، والله ليصرعَنَّ أمَّكَ بين الباب والطاق، فليشفينَّ غَليلَهَا، ولتخرجَنَّ نفسُها دونه! ولوددْتُ أنه ضَبٌّ وأني ضُبَيْبَتُه، وقد وجدنا خَلاء! فانتشر هذا الكلام عنها، فضُربت بها الأمثال، وكانت نساء المدينة تسمين حبَّى: حواء أم البشر! لأنها علمتهنَّ ضروباً من هيآت الجماع، ولقبت كل هيئة منها بلقب، منها القبع والغربلة والنَّخير والرَّهز، فذكر الهيثم ابن عدي أنها زَوَّجَتْ بنتاً لها من رجل، ثم زارتها وقالت: كيف تَرَيْنَ زوجَكِ؟ قالت: خير زوج، أحسن الناس خُلُقاً، وخَلْقاً، وأوسَعُهم رَحْلاً وَصدْراً، يملأ بيتي خيراً وحِري... !! - كلمة تعني ذَكَر الرجل - إلا أنه يكلفني أمراً صعباً، قد ضِقْتُ به ذَرْعاً! قالت: وما هو؟ قالت: يقول عند نزول شهوته وشهوتي: انخري تحتي! فقالت حُبَّى: وهل يطيب جماع بغير رهز ونخير؟ جاريتي حرة إن لم يكن أبوك قدم من سفر وأنا على سطح مُشْرِفة على مِرْبَد إبل الصدقة، وكلُّ بعير هناك قد عُقل بِعِقَالين، فصرعني أبوك ورفع رجلي وطعنني طعنة نَخَرْتُ لها نخرة! نفرت منها إبل الصدقة نفرة قطعت عُقُلَها وتفرقت، فما أخذ منها بعيران في طريق! فصار ذلك أول شيء نُقِم على عثمان، وما كان له في ذلك ذنب، الزوجُ طَعَنَ، والزوجة نخرت، والإبل نَفَرت، فما ذنبه؟!

* لا مَاءَكَ أَبْقَيْت، ولا حِرَكَ أَنْقَيْت! أصله أن رجلاً كان في سَفَر ومعه امرأته، وكانت عَارِكاً فَطَهُرَتْ، وكانَ معهمَا ماءَ يسيرَ، فاغتسلت، فلم يكفها لغسلها وأنْفَدَتِ الماء، فبقيا عطشانين، فعندها قال لها هذا القول!

* أَقْوَدُ مِنْ ظُلْمَةَ! ! هي امرأة من هُذيل، وكانت فاجرة في شبابها حتى عجزت، ثم

قادت حتى أُقْعدت ويقال إنها زنت أربعين عاما! ثم اتخذت تَيْساً تطرقه الناس، فسُئلت عن ذلك، فقالت: إني أرتاح إلى نَبيبه على ما بي من الهرم، تريد أنها ترتاح لصوت أنفاس الجماع بينهما، سئلت: من أنكح الناس؟ فقالت: الأعمى العفيف، فحُدّث عَوَانة بهذا الحديث وكان مكفوفاً، فقال: قاتلها الله من عالمة بأسباب الطروقة!!

* كُلُّ خَاطِبٍ عَلَى لِسَانِه تَمْرَةٌ!! يضرب للذي يلين كلامه إذا طَلَبَ حاجةً.

* أَسْرَعُ مِنْ نِكَاحِ أُمِّ خَارِجَةَ!! هي عمرة بنت سعد بن عبدالله بن قدار بن ثعلبة، كان يأتيها الخَاطِبُ، فيقولَ: خِطْبٌ، فتقول: نِكْحٌ، فيقول: إنزلي، فتقول: أَنِخْ! وكانت ذَوَّاقَةً تُطلِّق الرجل إذا جربته وتتزوج آخر! فتزوجت نيفاً وأربعين زوجاً، وولدت عامة قبائل العرب! وكانت إذا تزوجت رجلاً وأصبحت عنده كان أمرُها إليها، إن شاءت أقامت، وإن شاءت ذهبت! ويكون علامة ارتضائها للزوج أن تعالج له طعاماً إذا أصبح!

* أَشْرَى الشَّرِّ صِغَارُهُ!! أي: أَلَجُّه وأبْقاه، من قولهم: شَرِيَ البرق، إذا كثر لمعانه، وشَرِيَ الفرسُ، إذا لَجَّ في سيره، قالوا: إنَّ صياداً قدم بنِحْيٍ من عسل ومعه كلب له، فدخل على صاحب حانوت، فعرض عليه العسل ليبيعه منه، فقطر من العسل قطرة، فوقع عليها زنبور، وكان لصاحب الحانوت ابنُ عرس فوثَبَ ابنُ عرس على الزنبور، فأخذه، فوثب كلبُ الصائد على ابن عرس فقتله. فوثب صاحب الحانوت على الكلب فضربه بعصاً ضربةً فقتله، فوثب صاحبُ الكلب على صاحب الحانوت فقتله، فاجتمع أهل قرية صاحب الحانوت فوثبوا على صاحب الكلب فقتلوه! فلما بلغ ذلك أهلَ قرية صاحب الكلب اجتمعوا فاقتتلوا هم وأهلُ قرية صاحب الحانوت حتى تفانوا! فقيل هذا المثل في ذلك.

* أَشْغَلُ مِنْ ذَاتِ النِّحْيَيْنِ! هي امرأة من بني تَيْم الله بن ثعلبة، كانت تبيع السمن في الجاهلية، فأتاها خَوَّاتَ بن جُبير الأنصاري يبتاع منها سَمناً، فلم يَرَ عندها أحداً، وساوَمَهَا فحَلَّت نِحْياً، فنظر إليه ثم قال: أمسكيه حتى أنظر إلى غيره، فقالت: حُلَّ نِحْياً آخر،

ففعل، فنظر إليه فقال: أريد غير هذا فأمسكيه، ففعلت، فلما شَغَلَ يديها ساوَرَها فلم تقدر على دَفْعه حتى قضى ما أراد وهرب! وزعموا أنّ أمّ الورد العَجْلانية مَرَّتْ في سوق من أسواق العرب، فإذا رجل يبيع السمن، ففعلت به كما فَعَلَ خوَّات بذات النحيين من شَغْل يديها! ثم كشفت ثيابه وأقبلت تضربُ شقَّ اسْته بيديها، وتقول: يا ثارات ذات النِّحْيين!

* بَاتَتْ بِلَيْلَةِ حُرَّةٍ!! العرب تسمي الليلة التي تُفْتَرَع فيها المرأة ليلة شيباء! وتسمي الليلة التي لا يقدر الزوج فيها على افتضاضها ليلة حرة! فيقال: باتت فلانة بليلة حرة، إذا لم يغلبها الزوج، وباتت بليلة شيباء، إذا غلبها فافتضَّها! يضربان للغالب والمغلوب!

* إِلَيْكَ يُسَاقُ الحُدِيثُ! زعموا أن رجلاً أتى امرأةً يخطُبها، فأنعظ وهي تكلمه، فجعل كُلَّما كلمتْهُ ازداد إنعاظاً، وجعل يستحي ممن حضرها من أهلها، فوضع يده على ذكره وقال: إليك يُساقُ الحديث، فأرسلها مثلاً! والإنعاظ: ثوران الشهوة وانتشار الذَّكَر.

* أَزْنَى مِنْ سَجَاحِ!! هي امرأة من بني تميم بن مُرَّة، كانت ادَّعَتْ فيهم النبوة، ثم حَمَلَتهم على أن زفُّوها إلى مُسَيْلمة المتنبئ، فوهبت نفسها له، فقال لها:

ألاَ قُومِي إلى المخْدَعْ فقد هُيِّئ لَكِ المَضْجَعْ
فإن شِئْتِ سَلَقْنَاكِ وإن شِئْتِ عَلَى أَرْبَعْ
وإن شِئْتِ فَفِي المخْدَعْ وإن شِئْتِ بِثُلْثَيْهِ
وإن شِئْتِ بِهِ أَجْمَعْ

فقالت: بل به أجمع فهو أجمع للشمل!!

* تَمَنَّعِي أَشْهَى لَكِ! أي مع التَّأبِّي يقعُ الحرصُ، وأصله أن رجلاً قال لامرأته: تمنَّعي إذا غازلْتُكِ يكن أشهى، أي ألذ! يُضرب لمن يظهر الدَّلاَل ويُغْلي رخيصَه.

* إذَا ضَرَبْتَ فَأَوْجِعْ، فإنَّ المَلاَمَةَ وَاحِدَةٌ! يضرب في الحث على المبالغة.

* إِذَا كُنْتَ سِنْدَاناً فاصْبِرْ ، وإِذَا كُنْتَ مِطْرَقَةً فأوْجِع! يضرب في مُدَاراة الخصم حتى تظفر به .

* إِذَا شَاوَرْتَ العَاقِلَ صَارَ عَقْلُهُ لَكَ!

* إذا افتَقَرَ اليَهُودِيُّ نَظَرَ في حِسَابِه العتيق!

* إذا تفَرَّقَت الغَنَمُ قَادَتْها العنْزُ الجَرْبَاءُ! يضرب في الحاجة إلى الوضيع .

* إذا تَخَاصَمَ اللِّصَّانِ ظَهَرَ المسْرُوق!

* إذا أراد الله هَلاَكَ النَّمْلَة أنْبَتَ لَهَا جَنَاحَيْنِ!

* يا عمَّاهُ هل كُنتَ أعْوَرَ قطُّ؟! قالها صبي كان لأمه خليل، وكان يختلف إليها، فكان إذا أتاها غمض إحدى عينيه لئلا يعرفه الصبي بغير ذلك المكان إذا رآه! فرفع الصبيُّ ذلك إلى أبيه! فقال أبوه: هل تعرفه يا بني إذا رأيته؟ قال: نعم، فانطلق به إلى مجلس الحي، فقال: انظر هل تراه، فتصفَّحَ وجوه القوم حتى وقع بصره عليه فعرفه بشمائله وأنكره لعينيه! فدنا منه فقال: يا عَمَّاه. هل كنت أعور قط؟!! فذهبت مثلاً. يضرب لمن يستدل على بعض أخلاقه بهيئته وشَارَتِهِ.

* يَدَاكَ أوْكَتَا وَفُوكَ نَفَخَ! أصله أن رجلاً كان في جزيرة من جزائر البحر، فأراد أن يعبر على زقٍّ نفخ فيه فلم يحسن إحكامه، حتى إذا توسَّط البحر خرجت منه الريح فغرق، فلما غَشِيه الموتُ استغاث برجل، فقال له: يَدَاكَ أَوْكَتَا وَفُوكَ نفخ!! يضرب لمن يجني على نفسه.

* أغيرةً وجبنا؟! قالته امرأة من العرب لزوجها تعيِّره حين تخلف عن عدوه في منزله، ورآها تنظر إلى القتال، فضربها، فقالت: أغيرة! وجبنا؟! يضرب لمن يجمع بين شرين.

* أَنْتَ عَلَى المُجرَّبِ!! يراد به على التَّجْربة، أي إنك مُشْرِف على ما تجرّبه، قيل: أصْلُ المثل أن رجلاً أراد مقاربة امرأة، فلما دنا منها قال: أبكر أنت أم ثيب؟ فقالت: أنت

على المجرب! أي أنك مُشرِف على التجربة! يضرب لمن يسأل عن شيء يَقْرُبُ علمه منه، أي لا تسأل فإنك ستعلم!

* أصْبِحْ لَيْلُ!! قيل: إن امرأ القَيْس بن حُجْر الكِنْدِيَّ كان رجلاً مفرَّكاً لا تحبه النساء، ولا تكاد امرأة تصبر معه، فتزوج امرأة من طَيِّئ فابتنى بها، فأبغضته من تحت ليلتها، وكرهت مكانها معه، فجعلت تقول: يا خَيْرَ الفِتْيانِ أَصْبَحْتَ أصبحت، فيرفع رأسه فينظر فإذا الليل كما هو، فتقول: أَصْبِحْ لَيْلُ، فلما أصبح قال لها: قد علمتُ ما صنعت الليلة، وقد عرفت أن ما صنعت كان من كراهية مكاني في نفسك، فما الذي كرهت مني؟ فقالت: ما كرهتُك، فلم يزل بها حتى قالت: كرهت منك أنك خفيف العَزَلة ثقيل الصدر، سريع الإراقة، بطيء الإفاقة! فلما سمع ذلك منها طَلَّقها، وذهب قولها: أصْبِحْ ليل مثلاً!

* بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبى! هي جمع زُبْيَة، وهي حُفْرَة تُحْفَر للأسد إذا أرادوا صَيْده، وأصلُها الرابية لا يَعلُوها الماء، فإذا بلغها السيلُ كان جارفاً مُجْحِفاً. يضرب لما جاوز الحد.

ورد أنّ مُعاذَ بن جبل أُتي بثلاثة نَفَر قتلهم أسد في زُبْيَة فلم يدر كيف يفتيهم، فسأل علياً رضي الله عنه وهو مُحْتَبٍ بفناء الكعبة: فقال: قُصُّوا عليَّ خبركم، قالوا: صِدْنا أسداً في زبية، فاجتمعنا عليه، فتدافع الناس عليها، فرموا برجل فيها، فتعلق الرجل بآخر، وتعلق الآخر بآخر، فَهَوَوْا فيها ثلاثتهم، فقضى فيها عليٌّ رضي الله عنه أن للأول رُبُعَ الدية، وللثاني النصف، وللثالث الدية كلها، فأخبر النبي ﷺ بقضائه فيهم، فقال: لقد أرشدك الله للحق!!

* بَعْدَ اللَّتَيَّا والَّتي! هما الداهية الكبيرة والصغيرة، وكَنَّى عن الكبيرة بلفظ التصغير تشبيهاً بالحيَّة، فإنها إذا كثر سمها صغرت، لأن السم يأكل جَسَدها، وقيل: الأصل فيه أن رجلاً من جَدِيس تزوج امرأة قصيرة، فقاسى منها الشدائد، وكان يعبر عنها بالتصغير، فتزوج امرأة طويلة، فقاسى منها ضعف ما قاسى من الصغيرة، فطلقها، وقال: بعد اللَّتَيَّا والَّتي لا أتزوج أبداً! فجرى ذلك على الداهية، وقيل: إن العرب تصغِّر الشيء العظيم، كالدُّهَيم واللُّهَيْم، وذلك منهم رمز!

* كُفِيتَ الدَّعوَةَ! أصلُ هذا المثل أن بعض المُجَّان نَزَلَ براهب في صَوْمعته، وساعَدَه على دينه، وجعل يقتدي به، ويزيد عليه في صلاته وصيامه، ثم إنه سَرَقَ صليبَ ذهبٍ كان عنده، واستأذنه لمفارقته، فأذِنَ له وَزَوَّدَه من طعامه، ولما وَدَّعه قال له: صحبَكَ الصليبُ، على عادة لهم فيمن يريدون الدعاء له بالخير، فقال الماجن: كُفِيتَ الدَّعوَةَ! فصار مثلاً لمن يدعو بشيء مفروغ منه!

* أقبحُ هَزِيلَيْن الفَرَسُ والمرأة! يحكى أن عمرو بن اللَّيث عُرِض عليه الجند يوماً يعطي فيه أرزاقهم، فعرض عليه رجل له فرس عَجْفاء، فقال عمرو: هؤلاء يأخذون دَرَاهِمِي ويُسَمِّنُون بها أكفال نسائهم! فقال الرجل: لو رأى الأميرُ كَفَلَها لاستسمن كَفَلَ دابتي! فضحك عمرو، وأمر له بِصِلَةٍ، وقال: سَمِّنْ بها مركوبَيْك!

* كَمُسْتَبْضِعِ التَّمْرِ إلى هَجَر! وذلك أن هَجَر معدنُ التمر، والمستبضع إليه مخطئ، ويقال أيضاً: كمستبضع التمر إلى خيبر!

* عِنَايَةُ القاضي خيرٌ مِنْ شَاهِدي عَدْلٍ!

* عُقُولُ الرِّجَالِ تَحْتَ أَسِنَّة أَقْلاَمِها!

* عَلَى حَسَبِ التَّكبُّرِ في الولاية يكُونُ التَّذَلُّلُ في العَزْلِ!

* قَطَعَتْ جَهِيزَةُ قَوْلَ كُلِّ خَطِيب! أصله أن قوماً اجتمعوا يَخْطُبون في صُلْح بين حيين قتل أحدُهُما من الآخر قتيلاً، ويسألون أن يرضوا بالدِّية، فبيناهم في ذلك إذ جاءت أَمَةٌ يقال لها «جهيزة» فقالت: إن القاتل قد ظَفِرَ به بعضُ أولياء المقتول فقتله! فقالوا عند ذلك قَطَعَتْ جهيزةُ قولَ كل خطيب! أي قد استغنى عن الخُطَب! يضرب لمن يقطع على الناس ما هم فيه بحماقة يأتي بها!

* أَحْمَقُ مِنْ رَبِيعَةَ البَكَّاء!! هو ربيعة بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صَعْصَعَة. ومن حمقه أن أمه كانت تزوَّجت رجلاً من بعد أبيه، فدخل يوماً عليها الخباء وهو رجل قد الْتَحَى، فرأى أُمَّهُ تحت زوجها يُبَاضعها، فتوهَّم أنه يريد قتلها! فرفع صوته بالبكاء، وَهَتك

عنهما الخباء وقال: وا أماه! فلحقه أهلُ الحيِّ وقالوا: ما وراءك؟ قال: دخلت الخِباء فصادفْتُ فلاناً على بطن أمي يريد قتلها! فقالوا: أهْوَنُ مقتولٍ أمّ تحتَ زوجٍ! فذهبت مثلاً، وسمي ربيعة البَكَّاء، فضُرب بحُمقه المثل.

* **تَعِسَت العَجَلَةُ!** أول من قال هذا فِنْدٌ مولى عائشة بنت سعد بن أبي وقاص، وكان أحد المغنَين المَجيدين، وكان يجمع بين الرجال والنساء، وله يقول ابن قيس الرُّقَيَّات:

قُـلْ لِـفِـنْـدٍ يُـشَـيِّـع الأظْـعَـانَـا طـالـمـا سَـرَّ عَـيْـشَـنَـا وكَـفَـانَـا

وكانت عائشة أرسَلَتْه يأتيها بنار، فوجد قوماً يخرجون إلى مصر، فخرج معهم فأقام بها سنة، ثم قدم فأخذ ناراً وجاء يَعْدُو فعثر وتبدَّد الجمر، فقال: تعست العجلة!

* **صرَّ عَلَيْه الغَزْوُ اسْتهُ!!** الصَّرُّ: شد الصِّرَار على أطباء الناقة يضرب لمن ضَيَّقَ تصرفهُ عليه أمره!

قيل: دخل رجل على سليمان بن عبدالملك، وكان سليمان أولَ مَنْ أخذ الجار بالجار، وعلى رأس سليمان وَصِيفة جميلة! فنظر إليها الرجل، فقال له سليمان: أتُعْجِبُكَ؟ فقال: بارك الله لأمير المؤمنين فيها، فقال: أخبرني بسبعة أمثال قيلت في الأسْت وهي لك! فقال الرجل: اسْتُ البائِن أعلم! قال سليمان: واحد، قال: صرَّ عليه الغَزْوُ اسْتَه! قال سليمان: اثنان، قال: اسْتٌ لم تُعَوَّد المِجْمَرَ! قال سليمان: ثلاثة، قال: الحرُّ يُعْطِي والعبدُ يألم اسْتُه! قال سليمان: أربعة، قال الرجل: اسْتي أخْبثي، قال سليمان: خمسة، قال: لا مَاءَكِ أبْقَيْتِ ولا حِرَكِ أنْقَيْتِ! قال سليمان: ليس هذا في هذا! قال: بلى، أَخَذْتُ الجارَ بالجار كما يأخذ أميرُ المؤمنين! قال: خُذْهَا لا باركَ الله لَكَ فيها!!

* **أعْطِ أخَاكَ تَمْرَةً، فإنْ أبَى فجمرة!** يضرب للذي يختار الهَوَان على الكرامة.

* **عِشْ رَجَباً تَرَ عَجَباً!** قالوا من حديثه: إن الحارث بن عُباد بن قيس بن ثعلبة طلَّق بعض نسَائه من بعد ما أسنَّ وَخَرِف، فخَلَفَ عليها بعده رجل كانت تُظْهر له من الوجْد به ما لم تكن تظهر للحارث! فلقي زوجُها الحارث فأخبره بمنزلته منها، فقال الحارث: عِشْ

رَجَباً تَرَ عَجَباً! فأرسلها مثلاً. ورجب كناية عن السَّنة لأنه يحدث بحدوثها، ومن نظر في سنة واحدة ورأى تغير فصولها قاس الدهر كله عليها، فكأنه قال: عِشْ دهراً تَرَ عجائب.

* **العُقُوقُ ثُكْلُ من لمْ يَثْكَلْ!** ! أي: إذا عَقَّه وَلَدُه فقد ثكلهم وإن كانوا أحياء، قال أبوعبيد: هذا في عُقُوق الولد للوالد، وأما قطيعة الرحم من الوالد للولد فقولهم: المُلْكُ عَقِيم! يريدون أن المَلِكَ لو نازعَه ولدُه المُلْكَ لقطع رحمه وأهلكه، حتى كأنه عَقيم لم يولد له.

* **نَفْسُ عِصَام سَوَّدَتْ عِصَاماً!** ! قيل: إنه عصام بن شهبر حاجبُ النعمان بن المنذر الذي قال له النابغة الذبياني حين حَجَبه عن عيادة النعمان من قصيدة له:

فَإنِي لا أَلُومُكَ فِي دُخُول ... وَلَكِنْ مَا وَرَاءَكَ يَا عِصَامُ؟

يضرب في نَبَاهة الرجل من غير قديم، وهو الذي تسميه العرب «الخارجي» يعني أنه خرج بنفسه من غير أولية كانت له، قال كثير:

أَبَا مَرْوَانَ لَسْتَ بِخَارِجِيّ ... وَلَيْسَ قَدِيمُ مَجْدِكَ بِانْتِحَالِ

وفي المثل: كن عصامياً، ولا تكن عظامياً! وقيل:

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامَا ... وَعَلَّمَتْهُ الْكَرَّ وَالإِقْدَامَا
وَصَيَّرَتْهُ مَلِكاً هُمَامَا

يقال: إنه وُصِف عند الحجاج رجلٌ بالجهل، وكانت له إليه حاجة، فقال في نفسه: لأختَبِرَنَّهُ، ثم قال له حين دخل عليه: أعصامياً أنت أم عِظامياً؟ يريد أَشَرُفْتَ أنت بنفسك أم تفتخر بآبائك الذين صاروا عظاماً؟ فقال الرجل: أنا عصامي وعظامي، فقال الحجاج: هذا أفضل الناس، وقضى حاجته، وزاده، ومكث عنده مدة، ثم فاتشه فوجده أجْهَلَ الناس، فقال له: تصدُقُني وإلا قتلتك، قال له: قل ما بدا لك وأصدقك، قال: كيف أَجَبْتَنِي بما أَجَبْتَ لما سألتك عما سألتك؟ قال له: والله لم أعلم أعصامي خير أم عظامي،

فخشيت أن أقول أحدهما فأخطىء، فقلت: أقول كليهما، فإن ضرني أحدهما نفعني الآخر! وكان الحجاج ظَنَّ أنه أراد أفْتَخِرُ بنفسي لِفَضْلي وبآبائي لشرفهم، فقال الحجاج عند ذلك: المقاديرُ تُصَيِّرُ العَيِيَّ خطيباً! فذهبت مثلاً!

* **وافَقَ شَنٌّ طَبَقَة!** كان رجل من دُهاة العرب وعُقلائهم يقال له شَنٌّ، فقال: والله لأطُوفنَّ حتىٰ أجد امرأة مثلي أتزوجها، فبينما هو في بعض مسيره إذ وافقه رجُلٌ في الطريق، فسأله شَنٌّ: أين تريد؟ فقال: موضع كذا، يريد القرية التي يقصدها شَنٌّ. فوافقه، حتىٰ إذا أخذا في مسيرهما قال له شَنٌّ: أتحملُني أم أَحْمِلُكَ؟ فقال له الرجل: يا جاهل أنا راكب وأنت راكب، فكيف أحملك أو تحملني؟ فسكَتَ عنه شَنٌّ، وسارا حتىٰ إذا قَرُبَا من القرية إذا بزَرْع قد استحصد، فقال شَنٌّ: أترىٰ هذا الزرع أُكل أم لا؟ فقال له الرجل: يا جاهل ترىٰ نَبْتاً مُستَحْصِداً فتقول أكل أم لا! فسكت عنه شن حتىٰ إذا دخلا القرية لَقِيتهما جنازة فقال شن: أترىٰ صاحب هذا النَّعش حياً أو ميتاً؟ فقال له الرجل: ما رأيتُ أَجْهَل منك، ترىٰ جِنازة تسأل عنها أَمَيْتٌ صاحبها أم حي؟ فسكت عنه شَنٌّ، فأراد مُفارقته، فأبىٰ الرجل أن يتركه حتىٰ يصير به إلىٰ منزله فمضىٰ معه، فكان للرجل بنت يقال لها طبقة، فلما دخل عليها أبوها سألته عن ضيفه، فأخبرها بمرافقته إياه، وشكا إليها جَهْلَه، وحدثها بحديثه، فقالت: يا أبت، ما هذا بجاهل، أما قوله: أتحملني أم أحملك، فأراد أتحدِّثني أم أُحَدِّثك حتىٰ نقطع طريقنا! وأما قوله: أترىٰ هذا الزرع أُكِلَ أم لا، فأراد هل باعه أهلُه فأكلوا ثمنه أم لا! وأما قوله في الجنازة فأراد هل ترك عقباً يحيا بهم ذكرُهُ أم لا! فخرج الرجل فَقَعَد مع شَنّ فحادثه ساعة، ثم قال: أتحبُّ أن أفَسِّرَ لك ما سألتني عنه؟ قال: نعم فَسِّرْهُ، فَفَسَّرَهُ، قال شن: ما هذا من كلامك، فأَخْبِرْني عن صاحبه؟ قال: ابنة لي، فخطبها إليه، فزوَّجَه إياها، وحملها إلىٰ أهله، فلما رأَوْهَا قالوا: وَافَقَ شنٌّ طَبَقَةَ، فذهبت مثلاً. يضرب للمتوافقين.

* **خلع الدرع بيد الزوج!!** المثل لرقاش بنت عمرو بن تغلب بن وائل، وكان تزوجها كعب بن مالك بن تيم الله بن ثعلبة فقال لها: اخلعي درعك، فقالت: خلع الدرع بيد الزوج! فقال: اخلعيه لأنظر إليك! فقالت: التجرد لغير النكاح مثلة! فذهبت كلمتاها مثلين!

* **إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض!** يروىٰ أن أمير المؤمنين علياً رضي الله تعالىٰ عنه قال: إنما مثلي ومثل عثمان كمثل أثوار ثلاثة كنّ في أَجَمة (الأجمة: الشجر الكثيف الملتف) أبيض وأسود وأحمر، ومعهن فيها أسد، فكان لا يقدر منهن علىٰ شيء لاجتماعهن عليه، فقال للثور الأسود والثور الأحمر: لا يدل علينا في أجمتنا إلا الثور الأبيض، فإن لونه مشهور ولوني علىٰ لونكما، فلو تركتماني آكله صفت لنا الأجمة! فقالا: دونك فكله، فأكله، ثم قال للأحمر: لوني علىٰ لونك، فدعني آكل الأسود لتصفو لنا الأجمة، فقال: دونك فكله، فأكله، ثم قال للأحمر: إني آكلك لا محالة، فقال: دعني أنادي ثلاثا، فقال: افعل، فنادىٰ: ألا إني أكلت يوم أكل الثور الأبيض! ثم قال علي رضي الله تعالىٰ عنه: ألا إني هنت ـ ويروىٰ وهنت ـ يوم قتل عثمان، يرفع بها صوته! يضرب به للرجل يرزأ بأخيه.

* **دون ذا وينفق الحمار!** أراد رجل بيع حمار له، فقال لمشور: أطر حماري ولك علي جُعل، فلما دخل به السوق قال له المشور: هذا حمارك الذي كنت تصيد عليه الوحش؟ فقال الرجل: دون ذا وينفق الحمار! أي الزم قولاً دون الذي تقول، أي أقل منه، والحمار ينفق الآن دون هذا التنفيق، أي ينفق من غير هذا القول، يضرب عند المبالغة في المدح إذا كان بدونه اكتفاء.

* **صبراً على مجامر الكرام!** قال قوم: راود يسار الكواعب مولاته عن نفسها، فنهته، فلم ينته، فقالت: إني مبخرتك ببخور، فإن صبرت عليه طاوعتك، ثم أتته بمجمرة فلما جعلتها تحته قبضت علىٰ مذاكيره فقطعتها وقالت: صبراً علىٰ مجامر الكرام! يضرب لمن يؤمر بالصبر علىٰ ما يكره تهكّماً.

* وقيل: إن أعرابياً قدم الحضر بإبل، فباعها بمال جمّ وأقام لحوائج له، ففطن قوم من جيرته لما معه من المال، فعرضوا عليه تزويج جارية وصفوها بالجمال والحسب والكمال طمعاً في ماله، فرغب فيها فزوجوه إياها، ثم إنهم اتخذوا طعاماً وجمعوا الحي وأجلس الأعرابي في صدر المجلس، فلما فرغوا من الطعام، ودارت الكؤوس، وشرب

الأعرابي، وطابت نفسه، أتوه بكسوة فاخرة وطيب، فألبس الخلع ووضعت تحته مجمرة فيها بخور لا عهد له بذلك، وكان لا يلبس السراويل، فلما جلس عليها سقطت مذاكيره في المجمرة، فاستحيا أن يكشف ثوبه، وظن أن تلك سنة لابد منها! فصبر على النار وهو يقول: صبراً على مجامر الكرام! فذهبت مثلاً، واحترقت مذاكيره، وتفرق القوم، وارتحل الأعرابي إلى البادية، وترك امرأته وماله! فلما قص على قومه ما رأى قالوا: اسْتٌ لم تعوّد المَجْمر! فذهب قولهم مثلا أيضاً! يضرب لمن لم يكن له عهد قديم!

* **ثلّ عرشه!** أي ذهب عزه وساءت حاله، يقال: ثللت الشيء، إذا هدمته وكسرته. وإذا كسر عرش الرجل فقد هلك وذل.

* **الكلاب تشبع خبزاً!** يضرب لمن امتن عليك بالقوت.

* **الكلب لا ينبح من في داره**.

* **لو ذات سوار لطمتني!** أي لو لطمتني ذات سوار، والمعنى لو ظلمني من كان كفؤاً لي، لهان علي، ، ولكن ظلمني من هو دوني! وقيل: أراد لو لطمتني حرة، فجعل السوار علامة للحرية، لأن العرب قلما تُلبس الإماء السوار، فهويقول: لو كانت اللاطمة حرة لكان أخف علي!

* **أنا دون هذا، وفوق ما في نفسك!!** قاله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لرجل مدحه نفاقا!

* **إذا زل العالم زلّ بزلته عَالمَ!** لأن للعالم تبعا فهم به يقتدون، قال الشاعر:

إن الفقيه إذا غوى وأطاعه ... قومٌ غووا معه فضاع وضيعا
مثل السفينة إن هوت في لُجة ... تغرق ويغرق كل ما فيها معا

* **إن الذليل من ذل في سلطانه!** يضرب لمن ذل في موضع التعزز وضعف حيث تنتظر قدرته.

* **إن كنت كذوبا فكن ذكوراً!** يضرب للرجل الذي يكذب ثم ينسى فيحدث بخلاف ذلك.

* **إذا اشتريت فاذكر السوق!** يعني إذا اشتريت فاذكر البيع لتجتنب العيوب.

* **إذا اصطلح الفأر والسنور خرب دكان البقال!** يضرب في تظاهر الخائنين، وتعاونهما.

* **أمكر وأنت في الحديد؟!** هذا المثل لعبدالملك بن مروان، قاله لسعد بن عمرو بن العاص، وكان مكبّلاً، فلما أراد قتله قال: يا أمير المؤمنين، إن رأيت ألا تفضحني بأن تخرجني للناس فتقتلني بحضرتهم فافعل، وإنما أراد سعيد بهذه المقالة أن يخالفه عبدالملك فيما أراد فيخرجه، فإذا أظهره منعه أصحابه وحالوا بينه وبين قتله، فقال: يا أبا أمية أمكراً وأنت في الحديد!! يضرب لمن أراد أن يمكر وهو مقهور.

* كل النداء إذا ناديت يخذلني ... إلا ندائي إذا ناديت يا مالي!

هذا من قول أحيحة، وبعده:

استغن أو مت ولا يغررك ذو نسب ... من ابن عم ولا عم ولا خال

إني مقيم على الزوراء أعمرها ... إن الحبيب إلى الإخوان ذو المال!

* **أكثر من الصديق فإنك على العدو قادر!** أول من قال هذا أبجر بن جابر العجلي، وكان من خبر ذلك أن حجار بن أبجر كان نصرانياً، فرغب في الإسلام، فأتى أباه فقال: يا أبت إني أرى قوماً قد دخلوا في هذا الدين ليس لهم مثل قدمي، ولا مثل آبائي، فشرفوا، فأحب أن تأذن لي فيه، فقال: يا بني إذا أزمعت على هذا فلا تعجل حتى أقدم معك على عمر فأوصيه بك، وإن كنت لابد فاعلاً فخذ مني ما أقول لك: إياك وأن تكون لك همة دون الغاية القصوى، وإياك والسآمة فإنك إن سئمت قذفتك الرجال خلف أعقابها، وإذا دخلت مصراً فأكثر من الصديق فإنك على العدو قادر! وإذا حضرت باب السلطان فلا تنازعن بوابه على بابه، فإن أيسر ما يلقاك منه أن يعلقك اسما يسبك الناس به! وإذا

وصلت إلى أميرك فبوئ لنفسك منزلا يجمل بك، وإياك أن تجلس مجلساً يقصر بك، وإن أنت جالست أميرك فلا تجالسه بخلاف هواه فإنك إن فعلت ذلك لم آمن عليك - وإن لم تعجل عقوبتك - أن ينفر قلبه عنك فلا يزال منك منقبضاً، وإياك والخطب فإنها مشوار كثير العثار، ولا تكن حلواً فتزدرد، ولا مُرّاً فتلفظ!

* **أهون من النباح على السحاب!** وذلك أن الكلب بالبادية إذا ألحت عليه السحاب بالأمطار لقي جهداً، لأن مبيته أبداً تحت السماء، وكلاب البادية متى أبصرت غيماً نبحته لأنها قد عرفت ما تلقى من مثله، ولذلك يقال في مثل آخر: لا يضر السحاب نباح الكلاب، ولا الصخرة تفليل الزجاج! وقال بعض بلغاء أهل الزمان: وما عسى أن يكون قرص النملة، ولسع النحلة، ووقوع البقة على النخلة، ونباح الكلاب على السحاب، وما الذباب وما مرقته؟ ولذلك قال شاعرهم:

ومالي لا أغزو وللدهر كرة ... وقد نبحت تحت السماء كلابها

* **هو إمعة!** وهو ضعيف الرأي الذي يقول للكل: أنا معك!

* **يا شاة أين تذهبين؟ قالت: أجز مع المجزوزين!** يضرب للأحمق ينطلق مع القوم وهو لا يدري ما هم فيه وإلى ما يصير إليه أمرهم!

* **يستف التراب ولا يخضع لأحد على باب**: يضرب للأبي.

* **اعمل حاجتي بإيدي ولا أقول للكلب يا سيدي!**

* **الهوى الهوان**. أول من قال ذلك رجل من بني ضبة يقال له أسعد بن قيس، وصف الحب فقال: هو أظهر من أن يخفى، وأخفى من أن يرى، فهو كامن كمون النار في الحجر، إن قدحته أورى، وإن تركته توارى، وإن الهوى الهوان، ولكن غلط باسمه، وإنما يعرف ما أقول، من أبكته المنازل والطلول! فذهب قوله مثلاً!

* **وقع الكلب على الذئب!** هذا من قول عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهم. وذلك أنه سئل عن رجل غصب رجلاً مالاً ثم قدر المغصوب على مال الغاصب، أيأخذ منه مثل ما أخذ منه. يضرب في الانتصار من الظالم.

* **على أهلها تجني براقش!** كانت براقش كلبة لقوم من العرب فأغير عليهم، فهربوا ومعهم براقش، فاتبع القوم آثارهم بنباح براقش، فهجموا عليهم فاصطلموهم. وقيل إن براقش امرأة كانت لبعض الملوك، فسافر الملك واستخلفها، وكان لهم موضع إذا فزعوا دخَّنوا فيه، فإذا أبصره الجند اجتمعوا، وإن جواريها عبثن ليلة فدخن فجاء الجند، فلما اجتمعوا قال لها نصحاؤها: إنك إن رددتهم ولم تستعمليهم في شيء ودخنتهم مرة أخرىٰ لم يأتك منهم أحد، فأمرتهم فبنوا بناء دون دارها، فلما جاء الملك سأل عن البناء فأخبروه بالقصة فقال: علىٰ أهلها تجني براقش! فصارت مثلاً، وقيل في هذا المثل غير ذلك.

* **عَبْدُ غيرك حرّ مثلك!** يضرب للرجل يرىٰ لنفسه فضلاً علىٰ الناس من غير تفضل وتطول!

* **إن وراء الأكمة ما وراءها!** أصله أنّ أَمَة واعدت صديقها أن تأتيه وراء الأكمة إذا فرغتِ من مهنة أهلها ليلاً، فشغلوها عن الإنجاز بما يأمرونها من العمل، فقالت حين غلبها الشوق: حبستموني وإن وراء الأكمة ما وراءها! يضرب لمن يفشي عن نفسه أمراً مستوراً!

* من صانع **الحكام لم يحتشم!** أي من رشا الحاكم لم يحتشم من التبسط عليه!

يضرب في بذل المال عند طلب المراد

* **نار الحرب أسعر.** كانت العرب إذا أرادت حرباً أوقدت ناراً. لتصير إعلاماً للناهضين فيها، قال الله عز وجل: ﴿**كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله**﴾.

* **الندم على السكوت خير من الندم على القول!** يضرب في ذم الإكثار.

* **مات حتف أنفه.** أي مات ولم يُقتل، وأصله أن يموت الرجل علىٰ فراشه فتخرج نفسه من أنفه وفمه! قال خالد بن الوليد عند موته: لقد لقيت كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية، وها أنذا أموت حتف أنفي كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء!

* **الحسنة بين السيئتين.** يضرب للأمر المتوسط. دخل عمر بن عبدالعزيز رحمه الله

علىٰ عبدالملك بن مروان وكان ختنه علىٰ ابنته فاطمة، فسأله عن معيشته كيف هي، فقال عمر: حسنة بين السيئتين، ومنزلة بين المنزلتين! فقال عبدالملك: خير الأمور أوسطها!

* الناس أتباع من غلب!

* النكاح يفسد الحب.

* الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم.

* النقد صابون القلوب.

* النصح بين الملأ تقريع.

* الناس على دين الملوك.

* أنجس ما يكون الكلب إذا اغتسل!

* نعم المؤدب الدهر.

* نعم الثوب العافية، إذا انسدل على الكفاف.

* يمشي رويداً ويكون أولاً. يضرب للرجل يدرك حاجته في تؤدة ودعة، وينشد:

* تسألني أم الوليد جملاً   يمشي رويداً ويكون أولاً

* يفنى ما في القدور، ويبقى ما في الصدور.

* يحمل التمر إلى البصرة. يضرب لمن يهدي إلىٰ إنسان ما هو من عنده.

* أنا أجرّه إلى المحراب وهو يجرني إلى الخراب.

* ذهب الحمار يطلب قرنين فرجع بلا أذنين.

* عصفور مهزول على خوانك خير من كركيّ على خوان ـ مائدة ـ غيرك.

* الحَبّ لغيري ونقل الحشيش عليّ. ومثله:

وإذا تكون كريهةٌ أُدْعىٰ لها   وإذا يُحاس الحَيْسُ يُدْعىٰ جُندب!

* إن لم يجيء معك فاذهب معه .

* حيث تقطع يخرج الدم .

* كلّ ما في القدر تخرجه المغرفة .

* إذا كان بَوْلُكَ صحيحاً فارم به وجه الطبيب .

* ليس كل من سوّد بيته يقول أنا حداد ، ولا كل من دمعت عيناه يقول أنا طباخ .

* أحوج ما تكون إلى اليهودي يقول : اليوم السبت .

* الكلمة اللينة تخرج الحية من جحرها .

* إنه ليعلم من أين تؤكل الكتف .

* إنك لا تجني من الشوك العنب .

* لو تُرك القطا ليلاً لنام .

* ليس هذا بعُشِّك فادْرُجي .

* من تردّى بثوب السخاء غاب عن الناس عيبهُ!

تأملات

* باع أبو الجهم العدوي داره بمائة ألف درهم، ثم قال للمشتري : بكم تشتري جوار سعيد بن العاص؟ فقالوا له : وهل يشتريْ الجوار؟ فقال : ردّوا علي داري، وخذوا دراهمكم، والله لا أدع جوار رجل إن فقدت سأل عني، وإن رآني رحّب بي، وإن غبت حفظني، وإن شهدت قربني، وإن سألته أعطاني، وإن لم أسأله ابتدأني، وإن نابتني جائحة فرّج عني، فبلغ ذلك سعيداً، فبعث إليه بمائة ألف درهم!

* متى يكمل البنيان يوماً تمامه ... إذا كنت تبنيه وغيرك يهدمُ
ولو ألف بانٍ خلفهم هادمٌ كفى ... فكيف ببانٍ خلفه ألف هادم

فرسان المنابر

* دخل سُحبان وائلَ يوماً على معاوية وعنده خطباء القبائل، فلمَّا رأوه خرجوا لعلمهم بقصورهم عنه فقال:

لقد علم الحيّ اليمانيُّ أنني إذا قلت «أمَّا بعد» أنّي خطيبها

فقال له معاوية: اخطب. فقال: انظروا لي عصا! قالوا: وما تصنع بها في حضرة أمير المؤمنين؟ قال: وماذا كان يصنع بها موسى وهو يُكَلِّمُ ربّه؟! فأخذها، فتكلم من الظهر إلى أن كادت صلاة العصر تفوت، ما تنحنح ولا سعل ولا توقّف! فقال معاوية: الصلاةُ. فقال: الصلاة أمامك، ألسنا في تحميد وتمجيد، وعظة وتنبيهٍ، ووعدٍ ووعيدٍ؟! فقال له معاوية: أنت أخطب العرب. قال: العَرَبَ وحدهمُ؟! بل الإنس والجنِّ! فقال: كذلك أنت. وسحبانُ هو أوّل من قال: «أمّا بعدُ»، وأوّل من توكّأ على عصا وهو يخطب. وبه يضرب المثل في الخطابه والفصاحة.

* ومِنْ أشهر خطباء العرب قبل الإسلام قُسّ بن ساعدة الإياديّ. فقد كان يخطب في المواسم يعظ الناس ويرشدهم، ومن خطبه الشهيرة تلك الخطبة التي رُوي عن النبي عليه الصلاة والسلام أنّه سمعها من قُسّ وهو يُلقيها على الناس في الموسم في سوق عُكاظ حيث جاء في الحديث: «رأيته بسوق عُكاظ على جمل أورق، وهو يقول: (أيُّها الناس اجتمعوا واسمعوا وعُوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكلٌّ ما هو آتٍ آت...). ومما قاله قس في خطبته هذه: ليل داجٍ(١)، ونهار ساجٍ(٢)، وسماءٌ ذات أبراج(٣)، ونجومٌ تزهر(٤)، وبحارٌ تزخر(٥)، وجبال مُرساة(٦)، وأرضٌ مُدْحاة(٧)، وأنهارٌ مجراة. إنّ في السماء لَخَبراً، وإنّ في الأرض لَعِبَراً، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أَرَضُوا فأقاموا؟ أم تُركوا فناموا؟ يا معشر إيادٍ، أين الآباء والأجداد، وأين

(١) داج: مظلم. (٢) ساج: ساكن هادئ. (٣) أبراج: أركان.
(٤) تزهر: تضيء. (٥) تزخر: تمتلئ. (٦) مرساة: ثابتة. (٧) مدحاة: مبسوطة.

الفراعنة الشِّداد؟ ألم يكونوا أكثر منكم مالاً وأطول آجالاً؟ طحنهم الدهر بكَلْكَله(١)، ومزَّقهم بتطاوله:

فـي الـذاهـبـين الأوَّلـيـن ... مـن الـقـرون لـنـا بـصـائـرْ

لَمـا رأيـت مـوارداً ... لـلـمـوت لـيـس لـهـا مـصـادِرْ(٢)

ورأيـت قـومـي نـحـوهـا ... يـسـعـى الأصـاغِـرُ والأكـابـرْ

لا يـرجـع المـاضـي إلـيَّ ... ولا مـن الـبـاقـين غـابِـرْ(٣)

أيـقـنـتُ أنـي لا مـحـالـة ... حـيـث صـار الـقـوم صـائـرْ

* ومن الخطب الشهيرة، خطبة الحجَّاج بن يوسف الثقفيّ التي ألقاها في مسجد الكوفة عندما دخل العراق والياً عليها، فصعد المنبر وهو ملثَّم بعمامة حمراء، ثمَّ كشف عن وجهه، فألقى على الناس خطبة سياسيَّة بليغة، قال فيها: أما والله إنِّي لأحمل الشرَّ بحَمْله، وأحذوه بنَعْله، وأجزيه بمثله، وإنِّي لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قِطافُها، وإنِّي لصاحبها! وإنِّي لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللِّحى تترقرق! وقال: إنِّي والله يا أهل العِراق، ومعدن الشِّقاق والنِّفاق، ومساوي الأخلاق، لا يُغْمَز جانبي كتِغْماز التِّين(٤)، ولا يقعقع لي بالشِّنان(٥)، ولقد فُرِرْتُ(٦) عن ذكاء، وفُتِّشت عن تجربة، وأُجْريت إلى الغاية القُصوى، وإنَّ أمير المؤمنين نثر كنانته بين يديه، ثمَّ عجم(٧) عيدانها، فوجدني أمرَّها عوداً وأشدَّها مكسراً، فوجَّهني إليكم، ورماكم بي، فإنَّه قد طالما أوضعتم في الفتن، وسننتم سُنَن الغَيّ، وأيم الله لألحونَّكم لحْوَ(٨) العصا، ولأقرعنَّكم قَرْع المَرْوَة(٩)،

---

(١) الكَلْكَل: الصدر. (٢) المصادر: جمع مصدر: وهو الرجوع من المورد بعد الشُّرْب.

(٣) غابر: الماكث، الباقي. (٤) غمز التين: جسَّه ليعرف أناضجٌ هو أم فجٌّ.

(٥) لا يقعقع لي بالشِّنان: أي: لا أُخدع ولا أُروَّع. (٦) فُرَّ فلان: جُرِّب واختبر.

(٧) عجم عيدانها: اختبرها ليعلم صلابتها. (٨) لحا العصا لحْواً: قشرها.

(٩) قرعه قرع المروة: أنزل به البلاء.

ولأعصبنّكم عصْب السَّلَمَة[1]، ولأضربنّكم ضَرْب غرائب[2] الإبل، أما والله لا أَعِد إلاَّ وفَّيت، ولا أخْلُق إلاَّ فَرَيت[3]!

خطباء في مواقف محرجة

* الخطبة فيها عرض الفكر، وفتح صفحة العقل للناس، وبيان مستوى الذكاء والفهم، ولذلك كان الكثيرون يهابونها، ويُعدون العُدّة لها. * قيل لعبدالملك: أسرع إليك الشيب! فقال: كيف لا، وأنا أعرض عقلي في كل جمعة على الناس! وقال مرة: شيبني صعود المنابر وتوقّع اللحن. وقال عبيدالله بن زياد: نعم الشيء الإمارة لولا قَعْقَعَةُ البريد وصعوبة المنبر! والخوف من البريد خشية العزل!

* ويجب أن يكون الخطيب: رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللّحظ، متخيّر اللفظ، جهير الصوت، وأن يورد في خطبته آيات من القرآن الكريم وإلا كانت شوهاء، قال عمران بن حطان: أول خطبة خطبتها عند زياد، فقال: هذا الفتى أخطب الناس لو كان في خطبته شيء من القرآن.

* ولِمَا في الخطبة من صعوبة وما في صعود المنابر من مشقة، فقد أبان الخطباء عن المهابة التي تعتريهم، والخوف الذي ينتابهم أثناءها. ومن نصائحهم في ذلك: إياك والخطبة فإنها مشوار كثير العثار.

* تكلمت الخطباء يوماً عند معاوية فأكثروا. قال: والله لأَرْمِيَنكم بالخطيب الأَشْدق. قم يا زياد فتكلم! وقال عبدالملك لخالد بن سلمة القرشي: مَنْ أخطبُ الناس؟ قال: أنا! قال: ثم من؟ قال: أنا! قال: ثم مَنْ؟ قال: شيخ جُذَام ـ يعني رَوْح بن زنْباع ـ قال: ثم من؟ قال: أُخيفش ثقيف ـ يعني الحجاج ـ قال: ثم من؟ قال: أميرُ المؤمنين!

* وكثير من الخطباء الكبار كانوا يقفون مواقف محرجة فيحبس أحدهم ولا يدري ما

---

(١) أي: لأجمعنكم ثمَّ أضربكم ضربة الحجارة.

(٢) غرائب الإبل: جمع غريبة: النائية عن وطنها غير المأنوسة. (٣) أخلُق: أقدر. أفري: أقطع.

يقول! وما هذا إلا ليظهر ضعف الإنسان وأنه مهما بلغ في الفصاحة والبلاغة والبيان فإنه يظل عبداً مخلوقاً يحتاج إلىٰ عون الله وتأييده وتثبيت قلبه، وكل واحد ممن أحصر في خطبته اعتذر بعذر رآه مناسباً لموقفه!

* حضر عبدالله بن عامر علىٰ منبر البصرة فاشتد جزعه فانقطع وخجل، فبعث إلىٰ قوم من القبائل عابوا ذلك وجمعهم، فأمر أحدهم أن يخطب، فلما ابتدأ الكلام، حصر فقال: لا أدري ما أقول لكم، ولكني أشهدكم أن امرأتي طالق، فهي التي أكرهتني علىٰ الحضور! ثم أمر آخر فصعد المنبر فأُرتج ونظر إلىٰ رجل أصلع أمامه فقال: اللهم العن هذه الصلعة، وصعد آخر فخطب فقال: أما بعد فوالله ما أدري ما أقول ولا فيمَ أقمتموني، أقول ماذا؟ فسخر منه بعضهم وقال: قل في الزيت! فقال: الزيت مبارك، فكلوا منه وادهنوا!

* يقال: أُرْتج علىٰ القارئ إذا لم يقدر علىٰ القراءة كأنه أطبق عليه كما يرتج الباب. مختار الصحاح - رتج -.

* وقد يأمر أحد الخطباء من أمامه بغض أبصارهم لئلا يدهش. صعد أعرابي المنبر، فلما رأىٰ الناس يرمقونه صعب عليه الكلام، فقال: رحم الله عبداً قصر من لفظه ورشق الأرض بلحْظه، ووعىٰ القول بحفظه. وقد يفعل هذا أعظم فرسان المنابر ومن اعتاد ركوب صهوتها. صعد روح بن زنباع المنبر، فلما رفع الناس أبصارهم قال لهم: نكسوا رؤوسكم وغضوا أبصاركم، فإنّ أوّل مركب صعب، وإذا يسر الله فَتْحَ قُفْلٍ تَيَسَّرَ!

* وأُرتج علىٰ يزيد بن المهلب، فلما نزل قال:

فإن لا أكن فيكم خطيباً فإنني ... بسيفي إذا جدّ الوغىٰ لخطيبُ

فقيل له: لو قلت هذا علىٰ المنبر لكنت أخطب العرب!

* ولما أتىٰ يزيد بن أبي سفيان الشام والياً لأبي بكر رضي الله عنه، خطب فأُرتج عليه، فعاد إلىٰ الحمدلله فأرتج عليه، فعاد إلىٰ الحمدلله ثم أرتج عليه، فقال: يا أهل الشام

عسى الله أن يجعل من بعد عُسْر يُسراً، ومن بعد عِيٍّ بياناً، وأنتم إلى إمام فاعل أحوج منكم إلى إمام قائل، ثم نزل. فبلغ ذلك عمرو بن العاص فاستحسنه.

هيبة الموقف

* وقد يكون للمناسبة التي يخطب فيها الشخص دور فعال في إرباكه وتشتيت أفكاره. أول خطبة خطبها عثمان بن عفان رضي الله عنه أُرتج عليه، فقال: أيها الناس، إن أول كل مركب صعب، وإن أعش تأتكم الخُطب على وجهها، وسيجعل الله بعد عسر يسراً إن شاء الله.

* وخطب معاوية بن أبي سفيان لما ولي فَحَصِر، فقال: أيها الناس، إني كنت أعددتُ مقالاً أقوم به فيكم فحُجبت عنه، فإن الله يحول بين المرء وقلبه، كما قال في كتابه، وأنتم إلى إمام عَدْل، أحوجُ منكم إلى إمام خطيب، وإني آمركم بما أمر الله به ورسوله، وأنهاكم عما نهاكم الله ورسوله، وأستغفر الله لي ولكم!

* وخطب رجل فحمد الله ثم أُرتج عليه فسكت، ثم قال: والله إني لأكون في بيتي فتجيء على لساني ألفُ كلمة، فإذا قُمْتُ على أعوادكم هذه جاء الشيطان فمحاها من صدري! ولقد كنتُ وما في الأيام يومٌ أحبُّ إليّ من يوم الجمعة، فصرتُ وما في الأيام يومٌ أبغضُ إليّ من يوم الجمعة، وما ذلك إلا لخطبتكم هذه!

* وأُرتج على معن بن زائدة فضرب المنبر برجله ثم قال: فتى حُرُوب لا فتى منابر!

* وأُرتج على خالد بن عبدالله القَسْريّ على منبر الكوفة فقال: إن هذا الكلام يجيء أحياناً ويَعْزُب أحياناً، ويسهل عند مجيئه، ويعسر عند عُزوبه طلبُه، وربما طُلب فأبى وكُوبر فعَسَا ـ اشتد وصعب ـ فالتّأني لمجيئه أيسَر من التعاطي لأَبيِّه وقد يختلط من الجريء جَنَانُه، وينقطع من الذّرِبِ لسانُه، فلا يُبطره ذلك ولا يكسره وسأعود فأقول إن شاء الله.

* صعد أحدهم على منبر البصرة، وقال: الحمدلله؛ ثم أرتج عليه، فقال: قد والله هَممتُ ألاّ أحضر اليوم، فقالت لي امرأتي: نشدتك الله إن تركت الجمعة وفضلها.

فأطعتها فوقفتُ هذا الموقف، فاشهدوا أنها طالق! فقالوا له: انزل قبّحك الله، وأُنزل إنزالاً عنيفاً!

* صعد عتاب بن ورقاء المنبر فحمد الله ثم أرتج عليه، فجعل يقول: أما بعد، وقبالة وجهه شيخ أصلع فقال: أما بعدُ يا أصلع، فوالله ما غلطني غيرك، علي به فأتي به فضربه أسواطاً!!

* خطب عبدالله بن عامر بالبصرة في يوم أضحى فأُرتج عليه، فمكث ساعة ثم قال: والله لا أجمع عليكم عِيّاً ولؤماً، من أخذ شاة من السوق فهي له وثمنها عليّ!

* وصعد أحد الولاة المنبر فأُرتج عليه فقال: حيا الله هذه الوجوه وجعلني فداءها، إني قد أمرتُ طائفي بالليل ألا يرى أحداً إلا أتاني به وإن كنت إياه، ثم نزل!

من نوادر الخطباء

* جرت العادة أن يسبق النكاح خطبة تتناول الرغبة فيه والعزم عليه، وكان هذا معروفاً وشائعاً فيما مضى. ويروى أن عمر بن الخطاب رضي لله عنه كان يجد صعوبة في خطبة النكاح. ومن طريف ما يروى في هذا أن رجلاً دُعي ليخطب في نكاح فَحَصِر فقال: لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله! فقالت امرأة حضرت: ألهذا دعوناك؟ أماتك الله!

* صعد أبو العَنْبس منبراً من منابر الطائف، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فأُرتج عليه، فقال: أتدرون ما أريد أن أقول لكم؟ قالوا: لا. قال: فما ينفعكم ما أريد أن أقول لكم، ثم نزل. فلما كان في الجمعة الثانية صعد المنبر، وقال: أما بعد فأُرتج عليه، فقال: أتدرون ما أريد أن أقول لكم؟ قالوا: نعم، قال: فما حاجتكم إلى أن أقول لكم ما علمتم؟ ثم نزل، فلما كانت الجمعة الثالثة قال: أما بعد فأُرتج عليه. قال: أتدرون ما أريد أن أقول لكم؟ قالوا: بعضنا يدري وبعضنا لا يدري، قال: فليخبر الذي يدري منكم الذي لا يدري! ثم نزل!

* اجتمع الناس عند معاوية، وقام الخطباء لبيعة يزيد، وأظهر قوم الكراهة، فقام

رجل من الخطباء من عذرة ـ إحدىٰ القبائل، وإليها ينسب الحب العذري ـ يقال له: يزيد بن المقنّع، فاخترط من سيفه شبراً، ثم قال: أمير المؤمنين هذا، وأشار إلىٰ معاوية، فإن يهلك فهذا، وأشار إلىٰ يزيد، ثم قال: فمن أبىٰ فهذا وأشار إلىٰ سيفه، فقال له معاوية: أنت سيد الخطباء!

* جاء في وصية الحجاج لقتيبة بن مسلم وقد شكا إليه الحصر علىٰ المنبر: أنزل الناس بمنزلة رجل واحد من أهل بيتك وخاصتك، وارم ببصرك أمامك تبلغ حاجتك.

* قال أحد الخطباء: كان يصلي معي شخص يضايقني ويتدخل فيما لا يعنيه من أمر المسجد وموضوع الخطبة وطولها وقصرها، «فهربت» منه إلىٰ مسجد آخر، فلما صعدت المنبر ورميت لحظي للناس رأيته بين يدي! فما تمالكت نفسي.. فأغمي عليّ وسقطت علىٰ الأرض، فانتبهت وأنا في المستشفىٰ!

* قال أحد الظرفاء: كان يخطب في الناس في أحد البلدان رجل جاهل، يقرأ خطبته من كتاب، فخطب في الصيف عند موسم الحصاد، ودعا في آخر الخطبة «اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين» فجاءه أحدهم وقال: إذا لم يكن عندك علم ألا يوجد ذوق وفهم؟! أهذا أوان طلب نزول المطر؟ والله إن نزل مطر علىٰ البيادر فلتدْفعنّ ثمن الزرع!!!

* كان أحد الخطباء يلقي خطبة مكتوبة، فوصل إلىٰ فقرة منها لم يفهم معناها وقرأها هكذا: البلاطم والزناعم! واحد وخمسون واحد وخمسون! ولم يفهم الناس هذا الكلام، وبعد الخطبة سألوه عما أورده من هذا الكلام المبهم، فرجع لنص الخطبة المكتوبة، فتبين أنه أخطأ بالقراءة، وصواب الجملة هكذا: البلاءُ طمّ، والزّنا عَمّ، آهٍ، آهٍ!!

تأملات

* الآراء كالمسامير، كلما طرقها المرء أكثر ازدادت عمقاً!

* قبل الرمي يُراش السهم! يضرب للاستعداد للأمر قبل حدوثه.

اللغة العربية.. زينة للعقول

* أبو الأسود الدُّؤلي - ظالم بن عمرو - هو واضع علم النحو، وكان فصيحاً حازماً عاقلاً وشاعراً مجيداً، تنازع هو وامرأته في ولد منهما، إلى زياد بن أبيه، فقال أبو الأسود: أنا أحق به منها، حملْتُه قبلها، ووضعْتُه قبلها، فقالت: حَمَله خفّاً، ووضعه شهوة، وحملتُه ثِقلاً ووضعْتُه كُرْهاً، فقال زياد: صدقت، أنت أحقّ به ما لم تَزَوّجي. ثم قال: أما لو أدركتنا يا أبا الأسود وبك قوة لاستعنا بك على بعض أمورنا! فقال: أللصراع تريدني؟!

* وقال يوماً لمعاوية: لو كنت مكان أبي موسى ما صنعتُ ما صنع، قال: وما كنت تصنع؟ قال: كنتُ أنظر عدةً من المهاجرين وعدةً من الأنصار ثم أنشدهم بالله تعالى - أي أستحلفهم - آلمهاجرون أحقّ بالخلافة أم الطلقاء؟ - الذين عفا عنهم رسول الله يوم فتح مكة وقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء - فقال معاوية: أقسمتُ عليك بالله لا تذكُرْها ما عشت.

* لما كبر أبو الأسود الدؤلي وأسنّ كان يركب إلى المسجد والسوق ويزور أصدقاءه، فقال له رجل: يا أبا الأسود أراك تكثر الركوب وقد ضعفْتَ عن الحركة وكبرت، فلو لزمت منزلك كان أودع لك! فقال أبو الأسود: صدقت، ولكن الركوب يشدّ أعضائي، وأسمع من أخبار الناس ما لا أسمعه في بيتي، وأستنشق الريح وألقى إخواني، ولو جلست في بيتي لاغتمَّ أهلي، وأنس بي الصبي، واجترأ عليَّ الخادم، وكلّمني من لا يهاب كلامي لإلفهم إياي وجلوسهم عندي، حتى لعل العنزات تبول عليَّ فلا يقول لها أحد «هش»!!

* قال شاعر النيل حافظ إبراهيم قصيدة أجراها على لسان اللغة العربية قال فيها:

وسعتُ كتابَ الله لفظاً وغايةً ... وما ضِقْتُ عن آيٍ به وعظاتِ
فكيف أضيق اليوم عن وصفِ آلةٍ ... وتنسيق أسماءٍ لمخترعاتِ
أنا البحر في أحشائه الدرُّ كامنٌ ... فهل ساءلوا الغوّاص عن صدفاتي

* الخليل ابن أحمد الفراهيدي هو واضع علم العروض، وكان ذكياً بارعاً في العلوم، واسع الإدراك، له أقوال حكيمة، فمن ذلك قوله:

* إذا خرجت من منزلي لقيت أحد ثلاثة: إما رجلاً أعلم مني بشيء فذاك يوم فائدتي، أو مثلي فذاك يوم مذاكرتي، أو دوني فذاك يوم ثوابي.

- الفراهيد: غنم صغار، واحدها فُرهود - وكان الخليل زاهداً متعففاً، قيل: ولم يكن في العرب أذكى منه، ومن أقواله:

* إذا أردت أن تعلم خطأ معلِّمك فجالس غيره. ومن وصاياه: أكثر من العلم لتفهم واختر منه لتحفظ. وكان يقولك أثقلُ ساعاتي عليّ، ساعةٌ آكلُ فيها!

التنوع في العلوم

* قال سهل بن محمد السجستاني وفد علينا عامل من أهل الكوفة لم أر في عمال السلطان بالبصرة أبرع منه، فدخلت مسلّماً عليه، فقال يا سجستاني من أعلمكم بالبصرة؟ قلت: الزيادي أعلمنا بعلم الأصمعي، والمازني أعلمنا بالنحو، وهلال الرأي أفقهنا، والشادكوني أعلمنا بالحديث، وأنا رحمك الله أُنسب إلى علم القرآن! وابن الكلبي من أكتبنا للشروط! فقال لكاتبه: إذا كان غد فاجمعهم إليّ، فجمعنا، ثم قال: أيكم المازني؟ قال: أبو عثمان: ها أنذا، يرحمك الله، قال: هل يجزي في الظهار عتق عبد أعور؟ فقال المازني: لست صاحب فقه، أنا صاحب عربية! فقال: يا زيادي كيف تكتب بين بعل وامرأة خالعها زوجها على الثلث من صداقها؟ قال: ليس هذا من علمي هذا من علم هلال الرأي! قال: يا هلال كم أسند عون عن الحسن، قال: ليس هذا من علمي، هذا من علم الشادكوني، قال: يا شادكوني من قرأ« ألا إنهم يثنون صدورهم» قال: ليس هذا من علمي هذا من علم أبي حاتم! فقال: يا أبا حاتم، كيف تكتب كتاباً إلى أمير المؤمنين تصف فيه خصاصة أهل البصرة، وما أصابهم في الثمرة، وتسأله لهم النظر بالبصرة؟ قال: لست رحمك الله صاحب بدعة وكتابة، أنا صاحب قرآن! قال: ما أقبح بالرجل يتعاطى بالعلم

خمسين سنة لا يعرف إلا فناً واحداً حتى إذا سئل من غيره لم يجل فيه ولم يمر! لكن عالمنا بالكوفة الكسائي لو سئل عن هذا كله لأجاب.

الفخر بالأعمال.. لا بالأنساب

* ذُكر الفخرُ بالأنساب عند إسماعيل بن أحمد أمير خراسان وما وراء النهر، فقال: إنما الفخر بالأعمال..! وينبغي أن يكون الإنسان عصامياً لا عظامياً - أي ينبغي أن يفتخر بنفسه لا بنسبه وبلده وجده - كما قال بعضهم: وبجِدّي سَموت لا بجدودي..! وقال آخر:

حسبي وشيمتي أدبي ولستُ من هاشمٍ ولا العرب
إنّ الفتى من يقولُ ها أنا ذا ليس الفتى من يقول: كان أبي!

وفي الحديث الشريف: «ومن بطّأ به عمله، لم يُسرع به نَسَبه»!

* سئل الشيخ أبو الحسن علي بن عيسى الرمّاني النحوي، فقيل له: لكل كتاب ترجمة، فما ترجمة كتاب الله عزّ وجلّ، فقال: هذا بلاغ للناس ولينذروا به! - الترجمة: العنوان -

* قال أحدُ المُلوكِ لرجل رثِّ الثياب، يتكلّمُ بفصاحة فأجاد: لِيكُن حُسنُ ثيابكَ كَحُسن كلامِكَ!. فقال: أمَّا الكلامُ، فأنا قادرٌ عليه. وأمَّا الثيابُ، فأنتَ تقدرُ عليها! فَخَلع عليهِ، وأثابَهُ.

* لما دخل ضَمْرة بن ضَمْرة - وكان صاحب لسان وبيان - على النُّعمان بن المنذر، زَرَى عليه، للذي رأى من دمامته وقِصَرِه وقِلّته! فقال النُّعمان: تَسْمَعُ بالمُعَيديِّ خير من أن تراه! فقال: أبيتَ اللّعنَ! إن الرّجالَ لا تُكال بالقُفْزان، - جمع قفيز وهو المكيال -، ولا تُوزَن بالميزان، وليست بمُسوك يُستَقَى بها، وإنَّما المرء بأصغريه: بقلبه ولسانه، إن صالَ صال بجِنَان، وإن قال قال ببيان.

* قال الأصمعي: قال لي أعرابي: ما حرفتك؟ قلت: الأدب، قال: نعم الشيء، فعليك به فإنه يُنزل المملوك في حدّ الملوك! أي يقيمه.

* وقال شاعرٌ يَصِفُ النَّحْوَ:

إقْتَبِسِ النَّحْوَ فَنِعْمَ المُقْتَبَسْ وَالنَّحْوُ زَيْنٌ وَجَمَالٌ مُلْتَمَسْ
صَاحِبُهُ مُكَرَّمٌ حَيْثُ جَلَسْ مَنْ فَاتَهُ فَقَدْ تَعَمَّى وانتَكَسْ
كَأَنَّ مَا فِيهِ مِنَ الْعِيِّ* خَرَسْ شَتَّانَ مَا بَيْنَ الْحِمَارِ والْفَرَسْ

* العيي والعي: ذو العي والحصر، أي عدم القدرة على الإبانة.

واو عمرو.. وداود

* يحكى عن الوالي العثماني داود باشا أنه أراد أن يتعلم اللغة العربية، فبعث إلى أحد علماء اللغة العربية ليأتيه في قصره ويعلمه، فكان المعلم العربي يضرب له الأمثال على ما جرت به العادة، ليقرب المعنى إلى ذهنه ويوضح القصد قائلاً: ضرب زيدٌ عمرواً، أمسك زيد بعمرو وهكذا، وفي أحد الأيام سأل الوالي هذا العالم قائلاً: ماذا جنى عمرو من ذنب ليضربه زيد ويمسك به؟ فكان ردّ العالم: أن عمرواً لم يَجْنِ ذَنْباً ولم يقترف إثماً، وإنما هذه أمثلة نوردها لتقريب المعنى وإيضاح القصد، ولكن الوالي لم يقتنع بل أمر بحبس العالم لأنه عجز عن الإجابة! ثم استدعى الوالي معلماً آخر وسأله عن الذنب الذي جناه عمرو أو الإثم الذي اقترفه ليضربه زيد دائماً! فكان جواب المعلم مثل جواب المعلم السابق! وهكذا انتهى الأمر به إلى الحبس، ثم استدعى الوالي معلماً ثالثاً ورابعاً، وفي كل مرة كان الأمر ينتهي بهؤلاء المعلمين إلى الحبس، حتى لم يبق في البلد إلا عدد قليل من المعلمين الخائفين على أنفسهم أن يصيبهم ما أصاب زملاءهم، بيد أن أحد العلماء الأذكياء فكّر في حيلة يستطيع بها إنقاذ زملائه من سجن الوالي، وتقدم إلى الوالي عارضاً عليه أن يقوم بتعليمه قواعد اللغة العربية، فقال له الوالي: إنني قد سألت زملاءك سؤالاً لم يستطع أحد منهم الإجابة عنه فإن استطعت فعليك أن تجيب عنه، وإلا كان جزاؤك مثلهم! فقال العالم

للوالي: وما السؤال يا سيدي؟ قال الوالي: ماذا جنىٰ عمرو من ذنب ليضربه زيد دائماً؟ فقال العالم: لقد جنىٰ عمرو ذنباً كبيراً، واقترف إثماً عظيماً، يستحق عليه الضرب والتوبيخ دائماً! فسأله الوالي: وما ذنبه؟ فأجابه: يا سيدي الوالي لقد سرق عمرو واو «داود» الثانية، وجعلنا نضطر لكتابة هذا الاسم بواو واحدة فقط منذ قرون عديدة! فابتسم الوالي وبدت علىٰ محياه علامات الرضا والارتياح، وقال: لقد كنت دائماً علىٰ يقين من أن عمروا قد اقترف ذنباً عظيماً يستدعي أن يضربه زيد دائماً. ثم قال الوالي للعالم: وكيف تريد أن نكافئك علىٰ علمك؟ فقال المعلم: أصلح الله الوالي، إن مكافأتي هي أن تعفو عن زملائي وتطلق سراحهم! فاستجاب الوالي لرغبته وأطلق سراحهم!

توثيق.. في كتابة التاريخ

* قال الواقدي: ما أدركت رجلاً من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء ولا مولىٰ لهم إلا سألته: هل سمعت أحداً من أهلك يخبرك عن مشهده وأين قتل؟ فإذا أعلمني.. مضيت إلىٰ الموضع فأعاينه، ولقد مضيت إلىٰ المريسيع فنظرت إليها، وما علمت غزاة إلا مضيت إلىٰ الموضع حتىٰ أعاينه!

قال هارون القروي: رأيت الواقدي بمكة ومعه ركوة، فقلت: أين تريد؟ فقال: أريد أن أمضي إلىٰ حنين حتىٰ أرىٰ الموضع والواقعة!!

التعليم.. في الجب

* يروىٰ في ترجمة شمس الأئمة السرخسي أنه أملىٰ كتابه «المبسوط» ويقع في خمسة عشر مجلداً علىٰ تلامذته من غير مطالعة في كتاب، حيث أنه كان محبوساً في الجب، بسبب كلمة نصح بها الخاقان، فكان يصرخ من قاع الجب ويصيح بالجملة والفقرة من المسائل الفقهية، وأصحابه من أعلىٰ الجب يكتبون، حتىٰ أملىٰ عليهم هذا الكتاب الضخم في الفقه الحنفي. ومن لطيف العبارات التي أوردها عند فراغه من شرح العبادات: هذا آخر شرح العبادات بأوضح المعاني وأوجز العبارات، أملاه المحبوس عن الجمع

والجماعات! وقال في آخر شرح الإقرار. انتهىٰ شرح الإقرار، المشتمل من المعاني علىٰ ما هو من الأسرار، أملاه المحبوس في محبس الأشرار! وللإمام السرخسي رحمه الله كتاب آخر في أصول الفقه، وشرح السير الكبير، أملاه أيضاً وهو في الجب!!

* كان الإمام الجُزُولي عالماً بالنحو كثير الاطلاع علىٰ دقائقه وغريبه وشاذه، وكان إماماً في القراءات واللغة، ذكر بعض أصحابه أنه حضر عنده ليقرأ عليه قراءة أبي عمرو، فقال بعض الحاضرين: أتريد أن تقرأ علىٰ الشيخ النحو؟ قال: فقلت: لا، قال: فسألني آخر كذلك، فقلت: لا، فأنشد الشيخ وقال: قل لهم:

لستُ للنحو جئتكُمْ ... لا ولا فيه أرغَبُ
خَلِّ زيداً لشأنه ... أينما شاء يذهبُ
أنا مالي ولامرئ ... أبدَ الدهرِ يَضْرِبُ

إشارة إلىٰ المثال الذي يكثر النحاة من إيراده والاستشهاد به: ضرب زيد عمرواً.

* قال الإمام الفقيه أبو الحسن الكُرجي:

كُلُّ العُلومِ سوىٰ القُرآنِ مَشغلةٌ ... إلاّ الحديث وإلاّ الفقه في الدِّينِ
العِلمُ ما كانَ فيه قالَ حَدَّثَنَا ... وَمَا سِوىٰ ذاكَ وسواسُ الشياطينِ

* روي أن الرشيد قال للأصمعي: ما أحسن ما مر بك من تقويم اللسان؟ قال: أوصىٰ رجل بعض بنيه فقال: يا بني أصلحوا من ألسنتكم فإن الرجل تنوبه النائبة فيتجمل فيها(*)، فيستعير من أخيه وأبيه ومن صديقه ثوبه، ولا يجد من يعيره لسانه؛ وأنشد في ذلك:

وما حسن الرجال لهم بزين ... إذا لم يسعد الحسن اللسان
كفىٰ بالمرء عيباً أن تراه ... له وجه وليس له لسان

(*) التجمل: أن يظهر الرجل بمظهر الجمال، اتقاء الشامتين.

* كان الأصمعي إذا أراد دخول المسجد قال: انظروا لا يكون فيه ذاك، يعني أبا عبيدة، خوفاً من لسانه، فلما مات لم يحضر جنازته أحد، لأنه لم يكن يسلم من لسانه شريف ولا غيره! وكان أبوعبيدة وسخاً ألثغ مدخول النسب مدخول الدين يميل إلىٰ مذهب الخوارج. وكان لا يقبل شهادته أحدٌ من الحكام لأنه كان يتهم بالميل إلىٰ الغلمان، قال الأصمعي: دخلت أنا وأبوعبيدة يوماً المسجد، فإذا علىٰ الإسطوانة التي يجلس إليها أبوعبيدة مكتوب علىٰ نحو من سبعة أذرع:

صلىٰ الإله علىٰ لوط وشيعته   أبا عبيدة قل بالله آمينا

فقال لي: يا أصمعي، امحُ هذا، فركبت علىٰ ظهره ومحوته بعد أن أثقلته إلىٰ أن قال: أثقلتني وقطعت ظهري، فقلت له: قد بقيت الطاء، فقال: هي شر حروف هذا البيت! وقيل إنه لما ركب ظهره وأثقله قال له: عجل، فقال: قد بقي لوط، فقال: من هذا نفرّ! وكان الذي كتب البيت أبونواس الحسن بن هانئ، فقال أبوعبيدة: والله ما أتهم بهذا إلا الخبيث الماجن المتهتك - يعني أبونواس - فبلغ قوله أبا نواس فحلف أنه لم يفعل ذلك فقبل يمينه!

* قال الأصمعي: دخلت علىٰ يحيىٰ بن خالد البرمكي يوماً فقال: يا أصمعي، هل لك زوجة؟ فقلت: لا، فقال: فجارية؟ فقلت: لكم منّة، فأمر بإخراج جارية غاية في الحسن والجمال والظرف، فقال لها: قد وهبتك لهذا، وقال: يا أصمعي، خذها فشكرته ودعوت له، فلما رأت الجارية ذلك بكت وقالت: يا سيدي، تدفعني إلىٰ هذا، فما ترىٰ من سماجته وقبحه؟ فقال لي: هل لك أن أعوضك عنها ألفي دينار؟ قلت: ما أكره ذلك، ودخلت الجارية إلىٰ داره فقال لي: أنكرت علىٰ هذه الجارية أمراً فأردت أن أعاقبها بك ثم رحمتها، فقلت له: هلا أعلمتني حتىٰ كنت لحقت بالباب علىٰ صورتي الأصلية من غير أن أسرح لحيتي، وأصلح عمتي، وأتطيب وأتجمل، فضحك، وأمر لي بألف دينار أخرىٰ!

دعوني وكتبي!!

* كان محمد بن الحسن رحمه الله، يقول لأهله: لا تسألوني حاجة من حاجات الدنيا فتشغلوا قلبي، وخذوا ما شئتم من مالي فإنه أقل لهمّي وأفرغ لقلبي! وقال الشافعي: ما رأيت حَبْراً سميناً مثله، ولا رأيت أخف روحاً منه، ولا أفصح منه! كنت إذا سمعته يقرأ القرآن كأنما ينزل القرآن بلغته! وقال أيضاً: ما رأيت أعقل منه، كان يملأ العين والقلب!.

* قال المأمون لعبدالله بن الحسن العلوي: ما بقي من لذتك يا أبا علي؟ قال: اللعب مع الصغير من ولدي.. ومحادثة الموتىٰ..! يعني الكتب!

* يروىٰ أن المأمون سأل اليزيدي عن شيء فقال: لا، وجعلني الله فداءك يا أمير المؤمنين! فقال: لله درّك ما وُضعت واو موضعاً قط في لفظٍ أحسن منها في لفظٍ مثل هذا! ووصله بعطية سنية!!

* وَرُوِيَ أنَّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لمّا قرأ: «ونَادَوا يا مال ليقضِ علينا ربُّك» أنكرَ عليه ابن عباس. فقال عليٌّ: هذا من الترخيم في النِّداء. فقال ابن عباس: ما أشغل أهل النَّار في النَّار عن التَّرخيم في النِّداء! فقال عليٌّ: صدقت. ونص الآية ﴿**ونادوا يا مالك..**﴾. وهذا يدلُّ علىٰ تحقق الصَّحابة من النحو، وعلمهم به.

* استأذنَ رَجُلٌ علىٰ إبراهيم النَّخعي فقال: أبا عمران في الدَّار؟ فلم يُجبهُ. فقال: أبي عمران في الدَّار؟ فَنَادَاهُ: قُل الثَّالثة وادخُل!

* كان عبدالله بن المبارك يقول: أَنْفَقْتُ في الحديثِ أربَعينَ أَلفاً، وفي الأدَبِ ستِّين ألفاً، ولَيتَ ما أنفقتُهُ في الحديث أنفقتُهُ في الأدب، قيل لهُ: كيف؟ قال: لأَنَّ النَّصارىٰ كفرُوا بتشديدةٍ واحدةٍ خَفَّفُوها، قال تعالىٰ: يا عيسىٰ إنِّي وَلَّدْتُكَ من عَذراءَ بتُولٍ. فقالت النَّصارىٰ: وَلَدْتُكَ!

* كتب مدرس التعبير علىٰ السبورة العبارة التالية: اكتب تعبيراً عن العين، ثم خرج

المدرس وبدأ الطلاب يكتبون، قال الأول: العين حرف من حروف اللغة العربية وهو حرف من حروف الإظهار ثم مضى يذكر خصائص هذا الحرف، وكتب الثاني: العين نعمة من نعم الله يجب علينا أن نستخدمها في طاعته، وذَكَرَ ما حرم الله في النظر الحرام ودية فقء العين، ابتدأ الثالث فقال: العين حق ولو كان شيء سابقاً القدر لسبقته العين، وذكر العين وكيف تنجو منها؟ وقصصاً وضعها حول القضية وسار في مساره، الرابع افتتح كلامه: أما العين فهي مدينة جميلة من مدن الإمارات العربية المتحدة، وأخذ يصف هذه المدينة وأكمل، والخامس قال: العين تنبع منها الماء فنزرع ونشرب، والعين هي ماء يخرج من جوف الأرض، وأخذ يعدد صفات الماء، السادس: استعاذ بالله من «العين» وقال إنه من التجسس المنهي عنه إلا أن يكون الرجل «عَيْناً» على الكفار ثم فصل في أنواع الجواسيس، فلفظ «العين» من الألفاظ المشتركة التي لها لفظ واحد ومعان مختلفة.

* قال أبو العباس ثعلب: شاهدتُ مجلس ابن الأعرابي، وكان يحضُرُه زُهاءُ مائة إنسان، وكان يُسألُ ويُقرأ عليه، فيُجيبُ من غير كتاب، ولزمتُه بضع عشرة سنةً ما رأيت بيده كتاباً قط، ولقد أملى على الناس ما يُحمل على أجمال، ولم يُرَ أحدٌ في علم الشعر أغزرُ منه. ورأى في مجلسه يوماً رجلين يتحادثان، فقال لأحدهما: من أين أنت؟ فقال: من إسبيجاب - مدينة في أقصى بلاد المشرق - وقال للآخر: من أين أنت؟ فقال: من الأندلُس - أقصى بلاد المغرب - فعَجِب من ذلك وأنشد:

رَفِيقَانِ شَتَّى أَلَّفَ الدَّهرُ بينَنَا ... وقد يَلْتَقِي الشَّتَّى فيَأْتَلِفَانِ

ثم أملى على من حضر مجلسه بقية الأبيات، وهي:

نَزَلْنا على قَيسيَّةٍ يَمَنيَّةٍ ... لها نَسَبٌ في الصَّالحين هِجَانِ
فقالَتْ وأَرْخَتْ جانب السِّتْرِ بيننا ... لأيَّةِ أرض أَمْ مَنِ الرجُلانِ
فقلتُ لها: أمَّا رَفيقي فقَومُهُ ... تَمِيمٌ وأمَّا أُسْرَتي فيَماني
رَفيقانِ شَتَّى أَلَّفَ الدَّهْر بينَنَا ... وقد يَلتَقي الشَّتَّى فيَأتَلفانِ

فالتقى المشرقي الأقصى والمغربي الأقصى، في الكوفة من قلب العراق، فسبحان جامع القلوب والأشواق، ومقدِّر اللقاء والاتفاق.

* امرأة هِجان: كريمة الحسب.

* كان سابقٌ الأعمى يقرأ: الخالقُ البارئُ المُصوَّرُ! بالفتح وصوابها بالكسر ـ فكان ابن جابان إذا لقيه قال: يا سابق، ما فعل الحرف الذي تُشرك بالله فيه؟!

* كان أيوب السختياني يقول: تعلموا النّحو؛ فإنه جمالٌ للوضيع، وتركهُ هُجنة للشَّريف! وقال بعض السلف: تعلّموا النّحوا كما تَعَلَّمون السُّنن والفرائض.

* قال رجلٌ من بني مُجاشع: جاء الحسن في دم كان فينا، فخطب فأجابه رجلٌ فقال: قد تركتُ ذلك للّهِ ولوجوهكم. فقال الحسن: لا تقل هكذا، بل قُل: لِلّهِ ثم لوجوهكم. وآجَرَكَ الله!

رسالة من الأقصى

كتب أسير مسلم لدى الأعداء إلى صلاح الدين الأيوبي رحمه الله رسالة هي شكوى من المسجد الأقصى فقال:

يا أيُّها الملكُ الذي ... لمعالم الصلبان نكس
جاءت إليك ظلامةٌ ... تسعى من البيتِ المقدسِ
كلّ المساجد طُهِّرتْ ... وأنا على شرفي مدنَّس

سلام إلى دمشق

سلامٌ من صَبَا بردى أرقُّ ... ودمعٌ لا يُكفْكفُ يا دمشق
ومعذرة اليراعة والقوافي ... جلالُ الرّزء عن وصف يدق
دمُ الثوار تعرفه فرنسا ... وتعلمُ أنه نورٌ وحقُ

ولـلـحـريـةِ الحـمـراءِ بـابٌ بـكـل يـدٍ مُـضـرّجـة يـدقُ

* قال الشاعر أحمد شوقي هذه الأبيات عند ثورة دمشق ضد الاحتلال الفرنسي.

تأملات

* الربح الخسيس كالخسارة!

* السخرية سلاح الضعفاء.

* ومن العجائب والعجائب جمةٌ قُـرب الـشـفـاء ومـا إلـيـه وصـولُ

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ والمـاء فـوق ظـهـورهـا مـحـمـولُ

* نظم أحد النوادي مباراة طريفة لأعضائه، فقسم إحدى صالاته قسمين: كتب على مدخل أحدهما: أزواج تسيطر عليهم نساؤهم!. وعلى مدخل القسم الثاني: أزواج يسيطرون على نسائهم!.. وترك النادي لأعضائه اختيار أحد الجانبين.. فوقفوا جميعاً في الجانب الأول ما عدا عضو واحد وقف وحده في جانب الأزواج الذين يسيطرون على نسائهم. وسألوه: لماذا اخترت هذا الجانب؟! فقال: ـ لقد أمرتني زوجتي بذلك!

* قال رجل لأحد الأدباء: أريد أنْ أهدي إليك دجاجة، فقال: إنْ كان ولا بدّ، فاجعلها من ذوات البيض!

* سأل خصيٌّ محمدَ بن مطروح الأعرج: ما تقول في الكبش الأعرج، أيجوز في الأضحية؟ قال: نعم، والخصيّ أيضاً مثلك!

* من العجائب: عمياء منقبة، وسوداء مختضبة، وخصي له امرأة، ومخنَّث يؤمّ قوماً.

* إذا أردت أن تعمل، فلابد أن تهدأ.

الأخطاء اللغوية.. عورات مكشوفة!

* قال عبدالملك بن مروان: اللحن في الكلام أقبح من التفتيق في الثوب والجُدَرِيّ في الوجه!

* وقال أبو الأسود: إني لأجد لِلَّحن غَمْزاً كغمْز اللحم! كثيراً ما نشكو من كثرة الأخطاء اللغوية التي يرتكبها رجال الإعلام بمختلف أجهزته وينطق بها من يتصدّر المجالس ويتولّى الحديث، وهذا يفرض إصلاح الحال وتقويم اللسان، وهذا بدوره يتطلب جهداً كبيراً وقراءةً وتطبيقاً للقواعد النحوية وتمرين اللسان على النطق بالصواب، حتى يصبح النطق السليم سجية لدى المرء ومَلَكة متأصِّلة فيتكلم بعفوية وبلا تكلف، فلا يعثر اللسان ولا يتخبط في متاهات الجُمل ومتاعب الكلام.

* ويُعْجبني زِيٌّ الفتى وجمالُه ... فَيَسْقُط من عَيْنَيّ ساعةَ يَلْحَنُ

* وهكذا يجب أن يكون حرص من يكثر خطؤه في اللغة، ليشفي نفسه من هذا المرض ويعالجها بتقديم الدواء وذلك بأخذ جُرعات متواصلة من علم «النحو»، وفيتامينات من علم «الصرف» ليشفى من عِيِّه ولحْنِه.

* كان مؤدب الرشيد يضرب على الخطأ واحدة، وعلى اللّحن سبعاً!

* ذكر أعرابي رجلاً يَعْيَا فقال: رأيت عورات الناس بين أرْجُلهم، وعورة فلان بين فَكّيه! وعاب آخر رجلاً فقال: ذاك من يتامى المجلس، أبلغُ ما يكون في نفسه أعيا ما يكون عند جلسائه.

وفي الصّمْتِ سِتْرٌ للعَيِيّ وإنّما ... صَحِيفةُ لُبّ المرء أن يتكلّما

* سمع الأعمش إنساناً يلحن فقال: من هذا الذي يتكلم وقلبي منه يتألّم؟!

* قال بن شُبرُمة: إذا سَرّك أن تعظُمَ في عين من كنتَ في عينه صغيراً، ويَصْغُرَ في عينك من كان في عينك عظيماً، فتعلّم العربية، فإنها تُجْريك على المنطق، وتُدنيك من السلطان.

* وللنحويين نوادر لطيفة وأخبار مليحة في تعلم النحو وكثرة الأمثلة المتكررة فيه وتشابهها، وصعوبة استيعاب قواعده. كتب رفيع بن سلمة إلى أبي عثمان المازني:

تَفَكَّرْتُ في النحو حتى مَلَلْـ ... ـتُ وأتعبْتُ نفسي به والبَدَنْ
وأتعبتُ بَكْراً وأصحابه ... بطولِ المسائل في كلِّ فَنّ
فمِنْ علمِهِ ظاهِرٌ بيِّنٌ ... ومِنْ عِلْمِه غامضٌ قد بَطَنْ
فكُنْتُ بظاهره عالماً ... وكنت بباطنِهِ ذا فِطَنْ
خَلاَ أنّ باباً عليه العفا ... ءُ للفاء يا ليته لم يكُنْ
وللواو بابٌ إلى جنبه ... من المقْت أحْسبه قد لُعِنْ
إذا قلْتُ هاتوا لماذا يُقا ... لُ لسْتُ بآتيك أوْ تَأْتِيَنْ
أجيبوا لِمَا قيل هذا كذا ... على النّصبِ؟ قالوا: لإضْمارِ أنْ!
وما إنْ رأيْتُ لها موضعاً ... فأَعْرفَ ما قيل إلا بظنّ
فقد خفْتُ يا بكرُ من طول ما ... أُفكّرُ في أمْرِ «أَنْ» أنْ أُجَنّ!

ويعني ببكر: أبا عثمان المازني. وقيل: إن المازني لما بلغه هذا الكلام قال: والله ما أحسب أنه سألني قط، فكيف أتعبني؟!

* ينبغي للمتكلم أن يخاطب الناس على قدر عقولهم، وأن يكلم كل قوم بما يفهمون، فإذا خرج عن هذه القاعدة.. وقع اللبس في الكلام والفهم فكان موضع التندر والفكاهة.. وهذا ما وقع فيه كثير من النحويين ممن قصدوا الفصاحة والبلاغة والإعراب في كلامهم مع العامة! قال ابن برهان الأسدي المكبري لأصحابه: إياكم والنحو بين العامة، فإنه اللحن بين الخاصة! وبعض أساليب النحاة كانت تستقبح والأدب غض فكيف اليوم وفي عصر الانحطاط.. وشيوع العامية بدل الفصحى..؟!

* وقع نحوي في كنيف ـ مرحاض ـ فصاح به الكناس: أنت في الحياة؟ فأجابه: ابْغ لي سلّما وثيقاً، وأمسكه إمساكاً رفيقاً. . ولا بأس علي. . ! فقال له: لو كنت تركت الفضول يوماً لتركته الساعة وأنت في (. . .) إلى الحلق!

* دخل أعرابي السوق فسمعهم يلحّنون، فقال: سبحان الله! يلحنون ويربحون، ونحن لا نلحن ولا نربح!

* ورأى أبو الأسود أمتعة للتجار مكتوباً عليها: «لأبو فلان»! فقال: سبحان الله يلحنون ويربحون!

* ودخل رجل على زياد فقال له: إنّ أبينا هَلَكَ، وإنّ أخينا غصبنا على ميراثنا من أبانا! فقال زياد: ما ضيّعْتَ من نفسك أكثرُ مما ضاع من مالك.

* قصد رجل الحجاج فأنشده:

أبا هشام ببابك ... قد شمَّ ريح كبابك

فقال: ويحك لم نصبت أبا هشام؟ فقال: الكنية كنيتي إن شئت رفعتها وإن شئت نصبتها!

* وكتب أحدهم على ظهر كتاب:

عشقت ظبياً رقيقاً ... في دار يحيى بن خاقا!

وكتب تحته: أردت خاقان، وخاقان مولى لي إن شئت أثبتُ نونه وإن شئت أسقطته!

* لقي رجلٌ رجلاً من أهل الأدب وأراد أن يسأله عن أخيه، وخاف أن يلحن فقال: أخاك، أخوك، أخيك، هاهنا؟ فقال الرجل: لا، لي، لو، ما هو حضر.

* وقال رجل لآخر: قد عرفت النحو، إلا أني لا أعرف هذا الذي يقولون: أبو فلان وأبا فلان، وأبي فلان، فقال له: هذا أسهل الأشياء في النحو! إنما يقولون: أبا فلان لمن عَظُم قدره! وأبو فلان: للمتوسطين! وأبي فلان: للسّفلة!

* عزّىٰ رجلٌ نحويٌّ قوماً فقال: آجركم الله، وإن شئتم أجركم الله، كلاهما سماعي من الفرّاء!

* وقيل لرجل: أينصرف إسماعيل؟ قال: نعم، إذا صلى العشاء فما قعوده؟!

* وقال أحدهم إن يوسف لا ينصرف! فأجابه شخص: اصفعه حتىٰ ينصرف!

* دخل الخليل بن أحمد الفراهيدي علىٰ مريض نحوي وعنده أخ له فقال للمريض: افتح عيناك، وحرك شفتاك، إن أبو محمد جالساً، فقال الخليل: إن أكثر علّة أخيك من كلامك!

* قال رجل لسعيد بن عبدالملك الكاتب: تأمر بشيئاً؟ قال: نعم، بتقوىٰ الله، وبإسقاط ألف شيء!

* وقال نحوي لأعرابي: بم يرفع القصر؟ فقد أعجبني القصر. فقال: بالآجر والجص. وقيل لأعرابي: أتَجُرُّ فلسطين؟ فقال: إني إذاً لقوي! قيل: أتَهْمِزْ إسرائيل؟ فقال: إني إذاً لرجل سوء! قيل: أتَهْمِز الفارة؟ فقال: الهِرّة تهمزها!

تأملات

* من يناقش الأحمق عليه أن يتحمل إجاباته!

* تستطيع أن تكسب ثقة الجاهل إذا لم تعارضه في آرائه!

* بإمكانك أن تأخذ الحصان إلىٰ النهر، ولكن ليس بإمكانك أن تجعله يشرب! مثل انكليزي يضرب للامتناع والتأثير علىٰ الأقرب.

* الزوجة لزوجها: هل تتزوج بعد موتي؟ الزوج: هذا سؤال محرج.. الزوجة: لماذا؟ الزوج: لو قلت أنني سأتزوج فستغضبين.. ولو قلت إني لن أفعلها مرة أخرىٰ فستغضبين أيضاً!!

قوة البيان وفصاحة اللسان

* الفصاحة وحسن المنطق وحلاوة اللسان تجمّل الإنسان وتزينه وفي سؤال موسىٰ عليه السلام ربه أن يكون أخوه هارون معه ما يدل علىٰ هذا المعنىٰ، وأنه قد استوحش من عدم الفصاحة ﴿وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ (القصص).

* وقد افتخر فرعون علىٰ موسىٰ عليه السلام ببيانه وفصاحته ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ (الزخرف).

* قال يحيىٰ بن خالد: ما رأيت رجلاً قط إلا هِبْته حتىٰ يتكلم، فإن كان فصيحاً عظم في صدري وإن قصّر سقط من عيني!

لسانُ الفتىٰ نصفٌ ونصفٌ فؤادهُ ولم يبق إلاّ صورةُ اللحمِ والدمِ

* وكما يقولون: عقل الرجل مدفون تحت لسانه.

* وحينما تكثر سقطات الرجل في كلامه وتتوالىٰ عثرات لسانه ويتكرر لحنه، تتمنىٰ سكوته وأن ينهي حديثه، لأن السمع قد مجّ كلامه ولم يعد يتحمل أكثر من ذلك، وعلىٰ العكس من هذا فمن استقام لسانه وعذب منطقه تتمنىٰ المزيد من حديثه وتودّ لو أنه تابع كلامه بلا انقطاع، وتشعر أن حديثه أحلىٰ من العسل، وألذ وأشهىٰ من الحلوىٰ.

قال الشعبي: كنت أحدث عبدالملك بن مروان، وهو يأكل فيحبس اللقمة، فأقول: أجزْها ـ أسِغْها ـ أصلحك الله، فإن الحديث من وراء ذلك، فيقول: والله لحديثك أحب إلي منها.

قال بعضهم: ما رأيت زياداً كاسراً إحدىٰ عينيه واضعاً إحدىٰ رجليه علىٰ الأخرىٰ يُخاطب رجلاً إلا رحمت المخاطب! وقال آخر: ما رأيت أحداً يتكلم فيُحْسن إلا أحْبَبْتُ أنْ يَصْمُتَ خوفاً من أنْ يُسيء إلا زياداً فإنه كلما زاد، زاد حُسْناً! وتكلم عمرو بن سعيد

الأشدق، فقال عبدالملك: لقد رَجَوْتُ عَثْرته لّما تكلّم، فلقد أحسن حتىٰ خَشِيت عَثْرته إن سكت.

* قال أبو العير: قال لي أبو العباس أحمد يحيىٰ - المشهور بثعلب من أئمة النحو - الظبي معرفة أو نكرة؟ فقلت: إن كان مشوياً علىٰ المائدة.. فمعرفة..! وإن كان في الصحراء فهو نكرة..! فقال ثعلب: ما في الدنيا أعرف منك بالنحو!!

* قيل إن أبا بكر رضي الله عنه رأىٰ رجلاً بيده ثوب فقال له: هو للبيع؟ فقال الرجل لا أصلحك الله. فقال الصديق: لو تستقيمون لقوّمت ألسنتكم، هلاَّ قلت: لا، وأصلحك الله، لئلا يشتبه الدعاء إليَّ بالدعاء عليَّ!

* وكان عمر بن الخطاب إذا رأىٰ رجلاً يُلَجْلِج في كلامه قال: خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد!

* وقد يحدث أن يتفاصح إنسان ويتظاهر بقوة المنطق وعذوبة اللفظ وجمال الأسلوب وروعة البلاغة، لكنه ينقص أشياء في حديثه، قد لا يشعر بها أو لا يعرضها، فيذهب جمال الكلام وطلاوة الحديث.

* وتكلم رجل عند معاوية فَهَذَر، فلما أطال قال: أأسكتُ يا أمير المؤمنين؟ قال: وهل تكلّمت! وتكلم ابن السّمّاك يوماً وجارية له تسمع كلامه، فلما دخل قال لها: كيف سمعت كلامي؟ قالت: ما أحسنه لولا أنك تردّده، قال: أردّده ليفهمه من لم يفهمه، قالت: إلىٰ أن يفهمه من لم يفهمه، يملّه من فَهِمه!

* وتكلم ربيعةُ الرأي يوماً فأكثر الكلام، فأعجبته نفسه، وإلىٰ جنبه أعرابي، فقال له: يا أعرابي، ما تعدّون البلاغة؟ فقال: قلّة الكلام، قال: ما تعدون العيّ فيكم؟ قال: ما كنت فيه منذ اليوم! وقيل لرجل يعيد كلاماً لغبي: قد ثقل كلامك علىٰ الذكي قبل حصوله في قلب الغبي!

* خطب رجل خطبة نكاح، فأخذ يطيل، فقام بعض الحاضرين فقال: إذا فرغ الخطيب فبارك الله لكم، فإني علىٰ شغل!

* وتكلم رجل فأحسن، ثم أعاد فأساء، فقال له أعرابي: إنك تَسْترجع محاسنك!

* كان غلام يُقَعِّرُ في كلامه فأتى أبا الأسود الدؤلي يلتمس ما عنده، فقال له أبو الأسود: ما حال ابنك؟ قال: أخذته الحُمّى فَطَبَختْه طبخاً وفَضَخَتْه - دقته - فضْخاً، وفَنَخَتْه - أو هنته وأضعفته - فَنْخاً فتركته فَرْخاً - الفرخ: الضعيف المنهوك - قال أبو الأسود: فما فعلت امرأته التي كانت تُجَارّه وتُشارّه، وتزارّه وتُهَارّه - (تجاره: تطاوله وتشاره: تخاصمه. وتزاره: تعضه، وتهارّه: تهرّ في وجهه كما يهرّ الكلب) - قال: طلقها فتزوجت غيره، فرضيت وحَظِيت وبَظِيَتْ. قال أبو الأسود: قد عرفنا حظيت، فما بَظِيَتْ؟ (أتى بلفظ بظيت إتباعاً لحظيت، مثل حَسَن بَسَن، وأهَلّ وسَهّل إلخ . . .) قال: حرف من الغريب لم يبلغك! قال أبو الأسود: يا بن أخي، كل حرف من الغريب لم يبلغ عمّك فاستُره كما تَسْتُر السِّنَّوْرُ خُرْأها. ومثل هذا الأسلوب مستهجن، ولا يُرضي السامع، ومن الأفضل الابتعاد عن الألفاظ الغريبة والكلمات التي تثقل على السمع ويتشدق بها صاحبها.

عيوب اللسان

* واعتبر العرب عدة معايير للعِيّ والحصر في اللسان وقالوا: إن من علامات العيّ الاستعانة، وهي أن ترى المخاطب إذا كلّ لسانه عند مقاطع كلامه، يقول للمخاطب: اسمع مني، أو سمعت لي، وافهم عني وأشباه ذلك؛ ومنهم من يقول: قولي كذا، أعني به كذا، ولا يريد التفسير، ولكنه يعيد كلامه بصيغة أخرى تكون غير مراده الأوّل ليفهم عنه. ومن ذلك الإكثار من بعض الكلمات وترددها مثل: «أي نعم» و«في الحقيقة» و«عرفت شلون!» إلخ. . ومن العي أيضاً: فتل الأصابع وفرك اليدين ومس اللحية، والنكث في الأرض والأطراف، من غير فكرة!.

* العي: ضد البيان. والحصر، العي، يقال: حصره الشيءُ وأحصره حبسه.

* اعتذر رجل لحبسه وحصره فقال: يعزب البيان ويعتقم الصواب، وإنما اللسان مضغة من الإنسان، يفتر بفتوره إذا نكل، ويثوب بانبساطه إذا ارتجل.

* قال حجازي لابن شُبرمة: منّا خرج العلم! فقال: نعم ولكن لم يعد إليكم!

* وقال المأمون لرجل: بلغني أنك أمّي، وأنك لا تُقيم الشِّعْر، وأنك تلحن في كلامك! فقال: يا أمير المؤمنين، أما اللحن فربما سبقني لساني بالشيء منه، وأما الأمية وكسر الشعر فقد كان النبي ﷺ أمياً وكان لا ينشد الشعر، قال المأمون: سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتني عيباً رابعاً، وهو الجهل، يا جاهل، إنّ ذلك في النبي ﷺ فضيلة، وفيك وفي أمثالك نقيصة، وإنما مُنع منه النبي ﷺ لنفي الظِّنّة عنه، ولا لِعَيب في الشعر والكتابة، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)﴾ (العنكبوت).

* قال عبدالله بن المبارك يرثي الإمام مالك بن أنس:

صَمُوتٌ إذا ما الصَّمْتُ زَيّنَ أهْلَه ... وفَتّاقُ أبْكارِ الكلام المُخَتَّمِ

وعىٰ ما وعىٰ القرآنُ من كلّ حِكْمةٍ ... وسِيطَتْ له الآداب باللحم والدّمِ

* قال بعضهم:

يَمُوتُ الفتىٰ من عَثْرةٍ بلسانه ... وليس يَموتُ المَرْءُ من عَثْرة الرِّجْلِ

فَعَثْرتُه من فِيهِ تَرْمي برأسِهِ ... وعَثْرتُه بالرِّجْل تَبْرا علىٰ مَهْلِ

* سمع أعرابي أحد الولاة يخطب ويلحن، فقال: أشهد أنك ملكت بقوة!

* جاء رجل يستعير كتاباً من صديقه، فأعاره إياه ثم قال له: لا تكن في حبسك الكتاب كصاحب القربة، قال: لا، وأنت لا تكن في ارتجاعك الكتاب كصاحب المصباح، قال: لا، وكان من حديث هذين أن رجلاً استعار قربة علىٰ أن يردها بعد أن يستقي بها مرة واحدة، فاستقىٰ فيها سنة، ثم ردها مخترقة! وأما الآخر، فإن رجلاً ضافه ضيف في النهار، فاستعار من جاره مصباحاً ليسرجه لضيفه في الليل، فلما كان بعد ساعة أتاه وطالبه برده، فقال له: أعرتني مصباحاً لليل أو للنهار؟ قال: لليل، قال: فما دخل الليل بعد!

* كان أصحاب المبرد إذا اجتمعوا واستأذنوا يخرج الآذن فيقول: إن كان فيكم أبو اسحاق الزجاج وإلا انصرفوا! فحضروا مرة ولم يكن الزجاج معهم فقال لهم ذلك فانصرفوا، وثبت رجل منهم يقال له عثمان، فقال للآذن: قل لأبي العباس: انصرف القوم كلهم إلا عثمان فإنه لم ينصرف، فعاد إليه الآذن وأخبره، فقال: قال إن عثمان إذا كان نكرة انصرف، ونحن لا نعرفك فانصرف راشداً!

* قال أبو جعفر المروروذي: خرجت مع المنصور العبيدي يوم هزم أبا يزيد، فسايرته وبيده رمحان، فسقط أحدهما مراراً فمسحته وناولته إياه، وتفاءلت له، فأنشدته:

فألقت عصاها واستقر بها النوىٰ كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

فقال: ألا قلت ما هو خير من هذا وأصدق: ﴿**وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين**﴾ فقلت: يا مولانا أنت من سلالة النبوة، قلت ما عندك من العلم!

تأملات

* من استحلىٰ رضاع الكذب، عسر فطامه!

* الكذبة كرة ثلجية تكبر كلما دحرجتها!

* علىٰ ضعيف الذاكرة ألا يكذب قط!

أمثال:

* لو ألقمته عسلاً عض أصبعي.

* لو وقعت من السماء صفعة ما سقطت إلا علىٰ قفاه.

* لو كان في البومة خير ما تركها الصياد.

* ما يصطلىٰ بناره!! يعني أنه عزيز منيع لا يوصل إليه ولا يتعرض لمراسه.

بين السين والصاد!

* قال الإمام الخطابي صاحب معالم السنن: بلغني عن إبراهيم بن السَّريِّ الزَّجّاج النحويّ أنه كان يذهب إلى أن الصاد تُبدل سيناً، مع الحروف كلها، لقرب مَخرجهما! فحضر يوماً عند علي بن عيسى فتذاكرا هذه المسألة واختلفا فيها وثبت الزَّجاج على مقالته، فلم يأت على ذلك إلا قليلٌ من المدة، فاحتاج الزجاج إلى كتاب إلى بعض العمال في العناية، فجاء إلى علي بن عيسى الوزير ينتجز الكتاب، فلما كتب علي بن عيسى صدر الكتاب وانتهى إلى ذكره، كتب: وإبراهيم بن السِّري من أخسِّ إخواني، فقال الرجل: أيها الوزير، اللَّهَ، اللَّهَ، في أمري! فقال له علي بن عيسى: إنما أردت «أخص» وهذه لغتك، فأنت أبصر، فإن رجعت وإلا أنفذتُ الكتاب بما فيه! فقال: قد رجعتُ أيها الوزير، فأصلح الحرفَ وطوى الكتاب!

* يحكى أن النضر بن شُميل المازني مرض فدخل عليه قوم يعودونه، فقال له رجل منهم يكنى أبا صالح: مسح الله ما بك، فقال: لا تقل مسح بالسين ولكن قل مَصَح بالصاد، أي أذهبه وفرقه، أما سمعت قول الأعشى:

وإذا ما الخمر فيها أزبدت ... أفل الإزباد فيها ومصح

فقال له الرجل: إن السين قد تبدل من الصاد، كما يقال الصراط والسراط، وسقر وصقر، فقال له النضر: فإذاً أنت أبو سالح!

* ويُشبه هذه النادرة ما حكي أيضاً: أن بعض الأدباء جوز بحضرة الوزير أبي الحسن بن الفرات: أن تقام السين مقام الصاد في كل موضع، فقال له الوزير: أتقرأ ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ (الرعد: ٢٣) أم من سلح؟ فخجل الرجل وانقطع!

* يروى عن واصل بن عطاء أنه دفعت إليه رقعة مضمونها: أمر أمير الأمراء الكرام أن يحفر بئر على قارعة الطريق فيشرب منه الصادر والوارد، فقرأ على الفور: حكم حاكم

الحكام الفخام أن يُنبش جبّ على جادة الممشى، فيسقى منه الصادي والغادي! فغير كل لفظة برديفة، وهذا من عجيب الاقتدار! وكان واصل يلثغ بالراء.

* حدث أبوالفتح أحمد بن علي بن هارون بن المنجم عن أبيه قال: كنت وأنا صبيّ لا أقيم الراء في كلامي، وأجعلها غيناً، وكانت سنّي إذ ذاك أربع سنين، أقل أو أكثر، فدخل أبوطالب الفضل بن سلمة، أو أبوبكر الدمشقي إلى أبي، وأنا بحضرته، فتكلّمت بشيء فيه راء، فلثغت فيه، فقال له الرجل: يا سيدي، لِمَ تدع أبا الحسن يتكلّم هكذا؟ فقال له: ما أصنع، وهو ألثغ؟ فقال له - وأنا أسمع وأحصّل ما جرى، وأضبطه - إنّ اللغة لا تصحّ مع سلامة الجارحة، وإنّما هي عادة سوء تسبق إلى الصبي أوّل ما يتكلّم، لجهله بتحقيق الألفاظ، وسماعه شيئاً يحتذيه، فإنْ تُرك على ما يستصحبه من ذلك، مرن عليه، فصار له طبعاً لا يمكنه التحوّل عنه، وإن أُخذ بتركه في أوّل شأنه، استقام لسانه، وزال عنه، وأنا أزيل هذا عن أبي الحسن ولا أرضى فيه بتركك له عليه، ثم قال لي: أخرج لسانك، فأخرجته، فتأمّله، وقال: الجارحة صحيحة، قل يا بنيّ: را، واجعل لسانك في سقف حلقك. ففعلت ذلك، فلم يستوِ لي. فما زال يرفق بي مرّة، ويخشن بي أخرى، وينقل لساني من موضع إلى موضع، من فمي، ويأمرني أن أقول الراء فيه، فإذا لم يستوِ لي، نقل لساني إلى موضع آخر، دفعات كثيرة، في زمان طويل، حتى قلت راءً صحيحة في بعض تلك المواضع. وطالبني، وأوصى معلمي بإلزامي ذلك، حتى مرن لساني عليه، وذهبت عنه اللثغة!. والدراسات الحديثة والمعطيات العلمية المعاصرة تؤكد صحة هذه الطريقة في المعالجة.

* وقد عمل الشعراء في اللثغة التي هي إبدال الثاء من السين شعراً كثيراً، فمن ذلك ما يُعزى لأبي نواس، وهي أبيات حلوة ظريفة:

وشادنٍ ساءلتُ عن اسمه فقالَ لي إثميَ مرداثُ
يباتُ يُعاطني سُخاميّةً وقال لي: قد هجع النّاث
أما ترى حُثْنَ أكاليلنا زينها النثرين والآث

فـعـدت مـن لـشـغـتـه ألـشـغـا فـقـلـت : أيـن الـطـاث والـكـاث

وأبو نواس معروف بمجونه وخلاعته ، ولكن نظم الأبيات وسبكها حلو جميل وظريف .

* وكان واصل بن عطاء يجلس إلى الحسن البصري رحمه الله ، فلما ظهر الاختلاف وقالت الخوارج بتكفير مرتكبي الكبائر ، وقالت الجماعة بأنهم مؤمنون وإن فسقوا بالكبائر ، فخرج واصل بن عطاء عن الفريقين وقال : إن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر ، منزلة بين منزلتين! فطرده الحسن عن مجلسه فاعتزل عنه ، وجلس إليه عمرو بن عبيد ، فقيل لهما ولأتباعهما : معتزلون! وهم الواصلية ومن مذهبهم أنهم ينسبون القدرة للعباد ، وينفونها عن الله سبحانه وتعالى!

تأملات

* عظمة عقلك تخلق لك الحساد ، وعظمة قلبك تخلق لك الأصدقاء .

* هم يحسدوني على موتي فوا أسفا حتى على الموت لا أخلو من الحسد!

* كلما ارتفع الإنسان تكاثفت حوله الغيوم والمحن .

* قال الجاحظ : سألني بعضهم كتاباً بتوصية إلى بعض أصحابي . فكتبت له رقعة وختمتها ، فلما خرج الرجل من عندي فضها فإذا فيها : كتابي إليك مع من لا أعرف ، ولا أوجب حقه ، فإن قضيت حاجته لم أحمدك وإن رددته لم أذمك! فرجع الرجل إليّ فقلت له : كأنك فضضت الورقة؟! فقال : نعم!! فقلت : لا يضيرك ما فيها فإنه علامة لي إذا أردت العناية بشخص!! فقال : قطع الله يديك ورجليك ولعنك!! فقلت : ما هذا!! فقال : هذا علامة لي إذا أردت أن أشكر شخصاً!!

* قال أبو سليمان الداراني : إني لأضع اللقمة في فم واحد من إخواني فأجد طعمها في حلقي!

لغويون

* قال أبو عمر الزاهد المعروف بالمطرز: كنت في مجلس أبي العباس ثعلب فسأله سائل عن شيء فقال: لا أدري، فقال له: أتقول لا أدري وإليك تُضرَبُ أكباد الإبل، وإليك الرحلة من كل بلد؟ فقال له أبو العباس: لو كان لأمك بعدد ما لا أدري بَعْرٌ لاستغنت!

* وكان سبب وفاته أنه خرج من الجامع يوم الجمعة بعد العصر، وكان قد لحقه صمم لا يسمع إلا بعد تعب، وكان في يده كتاب ينظر فيه في الطريق فصدمته فرس فألقته في هُوَّة، فأخرج منها وهو كالمختلط، فحمل إلى منزله على تلك الحال وهو يتأوه من رأسه، فمات ثاني يوم!

* كان الجاحظ - عمرو بن بحر أبو عثمان - بحراً من بحور العلم، ورأساً في الكلام والاعتزال وإليه تُنسب الفرقة الجاحظية من المعتزلة، وكان مشوَّه الخَلق، استدعاه المتوكل لتأديب ولده، فلما رآه ردّه وأجازه! وفلج في آخر عمره، فكان يطلي نصفه بالصَّنْدل والكافور لفرط الحرارة، ونصفه الآخر لو قرض بالمقاريض ما أحسّ به لفرط البرودة، وسمي جاحظاً لجحوظ عينيه، أي نتوئهما، وكان موته بسقوط مجلدات العلم عليه!

* كان الجوهري صاحب «الصحاح» وأحد أئمة اللسان من أعاجيب الزَّمان، ذكاءً وفطنةً وعلماً، وأصله من فاراب من بلاد التُّرك، وكان إماماً في اللغة والأدب، وكان يؤثر السَّفَرَ على الحضر، ويطوف الآفاق. ثم عرض عليه في آخر حياته وسوسة، فانتقل إلى الجامع القديم بنيسابور، فصعد سطحه وقال: أيها الناس، إني عملت في الدنيا شيئاً لم أُسبق إليه، فسأعمل للآخرة أمراً لم أُسبق إليه، وضم إلى جَنْبَيْهِ مِصرَاعي بابٍ وتأبَّطهُما بحبل، وصعد مكاناً عالياً، وزعم أنه يطيرُ، فوقع فمات!

الشك والشكوك

* كان أبو الهذيل محمد بن الهذيل بن عبدالله بن مكحول العبدي، المعروف بالعلاَّف المتكلم؛ شيخ البصريين في الاعتزال، ومن أكبر علمائهم، وهو صاحب مقالات

في مذهبهم ومجالس ومناظرات. وكان حسن الجدال قوي الحجة كثير الاستعمال للأدلة والإلزامات. حكي أنه لقي صالح بن عبدالقدوس، وقد مات له ولد وهو شديد الجزع عليه، فقال له أبو الهذيل: لاأعرف لجزعك عليه وجهاً، إذ كان الإنسان عندك كالزرع، قال صالح: يا أبا الهذيل، إنما أجزع عليه لأنه لم يقرأ كتاب «الشكوك» فقال له: كتاب «الشكوك»! ما هو يا صالح؟ قال: هو كتاب قد وضعته من قرأه يشك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن، ويشك فيما لم يكن حتى يتوهم أنه قد كان، فقال له أبو الهذيل: فشُكَّ أنت في موت ابنك، واعمل على أنه لم يمت، وإن كان قد مات، وشك أيضاً في قراءته كتاب «الشكوك» وإن كان لم يقرأه!!

* قال أبو بكر بن باجة المعروف بابن الصائغ الأندلسي، وقيل هما للشهرستاني:

لقد طفتُ في تلك المعاهدِ كلها ... وسيّرتُ طرفي بين تلكَ المعالمِ
فلم أرَ إلا واضعاً كفَّ حائرٍ ... على ذَقَنٍ أو قارعاً سن نادمِ

حنين الأرواح

أبداً تحن إليكم الأرواح ... ووصالكم ريحانها والراح
وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم ... وإلى لذيذ لقائكم ترتاح
وا رحمتا للعاشقين تكلفوا ... ستر المحبة والهوى فضاح
بالسر إن باحوا تباح دماؤهم ... وكذا دماء العاشقين تباح
عودوا بنور الوصل من غسق الجفا ... فالهجر ليل والوصال صباح
صافاهم فصفوا له فقلوبهم ... في نورها المشكاة والمصباح

* الشاعر: السهروردي

* كتب أحد الملوك على باب قصره: تحتاج أبواب الملوك إلى عقل ومال وصبر، فكتب بعض الحكماء تحت هذه العبارة: من كان عنده واحدة من هذه الثلاث لم يحتج إلى

أبواب الملوك؟ فرفع أمره إلى الملك فقال: صدق وأمر بإجازته ومكافأته ومحا الكتابة عن الباب، وقديماً قالوا: السلطان من لا يعرف السلطان ولا يعرفه السلطان!

تأملات

الطيران واحد

وللعصفور والبازي جميعاً لدى الطيران أجنحة وخفق
ولكن بين ما يصطاد باز وما يصطاده العصفور فرق

إن الحدأة تطير... والصقر يطير... ولكن بينهما فرق كبير!

* قيل لبعض العلماء: فيم لذتك؟ قال: في حجة تتبختر اتضاحاً، وفي شبهة تتضاءل افتضاحاً!

* قال عروة بن الورد:

إذا المرءُ لم يطلبْ معاشاً لنفسه شكى الفقرَ أو لام الصديق فأكثرا
فسِرْ في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسارٍ أو تموت فتعذرا

* جلس بعض الأزواج يتحدثون عن المناسبة الخاصة التي قابل كل منهم فيها زوجته.. وكان أحدهم يجلس صامتاً ساكناً لا يشارك في الحديث.. فسأله بعض الجالسين: إنك لم تخبرنا كيف تعرّفت إلى زوجتك؟ فأجابهم: لم يُعرّفني بها أحد.. بل تقابلت معها بطريق الصدفة.. ولذلك تجدونني جالساً صامتاً لأنني لا أجد أحداً ألومه على ما حدث!

*لا تخشَ التقدم البطيء ولكن احذر أن تقف جامداً.

* ليس كل ما يعلم يقال، ولا كل ما يقال جاء أوانه.

* حسبك خيانة أن تكون أميناً للخونة.

ما قبل الدخول في القفص الذهبي

* حفل تاريخنا العربي بأمجاد متنوعة، ومواقف رائعة خلّدها أسلافنا ذكوراً وإناثاً، ونحن وإن كان لدينا كثرة من الرجال نبغوا في مختلف فنون العلم والثقافة والأدب، وتقدموا في ميادين القيادة والسيادة، فإننا لا نعدم نساء عربيات كن كالشموس المشرقة في مختلف الميادين، فعُرِفْن برجاحة العقل وعذوبة المنطق ونظم الشعر وقول الحكمة والذكاء الخارق ورباطة الجأش وقوة التحمل.

* أوصت امرأة عوف بن محلم الشيباني ليلة زفافها فقالت: أي بنية، لو تُركت الوصية لأحد لحسن أدب أو لكرم حسب لتركتها لك، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل. أي بنية: إنك فارقت بيتك الذي منه خرجتِ، وعُشّك الذي فيه درجت، إلى رجل لم تعرفيه، وقرين لم تأليفه، فكُوني له أمَةً يكن لك عبداً، واحفظي له خصالاً عشراً يكن لك ذُخراً. أما الأولى والثانية: فالخشوع له بالقناعة، وحسن السمع له والطاعة. وأما الثالثة والرابعة: فالتفقّد لموضع عينه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح، وأما الخامسة والسادسة: فالتفقّد لوقت منامه وطعامه، فإنّ تواتر الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة، وأما السابعة والثامنة: فالاحتراس بماله، والإرعاء على حشمه وعياله، وملاك الأمر في المال حسن التقدير، وفي العيال حسن التدبير. وأما التاسعة والعاشرة: فلا تَعْصِينَ له أمراً ولا تُفشِينَّ له سراً، فإنك إن خالفت أمْرَه أوغرْتِ صدره، وإن أفشيت سِرَّه لم تأْمني غدْرَه، ثم إيّاك والفرح بين يديه إذا كان مُهتمّاً، والكآبة بين يديه إذا كان فرحاً.!

* ومن الوصايا الحسنة في مثل هذه المناسبة ما كان يفعله الآباء مع بناتهم أيضاً ليلة زفافهن، لتستقر حياتهن ويسعدْن في ظل زوجية قائمة على الحب والتفاهم. قال الفرافصة الكلبي لابنته حين جهزها إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه: يا بنية، إنك تَقْدمين على نساء قريش، وهنّ أقدر على الطيب منك، فلا تُغلبي على خصلتين: الكحل والماء، تطهري حتى يكون ريحُك ريحَ شنٍّ أصابه المطر.

* وأوصى أب ابنته ليلة زفافها فقال: إيّاك والغيرة، فإنها مفتاح الطّلاق، وعليك بالزينة، وأَزْينُ الزينة الكُحل، وعليك بالطيب، وأَطيبُ الطيبِ إسباغُ الوضوء، وكوني كما قلت لأمّك في بعض الأحايين:

خُذِي العفو مني تَسْتديمي مَوَدّتي ... ولا تَنْطقي في سَوْرتي حين أغضبُ

ولا تنقريني نقرك الدف مرة ... فإنك لا تدرين كيف المغيب

ولا تكثري الشكوى فتذهب بالهوى ... ويَأباك قلبي والقلوب تقلّب

فإني وجدتُ الحبَّ في الصدر والأذى ... إذا اجتمعا لم يَلْبَثِ الحبُّ يذهبُ

* وإذا كانت بعض الأمهات يحرصن على وصية البنت بطاعة زوجها وموافقته، فإن البعض منهن كنَّ يوصين بقبح المعاشرة والتطاول على الزوج!

* قالت امرأة لابنتها ليلة زفافها: يا بنية، اقلعي زُجَّ رُمْح زوجك أولاً، فإن أقرّ فاقلعي سِنانه، فإن أقرّ فاكسري العظام بسيفه، فإن أقرّ فاقطعي اللحم على تُرسِه، فإن أقرّ فضعي الإكاف على ظَهْرِه فإنما هو حمار!

* وكان الآباء يوصون «الصّهر» بالإحسان والرفق وإكرام الفتاة. قال عثمان بن عنبسة بن أبي سفيان: أرسلني أبي إلى عمي لأخطب إليه ابنته، فأقعدني جنبه وقال: مرحباً بابن لم أَلِدْه، أقرب قريب، خطب إليّ أحبّ حبيب، لا أستطيع له ردّاً ولا أجد من تَشْفيعه بدّاً، قد زوّجتكما وأنت أعزّ عليّ منها، وهي أنوط بقلبي، فأكرمْها يعذُب على لساني ذِكرُك، ولا تُهِنها فيصغُر عندي قَدْرُك، وقد قرّبتُك من قُرْبك، فلا تُباعدْ قَلبي من قلْبِك!

* وكتب أحدهم إلى صهره: قد وجّهتُ الوديعة، وإنما نُقلت من وطن إلى سكن، ومن مأوى عزّ وانعطاف، إلى مأوى برّ وألطاف، وهي بضعة مني انفصلت إليك، وثمرة من جنى قلبي حصلت لديك!

* وإذا كانت المرأة في الجاهلية مهضومة الحق مهيضة الجناح ضعيفة محتقرة، فإن هذا لا يسري على جميع الطبقات ومختلف الفئات، فلقد كانت بعض النساء يتمتعن بحقوق

كثيرة، ويشاركن في مختلف القضايا والآراء، وكان جوارهن محترماً، وكنّ كثيراً ما يلجأن إلىٰ حث الأزواج علىٰ الإصلاح بين المتخاصمين من القبائل والأشخاص في كثير من الصراعات، أو يدفعنهم لإيقاف حرب طاحنة ومعارك مستعرة، ليكون ذلك لهم مجداً وذكراً، وكرامة وفخراً، وكنّ يخترن الزوج الذي يَرْغَبْن، والشاب الذي يُرِدن.

* قال شريح: تزوجت امرأة صغيرة فلما بَنَيْتُ بها قالت: عَرِّفني خُلُقَك لأعمل علىٰ مداراتك؟ فقلتُ لها: أحبّ كذا وأكره كذا، ونحن جميع فلا تفرقي، وما رأيتِ من حسنة فانْشريها وما رأيت من سيئة فاستُريها، ثم قالت: كيف محبتُك لزيارة الأهل؟ قلت: ما أُحب أن يَملّني أصهاري. قالت: فمن تحب من جيرانك أن يدخل دارك آذن له، ومن تكرهه أمنعه؟ قلت: بنو فلان قوم صالحون، وبنو فلان قوم سوء. قال: ومكثت معي حولاً لا أرىٰ إلا ما أُحب، فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء، فإذا بعجوز تأمر وتنهىٰ في الدار! فقلت: من هذه؟ قالوا: فلانة خَتَنَتُك، فسُرِّي عني ما كنت أجد، فلما جلستُ أقبلت العجوز، فقالت: السلام عليك أبا أُمية. قلت: وعليك السلام، من أنت؟ قالت: أنا فلانة خَتَنتُك - أم زوجتك - قلت: قَرَّبك الله، قالت: كيف رأيت زوجتك؟ قلت: خير زوجة، فقالت لي: أبا أُمية، إن المرأة لا تكون أسوأ حالاً منها في حالين، إذا ولدت غلاماً، أو حظيت عند زوجها، فإن رَابَكَ ريبٌ فعليك بالسوط، فوالله ما حاز الرجال في بيوتهم شراً من المرأة المدلَّلة! قلت: أما والله لقد أدّبْتِ فأحسنْتِ الأدب، ورُضْتِ فأحسنت الرياضة. قالت: تُحب أن يزورك أختانك؟ قلت: متىٰ شاؤوا. قال: فكانت تأتيني في رأس كُلّ تُوصيني تلك الوصية، فمكثت معي عشرين سنة لم أعتب عليها في شيء.

* وكان لي جارٌ يُقرِّع امرأته ويضربها، فقلت في ذلك:

رأيت رجالاً يَضْربون نساءَهم ... فشُلَّت يميني حين أضرب زَيْنبا
أأضربُها في غير ذنب أتت به ... فما العدلُ مني ضربُ من ليس مُذنبا
فزينبُ شَمسٌ والنِّساء كواكبُ ... إذا طلعت لم تُبْد منهن كوكبا

* خرج بلال بن رباح مُؤذن رسول الله ﷺ مع أخيه إلى قوم من بني ليث، يخطب إليهم لنفسه ولأخيه، فقال: أنا بلال وهذا أخي، كنا ضالّين فهدانا الله، وكنّا عبدين فأعتقنا الله، وكُنا فقيرين فأغنانا الله، فإن تُزوجونا فالحمدلله، وإن ترُدونا فالمُستعان الله. قالوا: نعم وكرامة، فزوّجوهما.

* قالت تُماضر امرأة عبدالرحمن بن عوف لعثمان بن عفان: هل لك في ابنة عم لي بكر، جميلة ممتلئة الخلق، أسيلة الخد، أصيلة الرأي، تتزوجها؟ قال: نعم، فذكرت له نائلة بنت الفُرافصة الكلبية، فتزوجها وهي نصرانية فتحنفت وحُملت إليه من بلاد كلب، فلما دخلت عليه قال لها: لعلك تكرهين ما ترين من شيبي؟ قالت: والله يا أمير المؤمنين إني من نسوة أحب أزواجهن إليهن الكَهل. قال: إني قد جُزت الكُهول، وأنا شيخ، قالت: أذهبت شبابك مع رسول الله ﷺ في خير ما ذهبتْ فيه الأعمار، قال: أتقومين إلينا أم نقوم إليك؟ قالت: ما قطعتُ إليك أرض السماوة وأُريد أن أنثني إلى عُرض البيت، وقامت إليه، فقال لها: انزعي ثيابك، فنزعتها. فقال: حُلّي مِرطَك. قالت: أنت وذاك! فلم تزل نائلةُ عند عثمان حتى قُتل، فلما دُخل إليه «يوم الدار» وَقَتْه بيدها، فجُذمت أناملها، فأرسل إليها معاويةُ بعد ذلك يخطبها، فأرسلت إليه: ما ترجو من امرأة جذماء! وقيل: إنها قالت لما قُتل عثمان: إني رأيتُ الحُزن يبلى كما يبلى الثوب، وقد خشيت أن يبلى حُزنُ عثمان من قلبي، فدعت بفِهْر فهتّمَتْ فاها! وقالت: والله لا قعد أحدُ مني مقعد عثمان أبداً!

* روي أن الحسن بن علي قال لامرأته عائشة بنت طلحة: أمْرُك بيدك، فقالت: قد كان عشرين سنة بيدك فأَحْسنْتَ حِفظه، فلن أضيّعه إذا صار بيدي ساعة واحدة وقد صرفته إليك، فأعجبه ذلك منها وأمسكها!

* وكان عند روح بن زنباع هند بنت النعمان بن بشير، وكان شديد الغيرة، فأشرفت يوماً تنظر إلى وفد من جذام كانوا عنده، فزجرها، فقالت: والله إني لأُبغض الحَلال من جُذام، فكيف تخافني على الحرام فيهم! وقالت له يوماً: عجباً منك كيف يُسوِّدك قومُك؟

وفيك ثلاث خلال: أنت من جُذام، وأنت جبان، وأنت غيور؟ فقال لها: أما جُذام فإني في أرومتها، وحَسْب الرجل أن يكون في أرومة قومه، وأما الجُبن فإنما لي نفس واحدة، فأنا أحوطها، فلو كانت لي نفسٌ أُخرىٰ جُدْتُ بها، وأما الغيرة فأمرٌ لا أريد أن أُشارَك فيه! وحقيق بالغيرة من كانت عنده حمقاء مثلك مخافة أن تأتيه بولد من غيره فتقذف به في حجره. فقالت:

وهل هند إلا مُهرة عربيّة ... سليلة أفراس تَجللها بَغْلُ

فإن أنجبت مُهراً عريقاً فبالحَرىٰ ... وإن يك إقراف فما أنجب الفَحل

* قال رجل للرشيد يوماً: بلغني يا أمير المؤمنين أن رجلاً من العرب طلق في يوم خمس نسوة. قال: إنما يجوز مِلك الرجل على أربع نِسْوة، فكيف طلق خمساً؟ قال: كان لرجل أربع نسوة فدخل عليهن يوماً فوجدهن مُتلاحيات متنازعات، وكان شنظيراً - سيء الخلق - فقال: إلى متى هذا التنازع؟ ما إخال هذا الأمر إلا من قِبَلك، يقول ذلك لامرأة منهن، اذهبي فأنت طالق! فقالت له صاحبتها: عَجَّلت عليها بالطلاق، ولو أدّبتها بغير ذلك لكنت حقيقاً! فقال لها: وأنت أيضاً طالق! فقالت له الثالثة: قَبَّحك الله، فوالله لقد كانتا إليك مُحسنتين، وعليك مُفضلتين، فقال: وأنت أيتها المُعدِّدة أياديهما طالق أيضاً! فقالت له الرابعة: وكانت هلالية وفيها أناة شديدة: ضاق صدرك عن أن تؤدِّب نساءك إلا بالطلاق! فقال لها: وأنت طالق أيضاً، وكان ذلك بمسمع جارة له، فأشرفت عليه وقد سمعت كلامه، فقالت: والله ما شهدت العربُ عليك وعلى قومك بالضعف إلا لما بلَوْه منكم ووجدوه فيكم، أبَيْتَ إلا طلاق نسائك في ساعة واحدة! قال: وأنت أيضاً أيتها المُؤنبة المتكلفة طالق إن أجاز زوجك! فأجابه من داخل بيته: هيه، قد أجزتُ، قد أجزتُ!!

* قال شاعر:

إنّ النساء شياطين خُلِقْن لنا ... نعوذ بالله من شرّ الشياطين

فأجابه آخر:

إن النساء رياحين خلقن لنا   وكلنا يشتهي شمّ الرياحين

فمع أيهما أنت؟!

تأملات

* قال عبيدالله بن عبدالله بن طاهر:

إن الأمير هو الذي   يُضحي أميراً يوم عَزْله

إنْ زالَ سلطانُ الولا   ية لم يزل سلطان فَضْله

* لا تحقرن أحداً مهما هان.. فقد يضعه الزمان موضع مَنْ يُرتجى وصاله وتُخشى فعاله.

* ظهرت هذه النكتة في الستينات.. التقى صديقان فبادر أحدهما الآخر:

- هل علمت أن «فلانا» خلع ضرسه من أنفه؟!

- ولماذا لم يخلعه من فمه؟

- هل يستطيع أحد أن يفتح فمه هذه الأيام؟!

* جاءت إلى السلطان ملكشاه - ابن السلطان ألب أرسلان - امرأة حسناء فغنّته وتاقت نفسه إليها، فهمَّ بها! فقالت: أيها الملك إني أغار على هذا الوجه الجميل من النار، وبين الحلال والحرام كلمة واحدة! فاستدعى القاضي فزوّجه بها!

* كل عزّ لم يؤد بعلم فهو إلى ذل يصير.

* العلم وطن في الغربة، والجهل غربة في الوطن.

* الدهر يومان... يوم لك، ويوم عليك. فإن كان لك فلا تبطر وإن كان عليك فاصبر.

هذه ليلتي

هَذِهِ لَيْلَتِي وَحُلْمُ حَيَاتِي ... بَيْنَ مَاضٍ مِنَ الزَّمَانِ وَآتِ
الْهَوَىٰ أَنْتَ كُلُّهُ وَالأَمَانِي ... فَامْلأِ الْكَأْسَ بِالْغَرَامِ وَهَاتِ
وَدِيَارٌ كَانَتْ قَدِيماً دِيَاراً ... سَتَرَانَا كَمَا نَرَاهَا قِفَارَا
سَوْفَ تَلْهُو بِنَا الحَيَاةُ وَتَسْخَرْ ... فَتَعَالَ أُحِبُّكَ الآنَ أَكْثَرْ

**** ****

وَالْمَسَاءُ الَّذِي تَهَادَىٰ إِلَيْنَا ... ثُمَّ أَصْغَىٰ وَالْحُبُّ فِي مُقْلَتَيْنَا
لِسُؤَالٍ عَنِ الْهَوَىٰ وَجَوَابٍ ... وَحَدِيثٍ يَذُوبُ فِي شَفَتَيْنَا
قَدْ أَطَالَ الْوُقُوفَ حِينَ دَعَانِي ... لِيَلُمَّ الأَشْوَاقَ عَنْ أَجْفَانِي
فَادْنُ مِنِّي وَخُذْ إِلَيْكَ حَنَانِي ... ثُمَّ أَغْمِضْ عَيْنَيْكَ حَتَّىٰ تَرَانِي
وَلْيَكُنْ لَيْلُنَا طَوِيلاً طَوِيلاً ... فَكَثِيرُ اللِّقَاءِ كَانَ قَلِيلاً

**** ****

يَا حَبِيبِي طَابَ الْهَوَىٰ مَا عَلَيْنَا ... لَوْ حَمَلْنَا الأَيَّامَ فِي رَاحَتَيْنَا
صُدْفَةٌ أَهْدَتِ الْوُجُودَ إِلَيْنَا ... وَأَتَاحَتْ لِقَاءَنَا فَالْتَقَيْنَا
فِي بِحَارٍ تَئِنُّ فِيهَا الرِّيَاحُ ... ضَاعَ فِيهَا الْمِجْدَافُ وَالْمَلاَّحُ
كَمْ أَذَلَّ الْفِرَاقَ مِنَّا لِقَاءٌ ... كُلُّ لَيْلٍ إِذَا الْتَقَيْنَا صَبَاحُ
يَا حَبِيباً قَدْ طَالَ فِيهِ سُهَادِي ... وَغَرِيباً مُسَافِراً بِفُؤَادِي

**** ****

سَهَرُ الشَّوْقِ فِي الْعُيُونِ الْجَمِيلَةْ ... حُلُمٌ آثَرَ الْهَوَىٰ أَنْ يُطِيلَهْ

وَحَدِيثٌ فِي الْحُبِّ إِنْ لَمْ نَقُلْهُ أَوْشَكَ الصَّمْتُ حَوْلَنَا أَنْ يَقُولَهْ
يَا حَبِيبِي وَأَنْتَ خَمْرِي وَكَأْسِي وَمُنَى خَاطِرِي وَبَهْجَةُ أُنْسِي
فِيكَ صَمْتِي وَفِيكَ نُطْقِي وَهَمْسِي وَغَدِي فِي هَوَاكَ يَسْبِقُ أَمْسِي
هَلَّ فِي لَيْلَتِي خَيَالُ النَّدَامَى وَالنُّوَاسِيُّ عَانَقَ الْخَيَّامَ
وَتَسَاقَوا مِنْ خَاطِرِي الأَحْلَامَ وَأَحَبُّوا وَأَسْكَرُوا الأَيَّامَ
رَبَّ مَنْ أَيْنَ لِلزَّمَانِ صِبَاهُ إِنْ غَدَوْنَا وَصُبْحُهُ وَمَسَاهُ
لَنْ يَرَى الْحُبُّ بَعْدَنَا مَنْ حَدَاهُ نَحْنُ لَيْلُ الْهَوَى وَنَحْنُ ضُحَاهُ
مِلْءُ قَلْبِي شَوْقٌ وَمِلْءُ كَيَانِي هَذِهِ لَيْلَتِي فَقِفْ يَا زَمَانِي

* الشاعر: جورج جرداق

تأملات

* رأى فيلسوف امرأة شنقت نفسها في شجرة، فقال: يا ليت كل الأشجار تحمل مثل هذه الثمار!

* وقف العروسان أمام الرجل الذي يعقد قرانهما.. وقال: أمّا أنت أيتها الزوجة العزيزة.. فعليك أن تعيني زوجك وتطيعيه.. وتتبعيه حيثما ذهب.. وهنا صرخت العروس: لا يمكن أبداً.. فقال الرجل: لماذا؟ فقالت: لأن زوجي سائق تاكسي!!

* أوصى أحدهم ابنه فقال: تزوج يا بني فإنك إن رزقت بامرأة صالحة أصبحت أسعد مخلوق على وجه الأرض.. وإذا كانت شريرة.. صرت فيلسوفاً!

* قال أحدهم لأمه مازحاً عندما جاءها بطبق من المهلبية: هل تتزوجين يا أماه.. أو تأكلين المهلبية؟ فقالت الأم: يا بني الله يرضى عليك.. وهل لي أسنان للمهلبية!!

تعدّد الزوجات.. ومكائد الضرات

* التعدُّد عند العرب في الجاهلية كان أمراً مألوفاً وطبيعياً، وليس له ضوابط تحدّه ولا حدود ترعاه، فقد يتزوج أحدهم اثنين أو ثلاثة أو خمسة أو عشرة، وعندما أسلم غيلان الثقفي كان تحته عشر نسوة، فأمره رسول الله ﷺ بإمساك أربع ومفارقة البقية.

* والإسلام شرع التعدد وأباحه، لكنه اشترط فيه العدل، وجعل له حدّاً أعلىٰ، للرجل أربع نسوة، فلا يجوز أن يجمع في عصمته بآن واحد أكثر من أربع. ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ (النساء: ٣).

* وقد أكثر رجال من الزواج بأكثر من واحدة في ظل الإسلام، وعرف عن بعضهم كثرة الزواج والطلاق، وكان يقال: فلان مزواج مطلاق، يروىٰ أن الحسن بن علي رضي الله عنهما تزوج خمساً وتسعين امرأة! وقيل: إن المغيرة بن شعبة كان يقول: أحصنت مائة امرأة! وقد اختلفت نظرة الناس للتعدُّد، فهم بين مرغّب فيه ومحذّر منه، وكل منهم نظر إلىٰ إيجابياته وسلبياته، فأعطىٰ حكمه ورأيه علىٰ ضوء ما رأىٰ من آثاره ونتائجه أو تجاربه.

* قال المغيرة بن شعبة: صاحبُ المرأة الواحدة، امرأةٌ مثلها، إنْ بانتْ بان معها، وإن حاضت حاض معها، وإن مرضت مرض معها، وصاحب المرأتين بين جمرتين أيتهما أدركته أحرقته، وصاحب الثلاث في رُستَاق ـ الرستاق: السواد والقرىٰ والمراد أنه كحاكم الرستاق ـ يبيتُ كل ليلة في قرية، وصاحب الأربع عروس في كل ليلة!

* وقيل لرجل من العرب كان يجمع الضرائر: كيف تقدر علىٰ جمعهن؟ قال: كان لنا شبابٌ يُصابرُهن علينا، ثم كان لنا مالٌ يُصبّرهن لنا، ثم بقي لنا خُلُق حَسَنٌ، فنحن نتعاشرُ به ونتعايش.

* قال أعرابي لآخر: لا تتزوج بأربع، فكلّ تأخذك بحمّتها وأنت كالّ، ولا بثلاث فإنهن كالأثافي تصير بينهن كالقدر فيكوينك، ولا باثنتين فإنهما يكونان كجمرتين، ولا واحدة فإنك تمرضُ إذا مرضت، وتحيض إذا حاضت وتلدُ إذا ولدَتْ، فقال له: لقد نهيت

عن كل ما أمر الله به، فما الذي أصنع؟ قال: كُوزان وطِمران وعبادة الرحمن! وهذا الرأي مبني على أن العزبة أجمع للهمة وأجود للخاطر وأصفى للذهن، وذلك يتم إذا استطاع أن يضبط نفسه ويتقي ربه. سئل حكيم عن التزوج فقال: بَقْلُ شهرٍ، وشَوْكُ دَهْر!

* ومن طريف ما يروى في التنفير من التعدد ما روي أنّ أعرابياً دخل على الحجاج فسمعه يقول: لا تكمُل النعمةُ على المرء حتى ينكحَ أربعَ نسوة يجتمعن عنده! فانصرف الأعرابي فباع متاع بيته، وتزوّج أربع نسوة، فلم توافقه منهنّ واحدة، خرجت واحدة حمقاء رعناء، والثانية متبرجة، والثالثة فَرُوك - هي التي يبغضها زوجها - والرابعة مذكَّرة، فدخل على الحجاج فقال: أصلح الله الأمير، سمعت منك كلاماً أردتُ أن تَتمّ لي به قرّة عين، فبعت جميع ما أملك، حتى تزوجتُ أربع نسوة، فلم توافقني منهن واحدة، وقد قلت فيهنّ شعراً فاسمع مني، قال: قُل. فقال:

تزوجتُ أبغي قُرّةَ العين أربعاً ... فيا ليتَ أني لم أكن أتزوّجُ
ويا ليتني أعمى أصمٌّ ولم أكُنْ ... تزوجْتُ بل يا ليتَ أني مخَدّجُ
فواحدة ما تعرفُ الله ربَّها ... ولا ما التّقى تدري ولا ما التحرّجُ
وثانية ما إنْ تقرّ ببيْتها ... مذّكرة مشهورة تتبرّجُ
وثالثة حمقاءُ رَعْنَا سخيفةٌ ... فكل الذي تأتي من الأمر أعْوجُ
ورابعةٌ مفْروكةٌ ذات شِرَّةٍ ... فليسَتْ بها نفسي مدى الدهر تُبْهَجُ
فهنّ طلاقٌ كلُّهنّ بوائِنٌ ... ثلاثاً ثلاثاً فاشْهدُوا لا تَلَجْلَجُوا!

فضحك الحجاج حتى كاد يسقط من سريره، ثم قال له: كم مُهورهنّ؟ قال: أربعة آلاف درهم، فأمر له باثني عشر ألف. المخدج: ناقص الخلْق.

* وقال الأصمعي: قيل لأعرابي: من لم يتزوج امرأتين لم يذق لذة العيش، فتزوّج امرأتين ثم ندم، فقال:

تزوّجتُ اثنتين لِفَرْطِ جَهْلي ... بما يَشْقى به زوجُ اثنتينِ
فقلتُ أصيرُ بينهما خَروفاً ... أُنعَّمُ بين أكْرمِ نعْجتيْنِ
فصِرْتُ كنعْجةٍ تُمْسي وتُضْحي ... تَرَدَّدُ بين أخبث ذِئبتيْنِ
رضىٰ هَذي يُهيِّجُ سُخْط هذي ... فما أعْرىٰ من إحدىٰ السّخْطتيْنِ
وألْقىٰ في المعيشة كلّ بُؤْسٍ ... كذاك المرءُ بين الضَّرّتَيْنِ
لِهَذي ليلةٌ ولِتلْكَ أُخْرىٰ ... عِتابٌ دَائمٌ في اللّيْلتَيْنِ!
فإنْ أحببت أن تبقىٰ كريماً ... من الخيرات مملوء اليدين
فعِشْ عزباً فإن لم تستطعه ... فضرباً في عراض الجحفلين!

وهذه تجارب شخصية، جاءت النتيجة فيها عكس ما أمل صاحبها، وليست مثل هذه النتائج بالضرورة تسري علىٰ الجميع وتشمل كل من تزوج بأكثر من واحدة، فقد يكون الزوج سعيداً بزواجه عند جميع نسائه مرتاحاً لديهن.

* ذُكرت النساء عند الحجاج فقال: عندي أربع نِسْوة، هند بنت المهلب، وهند بنت أسماء بن خارجة، وأمّ الجُلاس بنت عبدالرحمن بن أسيد، وأمة الله بنت عبدالرحمن بن جرير بن عبدالله البَجلي. فأما ليلتي عند هند بنت المهلب، فليلةُ فتىٰ بين فتيان، يلعب ويلعبون، وأما ليلتي عند هند بنت أسماء، فليلة ملك بين الملوك، وأما ليلتي عند أم الجُلاس فليلة أعرابي مع أعراب في حديثهم وأشعراهم، وأما ليلتي عند أمة الله بنت عبدالله الرحمن بن جرير، فليلةُ عالمَ بين العلماء والفقهاء!

* وعلىٰ الرجل أن يوطن نفسه علىٰ تحمل ما يصدر من زوجاته وغض الطرف عن بعض تصرفاتهن، فإن الغيرة تستعر وتلتهب في كثير من المواقف والأحايين، وتدفع صاحبتها لسلوك أساليب متعددة وطرق متنوعة لإغاظة ضرَّتها وإثارة حفيظتها.

* تزوج رجلٌ امرأةً حديثة علىٰ امرأة له قديمة، فكانت جارية الحديثة تمر علىٰ باب القديمة فتقول:

وما تَسْتوي الرِّجلان، رجلٌ صحيحة ... ورِجلٌ رَمىٰ فيها الزّمان فشَلَّتِ

ثم تعود فتقول:

وما يَسْتَوِي الثّوبان، ثوبٌ به البلىٰ ... وثوبٌ بأيدي البائعين جَديدُ!

فمرّت جاريةُ القديمة علىٰ الحديثة فأنشدت:

نقِّلْ فُؤادك حيث شِئت من الهَوىٰ ... ما القلبُ إلاّ للحبيبِ الأوّلِ

كم منزلٍ في الأرضِ يَألَفُه الفتىٰ ... وحنينُه أبداً لأوّل منزلِ!

* وكان عند الوليد بن عبدالملك أربع نسوة، لُبابة بنت عبدالله بن عباس، وفاطمة بنت يزيد بن معاوية، وزينب بنت سعيد بن العاص، وأم جحش بنت عبدالرحمن بن الحارث، فكُنّ يجتمعن علىٰ مائدته ويَفْترقن فَيَفْخرْن، فاجتمعْنَ يوماً، فقالت لُبابة: أما والله إنك لتسوّيني بهنّ وإنك تعرف فضلي عليهن، وقالت بنت سعيد: ما كنت أرىٰ أنّ للفخر عليّ مجازاً وأنا ابنةُ ذي العمامة، إذ لا عمامة غيرها. وقالت بنت عبدالرحمن ابن الحارث: ما أحبّ بأبي بدلاً، ولو شئتُ لقلت فصدَقْتُ وصُدِّقْتُ، وكانت بنت يزيد بن معاوية جاريةً حديثة السنّ فلم تتكلم. فتكلم عنها الوليد فقال: نَطَق من احتاج إلىٰ نفسه، وسكت من اكتفىٰ بغيره، أما والله لو شاءت لقالت: أنا ابنة قادتكم في الجاهلية، وخلفائكم في الإسلام! فظهر الحديث حتىٰ تُحدِّث به في مجلس ابن عباس فقال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

* ويقال: إن الوليد تزوج في خلافته نيفاً وسبعين امرأة، فلما دخل بالآخرة، وأراد أن يقوم، أخذت بثوبه وقالت: ما ترىٰ؟ أقم لك كفيلاً أن لا تأمر بتسريحي! فضحك واستملحها وأمسكها أربعة أشهر ثم طلقها بعد ذلك.

* وقيل: إن الحسن بن علي رضي الله عنهما طلّق امرأتين قرشية وجعفية، فأرسل إلىٰ كل واحدة عشرين ألفاً وقال للرسول: احفظ ما تقولُ كلّ واحدة، فقالت القرشية جزاه الله خيراً. وقالت الجعفية: متاعٌ قليل من حبيب مفارق! فَرَاجعها.

* ومما يروىٰ في شؤم أحد الزوجين علىٰ الآخر وكيد النساء ومكرهن ما ورد أن رجلاً تزوج امرأة قد مات عنها خمسة أزواج فمرض السادس، فقالت: إلىٰ من تكلني؟ قال: إلىٰ السابع!

* ومات زوجُ امرأة، فراسلها في ذلك اليوم رجل يخطبها، فقالت: هلا سبقت، فإني قد قاولْتُ غيرك؟! فقال: إذا مات الثاني فلا تفوتِني!

وماتت امرأةٌ لرجل وكان عاهدها أن لا يتزوج بعدها، فخطب امرأةً في جنازتها، فعوتب في ذلك فقال:

خطبْتُ كما لو كنت قد مِتُّ قبْلَها | لكانتْ بلا شكّ لأوّل خاطبِ
إذا غابَ بعلٌ جاء بعلٌ مكانَه | ولابد من آت وآخرَ ذاهبِ

* ولمّا قَتل شيرويه أباه كسرىٰ أراد أنْ يتزوج بشيرين امرأة أبيه فقالت له: علىٰ ثلاث شرائط: أن تُحْضر الحكماء فأخطّئهم في معاونتهم إيّاك علىٰ قتل أبيك؛ حتىٰ لا يجرؤوا علىٰ مثله فيك، وأن تستحضر لي نساء الكبار لأشتفي بالبكاء عليه، وأن تأذن لي في حضور المكان الذي مات فيه مرة، فقال: كل ذلك لك، فلما خطّأتهم وبكت عليه وحضرت المكان الذي مات فيه، أخْرجتْ فَصّاً مسموماً فمصّتْه فماتت مكانها! وكانت عمدت إلىٰ سمّ فوضعته في بعض الخزائن وكتبت عليه: إنّ من تناول منه وَزْن دانق، أعَانه علىٰ الجماع، فلما ظفر به تناول منه فمات في مكانه؛ فكانت أوّل من أخذ بثأرها بنفسها وفي نفس المكان!

* وكان عبدالرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما قد تزوج عاتكة بنت عمرو بن نفيل، وكانت من أجمل نساء قريش، وكان عبدالرحمن من أحسن الناس وجهاً، وأبرَّهم بوالديه، فلما دخل بها غلبت علىٰ عقله وأحبّها حبّاً شديداً، فثقل ذلك علىٰ أبيه، فمرّ به أبو بكر يوماً وهو في غرفة له فقال: يا بني، إني أرىٰ هذه المرأة قد أذهلت رأيك وغلبت علىٰ عقلك فطلّقها، قال: لست أقدر علىٰ ذلك، فقال: أقسمت عليك إلا ما طلّقتها! فلم

يقدر على مخالفة أبيه فطلّقها، فجزع عليها جزعاً شديداً، وامتنع عن الطعام والشراب! فقيل لأبي بكر، أهلكت عبدالرحمن! فمرّ به يوماً - وعبدالرحمن لا يراه - وهو مضطجع في الشمس ويقول هذه الأبيات:

فوالله لا أنساكِ ما ذرّ شارقٌ ... وما ناحَ قمريُّ الحمام المطوّقُ

فلم أرَ مثلي طلّقَ اليوم مثلها ... ولا مثلَها في غير شيءٍ يُطلّق

لها خُلُق عفٌّ ودِينٌ ومَحْتِدٌ ... وخلُقٌ سويٌّ في الحياءِ ومنطقُ

فسمعه أبوه فرق له، وقال: راجعها يا بني، فراجعها، وأقامت عنده حتى قُتل عنها يوم الطائف مع رسول الله ﷺ أصابه سهم فقتله، فجزعت عليه جزعاً شديداً وقالت ترثيه:

فآليْتُ لا تنفكُّ نفسي حزينةً ... عليك ولا ينفكّ جلدي أغْبرا

فتىً طول عُمري ما أرى مثله فتىً ... أكرَّ وأحمى في الهياجِ وأصبرا

إذا شرعتْ فيه الأسنّة خاضها ... إلى القرنِ حتى يترك الرمح أحمرا

ثم تزوجها بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته ودعا الناس إلى وليمته فأتوه، فلما فرغ من الطعام وخرج الناس، قال له علي بن أبي طالب: يا أمير المؤمنين ائذن لي في كلام عاتكة حتى أهنّيها وأدعو لها بالبركة، فذكر عمر ذلك لعاتكة فقالت: إنّ أبا الحسن فيه مزاح فائذن له يا أمير المؤمنين، فأذن له فرفع جانب الخِدْر فنظر إليها فإذا ما بدا من جسدها مُضَمّخ بالخَلُوق، فقال لها: يا عاتكة ألست القائلة:

فآليْتُ لا تنفكُّ نفسي حزينةً ... عليك ولا ينفكّ جلدي أغبرا؟

وقيل: إن عمر لما قُتل عنها، جزعت عليه جزعاً شديداً، وتزوجت بعده الزبير بن العوام وكان رجلاً غيوراً، وكانت تخرج إلى المسجد كعادتها مع أزواجها فشقّ ذلك عليه، وكان يكره أن يَنْهاها عن الخروج إلى الصلاة، لحديث رسول الله ﷺ: «لا متنعوا إماءَ الله مساجد الله» (رواه أبو داود وابن حبان)، فَعَرضَ لها ليلة في ظهر المسجد وهي لا تعرفه

فضرب بيده عجيزتها ثم انصرف، فقعدت بعد ذلك عن الخروج إلى المسجد، وكان يقول لها: ألا تخرجين يا عاتكة؟ فتقول: كنا نخرج إذ الناس ناس، وما بهم من بأس، وأما الآن فلا، ثم قُتل عنها الزبير، فتزوجها بعده محمد بن أبي بكر، فقُتل عنها بمصر، فقالت: لا أتزوج بعده أبداً، إني لأحسبني أني لو زوّجت جميع أهل الأرض لقُتلوا عن آخرهم!

تأملات

* الكفن هو الثوب الوحيد الذي لا تحملق فيه المرأة إذا كانت قد ارتدته امرأة أخرى!

* المرأة ظل الرجل، عليها أن تتبعه، لا أن تقوده!

* هنَّأ رجل عريساً فقال: باليُمن والبركة، وشدة الحركة، والظفر في المعركة!

* وقع بين رجل وامرأته شرّ، فجعل يكلمها ويعرّض لها بالجماع، فقالت: فعل الله بك، كلما وقع بيننا شيء جئتني بشفيع لا أقدر على ردّه!

* أقبل رجل إلى علي بن أبي طالب فقال: إنَّ لي امرأة كلما غشيتها - جامعتها - تقول: قتلْتني.. قتلتني، فقال: اقْتلها وعليَّ إثمها!

* أتت جارية إلى أبي ضمضم فقالت: إنّ هذا قبَّلني! فقال: قبِّليه، فإنّ الجروح قصاص!

* ورد عن محمد بن يحيى بن حسان أنَّ جدته عاتبتْ جدّه في قلّة إتيانه إياها، فقال لها: أَمَا أنا وأنتِ على قضاء عمر بن الخطاب؟ قالت: وما قضاء عمر؟ قال: قضى أن الرجل إذا أتى امرأته عند كل طُهر فقد أدَّى حقّها! فقالت: أَفَترك الناسُ كلهم قضاء عمر، وأقمت أنا وأنتَ عليه؟!

* الشباب عهد تحصيل الحكمة، أما الكهولة فعهد ممارستها.

* الشباب يحتاج إلى من يَفْهمه لا من يُفْهِمه.

تأملات

قلب المرأة

* قلب المرأة: في فمها، وفم الرجل: في قلبه.

قلب المرأة: لؤلؤة تحتاج إلى غواص ماهر!

قلب المرأة: غربال.. يتسرّب منه كل أنواع الحب.. ما عداه حبها لنفسها.

* قلب المرأة: رقيق.. ينكسر باللفظ الرشيق.

* قلب المرأة: كالدنيا.. متقلّب دائماً.

قلب المرأة: يتسع لحب من يتملّقها.

* قلب المرأة: يكون من الحديد تارة.. ومن الشمع تارة أخرى!

* قلب المرأة: يبصر أكثر من عينيها.. ويفكر أكثر من عقلها!

* أندر من الكتاب الجيد، القارئ الجيد.

* قال البيروني الفارسي: والله لأن أُهجى بالعربية، أحبُّ إليّ من أن أُمدح بالفارسية!

* إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً! مثل يقال للقوي إذا واجه من هو أقوى منه.

* جبان في جيش أشدُّ خطراً عليّ من عشرة بواسل في جيش الأعداء! ـ نابليون

* قد يجد الجبان حلولاً كثيرة لمشكلته، ولكن لا يعجبه سوى حلّ واحد منها، هو الفرار!

* قال الأصمعي: سأل أعرابي خالداً القسري أن يملأ له جرابه دقيقاً، فأمر بملئه له دراهم، فقيل للأعرابي حين خرج: ما فعل معك؟ قال: سألته بما أشتهي، فأمر لي بما يشتهي!

عرفت الهوى

عَـرَفْـتُ الْـهَـوَىٰ مُـذْ عَـرَفْـتُ هَـوَاكَـا وَأَغْـلَـقْـتُ قَـلْـبِـي عَـمَّـنْ عَـدَاكَ
وَقُـمْـتُ أُنَـاجِـيْـكَ يَـا مَـنْ تَـرَىٰ خَـفَـايَـا الـقُـلُـوْبِ وَلَـسْـنَـا نَـرَاكَـا
أُحِـبُّـكَ حُـبَّـيْـنِ. . . حُـبَّ الْـهَـوَىٰ وَحُـبَّـاً لأَنَّـكَ أَهْـلٌ لِـذَاكَـا
فَـأَمَّـا الَّـذِي هُـوَ حُـبُّ الْـهَـوَىٰ فَـشُـغْـلِـي بِـذِكْـرِكَ عَـمَّـنْ سِـوَاكَـا
وَأَمَّـا الَّـذِي أَنْـتَ أَهْـلٌ لَـهُ فَـكَـشْـفُـكَ لِـي الـحُـجْـبَ حَـتَّـىٰ أَرَاكَـا
فَـلاَ الحَـمْـدُ فِـي ذَا وَلاَ ذَاكَ لِـي وَلَـكِـنْ لَـكَ الْـحَـمْـدُ فِـي ذَا وَذَاكَـا
أُحِـبُّـكَ حُـبَّـيْـنْ. . . حُـبَّ الْـهَـوَىٰ وَحُـبَّـاً لأَنَّـكَ أَهْـلٌ لِـذَاكَـا
وَأَشْـتَـاقُ شَـوْقَـيْـنْ. . : شَـوْقَ الـنَّـوَىٰ وَشَـوْقَـاً لِـقُـرْبِ الخُـطَـىٰ مِـنْ حِـمَـاكَـا
فَـأَمَّـا الَّـذِي هُـوَ شَـوْقُ الـنَّـوَىٰ فَـمَـسْـرَىٰ الـدُّمُـوعِ لِـطُـولِ نَـوَاكَـا
وَأَمَّـا اشْـتِـيَـاقِـي لِـقُـرْبِ الحِـمَـىٰ فَـنَـارُ حَـيَـاةٍ خَـبَـتْ فِـي ضِـيَـاكَـا

* الشاعر: طاهر أبوفاشا، والأبيات الأولى تُنسب لرابعة العدوية رحمها الله.

* يقول دوقلة المنبجي:

هـل بـالـطـلـول لـسـائـل ردُّ أم هـل لـهـا بـتـكـلـمٍ عـهـدُ
والـوجـه مـثـل الـصـبـح مـبـيـضٌ والـشـعـر مـثـل الـلـيـل مـسـودُّ
ضـدان لـمـا اسـتـجـمـعـا حـسـنـا والـضـد يـظـهـر حـسـنـه الـضـدُّ
لـهـفـي عـلـى دعْـدٍ ومـا خـلـقـت إلا لـطـول تـلـهـفـي دعـدُ
وزعـمـت أنـك تـضـمـريـن لـنـا وداً فـهـلا يـنـفـع الـودُّ
فـكـأنـهـا وسـنـى إذا نـظـرت أو مـدنـفٌ لـمّـا يُـفِـق بـعـدُ

بفتور عين ما بها رَمَدٌ — وبها تُداوىٰ الأعين الرمدُ!

* يقول السعدي الشيرازي:

قال لي المحبوب لما زرتهُ: — من ببابي؟ قلت: بالباب أنا

قال لي: أخطأت تعريف الهوىٰ — حينما فرّقت فيه بيننا

ومضىٰ عامٌ فلما جئته — أطرق الباب عليه موهنا

قال: من بالباب؛ قلت: انظر — فما ثَم إلا أنت بالباب هنا

قال لي: أحسنت تعريف الهوىٰ — وعرفت الحب فادخل يا أنا

تأملات

* يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: إني لأبغض أهل بيت ينفقون رزق أيام في يوم واحد!

* الفتاة المهذبة لا تطارد الرجل، وإنما تصطاده بدون مشقة.

* المرأة الجاهلة هي التي لا تفهم زوجها.

وراء كل عظيم وفاشل.. امرأة!!

* وراء كل عظيم امرأة: إذا كان يضع نقوده في جيبه الخلفي..

* وراء كل عظيم امرأة: تقول له دائماً إنه ليس عظيماً لهذه الدرجة..

* وراء كل عظيم امرأة: تدفعه إلىٰ المجد.. سواء بحبها أو باحتقارها..

* وراء كل عظيم امرأة: وكذلك وراء كل فاشل!

قصص ومواقف.. حول التعدد

التعدد لدى الأنبياء

* قال المرحوم الدكتور مصطفى السباعي: حين كنتُ في دَبْلن بأيرلندا سنة ١٩٥٦ زرتُ مؤسسة الآباء اليسوعيين فيها، وجرى حديث طويل بيني وبين الأب المدير لها، وكان مما قلته: لماذا تحملون على الإسلام ونبيه في كتبكم المدرسية بما لا يصح أن يقال في مثل هذا العصر الذي تعرفت فيه الشعوب، والتقت الثقافات؟ فأجابني: نحن الغربيين لا نستطيع أن نحترم رجلاً تزوج من تسع نساء!! -يقصد الرسول ﷺ-. قلت له: هل تحترمون نبي الله داود، ونبيه سليمان عليه السلام؟ قال: بلى، وهما عندنا من أنبياء التوراة. . . قلت: إن نبي الله داود كان له تسع وتسعون زوجة، وأكملهن مائة، ونبي الله سليمان كان له - كما جاء في التوراة - سبعمائة زوجة، وثلاثمائة من الجواري، وكنّ أجمل أهل زمانهن!! فَلِمَ يستحق احترامكم من يتزوج ألف امرأة ولا يستحقه من تزوج تسعاً، ثمانية منهن ثيبات وأمهات، وبعضهن عجائز، والتاسعة هي الفتاة البكر الوحيدة التي تزوّجها طيلة عمره!! فسكت قليلاً وقال: لقد أخطأت التعبير، أنا أقصد أننا نحن الغربيين لا نستسيغ الزواج بأكثر من امرأة، ويبدو لنا أن من يعدد الزوجات غريب الأطوار، أو عارم الشهوة! قلت: فما تقولون في داود وسليمان وبقية أنبياء بني إسرائيل الذين كانوا جميعاً معدّدين للزوجات بدءاً من إبراهيم عليه السلام. . ؟! فسكت ولم يحر جواباً. . !!

* المرأة بين الفقه والقانون ص٩٦ .

* قال رسول الله ﷺ: «قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة بمائة امرأة من نسائي. . . فتأتي كل امرأة منهن بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يستثن - لم يقل: إن شاء الله - ولو استثنى لكان، فطاف على مائة امرأة فلم تحمل منهن إلا واحدة، حملت شقّ إنسان»!

يوم الطين

* يذكر المؤرخ المقريزي أن المعتمد آخر ملوك بني أمية في الأندلس، كان متزوجاً من جارية اسمها: اعتماد، وكان يحبها حباً جمّاً، ويعاملها برفق ولين ويحرص على إرضائها وتلبية جميع رغباتها، وذات يوم أطلت من شرفة القصر فرأت القرويات يمشين في الطين فاشتهت أن تمشي هي في الطين أيضاً.. ! وحدثت زوجها بذلك، فخاف على قدميها أن يمسهما الطين.. فألحت عليه، فأمر الملك أن يؤتى بالمسك والعنبر وأنواع الطيب المختلفة، فطحنت وصبّت في صالة القصر، ثم أمر أن يأتوا بماء الورد ويصبوه على الطيب.. ! وعجنوها بالأيدي حتى أصبحت كالطين.. ! وعندئذ جاءت اعتماد مع جواريها تتهادى بينهن فخاضت بقدميها في هذا الطين.. !! الذي بلغت أثمانه آلاف الدنانير، وحققت رغبتها، ومشت في الطين، وذات يوم سمعت من زوجها كلمة أغضبتها، فنظرت إليه وقالت له: والله ما رأيتُ منك خيراً قط.. !! فقال لها المعتمد: ولا يوم الطين.. ؟!! فهل بعد هذا شك لمعتبر.. ؟!

ما رأت منه خيراً قط!

* دخل هارون الرشيد يوماً على زوجته زبيدة فنام عندها فترة الظهيرة... ثم بات ليلته فاستيقظ على صوت ذهب يصبّ، فقال: ما هذا؟ قالوا: ثلاثمائة ألف دينار قدمت من مصر، فقالت زوجته: هبْها لي يا ابن عمي، فقال: هي لك، ثم تهيّأ للخروج، فغضبت منه لأنه خارج من عندها وقالت له: أي خير رأيتُه منك.. ؟!!

وهذه طبيعة أية امرأة، فهي عاطفية، سريعة الغضب سرعان ما تحملها عاطفتها على نكران الجميل فتصفعك بعبارتها المعهودة (من يوم اتزوجتك ما شفت منّك خير.. !) وأين خيرُك أيها الزوج المسكين من خير هؤلاء الملوك.. ؟! ولكن على الرجل أن يتحمل ويصبر ويعالج الموقف بحكمة وروية فعشرة العمر يجب أن لا تنسى في لحظة غضب، ولو راح المرء يعدد حسنات زوجته لرآها كثيرة.

* اجتمع ثلاثة نفر في أيام ابن تاشفين، فتمنى كل واحد منهم أمنية تختلف عن الأخرى، تمنى أحدهم ألف دينار يتّجر بها، وتمنى الآخر زوجته!! وكانت من أحسن النساء، ولها الحكم في بلاده! وتمنى الآخر عملاً يعمل فيه! فبلغه الخبر، فأحضرهم، وأعطى متمنِّي المال ألف دينار، واستعمل الآخر، وقال للذي تمنّى زوجته: يا جاهل! ما حملك على هذا الذي لا تصل إليه؟! ثم أرسله إليها فتركته في خيمةٍ ثلاثة أيام يُحْمل إليه في كُلّها طعامٌ واحدٌ! ثم أحضرته وقالت له: ما أَكَلْتَ في هذه الثلاثة أيام؟ فقال: طعاماً واحداً! فقالت: كلُّ النساء شيء واحد!! وأمرت له بمال وكسوة وأطلقته!

شريح وزوجته

* يروي أبو هلال العسكري في «الأوائل» أن امرأة شريح القاضي ولدت، وكان عنده جارية يحبها، فانصرف في يوم حار فوجد امرأته نائمة، فأمر الجارية فصارت إلى بيت، فخلعت قَرْقَلَها وخلع قميصه ودنا منها، وانتبهت المرأة فاتبعت أثره، وأحسّ بها فذهب عقله! فلبس القَرْقَل، ولبست الجارية القميص! وأكب على البساط يسير ويزحف، فقالت: ما تصنع؟ فقال: زعمت الجارية أن طوله كذا، وزعمت أنه كذا! قالت: فَقَرْقَلُها عليك! قال: من هذا أعجب أنا أيضاً! فذهبت تلومه، فقال: هي حرة. هذا موقف شريح، وهو أشهر قضاة المسلمين عبر التاريخ، مع زوجته الذي تتجلى فيه الشجاعة والجرأة والثبات!

* القرقل: قميص قصير لطيف لا أكمام له، تلبسه النساء تحت الدروع، وربما اقتصرن عليه في أوقات الخلوة وعند التبذّل.

شجرة الدر..

يذكر ابن كثير في البداية والنهاية أن الملك عز الدين أيبك زوج شجرة الدر أم خليل، عزم على تزوج ابنة صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، فأمرت جواريها أن يمسكْنَه لها، فما زالت تضربه بقباقيبها، والجواري يعركن في معاربه حتى مات وهو كذلك..! فأصبح في

داره ميتاً وذلك في الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وستمائة، فاتهم مماليكه زوجته أم خليل شجرة الدر به، فأقبلوا بصحبة مملوكه الأكبر سيف الدين قطز فقتلوها وألقوها على مزبلة غير مستورة العورة ثلاثة أيام. . ! بعد الحجاب المنيع والمقام الرفيع وبعد أن خطب الخطباء باسمها وضربت السكة ـ العملة ـ برسمها، فذهبت فلا تعرف بعد ذلك بعينها ولا رسمها ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ (آل عمران). ثم نقلت بعد ذلك إلى تربة لها بالقرب من قبر السيدة نفيسة رحمها الله. ويقال إن شجرة الدر كانت قوية النفس رابطة الجأش، فإنها لما علمت أنه قد أحيط بها أتلفت شيئاً كثيراً من الجواهر النفيسة والآلئ الثمينة، كسرته في الهاون، لا لها، ولا لغيرها. . ! وهي تركية وكانت قبل تزوجها من عز الدين، من حظايا الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان ولدها منه خليل من أحسن الصور، فمات صغيراً وكانت تكون في خدمته لا تفارقه حضراً ولا سفراً من شدة محبته لها. وعاشت في عز وجاه وترف ورغد من العيش إلى أن ملكت الديار المصرية، فحَدَث لها ما حدث جزاء ما اقترفت يداها وما جنتْه على نفسها. . !

* قال القاضي أبو الحسين بن عتبة: كانت لي ابنة عم موسرة وليست بذات جمال، كنت أستعين بمالها وأتزوج سراً، فإذا فطنت بذلك هجرتني وطرحتني وضَيَّقَتْ عليَّ إلى أن أُطلِّق مَنْ تزوجتها، ثم تعود إليّ، فطال ذلك علي وتزوجت صبية حسناء موافقة لطباعي مساعدة على اختياري فمكثت معي مدة يسيرة وسُعي بها إلى ابنة عمي، فأخذتْ في المناكدة والتضييق عليّ، فلم يَسْهل عليَّ فراق تلك الصبية! فقلت لها: استعيري من كلّ جارة قطعةً من أفخر ثيابها حتى يتكامل لك خلعة تامة الجمال وتبخري بالعنبر واذهبي إلى ابنة عمي، فابكي بين يديها وأكثري من الدعاء لها والتضرع إليها إلى أنْ تضجريها، فإذا سألتك عن حالك قولي لها: إن ابن عمي قد تزوجني وفي كل وقت يتزوج عليّ واحدة، وينفق مالي عليها، وأريد أن تسألي القاضي معونتي وإنصافي منه، فإني أقدّمه إليه، فإنها سترفعك إلي! ففعلتْ، فلما دخلتْ عليها واتصل بكاؤها رحمتها وقالت لها: فالقاضي شرّ من زوجك! وهكذا يفعل بي! وقامت فدخلت عليّ وأنا في مجلس لي وهي

غضبىٰ ويد الصبية في يدها، فقالت: هذه المؤمنة حالها مثل حالي! فاسمع مقالها واعتمد إنصافها! فقلت: ادْخُلا، فدخلتا جميعاً، فقلت لها: ما شأنك؟ فذكرت ما وافقتها عليه، فقلت لها: هل اعترف ابن عمك بأنه قد تزوج عليك؟ فقالت: لا والله، وكيف يعترف بما يعلم أني لا أقاره عليه؟ قلت: فشاهَدْتِ أنتِ هذه المرأة ووقفت على مكانها وصورتها؟ فقالت: لا والله، فقلت: يا هذه اتقي الله ولا تقبلي شيئاً سمعْته فإن الحسّاد كثير، والطلاب لإفساد النساء كثير، والحيل والتكذيب، فهذه زوجتي قد ذُكر لها أني تزوجتُ عليها، وكلٌّ زوجة لي وراء هذا الباب طالق ثلاثاً!! فقامت ابنة عمي فقبّلت رأسي وقالت: قد علمتُ أنه مكذوب عليك أيها القاضي!! ولم يلزمني حِنْث لاجتماعهما بحضرتي!

* كان ببغداد رجل بزّاز له ثروة، فبينما هو في حانوته أقبلت إليه صبية، فالتمست منه شيئاً تشتريه، فبينا هي تحادثه كشفت وجهها في خلال ذلك، فتحير وقال: قد والله تحيرت مما رأيت! فقالت: ما جئت لأشتري شيئاً؛ إنما لي أيام أتردد إلى السوق ليقع بقلبي رجلٌ أتزوجه، وقد وقعت أنت بقلبي، ولي مال، فهل لك في التزوّج بي؟ فقال لها: لي ابنة عمّ وهي زوجتي، وقد عاهدتها ألاّ أغبّرها ولي منها ولد! فقالت: قد رضيت أن تجيء إليّ في الأسبوع نوبتين؟ فرضي! وقام معها فعقَد العَقْد، ومضى إلى منزلها فدخل بها. ثم ذهب إلى منزله، فقال لزوجته إن بعض أصدقائي قد سألني أن أكون الليلة عنده!! ومضى فبات عندها، وكان يمضي كل يوم بعد الظهر إليها. فبقي على هذا ثمانية أشهر، فأنكرت ابنة عمه أحواله، فقالت لجارية لها: إذا خرج فانظري أين يمضي؟ فتبعته الجارية، فجاء إلى الدكان، فلما جاء الظهرُ قام وتبعته الجارية وهو لا يدري، إلى أن دخل بيت تلك المرأة. فجاءت الجارية إلى الجيران. فسألتهم لمن هذه الدار؟ فقالوا: لصبية قد تزوجت برجل تاجرٍ بزاز! فعادت إلى سيدتها فأخبرتها، فقالت لها: إياك أن يعلم بهذا أحد. ولم تُظهر لزوجها شيئاً، فأقام الرجل تمام السنة، ثم مرض ومات؛ وخلّف ثمانية آلاف دينار. فعمدت المرأة التي هي ابنة عمه إلى ما يستحقه الولد من التَّرِكة وهو سبعة آلاف دينار، فأفردتها، وقسمت الألف الباقية نصفين، وتركت النصف في كيس، وقالت للجارية:

خذي هذا الكيس. واذهبي إلىٰ بيت المرأة، وأعلميها أن الرجل مات، وقد خلّف ثمانية آلاف دينار، وقد أخذ الابن سبعة آلاف بحقه، وبقيت ألف فقسمتُها بيني وبينك، وهذا حقك. وسلّميه إليها!! فمضت الجاريةُ فطرقت عليها الباب، ودخلت، وأخبرتها خبر الرجل، وحدثتها بموته، وأعلمتها الحال، فبكت، وفتحت صندوقها، وأخرجت منه رُقعةً، وقالت للجارية: عودي إلىٰ سيدتك، وسلّمي عليها عني، وأعلميها أن الرجل طلقني وكتب لي براءة، وردّي عليها هذا المال، فإني ما أستحق في تركته شيئاً!! فرجعت الجارية فأخبرتها بذلك. . !!

* كان لمعاذ بن جبل رضي الله عنه امرأتان، فإذا كان يوم إحداهما لم يتوضأ من بيت الأخرىٰ، ولم يشرب منه الماء، ثم توفيتا في الطاعون الذي أصابهما بالشام، والناس في شغل، فدفنتا في حفرة، فأسهم بينهما أيتهما تُقدّم في القبر. . !

* تزوج محمد بن أحمد بن مخلد امرأة فلما دخلت عليه جلس يكتب الحديث، فجاءت أمها فأخذت الدواة فرمت بها وقالت: هذه أضر علىٰ ابنتي من مائة ضرة. . !!

* قال العتيبي: حدَّثني رجلٌ من أهلِ المدينةِ قال: كان في المدينةِ مخنّثٌ يدلُّ علىٰ النساءِ، يُقالُ لهُ: أبو الحر، وكان منقطعاً إليَّ، فدلّني علىٰ غير ما امرأة أتزوَّجها، فلمْ أَرْضَ عن واحدةٍ منهنَّ، فاستقصرته يوماً، فقال: واللهِ يا مولاي لأدلنَّك علىٰ امرأةٍ لَمْ تَرَ مثلها قط، فإنْ لم تر كما وصفت فاحلق لحيتي! فدلّني علىٰ امرأةٍ فتزوجتها، فلما زُفَّتْ إليَّ وجدتها أكثر مما وصف، فلما كان في السحر إذا إنسان يدقُّ البابَ، فقلتُ مَنْ هذا؟ قال: أبو الحر، وهذا هو الحجام معه! فقلتُ: قد وفَّر الله لحيتك أبا الحر، الأمر كما قلت!

- يدل علىٰ النساء: يقوم بترشيح النساء لمريدي الزواج.

- استقصرته: نسبته إلىٰ التقصير.

* وكانت زوجة الإمام الزهري تتبرم منه حين تراه منكباً علىٰ كتبه وعلمه، وفي يوم قالت بنت أخته: خالي خير خال! فقالت لها زوجته: اسكتي والله لهذه الكتب أشدَّ عليّ

من ثلاث ضرائر . . ! والزوجة الواعية هي التي توفر لزوجها الجو الهادئ ليتفرغ لعلمه وكتبه ودراسته ، لا أن تتضايق من الكتب وتعتبرها بمثابة الضرة ، فإن اللذة والسعادة التي يشعر بها الرجل في مطالعته وقراءته لا تعد لها لذة ، ولا تدانيها سعادة . . إنها لذة العلم وسعادة الروح والفؤاد ، وقد لا تشعر الزوجة بهذه اللذة ولا تعرف طعمها ـ وخاصة إذا كانت أميّة وجاهلة ـ لذلك تنكر على الزوج إقباله على العلم ومطالعته الكتب ، وتشعر أنه أتاها بضرة جديدة كلما أدخل إلى البيت كتاباً جديداً . . !

* يقول الإمام الشافعي رحمه الله :

سهري لتنقيح العلوم ألذُّ لي ... من وصْل غانيةٍ وطيب عناقِ

وصريرُ أقلامي على صفحاتها ... أَحْلى من الدَّوْكاء والعُشّاقِ

وألذّ من نقْرِ الفتاة لِدَفّها ... نقري لألقي الرمل عن أوراقي

وتمايُلي طرباً لحلّ عويصةٍ ... في الدرس أشهى من مُدامة ساقي

وأبيتُ سهرانَ الدُّجى وتبيتُه ... نوماً وتبغي بعد ذاك لحِاقي . . ؟!

الاستمتاع في حديث التعدد!

* تزوج أبو العباس السفاح ـ مؤسس دولة بني العباس ـ قبل الخلافة من امرأة تدعى أم سلمة ، وكانت قد تزوجت قبله من عبدالله بن الوليد بن المغيرة المخزومي فمات ، وتزوجت بعده من عبدالعزيز بن الوليد بن عبدالملك الأموي فمات . فبينما هي ذات يوم ، إذ مرّ بها أبو العباس السفاح ـ قبل أن يلي الخلافة ـ وكان جميلاً وسيماً ، فسألت عنه ، وأرسلت له مولاة لها تعرض عليه أن يتزوجها ، وقالت لمولاتها : قولي له هذه سبعمائة دينار أوجه بها إليك ، وكانت تمتلك كثيراً من المال والحشم والجواهر ، فأتته المولاة وعرضت عليه ذلك ، فقال السفاح : أنا مُمْلق لا مال عندي ، فدفعت إليه المال . وأقبل إلى أخيها وطلب إليه أن يزوجه منها ، فزوجه إياها ، فأصدقها خمسمائة دينار ، وأهدى من يلوذ بها مائتي دينار ، وزفت إليه في ثياب موشاة بالجواهر ، وحظيت عنده حتى أصبح لا

يقطع أمراً إلاّ بمشورتها حتىٰ أفضت إليه الخلافة. فلما كان ذات يوم في خلافته، خلا به خالد بن صفوان بن الأهتم، فقال له: يا أمير المؤمنين! إني فكرت في أمرك وسعة ملكك، وقد ملَّكْت نفسك امرأة واحدة، فإن مرضت مرضت، وإن غابت غبت، وحَرَمْتَ نفسك من التلذّذ باستظراف الجواري ومعرفة أخبار حالتهن، والتمتع بما تشتهي منهن، فإنّ منهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغيداء، وإن منهن البضّة البيضاء، والدقيقة السمراء، والبربرية العجزاء من مولدات المدينة تفتن بمحادثتها! وجعل خالد يجيد في الوصف، ويجدّ في الإطناب بحلاوة لفظه وجودة وصفه!

فلما فرغ من كلامه قال أبو العباس: ويحك يا خالد ما صكّ مسامعي والله كلام أحسن مما سمعته منك! فأعد عليّ كلامك، فقد وقع مني موقعاً! فأعاد عليه خالد أحسن مما ابتدأه ثم انصرف. وبقي السفاح مفكراً فيما سمع منه، فدخلت عليه زوجته أم سلمة فلما رأته مفكراً مغموماً، قالت: إني لأنكرك يا أمير المؤمنين، فهل حَدَث لك أمر تكرهه، أو أتاك خبر فارتعْتَ له؟ قال: لم يكن من ذلك شيء. قالت: فما قصتك؟ فجعل ينزوي عنها، فلم تزل به حتىٰ أخبرها بحديث خالد! فقالت: فما قلت لابن الفاعلة؟ قال السفاح: سبحان الله ينصحني وتشتميه؟ وخرجت من عنده مغضبة، وأرسلت إلىٰ خالد جماعة من الغلمان وأمرتهم أن لا يتركوا منه عضواً صحيحاً! قال خالد: فانصرفت إلىٰ منزلي وأنا علىٰ السرور بما رأيت من أمير المؤمنين وإعجابه بما ألقيت إليه، ولا أشك أن صلته ستأتيني! فلم ألبث حتىٰ سار إليّ أولئك الغلمان، وأنا قاعد علىٰ باب داري، فلما رأيتهم قد أقبلوا نحوي أيقنت بالجائزة والصلة! حتىٰ وقفوا عليّ وسألوا عني، فقلت: ها أنذا خالد، فسبق إليّ أحدهم بهراوة كانت معه، فلما أهوىٰ بها عليّ وثَبْتُ فدخلت منزلي وأغلقت الباب عليَّ واستترت! ومكثت أياماً علىٰ تلك الحال لا أخرج من منزلي، ووقع في خلدي أني أُتيتُ من قِبَل أم سلمة!

وطلبني السفاح طلباً شديداً، فلم أشعر ذات يوم إلا بقوم هجموا عليّ وقالوا: أجب أمير المؤمنين، فأيقنت بالموت، فركبت وليس عليّ لحم ولا دمّ. فلما وصلت إلىٰ الدار

أومأ إليّ بالجلوس، ونظرت فإذا خلف ظهري باب عليه ستور قد أُرْخيت وحركة خلفها فقال: يا خالد لم أرك منذ ثلاث؟ قلت: كنت عليلاً يا أمير المؤمنين! قال: ويحك. إنك وصفت لي في آخر لقاء بيننا من أمر النساء والجواري ما لم يخرق مسامعي قط كلام أحسن منه، فأعدْه عليّ! قلت: نعم يا أمير المؤمنين، أعلمْتُك أن العرب اشتقت اسم الضرة من الضرّ، وأن أحدهم ما تزوّج من النساء أكثر من واحدة إلا كان في جهد! فقال: ويحك! لم يكن هذا في الحديث! فقلت: بلى والله يا أمير المؤمنين، وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأنهن القدر يغلي عليهن! قال أبو العباس: برئت من قرابتي من رسول الله ﷺ إن كنت سمعت هذا الكلام منك في حديثك! قال خالد: وأخبرتك أن الأربع من النساء شرّ صحيح لصاحبهن، يُشيِّبْنه ويُهْرِمنه ويُسْقمنه! قال أبو العباس: ويلك، ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل هذا الوقت! قال خالد: بلى والله، قال: ويلك وتكذبني؟! قال: وتريد أن تقتلني يا أمير المؤمنين؟ قال: مُرّ في حديثك، قال: وأخبرتك أن أبكار الجواري رجال، ولكن لا خصى لهن! قال خالد: فسمعت الضحك من وراء الستر! فقلت: نعم، وأخبرتك أيضاً أن بني مخزوم، ريحانة قريش، وأنت عندك ريحانة من الرياحين، وأنت تطمح نفسك إلى حرائر النساء وغيرها من الإماء! قال خالد: فقيل لي من وراء الستر: صدقت والله يا عماه وبررت، بهذا حدّثت أمير المؤمنين، ولكنه بدّل وغيّر، ونطق عن لسانك!

فقال له أبو العباس: مالك قاتلك الله وأخزاك وفعل بك وفعل! قال خالد: فتركته وقد أيقنت بالحياة، فما شعرت إلا برسل أم سلمة قد ساروا إليّ ومعهم عشرة آلاف درهم، وتخت، وبرذون وغلام!

- التخت: وعاء تصان فيه الثياب.

- البرذون: يطلق على غير العربي من الخيل والبغال، ويُقال له في بلاد الشام: الكَديش!.

الجواهر المصونة

. الحجاب .

* يحكي الشيخ زاهد الكوثري رحمه الله، أن سفير الدولة العثمانية أحمد وفيق باشا ـ وكان سريع الخاطر حاضر الجواب ـ اجتمع مع كبراء الدولة الإنكليزية فقال أحد الكبراء للسفير: لماذا تصرون أن تبقى المرأة المسلمة في الشرق الإسلامي متخلفة معزولة عن الرجال محجوبة عن النور. . ؟! فقال السفير العثماني: لأن نساءنا المسلمات في الشرق لا يرغبن أن يلدن من غير أزواجهن. . !! فخجل الرجل وأُلْجِم وأُفْحم. . ! ولم يدر ماذا يقول. . . فقد ظن أن في هذا مغمزاً للإسلام ومطعنا، وما درى أن الحجاب صيانة للمرأة، وهو لها كالصدفة التي تحفظ الجوهرة، وأن العار والمطعن في التي خلعت برقع الحياء فنثرت مفاتنها وجسدها للناظرين، والعاشقين، وخالطت الرجال وزاحمتهم، ونتج عن ذلك كثرة اللقطاء وانتشار ظاهرة الأولاد غير الشرعيين!

* ويقول الشيخ زاهد الكوثري: ضمني مجلس يوماً مع عمدة أحد البلدان الإسلامية، وكان شبه عامي، إلا أنه كان نبيهاً فطناً، فحكى لي فيما حكى أنه يلتقي مع مدرس في مدرسة بلغارية، وكان يحاول أن يدخله في بحوث دينية في كل لقاء، يقول: فقال لي يوماً: إن محمداً ﷺ رجل عظيم جداً، وشرعه في غاية الحكمة، وإني أكاد أعتنق الدين الإسلامي لولا ابتعاده عن النصفة والعدل في مسألة. . ! وهي: مسألة إباحة تعدد الزوجات للرجل. . . دون إباحة تعدد الأزواج للزوجة. . . ! فقال العمدة: فقلت له هذه هي المسألة الوحيدة التي لا تستسيغها؟ قال: نعم، فقلت له: أنا عامي ولست بعالم، ولكن يمكنني حلّ مشكلتك هذه، فماذا يكون موقفك؟ قال: يكون التسليم طبعاً. . ! فقلت: إذا اقترنت امرأة برجل أيحصل بذلك علوق بولد؟ قال: نعم، قلت: وإذا اقترنت بثان وثالث ورابع أيحصل لها أولاد جدد في بطن واحدة في سنة واحدة؟ قال: لا، قلت: وإذا اقترن الرجل بامرأة أيحصل علوق؟ قال: نعم، قلت: وإذا اقترن بثانية وثالثة ورابعة، أيمكن حصول أولاد من جميع ذلك؟ قال: نعم، قلت: هذا هو الفرق بين تعدد الزوجات وتعدد الأزواج!!

* لما زار امبراطور ألمانيا تركيا، أحب أعضاء جمعية الاتحاد والترقي أن يظهروا له تمدّنهم، فأخرجوا بعض بنات المدارس لاستقباله وهن متبرجات، وقدّمن له باقات الأزهار، فاستغرب الامبراطور لمَا رآه من لباس بنات المسلمين! وقال للمسؤولين: إني كنت آمل أن أشاهد في تركيا الحشمة والحجاب، بحكم دينكم الإسلامي..! وإذا بي أشاهد التبرج الذي نشكوا منه في أوروبا، ويقودنا إلىٰ ضياع الأسرة وخراب الأوطان وتشريد الأطفال!!

* كان من أمر يهود بني قينقاع أن امرأةً من العرب قدمت بجَلَب لها فباعته بسوق بني قينقاع وجلست إلىٰ صائغ هناك منهم، فجعلوا يريدونها علىٰ كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ الخبيث إلىٰ طرف ثوبها فعقده إلىٰ ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا منها، فصاحت الحرة الكريمة واستغاثت، فتحركت نخوة الرجال، فوثب رجل من المسلمين علىٰ الصائغ فقتله وكان يهودياً، فشدّت اليهود علىٰ المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين علىٰ اليهود، فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع، فحاصرهم رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة حتىٰ نزلوا علىٰ حكمه فأجلاهم عن المدينة وطردهم منها..!

* قال أبو عبدالله محمد بن أحمد بن موسىٰ: حضرت مجلس موسىٰ بن إسحاق القاضي بالري سنة ست وثمانين ومائتين، وتقدمت امرأة فادعىٰ وليها علىٰ زوجها خمسمائة دينار مهراً، فأنكر، فقال القاضي: شهودك، قال: قد أحضرتهم، فاستدعىٰ بعض الشهود أن ينظر إلىٰ المرأة ليشير إليها في شهادته، فقام الشاهد وقال للمرأة: قومي، فقال الزوج: تفعلون ماذا؟ قال الوكيل: ينظرون إلىٰ امرأتك وهي مسفرة لتصح عندهم معرفتها! فقال الزوج: وإني أشهد القاضي أن لها عليّ هذا المهر الذي تدّعيه، ولا تسفر عن وجهها!! فردت المرأة، وأخبرت بما كان من زوجها. فقالت المرأة: فإني أشهد القاضي أني قد وهبت له هذا المهر، وأبرأته منه في الدنيا والآخرة..!! فقال القاضي: يكتب هذا في مكارم الأخلاق..!!

* قيل لهند بنت الخُس وقد زنت بعبدها، وكانت شريفة قومها: لِمَ زنيتِ بعبدك وأنت سيدة قومك..؟! فقالت: قرب الوِساد، وطول السّواد..!! أي كثرة المخالطة وطول المحادثة!

* أهدىٰ المنذر إلىٰ أمه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها ثياباً رقاقاً، وكانت قد عميت آخر عمرها، فلما لمستها ردّتها، فقال لها ابنها: إنها لا تشف..، فقالت: إن لم تشف فإنها تصف..!!

* شكا جرير بن عبدالله البجلي إلىٰ عمر بن الخطاب ما يلقىٰ من النساء، فقال: لا عليك، فإنّ التي عندي ربما خرجتُ من عندها فتقول إنما تريد أن تتصنّع لفتيات بني عدي! فسمع كلامهما ابن مسعود، فقال: لا عليكما، فإن إبراهيم الخليل شكا إلىٰ ربه رداءةً في خلق سارة، فأوحىٰ الله إليه: أن ألْبسها لباسها ما لم تر في دينها وَصْماً، فقال عمر: إن بين جوانحك لعلماً!

* قال عبدالله ابن أخت مسلم بن سعد: أردت الحج فدفع إليّ خالي مسلم عشرة آلاف درهم، وقال لي: إذا قدمت المدينة فانظر أفقر أهل بيت بالمدينة فأعطهم إياها... فلما دخلت سألت عن أفقر أهل بيت المدينة، فدُلِلْتُ علىٰ أهل بيت، فطرقت عليهم الباب، فأجابتني امرأة: مَنْ أنت؟ فقلت: أنا رجل من أهل بغداد أُودعْتُ عشرة آلاف، وأُمرْتُ أن أسلّمها إلىٰ أفقر أهل بيت بالمدينة وقد وصفتم لي فخذوها، قالت: يا عبدالله إنّ صاحبك اشترط أفقر أهل بيت، وهؤلاء الذين بإزائنا أفقر منا..! فتركتُهم وأتيتُ أولئك فطرقت الباب فأجابتني امرأة، فقلت لها مثل الذي قلت لتلك المرأة، فقالت: يا عبدالله نحن وجيراننا في الفقر سواء... فاقسمها بيننا وبينهم. * صفة الصفوة: ٢/ ٢٠٦.

ما مدّ يده إلى الحرام

* كان الملك مظفّر الدين أبو الفتح، حلو الشمائل، محبّباً إلىٰ رعيته، موصوفاً بالشجاعة وكان جواداً، عادلاً، سخيّاً، لو دفع الدُّنيا إلىٰ أقل الناس لم يستكثرها عليه، ميمون الطليعة، ما كُسرت له رايةٌ قطٌّ! متعففاً عن المحارم، ما خلا بامرأة قطٌّ إلاَّ زوجته أو

محرمه! يحدث أبو المظفر عنه في «مرآة الزمان» فيقول: اجتمعت معه في منظرة فحدثني عن نفسه فقال: والله ما مددت عيني إلىٰ حريم أحدٍ قطُّ، لا ذكر ولا أنثىٰ، ولقد كنت يوماً قاعداً هاهنا، فقال الخادم: علىٰ الباب عجوز تستأذن من عند بنت شاه أرمن صاحب خِلاَط سابقاً، فأذنت لها، فناولتني ورقة تذكر أن الحاجب علياً قد قصدها وأخذ ضيعتها، وقصد هلاكها، وتخاف منه أن تخرج! فكتبت علىٰ الورقة بإطلاق الضيعة، ونهي الحاجب عنها، فقالت العجوز: هي تسأل الإذن بالحضور بين يديك فلها سِرٌّ تذكره للسلطان، فقلت: بسم الله، فغابت ساعة ثم جاءت ومعها امرأة ما يمكن في الدنيا أحسن من قدِّها، ولا أظرف من شكلها، كأن الشمس تحت نقابها، فحَذَمت ووقفت؛ فقمت لها، لكونها بنت شاه، فسفرت عن وجهها، فأضاءت منه المنظرة! فقلت: غطِّي وجهك واذكري حاجتك، فقالت: مات أبي واستوليتم علىٰ البلاد، ولي ضيعة أعيش منها؛ أخذها الحاجب مني، وما أعيش إلا من عمل النقش، وأنا ساكنة في دور الكراء! قال: فبكيت وأمرت لها من الخزانة بقماش وسكن يصلح لها، وقلت: بسم الله في حفظ الله، وودَّعته. فقالت العجوز: ما جاءت إلا لتحظىٰ بك الليلة! قال: فأوقع الله في قلبي تَغَيُّرَ الزمان، وتملّك غيري، وتحتاج بنتي أن تقعد مثل هذه القعدة! فقلت: يا عجوز! معاذ الله! والله ما هو من شيمتي، ولا خلوت بغير محارمي! خذيها وانصرفي، وهي العزيزة الكريمة، ومهما كان لها من الحوائج فهذا الخادم تنفذ إليه، فقامت وهي تبكي وتقول بالأرمنية: صان الله حريمك، قال: فلما خرجت، قالت لي النفس: في الحلال مندوحة عن الحرام، تزوجها، فقلت للنفس: يا خبيثة: أين الحياء والكرم والمروءة؟ والله لا فعلته أبداً! * الحذم في المشي: الإسراع فيه.

احتراماً لنعل رسول الله!

وقدم عليه النظام بن أبي الحديد ومعه نعل النَّبيِّ ﷺ فقام له قائماً، ونزل فأخذ النَّعل ووضعه علىٰ عينيه وبكىٰ، وأجرىٰ علىٰ النظام النفقات، وأراد أن يأخذ منه قطعةً تكون عنده، ثم رجع وقال: ربما يجيء بعدي من يفعل مثل فعلي فيتسلسل الحال ويؤدي إلىٰ

استئصاله فتركه! ومات النظام بعد مدة وأوصىٰ له بالنَّعل، فلما فتح دمشق اشترىٰ دار قايماز النجمي وجعلها دار حديث، وترك النَّعل بها! وبنىٰ مظفر الدين كثيراً من المساجد في دمشق. (١)

الأم.. والبنت

* قال أسلم مولىٰ عمر: بينما أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، يعسّ في بعض الليالي إذا عيي فاتكأ علىٰ جانب جدار في جوف الليل، وإذا بامرأة تقول لابنة لها: قومي إلىٰ ذاك اللبن فامذقيه بالماء - أي اخلطيه بالماء - فقالت لها: يا أماه أو ما قد علمت بما كان من عَزْمة أمير المؤمنين؟ قالت: وما كان من عَزْمته يا بنية؟ قالت: إنه أمر مناديه فنادىٰ: لا يشاب اللبن بالماء! فقالت لها: يا بنية قومي إلىٰ اللبن فامذقيه بالماء فإنك بموضع لا يراك فيه عمر ولا منادي عمر - وعمر يسمع هذه المحاورة بين الأم وابنتها - فقالت البنت: يا أماه إن كان عمر لا يرانا ولا يعلم، فإله عمر يرانا ويعلم، والله ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء! وأعجب عمر بجواب الفتاة ووقعت مقالتها منه موقعاً عظيماً، فقال: يا أسلم علّم الباب واعرف الموضع! ثم مضىٰ في عسّه، فلما أصبح قال: يا أسلم امض إلىٰ الموضع فانظر من القائلة، ومن المقول لها، وهل لهما من بَعل؟ قال أسلم: فأتيت الموضع فنظرت فإذا الجارية من بني هلال أيّم لا بعل لها، وإذا تيك أمّها ليس لها بعل، فأتيت عمر وأخبرته، فدعا عمر ولده عبدالله وعبدالرحمن وعاصماً وقال: هل فيكم من يحتاج إلىٰ امرأة فأزوجه؟ لو كان بأبيكم حركة إلىٰ النساء ما سبقه منكم أحد إلىٰ هذه الجارية، فقال عبدالله: لي زوجة، وقال عبدالرحمن: لي زوجة، وقال عاصم: يا أبتاه لا زوجة لي فزوجني، فبعث إلىٰ الجارية، فزوجها عاصماً، فولدت له محمداً وبنتاً هي أم عاصم، فتزوجها عبدالعزيز بن مروان بن الحكم فولدت له عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، وعاصم بن عمر بن الخطاب هو جد عمر بن عبدالعزيز لأمه.

---

(١) انظر صفحة ٧٧٢ من هذا الكتاب.

نصيحة بريرة للخليفة

* قال عبدالملك بن مروان: كنت اجالس بريرة بالمدينة فكانت تقول لي: يا عبدالملك، إني أرىٰ فيك خصالاً، وإنك لخليق أن تلي هذا الأمر - الخلافة - فإن وليته فاحذر الدماء، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرجل ليدفع عن باب الجنة بعد أن ينظر إليه، بملء محجمة من دم يريقه من مسلم بغير حق».

وبريرة هي مولاة عائشة رضي الله عنها اشترتها فأعتقتها وكانت تخدمها، وقيل كانت جارية لعتبة بن أبي لهب، فزوجها عبداً أسود، ما كانت لترضىٰ، لو كان أمرها إليها، وشكت أمرها إلىٰ عائشة فاشترتها وأعتقتها، وقال لها رسول الله ﷺ: مَلَكْتِ نفسك فاختاري - أي أنت حرة - وقد بِنْت من زوجك فاختاري من تشائيه، فتركت زوجها وكان يحبها حباً جماً، حتىٰ كان يمشي خلفها في سكك المدينة ويبكي والدموع تسيل علىٰ لحيته وهي تأباه! فقال النبي ﷺ: ألا تعجبون من شدة حبه لها وبغضها له؟ ثم قال: اتقي الله فإنه زوجك وأبو ولدك! فقالت: أتأمرني؟ فقال: لا، إنما أنا شافع، فقالت: إذا فلا حاجة لي إليه! وقد استنبط العلماء من حديث بريرة ثلاثمائة فائدة، وألّف ابن خزيمة - كما في طبقات الشافعة: ١١٨/ ٣ كتاباً سماه: فقه حديث بريرة في ثلاثة أجزاء!

تأملات

* الحزن هو الإحساس الوحيد الذي يضعك أمام نفسك وجهاً لوجه!

قالوا:

- المرأة الذكية هي التي تختار زوجها ضعيف الشخصية لتظل تحكمه إلىٰ الأبد!

* المرأة الخفيفة علىٰ القلب، غالباً ما تكون ثقيلة علىٰ الجيب؟

- عندما تبكي المرأة تتحطم مقاومة الرجل.

الزواج.. مسؤولية وحياة جديدة

* قيل للحسن رحمه الله: فلان خطب إلينا فلانة، قال: أهو موسرٌ من عَقْل ودين؟ قالوا: نعم، قال: فزوِّجوه! ترىٰ من الذي يفكر اليوم بالسؤال عن العقل والدين إذا تقدم الشاب لطلب يد الفتاة؟! وهل يدور في خلد أحد الآن إلا التفكير في وظيفة الشاب ومكانته وماله ورصيده! لقد أصبح من الطبيعي سؤال أهل العروسين عن عمل كل منهما ومدّخراته ورصيده وتجارته، ولا يخطر ببال أي منهم السؤال عن دين الآخر وعقله وخُلُقه. وما دروا أن الرصيد الباقي هو الدين والخلُق، وأن المال إلىٰ زوال، والجمال إلىٰ اضمحلال، والوظيفة إلىٰ انتقال.

* جاء في الحديث الشريف: «تُنْكَحُ المرأةُ لأربع لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك» رواه الشيخان. وقال ﷺ أيضاً: «إذا جاءكم من ترضَوْنَ دينه وخُلُقَه فزوِّجوه إلا تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ عريضٌ». رواه الترمذي. وقيل للحسن: إن لي بنية، فمن ترىٰ أنْ أزوجها؟ قال: زوّجها ممن يتقي الله فإن أحبَّها أكْرمَها، وإنْ أَبْغضها لم يظلمها. . .

* ويحذِّر الرسول الكريم من الاغترار بالمظهر والشكل إذا كان لا ينم عن أصل كريم ومنبت حسن وخلق أصيل ودين متين.

* يروىٰ أن رسول الله ﷺ قال: إياكم وخضراءَ الدِّمَن! قالوا: وما خضراءُ الدِّمَنِ يا رسول الله؟ قال: المرأة الحسناء في المنبتِ السُّوء». رواه الدار قطني في الأفراد والرامهرمزي في الأمثال من حديث أبي سعيد الخدري. قال الدار قطني: تفرّد به الواقدي وهو ضعيف. تخريج الإحياء ٢/ ٤١.

هذه نصائح لا يستغني عنها عاقل يريد لابنته السعادة وينشد لها المستقبل الزاهر والحياة الكريمة في ظل زوجية ترفرف عليها رايات المحبة والهناءة ورغد العيش.

* خطب صعصعة بن معاوية إلىٰ عامر بن الظَّرب ابنته عمرة، وهي أم عامر بن

صعصعة، فقال: يا صعصعة، إنك أتيتني تشتري مني كبدي، فارحم ولدي قَبِلْتُك أو رددْتُك، والحسيب كُفء الحسيب، والزوج الصالح أب بعد أب، وقد أنكحتك خشية أن لا أجد مثلك أفرَّ من السرّ إلى العلانية. يا معشر عَدْوان. خرجتْ من بين أظهركم كريمتُكم من غير رغبة ولا رهبة، أُقْسم لولا قَسم الحظوظ على الجُدود ما ترك الأول للآخر ما يعيش به.

* وخير الزواج ما كان في مقتبل العمر وزهرة الشباب ففيه غالباً الإنجاب وقطع الطريق على النفس والشيطان من مزالق الهوى وشراك الفتن ومواطن الفساد.

* مرّ ملك من ملوك العجم بشيخ يعمل في أرض فقال له: أيها الشيخ هلاّ أدلجت فيكون من ذلك ما يكفيك؟ فقال: أدلجت ولكن القضاء لم يدلج. فقال: اكتم كلامنا هذا حتى تراني، ثم انصرف الملك فأحضر وزيره وقال: ما معنى كلام الشيخ؟ قيل له كذا فأجاب بكذا، وقد أنظرتُك حَوْلاً، فجعل الوزير يسأل الناس ولا يجيبه أحد حتى وقع بالشيخ فسأله، فقال له: إن الملك استكتمني الأمر حتى أراه، فبذل له عشرة آلاف درهم، فقال: إنه قال لي: لِمَ لَمْ تتزوج أيام الشباب؟ فقلت له: قد تزوجت ولكن لم يَأتني أولاد! فجاء الوزير فأخبر الملك فقال له: عليّ بالشيخ فدعاه، فلمّا حضر، قال له: ألم أقل لك: اكتمْ أمْرنا حتى تراني! قال: قد رأيتُك عشرة آلاف مرة، فعلم أن الوزير دفع إليه عشرة آلاف درهم، وأنه رأى اسمه مكتوباً على كل درهم منها وصورته فقال: زه - كلمة استحسان - ودفع إليه أربعة آلاف درهم أخرى!

التيسير في المهور

* والإسلام يرغب بتيسير سبل الزواج وذلك عن طريق تقليل المهر ومؤنة النكاح وما يتبعه، حتى لا يحجم الشباب عن الزواج لما يرون من كثرة التكاليف والالتزامات التي تثقل كاهلهم، وتلتهم ثرواتهم. وفي الحديث الشريف: «أعظمُ النساءِ بركةً أيسرُهن صداقاً» وقال عمر رضي الله عنه: لا تغالوا في مهور النساء فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولى بكثرتها رسول الله ﷺ؛ ما أصدَق امرأة من نسائه ولا من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية، وذلك أربعمائة وثمانون درهماً، ذلك أن الزواج ليس عملية

بيع وشراء للفتيات، وليست الفتاة سلعة تعرض للمساومة ليأخذها من زاد في ثمنها، وإنما هو سكن نفسي واستقرار روحي، وإقامة حياة كريمة في كنف شاب يرعى حرمة الفتاة ويعرف حقّها فيُنشئان بيتاً وذرية.

* أراد رجل من أهل الشرف والمروءات أنْ يُزوّج ابنته فاستشار جاراً له مجوسياً، فقال: سبحان الله الناس يستفتونك وأنت تستفتيني؟ قال: لابد أن تشير عليّ قال: إن رئيسنا كسرىٰ كان يختار المال، ورئيس الروم قيصر كان يختار الجمال، والعرب كانت تختار الحسب والنسب، ورئيسكم محمد كان يختار الدين، فانظر أنت بأيهم تقتدي!

* وزوّج سعيد بن المسيب ابنته من أبي هريرة علىٰ درهمين ثم حملها إليه ليلاً وأدخلها هو من الباب ثم انصرف، ثم جاءها بعد سبعة أيام يسلّم عليها.

* وروي عن أبي وداعة قال: كنت أجالس سعيد بن المسيب ففقدني أياماً فلما جئته قال: أين كنت؟ قلت: توفيت أهلي فاشتغلت بها، فقال: ألا أخبرتنا فشهدنا قال، ثم أردت أن أقوم، فقال: هل استحدثت امرأة؟ فقلت: يرحمك الله ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة! فقال: أنا. فقلت: وتفعل؟ قال: نعم، ثم تحمّد وصلىٰ علىٰ النبي ﷺ وزوّجني علىٰ درهمين أو قال ثلاثة قال: فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح! فصرت إلىٰ منزلي فجعلت أتفكر ممن آخذ وممن أستدين، فصليت المغرب وانصرفت إلىٰ منزلي وأسرجت السراج وكنت وحدي صائماً، فقدمت عشائي أفطر وكان خبزاً وزيتاً فإذا بابي يقرع، فقلت: من هذا؟ قال: سعيد قال: ففكرت في كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب فإنه لم ير أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد، فقمت فخرجت فإذا سعيد بن المسيب، فظننت أنه بداله فقلت: يا أبا محمد ألا أرسلت إليّ فآتيك قال: لا، أنت أحق أن تُؤتىٰ، قلت: فما تأمر؟ قال: إنك كنت رجلاً عزباً فتزوجتَ فكرهتُ أن أبيتك الليلة وحدك، وهذه امرأتُك فإذا هي قائمة خلفه في طوله، ثم أخذ بيدها فدفعها في الباب وردّ الباب، فسقطت المرأة من الحياء، فاستوثقت من الباب ثم تقدمت إلىٰ القصعة التي فيها الزيت والخبز فوضعتها في ظل السراج لكيلا تراه، ثم صعدت إلىٰ السطح فرميت الجيران

فجاءوني فقالوا: ما شأنك؟ قلت: ويحكم زوجني سعيد بن المسيب ابنته اليوم وقد جاء بها الليلة على غفلة! فقالوا: سعيد زوّجك؟ فقلت: نعم. قالوا: وهي في الدار؟ قلت: نعم، فنزلوا إليها وبلغ أمي فجاءت وقالت: وجهي من وجهك إن مَسَسْتَها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام، قال: فأقمت ثلاثاً ثم دخلْتُ بها فإذا هي من أجمل الناس، وإذا هي أحفظ الناس لكتاب الله تعالى وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ وأعرفُهم بحق الزوج. قال: فمكثت شهراً لا يأتيني سعيد ولا آتيه، فلما كان قرب الشهر أتيتُ سعيداً وهو في حلقته فسلّمت عليه فرد عليّ السلام ولم يكلمني حتى تفرق أهل المجلس فقال: ما حال ذلك الإنسان؟ فقلت: خيراً يا أبا محمد على ما يحب الصديق ويكره العدو قال: إنْ رابك شيء فالعصا! فانصرفتُ إلى منزلي فوجّه إليّ بعشرين ألف درهم.

قال عبدالله بن سليمان وكانت بنت سعيد بن المسيب خطبها عبدالملك بن مروان لابنه الوليد حين ولاه العهد فأبى سعيد أن يزوِّجه، فلم يزل عبدالملك يحتال على سعيد حتى ضربه مائة سوط في يوم بارد وصبّ عليه جرة ماء وألبسه جبة صوف.

* نظر عمران بن حطان إلى امرأته، وكانت من أجمل النساء، وكان من أقبح الرجال فقال: إني وإيّاك في الجنة إن شاء الله. قالت له: كيف ذاك؟ قال: إني أُعْطيتُ مثلك فشكرْتُ، وأُعطِيتِ مثلي فصبْرتِ!

* وللمرأة تأثير عجيب على زوجها وتفكيره وربما مسلكه في الحياة وتوجُّهاته وسياساته، وفي الحديث الشريف «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذوي الألباب منكنّ» رواه مسلم.

* قال صعصعة لمعاوية: يا أمير المؤمنين، كيف نَنْسبك إلى العقل وقد غلب عليك نصف إنسان؟ يريد غلبة امرأته فاختة بنت قرظة عليه، فقال معاوية: إنهن يغلبن الكرام ويغلبهن اللئام!

* لذلك كثرت التحذيرات من اتخاذ المرأة موضعاً للسر أو استشارتها في أمر أو

توكيلها في إدارة عمل، وفي الأثر «النساء حبائل الشيطان». قال رجل: ما دخل بيتي شرّ قط! فقال له حكيم: ومن أين دخلت امرأتك؟!

* رأىٰ سقراط امرأة تحمل ناراً فقال: نار تحمل ناراً، والحامل شرّ من المحمول!

* وقال لقمان: كنْ من خيار النساء علىٰ حذر فأنت من شرارهن علىٰ يقين! وقال ابن المقفع: إياك ومشاورة النساء فإن رأيهن إلىٰ أَفْنٍ وعزمهنّ إلىٰ وهنٍ.

* ويُحكىٰ أن خسرو كان يحب أكل السمك، فكان يوماً جالساً في المنظرة وامرأته سيرين عنده فجاء الصياد ومعه سمكة كبيرة وأهداها لخسرو ووضعها بين يديه فأعجبته، فأمر له بأربعة آلاف درهم، فقالت سيرين: بئسما فعلت! قال: ولم؟ قالت: لأنك إذا أعطيت بعد هذا لأحد من حشمك هذا القدر احتقره وقال أعطاني عطية الصياد! وإن أعطيته أقلّ منه قال أعطاني أقل مما أعطىٰ الصياد! فقال خسرو: لقد صدقتِ ولكن يقبح بالملوك أن يرجعوا في هباتهم وقد فات هذا، قالت سيرين: أنا أدبر هذه الحالة فقال: وكيف ذلك؟ فقالت: تدعو الصياد وتقول له هذه السمكة ذكر أم أنثىٰ؟ فإن قال ذكر فقل: إننا أردنا أنثىٰ وإن قال أنثىٰ، فقل إنما أردنا ذكراً! فنودي الصياد فعاد وكان ذا ذكاء وفطنة فقال له خسرو: هذه السمكة ذكر أم أنثىٰ؟ فقبّل الصياد الأرض وقال: هذه السمكة خنثىٰ لا ذكر ولا أنثىٰ! فضحك خسرو من كلامه وأمر له بأربعة آلاف درهم أخرىٰ! فمضىٰ الصياد إلىٰ الخازن وقبض منه ثمانية آلاف درهم ووضعها في جراب كان معه وحملها علىٰ عنقه وهمّ بالخروج، فوقع منه درهم واحد فوضع الصياد الجراب عن كاهله وانحنىٰ إلىٰ الدرهم وأخذه والملك وسيرين ينظران إليه، فقالت سيرين: أيها الملك أرأيت إلىٰ خسة هذا الرجل وسفالته سقط منه درهم واحد فألقىٰ عن ظهره ثمانية آلاف وانحنىٰ عليه فأخذه ولم يسهل عليه أن يتركه يأخذه بعض الغلمان! فحرد خسروا من ذلك وقال: لقد صدقت يا سيرين، ثم أمر بإعادة الصياد وقال له: يا ساقط الهمة لست بإنسان، وضعت مثل هذا المال عن عنقك لأجل درهم واحد وأسفت أن تتركه في مكانه! . . فقبّل الصياد الأرض وقال: أطال الله بقاء الملك إنني لم أرفع ذلك الدرهم لخطره عندي، وإنما رفعته عن

الأرض لأن على أحد وجهيه صورة الملك، وعلى الوجه الآخر اسمه، فخشيت أن يضع أحد قدمه بغير علم عليه فيكون ذلك استخفافاً باسم الملك وصورته فأكون أنا المأخوذ بهذا الذنب! فعجب خسرو من كلامه واستحسن ما ذكره فأمر له بأربعة آلاف أخرى فعاد الصياد من عند الخازن باثني عشر ألف درهم! فأمر خسرو منادياً ينادي لا يتدبّرنّ أحد برأي النساء، فإنه من يتدبر برأيهن ويأتمر بأمرهن خسر درهمه درهمين!!

* قيل لأحدهم: قد كرهت امرأتك شيبك فمالت عنك! فقال: إنما مالت إلى الأنذال لقلة المال، والله لو كنت في سنّ نوح وشيبة إبليس وخلقة منكر ونكير، ومعي مال؛ لكنت أحبّ إليها من مقترٍ في جمال يوسف وخلق داود وسن عيسى وجود حاتم وحلم أحنف بن قيس!

* قيل للحجاج: أيمازحُ الأميرُ أهله؟ فقال: ما تَرْوني إلا شيطاناً! والله لربما قبّلْتُ أخْمصَ إحداهنّ!

* ورغبت عجوز إلى أولادها أنْ يزوّجوها، وكان لها سبع بنين، فقالوا: لا، إلا أنْ تصبري على البرد متعرّية لكل واحد منا ليلة، ففعلت، فلما كانت السابعة ماتت، فسُميت أيام العجوز!

* قيل لأعرابي: إن فلاناً زوَّج أمّه وأخذ مهرها فأيْسَر به! فقال: أعوذ بالله من بعض الرزق! وقال الجاحظ: معنى قول القائل: يا ماصّ بظر أمه، يعني يا آكلاً مهر أمّه من غير أبيه. وقال أحدهم لأبيه: يجب أن تطلّق أمي، لأني من الشرف والسؤدد بحيث لا أريد أن تكون أمي تحت رجل!

* وكان رجل قاعداً على باب داره وعنده صديق له، ورجل يدخل الدار ويخرج فقال له: من هذا؟ فقال: زوجُ أخت خالتي!

القيد الذهبي!

* من طريف ما نقل من التقييد بالزواج: ما حكاه الإمام تقي الدين السبكي، في ترجمة معمر بن راشد البصري، الذي كان يرحل من بلد إلى بلد لينشر الحديث النبوي،

ويجمع إليه ما لم يكن عنده منه، فلما حلّ في اليمن رغب أهل تلك الديار أن يبقى عندهم، ليكسبوا من علمه وفضله، فاختاروا له قيداً منعوه من مغادرتهم، وكان ذلك القيد هو أنْ زوجوه امرأة منهم، فكانت قيداً له حبسه عن الرحلة والعودة إلى الوطن الأول، فاستمر لديهم إلى آخر الحياة.

* ومن لطيف ما أشير به إلى أن الزوراج قيد ومسؤوليات ثقيلة: قول بعض الظرفاء:

إنْ ذئباً أمسكوه ... وتماروا في عقابه

قال شيخ: زوّجوه ... ودعوه في عذابه

* قال سفيان الثوري: من تزوج فقد ركب البحر، فإن ولد له ولد فقد كسر به - أي المركب - وذلك أنه لما كان ركوب البحر لا يخلو من المخاطر وخوف الغرق، قيل ذلك فيمن تزوج، لدخوله في تحمل المسؤوليات وخوف التقصير فيها، وقوله: فإذا ولد له ولد فقد كسر به المركب، يعني أنه أحاط به الغرق لازدياد المسؤوليات عليه.

* ومن جملة طرف ما ينسب إلى الزمخشري قوله:

تزوجت لم أعلم وأخطأت لم أصب ... فيا ليتني قد مت قبل التزوج

فوالله ما أبكي على ساكني الثرى ... ولكنني أبكي على المتزوج!

* وورد أن يونس بن حبيب النحوي لم يتزوج، ولم يكن له همة إلا في طلب العلم ومحادثة الرجال، قيل له مرة: مات عدوك، فقال: وددت أنكم قلتم: تزوج!

تأملات

* أكبر كارثة تحدثها المناصب، أنها تغيِّر أخلاق شاغليها!

* كان برناردشو يقول عن التراجم الشخصية: إنك عندما تطالع ترجمة رجل ما اذكر دائماً أن الحقيقة غير صالحة للنشر!

المرأة.. نوادر وطرائف ومكائد!

تعليم المرأة

* مر علي كرم الله وجهه على رجل يعلم امرأة الخط فقال: لا تزد الشر شراً!

* ورأى بعض الحكماء امرأة تتعلم الكتابة فقال: أفعى تسقى سما.

* روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال في حق النساء: جنبوهن الكتابة، ولا تسكنوهن الغرف، واستعينوا عليهن بلاٍ، فإنّ نعم تغريهن في المسألة.

* قال الشاعر البسامي:

ما للنساء وللكتابة والعمالة والخطابة   هذا لنا ولهن منا أَنْ يَبَتْنَ على جنابة!

* روي أن عاملاً لزبيدة كتب إليها كتاباً فوقعت في ظهره: أن أصلح كتابك وإلا صرفناك عن عملك! فتأمله فلم يظهر له فيه شيء، فعرضه على بعض إخوانه فرأى فيه في الدعاء لها: وأدام كرامتك، فقال: إنها تخيلت أنك دعوت عليها فإن كرامة النساء دفنهن! فغير ذلك وأعاد الكتاب إليه فقبلته.

* ولضربة من كاتب ببنانه   أمضى وأقطع من رقيق حسام

قوم إذا عزموا عداوة حاسد   سفكوا الدماء بأسنة الأقلام

* هذه الآثار والكلمات وردت في كتاب: صبح الأعشى الجزء الأول ص٦٤.

* والإسلام كما نعلم يحض المرأة على التعليم والتفقه في أمور الدين، وقد لا تصح نسبة هذه الأقوال والآثار لقائليها المذكورين أصلاً، وإنما أوردناها من باب التندر والفكاهة واعتبرناها من الملح والنوادر!

* دخل لص منزل امرأة عجوز وقبل أن يمد يده لأخذ شيء أحست به، فقالت: أفّ لي ما أبلدني، كيف قضيت هذا العمر بدون زواج فلو كنت تزوجت وأنا صغيرة لكان

عندي الآن ثلاثة أولاد وكنت أسمي الكبير بَكراً، والثاني عمرواً، والثالث صقراً فيكونوا لي عوناً على الشدائد. ثم صرخت بأعلى صوتها قائلة: لا حسناً فعلت، لأني كنت أخاف أن الدهر يفجعني بهم فأظل أندبهم وأقول: يا ويلي يا بكر، يا ذلّي يا عمرو وأنجدني يا صقر. وكان لها ثلاثة جيران بهذه الأسماء فهبوا لنجدتها، وأمسكوا باللص، فالتفت اللص إليها وقال: ليتك سكنت القبر ولا ولدت بكراً ولا تكحلت عيناك برؤية عمرو ولا أراني الله هذا الصقر!

* أراد شاب أن يتزوج أرملة طمعاً في ثروتها فذهب يوماً لزيارتها ففتحت له خزانتها لتريه ما عندها من التحف والأواني الذهبية والملابس الحريرية، فسر بذلك غاية السرور، ثم إنها أخرجت طربوشاً، فقالت له: انظر هذا طربوش زوجي الأول، مسكين كانت حياته قصيرة جداً، لأني أقمت معه ثلاثة أشهر لا غير، ثم أخرجت طربوشاً ثانياً، وقالت له: انظر هذا طربوش زوجي الثاني الذي أقمت معه سنة بكل سرور، ثم أخرجت طربوشاً ثالثاً وقالت له: انظر هذا طربوش الثالث الذي أقمت معه ستة أشهر! ثم أخرجت طربوشاً رابعاً، وقالت: هذا طربوش الرابع الذي كان نصيبه مثل الذي قبله! فلما سمع كلامها تغير لونه واصفر وجهه ورمى طربوشه أمامها وقال لها: إني أستحلفك أن تأخذي طربوشي هذا وتتركيني حيا!

* قالوا: آخر عمر الرجل خير من أوله، يثوب حلمه وتحمد سريرته، وتكمل تجاربه. وآخر عمر المرأة شرّ من أوله، يذهب جمالها، ويذرب لسانها، وتعقم رحمها، ويسوء خلقها!

من مكائد النساء

* قال بعض التجار المسافرين كنا نجتمع من بلاد شتى في جامع عمرو بن العاص نتحدث، فبينما نحن جلوس يوماً نتحدث وإذا بامرأة بقربنا في أصل سارية، فقال لها رجل من التجار البغداديين: ما شأنك؟ فقالت: أنا امرأة وحيدة غاب عني زوجي منذ عشر سنين ولم أسمع له خبراً، فقصدت القاضي ليزوجني فامتنع وما ترك لي زوجي

نفقة، وأريد رجلاً غريباً يشهد لي هو وأصحابه بأن زوجي قد مات، أو طلقني لأتزوج أو يقول أنا زوجها ويطلقني عند القاضي، لأصبر مدة العدة وأتزوج، فقال لها الرجل: أتعطيني ديناراً حتى أسير معك إلى القاضي، وأذكر له إني زوجك وأطلقك؟ فبكت وقالت: والله ما أملك غير هذه وأخرجت أربع رباعيات! فأخذها منها ومضى معها إلى القاضي، وأبطأ علينا فلما كان من الغد لقيناه، فقلنا ما أبطأك؟ فقال: دعوني فإني حصلت في أمر ذِكْرُه فضيحة! قلنا: أخبرنا قال: حضرت معها إلى القاضي فادعت عليّ الزوجية والغيبة عشر سنين، وسألت أن أخلي سبيلها، فصدقتها على ذلك، فقال لها القاضي أتبرئينه؟ قالت: لا والله، لي عليه صداق ونفقة عشر سنين، وأنا أحق بذلك! فقال لي القاضي: أديها حقها ولك الخيار في طلاقها أو إمساكها! فورد علي ما بلسني ولم أتجاسر أن أحكي صورتي معها فلا أصدق، فتقدم القاضي بتسليمي إلى صاحب الشرطة، فاستقر الأمر على عشرة دنانير أخذتها مني وغرمت للوكلاء وأعوان القاضي بالأربع رباعيات التي أعطتني ومثلها من عندي! فضحكنا منه فخجل وخرج من مصر ولم يعرف له خبر!!

* جلست امرأة على باب دكان بزاز أعزب إلى أن أمست، فلما أراد غلق الدكان تراءت له، فقال لها: ما هذا المساء؟ فقالت: والله ما لي مكان أبيت فيه، فقال لها: أتمضين معي إلى البيت؟ فقالت: نعم فمضى بها إلى بيته وعرض عليها التزويج، فأجابت، فتزوجها وبقيت عنده أياماً فجاء في اليوم الرابع رجل ومعه نسوة فطلبوها فأدخلهم وأكرمهم، وقال من أنتم منها؟ فقالوا: أقاربها، ابن عم وبنات عم، وقد سررنا بما سمعنا من الوصلة، غير أنا نسألك أن تتركها تزورنا لعرس بعض أقاربنا فدخل إليها فقالت: لا تجبهم إلى ذلك، واحلف بطلاقي أنك لا خرجت من داري شهراً ليمضي زمن العرس، فإنه أصلح لي ولك، وإلا أخذوني وأفسدوا قلبي عليك، فإني كنت غضبى وتزوجت إليك بغير مشاورتهم! ولا أدري من دلهم إليك! فخرج فحلف كما ذكرت له، فخرجوا ميئوسين وأغلق الباب وخرج إلى الدكان، وقد علق قلبه بالمرأة، فخرجت ولم تستصحب من الدار شيئاً، فجاء فلم يجدها فقال قائل: ترى ما الذي قصدت؟ قال

بعضهم لعلها مستحلّة به، لأجل زوج طلقها ثلاثاً! فليتخوف الإنسان من مثل هذا، وليطلع به على غوامض حيل الناس!! أي أنها كانت مطلقة ثلاثاً وتزوجت لتحلّ لزوجها الأول.

* كان لرجل زوجتان، إحداهما اسمها «حانة» والأخرى «مانة» وكانت حانة صغيرة السن، لا تجاوز العشرين، ومانة كبيرة قد جاوزت الخمسين... فكان كلما دخل بيت حانة تنظر إلى لحيته وتنزع منها الشعر الأبيض، وتقول: يصعب علي عندما أرى الشعر الأبيض بادياً في لحيتك! وأنت مازلت شاباً، وعندما يذهب إلى «مانة» تمسك بلحيته وتنتف الشعر الأسود وتقول: أنت رجل كبير السن جليل القدر، ولا يليق بك ظهور الشعر الأسود في لحيتك! ودامت الحال على ذلك مدة، فنظر يوماً في المرآة، فرأى لحيته قد نقصت نقصاً عظيماً، وتقلصت! وكان عهده بها كثة وعظيمة، فقال متألماً: بين حانة ومانة ضاعت لحانا! فذهبت مثلاً!

* كان لفتى من قريش جارية مليحة الوجه حسنة الأدب، وكان يحبها حباً شديداً، فأصابته ضائقة وفاقة، فاحتاج إلى ثمنها، فحملها إلى العراق، وكان ذلك في زمن الحجاج بن يوسف، فابتاعها الحجاج منه، فوقعت منه بمنزلة، فقدم عليه فتى من ثقيف من أقاربه، فأنزله قريباً منه، وأحسن إليه، فدخل على الحجاج والجارية تكبسه، وكان الفتى جميلاً، فجعلت الجارية تسارقه النظر، ففطن الحجاج إليها، فوهبها له، فأخذها وانصرف، فباتت معه ليلتها، وهربت بغلس، فأصبح لا يدري أين هي، وبلغ الحجاج ذلك، فأمر منادياً أن ينادي: برئت الذمة ممن رأى وصيفة من صفتها كذا وكذا، ولم يحضرها! فلم يلبث أن أتي إليه بها، فقال لها الحجاج: يا عدوة الله، كنت عندي من أحب الناس إلي، فاخترت ابن عمي شاباً حسن الوجه، ورأيتك تسارقينه النظر، فعلمت أنك شغفت به، فوهبتك له، فهربت من ليلتك! فقالت: يا سيدي، اسمع قصتي، ثم اصنع بي ما شئت! قال: هاتي ولا تخفي شيئاً، قالت: كنت للفتى القرشي، فاحتاج إلى ثمني، فحملني إلى الكوفة، فلما قربنا منها دنا مني، فسمع زئير الأسد، فوثب واخترط

سيفه وحمل عليه، وضربه، فقتله وأتى برأسه، ثم أقبل عليّ! وإن ابن عمك هذا الذي اخترته لي، لما أظلم الليل قام إليّ، فوقعت فأرة من السقف، فغشي عليه! ومكث زماناً طويلاً وأنا أرشّ عليه الماء وهو لا يفيق، فخفت أن يموت، فتتهمني به، فهربت فزعاً منك! فما ملك الحجاج نفسه من شدة الضحك، وقال: ويحك، اكتمي هذا ولا تعلمي به أحداً! قالت: على ألا تردني إليه! قال: لك ذلك!

* قال ابن الجوزي: ظهر في سنة احدى وخمسمائة صبية عمياء تتكلم على أسرار الناس، وما في نفوسهم من الضمائر والنيات، وبالغ الناس في أنواع الحيل عليها ليعلموا حالها فلم يعلموا! قال ابن عقيل: وأشكل أمرها على العلماء والخواص والعوام، حتى سألوها عن نقوش الخواتم المقلوبة الصعبة، وعن أنواع الفصوص وصفات الأشخاص وما في داخل البنادق من المشمع والطين المختلف، والخرق وغير ذلك فتخبر به سواء بسواء! حتى بالغ أحدهم ووضع يده على ذكره وسألها عن ذلك فقالت: يحمله إلى أهله وعياله! ولله في خلقه شؤون!

* تراهنت امرأة عجوز مع إبليس على أنّ كيدها يفوق كيده! وأخبرها إبليس بأنه سوف يعترف لها بذلك إن هي استطاعت أن تفعل ما يفوق فعله. فذهبت المرأة إلى شاب وأعطته بعض النقود وأمرته أن يصحبها بعض الوقت دون أن يسألها عما تفعله، ووافق الشاب على ذلك، فأخذت الشاب ودخلت عند بائع قماش وأخذت تبكي عنده ثم قالت له: إن ابني يعشق امرأة وقد طلب مني أن أحضر قطعة من القماش ليهديها إلى تلك المرأة وهددني بالضرب إنْ لم أحضر له قطعة القماش، فأشفق عليها الرجل وأعطاها قطعة من القماش، ثم أخذت قطعة القماش وذهبت بمفردها إلى بيت التاجر، وعند باب البيت اصطنعت أنها قد تعثرت في حجر وسقطت على الأرض، فأشفقت زوجة التاجر عليها وكانت تطل من الشباك في تلك اللحظة وأخذتها إلى عندها، ثم دخلت لتصنع لها قدحاً من الشاي، وفي تلك اللحظة أخفت المرأة العجوز قطعة القماش في سرير الزوج! فلما عاد الزوج ورأى قطعة القماش في سريره لم يساوره شك في أن زوجته تعشق ابن المرأة

العجوز! ولذلك لم يتوان عن طردها، وخرجت الزوجة من بيت زوجها في الظلام، فقابلتها المرأة العجوز واصطنعت الإشفاق عليها، وأخذتها إلىٰ بيتها، عند ذلك خرجت المرأة العجوز واستدعت رجال الشرطة لتستعين بهم علىٰ طرد رجل وامرأة دخلا بيتها من دون إذن، فجاء رجال الشرطة وقبضوا علىٰ الشاب والزوجة وأودعوهما السجن عند ذلك ذهبت المرأة العجوز إلىٰ إبليس، وقالت له: لقد ربطت وعليك أن تحلّ!

فأجابها إبليس قائلاً: بل عليك أن تحلي حتىٰ أعترف لك بالمقدرة علىٰ الاحتيال! عند ذلك ذهبت المرأة العجوز إلىٰ السجن وهي تحمل وعاءً علىٰ رأسها واستأذنت في زيارة الشاب والزوجة، وهناك في السجن طلبت من الزوجة أن ترتدي ملابسها وأن تحمل الوعاء وتهرب، هربت الزوجة دون أن يلحظها أحد من الحراس، ولما جاء الحراس بعد ذلك ليصحبوا المرأة والرجل إلىٰ المحكمة أخبرتهم المرأة العجوز بأنها قد سيقت مع ابنها إلىٰ السجن دون أن تعرف لذلك سبباً، فأطلق الحراس سراحها مع الشاب، وبعد ذلك ذهبت إلىٰ تاجر القماش، وطلبت منه قطعة قماش أخرىٰ، لأن الأولىٰ نسيتها في بيت امرأة طيبة استضافتها عندما رأتها وهي تقع في الطريق، وعند ذلك أدرك الزوج أنه أسرع في الحكم بالخيانة علىٰ زوجته، وعاد فردّها! فلما علم إبليس بذلك اعترف للمرأة بأنها أشد كيداً منه!!

* ذهبت سيدة إلىٰ إدارة المدافن العامة قائلة: إنني لا أستطيع أن أجد قبر زوجي مع أنه مدفون هنا! فسألها المدير: ما اسمه؟ فقالت له: توماس جاكسون! فرجع الرجل إلىٰ سجلاته، ثم قال: سيدتي ليس لدينا اسم توماس جاكسون، ولكن لدينا اليزابيث جاكسون فقط، فأجابت السيدة: هذا هو قبر زوجي، فإن كل شيء كان يتم باسمي أنا!

* أضاع رجل مفاتيح خزانته الحديد، التي يضع فيها الدراهم ففتش عليها جهده، فما وجدها، فأخذ يعالج فتحها ثلاثة أيام فلم يقدر علىٰ ذلك ولما أعيته الحيلة أوعز إلىٰ أحد أصحابه بأن يقول لامرأته: إن زوجك يعشق امرأة غيرك وفي كل ليلة ترسل له خطاباً فيضعه داخل خزانة الحديد التي يضع بها الدراهم، فذهب صديقه وأخبر امرأته

كما قال زوجها له، ولم يمض على إخبارها ساعات حتى وجد الخزنة مفتوحة على أبوابها!

* يحكى أن امرأة اتهم زوجها وابنها وشقيقها في مؤامرة لاغتيال المستنصر بالله فألقى القبض على الثلاثة وحكم بإعدامهم. ولما علمت المرأة بذلك ذهبت فوقفت على باب المستنصر بالله حتى إذا رأته قادماً ألقت بنفسها عند قدميه وهي تبكي بكاء مراً وتتوسل إليه: أن يعفو عنهم أو أن يأمر بقتلها معهم، إذ لا أَرَب لها في الحياة بعدهم. فرقّ لها قلب المستنصر وأطرق قليلاً يفكر ثم رفع رأسه وقال: قد قبلت شفاعتك في واحد منهم، وتركت لك الخيار فيه! فوقعت المرأة في حيرة، ولكنها قالت بعد أن فكرت قليلاً: الزوج موجود والابن مولود أما الأخ فمفقود لا يعود، أختار الأخ. فأعجب المستنصر بحسن اختيارها ثم قال: اذهبي يا بنية، فقد وهبتك حياتهم جميعاً!

* جاءت امرأة إلى ابن الزبير تستعدي على زوجها، وتزعم أنه يصيب جاريتها، فأمر به، فأحضر فسأله عما ادعت فقال: هي سوداء، وجاريتها سوداء، وفي بصري ضعف ويضرب الليل برواقه، فأنا آخذ من دنا مني.

* دخل عيسى بن موسى على جاريته، فلم يقدر على شيء فقال:

النفس تطمح والأسباب عاجزة   والنفس تهلك بين اليأس والطمع

* نظر أعرابي إلى امرأة حسناء جميلة تسمى ذلفاء، ومعها صبي يبكي، وكلما بكى قبّلته فأنشأ يقول:

يا ليتني كنت صبياً مرضعا   تحملني الذلفاء حولاً أكتعا

إذا بكيت قبّلتني أربعا   فلا أزال الدهر أبكي أجمعا

* أكتعا: حولا كاملاً.

* كانت الأم في المطبخ تغسل الأطباق ومعها ابنتها الصغيرة. . وكان الطفل الصغير

يجلس في الصالة مع والده . . وفجأة سمع الاثنان صوت طبق يتحطم على الأرض . . ورفع الاثنان رأسيهما وسأل الأب : من الذي حطم هذا الطبق؟ فرد الابن على الفور : ماما طبعاً . . فلو كانت أختي هي التي حطمته لسمعت ماما الآن تصرخ بأعلى صوتها وتضربها!

* العري في الساحة العامة خلاعة! وعلى المسرح فن وعلى الشاطئ رياضة!!

* إذا خفضت المرأة صوتها فهي تريد منك شيئاً . . وإذا رفعت صوتها فهي لم تأخذ هذا الشيء!

* قال أعرابي في امرأة تزوجها وقد خطبها طَرِيَّة ودَسُّو إليه عجوزاً:

عجوزٌ تُرَجِّى أنْ تكون فتية ... وقد نحل الجنبان واحدودب الظهر

تَدُسّ إلى العطار سِلْعة أهلها ... وهل يُصْلِحُ العطار ما أفسد الدهر؟

تزوجتها قبل المحاق بليلة ... فكان محاقاً كلّه ذلك الشهر

ما غرني إلا خضابٌ بكفها ... وكحلٌ بعينيها وأثوابُها الصفر

* بعد أن شاع بين الفتيات زيّ الملابس القصيرة . . عاد أحد الأزواج إلى بيته ، فاستقبلته زوجته متهللة وقالت له : أتدري يا حبيبي ، إنهم يبيعون الفساتين بالتقسيط على عشرة أقساط ، وقد انتهزت الفرصة واشتريت فستاناً يوفّر عليك سداد ثمنه الكبير دفعة واحدة . . فنظر الزوج إلى امرأته التي كادت تبدو أمامه بغير كساء ، وقال وهو يظهر الموافقة على مضض : أظن أن هذا هو القسط الأول من الفستان!

* توجهت سيدة إلى أحد الأطباء النفسيين وكانت مهددة بانهيار عصبي ، وبعد فحصها أملاها قائمة بالأشياء التي يجب ألا تفعلها ، وطلب منها أن تمر عليه كل أسبوع للاطمئنان على صحتها ، وبعد بضعة أسابيع لم تحضر لزيارته فاتصل بها تلفونياً وسأل عن سبب عدم حضورها فردت : إنك طلبت مني الابتعاد عن الأشخاص الذين يثير منظرهم غضبي . . وأنت أكثر الناس الذين يسببون ذلك لي!!

* قال غلام لأمه: إنني متىٰ كبرت سأكون سيداً في منزلي، فضحكت أمه وقالت: لا تأمل ذلك يا بني. . فقد كان أبوك يقول هذا القول قبلك. . !!

* ومنهن من تسوىٰ ثمانين بكَرْةً	ومنهن من تغلو بجلد حواره
ومنهن من تأتي الفتىٰ وهو معسرٌ	فيمسي وكل الخير في قعر داره
ومنهن من تأتي الفتىٰ وهو موسرٌ	فيصبح لم يملك عليق حماره
ومنهن من لا كثّر الله مثلها	إذا غاب عنها الزوج طلّت لجاره
ألا قاتل الرحمن خائنة النساء	وأحرق كل الخائنات بناره

* كانت إحدىٰ الممثلات تملأ طلباً للحصول علىٰ تأشيرة سفر، فرأت أحد البنود يقول: عزباء - متزوجة - مطلقة! وترددت برهة ثم كتبت: كل شيء!!

* دخلت امرأة إلىٰ أحد المطاعم الفخمة في إحدىٰ العواصم الأوروبية وطلبت من الخادم أن يعدّد لها أسماء أنواع الأطعمة، لكي تستطيع الاختيار، فطلب إليها قراءة اللائحة الملصقة فوق طاولة المكتب، التي كتب فيها جميع أنواع المآكل والمشروبات، فما كان منها إلا أن وضعت أصبعها فوق الاسم الأول من اللائحة، عندها قال الخادم متفاجئاً: سيدتي! إنك تستطيعن أن تطلبي كل شيء أو أي شيء باستثناء هذا الاسم! فقالت بتعجب: ولماذا؟ فأجابها الخادم: لأن هذا هو اسم صاحب المطعم.

* قال الزوج لزوجته: هل أنت مجنونة حتىٰ تسرحي شعر الكلب بمشطي الخاص؟ فأجابت الزوجة: لا تخف يا عزيزي فقد غسلت المشط أولاً!

* سأل الزوج زوجته وهي أمام المرآة: متىٰ تنتهين من زينتك؟ فقالت الزوجة في غضب: لقد مضت ساعة وأنا أكرر لك إني سأنتهي بعد دقيقة واحدة!

* توفي رجل غني فكتبت زوجته علىٰ قبره: إن حزني عليك شديد لا أطيق احتماله! ولكن لم تمض سنة حتىٰ تزوجت، فأضافت إلىٰ تلك الجملة لفظ: وحدي!

* سئلت أعرابية متقدمة في السن، وقد احتفظت بنضارة شبابها وروعة جمالها وبهاء مظهرها: أي مواد التجميل تستعملين؟ فأجابت: أستخدم لشفتي الحق، ولصوتي الصلاة، ولعيني الرحمة والشفقة، وليدي الإحسان، ولقوامي الاستقامة ولقلبي الحب!

* كانت إحداهن تقود سيارتها بسرعة جنونية، برغم إضاءة النور الأحمر في إشارة المرور، عند أحد تقاطع الطرق.. وأسرع ضابط البوليس خلفها وأوقفها، ثم أخرج مسدسه، وقدّمه للسائقة قائلاً: سيدتي خذي هذا فإنه أسرع في الانتحار!

* راح «برناردشو» يوماً يتحدث حديثاً حاراً عن فظاعة الحياة بالسجون حتى قال له أحدهم: كيف عرفت حياة السجون بهذه الدقة برغم أنك لم تسجن مرة واحدة؟! فأجابه شو: هذا صحيح.. ولكنني متزوج!

* سئل الاديب الفرنسي فونتين، مرة عما إذا لم يتشوق قط للزواج، فأجاب:

-بلى.. أحياناً.. في الصباح!!

* كان الزوج يرتدي ملابسه على عجل ليلحق بعمله وفجأة صرخ قائلاً: من الذي فتش في جيوبي أثناء نومي؟! فقالت الزوجة: ولماذا تصرخ؟! إنني لم أجد فيه شيئاً!!

* تقدم الزوج إلى الغرسون وقال له هامساً: إليك هذا المبلغ كبقشيش. فقال الغرسون: شكراً.. أية مائدة تريد أن أحجزها لك للعشاء؟! فقال الزوج: لا أريد مائدة.. ولكنني سأعود بعد قليل برفقة زوجتي وأريدك أن تقول: إن جميع الموائد محجوزة!!

* كان برناردشو مدعواً إلى حفلة زواج أحد العظماء، فلما كان في طريقه إلى قاعة الاحتفالات وجد الزحام شديداً، ومر الوقت وهو واقف في طابور طويل من المدعوين لا يتحرك، فمال «شو» على أحدهم وقال: يظهر أننا لن نستطيع دخول القاعة ورؤية العروسين إلا عند مولد الطفل!

* كان برناردشو نحيف الجسم عاش طول حياته نباتياً لا يأكل اللحم، وحدث أنْ

قابله يوماً صديق له ضخم الجسم مفرطا في السمنة وقال له مازحاً: إن من ينظر إلى جسمك النحيل يا مستر «شو» يظن أن انكلترا فيها مجاعة!! فنظر شو إلى جسم صديقه الضخم وقال: وإن من ينظر إلى جسمك يظن أنك سبب هذه المجاعة!!

* كان برنارد شو ماراً في الطريق ذات يوم، فقابله أحد أصدقائه الأغنياء المعروف بالبخل الشديد، وقال له في سياق الحديث: كلما قابلت فقيراً في الطريق أسرعت بوضع يدي في جيبي.. فقال له شو: ولكنك لا تخرجها أبداً!

* التقى برناردشو بصديق له في إحدى الحفلات وتجاذبا أطراف الحديث، فسأله صديقه: هل تعتقد يا مستر شو أن العقاقير الطبية مفيدة للإنسان؟ فأجابه شو: نعم فقد أفادت عمي كثيراً فسأله الصديق: هل كان عمك مريضاً؟ فأجابه شو: لا.. ولكنه كان صاحب صيدلية!

* سأل أحدهم برناردشو: ماذا تفعل لو رأيت سيدة مغمى عليها؟! فأجابه شو: كم عمرها أولاً؟! وكثير من الشباب اليوم إذا رأوا سيارة متعطلة وتقودها سيدة، فإن كان عليها مسحة من الجمال تجمعوا حولها كالذباب يتساقط على الحلو! والكل يجهد نفسه لإصلاحها.. وإن كانت قبيحة.. فقلما يتوقف لها أحد.. إلا ما ندر.

* كان «برناردشو» يلقي خطاباً سياسياً في حفلة انتخابية في انكلترا مؤيداً حزب العمال ومنددأ بسياسة حزب المحافظين وقال في نهاية خطابه: هل يستطيع أحد المحافظين أن يرفع صوته الآن معترضاً على ما أقول؟! وفي هذه اللحظة سمع نهيق حمار! فضج الحاضرون بالضحك وصاح برناردشو: لقد تأكدتم الآن أنه لا يعترض على قولي إلا حمار!!

* كان «شو» يعتني بحديقته على عادته المألوفة، وإذا بسيدة صديقة لزوجته لم تكن تعرفه جاءت للمنزل ورأته وهو منهمك في عمله، ودار بينهما الحوار على الوجه التالي:

هي: هل مضى عليك زمن طويل وأنت تعمل لحساب آل شو؟!

شو : بين العشرين والخمسة والعشرين عاماً يا سيدتي!

هي : وكم تتقاضىٰ منهم؟!

شو : إنني أعمل في مقابل طعامي وكسوتي يا سيدتي . .

هي (بلهفة) : ما رأيك في العمل عندي بالشروط نفسها مع منحك أجراً شهرياً!!

شو : يؤسفني يا سيدتي أن أعتذر . . لأنني مرتبط مع السيدة «شو» مدىٰ الحياة.

هي (وهي تصيح) : مدىٰ الحياة!! إنها عبودية! إنها سخرة!

شو ببرود : كلا يا سيدتي ليس في الأمر عبودية أو سخرة . . نحن ندعو ذلك زواجاً!!

* كانت إحدىٰ الممثلات تعجب «بشو» وأرادت أن تدعوه إلىٰ منزلها بطريقة توهمت أنها مبتكرة . . فكتبت إليه رسالة حملها إليه رسولها وقد جاء بالرسالة : سأكون في منزلي الساعة السادسة من يوم السبت المقبل!! فرد عليها بقوله : وأنا كذلك!!

مسكينة المرأة

* إذا ظهرت الشعرات البيضاء في رأس الرجل قلنا : إنه رجل وقور، وإذا ظهر البياض في شعر المرأة قلنا : إنها شمطاء!

* وإذا كان الرجل متعلقاً بزوجته، قيل : إنه رجل مخلص، أما إذا تعلقت المرأة بزوجها قيل : إنها لزقة!

* إذا أسرف الرجل في نفقاته قلنا : إنه لا يبخل بشيء علىٰ أسرته، وإذا أسرفت المرأة قلنا : إن يدها مخروقة!

* نظر العيون إلىٰ العيون هو الذي   جعل الهلاك إلىٰ الفؤاد سبيلا

أطفال اليوم رجال الغد

* الطفل الذي نراه اليوم بين أيدينا يحبو ويكبو، قد يكون في المستقبل الآمر الناهي والمتحكم بمصائر كثير من الناس، وقد يكون ذا شأن وأمر خطير! فلا تحقرن طفلاً ولا تزدرين أحداً، وما رجال اليوم إلا أطفال الأمس!

* قال أحد الشعراء على لسان الطفل:

أيها السائل عني   لا تسل إلا خبيراً
سل بي المستقبل الغامض   ينبئك كثيراً
سل بي العلم الذي أرشفه   عذباً نميرا
ربما صرت طبيباً   ربما صرت وزيراً
ربما صرت خطيباً   أو صحافياً كبيراً
أنت لا ترجم بالغيب   بشيراً أو نذيراً
فاحترم كل صغير   إن للدهر ضميرا
كل ذي شأن كبير   كان من قبل صغيرا!

* قال أحد المفكرين: كلما وقفت أمام طفل شعرت بإحساسين: إحساس العطف عليه لحياته الغضة، وإحساس الاحترام للمكانة السامية التي يمكن أن يصل إليها في المستقبل!

* قال عبدالقيس بن خفاف البرجمي:

أَبُني إن أباك كاربُ يومه   فإذا دُعيت إلى المكارم فاعجَلِ
أوصيك إيصاء امرئ لك ناصح   طَبِنٍ بريب الدهر غير مغفل
الله فاتقِه وأوف بنذره   وإذا حلَفْتَ ممارياً فتحلل
والضيفَ أكرمْهُ فإن مبيتَه   حقٌ ولا تكُ لعنة للنزل

واعلم بأن الضيفَ مخبرُ أهله | بمبيتِ ليلته وإن لم يسأل
وصل المواصل ما صفا لك وُده | واجذذْ حبال الخائن المتبدل
واحذر محل السوء لا تحلل به | وإذا نبا بك منزلٌ فتحول
واسْتأنِ تَظفر في أمورك كلها | وإذا عزمت على الهدىٰ فتوكل
واستغنِ ما أغناك ربك بالغِنىٰ | وإذا تصبك خصاصة، فتحمّل
وإذا افتقرت فلا تكن متجشّعاً | ترجو الفواضِل عند غير المفضل
وإذا تشاجَرَ في فؤادك مرة | أمران فاعمدْ للأعف الأجمل
وإذا هَممتَ بأمر سوءٍ فاتئد | وإذا هَممتَ بأمر خير فاعجل

* قال عبدالملك بن مروان لرأس الجالوت أو لابن رأس الجالوت: ما عندكم من الفراسة في الصبيان؟ قال: ما عندنا فيهم شيء، لأنهم يخلقون خلقاً بعد خلقٍ، غير أنا نرمقهم، فإنْ سمعنا منهم من يقول في لعبه: مَنْ يكون معي؟ رأيناه ذا همّة، وإن سمعناه يقول: مع مَنْ أكون؟ كرهناها منه! فكان أول ما علم من ابن الزبير أنه كان ذات يوم يلعب مع الصبيان وهو صبي، فمر رجل فصاح عليهم ففروا ومشىٰ ابن الزبير القهقرىٰ وقال: يا صبيان اجعلوني أميركم وشدوا بنا عليه! ومر به عمر بن الخطاب وهو صبي يلعب مع الصبيان ففروا ووقف! فقال له: مالك لم تفر مع أصحابك؟ قال: يا أمير المؤمنين لم أجرم فأخاف، ولم تكن الطريق ضيقة فأوسع لك!!

* أرسل معاوية إلىٰ الأحنف بن قيس، فقال: يا أبا بحر، ما تقول في الولد؟ قال: يا أمير المؤمنين، ثمارُ قلوبنا، وعمادُ ظهورنا، ونحن لهم أرضٌ ذَليلة، وسماءٌ ظَليلة، فإن طلبوا فأعْطِهم، وإنْ غَضبوا فأرْضِهم، يَمْنحوك وُدَّهم، ويُحبُوك جهدهم، ولا تكن عليهم ثقيلاً فيملُّوا حياتك، ويُحبُّوا وفاتك! فقال: لله أنت يا أحنف، لقد دخلت عليّ وإني لمملوءٌ غضباً علىٰ يزيد، فَسَلَلْتَهُ من قلبي! فلما خرج الأحنف من عنده، بعث معاوية

إلىٰ يزيد بمائتي ألف درهم ومائتي ثوب، فبعث يزيد إلىٰ الأحنف بمائة ألف درهم ومائة ثوب، شاطره إياها!

* وكان عبدالله بن عمر يحب ولده سالماً ويذهب به كل مذهب، حتىٰ لامه الناس فيه، فقال:

يَلُومُونَنِي فِي سالِمٍ وأَلُومُهم وجِلْدةُ بين العَيْنِ والأنفِ سالِمُ!

* وقال أحد الحكماء في ميت: إن كان له ولد فهو حيّ، وإن لم يكن له ولد فهو ميت!

* وكل إنسان يدرك قيمة الأبناء، فهم زينة الحياة الدنيا ومتعتها، والكل يطلب من ربه الولد ويسأله الذرّيّة ولا غضاضة في ذلك، فقد سألها من قبلُ زكريا عليه السلام ﴿ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩)﴾ (الأنبياء: ٨٩) ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)﴾ (مريم: ٥ ـ ٦).

* ويروىٰ: ريحُ الولد من ريح الجنّة. رواه الطبراني. وقال ﷺ عن الأولاد ثمرات القلوب «إنكم لتُجَبِّنُون، وإنكم لتُبَخِّلُون، وإنكم لمن ريْحَان الله» رواه الترمذي. وبينما كان النبي ﷺ يخطب ذات يوم إذ أقبل الحسن أو الحسين وراح يتخطىٰ الناس فتعثر، فنزل النبي ﷺ فتناوله ثم رجع، فقال: والذي نفسي بيده ما علمتُ كيف نزلتُ؟! صدق الله عزّ وجل ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ (التغابن: ١٥) رواه الطبراني.

ضُرب رجل وطُولب بمال فلم يَسْمح به، فأُخذ ابنه وضُرب فجزع، فقيل له في ذلك، فقال: ضُرِب جلْدي فصبْرتُ، وضُرِب كبدي فلم أصبر!!

* وقال ابن أبي بكْرة: مَوْت الولد صَدْع في الكَبِد، لا يَنْجَبر آخر الأبد!

* وكانت أعرابية ترقِّص ولدها وتقول:

يـا حـبـذا ريـحُ الـولـدْ ... ريـح الخـزامى في البـلـدْ
أهـكـذا كـلُّ ولـدْ ... أمْ لـم يَـلِـدْ مـثْـلـي أحَـدْ!

* قال أحد الشعراء:

لـولا بُـنـيّـاتٌ كـزُغْـب الـقَـطَـا ... حُـطِـطْـن مـن بـعـضٍ إلـىٰ بـعـضِ
لَـكَـان لـي مُـضْـطَـربٌ واسـعٌ ... فـي الأرض ذات الـطُّـول والـعَـرْضِ
وإنّـمـا أولادُنـا بَـيْـنَـنـا ... أكْـبـادُنـا تمـشـي عـلـىٰ الأرضِ
إنْ هـبّـتِ الـريـحُ عـلـىٰ بـعـضـهـم ... لـم تَـشْـبـع الـعـيْـنُ مِـنَ الـغَـمْـضِ!

* نـحـن فـي الـفـضـل سـواء ... وكـلانـا فـي يـديـك
فـإذا كـحـلـت عـيـنـاً ... هـاجـت الأخـرىٰ عـلـيـك!!

* وقيل لأحدهم: أيّ وَلَدِكَ أحَبُّ إليكَ؟ قال: صغيرُهم حتىٰ يكبر، ومريضُهم حتىٰ يبرأ، وغائبهم حتىٰ يَقدم.

* ومن طبيعة الأب محبته لولده ولو كان قبيح الشكل والصورة، فهو في عينه أجمل من الغزال، ومحبة الأولاد فطرية في القلب لا علاقة لها بالأشكال والألوان. ومن طريف ما يذكر في إعجاب المرء بابنه أن الخنفساء شكت إلىٰ أمّها استقذار الناس إياها وأنّ من دنا منها يبصق عليها! فقالت لها: إنهم لحُسْنِكِ ونظافتِك ينفُثُون عليك مخافة العين! أُعيذُكِ بالله!

* قال الأصمعي: مر بنا أعرابي ينشد ابناً له، فقلنا له: صفه لنا، فقال: كأنه دُنَيْنير، فقلنا له: لم نره، قال: فلم يلبث أن جاء بصغير أُسَيِّد كأنه جُعَلٌ قد حمله علىٰ عنقه، فقلنا: لو سألتنا عن هذا لأرشدناك، فإنه مازال منذ اليوم بين أيدينا! ثم أنشد الأصمعي:

نـعـم ضـجـيـع الـفـتـىٰ إذا بـرد الـلـيـل سـحـيـراً وقَـرقَـفَ الـصـردُ
زيّـنـهـا الـلـه فـي الـفـؤاد كـمـا زُيِّـنَ فـي عـين والـد ولـدُ

* دنينير: تصغير دينار. أُسيِّد: تصغير أسود.

* أعطىٰ رجل أبا سليمان القاصّ فلساً وقال: ادع الله لابني يردّه عليَّ، فقال: وأين ابنك؟ قال: بالصين، قال: أَيردُّه من الصين بفلس؟ هذا مما لايكون، إنما لو كان بجنّابة أو بسيراف كان نعم! وجنّابة وسيراف من سواحل برّ فارس!

* ونظر العقلاء إلىٰ المستقبل، فعرفوا قيمة التربية الحسنة في الصغر وتعويد الأولاد طيب الأخلاق وتدريبهم علىٰ جميل الخصال، فناشدوا الآباء ألا ينساقوا وراء العاطفة فيحرموا الولد من العلم والمعرفة بكثرة الدّلال والترفيه، وصرفه إلىٰ الكماليات ونحوها التي تحول بينه وبين مكابدة التعلم، وتحمل مشاق التحصيل العلمي والمعرفة. قال عبدالملك بن مروان أضرَّ بنا في الوليد حُبُّنا له فلم نُؤَدِّبه، وكأنّ الوليد أدّبنا!

* عوِّد بنيك علىٰ الآداب في الصغر كيما تقرَّ بهم عيناك في الكبر
فـإنما مـثـلُ الآداب تجـمـعُـهـا في عُنفوان الصبا كالنقش في الحجر
هي الكنوز التي تنمو ذخائرُها ولايخاف عليها حادثُ الغيرِ
إن الأديب إذازلّتْ به قدمٌ يهوي علىٰ فرش الديباج والسُّرر
الناس صِنفان: ذو علم ومُستمع واعٍ وسائرهم كاللغو والفكرِ

* ومن بالغ في إكرام ولده ودلاله، ندم علىٰ ذلك في كبره، حينما يراه جاهلاً بين أقرانه أوضعيفاً بين خلاّنه، قالت الحكماء: من أدّب ولده صغيراً، سُرَّ به كبيراً. وكما عوّدْتَ ولدكَ سرعة الاستجابة لطلبه وسماع كلمة «نعم» عندما يريد حاجته، فعوّدْه سماع كلمة «لا» ليعرف ثقلها علىٰ النفس، ويتدرب علىٰ المنع والحرمان فهو أدعىٰ لتجلّده وتصبّره. ويروىٰ في وصايا لقمان: ضَرْبُ الوالدِ ولدَه كالسّماد للزرع!

السياسة الحسنة في تربية الأبناء

* ومن أفضل السياسات الحسنة في تربية الأولاد وتأديبهم ما جاء في الحديث الشريف: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع» رواه أبو داود. لقد وضع العقلاء منهجاً ودستوراً لمربِّي الأطفال ومعلّميهم، فهو في نظرهم القدوة والأسوة فإن استقام استقاموا، وإذا انحرف انحرفوا، وما أشد تأثر الصغير بمعلِّمه ومؤدِّبه، قال عمرو بن عتبة لمعلم ولده: ليكُن أوّلَ إصلاحِك لولدي إصلاحُك لنفسك، فإنّ عيونهم معقودة بعيْنك، فالحسن عندهم ما صنعْتَ، والقبيح عندهم ما تركت، علِّمْهم كتاب الله، ولا تُكْرههم عليه فيملّوه، ولا تتركهم منه فيهجُروه، روِّهم من الحديث أشرفه، ومن الشّعر أعَفّه، ولا تنْقُلهم من علم إلىٰ علم حتىٰ يُحْكِمُوه، فإنّ ازدحام الكلام في القلب مشْغَلَة للفهم، وعلّمهم سُنن الحكماء وجنّبْهم محادثة النساء، وتَهَدّدْهم بي، وأدّبهم دوني، وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء حتىٰ يعرف الداء، ولا تتكل علىٰ عُذْرٍ مني، فإني قد اتّكلْتُ علىٰ كفاية منك.

* وقال الحجاج لمعلّم بنيه: علّمهم السّباحة قبل الكتابة، فإنهم يجدون من يكتب عنهم، ولا يجدون من يسبح عنهم!

* وقال مؤدب يزيد بن عبدالملك له: لِمَ لَحَنْت؟ فقال: الجواد يعثر! فقال المؤدب: إي والله ويُضرب حتىٰ يستقيم! فقال يزيد: وربما يَرْمح سائسه فيكسر أنفه!

* اسمع أُخَيَّ وصيّةً من ناصح | ما شاب محض النصح منه بغشّهِ
لاتَعْجلنْ بقضيةٍ مَبتوتةٍ | في مَدْح من لم تبله أو خَدشِهِ
وقِف القضيةَ فيه حتىٰ تجتَلي | وصفَيْه في حالي رضاه وبَطشهِ
فهناك إن ترَ ما يُشين فَواره | كرماً وإن ترَ ما يزينُ فأفشه
واعلم بأن التبرَ في عِرق الثرىٰ | خافٍ إلىٰ أن يُستَثار بنبشهِ

وفضيلة الدينارِ يظهرُ سرها ... من حكهِ لا من ملاحةِ نقشهِ

ومن الغباوة أن تُعَظمَ جاهلاً ... لصقال ملبسه ورَوْنق رَقشهِ

أو أن تهينَ مُهذباً في نفسه ... لِدُروس بزتهِ ورثةِ فرشهِ

* وكتب عمر إلى أهل الشام: علّموا أولادكم السباحة والرّمي والفروسيةَ، ورَوُّوهُم ما سار من المثل، وما حَسُن من الشعْر.

* بعث المنصور إلى من في الحبس من بني أمية، يقول لهم: ما أشدّ ما مرّ بكم في هذا الحبس؟ فقالوا: ما فَقدْنا من تأديب أولادنا!

* كان عروة بن الزبير يقول لأبنائه: يا بني تعلموا فإنكم إن تكونوا صغار قوم عسى أن تكونوا كبراءهم، واسوأتاه، فماذا أقبح من شيخ جاهل!

العلم يرفع بيتاً لا عماد له ... والجهل يهدم بيت العز والكرم!

* قال أبو الأسود الدؤلي يخاطب ابنه:

أعصيتَ أمر أولي النهى ... وأطعت أمر ذوي الجهالة

أخطأت حين حرمتني ... والمرء يعجز لا محالة

العبد يُقرع بالعصا ... والحرُّ تكفيه المقالة

* وقال أبو الأسود لابنه: يا بني إن كنت في قوم فلا تتكلم بكلام من هو فوقك فيمقتوك، ولا بكلام من هو دونك فيزدروك!!

* سأل أحدهم: ما بال المشايخ أحرص على الحياة من الشباب؟ فأجيب: لأنهم ذاقوا من طعم الدنيا ما لم يذقه الشباب!

* كان لشريح ولد يلعب بالكلاب، فكتب شريح إلى معلّمه:

يَبْغي الهِرَاشَ مع الغُوَاة الرُّجَّسِ ... تَرَكَ الصلاةَ لأَكْلُبٍ يَسْعى بها
فَلَيأْتِيَنّكَ غُدوةً بصحيفة ... كُتبتْ له كصحيفة المُتَلَمِّس
إذا أتاك فعَضّه بملامةٍ ... وَعِظَنْهُ موعِظَةَ الأديب الكَيِّسِ
فإذا هَمَمْتَ بضربه فبِدُرّةٍ ... وإذا بلغتَ بها ثلاثاً فاحْبِسِ
واعْلمْ بأنّك ما أتيْتَ فَنفسُهُ ... مع ما تُجَرِّعُني أعزُّ الأنْفُسِ!

* صحيفة المُتَلَمّس: تضرب مثلاً لمن يحمل كتاباً أورسالة فيها حَتْفه، وذلك أن عمرو بن المنذر حمّل المتلمس وطَرَفة كتابين إلى أحد عماله يأمره فيها بقتلهما، فأما المتلمس فعرف ما في كتابه فلم يذهب، وذهب طرفة بالكتاب فقُتل!

* وإذا قصّر الآباء في تربية الأبناء فإنهم يتحملون نتائج هذه الجناية، وسيجنون بأيدهم ثمرة التربية السيئة والإهمال والتسيّب، وسيحصدون الشرّ الذي زرعوه لأنفسهم جهلاً وقبحاً وفساداً.

* السبعُ سبعٌ ولو كلتْ مخالبهُ ... والكلبُ كلبٌ ولو بين السباع رُبي
وهكذا الذهب الإبريز خالطهُ ... صفر النحاس وكان الفضل للذهب
لا يُعجبنك أثواب على رجل ... دع عنك أثوابه وانظر إلى الأدب
فالعود لو لم تَفُحْ منه روائحه ... لم يفرِق الناسُ بين العودِ والحطبِ
وليسَ يسودُ المرءُ إلا بنفسه ... وإن عَدَّ آباءً كراماً ذوي حسب
إذا العودُ لم يُثْمر ولو كان شعبة ... من المثمرات اعتدّه الناس منْ حطب
قد ينفعُ الأدبُ الأحداث من صغر ... وليسَ ينفعُ بعد الشيبة الأدب
إن الغصون إذا قوَّمتها اعتدلت ... ولن يلين إذا قوَّمتهُ الخشب

* كان للمبرد ابن متخلّف، فقيل له يوماً: غَطِّ سَوْءَتَكَ! فوضع يده على رأس ابنه!

* وقال رجل لولده وهو في المكتب: في أي سورة أنت؟ قال: «لا أقسم بهذ البلد» ووالدي بلا ولد! فقال: لعَمْري من كنْتَ أنت ولده فهو بلا ولد!

* وكان لرجل من الأعراب ولد اسمه حمزة فبينما هو يمشي مع أبيه إذا برجل يصيح بشاب: يا عبدالله، فلم يجبه ذلك الشاب، فقال: ألا تسمع؟ فقال: يا عم كلنا عبيدالله، فأي عبدالله تعني؟! فالتفت أبو حمزة إليه وقال: يا حمزة ألا تنظر إلى بلاغة هذا الشاب؟! فلما كان من الغد إذا برجل ينادي شاباً: يا حمزة، فقال حمزة ابن الأعرابي: كلنا حَمَاميز الله! فأي حمزة تعني؟ فقال له أبوه: ليس يعنيك يا من أخمد الله به ذِكْر أبيه!!

الولد العاق

* كان لحنظلة النميري ابن عاقّ يقال له مُرّة، فقال له يوماً: يا مُرّة إنك لمرّ! فقال: أعجبتني حلاوتُك يا حنظلة! فقال: إنك خبيث كاسمك! فقال: أخبث مني من سمّاني به! فقال: كأنك لسْتَ من الناس؟! قال: مَنْ أشْبه أباه فما ظَلَم! فقال: ما أحوجَكَ إلى أدب!؟ فقال: الذي نشأتْ على يده أحوج إليه مني! فقال: عقمتْ أمٌّ ولدَتْك فقال: إذْ وَلَدَتْ مِنْ مِثْلك!

* وقال رجل لابنه: ما أطيب الثّكل يا بني! فقال الابن: اليتْم أطيب منه يا أبت!

* وقال أبو الأسود لبنيه: أحْسنْتُ إليكم قبل أنْ تُولَدوا وبعده! قالوا: كيف أحسنت قبل الولادة؟ قال: لأني اتخذت أمهاتكم من حيث لا تُعابون به!.

* وضرب ولد أباه فقيل له: أما عرفت حقه؟ قال: لا، لأنه لم يعرف حقّي! قيل: فما حقُّ الولد على الوالد؟!. قال: أنْ يتخيّر أمّه ويحسن اسمه، ويختنه، ويعلمه القرآن، ثم كشف عن عورته فإذا هو أقْلف! وقال: اسمي برغوث، ولا أعلم حرفاً من القرآن، وقد استولدني من زنجيّة، فقيل للوالد: احتملْه، فإنك «تستاهل»!

* ونحو هذا ما ورد عن عمر بن الخطاب أنه جاءه رجل يشكو إليه عقوق ابنه،

فأحضر عمرُ الولد وأنّبه علىٰ عقوقه لأبيه ونسيانه لحقوقه، فقال الولد: يا أمير المؤمنين أليس للولد حقوق علىٰ أبيه؟ قال: بلىٰ، قال: فما هي يا أمير المؤمنين؟ قال عمر: أن ينتقي أمه، ويحسن اسمه ويعلمه الكتاب «القرآن» قال الولد: يا أمير المؤمنين، إن أبي لم يفعل شيئاً من ذلك! أمّا أمّي فإنها زنجية كانت لمجوسي، وقد سمّاني جُعَلاً «خنفساء»، ولم يعلمني من الكتاب حرفاً واحداً!، فالتفت عمر إلىٰ الرجل وقال له: جئت إليّ تشكو عقوق ابنك، وقد عققته قبل أن يَعُقّكَ، وأسأتَ إليه قبل أنْ يسيءَ إليك؟!

* قال محمد اليمني الملقب بنجم الدين:

ولا تحتقرنْ كيد الضعيف فربما ... تموتُ الأفاعي من سموم العقارب
وقد هدّ قِدْماً عرشَ بلقيس هُدْهُدٌ ... وخرَّب حفر الفأرِ سد مأربِ
إذا كان رأس المال عمرُك فاحترز ... عليه من الإنفاق في غير واجب
فبين اختلاف الليل والصبح معرك ... يكر علينا جيشه بالعجائب
وما راعني غدرُ الشبابِ لأنني ... أنستُ بهذا الخلق من كل صاحب
وغَدْرُ الفتىٰ في عهدهِ ووفائهِ ... وغدر المواضي في نُبُوّ المضاربِ

تأملات

* لا تطلب الفتاة من الدنيا إلا زوجاً، فإذا جاء طلبت منه كل شيء!

* تقلق المرأة علىٰ المستقبل حتىٰ تجد زوجاً، ولا يقلق الرجل علىٰ المستقبل إلا بعد أن يجد زوجة!

* إذا نجح زواج ابنتك فقد كسبت ابناً، وإذا فشل فقد خسرت بنتاً!

* الزوج كالمصوّر يريد من زوجته أن تبتسم!

التقصير في التربية

* جاء رجل إلىٰ بعض العلماء، فقال: إن ابني يضربني! فقال له: سبحان الله، الابن يضرب أباه! قال: نعم ضربني فأوجعني! فقال له: هل علّمته الأدب والعلم؟ قال: لا، قال: وهل علمته القرآن؟ قال: لا، قال: وما هو عملُ ابنك؟ قال: الزراعة، قال: هل علمت لأي شيء ضَرَبَك؟ قال: لا، قال: فلعله حين أصبح وتوجّه إلىٰ الزراعة وهو راكب علىٰ الحمار، والثيران بين يديه! والكلب خلفه! وهو لا يحسن القرآن، فعَرَضْتَ له في ذلك الوقت، فظنّ أنك بقرة! فاحمدِ الله تعالىٰ حيث لم يَكْسرْ رأسَكَ!!

* وحكمت إحدىٰ المحاكم علىٰ سارق بالعقوبة - وهي قطع اليد - فلما جاء وقت التنفيذ، قال لهم بأعلىٰ صوته: قبل أن تقطعوا يدي اقطعوا لسان أمي! فقد سرقتُ أوّلَ مرّة في حياتي بيضةً من جيراننا، فلم تُؤنّبْني وإنما زغردت وفرحت وقالت: لقد أصبح ابني رجلاً! فلولا لسان أمّي الذي زغرد للجريمة لما كنت في المجتمع سارقاً!

* جاء في وصية هشام بن عبدالملك لمؤدب ولده، سليمان الكلبي: إن ابني هذا هو جلدة ما بين عيني وقد ولّيْتُكَ تأديبه، فعليك بتقوىٰ الله وأداءِ الأمانة فيه بخلال: أولها: أنك مؤتمن عليه، والثانية: أنا إمام ترجوني وتخافني. والثالثة: كلما ارتقىٰ الغلام في الأمور درجة ارتقيت معه! وفي هذه الخلال ما يرغّبك فيما أوصيك به. إن أوّل ما آمرك به أن تأخذه بكتاب الله، وتقرئه في كل يوم عُشْراً يحفظه حفظ رجل يريد التكسّب به، ثم روّه من الشعر أحسنه، ثم تخلل به في أحياء العرب، فخذ من صالح شعرهم هجاء ومديحاً، وبصّره طرفاً من الحلال والحرام والخُطب والمغازي، ثم أجْلِسْه كل يوم للناس ليتذكّر!

* عاد ولد صغير إلىٰ أمه وقال لها: أمي، اليوم تمكنت من القيام بعمل خير! سألته الأم: وما هو. فقال: اليوم لدىٰ خروجي من البيت صباحاً رأيت جارنا «كامل» يركض ليأخذ قطار الساعة الثامنة، وكان علىٰ وشك أن يسبقه، فأفلتّ كلبنا بإثره فأطلق جارنا ساقيه للريح! وهكذا تمكّن جارنا من الوصول في الوقت المحدد!!

* روىٰ (مارك توين) بعض الأحداث التي جرت له في طفولته فمن ذلك قوله: نشأتُ نشأة فقيرة، وكنت في حداثتي ضعيف الجسم، نحيل البنية، وكان المعلم في الصف يشدّد علىٰ النظافة ويفرض علىٰ من يندلق الحبر من دواته إحدىٰ عقوبتين: الضرب، أو دفع دولار! فكنت أحرص علىٰ أن أمسك المحبرة بحذر شديد، فأنا لا أحتمل الضربات الموجعة، كما أن والدي لا يطيق دفع الدولار لضآلة موارده، وحدث مالم يكن بالحسبان واندلق الحبر من دواتي علىٰ الطاولة، فحدَّق المعلم في وجهي فأشرت برأسي أني أعرف ما يترتّب عليّ، وفي المساء أخبرت والدي بما جرىٰ، فرقّ لحالي وأعطاني دولاراً أتفادىٰ به الضرب، وفي اليوم التالي أمسكت بالدولار فسال له لعابي، وآثرت الاحتفاظ به، فما كان من المعلم إلاّ أن أهوىٰ عليّ ضرباً بعصاه الغليظة. وكان هذا أول دولار حصَّلته بعرق جبيني!!! وهذا يذكرني بأسلوب بعض أساتذتنا في المرحلة الابتدائية في قريتنا حينما كنا ننطق ببعض الكلمات العامية فكان المعلم يلزمنا بدفع «فرنكين» عشرة قروش سورية، مقابل كل كلمة عامية نتكلم بها!!

* كان الأديب المصري فكري أباظة مع صديق له في أحد شوارع القاهرة أيام الحرب العالمية الثانية، وكان الحديث بينهما عن ارتفاع الأسعار في المواد الغذائية! فالسكر كان سعره كذا وارتفع إلىٰ كذا، وكذلك اللحم والحبوب وجميع المواد الغذائية، وبينما هما في الحديث إذا بهما أمام كُتّاب، وإذا بالأستاذ يسأل أحد الصِّبية: سبعة في سبعة كم يا واد؟ فأجاب: تسعة وخمسين! فالتفت فكري أباظة إلىٰ صديقه وقال: ودي طول عمرها كانت بتسعة وأربعين!

* كتب الابن لأبيه يقول: إنه بحمد الله بلغ مبلغ الرجال وأصبح من رجال الأعمال ويريد أن يتزوج.. وطلب من والده أن يبحث له عن بنت الحلال علىٰ أن تكون كريمة الخصال.. طويلة البال.. وأن تكون متصفة بالكمال والجمال.. متعلمة تقية.. نقية.. ذكية.. بيضاء القلب والوجه! مع رجاء التفضل بالرد عليه في الحال! فكتب إليه والده يقول: إن طلباتك هذه يا بني بعيدة المنال.. ولو وجدتها ما أبقيت علىٰ أمك! ولطلقتها

دون جدال . . فتزوج أيهن واصبر كما صبر أبوك . . لتفوز في الآخرة بما تريد . . فلنا في الجنة طلباتنا وعند الله للصابرين من الخير المزيد!

* يقول معن بن أوس المزني :

فيا عجباً لمن ربّيْت طفلاً ... ألقِّمه بأطراف البنانِ
أعلِّمه الرماية كل يومٍ ... فلما اشتد ساعده رماني
وكم علَّمته نظم القوافي ... فلما قال قافية هجاني

* أخذ الطفل ينهال بأسئلته على والدته وأخيراً سألها : لماذا قبض البوليس على جارنا اليوم؟ ! فأجابته قائلة : لأنه ترك زوجته فقاضته أمام المحكمة وحُكم لها بالنفقة . . ولما عجز عن دفع النفقة حبسه البوليس ! ! فهز الطفل رأسه وقال بخبث : الآن فهمت لماذا أبي متمسك بك وغير قادر على تركك ! !

* اجتمع ثلاث سيدات في الحديقة وبدأ الحديث بينهن عن الجمال فصارت كل واحدة منهن تدعي بأنها الأجمل . . ولما لم يتفقن نادين صبيا صغيراً وأعطينه تفاحة وقلن له أعط التفاحة لأجمل واحدة فينا! نظر الصبي إلى السيدات الثلاثة نظرة تأمل . . ثم أكل التفاحة ! !

* منيت إحدى العائلات بخسائر بسبب إعصار شديد ، فأرسلت العائلة ابنها الصغير ليقيم عند عمته حتى يتموا إعداد مسكن جديد ، وبعد ثلاثة أيام تلقت العائلة هذه البرقية من العمة : نعيد لكم الولد ، أرسلوا لنا الإعصار !

* مشى الطاووس يوماً باختيالٍ ... فقلّد شكْل مشيته بنوهُ
فقال : علامَ تختالون قالوا ... بدأت به ونحن مقلدوهُ
فخالف سيرك المعوجَّ واعدلْ ... فإنا إن عدلت معدلوهُ
أما تدري أبانا كل فرعٍ ... يجاري بالخطى من أدَّبوهُ
وينشأ ناشئ الفتيان منا ... على ما كان عوَّده أبوهُ

* دخل شابٌّ من بني هاشم على المنصور ، فسأله عن وفاة أبيه فقال : مَرِض أبي رضي الله عنه يوم كذا ، ومات رضي الله عنه يوم كذا ، وترك رضي الله عنه من المال كذا ، ومن الولد كذا! فانتهره الرَّبيعُ حاجب المنصور وقال : بين يَدَيْ أمير المؤمنين تُوالِي بالدُّعاء لأبيك؟ فقال الشَّابُّ : لا ألومك ، لأنك لم تعرِفْ حلاوةَ الآباء! قال : فما علمنا أنَّ المنصور ضحك في مجلسه ضحكاً قطُّ فافترَّ عن نواجِذِه إلا يومئذ!

* وكان ابن عياش المنتوف يطعن في نسب الربيع طعنا قبيحاً ويقول للربيع : فيك شبه من المسيح! يخدعه بذلك ، فكان يكرمه لذلك ، حتى أخبر المنصور بما قال له ، فقال : إنه يقول : لا أب لك! فتنكّر له بعد ذلك . وقيل إن الربيع أعجمي ، سبي صغيراً ونشأ مع المسلمين!

* قال الصبي وهو يقدم شهادته المدرسية إلى أبيه وقد امتلأت بالتقديرات الضعيفة : ماذا تعتقد أنه سبب ضعفي في الدراسة يا أبي ، أهي الوراثة أم البيئة؟!

* سأل الأب ابنه الذي رجع من الامتحان : هل ستنجح في الامتحان؟ أجاب الولد : ربما . فأعاد الأب سؤاله : كيف كان المراقب معك؟ فقال الولد : طبيعي ، ولكنني أعتقده متديناً جداً! فاستغرب الوالد ، وسأل ابنه : كيف عرفت أنه متدين؟ فأجاب الولد : لأنه كان في كل مرة يمر بقربي ، ويقرأ إجابتي يرفع يديه إلى الأعلى ويقول : يا إلهي . . يا إلهي!

* دخل شاب من بني هاشم على المنصور ، فاستجلسه ذات يوم ودعا بغَدَائه ، فقال للفتى : ادنُه . قال الفتى : قد تغدَّيتُ يا أمير المؤمنين! فكفَّ عنه الربيع حتى ظنّ الحضور أنه لم يَفطِنْ لخطابه ، فلمَّا نَهَض إلى الخروج أمهلَه ، فلما كان من وراء السِتر دفع في قفاه ، فلما رأى ذلك الحُجَّابُ منه دفعوا في قفاه حتَّى أخرجوه من الدّار ، فدخل رجالٌ من عُمومة الفتى فشكوا الرَّبيع إلى المنصور ، فقال المنصور : إن الربيع لا يُقدم على مثل هذا إلا وفي يدَيه حُجَّة ، فإن شئتم أغضيتم على ما فيها ، وإن شئتم سألتُه وأنتم تسمعون! قالوا : فسَلْهُ ، فدعا الرّبيعَ وقَصُّوا قِصَّتَهُ ، فقال الربيع : هذا الفتى كان يسلِّم من بعيد وينصرف ، فاستدناه أمير المؤمنين حتى سلّم عليه من قريب ثم أمره بالجلوس ، ثم تبذّل بين يديه

وأكل، ثم دعاه إلىٰ طعامه ليأكل معه من مائدته، فبلغ من جهله بفضيلة المرتبة التي صَيَّرَهُ فيها أن قال حين دعاه إلىٰ غدائه: قد تغديت! فإذا ليس عنده لمن تَغَدَّىٰ مع أمير المؤمنين إلا سدّ خَلّة الجوع! ومثل هذا لا يقوِّمُهُ القَوَلُ دون الفعل!!

مجالسة الكبار

* قال أبو الحسين بن عياش: تقلّد سليمان بن الحسن الوزارة الأولىٰ عقيب اختصاصي به وأنسي، فكنت أجيئه علىٰ ذلك الأنس، ما تغيّر عليّ، ولا أنكرت منه شيئاً، وكنت شابّاً، ولم تكن لي مداخلة بالملوك، وكنت أجيئه والناس محجوبون فأدخل علىٰ الرسم، وهو خال. فاتفق أنّي بتّ ليلة موكب عند أبيه، أبي محمد، فبكرت من غدٍ لأراه، ثم أنصرف. فجئت، والقاضي أبو عمر، وابنه أبو الحسين، والقاضي ابن أبي الشوارب، وابنه، والقاضي ابن البهلول، والناس من الأشراف، والكتّاب، ووجوه القوّاد، وأهل الحضرة، محجوبون، وهم جلوس في الرواق، والحاجب واقف علىٰ باب السلّم، وكان ينفذ إلىٰ حجرة خلوة له، هو فيها. فلما رآني الحاجب، أمر فرفع لي الستر، فدخلت إليه، وهو يتبخر وعليه سواده، يريد الركوب إلىٰ المقتدر، وليس بين يديه أحدٌ. فطاولني في الحديث، إلىٰ أن فرَغَ، وشدّ سيفه ومنطقته، وخرَجَ، وأنا خلفهُ. فتلقاه الناس بالسلام، وتقبيل اليد، فخرجوا خلفه، فاختلطت بهم. فإذا بإنسان يجذب طيلساني، فالتفتّ، فإذا هو فلان، شيخ من شيوخ الكتّاب، أسماه أبو الحسين وأُنسيته أنا، وذكر أنّه كان صديقاً لأبي، ولأبيه من قبله. فقال لي: يا أبا الحسين، فداك عمُّك، في بيتك خمسون ألف دينار؟ فقلت: لا والله! قال: فتقوىٰ علىٰ خمسين ألف مقرعة وصفعة؟! قلت: لا والله! قال فلمَ تدخل إلىٰ الوزير، وفلان، وفلان ـ وعدّد مَنْ حضر ـ محجوبون، يتمنون الوصول، ولا يقدرون؟ ثم لا ترضىٰ، حتىٰ تطيل عنده، وتخرج في يوم موكب، وراءه، وليس معه غيرك، ولا خمسون ألف دينار معدّة عندك، تؤدّيها إذا نكب هذا! فأُخذْت بتبعة الاختصاص به، وأنت لا تقوىٰ علىٰ ما يولّد هذا! فقلت: يا عمّ لم أعلم، وأنا رجل فقيه، ومن أولاد التجّار، ولا عادة لي بخدمة هؤلاء! فقال: يا بنيّ لا تعاود،

فإن هذا يولّد لك اسماً، ويجرّ عليك تبعة. قال: فتجنبت بعد ذلك الدخول إلىٰ سليمان في أوقات مجالسة العامة، وأيّام المواكب خاصة!

* قال بعضهم: كنّا بحضرة أبي عُمَر القاضي، فجرىٰ ذكر ابن الجصّاص وغَفْلته، فقال أبو عمر: معاذ الله ما هو كذلك، ولقد كنت عنده منذ أيّام مُسَلّماً، وفي صَحْنِه سرادق مضروب، فجلسنا بالقرب منه نتحدّث، فإذا بصرير نَعْل من خَلْفِ السرادق فصاح: يا غلام جئني بمن مشت خلف السرادق الساعة، فأخرجت إليه جارية سوداء. فقال: ما كنت تعملين ها هنا؟ قالت: جئت إلىٰ الخادم أعرّفه أنّي قد فرغت من الطبيخ، وأستأذن في تقديمه. فقال: انصرفي لشأنك. فعلمت أنّه أراد أن يعرّفني أنّ ذلك الوطء وطء سوداء مبتذلة، وأنّها ليست من حرمه ولا ممن يصونه، فيزيل عنّي أن أظنّ به مثل ذلك في حرمه، فكيف يكون هذا مغفّلاً؟!

* وكان القاضي أبو عمر محمد بن يوسف الأزدي غزير العقل والحلم والذكاء، ويضرب المثل بعقله وسداده وحلمه، فيقال في العاقل الرشيد: كأنه أبو عمر القاضي، وفي الحليم: لو أني أبو عمر ما صبرت! وكان لا يجلس للخصوم حتىٰ ينال من الطعام والشراب، ويلم بأهله، احتياطاً علىٰ دينه، وتعففاً بالحلال، عما عسىٰ أن تتوق إليه نفسه من الحرام، إذا بدرت منه لحظة لمن عساها تتحاكم إليه من النساء الحسان!

* أوصىٰ ابن سعيد المغربي المتوفىٰ سنة ٩٦٧هـ ابنه، وقد أراد السفر:

أُودعك الرحمن في غُربتك ... مرتقباً رُحماه في أوبتك
فلا تُطِل حبلَ النَّوىٰ إنني ... والله أشتاق إلىٰ طَلْعَتك
واختصر التوديع أخذاً فما ... لي ناظِرٌ يقوىٰ علىٰ فُرقتك
واجعل وصَاتي نُصْبَ عين ولا ... تبرح مدىٰ الأيام من فكرتك
خلاصة العمر التي حنَّكت ... في ساعة زُفت إلىٰ فطنتك
فللتجاريب أُمُورٌ إذا ... طالعتها تشحذ من غفلتك

فلا تنم عن وَعْيها ساعة ... فإنها عَونٌ إلى يقظتك
وكل ما كابدته في النوى ... إياك أن يكسرَ من همتك
فليس يُدرى أصل ذي غربة ... وإنما تُعرفُ من شيمتك
وَامْشِ الْهُوَيْنا مظهراً عفة ... وَابْغِ رضا الأعين عن هيئتك
وانطق بحيث العيُّ مستقبح ... واصمت بحيث الخير في سكتتك
ولجْ على رزقك من بابه ... واقصد له ما عِشْت في بكرتك
وَوفّ كلاً حقه ولْتكن ... تكْسر عند الفخر من حدتك
وحيثما خيّمت فاقصد إلى ... صحبة من تَرْجُوه في نصرتك
وللرزايا وثبةٌ ما لها ... إلا الذي تذخر من عدّتك
ولا تقلْ أَسْلَمُ لي وحدتي ... فقد تقاسي الذلَّ في وحدتك
ولتجْعَل العقْل محكّاً وخذ ... كلا بما يظهر في نقدتك
واعتبر الناس بألفاظهم ... واصحب أخاً يرغب في صحبتك
كم من صديق مُظْهرٍ نُصْحه ... وفكره وَقفٌ على عَثْرتك
إياك أن تقْرَبَهُ إنّهُ ... عَونٌ مع الدّهرِ على كُربتك
وانْمُ نُموّ النّبت قد زاره ... غِبّ الندى واسمُ إلى قدرتك
ولا تُضَيع زمناً مُمكناً ... تذكاره يذكي لظى حسرتك
والشرُّ مهما اسطعت لا تأتهِ ... فإنه جَوْرٌ على مُهجتك

بين الحقوق... والعقوق

* ليس أحد من المخلوقات في الدنيا يستحق البر والإكرام مثل الأبوين، وقد أوصى الله بهما حتى ولو كانا مشركين ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (لقمان: ١٥) وقد اعتبر الرسول ﷺ البر من أفضل الأعمال، وحينما جاءه رجل وسأله: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك» رواه الشيخان. والقرآن الكريم في عدة آيات يوصي بحق الأبوين ويحذر من عقوقهما أو إيذائهما ﴿فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ (الإسراء) ولو كان هناك أدنى من «أفّ» لنهى الله عنه. وأوصى رسول الله ﷺ رجلاً بأمه وقال: الزمها فإن الجنة تحت رجليها! وقال: (الجنة تحت أقدام الأمهات) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه. ويروى: صلة الرحم، وحسن الجوار، وحسن الخلق يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار: عزاه في مجمع الزوائد ٨/ ١٥٦ لأحمد وقال: رجاله ثقات.

* ورأى ابن عمر رجلاً يطوف بالبيت حاملاً أمَّه وهو يقول لها: أتريني جزيتُك يا أمّه؟ فقال ابن عمر: ولا زفرة واحدة! ذلك أن الأم حينما حملت طفلها في صغره كانت تفعل ذلك وهي تتمنى أن تراه شاباً بين الشباب ورجلاً بين الرجال، تدعو له بطول العمر وامتداد الحياة، أما الولد فإنه حينما يفعل ما يفعل بأمه العجوز، يتمنى موتها ليرتاح من عناء متابعتها، ومهما كان الولد باراًّ بها فإنه لا يريد لأمّه المقعدة مثلاً طول العمر، لأن في ذلك ازدياد شقائه وعذابه معها، لذلك فإن الولد مهما فعل أمامها فلن يجزيها ولا بزفرة واحدة، أو طلقة واحدة، وشتان ما بين من يتمنى لك الحياة وتكافئه أنت بأن تتمنى له الموت!

* كان رجل من النسّاك يقبّل كل يوم قَدَم أمّه، فأبطأ يوماً على إخوته فسألوه، فقال: كنت أتمرغ في رياض الجنة، فقد بلغنا أن الجنة تحت أقدام الأمهات!

* ومن البر أن يصل الرجل أباه بعد موته وذلك بصلة إخوانه ومعارفه وأصدقائه وفي الأثر «الوُدُّ يُتَوَارث، والبُغض يُتوارث». عزاه السخاوي في المقاصد ص٧٠٤ للطبراني والعسكري.

* وقيل لعلي بن الحسين: إنك من أبرّ الناس بوالدتك، ولسنا نراك تأكل معها؟ فقال: إني أخاف أن أسبقها إلى شيء سَبَقَتْ عينُها إليه، فأَعُقَّها بذلك!

* وقيل لآخر وقد مات ابنه: كيف كان برّه بك؟ قال: مَا مَاشيتُه قط بالنهار إلا مشى خلفي، ولا بالليل إلاّ مشى أمامي، ولا رقى سطحاً أنا تحته!

* ورأى أبو هريرة رجلاً يمشي خلف رجل، فقال: من هذا؟ فقال: أبي. قال: لا تَدْعُه باسمه، ولا تجْلسْ قَبْله، ولا تمْشِ أمامه!

* قال بعضهم لابن له عاق: أنت كالإصبع الزائدة، إن تُركتْ شَانَتْ، وإن قُطعت آذتْ!

* وقال عمر بن عبدالعزيز لابن مهران: لا تأتين أبواب السلاطين وإن أمرتهم بمعروف أو نهيتهم عن منكر، ولا تخلونّ بامرأة وإن علّمتها سورة من القرآن، ولا تَصحبنّ عاقاً، فإنه لن يَقْبَلك وقد عقّ والديه!

* وقيل: من عقّ والديه عقّه ولدُه، وكما تدين تدان!

* وقد يكون لسوء اختيار الزوجة أثر في خروج الولد مطبوعاً بطابع الأبوين وعلى شاكلتهما، قال عمارة بن عقيل: والله لأتزوجن امرأة جميلة، يخرجُ ولدُها على جمالها وفِطنتي! فتزوج برعناء، فجاءت بابن في رعونتها ودمامته.

* ونظر رجل إلى ابن دنيء عن أب شريف فقال: سبحان الله مِنْ قائل: ﴿يخرج الخبيث من الطيب﴾!

* وقيل لرجل: كان أبوك أقبح الناس خَلْقاً، وأحسنهم خُلُقاً، وكانت أمك أحسن الناس وجهاً وأقبحهم خُلُقاً، فأخذت قُبح أبيك وسوء خلُق أمّك! فيا جَامعاً مساوئ أبويه.

* وقال المأمون: لم أرَ أحداً أبَّر من الفضل بن يحيىٰ بأبيه، بلغ من برّه به أن يحيىٰ كان لا يتوضأ إلا بماء مسخّن، وهما في السجن، فمنعهما السجّان يوماً من إدخال الحطب في ليلة باردة، فقام الفضل حين أخذ يحيىٰ مَضْجعه إلىٰ قُمْقُم - إناء من نحاس - كان يُسَخّن فيه الماء، فملأه ثم أدناه من نار المصباح، فلم يزل قائماً وهو في يده حتىٰ أصبح!

البر.. سبب في النجاة

* حدث رسول الله ﷺ أصحابه عن الثلاثة من بني إسرائيل الذين انسد عليهم فم الغار بصخرة عظيمة، فتوسلوا إلىٰ الله بصالح أعمالهم أن يفرج عنهم، فكان من دعاء أحدهم أن قال: اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأىٰ بي طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما حتىٰ ناما، فحلبت غبوقهما فوجدتهما نائمين فلبثت والقدح علىٰ يدي أنتظر استيقاظهما حتىٰ برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت قليلاً. ثم دعا صاحباه بصالح أعمالهما فانفرجت الصخرة وخرجوا سالمين. ويرىٰ بعض العلماء أن الرقيم المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿**أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم**﴾ هو الغار الذي أصاب فيه الثلاثة ما أصابهم. فتح الباري: ٦/ ٥٨٤.

أشمّ رائحة ابني!

* كان أمية بن الأسكر الكناني من سادات قومه، وكان له ابن اسمه كِلاَب، هاجر إلىٰ المدينة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأقام بها مدة ثم لقي ذات يوم طلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام، فسألهما: أيّ الأعمال أفضل في الإسلام: فقالا: الجهاد، فسأل عمر فسيّره في الجند الغازي إلىٰ الفرس، فقام أمية وقال لعمر: يا أمير المؤمنين هذا اليوم من أيامي لولا كبر سني، فقام إليه ابنه كلاب، وكان عابداً زاهداً فقال: لكني يا أمير المؤمنين أبيع الله نفسي وأبيع دنياي بآخرتي، فتعلق به أبوه وقال: لا تدع أباك وأمك شيخين ضعيفين ربياك صغيراً حتىٰ إذا احتاجا إليك تركتهما! فقال: نعم أتركهما لما هو خير لي، فخرج غازياً بعد أن أرضىٰ أباه، فأبطأ كلاب في الغزو وطال غيابه، وكان أبوه

في ظل نخل له في يوم من الأيام، وإذا حمامة تدعو فرخها، فرآها الشيخ فبكىٰ، فرأته العجوز فبكت، وأنشد شعراً رقيقاً يذكر فيه حبه لابنه، وكان أمية قد عمي، فأخذ قائده بيده ودخل به علىٰ عمر وهو في المسجد فأنشده شعراً يطلب فيه أن يرد إليه كلاباً، فقد اشتد شوقه وحنينه إليه، فكتب عمر بردّ كلاب إلىٰ المدينة، فلما قدم ودخل عليه، قال له عمر: ما بلغ من برك بأبيك؟ قال: كنت أوثره وأكفيه أمره، وكنت إذا أردت أن أحلب له لبناً أجيء إلىٰ أغزر ناقة في إبله فأريحها وأتركها حتىٰ تستقر، ثم أغسل أخلافها ـ ضروعها ـ حتىٰ تبرد ثم أحلب له فأسقيه! فبعث عمر إلىٰ أمية ـ وهو لا يشعر بعودة ابنه ـ فجاء فدخل عليه وهو يتهادىٰ وقد ضعف بصره وانحنىٰ، فقال له: كيف أنت يا أبا كلاب؟ فقال له: كما ترىٰ يا أمير المؤمنين! فقال: يا أبا كلاب، ما أحبّ الأشياء إليك اليوم؟ قال: ما أحبّ اليوم شيئاً، ما أفرح بخير ولا يسوؤني شرٌّ! فقال: بل علىٰ ذلك ـ أي مع ذلك ـ قال: بلىٰ، كلاب أحبّ أنه عندي فأشمه شمة، وأضمه ضمة قبل أن أموت! فبكىٰ عمر وقال: ستبلغ ما تحب إن شاء الله، ثم أمر كلاباً أن يحلب لأبيه ناقة كما كان يفعل ويبعث بلبنها إليه، ففعل، وناوله عمر الإناء وقال: اشرب يا أبا كلاب، فأخذه، فلما أدناه من فيه قال: والله يا أمير المؤمنين إني لأشمّ رائحة يدي كلاب، فبكىٰ عمر وقال له: هذا كلاب عندك وقد جئناك به، فوثب إلىٰ ابنه وضمّه، وجعل عمر والحاضرون يبكون! وقالوا لكلاب: الزم أبويك فجاهد فيهما ما بقيا، ثم شأنك بنفسك بعدها، وأمر له بعطائه وصرفه مع أبيه، وكان كلاب من خيار المسلمين فلم يزل مقيماً عندهما حتىٰ ماتا!.

* قيل في الأمثال: تأبىٰ له ذلك بنات أَلْبُبِي. وأصل هذا المثل أن رجلاً تزوج امرأة وله أمٌّ كبيرة، فقالت المرأة للزوج: لا أنا ولا أنت حتىٰ تُخرج هذه العجوز عنا! فلما أكثرت عليه احتملها علىٰ عنقه ليلاً، ثم أتىٰ بها وادياً كثير السباع فرمىٰ بها فيه، ثم تنكّر لها، فمر بها وهي تبكي، فقال: ما يبكيك يا عجوز؟ قالت: طرحني ابني هاهنا وذهب، وأنا أخاف أن يفترسه الأسد! فقال لها: تبكين له وقد فعل بك ما فعل؟ هلا تدعين عليه؟ قالت: تأبىٰ له ذلك بنات أَلْبُبِي. قالوا: وبنات الألبب: عروق في القلب تكون فيها الرقة.

قلب الأم

* صور الشاعر إبراهيم المنذر قلب الأم وشفقتها على ابنها وعطفها عليه رغم ما يمكن أن تتعرض له من طعنات من جانبه، فقال:

أغرىٰ امرؤٌ يوماً غلاماً جاهلاً ... بنقودِهِ كيما ينالَ بهِ الوَطَرْ
قالَ ائتني بفؤادِ أُمِّكَ يا فَتىٰ ... ولَكَ الدَّراهمُ والجواهرُ والدُّرَرْ
فمَضىٰ وأغْرَزَ خِنجراً في صدرِها ... والقلب أخرجه وعاد على الأثر
لكنه من فرط سرعته هوىٰ ... فتدحرَجَ القلبُ المُقطَّعُ إذْ عَثَرْ
ناداهُ قلبُ الأمِ وهوَ مُعَفَّرٌ ... ولدي حبيبي هَلْ أصابَكَ من ضَرَرْ؟
فكأنَّ هذا الصوتَ رغمَ حَنُوِّهِ ... غضبُ السماءِ على الغلامِ قدِ انهمرْ
فارتد نحوَ القلبِ يغسِلُهُ بما ... فاضتْ بهِ عيناهُ منْ دمعِ العِبَرْ
وأدركَ سُوءَ فِعْلَتِهِ التي ... لم يأتِها أحدٌ سواهُ من البشرْ
واستلَّ خِنجرَهُ ليطعنَ نفسَهُ ... طَعْناً فيبقىٰ عِبرةً لِمَن اعتبَرْ
ويقولُ: يا قلبُ انْتقمْ منِّي ولا ... تغفِرْ فإنّ جريمتي لا تُغْتَفَر
ناداه قلب الأم كُفَّ يَداً ولا ... تذبحْ فُؤادي مَرّتينِ على الأثر!!!

* يقول الإمام القرطبي رحمه الله: وقد روينا بالإسناد المتصل عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أبي أخذ مالي! فقال النبي ﷺ للرجل: فأتني بأبيك فنزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ فقال: إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك: إذا جاءك الشيخ فاسأله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه فلما جاء الشيخ قال له النبي ﷺ: ما بال ابنك يشكوك أتريد أن تأخذ ماله؟ فقال: سَلْه يا رسول الله، هل أنفقه إلا على إحدىٰ عماته أو خالاته أو على نفسي! فقال له

رسول الله ﷺ: «إيه، دعنا من هذا، أخبرني عن شيء قلته في نفسك ما سمعته أذناك؟ فقال الشيخ: والله يا رسول الله، مازال الله عز وجل يزيدنا بك يقيناً، لقد قلت في نفسي شيئاً ما سمعته أذناي. قال: قل وأنا أسمع قال، قلت:

غَذَوْتُك مولوداً ومُنْتُك[1] يافعاً ... تُعَلّ بما أجْني عليك وتُنْهَلُ
إذا ليلةٌ ضافَتك[2] بالسُّقم لم أبِتْ ... لسُقْمك إلا ساهراً أتململُ
كأني أنا المطروقُ دونك بالذي ... طُرِقتَ به دوني فعيْنِي تَهْمُلُ
تخافُ الرَّدىٰ نفسي عليك وإنها ... لتعلم أن الموت وقتٌ مؤجّل
فلما بلغتَ السِّنّ والغاية التي ... إليها مَدَىٰ ما كنتُ فيك أؤمِّلُ
جعلتَ جزائي غِلظةً وفظاظةً ... كأنك أنت المُنعِم المُتَفَضِّلُ
فليتك إذ لم تَرْعَ حقّ أبوّتي ... فعلتَ كما الجار المُصَاقِب[3] يفعلُ
فأوْليتني حقّ الجِوار ولم تكن ... عليّ بمال دون مالك تَبْخَلُ

قال: فحينئذ أخذ النبي ﷺ بتلابيب ابنه وقال: أنت ومالك لأبيك!.

وبعض الروايات تذكر أن الرجل كان شيخاً كبيراً جاء يتوكأ على عصا فقال للنبي ﷺ: إنه كان ضعيفاً وأنا قوي، وفقيراً وأنا غني، فكنت لا أمنعه شيئاً من مالي، واليوم أنا ضعيف وهو قوي، وأنا فقير وهو غني، وهو يبخل عليّ بماله! فبكى النبي ﷺ وقال: ما مِن حَجَرٍ ولا مَدَرٍ يسمعُ هذا إلا بكىٰ: ثم قال للولد: أنت ومالُك لأبيك. «المقاصد الحسنة ص١٧٤. وقد عزاه للطبراني والبيهقي. وبعض كتب الأدب تنسب الأبيات لأمية بن أبي الصلت قالها حينما غضب على ابنه. وبعضها لا يذكر قائلها.

---

(١) ويروىٰ: وعلتك، أي قمت بمؤونتك، ويروىٰ: وصنتك. تعل: من علَه يعله أي سقاه ثانية. أجني: أكسب. تنهل: من أنهله، سقاه أول سقية.

(٢) ويروىٰ: إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت = لشكواك...

(٣) ويروىٰ (المجاور) (تفسير القرطبي: ١٠/ ٢٤٥).

قلب الأب

قلب الأبوين يحمل عاطفة جياشة نحو الأبناء، ومحبة صادقة لهم، وحناناً غامراً نحوهم، وقد أبدع الشاعر عمر بهاء الدين الأميري في تصوير العاطفة الأبوية، وما يحمله قلب الأب من حب غامر لأبنائه، يقول الشاعر الأميري بعد أن ودّع أبناءه وتوجهوا إلى مدينة حلب، وبقي وحده في مصيفه ببلدة (قرنايل) بلبنان:

أين الضجيج العذبُ والشغبُ ... أين التدارس شابَه اللعبُ؟!

أين الطفولة في توقّدها ... أين الدمى في الأرض والكتبُ؟!

أين التشاكس دونما غرضٍ ... أين التشاكي ماله سببُ؟!

أين التباكي والتضاحك في ... وقت معاً، والحزن والطربُ؟!

أين التسابق في مجاورتي ... شغفاً إذا أكلوا وإن شربوا؟!

يتزاحمون على مجالستي ... والقرب مني حيثما انقلبوا

يتوجهون بسوق فطرتهم ... نحوي إذا رهبوا وإن رغبوا

فنشيدهم: (بابا) إذا فرحوا ... ووعيدهم: (بابا) إذا غضبوا..!

وهتافُهم: (بابا) إذا ابتعدوا ... ونجيُّهم: (بابا) إذا اقتربوا؟!

بالأمس كانوا ملء منزلنا ... واليوم، ويح اليوم، قد ذهبوا

وكأنما الصمت الذي هبطت ... أثقاله في الدار إذ غَرَبوا

إغفاءةُ المحموم هدأتها ... فيها يشيع الهم والتعبُ

ذهبوا، أجل ذهبوا، ومسكنُهُم ... في القلب، ما شطوا وما قربوا

إني أراهم أينما التفتَتْ ... نفسي وقد سكنوا، وقد وثبوا

وأحسّ في خلدي تلاعبهم ... في الدار ليس ينالهم نصبُ

فـي الـدار لـيس ينـالـهـم نـصبُ   ودمـوع حـرقـتـهـم إذا غُـلـبـوا
ودمـوع حـرقـتـهـم إذا غُـلـبـوا   وبـكـلّ زاويـة لـهـم صـخـبُ
فـي الحـائـط المـدهـون قـد ثـقـبـوا   وعـلـيـه قـد رسـمـوا وقـد كـتـبـوا
في الـصـحـن فيـه بـعـض مـا أكـلـوا   فـي عـلـبـة الحـلوىٰ الـتـي نـهـبـوا
فـي الـشـطـر مـن تـفـاحـة قـضـمـوا   فـي فـضـلـة المـاء الـتـي سـكـبـوا
إنـي أراهـم حـيـثـمـا اتجـهـت   عـيـنـي كـأسـراب الـقـطـا سَـرَبـوا
بـالأمـس فـي (قـرنـايـلٍ) نـزلـوا   والـيـوم قـد ضـمـتـهُـمُ (حـلـبُ)
دمـعـي الـذي كـتـمـتُـه جـلـداً   لمـا تـبـاكـوا عـنـد مـا ركـبـوا
حـتـىٰ إذا سـاروا وقـد نـزعـوا   مـن أضـلـعـي قـلـبـاً بـهـم يـجـبُ
ألـفـيْـتُـنـي كـالـطـفـل عـاطـفـةً   فـإذا بـه كـالـغـيـث يـنـسـكـب
قـد يـعـجـب الـعُـذّال مـن رجـلٍ   يـبـكـي، ولـو لـم أبـكِ فـالـعـجـبُ
هـيـهـات مـا كـل الـبُـكـا خَـوَرٌ   إنـي وبـي عـزم الـرجـال.. أبُ..!!

تأملات

خطب الحجاج يوماً فقال: أيها الناس، الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله! فقام إليه رجل فقال له: ما أصْفَقَ وجهك وأقلَّ حياءك! تفعل ما تفعل، وتقول مثل هذا الكلام؟ خَبُثَ وضلّ سعيك! فقال للحرس: خذوه! فلما فرغ من خطبته قال له: ما الذي جرّأك عليّ؟ فقال: ويحك يا حجاج، أنت تجترئ على الله ولا أجترئ عليك؟ ومن أنت حتىٰ لا أجترئ عليك؟! وأنت تجترئ على الله رب العالمين! فقال: خلّوا سبيله، فأطلق سراحه! وهذا من العجائب!

الأرحام.. جناحك الذي به تطير

* يرّغب الرسول ﷺ في صلة الرحم فيقول: من أحبّ أنْ يُنْسأ له في أثره. ويَمدّ له في عمره فليصل رحمه، رواه الثلاثة. ولا تنزل الرحمة على قوم فيهم قاطع رحم. وفي الحديث: ما من ذنبٍ أجْدرُ بأن يعجّلَ الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدّخرُ له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم، رواه الترمذي وابن ماجه.

* وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّ لي قرابة أصِلُهم ويقطعونني، وأُحسن إليهم ويُسيؤون إليّ! فقال رسول الله ﷺ: «لا يزال معك من الله ظهير ما كنت على ذلك» رواه مسلم. وفي الحديث: «الرحم شجنة من الرحمن، مَنْ وَصَلَها وصله الله ومن قطعها قطعه الله» رواه مسلم.

* وقال عمر رضي الله عنه: تعلموا العربية فإنها تزيد في المروءة، وتعلموا النسب فربّ رحم مجهولة قد وصلت بعرفان نسبها. وفي الحديث: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم» رواه الترمذي وأحمد والحاكم.

* وقال علي كرّم الله وجهه: أكرمْ عشيرتك، فإنهم جناحك الذي به تطير، وإنك بهم تصول وبهم تطول، وهم العدّة عند الشدة، أكرم كريمهم، وعُدْ سقيمهم، وأشركهم في أمورك، ويَسِّر عن معسرهم.

* وليس أصعب على النفس من ظلم الأقرباء وإيذائهم حتى قالوا: الأقارب عقارب.

وظلْمُ ذوي القُرْبى أشدُّ مَضَاضَةً ... على المرْءِ من وقْعِ الحُسَام المهنّدِ

* والعرب تقول في العطف على القرابة وإنْ لم يكن وادّاً: أنْفُكَ منك وإنْ ذَنّ! أي سال مخاطه!

* وقالوا: القرابة تحتاج إلى المودة، والمودة تستغني عن القرابة.

* وقيل لرجل: أخوك أحبّ إليك أم صديقك؟ فقال: إنما أحبّ أخي إذا كان صديقي!

* ودخل رجل من أشراف العرب على بعض الملوك، فسأله عن أخيه، فأوقع به يعيبُه ويَشْتمه، وفي المجلس رجل يبغضه، فشرع معه في القول شاتماً وقادحاً، فقال له: مهلاً، إني لآكلُ لحْمي ولكني لا أدَعُه لآكلٍ!

* وقيل لأعرابي: ما تقول في ابن عمك؟ قال: عدوّك وعدوّ عدوّك.

* وقتل رجل من العرب ابن أخيه، فدُفع إلى أخيه ليُقيدَه، فلمّا أهْوى بالسيف أُرْعِدتْ يداه، فألقى السيف من يده وعفا عنه وقال:

أقولُ للنفس تأْساءً وتَعْزيةً ... إحدى يَديّ أصابَتْني ولم تُرِدِ

كلاهما خَلَفٌ من فَقْد صاحبه ... هذا أخي حين أدْعُوه وذَا ولدي!

* ومما جاء في تفضيل بعض الأقارب على بعض، أنه قيل لامرأة أسَرَ الحجاج زوجها وابنها وأخاها: اختاري واحداً منهم. فقالت: الزوج موجود، والابن مولود، والأخ مفقود، أختار الأخ! فقال الحجاج: عفوت عن جماعتهم لحسن كلامها!

* ويروى أنه لما مات عبادة بن الصامت، بكى عليه أخوه أوس، فقيل له: أتبكي عليه وقد كان يريد قتلك؟ فقال: حرّكَني للبكاء عليه ارتكاضُنا في بطن وارتضاعنا من ثدي!

* ومما جاء في حب الأقارب وتمني كثرتهم، أن عثمان رضي الله عنه دخل على ابنته وهي تحت عبدالله بن خالد بن أسيد، فقال: يا بنيّة، مالي أرَاك مَهْزُولة؟ لعلّ بعْلَكِ يُغيرِكِ؟ - تزوّج من أخرى - فقالت: لا، ما يُغيرني، فقال لزوجها: لعلك تُغيرها؟ قال: فأفْعل، فَلَغُلامٌ يزيده الله في بني أميّة أحبُّ إليّ منها!

* ومن طريف ما يُروى فيمن ادعى قرابة بعيدة أو مصطنعة، أن رجلاً قال لآخر: لسْتَ تَرْعى حقّي وبيننا قرابة!، فقال: من أين؟ قال: إنّ أباك كان قد خطب أمي، فلو تمّ الأمر لكنْتُ أنا أنت! فقال: هذه والله رحم ماسّة!

* وتعرّض رجل لهشام وادعى أنه أخوه، فسأله: من أين ذلك؟ قال: من آدم! فأمر بأن يُعطى درهماً! فقال: لا يعطي مثلك درهماً! فقال: لو قسمت ما في بيت المال على القرابة التي ادّعيتها لم يَنلْك إلا دون ذلك!

* قال المقنع الكندي:

يعاتبني في الدّين قومي وإنما ... ديوني في أشياء تكسبهم حمدا
أسدّ به ما قد أخَلُّوا وضيَّقوا ... ثغور حقوق ما أطاقوا لها سدا
وإن الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني عمي لمختلف جداً
فإن أكلوا لحمي وَفَرت لحومهم ... وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجداً
وإن ضيَّعوا غيبي حفظت غيوبهم ... وإن هُمْ هوُوا غيِّي هَوِيت لهم رشْدا
وإن زجروا طيراً بنَحْس تمرّ بي ... زجرت لهم طيراً تُمُرُّ بهمْ سعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم ... وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
وليسوا إلى نصري سراعاً وإن هم ... دعوني إلى نصرٍ أتيتهم شَدّاً
لهمْ جُلُّ مالي إن تتابع لي غنى ... وإن قلَّ مالي لم أكلفهم رفدا
وإني لعبد الضيف ما دام نازلا ... وما شيمة لي غيرها تشبه العبدا

* المقنع الكندي، اسمه محمد بن ظفر، وسمّي المقنع لأنه كان لجماله يضع اللثام خوفاً من العين!

تأملات

* الابتسامة أقلّ كلفة من الكهرباء، وأكثر إشراقاً منها.

* شقَّ طريقك بابتسامتك خيرٌ لك من أن تشقها بسيفك.

* ما تستطيع نيله بالإرهاب، يسهل عليك بالابتسام.

رعاية البنات

* دخل عمرو بن العاص على معاوية وعنده ابنته عائشة، فقال: مَنْ هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذه تُفّاحة القلب! فقال: انْبِذْها عنك! قال: ولِمَ؟ قال: لأنهنّ يَلِدْنَ الأعداء، ويُقَرّبْن البُعَداء، ويُورِثْن الضغائن! فقال: لا تقُلْ ذاك يا عمرو، فوالله ما مَرّض المرضى ولا نَدَبَ الموتى ولا أَعَانَ على الأحزانِ مثلهنّ، وإنّك لواجدٌ خالاً قد نفَعَه بنو أخته، فقال عمرو: ما أعْلَمُكَ إلا حبّبْتَهن إليّ.

* كانت العرب تئدُ البنات، إلى أن جاء الإسلام فنهاهم عن ذلك ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ (الإسراء: ٣١) وكانوا يقولون: إنها لا تجلب المال ولا تحمل السيف، فلذلك كرهوا البنات وتشاءموا من ولادتهن ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (النحل).

* وكانوا يقتلونهن خشية الفقر أو من الفقر، أو خوف العار أو السّبْي، وكانوا إذا هنّؤوا بالبنت قالوا: أمنكم الله عَارَها، وكَفَاكم مُؤْنتها، وصاهَرْتم قبرَها!

* ونظر أعرابي إلى بنت تُدْفن فقال: نعم الصّهرُ صاهرْتُم!

* وكان قيس بن عاصم المنقريّ يَئِدُ بناته في الجاهلية، وسبب ذلك أن النعمان بن المنذر، لّما منعَتْه بنو تميم الإتاوة التي كانت تؤدّيها إليه، جهّز إليهم أخاه الرّيان بن المنذر فتغلّب عليهم وساق النّعم وسبى الذّراري، فتراجع بنو تميم وسألوا النعمان نساءهم، فقال لهم: كل امرأة اختارت أباها رُدَّت إليه، وإنْ اختارت زوجها تُرِكتْ عليه، فكلّهنّ اخترن آباءهن، إلا ابنةً لقيس بن عاصم اختارت زوجها، فنذر قيس لا يولد له ابنة إلاّ قتلها! فاعْتَلّ بهذا كلّ مَنْ وأد بناته، وزعم أن ذلك حَمِيّة!

* وجاء قيس هذا إلى رسول الله ﷺ وقال: إني وأدْتُ اثنتي عشرة بنتاً، فما أصنع؟ فقال: أعتق عن كل موؤودة نَسَمة، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: فما الذي حملك على

ذلك وأنت أكثر العرب مالاً؟ - وكان قيس سيد قومه - فقال: مخافة أنْ يَنْكَحهنَّ مثلُك! فتبسّم رسول الله ﷺ، وقال: هذا سيّد أهل الوَبَر! وقال قيس: ما وُلدتْ لي ابنة إلا وأَدْتُها سوى بنية وَلَدَتْها أمّها وأنا في سفر، فلما عُدْت، ذكرتْ أنها ولدتْ ابنة ميتة، لكنها أوْدَعَتْها أخوالَها حتى كبرتْ فأدخلَتْها منزلي متزيّنةً فاستَحْسَنْتُها، فقلت: مَنْ هذه؟ فقالت: هذه ابنتُك! وهي التي أخبرتُك أنني ولدتُها ميتة، فأخذتُها ودفنتُها حيّة وهي تصيح وتقول: أتتركني هكذا! فلم أُعرِّج عليها! فقال ﷺ: من لا يَرْحم لا يُرْحم. وفي بعض الآثار أنه قال له: لو كنتُ معاقباً أحداً على عملٍ عملَه بالجاهلية لبدَأْتُ بكَ!

* والذين كانوا يئدون البنات هم بعض العرب، ومع هذا فكان العقلاء يُقبّحون هذا الفعل، ويعملون على إنقاذ الموؤودة التي تقتل دون ذنب ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۝٩ ﴾ (التكوير) كان صعصعة بن ناجية المجاشعي جدّ الفرزدق يحيي الموؤودة وينقذها ويدفع لأهلها المال. ولما أتى النبي ﷺ أخبره أنه كان يشتري الموؤودة، حتى بلغ عدد من اشتراهن مائتين وثمانين وليدة، وقال: إن سبب ذلك أنه ضلّت له ناقتان فراح يبحث عنهما حتى وجدهما عند رجل قد ولدت امرأته بنتاً، وأراد أن يئدها فقال له: أتبيعها؟ فقال: وهل تبيع العرب أولادها! قال فقلت له: احتكم، فطلب الناقتين والجمل الذي كنت أركبه، فدفعت ذلك إليه وأخذتها! وفي ذلك يفتخر الفرزدق فيقول:

جدّي الذي منع الوائدينَ   وأحَيَا الوئيد فلم تُوأدِ

* والإسلام قاوم هذه النظرة المنحطّة عن البنات فرغب في تربيتهن والإحسان إليهن، وعمل على إزالة هذه العادات الجائرة، وتحطيم هذه التصورات الخاطئة عن المرأة، فرفع من مكانتها وأعلى قدرها، يقول الرسول الكريم ﷺ: «من خرج إلى سوق من أسواق المسلمين فاشترى شيئاً فحمله إلى بيته فخصّ به الإناث دون الذكور نظر الله إليه، ومن نظر الله إليه لم يعذّبه» رواه الخرائطي. وقال أيضاً: «من كانت له ثلاث بنات يؤدّبهن ويرحَمُهنّ ويكفلُهنّ وجبَتْ له الجنةُ البتة، قيل: يا رسول الله فإن كانتا اثنتين؟ قال: وإن كانتا اثنتين، قال: فرأى بعض القوم أن لو قال واحدة لقال واحدة! رواه أحمد والطبراني.

وقال بعض الصالحين: مِن يُمْنِ المرأة أن تلدَ الأنثىٰ قبل الذكر، إنّ الله بدأ بالإناثِ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾ (الشورىٰ).

* وقال بعضهم: البنات حسناتٌ، والبنون نِعَم، والحسنات مُثابٌ عليها، والنعم مسؤولٌ عنها!

* ومن قال إن البنات دائماً شرٌّ، والأولاد خيرٌ؟ فربّ جارية خير من غلام، وربّ غلام قد هَلَكَ أهلهُ علىٰ يديه!

* ومن لطيف الشعر في هذا المقام، قول أحدهم:

أُحِبُّ البناتِ، فحُبُّ البناتِ فرضٌ علىٰ كل نفسٍ كريمةْ
لأن شُعيْباً لأجل البناتِ أخْدمَهُ اللهُ موسىٰ كَليمَهْ!

* وكان لأبي حمزة زوجتان، فولدت إحداهما بنتاً، فعزّ عليه، واجتنبها، وصار في بيت ضرّتها إلىٰ جنبها، فأحسّتْ به يوماً في بيت صاحبتها، فجعلتْ تُرقّصُ ابنتها الطفلة وتقول:

ما لأَبِي حَمْزَةَ لا يَأْتِينَا يظلّ في البيتِ الذي يَلِينَا
غَضْبانَ ألاَّ نَلِدَ البَنِينَا تاللهِ ما ذلك في أيْدِينَا
بل نحن كالأرض لِزارعينَا يُنْبِتُ ما قد زرعوه فينَا
وإنّما نَأْخذُ ما أُعْطِينَا!

فرجع إلىٰ منزله وصالحَها وعرف قُبح ما فَعَل، وطابَتْ نفسُه بها.

* وقال أحدهم:

أُحِبُّ بُنَيَّتي ووَدِدْتُ أنّي دَفَنْتُ بُنَيَّتي في قاع لحْدِ
وما بي أنْ تهون عليّ لكن مخافة أنْ تَذُوقَ الذُلَّ بعدي

فـإنْ زَوّجـتُـهـا رجـلاً فـقـيـراً | أراهـا عـنـده، والـهَـمُّ عـنـدي
وإنْ زوّجـتُـهـا رجـلاً غـنـيّـاً | فَـيَـلْـطِـمُ خَـدَّهـا ويـسـبُّ جَـدّي
سـألـتُ الـلـه يـأخـذَهـا قـريـبـاً | ولـو كـانـت أحـبّ الـنـاس عـنـدي!

* كان لأعرابي امرأتان إحداهما جارية، والأخرىٰ غلاماً، وراحت تفاخر ضَرَّتها وتُعايرها، فأقبلت ترقِّص ابنتها وتقول:

ومـا عـلـيّ أنْ تـكـون جـاريـةْ | تَـغْـسـلُ رأسـي وتـكـونَ الـفَـالـيـهْ
وتـرفـعُ الـسّـاقـط مِـنْ خِـمـاريـةْ | حـتـىٰ إذا مـا بـلـغَـتْ ثـمـانـيـةْ
أَزَرْتُـهـا بـنـقـبـة يمـانـيـة | أنْـكـحْـتُـهـا مـروان أو مـعـاويـة
أَصْـهـارُ صِـدْق ومـهـور غـالـيـةْ!

قال: فسمعها مروان فتزوّجها علىٰ مائة ألف مثقال، وقال: إن أمّها حقيقة أن لا يكذب ظنّها ولا يُخانَ عهدها! فقال معاوية: لولا أن مروان سَبَقَنَا إليها لأضْعَفْنا لها المهرَ، ولكن لا تُحْرَم الصّلةَ، فبعث إليها بمائتي ألفِ درهم!

* كان لأحدهم زوجة قد ولدت له ستاً من البنات، وكان يرغب في أن تلد له الولد، فلما حملت البطن السابعة وكان قبل موعد الولادة بشهرين عزم في نفسه إن ولدت له بنتاً أن يطلقها! فرأىٰ آنذاك في منامه أن القيامة قد قامت وأحضرت الجنة والنار، فرأىٰ كل واحدة من بناته الست علىٰ أبواب جهنم تمنعه من دخولها، إلا باباً واحداً ليس له من يدافع عنه فيه.. وشعر أنه يقترب من هذا الباب فانتبه مذعوراً وهو يقول: اللهم ارزقنا السابعة!!

البنت حجاب لأبيها من النار

سئل مالك بن دينار عن سبب توبته فقال: كنت شرطياً وكنت منهمكاً علىٰ شرب الخمر، ثم إنني اشتريت جارية نفيسة ووقعت مني أحسن موقع، فولدت لي بنتاً، فشغفت بها، فلما دبّت علىٰ الأرض ازدادت في قلبي حبًّا، وألفتني وألفتها، قال: فكنت إذا

وضعت المسكر بين يديّ جاءت إليّ وجاذبتني عليه وهرقَتْه من ثوبي، فلما تَمَّ لها سنتان ماتت، فأكمدني حزنها، فلما كانت ليلة النصف من شعبان، وكانت ليلة الجمعة بتّ ثَمِلاً من الخمر، ولم أصلّ فيها عشاء الآخرة، فرأيت فيما يرىٰ النائم كأن القيامة قد قامت ونفخ في الصور، وبعثرت القبور، وحُشر الخلائق، وأنا معهم، فسمعت حساً من ورائي، فالتفت فإذا أنا بتنّين - حيّة عظيمة - أعظم ما يكون أسودَ أزرقَ قد فتح فاه مسرعاً نحوي، فمررت بين يديه هارباً فزعاً مرعوباً، فمررت في طريقي بشيخ نقي الثوب طيب الرائحة، فسلّمت عليه فردّ السلام فقلت: أيها الشيخ أجرني من هذا التنين أجارك الله! فبكىٰ الشيخ وقال لي: أنا ضعيف وهذا أقوىٰ مني وما أقدر عليه، ولكن مر وأسرع فلعل الله أن يتيح لك ما ينجيك منه، فولّيت هارباً علىٰ وجهي فصعدت علىٰ شرف من شُرَف القيامة فأشرفت علىٰ طبقات النيران فنظرت إلىٰ هولها وكدت أهوي فيها من فزع التنين! فصاح بي صائح: ارجع فلست من أهلها! فاطمأننت إلىٰ قوله ورجعت، ورجع التنين في طلبي، فأتيت الشيخ فقلت: يا شيخ، سألتك أن تجيرني من هذا التنين فلم تفعل، فبكىٰ الشيخ، وقال: أنا ضعيف ولكن سرْ إلىٰ هذا الجبل، فإن فيه ودائع المسلمين، فإن كان لك فيه وديعة فستنصرك، قال: فنظرت إلىٰ جبل مستدير من فضة وفيه كوىٰ مخرمّة وستور معلقة، علىٰ كل خوخة وكوة مصراعان من الذهب الأحمر، علىٰ كل مصراع ستر من الحرير، فلمانظرت إلىٰ الجبل ولّيْت إليه هارباً والتنين من ورائي، حتىٰ إذا قربت منه صاح بعض الملائكة: ارفعوا الستور وافتحوا المصاريع وأشرفوا. . . ، فلعل لهذا البائس فيكم وديعة تجيره من عدوّه! فإذا الستور قد رفعت والمصاريع قد فتحت فأشرفت علي من تلك المخرّمات أطفال بوجوهٍ كالأقمار، وقرب التنين مني، فتحيّرت في أمري، فصاح بعض الأطفال: ويحكم أشرفوا كلكم فقد قرب منه عدوه، فأشرفوا فوجاً بعد فوج، وإذا أنا بابنتي التي ماتت قد أشرفت عليّ معهم، فلما رأتني بكت وقالت: أبي والله! ثم وثبت في كفة من نور كرمية السهم حتىٰ مثلت بين يدي فمدت يدها فتعلّقْتُ بها، ومدت يدها الأخرىٰ للتنين فولّىٰ هارباً، ثم أجلستني وقعدت في حجري وضربت بيدها اليمنىٰ إلىٰ لحيتي وقالت يا أبت: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الحديد: ١٦)؟

فبكيت وقلت: يا بنية وأنتم تعرفون القرآن؟ فقالت: يا أبت نحن أعرف به منكم، قلت فأخبريني عن التنين الذي أراد أن يهلكني! قالت: ذلك عملك السوء قوّيته فأراد أن يغرقك في نار جهنم، قلت: فأخبريني عن الشيخ الذي مررت به في طريقي؟ قالت: يا أبت ذلك عملك الصالح أضعفته حتىٰ لم يكن له طاقة بعملك السوء! قلت: يا بنية وما تصنعون في هذا الجبل؟ قالت: نحن أطفال المسلمين قد أُسكنّا فيه إلىٰ أن تقوم الساعة ننتظركم تقدمون علينا فنشفع لكم! قال مالك: فانتبهت فزعاً وأصبحت فأرَقْت المسكر، وكسرت الآنية وتبْتُ إلىٰ الله عز وجل، وهذا كان سبب توبتي!

تأملات

* قالت بنت عبدالله بن مطيع لزوجها طلحة بن عبدالرحمن بن عوف، وكان أجود قريش في زمانه: ما رأيت قوماً ألأم من إخوانك! قال لها: مَهْ! ولِمَ ذلك؟ قالت: أراهم إذا أَيْسرتَ لزموك، وإذا أَعْسرت تركوك!! فقال لها: هذا والله من كرم أخلاقهم، يأتوننا في حال قدرتنا علىٰ إكرامهم، ويتركوننا في حال عجزنا عن القيام بحقهم!!

* توجه عبدالله بن المبارك في إحدىٰ السنوات إلىٰ الحج فاجتاز ببعض البلاد، فمات طائر معهم، فأمر بإلقائه علىٰ مزبلة هناك، وسار أصحابه أمامه وتخلّف هو وراءهم، فلما مر بالمزبلة إذا جارية قد خرجت من دار قريبة منها فأخذت ذلك الطائر الميت ثم لفته ثم أسرعت به إلىٰ الدار، فجاء فسألها عن أمرها وأَخْذها الميتة، فقالت: أنا وأخي هنا ليس لنا شيء إلا هذا الإزار، وليس لنا قوت إلا ما يلقىٰ علىٰ هذه المزبلة، وقد حلّت لنا الميتة منذ أيام، وكان أبونا له مال فظلم وأخذ ماله وقتل!! فأمر ابن المبارك بردّ الأحمال وقال لوكيله: كم معك من النفقة؟ قال: ألف دينار، فقال: عدّ منها عشرين ديناراً تكفينا لعودتنا إلىٰ مرو، وأعطها الباقي؛ فهذا أفضل من حجنا هذا العام، ثم رجع..!!

الصداقة والأخوة

* لقد أحْسن مَنْ قال: إن الأخ الصالح خير لك من نفسك، لأن النفس أمارة بالسوء، والأخ لا يأمرك إلا بالخير!. والأخوة أغصان تغرس في القلوب فتثمر على قدر العقول.

قيل لأحد الحكماء: ما الأصدقاء؟ قال: نفس واحدة في أجساد متفرقة!.

والعاقل من يصحب الأخيار ويبتعد عن الفجار، لأن صحبة الأخيار تورث الخيرَ، وصحبة الأشرار تورث الشرَّ، كالريح إذا مرت على النَّتْن حَمَلَتْ نَتْناً، وإذا مرت على الطيب حملت طِيباً. والصديق الموافق خير من الشقيق المنافق!. والمودة والأخوة سبب التآلف، والتآلف سبب القوة، والقوة إذا بنيت على تقوى كانت حصناً منيعاً وركناً شديداً ودرعاً واقياً. وقد امتن الله على المؤمنين وذكَّرهم نعمته عليهم بأن جمع قلوبهم على الصفاء، وردَّها بعد الفرقة إلى الإلفة والإخاء ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران: ١٠٣)، ووصف الله نعيم الجنة وما أعدَّ فيها لأوليائه من الكرامة إذ جعلهم إخواناً على سرر متقابلين. ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ (الحجر: ٤٧). وقد سنَّ رسول الله ﷺ الإخاء، وآخى بين أصحابه. وذكر الله أهل النار وما يلقون فيها من الألم إذ يقولون: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ (الشعراء).

* وقال أحد الحكماء: الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين.

* وقدم مسكين الدارمي على معاوية، وسأله أن يفرض له، فأبى، فخرج من عنده وهو يقول:

أخاك أخاك إنَّ من لا أخاً له ... كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاح
وإن ابن عم المرء فاعلم جناحه ... وهل ينهض البازي بغير جناح
وما طالب الحاجات إلا مغرر ... وما نال شيئاً طالب كنجاح

* اقبل معاذير من يأتيك معتذرا — إن برّ عندك فيما قال أو فجرا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهره — وقد أجلّك من يعصيك مستترا

*** ***

* قيل لي: قد أساء إليك فلان — وقعود الفتى على الضيم عار
قلت: قد جاءنا فأحدث عذراً — دية الذنب عندنا الاعتذار

* عربد رجل على قوم فشكوه إلى عمه، فأراد عمه أن يتناوله بالأدب، فقال: إني أسأت وليس معي عقلي، فلا تسيء إلي ومعك عقلك، فصفح عنه.

* قال أبوالحسن علي بن محمد بن مهدي الطبري:

ما ضاع من كان له صاحب — يقدر أن يصلح من شأنه
فإنما الدنيا بسكانها — وإنما المرء بإخوانه

* وقال أيضاً:

إن الزمان زمان سو — وجميع هذا الخلق بو
ذهب الكرام بأسرهم — وبقيت في ليت ولو
فإذا سألت عن الندى — فجوابهم عن ذاك وو!!

* والأخ مرآة أخيه يريه حسناته وسيئاته، والمرء كثير بإخوانه.

* وقد حثُّوا على الاستكثار من الإخوان الصادقين المخلصين، لأنهم ذخر عند الحوادث ومعونة عند الشدائد:

تَكثَّرْ مِنَ الإخوانِ ما اسطعْتَ إنَّهم — عمادٌ إذا استَنْجَدْتَهم وظهورُ
فَمَا بكثيرٍ ألفُ خِلٍّ وصاحب — وإنَّ عَدُوّاً واحداً لكثيرُ

* ومن الأخوة الصادقة يتولد الاتحاد والتعاون والتآزر والتناصر، فيكون الإخوة يداً واحدة أمام العوادي تتكسر على صخرة وحدتهم ضربات أعدائهم.

كونوا جميعاً يا بني إذا اعترى ... خطبٌ ولا تتفرّقوا آحادا
تأبى الرِّماحُ إذا اجتمعن تكسُّرا ... وإذا افترقن تكسّرتْ آحادا

* والصاحب للصاحب كالرقعة في الثوب، إنْ لم تكن مثله شانتْه: «وحلاوة الثوب رقعته منه وفيه». وفي الحديث: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يُخالل» رواه أبوداود والترمذي.

عن المرءِ لا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينهِ ... فَكُلُّ قَرِينٍ بالْمُقَارِنِ مُقْتَدي
وَصَاحِبْ أَولي التقْوَىٰ تَنَلْ مِنْ تُقَاهُمُ ... ولاَ تصْحَبِ الأرْدَىٰ فَتَرْدَىٰ مَعَ الرَّدِي

* أُخذ جماعة من اللصوص وقطاع الطرق فقال أحدهم: أنا كنت مغنياً لهم، فقيل له: غَنّ، فغنّى:

عن المرءِ لا تسألْ وَسلْ عن قرينهِ ... فكلُّ قرينٍ بالمقارنِ يَقْتَدي!

فقيل له: صدقت. وأُمر بقتله!

وقال أحدهم: إذا بلغني موتُ أخٍ لي فكأنما سقط عضوٌ مني.

أنواع الإخوان

* والإخوان صنوف وأشكال فمنهم الطامع ومنهم الباذل، ومنهم المحسن ومنهم المسيء، ومنهم الصادق ومنهم المنافق. قال لقمان: الإخوان ثلاثة، مخالب ومحاسب ومراغب. فالمخالب: الذي ينال من معروفك ولا يكافئك. والمحاسب: الذي ينيلك بقدر ما يصيب منك، والمراغب: الذي يرغب في مواصلتك بغير طمع.

وقال آخر: الإخوان ثلاثة: أخ كالغذاء يحتاج إليه كل وقت، وأخ كالدواء يحتاج إليه أحياناً، وأخ كالداء لا يحتاج إليه أبداً.

وقيل: عليك بصحبة من إن صحبته زانَكَ، وإن خدمته صانَكَ، وإن نزلتْ حاجةٌ ما بك أعانَكَ، وإن سألته أعطاكَ، وإن تركته بداكَ، إن رأىٰ حسنة أظهرها أو سيئة سترها. وقال بعض مَنْ سمع ذلك لابن عيينة: ما أراه إلا أمَرَه أنْ لا يصحبَ أحداً، فقال: بلىٰ إنه أدركَ الناسَ وهذه الأخلاقُ فيهم، فأوصىٰ بقدر ما عرف.

* قال رجل لآخر: بلغني عنك أمرٌ قبيح! فقال: يا هذا، إن صحبة الأشرار ربما أوْرثَتْ سوءَ ظنٍّ بالأخيار. وكان يقال: الجليس الصالح خيرٌ من الوحْدة، والوحدة خيرٌ من الجليس السوء.

* قال سعيد بن حميد:

أقلِلْ عِتابَكَ فالبقاءُ قليل ... والدهرُ يعدلُ مرة ويميلُ
لم أبكِ منْ زمن ذممت صروفه ... إلا بكيتُ عليه حين يزولُ
ولكل نائبةٍ ألمت فُرْجةٌ ... ولكل حال أقبلتْ تحويلُ
والمنتمون إلىٰ الصفاء جماعة ... إن حصّلوا أفناهم التحصيلُ
وأجلُّ أسبابِ المنية والردىٰ ... يومٌ سيقطع بيننا ويحولُ
فلئن سَبقت لتفجعنَّ بصاحب ... حبل الصفاءِ بحبله موْصولُ
ولعل أيامَ البقاءِ قليلةٌ ... فعلامَ يكثر عتبنا ويَطولُ؟

* قال المغيرة بن حبناء:

خذ من أخيك العفو واغفر ذنوبه ... ولا تَكُ في كل الأمور تعاتبهُ
فإنكَ لنْ تلقىٰ أخاكَ مُهذَّباً ... وأيُّ أمرءٍ ينجو من العيب صاحبه
أخوك الذي لا يَنقُض النأي عَهْدهُ ... ولا عند صرف الدهر يَزوَرُّ جانبُه
وليس الذي يلقاك في البشر والرّضا ... وإنْ غِبْت عنه لَسَّعَتْك عقاربه

* كتب شيخ على باب داره: جزى الله عنا من لا نعرفه ولا يعرفنا خيراً، وأما أصدقاؤنا الخاصة فلا جزاهم الله خيراً فإنا لم نُؤْتَ إلا منهم!. وقال رجل لآخر: دُلَّني على رجل أجلس إليه، قال: تلك ضالة لا توجد.

وقال ابن عباس: لجليسي عليَّ ثلاث: أنْ أرْمقه بطرْفي إذا أقبل، وأوسع له إذا جلس، وأصغي له إذا حدَّث.

وكان الأحنف إذا أتاه رجلٌ أوسع له، فإنْ لم يكن له سَعَة، أراه كأنه يوسع له!.

* قال هلال بن العلاء:

لـمَّا عفوتُ ولم أحْقِدْ على أحدٍ ... أرحْتُ نفسي من همِّ العَدَاواتِ

إني أُحَيِّي عدوِّي عند رؤيته ... لأدفعَ الشرَّ عنِّي بالتحياتِ

وأُحْسنُ البِشْرَ للإنْسان أُبْغِضُهُ ... كأنَّهُ قد مَلا قَلْبي مَحبَّاتِ

ولستُ أسْلَمُ ممن لستُ أعْرفُهُ ... فكيفَ أسْلمُ مِنْ أهلِ المودَّاتِ

* وقال تأبّط شراً:

عوى الذئبُ فاستأنسْتُ بالذئبِ إذْ عَوى ... وصوَّتَ إنسانٌ فكِدْتُ أطيرُ

* وقال بعض الحكماء: اتق العدو وكن من الصديق على حذر، فإن القلوب إنما سميت قلوباً لتقلُّبها.

* وقيل: احذر من العدو الفاجر، والصديق الغادر.

* ومما يروى لعلي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه:

صُنِ النفسَ واحملها على ما يزينها ... تعشْ سالماً والقولُ فيك جميلُ

ولا تُرِيَنَّ الناس إلا تجمّلا ... نبابك دهر أو جفاك خليلُ

وإنْ ضاقَ رزقُ اليوم فاصبر إلى غد ... عسى نكباتُ الدهر عنك تزولُ

يعزّ غنيّ النفس إنْ قلَّ مالُه ... ويفنى غني المال وهو ذليلُ

ولا خير في ودِّ امرءٍ متلوِّنٍ ... إذا الريحُ مالتْ مالَ حيث تميلُ

جوادٌ إذا اسْتَغْنَيْتَ عن أخذ ماله ... وعند احتمال الفقر عنك بخيلُ

فما أكثر الإخوانَ حين تعدّهم ... ولكنهم في النائبات قليلُ

* قال أبو الطيب المتنبي :

وأرحمُ أقواماً من العِيِّ والغَبَا ... وأعْذِرُ في بُغْضِي لأنَّهُمْ ضِدُّ

ومن نَكَدِ الدّنيا على الحرِّ أن يرىٰ ... عدوّاً له ما من صداقته بُدُّ!

اختبار الصديق

* وقد نصح العقلاء باختبار الصديق قبل اتخاذه أخاً وصديقاً. وقد قيل: إذا أردت مصافاة رجل فأغضبْه، فإن مَلَكَ نفسه فصاحِبْهُ، وإلاَّ فلا تصاحِبْه. وإذا أردت أن تعرف صاحباً كيف يكون لك فانظر كيف كان لِمَنْ قبلك، فإن أحمدْتَه فاستخصِّه لك، وإن ذَمَمْتَه فَتَنكَّبْه.

إذا المرء لا يراك إلا تكلّفاً ... فدَعْه ولا تُكثرْ عليه التأسفا

ففي الناس أبدال وفي الترك راحة ... وفي القلب صبر للحبيب ولو جفا

فما كلّ مَنْ تهواه يهواك قلبه ... ولا كل مَنْ صافيته لك قد صفا

إذَا لَمْ يكنْ صَفْوُ الودادِ طبيعةً ... فَلاَ خيرَ في وُدٍّ يَجيءُ تَكَلُّفا

ولا خيرَ في خِلٍّ يَخونُ خليلَهُ ... وَيَلْقاهُ مِنْ بَعدِ المودَّةِ بالجَفَا

ويُنْكِرُ عيشاً قد تَقادَمَ عهدُهُ ... ويُظهِرُ سراً كان بالأمسِ قد خَفَا

سَلامٌ علىٰ الدُّنيا إذا لم يكنْ بِهَا ... صديقٌ صَدُوقٌ يَصْدُقُ الوَعْدَ مُنصِفا

* وقد اعتبروا مقدار مودة صاحبك بما عندك له منها. وفي الحديث الشريف: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» رواه البخاري ومسلم.

وقال رجل لآخر: إن فلاناً يقول: إنه يحبني، فبماذا أعلم صدقه؟ قال: امتحن قلبه بقلبك، فإنْ كنت تودّه فإنه يودّك، وإلى هذا المعنى يشير قول الشاعر:

وعلى القلوبِ مِنَ القلوبِ دلائلٌ ... بالودِّ قبلَ تَشاهُدِ الأرواحِ

* وفي وصف الصديق المخلص الذي ينبغي الحرص عليه قال أحدهم:

إنَّ أخاكَ الصدقَ مَنْ يَسعىٰ مَعَكْ ... وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهِ لِيَنْفَعَكْ

وَمَنْ إذَا رَيْبُ الزَّمانِ صَدَعَكْ ... شَتَّتَ فيك شَمْلَهُ لِيَجْمَعَكْ

* قالت أعرابية لابنها: يا بني، إياك وصحبة مَنْ مودته بِشْرُهُ، فإنه بمنزلة الريح!

* قال عمر بن الخطاب: اعتزل عدوّك واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من خَشِي الله.

* وقال أحد الحكماء: إذا لم تستطع أن تقطع يَدَ عدوّك فقبّلْها!

ومن علامات العدو الذي يتزيا بزيّ الصديق، أنه إذا أحدث صداقة لِعِلّة ألجأته إليها، فمع ذهاب العِلّة ترجع العداوة، كالماء يسخَّن، فإذا رُفعَ عادَ بارداً!

صحبة الأحمق

* وقد حذّروا من صحبة الأحمق ومؤاخاة الجاهل، لأنه يريد أن ينفعك فيضرك.

ولا تصحبْ أخا الجهل ... وإيَّاك .... وإيّاهْ

فكمْ من جاهلٍ أردَىٰ ... حليماً حين آخاهُ

يُقاسُ المرءُ بالمرءِ ... إذا ما هو ما شَاهُ

وللشيءِ على الشيءِ مقاييسُ وأشباهُ
ولِلقلبِ على القلبِ دليلٌ حين يَلقاهُ

* قال الشاعر المثقب العبدي:

فإمَّا أنْ تكونَ أخي بحقٍّ فأعرفَ منك غثِّي مِنْ سميني
وإلاَّ فاطّرحني واتخذني عدواًّ أتَّقيك وتتَّقيني
فَمَا أدري إذا يممت أرضاً أريد الخير أيُّهُمَا يليني
أَ ألخير الذي أنا مبتغيه أم الشر الذي هو يبتغيني

* وقال أبو تمام:

مَنْ لي بإنسان إذا أَغْضبتُهُ وجَهِلتُ كان الحِلْمُ رَدَّ جوابه
وَإِذَا صَبوت إلى المُدَام شَربْتُ مَنْ أخلاقهِ وَسَكِرْتُ مِنْ آدابهِ
وتراهُ يُصْغي للحديث بقلبه ويسمعه ولعله أَدْرىٰ بِهِ

تشاؤم

* ولِـمَا ورد من كثرة التحذير من صحبة الناس، وشروط الأخ الناصح والصاحب المخلص، فقد بالغ أناس في التشاؤم واعتبروا أن الأخ الذي تنطبق عليه الشروط وتتوفر فيه آداب الصحبة مفقود. قيل لبعضهم: ما الصديق؟ قال: اسم وضع علىٰ غير مسمّىٰ.

سَمِعْنَا بالصديقِ ولا نراهُ عَلَىٰ التحقيقِ يُوجدُ في الأَنَام
وَأَحسَبُهُ مُحالاً نَمَّقوهُ عَلَىٰ وجْهِ المجازِ مِن الكلامِ

* قال أحد الفضلاء: صحبْتُ الناس خمسين سنة فما وجدت رجلاً غفر لي زلّة، ولا أقَالَ لي عثْرة، ولا ستر لي عوْرة.

وقال آخر: أَقْلِلْ من معرفة الناس، وأنْكِرْ من عَرفْتَ منهم، وإن كان لك مائة صديق فاطرح تسعة وتسعين، وكنْ من الواحد على حذر! وعلى كل حال فيجب أن يعرف العاقل كيف يتعامل مع الناس فهم أشكال وأصناف، وفي مستويات متباينة، وطبيعة الحياة تتطلب أن يخالطهم ويجالسهم، رغم أنه لا خير في الناس ولكن لا بد من الناس!.

* قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما: ادع الله أن يُغْنيني عن الناس، فقال: إن حوائج الناس تتصل بعضها ببعض كاتصال الأعضاء، فمتى يستغني المرء عن بعض جوارحه؟ ولكن قل: أَغْنِني عن شرار الناس.

* أكثر رجل على آخر السلام، وقال له: أنا صديقُك. قال: وكيف؟ قال: لأني أُسَلِّمَ عليك! فأنشأ يقول:

لئن كانَ مَنْ قال: السلامُ عليكُمُ   يُعَدُّ صديقاً فالصديقُ كثيرُ

قال أحدهم:

أحْذرْ عَدوكَ مرةً   واحذر صديقك ألْفَ مَرَّهْ

فلرُبَّمَا انقلب الصديـ   ـقُ فكان أعْلَمَ بالمضَرَّةْ

وقال أعرابي: اللهم احفظني من الصديق! فقيل: كيف؟ قال: لأني متحرّز من العدوِّ!.

* قيل لأعرابي: لِمَ قطعْت أخاكَ من أبيك؟ فقال: إني لأقْطعُ الفاسد من جسدي الذي هو أقرب إليَّ من أبي وأمي، وأعزُّ فقْداً!

التجاوز عن زلاَّت الأصدقاء

* ومما يجب للصديق على الصديق: الإغضاء من زلاَّته والتجاوز عن سيِّئاته وهفواته. قال أحدهم: لا تفتش عن عيب الصديق فتبقى بلا صديق. وأحسن ما قيل في هذا المعنى قول بشار:

إذَا كُنْتَ في كلِّ الأمورِ مُعَاتِباً صديقَك لم تلْقَ الّذي لا تُعَاتِبُهُ
فَعِشْ واحداً أَوْ صِلْ صديقَك إنَّهُ مُقارفُ أمْرٍ مرةً ومُجانبُهُ
إذَا أَنْتَ لَمْ تَشْربْ مِرَاراً عَلَىٰ القَذَىٰ ظَمِئْتَ، وأيُّ الناسِ تَصْفُو مشاربُهُ!

وقالوا: معاتبة الصديق خيرٌ من فَقْدِهِ.

* والإخوان - إذا صفا الودُّ بينهم وتوثَّقت المحبة من قلوبهم - لا يحتاجون فيما بينهم إلىٰ المداراة والتملق وأن يتزلف أحدهم للآخر. قال الشافعي رحمه الله: ليس بأخيك من احْتجْتَ إلىٰ مُدَاراته!

* مدح أعرابي صديقاً فقال: مجالسته غنيمة، وصحبته سليمة، ومؤاخاته كريمة، هو كالمسك، إنْ بعته نفق، وإن تركْتَه عَبَق!

* ومن مقتضيات الأخوة الصادقة: المشاركة في السراء والضراء.

* رأىٰ حكيمٌ رجلين لا يفترقان فسأل عنهما فقيل: هما صديقان، قال: ما بال أحدهما غني والآخر فقير؟!

* وقال أحد الحكماء: أيدخل أحدكم يده في كُمّ أخيه فيأخذ حاجته؟ قالوا: لا، قال: فلستم إذاً بإخوان. ولعل هذه الحالة قد ظهرت وتجلَّت حقيقة وواقعاً في صدر الإسلام حينما آخىٰ رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وكان من آثار تلك المؤاخاة من الكرم والإيثار والبذل ما لم تَرْقَ إليه أية أخوة أو صداقة عرفها الناس علىٰ مدار التاريخ.

* والأخ المخلص لا تتغير أخلاقه بتغير حاله وارتفاع قدْره ونمو ماله، فهو يبقىٰ ذاكراً الجميل ومعترفاً للإخوان بالفضل، بُشِّر أحدهم بالخلافة فسجد مَنْ حوله شكراً لله علىٰ ذلك، غير رجل، فقال له الملك، ما منعك أن تسجد معي؟ قال: إني معك ليلاً ونهاراً، وغداً ترقىٰ إلىٰ السماء فتُنْكِرني، قال: بل أصعد بك! فقال: أما الآن فإني أسجد عشرين سجدة!.

* قال أبو تمام:

إن الـكـرامَ إذَا مَـا أيْـسـروا ذَكُـروا … مَـنْ كان يَـأْلفُـهـم في المـنـزلِ الخَشِـنِ

* كان عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، صديقاً للحسين بن عبدالله بن عبيدالله بن عباس بن عبدالمطلب، وكانا يُرميان بالزندقة، فجرىٰ بينهما شيء فقال له:

وإنَّ حسيناً كان شيئاً مَلَفَّفاً … فكشَّفه التمحيص حتَّىٰ بَدَا لِيا

فَأنتَ أخي مَا لَمْ تَكُنْ لي حاجة … فإنْ عرضت أيقنت أن لا أخاليا

فلاَ زَادَ مَا بيني وبينك بعد ما … بلوتك في الحاجاتِ إلاَّ تماديا

فلستُ براء عيب ذي الودِّ كلِّه … ولا بعض ما فيه إذا كنت راضيا

فعين الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلة … ولكنَّ عين السُّخطِ تُبدي المساويا

ولستُ بهيّاب لمن لا يهابُني … ولستُ أرىٰ للمرء ما لا يرىٰ ليا

فإنْ تَدْنُ مني تَدْنُ منك مودتي … وإن تَنْأ عني تلْقَني عنك نائيا

كلانا غني عن أخيه حياته … ونحن إذا متنا أشد تغانيا

* يقول أحمد شوقي:

جامل الناس تحز رقّ الجميعْ … ربَّ قيد من جميلٍ وصنيعْ

عامل الكل بإحسانٍ تُحبْ … فقديماً جمَّل المرءَ الأدبْ

وتجنَّب كل خلقٍ لم يرقْ … إن ضيق الرزق من ضيق الخلق

اطلب الحق برفقٍ تُحمدِ … طالب الحق بعنفٍ معتدِ

* يقول ابن الوردي:

إذا كـــرهـــت مـــنـــزلا ... فـــدونـــك الـــتـــحـــولا
وإن جـــفـــاك صـــاحـــبٌ ... فـــكـــن بـــه مـــســـتـــبـــدلاً
لا تحـــتـــمـــل إهـــانـــةً ... مـــن صـــاحـــب وإن عـــلا
فـــمـــن أتـــىٰ فـــمـــرحـــبـــا ... ومـــن تـــولّـــىٰ فـــإلـــىٰ

* يقول محمد بن سعد الشريف:

يـقـول الـصـحـبُ مـالـكَ لا تـزورُ ... أمـانـعـك انـشـغـالٌ أم غـرورُ؟
أم الأمـوالُ ضـاق بـهـا رصـيـدٌ ... فـتـمـضـي لا نـقـابـلـكـم شـهـورُ
ولـو أنـا نـعـامـلـكـم بمـثـلٍ ... بـقـيـنـا لا نُـزار ولا نـزورُ
فـمـن طـبـعـي الـوفـاء ولـيـس طـبـعـي ... يـدورُ مـن المـصـالـح إذ يـدورُ
ألـم تـر أن صـيـاد الـضـواري ... يـكـون رفـيـقـه كـلـبٌ عـقـورُ؟
أنـا والـلـه أهـوىٰ كـل خـلّ ... يـقـدِّرنـي ولـو حـالـت دهـورُ
يـقـيـل الـعـثـرة الـكـبـرىٰ كـريـماً ... ويـسـتـر حـين تـنـكـشـف الأمـورُ

* قسَّمَ الخليلُ بن أحمد أحوال الناس فيما علموه أو جهلوه إلىٰ أربعة أقسام متقابلة، لا يخلو حال الإنسان منها، فقال: الرجال أربعة:

- رجل يدري، ويدري أنه يدري فذلك عالم فاسألوه.
- ورجل يدري، ولا يدري أنه يَدْري، فذلك ناسكٌ فذكِّروه.
- ورجل لا يدري، ويدري أنه لا يدري، فذلك مُسْتَرْشدٌ فأرشدوه.
- ورجل لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري، فذلك جاهلٌ فارفضوه.

* فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة | وإن كنت تدري فالمصيبةُ أعظمُ

* لا يغرَّنك في المرء قميصٌ رقّعَهْ | أو إزارٌ فوق حدّ الساق منه رفَّعهْ
أو جبينٌ لاح فيه أثرٌ قد قلَّعهْ | ولدئ الدرهم فانظر غيَّه أو ورعهْ

* قال أبو العتاهية :

إني شكرت لظالمي ظلمي | وغفرتُ ذاكَ له على علمي
ورأيتُه أسدئ إليَّ يداً | لمَّا أبان بجهله حلمي
رَجعَت إساءَته عليه وإحـ | ـساني فعاد مُضاعف الجُرم
وغدوتُ ذا أجْرٍ ومحمدة | وغدا بكسب الظلم والإثم
فكأنما الإحسان كان له | وأنا المُسيء إليه في الحُكم
ما زال يظلمني وأرحمه | حتئ بكيت له من الظلم

* قال أحدهم لصديقه : هل صديقنا محمد رجل أمين؟ فأجابه صديقه : إنه أمين جداً، وأنا أأتمنه على حياتي . فقال : قصدي أن أقول : هل يؤتمن على شيء له قيمة؟!

تأملات

نظرية النسبية

* كانت سكرتيرة أينشتاين تتلقى في كل يوم مئات من الأسئلة عن معنى النسبية، فأراد العلامة أن يعينها على ذلك فقال لها أن تردّ على كل سؤال من هذا القبيل بما يلي : إذا جلست مع فتاة حسناء ساعتين خلتهما دقيقة واحدة! وإذا جلست مع عجوز شمطاء دقيقة واحدة خلتها ساعتين!

* أصعب شيء أن يعرف الإنسان نفسه، وأسهل شيء أن ينصح غيره!

الصبر... والشجاعة

* الشجاعة صبر ساعة، وقد جمع الله تعالىٰ بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)﴾ (الأنفال: ٤٥-٤٦)، جميع ما يحتاج إليه في الحرب. والشجاعة عماد الفضائل، ومن فقدها لم تكمل فيه فضيلة.

* والرجال ثلاثة: فارس وشجاع وبطل، فالفارس الذي يشدّ إذا شدّوا، والشجاع الداعي إلىٰ البراز والمجيب داعيه، والبطل الحامي لظهورهم إذا انهزموا.

* وقد أمر الله بالإقدام: وحذّر من الإحجام وحث علىٰ الثبات والملاقاة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥)﴾ (الأنفال: ١٥)، وقال أبوبكر الصديق رضي الله عنه لخالد بن الوليد لما أخرجه لقتال أهل الردة: احرصْ علىٰ الموت توهبْ لك الحياة!.

* وفي وصية أكثم بن صيفي لقومه إذْ أرادوا حرباً: أقِلّوا الخلافَ لأمرائكم، واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل، والمرء يعجز لا محالة، وادّرّعوا الليلَ فإنه أخفىٰ للويل.

* وقال قبيصة بن مسعود يحذر بكر بن وائل: الجزع لا يغني من القدر، والصبر من أبواب الظفر، والمنية ولا الدنية، واستقبال الموت خير من استدباره، والطعن في الثغر أكرم منه في الدبر، وهالك معذور خير من ناج فرور.

* والحرب تتطلب استعمال الحيلة والخدعة والحذر، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «الحرب خدعة» متفق عليه.

* ومن الحزم ألا يحتقر الرجل عدوه، وإن كان ذليلاً، ولا يغفل عنه وإن كان حقيراً، فكم برغوث أسهر فيلاً، ومنعَ الرقاد مَلِكاً جليلاً!.

فلا تَحْقِرنَّ عدواً رَمَاكَ ... وإنْ كانَ في ساعديهِ قِصَرُ
فإنَّ السيوفَ تحزّ الرقابَ ... وتعجز عمَّا تنالُ الإبَرُ

الثقة بالنفس

* والشجاع يبادر للحرب غير مبال بها: لثقته بنفسه وعزمه على التغلب على عدوه. لكنه في نفس الوقت يفرق بين الشجاعة والتهور، والإقدام، وانتظار الفرصة المناسبة لينقض.

* وصف أعرابي قوماً فقال: ما سألوا قط كم القوم، وإنما يسألون، أين هم؟

* وسأل رجل يزيد بن المهلب فقال: صف لي نفسك، قال: ما بارزت أحداً إلا ظننت أن روحه في يدي.

* وقال علي رضي الله عنه: أبالموت تُخوّفوني؟ فوالله ما أُبالي أسقطتُ على الموت أم سَقَطَ عليَّ!

* وقال خالد بن الوليد عند موته: لقد لقيتُ كذا وكذا زَحْفاً وما في جِسْمي موضعُ شِبْرٍ إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمْية بسهم، ثم هاأنذا أموتُ على فراشي كما يموت العَيْر ـ الحمار الوحشي والأهلي ـ! ، فلا نامتْ أعْينُ الجبناء.

* والشجاع بإقدامه يدفع عن نفسه العار والشدة، وينشد لنفسه وقومه الأمان وإن كان للموت كارهاً ومن المنية هارباً.

* قال يزيد بن المهلب يوماً لجلسائه: أراكم تعنِّفوني في الإقدام! فقالوا: أي والله، إنك لترمي نفسك! فقال: إليكم عني فوالله لم آت الموت من حبه ولكني آتيه من بغضه، وإن لم آت الموت مُسْتَرْسلاً أتاني مستعجلاً، ثم تمثل بقول الحصين ابن الحمام:

تأخَّرْتُ أسْتَبْقي الحياةَ فَلَمْ أجِدْ ... لنفسي حياةً مثلَ أنْ أتَقَدَّمَا

* قَدِم وفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه بفتْح، فقال: متى لقيتم عدوكم؟ قالوا: أول النهار. قال: فمتى انهزموا؟ قالوا: آخر النهار، فقال: إنا لله! أوَ قام الشركُ للإيمان من أول النهار إلى آخره؟! والله إنْ كان هذا إلاَّ عن ذنب أحدثتموه بعدي، أو أحدثْتُه بعدكم، ولقد استعملتُ يَعْلى بن أمية على اليمن أستنصر لكم بصلاحه.

العزم والتصميم

* وللعزم والتصميم والإصرار تأثير على نفسية الأعداء، وفلّ عزائمهم وله كذلك دور كبير في النصر ولو لم تتكافأ القوى وتتقارب الأعداد والعدة.

* بعث أمير في طلب قوم رجلاً فما لبث أن جاءه برجل أطول ما يكون، فقال: كيف تمكنت منه؟ قال: وقع في قلبي أن آخذه، ووقع في قلبه أنه مأخوذ، فنصرني عليه خوفه وجراءتي. فكنّا أنا ونفسه عوناً عليه.

* وقيل لبعضهم: إن في عسكر الأعداء ألف مقاتل. فقال: إن القصاب الحاذق وإن كان واحداً لا يهوله كثرة الغنم!

كالليث لا يَثْنيه عن إقْدامِهِ　　　خوفُ الأذىٰ وقعاقعُ الأعداء

* قال النابغة يمدح قوماً بالشجاعة والإقدام:

ولا عيبَ فيهم غير أنّ سيوفهم　　　بهنّ فلولٌ من قراعِ الكتائب

* وصف أعرابي رجلاً بتحمّل الشدائد ومقارعة الخطوب فقال: كان ركوباً للأهوال غير ألوف للظلال.

* قيل لعبدالملك: من أشجع العرب في شعره؟ فقال: عباس بن مرداس حين يقول:

أشدُّ على الكتيبة لا أبالي　　　أحَتفي كان فيها أم سواها

وهذا أشجع بيت قالته العرب.

* وجلس مسلمة بن عبدالملك يوماً ليقضي بين الناس، فكلمته امرأة، فلم يُقْبل عليها، فقالت: ما رأيت أقلَّ حياءً من هذا قطّ! فكشف عن ساقه فإذا فيها أثر تسع طعنات فقال لها: هل ترين أثر هذا الطعن؟ والله لو أخَّرت رِجْلي قيد شبر ما أصابتني واحدة منهن، وما منعني من تأخيرها إلا الحياء!

* وكان المعتصم قوياً جلْداً، قيل إنه كان يشدّ يده على كتابة الدينار فيمحوها! ويأخذ عمود الحديد فيلويه حتى يصير طوقاً في العنق!.

غزالة الخارجية

* وكانت غزالةُ امرأةُ شبيب الخارجي نذرت أن تصلي في جامع الكوفة ركعتين تقرأ في الأولى البقرة وفي الثانية آل عمران، فعبر بها جسر الفرات وأدخلها الجامع ووقف على بابه يحميها حتى وفت بنذرها! والحجاج في الكوفة في خمسين ألفاً ويود لو ظفر برأسه. وكانوا يعيّرون الحجاج بهذا الموقف، وقالوا في ذلك:

* أسد عليَّ وفي الحروبِ نعامة ... فتخاءُ تنفِر من صفير الصافر

هلا كررْتَ على غَزَالة في الوَغَى ... بل كان قلبك في جوانح طائر!

* وأُسرت أم علقمة الخارجية وأُتي بها إلى الحجاج، فقيل لها: وافقيه في المذهب فقد يظهر الشرك بالمكر. فقالت: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦)﴾ (الأنعام: ٥٦)، فقال لها: قد خبطت الناس بسيفك يا عدوة الله خبط العشواء، فقالت: لقد خفتُ الله خوفاً صيَّرك في عيني أصغر من ذباب! وكانت منكسة رأسها، فقال: ارفعي رأسك وانظري إليَّ! فقالت: أكره أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه! فقال: يا أهل الشام ما تقولون في دم هذه؟ قالوا: حلال! فقالت: لقد كان جلساء أخيك فرعون أرحم من جلسائك حيث استشارهم في أمر موسى فقالوا: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ (الأعراف: ١١١) فقتلها.

* روي أن بعض العمال بعث لأحد الملوك بجارية اشتراها بعشرة آلاف دينار، فلما استحضرها الملك وأنس بها، دخل عليه رسول عامله بأن أحد الأبطال خلعه، فأجاب عن كتابه وجعل يقلب كفيه وقال لها: إن ما دونك مُنية المتمني، فقالت: وما يمنعك؟ قال: قول الشاعر:

قومٌ إذا حاربوا شَدُّوا مآزرَهم ... دون النساء ولو باتَتْ بأطْهارِ

فلم يقربها، حتى أتاه خبر قتل عدوه!

* والأبطال لا يقاتلون الأنذال ومن ليس بمستواهم. يروى أن بعضهم قصد موضعاً فحاربته النساء فكفّ عنهن، فقيل له في ذلك. فقال: هذا جيش إذا غلبناه فما لنا به من فخر، وإن غَلَبَنا فتلك فضيحة الدهر!

* وقد عابوا على الرامي إذا كان لا يجيد الإصابة، نظر فيلسوف إلى رام، تذهب سهامه يميناً وشمالاً، فقعد في موضع الهدف! وقال: لم أر موضعاً أسْلَم من هذا!. ورمى ملكٌ عصفوراً فأخطأه، فقال له صاحبه: أحسنت! فقال: أحسنتُ إلى العصفور!!

الجبناء.. والمنهزمون

* ومما يروى في التعيير بالانهزام والهروب، أن الحجاج قال لأصحابه: ولّيتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها، النوازع إلى أعطانها، ألا يلوي الشيخ على بنيه ولا يسأل المرء عن أخيه؟!

* وقال المنصور لأحد الخوارج: عرِّفني مَنْ أشدّ أصحابي إقداماً، فقال: لا أعرفهم بوجوههم، فإني لم أر إلا أقفاءهم!

* والجُبْن والخوف من الصفات القبيحة التي يترفع عنها أولو النفوس الكريمة، وقد استعاذ نبينا المصطفى ﷺ من الجبن فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجُبْن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدَّيْن وقهر الرجال» (رواه الخمسة). ويكفي أن يُقال في وصف الجبان: إنْ أحسَّ بعصفور طار فؤاده، وإن طنَّت بعوضة طالَ سُهاده، يفزع من صرير الباب، ويقلق من طنين الذباب، إن نظرْتَ إليه شزراً أُغمي عليه شهراً، يحسب خفوق الرياح قعقعة الرماح!!.

إذا صوَّتَ العصفورُ طار فؤادُه ... ولَيْثٌ حديدُ النَّاب عند الثَّرائدِ

* قيل لأحد الجبناء: لم لا تغزو؟ فقال: إني أكره الموت على فراشي فكيف أسعى إليه برجلي؟!

* وقيل لرجل: إنك انهزمت. فقال: غضبُ الأمير عليَّ وأنا حيٌّ خير من أن يرضى وأنا ميت!.

* وقيل لرجل انهزم من إحدى المعارك: ما خبر الناس؟ فقال: من صبر أخزاه الله ومن انهزم نجّاه الله!

* وقيل: الشجاع يقاتل من لا يعرفه، والجبان يفر من عرسه، والجواد يعطي من لا يسأله، والبخيل يمنع من نفسه.

يَفرُّ جَبانُ القومِ عن أمِّ نفسه ... ويحمي شجاعُ القومِ من لا يُناسبُه

* وقع في بعض العساكر ضجّة فوثب جبان إلى دابته ليلجمها، فصيَّر اللجام في الذَّنَب من الدهش، وقال يخاطب الفرس: هب جَبْهتك عرضت فناصيتك كيف طالت!

ويَكادُ من شبهِ العَذارى فيه ... أنْ تَبْدُو نُهُودَه

نَاطُوا بِمَقْعدِ خِصْره ... سيفاً ومِنْطقة تَؤُوده

جَعَلوه قَائدَ عَسْكر ... ضلَّ الرعيلُ ومَنْ يَقُوده

* ولم يقُلْ أحد في وصف الجُبْن والفرار مثل قول الطرمّاح:

تميم بطُرْق اللؤم أهْدىٰ مَن القطا ... ولو سَلَكتْ سبل المكارم ضَلَّتِ

ولو أنَّ بُرغوثاً على ظَهْرِ قَمْلة ... رأته تميم يوم زَحْفٍ لَولَّتِ!

وقد اعتبروا أن الشجاع إذا فرَّ مرة أو مرتين لا يعيبه ذلك وليس مطعناً، وأسلوب الكرّ والفرّ معروف ومتّبع.

* قال عمر رضي الله عنه: إن الشجاعة والجبن غرائز في الرجال، تجد الرجل يقاتل عمن لا يبالي ألاّ يؤوب إلى أهله، وتجد الرجل يفرُّ عن أبيه وأمه، وتجد الرجل يقاتل ابتغاء وجه الله فذلك هو الشهيد.

* أُتي الحجاج بدوابّ من دوابّ أمية قد وُسم على أفخاذها: عُدّة، فأمر أن يكتب تحت ذلك: للفرار!

* لما حاصر الملك محمد ملكشاه السلجوقي بغداد سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة جدّ المقتفي لأمر الله في حفظ بغداد، وقام وزيره عون الدين بن هبيرة في هذا الأمر، المقام الذي يعجز عنه غيره، وأمر المقتفي فنودي ببغداد: من جرح وقت القتال فله خمسة دنانير، فكان كل من جرح يوصل ذلك إليه، فحضر بعض العامة عند الوزير مجروحاً فقال الوزير: هذا جرح صغير لا تستحق عليه شيئاً، فعاد إلى القتال فضُرب في جوفه فخرجت أمعاؤه، فعاد إلى الوزير فقال: يا مولانا الوزير يرضيك هذا؟! فضحك منه وأمر له بصلة، وأحضر له من يعالجه!

* أقبل أعرابي إلى عبدالله بن الزبير، فقال: أعطني، وأقاتل عنك أهل الشام!، فقال له: اذهب فقاتل، فإن أغنيت أعطيناك!، قال: أراك تجعل روحي نقداً، ودراهمك نسيئة!

* قال أفلحُ التركي: خرجنا إلى حرب، ومعنا رجل كان يقول: أنا أتمنى أن أرى الحرب كيف هي!. فأخرجناه معنا، فأول سهم جاء وقع في رأسه!. فدعونا له معالجاً، فنظر إليه، وقال: إن خرج الزَّجُّ وفيه شيء من دماغه مات. وإن لم يخرج عليه شيء من دماغه لم يكن عليه بأس!، فقام إليه فقبَّل رأسه، وقال: بشَّرك اللهُ بخير!. انزَعْهُ، فما في رأسي دماغ!، فقال الطبيب: وكيف ذلك؟ قال: لو كان فيَّ ذرَّةٌ دماغ ما كنتُ هاهنا!.

* حكى أبوعلي الفارسي النحوي قال: دخلت مع شيخنا أبي إسحاق على القاسم بن عُبيد الله الوزير، فورد الخادم فسارَّه بسرٍّ استبشر له، ثم نهض فلم يكن بأسرع من أن عاد وفي وجهه أثر الوجوم! فسأله شيخنا عن ذلك، فقال له: كانت تختلف إلينا جارية لإحدى القَيْنَات، فَسُمْتُها أن تبيعني إياها، فامتنعت من ذلك، ثم أشار عليها أحد مَن ينصحها بأن تهديها إليَّ رجاء أن أُضاعف لها ثمنها، فلما جاءت أعلمني الخادم بذلك، فنهضت مستبشراً لافتضاضها! فوجدتها قد حاضت! فكان مني ما ترى! فأخذ شيخنا الدواة وكتب:

فَـــارِسٌ مـــاضٍ بـــحَـــرْبَـــتِـــهِ   حَـــاذِقٌ بـــالـــطَّـــعْـــنِ بـــالـــظُّـــلَـــمِ
رَامَ أن يُـــدمـــي فـــريـــسَـــتَـــهُ   فَـــاتَّـــقَـــتْـــه مـــن دمٍ بِـــدَمِ

القوة

يروىٰ في الأساطير أن نقاشاً جرىٰ بين الريح والشمس علىٰ أيهما الأقوىٰ، فتحدت الريح الشمس في امتحان قوتها، وتصادف أن مرّ رجل كان يرتدي معطفاً، فأعلنت الريح أن القوي هو الذي يمكنه أن يجبر هذا الرجل علىٰ خلع معطفه. وبدأت الريح محاولتها وهي واثقة من نفسها، فما هي إلا لحظات حتىٰ اشتدت سرعة الريح وقامت عاصفة بالغة القوة اقتلعت الأشجار وهدمت بعض البيوت وتلاعبت بالسفن في البحار، ولكن الرجل المقصود كان علىٰ العكس يزداد تشبثاً بالمعطف الذي يرتديه.. وبعد ساعة هدأت العاصفة وأعلنت الريح فشلها. ودخلت الشمس السباق فبدأت تسطع تدريجياً في هدوء، وتزيد من أشعتها وحرارتها ودفئها.. وقد فعلت ذلك دون جلبة أو ضوضاء.. وما هي إلا دقائق حتىٰ شعر الرجل بأن المعطف الذي يرتديه سوف يخنقه من الحر ففك إزراره، ولكنه وجد أن الشعور بالحر مازال مستمراً فلم يجد بداً من خلعه. وحمل الرجل المعطف علىٰ يديه وسار وهو يشعر بالسعادة تغمره، فقالت الريح: غلبتني يا شمس.. كنت أعتقد أن القوة هي الوسيلة الوحيدة لتحقيق الهدف وإنها أهم أسباب النجاح، وقد استخدمت كل قوتي مع الرجل ولكنني فشلت في خلع المعطف عن جسمه، وجئت أنت يا شمس بهدوئك وأرغمته علىٰ أن يخلعه بنفسه. قالت الشمس: ليس من الممكن أن نحقق كل أهدافنا بالقوة.. صحيح أن القوة مطلوبة في بعض الأحيان ولكن هناك أشياء لا يمكن كسبها بالقوة وإنما بالسياسة وبالهدوء!

* وكان أغلب الشجعان يتمتعون بقوة جسمية وبدنية كبيرة، واشتُهر عنهم قوة الصوت وعلوّه ولهم في ذلك حوادث عجيبة.

* كان العباس بن عبدالمطلب يقف علىٰ جبل سَلْع فينادي غلمانه وهم بالغابة

فُيسمعهم، وذلك من آخر الليل، وبين الغابة وبين سلع ثمانية أميال. وكان شبيب بن ربعي مؤذن سجاح التي تنبَّأتْ، يَتَنَحْنَح في داره فيُسْمَعُ تنحْنُحهُ من مكان بعيد، وكان يصيح براعيه فيُسمع نداؤه من مسافة فرسخ!

أبومحجن

* كان سعد بن أبي وقاص على ظهر بيت يوم القادسية وهو مريض والمشركون يفعلون بالمؤمنين ويفعلون، وأبومِحْجَن في الوَثَاق عند أُمِّ ولَد لسعد، فقالت له أم ولد سَعْد لمّا رأت تحمّسه: أتجعل لي إنْ أنا أطلقتك أنْ ترجع إليَّ حتى أعيدك في الوثاق؟ قال: نعم. فأطلقته فركب فرساً بَلْقاء لسعد، وحمل على المشركين فجعل سعد يقول: لولا أن أبا محجن في الوثاق لظننت أنه أبومحجن وأنها فرسي!، فانكشف المشركون وجاء أبو محجن فأعادته في الوثاق وأتت سعداً فأخبرته، فأرسل إلى أبي محجن فأطلقه، وقال: والله لا حَبَسْتُك فيها أبداً. يعني الخمر. فقال أبومحجن: وأنا والله لا أشربها بعد اليوم أبداً.

أبو حنيفة النميري

* كان لأبي حنيفة النُّميري سيف ليس بينه وبين الخشبة فرق! وكان يسميه لُعَاب المنية!، قال أحد جيرانه: أشرفتُ عليه ليلة وقد انْتضاه وشمّر وهو يقول: أيّها المغترّ بنا والمجترئ علينا، بئس والله ما اخترت لنفسك، خيرٌ قليل، وسيف صقيل، لعاب المنية الذي سمعت به، مشهورة ضربته ولا تُخاف نبْوَته، أخرج بالعفو عنك وإلا دخلتُ بالعقوبة عليك. إني والله إن أدْعُ قيساً تملأ الأرض خيلاً ورَجْلاً، يا سبحان الله ما أكثرها وأطيبها! ثم فتح الباب فإذا كلب قد خرج!!. فقال: الحمد لله الذي مسخك كلباً وكفاني حرباً!!.

أبو الأغر

* نزل شيخ أعرابي من بني نهشل يكنى أبا الأغرَّ على بنت أخت له من قريش بالبصرة، وذلك في شهر رمضان، فخرج الناس إلى ضياعهم، وخرج النساء يصلين في المسجد، ولم يبق في الدار إلا الإماء، فدخل كلب فرأى بيتاً فدخله، وانصفق الباب،

فسمع الإمام الحركة فظن لصاً دخل الدار فذهبت إحداهن إلىٰ أبي الأغر فأخبرته، فأخذ عصا ووقف علىٰ باب البيت، فقال: إيهاً والله! إني بك لعارف، فهل أنت من لصوص بني مازن، وشربت نبيذاً حامضاً خبيثاً حتىٰ إذا دارت الأقداح في رأسك منّتك نفسك الأماني، فقلتَ: أطرقُ دور بني عمرو، والرجال خلوف، والنساء يصلين في مسجدهن فأسرقهن، سوءةً لك! والله ما يفعل هذا حرٌ، بئسما منتك نفسك! فاخرج بالعفو عنك، وإلا دخلت بالعقوبة عليك، وأيم الله! لتخرجنَّ أو لأهتفن هتفة يلتقي فيها الحيان عمرو وحنظلة، ويصير زيد زيداً، وتجيء سعد بعدد الحصىٰ، وتسيل عليك الرجال من ها هنا وها هنا، ولئن فعلت لتكوننّ أشأم مولود في بني تميم! فلما رأىٰ أنه لا يجيبه، أخذه باللين، فقال: اخرج بأبي أنت وأمي منصوراً مستوراً، وإني والله ما أراك تعرفني، ولئن عرفتني لوثقت بقولي واطمأننت إليَّ، أنا أبو الأغر النهشليّ، وأنا خال القوم، وجلدة ما بين أعينهم، لا يعصون لي رأياً، وأنا خفير كفيل أجعلك شحمة بين أذني وعاتقي، فاخرج فأنت في ذمتي، وإلا فعندي قوصرتان «وعاء التمر»، أهداهما إليَّ ابن أختي البار الوصول، فخذ إحداهما حلالاً من الله! وكان الكلب إذا سمع هذا الكلام أطرق، وإذا سكت وثب يريد الخروج، فاغتاظ أبوالأغر ثم قال: يا ألأم الناس، أراني بك الليلة في واد وأنت في آخر، وأنت في داري، أقلُبُ البيضاء والصفراء، فتصيح وتطرق، وإذا سكت عنك وثبت تريد الخروج، والله لتخرجنّ أو لألجنَّ عليك. فلما طال وقوفه، جاءت جاريةٌ وقالت: أعرابي مجنون! والله ما أرىٰ في البيت أحداً، ودفعت الباب، فخرج الكلب مبادراً، ووقع أبو الأغرّ مُستلقياً، فقلن له: قم ويحك! فإنه كلب، فقال: الحمدُ لله الذي مسخهُ كلباً، وكفىٰ العرب حرباً!.

* قال عنترة يتوعد النعمان بن المنذر ملك العرب ويفتخر بقومه بني عبس:

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ... ولا ينال العُلىٰ من طبعه الغضبُ
لله درّ بني عبس لقد نسلوا ... من الأكارم ما قد تنسلُ العربُ
قد كنتُ فيما مضىٰ أرىٰ جمالهم ... واليوم أحمي حماهم كلما نُكبوا

لئن يعيبوا سوادي فهو لي نسبٌ ... يوم النزال إذا ما فاتني النسبُ
إنْ كنت تعلم يا نعمان أنَّ يدي ... قصيرةٌ عنك فالأيام تنقلبُ
إن الأفاعي وإن لأنتْ ملامسها ... عند التقلب في أنيابها العطبُ
اليومَ تعلم يا نُعمان أيّ فتىٰ ... يلقىٰ أخاك الذي قد غرَّه العصبُ
فتىً يخوضُ غمار الحرب مُبْتسماً ... وينثني وسنانُ الرمح مختضبُ

* قال ابن نباتة السعدي الشاعر:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره ... تعدَّدت الأسباب والموت واحد

* وابن نباتة هذا غير ابن نباتة خطيب سيف الدولة الحمداني الذي ألَّف ديوان الخطب المشهور، يروي ابن خلكان عنه قوله: كنتُ يوماً في دهليزي فدُق عليَّ الباب، فقلت: من؟ قال: رجل من أهل المشرق. قلت: ما حاجتك؟ فقال: أنت القائل: «وذكر البيت»؟ فقلت: نعم، قال: أرويه عنك؟ قلت: نعم. فمضىٰ. فلما كان آخر النهار، دق عليَّ الباب. فقلت: من؟ قال: رجل من أهل المغرب. فقلت: ما حاجتك؟. فقال: أنت القائل «وذكر البيت»؟ قلت: نعم. قال: أرويه عنك؟ قلت: نعم. وعجبت كيف وصل إلىٰ المشرق والمغرب! ويعلق الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله علىٰ القصة بالقول: ودعاية الأدباء لأنفسهم قديمة!.

تأملات

* قد تكون المصائب في بعض الأحيان رحمة في لباس عذاب! والمِحَن قد تحمل في طياتها المِنَح.

* قد تلد المآسي عبقرياً.

* لن تستطيع أن تمنع طيور الهمّ من أن تحلق فوق رأسك، ولكنك تستطيع أن تمنعها من أن تعشش في رأسك!

الشهيد

للشاعر إبراهيم طوقان:

عَبَسَ الخَطْبُ فابتَسَمْ ... وطَغَى الهَوْلُ فاقتَحَمْ
رابِطَ الجأْشِ[1] والنُّهَى[2] ... ثابِتَ القلبِ والقَدَمْ
لَمْ يُبالِ الأذى ولَمْ ... يَثْنِهِ طارئُ الألَمْ
نَفْسُهُ طَوْعُ هِمَّةٍ ... وَجَمَتْ[3] دونَها الهِمَمْ
تَلْتَقي في مِزاجِها ... بالأعاصيرِ والحُمَمْ
تَجمعُ الهائجَ الخِضَمَّ ... إلى الرّاسِخِ الأشَمّْ[4]
وَهِيَ مِنْ عُنصرِ الفِدا ... ءِ ومن جَوْهرِ الكَرَمْ
ومِنَ الحقِّ جَذْوَةٌ[5] ... لَفْحُها حَرَّرَ الأُمَمْ

*** ***

سارَ في منهجِ العُلا ... يَطْرُقُ الخُلْدَ مَنْزِلا
لا يُبالي مُكَبَّلا ... نالَهُ أمْ مُجَدَّلا[6]

فَهْوَ رَهْنٌ بِما عَزَمْ

رُبَّما غالَهُ[7] الرَّدَى ... وهُوَ بالسِّجنِ مُرْتَهَنْ[8]
لَمْ يُشَيَّعْ بدمعةٍ ... مِن حبيبٍ ولا سَكَنْ[9]
رُبَّما أُدرجَ الثَّرا ... بَ سَليباً مِنَ الكَفَنْ
لستَ تدري بِطاحُها ... غَيَّبَتْهُ أمِ القُنَنْ[10]
لا تَقُلْ أينَ جِسْمُهُ ... واسْمُهُ في فمِ الزَّمَنْ

إنــــه كـــوكـــبُ الـــهُــدىٰ لاحَ في غَـيْـهَـبِ(١١) الـمِـحَـنْ

أرسـل الـنـور فـي الـعـيـو نِ فـمـا تـعـرفُ الـوَسَـنْ(١٢)

ورَمَـىٰ الـنَّـارَ فـي الـقـلـو بِ فـمـا تَـعـرفُ الـضَّـغَـنْ

*** ***

أيُّ وجـهٍ تـهـلَّـلا يَـردُ المـوتَ مُـقْـبِـلاً

صَـعَّـدَ الـروحَ مُـرسِـلاً لحـنَـه يُـنـشِـدُ الـمَـلا(١٣)

أنـا لـلـهِ والـوطـنْ

تأملات

* من شاور عاقلاً أخذ نصف عقله!

* عندما يصدأ الرأي تصقله المشورة!

* كن بطيئاً في المشاورة، سريعاً في التنفيذ.

* الشورىٰ راحة لك وتعبٌ لغيرك.

* من شاور الرجال شاركهم في عقولهم.

* ستتعلم الكثير من دروس الحياة، إذا لاحظت أن رجال الإطفاء لا يكافحون النار بالنار!

(١) رابط الجأش: ثابت عند الشدائد.
(٢) النهى: جمع نهية وهي العقل.
(٣) وجمت: سكتت من خوف أو حزن.
(٤) الأشم: المرتفع.
(٥) جذوة: جمرة ملتهبة.
(٦) مُجدلاً: قتيلاً.
(٧) غاله: قتله غيلة.
(٨) مرتهن: مقيم.
(٩) السكن: الأهل.
(١٠) القُنن: القمم.
(١١) غيهب: ظلام.
(١٢) الوسن: النوم.
(١٣) الملا: الملأ وهم الناس.

موكب النصر

للشاعر محمود حسن إسماعيل:

وَفَّقَ اللهُ على النورِ خُطانا ... والتقَتْ في موكبِ النصرِ يَدانا
وحَّدتْ شمسُ العُلا أعلامَنا ... وانبَرتْ(١) في الشرقِ تُحيي المِهرَجانا
لا تَسَلْ عنَّا ولا كيفَ لِقَانا ... واسأَلِ التاريخَ عنَّا والزَّمَانا
نحنُ كنَّا مُهجةً واحدةً ... ودماً حُراً ورُوحاً وجَنَانا(٢)
باركَ اللهُ خُطَانا وسَرتْ ... صَيحةُ الفجرِ فلبَّينا الأَذانا
ومضَيْنا في طريقٍ واحدٍ ... يَتغنَّى الدَّهرُ فيه بِعُلانا
عَربيٌّ أشعلتْ أمجادَهُ ... دعوةٌ تَجري حياةً في دِمانا
هذه أيَّامُنا قد رَجَعتْ ... سِيرةً للمجدِ يَرويها هَوانا
في صَباحِ الشرقِ عُدْنا أُمةً ... مثلَمَا كنَّا على الدُّنيا وكانا

تأملات

* وقف رجل بين يدي المأمون فقال له: والله لأقتلنك! فقال: يا أمير المؤمنين تأنّ علي فإن الرفق نصف العفو، فقال: ويلك ويحك! قد حلفت لأقتلنك، فقال: يا أمير المؤمنين إنك إن تلق الله حانثاً خير من أن تلقاه قاتلاً! فعفا عنه!

* كان أينشتاين لا يستغني أبداً عن نظارته... وذهب ذات مرة إلى أحد المطاعم، واكتشف هناك أن نظارته ليست معه، فلما أتاه «الجرسون» بقائمة الطعام ليقرأها ويختار منها ما يريد، طلب منه أينشتاين أن يقرأها له فاعتذر الجرسون قائلاً: إنني آسف يا سيدي، فأنا أمي جاهل مثلك!

---

(١) انبرى للأمر: تصدى له.
(٢) الجنان: القلب.

الاستشارة... واستطلاع الآراء

* لا يحط من قدْر الرجل استشارته للآخرين ولمن هو دونه، فقد أمر الله نبيه ﷺ بمشاورة من هو دونه من أصحابه فقال ﴿شَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٥٩). والنبي عليه الصلاة والسلام ليس بحاجة إلىٰ رأي الآخرين فهو علىٰ اتصال دائم بالوحي، وأفكاره وآراؤه وأحكامه لا تخرج عن دائرة الوحي ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ (النجم: ٣-٤). ولكن ليستنّ المسلمون بذلك وليعلمهم ﷺ ما في المشاورة من البركة.

* وكان من وصفه ﷺ أنه يستشير أصحابه في كل الأحوال، وما تشاور قوم إلا هداهم الله لأرشد أمورهم، وقال ﷺ: «المستشار مؤتمن» رواه أصحاب السنن.

* قال ابن عيينة كان رسول الله ﷺ إذا أراد أمراً شاور فيه الرجال، وكيف يحتاج إلىٰ مشاورة المخلوقين، والخالقُ مدبر أمره، ولكنه تعليم منه، ليشاور الرجل الناس وإن كان عالماً. قال ﷺ: «ما خاب من استخار ولا ندم من استشار، ولا عال من اقتصد» رواه الطبراني. وقيل: من شاور أهل النصيحة سلم من الفضيحة.

* وفي الحِكَم: المشاورة حصن من الندامة وأمن من الملامة!، ونعم المؤازرة المشاورة، وبئس الاستعداد الاستبداد، وقيل: نصف رأيك مع أخيك فاستشره، والأحمق من قطعه العُجْبُ عن الاستشارة، والاستبداد عن الاستخارة.

* قال أحدهم: الناس ثلاثة، فرجل رجل، ورجل نصف رجل، ورجل لا رجل، فأما الرجل الرجل فذو الرأي والمشورة، وأما الرجل الذي هو نصف رجل فالذي له رأي ولا يشاور، وأما الرجل الذي ليس برجل فالذي ليس له رأي ولا يشاور.

* قال أحد الحكماء: أفْره الدواب لا غنىٰ به عن السوط، وأعفّ النساء لا غنىٰ بها عن الزواج، وأعقل الرجال لا غنىٰ به عن المشورة!

* وقال أحد الملوك: لأن أُخطئ وقد استشَرْتُ أحبُّ إليّ من أنْ أصيب من غير مشورة.

* وقال الأحنف: اضربوا الرأي بعضه ببعض يتولّد منه الصواب. وقيل: خذ الأمر مقبلاً، فشرّ الرأي: الدّبَرِيّ ـ وهو الذي يسنح بعد فوات الحاجة ـ.

* وكان عامر بن الظَّرِب حكيم العرب يقول: دعُوا الرأىٰ يَغِبّ ـ يبيت ـ حتىٰ يَخْتمر وإياكم والرأي الفطير، يريد الأناة في الرأي والتثبت فيه. وقال أيضاً: الرأي نائم، والهوىٰ يقظان، فلذلك يغلب الهوىٰ الرأي!

* ومن أمثالهم في هذا قولهم: لا رأي لمن لا يطاع. وكان يقال: بإجالة الفكرة يُستَدرّ الرأيُ المصيب.

* قيل لرجل من عبس: ما أكثر صوابكم! قال: نحن ألف رجل وفينا حازم واحد، فنحن نشاوره ونطيعه، فكأنا ألف حازم.

* الرأي كالليل مُسْودٌّ جوانبهُ والليلُ لا يَنْجلي إلا بإصْباحِ
فاضْمُمْ مصابيح آراءِ الرجال إلىٰ مِصْباح رأيك تَزْدَدْ ضوءَ مِصباحِ

* لما همّت ثقيف بالارتداد بعد وفاة النبي ﷺ استشاروا عثمان بن أبي العاصي وكان مُطاعاً فيهم، فقال: لا تكونوا آخِرَ العرب إسلاماً وأوّلَهم ارتداداً، فنفعهم الله تعالىٰ برأيه.

* إذا كُنْتَ ذا رأيٍ فكُنْ ذَا عزيمة فإنّ فساد الرأي أنْ تتردّدا
وإنْ كنت ذا عزم فانفذه عاجلاً فإنّ فساد العزم أنْ يتقيّدا

* يقول القاضي ناصح الدين الأرجاني قاضي تُستر:

اقرن برأيك رأي غيرك واستشرْ فالحق لا يخفىٰ علىٰ الاثنينِ
المرء مرآة تريه وجههُ ويرىٰ قفاه بجمع مرآتينِ

والأرجاني شاعر فقيه وهو القائل :

أنا أفقه الشعراء غير مدافع ... في العصر، لا بل أشعر الفقهاء!

وله :

شاور سواك إذا نابتك نائبة ... يوماً وإن كنت من أهل المشورات

فالعين تبصر منها مادنا ونأىٰ ... ولا ترىٰ نفسها إلا بمرآةِ!

* وللأرجاني أيضاً :

شكوت إلىٰ الحبيبة سوء حظي ... وما قاسيت من ألم البعادِ

فقالت إن حظك مثل عيني ... فقلت نعم ولكن في السوادِ

استشارة الخبراء

* وليس كل إنسان يصلح للاستشارة وأخذ الرأي والاعتماد علىٰ فكرته وتجربته . قال بعض الحكماء : عليك بمشورة من حَلَب أشطُرَ دَهْرِه ، ومرّت عليه ضروبُ خيره وشرّه ، وبلغ من العمر أشدّه ، وأورت التجربةُ زنْدَه .

* وكانت العرب تحمدُ آراء الشيوخ لتقدُّمِها في السن ، ولأنها لا تُتْبِع حسناتها بالأذىٰ والمنّ ، ولما مرَّ عليها من التجارب التي عرفت بها عواقب الأمور حتىٰ كأنها تنظرها عياناً ، وطرأ عليها من الحوادث التي أوضحت لها طريق الصواب وبيّنَتْه بياناً ، ولِمَا مُنِحَتْه من أصالة رأْيها ، واستفادَتْه بجميل سَعْيها ، ولذلك قال علي رضي الله عنه : رأْي الشيخ خيرٌ من مشهد الغلام .

* قال الحكماء : إذا كنت مستشيراً فتَوَخَّ ذا الرأي والنصيحة ، فإنه لا يُكتفىٰ برأي مَنْ لا ينصح ، ولا نصيحةَ لمن لا رأي له . وكانت العرب تحمد الأناة في الرأي ، وإجالة الفكرة فيه وعدم التسرع .

* قال المتنبي:

الـرَّأيُ قَـبْـلَ شـجـاعـةِ الـشُّـجـعـانِ ... هـو أوَّلٌ، وهْـيَ المحَـلُّ الـثَّـانـي
فـإذا هـمـا اجـتـمـعـا لـنـفْـسٍ حَـرَّةٍ ... بَـلـغـتْ مـن الـعَـلـيـاءِ كـلَّ مـكـانِ
ولَـربَّـمـا طَـعَـنَ الـفـتَـى أقـرانَـهُ ... بـالـرَّأي قَـبْـلَ تـطـاعُـنِ الأقْـرانِ
لـولا الـعـقـولُ لـكـانَ أدنَـى ضَـيْـغَـمٍ ... أدنَـى إلـى شـرفٍ مـن الإنـسـانِ

* قال زياد لأبي الأسود: لولا أنك كبرت لاستعملتك واستشرتك! فقال: إن كنت تريدني للصراع فليس فيّ، وإن كنت تريد الرأي فهو وافي!

استشارة الشباب

* ورأى أقوام خلاف هذا الرأي وقالوا: رأي الشباب هو الرأي الصائب، وفهمهم الفهم الثاقب، وإن لهم من الفطنة أوْفرُ نصيب، لأن عقولَهم سليمةٌ من العوارض، ولذلك قالت الحكماء: عليكم بآراء الأحداث ومشورة الشبّان، فإن لهم أذهاناً تفلّ السيوف القواطع.

* اجتمع رؤساء بني سعد إلى أكثم بن صيفي يستشيرونه فيما دهمهم من يوم الكلاب، فقال: إنّ وَهَن الكبر قد فشا في بدني وليس معي من حِدّة الذهن ما أبتدئ به الرأي، ولكن اجتمعوا وقولوا، فإني إذا مرّ بي الصواب عرفْتُه! وفي أمثال العامة «أكبر منك بيوم، أعلم منك بسنة».

المستشار مؤتمن

* إستشار زياد بن عبيدالله الحارثي عبيدالله بن عمر في أخيه أبي بكر أن يولِّيه القضاء فأشار عليه به، فبعث إلى أبي بكر فامتنع عليه، فبعث زياد إلى عبيد الله يستعين به على أبي بكر، فقال أبو بكر لعبيد الله: أنشدك بالله أترى لي أنْ أَلِيَ القضاء؟ قال: اللهم لا. قال زياد: سبحان الله! استشرتُكَ فأشرتَ عليّ به ثم أسمعك تنهاه! قال: أيها الأمير استشرتني فاجتهدت لك رأيي ونصحتك، واستشارني فاجتهدت له رأيي ونصحته!

* ولما أصاب زياداً الطاعون في يده أُحضر له الأطباء، فدعا شريحاً وقال له: لا صبر لي على شدّته وقد رأيت أنْ أقطعها فقال شريح: أتستشيرني في ذلك؟ قال: نعم. فقال: لا تقطعها فالرزق مقسوم والأجل معلوم، وأنا أكره أن تقدم على ربّك مقطوع اليد، فإذا قال لك: لِمَ قطعتها؟ قلت: بغضاً للقائك، وفراراً من قضائك. فمات زياد من يومه، فقال الناس لشريح: لم نهيته عن قطعها؟ فقال: استشارني والمستشار مؤتمن، ولولا الأمانة لوددتُ أن أقطع يده يوماً ورجلَه يوماً!

لا تشاور هؤلاء

* وقد كرهتِ العربُ والحكماءُ مشاورةَ من اعْتَرتْه الشواغل، وألّمت به النوازل مع وفُور عقله وحزْمه، والتمسك بنُصْحه وفهمه.

مرَّ حارثة بن زيد بالأحنف بن قيس، فقال: لولا أنك عجلان لشاورتك في بعض الأمر. فقال: يا حارثة أجل، كانوا لا يشاورون الجائع حتى يشبع، والعطشان حتى ينقع، والأسير حتى يُطلق، والمُضِلّ حتى يجد، والرغب حتى يمنح.

* قال قيس بن ساعدة الإيادي لابنه: لا تُشاور مشغولاً وإن كان حازماً، ولا جائعاً وإن كان فَهِماً، ولا مذعوراً وإن كان ناصحاً، ولا مهموماً وإن كان عاقلاً، فالهمّ يعقل العقلَ فلا يتولّد منه رأي ولا تَصْدق به رَوِيّة.

* وقيل: لا تُدْخل في مشورتك بخيلاً فيُقَصِّر بفعلك، ولا جباناً فيُخَوِّفَك، ولا حريصاً فيَعِدَك ما لا يُرْجى، فإنّ البخل والجُبْن والحرص طبيعة واحدة يجمعها سوء الظن بالله.

* وقال حكيم: إذا استشارك عدوّك فجرّد له النصيحة، لأنه بالاستشارة قد خرج من عداوتك إلى مُوالاتك.

* وقيل: إذا أردت أنْ تعرِف الرجل فشاوره، فإنك تقف من مشورته على جوْره وعدله وحبّه وبغضه، وخيره وشرّه. واستشر عدوّك تعرف مقدار عداوته! وشاور عدوّك العاقل، ولا تستشر صديقك الأحمق.

وقيل: لا تشاور مَنْ ليس في بيته دقيق، وكان كسرىٰ إذا أراد أن يستشير إنساناً بعث إليه بنفقة سنة ثم يستشيره.

* قال ابن المقفع: ثلاثة لا آراء لهم: صاحبُ الخفّ الضيق، وحاقنُ البول - محتبسه - وصاحبُ المرأة المتسلطة!

* وقال عمر بن الخطاب: شاور في أمرك من يخاف الله عزّ وجلّ.

* وسئل الحسن البصري، عن الأثر النبوي «لا تستضيئوا بنار المشركين» فقال: أراد لا تستشيروا المشركين في أموركم ولا تأخذوا برأيهم.

* وقيل: إيّاك ومشاورة النساء فرأيهن إلىٰ أفَن وعزمُهن إلىٰ وهَن.

* وكان يقال: لا رأي لحاقن ولا حازق. وهو الذي ضغطه الخُفّ، ولا لحاقب وهو الذي يجد رِزّاً - صوتاً - في بطنه.

* وقالوا: لا تشاور معلّماً ولا راعي غنم ولا كثير القعود مع النساء، ولا صاحب حاجة يريد قضاءها، ولا خائفاً ولا حاقناً.

* وكان بعض ملوك العجم إذا شاور خاصته فقصّروا في الرأي دعا الموكلين بأرزاقهم فعاقبهم! فيقولون: تخطىء خاصتك وتعاقبنا؟! فيقول: نعم، إنهم لم يخطئوا إلا لتعلّق قلوبهم بأرزاقهم وإذا اهتموا أخطؤوا. وكان يقال: النفس إذا أحرزت قوتها ورزقها اطمأنّت.

قال بعض البلغاء: إذا أشكلت عليك الأمور، وتغيّر لك الجمهور فارجع إلىٰ رأي العقلاء، وافزع إلىٰ استشارة العلماء، ولا تَأْنف من الاسترشاد، ولا تَسْتنكف من الاستمداد، فلأَن تَسْأَلَ وتسْلَمَ خيرٌ من أنْ تَسْتَبِدَّ وتندمَ!

* قال الربيع بن يونس حاجب أبي جعفر المنصور: من كلم الملوك في الحاجات في غير أوقاتها لم يظفر ببغيته، وما أُشبه الحال في ذلك إلا بأوقات الصلاة، فإن الصلاة لا تُقبل إلا فيها، فمن أراد خطاب الملوك فليختر لذلك الوقتَ المنجح الذي يصلح فيه ذكر ما أراد ليصح النُّجْح، وإلا فلا!

أسلوب التمويه

* خلا أبو جعفر المنصور يوماً مع يزيد بن أبي أسيد، فقال: يا يزيد ما ترىٰ في قتل أبي مسلم ـ الخراساني ـ؟ فقال: أرىٰ أن تقتله وتقرب إلىٰ الله بدنه! فوالله لا يصفو ملكك ولا تهنأ بعيش ما بقي! فنفر مني نَفْرة ظننت أنه سيأتي عليّ، ثم قال: قطع الله لسانك وأشمت بك عدوك، أتشير عليّ بقتل أنصر الناس لنا وأثقلهم علىٰ عدونا! أما والله لولا حفظي لما سلف منك وأن أعدّها هفوة من هفواتك لضربت عنقك! قم لا أقام الله رجليك! قال فقمت وقد أظلم بصري وتمنيت أن تسيخ الأرض بي، فلما كان بعد قتله قال لي يا يزيد أتذكر يوم شاورتك؟ قلت: نعم قال: فوالله لقد كان ذلك رأياً وما لا أشك فيه، ولكن خشيت أن يظهر منك فتفسد مكيدتي!

* وشبيه بهذا ما يفعله الزعماء والرؤساء وقادة الجيوش عند تحديد موعد الحرب واقتراب ساعة الصفر، من الانشغال بأشياء بعيدة عن الحروب، وذلك كسقي الشجر أو تصفيف الزهور في القصر أو الإعلان عن نية السفر إلىٰ بلد ما، حتىٰ إذا كان هناك اختراقات أمنية فيمن حولهم.. أو شعروا بوجود جواسيس ولا يعرفونهم، لا يتمكنون من معرفة أسرار الحرب وموعدها! ولكل شخص أسلوبه في التمويه علىٰ من حوله!

* دخل أحد تجار المدينة النبوية علىٰ الخليفة عبدالملك بن مروان في دمشق، وقال له: يا أمير المؤمنين، ما تقول لله إذا لقيته غداً، وقد عمدت إلىٰ مدينة رسول الله ﷺ، وفيها أتباعه، وأبناء أصحابه، فوليت عليهم عدو الله، الحجاج يسومهم الخسف، ويسوسهم بالعسف؟!... فتغير وجه الخليفة، وقال: أتقول هذا عن الحجاج وهو عندي بالمحل الذي تعلمه؟! اخرج! فخرج التاجر وقد أظلمت الدنيا في ناظريه، حتىٰ كاد يصطدم بالجدار، فأخذه الحرس وأجلسوه في الخارج كما أمرهم الخليفة، ثم دخل عليه الحجاج، ولبثا برهة، يقول التاجر: لم أشك في أنهما يأتمران في قتلي! فلما خرج الحجاج أقبل علىٰ التاجر هاشّاً، باشاً، يقول له: جزاك الله عني كل خير، والله لأكافئنك!... فقال التاجر في نفسه: إنه يهزأ بي! ثم نودي عليه، فدخل إلىٰ الخليفة. فقال له عبدالملك: أرعبتك؟!

إن ما ذكرته عن الحجاج هو الصواب ، ولكنني لم أرد أن تتكلم بما سأفعله ، لقد قلت له إن أهل المدينة يثنون عليك ، ويحمدون سيرتك فيهم ، ورأيت والحال كذلك أن لك عزيمة أكبر في بلد كالمدينة ، فوليتك العراق ، وقد سرّ لذلك سروراً كبيراً ، فجزاك الله خيراً على النصيحة !

تأملات

* بلغ أحد الأدباء أن تاجراً عاد بعد أن أدى فريضة الحج ، وكان هذا التاجر يتعامل بالربا ، فقال يهجوه :

رأى البيتَ يُدعى بالحرام فحجّه ... ولو كان يُدعى بالحلال لما حجا !

* الفعل الطيب يعود إلى صاحبه .

* قلب الحكيم ساكن مثل الماء الرقراق .

* قطرة مطر كل يوم .. تملأ النهر !

* قال أحد الشعراء :

ولربّ نازلةٍ يضيق بها الفتى ... ذرْعاً وعند الله منها المخرجُ

ضاقتْ فلما استحكمتْ حلقاتها ... فُرجتْ وكان يظنُّها لا تُفرجُ

قرأ أحد الإخوة السودانيين هذه الأبيات فلما وصل إلى قوله : فلما استحكمت حلقاتها ، لم يقل فرجت وإنما قال بلهجته السودانية : ضاقت تاني !

* الصديقة للزوجة : ألم يستطع الطبيب أن يعطي زوجك علاجاً يمنع كلامه في أثناء النوم؟ الزوجة : لقد طلبت منه أن يصف دواءً لزوجي يجعله يتكلم بوضوح في أثناء نومه !

حفظ الأسرار

* من الحكم المأثورة والأمثال السائرة: كلُّ سرٍّ جاوز الاثنين شاع. ويعنون بالاثنين الشّفتين، فإذا خرج السرّ منهما وتحدثتا به، فسيذيع السر وينتشر، ولو أسررت به إلىٰ صديق أو حبيب، لأن له أيضاً صديقاً وحبيباً هو مستودَع سرّه وموضع نصحه!

* وقد نصح العقلاء بحفظ الأسرار وكتمانها، وقالوا: خير من يحفظها هو صاحبها، والسر إذا أفشيته ملَكَك بعد أنْ كنت تَمْلكه!!

* وقال الحكماء: صدرك أوسع لسرّك، وسرّك من دَمِك فانظر أين تريقه، وتفسيره: أنه ربما كان في إفشاء السرّ سفك دمك.

* وجاء في التنزيل الحكيم إخباراً عن نبي الله يعقوب حين أوصىٰ ابنه يوسف عليهما السلام ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝﴾ (يوسف) ما يستدل به علىٰ ضرورة حفظ السّرّ.

* ومن وصايا رسول الله ﷺ: «استعينوا علىٰ قضاء حوائجكم بالكتمان فإنّ كلّ ذي نعمة محسود» رواه الطبراني وابن أبي الدنيا والبيهقي.

* وقالت الحكماء: أصْبرُ الناس مَنْ صَبَر علىٰ كتمانِ سِرّه، فلم يُبْدِه لصديق فيوشك أنْ يصَير عدواً فيذيعه.

* وقال عمرو بن العاص: ما استودعتُ رجلاً سرّاً فأفشاه فلمْته؛ لأني كنت أضيقَ صدراً منه حين استودعته إيّاه حتىٰ أفشاه.

* قال أحد الشعراء:

إذا ضاق صدرُ المرء عن سرّ نفسه ... فصدر الذي يُستودع السرَّ أضيقُ

* وقد اعتبر حمل السر وكتمانه أثقل من حمل الأثقال ونقلها، فالنفس تنازع صاحبها في الحديث عما في مكنونها، ويضيق الصدر بالحديث المطويِّ فيه.

* ويروىٰ عن عليّ كرّم الله وجهه أنه قال: سرُّك أسيرك فإذا تكلمت به صرْتَ أسيره.

أمناء الأسرار

وأمناء الأسرار، أقلّ وجوداً من أمناء الأموال، وحفظ الأموال أيسر من كتمان الأسرار، لأن أحراز الأموال منيعة بالأبواب والأقفال، وأحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق، ويشيعها كلام سابق، وحمل الأسرار أثقل من حمل الأموال، فإنّ الرجل يستقل بالحمل الثقيل فيحمله ويمشي به، ولا يستطيع كتم السرّ، وإن الرجل يكون سرّه في قلبه فيلحقه من القلق والكرب ما لا يلحقه من حمل الأثقال! فإذا أذاعه استراح قلبه، وسكن خاطره، وكأنما ألقى عن نفسه حملاً ثقيلاً!

* وقد كره كثير من الناس حمْلَ الأسرار لثقلها ومخافة أنْ يزلّ اللسان فيبديها.

* قال رجل لصديق له: اكتم سرّي الذي أفشيته! فقال: كلا لست أشغل قلبي بنجواك، ولا أجعل صدري خزانة شكواك فيقلقني ما أقلقك، ويؤرقني ما أرّقك، فتبيت بإفشائه مستريحاً ويبيت بحرّه قلبي جريحاً.

* لا خير في آنية لا تمسك ما فيها ولا خير في إنسان لا يمسك سرّه!!

* ومن أحسن ما قيل في كتمان السر قول الشاعر:

ولها سرائرُ في الضمير طويتها   نسي الضميرُ بأنها في طيّه!!

وشبيه بهذا قصة الرجل الذي أسرّ إلى صديقه بحديث، ثم قال له: أفهمت؟ قال: بل جهلت!! ثم قال له: أحفظت؟ قال: بل نسيت.

* ومن عجائب الأمور أنّ الأموال كلما كثرت خزانها كان أوثق لها، وأما الأسرار، فإنها كلما كثرت خزانها كان أضيع لها، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ما أفشيت سرّي إلى أحد قط فأفشاه فلمته، إذ كان صدري به أضيق!!

* وعاب الأحنف بن قيس على من يفشي السر ثم يطلب من الذي حدثه به كتمانه، وقال: يضيق صدر الرجل بسرّه، فإذا حدّث به أحداً قال: اكتمه عليّ؟!!

احفظ سرّك

* وكانوا يحذرون من مشاورة من يحبّ الاطلاعَ على الأسرار وخبيئات البيوت ويروْنَ في طلبه للسر، علامة على سوء مقصده وخبث طويته.

* قال صالح بن عبدالقدوس: لا تودع سرّك إلى طالبه، فالطالب للسرّ مذيع، ولا تودع مالك عند مَنْ يستدعيه، فالطالب للوديعة خائن.

* وليس من الحزم أن تفشي سرك إلى كل أحد أو تثق بكل إنسان، فهذا دليل الحمق والجهل، والحذر يقتضي أن تخفي السر حتى من صديقك إن تمكنت لأنه ربما وقع بينكما شرّ فيفشيه عليك، ويكون أعرف بالمضرّة!! وقلوب الأحرار هي قبور الأسرار.

* قال المتنبي:

وللسرّ مني موضع لا يناله ... نديم ولا يفضي إليه شراب

* ويروى أن العباس بن عبدالمطلب قال لابنه عبدالله، رضي الله عنهما: يا بني إنّ أمير المؤمنين يدنيك - يعني عمر بن الخطاب - فاحفظ عني ثلاثاً: لا تفشينّ له سراً، ولا تغتابنّ عنده أحداً، ولا يَطلعنّ منك على كِذْبة.

* قال عمرو بن العاص: القلوب أوعيةٌ للأسرار والشفاه أقفالها، والألسن مفاتيحها، فليحفظ كل امرئ مفتاح سرّه!!

* ومن جميل ما قيل في حفظ السر:

يا ذا الذي أودعني سرّه ... لا تَرْجُ أنْ تسمعَه مني
لم أُجْرِه قط على فكرتي ... كأنه لم يَجْرِ في أذني

* ومما يروى في عقوبة من أفشى السرّ، أن عمر بن الخطاب ولّى قدامة ابن مظعون الكوفة، ولم يدْر بذلك أحد، فتوجهت امرأته إلى دار المغيرة تطلب له زاداً فقالت: أقرضونا زاداً لراكب، فإن أمير المؤمنين ولّى زوجي الكوفة، فأخبرت امرأة المغيرة زوجها،

فجاء المغيرة إلى عمر رضي الله عنه واستأذن عليه وقال: يا أمير المؤمنين، ولّيتَ قدامةَ الكوفة وهو رجل قوي أمين!! فقال: ومن أخبرك؟ قال: نساء المدينة يتحدّثن به، فقال: اذهب وخذْ منه العهد!!

الأسرار عند النساء!

* وقد كرهوا إطلاع النساء على الأسرار، فإحداهن كما قيل: أضيع للأسرار من الغربال للماء! ومن طبيعة المرأة أنها إذا علمت بشيء لا يقرّ لها قرار ولا يهدأ لها بال إلا إذا أطلعت جيرانها عليه. وكنّ في السابق ينتظرن وقت السهر ليكون السر الجديد حديث السهرة، أو يغتنمن جلسات الضحى لتُطلعَ كل واحدة منهن صواحبها على كل ما تعرفه وما سمعته، وطبعاً فكل جديد ستكون له الأولوية فيما يدار على بساط البحث!، أما اليوم فإن خطوط الهاتف، والهواتف النقالة والمسجات ـ الرسائل القصيرة ـ قد قضت على مشكلة الانتظار، وأصبح بمقدور كل واحدة إخبار زميلاتها بكل جديد دون تحمّلِ ألم الانتظار!!

* كانت امرأتان تقفان في الطابور أمام باب الفرن لشراء الخبز، فلما اقترب دورهما قالت إحداهما للأخرى: تعالي نرجع لآخر الصف.. عندي أطنان من الأخبار أنقلها إليك!

* وقد قيل سابقاً: لا تطلعوا النساء على أسراركم، تصلح أموركم!! وقال الحطيئة يهجو أمه لبوحها بالسرّ:

أَغِربالاً إذا استُودِعْتِ سرّاً وكانوناً على المتحدثينا!!

الرجل.. لا يبيض!

* كان رجل يحرث في حقله فوجد جرة ملأى ذهباً.. فسُرَّ بذلك سروراً عظيماً. ولمّا ذهب إلى منزله ليخبر امرأته.. تذكّر في نفسه أن النساء لا يحفظن سراً، مهما كانت خطورته.. وقال في نفسه: أخشى إن أخبرتها بذلك أن تفشي هذا السر، فيبلغ الملك

ويأخذ مني جرَّة الذهب . . فصمَّم على أن يختبر امرأته ، فبات تلك الليلة ، وأخفى بيضة بالقرب من سريره ، وعند الصباح أيقظ امرأته ، وقال لها : إني عازم على أن أخبرك بسرٍّ كبير ، وأشترط عليك ألاَّ تخبري أحداً . . فهل تقدرين على كتمان هذا السر؟ فقالت له : كيف لا أقدر؟ فقال لها : يصادفني في كل ليلة أمر غريب ، وأجد نفسي عند الصباح وقد بضتُ بيضة! . وها هي . . ولقد كنت أخفي عنك ذلك خوفاً من أن تخبري أحداً بذلك . . ولَّما عرفت أنك مؤتمنة على أسراري أخبرتك بما كان . . فإياك أن تخبري أحداً . . فقالت له : كن مطمئن البال . وخرج زوجها من البيت ، ولَّما ابتعد بضع خطوات من البيت . . شعرت زوجته بثقل الخبر! وصعدت على السطح فرأت جارتها . . فأومأت إليها أن تقترب منها . . فلمَّا اقتربت . . قالت لها : هل تعدينني يا أختي أن تكتمي السر؟ فوعدتها جارتها كما وعدت هي زوجها! فقالت لها : إن زوجي يبيض في كل ليلة بيضتين ، وقد رأيت ذلك بعيني . . فتعجَّبتُ كل العجب ، وقد أوصاني زوجي أن أكتم هذا السر . فأرجو ألا تخبري أحداً . . فقالت لها جارتها : لا تخافي . . لأني سأحفظ السر كما حفظته أنت . . ونزلت الجارة من السطح وذهبت لجارتها الأخرى وقالت لها : هل تدرين يا أختاه أن زوج جارتنا يبيض كل يوم عشر بيضات ، ولقد أخبرتني زوجته في هذا الصباح ، وأكَّدت عليَّ ألاَّ أخبر أحداً ، وإني أردت أن أخبرك عن هذا بشرط أن تكتمي هذا السر . . فقالت لها الجارة الأخرى : لك عليَّ ذلك . . وما لبثت أن خرجت من عندها فلبست ثيابها وذهبت إلى جارتها الثانية وأخبرتها ، ولكن قالت : إنه يبيض عشرين بيضة . . وهكذا . . صار ينتقل الخبر من امرأة لأخرى ، ولكن بازدياد عدد البيض . .

ولم تغرب الشمس حتى بلغ عدد البيض مائة! ! وعرف الحاكم بذلك ، فأرسل إلى الرجل . . ولَّما حضر إليه قال له : أخبرني يا رجل كيف تبيض كل يوم مائة بيضة . . ؟! فقال له : يا مولاي . . هل تصدق أنَّ أحداً من بني آدم يبيض مثل الدجاج . . ولكن المسألة فيها سرّ عظيم ، إنْ أعطيتني الأمان أخبرك عنه . . فقال له الحاكم : لك الأمان . . تكلَّم . . فأخبره عن جرّة الذهب التي وجدها في حقله . . وكيف أنه أراد أن يمتحن امرأته ، إذا كانت تحفظ السر خوفاً من ضياعها من يده . . . فأخبرها أنه يبيض كل يوم بيضة ،

وأوصاها ألاَّ تُعلم أحداً بذلك . . وكيف أنها ما غابت الشمس حتى عرَّفت البلدة كلها . . وصارت البيضة مائة! فضحك الحاكم لَمّا سمع كلامه . . وترك له الجرة بما فيها . . وأوصاه بألاَّ يعطي سراً لامرأته!!

* وقيل ـ مبالغة في كتمان السرّ ـ إذا تكلّمْتَ بالنهار فانظر مَنْ عندك ، وإذا تكلّمْتَ بالليل فاخفض صوتك .

ومستودع عندي حديثاً يخاف من ... إذاعته في الناس إن ينفذ العمرُ

فقلت له : لا تخش مني فضيحة ... لسرّ غدا ميتاً وصدري له قبر

على أنّ مَنْ في القبر يُرجى نشوره ... وسرّك لا يرجى له أبداً نشْرُ!!

تأملات

* دوام الحال من المُحال! والصبر مفتاح الفرج ، ومن صبر ظفر!

يا صاحبَ الهمِّ إنّ الهمّ منفرجٌ ... أبشر بخير فإن الكاشف اللهُ

اليأسُ يقطعُ أحياناً بصاحبه ... لا تيأسنّ فإن الصانع اللهُ

إذا ابتليتَ فثق بالله وارض به ... إنّ الذي يكشف البلوى هو اللهُ

* سهرت عيونٌ ونامت عيون ... في أمور تكونُ أولا تكونُ

إنّ الذي كفاك بالأمس همّاً ... يكفيك غداً ما سيكونُ!

* المهزوم إذا ابتسم أفقد المنتصر لذة الفوز!

* كل شيء يبدو صغيراً ثم يكبر ، إلا المصيبة ، فإنها تبدو كبيرة ثم تصغر .

* ربّ نزهة قصيرة مع أسرتك حلّت لك كثيراً من المشاكل!

الحلم.. والعفو

* قال مالك بن أنس رحمه الله: بعث إليّ أبو جعفر المنصور وإلى ابن طاووس، فأتينا فدخلنا عليه، فإذا هو جالس على فُرُش قد نُضِدت، وبين يديه أنْطاعٌ قد بسطُت وجَلاوِزةٌ ـ جمع جِلواز وهو الشرطي ـ بأيديهم السيوف يضربون بها الأعناق، فأوْمأ إلينا أن اجلسا، فجلسْنا، ثم أطرق عنا طويلاً، ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاووس فقال: حدّثني عن أبيك. قال: نعم، سمعت أبي يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة رجلٌ أشْركَه الله في حكمه، فأدْخل عليه الجَوْر في عدله».

فأمسك ساعة، قال مالك: فَضَمَمْتُ ثيابي من ثيابه مخافةَ أنْ يَمْلأني من دمه! ثم التفت إليه أبو جعفر فقال: عظْني يا ابن طاووس، قال: نعم يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ⑥ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ⑦ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ⑧ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ⑨ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ⑩ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ⑪ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ⑫ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ⑬ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ⑭﴾ (الفجر).

قال مالك: فضممتُ ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأني دمه، فأمْسك ساعة حتى اسودّ ما بيننا وبينه، ثم قال: يا ابن طاووس ناولني هذه الدواة، فأمْسكَ، فقال: ما يمنعك أن تُناولنيها؟ قال: أخشى أن تكتب بها معصيةً لله فأكونَ شريكَك فيها! فلما سمع ذلك، قال: قُوما عني، فقال ابن طاووس: ذلك ما كُنّا نبغي منذ اليوم! قال مالك: فما زلْتُ أعرفُ لابن طاووس فضله!

* الأنطاع جمع نطع. والنطع: بساط من جلد كثيراً ما كان يُقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل. يقال: عليّ بالسيف والنطع. المعجم الوسيط ـ نَطَعَ.

* ليس التاج الذي يفتخر به عظماء الملوك فضة ولا ذهباً، ولكنه الوقار المَكلّلُ بجواهر الحلم، وأحقّ الملوك بالبسطة من حَلُم عند ظهور السّقطة، وأفضل ما أُعْطي الرجلُ الحلم، وقد يكون الحلم غريزة في الإنسان وطبيعة فيه، وقد يكون مكتسباً ومستفاداً بالتمرّن والمراس.

* وقالوا: الحلم بالتحلّم كما أن العلم بالتعلّم، وقال رسول الله ﷺ لأشجّ عبدالقيس: «إن فيك خلُقين يحبهما الله ورسوله، الحلم والأناة. فقال: يا رسول الله خلّتان تخلقتهما، أم خلقان جُبِلْت عليهما؟ قال: «بل خلقان جَبَلك الله عليهما. فقال: الحمدلله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله» متفق عليه.

* وربنا عزّ وجلّ يدعونا لهذا الخلق العظيم والصفة الحميدة، وألا نقابل الإساءة بالإساءة، وإنما نعفو ونصفح ونصبر ونحلم ونتحمل ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)﴾ (فصلت).

* وقيل في تعريف الحلم: إنه تجرّع الغيظ وهو دعامة العقل، وقيل: ليس الحليم من ظُلم فحلُم حتى إذا قدِر انتصَر، ولكن الحليم من ظُلم فحلُم، فإذا قدَر غفَر.

* وقيل لأحدهم: من أشجع الناس؟ قال: مَنْ ردّ جهلَه حلمُه.

* وقيل لحكيم: أي الأحمال أثقل؟ فقال: الغضب. وقيل لقيس بن عاصم: ما الحلم؟ قال: أن تصل من قطعك، وتعطي من حَرَمك، وتعفو عمن ظلمك.

وقال لقمان: ثلاثة لا تعرفهم إلاّ في ثلاثة: لا تعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا تعرف أخاك إلا إذا احتجت إليه.

* وقد وصف الله المؤمنين بالحلم والمسامحة ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣)﴾ (الفرقان).

* وفي الحديث الشريف: «ليس الشديد بالصُّرعَة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» رواه الثلاثة.

* وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أوصني! قال: لا تغضب. ثم أعاد عليه. قال: لا تغضب. ثم أعاد عليه، فقال: لا تغضب» رواه الترمذي وأحمد.

حلم الأحنف

* والعرب تقول: احلم تَسُدْ، وقد ساد أقوام بحلمهم وتحملهم وصبرهم، فمنهم الأحنف بن قيس، وكان يقول: إني لأجدُ ما تجدون، ولكني صبور. وقال أيضاً: وجدتُ الحلم أنصرَ لي من الرجال!

* وقال: كنا نختلف إلىٰ قيس بن عاصم لنتعلم منه الحلم، كما تختلفون إليّ لتعلّم الفقه!

* وقيل له يوماً: ممن تعلمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم المنقريّ، رأيته قاعداً بفناء داره مُحْتبياً بحمائل سيفه، يُحدّث قومه، حتىٰ أُتي برجل مَكْتوف ورجل مقتول، فقيل له: هذا ابن أخيك قتل ابنك! قال: فوالله ما حلّ حَبْوته ولا قطع كلامه، ثم التفت إلىٰ ابن أخيه فقال: يا بن أخي، أَثِمْتَ بربك، ورمَيْت نفسك بسهمك، وقتلتَ ابن عمك! ثم قال لابن له آخر: قُمْ يا بني فَوارِ أخاك، وحُلّ كِتافَ ابن عمّك وسُقْ إلىٰ أمّه مائة ناقة دِيةَ ابنها فإنها غريبة! وقيل: إنه بدأ بإطلاق القاتل قبل دفن المقتول! ويروىٰ أنه قُتل للأحنف ولد، وكان الذي قتله أخ للأحنف، فجيء به مكتوفاً ليُقيدَه، فلمّا رآه الأحنف بكىٰ وقال:

أقولُ للنفس تَأْسَاءً وتعزيةً — إحْدىٰ أصابَتْني ولم تُرِدِ
كلاهُما خَلَفٌ من فَقْدِ صاحبهِ — هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي!

ثم قال: روّعْتم أخي، أطلقوه!

* ومما جاء في حلم الأحنف، أنّ رجلاً قال له: إن قلت واحدة لتسمعنّ عشراً! فقال: إن قلت عشراً لم تسمع واحدة! وشتم سفيه حكيماً وهو ساكت! فقال السفيه: إياك أُعني، فقال: وعنك أُغضي! وقال رجل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: لأَسُبّنّكَ سبّاً يدخل معك قبرك! فقال له: معك والله يدخل، لا معي! وسبّ رجل الأحنف وهو يماشيه في الطريق، فلما قرُب من المنزل وقف الأحنف وقال: يا هذا إنْ كان قد بقي معك

شيء فهات وقُلْه ههنا، فإني أخاف أنْ يسمعك فتيان الحي فيؤذوك! ونحن لا نحب الانتصار لأنفسنا!

* وقيل: أوّلُ عِوَض الحليم من حلْمه أن الناسَ أنصارُه على الجهول. شتم رجلٌ عمر بن ذرّ، فقال له: يا هذا لا تُغْرِقْ في شَتْمنا ودَع للصلح موضعاً، فإني أمَتُّ مُشَاتَمةَ الرجال صغيراً ولن أُحييها كبيراً، وإني لا أُكافئ مَنْ عصى الله فيّ بأكثر من أنْ أُطيع الله فيه!

* قال الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم في معلقته:

ألا هُبّي بِصَحْنِكِ فاصْبَحينا ... ولا تُبْقي خُمورَ الأنْدرِينا

صَدَدْتِ الكأسَ عَنّا أُمَّ عَمْرٍو ... وكانَ الكأسُ مَجراها اليمينا

ومَا شَرُّ الثّلاثَةِ أُمَّ عَمْرو ... بصاحِبِكِ الذي لا تَصْبَحِينا

أبَا هِنْدٍ فَلا تَعْجَلْ عَلَيْنا ... وأَنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ اليقينا

بِأَنّا نُوردُ الرّاياتِ بِيضاً ... ونُصْدِرُهُنّ حُمْراً قَدْ روينا

ألاَ لاَ يَعْلَمُ الأقْوامُ أنّا ... تَضَعْضَعْنا وأَنّا قَدْ وَنينا

ألاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنا ... فَنَجْهَلَ فَوقَ جَهْلِ الجَاهِلينا

ونَشْرَبُ إنْ وَرَدْنَا الَماءَ صفْواً ... ويَشْرَبُ غَيْرُنَا كَدِراً وطِينا

لَنَا الدُّنْيَا ومَنْ أمْسَى عَلَيْها ... ونَبْطِشُ حَينَ نَبْطِشُ قَادِرِينا

بُغَاةٌ ظَالِمينَ وَمَا ظُلِمْنَا ... وَلكِنّا سَنَبْدأُ ظَالمِينَا

مَلأنَا البَرَّ حَتّى ضاقَ عَنّا ... وَنحنُ البَحْرُ نَمْلؤُهُ سَفِينا

إذا بَلَغَ الرَّضيعُ لَنَا فِطاماً ... تَخِرُّ لَهُ الجَبابِرُ ساجِدِينا!!

* وفي بعض هذه الأبيات من المعاني الجاهلية والمبالغة والأكاذيب ما لا يخفى!

* هبي: استيقظي، واسقينا الصبوح وهو شرب الخمور في الغداة، والأندرين، بلدة

في بادية الشام، جهة تدمر. وصددت: صرفت، ويقول: أنا لست شرّ الثلاثة لتعدل عني الكأس. وأبو هند: عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة من آل المنذر.

* يقول عنترة:

نصبنا بالذوابل سوق حربٍ ... وصيرنا النفوس لها متاعا
حصاني كان دلاّل المنايا ... فخاض غمارها وشرىٰ وباعا
وسيفي كان في الهيجا طبيباً ... يداوي رأس من يشكو الصداعا
ولو أرسلت رمحي مع جبان ... لكان بهيبتي يلقىٰ السباعا
ملأتُ الأرض خوفاً من حسامي ... وخصمي لم يجد فيها اتساعاً
إذا الأبطال فرّت خوف بأسي ... ترىٰ الأقطار باعاً أو ذراعاً

* كان أبو بكر المبارك بن سعيد بن الدهان النحوي الملقب بالوجيه، حليماً لا يغضب، فتراهن جماعة مع واحد أنه إن أغضبه كان له كذا وكذا.. فجاء إليه فسأله عن مسألة في العربية فأجابه فيها بالجواب، فقال له السائل: أخطأت أيها الشيخ..! فأعاد عليه الجواب بعبارة أخرىٰ، فقال: كذَبتَ.. وما أراك إلا قد نسيت النحو..! فقال الوجيه: أيها الرجل فلعلك لم تفهم ما أقول لك..؟! فقال: بلىٰ ولكنك تخطئ في الجواب.! فقال له: فقل أنت ما عندك لنستفيد منك..؟ فأغلظ له السائل في القول..! فتبسّم ضاحكاً وقال له: إن كنتَ راهنت فقد غُلبتَ.. وإنما مثلك مثل البعوضة.. سقطت علىٰ ظهر الفيل، فلما أرادت أن تطير قالت له: استمسك فإني أحب أن أطير..! فقال لها الفيل: ما أحسستُ بك حين سقطتِ.. فما أحتاج أن أستمسك إذا طِرْتِ..!!

* قال العاصم بن المصطلق: دخلت المدينة فوجدت فيها الحسن بن علي بن أبي طالب فأعجبني سَمْته وحُسْن رؤيته، فقلت له: أنت ابن علي؟ قال: نعم، قال: فبالغت في شتمه وشتم أبيه! فنظر إليّ نظر عاطف رؤوف وقال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم «خذ

العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين» أستغفر الله لي ولك، إنك لو استعنتنا لأعنّاك، ولو استرشدتنا لأرشدناك! فلما رأىٰ العاصم هذه المقابلة الطيبة أثرت فيه تأثيراً قوياً، ثم قال: ندمت علىٰ ما فعلت، فقال الحسن: لا تثريب عليك اليوم يغفر الله لي ولك. . أمن أهل الشام أنت؟ قال: نعم، قال: حياك الله وبياك وعافاك، ابسط لنا في حوائجك، تجد عندنا أفضل ظنك، قال العاصم: فضاقت عليّ الدنيا برحبها وظننت أنها ساخت بي، ثم انسحبت منه لواذاً، وما علىٰ وجه الأرض أحد أحبّ إلي منه ومن أبيه!

حلم معن بن زائدة

* كان الأمير مَعْنُ بن زائدة مشهوراً بالحلم معروفاً بالكرم، وبلغ بهذين الأمرين شأواً بعيداً، حتىٰ أصبح مَضْرب المثل بهما، قدم عليه أعرابي وهو في العراق يريد أن يمتحن حلمه فقال:

أَتَذْكُر إذْ لحافك جِلْدُ شاة ... وإذْ نَعلاك من جلد البعير؟!

قال: نعم، أذكر ذلك ولاأنساه! فقال:

فسبحان الذي أعطاك ملكاً ... وعلمك الجلوسَ علىٰ السرير!

قال سبحانه وتعالىٰ!، قال:

فلسْتُ مُسلِّماً إنْ عشْت دهراً ... علىٰ معنٍ بتسليم الأمير!

قال: يا أخا العرب، السلام سنّة، قال:

سأرحلُ عن بلاد أنت فيها ... ولو جار الزمان علىٰ الفقير!

قال: يا أخا العرب، إن جاورْتنا فمرحباً بك، وإن رحلت فمصحوباً بالسلامة، قال:

فجُدْ لي يا ابن ناقصة بشيء ... فإني قد عزمت علىٰ المسير

قال: أعطوه ألف دينار، يستعين بها علىٰ سفره، فأخذها وقال:

قـلـيـلٌ مـا أتـيـت بـه وإنـي … لأطـمـع مـنـك بـالمـال الـكـثـيـر!

قال: أعطوه ألفاً آخر، فأخذها وقال:

الـلـه أن يُـبـقـيـك ذخـراً … فـمـا لـك فـي الـبـريّـة مـن نـظـيـر!

فقال: أعطوه ألفاً آخر، فقال الأعرابي:

أيها الأمير، ما جئت إلا مختبراً حلمك، لِمَا بلغني عنه، فلقد جمع الله فيك من الحلم ما لو قسم على أهل الأرض لكفاهم! فقال معن: يا غلام كم أعطيته على نظمه؟ قال: ثلاثة آلاف دينار، فقال: أعطه على نثره مثلها، فأخذها ومضى في طريقه شاكراً!

بين الحلم.. والذلّ

* والحلم إذا أوصل صاحبه إلى حد الذلّ والاحتقار فإنه لا يحمد، وقد قيل: آفة الحلم الضعف والذل. وقيل: من عُرف بالخير اجترأ عليه الناس، ومن عُرف بالشر هابه الناس وتجنبوه. وقيل: لا حِلْم لمن لا سفيه له. وما قلّ سفهاءُ قوم إلا ذلّوا.

لابـدّ لـلـسـؤدد مـن رِمـاح … ومـن رجـالٍ مُـصَـلّـتـي الـسـلاح

يُـدافـعـون دونـه بـالـرَّاح … ومـن سـفـيـهٍ دائـم الـنُّـبـاح

* وقال النابغة الجعدي:

ولا خـيـرَ فـي حِـلْـم إذا لـم تـكـن لـه … بـوادرُ تحـمـي صَـفْـوه أنْ يُـكَـدّرا

ولا خـيـر فـي جـهْـلٍ إذا لـم يـكُـنْ لـه … حـلـيـم إذا مـا أوْرَدَ الأمـر أصـدرا

ولّما أنشد هذين البيتين أمام النبي ﷺ قال له: لا يَفْضُض الله فاك. قال: فعاش مائة وثلاثين سنة لم تَنْفَض له ثَنِيّة ـ أي لم تتحرك ولم تضطرب له سِنّ ـ.

* وقالوا: لا يظهر الحلم إلا مع الانتصار، كما لا يظهر العفو إلا مع الاقتدار.

* وقال الشعبي: يُعجبني الرجل إذا سِيمَ هواناً دعَتْه الأنَفَة إلى المكافأة، وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مِثْلُها، ورُفع كلامُه إلى الحجاج فقال: لله درّه! أيّ رجلٍ بين جَنْبيه!

* وقال رجل لابن سيرين: إني وقعتُ فيك فاجعلني في حلٍّ، قال: ما أُحبّ أنْ أُحلّ لك ما حرّم الله عليك! والكريم يستصلح بالكرامة واللئيم بالمهانة ولا ينفع معه العفو والتسامح، فإن هذا يُجرّؤه.

إذا أنت أكرمْتَ الكريمَ مَلكْتَه | وإنْ أنت أكْرمتَ اللئيم تمرّدا
فوضْعُ النّدىٰ في موضع السيف بالعُلىٰ | مضرٌّ كوضع السيفِ في موضع النّدىٰ

* ولهذا قالوا: استعمال الحلم مع اللئيم أضرّ من استعمال الجهل مع الكريم.

لئنْ كنتُ محتاجاً إلىٰ الحِلْم إنّني | إلىٰ الجهل في بعض الأحَايين أحْوجُ
ولي فرسٌ للحلم بالحلم مُلْجَمٌ | ولي فرسٌ للجَهْل بالجهل مُسْرجُ
فَمَنْ رَامَ تقْويمي فإنّي مُقوَّم | ومَنْ رامَ تعويجي فإنّي مُعوّجُ
وما كنتُ أرْضىٰ الجهلَ خِدْناً وصاحبا | ولكنني أرضىٰ به حين أُحْرَجُ
ألا ربما ضاقَ الفضاءُ بأهله | وأمْكنَ من بين الأَسِنّةِ مَخْرَجُ
وإنْ قال بعض الناس: فيه سماجة | فقد صدقوا! والذُّلُّ بالحُرّ أسْمَجُ!

* والحليم إذا سكت فليس عن ضعف، وقد قيل: اتقوا غضبة الحليم، وإذا ثار فإنه يثور بقوة وعنف، وإذا لم تنفع الكرامة فالإهانة أحزم.

* وقد تكون الاستعانة بالجهال والسفهاء مناسبة لكبح جماح الصغار والأوغاد لئلا يتجرؤوا علىٰ الكبار ويتطفّلوا عليهم.

* ولهذا قيل: أكرموا سفهاءكم فإنهم يكفونكم النار والعار!

* وقيل: اجعل لكل كلب كلباً يهرّ دونك، فالعرض لا يصان بمثل سفيه يصول وحادٍ يقول:

ولا يلبث الجهالُ أنْ يتهضّموا | أخا الحلم، ما لم يستعن بجهولِ

* بينما أحد الأشراف جالس، إذْ أقبل أعرابي فلطمه، فقام إليه رجل فجَلدَ به الأرض! فقال حكيم: ليس بعزيز من ليس في قومه سفيه!

العفو من شيم الكرام

* واستيفاء الحق والإنصاف من الظالم مشروع ولا غبار عليه، ولك هناك درجة فوق الأخذ بالحق والعدل وهي درجة «العفو» التي لا يصلها إلا عظماء النفوس. قيل لرجل: هل لك في الإنصاف أو ما هو خير من الإنصاف؟ قال: وأي شيء خير من الإنصاف؟ قال: العفو، فالإنصاف ثقيل!

* وقد استطاب أناس العفو وشعروا بلذته وأدركوا قيمته وهم في أوج ملكهم وقدرتهم.

* كان المأمون يحب العفو ويؤثره ويقول: لقد حُبِّبَ إليّ العفو، حتى إني أخاف ألاّ أُثابَ عليه!

* وكان يقول: لو علم أهل الجرائم لذّتي في العفو لارتكبُوها، وقال: لو علم الناس حبّي للعفو لما تقرّبوا إليّ إلا بالجنايات!

* وكان الأحنف يقول: ما آذاني أحد إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث، إنْ كان فوقي عرفْتُ له فضله، وإنْ كان مثلي تفضّلْتُ عليه، وإن كان دوني أكرمْتُ نفسي عنه! وقيل فيمن أسرف في القتل والاعتداء: فلان يعاقب عقوبة مَنْ لم يسمع بالعفو.

* صَكّ رجل ابناً لقتادة بن دعامة أبي الخطاب فاستعدى عليه عند بلال بن أبي بردة فلم يلتفت إليه.. فشكاه إلى القسري، فكتب إلى بلال: إنك لم تنصف أبا الخطاب.. فدعاه ودعا وجوه أهل البصرة يتشفعون إليه، فأبى أن يُشفّعهم فقال له: صكّه كما صكّك، فقال لابنه: يا بني احْسر عن ذراعيك.. وارفع يديك.. وشدّ.. قال: فحسر عن ذراعيه ورفع يديه فامسك قتادة يده وقال: قد وهبناه لله.. فإنه كان يقال: لا عفو إلا بعد قدرة..!

* يقول الشاعر الحَيْص بَيْص :

مَلَكْنَا فَكَانَ العَفْوُ مِنَّا سَجِيةً ... فَلَمَّا مَلَكْتُمْ سَالَ بالدَّمِ أَبْطَحُ
وَحَلَّلْتُمْ قَتْلَ الأسَارىٰ وطَالَمَا ... غَدَوْنَا عَلَىٰ الأسرىٰ نَمُنُّ ونَصْفَحُ
وحَسْبُكُمُ هَذَا التَّفَاوتُ بَيْنَنَا ... وكَلُّ وِعَاءٍ بالذي فيهِ يَنْضَحُ

* والشاعر الحَيْص بَيْص هو شهاب الدِّين أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد بن صيفي التَّميمي. كان وافرَ الأدب، متضلعاً من اللغة، بصيراً بفقه الشافعية والمناظرة. قال ابن خَلِّكان: كان لا يخاطب أحداً إلاّ باللغة العربية، ويلبس علىٰ زي العرب، ويتقلد سيفاً، فرأىٰ الناس في حركة مزعجة فقال: ما للناس حَيْص بَيْص؟! فَلُقِّب بذلك!!

* قال ابن أبي عمرو الشرابيّ حاجب أمير المؤمنين المطيع لله:

دخلت في حداثتي يوماً علىٰ أبي السائب القاضي، فقصّر في القيام، وأظهر ضعفاً عنه للسنّ، والعلل المتّصلة به، وتطاول لي، فجذبت يديه بيديّ، حتىٰ أقمته القيام التامّ! وقلت له: أُعينُ قاضي القضاة ـ أيّده الله ـ علىٰ إكمال البرّ، وتوفية الإخوان الحقّ! قال: وقد كنت عاتباً عليه في أشياء عاملني بها، وإنّما جئته للخصومة، فبدأت لأصل الكلام، فحين رأىٰ الشرّ في وجهي، قال: تتفضل باستماع كلمتين ثم تقول ما شئت! فقلت له: قل. فقال: روينا عن ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ قال: عفو بلا تقريع، فإن رأيت أن تفعل ذلك، فعلتَ. فاستحييت من الاستقصاء عليه!!

* وقد يعتذر مَنْ أخطأ أو جهل بعبارات لطيفة وأجوبة حسنة وأسلوب رقيق فينجو من العقاب حتىٰ ولو لم يكن الرجل حليماً.

* أمر زيادٌ بضرب عنق رجل فقال: أيها الأمير: إن لي بك حرمة! قال: وما هي؟ قال: إن أبي جارك بالبصرة. قال: ومَنْ أبوك؟ قال: يا مولاي إني نسيتُ اسم نفسي، فكيف لا أنسىٰ اسم أبي! فردّ زياد كُمّه علىٰ فمه وضحك وعفا عنه!

* وانقطع عبدالملك عن أصحابه يوماً فانتهى إلى أعرابي فقال: أتعرف عبدالملك؟ قال: نعم، جائر بائر! قال: ويحك أنا عبدالملك! قال: لا حيّاك الله ولا بيّاك ولا قرّبك، أكلْتَ مال الله، وضيّعت حرمته! قال: ويحك أنا أضرّ وأنفع! قال: لا رزقني الله نفعك ولا دفع عني ضرك! فلما وصلت خَيْلُه، عَلم صدْقه، فقال: يا أمير المؤمنين، اكتم ما جرى بيننا فالمجالس بالأمانة!!

تأملات

* تقابل صديقان بعد فراق دام عشرين عاماً فقال أحدهما للآخر:

- ما هو أهم حادث جرى لك في هذه المدة.

- لقد تزوجت.

- شيء جميل.. هل هي جميلة؟

- لا.. مع الأسف إنها دميمة جداً.

- شيء فظيع.

- لا.. ليس فظيعاً.. فإنها تمتلك ضيعة كبيرة.

- إنها تعويض لا يستهان به.

- لا.. إنها بخيلة جداً، لا يفلت القرش من أصابعها إلا بصعوبة.

- شيء مؤلم.

- لا شيء مؤلم، لأن هناك قصراً كبيراً تملكه هي ونعيش فيه نحن الاثنان.

- عظيم.

- ليس عظيماً فقد دمر القصر حريق كبير أمس.

- شيء محزن.

- ليس محزناً فقد كانت زوجتي داخله واحترقت معه!

التواضع... من أخلاق الكبار!

خُلُقُ التواضع هو أحدُ مصائد الشَّرف، فمن حقوق الشرف، أنْ يتواضع الشخصُ لَمَنْ هو دونه، ويُنْصِفَ مَنْ هو مثله، ويَنْبُل على مَنْ هو فوقه، والتواضع في الشرف أشرفُ من الشرف نفسه!. ولن تجدَ سيداً كريماً إلا متواضعاً ليّن الجانب جميل المعاشرة، ومن لم يتّضعْ عند نفسه لم يرتفعْ عند غيره، وأكرمْ بنعمة لا تجد عليها حاسداً، فلن تجد من يحسدك على التواضع، وأفضل الناس من تواضع عن رِفْعة، وزَهِدَ عن قُدْرة، وأنْصَفَ عن قوة.

* قال معاوية لرجل: مَنْ سيّد قومك؟ فقال: أجْأهم الدهرُ إليَّ! فقال: بمثل هذا التواضع يحلّ الشرف.

* وقال عمر حين نظر إلى رجل مبتذلٍ لأصحابه: هذا رجل يفرّ من الشرف، والشرفُ يَتْبعه!.

* ويكفي أن التواضعَ خُلُقُ الأنبياء والعلماء والصلحاء: ولو لَمْ يكن فيه إلا اتباع أولئك لكفى بذلك مجداً وشرفاً.

تَواضعْ كالنّجم لاحَ لناظرٍ على صفحاتِ الماءِ وهو رفيعُ
ولا تكُ كالدخان يعلو بنفسه إلى طبقات الجو وهو وضيعُ

* ويُحدّد عمر رضي الله عنه صفات الوالي الناجح، والحاكم الذي يحتفظ بهيبة الحكم والولاية مع تواضع جمّ، وخفض جناح للمؤمنين فيقول: أُريدُ رجلاً إذا كان في القوم وهو أميرهم كان كبعضهم، فإذا لم يكن أميرهم، كان كأنه أميرهم!.

* ومَنْ وضع نفسه دون قَدْرِه، رفَعَهُ الناسُ فوق قَدْره! وَمَنْ رفعها عن حدّه، وضَعَهُ الناسُ دون قَدْره.

* ومن الحكم المأثورة: إذا اتخذكم الناس رؤوساً فكونوا أذناباً.

* وقيل لأحدهم: فلانٌ غَيَّرتْهُ الولاية!، فقال: إذا وَلِيَ الرجلُ ولايةً يَرىٰ أنه أكثرُ منها لم يتغيَّر. فالذي يتكبر ويتطاول إذا نال الإمارة وارتفع شأنه وعَلَتْ مكانته، فإنه حتماً نال فوق قدْره، ومنصبه أعلىٰ منه، ومَنْ تواضعَ بعد أنْ نال المنصب وحظي بالشرف، دلَّ ذلك علىٰ أنه أكبر من الوظيفة، ونفسه أعظم من هذا المنصب.

الكبير يخجله المديح

* ومن علامة الرجل الكريم أنك كلما مدحته وأثنيت عليه ازداد خجلاً وتواضعاً، ومن علامة الرجل اللئيم الوضيع، أنك إذا مدحْته انتفخَ وانتفش وشمَخَ بأنفه وتعالىٰ بنفسه. قال أحد الحكماء: وجدْنا التواضعَ مع الجهلِ والبخل أحْمدَ عند العقلاء من الكبْر مع الأدب والسّخاء، فأنْبِلْ بحسنة غَطَّت سيئتين، وأَقْبِحْ بسيئة غطَّتْ علىٰ حسنتين.

* وسئل الحسن عن التواضع فقال: هو التكبّر علىٰ الأغنياء.

* وقال ابن المبارك: التَّعزُّزُ علىٰ الأغنياء تواضع، إذْ إنَّهُ ليس من التواضع أن يذلّ المرء نفسه بين يدي الأغنياء وعلىٰ أبواب الرؤساء، فإن من التواضع ما يضع! وينبغي أنْ نُفرِّقَ بين الذلّ والتواضع، ولا يحلّ للمؤمن أنْ يُذِلّ نفسه، بل عليه أن يحفظ كرامته ويصونَ شخصيته، وقد يتظاهر الشخص أمام مَنْ له إليه حاجة ولديه القدرة علىٰ الإيذاء، بالتودد له، والعطف عليه مخافة شرِّه لا حباً فيه، وهذا من باب المداراة وفي المثل: الحُمَّىٰ أضْرَعَتْني لك، ودَارِهم ما دُمْت في دارهم، وأرضِهم ما دُمْتَ في أرْضهم، قال أحد الشعراء:

اسْجدْ لِقِرْدِ السُّوءِ في زَمانِهِ   ودارِه ما دامَ في سُلْطانِهِ

* ومن التواضع الرضا بالدّون من شرف المجلس، وأن تُسلّم علىٰ مَنْ لقيتَ.

* وكان من أخلاق رسول الله ﷺ التواضع: فكان يجلس علىٰ الأرض ويأكل عليها ويجيب دعوة المملوك ويركب الحمار ويقول: إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد. ووقف بين يديه رجل وهو يَرْتَعِد، فقال: «هوِّنْ عليك فإنما أنا ابنُ امرأةٍ من قريش كانت تأكل القديد». ـ القديد: اللحم المجفف.

* وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم أحْيني مسكيناً وأمِتْني مسكيناً واحْشُرْني في زُمْرة المساكين».

* وجلس النجاشي يوماً على الأرض والتاج على رأسه، فاستغرب الناس ذلك فقال: إني وجدت فيما أنزل الله على المسيح: إذا أنْعَمتُ على عبدي نعمةً فتواضع أتْممْتها عليه، وإنه وُلِد لي هذه الليلة غلامٌ، فتواضعت شكراً لله.

تواضع عمر بن الخطاب

ولـمَّا أهمَّ قيصرَ ملك الروم أَمْرُ أميرِ المؤمنين عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، أرسل رسولاً لينظر أحواله ويشاهد أفعالَه، فلما دخل المدينةَ سأل أهلَها وقال: أين ملككم؟ فقالوا: ما لنا ملك، لنا أمير، وقد خرج، فطلبه حتى وجده نائماً في ناحية المسجد وقد وضع درّته كالوسادة تحت رأسه، فلما رآه على تلك الحالة امتلأت نفسه رُعْباً من عمر، فقال: هذا والله الملك الهنيء لا يحتاج إلى حراس ولا إلى عدد، ووقع الخشوع في قلبه وقال متعجباً: رجلٌ تكونُ ملوكُ الأرض تهابُه، ولا يقرّ لهم قرار من عظيم هيبته، تكون هذه حالته!! لكنك يا عمر عدلْتَ فأَمِنْتَ فَنِمْتَ، ومَلِكُنا جارَ، لا جرم أنه لا يزال ساهراً خائفاً، أشهد أنَّ دينكم لدين حَقٍّ!.

* ولما توجه عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبيت المقدس فاتحاً طلب منه قادة المسلمين أن يلبس الثياب المُزركشة وأن يركب البرذون لأن الناس في بيت المقدس اعتادوا أن يروا قساوستهم يلبسون الثياب المزركشة! فقال لهم: إنكم ترون الأمر من هاهنا، وإن الأمر من ها هنا وأشار بيده إلى السماء ثم قال: خلّوا سبيلي!

وصور هذا الموقف شاعر النيل حافظ إبراهيم في أبيات من الشعر فقال:

ماذا رأيت بباب الشام حين رأوا ... أن يلبسوك من الأثواب زاهيها
ويُركبوك على البرذون تقدمهم ... خيل مطهمة تحلوا مرائيها
مشى فهملج مختالاً براكبه ... ومن البراذين ما تزهو بعاليها

فصحت: يا قوم كاد الزهو يقتلني وداخلتني حال لست أدريها
وكاد يصبوا إلى دنياكم عمر ويبتغي بيع باقيه بفانيها
ردوا ركابي فلا أبغي بدلاً ردوا ثيابي فحسبي اليوم باليها!

* البرذون: البغل القوي. وهو نوع من الخيل غير العربية، ويسمّى في بلاد الشام لدى العامة: الكَديش!. الزهو: أي الكبر.

* ومن تواضعه المأثور ما روي أنه خرج رضي الله عنه يوماً فلقيته امرأة من قريش فقالت له: يا عمر، فوقف لها، فقالت له: كنا نعرفك مدة عُمَيْراً، ثم صرتَ بعد عُمَيْر، عُمَرَ، ثم صِرْتَ بعد عمر، أميرَ المؤمنين، فاتق الله يا ابن الخطاب، فانظرْ في أمور الناس، فإنه من خاف الوعيد قَرُبَ عليه البعيدُ، وَمَنْ خاف الموت، خَشِيَ الفَوْتَ. فقال لها رجل مع عمر: إيهاً يا أمة الله لقد أبْكَيْتِ أميرَ المؤمنين، فقال له عمر: أَتَدْري من هذه؟ ويحك هذه خولةُ بنتُ حكيم التي سمع الله قولها من سمائه، فعمرُ أحرى أن يسمع قولها ويَقْتدي به!!.

* وقال ثابت بن أبي مالك: رأيت أبا هريرة رضي الله عنه أقْبل من السوق وعلى رأسه حزمة من حطب وهو يومئذ خليفة لمروان! فقال: وسِّع الطريق للأمير يا ثابت بن أبي مالك!.

* وقال زيد بن وهب: رأيت عمر بن الخطاب خرج من السوق وبيده الدِّرَّةُ وعليه كساءٌ فيه أربع عشرة رقعة بعضها من أدم ـ جلْد ـ! وعوتب في إزار مرقَّع فقال: يقتدي به المؤمن ويخشع به القلب!. وقيل إن درّة عمر كانت من جلد نعْل رسول الله ﷺ، ولذلك ما كان يخفق بها أحداً إلا تاب!

* وروي أن عمر لما كان في مسيره إلى بيت المقدس جعل بينه وبين غلامه مناوبة، فكان عمر يركب الناقة، ويأخذ الغلام بزمامها، ويسير مقدار فرسخ، ثم ينزل ويركب الغلام، فيأخذ عمر بالزمام ويسير فرسخاً، فلما قرب من الشام كانت نوبة الغلام في

الركوب، فأخذ عمر بالزمام فاستقبله الماء في الطريق فجعل يخوض فيه وهو آخذ بزمام الناقة، فخرج أبوعبيدة بن الجراح وكان أميراً على الشام، فقال: يا أمير المؤمنين إن عظماء الشام يخرجون إليك فلا نَختار أن يَرَوْكَ على هذه الحالة، فقال رضي الله عنه: إنما أعزَّنا الله بالإسلام فلا أُبالي بمقالةِ الناس!.

تواضع عمر بن عبدالعزيز

* وعلى هذا الخُلق الرفيع سار الخليفة عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه: فقد أتاه ليلة ضيفٌ، وكان يكتب، فكاد السراج أن ينطفئ، فقال الضيف: أقوم إلى المصباح فأصلحه؟ فقال عمر: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه. قال: أفأنبِّه الغلامَ؟ قال: هي أوَّل نومة نامها، فقام عمر فملأ المصباح زيتاً وأصلحه! فقال الضيف: قمْتَ أنت بنفسك يا أمير المؤمنين؟!! فقال: ذهبتُ وأنا عمر ورجعْتُ وأنا عمر، وخيرُ الناس مَنْ كان عند الله متواضعاً!.

* وكان قبل أن يتولى الخلافة، تُشترى له الحُلَّة بألف دينار، فيقول: ما أجْودها لولا خشونة فيها! فلما استُخلف كان يُشترى له الثوب بخمسة دراهم فيقول، ما أجوده لولا لينُه! فقيل له: أين لباسُك ومركبُك وعطرُك؟ فقال: إن لي نفساً ذوَّاقة توَّاقة، وإنها لم تذق من الدنيا طبقة إلا تاقت إلى الطبقة التي فوقها، حتى إذا ذاقت الخلافة وهي أرفع الطبقات، تاقت إلى ما عند الله!!

* وبمثل هذا الخلق عُرف العلماءُ والصلحاء والحكماء: فكان التواضعُ شيمتهم، وخفضُ الجناح طبعهم. جلس الأحنف يوماً على باب داره، فمرَّت به ساقية فوضعت قربتها وقالت: يا شيخ احفظ قربتي حتى أعود، ومضت، فأتاه من يدعوه فقال: انهض، فقال الأحنف: إن معي وديعة، وقام عليها حتى جاءت المرأة فأخذتها!.

* ولما كان سلمان الفارسي رضي الله عنه أمير المدائن مرَّ به رجل قد اشترى حاجة وهو لا يعرفه فقال له: احمل هذا معي يا عِلْجُ! فحمله وكان مَنْ يتلقاه يقول: ادفعه إليَّ

أيها الأمير، فيقول: لا والله لا يحمله إلا العلجُ، والرجل يعتذر إليه ويسأل أن يرده عليه، وهو يأبىٰ حتىٰ حمله إلىٰ مقرّه!!

* ومن التواضع أن يحمل الرجل بيده ما يشتريه لأهله وعياله. اشترىٰ أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه لحماً بدرهم فحمله في ملحفة، فقال له رجل: أحمل عنك يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا، أبو العيال أحق أن يحمله!.

* وحقاً ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله، فسبحان مَنْ تواضعَ كل شيء لعز جَبَرُوتِ عظمته.

تأملات

* لا تجادل الأحمق، فقد يخطئ الناس في التفريق بينكما!

* لا تحمل كل ما لديك من البيض في سلّة واحدة.

* من يطارد عصفورين يفقدهما جميعاً.

* تضحك المرأة عندما تستطيع، وتبكي عندما تريد!

* حضر الزوجان إحدىٰ المسرحيات، فتأثر الزوج وبكىٰ بحرقة، أما الزوجة فلم تستطع أن تبكي، لأنها كانت مدعوة إلىٰ حفلة عشاء بعد ذلك!

* حتىٰ الذين أضحت شجاعتهم مضرب المثل، لا يمكنهم الادعاء أن الخوف لم يتطرق إلىٰ قلوبهم!

* الذي لا يخاطر بشيء لا يفوز بشيء.

* ليست الشجاعة في أن تقول كل ما تعتقده، بل الشجاعة في أن تعتقد كل ما تقوله!

* السقوط ليس فشلاً، ولكن الفشل أن تبقىٰ حيث سقطت!

* الفشل هو الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يحققه كل إنسان دون أن يبذل أي مجهود!

التكبر والغرور

* الكِبر والعُجب بالنفس ما هو إلا فضل حُمْق، لم يدْرِ صاحبه أين يضعه فصرفه إلىٰ الكِبْر والتعالي علىٰ الناس. وما وجد أحدٌ في نفسه كِبْراً إلا من مهانة يجدها في نفسه! ولـمَّا عرف أهل التقصير والدناءة حالهم ومكانتهم عند أهل الفضل والكمال، استعانوا بالكِبْر ليعوِّضوا ما فاتهم من الرفعة والسؤدد، فكانوا بذلك كَمَنْ يَتطهّرُ ببوله ويتطيّب بنجاسته!!

* ولا يليق بابن آدم إلا التواضع وبسط الجناح ولين الجانب، مرَّ بعضُ أولاد المهلب بمالك بن دينار وهو يَخْطِر في مشيته، فقال له: يا بُني، لو خَفَّضت بعض هذه الخيلاء! ألم يكن أحسن بك من هذه الشّهرة التي قد شَهَرْتَ بها نفسك؟ فقال له الفتىٰ: أوَ مَا تَعْرِفُ مَنْ أنا؟ قال: بلىٰ! والله أعرفك معرفة جيدة، أَوَّلُك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قَذِرة، وأنت بين ذلك حامل عَذِرة! فاستحيا الفتىٰ وأرخىٰ رُدَيْنه، وكفَّ مما كان يفعله، وطأطأ رأسه، ومضىٰ مسترسلاً.

* ومرَّ عبدالله بن سلام بالسوق وهو يحمل حُزْمة حطب، فقيل له: أليس قد أغناك الله عن هذا؟ قال: بلىٰ! ولكني أردت أن أقمع به الكِبْر، سمعت رسول الله يقول: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر» رواه مسلم.

* وكان الأحنف يقول: عجبتُ لمن خرج من مجرىٰ البول مرتين كيف يتكبر!.

* وقالوا عن سبب الكِبر ودوافعه، أن ذلك ناتج عن الشعور بالنقص والمهانة وإلا فإنه لا يتكبر إلا كل وضيع، ولا يتواضع إلا كل رفيع، والسَّفِلَة إذا اغتنوا تكبروا وبطروا، وإذا افتقروا ذلوا وتواضعوا.

* وقف عُيَيْنة بن حصْن بباب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: استأذِنُوا لي علىٰ أمير المؤمنين وقولوا له: هذا ابن الأخيار بالباب! فأذِن له، فلما دخل عليه قال له: أنت ابن الأخيار؟ قال: نعم. قال له: بل أنت ابنُ الأشرار! وأما ابن الأخيار فهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

* ومن سنة الله في خلقه أن يضع المتكبر أو يهلكه كما فعل بفرعون وقارون وغيرهم حينما طغوا وتجبروا. قال العتبي: رأيت مُحْرزاً مولىٰ باهلة يطوف علىٰ بغلة بين الصفا والمروة، ثم رأيته بعد ذلك علىٰ جسر بغداد راجلاً، فقلت له: أراجلٌ أنت في مثل هذا الموضع؟ قال: نعم، إني ركبتُ في موضع يَمشي الناس فيه، فكان حقيقاً علىٰ الله أن يُرَجِّلني في موضع يركب الناسُ فيه. وكم من صَلَفٍ أدّىٰ إلىٰ تلف! ـ الصلف: التكبر ومجاوزة الحد ـ.

نوادر عن المتكبرين

* والعرب تجعل جذيمة الأبرش الغاية في الكِبْر، وكان لا ينادم أحداً ترفعاً وكبْراً ويقول: إنما يُنادِمُني الفرقدان! فكان يشرب كأساً ويصب لكل واحد منهما في الأرض كأساً!!.

* وكان الحجاج بن أرطأة يقول: قتلني حبٌّ الشرف! ولما قيل له: مالك لا تحضر صلاة الجماعة؟ قال: أخشىٰ أن يزاحمني البقالون!!.

* وقيل لرجل عظيم الكبْر: ألا تأتي الخليفة؟ قال: أخشىٰ ألا يحمل الجسر شرفي!! وقيل له: البس شيئاً فإنَّ البرد شديد، فقال: حَسَبي يُدْفئني!!.

* مرَّت امرأة بمعبد بن زرارة وكان جالساً علىٰ الطريق، فقالت له: يا عبدالله أين الطريق إلىٰ مكان كذا؟ فقال لها: ألمثلي يقال يا عبدالله؟!!

* وقيل لرجل متكبر: هل مرت بك أحْمِرَةٌ؟ فقال للسائل: تلك دواب لا يراها عمُّك!!

* وجلس رافع بن جبير بن مطعم في حَلْقة العلاء بن عبدالرحمن الخِرَقيّ وهو يُقْرئُ الناس، فلما فرغ قال: أتدرون لِمَ جلستُ إليكم؟ فقالوا: لتسمع، قال: لا، ولكن أردتُ التواضع لله بالجلوس إليكم!!.

* روي عن ابن ثوابة وكان من أقبح الناس كبْراً أنه قال لغلامه يوماً: اسقني ماء!

فقال: نعم. فأمر بضربه وصفعه، فقيل له في ذلك فقال: إنما يقول: نعم، مَنْ يَقْدر أنْ يقول: لا!!. وليس لهذا هذه المنزلة.

ودعا يوماً أَكَّاراً ـ الأكار الفلاح والحرَّاث ـ يكلمه، فلما فرغ من مخاطبته دعا بماء وتمضمض به استقذاراً لمخاطبته!!.

* وقال المسرور بن هند لرجل: أتعرفني؟ قال: لا، قال: أنا المسرور بن هند! قال: ما أعرفك، قال: فتعساً ونكساً لِمَنْ لَمْ يعرف القمر!!.

* قال أحد المتكبرين المعجبين بأنفسهم ممن صرعهم جنون العظمة.

أَتِيهُ علىٰ جِنّ البلاد وإنْسِهَا ... ولو لم أجد خَلْقاً لتِهْتُ على نفسي

اتيهُ فما أَدْري مِنَ التِّيه مَنْ أنا ... سِوىٰ ما يقولُ الناسُ فيَّ وفي جِنْسي

فإنْ زَعَمُوا أنّي مِنَ الأنسِ مثلهم ... فَمَا لِيَ عيبٌ غير أنّي من الإنْسِ!!

* مرَّ أحد المتكبرين في حاجة له، فانقطع شراك نَعْله، فنزع الأخرىٰ بقدمه ومضىٰ وتركهما ولم يُعرِّج عليهما!!

* ويظهر الكِبْر في الطبقات المتدنية إذا ارتفعت واغتنت أكثر من غيرها، وكثيراً ما نشاهد إنساناً متوسط الحال أو فقيراً، ويحسب الناس أنه حَمَل وديع، ليّن الملمس، طيِّب المعاشرة، لكن لا يلبث إذا اعتلىٰ منصباً أو امتطىٰ صهوة وظيفة عالية، أو تربّع علىٰ رصيد مالي كبير، أنْ يتنكَّر لمن كان يألفه ويعرفه، ويتيهُ علىٰ مَنْ كان يصحبه ويعاشره، وهذا دليلُ خسةٍ ولؤم، وسوء منبت ودناءة أصل. ولا يوجد متكبِّرٌ عَلا مَنْ دونه ـ بعد أنْ كانت الذِّلَّة والفقر تمنعان كبْره وتخفيانه ـ إلاَّ وهو يَذلّ لِمَنْ فوقه بمقدار كبْره وتعاليه علىٰ الآخرين!.

* ومع الكِبْر لا يدومُ المُلك، وحَسْبك من رذيلة تسلب السيادة والرياسة، وأعظم من ذلك أن الله حرم الجنة علىٰ المتكبرين فقال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)﴾ (القصص).

الوفاء... من مكارم الأخلاق

* الوفاء من شيم النّفوس الكريمة، والأخلاق الرفيعة، والخلال الحميدة، يَعْظُم صاحبه في العيون، وتَصْدُق فيه خطرات الظنون، والوعْدُ وجْهٌ والإنجاز محاسنه.

* وقالوا: الوعدُ سحابة، والإنجاز مطرُه. ووعد الكريم نقْدٌ وتعجيل، ووعد اللئيم مَطْل وتَعْليل!

* وقد أمر الله بالوفاء: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ (النحل: ٩١)، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (المائدة: ١)، وأثنى الله على نبيه إسماعيل عليه السلام لوفائه بالوعد ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ (مريم).

* ومدح الله ذوي الوفاء فقال: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ (البقرة: ١٧٧)، وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (المعارج).

* وإذا ذهب الوفاء نَزَلَ البلاءُ وحلّ السَّخَطُ، وقد بيَّن الله في كتابه أن القلة من الناس هم الذين يوفون ووصف عامّتهم بالغدر: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ (الأعراف).

* وأكرمُ الوفاء ما كان عند الشدّة، وألأمُ الغدر ما كان عند الثقة، ذكر أعرابي رجلاً فقال: أوّله طمع وآخره يأس، وما هو إلا كالسراب يخلف مَنْ رجاه ويغمّ من رآه!.

* كان مرداس في سجن عبيدالله بن زياد فقال له السجَّان: أنا أُحبُّ أنْ أوليك حُسْني، فإنْ أَذِنْتُ لك في الانصراف إلى دارك أفتُدْلج عليّ؟ قال: نعم، فكان يفعل ذلك به، فلما كان ذات يوم قتل بعضُ الخوارج صاحبَ شرطة ابن زياد، فأمر ابن زياد أنْ يُقْتل مَنْ في الحبْس من الخوارج، وكان مرداسُ إذْ ذاك خارجياً، فقال له أهله: اتّقِ الله في نفسك فإنك مقتولٌ إنْ رَجَعْتَ فقال: ما كُنْتُ لألْقى الله غادراً، وهذا جبّار، ولا آمنُ أنْ يقْتلَ السجّان، فرجع وقال للسجان: قد بلغني ما عَزم صاحبُك عليه منْ قَتْلِ أصحابِنا، فبادَرْتُ لئلاً يَلْحَقَك منه مكروه! فقال له السجَّان: خذ أيَّ طريق شئتَ فانْجُ بنفسِكَ، ونجّاك اللهُ!.

* والعرب تضرب المثل في الوفاء بالسموْءَل، وكان امرؤ القيس قد أودعه دروعاً، فأتاه الحارث بن ظالم ليأخذها منه، فتحصَّن منه السموءل، فأخذ ابناً له غلاماً وناداه: إنْ دفعْتَ الدّروعَ إليَّ وإلاَّ ذبحتُ ابنك! فقال: أَجِّلْني يوماً، فجمع عشيرته واستشارهم، فكلٌّ أشار بأن يدفع إليه، فلما أصبح قال: ليس إلى دفْعها سبيل! فافعل ما بدا لك! فذبح الملك ابنه، فوافى السموءل بالدروع الموْسم ودفعها إلى ورثة امرئ القيس!

* ومن أجمل ما يتحلى به الشخص، الوفاء بالعهد والالتزام بالشرط، وأقبح ما يوصف به ويعرف عنه الغدر والخيانة، فإنها تدل على لؤم وخسة وفساد.

مواعيد عرقوب

والعرب تضرب المثل في الخُلف بالوعد بعُرْقوب، وكان عُرْقوب رجلاً من العماليق فأتاه أخٌ له فسأله شيئاً، فقال له عرقوب: إذا أطْلع نخلي - أي إذا خرج طَلْعُه - فلمَّا أطلع أتاه، فقال له: إذا أبْلَحَ! فلمَّا أبْلَحَ أتاه، فقال: إذا أزْهى - أي تلوَّن بالحمرة والصفرة - فلمَّا أزهى أتاه، فقال: إذا أرْطب فلمَّا أرطب أتاه، قال: إذا صار تَمْراً، فلمَّا صار تمراً جذَّه ليلاً، ولم يُعْطِ أخاه شيئاً!! فضربتْ به العربُ المثلَ في خُلفِ الوعد.

قال الشاعر:

وَعَدْتَ وكان الخُلْفُ منْكَ سَجيَّةً ... مواعيدَ عُرْقُوبٍ أخاه بِيَتْرَبِ

* ويَتْرب موضع قريب من اليمامة.

* لمَّا أيقن مروان بن محمد بزوال ملكه قال لعبد الحميد الكاتب: قد احتجْتُ إلى أنْ تصيرَ مع عدوّي، وتُظْهرَ الغدْرَ بي، فإنَّ إعجابهم بأَدَبك وحاجتهم إلى كتابتك، تدعوهم إلى حُسْنِ الظنّ بك، فإن استطعت أنْ تنْفَعني في حياتك، وإلا لم تَعْجز عن حفظ حُرْمتي بعد وفاتي! فقال عبدالحميد: إن الذي أمرت به أنفعُ الأشياء لك وأقْبحُها بي، وما عندي إلا الصبر معك، حتى يفتح الله لك أو أُقْتَلَ معك!.

* ولما قتل عبدُ الملك بن مروان عمروَ بن سعيد، بعد ما صالحه وكَتَبَ إليه أماناً وأشهد

شهوداً، قال عبدالملك لرجل كان يستشيره ويصدرُ عن رأيه إذا ضاق به الأمر: ما رأْيُكَ في الذي كان منّي؟ قال: أَمْرٌ قد فاتَ دَرْكُه! قال: أقسمْتُ عليك لتقولنَّ، فقال: لو قَتلْته يا أمير المؤمنين وأنت حيّ كان جميلاً! فقال: أَوَمَا تراني حيَّاً؟ فقال: ليس بحيٍّ مَنْ أقام نفسه مقاماً لا يُوثق به في عقد ولا عهد، والله لا يَخْرجُ عليك خارجيٌّ إلا وبلغَ الغايةَ في معادَاتك، وإنْ بذلْتَ لهُ كلَّ أمانة! فقال عبدالملك: كلامٌ لو سبقَ سماعُهُ فِعْلي لم أصنعْ ما صنعتُ، ولقد صدق من قال: نصْفُ عقلك مع صاحبك!.

* وكان العرب في الجاهلية يشهِّرون بأهل الغدر والخيانة، ويهجون من عُرف عنه الخُلف والمماطلة، وقالوا: مَنْ بَذَل لك حُلْوَ مقاله، ومُرَّ نَوالِه، فهو العدو بعينه. وقيل لأبي العيناء: كيف تركت فلاناً مع قومه؟ قال: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢٠)﴾ (النساء).

* سأل المنصور يوماً بعض بطانة هشام عن تدبيره في الحروب، فقال: كان رحمه الله تعالى يفعل كذا وكذا! فقال المنصور: عليك لَعْنَةُ الله، تَطأُ بساطي، وتترحَّمُ على عَدوِّي؟! فقال: إن نعمةَ عدوِّك لَقِلادةٌ في عنقي لا يَنْزِعُهَا إلاَّ غاسلي! فقال له المنصور: ارجعْ يا شيخ، فإني أشهدُ أنَّك لَوَفِيّ حافظٌ للخير، ثم أَمَرَ لهُ بمال فأخذه، ثم قال: والله لولا جلالةُ أمير المؤمنين وإمضاء طاعته ما لبسْتُ لأحد بعد هشام نعمةً! فقال له المنصور: لله دَرُّكَ فلو لم يكن في قومِكَ غيرُك، لكُنتَ قد أبقَيْتَ لهم مجداً مخلَّداً!.

* ومن جميل الوفاء: ما ورد أنَّ مصعب بن الزبير لـمَّا أحسَّ بالقتل، دفع إلى مولاه زياد فصَّ ياقوت، تبلغ قيمته الآلاف، وقال له: انْجُ بهذا! فأخذه زياد ودقَّه بين حجرين وقال: والله لا ينتفع به أحدٌ بعدك!.

يوم البؤس... ويوم النعيم

* والحادثة التي جرت مع جليس النعمان بن المنذر مشهورة ومعروفة وهي مضرب المثل في الوفاء والشهامة وتدل على نبل وطيب عنصر، والتزام بالعهد والوعد مهما كلَّف

ذلك من تضحيات، ومفادها: أن النعمان كان قد جعل لنفسه يومين: يومَ بُؤْس، مَنْ صادفه فيه قتله وأرداه، ويوم نعيم مَنْ لقيه فيه أحسن إليه وأغناه. وكان رجل يدعى «الطائي» قد رماه الدهر بسهام فاقته وفقره، فخرج يبحث عن شيء لصبيته وصِغاره، فبينما هو كذلك إذْ صادفه النعمان في يوم بُؤْسه، فلما رآه الطائي علمَ أنه مقتول، فقال: حيَّا الله الملكَ، إن لي صبية صغاراً، وأهلاً جياعاً، وقد أرَقْتُ ماء وجهي في حصول شيء من البُلغة لهم، وقد أقدمني سوءُ الحظ على الملك في هذا اليوم العبوسِ، وقد أنهكهُم الجوعُ، ولنْ يتفاوتَ الحالُ في قتلي بين أوَّل النهار وآخره، فإن رأى الملك أنْ يأذن لي في أن أُوصل إليهم هذا القوت وأُوصي بهم أهل المروءة من الحيِّ، لئلا يهلكوا ضياعاً، ثم أعود إلى الملك وأسلمَ نفسي لنفاذ أمْرِه! فلما سمع النعمانُ صورة مقاله، وفهم حقيقة حاله، رقَّ له ورثى لحاله غير أنه قال له: لا آذنُ لكَ حتى يضمنك رجلٌ معنا، فإن لم ترجع قتلناه، وكان شريكُ بن عدي بن شرحبيل نديم النعمان معه، فالتفت الطائي إلى شريك وقال له:

يا شريكُ بنَ عدي ... ما مِنَ الموتِ انْهِزام
مَنْ لأطفالٍ ضعافٍ ... عدموا طَعْمَ الطعامْ
بين جوعٍ وانتظارٍ ... وافتقارٍ وسقامْ
يا أخا كلِّ كريمٍ ... أنتَ من قومٍ كرامْ
يا أخا النعمان جُدْ لي ... بضمانٍ والْتزام
ولكَ اللهُ بأني ... راجعٌ قبل الظلام!

فقال شريك بن عدي: أصلح الله الملك عليَّ ضمانُه! فمرّ الطائي مسرعاً، وصار النعمان يقول لشريك: إنَّ صَدْرَ النهارِ قد ولّى ولم يرجع، وشريك يقول: ليس للملك عليَّ سبيل حتى يأتي المساءُ! فلما قَرُبَ المساءُ قال النعمانُ لشريك: قد جاء وقتُك، قمْ فتأهَّبْ للقتل: فقال شريك: هذا شخصٌ قد لاحَ مقبلاً، وأرجو أن يكونَ الطائيَّ، فإن لم

يكن فأَمْرُ الملك مُمْتَثل، قال: فبينما هم كذلك، وإذا بالطائيِّ قد اشتدَّ عَدْوُه في سَيْرِه مُسرعاً حتى وصل، فقال: خشيتُ أنْ ينقضي النهارُ قبل وصولي، ثم وقف قائماً وقال: أيها الملك مُرْ بأمرك، فأطرقَ النعمانُ ثم رفع رأسَه وقال: والله ما رأيْتُ أعجبَ منكما! أما أنت يا طائيُّ فما تركتَ لأحد في الوفاء مقاماً يقوم فيه، ولا ذِكراً يفتخرُ به، وأما أنت يا شريك فما تركت لكريمٍ سماحةً يُذْكر بها في الكرماء، فلا أكونُ أنا ألأم الثلاثة، ألا وإني قد رفعْتُ يومَ بُؤْسي عن الناس ونقضتُ عادتي كرامةً لوفاء الطائيِّ، وكرمِ شريك! ثم قال النعمانُ للطائيِّ: ما حملَكَ على الوفاء وفيه إتلافُ نفسِك؟ فقال: ديني، فَمَنْ لا وفاءَ له لا دِينَ له، فأحسن إليه النعمانُ ووصَلَهُ!.

وفاء الزوجات

* ومن جميل الوفاء، وفاء الزوجة لزوجها، وكانت بعض صاحبات الوفاء منهن تأبى الزواج بعد موت زوجها حفاظاً لعهده ووفاء للعشرة التي كانت بينهما.

* خرج سليمان بنَ عبدالملك ومعه يزيد بن المهلب إلى بعض نواحي الشام، وإذا بامرأة جالسة عند قبر تبكي، فجاء سليمان ينظر إليها، فقال لها يزيد، وقد عجب سليمان من حسنها: يا أمةَ الله، هل لك في أمير المؤمنين؟ فنظرتْ إليهما، ثم نظرتْ إلى القبر وقالت:

فإنْ تسْألاني عن هوايَ فإنَّه ... بحَوْماءِ هذا القبر يا فَتَيانِ
وإنِّي لأسْتَحْييه والتُّرْب بَيْنَنا ... كما كُنْتُ أسْتَحْييه وهو يَراني

* ومن أحسن الوفاء: وفاء نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان رضي الله عنه، خطبها معاوية فردّته، وقالت: ما يُعْجبُ الرجالَ منِّي؟ قالوا: ثَنَاياكِ، فَدَعتْ بِفِهْرٍ فكسرت ثناياها، وبعثت بها إلى معاوية، وقالت: إني رأيت الحزن يبْلى، فلم آمن أنْ يبْلى حزني على عثمان فتدعوني نفسي إلى التزوّج!.

* ومن أعظم ما يُروى في الوفاء أيضاً وفاء امرأة هدبة: لما قُدِّم هدبة للقتل بحضرة مروان بن الحكم، قالت زوجته: إنّ لهدبة عندي وديعة فأمهلْه حتى آتيه بها، فقال:

أسرعي، فإن الناس قد كثروا، وكان مروان قد جلس لهم بارزاً عن داره فمضت إلىٰ السوق وأتت إلىٰ قصاب فأخذت منه شفرة فجدعت أنْفها وقطعت شَفَتَها، ثم أقبلت حتىٰ دخلت بين الناس، فقالت: أتراني يا هدبةُ مُتَزَوِّجةً بعد ما تَرىٰ؟! فقال: الآن طابت نفسي بالموت، فجزاكِ الله من حَليلةٍ وفيّة خيراً!.

الغدر والمكر

* والغدر والخُلْف ليس من أخلاق الرجال ولا من صفات الكرام، لأن الغدر مكْر، والمكر كفر، ومن عامل الناس بالمكر كافؤوه بالغدر، والغادر معرض للهلاك والخزي الذي يطوقه، والعار الذي يلاحقه، ورُبَّ حيلة أهلكت المحتال.

* قال علي كرم الله وجهه: ثلاث هنَّ راجعات إلىٰ أهلها، المكْر والنكْث، والبغي، ثم تلا قوله تعالىٰ: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ (فاطر: ٤٣)، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ (الفتح: ١٠)، وقوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾ (يونس: ٢٣).

* وكانت العرب إذا غدر منهم غادر يوقدون له بالموسم ناراً وينادون عليه يقولون: ألا إنَّ فلاناً غَدَر.

* وحَجَّ وفاء زهير المازني في الجاهلية ورأىٰ في منامه كأنه حاض، فقصَّ رؤياه علىٰ قسّ بن ساعدة فقال: إنك غدرْتَ أو غَدَر بعض عشيرتك! فلما قدم علىٰ أهله وجَدَ أخاه قد غَدَر بجار له، فَعَقَلَه وقال: عَلاَم سُمِّيتُ وفاء إذا رضيتُ بالغدر؟!

* وأشد من ذلك كله أن الغادر تُنصب له راية أو لواء تحت استه يوم القيامة ويُقال هذه غدرة فلان؟!.

جزاء سنمَّار

* وتقول العرب فيمن أحسن وأجاد ثم كُوفئ غدراً وخيانة: جزائي جزاءُ سِنمّار، وأصل المثل أن أحد الملوك لما خاف علىٰ ولده ـ وكان قبله لا يعيش له ولد ـ، سأل عن منزل صحيح، فدُلَّ علىٰ ظهر الجزيرة، فدفع ابنه إلىٰ النعمان عامله علىٰ أرض العرب، وأمره

أن يبني له قصراً، فأمر النعمانُ رجلاً يُسمىٰ سنمَّار فبناه كأحسن ما يكون البناء، فلما فرغ من بنائه عجبوا من حُسنه، فقال: لو علمتُ أنكم توفوني أجرته لبَنَيْتُه بناء يدورُ مع الشمس حيث دارت! فقالوا: وإنك لتَبْني أحسنَ من هذا ولم تَبْنِهِ؟! ثم أمر به فطُرِحَ من أعلىٰ القصر فتقطَّع. فقالت العرب: جزائي جزاءُ سِنمَّار.

* وقد تجد في البشر أناساً يتبجَّحُون بالمُطل وخُلفِ الوعد ويرون ذلك عملاً يُحمدون عليه!.

* كان محمد بن بشير والياً علىٰ بلاد فارس فأتاه شاعر فمدحه فقال: أحسنت! وأقبل علىٰ كاتبه وقال: أعطه عشرة آلاف درهم، ففرح الشاعر فقال: أراك قد طار بك الفرح بما أمرتُ لك؟! يا غلام اجعلْه عشرين ألفاً! فلماخرج قال الكاتب: جُعِلْتُ فداكَ، هذا كان يرضيه اليسير فكيف أمرتَ له بهذا المال؟ فقال: ويحك وتريدُ أن تعطيه ذلك؟ إنما قال لنا كذباً سرَّنا، وقلنا له كذباً سرَّه، فما يعني بَذْلُ المال؟ أمَّا قَوْلٌ بقوْل فنعم! وأمَّا بذْلٌ بقولٍ فمُحَال!.

* ومن طريف ما يروىٰ في الغدر ممثلاً بالحيوانات، أنَّ رجلاً دخل البادية، قال: فإذا أنا بعجوز بين يديها شاةٌ مقتولة، وإلىٰ جانبها جرو ذئب. فقالت: أتدري ما هذا؟ قلت: لا. قالت: هذا جرو ذئب أخذناه صغيراً وأدخلناه بيتنا وربيناه، فلما كبر فعل بشاتي ما ترىٰ! وأنشدت:

بقرْتَ شويهتي وفجعْتَ قومي ... وأنت لشاتِنا ولدٌ ربيبُ
غُذيت بدَرِّها ونشأْتَ معها ... فمن أنْبَاكَ أنَّ أباكَ ذِيبُ؟!
إذا كانت الطِّباعُ طباعَ سوءٍ ... فلا أدبٌ يفيدُ ولا أديبُ!

* وقيل لبعضهم: كيف حالك مع فلان؟ فقال: لا أحصل منه إلا علىٰ دقِّ الصدر والجبهة! فقيل: كيف؟ قال: إذا سألتُه دقَّ صدره ويقول: أفعل! وإذا عاودته وتقاضيته، دقَّ جبهته ويقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، نسيتُ!!

* وقيل لرجل: قد تقطّع صدرُ قميصك وركبتُه دون الباقي؟ قال: نعم، إني أقعد بالباب فيمرّ بي المارُّ فيقول: سلِ السلطانَ لي كذ وافعلْ كذا، فأدقُّ صدري إيجاباً، ويأتي آخرُ فيقول: مات فلان أو حَدَث كذا، فأدقُّ ركبتي اغتماماً!.

* وقيل لرجل: اصبرْ فالفرجُ قريبٌ! فقال: أخاف أنْ يجيء الفرجُ فلا يراني!. يعني يموت ولا يرىٰ ما وُعِدَ به.

* ووعد رجلٌ أبا العيناء دابة فأخَّرها، فكتب إليه: إنْ كانت الدابةُ التي وعدْتني بها دابةَ الأرض، فقد مضىٰ خبرُها مع مِنْسأة سليمان، وإن كانت دابة الصَّفا انتظرنا خبرها مع سابق الحاج، وإنْ كانت من دوابِّ الدنيا، فقد جازَ عُمْرُ وعْدِك عُمْرَ الدواب، فهيئ لي غيرها، وإن كانت دابة تدفعها إليَّ في الآخرة، فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾ (عبس)!!.

* قال الشاعر الجاهلي المثقب العبدي:

لا تقولنَّ إذَا مَا لَمْ تَرِدْ ... أَنْ تتمَّ الوعد في شيء: «نعم»
حَسَنٌ قولُ «نعم» من بعد «لا» ... وقبيحٌ قول «لا» بعد «نعم»
إنَّ «لا» بعد «نعم» فاحشة ... فبـ«لا» فابدأ إذا خفت الندم
وإذا قلت «نعم» فاصبر لها ... بنجاز الوعد إنَّ الخلف ذم
أكرم الجار وارع حقَّه ... إن عرفان الفتىٰ الحقَّ كرم
إن شرَّ الناس من يمدحني ... حين يلقاني وإن غبت شتمْ!

* قال علي بن الجهم وهو مسجون:

قالوا حبست فقلت ليس بضائري ... حبس وأيّ مهند لا يغمدُ
فالشمس لولا أنها محجوبة ... عن ناظريك لما أضاء الفرقدُ
والبدر يدركه السّرار فتنجلي ... أيامه وكأنه مُتجددُ

بين القناعة.. والطمع.. والأمل

* في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال: «من أصبح منكم آمناً في سِرْبه، مُعافىً في جسده، عنده قُوتُ يومه فكأنما حِيزَتْ له الدنيا!» رواه الترمذي بسند حسن.

* وهل حاجات الإنسان إلا هذه، ما أكل فأفنىٰ أو لبس فأبْلىٰ أو بنىٰ فسكن، فإذا توفرت له كل هذه الأشياء فلن يحتاج إلىٰ مخلوق أبداً، إلا إن ساقه الطمع ودفعه الجشع ليستزيد.

أفادتني القناعة كلّ عزّ ... وهل عزٌّ أعزُّ من القناعة

* جاء رجل إلىٰ ابن عمر فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ قال له: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء! قال: فإن لي خادماً! قال: فأنت من الملوك! رواه مسلم.

* والحرص والطمع وطول الأمل، كل هذه قد طبع الإنسان وفُطِر عليها، فيَشِبّ ويَشِيبُ ومعه الحرص والأمل. ولكن يجب أن لا يدفعه الحرص لأن يسلك طرق الشر ودروب الفساد، ولا طول الأمل لأن يعمل للخلود ويظن البقاء في هذه الحياة، فيكون ذا آمال عريضة وأمانٍ واسعة وأحلام لا تقترب من الواقع والحقيقة، والحرص علىٰ أكل الشجرة أخرج آدم عليه السلام من الجنة.

إذا المرء عُوفي في جسمه ... وملّكه الله قلباً قنوعا
وألقىٰ المطامع عن نفسه ... فذاك الغنيُّ ولومات جوعاً

* قال سعد بن أبي وقّاص لابنه: يا بني، إذا طلبتَ الغنىٰ فاطلبه بالقناعة، فإنها مالٌ لا يَنْفَد، وإياك والطمع، فإنّه فقْر حاضر، وعليك باليأس فإنك لا تيْأس من شيء قط إلا أغناك الله عنه. وتبقىٰ القناعة الكنز الذي لا يفنىٰ. وحقاً إن الغني من استغنىٰ بالله، والفقير من افتقر إلىٰ الناس، ولا غنىٰ إلا غنىٰ النفس، وثمرة القناعة الراحة، وثمرة

الحرص التعب، قيل لأبي حازم: ما مالك؟ قال: مالان، الغنىٰ بما في يدي عن الناس، واليأسُ عمّا في أيدي الناس.

النفس تجزع أنْ تكون فقيرة والفقر خيرٌ من غنىٰ يُطغيها
وغنىٰ النفوس هو الكفاف فإنْ أبتْ فجميعُ ما في الأرض لا يكفيها

* كان عامر بن عبدالقيس العنبري يقول: أربع آيات من كتاب الله إذا قرأتُهنّ مساءً لم أُبال علىٰ ما أُمْسِي، وإذا تلوتُهنّ صباحاً لم أُبال علىٰ ما أُصبح: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (فاطر: ٢). و﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (يونس: ١٠٧) و﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود: ٦) و﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ (الطلاق).

* يروىٰ أن المسيح عليه السلام قال لقومه: عجباً منكم، إنكم تعملون للدنيا وأنتم تُرْزقُون فيها بلا عمل، ولا تعملون للآخرة، وأنتم لا تُرْزقون فيها إلا بالعمل!

* قالت الحكماء: أقلّ الدنيا يَكْفي وأكثرُها لا يكْفي. قال أبو ذؤيب الهذلي:

والنفسُ راغبةٌ إذَا رغَّبْتَها وإذا تُردُّ إلىٰ قليل تَقْنعُ

* وقال أحد الحكماء: كلُّ العيش قد جرّبناه، لينُه وشديدُه، وبلوْناه فوجدناه يكفي منه أدْناهُ! قال أبو العتاهية:

تبْغي من الدنيا الكثيرَ وإنّما يكْفيك منها مثلُ زادِ الرّاكبِ
لا تعجبَنّ بما ترىٰ فكأنّه قد زَالَ عنك زوالَ أمسِ الذّاهبِ

الحرص والطمع

* ومقاومة الطمع، وقطع آمال النفس، يقرّب الإنسان إلىٰ أرض الواقع، فيرضىٰ بما قُسم له، ويحدّ من الشَّرَهِ، والتكالب المحموم علىٰ الدنيا. وقد قالوا: أخرج الطمع من قلبك، تحلّ القيد من رجليك. وفي الحديث الشريف: «يا أيها الناس، اتقوا الله وأجملوا

في الطلب، فإن نفساً لن تموت حتىٰ تستوفي رزقها، وإنْ أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، خذوا ما حلّ ودعوا ما حرُم» رواه البخاري.

لا تَضْرعَنّ لمخلوقٍ علىٰ طمعٍ ... فإنّ ذلك وَهْنٌ منك بالدِّينِ
واسْترزِقِ الله رزْقاً من خزائنه ... فإنما هو بينَ الكافِ والنونِ

* ومن أراد أن يعيش حرّاً أيام حياته فلا يسكن الطمع في قلبه، وأكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع. ومن كلام الحكماء: إيّاكم وطول الأمل، فإنّ مَنْ ألهاهُ أملُه، أخزاه عمله، وإذا كان القَدَرُ حقاً فالحرص باطل، وإذا كان الغدْرُ في الناس طباعاً، فالثقةُ بكل أحدٍ عَجزٌ، وإذا كان الموتُ لكل أحد راصداً فالطمأنينة إلىٰ الدنيا حُمْقٌ.

وأَكْلُ كُسيرة في جنب بيتي ... أحبُّ إليَّ من أكلِ الرغيفِ
ولبْسُ عَباءة وتقرَّ عيني ... أحب إليَّ من لبْس الشفوف

* قال عُرْوة بن أُذَيْنة:

وقد عَلِمْتُ وخيرُ القول أصْدَقُه ... بأن رِزْقي وإنْ لم يأتِ يَأْتيني
أسْعىٰ إليه فيُعْيِيني تَطَلُّبُهُ ... ولو قعدْتُ أتاني لا يُعَنِّيني

ووفد عروة علىٰ عبدالملك بن مروان في رجال من أهل المدينة، فقال له عبدالملك: ألست القائل: أسْعىٰ إليه فيُعْيِيني تَطَلُّبه؟ فما أراكَ إلاّ قد سعْيتَ له، فخرج عنه عروة وشَخَص من فوره إلىٰ المدينة، فافتقده عبدالملك، فقيل له: توجّه إلىٰ المدينة، فبعث إليه بألف دينار، فلما أتاه الرسول، قال: قلْ للأمير: الأمْرُ علىٰ ما قلْتُ، قد سَعَيْتُ له، فأعْياني تطَلّبه، وقعدْتُ عنه فأتاني لا يُعنّيني!

لا تَعْجلَنَّ فليس الرّزقُ بالعَجَلِ ... الرّزقُ في اللوحِ مكتوبٌ مع الأجَلِ
فلو صبرْنَا لكان الرّزقُ يَطْلُبُناَ ... لكنه خُلِقَ الإنسان من عَجَلِ

* وطالما أن كل شيء مقدّر، فيجب ألا يذِلّ المرءُ نفسه «اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير».

* رأىٰ سالم بن عبدالله رجلاً يسألُ في الموقف بعرفات فقال: أفي مثل هذا الموضع تسألُ غير الله عزّ وجلّ؟!

* ولما حج هشام بن عبدالملك دخل الكعبة فإذا هو بسالم بن عبدالله، فقال له: يا سالم سلني حاجتك.. فقال: إني لأستحي من الله أن أسأل في بيته غيره..! فلما خرج سالم، خرج هشام في إثره فقال له: الآن قد خرجت من بيت الله فسلني حاجتك.. فقال سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ قال: من حوائج الدنيا.. فقال سالم: إني ما سألت الدنيا من يملكها، فكيف أسألها من لا يملكها..!!

هي القناعة فالزمها تعش ملكاً ... لو لم يكن منك إلا راحة البدنِ
وانظر لمن مَلَكَ الدنيا بأجمعها ... هل راح منها بغير القطن والكفن؟!

* قال الشاعر:

وكيف أخافُ الفقر والله رازقي ... ورازق هذا الخلق في العسر واليسر
تكفَّل بالأرزاق للخلقِ كلهم ... وللضّبِّ في البيداء والحوت في البحرِ

* قنعت بالقوت من زماني ... وصنْتُ نفسي عن الهوانِ
خوفاً من الناس أن يقولوا ... فضلُ فلانٍ على فلان
من كنتُ عن ماله غنياً ... فلا أُبالي إذا جفاني
ومن رآني بعين نقص ... رأيته بالتي رآني
ومن رآني بعين تِمٍّ ... رأيته كاملَ المعاني

* وقد يتجمّل أناس فيخفون الطمع ويكتمون الحرص، ويتظاهرون بالقناعة والرضا

بالمقسوم وقد تكون لديهم القدرة على تصوير أحوالهم النفسية على غير حقيقتها، فينقلب أحدهم ظاهراً وصورة من حريص جشع إلى زاهد متنسّك راض بما قدّر له.

* وما دام المرء طامعاً بما في أيدي الناس فهو مستعبد وذليل، فإذا ما قنع، ترفّعَ وعزّ، والحرّ عبد إذا طمع، والعبد حرّ إذا قنع، ومن التفت إلى الدنيا فقد تأهب للذل والهوان.

عزة النفس

* والعزة والكرامة لا يتحلى بهما إلا أصحاب النفوس الكبيرة، ولو كانوا فقراء، فإن لهم من الكرامة وعزة النفس ما يجعلهم يحتقرون كل ما من شأنه أن يخدش كرامتهم أو يذل نفوسهم.

* لمّا حج الرشيد دخل على الفضيل، فوعظه بما وعظه، فلما أراد الخروج قال له: يا فضيل هل عليك دَيْن؟ فقال: نعم دّين لربّي والويل لي إنْ حاسبني عليه، والويل لي إنْ ناقشني. فقال الرشيد: إني أسألك عن دْين العباد. فقال: عندنا بحمد الله خير كثير لا نحتاج معه إلى ما في أيدي الناس. قال: هذه ألف دينار فاستعن بها، فقال: يا حَسَنَ الوجه أدلّكَ على النجاة وتكافئني بالهلاك؟! أسألُ الله لك التوفيق. فلما خرج عاتبته بُنيَّته فقالت: لو أخذتها فاستعنّا بها! فقال: إن مثلي ومثلكم، مثل قوم كان لهم بعير يكدونه ويأكلون من كسبه فلما كبر وسقط عن العمل نحروه فأكلوه!

ولقد طلبتُ رضا البرية جاهداً — فإذا رضاهم غايةٌ لا تُدْركُ
وأرى القناعة للفتى كنزاً له — والبرُّ أفضلُ ما به يتمسكُ

* ووقف أعرابي على محمد بن معمر، وكان محمد جواداً، فسأله، فخلع خاتمه ودفعه إليه، فلمّا ولّى قال: يا أعرابي لا تُخْدعنّ عن هذا الفَصّ، فإن شراءه عليّ مائة دينار، فمضغ الأعرابي الخاتم وقلع فَصّه وقال: دُونَكَه، فالفضة تكفيني أياماً، فقال: هذا والله أجود مني!

* قيل لأشعب: ما بلغ من طمعك؟ قال: أرى دخان جاري فأفتّ خبزي! قال: ما

رأيت رجلين يتسارّان في جنازة إلا قدّرْت أن الميت أوصىٰ لي بشيء من ماله، وما زفّت عروس إلاّ كنسْتُ بيتي رجاء أن يغلطوا فيَدْخلوا بها إليّ!

* وكان لا يموت شريف في المدينة إلا استعدىٰ أشعبُ علىٰ وصيه أو وارثه وقال له: احْلف أنه لم يُوصِ لي بشيء قبل موته!

* وسأله رجل أن يُسْلِفَه ويُؤَخّره، فقال: هاتان حاجتان، فإذا قضيْتُ لك إحداهما فقد أنصفت، قال الرجل: رضيتُ، قال: فأنا أؤخرك ما شئت ولا أُسلفُك!

الأمل

والأمل منه ما هو محمود وما هو مذموم، فالأمل الذي لا يصرف عن حقيقة الواقع والحاضر والعمل والنشاط فيما يرضي الله فهذا مما لا حرج فيه، والإنسان مهما علا، لا ينفك من نوع من الأمل وحسن الظن والرجاء ليخفف عن نفسه ثقل الحياة ووطأة الواقع المرير.

أُعَلِّلُ النَّفْسَ بالآمَالِ أَرْقُبُهَا ... مَا أَضْيَقَ الْعَيْشَ لولا فُسْحَةُ الأَمَلِ

أما الأمل الذي يصل إلىٰ حدّ الأماني والأحلام، أماني الكسالىٰ وأحلام اليقظة، فهذا شأن الضعفاء والمرضىٰ وهذا هو الذي خافه رسول الله ﷺ علىٰ أمته لأنه يصرف عن الآخرة، ولكل إنسان أمل يختلف عن الآخر، فالبعض ينشط لتحقيقه والآخر يخلد للدَّعة والراحة ويريد إدراكه!

* أقام معروف الكرخي الصلاة فقال لرجل: تقدّم، فقال: إنْ صلَّيتُ بكم الصلاة لم أتقدم بعدها! فقال: وأنت تحدث نفسك بصلاة أخرىٰ؟ نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع من خير العمل، من عَدّ غداً من أجله فقد أساء!

* قعد رجل فقال: ليت لنا لحماً فنطبخ منه كذا وكذا، فما لبث أن جاء جار له بإناء فقال: أعطونا قليلَ مرق! فقال: إن جيراننا يشمّون رائحة الأماني!.

* ومر الحجاج ليلة بدكان لبّان وعنده وعاءٌ فيه لبن، وهو يتمنى ويقول: أنا أبيع هذا اللبن بكذا من الدراهم وأشتري به كذا ثم أبيعه، ثم يكثر مالي ويحسن حالي وأخطب إلى الحجاج ابنته فأتزوج بها، فتلد لي ابناً فأدخل عليها يوماً فتخاصمني فأضربها برجلي هكذا، ومدّ رجله فكسر وعاء اللبن، فقرع الحجاج بابه واسْتَفْتَحَه فضربه خمسين! وقال: أليس لو ضربْت بنتي بوكزة هكذا لفَجعْتني بها!

* ومن المعروف أن الإسلام يحذر من طول الأمل والأماني وعريض الآمال والأحلام، لكن الأمل إذا اقترن بالعمل والجد والكفاح والعزم والتصميم فإنه ربما يدرك، ويحصل الإنسان على بغيته، أمّا إذا خلا الأمل من ذلك فإن صاحبه يمضغ الهواء ويعيش في فراغ!

أمنيات الكبار

علىٰ قدْرِ أهْلِ العَزْم تأتي العَزَائِمُ وتأْتي علىٰ قدْرِ الكِرَامِ المَكارِمُ

ومن هذا الباب ما يُروىٰ ـ والله أعلم بصحة الرواية ـ أن الشعبي قال: رأيت عجباً، كنّا بفناء الكعبة أنا وعبدالله بن الزبير وأخوه مصعب وعبدالملك ابن مروان، فقالوا بعد أن فرغوا من حديثهم: ليقم كل رجل فليأخذ بالركن اليماني وليسأل الله تعالىٰ حاجته فإنه يعطي من سعة، ثم قالوا لعبدالله بن الزبير، قم أولاً فإنك أول مولود بعد الهجرة، فقام وأخذ بالركن اليماني وسأل الله أن لا يميته حتىٰ يوليه الحجاز ويُسلّم عليه بالخلافة، ثم قام أخوه مصعب فسأل ربه ولاية العراق وزواج سكينة بنت الحسين، ثم قام عبدالملك فسأل الله ولاية المشرق والمغرب، ثم قام عبدالله بن عمر فسأل الله الجنة، قال الشعبي: فرأيت كل واحد وقد أُعطي ما سأل وبُشّر عبدالله بن عمر بالجنة حيث أنه عمي في آخر حياته والنبي ﷺ بشّر من كفّ بصره بالجنة. وهناك اختلاف بين الروايات في تعيين الأشخاص أصحاب هذه القصة، وعلىٰ كل حال، فهذه إن صحت فهي نوع من الدعاء والأمنية على الله، وقد يجيب الله سُؤْل العبد وقد يمنعه، لحكمة يعلمها.

* قال رجل لابن سيرين: رأيتني كأني أسبح في غير ماء، وأطير بغير جناح، فقال: أنت رجل تُكْثر الأماني!

غنى النفس

* قال الشاعر عروة بن أُذَيْنَة:

لقد عَلِمْتُ ـ وما الإسرافُ من خُلُقي ... أَنَّ الذي هو رزقي سوفَ يأتيني
لا خيرَ في طَمعٍ يُدْني لمَنْقَصَةٍ ... وعفَّةٌ من كَفَافِ(١) العيشِ تَكفيني
لا أَركبُ الأَمرَ(٢) تُزْرِي(٣) بي عواقبُهُ ... ولا يُعابُ بهِ عِرْضي ولا دِيني
كم مِن فقيرٍ غنيِّ النَّفْسِ تَعرِفُهُ ... ومن غنيٍّ فقيرِ النَّفْسِ مِسكينِ
ومِن عدوٍّ رَماني، لو قَصَدتُ لَهُ ... لم يأْخذِ النَّصْفَ(٤) منِّي حينَ يَرميني
ومِن أَخٍ لي طَوَىٰ كَشْحاً(٥) فقلتُ لهُ: ... إنَّ انطواءَكَ عنِّي سوفَ يَطويني
إنِّي لأَنْطِقُ فيما كان من أَرَبي(٦) ... وأُكْثِرُ الصَّمتَ فيما ليس يَعنيني
لا أَبتغي وَصْلَ مَنْ يَبغي مفارقَتي ... ولا أَلينُ لمن لا يَشتهي لِيني

تأملات

العاقل يتغافل عن المقابح ويذكر المحاسن، يروىٰ أن عيسىٰ عليه السلام مرَّ مع الحواريين علىٰ كلب ميت، قد غلب نَتْنه، فقالوا: ما أَنْتَن هذه الجيفة! فقال عيسىٰ عليه السلام: ما أحسن بياض أسنانه! تنبيهاً علىٰ أن الذي ينبغي أن يذكر من كل شيء أحسن ما فيه!

(١) الكفاف من العيش: ما سدّ حاجة المرء وكفَّه عن الطلب. (٢) المقصود: لا أفعل أمراً.
(٣) زَرَىٰ عليه فعلَه: عابه، وأَزْرَىٰ به إذا قصّر به. (٤) النَّصف: الإنصاف والعدل.
(٥) طوىٰ كشحاً: الكشح: ما بين الخاصرة والضلوع، والمقصود أعرض وقاطع.
(٦) الأرب: الغاية.

عضة أسد.. ولا نظرة حسد!

* الحسد، أصل كل شرّ وسبب كل بليّة، وهو نار متأججة وجمرة متقدة في الفؤاد، تحرق كبد صاحبها حينما يرىٰ نعم الله تُساق للعباد، وهو مرض خبيث وداء عُضال، يقضي علىٰ الفضائل ويلتهم الحسنات، وقد أنزل الله تعالىٰ سورة في القرآن الكريم جعلها عُوذةً لخَلْقه من صنوف الشرّ، فلما انتهىٰ إلىٰ الحسد جعله خاتماً، إذ لم يكن بعده في الشرّ نهاية!!

* والحسد كالحسك من تعلّق به هلك وهو داعية النكد، إذ أنّ الحسود لا يرضىٰ إلا بزوال النعم عن الآخرين.

* قال معاوية: كلُّ الناس يُمكنني أن أُرضيه إلاّ الحاسد، فإنه لا يرضيه إلا زوال نعمتي.

* وقيل لرجل: أتحسد فلاناً وهو يواليك ويكرمك؟ فقال: نعم حتىٰ أصير مثله أو يَصير مثلي!

* والحسد أوّلُ ذنب عُصي الله تعالىٰ به في السماء، وأول ذنب عصي به في الأرض، أما في السماء، فحَسَدُ إبليس لآدم، وأما في الأرض، فحَسَدُ قابيل لهابيل.

* وقالت الحكماء: إذا أراد الله أن يسلط علىٰ عبدٍ عدوّاً لا يرحمه، سلط عليه حاسداً. وما ظنك بعداوة الحاسد وهو يرىٰ زوال نعمتك نعمةً عليه؟!

* وكلّ عدو لك من المتوقّع أن يكون بينك وبينه صلح ومودة، إلا عداوة من عاداك من حسد، لأنه لا يرضيه إلا زوال النعمة التي عليك.

* دعِ الحسود وما يلقاه من كمدٍ | يكفيك منه لهيبُ النار في كبدِهِ
إنْ لُمْتَ ذا حسدٍ نفست كربته | وإن سكتَّ فقد عذَّبته بيده

* ونظرة الحسود كأنها سهام صائبة أو حراب قاتلة، «وكاد الحسد أن يغلب القَدَر!». عزاه السخاوي في المقاصد ص٤٩٧ لأبي نعيم والبيهقي والطبراني.

* قال ابن المقفع: الحسد والحرص دعامتا الذنوب، فالحرص أخرج آدم عليه السلام من الجنة، والحسد نقل إبليس من جوار الله.

* وقال الليث بن سعد: بلغني أن إبليس لقي نوحاً عليه السلام فقال له إبليس: اتَّقِ الحسدَ والشحَّ، فإني حسدتُ آدم فخرجتُ من الجنة، وشحّ آدم على شجرة واحدة مُنعَ منها حتى خرج من الجنة!!

* وبحسب الحاسد قُبحاً وسوءاً أنه معترض على الله وحكمته وقضائه، فلا ترضيه تصاريف القضاء وتقاسيم الأرزاق.

* وقد تصل الوقاحة والصفاقة بالحسود أن يعلن حسده على الملأ، وربما تباهى به وتبجح وافتخر! يروى أنّ ثلاثة نفر اجتمعوا، فقال أحدهم لصاحبه: ما بلغ من حسدك؟ قال: ما اشتهيت أن أفعل بأحد خيراً قط!! فقال الثاني: أنت رجل صالح! أنا ما اشتهيتُ أن يَفْعلَ أحدٌ بأحد خيراً قط!! فقال الثالث: ما في الأرض أفضل منكما! أنا ما اشتهيت أنْ يفعل بي أحدٌ خيراً قط!!

* وقال عبدالملك للحجاج: إنه ليس من أحد إلا وهو يعرف عيب نفسه، فَعِبْ نفسك، وصِفها لي، فليس العاقل إلا مَنْ عَرف نفسَه! فقال: أعفني يا أمير المؤمنين. قال: لتَفعلنّ. قال: أنا لَجُوج حقود حسود! فقال عبدالملك: ما في الشيطان شرٌّ مما ذكرْتَ!

* والحسد الذي يأكل الجسد خلق دنيء، ومن دناءته أنه موكل بالأدنى فالأدنى والحاسد إذا رأى نعمةً بُهت، وإذا رأى عَثْرة شَمِتْ، وإذا تحدث فبكُرهٍ وبغضاء، وإذا نظر فبألم وحقد.

كلُّ العداواتِ قد تُرجى إماتتُها ... إلا عداوةَ مَن عاداك مِن حَسَدِ
إنْ شئت قتلَ الحاسدين تعمّداً ... من غير مُدْياتٍ عليك ولا قَوَدِ
وبغير سمّ قاتل وصوارم ... وعقاب ربٍّ ليس يغفل عن أحدِ
عظّم تجاه عيونهم مَحْسُودَهم ... فتراهموا موتى النفوس مع الجسد!

* ومن الأمثال العامة الدارجة على الألسن في بعض البلدان: عضة أسد، ولا نظرة حسد!

فضل الحسد!

* وإن كان للحسد فضل فإنما لإظهار فضل المحسود حيث إن الفضائل مقتضية للحسد، قال الشاعر:

وإذا أرادَ اللـه نشرَ فضيلةٍ   طُويتْ أتاح لها لسانَ حسودِ
لولا اشتعالُ النّارِ فيما جَاوَرَتْ   ما كان يُعْرفُ فَضْلُ عَرْفِ العُودِ

* وقال آخر:

جزىٰ الله عنا الحاسدين فإنهم   قد استوجبوا منّا على فِعلهم شُكراً
أرادوا لنا ذَمّاً فأفشَوْا مكارماً   وقد قصدوا عَيْباً فكان لنا فخراً

* وقيل لسليمان بن معاوية المُهلّبي: ما أسرعَ حسدَ الناس إلىٰ قومك! فقال:

إنّ العَرَانين تَلْقَاها مُحَسّدَةً   ولَنْ تَرىٰ لِلئَامِ النّاس حُسّاداً

* العرانين: السادة والأشراف، والواحد: عرنين. وقال أحد الشعراء:

حسدوا الفتىٰ إذْ لم ينالوا سعْيَهُ   فالقومُ أعداءٌ له وخصومُ
كضرائر الحسْناء قُلْنَ لوجْهها   حسداً وبُغْضاً إنّه لَدَميمُ

* ومرَ قيس بن زهير ببلاد بني غطفان، فرأىٰ ثروةً فكره ذلك! فقال له الربيع: ألا يَسرُكَ ما يَسُرّ الناس؟ فقال: إنّ مع الثروة التحاسد والتخاذل، ومع القلة التحاشد والتناصر! وكان يقال: ما أثْرىٰ قوم قط إلا تحاسدوا وتخاذلوا.

* قال الطغرائي في المقارنة بين العدو والحسود:

جامل عدوّك ما استطعت فإنه   بالرفق يطمع في صلاح الفاسد

واحذر حسودك ما استطعت فإنهُ ... إن نمت عنه فليس عنك براقد
إن الحسود وإن أراك تودُّداً ... منه أضر من العدوِّ الحاقد
ولربما رضي العدوُّ إذا رأىٰ ... منك الجميل فصار غير معاند
ورضا الحسود زوالُ نعمتك التي ... أوتيتها من طارف أو تالد
فاصبر علىٰ غيظ الحسود فناره ... ترمي حشاه بالعذاب الخالد
أو ما رأيتَ النار تأكلُ نفسها ... حتىٰ تعود إلىٰ الرماد الهامد
تضفو علىٰ المحسود نعمة ربه ... ويذوب من كمدٍ فؤادُ الحاسد

* والحاسد إنسان عاجز وفاشل، لأنه إنْ رأىٰ شخصاً ربح في صفقة تجارية، أو تسنّم منصباً رفيعاً، أو تقلّد وظيفة عالية فأصبحت له في المجتمع مكانة مرموقة؛ حسده وأبغضه، حيث إنَّ ذلك فاته وتخطاه، فتشتعل نار الحسد بين جنبيه فتحرق جوانحه، ولله درّ الحسد ما أعدله، بدأ بصاحبه فقتله!

* قال الإمام الشافعي رحمه الله:

تَمنَّىٰ رجالٌ أن أموتَ وإن أمُتْ ... فتلك سبيلٌ لستُ فيها بأَوْحَدِ
فقُل لّلذِي يْبغي خلاف الذي مضىٰ ... تهيَّأْ لأخُرْىٰ مثلَها فكأنْ قَدِ

وسبب هذين البيتين، أن الربيع حدّث، قال: رأيت أشهب بن عبدالعزيز ساجداً، وهو يقول في سجوده: اللهم أمت الشافعيّ وإلا يذهب علم مالك!! فبلغ الشافعي ذلك فتبسم، وأنشأ يقول، وذكر البيتين وبيتاً ثالثاً، وهو:

وقد علمُوا لو ينفَعُ العلمُ عندهمْ ... لئن مِتُّ ما الدّاعي عليَّ بُمخْلَدِ

* ولن يطيب العيش ويرتاح الجسد إلا بترك الحسد، قال الأصمعي: رأيت أعرابياً أتىٰ عليه عمر كثير، فقلت: أراك حَسَن الحال في جسدك؟ قال: نعم، تركْتُ الحسدَ فبقيت نفسي.

اصْبِرْ علىٰ حسدِ الحسو ... د فإنَّ صَبْرَكَ قاتِلُهْ
كالنّارِ تأكُلُ بعضَها ... إنْ لمْ تجِدْ ما تأكلُهْ!

الحسد بين الأقارب

* وأكثر ما يقع الحسد بين الأقارب والأصدقاء والمعارف وأصحاب الحرف المتماثلة والأقران والجيران، وكان يقال: الحسد في الجيران، والعداوة في الأقارب. ولذلك استحسن الحكماء أن يبتعد القريب عن قريبه في المسكن.

* كتب عمر بن الخطاب إلىٰ أبي موسىٰ الأشعري: مُرْ ذوي القرابات أنّ يتزاوروا ولا يتجاوروا.

* وقال أكثم بن صيفي: تباعدوا في الدار تقاربوا في المودة.

* وقيل لعبدالله بن عروة: لِمَ لزمت البدو وتركت قومَك؟ فقال: وهل بقي إلا حاسدٌ علىٰ نعمة، أو شامتٌ علىٰ نكبة؟!

* وقيل للحسن البصري: أَيَحْسُدُ المؤمنُ أخاه؟ قال: لا أبا لَكَ، أنسيتَ إخوةَ يوسف!!

* وكانوا يقولون: **الأقارب هم العقارب**. وإذا أردْتَ أنْ تَسْلَم من الحاسد فَعَمِّ عليه أُمُورَك.

* ويروىٰ أن أبا العباس الخليفة العباسي خرج متنزهاً بالأنبار، فأمعن في نزهته وابتعد من أصحابه حتىٰ وصل خِبَاء أعرابي، فقال له الأعرابي: ممن الرجل؟ قال: من كنانة، قال: من أي كنانة؟ قال: من أبغض كنانة إلىٰ كنانة، قال: فأنت إذاً من قريش؟ قال: نعم. قال: فمن أي قريش؟ قال: من أبغض قريش إلىٰ قريش، قال: فأنت إذاً من ولد عبدالمطلب، قال: نعم، قال: فمن أي ولد عبدالمطلب أنت؟ قال: من أبغض ولد عبدالمطلب إلىٰ ولد عبدالمطلب، قال: فأنت إذاً أمير المؤمنين!! السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فاستحسن أبو العباس ما رأىٰ من الأعرابي وأمر له بجائزة!!

حسدوه على الموت!

* وقال الأصمعي: كان رجلٌ من أهل البصرة بذيئاً شرِّيراً، يؤذي جيرانه ويَشْتم أعراضهم، فأتاه رجلٌ فوعظه، فقال له: ما بالُ جيرانك يُشكونك؟ قال: إنهم يحسدونني! قال له: على أيِّ شيءٍ يحسدُونك؟ قال: على الصَّلْب!! قال: وكيف ذاك؟ قال: أقبلْ معي، فأقبلَ معه إلى جيرانه، فقعد متظاهراً بالحزن فقالوا له: مالك؟ قال: وَصَلَ الليلة كتابُ معاوية أَنْ أُصْلبَ أنا ومالك بن المنذر وفلان وفلان - وذكر رجالاً من أشراف أهل البصرة - فوثبوا عليه، وقالوا: يا عدوّ الله، أنت تُصلب مع هؤلاء ولا كرامةَ لك؟!! فالتفت إلى الرجل فقال: أما تراهم قد حسدوني على الصّلْب، فكيف لو كان خيراً؟!

* ولا يعرف ضرر الحسد وقبحه إلا من اكتوىٰ بناره وناله من شروره وآثاره.

* قال الشعبي: وجهني عبدالملك إلى ملك الروم، فلما انصرفْتُ دفع إليّ كتاباً مختوماً فلما قرأه عبدالملك رأيته تغيّر وقال: يا شعبي أعلمت ما كتب هذا الكلب؟ قلت: لا. قال: إنه كتب، عجباً للعرب أن لم تجعل هذا ملكاً عليها، أتعرف ماذا أراد بها، أراد أن أقتلك لأنه حسدني عليك! فقال الشعبي: يا أمير المؤمنين إنه لم يرك ولو رآك لكان يعرف فضلك، فلما بلغ ملك الروم مقالة عبدالملك قال: والله ما أخطأ ما في نفسي!!

* قال أبوالحسن التّهامي المتوفى سنة ٤١٦هـ

لا تَحمدِ الدَّهْرَ في بأساء يكشفها ... فلو أردتَ دوامَ البؤسِ لم يَدُمِ
فالدهرُ كالطيفِ بُؤْساهُ وأنعُمهُ ... عن غير قصدٍ فلا تحمدْ ولا تَلُمِ
لاَ تَحْسَبنْ حَسَبَ الآباءَ مكرُمةً ... لمن يُقَصّرُ عن غايات مجدهم
حسنُ الرجال بحسناهم وفَخْرُهُم ... بطَوْلِهِم في المعالي لا بطَوْلهم
ما اغتابني حاسدٌ إلا شرفتُ به ... فحاسدي مُنعمٌ في زيّ مُنتقم
فالله يَكلأ حُسّادي فأنعمُهُمْ ... عندي وإنْ وقعت عن غير قصدِهم

بين الحسد والغبطة

* وهناك فرق بين الحسد والغبطة، فالحسد أن تتمنّىٰ زوال النعمة عن الآخرين، والغبطة أن تتمنىٰ لنفسك مثلها. قال أحد الفلاسفة: الحسد حسدان، محمود ومذموم، فالمحمود أن ترىٰ عالماً فتشتهي أن تكون مثله أو زاهداً فتشتهي مثل فعله، والمذموم أن ترىٰ عالماً أو فاضلاً فتشتهي أن يموت!! وفي الحديث الشريف: «لا حسدَ إلاّ في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه علىٰ هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس» رواه الشيخان. والمراد بالحسد هنا الغبطة المحمودة.

الحسد قَتَل صاحبه!

* ومن القصص التي تدل علىٰ قبح الحسد وسوئه، وأنّ أوّل منْ يُقتلُ به هو صاحبه؛ ما حكي أنّ رجلاً من العرب دخل علىٰ المعتصم فقرَّبه وأدْناه وجعله نديمه، وصار يدخل علىٰ حريمه من غير استئذان، وكان له وزير حاسد، فغار من البدوي وحسده وقال في نفسه: إنْ لم أحتلْ علىٰ هذا البدوي في قتله؛ أخذ بقلب أمير المؤمنين وأبعدني عنه، فصار يتلطف بالبدوي حتىٰ أتىٰ به إلىٰ منزله، فطبخ له طعاماً وأكثر فيه من الثوم، فلما أكل البدوي منه قال الوزير له: احْذر أنْ تقتربَ من أمير المؤمنين، فيشُمّ منك رائحة الثوم فيتأذىٰ من ذلك، فإنه يكره رائحته، ثم ذهب الوزير إلىٰ المعتصم فخلا به، وقال له: إن البدوي يقول عنك للناس: إنّ أمير المؤمنين أبخر وهلكتُ من رائحة فمه! فلمّا دخل البدوي علىٰ أمير المؤمنين جعل كُمّه علىٰ فمه مخافةَ أنْ يشمّ منه رائحة الثوم، فلما رآه الخليفة وهو يستر فمه بكمه، قال: إنّ الذي قاله الوزير عن هذا البدوي صحيح! فكتب كتاباً إلىٰ بعض عمّاله يقول له فيه: إذا وصل إليك كتابي هذا فاضرب رقبة حامله! ثم دعا بالبدوي ودفع إليه الكتاب، وقال: امض به إلىٰ فلان وائتني بالجواب، فامتثل البدوي الأمر، وأخذ الكتاب وخرج من عنده، فبينما هو بالباب إذ لقيه الوزير، فقال: أين تريد؟ قال: أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلىٰ عامله فلان، فقال الوزير في نفسه. إنّ هذا البدوي يحصل له من وراء هذا الكتاب مالٌ جزيل، فقال له: يا بدويّ، ما تقول فيمن يريحك من

هذا التعب الذي يلحقك في سفرك ويعطيك ألفي دينار؟ فقال: أنت الحاكم وأنت الوزير، والرأي ما ترىٰ ولا أخالفك، قال: أعطني الكتاب فدفعه إليه وأعطاه ألفي دينار، وسار الوزير بالكتاب إلىٰ البلد المعين، فلما قرأه العامل، أمر بضرب رقبة الوزير.

فبعد أيام تذكّر الخليفة أمر البدوي، وسأل عن الوزير، فأُخبر بأن له أياماً ما ظهر، وأن البدوي مقيم بالمدينة، فتعجب من ذلك، وأمر بإحضار البدوي، فحضر، فسأله عن حاله، فأخبره بالقصة التي اتفقت له مع الوزير بما ليس له به علم، وإنما كان ذلك مكراً من الوزير وحسداً، وأعلمه كيف دخل به إلىٰ بيته وأطعمه الثوم وما جرىٰ له معه. فقال: يا أمير المؤمنين قاتل الله الحسد ما أعدله، بدأ بصاحبه فقتله، واتخذ الخليفة البدوي وزيراً له، وراح الوزير الأول ضحية حسده!!.

* ومما يدور علىٰ الألسن من الأمثال الصائبة: الحسود لا يَسُود، كلّ أيّامه سُود، فاللهم إنا نعوذ بك من كل قَدَر وافق إرادة حاسد!

* وقف حسود وبخيل بين يدي أحد الملوك. فقال لهما: إنني سأعطي الثاني ضعف ما يطلبه الأول! فتشاجرا وكان كل منهما يخشىٰ أن يقترح أولاً لئلا يصيب الآخر ضعف ما يصيبه، فقال الملك: إن لم تفعلا قطعت رأسيكما! فقال الحسود: افقأ احدىٰ عيني أولاً يا مولاي!!

* قال حماد بن سلمة: باع رجل عبداً وقال للمشتري: ما فيه عيب إلا النميمة..! قال: رضيت..! فاشتراه، فمكث الغلام أياماً ثم قال لزوجة مولاه: إن سيدي لا يحبّك وهو يريد أن يَتسرّىٰ عليك.. فخذي الموسىٰ واحلقي من شعر قفاه عند نومه شعرات حتىٰ أسحره عليها فيحبّك..! ثم قال للزوج: إن امرأتك اتخذت خليلاً وتريد أن تقتلك، فتناوم لها حتىٰ تعرف ذلك..! فتناوم لها فجاءت المرأة بالموسىٰ، فظن أنها تريد قتله، فقام إليه فقتلها.. فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج.. ووقع القتال بين القبيلتين..!!

* قال أحد الشعراء يشتكي من حساده وأعدائه:

إن يسمعوا ريبةً طاروا بها فَرَحاً ... مني وما سمعوا من صالح دَفَنوا

صمٌّ إذا سمعوا خيراً ذُكِرْتُ به ... وإن ذُكِرتُ بشرٍّ عندهم أُذُن

أي استمعوا وأصغوا بآذانهم.

وهذا ما فعله الحسد

* يروى أنه كان لأحد الصالحين حساد، فأرادوا إيذاءه وتشويه سمعته، فجعلوا لامرأة جُعْلاً على أن تُدْخله دارها ليلاً، وتُظهر للناس أنه أرادها للفاحشة، فتعرضت له وقت السحر وهو ذاهب إلى صلاة الفجر، فقالت له: إن زوجي يريد الوصية وهو مريض وأخاف عليه الموت قبل ذلك، فدخل معها بيتها، فغلقت الأبواب وصاحت، فجاء هؤلاء الحساد الأشرار فأخذوا الرجل والمرأة إلى الوالي، فأمر بسجنهما حتى تطلع الشمس، فاشتغل الرجل بصلاته في السجن، فلما رأته المرأة على حاله تلك ندمت على ما صنعت معه، فصارحته بحقيقة الأمر، وبما قيل لها وطُلب منها، فقال لها الرجل: قولي للسجان إن لي حاجة وأريد الخروج وسأعود إليك، فإذا خرجت فاذهبي إلى زوجتي وأخبريها بالقصة، وأرسليها إليّ، ثم امضِ أنتِ إلى شأنك، ففعلت، فلما حضرت زوجته وطلع النهار، طلبهما الوالي، ثم وجه الكلام للرجل مؤنباً: أيحل لك أن تخلو بأجنبية؟ عليَّ بفلان.. يطلب والد زوجته.. فلما حضر قيل له: من هذه؟ فكشف عن وجهها فإذا هي ابنته! فقال: هذه ابنتي وهذا زوجها! وعرف الوالي حقيقة الحال، وانكشفت المكيدة.

فقال الرجل الذي ظهرت براءته:

إن يحسدوني فإني غير لائمهم ... قبلي من الناس أهل الفضل قد حُسدوا

فدام لي ولهم ما بي وما بهم ... ومات أكثرنا غيظاً بما يجدُ!

خسة الطباع

* كان الناس قديماً إذا حسدوا رجلاً على يساره، حرَصُوا على كسب المال حتى يصيروا مِثْلَهُ، وإذا حسدوه على علمه، تعلَّموا حتى يضاهوه، وإذا حسدوه على جوده، بذلوا حتى

يقال إنهّم أكرم منه، إلخ . . . فالآن لما ضَعُفَتِ الطبائعُ، وصَغُرَتِ النفوسُ، وعجزوا أن يجعلوا أنفسهم مثل من حسدوه، في المعنى الذي حسدوه عليه، عدلوا إلى تنقّص المبرّز، إن كان فقيراً شنّعوا على فقره، وإن كان عالماً خطّأوه، وإن كان جواداً قالوا هذا متاجرٌ بجوده وبخّلوه، وإن كان فعّالاً للخير، قالوا هذا مُراءٍ! فلقد خست الطباع حتى في الحسد!!

تأملات

أمثال

* رب أخ لك لم تلده أمك - مثل عربي -.

* أن تضيء شمعة صغيرة خير لك من أن تلعن الظلام - مثل صيني -.

* الكلام يشبه النحل فيه العسل والإبر - مثل سويسري -.

* الكلام لا يسدد الديون - مثل انجليزي -.

* يستحيل الوقوف في هذا العالم دون الانحناء أحياناً - مثل ياباني -.

* لولا الغيوم لما استمتعنا بأشعة الشمس - مثل ايرلندي -.

* ليس كل أبيض طحيناً! - مثل سويدي -.

* سر الثلاثة سر الجميع - مثل فرنسي -.

* عندما يشيخ الثعلب تنتف وبره الغربان - مثل هولندي -.

* الفقر ابن الكسل البكر - مثل افريقي -.

* تاج القيصر لا يمكن أن يحميه من الصداع - مثل روسي -.

* اللسان الطويل دلالة على اليد القصيرة - مثل اسباني -.

* قزم واقف خير من عملاق راكع - مثل أمريكي -.

الدين المعاملة

* الصدق في التعامل أساس النجاح والربح المبارك، وما انتشرت الأكاذيب وأساليب الغش والخداع في البيع والشراء إلا يوم أن تخلىٰ الناس عن تعاليم دينهم في المعاملات التجارية، وإلا فـ«الدين المعاملة» يقول رسول الله ﷺ: «التاجر الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء» رواه الترمذي. وقال أيضاً: «إن التجار يبعثون يوم القيامة فجاراً إلا من اتقىٰ الله وبرّ وصدق» أخرجه الترمذي.

* وكان من عادة السلف التسامح في البيع، وعدم الإكثار من المماكسة، والرضىٰ بالربح القليل وإظهار أي عيب في السلعة.

* قيل للزبير: بم بلغت ما بلغت من اليسار؟ قال: لم أردّ ربحاً ولم أسْتر عيباً.

* واشترىٰ عمرو بن عبيد إزاراً للحسن بستة دراهم ونصف، فأعطاه سبعة دراهم فقال الرجل: إنما بعْته بستة دراهم ونصف فقال عمرو: إني اشتريته لرجل لا يقاسِم أخاه درهماً.

* وكان الحسن البصري يقول: الأسواق موائد الله في الأرض، فمن أتاها أصاب منها.

* وكان جرير بن عبدالله إذا قام إلىٰ السلعة يبيعها، يُظْهر عيبها، ثم خيّر، وقال: إن شئت فخذْ، وإن شئتَ فاتركْ! فقيل له: إنك إذا فعلتَ هذا لم ينفُذ لك بيعٌ، قال: إنا بايعنا رسول الله ﷺ علىٰ النصح لكل مسلم!

* وكان واثلة بن الأسقع واقفاً فباع رجل ناقة بثلاثمائة درهم وغفل واثلة وقد ذهب الرجل بالناقة، فسعىٰ وراءه وجعل يصيح به، وقال: يا هذا اشتريتها للحم أو للظهر؟ قال: بل للظهر. فقال: إنّ بخفّها نقباً قد رأيته وإنها لا تبالغ السير، فعاد فردّها فنقصها البائع مائة درهم، وقال لواثلة: رحمك الله أفسدت عليّ بيعي! قال: إنا بايعنا رسول الله ﷺ علىٰ النصح لكل مسلم. وباع ابن سيرين شاة فقال للمشتري: أبرأ إليك من عيب فيها، إنها تقلب العَلَف برجلها!

* وكان يونس بن عبيد خزازاً ـ يبيع الثياب ـ فطلب منه خز للشراء، فأخرج غلامه سفط الخز ونظر إليه وقال: اللهم ارزقنا الجنة! فقال لغلامه: ردّه إلى موضعه، ولم يبعْه وخاف أن يكون ذلك تعريضاً للثناء على السلعة! ويروى أنه كان عنده حلل مختلفة الأثمان، ضربٌ قيمة كل حلة منها أربعمائة درهم، وضربٌ ثمنها مائتا درهم. فذهب إلى الصلاة وخلّف ابن أخيه في الدكان فجاء أعرابي وطلب حلّة بأربعمائة، فعرض عليه حلة من حلل المائتين فاستحسنها ورضيها، فاشتراها فمشى بها وهي على يديه، فاستقبله يونس فعرف حلّته فقال: بكم اشتريت؟ فقال بأربعمائة. قال: لا تَسْوى أكثر من مائتين فارجع حتى نردّها! فقال: هذه ثمنها ببلدنا خمسمائة درهم وأنا ارتضيتها. فقال له يونس: انصرف فإن النصح في الدين خير من الدنيا وما فيها. ثم ردّه إلى الدكان وردّ عليه مائتي درهم وخاصم ابن أخيه وقاتله فقال: أما استحييت، أما اتقيت الله، تربح مثل الثمن وتترك النصح للمسلمين؟ فقال: والله ما أخذه إلا ورضي به. قال: فهلا رضيت له ما ترضاه لنفسك.

* رُئي عبدالله بن جعفر يُماكس في درهم فقيل له: أتُماكس في درهم وأنت تجود من المال بما تجود به؟ فقال: ذاك مالي جدْتُ به، وهذا عقلي بخلْت به.

* يروى أن الأصمعي كان مضيقاً في معيشته مستقصياً في مبايعته فقال أحدهم: لو بُذلت الجنة للأصمعي بدرهم لما رضي واستنقص شيئاً!

* وقال رجل لخياط: خط لي هذا الثوب وسامحني في الأجرة! فقال: أخيطه لك مجاناً، فقال: زدني، قال: إذا تخرّق رقعتُه لك!

* وكان أحد الظرفاء يقول: لو عُرضت السلعة على فلان وقيل له إنها «ببلاش» ـ بدون ثمن ـ لقال: ما يمكن ببلاش إلا ربع!!

* واستأجر رجلٌ غلاماً فقال: كم تطلب؟ فقال: أخدمُك بملء بطني. فقال: سامحني. فقال: لا أعرف مسامحة في ذلك إلا أنْ أصوم لك الاثنين والخميس في كل أسبوع لتربح غداءهما!

* وقال العباس بن المأمون لغلامه: إن رأيت كذا فاشتر بنصف درهم، فقال المأمون: لا تفلح إذا عرفت للدرهم نصفاً!

* وسام رجلٌ آخر في نعل فقال صاحبها: بعشرة. فقال المشتري: لو كانت من جلد بقرة بني إسرائيل ما أخذتها بأكثر من درهم فقال الحذّاء: لو كانت دراهمك من دراهم أصحاب الكهف ما أعطيتُكَها!

* وسام أشعب رجلاً بقوس فقال: بدينارين. فقال: لو أنها إذا رُمي بها الطير في الهواء يسقط مشوياً بين رغيفين ما اشتريتها بدينارين!

* قال سعيد ابن المسيب: إذا أبغض الله عبداً جعل رزقه في الصياح.

* آذىٰ بعض الدلالين الأصمعي في شيء فقال: شرّ الناس الدّلالون، لأن أول من دلّ إبليس، حيث قال لآدم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠)﴾ (طه).

* وقال محمد بن واسع: أفضل التجارات لديّ بيع العطر والجوهر، وكل شيء لا يشتريه إلا من في أمواله فضلٌ عن القوت، لأن ظلم أصحاب الفضل أهون، وأبغض التجارة إليّ القطن وشراء الغزل، فإن ظلم هؤلاء صعب إذا كان داخلاً علىٰ أقواتهم.

* كان رجل يتجر في البحر ويحمل الخمر يأتي بها قوماً، فعمد إليها فمزجها نصفين، وأتاهم بها فباعها بحساب الصّرْف واشترىٰ قرداً فحمله معه في السفينة، فلما توسّط البحرَ لم يشعر إلا وقد أخذ القرد الكيس وعلا علىٰ ظهر السفينة وجعل يُلقي ديناراً في البحر وديناراً في السفينة حتىٰ قسمه قسمين!.

* اشترىٰ أعرابي غلاماً فقال للبائع: هل فيه عيب؟ قال: لا، غير أنه يبول في الفراش، فقال: ليس هذا بعيب، إن وجد فراشاً ينام عليه فليبُلْ فيه!!.

* قال رجل للحّام: ليس لحمك بسمين، فقال: إن فلاناً جالسني ووضع راحته علىٰ هذا اللحم وانصرف إلىٰ منزله، فجعل ما علق بها في قِدْر واتخذ منها دعوة!

* واستأجر رجل حمّالاً ليحمل قفصاً فيه قوارير علىٰ أن يعلّمه ثلاث خصال ينتفع

بها، فحمل الحمّال القفص، فلما بلغ ثلث الطريق قال: هات الخصلة الأولى، فقال: مَنْ قال لك إن الجوع خير من الشبع فلا تصدقه! فقال: نعم. فلما بلغ ثلثي الطريق، قال: هات الثانية، فقال له: مَنْ قال لك إن المشي خير من الركوب فلا تصدقه! فقال: نعم. فلما انتهى إلى باب الدار قال: هات الثالثة. فقال: من قال لك إنه وجد حمّالاً أرخص منك فلا تصدقه! فرمى الحمّال القفص على الأرض وقال: مَنْ قال لك إن في هذا القفص قارورة صحيحة فلا تصدقه!!

* وكانوا يكرهون البيع والابتياع نسيئة، وكل ما يؤدي إلى الخسارة من قريب أو بعيد أو يورّط الرجل في ديون تثقل كاهله وتقضي على رأس ماله فينتهي إلى الإفلاس والدمار.

* قال الحجاج: لا تجعلوا مالي عند مَنْ لا يمكنني استرجاعه منه! فقيل: ومن الذي لا يمكنك استرجاعه منه! قال: المفلس. وفي المثل: أفلس من طنبور بلا وتر.

* وقيل لمفلس: هل في يدك مال؟ فقال: هي أفرغ من فؤاد أم موسى.

* وفَلَّس القاضي رجلاً فأركبه حماراً وطوّف به ونودي عليه أن لا يُبايَع فإنه مفلس، فلما أُنزل قال له صاحب الحمار: هات الكراء. فقال له: فيم كنا من أول النهار يا أبْله؟!

* واستقرض من الأصمعي صديق له، فقال: حباً وكرامة، ولكن سكّن قلبي برهن يساوي ضعف ما تطلبه! فقال: يا أبا سعيد أما تثق بي؟ قال: بلى، وإن خليل الله إبراهيم عليه السلام كان واثقاً بربه، وقد قال له: ﴿**ولكن ليطمئن قلبي**﴾ (البقرة: ٢٦٠)!!

* تقدم رجل إلى بقال يسأله شيئاً فامتنع فدنا منه فسارّهُ فدفع إليه، فقيل له: ما قال لك؟ قال: رَهَنَني طلاق امرأته، وذلك أنه حلف بالطلاق أنه يردّه غداً. فقال: ما رأيت رهناً مثله قط!

* وكان على بعض الأعراب دين ثقيل فتعلق به غرماؤه، وكان معدماً، فساموه أن يحلف لهم بالطلاق أن لا يهرب فحلف لهم بطلاق امرأتين كانتا تحته، ثم هرب، وأنشأ يقول:

لو يعلم الغرماءُ ما مقْتي لهم ... ما حلّفوني بالطلاق العاجلِ
قد ملّتا وملَلْتُ مِنْ وجْهَيْهما ... عجفاء مرضعة وأخرىٰ حاملِ!

* ورأىٰ عمر رضي الله عنه رجلاً متقنعاً فقال له: إن لقمان كان يقول: القناع بالليل ريبة وبالنهار مذلّة! فقال: إنّ لقمان لم يكن عليه دَيْن!

* وسَايَر رجلٌ آخرَ وبينما هو يحادثه إذ قطع حديثه واصفرّ لونه، فقال له الرجل: ما هذا الذي رأيتُ منك؟ قال: رأيتُ غريماً لي!

* وسأل فيلسوف رجلاً أن يقرضه مالاً فردّه، فذمّه بعض الناس إلىٰ الفيلسوف وقال: إنه جبهك بالرد، فقال: ما زاد علىٰ أنْ حمّر وجهي بالخجل مرة واحدة، ولو أقْرضنيه لصفّر وجهي مرات كثيرة!

* لزم رجل غريماً له وهو يقرأ عليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ (النساء: ٥٨) والغريم يقرأ ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ (البقرة: ٢٨٠).

* يروىٰ أن عمر رضي الله عنه أرسل إلىٰ عبدالرحمن بن عوف يَسْتسلفه أربعمائة درهم، فقال عبدالرحمن: أتَسْتسْلِفُني وعندك بيت المال؟ ألا تأخذ منه ثم تردّه، فقال عمر: إني أتخوف أن يصيبني قَدَري فتقول أنت وأصحابك: اتركوا هذا لأمير المؤمنين، حتىٰ يؤخذ من ميزاني يوم القيامة، ولكني أتسلّفُها منك، لما أعلم من شُحّك، فإذا متُّ جئْتَ فاسْتَوْفيتها من ميراثي!

* مرّ كسرىٰ بشيخ كبير يغرس فَسِيلاً فقال له: يا هذا كم أتىٰ عليك من العمر؟ قال: ثمانون سنة. قال: أفتغرس فسيلاً بعد الثمانين؟ فقال: أيها الملك لو اتكل الآباء علىٰ هذا لضاع الأبناء! قال كسرىٰ: زه - كلمة فارسية تعني الاستحسان - يأخذ أربعة آلاف درهم فقال: أيها الملك، الفسيل يطعم بعد سنين من غرسه، وهذا قد أطعمني في سنته، فقال: زه يأخذ أربعة آلاف درهم، فقال: أيها الملك، الفسيل يطعم في السنة مرة وهذا قد أطعمني في أوّل السنة مرتين. فقال: زه يأخذ أربعة آلاف درهم. فقال الوزير: إن لم ينهض الملك أهلك هذا الشيخ بحكمته بيت المال!

* كان أحد الشعراء يداين الناس فإذا حلّت دراهمه ركب حماراً له يقال له: شاربُ الريح! فيقف على غرمائه ويقول:

بني عمّنا رُدّوا الدراهم إنما يُفَرّق بين الناس حبُّ الدراهم

* وكان رجل عَسِرُ القضاء فإذا تعلّق به غرماؤه فرّ منهم وقال:

فلو كنتُ الحديدَ لكَسّروني ولكني أشدّ من الحديد!!

تأملات

* ألّف كاتب صحفي بريطاني كتاباً ضخماً عن الهند - في أثناء ثورتها على إنكلترا طالبة استقلالها - وشحن كتابه بالعادات والتقاليد الهندية السيئة، فلما نشره على الناس ليطعن في جدارة الهند بالحرية، قال الزعيم الهندي غاندي تعليقاً على الكتاب: إن هذا المؤلف يشبه بعض موظفي المجالس البلدية المشتغلين بجمع القمامة، لا تقع عيونهم إلا على الأقذار! والبعض يحبس عينيه على الأوساخ والأرواث الساقطة في عرض الطريق، ويذهل عما يقع بجانبيه من قصور وبساتين. والبعض الآخر يأتي إلى الطريق النظيف فيلوثه! وهذا مثال للذي يفتري ويلصق التهم بالآخرين، وذاك مثال لمن يعمى عن الحسنات وينقب عن المعائب والسيئات وينفخ فيها ويضخمها!

* لما خرج الأديب عباس محمود العقاد من السجن بعد تسعة أشهر - لأنه تحدى النظام الملكي وطالب بالدستور وحقوق الأمة - قال قصيدة منها هذان البيتان:

وكنت جنين السجن تسعة أشهر فها أنذا في ساحة الخلد أولد

عداتي وصحبي لا اختلاف عليهما سيعهدني كلٌّ كما كان يعهد

التطيّر.. والتفاؤل والتشاؤم

* في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكاد يَسْلَم منهن أحدٌ: الطِّيَرة والظنّ والحسد، قيل: فما المخرج منهن يا رسول الله؟ قال: إذا تطيّرت فلا تَرْجعْ، وإذا ظننْتَ فلا تُحقق، وإذا حَسَدْتَ فلا تَبْغ».

وقال: «لا عدوىٰ ولا طِيَرة» رواه البخاري وقال: «إذا رأىٰ أحدُكم الطِّيَرَةَ فقال: اللهم لا طيرَ إلا طيرُكَ، ولا خيرَ إلا خيرُك ولا إله غيرُك، لم تضرَّهُ»، رواه أحمد والطبراني.

* وكانت العرب تتطيّر، وكان فيهم كهّان ومنجِّمون وعرّافون، وكان لكهنة العرب أتباع من الشياطين يسترقون السمع، ويأتونهم بالأخبار، فيلقونها لمن يتبعهم ويسألهم عن خفيات الأمور، حتىٰ جاء الإسلام، فمُنعت الشياطين من استراق السمع كما أخبر القرآن الكريم ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾ (الجن: ٩) فعند ذلك انقطعت الكهانة وشُدِّدت حراسة السماء.

* والتفاؤل محمود، والطيرة مذمومة وقبيحة، وكان ﷺ يحب الفأل ويكره الطِّيرة. وكانت الطيرة مشهورة في الجاهلية وللعرب فيها أعاجيب، ولكن ليس كل من تطيّر وتشاءم وقع المكروه الذي يحذرُه، وليس كل من تفاءل نال الخير الذي يريده ويطلبه.

* لمّا قَدِم قتيبة بن مسلم والياً علىٰ خراسان، قام خطيباً، فسقطت المِخْصَرَة من يده، فتطيّر بها أهل خراسان، فقال: أيها الناس، ليس كما ظننتم، ولكنه كما قال الشاعر:

فألْقَتْ عصاها واستقرّ بها النّوىٰ ... كما قرّ عَيْناً بالإيابِ المسافرُ!

* ولما طلب المغيرةُ بن شعبة رسولُ سعد بن أبي وقاص من ملك الفُرس الجِزيةَ، قال: نعطيكم التراب، فقال سعد: نِعمَ الفألُ! مكّننَا من أرضه!

* والتفاؤل لا يحسنه إلا الأذكياء والعقلاء، فليس كل أحد يحسنه ويستطيعه، وقد

اشتهر عن أناس عنوا بهذا الأمر، حكايات عجيبة ومواقف غريبة تدل على صدق حدسهم وقوة ذكائهم. لما وقفت حليمة السعدية على عبدالمطلب تسأله رضاع رسول الله ﷺ قال لها: من أنت؟ قالت: امرأة من بني سعد، قال: ما اسمك؟ قالت: حليمة. فقال: بخٍ بخٍ، سَعْد وحِلْم، هاتان خلّتان فيهما غناء الدهر! وتجد معظم هذه الآثار التي سنوردها في كتاب: تحفة المودود لابن قيم الجوزية.

* ولما بعث ملك الروم إلى النبي ﷺ رسولاً، قال له: انظر أين تراه جالساً، ومن إلى جنبه، وانظر إلى ما بين كتفيه، قال: فلما قدم، رأى رسول الله ﷺ جالساً على نَشْزٍ ـ المكان المرتفع من الأرض ـ واضعاً قدميه في الماء، عن يمينه أبو بكر، فلما رآه النبي ﷺ قال: تحوّلْ فانظر ما أُمرت به، فنظر إلى الخاتم، ثم رجع إلى صاحبه فأخبره الخبر، فقال: ليَعْلُونّ أمره وليمْلكنّ ما تحت قدمي، فينال بالنشز: العلو، وبالماء: الحياة!

* ويُروى أنّ كسرى بعث إلى النبي ﷺ زاجراً ومصوّراً، وقال للزاجر: انظر ما ترى في طريقك وعنده، وقال للمصور: ائتني بصورته، فلما عاد إليه أعطاه المصوّر صورته ﷺ فوضعها كسرى على وِسَادته وقال للزاجر: ما رأيت؟ فقال: لم أرَ ما أزجره حتى الآن، وأرى أمره يعلو عليك، لأنك وضعت صورته على وسادتك!

* ورُوي أن معاوية لما أمر بقتل حُجْر بن الأدْبر في ثلاثة عشر رجلاً معه، قال حُجْر: دعوني أصلّ ركعتين، فتوضأ وأحسن الوضوء، ثم صلّى وطوّل فقيل له: أجزعْتَ؟ فقال: ما توضأت قط إلا صليت، وما صليت قط صلاة أخفّ منها، وإنْ أجْزع فقد رأيت سيفاً مشهوراً وكفناً منشوراً وقبراً محفوراً! فقيل له: مُدّ عنقك، فقال: إن ذلك لدمٌ ما كنت لأُعين عليه، فقدّم فضربت عنقه، وكان معاوية بعث رجلاً يقال له هُدْبة لقتلهم، وكان أعور، فنظر إليه رجل من خَثْعم فقال: إن صدقت الطِّيرة، قُتِل نصفنا! فلما قُتل سبعة بعث معاوية رسولاً آخر بإيقاف قتلهم! فلم يقتل الباقون!

* خرج هشام بن عبدالملك يوماً فلقي أعور، فأمر بأن يضرب ويحبس وقال: تشاءمت بك! فقال الأعور: إن الأعور يكون شؤمه على نفسه، وشؤم الأحول على

غيره، ألا ترىٰ أني استقبلتك فلم يصبك شيء، وأنت استقبلتني فنالني منك سوء! وكان هشام أحول فخجل من ذلك وخلاّه!

* وخرج بعض ملوك الفرس إلىٰ الصيد فاستقبله أعور، فأمر بحبسه وضربه، ثم مضىٰ فتصيد صيداً كثيراً، فلما عاد استدعىٰ الأعور، وأمر له بصلة، فقال الأعور: لا حاجة لي في الصلة، ولكن ائذن لي في الكلام، فأذن له، فقال: تلقّيتني فضربتني وحبستني، وتلقّيتك فَصِدْتَ وسلمت، فأيّنا أشأم؟ فضحك وأعطاه!

* وكان النبي ﷺ يشتدّ عليه الاسم القبيح ويكرهه جداً من الأشخاص والأماكن والقبائل والجبال، حتىٰ إنه مرّ في مسير له بين جبلين فسأل عن اسمهما؟ فقيل له: فاضح ومخزٍ، فعَدَل عنهما، ولم يمرّ بينهما، وفي حديث سعيد بن المسيب أن جده لما جاء إلىٰ رسول الله ﷺ قال له: ما اسمك؟ قال: حزن، فقال: أنت سهْل، فقال: لا أغيّر اسماً سمانيه أبي، قال سعيد: فمازالت تلك الحزونة فينا بعد، رواه البخاري.

* وورد أن رسول الله ﷺ قال: من يحلب هذه الشاة؟ فقام رجل وقال: أنا فقال: ما اسمك؟ قال: مرّة، فقال له: اجلس، ثم قام رجل آخر، فقال له: ما اسمك؟ قال: حرب، فقال له: اجلس، فقام آخر، فقال له: ما اسمك؟ قال: يعيش، فقال رسول الله ﷺ له: احْلب. رواه مالك في الموطأ.

* وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرجل: ما اسمك؟ قال: جمرة. قال: ابن مَنْ؟ قال: ابن شهاب، قال: ممن؟ قال: الحُرقة، قال: أين مسكنك؟ قال: بحرّة النار، قال: بأيّتها؟ قال: بذات لظىٰ، قال عمر: أدرك أهلك فقد احترقوا، فكان كما قال عمر، رواه مالك في الموطأ.

* ولمّا فرغ المهلب بن أبي صفرة من حرب الأزارقة بعث مالك بن بشير إلىٰ الحجاج يبشره بالانتصار، فلما دخل علىٰ الحجاج قال له: ما اسمك؟ قال: مالك بن بشير فقال: مُلْك وبشارة. ويُروىٰ أن رسول الله ﷺ قال لأمرائه: لا تُبْردوا بريداً إلا حَسَن الوجه حَسَن الاسم!

* وقف أعرابي على قوم فسألهم عن أسمائهم، فقال أحدهم: اسمي وثيق، وقال الآخر: اسمي منيع، وقال الآخر: اسمي ثابت، وقال الآخر: اسمي شديد، فقال الأعرابي: ما أظن الأقفال عملت إلا من أسمائكم!

* وقال رجل لأعرابي: ما اسمك؟ فقال: اسمي فرات بن البحرين الفياض! قال: فما كنيتك؟ قال: أبو الغيث، قال: بأبي أنت ينبغي أن نلقي فيك زورقاً وإلا غرقنا!!

* وكان رسول الله ﷺ يتفاءل بالأسماء الحسنة، لما جاء سهيل بن عمرو يوم الحديبية قال رسول الله ﷺ لما رآه «سهل أمركم» ويظهر أن للأسماء تأثيراً في مسمّياتها وإلا فعلام تدلّ هذه الحوادث؟! ولعل في الأمر ترتيب الأسباب على المسببات عند النطق باللسان، وفي الحديث: «البلاء موكل بالقول». ويروى أن أبابكر رضي الله عنه كان يتمثل بهذا البيت:

احذَرْ لِسانَك أنْ يَقولَ فتُبْتلى ... إنّ البلاء مُوكّلٌ بالمنْطقِ

* وكان رسول الله ﷺ يغير الأسماء القبيحة التي تنفر منها النفوس بالأسماء الحسنة التي تميل إليها النفوس وترتاح، وكان عليه الصلاة والسلام شديد العناية بذلك.

* وضُرب المثل بشؤم طُوَيْس ويقولون: أشأم من طويس، ويروى أنه قال يوماً: يا أهل المدينة توقعوا خروج الدجال ما دمت حيا بين ظهرانيكم، فإذا مت فقد أمنتم، لأني ولدت في الليلة التي مات فيها النبي ﷺ، وفطمت في اليوم الذي مات فيه أبوبكر! وبلغت الحلم في اليوم الذي قتل فيه عمر! وتزوجت في اليوم الذي قتل فيه عثمان! وولد لي في اليوم الذي قتل فيه علي! وذكر ابن خلكان أن سليمان بن عبدالملك كتب إلى عامله بالمدينة أن أَحْصِ المخنثين قِبَلك، فوقعت على الحاء نقطة! فأمر بالمخنثين فخصوا! وخصي طويس من جملتهم، فلما خصوهم أظهروا الفرح بذلك حتى قال أحدهم: ما كان أغنانا عن سلاح لا نقاتل به! وقال طويس: أفٍّ لكم ما سلبتموني إلا ميزاب بول! وكان طويس اسمه طاوس فلما تخنث سمّوه طويساً! وكان مولىً لأروى بنت كُرَيْز أمّ عثمان بن عفان، واسمه عيسى بن عبدالله، وكنيته أبو عبدالمنعم، وغيّرها المخنثون فجعلوها أبا عبدالنعيم، وطويس لقب غلب عليه، وكان ممن يضرب به المثل في الحذق بالغناء!

الفقر.. والفقراء

* يروىٰ أن رجلاً قَتَل في معركة صِفِّين أبا امرأة وابنها وأخاها وعمّها وكثيراً من أهل بيتها ثم أتتْ تَسْأله! فقال: ما أظنّ علىٰ ظهر الأرض أبْغض إليك مني! فقالت: بلىٰ، إن الذي ألجاني إليك أبغض إليّ منك، قال: وما هو؟ قالت: الجوع والفقر!

* ليس في الحياة شيء أصعب من الفقر وأثقل من الفاقة وخاصة إذا ألجأتْ إلىٰ استعطاف العدو! قال لقمان لابنه: يا بني، لقد أكَلْتُ الحنظل، وذقت الصّبر، فلم أرَ شيئاً أمَرّ من الفقر، فإن افتقرت فلا تحدّث به الناس، كيلا ينتقصوك، ولكن اسأل الله تعالىٰ من فضله، فمن ذا الذي سأل الله فلم يعطه، أو دعاه فلم يجبه، أو تضرّع إليه فلم يكشف ما به؟!

* وكان النبي ﷺ يتعوذ من الكفر والفقر، فقال له رجل: أيستويان؟ فقال: نعم، كاد الفقر أن يكون كفراً! وكان صلوات الله عليه يقول: اللهم إني أسألك الهدىٰ والتقىٰ والعفاف والغنىٰ. رواه مسلم. وقال عمر بن الخطاب: والله لو كان الفقر رجلاً لقتلته! رواه البيهقي بغير هذا اللفظ ورواه الطبراني في الأوسط وفيه ضعف. تخريج الإحياء ٣/ ٨٧. وعزاه في المقاصد الحسنة ص٤٩٨ إلىٰ النسائي وابن حبان وقال: صححه ابن حبان. ويروىٰ: نِعْم العون علىٰ تقوىٰ الله المال.

* والناس يقوّمون الرجل حسب ماله: فإذا مَلَك العقارات وأضحىٰ صاحب شركات، أصبح يُشار إليه بالبنان، وإذا حضر في مجلس، فله صدره، وإذا حدّث فكلامه مسموع وحديثه شيّق ولو «عَفّس»، ومنظره جذّاب ولو كان دميم الخلقة وإذا امزح فكل كلمة يقولها تعتبر نكتة مضحكة! هذا حال الناس، ولقد عبّر الشاعر العربي العباس بن الأحنف عن ذلك حينما قال:

يمشي الفقيرُ وكلّ شيء ضدّه ... والناس تغلق دونه أبوابها
وتراه مبغوضاً وليس بمُذْنب ... ويرىٰ العداوة لا يَرىٰ أسبابها

حتى الكلاب إذا رأت ذا ثروة   خضعت لديه وحرّكتْ أذنابها
وإذا رأتْ يوماً فقيراً عابراً   نَبَحت عليه وكَشّرتْ أنيابها!

* قال الشاعر:

مَنْ كان يملك درهمين تعلمت   شفتاهُ أنواع الكلام فقالا
لولا دراهمه التي يزهو بها   لوجدته في الناس أسوأ حالا
إنَّ الغني إذا تكلم بالخطا   قالوا: صدقْتَ وما نطقت محالا
أما الفقير إذا تكلم صادقاً   قالوا: كذبت وأبطلوا ما قالا
إن الدراهم في المواطن كلها   تكسو الرجال مهابة وجمالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة   وهي السلاح لمن أراد قتالا!

* وقال آخر:

ولا يساوي درهما واحداً   مَنْ ليس في منزله دِرْهَمُ

* ولو لبس الحمار ثياب خزّ   لقال الناسُ يا لك من حمار!

* ويقال: الدرهم، هو الأخرس النجيح، وأينما بُعث قضى الحوائج!

وإذا رأيت صعوبة في مطلب   فاحملْ صعوبته على الدينار
وابْعثه فيما تشتهيه فإنه   حجر يُليّنُ قسوةَ الأحجار

* يروى عن بعض السلف أنه قال: الناسُ لصاحب المال ألْزمُ من الشّعاع للشمس، وهو عندهم أعْذبُ من الماء وأرفع من السماء، وأحلى من الشّهد، وأزْكى من الورد، خطؤه صواب، وسيآته حسنات، وقوله مقبول، يُرفع مجلسه، ولا يُملّ حديثه! والمفلس عند الناس، أكْذبُ من لَمعان السراب، وأثقل من الرصاص، ولا يُسلّم عليه إنْ قَدِم، ولا يُسأل عنه إن غاب، إنْ حضر ازْدروه، وإنْ غاب شتموه، وإن غضب صفعوه، مصافحته تنقض الوضوء، وقراءته تقطع الصلاة!!

حَيّاك مَنْ لم تكن ترجو تحيته ... لولا الدراهمُ ما حيّاكَ إنْسانُ

* قيل لأحدهم: ما بال الناس يُكْرمون أرْباب المال؟ فقال: لأن عَشيقهم عندهم!

إنْ قَلّ مالي فلا خِلٌّ يُصاحبني ... وإن زاد مالي فكلّ الناس خلاني

فكم عدوٍّ لأجل المال صاحبني ... وكم صديقٍ لفقد المال عاداني

* مرّ رجل موسر بإنسان فهابه، فقيل له في ذلك. فقال: رأيت ذا المال مهيباً!

* وإذا ما افتقر الشخص ودالت دولتهُ ونكست أعلامُه، تفرّق صحبه عنه وتركوه وملّه أهلُه وهجروه.

ما الناسُ إلاّ مع الدنيا وصاحبها ... فَكيفما انقلبت يوماً به انقلبُوا

يُعظّمون أخا الدنيا فإن وثبتْ ... يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا!

* وقد قيل: إذا أيْسَرْت فكلُّ رَحْلٍ رَحْلُك، وإذا افتقرتَ أنْكَرَك أهْلُكَ! وكما يقولون: فالعُسْرة والعِشْرة لا يجتمعان!

الناسُ أتباع مَنْ دامتْ له نِعم ... والويل للمرء إنْ زلّتْ به القدمُ

المال زين ومَنْ قلّتْ دراهمه ... حيٌّ كمَنْ مات إلا أنه صَنَمُ

لما رأيتُ أخلائي وخالِصتي ... والكلُّ مُسْتترٌ عني ومُحتشم

أبدوْا جفاءً وإعراضاً فقلت لهم ... أذْنبْتُ ذنباً؟ قالوا: ذَنْبك العدمُ!

* قال بعضهم:

رأيت الناس قد «مالوا» ... إلى من عنده «مالُ»

ومن لا عنده «مال» ... فعَنْه الناس قد «مالوا»

رأيت الناس قد «ذهبوا» ... إلى من عنده «ذهب»

ومن لا عنده «ذهب» ... فعنه الناس قد «ذهبوا»

رأيت الناس «منفضة»   إلى من عنده «فضة»
ومن لا عنده فضة   فعنه الناس «منفضة»!

أبيات في الفقر والصبر

* فَصَاحةُ سَحْبانٍ وخَطُّ ابن مُقْلةٍ   وحِكمةُ لُقْمانٍ وزُهْد ابن أدهمِ
إذا اجتَمَعتْ في المَرءِ والمرءُ مُفْلِسٌ   ونُودِيْ عليه لا يُباعُ بدرهمِ!

* إذا قلَّ مَالُ المرءِ قلَّ صَديقُهُ   وأَوْمَتْ إليه بالعُيوبِ الأصابعُ

* إذا قلَّ مَالُ المرءِ قلَّ صَديقُهُ   وقُبِّحَ منه كلُّ ما كان يَجْمُلُ

* وكان بَنُو عَمِّي يقولون: مَرْحَباً   فلما رَأَوْني مُعْسِراً مَاتَ مَرْحَبُ!

* إنَّ الفَقِيهَ هو الفَقِيرُ وإنما   رَاءُ الفقيرِ تجمَّعَتْ أطرافُها

* تنكَّرَ لي دَهْرِي ولم يَدْرِ أنني   أَعِزُّ وأَحْداثُ الزَّمانِ تَهُونُ
فباتَ يُريني الدهرُ كيفَ اعتداؤُه   وبِتُّ أُريهِ الصَّبرَ كيف يكونُ

* صابَرَ الصَّبْرَ فاستَغَاثَ به الصَّبْرُ   فقال الصَّبُورُ: يا صَبْرُ صَبْرَا

* جَزَىٰ اللَّهُ الشدائدَ كلَّ خيرٍ   وإن كانت تُغَصِّصُني بريقي
وما مَدْحِي لها شُكراً ولكن   عَرَفْتُ بها عَدُوِّي من صَدِيقي

* قيل لبعض العقلاء: كم لك من صديق؟ فقال: لا أعلم ذلك، لأن الدنيا مقبلة عليّ، والأموال موجودة عندي، وإنما أعرف ذلك إذا ولّت!

* مالٌ يميل إلى الإنسان من صِغر   وكلما شَبَّ شَبَّ الحب في الكبدِ
لو يجمع الله ما في الأرض قاطبة   عند امرئ لم يَقُلْ: حَسْبي فلا تزدِ
كلٌّ يروح من الدنيا الغرور كما   أتى بلا عَدَدٍ منها ولا عُدَدِ
لو كان يأخذ شيئاً قَبْلَنا أحدٌ   لم يَبْقَ شيء لنا من سالف الأمدِ

* وحبّ المال غريزة في الإنسان، وهو سبب في الشقاء إذا استعمل في الفساد والشرّ، ويكون نعمة إذا ما استعمل في الخير والطاعة.

* قال أحدهم: لو أن الدنيا ملئت دراهم، على كل درهم مكتوب: من أخذه دخل النار، لأمْسَتْ وما على ظهرها درهم واحد!! ومن ذمّ الغنى، فلأجل تسهيله المنكر ودفعه إلى المعصية.

أَظْهروا للناس زُهْداً وعلى الدينار داروا
وله صاموا وصلّوا وله حجّوا وزاروا
لو يُرى فوق الثريّا ولهم ريشٌ لطاروا

* يا عَائِبَ الفَقْر ألا تَزْدَجِرْ عَيْبُ الغنى أكْثرُ لو تَعْتبِرْ
مِنْ شَرَفِ الفقر ومن فضله على الغنى إنْ صَحّ منك النّظَرْ
أنّك تعصي كيْ تَنالَ الغنى وليس تَعْصي الله كَيْ تَفْتَقِرْ

* والفقر مذموم لأنه مجمع العيوب كما يقولون: قال أحدهم: وجدت خير الدنيا والآخرة في شيئين، وشرهما في شيئين: خيرهما في الغنى والتقى، وشرهما في الفقر والفجور.

ما أجْملَ الدّين والدنيا إذا اجْتَمعا وأقْبحَ الكُفْرَ والإفلاسَ بالرّجُلِ

* دعا رجل لآخر فقال: جنبك الله الفقرَ وطول الأمل. وقال سفيان: كان من دعائهم: اللهم زهّدْنا في الدنيا ووسِّعها علينا، ولا تُزَوّها عنا وترغّبْنا فيها.

* قال لقمان لابنه: يا بني شَيْئان إذا أنت حفظتهما لا تبالي بما صنعت بعدهما، دينك لمَعَادك، ودرهمك لمعاشك!

* ويروى أن أحد الملوك رأى شيخاً قد وثَبَ وثْبةً قوّية على نهر فتخطّاه، ولو فعلها شاب لما استطاع، فعجب منه فاستحضره فحادثه في ذلك فأراه ألف دينار مربوطة على وسطه!

* سمعَ صبيٌّ فقير امرأةً في جنازة تقول: يذهبون بك إلى بيت ليس له غطاء ولا وطاء ولا عَشاء، ولا غداء ولا سراج! فقال الصبي لأبيه: إنهم يذهبون به إلى بيتنا!

* كان أبو محمد الوزير المهلبي في غاية من الأدب، والمحبة لأهله، وكان قبل اتصاله بمعز الدولة بن بويه، في شدة عظيمة من الضرورة والمضايقة، وسافر وهو على تلك الحالة، ولقي في سفره شدّة عظيمة، فاشتهى اللحم، فلم يقدر عليه، فقال:

ألا موت يباع فأشتريه ... فهذا العيش ما لا خير فيه
ألا موت لذيذ الطعم يأتي ... يخلصني من العيش الكريه
إذا أبصرت قبراً من بعيد ... وددت لو أنني فيما يليه
ألا رحم المهيمن نفس حرّ ... تصدّق بالوفاة على أخيه!

وكان له رفيق، يقال له: أبو عبدالله الصوفي، وقيل: أبو الحسن العسقلاني، فلما سمع هذه الأبيات، اشترى له لحماً بدرهم، وطبخه، وأطعمه، وتفارقا، وتنقلت الأحوال، وولي الوزارة ببغداد لمعز الدولة، وضاق الحال برفيقه الذي اشترى له اللحم في السفر، وبلغه وزارة المهلبي، فقصده، وكتب إليه:

ألا قل للوزير فدته نفسي ... مقال مذكّر ما قد نسيه
أتذكر إذ تقول لضيق عيش ... ألا موت يباع فأشتريه

فلما وقف عليها، تذكّر الحال، وهزّته أريحية الكرم، فأمر له بسبعمائة درهم، ووقع له في رقعته: **﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، كمثل حبة أنبتت سبع سنابل، في كل سنبلة مائة حبة﴾**. ثم دعا به، فخلع عليه، وقلّده عملاً، يرتفق منه!

* وبلغ من أناقة الوزير المهلبي، وتحريه للنظافة في مأكله، أنه كان إذا أراد أكل شيء بملعقة كالأرز واللبن، وأمثاله، وقف إلى جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجاً مجروداً، وكان يستعمله كثيراً، فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة، ثم

يدفعها إلىٰ غلام آخر قام إلىٰ الجانب الأيسر، ثم يأخذ أخرىٰ فيفعل بها فعل الأولىٰ، حتىٰ ينال الكفاية، لئلا يعيد الملعقة إلىٰ فيه دفعة ثانية!!

* لما أشخص الشافعي إلىٰ سُرَّ من رَأَىٰ - سامراء - دخلها وعليه أطمار رَثَّة، وطال شعره، فتقدم إلىٰ مُزَيِّن فاستقذره لَمَّا نظر إلىٰ زِيِّه، فقال له: امض إلىٰ غيري! فاشتدّ علىٰ الشافعي أمرهُ، فالتفت إلىٰ غلام كان معه، فقال: إيش معك من النفقة؟ قال: عشرة دنانير. قال: ادفعها إلىٰ المُزَيِّن. فدفعها الغلام إليه، فولّىٰ الشافعي، وهو يقول:

عَلَيَّ ثيابٌ لو يُباعُ جميعها ... بفَلْسٍ لكان الفلسُ منهُنَّ أكثرا
وفيهنَّ نَفْسٌ لو يُقاسُ بمثلها ... نفوسُ الوَرَىٰ كانتْ أجَلَّ وأخطرَا
وما ضَرَّ نَصْلَ السيفِ إخلاقُ غِمْدِه ... إذا كان عَضْباً حيث أنفَذْتَه بَرَىٰ
فإنْ تكُنِ الأيام أزْرَتْ بِبِزَّتي ... فكمْ من حُسامٍ في غلافٍ مُكسَّرَا

* كان الشيخ أبو عمر المستملي فقيراً رث الهيئة زاهداً، دخل يوماً علىٰ أبي عثمان سعيد بن إسماعيل وهو في مجلس التذكير، فبكىٰ أبو عثمان وقال للناس: إنما أبكاني رثاثة ثياب رجل كبير من أهل العلم أنا أجلّه عن أن أسميه في هذا المجلس، فجعل الناس يلقون الخواتم والثياب والدراهم حتىٰ اجتمع من ذلك شيء كثير بين يدي الشيخ أبي عثمان، فنهض عند ذلك أبو عمر المستملي فقال: أيها الناس أنا الذي قصدني الشيخ بكلامه، ولولا أني كرهت أن يُتهم بإثم لسترت ما ستره. فتعجب الشيخ من إخلاصه ثم أخذ أبو عمر ذلك المجتمع من المال فما خرج من باب المسجد حتىٰ تصدق بجميعه علىٰ الفقراء والمحاويج!

* كان أبو علي المنيعي الحاجّي يبني جامع نيسابور فجاءته عجوز ومعها ثوب يُساوي نصف دينار، وقالت: سمعتُ أنَّك تبني الجامع فأردتُ أن يكون لي في النَّفقة المُباركة أثرٌ! فدعا خازِنَه، واستحضر ألفَ دينار، واشترىٰ بها منها الثَّوب، وسلَّم المبلغ إليها، ثم قَبض منها الخازنُ الثَّوبَ ثم قال له: أنفق هذه الألف منها في بناء المسجد، وقال: احفظ هذا

الثَّوبَ لكَفَنِي ؛ ألْقَىٰ اللَّهَ فيه!

لمّا أصيبتْ عين قتادة بن النعمان يوم أحد أتىٰ النبي ﷺ وهي في يده، فقال: ما هذا يا قتادة؟! قال: هذا ما ترىٰ يا رسول الله، قال: إن شئت صبرْتَ ولك الجنة، وإن شئتَ رددْتُها ودعوْتُ الله لك فلم تفتقد منها شيئاً؟! فقال: يا رسول الله إن الجنة لجزاء جزيل، وعطاء جليل، ولكني رجل مبتلىٰ بحب النساء، وأخاف أن يقلْنَ أَعْور فلا يُرِدْنني! ولكن تردّها لي وتسأل الله لي الجنة! فقال: أفعل يا قتادة، ثم أخذَها رسول الله ﷺ بيده فأعادها إلىٰ موضعها، فكانت أحسن عينيه وأحدّهما، وكانت لا تَرْمد إذا رمدت الأخرىٰ. ولّما وفَدَ ولده علىٰ عمر بن عبدالعزيز، قال له: من أنت يا فتىٰ؟ قال:

أنا ابن الذي سالت علىٰ الخدّ عينه ... فرُدّت بكفّ المصطفىٰ أحسنَ الردِّ

فعادت كما كانت لأول أمرها ... فيا حُسْنها عيناً ويا حُسْنَ ما خدِّ

فقال عمر بن عبدالعزيز عند ذلك:

تلك المكارم لا قَعْبان من لبن ... شِيبَا بماءٍ فَعَادَا بعدُ أَبْوالا!

ثم وصله فأحسن جائزته رحمه الله.

* وكثير من الناس لا يُطلعون أحداً علىٰ رصيدهم وممتلكاتهم ويرغبون في ستر الحال في العسر واليسر.

* وقد قيل: رضي بالذلّ من كَشَفَ ضرّه، وبالحسد مَنْ كَشَفَ يُسْرَه.

* سئل أحدهم: كم مالك؟ فلم يخبره به، فقيل له في ذلك، فقال: صاحب المال بإحدىٰ منزلتين، إن كان كثيراً حُسِد، وإنْ كان قليلاً حُقِر!

* وأصعب شيء علىٰ النفس، الانتكاس، والحَوْر بعد الكَوْر، والفقر بعد اليسر والغنىٰ وقد قيل: جهد البلاء، فقر مدقع بعد غنىٰ موسع. وكان رسول الله ﷺ يتعوّذ من الحور بعد الكور. ويروىٰ: ارحموا من الناس ثلاثة: عزيزَ قومٍ ذلّ، وغنيَّ قومٍ افتقر،

وعالماً بين جهّال». يذكره البعض على أنه من قول الفضيل بن عياض. ورواه ابن الجوزي في الموضوعات، وابن حبان في الضعفاء. انظر المقاصد الحسنة ص١٠١.

* والناس أضراب وأنواع بعد الغنى: فمنهم من يثبت ويصمد أمام المغريات والتحديات فيعرف حقّ الله، ولا ينسى حقوق الأخوة والرحم والصداقة، ومنهم من يطغيه المال ويبطره ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ⑥ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ⑦﴾ (العلق).

* والدنيء إذا أيسر واغتنى ابتُلي به ثلاثة: صديقهُ القديم، فإنه سيترفع عليه ويفارقه، وامرأته سيتسرى عليها أو يتزوج، وبابُ داره يغيره، وربما غير الدار كلها!

* قال عمرو بن العاص: لأن يسقط ألفٌ من العِلْية خير من أن يرتفع واحد من السّفلة!

* قال أعرابي: مَنْ وُلد في الفقر أبْطره الغنى، ومن ولد في الغنى لم يزِده إلا تواضعاً.

* كان من دعاء السلف: اللهم إني أعوذ بك من ذلّ الفقر وبطر الغنى.

* ومن المُشاهد أن الفسقة والكفرة أكثر الناس مالاً وأيسرهم حالاً، وما ذلك بفضلهم على الله تعالى، وإنما ليوفيهم نصيبهم في الحياة الدنيا وليعجل لهم طيباتهم فيها، فإذا ماتوا فلا حسنة لهم عند الله.

* قال سعيد بن المسيب: الدنيا نَذْلة تميل إلى الأنذال، وقال آخر: إذا أردْتَ أنْ تزهد في الدنيا، فانظر عند مَنْ هي!

* مر عمر بن عبيد بجمهرة من الناس وقد وقفوا ينظرون لأمر فسأل أصحابه: ما شأنهم؟ فقالوا له: هؤلاء بعضٌ من عمّال الإمارة جاءوا ينفذون أمر السلطان بقطع يد سارق أمام الملأ في السوق! فقال عمر: لا إله إلا الله سارق العلانية يقطع سارق السر!

وفي ذلك قال القائل:

إذا سرق الفقير رغيف خبز ... ليأكله سقوه السم ماء

ويسرق ذو الغنى أرزاق شعب ... برمته ولا يلقى جزاء!

من فوائد الجوع

* يقول أمير الشعراء أحمد شوقي في وصف الصوم: حرمان مشروع وتأديب بالجوع، وخشوع لله وخضوع، لكل فريضة حكمة وهذا الحكم ظاهره العذاب وباطنه الرحمة، يستثير الشفقة ويحث على الصدقة ويكسر الكبر ويعلم الصبر، حتى إذا جاع من أَلِف الشبع، وحرم المترف من أسباب المتع، عرف الحرمان كيف يقع، والجوع كيف ألمه إذا لذع!

* ويقول الأديب مصطفى صادق الرافعي عن شهر رمضان: أي معجزة اصلاحية أعجب من هذه المعجزة الإسلامية التي تقضي أن يحذف من الإنسانية كلها تاريخ البطن ثلاثين يوما في كل سنة ليحل محله تاريخ الروح والنفس!؟ أما والله لو عم هذا الصوم الإسلامي أهل الأرض جميعا لآل معناه أن يكون إجماعاً من البشرية كلها على إعلان الثورة شهراً كاملاً في السنة لتطهير العالم من رذائله وفساده! ألا ما أعظمك يا شهر رمضان لو عرفك العالم حق معرفتك لسماك. مدرسة الثلاثين يوماً!

الزهد

* قال الشاعر:

رَأَيْتُ الدّهرَ يرفعُ كلّ وغْدٍ ... وَيخْفض كل ذي رتبٍ شريفَه
كمثْلِ البحر يرسب فيه حيٌّ ... ولا ينفك تَطْفو فيه جيفَه
وكالميزانِ يخفضُ كلّ وافٍ ... ويرفعُ كل ذي زنةٍ خفيفَه!

* ومن هنا زهد الصالحون في الدنيا وزينتها، ورغبوا في الآخرة وما ادخره الله فيها للمتقين. سئل أبو حنيفة رحمه الله عن الغنى والفقر، فقال: وهل طغى من طغى مِنْ خلق الله إلا بالغنى؟! والزهد هو كما قال رسول الله ﷺ حينما سئل: ما الزهد في الدنيا؟ فقال: أما إنه ما هو بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكنّ الزهد في الدنيا، أن تكون بما في يد الله أغنى منك عما في يدك. رواه الترمذي قريباً من هذا اللفظ. وقال عليه الصلاة

والسلام: «ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، واعمل بما افترض الله عليك تكن أعبد الناس، واجتنب ما حرّم الله عليك تكن أورَعَ الناس» رواه الترمذي وأحمد.

* ولذلك ترفّع الصالحون عن الدنيا وزينتها، إذ إن من انشغل بها وصرف همته إليها صار عبداً لها، قال زاهد لأحد الملوك: أنت عبد عبدي، لأنك تعبد الدنيا لرغبتك فيها، وأنا مولاها لرغبتي عنها وزهدي فيها! وفي الأثر «إن الله أمر الدنيا فقال: من خدمني فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه».

* وحقاً من زهد في الدنيا ملكها، ومن حرص عليها صار عبداً لها. والعاقل من يجعل الدنيا في يده لا في قلبه، فلا تشغله عن ربه أبداً مهما كثر ماله واتسعت ممتلكاته.

* عجبتُ للمرء في دُنياه تُطعمِعُه ... في العيش، والأجلُ المحتوم يقطعهُ
يُمسي ويُصْبح في عشواء يخبطها ... أعمى البصيرة والآمالُ تخدعهُ
يغتر بالدهر مسروراً بصحبته ... وقد تيقّن أن الدهر يصرعه
ويجمع المال حِرصاً لا يُفارقه ... وما دَرىٰ أنه للغير يجمعه
تراهُ يُشفقُ من تضييع دِرْهمه ... وليس يُشفق من دين يضيعه
وأسوأ الناس تدبيراً لعاقبة ... من أنفق العمر في ما ليس ينفعهُ

* قال أحدهم لمحمد بن واسع: أوصني. قال: كن ملكاً في الدنيا، ملكاً في الآخرة، فقال: وكيف لي هذا؟ قال: ازهد في الدنيا واقنع!

* وقال رسول الله ﷺ: «من أصبحت الدنيا همّه وسَدَمَه ـ السدم: الولوع بالشيء ـ نَزَع الله الغنىٰ من قلبه، وصيّر الفقر بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له، ومن أصبحت الآخرةُ همّه وسَدمَه نزع الله الفقر من قلبه وصيَّر الغنىٰ بين عينيه وأتته الدنيا وهي رَاغِمةٌ». وقال علي رضي الله عنه: لا تجعل همّ يومك لِغَدِك، فإن غَدَكَ إن كان من أَجَلِك يأتي الله برزقك. رواه قريباً من هذا اللفظ ابن أبي الدنيا والحاكم بإسناد ضعيف.

* وقد علّمنا الإسلام ألاّ ننظر إلىٰ مَنْ هو فوقنا في المال والرزق وألا نخالط المترفين، فإن ذلك أدعىٰ لشكر النعم والرضا بما قُسم. وفي الحديث الشريف: «انظروا إلىٰ مَنْ هو أسفل منكم ولا تنظروا إلىٰ مَنْ هو فوقكم فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم» رواه الشيخان. والقرآن الكريم يدعونا ألا نتطلع إلىٰ ما بأيدي الآخرين ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١)﴾ (طه). أما في الأعمال ومعالي الأمور والخير والبر، فالإنسان ينظر إلىٰ من هو فوقه فيها.

* والإنسان إذا خالط من هو أكثر منه مالاً احتقر ما عنده من النعم وسخط وضجر، لما يرىٰ من تدفق الأموال بيد صاحبه ولا يرىٰ ذلك عنده. قال أبو الدرداء: إياكم ومجالسة الأموات. قالوا: ومن الأموات؟ قال: الأغنياء. وقال عمر رضي الله عنه: لا تدخلوا بيوت الأغنياء فإنها مسخطة للرزق. وقيل: لا تصحب غنياً فإنك إن ساويته في الإنفاق أضرّ بك، وإن تفضّل عليك استذلّك.

* ويروىٰ أن عيسىٰ عليه السلام قال: تحبّبوا إلىٰ الله ببغض أهل المعاصي، وتقربوا إلىٰ الله بالتباعد عنهم، والتمسوا رضاه بسخطهم، فقيل: يا روح الله، فمن نجالس؟ قال: مَنْ تُذكّركُم الله رؤيتُه، ويزيدُ في عِلْمِكم منْطقُه، وترغّبُكم في الآخرة مجالستُه!

* خرج الحجاج ذات يوم إلىٰ الصحراء، فلما حضر غداؤه قال: اطلبوا من يتغدّىٰ معنا، فطلبوا فلم يجدوا إلاّ أعرابياً، فأتوه به، فقال له: هلمَّ. قال له: قد دعاني مَنْ هو أكْرم منك فأجبتُه. قال: ومَنْ هو؟ قال: الله تبارك وتعالىٰ دعاني إلىٰ الصيام فصمت، قال: في هذا اليوم الحارّ! قال: نعم صُمْتُ ليوم أحرّ منه، قال: فأفطر اليوم وصُمْ غداً، قال: ويَضْمن لي الأمير أن أعيش إلىٰ غد؟ قال: ليس ذلك إليّ، قال: فكيف تسألني عاجلاً بآجل لا تقدر عليه؟ قال: إنه طعام طيب! قال: والله ما طيَّبه خبّازُك ولا طبّاخُك، ولكن طيَّبتْه العافية! قال الحجاج: تالله ما رأيت كاليوم، أخرجوه عني!!

* أيا مَن عاش في الدنيا طويلاً — وأفنىٰ العُمرَ في قيل وقال
وأتعب نفسه في ما سيفنىٰ — وجمّع من حرام أو حلال

هب الدنيا تُقادُ إليك عفواً　　　أليس مصيرُ ذاك إلى انتقال

* قيل لرجل من أهل البادية: ما بال فقهائكم أظرف من فقهائنا، وعوامّكم أظرف من عوامّنا، ومجانينكم أظْرفُ من مجانيننا؟ قال: أوَمَا تدرون لم ذَاك؟ قيل: لا. قال: من الجوع! ألا تَروْن أنّ العُودَ إنما صَفَا صَوْتُه لخُلوِّ جَوْفِه!!

* سأل رجل معاوية أن يساعده في بناء داره باثني عشر ألف جذع من الخشب! فقال له معاوية: أين دارك؟ قال: بالبصرة قال: وكم اتساعها؟ قال: فرسخان في فرسخين! قال: لا تقل داري بالبصرة ولكن قل: البصرة في داري!!

* قال بعضهم: إياكم وهدايا الفجار والسفهاء، فإنكم أن قبلتموها ظنوا أنكم قد رضيتم فعلهم!!

* كان الفقيه أبو زيد المروزي في أول أمره فقيراً لا يقدر على شيء، فكان يعبر الشتاء بلا جبّة مع شدة البرد في تلك البلاد، فإذا قيل له في ذلك يقول: بي علة تمنعني من لبس المحشو! يعني به الفقر، وكان لا يشتهي أن يطلع أحداً على باطن حاله، ثم أقبلت عليه الدنيا في آخر عمره، وقد أسن وتساقطت أسنانه، فكان لا يتمكن من المضغ وبطلت منه حاسة الجماع، فكان يقول مخاطباً للنعمة: لا بارك الله فيك؟ أقبلت حين لا ناب ولا نصاب!

* قال أبو الحسين أحمد بن فارس اللغوي:

إذا كنتَ في حاجةٍ مرسلاً　　　وأنتَ بها كلِفٌ مغرمُ

فأرسِلْ حكيماً ولا توصِهِ　　　وذاك الحكيمُ هو الدرهمُ

* قال أبو العتاهية:

رغيف خبز يابس　　　تأكله في زاوية

أو كوز ماء باردٍ　　　تشربه من ساقيه

وغرفة ضيقة — نفسك فيها خالية
أو مسجد بمعزل — عن الورى في ناحية
تدرس فيه دفتراً — مستنداً لسارية
معتبراً بما مضى — من القرون الخالية
خير من الساعات في — فيء القصور العالية
فهذه وصيتي — مخبرة بحالية
طوبى لمن يسمعها — تلك لعمري كافية
فاسمع لنصح مشفق — يدعى أبا العتاهية!

تأملات

* قال علي كرم الله وجهه للعباس: سل النبي ﷺ يستعملك على الصدقة - أي يجعلك من الأمراء الذين يتولون الإشراف على جبايتها - فسأله، فقال ﷺ: ما كنت لأستعملك على غسالة ذنوب الناس! والآية الكريمة تشير إلى هذا المعنى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ (التوبة: ١٠٣).

* قال عبدالله بن الأرقم لأسلم مولى عمر بن الخطاب: دلّني على بعير من العطايا، أستحمل عليه أمير المؤمنين - أي أطلبه لأحمل عليه الأثقال والمتاع - فقال أسلم: نعم، هذا بعير من إبل الصدقة فخذه، فغضب عبدالله بن الأرقم فقال - وكان يرجو جملاً من الغنائم أو مما حبس للمصالح العامة - أتحب لو أن رجلاً بادناً في يوم حار، غسل ما تحت إزاره وإبطيه، ثم أعطاكه فشربته! قال أسلم: فغضب، وقلت: يغفر الله لك، لِمَ تقول لي مثل هذا؟ قال: فإنما الصدقة أوساخ الناس يغسلونها عنهم!

محاسن الجود والكرم

* قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: ثلاثة لا أكافؤهم: رجل بدأني بالسلام، ورجل وسّع لي في المجلس، ورجل اغبرَّت قدماه في المشي إليَّ إرادة التسليم عليَّ، فأما الرابع، فلا يُكافئه عني إلا الله عزَّ وجلَّ. قيل: ومَنْ هو؟ قال: رجلٌ نَزَل به أمرٌ فباتَ ليلته يفكّر بمَنْ يُنزله، ثم رآني أهلاً لحاجته فأنزلها بي!!.

* لَوْ لَمْ يكن في الكرم إلاَّ أنه صفة من صفات الله تعالىٰ، تسمّىٰ بها فهو الكريم عزَّ وجلَّ، لكان خليقاً بالناس أن يتخلّقوا بهذا الخلق ويتّصفوا بهذه الصفة، ومَنْ جادَ سادَ، وَمن بَخِلَ رَذُلَ، ومنْعُ الجود، سوءُ ظنٍّ بالمعبود.

* قيل لعبدالله بن جعفر: إنك قد أسرفت في بذل المال!. فقال: إن الله عزَّ وجل قد عوَّدني بعادة، أنْ يتفضَّل عليَّ، وعوّدته أن أتفضَّل علىٰ عباده، وأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني.

* وقيل لأحدهم: لا خير في السّرف. فقال: لا سَرَفَ في الخير!.

* قيل لحكيم: هل شيءٌ خيرٌ من الدراهم والدنانير؟ قال: نعم مُعْطيها!.

* والكرماء هم سادة الناس وشموس الدنيا، وكم من رجل أطلق بالخير يدَه، فخلَد ذِكْرُه بعدما امّحىٰ رسمه، وعَظُم صيتُه بعد موته، لما بَذل من معروف، وما صنع من خير، ومَنْ بذل دراهمَه أحبَّه الناسُ طوعاً أو كرهاً، ومَنْ غَرَزَ عوارِفَه كثُرَ مَعارِفه، وصاحب المعروف لا يقع، وإن وقع وجد متكأ! «صنائعُ المعروف تقي مصارعَ السوءِ».

* قيل للحسن: مَنْ السخي؟ قال: الذي لو كانت الدنيا له فأنفقها لرأىٰ عليه بعد ذلك حقوقاً!

* جاء رجل إلىٰ معاوية فقال له: سألتك بالرحم التي بيني وبينك إلاَّ ما قضيْتَ حاجتي، فقال له معاوية: أَمِنْ قريش أنت؟ قال: لا، قال: فأيّ رَحِمٍ بيني وبينك؟ قال:

رحم آدم عليه السلام! فقال معاوية: رحم مجفوّة، والله لأكونَنَّ أوّلَ مَنْ وصلها، ثم قضى حاجته!.

* ودخل رجل على علي بن سليمان الوزير فقال له: سألتك بالله العظيم، إلا ما أجَرْتني من خصمي، فقال: وَمَنْ خصمك حتى أجيرك منه؟ فقال: الفَقْر! فأطرق الوزير ساعة، وقال: قد أمرْتُ لك بمائة ألف درهم. فأخَذَها وانْصَرَف، فبينما هو في الطريق إذْ أمَرَ الوزير بردِّه إليه، فلما رجع قال له: سألتك بالله العظيم متى أتاك خصمك معنِّفاً فارجع إلينا متظلماً!.

* وأشْرفُ ملابس الدنيا، وأزْينُ حُلَلها، وأجلبُها للحمد، وأدفعُها للذمِّ، وأسْتُرها للعيب، كرمٌ وسخاءٌ يتحلّى بهما الرجل السمح الكريم، وكفى بالبخل عاراً أن اسمه لم يقع في حَمْد أبداً، وكفى بالجود فخراً أنَّ اسمَه لم يقع في ذمّ أبداً، وما ادّخرت الآباءُ للأبناء، ولا أبْقَت الموتى للأحياء شيئاً أفضل من اصطناع المعروف عند ذوي الأحساب والآداب.

* قال أسماء بن خارجة: ما أُحبُّ أنْ أرُدَّ أحداً عن حاجة طلبها، لأنه لا يخلو أنْ يكون كريماً فأصون له عِرْضه، أو لئيماً فأصون عرضي منه.

* ومن أبلغ ما يُروى في الكرم وأكثره تأثيراً وأعظمه عبْرة، ما روي أن عروة بن أُدَيَّة لـمَّا أخذه عبيد الله بن زياد، وقطع يده ورجله وصلبه على باب داره، قال لأهله وهو مصلوب: انظروا إلى هؤلاء المُوكّلين بي فأحسنوا إليهم فإنهم أضيافكم!.

الكرم في الجاهلية

* والكرم خلق كان معروفاً عند العرب في الجاهلية: وامتازوا عن غيرهم من باقي الأمم به. وقد يعجب المرء لعطايا الكرماء ومِنَح الأسخياء لكثرتها وتعددها وربما دعاه ذلك إلى إنكارها لولا أنها، في واقع الأمر حق وصدق!.

* والذين انتهى إليهم الجود في الجاهلية: حاتم الطائي، وهَرِمُ بن سِنان، وكعبُ

الإيادي. فأمَّا حاتم فهو مضرب المثل في الجود والكرم، وهو الذي يأمر غلامه بإيقاد النار ليلاً ليهتدي إليه من أضلَّ الطريق، وهو القائل:

أَوْقِدْ فإنَّ اللَّيلَ ليلٌ قَرٌّ والرِّيحُ يا واقدُ ريحٌ صِرُّ
عسىٰ يَرَىٰ نارَكَ مَنْ يَمُرُّ إنْ جَلَبْتَ ضيفاً فأنتَ حُرٌّ!

* ومَرَّ حاتم علىٰ قبيلة عنزة في إحدىٰ سَفَراتِهِ، وفيهم أسيرٌ، فاستغاث به وقال: يا أبا سَفّانةَ إني أسير. ولم يحضر حاتماً ما يفكُّه به من المال. فاشتراه من العنزيين وأطلقه، وأقام مكانه في القيد حتىٰ أدَّىٰ فداءه!.

* وأمَّا هَرِمُ بن سِنان، فإنه آلىٰ علىٰ نفسه أنه لا يسلِّم عليه زهيرٌ إلا أعطاه، فقلَّ مالُ هَرِمٍ، فكان زهير يمرُّ بالنادي وفيه هَرِم، فيقول: أنعموا صباحاً، ما خلا هَرِماً، وخيرَ القومِ تركْتُ!

* وكان سِنَان أبو هَرِم سيدَ غَطَفَان، وماتت أمّه وهي حامل به، وقالت: إذا أنا مِتُّ فَشُقُّوا بطني فإنَّ سيِّد غَطَفَانَ فيه، فلمَّا ماتتْ شقُّوا بطنها فاستخرجوا منه سِناناً!.

* وأما كعبُ الإيادي، فلم يردْ عنه إلا ما ذكر من إيثاره رفيقه بالماء في المفازة حتىٰ مات عطشاً ونجا صاحبه، وهذا أكثر من كل ما أُثني لغيره.

الأجواد في الإسلام

* وأما أجواد أهل الإسلام فكثيرون جداً، واشتهر منهم عبيد الله بن عباس وهو أوَّل مَنْ وضع الموائد علىٰ الطرق وسُمّي لذلك معلّم الجود. أتاه يوماً رجل وهو بفناء داره، فقام بين يديه فقال: يا بن عباس إنَّ لي عندك يداً، وقد احتجتُ إليها، فصَعَّد فيه بصَرَه وصوَّبه، فلم يعرفه، ثم قال له: ما يدُك عندنا؟ قال: رَأَيْتُك واقفاً بِزَمْزَمَ وغلامُك يستسقي لك من مائها، والشمس قد صهرتْكَ، فَظَلَّلْتُكَ بطرفِ ردائي حتىٰ شَرِبْتَ، قال: إني لأذكر ذلك، وإنه يتردّد بين خاطري وفِكْري، ثم قال لغلامه: ما عندك؟ قال: مائتا دينار وعشرةُ آلاف درهم، قال: فادفعها إليه وما أُرَاها تَفي بحقِّ يده عندنا، فقال له

الرجل: والله لو لم يكن لإسماعيل عليه السلام ولدٌ غيرُك لكان فيه ما كفاه، فكيف وقد وَلَدَ سيد الأولين والآخرين محمداً ﷺ، ثم شَفَعه بك وبأبيك!.

* ومن جوده رضي الله عنه أنه جاءه رجل من الأنصار فقال: يا بن عمِّ رسول الله ﷺ إنَّه وُلِدَ لي في هذه الليلة مولود، وإني سمَّيته باسمك تبرُّكاً منِّي بك، وإنَّ أمَّه ماتت، فقال عبيدالله: بارك الله لك في الهبة وأجزلَ لك الأجر على المصيبة، ثم دعا بوكيله، فقال: انطلق الساعةَ فاشتر للمولود جاريةً تحْضنه، وادفع إليه مائتي دينار للنفقة على تربيته. ثم قال للأنصاري: عُدْ إلينا بعد أيام، فإنك جئتنا وفي العيش يُبْسٌ، وفي المال قِلَّةٌ. قال الأنصاري: لو سبقتَ حاتماً بيوم واحد ما ذَكَرتْهُ العرب أبداً، ولكنه سبقك فَصِرْتَ له تالياً، وأنا أشهد أنَّ عَفوك أكثر من مجهوده، وطَلُّ كرمِك أكثرُ من وابله!.

* وكان معن بن زائدة عاملاً على العراق بالبصرة وكان من الأجواد، أتاه يوماً بعض الشعراء فأقام ببابه مدة يريد الدخول عليه فلم يتهيّأ له ذلك، فقال يوماً لبعض خدمه: إذا دخل الأمير البستان فعرِّفني، فلما دخل أعلمه بذلك، فكتب الشاعر بيتاً ونقشه على خشبة، وألقاها في الماء الذي يدخل البستان، وكان معن جالساً على القناة فلما رأى الخشبة أخذها وقرأها، فإذا فيها بيت واحد:

أَيَا جُودَ مَعْنٍ نَاجِ مَعْناً بِحاجتي ... فليسَ إلى مَعْنٍ سِوَاكَ شَفيعُ

فقال: مَنْ الرجل صاحب هذه؟ فأُتِيَ به إليه، فقال: كيف قُلت: فأنشده البيت، فأمر له بعشر بِدَرٍ فأخذها وانصرف، ووضع معنٌ الخشبة تحت بساطه، فلما كان في اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط ونظر فيها، وقال: عليَّ بالرجل صاحب هذه، فأُتي به، فقال له: كيف قلتَ؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشر بِدَرٍ، فأخذها وانصرف، ووضع معن الخشبة تحت بساطه، فلما كان اليوم الثالث أخرجها ونظر فيها وقال: عليَّ بالرجل صاحب هذه، فأُتي به إليه، فقال له: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشر بِدَرٍ فأخذها، وتفكَّر في نفسه، وخاف أنْ يأخذ منه ما أعطاه، فخرج من البلد بما معه، فلما كان في اليوم الرابع،

طلب الرجل فلم يجدْهُ، فقال معن: لقد ساء والله ظَنُّه، ولقد هَمَمْتُ أن أعطيه حتى لا يَبْقَى في بيت مالي درهمٌ ولا دينار!!. (البَدْرة: عشرة آلاف درهم).

وفيه يقول القائل:

يَقُولون معنٌ لا زكاةَ لمالِهِ ... وكيف يُزَكِّي المالَ مَنْ هو بَاذِلُهْ
إذَا حَالَ حَوْلٌ لَمْ تجد في ديارهِ ... مَن المالِ إلا ذَكْرُه وجمائِلُهْ
تَراهُ إذا ما جِئْتَهُ مُتهَلِّلاً ... كأنَّك تُعْطِيه الذي أنْتَ نائلُهْ
تعوَّدَ بَسْطَ الكفِّ حتَّى لو أنَّهُ ... أرادَ انْقِباضاً لم تُطِعْه أنامِلُهْ
فلو لم يكن في كفِّه غيرُ نفسه ... لجَادَ بها: فليتَّقِ الله سائلُهْ!!

* وأجود العرب في الإسلام وأكرمهم طلحة بن عبيد الله رضي الله تعالى عنه، جاء إليه رجل فسأله برحم بينه وبينه، فقال: هذا حائطي بمكان كذا، وقد أَعْطيتُ به مائة ألف درهم يُراحُ إليَّ بالمال العشيَّة، فإن شئتَ فالمالُ، وإن شئتَ فالحائط!.. وقال زياد بن جرير: رأيت طلحة بن عبيدالله فرَّق مائة ألف في مجلس، وإنه ليخيط إزاره بيده!

* قدم رجل من قريش من سفر، فمر على رجل من الأعراب على قارعة الطريق، قد أقعده الدهر، وأضرَّ به المرض، فقال له: يا هذا أعِنَّا على الدهر! فقال لغلامه: ما بقي معك من النفقة فادْفعه إليه، فصبَّ في حِجْره أربعة آلاف درهم، فهمّ ليقوم، فلم يَقْدِر من الضعف، فبكى، فقال له الرجل: ما يبكيك، لعلك استقللْتَ ما دفعناه إليك؟. فقال: لا والله، ولكن ذكرْتُ ما تأكلُ الأرضُ من كرمِك فأبكاني!.

* وأرسل الأشعث بن قيس إلى عدي بن حاتم قدوراً كان قد استعارها من أبيه حاتم، فملأها مالاً وبعث بها إليه، وقال: إنا لا نعيدها فارغة!

* وقيل لقيس بن سعد: هل رأيت قط أسخى منك؟ قال: نعم، نزلنا بالبادية على امرأة فجاء زوجها فقالت له: إنه نزل بنا ضِيفان، فجاء بناقة فنحرها، وقال: شأنكم. فلما

كان من الغد جاء بأخرىٰ فنحرها، وقال: شأنكم، فقلنا: ما أكلنا من التي نحرْتَ البارحة إلا القليل، فقال: إني لا أُطْعم ضِيفاني البائت، فبقينا عنده عدة أيام، والسماء تمطر، وهو يفعل كذلك، فلما أردْنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته، وقلنا للمرأة: اعتذري لنا إليه، ومضينا. فلما ارتفع النهار إذا برجل يصيح خلفنا: قفوا أيها الركب اللئام، أعطيتمونا ثمن قِرَانا؟!... ثم إنه لحق بنا وقال: خذوها وإلا طعنْتُكم برمحي هذا فأخذناها وانصرفنا!.

* ولما مرض قيس بن سعد بن عبادة استبطأ إخوانه في العيادة، فسأل عنهم، فقيل لهم: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدَّيْن! فقال: أخزىٰ الله مالاً يمنع عني إخواني من الزيارة، ثم أمر منادياً ينادي: مَنْ كان لقيس عنده مالٌ، فهو منه في حِلٍّ، فكُسِرتْ عَتَبةُ بابهُ بالعشيّ لكثرة العُوَّاد!.

* حَبَسَ الحجاجُ يزيدَ بن المهلب علىٰ خراج وجب عليه، مقدار مائة ألف درهم، فجمعت له وهو في السجن، فجاء الفرزدق يزوره، فقال للحاجب: استأذِنْ لي عليه، فقال: إنه في مكان لا يمكن الدخول عليه فيه. فقال الفرزدق: إنما أتيتُ متوجعاً لَمَا هو فيه، ولم آتِ ممتدحاً، فأَذِنَ لهُ، فلما أبصره قال:

أبا خالدٍ، ضَاقَتْ خُراسانُ بَعْدَكُم وقال ذَوُو الحاجاتِ: أَيْنَ يزيدُ؟

في أبيات امتدحه فيها. فقال يزيد للحاجب: ادفع إليه المائة ألف درهم التي جمعت لنا، وَدَعِ الحجَّاجِ وَلَحْمِي يفعل فيه ما يشاء! فقال الحاجب للفرزدق: هذا الذي خِفتُ منه لما منعتُكَ مِنْ دخولِكَ عليه، ثم دفعها إليه، فأخذها وانصرف.

* ولـمَّا خرج من السجن زمن عمر بن عبدالعزيز مرَّ بعجوز أعرابية فذبحت له عنزاً فقال لابنه: ما معك من النفقة؟ قال: مائة دينار. قال: ادْفَعْها إليها! فقال: هذه يرضيها اليسير وهي لا تعرفك، قال: إنْ كان يرضيها اليسير فأنا لا أرضىٰ إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي!!.

* دخل رجل علىٰ الرشيد فقال: أسألك بالقرابة والخاصة، أم بالخلافة والعامة؟

قال: بل بالقرابة والخاصة. فقال: يداك يا أمير المؤمنين بالعطية أطْلَقُ مِنْ لساني بالمسألة، فأعطاه وأجزل له!!

* وكتب الشعبيّ إلى الحجاج يسأله حاجة فاعتذر فكتب إليه الشعبي: والله لا عذرْتُك وأنت والي العِراقَيْن - الكوفة والبصرة -، وابنُ عظيم القَرْيتين، فقضى حاجته، وكان عروة بن مسعود الثقفي جد الحجاج لأمه، عظيم الطائف - المراد بالقريتين مكة والطائف.

* ودخل رجل من الشعراء على يحيى بن خالد فأنشده:

سألْتُ النَّدىٰ هل أنت حُرٌّ؟ فقال: لا ... ولكنَّني عبدٌ ليحيىٰ بن خالدِ
فقلتُ: شِراءً؟ قال: لا، بل وراثةً ... توارثني عن والدٍ بعد والدِ

فأمر له بعشرة آلاف!

* قال الإمام الشافعي رحمه الله:

دعِ الأيامَ تفعلُ ما تشاءُ ... وطِبْ نفساً إذا حكمَ القضاءُ
ولاَ تجزعْ لحادثةِ الليالي ... فمَا لحوادثِ الدُّنيا بقاءُ
وكُنْ رجلاً علىٰ الأهوالِ جَلْداً ... وشيمتُكَ السماحةُ والوفاءُ
وإنْ كَثُرَتْ عيوبُك في البرايا ... وسرَّكَ أنْ يكون لها غطاءُ
تستَّرْ بالسخاء فكلُّ عيبٍ ... يغطيه كما قيل السخاءُ
ولا تُرِ للأعادي قطُّ ذلاً ... فإن شماتةَ الأعدا بلاءُ
ولا ترجُ السماحةَ من بخيلٍ ... فما في النارِ للظمآنِ ماءُ
ورزقُك ليس يُنْقصُه التأني ... وليسَ يزيدُ في الرزق العَناءُ
ولا حزنٌ يدومُ ولا سرورٌ ... ولا بؤسٌ عليكَ ولا رخاءُ

إذا ما كنتَ ذا قلبٍ قنوعٍ   فأنتَ ومالكُ الدُّنيا سواءُ
ومَنْ نَزَلَتْ بساحته المنايا   فلا أرضٌ تقيه ولا سماءُ
وأرضُ الله واسعةٌ ولكنْ   إذا نزلَ القضا ضاقَ الفضاءُ
دعِ الأيامَ تغدرُ كلَّ حينٍ   فما يُغني عن الموتِ الدواءُ!!

* لما أصاب الناس قحطٌ وشُدة في خلافة عمر رضي الله عنه، أتتْ عثمان بن عفان رضي الله عنه قافلة من الشام تعدّ ألف جمل، عليها أصناف الطعام واللباس مما لا يقدّر في تلك المحنة بثمن، فهرع إليه التجار يطلبون أن يبيعهم هذه القافلة، فقال: كم تعطوني ربحاً؟ قالوا: خمسة في المائة، قال: إني وجدت من يعطيني أكثر، قالوا: ستة، قال: وجدت من يعطيني أكثر، فمازالوا يزيدونه حتى أعطوه عشرة بالمائة، فقال لهم: لقد وجدت من يعطيني أكثر، فقالوا: ما نعلم في التجار من يدفع أكثر من هذا الربح، ونحن تجار المدينة والآن وصلت القافلة، فمن أعطاك أكثر من هذا؟ فقال لهم عثمان: إني وجدت من يعطيني على الدرهم سبعمائة فأكثر، إني وجدت الله يقول: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ (البقرة) أشهدكم أني بعتها لله وأنها صدقة على المسلمين!!.

* جاء رجل إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، إن لي إليك حاجة قد رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك، فإن أنت قضيتها حمدت الله وشكرتك، وإن لم تقضها حمدت الله وعذرتك! فقال علي: اكتب على الأرض فإني أكره أن أرى ذلّ السؤال في وجهك! فكتب: إني محتاج، فقال علي: ائتوني بحلة، فأُتي بها، فأخذها الرجل فلبسها ثم أنشأ يقول:

كسوتني حلّة تبلى محاسنها   فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن نلت حسن ثنائي نلت مكرمة   ولست تبغي بما قد قلته بدلاً
إن الثناء ليحيي ذكر صاحبه   كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا

فقال علي: عليّ بالدنانير، فأُتي بمائة دينار فدفعها إليه، فقيل له: يا أمير المؤمنين حلّة ومائة دينار؟! قال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: أنزلوا الناس منازلهم. وهذه منزلة هذا الرجل عندي!.

السخاء... والإيثار

* مراتب السخاء ثلاثة: سخاء وجود وإيثار، فالسخاء إعطاء الأقل وإمساك الأكثر، والجود إعطاء الأكثر وإمساك الأقل، والإيثار إعطاء الكل من غير إمساك بشيء، وقد يكون بحاجة إلى هذا الشيء، لكنه يؤثر غيره به على نفسه، ويبقى في مقاساة الضرر ومكابدة الشدة، وهو أشرف درجات الكرم، وبذلك استحق المؤثرون ثناء الله عزَّ وجلَّ عليهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر: ٩).

* ومن عجائب ما يروى في الإيثار: أنه لما احترق مسجد مَرْوَ وظنَّ المسلمون أن النصارى هم الذين أحرقوه، قاموا إلى خاناتهم فأحرقوها، فقبض السلطان على جماعة من الذين أحرقوا الخانات، وكتبَ رقاعاً فيها: القطع، والجلد، والقتل. ونثرها عليهم، فمن وقع عليه رقعةٌ، فُعِلَ به ما فيها، فوقعتْ رقعةٌ فيها القتلُ بيد رجل فقال: والله ما كنت أُبالي، لولا أُمٌّ لي، وكان بجانبه شاب، فقال له: في رقعتي الجلد، وليس لي أمّ، فخذْ أنْت رقعتي، وأعْطني رقعتك ففعل، فقتل ذلك الشاب، وتخلص هذا الرجل! ولا يرقى إلى درجة الإيثار إلا عظماء النفوس، فالإيثار ليس كلاماً يُدَّعى، وحوادث تروى، وإنما هو تجلّد وتحمّل، وتعويد النفس على البذل والحرمان، بذل ما تملك وحرمانها منه، بل لربما كَلّف الإيثار صاحبه حياته.

* قال حذيفةُ العدويُّ: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمّ لي في القتلى، ومعي شيء من الماء، وأنا أقول: إن كان به رَمَقٌ سَقَيْته، فإذا أنا به بين القتلى، فقلت: أسقيك؟ فأشار إليَّ أنْ نعم، فإذا برجل يقول: آه فأشار إليَّ ابن عمي أن أنطلق وأسقيه فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك؟ فأشار إليَّ أنْ نعم، فسمع آخر يتأوه بالقرب منه، فأشار إليّ أنْ أنطلق إليه، فجئته فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات!!

* ورد أنّ رجلاً أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه: هل عندكنّ من شيء؟ فقلن: ما عندنا إلا الماء فقال رسول الله ﷺ: من يضمّ هذا الليلة؟ فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى بيته، فقال لامرأته: إنه ضيف رسول الله فأكرميه ولا تدخري عنه شيئاً، فقالت: ما عندنا إلا قوت الصبيان! فقال: هَيِّئي طعامك وأوقدي السراج ونوِّمي الصبية إذا أرادوا العشاء! فهيأت طعامها وأصْبَحَتْ سراجها ونوّمت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح السراج فأطفأته، فجعلا يُريان الضيف أنهما يأكلان، فأكل الضيف، وظن أنهما يأكلان معه، لكنهما باتا طاويين من الجوع، فلما أصبحا، غدا الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فقال له: لقد عجب الله من صنيعكما الليلة بضيفكما! فأنزل الله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ رواه الشيخان.

* حدَّث الواقدي، قال: كان لي صديقان أحدهما هاشمي، وكنا كنفس واحدة، فنالتني ضائقة شديدة وحضر العيد، فقالت امرأتي: أمّا نحن في أنفسنا فنصبر على البؤس والشدة، وأما صبياننا هؤلاء فقد قطعوا قلبي رحمة لهم، لأنهم يروْن صبيان الجيران قد تزيَّنوا في عيدهم وأصلحوا ثيابهم، وهم على هذه الحالة من الثياب الرّثة، فلو احْتَلْتَ في شيء نصرفه في كسوتهم! قال: فكتبت إلى صديقي الهاشمي أسأله التوسعة عليَّ إنْ حضر لديه شيء، فوجّه كيساً مختوماً ذكر أن فيه ألفي درهم، فما استقر في داري حتى كتب إليَّ الصديق الآخر يشكو مثل ما شكوت إلى صديقي الهاشمي، فوجهتُ إليه الكيس بختمه، وخرجت إلى المسجد وأقمتُ ليلتي مستحيياً من امرأتي! فلما دخلتُ عليها استحْسنتْ ما كان مني، ولم تعنّفني عليه، فبينا أنا كذلك، إذْ حضر صديقي الهاشمي ومعه الكيس بحاله فقال لي: أصدُقْني عما فعلته فيما وجهتُ به إليك؟ فعرَّفته الخبر، فقال: إنك وجّهتَ إليّ وما أمْلك على الأرض إلا ما بعثتُ به إليك، وكتبتُ إلى صديقنا أسألهُ المواساة، فوجَّه كيسي بخاتمي، قال الواقدي: فتواسينا الألف درهم فيما بيننا، ثم إنا أخرجنا للمرأة مائة درهم قبل ذلك، ونمى الخبرُ إلى المأمون فدعاني فشرحْتُ له الخبر فأمر لنا بسبعة آلاف دينار، لكل واحد منَّا ألفا دينار، وللمرأة ألف دينار!.

* قال عباس بن دهقان: ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها إلا بشر بن الحارث، فإنه أتاه رجل في مرضه فشكا إليه الحاجة فنزع قميصه وأعطاه إياه، واستعار ثوباً ومات فيه!!.

* وقال عمر رضي الله عنه: أُهدي إلى رجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة فقال: إن أخي كان أحوج مني إليه، فبعث به إليه، فلم يزل واحد يبعث به إلى آخر حتى تداوله سبعة أبيات ورجع إلى الأول!!.

* قالت النوار امرأة حاتم الطائي: أصابت الناسَ سَنَةٌ، أذهبت الخفّ والظلف، وضنَّت المراضع عن أولادها، لا تبضّ بقطرة، وقد أخذني وإياه الجوع وأسهرنا في ليلة من الليالي، فتضاغى الصبيةُ وتصايحوا جوعاً، عبدالله وعدي وسَفّانة، فقام حاتم إلى الصبيين وقمتُ إلى الصبية، وجعلنا نُعَلّلهم حتى ناموا بعد هَدْأَةٍ من الليل، فأقبل إليّ يحدثني ويعللني بالحديث حتى أنام، فرفقت به لِـمَا به من الجوع، فأمسكْتُ عن كلامه لينام فقال لي: أنمْتِ؟ فلم أجبه! فسكت ونظر في فناء الخِبَاء، فإذا شيء قد أقبل فرفع رأسه، فإذا امرأة، فقال: ما هذا؟ فقالت: يا أبا عدي جارتُك فلانة، وقد أتَيْتُك من عند صبيةٍ يتعاوَوْن كالذئاب جوعاً، فما وجدْتُ معوَّلاً إلا عليك أبا عدي! فقال لها: أحضريهم، فقد أشبعكِ الله وإياهم، فرفعت رأسي وقلت: يا حاتم بماذا تُشبع أطفالها! فوالله ما نام صبيانُك من الجوع إلا بالتعليل؟ فقال: والله لأشبعنَّك وأشبعنَّ صبيانك وصبيانها! فأقبلت المرأة تحمل اثنين ويمشي بجانبها أربع كأنها نعامة حولها أولادها، فقام إلى فرسه فذبحه ثم أجّجَ ناراً ودفع إليها شفرة وقال: قطّعي واشْوي، وكُلي وأطْعمي صبيانك، فأكلتِ المرأةُ وأشبعتْ صبيانها، فأيقظتُ أولادي، وأكلتُ وأطعمتهم، فقال: والله إنَّ هذا لهو اللؤم، تأكلون وأهل الحيِّ حالهم مثل حالكم؟!، ثم أتى الحيَّ بيتاً بيتاً يقول لهم: انهضوا، عليكم بالنار، فاجتمعوا حول الفرس، وتَقنّع حاتم بكسائه وجلس ناحية، فوالله ما أصبحوا وعلى وجه الأرض منها قليل ولا كثير، إلا العظم والحافر، ولا والله ما ذاق حاتم منها مضغة وإنه لأشدُّهم جوعاً!!.

إكرام الضيف

* عُرِف إكرامُ الضيف منذ القدم، فسيدنا إبراهيم عليه السلام كان معروفاً بهذا الخُلق، وكان يكنىٰ... «أبا الضيفان» وكان هذا الخلق مشهوراً في الجاهلية قبل الإسلام، وكانوا يتنافسون في إكرام الضيف واحترامه، ويرون في ذلك الشرف والرفعة والسؤدد، ونبينا المصطفىٰ ﷺ حضّ علىٰ إكرام الضيف واعتبر ذلك علامة الإيمان «من كان يُؤْمن بالله واليوم الآخر فليُكْرِم ضيفه» (رواه الشيخان).

* ومن إكرام الضيف استقباله بالبشْر وطلاقة الوجه والترحيب، فإن عبوس الوجه وتقطيب الجبين، تنفِّر الضيف وتُوحِشُه حتىٰ ولو قُدِّم له الطعام، وفي المثل «لاقِني ولا تُطْعِمْني» أي أحسن لقائي واستقبالي ولو لم تقدم لي القِرىٰ، ولله در القائل:

بشاشةُ وجه المرء خير من القِرىٰ ... فكيف الذي يأتي به وهو ضاحك؟!

* وقال أحد الكرماء:

أُضاحِكُ ضَيْفي قبل إنزالِ رحْلِه ... ويخْصبُ عنْدي والمَحَلُّ جديبُ

وما الخِصْبُ للأضياف أنْ يكثرَ القِرىٰ ... ولكنَّما وجهُ الكريم خصيبُ!

* ومن إكرام الضيف المسارعة إلىٰ تقديم القِرىٰ له وخدمته، فهذا دليل تواضع صاحب المنزل وكرم خلقه:

وإنِّي لعبْدُ الضيفِ ما دَامَ ثَاوياً ... وَمَا شيمةٌ لي غَيْرَها تُشْبِهُ الْعَبْدَا!

* نزل ضيف بأحد الكرام فسارع هو وغلمانه عند نزوله لحطّ رحاله، فلما أراد الارتحال عنهم لم يُعِنْهُ غلام! فشكاهم فقال له صاحب المنزل: إنَّ غلماننا لا يُعينون أحداً علىٰ الارتحال عنَّا.

* نزل بعبدالله بن المبارك في أحد الأيام عشرة أضياف من العلماء، ولم يكن له ما يضيفهم به ولم يملك سوىٰ فرسه التي كان يحجُّ عليها سنة ويغزو عليها سنة، فذبح ذلك

الفرس وقدَّمه لأضيافه، فقالت زوجته وقد تبرَّمت بصنيعه وفعله: لِمَ فعلت هذا، وما تملك من الدنيا غير هذا الفرس؟ فدخل بيته وأخرج من متاعه بقدر مهرها وطلَّقها، وقال: امرأة تبغض الأضياف لا تصلح لي! فأتاه بعد أيام رجل وقال: يا إمام المسلمين لي بنت وقد توفيت أمّها وهي كل يوم تمزق كذا من الثياب حزناً وغماً، واليوم تريد أن تقصد مجلسَك، فقُلْ في تسليتها شيئاً فلعل قلبها يرقّ. فلما جلس على المنبر ذكر من هذا الباب ما تسلَّتْ به الصبية عن أمّها، فلما عادت أخبرت أباها أنها تابت وتريد الزواج من عبدالله بن المبارك! وقالت له: إنْ كان لنا دنيا فله دين، فزوّجها أبوها من ابن المبارك، وحمل إليها جهازاً كثيراً ومالاً وفيراً، ومنحه عشرة أفراس ليجاهد عليها، فرأىٰ عبدالله في منامه في بعض الليالي كأن قائلاً يقول له: إن كنتَ طلَّقْتَ لأجلنا عجوزاً، فقد أعطيناك صبيَّةً بكراً، وإنْ كنت ذبحتَ فرساً فقد أعطيناك عشرة، لتعلم أن الحسنة عندنا بعشر أمثالها، ولا يضيع لدينا أجر المحسنين، وما عاملنا أحدٌ فخسر!

* وقال بعضهم: كنت في سفر فضللت الطريق فرأيت بيتاً في الفلاة، فأتيته، فإذا أعرابية فيه، فلما رأتني قالت: من تكون؟ قلت: ضيفاً، قالت: أهلاً ومرحباً بالضيف، انزلْ على الرحب والسعة. قال: فنزلتُ، فقدمتْ لي طعاماً فأكلتُ، وماء فشربتُ، فبينما أنا على ذلك إذ أقبل صاحب البيت فقال: من هذا؟ فقالت: ضيف، فقال: لا أهلاً ولامرحباً، ما لنا وللضيف؟! فلما سمعتُ كلامه ركبت من ساعتي وسِرتُ، فلما كان في الغد رأيت بيتاً في الفلاة فقصدته فإذا بأعرابية، فلما رأتني قالت: من تكون؟ قلت: ضيف، قالت لا أهلاً ولا مرحباً، ما لنا وللضيف!! فبينما هي تكلمني إذ أقبل صاحب البيت، فلما رآني قال: من هذا؟ فقالت: ضيف، قال: مرحباً وأهلاً بالضيف، ثم أتى بطعام حسن فأكلتُ، وبماء فشربتُ، فتذكرت ما مرَّ بي بالأمس فتبسمت فقال: م تبتسم؟ فقصصت عليه ما اتفق لي مع تلك الأعرابية وبَعْلِها، وما سمعتُ منه ومن زوجته! فقال: لا تعجب إنّ تلك الأعرابية هي أختي! وإنّ بعلها هو أخو امرأتي هذه! فغلب على كلٍّ طبعُ أهله!

* قال الأصمعي: خرجت أنا وصديق لي إلى البادية فضللنا الطريق، فإذا نحن

بخيمة عن يمين الطريق فقصدناها، فسلّمنا فإذا امرأة تردّ علينا السلام، قالت: من أنتم؟ قلنا: قوم ضالون عن الطريق أتيناكم فأنِسْنا بكم! فقالت: يا هؤلاء، ولُّوا وجوهكم عني حتى أقضي من حقكم ما أنتم له أهل، ففعلنا، فألقت لنا فراشاً جميلاً، فقالت: اجلسوا عليه إلى أن يأتي ابني، ثم جعلت ترفع طرف الخيمة وتردّها إلى أن رفعتها فقالت: أسأل الله بركة هذا المقبل، أما البعير فبعير ابني، وأما الراكب فليس بابني! ولما وصل الراكب قال: يا أمّ عقيل! أعظم الله أجرك في عقيل، فقالت: ويحك مات ابني؟ قال: نعم، قالت: وما سبب موته؟ قال: ازدحمت عليه الإبل فرمت به في البئر، فقالت: انزل فاقض ذمام القوم، ودفعت إليه كبشاً فذبحه وأصلحه، وقرَّب إلينا الطعام فجعلنا نأكل ونتعجب من صبرها، فلما فرغنا خرجت إلينا وقد تكورَّت فقالت: يا هؤلاء! هل فيكم من أحد يحسن من كتاب الله شيئاً؟ قلت: نعم، قالت: اقرأ عليَّ من كتاب الله تعالى آيات أتعزَّى بها! قلت: يقول الله عز وجل في كتابه: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾ (البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧)، قالت: آلله، إنها لفي كتاب الله هكذا؟ قلت: والله إنها لفي كتاب الله هكذا، قالت: السلام عليكم، ثم صفَّت قدميها وصلت ركعات ثم قالت: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ عند الله أحتسب عقيلاً (٣ مرات)!! ثم قالت: اللهم إني فعلتُ ما أمرتَني به، فأنجزْ لي ما وعدتَني!!

هجاء

وقد هجا الشعراء وعاب العقلاء والحكماء، مَنْ لا يُكْرِم الضيف ويبخل بقراه، واعتبروا ذلك علامة لؤم وشؤم، وكان هذا الصنف مادة للشعراء يعيبونهم ويشهِّرون بهم، حتى قال أحدهم يهجو قوماً بخلاء:

تَرَاهُمْ خشيَةَ الأضيافِ خُرساً ... يُصلُّون الصلاةَ بِلاَ أذانِ!

* وذكر أعرابي قوماً بالبخل فقال: ألغَوْا من الصلاة الأذان، مخافة أنْ تسْمَعه الآذان فيَهُلَّ عليهم الضّيفان!

* ومن أهجى ما قيل فيمن يبخل بقِرى الضيف قول جرير في بني تغلب:

قومٌ إذا أكلوا أخْفَوْ كلامَهم ... واستوثقوا من رِتاج الباب والدارِ

قومٌ إذا نَبَحَ الأضيافَ كلبُهم ... قالوا لأمِّهم: بُولي على النَّارِ!

كثرة الأكل

* مما يعاب على الرجل كثرة أكله حتى يصل إلى حد الشَّرَه، وغالباً ما تكون هذه الصفة في البخلاء، فهم لا يبذلون المال والطعام، ويحرصون على أكله والوصول إليه بشتى الطرق ومختلف الأساليب،

* روي أن بعض الخلفاء كان يأكل عجْلاً مشوياً، وآخر يتناول في اليوم خمس وجبات وفي آخرها يتسلى بجدي وحده!!

* وبعضهم كان يمرُّ على القدور المنصوبة فيأكل منها واحداً واحداً، ثم يجلس مع الناس إذا وضعت الموائد وكأنه لم يذُقْ شيئاً!

* وكان هلال المازني مشهوراً بالأكل، قال عن نفسه: جُعْتُ مرة ومعي بعير لي فنحرته وأكلته إلا ما حملتُ منه على ظهري، فلما كان الليل راودْتُ أَمَةً لي فلم أصل إليها! فقالت: كيف تصل إليَّ وبيني وبينك جَمل؟. وكانت هذه الأكلة تكفيه أربعة أيام! وفي هذه الأخبار من المبالغات ما لا يخفى!

* أكل أعرابي عند قوم، فلما أراد الخروج قيل له: هل تعود إلينا؟ فقال: ليس مثلُ السوء لي، ولكن الكلب لا يدع حائطاً شبع منه.

* وأكل أحدهم مع قوم، فلما فرغوا دفعوا إليه خِلالاً فظنه مما يؤكل فأكله، فنظر الغلام إليه فلم يرَ الخِلال معه، فدفع إليه آخر، فقال: قد أكلْتُ واحداً ولا أشتهي غيره!.

* أكل أعرابي مع أحد الولاة، فرأى الوالي شعرة في لقمته، فقال: خذ الشعرة من لقمتك، فقال: وإنك لتلاحظني ملاحظة مَنْ يرى الشعرة؟ والله لا آكَلْتُكَ بعدها.

* ومر رجل بآخر يأكل، فسلَّم عليه، فقال له: هلُمَّ، فهمَّ الرجل أن يقعد معه، فقال الآكل: رِفْقاً، أما عرفت هذا ما هو؟ فقال: ما هو؟ قال: عليَّ أن أقول هلمَّ، وعليك أن تقول هنيئاً! حتى يكون كلاماً بكلام، فقام الرجل فقال: قد أَعْفَيْتُك من التسليم ومن تكليف الردّ، فقال: قد أعفَيْتُ نفسي إذاً من هلمَّ!

* ووقف أعرابي على أبي الأسود الدؤلي وهو يأكل، فقال الأعرابي: أدخلُ؟ قال: وراءك أوْسع لك!. قال: الرَّمْضاء أحرقت رجليّ! قال: بُلْ عليهما يَبْردان! قال: أتأذن لي أنْ آكل معك؟ قال: سيأتيك ما قُدِّر لك! قال: تالله ما رأيتُ رجلاً ألأم منك! قال: بلى قد رأيت إلا أنك نسيت، ثم أقبل أبو الأسود يأكل حتى إذا لم يبق في الطبق إلا تُميرات يسيرة نَبَذَها له، فوقعت تمرة منها فأخذها الأعرابي ومسحها بكسائه، فقال أبو الأسود: يا هذا إن الذي تمسحها به أقذر من الذي تمسحها منه! قال: كَرِهْتُ أنْ أدَعَها للشيطان! قال: لا والله ولا لجبريل وميكائيل ما كنتَ لتدعَهَا!!

* وكان بعضهم توضع على مائدته كل يوم دجاجة، فلا تؤكل بل ترفع ثم تُسخَّن في اليوم التالي وتقدَّم، فتترك على حالها، فقال بعض الحاضرين: دجاجتنا هذه من آل فرعون تُعْرَضُ على النار غُدوّاً وعَشياً.

* ودخل رجل على رجل قد تغدَّى مع قوم دجاجاً ولم تُرْفع المائدة، فقال لهم: كُلوا وأجْهزوا على الجرحى، يريد: كلوا ما كُسِر وأُكِلَ منه ولا تَعْرِضوا إلى الصحيح!!.

* وقال بعض البخلاء الجشعين لغلامه: هات الطعامَ وأغلق البابَ، فقال: يا مولاي هذا خطأ، أُغْلقُ الباب أولاً ثم أُقدِّم الطعام، فقال: اذهب فأنت حر لوجه الله لعلمك بأسباب الحزم!.

تأملات

* سَقَوْني وقالوا: لا تغنِّ ولو سَقَوا جبالَ حُنينٍ ما سقوني لغنَّتِ
* ودعوى القوي كدعوى السباع من الناب والظفر برهانها

المدح والهجاء

* غاية المدح، أن يمدحك مَنْ لا يُريدُ مَدْحك، وغايةُ الذّم أَنْ يَذُمّك مَنْ لا يُريد ذمّك! ومَنْ ذمّ مَنْ يستحق المدح، كان كمَنْ سمّىٰ النهارَ ليلاً، والشمسَ ظلاً، ومَنْ مدح مَنْ يستحق الذم، كان كمن سمّىٰ الليل نهاراً، والظلمةَ نوراً، ومن مدحك بما ليس فيك، فلا تأمَنْ أنْ يذمّك بما ليس فيك!

* والمعروف عن شعراء العرب وأدبائهم أنهم إذا مدحوا بالغوا في المدح والثناء - وخاصة إذا تقدم ذلك صِلة أو عطاء - وإذا ذموا أقذعوا في الذم وأفحشوا في الهجاء، وغالباً ما يكون الدافع للمدح «المصلحة» إمّا لمال أو جاه، وقد يمدحون اليوم مَنْ ذمّوه بالأمس، أو يذمون اليوم من مدحوه بالأمس، يتأرجحون مع الهوىٰ والمصلحة، وحيثما اتجهت ريح المصلحة اتجهوا، وأينما سارت ساروا!

* ورغم كل ذلك فقد عرف عنهم جميل الثناء وحسن الوصف، وتصوير الممدوح تصويراً يجعله في مسالك العظماء، حتىٰ ليخيل إليك إذا سمعت مدحهم، أنّ قطعاً من الدّررِ واللآلئ تتناثُر بين يديْك، وتَسْمع رناتها في أذنيك!

* قال رجل لآخر: أنت بستان الدنيا. فقال له: وأنت النّهر الذي يُسْقىٰ منه ذلك البستان!

* وكتب بعضهم لمدوحه: أنا إذا تعاطيت مَدْحك، فكالمخبر عن ضوء النهار الباهر، والقمر الزاهر، وهل يخفىٰ ذلك علىٰ الناظر؟

* ومدح رجل هشام بن عبدالملك فقال له: يا هذا، إنه قد نُهي عن مدح الرجل في وجهه! فقال: ما مدحتُك، ولكن ذكّرتُك نعم الله عليك لتجدّدَ لها شكراً. فقال له هشام: هذا أحسن من المدح، ووصَلَه وأكْرَمه!

* وأصدق بيت قالته العرب في المديح، قول سارية يمدح رسول الله ﷺ:

فما حَمَلَتْ مِنْ ناقةٍ فوقَ ظهرِها ... أَبَرَّ وأَوْفى ذمةً من محمدّ

* وأحسن ما مدح به حسان بن ثابت رسول الله ﷺ قوله:

وأحسنَ منك لم ترَ قطّ عيني ... وأجمل منك لم تلدِ النّساءُ

خُلِقْتَ مُبَرّأً من كلّ عَيْبٍ ... كأنّكَ قدْ خُلِقْتَ كما تَشاءُ

* وماذا عسى أن يقول المادحون في وصف من مدحه الله وأثنى عليه؟ وهو سيّد ولد آدم، وأفضل الأولين والآخرين! فمهما كتب الكاتبون ونظم الشعراء والمادحون فلن يَسْتطيعوا أن يجمعوا كلّ صفاته وفضائله! فصلوات الله عليه في الأولين وفي الآخرين وفي الملأ الأعلى إلى يوم الدين.

* ومن جميل المدح والثناء قول أعرابي في قومه: كانوا إذا اصْطفوّا سَفَرت بينهم السّهام - أي إذا اصطفوا للمعركة كانت السهام بينهم رسلاً وسفراء! وهذا كناية عن شجاعتهم وإقدامهم - وإذا تصافحوا بالسيوف فَغَرَت المنايا أفواهها! فربّ يوم عارم - شديد - قد أحسنوا أدبه، أو حرب عبوس قد ضاحكتْها أسنّتهم! إنما قومي البحر ما ألقَمْتَه التقم!!

* وفد أبو نواس على «الخصيب» أمير مصر، فأذِنَ له وعنده الشعراء فأنشد الشعراء أشعارهم، فلما فرغوا، قال أبو نواس، أنشدُ أيها الأمير قصيدة هي كعصا موسى تلقف ما صنعوا؟! قال: أَنْشِدْ. فقال:

إذا لم تَزُرْ أرضَ الخصيبِ رِكَابُنا ... فأيّ فتىً بعدَ الخصيبِ تزُورُ

فتىً يَشْتري حسْنَ الثّناءِ بمالِه ... ويعلم أنّ الدّائِرَاتِ تَدورُ

فما فَاتَه جودٌ ولا ضلّ دونه ... ولكن يَسيرُ الجودُ حيث يسيرُ!

فاهتز الخصيب لها طرباً، وبالغ في جائزته وصلته!

* ولو كان يستغني عن الشكر ماجد ... لرفْعةِ قَدْرٍ أو علوّ مكانِ

لَماَ أمر الله العبادَ بشكره ... وقال اشكروني أيها الثقلانِ

الذم والهجاء

* والذم والهجاء لا يقل عن المدح والثناء عناية وخطراً، فقد كان الشعراء والأدباء إذا ذّموا أحرقوا كَبِدَ المذموم وكَووْا فؤاده، وجعلوا هجاءه سبّة وعاراً يلحقه أبد الدهر، ولو استمعت الذم والقدح، لخيّل إليك أن المذموم كتلة من الشرّ وكومٌ من الفساد يتقزز البدن من ذكره، وتكره الأذن سماع اسمه!

* لمّا هجا المشركون رسول الله ﷺ، قام حسان بن ثابت فقال: يا رسول الله، إيذن لي في هجائهم، وأخرج لسانه فضرب به أرْنَبَة أنفه! وقال: والله يا رسول الله إنّه ليُخيّل لي أني لو وضعْتُه على حَجَر لَفَلَقَه، أو على شعر لَحَلَقه. فقال: أنت لهم، اذهب إلى أبي بكر يخبرك بمَثَالب القوم ثم اهجهم ورُوحُ القدس يؤيدك!

* ووفد جرير على عبدالملك بن مروان، فقال عبدالملك للأخطل: أتعرف هذا؟. قال: لا! قال: هذا جرير، قال الأخطل: والذي أعمى رأيك يا جرير ما عرفْتُك؟ فقال له جرير: والذي أعمى بصيرتك وأدام خِزْيتك، لقد عرفْتُك، لِسِيمَاكَ سِيمَا أهلِ النّار!

! وقال عبدالملك بن مروان: ما هجاني أحدٌ بأوجع من بيت هُجي به ابن الزبير وهو:

فإنْ تُصِبْكَ مِنَ الأيّام جَائحةُ ... لم نَبْكِ منك على دُنْيا ولا دين!

* وسئل أعرابي عن رجل فقال: ما ظنّكم بسكّيرٍ لا يفيق، يتهم الصديق ويعصي الشفيق، لا يكون في موضع إلا حُرّمت فيه الصلاة، ولو أفْلَتَتْ كلمة سوء لم تصِرْ إلا إليه، ولو نزلتْ لَعْنةٌ من السماء لم تقع إلا عليه!

* وذمّ أعرابي قوماً فقال: يصومون عن المعروف، ويفطرون على الفحشاء!

* وذكر أعرابي قوماً فقال: قد سُلختْ أقفاؤهم بالهجاء، ودُبغت جلودُهم باللؤم، لباسُهم في الدنيا المَلامة، وزادُهم في الأخرى النّدامة!

* قيل لعَقيل بن عُلّفَة: لِمَ لا تُطيل الهجاء؟ قال: يكفيك من القلادة ما أحاطَ بالعنق! وقيل له: أتهجو قومك؟ قال: الغَنم إذا لم يُصْفَر بها لم تَشْرب!

* وقيل لأبي المهوِّش: لم لا تُطيل الهجاء؟ قال: لم أجد المثل النادر إلا بيتاً واحدا، ولم أجد الشِّعر السَّائر إلاّ بيتاً واحداً!

* وقال مسلمةُ بنُ عبدالملك لنُصيب الشّاعر: ويحك يا أبا الحَجْناء، أما تُحسِن الهجاء؟ قال: أما تراني أُحسِنُ مكان عافاك الله: لا عافاك الله!

* ولاموا الكميت بن زيد على الإطالة، فقال: أَنَا على القِصار أقدر!

* وقيل للعجَّاج: ما لك لاتُحسن الهجاء؟ قال: هل في الأرض صانعٌ إلاّ وهو على الإفساد أقدر. وقال: الهَدْم أسرَعُ من البناء!

* قيل لسياسي أديب: الخطبة التي تستغرق مدتها ربع ساعة كم من الوقت تحتاج لإعدادها! قال: أسبوع أو أكثر! قيل: فإذا كانت مدتها ساعة؟ قال: الآن أستطيع أن أبدأ بها!

* قدِمَتْ وفودُ العراق على سليمان بن عبدالملك، بعد ما استُخْلِف، فأمرهم بشتم الحجاج، فقاموا يشتمونه، فقال بعضهم، إنّ عدوَّ الله الحجاج، كان عبداً زَباباً، قِنْوراً ابن قِنَّور، لا نسبَ له في العرب! فقال سليمان: أيُّ شتمٍ هذا؟ إن عدوَّ الله الحجاج كتب إليَّ: إنما أنتَ نقطةٌ من مداد، فإن رأيت فيَّ ما رأىٰ أبوك وأخوك كنتُ لك كما كنتُ لهما، وإلا فأنا الحجاج وأنت النُّقطة، فإن شئت محوتُك، وإن شئت أثبتُّك! فالعَنُوه لعنه الله! فأقبل النَّاسُ يلعنون، فقام ابن أبي بُرْدة بن أبي موسىٰ فقال: يا أمير المؤمنين، أُخبِرُك عن عدُوّ الله بعلمٍ. قال: هاتِ. قال: كان عدوّ الله يتزَيَّن تزُّينَ المومِسة، ويصعد على المنبر فيتكلّم بكلام الأخيار، وإذا نَزَل عَمِل عَمَلَ الفراعنة وأكذبُ في حديثه من الدجّال! فقال سليمان لرجاء بن حيوة: هذا وأبيك الشَّتمُ لا ما تأتي به هذه السِّفلة!!

* الزَّبَاب: ضرب من الفأر أصم. القِنّور: العبد.

* وقيل لبعضهم: ما تقول في فلان وفلان؟ قال: هما الخمر والميسر، إثمهما أكبر من نفعهما!

* وأكثر ما يعرف المدح والهجاء عن الشعراء، ولهم في العادة التجاوز في قدر الممدوح فوق ما يستحقه حتى إنّ ذلك أفضى بكثير منهم إلى مشارف الكفر والنفاق، ومن طبعهم التقلب مع المصالح والمنافع، للوصول للعطايا والهبات.

* قال رجل لشاعر: مالك لا تمدحني؟ فقال:

لسانُ الشّكْر تُنْطقُه العطايا ... ويخرَسُ عندَ مُنقطِعِ النّوَالِ!

* وقد يمدح أحدهم الخليفة أو الوالي، فإذا دالت دولته ودارت الدائرة عليه هجاه وذكر نقائصه ونبش معايبه!

* رثى الفرزدقُ الحجّاجَ بن يوسف الثقفي ليرضي الوليد بن عبدالملك، فلما هَلَك الوليد واستخلف سليمانُ بن عبدالملك، استعمل يزيد بن المهلب على العراق، وأمره بقتل آل الحجاج، فقتلهم، فهجا الفرزدقُ الحجاج فقال ابن عياش للفرزدق: ما أدري بأيّ قوليك نأخذ، أبمدحك في الحجاج حياته، أم هجوك له بعد موته؟ قال: إنما نكون مع أحدهم ما كان الله معه، فإذا تخلّى عنه تخلينا عنه!

والمعنى أن مصلحتنا كانت بمدحه في حياته، فلما صار الأمر لغيره، اقتضت المصلحة أن نكون عليه بعد مماته فنذمّه ونهجوه! لنرضي الأحياء ويستمر العطاء! وتلك حضارة سادت ثم بادت!

الحطيئة

* وقد يصل الأمر ببعضهم إلى أن يهجو نفسه ويذكر معايبه ويذمّ أفعاله وشكله، إما طمعاً في جائزة وصلة، وإما لورود ساعة شيطانية وحالة من العبث لم يستطع دفعها وردّها، فلم يلبث أن هجا نفسه أو أقرب الناس إليه.

* هَمّ الحطيئة يوماً بالهجاء فلم يجد إنساناً يهجوه، فهجا نفسه وقال:

أَبَتْ شفتايَ اليومَ إلا تكلُّما ... بسوءٍ فلا أدري لِمَنْ أنا قائلُه

فُقّبحَ مِن وجهٍ وقُبّح حاملُه		أرىٰ بي وجهاً قبّح الله خَلْقَهُ

* وعبث بأمه وهجاها فقال:

تنحّي فاجلسي عنا بعيداً		أراح الله منك العالمينا
أغِرْبالاً إذا استُودعت سِرّاً		وكانوناً على المتحدثينا
حياتك ما علمتُ حياة سوء		وموتُك قد يسرّ الصالحينا

* وهجا امرأته فقال:

أطوف ما أطوف ثم آوي		إلىٰ بيت قعيدته لكاع!

* وقدم الزبرقان بن بدر على عمر يستعديه على الحطيئة، فرفعه عمر إليه وقال للزبرقان: ما قال لك؟ فقال الزبرقان: قال لي:

دع المكارمَ لا ترحلْ لبُغْيتها		واقعد فإنك أنت الطاعمُ الكاسي!

فقال عمر: ما أسمع هجاء، ولكنها معاتبة! فقال الزبرقان: أو لا تبلغ مروءتي إلا أن آكل وألبس! والله يا أمير المؤمنين ما هُجيت ببيت قط أشد علي منه! سل ابن الفريعة، يعني حسان بن ثابت. فقال عمر: عليّ بحسان، فجيء به فقال: أتراه هجاه؟ قال: نعم وسَلحَ عليه! وعمر يعلم من ذلك ما يعلم حسان، ولكنه أراد الحجة على الحطيئة، فألقاه عمر في حفرة اتخذها محبساً، فجعل الحطيئة يستعطف عمر بالشعر ويرسله إليه فمن ذلك قوله:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ		زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم في قعرِ مظلمة		فاغفر عليك سلام الله يا عمر
أنت الإمام الذي من بعد صاحبه		ألقىٰ إليك مقاليد النهىٰ البشر
لم يؤثروك بها إذْ قدموك لها		لكن لأنفسهم كانت بك الأثر

ـ مرخ: اسم واد في الحجاز ـ وشفع له عبدالرحمن بن عوف، فرق له عمر وأخرجه وقال له: إياك وهجاء الناس! فقال: إذن يموت عيالي جوعاً، هذا مأْكلةُ عيالي، ونملةٌ تدبّ على لساني، وهو مكسبي، ومنه معاشي! فدعا عمر بكرسي فجلس عليه ودعا بالحطيئة فأجلسه بين يديه، ودعا بإشفى أي مثقب وشفرة يوهمه أنه سيقطع لسانه! فقال له الزبرقان: نشدتك الله يا أمير المؤمنين ألا تقطعه! فإن كنت لابد فاعلاً فلا تقطعه في بيت الزبرقان! وضج الحطيئة من ذلك، فقال لعمر: يا أمير المؤمنين إني والله قد هجوت أبي وأمي، وهجوت امرأتي، وهجوت نفسي، فتبسم عمر فاشترى منه أعراض المسلمين جميعاً بثلاثة آلاف درهم، وأخذ عليه ألا يهجو أحداً بعد ذلك، وقام بعهده مدة حياة عمر، ثم رجع إلى الهجاء بعد وفاته!

جرير والهجاء

* وما لقيت قبيلة من العرب هجواً ما لقيت نُمَيْرٌ من هجو جرير، وكان الرجل من نمير إذا قيل له: ممن الرجل؟ يقول: من نمير! وأمال بها عنقه، فلما هجاهم جرير بقوله:

فغُضّ الطّرفَ إنّك من نُمَيْرٍ ... فلا كعباً بلغت ولا كِلابا!

صار إذا قيل لأحدهم: ممن الرجل؟ يقول: من بني عامر!

* ودخل أبو دلامة على المهدي وعنده بعض كبار بني هاشم فقال له المهدي: والله لئن لم تَهْجُ واحداً ممن في هذا البيت لأقطعنّ لسانك! فنظر إلى القوم وتحيّر في أمره، وجعل ينظر إلى كل واحد فيَغْمزُه بأنّ عليه رضاه، قال أبو دلامة: فازددتُ حَيْرة، فما رأيتُ أسلم لي من أنْ أهجو نفسي، فقلت:

ألاَ أبلغْ لديك أبا دُلاَمة ... فلسْتَ من الكرام ولا كَرَامة

جـمـعْـتَ دمـامـةً وجـمـعـتَ لُـؤْمـاً كـذاك الـلـؤْمُ تَـتْـبـعُـهَ الـدّمَـامَـة
إذا لَـبِـسـنَ الـعـمـامـة قُـلْـتَ قِـرْداً وخـنـزيـراً إذا نَـزَع الـعـمَـامَـة!

فضحك القوم، ولم يبق منهم أحد إلا أجازه!

- وأبو دلامة هو زَنْد بن الجوْن، نبغ أيام بني العباس، وكان صاحب نوادر وحكايات وأدب.

* وقال المتوكل يوماً لأبي العيناء: ما بقي أحد في المجلس إلا هجاك وذمك غيري، فقال:

إذا رضـيَـتْ عـنّـي كـرامُ عَـشـيـرتـي فـلا زال غَـضْـبـانـاً عـلـيّ لـئـامُـهـا!

ميزان للمديح والهجاء

* والإسلام وضع ميزاناً عادلاً للمدح والذم، لأنك إذا مدحت فضع في الاعتبار أن الممدوح سيكون في يوم من الأيام عدواً، وإذا ذممْتَ فتذكّرْ أنّ المذموم ربما صار في يوم من الأيام حبيباً وصديقاً! وفي الحديث الشريف: «أَحْبِبْ حبيبَك هَوْناً مَا، عسىٰ أنْ يكونَ بغيضك يوماً ما، وأبْغضْ بغيضَك هَوْنا ما، عسىٰ أن يكون حبيبك يوماً ما». - عزاه في مجمع الزوائد ٨/ ٩١ للطبراني في الأوسط والكبير -.

* وذمّ أحد السفهاء حكيماً وشتمه، فالتفت إليه الحكيم وقال: يا هذا اترك للصلح موضعاً! وقال أحدهم: إذا قال فيك رجلٌ ما لا يعلم من الخير، أوشك أن يقول فيك ما يعلم من الشرّ! وقال آخر: لا تعجلنّ بمدح أحد ولا بذَمِّه فإنه ربّ مَنْ يسُرك اليوم يسوءُك غداً!

* وكان العقلاء لا يبالون في دفع المال لمن يمدحهم وينشر مآثرهم، لأن المديح والثناء يبقىٰ، والمال الذي دفعوه يذهب ويفنىٰ!

* مدح أحدُهم عبدالله بن جعفر، فأمر له بمال كثير وكسوة ورواحل، فقيل له: تفعل

هذا بمثل هذا العبد الأسود؟ فقال: أما والله لئن كان عبداً، إنّ شعْرَه لحرّ، وإن كان أسود إنّ ثناءه لأبيض، وإنما أخذ مالاً يفنى، وثياباً تبلى، ورواحل تَنْضَى، فأعطى مديحاً يُروى، وثناءً يبْقى!

* ودخل ابنُ هَرِم بن سنان على عمر بن الخطاب فقال له: مَنْ أنت؟ قال: أنا ابن هرم بن سنان، قال: صاحب زهير؟ قال: نعم، قال: أما إنه كان يقول فيكم فيُحسن، قال: كذلك كنا نعطيه فنُجزل، قال: ذهب ما أعَطَيْتُموه وبقي ما أعطاكم!

* ولمّا جُعل ابن الزيات في التنور قال له خادمه، يا سيدي قد صرت إلى ما صرت إليه وليس لك حامد! قال: وما نفع البرامكة صنيعُهم؟ قال: ذِكْرُك لهم الساعة، فقال: صدقت!

* واختلال الموازين واضطراب المعايير في عامل المدح والذم لا تختلف اليوم عما كانت عليه في السابق، فطالما أن المصالح متبدلة والأهواء متغيرة فكذلك المدح والثناء تبع لهما! أنك لتعجب من حال الناس اليوم، كيف يمجدون شخصاً حتى لَيَضَعوه في مصافّ العظماء والفاتحين، فلا يلبثوا أن ينقضوا عليه شاتمين قادحين عندما تنكّس أعلامه وينقضي أمره، وتمضي أيامه! ويا ويح الأجيال التي ستأتي بعدنا، كيف ستقرأ تاريخنا، وبأي منظار ستراه؟ في ذل هذه التناقضات؟

* وإذا كان المذموم أهلاً لذلك فلا حرج في ذمّه. مرّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوم يتبعون رجلاً قد أُخذ في رِيبة، فقال: لا مرحباً بهذه الوجوه التي لا تُرى إلاّ في الشرّ!

تزكية النفس

* ومما ينبغي التنبيه له، أنّ مدْحَ الإنسان نفسه لا يليق ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢) ﴾ (النجم) وقال معاوية لرجل: مَنْ سيّد قومِكَ؟ قال: أنا! قال: لو كنْتَ كذلك لم تقلْ! والمدح ذَبْح، وهو وافد الكِبْر، ومن أظهر عيب نفسه فقد زكاها! وذمّ الرجل نفسه في العلانية مدحٌ لها في السرّ، واستحياء الكريم من المدح أكثر من استحياء اللئيم من الذم.

* ومن وصايا الحكماء: إيّاك إذا كنت والياً أن يكون من شأنك حبُّ المدح والتزكية، وأن يَعْرف الناس ذلك منك، فتكونَ ثُلْمةً من الثُّلَم يَقْتحمون عليك منها، وباباً يَفْتَتحُونك منه، وغِيبَةً يَغْتابونك بها ويضحكون منك لها، واعلم أنّ قابل المدح كمَادح نفسه، والمرءُ جديرٌ أن يكونَ حُبّه المدحَ هو الذي يحمله على ردّه، فإنّ الرادّ له ممدوحٌ، والقابل له معيب!

* وإذا مُدح الشخص فليقل كما قال الصالحون: لو شَمَمْتُم رائحة ذنوبي ما قربتموني! وقال الفضيل لمادحه: لو عرفت مني ما عرفتُ من نفسي لأبغضتني!

* ولمّا وُلّي أبو بكر الصديق رضي الله عنه، خطب فقال: إني وُلّيت عليكم ولستُ بخيركم، فلمّا بلغ الحسن قوله، قال: بلى ولكن المؤمن يهضم نفسه!

* وكان رضي الله عنه يقول إذا مُدحَ: اللهم أنت أعلمُ بي مني بنفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون!

* ووُصف لأحد الخلفاء رجل فأمر بإحضاره، فلما دخل عليه قال له: أعالم أنت؟ فقال: أكره أن أقول: نعم، وفيه ما فيه، وأكره أن أقول: لا، فأكون جاهلاً، فأعجب الخليفة بجوابه.

* وسأل المأمونُ عبدالله بن طاهر عن ابنه فقال: ابني إن مدحتُه ذممْتُه وإن ذممْتُه ظلمتُه، إلاّ أنه نِعْم الخَلَف لسيّده من عبده إذا اخترمَتْه منيّتُه

* وقال إسماعيل ابن أبي خالد: كنت أمشي مع الشعبي وأبي سلَمة، فسأل الشعبيُّ أبا سلمة: مَنْ أعلمُ أهل المدينة؟ فقال: الذي يمشي بينكما، يعني نفسه!

* خطب أحد الولاة خطبة حسنة فقال: هل من خَلَل؟ فقال رجل من عرض الناس: خلل كخلل المنخل! فقال: وما ذاك الخلل؟ فال: إعجابك به ومدحك له!

* والنفس تحب المدح، وتتهلل الأسارير للثناء العاطر وبيان المحاسن، وقد يَطلب المدح من ليس له أهلاً، وقد يهواه مَنْ كان له مستحقاً، وكلاهما مذموم.

* سُئِل الشاعر الأهوازي: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت والله أَظْرفَ الناس، وأشعر الناس، وآدَبَ النّاس، فقال السائل: اسكت حتىٰ يقول النّاس ذلك! فقال: أنا منذ ثلاثين سنة أنتظرُ النّاسَ وليسوا يقولون!

* ومدح أعرابي نفسه، فعُوتب في ذلك فقال: أَكِلُهُ إليكم؟! إذاً لا تقولون أبداً!!

* وضربوا مثلاً لمن تحصّن بقوي فلاَذَ به، فلم يقدر الناس علىٰ ذمّه وهجائه فراح هو يشتم الآخرين ويذمهم، ولولا تَحصّنُه لَمَا فعل، فقالوا: وقف جَدْيٍ علىٰ سطح فمرّ به ذئب، فأقبل الجدي يَشْتمه، فقال الذئب: لست تشتمني، وإنما يشتمني المكان الذي تحصّنت به!

التباس!

* ومن طريف ما يروىٰ في اختلاط الأمر علىٰ السامع، وعدم التمييز بين المدح أو الهجاء، ما روي أن خيّاطاً وكان أعور، قال لبعض الشعراء: والله لأخيطن لك قِباءً ـ ثوب يشبه العباءة ـ لا تدري أقباء هو أم دُوّاج ـ المعطف الثقيل ـ؟ فقال له: وأنا والله أقول فيك شعراً، لا تدري أمدح هو أم هجاء!

فلما خاطه قال له فيه:

لَيْتَ عَيْنَيْهِ سواءُ   خاطَ لي عمروٌ قِبَاء
قُلْ لِمَنْ يَسْمع هذا   أَمَدِيحٌ أم هِجَاء!

فلم يدروا ما أراد: صحة عينيه أم عماه!

* قالوا: وأهجىٰ بيت قالته العرب: قولُ جرير:

والتّغلبيّ إذا تَنَحْنَحَ للقِرىٰ   حكّ إسْتَه وتمثّلَ الأمثَالا

ولما قال جرير بيته هذا قال: والله لقد هجوتُ بني تغلب ببيت لو طُعنوا في أستاهم بالرّماح ما حكّوها!

رقائق

* صلىٰ رجل صلاة مختصرة، فقام إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالدرة وقال: أعِدْها. فلما فرغ قال: أهذه خير أم الأولىٰ؟ فقال الرجل: بل الأولىٰ فقال: لم؟ فقال: لأن الأولىٰ لله والثانية للدرة!

* قال بعض الصالحين: طيّب الطعام يستخرج لُبَّ الشكر!

* قال الرشيد لابن السماك: عظني. فقال ابن السماك: احذر أن تقدم علىٰ جنة عرضها السموات والأرض وليس لك فيها موضع قدم.

* كان محمد بن سيرين يقول للرجل إذا أراد أن يسافر في التجارة: اتق الله تعالىٰ واطلب ما قدّر لك في الحلال.. فإنك إن تطلبه من غير ذلك لم تصب أكثر مما قدّر لك!

* قدّم لأحد الملوك قائمة الخدم الصالحين لخدمة القصر، وقائمة أخرىٰ بأسماء الخدم الذين يُستغنىٰ عنهم توفيراً للنفقات! فتأمل الملك في القائمتين ثم أمر بأن يبقىٰ كل شيء علىٰ حاله وقال: نصفهم أحتاج إليه، والنصف الآخر يحتاج إليّ!

* كان محمد بن المنكدر رحمه الله يحج وعليه دَيْنٌ. فقيل له: أتحج وعليك دَيْنٌ؟ فقال: هو أقضىٰ للدَّين!

* وكان إذا حجَّ خرج بنسائه وصبيانه كلِّهم، فقيل له في ذلك، فقال: أعرضهم علىٰ الله!

* قال مالكُ: كنت إذا وجدت من قلبي قسوةً آتي ابن المُنكدر فأنظر إليه نظرةً فأبغُض نفسي أياماً، وكان من أزهد النَّاس وأعبدهم!

* قال مسلم بن يسار: ما تَلذّذ المتلذذون بمثل الخَلْوة بمناجاة الله عز وجل..!

* وقال مسلم: اعملْ عَملَ رجل لا ينجيه إلا عمله.. وتوكَّلْ تَوكُّلَ رجل لا يصيبه إلا ما كتبه الله عز وجل له..!

* قال بشر الحافي: بحسبك أن أقواماً موتى تحيا القلوبُ بذكرهم.. وأن أقواماً أحياء.. تعمى الأبصار بالنظر إليهم..!!

* كان من دعاء أحدهم: اللهم وفقني فوق الأرض.. وارحمني تحت الأرض.. واسترني يوم العرض..!!

* قال رجل: أهلكني حبّ الشرف..! فقال له آخر: إن اتّقَيْتَ الله شَرُفْتَ..!!

* كتب محمد بن يوسف الأصبهاني إلى الحكم بن بردة: يا أخي اتق الله الذي لا يطاق انتقامه.. وكتب في آخر كتابه: إن استطعت أن تختم عمرك بحجة فافعل، فإنّ أدنى ما يُروى في الحاج: أنه يرجع كيوم ولدته أمه..!

مناجاة

* قال أبو القاسم عبدالرحمن الخطيب الأندلسي:

يَا مَنْ يَرَىٰ مَا فِي الضَّمِيرِ وَيَسْمَعُ ... أَنْتَ المُعَدُّ لِكُلِّ مَا يُتَوَقَّعُ
يَا مَنْ يُرَجَّىٰ لِلشَّدَائِدِ كُلِّهَا ... يَا مَنْ إِلَيهِ المُشْتَكَىٰ وَالمَفْزَعُ
يَا مَنْ خَزَائِنُ رِزْقِهِ فِي قَوْلِ كُنْ ... أُمْنُنْ فَإِنَّ الخَيرَ عِنْدَكَ أَجْمَعُ
مَا لِي سِوىٰ قَرْعِي لِبَابِكَ حِيْلَةٌ ... فَلَئِنْ رَدَدْت فَأَي بَابٍ أَقْرَعُ
مَا لِي سِوىٰ فَقْرِي إِلَيكَ وَسِيلَةٌ ... وَبِالافْتِقَارِ إِلَيكَ فَقْرِي أَدْفَعُ
مَنْ ذَا الذي أَدْعُو وَأَهْتِفُ بِاسْمِهِ ... إِنْ كَانَ فَضْلُكَ عَنْ فَقِيرِكَ يُمْنَعُ
حَاشَا لِمَجْدِكَ أَنْ تُقَنِّطَ عَاصِياً ... الْفَضْلُ أَجْزَلُ وَالمَوَاهِبُ أَوْسَعُ
ثُمَّ الصَّلاةُ عَلَىٰ النَّبِيِّ وَآلِهِ ... خَيرِ الأَنَامِ وَمَنْ بِهِ يُتَشَفَّعُ

بنان بن محمد

* جاء رجل إلى بنان بن محمد فقال له: إن لي على رجل مائة دينار، وقد ذهبت الوثيقة، وأنا أخشى أن ينكر الرجل، فأسألك أن تدعو لي بأن يرد الله عليّ الوثيقة! فقال بنان: إني رجل قد كبرت سنّي ورقّ عظمي، وأنا أحب الحلواء، فاذهب فاشتر لي منها رطلاً وأتني به حتى أدعو لك! فذهب الرجل فاشترى الحلوى ثم جاء بها إليه، ففتح الورقة التي فيها الحلواء فإذا هي حجته ووثيقته بالمائة دينار! فقال له: أهذه حجتك؟ قال: نعم، قال: خذ حجتك وخذ الحلواء فأطعمها صبيانك! والله يكرم عباده الصالحين المتقين بأنواع من الكرامات، ولهذا شواهد كثيرة في ديننا وشريعتنا.

* لما قام بنان بن محمد رحمه الله بالإنكار على ابن طولون شيئاً من المنكرات وأمره بالمعروف، أمر به فألقي بين يدي الأسد، فكان الأسد يشمّه ويحجم عنه! فأمر برفعه من بين يديه، وعظّمه الناس جداً، وسأله بعض الناس عن حاله حين كان بين يدي الأسد، فقال: لم يكن عليّ بأس، كنت أفكر في سؤر السباع واختلاف العلماء فيه هل هو طاهر أم نجس!

* قال عامر بن عبدقيس: الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان.

* قال عبدالملك تقي الدين الأَرَمَنْتي:

قالتْ لِيَ النَّفْسُ وَقَدْ شَاهَدَتْ ... حَالِيَ لا تَصْلُحُ أَوْ تَسْتَقِيمْ
بِأيِّ وَجْهٍ تَلْتَقِي رَبَّنَا ... والحَاكِمُ العَدْلُ هُنَاكَ الغَرِيمْ
فقلتُ حَسْبِي حُسْنُ ظَنِّي بهِ ... يُنيلُني مِنْهُ النَّعِيمَ المُقِيمْ
قالَتْ وقدْ جَاهَرْتَ حَتَّى لَقَدْ ... حُقَّ لهُ يُصْلِيكَ نَارَ الجَحِيمْ
قلتُ مَعَاذَ اللهِ أنْ يَبْتَلِي ... بِنارِه وهْوَ بِحَالِي عَلِيمْ
ولَمْ أفُهْ قَطُّ بِكُفْرٍ وقَدْ ... كانَ بتكْفِيرِ ذُنُوبِي زَعِيمْ

زعيم: أي كافل أو ضامن.

* قال أحدهم لبعض السَّلاطين: أسألك بالذي أنت بين يديه أَذَلُّ منّي بين يديك، وهو على عِقابك أقدَرُ منك على عقابي، إلاَّ نَظرتَ في أمرِي نَظَرَ مَنْ بُرئي أحبُّ إليه من سُقمي!

* دعوتان أرجو إحداهما وأخاف الأخرى: دعوةُ مظلومٍ أعَنْتُه، ودعوةُ ضعيفٍ ظلمتُه!

الدعاء.. في الاستسقاء

* أصاب الناس قحط في زمن الناصر لدين الله عبدالرحمن الأموي في الأندلس فأمر الخليفة قاضي القضاة منذر البلوطي أن يستسقي للناس، فلما جاءته الرسالة مع البريد قال للرسول: كيف تركت الملك؟ فقال: تركته أخشع ما يكون وأكثره دعاءً وتضرعاً. . ! فقال القاضي: سُقيتم والله. . ! إذا خشع جبار الأرض. . رحم جبار السماء! ثم قال لغلامه: نادِ في الناس الصلاة الصلاة، فجاء الناس إلى محل الاستسقاء، وجاء القاضي منذر فصعد المنبر، والناس ينظرون إليه ويسمعون ما يقول، فلما أقبل عليهم كان أوّل ما خاطبهم به قال: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ (الأنعام) ثم أعادها مراراً. . فأخذ الناس في البكاء والنحيب والتوبة والإنابة، فلم يزالوا كذلك حتىّ سُقوا. . ورجعوا يخوضون في الماء. . بعد الشدة والبلاء. . !!

*من أحسن ما جاء عن السلف في الدعاء. . ما حُكي عن الأوزاعي رحمه الله تعالى قال: خرج الناس يستسقون، فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا معشر من حضر، ألستم مقرّين بالإساءة؟! قالوا: بلى، فقال: اللهم إنا سمعناك تقول: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ (التوبة: ٩١) وقد أقررنا بالإساءة، فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا؟! اللهم اغفر لنا وارحمنا واسقنا، فرفع يديه ورفعوا أيديهم فسُقوا! وفي هذا المعنى أنشدوا:

أنا المذنبُ الخطّاءُ والعفوُ واسعٌ ولو لم يكن ذنبٌ لَما وقعَ العفوُ

* استسقى موسى بن نصير بالناس سنة ثلاث وتسعين حين أقحطوا بإفريقية، فأمرهم بصيام ثلاثة أيام قبل الاستسقاء، ثم خرج بين الناس، وميّز أهل الذمة عن المسلمين، وفرّق بين البهائم وأولادها، ثم أمر بارتفاع الضجيج والبكاء، وهو يدعو الله تعالى حتى انتصف النهار، ثم نزل فقيل له: ألا دعوت لأمير المؤمنين؟ - الوليد بن عبدالملك - فقال: هذا موطن لا يذكر فيه إلا الله عز وجل، فسقاهم الله عز وجل لما قال ذلك!!

* خرج بعض المشايخ يستسقي وكان في السماء سحاب، فلما دعا أصْحَتِ السماء، فقال أبو علي التنوخي صاحب كتاب: نشوار المحاضرة.

خرجنا لنستسقي بيُمْنِ دعائه وقد كاد هُدْبُ الغَيم أن يُلحف الأرضا

فلما ابتدا يدعو تكشفت السما فما تم إلا والغمامُ قد انفَضّا!

* وقال أبو الحسين سليمان بن محمد بن الطراوة النحوي الأندلسي المالقي في هذا المعنى:

خرجوا ليستسقوا وقد نجمت غربية قَمِنٌ بها السَّحُّ

حتى إذا اصطفوا لدعوتهم وبدا لأعينهم بها رشح

كُشِفَ السحابُ إجابةً لهمُ فكأنهم خرجوا ليستصحوا

* وكتب القاضي أبو علي التَّنوخي إلى بعض الرؤساء في شهر رمضان:

نلتَ في ذا الصِّيام ما تَشْتَهيه وكفاك الإله ما تَتَّقيه

أنتَ في الناس مثلُ شهركَ في الأشـ ـهر بَلْ مثلُ ليلةِ القَدْر فيه

لا يقطع رجاء أحد

* جاء في مناقب الإمام أحمد، أنه بلغه أن رجلاً من وراء النهر عنده أحاديث ثلاثية - أي فيها ثلاثة رجال في السند - فرحل الإمام أحمد إليه، فوجد شيخاً يطعم كلباً! فسلم

عليه فرد عليه السلام، ثم اشتغل الشيخ بإطعام الكلب فوَجِد الإمام في نفسه! إذ أقبل الشيخ على الكلب ولم يقبل عليه! فلما فرغ الشيخ من طعمة الكلب التفت إلى الإمام أحمد وقال له: كأنك وجدت في نفسك إذ أقبلت على الكلب ولم أقبل عليك؟ قال: نعم، فقال الشيخ: حدثني أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من قطع رجاء مَن ارتجاه قطع الله منه رجاءه يوم القيامة، فلم يلج الجنة» وأرْضنا هذه ليست بأرض كلاب، وقد قصدني هذا الكلب فخفت أن أقطع رجاءه فيقطع الله رجائي منه يوم القيامة! فقال الإمام أحمد هذا الحديث يكفيني ثم رجع!

عفة المؤذن

* كان لسليمان بن عبدالملك مؤذن في القصر يؤذنه بأوقات الصلاة، فجاءته جارية له جميلة فقالت: يا أمير المؤمنين، إن المؤذن إذا مررت به لم يقلع ببصره عني! وكان سليمان من أشد الناس غيرة، فكاد أن يأمر بعقوبة المؤذن، ثم قال للجارية: تزيّني وتطيّبي وامضي إليه فقولي: إنه لم يخف عليّ نظرك إليّ، وبقلبي أكثر مما بقلبك مني، فإن تكن لك حاجة فقد أمكنتك مني ما تريد، وهذا أمير المؤمنين غافل، فإن لم تبادر فلن أرجع إليك أبداً! فمضت إلى المؤذن وقالت له ما قال لها، فرفع المؤذن بصره إلى السماء وقال: يا جليل أين سترك الجميل.. ثم قال لها: اذهبي ولا ترجعي، فعسى الملتقى أن يكون عند من لا يخيب الظن.. فرجعت الجارية إلى سليمان فأخبرته الخبر، فأرسل إليه، فلما دخل عليه قال له الحاجب أمام الخليفة: إن أمير المؤمنين قد رأى أن يهب لك فلانة ويحمل إليك معها خمسين ألف درهم تنفقها عليها.. فقال المؤذن: هيهات يا أمير المؤمنين، إني والله ذبحت طمعي منها أول لحظة رأيتها، وجعلتها ذخيرة لي عند الله، وأنا أستحي أن أسترجع شيئاً ادخرته عنده! فجهد به سليمان أن يأخذ المال والجارية، فلم يفعل، فكان يعجب منه ولا يزال يُحدّث أصحابه بحديثه!!

إذن فأين الله؟

* قال نافع: خرجت مع ابن عمر في بعض نواحي المدينة ومعه أصحاب له فوضعوا

سُفْرَةً فمرّ بهم راع فقال له عبدالله: هلمّ يا راعي أصِبْ من هذه السُفْرة، فقال: إني صائم. فقال له عبدالله: في مثل هذا اليوم الشديد حرُّه وأنت في هذه الشّعاب في آثار هذه الغنم وبين الجبال ترعىٰ هذه الغنم وأنت صائم؟ فقال الراعي: أبادر أيامي الخالية! فعجب ابن عمر وقال: هل لك أن تبيعنا شاةً من غنمك نَجْتَزرها - نذبحها - ونطعمك من لحمها ما تُفْطر عليه ونعطيك ثمنها؟ قال: إنها ليست لي، إنها لمولاي. قال: فما عسَيتَ أن يقول لك مولاك، إن قلت: أكلها الذئب؟ فمضىٰ الراعي وهو رافع إصبعه إلىٰ السماء وهو يقول: فأين الله؟ . . !!

قال: فلم يزل ابن عمر يقول: قال الراعي: فأين الله! فلما عاد إلىٰ المدينة بعث إلىٰ سيده فاشترىٰ منه الراعي والغنم، فأعتق الراعي ووهب له الغنم. وقال: أعتقتك هذه الكلمة في الدنيا وأرجو أن تعتقك من النار في الآخرة . .

يحيى بن معاذ

* قال يحيىٰ بن معاذ: أعظم المصيبة علىٰ الحكيم في اليوم، أن يمضي عنه لا يأتيه فيه هدية من ربه . . - يعني حكمة جديدة -!

* وكان يحيىٰ حكيماً تقيّاً وَرِعاً. فمن حِكَمِهِ:

* لا تطلب العلم رياء . . ولا تتركه حياء.

* الدنيا أمير من طلبها، وخادم من تركها، الدنيا طالبة ومطلوبة، فمن طلبها رفضته، ومن رفضها طلبته . . الدنيا قنطرة الآخرة فاعبروها ولا تعمروها، ليس من العقل بنيان القصور علىٰ الجسور.

* من طلّق الدنيا فالآخرة زوجته . . فالدنيا مطلّقة الأكياس - العقلاء - لا تنقض عِدّتُها أبداً.

* خذ من الدنيا ما يُبلّغك الآخرة . . ولا تأخذ من الدنيا ما يمنعك الآخرة . . !!

* الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة . . وهو لا يسألك منها جناح بعوضة .

* الدنيا لا قدر لها عند ربها وهي له . . فما ينبغي أن يكون قدرها عندك . . وليست لك . . !

* إلهي . . كيف أفرح وقد عصيتُك . . ؟ وكيف لا أفرح وقد عرفْتُك؟ وكيف أدعوك وأنا خطيء . . ؟ وكيف لا أدعوك وأنت كريم . . ؟!

* لولا أن العفو من أحب الأشياء إليه - إلىٰ الله - . . ما ابتلىٰ بالذنب أكرم الخلق عليه . . !

* إذا كنت لا ترضىٰ عن الله . . كيف تسأله الرضا عنك . . !

* لا يُفلح من شَمَمْتَ منه رائحة الرياسة . . !

* للتائب فَخْر لا يعادله فخر . . فرح الله بتوبته . . !

* لا تستبطئ الإجابة إذا دعوتَ . . وقد سَدَدْتَ طُرقاتها بالذنوب . . !

* الدنيا خراب . . وأخرب منها قلبُ من يعمرها . . والآخرة دار عمران ، وأعمر منها قلب من يطلبها . . !

* أخوك من عرّفك العيوب . . وصديقك من حذّرك من الذنوب . . !

* علىٰ قدر خوفك من الله يهابك الخلق . . وعلىٰ قدر حبّك لله يحبك الخلق . . وعلىٰ قدر شغلك بالله يشتغل الخلق بأمرك . . !

* رضي الله عن قوم فغفر لهم السيئات . . وغضب علىٰ قوم فلم يقبل منهم الحسنات . . !

* إن غفرت فخيرُ راحم . . وإن عذّبْتَ فغير ظالم . . ! إلهي ارحمني لقدرتك عليّ . . أو لحاجتي إليك . . !

* يا من أعطانا خير ما في خزائنه . . الإيمان به قبل السؤال، لا تمنعنا عفوك مع السؤال . . !

* يا مَنْ يغضبُ على مَنْ لا يَسأله . . لا تمنع مَنْ قد سألك . .

* إلهي إن إبليس لك عدو، وهو لنا عدو . . وإنك لا تغيظه بشيء هو أنكأُ له من عفوك . . فاعف عنّا يا أرحم الراحمين . . !

* لستُ آمركم بترك الدنيا . . آمركم بترك الذنوب . . تَرْكُ الدنيا فضيلة وترك الذنوب فريضة . . وأنتم إلى إقامة الفريضة أحوج منكم إلى الحسنات والفضائل . . !

ستر الله على العباد

* من أنواع السِّتر، ستر الله على أحبابه وأوليائه، فهم في كنف الله ورعايته وحفظه، وستره كذلك جلّ شأنه على من عصاه ومن عاداه، ومن لطف الله وكرمه أنه لا يفضح العبد أول مرة لعله يتوب ويرجع، والله يقابل إساءة العبيد وكفرهم وجحودهم ونُكرانهم بالرحمة والإحسان، جاء في الحديث القدسي أن الله تعالى يقول: «أنا والجنُّ والإنسُ في نبأ عظيم. أَخْلق ويُعبدُ غيري، وأَرْزقُ ويُشكر سواي! أَتَحبّبُ إليهم بالنّعم وأنا الغني وهم يبتعدون عني بالمعاصي وهم الفقراء! خيري إليهم نازل، وشرّهم إليّ صاعد!» رواه البيهقي.

* يروى أنه كان للإمام أبي حنيفة رحمه الله جار يعاقر الخمر، فإذا شعر بنشوتها ولعبت برأسه أنشد:

أضاعوني وأيَّ فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر!

وكان يؤذي الإمام بسُكْره وعربدته وصراخه في آخر الليل عندما يقوم الإمام رحمه الله لصلاته وعبادة ربه ومناجاته، وكان يصبر عليه ويتحمل أذاه مراعاة لحق الجوار، وفي يوم من الأيام، افتقد أبو حنيفة رحمه الله صوت هذا السّكير، فسأل عنه، فقيل له: إن عَسَس الليل ـ الحرس والشرطة ـ أخذوه وأودعوه السجن، فما كان من الإمام إلا أن توجه

إلى الوالي ليكلمه فيه، وليزوره وهو في سجنه، فلقيه تلميذه أبو يوسف رحمه الله، فقال: إلى أين يا إمام؟ قال: لزيارة جاري، قال: هذا السكير؟! قال: نعم، قال: وكيف وأنت إمام المسلمين؟! قال أبو حنيفة: لقد نفعني! قال: بم! قال: كان يقول: أضاعوني.. وهذا حال كل بعيد عن الله! ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ (طه: ١٢٤)، فعظُمْتُ نعمة الإسلام، ومن أعرض عن ذكر الله وخالف أمره، فإنه سيعيش في ضنك وحيرة وقلق، فلا طمأنينة له ولا انشراح صدر، وإن كان يملك المال الكثير والثراء الواسع، فإن قلبه إذا لم يتنور بالهدى الإلهي سيظل في تردد وشك واضطراب، وسيعاني من الخواء الروحي والشقاء النفسي، لأن السعادة والطمأنينة لا تكون إلا في ظل الإيمان، ثم يتابع الإمام ما استفاده من هذا السّكير، فيقول: وكان يُقيم الليل في معصية، فقلتُ: هذا يُصبِّر نفسه على قيام الليل وهو في معصية ولا أُصبّر نفسي على قيامه، وأنا في طاعة الله؟! فأخذت أُقيم الليل. ولاحظت أن الله سَتَر عليه شهوراً وعَسَسُ الليل لا يهتدون إليه، فإذا كان هذا سِتْر الله على عصاته، فكيف يكون ستره لأوليائه؟! ويصل الإمام أبو حنيفة إلى الوالي ويشفع في جاره وتُقبل شفاعته ويُطلقُ الوالي سراحَ السجناء إكراماً لمجيء أبي حنيفة رحمه الله، فيعلن الجميع التوبة الصادقة إلى الله عز وجل! ويعود الإمام بجاره ويُردفه خَلْفه على دابته ثم يلتفت إليه ويقول: هل أضعناك يا فتى؟! فيخجل وتظهر عليه علامات الندم والتوبة، ويقول: لا والله، ولقد تفضّلْت وأحسنْتَ!

* يقول الإمام الغزالي رحمه الله: والله تعالى كثير السِّتر على عبيده، ومن ستره سبحانه أنه أظهر الحسن من الجسد وأخفى القبيح منه، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ﴾ (التين). أي في أحسن صورة وأجمل شكل، منتصبَ القامة، حَسَن البُنْية، سوِيِ الأعضاء، بديعَ التركيب، جميل الهيئة. فأخفى الدماء في العروق وأخفى العروق تحت الجلود، ومن ستره سبحانه أنه جعل موطن الخواطر هو القلب، فلا يطلعُ عليه إلا الله تعالى، ولو اطلع الخلقُ على ما يدور في قلبك لمقتوك، ولكنه ستر الله عز وجل!

* قال الشاعر العرجي لما حبس:

أضاعوني وأيَّ فتى أضاعوا ... ليوم كريهةٍ وسِداد ثَغر
وصبرٍ عند معترك المنايا ... وقد شرعت أسنتها لنحري
أُجرّر في المجامع كل يوم ... فيا للّه مظلمتي وقسري
كأني لم أكن فيهم وسيطاً ... ولم تك نسبتي في آل عمرو
عسى الملك المجيب لمن دعاه ... سينجيني فيعلم كيف شكري
فأجزي بالكرامة أهل ودّي ... وأجزي بالضغائن أهل وتري

* واسم الشاعر العرجي، عبدالله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان.

تأملات

* ما أحسن التاج! وهو على رأس المَلِك أحْسَنُ! وما أحْسَنَ الدّرَّ وهو على نَحْرِ الفتاة أحْسن، وما أحسن الموعظة! وهي من الفاضل التّقيّ أحسن!

* لا تحملنّ على قلبك ما لا يُطيق، ولا تعملنَّ عملاً ليس لك فيه منفعة، ولا تَثِقْ بامرأة، ولا تغترّ بمال وإن كثُر.

* المرأة التي تتباهى بجهلها بشؤون المطبخ، كالأمي الذي يتباهى بعدم معرفة القراءة والكتابة.

* المرأة كالنحلة، تدر عسلاً إذا أحبت، وتلسع إذا كرهت.

* المرأة في الحب تغفر حتى الجريمة، أما في البغض فلا تغفر حتى الفضيلة.

* إذا بكت المرأة تصدعت الأفئدة، وإذا ابتسمت سبت العقول، فهي دائماً السبب في تعكير صفو راحتنا.

الفراسة

* الفراسة تعني الأخذ بالسيما والعلامات والإشارات، وقرائن الأحوال في إصدار الأحكام، أو إطلاق وصف على شخص، فتظهر النتيجة وفق الحكم أو الوصف، وقد ذكرت الفراسة في القرآن الكريم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (الحجر) وفي الحديث: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» رواه الترمذي.

* وتظهر فائدة الفراسة عند تعقد المسائل وتأزم الأمور، واختلاط الدلائل، واشتباه القرائن، فلا يظهر وجه الصواب والحق في المسألة والحادثة. وعندما نستعرض هذا اللون الطريف من القضايا والأحكام التي صدرت نتيجة فراسة وذكاء، يتملّكُنا العجب وتأخذنا الدهشة لهذا الذكاء الخارق، والملاحظات الدقيقة التي فطن لها القاضي الذكي أو الحاكم العاقل القوي، فيستخرجون الحقوق بالفراسة والأمارات والدلائل، وقد اشتهر في هذا اللون من المعرفة والفهم القاضيان شريح وإياس، فلا جرم أن كثرت الوقائع والمرويات عنهما.

* قال رجل لإياس بن معاوية: علّمني القضاء؟! فقال: القضاء لا يُعلّم، إنما القضاء فهم، ولكن قل: علّمْني العلم!. وقد كان تلامذته يكتبون عنه الفراسة كما يكتبون عن المحدّث الحديث!

* دخل رجل على عثمان رضي الله عنه فقال له عثمان: يدخل عليّ أحدكم والزنا في عينيه؟! فقال: أَوَحْيٌ بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: لا ولكن فراسة صادقة!

* وبينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالس إذْ رأى رجلاً. فقال: لسْتُ ذا رأي إنْ لم يكن هذا الرجل كاهناً في الجاهلية! فادعوه لي، فلما حضر قال له: هل كنت تنظر وتقول في الكهانة شيئاً؟ قال: نعم!

* قال الشعبي: شهدت شريحاً - وجاءته امرأة تخاصم رجلاً - فأرسلت عينيها وبكت! فقلت: يا أبا أمية ما أظنّ هذه البائسة إلا مظلومة؟ فقال: يا شعبي، إنّ إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاءً يبكون!

المغيرة بن شعبة

* لما استعمل عمرُ بن الخطاب المغيرة بن شعبة على البحرين، كرهه أهلها، فعزله عمر، فخافوا أن يردّه عليهم. فقال دهقانهم: إن فعلتم ما آمركم به لم يردّه علينا؛ قالوا: مُرْنا بأمرك. قال: تجمعون مائة ألف درهم، حتى أذهب بها إلى عمر، وأقول: إن المغيرة اختان هذا ودفعه إليّ. فجمعوا ذلك. فأتى عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، إن المغيرة اختان هذا، فدفعه إليَّ، فدعا عمر المغيرة، فقال: ما يقول هذا؟ قال: كذب، أصلحك الله إنما كانت مائتي ألف! فقال: ما حملك على ذلك؟ قال: العيال والحاجة! فقال عمر للدهقان: ما تقول؟ فقال: لا والله، لأصدقنك. والله ما دفع إليّ قليلاً ولا كثيراً، ولكن كرهناه، وخشينا أن تردّه علينا. فقال عمر للمغيرة: ما حملك على هذا؟ قال: إن الخبيث كذب عليّ. فأردتُ أن أخزيه. تجد معظم هذه الاثار في «الطرق الحكمية» لابن قيم الجوزية.

عمرو بن العاص

* ولما حاصر عمرو بن العاص غزّة، بعث إليه صاحبها: أنْ أرسل إليَّ رجلاً من أصحابك أكلّمه. ففكر عمرو بن العاص، وقال: ما لهذا الرجل غيري، فخرج حتى دخل عليه، فكلّمه كلاماً لم يسمع مثله قط. فقال له: حدثني، هل أحد من أصحابك مثلك؟ فقال: لا تسَلْ، من هواني عندهم بعثوني إليك، وعَرَّضوني لما عرّضوني! ولا يدرون ما يُصنع بي! فأمر له بجارية وكسوة، وبعث إلى البواب: إذا مرّ بك فاضرب عنقه، وخذ ما معه! فمرّ برجل من نصارى غسان فعرفه. فقال: يا عمرو قد أحسنت الدخول، فأحسن الخروج! فرجع، فقال له الملك: ما ردَّكَ إلينا؟ قال: نظرتُ فيما أعطيتني فلم أجد ذلك يسع من معي من بني عمي، فأردت الخروج، فآتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية فيكون معروفك عند عشرة رجال خيراً من أن يكون عند واحد! قال: صدقت عجّل بهم، وبعث إلى البواب: خلّ سبيله، فخرج عمرو وهو يلتفت، حتى إذا أمن قال: لا عُدْتُ لمثلها! فلما كان بعدُ رآه الملك، فقال: أنت هو؟ قال: نعم، على ما كان من غَدْرك!!

رائحة الطيب

* ومن دقيق الفراسة: أن المنصور جاءه رجل، فأخبره أنه خرج في تجارة فكسب مالاً، فدفعه إلىٰ امرأته، ثم طلبه منها، فذكرت أنه سُرِق من البيت، ولم ير نَقْباً ولا أمارة، فقال المنصور: منذ كم تزوجتها؟ قال: منذ سنة، قال: بكراً أو ثيباً؟ قال: ثيباً. قال: فلها ولد من غيرك؟ قال: لا. قال: فدعا له المنصور بقارورة طيب كان يتخذه حادّ الرائحة، غريب النوع، فدفعها إليه، وقال له: تطيب من هذا الطيب، فإنه يذهب غمّك! فلما خرج الرجل من عنده قال المنصور لأربعة من ثقاته: ليقعد علىٰ كل باب من أبواب المدينة واحدٌ منكم، فمن شَمَّ منكم رائحة هذا الطيب من أحد فليأت به، وخرج الرجل بالطيب فدفعه إلىٰ امرأته، فلما شمَّته بعثت منه إلىٰ رجل كانت تحبّه، وقد كانت دفعت إليه المال، فتطيّب منه، ومرّ مجتازاً ببعض أبواب المدينة، فشمّ الموكّل بالباب رائحته عليه، فأتىٰ به المنصور، فسأله: من أين لك هذا الطيب؟ فلجْلَجَ في كلامه. فبعث به إلىٰ والي الشرطة، فقال: إن أحضر لك كذا وكذا من المال فخلّ عنه، وإلا اضربه ألف سوط! فلما جُرِّد للضرب أحضر المال علىٰ هيئته، فدعا المنصو رصاحب المال، فقال: إن رددت إليك المال تحكّمني في امرأتك؟ قال: نعم. قال: هذا مالك، وقد طلّقت المرأة منك!!

فراسة ابن طولون

* ومن عجيب الفراسة: ما ذُكر عن أحمد بن طولون، أنه بينما هو في مجلس له يتنزّه فيه، إذ رأىٰ سائلاً في ثوب خلَق، فوضع دجاجة علىٰ رغيف وحلوىٰ وأمر بعض الغلمان فدفعه إليه، فلما وقع في يده لم يَهِشَّ له ولم يعبأ به، فقال للغلام: جئني به، فلمّا وقف قدّامه استنطقه، فأحسن الجواب، ولم يضطرب من هيبته. فقال: هات الكتب التي معك، واصدقني من بعثك؟ فقد صحّ عندي أنك صاحب خبر! وأحضر السياط، فاعترف، فقال بعض جلسائه: هذا والله السحر. قال: ما هو بسحر، ولكن فراسة صادقة. رأيت سوء حاله، ووجهت إليه بطعام يَشْرَه إلىٰ أكله الشبعان، فما هَشَّ له، ولا مدَّ يده إليه، فأحضرته فتلقاني بقوة جأش، فلما رأيت رثاثة حاله وقوة جأشه علمت أنه صاحب خبر فكان كذلك.

* وكان ابن طولون يتنكّر ويطوف بالبلد يسمع قراءة الأئمة، فدعا ثقته، وقال: خذ هذه الدنانير، وأعطها إمام مسجد كذا. فإنه فقير مشغول القلب، ففعل، وجلس معه وباسطه. فوجَدَ زوجته قد ضربها الطَّلْق، وليس معه ما يحتاج إليه، فقال: صدق، عرف شغْل قلبه في كثرة غلطه في القراءة!

* وسمع بعض الولاة في بعض ليالي الشتاء صوتاً بدارٍ يطلب ماء بارداً. فأمر بكبس الدار، فأخرجوا رجلاً وامرأة. فقيل له: من أين علمت؟ قال: الماء لا يُبرّد في الشتاء، إنما ذلك علامة بين هذين - أي شيفرة! - أو كلمة السر!

فراسة علي

* ومن الحكم بالفراسة والأمارات ما روي أن غلاماً من الأنصار خاصم أمّه إلىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجحدته، فسأله البينة، فلم تكن عنده، وجاءت المرأة بنفرٍ، فشهدوا أنها لم تتزوج، وأنّ الغلام كاذب عليها، وقد قذفها! فأمر عمر بضربه، فلقيه عليّ رضي الله عنه. فسأل عن أمرهم، فأُخبر، فدعاهم، ثم قعد في مسجد النبي ﷺ، وسأل المرأة فجحدت. فقال للغلام: اجحدها كما جحدتك! فقال: يا ابن عم رسول الله ﷺ، إنها أمي، قال: اجحدها، وأنا أبوك والحسن والحسين أخواك! قال: جحدتها، وأنكرتها. فقال عليٌّ لأولياء المرأة: أمري في هذه المرأة جائز؟ قالوا: نعم، فقال علي: أشهد من حضر أني قد زوّجت هذا الغلام من هذه المرأة الغريبة منه! يا قنبر ائتني بطينة فيها دراهم، فأتاه بها، فعدّ أربعمائة وثمانين درهماً، فدفعها مهراً لها وقال للغلام: خذ بيد امرأتك، ولا تأتينا إلا وعليك أثر العُرْس. فلما ولّى قالت المرأة: يا أبا الحسن، الله الله هو النّار، هو والله ابني! قال: وكيف ذلك؟ قالت: إن أباه كان زنجياً، وإن إخوتي زوجوني منه، فحملتُ بهذا الغلام. وخرج الرجلُ غازياً فقُتل، وبعثت بهذا إلىٰ حي بني فلان. فنشأ فيهم، وأنِفْتُ أن يكون ابني، فقال علي: أنا أبو الحسن، وألحَقَه بها. وثبتَ نسبه!

فراسة دانيال

* ويُروىٰ أنّ دانيال كان يتيماً، لا أب له ولا أم، وأن عجوزاً من بني إسرائيل ضمته وكفلته، وأن ملكاً من ملوك بني إسرائيل كان له قاضيان، وكانت امرأة مهيبة جميلة تأتي الملك فتناصحه وتقص عليه، وأن القاضيين عشقاها، فراوداها عن نفسها فأبت، فشهدا عليها عند الملك أنها بغت! فدخل الملك من ذلك أمرٌ عظيم، واشتد غَمُّه، وكان بها معجباً، فقال لهما: إن قولكما مقبول، وأجّلها ثلاثة أيام، ثم يرجمونها، ونادىٰ في البلد: احضروا رجم فلانة، فأكثر الناس في ذلك، وقال الملك لثقته ووزيره: هل عندك من حيلة؟ فقال: ماذا عسىٰ عندي؟ - يعني وقد شهد عليها القاضيان! - فخرج ذلك الرجل في اليوم الثالث، فإذا هو بغلمان يلعبون، وفيهم دانيال، وهو لا يعرفه، فقال دانيال: يا معشر الصبيان، تعالوا حتىٰ أكون أنا الملك، وأنت يا فلان المرأة العابدة وفلان وفلان القاضيين الشاهدين عليها، ثم جمع تراباً وجعل سيفاً من قَصَب، وقال للصبيان: خذوا بيد هذا القاضي إلىٰ مكان كذا وكذا، ففعلوا، ثم دعا الآخر فقال له: قل الحق، فإن لم تفعل قتلتُك، بأي شيءٍ تشهد؟ - والوزير واقف ينظر ويسمع! - فقال: أشهد أنها بغَتْ! قال: متىٰ؟ قال: في يوم كذا وكذا، قال: مع مَنْ؟ قال: مع فلان بن فلان، قال: في أي مكان؟ قال: في مكان كذا وكذا، فقال: ردوه إلىٰ مكانه، وهاتوا الآخر، فردّوه إلىٰ مكانه، وجاءوا بالآخر، فقال له مثل ما قال للأول، فخالف صاحبه! فقال دانيال: الله أكبر، شهدا عليها والله بالزور، فاحْضُروا قتلهما! فذهب الثقة إلىٰ الملك مبادراً فأخبره الخبر، فبعث إلىٰ القاضيين، ففرّق بينهما، وفعل بهما ما فعل دانيال، فاختلفا كما اختلف الغلامان! فنادىٰ الملك في الناس أن احضروا قتْل القاضيين، فقتلَهما!

فراسة عمر

* قال الليث بن سعد: أُتِيَ عمرُ بن الخطاب يوماً بفتىٰ أمْردَ، وقد وُجد قتيلاً ملقىٰ علىٰ وجه الطريق، فسأل عمر عن أمره واجتهد، فلم يقف له علىٰ خبر، فشقّ ذلك عليه،

فقال: اللهم أظفرني بقاتله، حتىٰ إذا كان علىٰ رأس الحول وُجد صبي مولود ملقىً بموضع القتيل، فأُتِيَ به عمر، فقال: ظفرت بدم القتيل إن شاء الله تعالىٰ، فدفع الصبيَّ إلىٰ امرأة، وقال: قومي بشأنه، وخذي منا نفقته، وانظري من يأخذه منك، فإذا وجدتِ امرأة تقبّله وتضمّه إلىٰ صدرها فأعلميني بمكانها. فلما شبّ الصبي جاءت جارية، فقالت للمرأة: إن سيدتي بعثتني إليكِ لتبعثي بالصبي لتراه وتردَّه إليك. قالت: نعم، اذهبي به إليها، وأنا معك، فذهبت بالصبي والمرأة معه، حتىٰ دخلت علىٰ سيدتها، فلما رأته أخذته فقبّلتْه وضمّته إليها، فإذا هي ابنة رجل من الأنصار، فأتتْ عمر فأخبرته، فاشتمل علىٰ سيفه، ثم أقبل إلىٰ منزل المرأة، فوجد أباها متكئاً علىٰ باب داره، فقال له: يا فلان ما فعلت ابنتك؟ قال: جزاها الله خيراً يا أمير المؤمنين، وهي من أعرف الناس بحق الله وحقّ أبيها، مع حسن صلاتها وصيامها والقيام بدينها، فقال عمر: قد أحْبَبْتُ أنْ أدخل عليها فأزيدها رغبة في الخير وأحثها عليه، فدخل أبوها ودخل عمر معه، فأمر مَنْ عندها فخرج، وبقي هو والمرأة في البيت، فكشف عمر عن السيف، وقال: اصدقيني، وإلاّ ضربتُ عنقك! فقالت: علىٰ رسلك، فوالله لأصدقنّ: إنّ عجوزاً كانت تدخل عليّ، فأتّخذها أمّاً، وكانت تقوم من أمري بما تقوم به الوالدة، وكنت لها بمنزلة البنت، حتىٰ مضىٰ لذلك حين، ثم إنها قالت: يا بنيتي إنه قد عرض لي سفر، ولي ابنة في موضع أتخوّف عليها فيه أنْ تضيع، ، وقد أحببت أن أضمّها إليك حتىٰ أرجع من سفري فعَمَدت إلىٰ ابن لها شاب أمرد، فهيّأته كهيئة الجارية، وأتتني به، لا أشك أنه جارية فكان يرىٰ مني ما ترىٰ الجاريةُ من الجارية، حتىٰ اغتفلني يوماً وأنا نائمة، فما شعرْت حتىٰ علاني وخالطني، فمددْتُ يدي إلىٰ شَفْرة كانت إلىٰ جنبي فقتلْتُه، ثم أمرت به فأُلقي حيث رأيتَ، فاشتملْتُ منه علىٰ هذا الصبي، فلمّا وضعْتُه ألقيته في موضع أبيه، فهذا والله خبرهما علىٰ ما أعلمْتُك! فقال: صدقْتِ، ثم أوْصاها، ودعا لها وخرج، وقال لأبيها: نعْمت الابنةُ ابنتك، ثم انصرف!

* ومن محاسن الفراسة، تحاشي الألفاظ التي تحتمل معنىً لا يرضاه المخاطب، أو كلمة يمكن وضع غيرها مكانها وهي أليق وأفضل. رأىٰ الرشيدُ في دارٍ حزمة خيزران،

فقال لوزيره الفضل بن الربيع: ما هذه؟ قال عروق الرماح يا أمير المؤمنين! ولم يقل الخيزران لموافقة اسم أمه.

* ونظير هذا: أن بعض الخلفاء سأل ولده ـ وفي يده مسواك ـ ما جمع هذا؟ فقال: ضدُّ محاسنك يا أمير المؤمنين. وهذا من الفراسة في تحسين اللفظ، وهو باب عظيم النفع. اعتنى به الأكابر والعلماء. وله شواهد كثيرة في السنة. وهو من خاصية العقل والفطنة. والسواك يجمع على أَسْوكة وسُوُك مثل كتاب وكُتُب، والمسواك يجمع على مساويك أيضاً.

* وروي أن عمر رضي الله عنه: خرجَ يَعُسُّ في المدينة بالليل: فرأى ناراً موقدة في خباء. فوقف وقال: يا أهل الضوء وكره أن يقول: يا أهل النار!

* وسئل العباس: أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ فقال: هو أكبر مني، وأنا ولدْتُ قبله!

* وكان لبعض القضاة جليسٌ أعمى، فكان إذا أراد أن ينهض يقول: يا غلام، اذهب مع أبي محمد! ولا يقول: خذْ بيده، قال: والله ما أخلّ بها مرةً واحدة.

* ورد أنّ رجلاً أوصى إلى آخر: أنْ يتصدّقَ عنه من هذا الألف دينار بما أحبّ، فتصدق بُعشرها، وأمْسك الباقي، فخاصموه إلى عليّ، وقالوا: يأخذ النصف ويعطينا النصف، فقال: أنصفوك، قال: إنه قال لي: أخرج منها ما أحببت، قال: فأخرج عن الرجل تسعمائة، والباقي لك قال: وكيف ذلك؟ قال: لأن الرجل أمرك أن تخرج ما أحببت، وقد أحببت التسعمائة، فأخرجها!!

* سرق من رجل خمسمائة دينار فحمل المتهومين إلى الوالي، فقال الوالي: أنا ما أضرب أحداً منكم، بل عندي خيط ممدود في بيت مظلم، فادخلوا فليمرّ كل منكم يده عليه من أول الخيط إلى آخره، ويلفّ يده في كمّه ويخرج فإن الخيط يلفّ على يد الذي سرق، وكان قد سوّد الخيط بسخام فدخلوا، فكلهم جرّ يده على الخيط في الظلمة إلا واحداً منهم، فلما خرجوا نظر إلى أيديهم مسودة إلا واحداً، فألزمه بالمال فأقرّ به!

* دفع رجلان من قريش إلى امرأة مائة دينار وديعة، وقالا: لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه، فلبثا حولاً، فجاء أحدهما فقال: إن صاحبي قد مات فادفعي إليَّ الدنانير. فأبت، وقالت: إنكما قلتما لي: لا تدفعيهما إلى واحد منا دون صاحبه! فلست بدافعتها إليك، فاستعان عليها بأهلها وجيرانها حتى دفعتها إليه، ثم لبثت حولاً آخر، فجاء الآخر فقال: ادفعي إليَّ الدنانير! فقالت: إن صاحبك جاءني، فزعم أنك قد متّ، فدفعتها إليه! فاختصما إلى عمر رضي الله عنه، فأراد أن يقضي عليها، فقالت: ادفعنا إلى علي بن أبي طالب، فعرف عليٌّ أنهما قد مكرا بها، فقال: أليس قد قلتما: لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه؟ قال: بلى، قال: فإن مالك عندها، فاذهب فجيء بصاحبك حتى تدفعه إليكما!!

حيَل عقلية

* اضطراب الرجل في الأزمات، واهتزازه عند الشدائد والمُلِمّات، دليل علىٰ ضعف رأيه، وسطحية تفكيره، فالشدائد تظهر الرجال، وتصنع الأبطال وتكشف عن الأسرار. والحيلة قد يكون لها دور رئيسي وفعال في النجاة من الورطة والأزمة أو الحصول علىٰ المراد والخروج من الشدة، وكما يقولون: فالحاجة تفتح أبواب الحيل، وليس العاقل الذي يحتال للأمور إذا وقع فيها، بل العاقل الذي يحتال للأمور حتىٰ لا يقع فيها. ومن المعروف في سيرة الرسول ﷺ أنه كان إذا أراد غزوة ورّىٰ بغيرها، وكان يقول: «الحرب خدعة» متفق عليه.

* وكانوا يستعملون الحِيَلَ العقلية والذكاء، للوصول إلىٰ الهدف المنشود والغاية المرجوة وغالباً ما كان النجاح حليفهم، لإحكام الخطة وإتقان الحيلة واستعمال الذكاء.

* خطب المغيرة بن شعبة وفتىٰ من العرب امرأة، وكان الشابّ جميلاً وسيماً، فأرسلت إليهما أن يحضرا عندها، فحضرا، وجلست بحيث تراهما وتسمع كلاهما، فلما رأىٰ المغيرة ذلك الشاب وعَايَن جماله، علم أنها ستؤثره عليه، فأقبل علىٰ الفتىٰ وقال: لقد أُوتيتَ جمالاً، فهل عندك غير هذا؟ قال: نعم، فعدّدَ محاسنه، ثم سكت، فقال المغيرة: كيف حسابك مع أهلك «في الأمور المالية ونفقات المنزل»؟ فقال: ما يخفىٰ عليّ منه شيء! وإني لأستدرك منه أدقّ من الخردل! فقال المغيرة: - وقد لمعت الحيلة الناجحة في ذهنه - لكنني أضع البَدْرة - عشرة آلاف درهم - في بيتي، فينفقها أهلي علىٰ ما يريدون، فلا أعلم بنفادها حتىٰ يسألوني غيرها! فقالت المرأة: والله لهذا الشيخ الذي لا يحاسبني أحبّ إليّ من هذا الذي يحصي عليّ مثقال الذرة، فتزوجت المغيرة!

* وحيلة نعيم بن مسعود في غزوة الأحزاب معروفة ومشهورة، فقد كانت سبباً في الانتصار وإحداث الوقيعة والفتنة بين الأعداء، بعد أن عزموا علىٰ اجتياح المدينة المنورة.

حيل القضاة

* وقد كان القضاة والحكام يلجؤون للحيل في المسائل المستعصية ليتوصلوا بالدلائل والقرائن إلى الحكم العادل فيردوا الحق لصاحبه. حدّث أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خرجت امرأتان ومعهما صبيان فعَدَا الذئب على صبي إحداهما فأكله، فاختصما في الصبي الباقي إلى داود عليه السلام، فقال: كيف أمركما؟ فقصّتا عليه القصة، فحكم به للكبرى منهما، فاختصما إلى سليمان بن داود عليهما السلام فقال: ائتوني بسكين أشقّ الغلام نصفين لكل منهما نصف! فقالت الصغرى: أتشقّه يا نبي الله؟ قال: نعم قالت: لا تفعل، ونصيبي فيه للكبرى، فقال: خذيه فهو ابنك وقضى به لها» ـ لِمَا علم من رحمتها به وشفقتها عليه ـ رواه الشيخان والنسائي.

* وجاء رجل إلى سليمان عليه السلام وقال: يا نبي الله إن جيراننا يسرقون أوزّي فلا أعرف السارق. فجمع الناس ثم خاطبهم وقال: إن أحدكم ليسرق أوزّ جاره ثم يدخل المسجد والريش على رأسه فمسح الرجل رأسه فقال سليمان: خذوه فهو صاحبكم!

* وقصد رجل الحج فاستودع إنساناً مالاً فلما عاد طلبه منه فجحده المستودع فأخبر بذلك القاضي إياساً. فقال أعَلِمَ بأنك جئتني؟ قال: لا، قال: فعد إليّ بعد يومين، ثم إن القاضي إياساً بعث إلى ذلك الرجل فأحضره، ثم قال له: اعلم أنه قد تحصّلت عندي أموال كثيرة لأيتام وغيرهم وودائع للناس وإني مسافر سفراً بعيداً، وأريد أن أودعها عندك لِمَا بلغني من دينك وتحصين منزلك! فقال: حبّاً وكرامة، قال: فاذهب وهيّئ موضعاً للمال وقوماً يحملونه، فذهب الرجل، وجاء صاحب الوديعة، فقال له القاضي إياس: امض إلى صاحبك وقل له: ادفع إليّ مالي وإلا شكوتك للقاضي إياس، فلما جاء وقال له ذلك، دفع إليه ماله! واعتذر إليه! فأخذه وأتى إلى القاضي إياس وأخبره، ثم بعد ذلك أتى الرجل ومعه الحمّالون لطلب الأموال التي ذكرها له القاضي، فقال له القاضي بعد أن أخذ الرجل ماله منه: بدا لي ترْك السفر، امض لشأنك لا أكثر الله في الناس مثلك.

الحيل الخادعة

* ويقصّون في شؤم الحيل إذا كانت في الباطل والخداع وسلْب أموال الناس بغير حق، أنّه دلّيتْ من السماء سلسلة في أيام داود عليه الصلاة والسلام عند الصخرة التي في وسط بيت المقدس، وكان الناس يتحاكمون عندها فمن مدّ يده إليها وهو صادق نالها، ومن كان كاذباً لم يَنلْها، إلى أن ظهرت فيهم الخديعة فارتفعت، وذلك أن رجلاً أودع رجلاً جوْهرة فخبّأها في مكان في عكازة ثم إنّ صاحبها طلبها من الذي أودعها عنده فأنكرها فتحاكما عند السلسلة. فقال المدعي: اللهم إن كنت صادقاً فلتدن مني السلسلة فدنت منه فمسّها، فدفع المدعى عليه العكازة للمدعي، وقال اللهم إن كنت تعلم أنّي رددتُ الجوهرة إليه فلتدْن مني السلسلة فدنت منه فمسّها! فقال الناس: قد سَوّت السلسلة بين الظالم والمظلوم فارتفعت بشؤم الخديعة، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام أن احكم بين الناس بالبينة واليمين، فبقي ذلك إلى قيام الساعة.

* ومن جميل الحيل ما ورد أن معاوية لّما أسنّ اعتراه الأرق، فكان إذا أراد النوم أيقظته نواقيس الروم، فلما أصبح يوماً ودخل عليه الناس قال: يا معشر العرب هل فيكم فتى يفعل ما آمره وأعطيه ثلاث دِيَات أعجِّلها له وديتين إذا رجع؟ فقام فتى من غسّان فقال: أنا يا أمير المؤمنين. قال: تذهب بكتابي هذا إلى ملك الروم فإذا صرت على بساطه أذّنتَ! قال: ثم ماذا؟ قال: فقط! فقال: لقد كلّفْت صغيراً وأتَيْتَ كبيراً، فكتب له وخرج، فلما صار على بساط قيصر أذّن، فهمّ به البطارقة واخترطوا سيوفهم، فمنعهم ملك الروم، ثم أجلسه بين يديه وقال: يا معشر البطارقة. إن معاوية رجل قد أسنّ وقد أرق، وقد آذَتْه النواقيس، فأراد أن نَقْتل هذا على الأذان فيقتل مَنْ قِبَله منّا ببلاده على النواقيس، والله ليرجعنّ إليه بخلاف ما ظنّ، فكساه وحمله فلما رجع إلى معاوية قال: أوَ قَد جئتني سالماً؟! قال: نعم. أمّا من قِبَلك فلا!

بين هرقل.. ومعاوية

* وحكي أن هرقل ملك الروم كتب إلىٰ معاوية رضي الله عنه يسأله عن الشيء ولا شيء، وعن دين لا يقبل الله غيره، وعن مفتاح الصلاة، وعن غرس الجنة، وعن صلاة كل شيء، وعن أربعة فيهم الروح ولم يركضوا في أصلاب الرجال وأرحام النساء، وعن رجل لا أب له، وعن رجل لا أمّ له، وعن قبر جرىٰ بصاحبه، وعن بقعة طلعت عليها الشمس مرة واحدة ولم تطلع عليها قبلها ولا بعدها، وعن ظاعن ظعن مرة واحدة، ولم يظعن قبلها ولا بعدها، وعن شجرة نبتت من غير ماء، وعن شيء تنفس ولا روح له، وعن اليوم، وأمس، وغد وبعد غد. فبعث معاوية إلىٰ ابن عباس يسأله فكتب إليه: أما الشيء فالماء، قال الله تعالىٰ ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) ﴾ (الأنبياء) وأما لا شيء، فالدنيا فإنها تبيد وتفنىٰ. وأما دين لا يقبل الله غيره، فلا إله إلا الله. وأما مفتاحُ الصلاة، فالله أكبر. وأما غرسُ الجنة، فسبحان الله والحمدلله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله. وأما صلاة كل شيء، فسبحان الله وبحمده. وأما الأربعة الذين فيهم الروح ولم يركضوا في الأصلاب والأرحام فآدم وحواء وناقة صالح وكبش إسماعيل. وأما الرجل الذي لا أب له فعيسىٰ عليه السلام. وأما الرجل الذي لا أمّ له فآدم عليه السلام وأما القبر الذي جرىٰ بصاحبه، فحوت يونس عليه السلام سار به في البحر، وأما البقعة التي طلعت عليها الشمس مرة واحدة، فبطن البحر حين انفلق لبني إسرائيل، وأما الظاعن الذي ظعن مرة واحدة، فجبل طور سيناء ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ (الأعراف: ١٧١). وأما الشجرة التي نبتت من غير ماء فشجرة اليقطين التي أنبتها الله علىٰ يونس. وأما الشيء الذي تنفس بلا روح فالصبح ﴿والصبح إذا تنفس﴾ (التكوير: ١٨). وأما اليوم فعَمَل، وأمس فمثَلَ، وغد فأَجَل، وبعد غد فأَمَل!

يتثاقل لئلا يقوم!

* دخل أبو بكر أحمد بن عبدالله، المعروف بأبي بكر بن عبدالله أبي سعيد الأصبهاني الكاتب، إلىٰ مجلس أبي عبدالله الخوميني، فأخذ يريه أنّه يريد القيام، ويتثاقل فيه، حتىٰ

يسبقه أبو بكر بن أبي سعيد بالجلوس، إلىٰ قيامه له! ففطن أبو بكر، فوقف من بعيد، وقال: هيَّ، قمْ قائماً حتىٰ أجيء، وإلا انصرفت من موضعي! فضحك الخوميني، وقال: والله يا سيدي، ما أردت هذا، وقام له القيام التام!

* بنىٰ عبدالملك بن مروان باباً للمسجد الأقصىٰ، وبنىٰ الحجاج باباً آخر مثله بإزائه.. فانقضّت صاعقة فأحرقت باب عبدالملك وسلِم باب الحجاج! فغضب عبدالملك غضباً شديداً، وقال: أيحرق بابي ويسلم باب الحجاج؟! فكتب الحجاج إلىٰ عبدالملك يقول: بلغني أن ناراً نزلت من السماء فأحرقت باب أمير المؤمنين ولم يحترق باب الحجاج، ومثلنا في ذلك كمثل ابني آدم: ﴿**إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر**﴾ فسري عنه لما وقف عليه!

* حدَّثَ بعضُهم، فقالَ: دَخلتُ مسجداً مَع صاحب لي، فَنَامَ، وَوضعَ عَمامَتَهُ. فإذا أنا برجُلٍ قد دَخَلَ فَأَخذَ العَمامَةَ، وجَعَلَ يَضحكُ في وَجهي، وَهُوَ واضعٌ سبَّابَتَهُ عَلَىٰ فَمِه، كأن يقول: أُسكتْ! وَجَعَلَ يَتَراجعُ القَهقَرىٰ. وأرىٰ أَنَّهُ يُلاعِبُنا! فَمرَّ هارباً. فانتبَهَ صاحبي، فَقلتُ له ما جرىٰ. فطلبناهُ فَلَمْ نَجِدْهُ!

* ومن أظرف ما حكي عن موفق الدين بن قدامة المقدسي: أنه كان يجعل في عمامته ورقةً مصرورةً، فيها رملٌ يرمِّلُ به ما يكتبه للناس من الفتاوىٰ والإجازات وغيرها! فاتفق ليلة أنْ خُطفت عمامته، فقال لخاطفها: يا أخي خذ من العمامة الورقة المصرورة بما فيها وردَّ العِمَامة أُغطي بها رأسي وأنت في أوسع الحلِّ مما في الورقة! فظن الخاطف أنها فضة، ورآها ثقيلة، فأخذها وردَّ العمامة، وكانت صغيرة عتيقة، فرأىٰ أخذ الورقة خيراً منها بدرجات! فخلَّص الشيخ عِمامته بهذا الوجه اللَّطيف!

* يروىٰ أن أحد الملوك غضب علىٰ وزيره فنفاه إلىٰ جهة بعيدة وحرّم عليه أن يتصل بأحد الناس حتىٰ أهله.. لكن أحد أصدقاء الملك راح يتشفع لديه لكي يعفو عنه.. فلما ألح في الشفاعة والرجاء، أراد الملك أن يشترط شرطاً يعجز الوزير المنفي عن الوفاء به فقال لصديقه: إني قد عفوت عن الوزير بشرط أن يحضر إلي جواداً أصيلاً لا يكون لونه أبيض

أو أسود أو أحمر أو أصفر أو ما يشتق من هذه الألوان. . وذهب صديق الملك إلى الوزير حيرانا آسفاً وأبلغه بشرط الملك، فقال الوزير على الفور: إن هذا الجواد موجود عندي، فقل للملك أن يرسل من يأخذه بعد خروجي، على ألا يحضر يوم السبت أو الأحد أو الاثنين أو الثلاثاء أو الاربعاء أو الخميس أو الجمعة!!

* رأى أحد الملوك رؤيا أفزعته، وطلب المفسرين فوقف بين يديه اثنان: قال الأول: يؤسفني يا مولاي أن أقول لك: إن تفسير رؤياك هو موت أولادك جميعاً في حياتك، وستموت أنت من الحزن عليهم! فغضب الملك عليه أيما غضب وسجنه. وجاء الثاني فقال: أما تفسيري للرؤيا يا مولاي فهو: أنك ستعيش عمراً طويلاً أطول من عمر أي إنسان في أسرتك وهي أمنية غالية على كل إنسان! فانفرجت أسارير الملك وزال الهمّ عن قلبه وكافأ المفسر مكافأة كبيرة. ولو انتبهنا إلى كل كلمة قالها المفسران لوجدنا أن الثاني لم يزد عما قاله الأول، لكنها الفطنة والكياسة والأسلوب الحسن والعرض الجيد.

* كان جمال الدين الجزار المصري ـ أديباً فاضلاً وعُرف بالظرف، وكانت مهنته بالأصل جزاراً، وقد ذكر مهنته ببيع اللحم في مواطن عدّة من شعره، فمن ذلك قوله مُورِّياً في صناعته قوله:

ألا قُل للذي يسأل عن قومي وعن أهلي
لقد تسأل عن قوم كرام الفرع والأصلِ
تُرجيهم بنو كلب وتخشاهم بنو عجل!

* مرض مولى لسعيد بن العاص، ولم يكن له من يخدمه ويقوم بأمره، فبعث إلى سعيد بن العاص، فلما أتاه قال له: ليس لي وارث غيرك، وههنا ثلاثون ألف درهم مدفونة، فإذا أنا مت فخذها، فقال سعيد حين خرج من عنده: ما أرانا إلا قد أسأنا إلى مولانا وقصّرنا في تعاهده، فتعاهده كل التعاهد ووكّل به من يخدمه، فلما مات اشترى له كفناً بثلاثمائة درهم وشهد جنازته، فلما رجع إلى البيت حفر البيت كله، فلم يجد شيئاً،

وجاء صاحب الكفن يطالب بثمن الكفن، فقال: لقد هممت أن أنبش عليه وأسلبه كفنه!

* حكي أن المأمون أُتي بجارية فائقة الجمال بارعة الكمال، وكان في رِجْلها عَرَجٌ، فلما نظر إليها المأمون أعجبه جمالها وساءه عرجها، فقال للنخّاس - بائع الرقيق - خذ بيد جاريتك، فلولا عَرَجها لاشتريتها. فقالت: يا أمير المؤمنين إني وقت حاجتك إليَّ تكون رجلي بحيث لا تراها! فأعجبه جوابها وأمر بشرائها، وأن يُعطىٰ مولاها ما احتكم، وحظيت عنده!

* دخل اللصوص علىٰ رجل فأخذوا متاعه واستحلفوه بالطلاق ثلاثاً أن لا يعلم أحداً! فأصبح الرجل وهو يرىٰ اللصوص يبيعون متاعه، وليس يقدر أن يتكلم من أجل يمينه!! فجاء الرجل يشاور أبا حنيفة، فقال له أبو حنيفة أحضرني أمام حيك والمؤذن والمستورين منهم، فأحضره إياهم، فقال لهم أبو حنيفة: هل تحبون أن يردّ الله علىٰ هذا متاعه؟ قالوا: نعم، قال: فاجمعوا كلّ ذي فَجر عندكم وكل متهم فأدخلوهم في دار أو في مسجد، ثم أخرجوهم واحداً واحداً فقولوا: هذا لصك!؟ فإن كان ليس بلصه يمضي وإن كان لصه فليسكت، فإذا سكت فاقبضوا عليه! ففعلوا ما أمرهم به أبو حنيفة فردّ الله عليه جميع ما سرق منه!!

لص وفقيه

* قال بعض جلساء عبدالملك بن عبدالعزيز له يوماً: حدثت لي أعجوبة، قال: ما هي؟ قال: خرجت إلىٰ حائطي بالغابة فلما أن أصحرت وبعدت عن بيوت المدينة، تعرّض لي رجل فقال: اخلع ثيابك فقلت: وما يدعوني إلىٰ خلع ثيابي؟ قال: أنا أولىٰ بها منك! قلت ومن أين؟ قال: لأني أخوك وأنا عريان، وأنت مكسو! قلت: فالمساواة! قال: كلا قد لبستها برهة وأنا أريد أن ألبسها كما لبستها! قلت: فتعريني وتبدي عورتي! قال: لا بأس بذلك، قد روينا عن مالك أنه قال: لا بأس للرجل أن يغتسل عريانا! قلت: فيلقاني الناس فيرون عورتي! قال: لو كان الناس يرونك في هذه الطريق ما عرضت لك فيها! فقلت: أراك ظريفاً فدعني حتىٰ أمضي إلىٰ حائطي وأنزع هذه الثياب فأوجه بها إليك!

قال: كلا أردت أن توجّه إلي أربعة من عبيدك فيحملوني إلىٰ السلطان فيحبسني ويمزق جلدي ويطرح في رجلي القيد! قلت: لا، أحلف لك أيماناً أني أوفي لك بما وعدتك ولا أسوءك! قال: كلا، إنا روينا عن مالك أنه قال: لا تلتزم الأيمان التي يحلف بها اللصوص! قلت: فأحلف أني لا أحتال في أيماني هذه! قال: هذه يمين مركبة علىٰ اللصوص! قلت: فدع المناظرة بيننا فوالله لأوجهن إليك هذه الثياب طيبة بها نفسي! فأطرق ثم رفع رأسه وقال: تدري فيم فكرت؟ قلت: لا، قال تصفحت أمر اللصوص من عهد رسول الله ﷺ إلىٰ وقتنا هذا فلم أجد لصاً أخذ نسيئة! وأكره أن أبتدع في الإسلام بدعة يكون عليّ وزرها ووزر من عمل بها بعدي، إلىٰ يوم القيامة، اخلع ثيابك! قال: فخلعتها ودفعتها إليه فأخذها وانصرف!

* لاحظت إحدىٰ شركات التأمين الأميركية أن أحد مندوبيها يسرف في المراهنات.. ولما يئست من إصلاحه قررت نقله إلىٰ فرع الشركة في شيكاغو.. وذهب المندوب لتسلم عمله في فرع الشركة فقال له المدير: يؤسفني أن أعلم من مركز الشركة أنك تسرف في المراهنات فعلىٰ أي شيء تعودت المراهنة؟ فأجاب المندوب في صراحة: إنني أراهن علىٰ كل شيء، فمثلاً أستطيع أن أراهن بمبلغ ٢٥ دولاراً علىٰ أن بكتفك اليسرىٰ وَشْماً كبيراً! فقال المدير: وأنا أقبل هذا الرهان.. وأؤكد لك من الآن أنك خسرت نقودك! قال ذلك وخلع قميصه وكشف عن كتفيه، فلم يجد المندوب أثراً للوشم ودفع المبلغ وانصرف.. وكتب المدير إلىٰ مركز الشركة يقول مفاخراً أنه استطاع أن يلقن المندوب درساً لن ينساه! ولشدّ ما كانت دهشته عندما تسلم الرد من مركز الشركة وقد جاء فيه: لقد ربح المندوب الرهان مرة أخرىٰ.. فقد تراهن قبل سفره بمبلغ مائتي دولار علىٰ أنه يستطيع أن يحملك علىٰ خلع قميصك قبل انقضاء خمس دقائق علىٰ أول مقابلة بينكما!!

* جاء رجل إلىٰ بزاز فاستعرض منه ثياباً بثلاثمائة دينار ثم وزنها له فلما تسلمها قال الرجل: لقد غبنتني فعاد وجمع الدنانير وتركها في خرقة وختمها ورمىٰ بها في كمّ غلامه، ثم قال: ما أنا إلا متردد! أفتأذن لي أن أُري الثياب مَنِ اشتريتها له، فإن رضي وإلا رددتُها!

قال: نعم، فأدخل يده في كمّ غلامه فأخرج الخرقة فرمىٰ بها إلىٰ البزاز وأخذ الثياب ومضىٰ، ففتح البزاز الخرقةُ فإذا فيها فلوس! وقد جعل في كمّ غلامه خرقة مثلها وفيها وزن الثلاثمائة!!

* خرج النعمان إلىٰ ظهر الحيرة وكان معشاباً، وكانت العرب تسميه: خدّ العذراء! فيه نبت الشيح والقيصوم والخزامىٰ والزعفران وشقائق النعمان والأقحوان، فمر بالشقائق فأعجبته، فقال: من نزع من هذا شيئاً فانزعوا كفه! فسميت شقائق النعمان! قال فإنه ليسير فيها يوماً فانتهىٰ إلىٰ وَهْدة في طرف النجف وإذا شيخ يخصف نعلاً، فوقف عليه وقد سبق أصحابه، فقال: ممن أنت يا شيخ؟ قال من بكر بن وائل، فقال: يا شيخ مالك ههنا؟ قال: طَرَدَ النعمان الرعاة فأخذوا يميناً وشمالاً ووجدت وَهْدة خالية فنتجت الإبل وولدت الغنم وسالت السمن! فقال: أو ما تخاف النعمان! قال: وما أخاف منه والله لربما لَمَسْتُ بيدي هذه ما بين سرة أمه وعانتها! كأنه أرنب جاثم! قال: أنت أيها الشيخ؟ قال: نعم، قال: فهاج وجهه غضباً وطلعت أوائل خيله فقالوا: حُييت أَبَيْتَ اللعن! قال: وحَسَر عن رأسه فإذا خرزات ملكه، فقال النعمان: أيها الشيخ كيف قلت؟ قال: أبيت اللعن لا يهولنّك ذاك، والله لقد علمت العرب أنه ليس بين لابتيها أكذب مني! فضحك منه ثم مضىٰ!

* أُتي عبدالملك بن مروان برجل كان مع بعض مَنْ خرج عليه، فقال: اضربوا عنقه، فقال: يا أمير المؤمنين ما كان هذا جزائي منك؟ قال: وما جزاؤك؟ قال: والله ما خرجت مع فلان إلا بالنظر لك، وذلك أني رجل مشؤم، ما كنت مع رجل قط إلا غُلب وهزم، وقد بان لك صحة ما ادعيت، وكنتُ لك خيراً من مائة ألف معك! فضحك وخلىٰ سبيله!!

* يحكىٰ أن مزيداً كان يدخل علىٰ بعض ولاة المدينة فأبطأ عليه ذات يوم، ثم جاء فقال: ما أبطأك عني! قال: جارة لي كنت أهواها منذ حين فظفرت بها ليلتي وتمكنت منها! فغضب الوالي، وقال: والله لآخذنك بإقرارك، فلما رأىٰ الجد منه، قال: فاسمع

تمام حديثي؟ قال: وما هو؟ قال: فلما أصبحت خرجت أطلب مفسراً يفسر لي رؤياي، فلم أقدر عليه إلى الساعة! قال: ذلك في المنام رأيت؟ قال: نعم فسكن غضبه!!

* أُتي عقبة الأزدي بجارية قد جنّت في الليلة التي أراد أهلها أن يدخلوها إلى زوجها، فعزم عليها، فإذا هي قد سقطت! فقال لأهلها: اخلوني بها! فقال لها: اصدقيني عن نفسك وعليّ خلاصك! فقالت: إنه قد كان لي صديق وأنا في بيت أهلي، وإنهم أرادوا أن يدخلوا بي على زوجي ولست ببكر فخفت الفضيحة، فهل عندك حيلة في أمري؟! فقال: نعم، ثم خرج إلى أهلها فقال: إن الجني قد أجابني إلى الخروج منها، فاختاروا من أي عضو تحبون أن أخرجه من أعضائها؟ واعلموا أن العضو الذي يخرج منه الجني لابد أن يهلك ويفسد، فإن خرج من عينها عميت، وإن خرج من أذنها صمت، وإن خرج من فمها، خرست، وإن خرج من يدها شلّت، وإن خرج من رجلها عرجت، وإن خرج من فرجها ذهبت عذرتها! فقال أهلها: ما نجد شيئاً أهون من ذهاب عذرتها، فأخرج الشيطان من فرجها، فأوهم أنه قد فعل، ودخلت المرأة على زوجها!

والآن زدت بهم جهالة

* قال ابن الصباغ العقيلي. دخل والدي على قاضي الجماعة بالأندلس الشريف الحسيني يوماً لأداء شهادة، فوجد بين يديه جماعة من الغُزَاة يؤدون شهادة أيضاً، فسمع القاضي منهم وقال: هل ثم من يَعْرِفُكُم؟ فقالوا: نعم يعرفنا سيدي علي الصباغ، فقال القاضي: أتعرفهم يا أبا الحسن؟ فقال: نعم يا سيدي معرفة محمد بن يزيد! فما أنكر عليه شيئاً، بل قال لهم: عرف الفقيه أبو الحسن ما عنده، فانظروا من يعرف معه رسم حالكم فانصرفوا راضين، ولم يرتهن والدي في شيء من حالهم، ولا كشف القاضي لهم ستر القضية. قال محمد بن الصباغ: أما قول والدي معرفة محمد بن يزيد فإشارة إلى قول الشاعر:

أُسائِلُ عَنْ ثمالةَ كُلَّ حَيٍّ ... فَكُلُّهُمُ يَقُولُ وَمَا ثُمَالَهْ

فَقُلْتُ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ مِنهمْ ... فَقَالُوا الآنَ زِدْتَ بِهِمْ جَهَالَهْ

قال: ففطن القاضي - رحمه الله تعالى - لجودة ذكائه إلى أنه يرتهن في شيء من معرفتهم ممتنعاً من إظهار ذلك بلفظه الصريح، فكنّى واكتفى بذكاء القاضي الصحيح، رحمه الله تعالى!

* كان خالد بن صفوان الأهتميّ عند أبي العباس السفاح أمير المؤمنين، وكان من سُمّارِه وأهل المنزلة عنده، ففخَر عليه ناسٌ من بلحارث بن كعب، وأكثروا في القول، فقال أبو العباس: لِمَ لا تتكلَّم يا خالد؟ فقال: أخوال أمير المؤمنين وأهلُه! قال: فأنتم أعمامُ أمير المؤمنين وعصَبَتُه فقُلْ، قال خالد: وما عسى أن أقول لقوم كانوا بين ناسِجِ بُردٍ، ودابغِ جِلدٍ، وسائس قرد، وراكب عَرْدٍ - العرد: الحمار - دل عليهم هُدهدٌ، وغرَّقتهم فأرة، وملَّكتهم امرأة! ويعلق الجاحظ على هذا الموقف فيقول: فلئن كان خالدٌ قد فكَّر وتدبّر هذا الكلام إنه للرَّاويةُ الحافظ، والمؤلِّف المُجيد، ولئن كان هذا شيئاً حضَرَه حين حُرِّك وبُسِط فما لَهُ نظيرٌ في الدنيا. فتأمّل هذا الكلام فإنك ستجده مليحاً مقبولاً، وعظيم القَدْر جليلاً. ولو خَطب اليمانيُّ بلسان سحبان وائل حَوْلاً كَرِيتا - تاماً - ثمَّ صُكّ بهذه الفقرة ما قامت له قائمة!

الخمار الأسود

* قدم بعض التجار مدينة رسول الله ﷺ، ومعه حمل من الخُمُر السود، فلم يجد لها طالباً، فكسدت عليه وضاق صدره، فقيل له: ما يُنفِّقُها لك إلا مسكين الدارمي، وهو من مجيدي الشعراء الموصوفين بالظرف والخلاعة، فقصدهُ فوجده قد تزهد وانقطع في المسجد! فأتاه وقص عليه القصة، فقال: وكيف أعمل وأنا قد تركت الشعر وعكفت على هذه الحال؟ فقال له التاجر: أنا رجل غريب، وليس لي بضاعة سوى هذا الحمل، وتضرع إليه، فخرج من المسجد وأعاد لباسه الأول وعمل هذين البيتين وشهرهما وهما:

قل للمليحة في الخمار الأسود ... ماذا أردْتِ بناسكٍ متعبد
قد كان شمَّر للصلاة ثيابَهُ ... حتى قعدتِ له بباب المسجد

فشاع بين الناس أن مسكيناً الدارمي قد رجع إلى ما كان عليه، وأحبَّ واحدة ذات خمار أسود، فلم يبق بالمدينة ظريفة إلا وطلبت خماراً أسود، فباع التاجر الحمل الذي كان معه بأضعاف ثمنه، لكثرة رغباتهم فيه، فلما فرغ منه عاد مسكين إلى تعبده وانقطاعه!

تأملات

لي في محبتكم شهودٌ أربعٌ وشهود كل قضيةٍ اثنان
خفقانُ قلبي واضطرابُ جوانحي ونُحولُ جسمي وانعقاد لساني!

* الزوج لزوجته: خطيب ابنتك الذي كان يقول إن كل الناس تصفق له.. اتضح أنه «جرسون» بمقهى!

* الزواج هو الشفاء لكل أمراض المراهقة.

لكل شيء إذا ما تمّ نقصانُ فلا يُغرّ بطيب العيش إنسانُ
هي الأمور كما شاهدتها دولٌ من سرّه زمنٌ ساءته أزمانُ

* تغرّب عن الأوطان في طلب العلى وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
تفرُّج همّ واكتساب معيشةٍ وعلم وآداب وصحبة ماجد
فإن قيل في الأسفار ذلٌّ ومحنة وقطع الفيافي وارتكاب الشدائد
فموت الفتى خير له من حياته بدار هوان بين واشٍ وحاسد

إجابات ذكية

* قد يُحْسنُ الإنسانُ الجوابَ عن سؤال، أو يتطلف في الاعتذار عمّا بَدَر منه، فيكون ذلك سبباً في النجاة أو الحصول على صلة وجائزة، والعقل والذكاء يولدان بديع الجواب فيَصِلُ الإنسان إلى مقصوده ومرامه.

* قال ابن أبي مُليْكة: ما رأيتُ مثل ابن عباس! إذا رأيْتُه رأيْتُ أصحّ الناس، وإذا تكلّم فأعْربُ الناس - أفصحهم - وإذا أفتى فأفقه الناس، ما رأيت أكثر صواباً، ولا أحضر جواباً من ابن عباس!

* وما أكثر الحيل العقلية التي استعملت، والأجوبة الحسنة التي نظمت وأُعدّت فكان من نتائجها فوز ونجاة، وربما صلة وجائزة!

* لمّا أُتي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالهرمزان أسيراً دعاه إلى الإسلام، فأبى عليه، فأمر بقتله، فلمّا عُرض عليه السيف، قال: لو أمرت لي يا أمير المؤمنين بشربة من ماء فهو خيرٌ من قتلي على الظمأ! فأمر له بها، فلمّا صار الإناء بيده قال: أنا آمِنٌ حتى أشرب؟ قال: نعم. فألقى الإناء من يده، وقال: الوفاء - يا أمير المؤمنين - نُور أبلج! قال: لك التوقّف حتى أنظر في أمرك، ارفعا عنه السيف! فلما رُفع عنه قال: الآن أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، فقال له عمر: ويحك!.. أسلمْتَ خير إسلام، فما أخّرك؟ قال: خشيت يا أمير المؤمنين أن يقال: إن إسلامي إنما كان جزعاً من الموت، فقال عمر: إن لِفَارِسَ حُلُوماً بها استحقت ما كانت فيه من المُلك! وكان عمر بعد ذلك يشاور الهُرمزان في إخراج الجيوش إلى أرض فارس ويعمل برأيه!

* ورأى زياد على مائدته رجلاً قبيح الوجه كثير الأكل! فقال له: كم عيالك؟ قال: تسع بنات! قال: فأين هنّ منك؟ قال: أنا أجملُ منهنّ، وهنّ آكلُ منّي، قال: ما أحْسَنَ ما تلطّف به من السؤال؟! وفرض له وأعطاه!

* وقد يكون الجواب كلمة جريئة ونصيحة صادقة، لكنها تقع في نفس سامعها موقعاً

حسناً فيرتاح لها، ويعفو عن قائلها بعدما كَادَ أن يهلك، أُتي الحجاج بحرورية فقال لأصحابه: ما تقولون في هذه؟ قالوا: اقتلها! أصلح الله الأمير ونكّل بها غيرها! فتبسمت الحرورية! فقال لها: لِمَ تبسمت؟ قالت: لقد كان وزراء أخيك فرعون خيراً من وزرائك يا حجاج! استشارهم في قتل موسىٰ فقالوا ﴿أَرْجِه وأخاه﴾ (الشعراء: ٣٦) وهؤلاء يأمرونك بتعجيل قتلي! فضحك الحجاج وأمر بإطلاقها.

* ودخل رجل علىٰ عبدالملك بن مروان ـ وكان من أعدائه ـ فقال له عبدالملك: أليس الله قد ردّك علىٰ عقبيك؟ قال: ومن رُدّ إليك يا أمير المؤمنين، فقد رُدَّ علىٰ عَقبيه؟ فسكت عبدالملك وعلم أنها خطأ.

* وقد يكون التذكير بمعروف قديم أو يد بيضاء سابقة سبباً في النجاة. لّما جلس الحجاج لقتل بعض الأسرىٰ قام رجل منهم فقال: أصلح الله الأمير، إنّ لي عليك حقاً! قال: وما حقك؟ قال: سبّك عبدالرحمن بن الأشعث يوماً فرددْتُ عليه! قال الحجاج: مَنْ يشهد لك بذلك؟ فقام رجل من الأسرىٰ وقال: قد كان ذلك أيها الأمير، فقال: خلّوا عنه. ثم قال للشاهد: ما منعك أنْ تردّ علىٰ ابن الأشعث كما ردّ صاحبك؟ فقال: لقديم بُغْضي إياك! فقال الحجاج: خلّوا عن هذا لصدقه!

* وأُتي يوماً بأسرىٰ فأمر بقتلهم، فقال رجل منهم: لا جزاك الله يا حجاج عن السّنة خيراً، فإن الله يقول: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ (محمد: ٤) فهذا قول الله في كتابه، وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق:

وما نَقتلُ الأسرىٰ ولكن نَفُكُّهم ... إذا أثْقَلَ الأعناق حَمْلُ القَلائدِ

فقال الحجاج: ويحكم، أعْجزتم أن تُخْبروني بما أخبرني هذا المنافق! وأمسك عمن بقي.

* وقال له أسيرٌ يوماً: يا حجاج، لئن أسأنا في الذنْب فما أحْسنت في العقوبة! فقال: أفّ لهذه الجِيَف! ما كان فيهم من يحسن هذا؟ وأمر بتخلية سبيل من بقي!

* وما أحسن حيلة ذاك الشاب الأسير الذي عرف كيف يدخل إلى قلب الكريم معن بن زائدة، فحينما أمر معنٌ بقتل جماعة من الأسرى، قام إليه أصغر القوم فقال له: يا معن أتقتل الأسرى عطاشاً؟! فأمر لهم بالماء! فلما سقوا قال: يا معن أتقتل أضيافك؟ فأمر بطلاقهم!

ذل الحاجة والسؤال

* من أراد حاجة فليقصد من يتوسّم فيه الخير، وفي الأثر «اطلبوا الخير من حِسان الوجوه» وقيل: اعتمد لحِوَائجك الصِّباحَ الوجوه، فإنّ حسنَ الصورة أوّل نعمة تتلقاك من الرجل! ذلك أن الردّ صعب على النفوس.

* ومن سأل حاجة فقد عَرَض نفسه على الرقّ، فإن قضاها المسؤول استعْبده بها وإن ردّه عنها رجع حرّاً، وهما ذليلان، هذا بذُلّ البخل، وهذا بذلّ الردّ! وقيل: الجُرْح الذي لا يندمل: حاجة الكريم إلى اللئيم ثم يردّه! والذلّ: وقوف الشريف بباب الدنيء ثم لا يُؤذن له!

رجع بخفي حنين

* والعرب تقول لمن رجع خائباً ولم يظفر بحاجته: جاء بخُفّيْ حُنَيْن! والأصل في هذا المثل أنّ إسكافاً من أهل الحيرة يُسمى حُنيناً، ساومه أعرابي بخفّين، فاختلفا حتى أغضبه، فازداد غيظ الأعرابي، فلمّا ارتحل أخذ حُنين أحَدَ خُفّيه فألقاه على طريق الأعرابي، ثم ألقى الآخر في موضع ثان بعيد عنه، فلمّا مرّ الأعرابي بأحدهما قال: ما أشبه هذا بخفّ حنين!، ولو كان معه الآخر لأخذته، ومضى، فلمّا انتهى إلى الآخر ندم على تركه الأول، وأناخ راحلته، فأخذه ورجع إلى الأول، وقد كَمَنَ له حنين فعمد إلى راحلته وما عليها فذهب به، وأقبل الأعرابي ليس معه غيرُ الخفّيْن! فقال له قومه: ما الذي أتيْتَ به؟ قال: بخفّيْ حنين! فذهبت مثلاً!

* أتى الأحنفُ بن قيس مصعبَ بن الزبير فكلّمه في قوم حبسهم، فقال: أصلح الله

الأمير إن كانوا حبسوا في باطل فالحق يُخْرِجهم، وإن كانوا حبسوا في حقّ فالعفو يَسَعُهم، فخلاّهم!

* ومرّت أمَة بسعيد بن المسيب، وقد أُقيم ليضرب فقالت: يا شيخ لقد أُقِمْتَ مقام الخزي! فقال: بل من مقام الخزي فَرَرْتُ!

* وقال عبدالله بن مروان لثابت بن عبدالله بن هلال: إنك أشبه الناس بإبليس! قال: وما تُنْكِرُ أن يكون سيّدُ الإنس يُشْبه سيّد الجنّ!؟

* وقال الفرزدق للحسن: يا أبا سعيد إني قد هجوْتُ إبليس، أفتسمع؟ فقال له الحسن: اسكتْ فإنك على لسانه تنطق!

* سأل رجل من الشعراء رجلاً من المتكلمين بين يدي المأمون، فقال: ما سِنّك؟ قال: عَظْم! قال: لَمْ أُرِدْ هذا! ولكن كَمْ تعُدُّ؟ قال: من واحد إلى ألف ألف وأزيد، قال: لم أرد هذا، ولكن كم أتى عليك؟ قال: لو أتى عليّ شيء لأهلكني! فضحك المأمون، فقيل له: كيف السؤال عن هذا؟ فقال: أن تقول: كم مضى من عمرك؟!

* وقال حمزة للكسائي: أتَهْمز الذّيب؟ قال: لو هَمَزْتُه أكلني!

* وقال معاوية يوماً: أيها الناس، إنّ الله فضّل قريشاً بثلاث، فقال لنبيّه عليه الصلاة والسلام: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ (الشعراء: ٢١٤) فنحن عشيرته، وقال: ﴿**وإنه لذِكْرٌ لك ولقومك**﴾ (الزخرف: ٤٤) ونحن قومُه، وقال: ﴿**لإيلاف قريش... الآية**﴾ ونحن قريش! فأجابه رجل من الأنصار فقال: على رِسْلك يا معاوية، فإنّ الله يقول: ﴿**وكذّب به قومك**﴾ (الأنعام: ٦٦) وأنتم قومه! وقال: ﴿ **وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ** ﴿٥٧﴾ ﴾ (الزخرف) وأنتم قومه. وقال على لسان رسوله ﷺ: ﴿ **يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً** ﴿٣٠﴾ ﴾ (الفرقان) وأنتم قومه! ثلاثة بثلاثة، ولو زدتنا لزدناك، فأفحمه!

* وقال معاوية لرجل من اليمن: ما كان أجهلَ قومَك حين ملّكُوا عليهم امرأة؟! فقال: أجْهلُ من قومي قومُك الذين قالوا حين دعاهم رسول الله ﷺ: ﴿**اللَّهُمَّ إن كَانَ هَذَا**

هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ (الأنفال) ولم يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه!

المعتصم.. والخارجي

* وروى أحمد بن أبي دؤاد القاضي قال: ما رأيت رجلاً عُرض على الموت فلم يَكْترث به إلا تميم بن جميل الخارجي، كان قد خرج على المعتصم، ورأيته قد جيء به أسيراً، فأُدخل عليه في يوم موكب، وقد جلس المعتصم للناس مجلساً عاماً ودعا بالسيف والنطع، فلما مُثل بين يديه، نظر إليه المعتصم فأعجبه شكلُه وقدُّه، ورآه يمشي إلى الموت غير مكترث به، فأطال الفكرة فيه، ثم استنطقه لينظر في عقله وبلاغته فقال: يا تميم! إن كان لك عذر فأت به! فقال: أما إذا أذن أمير المؤمنين، جبر الله به صدع الدين، ولمَّ شعث المسلمين، وأخمد شهاب الباطل، وأنار سبيل الحق، فالذنوب يا أمير المؤمنين تُخْرس الألسن، وتصدع الأفئدة، وأيم الله لقد عظمت الجريرة، وانقطعت الحجة، وساء الظن، ولم يبق إلا العفو، وهو الأليق بشيمتك الطاهرة، ثم أنشد:

أرى الموتَ بين السيف والنّطع كامناً ... يراقبُني من حيثُ لا أتلفّتُ
وأكثرُ ظني أنك اليومَ قاتِلي ... وأيُّ امرئٍ مّما قضى الله يُفلتُ
ومن ذا الذي يأتي بعذرٍ وحُجّةٍ ... وسيفُ المنايا بين عينيه مُصْلَتُ؟
وما جَزَعي مِنْ أنْ أموت وإنني ... لأعلمُ أنّ الموت شيءٌ مؤقّتُ
ولكنّ خَلْفي صبيةً قد تركتُهم ... وأكبادُهم من حسرةٍ تتفتّتُ
كأني أراهم حين أُنعى إليهمُ ... وقد لطموا تلك الخدود وصوّتوا
فإن عشتُ عاشوا سالمين بغبطةٍ ... أذودُ الردى عنهم وإنْ متُّ مُوِّتوا
وكم قائلٍ لا يبعد الله دارَه ... وآخر جذلان يسرّ ويشمتُ

فبكى المعتصم وقال: إن من البيان لسحراً! ثم قال: كاد والله يا تميم أن يسبق السيفُ العذلَ، وقد وهبتك لله ولصبيتك، وأعطاه خمسين ألف درهم.

بين إنّ ... وإنَا

* وروي أن القاضي الفاضل كان له صديق، وكان صديقه هذا قريباً من الملك الناصر صلاح الدين، وكان فيه فضيلة تامة، فوقع بينه وبين الملك أمر فغضب عليه وهمّ بقتله، فتسحّب إلى بلاد التتر، وتوصل إلى أن صار وزيراً عندهم، وصار يُعرّف التتر كيف يُتوصّل إلى الملك الناصر بما يؤذيه، فلما بلغه ذلك نفر منه، وقال للفاضل: اكتب إليه كتاباً عَرّفه فيه أنني أرضى عليه، واستعطفه غاية الاستعطاف، إلى أن يحضر فإذا حضر قتلته واسترحتُ منه! فتحيّر الفاضل بين الاثنين، صديقه يعزّ عليه، والملك لا يمكنه مخالفته، فكتب إليه كتاباً واستعطفه غاية الاستعطاف ووعده بكل خير من الملك، فلما انتهى الكتاب ختمه بالحمدلة والصلاة والسلام على النبي ﷺ، وكتب: إن شاء الله تعالى، كما جرت به العادة في الكتب، فشدد «إنّ» ثم أَطْلع الملك على الكتاب قبل ختمه فقرأه في غاية الكمال، وما فهم «إنّ»، وكان قصْدُ الفاضل ﴿**إنَ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك**﴾ فلما وصل الكتاب إلى الرجل فهمه، وكتب جوابه بأنه سيحضر عاجلاً، فلما أراد أن ينهي الكتاب ويكتب إنْ شاء الله تعالى مدّ النون وجعل في آخرها ألفاً، وأراد بذلك ﴿**إنَا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها**﴾! فلما وصل الكتاب إلى الفاضل فهم الإشارة ثم أوقف الملك على الجواب بخطه ففرح بذلك!

الأدب مع رسول الله ﷺ

* كان الشيخ محمد بن يوسف الكافي - وهو تونسي المولد، دمشقي الموطن والقرار - ينكر على أرباب الطرق من الجهلة، حتى إنه كان في تونس في يوم يجتمع فيه أهل الطرق بمناسبة لهم، يُنشدون الأناشيد في مدح الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام بألحان أهل الغناء الممطوطة، التي تُحرِّفُ الكلِمَ عن مواضعه، وتُقطِّعُه وتَصِلُه، وقد يخرج الكلامُ بهذا اللحن عن معناه، فلما مروا به خرج عليهم بتلاميذه، ومعهم عِصِيُّ الخَيزُران، ففرَّق جمعهم، وأفسد نظام سيرهم، فأخذته الشرطة إلى والي البلد، فلما دخل عليه قال له، بمثل النغمة التي كانوا يُنشدون بها: السلامُ على، على، عليكم، عليكم، كم، كم، ما

اح، ما اح، ما أحلىٰ عيونَك، وما أبهىٰ جبينك يا سيدَ المِلاح، لاح!! فغضِبَ الوالي فقال: ما هذا هل أنت مجنون؟ أهكذا يُخاطَبُ الولاة؟ قال: هل الوالي أعظمُ من رسول الله؟ قال الوالي: معاذ الله، وأين أنا من رسول الله ﷺ؟ قال: إذا غضِبتَ لأني سلَّمتُ عليك بهذا النَّغَم، وتغزَّلتُ فيك هذا الغَزَل، فكيف تدَعُهُم يُوجِّهون هذا إلىٰ مَقامِ سيد البشر وخاتم الأنبياء ﷺ؟ قال الوالي: الحقُّ معك!

إذا جاء القدر.. عمي البصر

* جاء في الكامل وشعب الإيمان للبيهقي، أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس رضي الله عنهما فقال: سليمان عليه السلام مع ما خوّله الله من الملك وأعطاه، كيف عني بالهدهد مع صغره؟ فقال له ابن عباس رضي الله عنهما إنه احتاج إلىٰ الماء، والهدهد كانت الأرض له كالزجاج! فقال ابن الأزرق لابن عباس: كيف يبصر الماء من تحت الأرض ولا يرىٰ الفخ إذا غطي له بقدر أصبع من تراب؟! فقال ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما: إذا نزل القضاء عمي البصر! وأنشدوا في ذلك لأبي عمر الزاهد:

إذا أراد الله أمراً بامرئ ... وكان ذا عقل ورأي وبصر
وحيلة يفعلها في دفع ما ... يأتي به محتوم أسباب القدر
غطىٰ عليه سمعه وعقله ... وسلّه من ذهنه سلّ الشعر
حتىٰ إذا أنفذ فيه حكمه ... ردّ عليه عقله ليعتبر!!

* ونافع بن الأزرق هو رأس فرقة من الخوارج يقال لها: الأزارقة، كفّروا علي بن أبي طالب رضي الله عنه لَمّا قَبِل التحكيم، وهو قبل التحكيم عندهم إمام عدل، ويكفّرون الحكمين أبا موسىٰ وعمرواً!

حوار انتهى بالزواج

* وحكي عن أبي عبدالله النميري أنه قال: كنت يوماً مع المأمون وكان بالكوفة، فركب للصيد ومعه سريّة من العسكر، فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة، فأطلق عنان

جواده وكان على سابق من الخيل، فأشرف على نهر ماء من الفرات، فإذا هو بجارية عربية كأنها القمر ليلة تمامه، وبيدها قِرْبة قد ملأتها ماء وحملتها على كتفها وصعدت من حافة النهر، فانحل وكاؤها فصاحت برفيع صوتها: يا أبت أدركْ فاها، قد غلبني فوها، لا طاقة لي بفيها! قال: فعجب المأمون من فصاحتها، ورمت الجارية القربة من يدها. فقال لها المأمون: يا جارية من أيّ العرب أنت؟ قالت أنا من بني كلاب. قال: وما الذي حملك أن تكوني من الكلاب؟! فقالت: والله لست من الكلاب، وإنما أنا من قوم كرام غير لئام، يُقْرون الضيف، ويضربون بالسيف؟ ثم قالت: يا فتى من أي الناس أنت؟ فقال: أو عندك علم بالأنساب؟ قالت: نعم، قال لها: أنا من مضر الحمراء، قالت: من أي مضر؟ قال: من أكرمها نسباً، وأعظمها حسباً، وخيرها أماً وأباً، ممن تهابه مضر كلها. قالت: أظنك من كنانة؟ قال: أنا من كنانة، قالت: فمن أي كنانة؟ قال: من أكرمها مولداً وأشرفها محتداً، وأطولها في المكرمات يداً، ممن تهابه كنانة وتخافه، فقالت: إذن أنت من قريش. قال: أنا من قريش، قالت: من أي قريش؟ قال: من أجملها ذكراً وأعظمها فخراً، ممن تهابه قريش كلها وتخشاه، قالت: أنت والله من بني هاشم! قال: أنا من بني هاشم. قالت: من أي هاشم؟ قال: من أعلاها منزلة، وأشرفها قبيلة، ممن تهابه هاشم وتخافه، قال: فعند ذلك قبّلت الأرض وقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين، وخليفة رب العالمين! قال: فعجب المأمون وطرب طرباً عظيماً، وقال: والله لأتزوجن بهذه الجارية لأنها من أكبر الغنائم، ووقف حتى تلاقته العساكر فنزل هناك وأنفذ خلف أبيها وخطبها منه فزوّجه بها، وأخذها وعاد مسروراً، وهي والدة ولده العباس!

الفارابي

* لما ورد أبو نصر الفارابي على سيف الدولة وكان مجلسه مجمع الفضلاء في جميع المعارف، وكان سلطان الشام يومئذ، فدخل عليه وهو بزيّ الأتراك، وكان ذلك زيّه دائماً، فقال له سيف الدولة: اقعد، فقال: حيث أنا، أم حيث أنت؟ ثم تخطى رقاب الناس حتّى انتهى إلى مسند سيف الدولة وزاحمه فيه، حتّى أخرجه عنه! وكان على رأس

سيف الدولة مماليك، وله معهم لسان خاص يسارّهم به، قلّ أن يعرفه أحد، فقال لهم بذلك اللسان: إنّ هذا الشيخ قد أساء الأدب، وإني مُسائله عن أشياء إن لم يعرفها فاخرقوا به! فقال له أبو نصر بذلك اللسان: أيها الأمير، اصبر فإن الأمور بعواقبها! فعجب سيف الدولة منه، وقال له: أتحسن هذا اللسان؟ قال: نعم، أُحسن أكثر من سبعين لساناً! فعظم عنده، ثم أخذ يتكلم مع العلماء الحاضرين في المجلس في كل فن، فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل، حتّى صمت الكُلُّ، وبقي يتكلم وحده، ثم أخذوا يكتبون ما يقوله، فصرفهم سيف الدولة وخلا به! فقال له: هل لك في أن تأكل شيئاً؟ قال: لا، قال: فهل تشرب؟ قال: لا، قال: فهل تسمع؟ فقال: نعم، فأمر سيف الدولة بإحضار القيان، فحضر كل ماهر في هذا الفن بأنواع الملاهي، فلم يحرّك أحد منهم آلة إلا وعابه أبو نصر، وقال: أخطأت، فقال سيف الدولة: وهل تحسن في هذه الصناعة شيئاً؟ قال: نعم، ثم أخرج من وسطه خريطة، ففتحها وأخرج منها عيداناً فركبها، ثم لعب بها فضحك منها كل من في المجلس! ثم فكّها وغيّر تركيبها وركّبها تركيباً آخر وضرب بها، فبكى كلُّ من في المجلس، ثم فكّها وغيّر تركيبها وحرّكها، فنام كلُّ من في المجلس، حتى البواب، فتركهم نياماً وخرج!! ويُحكى أن الآلة المسمّاة بالقانون مِنْ وضعه، وهو أول من ركّبها هذا التركيب. والفارابي هو أكبر فلاسفة المسلمين، لم يكن فيهم من بلغ رتبته، وأصله تركي. وسئل من أعلم أنت أو أرسطاطاليس؟ فقال: لو أدركته لكنت أكبر تلامذته! وكان متهماً في دينه، قال بعض الفقهاء: هؤلاء الثلاثة متّهمون في دينهم، يعني الفارابي، والكندي، وابن سينا، فلا تغتر بالسكوت عنهم! وقال الإمام الغزالي في كتابه «المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال»: لا نشك في كفرهما، أي الفارابي وابن سينا! والله أعلم بحقيقة الحال.

أسلوب التعريض والتورية والكناية

* من عادة العرب، التعفّف عن ذكر الكلام القبيح، ويستعملون الكنايات في كل أمر يُسْتحىٰ من ذكره، أو يقبح لفظه، وهذا أدب رفيع ومروءة عالية، وخلق نبيل أقرّه الإسلام وحض عليه، وقد استعمل القرآن الكريم الكناية عن كثير من الأمور، فكنّىٰ عن الجماع بالملامسة، وعن الحدث بالغائط، «والغائط: المطمئن من الأرض» إلىٰ غير ذلك من الألفاظ التي تعبّر عن لفظ يُسْتهجن ذِكْرُه.

* وللعرب حكايات كثيره في استعمال الكنايات واستخدام أسلوب التورية قال ابن قُتيبة للشعبي: ما تشتهي؟ قال، أعزّ مفقود، وأهون موجود! فقال: يا غلام اسقِه ماء!

* ومن لطيف التورية وجيدها ما روي أنّ رجلاً من أشراف البصرة دخل علىٰ زياد فقال له زياد: أين مسكنك من البصرة؟ قال: في وسطها. قال له: كم لك من الولد؟ قال: تسعة. فلما خرج من عنده قيل له: إنه ليس كذلك في كل ما سألْتَهُ، وليس له من الولد إلا واحد، وهو ساكن في طرف البصرة، فلما عاد إليه سأله زياد عن ذلك فقال له: ما كذبْتُك، لي تسعة من الولد، قدّمتُ منهم ثمانية فهم لي، وبقي معي واحد، فلا أدري أيكون لي أم عليّ! ومنزلي بين المدينة والجبَّانة ـ المقبرة ـ فأنا بين الأحياء والأموات فمنزلي في وسط البصرة! قال: صدقت.

* وقد تكون الكناية والتورية واستعمال التشبيه سبيلاً للوصول إلىٰ المراد والنجاة من المهلك، أخذ العسس رجلين وكانا ثَمِلين من الشُّرْب فقالا لهما: من أنتما؟ فقال أحدهما:

أنا ابنُ الذي لا ينزلُ الدّهرَ قِدْرُه ... وإن نزلت يوماً فسوف تعودُ
ترىٰ الناس أفواجاً إلىٰ ضَوْءِ ناره ... فمنهم قيامٌ حولها وقُعودُ

وقال الآخر:

أنا ابنُ من تَخْضَعُ الرّقابُ له ... ما بين مَخْزُومِها وهاشِمِها

تــأتــيـــه بــالـــذّلِ وهـــي صــاغـــرةٌ   يَــأخـذُ مِــنْ مــالــهــا ومـــن دَمِـــهــا

فظنوهما من أولاد الأكابر والأشراف، فخَلُّوا سبيلهما، فلما أصبحوا سألوا عنهما، فإذا الأول ابن طباخ، والثاني ابن حجّام!

* وروي أن امرأة مدحت الحجاج فقال: يا غلام اذهب إلىٰ فلان فقل له يقطع لسانها قال، فطلب حجّاماً! فقالت: ثكلتك أمك، إنما أمرك أن تقطع لساني بالصلة والجائزة!

* وقال المغيرة بن شعبة: ما خدعني أحدٌ قط غير غلام، فإني ذكرت امرأة من قومه، فقال: أيها الأمير لا خير لك فيها! إني رأيت رجلاً قد خلا بها يُقبّلها! ثم بلغني بعدُ أنه تزوّجها، فأرسلت إليه، فقلت: ألم تُعلمني أنك رأيت رجلاً يقبّلها؟ فقال: بلىٰ! رأيت أباها يقبّلها!

التورية

* ومن جيّد التورية وغريبها: ما أجاب به أبو بكر الصديق رضي الله عنه، حينما سألوه يوم الهجرة عن رسول الله ﷺ وكانوا لايعرفونه، فقال لهم: هذا الرجل يَهْديني السبيل! فحسب السامع أنه يهديه الطريق، وإنما أراد سبيل الخير!

* وجاءت امرأة إلىٰ عمر رضي الله عنه فقالت: إنّ زوجي يصوم النهار ويقوم الليل! فقال لها: نعم الرجل زوجك! وكان كعب بن سُوْر في المجلس فقال: يا أمير المؤمنين، لقد أبلغت إليك في الشكوىٰ! فإنها تشكوه في هجرها في الفراش، فقال له: كما فهمْتَ كلامها، فاحكم بينهما. فقال كعب: عليّ بزوجها، فأحضر، فقال له: إن هذه المرأة تشكوك! قال: أفي أمر طعام أم شراب؟ قال: بل في أَمْر مباعدتك إيّاها عن فراشك! ثم قال: إن الله أحلّ لك من النساء أربعاً فلك ثلاثة أيام ولها يوم! فقال عمر: لا أدري من أيّكم أعجب! أمن كلامها أم من حكمك بينهما؟! اذهب فقد ولّيتُك البصرة!

* وقد يستعمل العرب الكناية والتعريض علىٰ طريق الدعابة وتنشيط الذهن. سُئل ابن سيرين عن رجل فقال: تُوفّي البارحة! فلمّا رأىٰ جزَع السائل قال ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ (الزمر: ٤٢) وإنما أردت بالوفاة النوم!

ذكاء امرأة

* دخلت امرأة على هارون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه فقالت: يا أمير المؤمنين، أقرّ الله عينك، وفرّحك بما آتاك، وأتمّ سَعْدك! لقد حكمت فقسطت! فقال لها: من تكونين أيتها المرأة؟ قالت: من آل بَرْمَكَ، ممن قتلت رجالهم وأخذت أموالهم، وسلبْت نوالهم! فقال: أمّا الرجال فقد مضى فيهم أمر الله ونفذ فيهم قدره، وأما المال فمردود إليك، ثم التفت إلى الحاضرين فقال: أتدرون ما قالت هذه المرأة؟ فقالوا: ما نراها قالت إلا خيراً. قال: ما أظنكم فهمتُم ذلك، أما قولها: أقرّ الله عينك، أي أسّكنها عن الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت! وأمّا قولها: وفرّحك بما آتاك، فأخذته من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ (الأنعام: ٤٤) وأما قولها: وأتمّ الله سعدك، فأخذته من قول الشاعر:

إذا تمّ أمْرٌ بَدَا نقْصُهُ ... ترقّبْ زوالاً إذا قيل تَمْ

وأما قولها: لقد حكمت فقسطت، فأخذته من قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ (الجن) فتعجب الحاضرون من ذكائه وذكائها!

* وقالوا: إذا رأيت الرجل يخرج بالغداة ويقول لشيء ﴿ما عند الله خير وأبقى﴾ فاعلم أن في جواره وليمة ولم يُدْعَ إليها، وإذا رأيت قوماً يخرجون من عند قاضٍ وهم يقولون ﴿ما شهدنا إلا بما علمنا﴾ فاعلم أن شهادتهم لم تُقْبل، وإذا قيل للمتزوج صبيحة البناء على أهله: كيف ما تقدّمت عليه؟ فقال: الصلاح خير من كل شيء! فاعلم أن امرأته قبيحة! وإذا رأيت إنساناً يمشي ويلتفت، فاعلم أنه يريد أن يُحْدِث! وإذا رأيت فقيراً يعدو ويهرول، فاعلم أنه في حاجة غني! وإذا رأيت رجلاً خارجاً من عند الوالي وهو يقول: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ فاعلم أنه صُفع!!

سأترك ماءَكم من غير وِردِ ... وذاك لكثْرةِ الوُرَّاد فيه

إذا سقط الذبابُ على طعامٍ ... رفعتُ يدي ونفسي تشتهيه

وتجتنب الأُسُودُ وُرودَ ماءٍ إذا كان الكلابُ ولَغْنَ فيهِ
ويرتجع الكريم خميصَ بطنٍ ولا يرضى مساهمةَ السفيهِ

امرأة تخدع أبا حنيفة

* ابتلي رجل بمحبة امرأة، فأتى أبا حنيفة فأخبره أنّ ماله قليل، وأنّ أهلها إذا علموا بذلك لم يزوجوه، فقال له أبو حنيفة: أتبيعني إحليلك ـ ذكرك ـ باثني عشر ألف درهم؟ قال: لا، قال: فأَخْبر القوم أني أعرفك! فمضى فخطبها فقالوا: من يعرفك؟ فقال: أبو حنيفة، فسألوا أبا حنيفة عنه فقال: ما أعرفه إلا أنه حضر عندي يوماً فسُووم في سلعة له باثني عشر ألف درهم فلم يبع! فقالوا: هذا يدل على أنه ذو مال، فزَوّجوه! فلما تيقنت المرأة حاله قالت: لا يضيق صدرك، وهذا مالي بحكمك! ثم مضت إلى أبي حنيفة في حُلِيّها وحُلَلَها، فقالت: فتوى، فدخلت فأسفرت عن وجهها فقال: تستّري! فقالت: ما يمكن، قد وقعت في أمر لا يخلصني منه إلا أنت! أنا بنت هذا البقال الذي على رأس الدرب، وقد بلغت عمراً واحتجت إلى الزوج وهو لا يُزّوجني، ويقول لمن يخطبني ابنتي عوراء قرعاء شلاء، ثم حسرت عن وجهها ورأسها ويديها! ويقول: بنتي زَمِنة، وكشفت عن ساقيها، وأريد أن تدبرني! فقال: ترضين أن تكوني لي زوجة! فقبّلت قدميه وقالت: مَنْ لي بغلامك! فقال: امضي في دَعَة الله، فخرجت، فأحضر البقال ودفع إليه خمسين ديناراً وقال: زوجني ابنتك، فكتب كتاباً بمائة دينار، فقال البقال: يا سيدي استر ما ستر الله، أنا لي بنت أزوجك؟ قال: دع هذا عنك، رضيت بابنتك القرعاء الشلاء الزمنة! فزوجه على المائة والخمسين ومضى، فلما كان عشية تلك الليلة أجلسها أبوها في سرير وحملها بينه وبين غلامه، فلما رآها أبو حنيفة قال: ما هذا؟ فقال البقال: أشهد على طلاق أمها إن كانت لي بنت غيرها! فقال أبو حنيفة: هي طالق ثلاثاً! أعد عليّ الكتاب، وأنت في حِلٍّ من الخمسين! وبقي أبو حنيفة متفكراً شهراً! ثم جاءت تلك المرأة إليه فقال: ما حملك على ما فعلتِ؟ فقالت: وأنت ما حملك على أن غرّرْتنا برجل فقير؟!

* رووا أن رجلاً قال لأبي حنيفة: ما تقول في رجل قال: إني لا أرجو الجنة، ولا

أخاف النار، وآكل الميتة والدم، وأصدّق اليهود والنصارىٰ، وأبغض الحق، وأهرب من رحمة الله، وأشرب الخمر، وأشهد بما لم أر، وأحب الفتنة، وأصلي بغير وضوء، وأترك الغسل من الجنابة، وأقتل الناس؟! فقال أبو حنيفة لمن حضره: ما تقول فيه؟ فقال: هذا كافر! فتبسم، وقال: هذا مؤمن، أما قوله: لا أرجو الجنة، ولا أخاف النار، فأراد: إنما أرجو وأخاف خالقهما! وأراد بأكل الميتة والدم، السمك والجراد، والكبد، والطحال! وبقوله: أصدق اليهود والنصارىٰ، قول كل منهم: إن أصحابه ليسوا علىٰ شيء، كما قال تعالىٰ حكاية عنهم ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ (البقرة: ١١٣) وبقوله: أهرب من رحمة الله، الهروب من المطر! وبقوله: أبغض الحق، يعني الموت، لأن الموت حق لابد منه! وبشرب الخمر، شربه في حال الاضطرار! وبحب الفتنة، الأموال والأولاد، علىٰ ما قال تعالىٰ: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ وبالشهادة علىٰ ما لم ير، الشهادة بالله وملائكته، وأنبيائه ورسله! وبالصلاة بغير وضوء ولا تيمم، الصلاة علىٰ النبي ﷺ. وبترك الغسل من الجنابة، إذا فقد الماء، وبالناس الذين يقتلهم، الكفار، وهم الذين سماهم الله (الناس) في قوله: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم﴾!

* وروي أن محمد بن الحسن سأل الشافعي عن خمسة زنوا بامرأة، فوجب علىٰ واحد القتل، والآخر الرجم، والثالث الحد، والرابع نصف الحد، ولم يجب علىٰ الخامس شيء! فقال الشافعي: الأول ذمي زنىٰ بمسلمة، فانتقض عهده فيقتل! والثاني زان محصن، والثالث بكر حر، والرابع عبد، والخامس مجنون!

* روىٰ البيهقي في الشعب عن مالك بن دينار قال: مثل قراء هذا الزمان مثل رجل نَصَبَ فخّاً فجاء عصفور فوقع في فخّه فقال: مالي أراك مغيّباً في التراب؟ قال: للتواضع قال: فمم حنيت؟ قال من طول العبادة! قال: فما هذه الحبة في فيك؟ قال: أعددتها للصائمين! فلما أمسىٰ تناول الحبة فوقع الفخ في عنقه فخنقه! فقال العصفور: إنْ كان العُبّاد يخنقون خنقك فلا خير في العُبّاد اليوم!

* قال جاشع بن يوسف: كنت بالمدينة عند مالك وهو يفتي الناس فدخل عليه محمد

بن الحسن صاحب أبي حنيفة، وهو حدث فقال: ما تقول في جنب لا يجد الماء إلا في المسجد؟ فقال مالك: لا يدخل الجنب المسجد، قال: كيف يصنع، وقد حضرت الصلاة، وهو يرىٰ الماء؟ قال: فجعل مالك يكرر: لا يدخل الجنب المسجد، فلما أكثر عليه، قال له مالك: فما تقول أنت في هذا؟ قال: يتيمم ويدخل، فيأخذ الماء من المسجد ويخرج فيغتسل فقال: من أين أنت؟ قال: من هذه، وأشار إلىٰ الأرض، فقال: ما من أهل المدينة أحد لا أعرفه! فقال: ما أكثر من لا تعرف، ثم نهض فقالوا لمالك: هذا محمد بن الحسن، صاحب أبي حنيفة! فقال مالك: محمد بن الحسن، كيف يكذب، وقد ذكر أنه من أهل المدينة؟ قالوا: إنما قال: من أهل هذه، وأشار إلىٰ الأرض! قال: هذا أشدّ علي من ذاك!

* جاء رجل إلىٰ أبي حنيفة فقال: إني شربت البارحة نبيذاً ولا أدري أطلقت امرأتي أم لا؟ قال: المرأة امرأتك حتىٰ تستيقن أنك طلقتها، ثم أتىٰ سفيان الثوري فقال: يا أبا عبدالله، إني شربت البارحة نبيذا ولا أدري طلقت امرأتي أم لا؟ قال: اذهب فراجعها فإن كنت طلقتها فقد راجعتها، وإن لم تكن طلقتها فلم تضرك المراجعة شيئاً، ثم أتىٰ شريك بن عبدالله فقال: يا أبا عبدالله إني شربت البارحة نبيذا، ولا أدري طلقت امرأتي أم لا؟ قال: اذهب فطلّقْها ثم راجعها، ثم أتىٰ زُفَر بن الهذيل، فقال: يا أبا الهذيل، إني شربت البارحة نبيذاً، ولا أدري طلقت امرأتي أم لا؟ قال: هل سألت غيري؟ قال: أبا حنيفة قال: فما قال لك؟ قال قال: المرأة امرأتك حتىٰ تستيقن أنك قد طلقتها، قال: هو الصواب، قال: فهل سألت غيره؟ قال: سفيان الثوري، قال: فما قال لك؟ قال: اذهب فراجعها فإن كنت طلقتها فقد راجعتها، وإن لم تكن طلقتها فلم تضرك المراجعة شيئاً، قال: ما أحسن ما قال لك، فهل سألت غيره؟ قال: شريك بن عبدالله، قال: فما قال لك؟ قال: اذهب فطلقها ثم راجعها، قال: فضحك زفر وقال: لأضربن لك مثلاً، رجل مر بمثعب سيل - مسيل - فأصاب ثوبه، قال لك أبو حنيفة: ثوبك طاهر وصلاتك مجزئة حتىٰ تستيقن أمر الماء، وقال لك سفيان: اغسله فإن يك نجساً فقد طهر، وإن يك طاهراً زاده نظافة، وقال لك شريك: اذهب فَبُلْ عليه ثم اغسله! قال المعافىٰ: وقد أحسن زفر في فصله بين هؤلاء الثلاثة فيما أفتوا به في هذه المسألة، وفيما ضربه لسائله من الأمثلة!

بناء بغداد

* لما أراد أبو جعفر المنصور بناء بغداد، أمر باختطاطها فرسموها له بالرماد فمشىٰ في طرقها ومسالكها فأعجبه ذلك، ثم سلّم كل ربع منها لأمير يقوم علىٰ بنائه، وأحضر من كل البلاد فعالاً وصناعاً ومهندسين، فاجتمع عنده ألوف منهم، ثم كان هو أول من وضع لبنة فيها بيده وقال: بسم الله والحمدلله، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين ثم قال: ابنوا علىٰ بركة الله! ويروىٰ أن المنصور أراد أبا حنيفة النعمان بن ثابت علىٰ القضاء بها فأبىٰ وامتنع، فحلف المنصور أن يتولىٰ له، وحلف أبو حنيفة ألا يتولىٰ له، فولاه القيام بأمر المدينة وضَرْب اللَّبِن، وأَخْذِ الرجال بالعمل! فتولّىٰ ذلك حتىٰ فرغوا من استتمام حائط المدينة مما يلي الخندق، وكان استتمامه في سنة أربع وأربعين ومائة! ويروىٰ أن أبا حنيفة رحمه الله عمل في عدّ اللبن، ليبر بذلك يمين المنصور.

أعمار الأئمة

* ولد الإمام أبو حنيفة سنة ٨٠ ومات سنة ١٥٠ وعاش ٧٠ سنة، وولد الإمام مالك سنة ٩٠ ومات سنة ١٧٩ وعاش ٨٩ سنة، والشافعي ولد سنة ١٥٠ ومات سنة ٢٠٤ وعاش ٥٤ سنة، وأحمد ولد سنة ١٦٤ ومات سنة ٢٤١ وعاش ٧٧ سنة.

* جاء رجل من أهل اليمن أقطع اليد والرجل، فنزل علىٰ أبي بكر، فشكا إليه أن عامل اليمن ظلمه.. فكان الرجل يصلي من الليل، فيراه أبو بكر فيقول: وأبيك، ما ليلك بليل سارق! ثم إنهم افتقدوا حُلِيّاً لأسماء بنت عميس امرأة أبي بكر، فجعل الرجل يطوف معهم يبحث عنه ويقول: اللهم عليك بمن بيّت أهل هذا البيت الصالح! فوجدوا الحلي عند صائغ زعم أن هذا الرجل الأقطع جاءه به، فاعترف الأقطع أو شهد عليه فأمر به أبوبكر فقطعت يده اليسرىٰ! وقال أبو بكر: والله لدعاؤه علىٰ نفسه أشدّ عندي عليه من سرقته!

العمر نوم.. والمنية يقظة

* عندما يقترب الأجل، وتدنو ساعة الفراق، وتحين لحظات الوداع، تجزع النفس ويخشع الفؤاد، ويخاف المرء، ولا غرو فالموت حق والرحيل عن هذه الحياة مؤكد. ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠)﴾ (الزمر) ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)﴾ (الأنبياء).

* دخل رجل على حكيم وهو يأكل فقيل له: قد مات ابنك! فقال: قد علمت، ولم يقطع الأكل! فقيل له: ومن أين علمت ذلك؟ قال: من قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠)﴾.

* وسئل أحد الفلاسفة فقيل له: ما عِلّة موتِ ابنك؟ قال: وجوده! وقيل لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه مثل ذلك فقال: هذا أمر كنّا نتوقعه قبل كونه، فلما ورد لم نُنْكره!

* وعندما تعاين النفس الحقيقة وتشرف عليها، تعرف قيمة الدنيا ووزنها!

فالعمرُ نومٌ والمنيّة يقظةٌ والمرءُ بينهما خيالٌ ساري

* قيل لأعرابي: إنك تموت! قال: وإلى أين أذهب؟ قالوا: إلى الله تعالى، فقال: لا أكره أن أذهب إلى مَنْ لا أرى الخير إلا منه!

* وبكى الخولاني عند موته فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لطول السفر وقلة الزّاد وقد سلكت عقبة، ولا أدري إلى أين أهبط، وإلى أي مكان أسقط!

لحظات الوداع

* وقال عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه لرجاء بن حيوة: يا رجاء إذا وُضعْتُ في لحدي فاكشف الثوبَ عن وجهي، فإن رأَيْتَ خيراً فاحمد الله، وإن رأيت غير ذلك، فاعلم أنَّ عمر قد هلك! قال رجاء: فلما دفنّاه كشفْتُ عن وجهه فرأيت نوراً ساطعاً فحمدت الله

تعالىٰ أن صار إلىٰ خير . ويذكر أن رجاء قال : دخلت علىٰ عمر بن عبدالعزيز وهو محتضر ، فقال : يا رجاء إني أرىٰ وجوهاً كراماً ليست بوجوه إنس ولا جان! وهو يقلّب طرْفه يميناً وشمالاً ، ثم رفع يده فقال : اللهم أنت أمرتني فقصرت ونهيتني فعصيتُ ، فإن غفرْتَ فقد مَنَنْتَ ، وإنْ عاقبْتَ فما ظلمتَ ، إلا أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، وأن محمداً عبدُك ورسولك المصطفىٰ ، ونبيُّك المرتضىٰ ، بلّغ الرسالة وأدّىٰ الأمانة ، ونصح الأمّة ، فعليه السلامُ والرحمة . ثم قضىٰ نحْبه رحمه الله .

* وقيل : إن المأمون لما قرُبَتْ وفاتُه ، دخل عليه بعض أصدقائه ، فوجده قد فرش له جلد دابة ، وبسط عليه الرماد وهو يتمرغ به ويقول : يا من لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه!

* وأوصىٰ أحد الصالحين أن يكفّن في عباءته وقال : إني ختمت فيها ثلاثة آلاف ختْمة .

* قالت عائشة رضي الله عنها : لما احتضر أبو بكر رضي الله عنه قلت :

وأبيض يُسْتَسْقىٰ الغمامُ بوجهه ثِمَالُ اليتامىٰ عِصمةٌ للأرامل

فنظر إليها وقال : ذاك رسول الله ﷺ ، ثم أغمي عليه فقالت :

لَعمْرُك ما يُغْني الثّراء عن الفتىٰ إذا حَشْرجَتْ يوماً وضاق بها الصّدْرُ

فنظر إليها كالغضبان وقال : قولي : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾ (ق) ثم قال : انظروا ثوبيّ هذين ، فاغسلوهما وكفّنوني فيهما ، فإنّ الحي أحوجُ إلىٰ الجديد من الميِّت! انظر الطبقات لابن سعد ٣/ ٢٩٦ .

* ويروىٰ أن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال لبنيه عند موته : إني لسْتُ في الشّرك الذي لو مِتّ عليه أُدْخِلْتُ النار ، ولا في الإسلام الذي لو متّ عليه أُدْخِلتُ الجنة ، فمهما قصّرْتُ فيه فإني مستمسكٌ بلا إله إلا الله ، ثم قُبض لوقته!

* وورد أن معاوية لما ثَقُل قال لابنه يزيد : أي بني ، إنّ أعظم ما أخافُ الله فيه ما كنتُ أصنع لك ، يا بني إني خرجت مع رسول الله ﷺ ، فكان إذا مضىٰ لحاجته وتوضّأ أصبُّ الماء علىٰ يديه ، فنظر إلىٰ قميص لي قد انخرق من عاتقي ، فقال لي : يا معاوية ، ألا أكْسُوكَ

قميصاً؟ قلت: بلىٰ، فكساني قميصاً لم ألْبَسْه إلا لَبْسَةً واحدة، وهو عندي، واجتزّ ذات يوم فأخذْتُ جُزازة شَعْرِه، وقُلامَة أظفاره، فجعلتُ ذلك في قارُورة، فإذا مِتّ يا بني فاغْسلني، ثم اجعل ذلك الشّعر والأظفار في عينيّ ومِنْخري وفمي، ثم اجعل قميص رسول الله ﷺ شِعَاراً من تحت كفني، إن نفع شيءٌ نَفَعَ هذا! ودعا وهو يجود بنفسه فقال: اللهم أَقِلِ العَثْرةَ، واعْفُ عن الزّلّة، وجُدْ بحِلْمك علىٰ مَنْ لا يرجو غيرَك، ولا يثق إلا بك، فإنك واسع المغفرة، تعفُو بقدرة، وما وراءك مذْهب لذي خطيئة موبقة، يا أرحم الراحمين!

* ولمّا احتُضر معاذ رضي الله عنه قال لخادمته: ويحك، هل أصبحنا؟ قالت: لا، ثم تركها ساعة، ثم قال لها: انظري، فقالت: نعم، قال: أعوذ بالله من صباح إلىٰ النار، ثم قال: مرحباً بالموت، مرحباً بزائر جاء علىٰ فاقة، لا أفلح من ندم، اللهم إنك تعلم أني لم أُحبّ البقاء في الدنيا لجرْي الأنهار وغرْس الأشجار، ولكن لمُكابدة الليل الطويل، وظمأ الهَواجر في الحر الشديد، ومُزاحمة العلماء بالرُّكب في مجالس الذّكْر.

* وقيل للربيع بن خيثم في مرضه: ألا ندعو لك طبيباً؟ فقال: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ (الفرقان) لقد كان فيهم أطباء فما أرىٰ المداوي بقي ولا المداوىٰ صلُح! هلك الناعت والمنعوت له، لا تَدْعوا لي طبيباً!

* ولما مرض أبو الدرداء رضي الله عنه عادَهُ صديقٌ له فقال له: أيّ شيء تشتكي؟ قال: ذنوبي! قال: فأي شيء تشتهي؟ قال: الجنة. قال: فندعوا لك بالطبيب؟ قال: هو أمرضني!

* دخل سليمان بن عبد الملك مسجد دمشق، فرأىٰ شيخاً فقال: يا شيخ أيسرّك أن تموت؟ فقال: لا والله، قال: لِمَ وقد بلغت من السّنّ ما أرىٰ؟ قال: نُفي الشباب وشرّه، وبقي الشيب وخيره، فأنا إذا قعدت ذكرت الله، وإذا قمت حمدت الله، فأحب أن تدوم لي هاتان الحالتان.

* ولمّا احتضر سعيد بن المسيب، وُجّه إلىٰ القبلة، فقال: ما هذا؟ فقالوا: وجّهْناك إلىٰ القبلة فقال: أو لسْتُ علىٰ القبلة! أليس وجهي إلىٰ الله حيث كان!

* لما حضرت الحسن المنية قيل له: أوْص، فقال: أوصيكم بالمحافظة على آخر سورة النحل ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾.

* وقيل لعمر بن عبدالعزيز: أوْص لبنيك، فقال: أوصي بهم الذي أنزل الكتاب وهو يتولى الصالحين.

وصايا عجيبة

* يروى أنه قيل للحجاج: ألا تتوب؟ فقال: إن كنت مسيئاً، فليست هذه ساعة التوبة! وإن كنت محسناً فليست ساعة الفزع!

* حضرت أحدهم الوفاةُ فدعا بنيه وقال: يا بني إن قوماً سيأتونكم قد قرّحوا جباههم، وعرّضوا لِحَاهم، يَدّعون أن لهم عند أبيكم ديْناً، فلا تقْضُوهم، فإن أباكم قد حمل من الذنوب، ما إنْ غفرها الله لم تضرّه هذه، وإلاّ فهي معها!

* ولما حضرت الفرزدق الوفاة قال لقومه:

إلى مَنْ تَفزعون إذا حثيْتُم ... بأيْديكم عليّ من التراب؟!

فقالت مولاة له: إلى الله تعالى. فقال: أتتَكّلِين على غيري وأنت تعيشين في مالي؟ امْحوا اسمها من الوصية!

* وقيل للحطيئة: أوص يا أبا مُلَيْكَة. قال: نعم، أخبروا الشماخ أنه أشعر العرب! فقيل: أوصِ للمساكين، فقال: أوصيهم بالإلحاف في المسألة، قيل: أعتق عبدك فلاناً، قال: هو عبد ما بقي على ظهر الأرض، وعتيق إذا صار في بطنها! فقيل: أوص فإن لك بنات، قال: مالي للذكور دون الإناث! فقالوا له: إن الله لم يقل كذا؛ قال: أنا أقوله! قيل: فأوص للأيتام بشيء، فقال: كلوا أموالهم، و . . . أمهاتهم - قال كلمة قبيحة! ثم قال: احملوني على حمار فإنه لم يمت عليه كريم قط، وويل للشعر من رواة السوء!

لا شماتة

* والعاقل لا يظهر الشماته حتىٰ لعدوه، وفي الحديث الشريف: «لا تظهر الشماته لأخيك فيعافيه الله ويبتليك» (رواه الترمذي) ولله در القائل:

فقل للشّامتين بنا أَفِيقُوا   سَيَلْقىٰ الشامتون كما لَقِينَا

* قال الحسن لشيخ في جنازة: أترىٰ هذا الميت لو رجع إلىٰ الدنيا كان يعمل صالحاً؟ قال: نعم. قال: إن لم يكن ذاك، فكن أنت ذاك!

* قال مالك بن ضيغم: لما احتضر أبي قلنا له: ألا توصي؟ قال: بلىٰ، أوصيكم بما أوصىٰ به إبراهيم بنيه ويعقوب ﴿يا بني إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢)﴾ (البقرة) وأوصيكم بصلة الرحم وحسن الجوار، وفعل ما استطعتم من المعروف وادفنوني مع المساكين!

الآجال.. غيب

* من نعمة الله علىٰ بني البشر أنهم لا يعرفون نهاية آجالهم، وإلا لفقدت الحياة طعمها، ولو ظهرت الآجال لافتضحت الآمال، وأبلغ العظات النظر إلىٰ محل الأموات، ومصارع البنين والبنات! وما ذُكر الموت في بيت إلا رضي أهله بما قسم الله لهم، وجدُّوا في أمر الآخرة، لأنه يطرد فضول الأمل وغريب الأمنيات، ويهوِّن المصائب ويحول بين القلب وبين الطغيان فسبحان من قهر العباد بالموت!

* قال رسول الله لرجل شكا إليه قساوة قلبه: «أكثر من ذكر هاذم اللذات». أخرجه الترمذي، والنسائي وابن ماجه، وهاذم: أي قاطع اللذات وهو الموت. ويروىٰ: «فإنه ما ذكره أحد في ضيق إلا وسّعه عليه، ولا في سعة إلا ضيقها عليه». ويروىٰ: «ما رأيت منظراً فظيعاً إلا والموت أفظع منه». وكان نقش خاتم عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «كفىٰ بالموت واعظاً يا عمر».

* وشكا رجل قساوة قلبه إلىٰ أحد الصالحين فقال: ما لي لا أُحبُّ الموت؟ قال: هل

لك مال؟ قال: نعم. قال: فقدِّمه بين يديك! قال: لا أُطيق ذلك! فقال له: إنّ المرء مع ماله، إنْ قدّمه أحبَّ أنْ يَلْحقه، وإنْ أخّرَه أحبَّ أن يتخلّفَ معه!!.

تأهّب للذي لابد منه ... فإنّ الموتَ ميقاتُ العبادِ
أترضى أنْ تكون رفيقَ قومٍ ... لهم زادٌ وأنت بغير زَادِ؟!

***** ... *****

يا مَنْ بدنياه اشتغل ... قد غَرّه طولُ الأملْ
الموت يأتي بغتةً ... والقبرُ صندوقُ العملْ

* قال رجل للحسن: إنْ عِشْت تَرَ ما لم تره، فقال الحسن: إنْ متّ ترَ ما لم ترَ! وكان كثيراً ما يقول: عند الموت يأتيك الخبر، وحقاً «إن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا» وإنّ الموت قد فضح الدنيا.

* من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر كشف الخفاء ٢/ ٣١٢.

* وكان الحسن إذا خوَّف من الموت يقول للشيوخ: الزرع إذا بلغَ لابدّ أن يُحصد، ويقول للشبان: هل رأيتم زرعاً لم يبلغ أدْركَتْه الآفة!

تزود من التقوى

تزود من التقوى فإنك لا تدري ... إذا جنَّ ليلٌ هل تعيش إلى الفجرِ
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكاً ... وقد نُسجت أكفانه وهو لا يدري
وكم من صغار يُرتجى طول عمرهم ... وقد أُدخلت أجسادهم ظلمة القبرِ
وكم من عروس زيَّنوها لزوجها ... وقد قبضت أرواحُهم ليلة القدرِ
وكم من صحيح مات من غير علّة ... وكم من سقيم عاش حيناً من الدهرِ
فمن عاش من الدهر ألفاً وألفين ... فلا بد يوماً أن يصير إلى القبرِ

* والموت لا يعرف صغيراً أو كبيراً، فإذا انتهى الأجل حان الرحيل:

كلّ ابن انثى وإنْ طالت سلامته ... يوماً على آلة حَدْباء محمول

الدنيا ليست بدار قرار

* يقول أبو الحسن التهامي:

حكم المنية في البرية جاري ... ما هذه الدنيا بدار قرار
بينا ترى الإنسان فيها مخبرا ... ألفيته خبراً من الأخبار
طبعت على كدر، وأنت تريدها ... صفواً من الأقذار والأكدار
ومكلِّف الأيام ضدَّ طباعها ... متطلِّبٌ في الماء جذوة نارِ
وإذا رجوت المستحيل فإنما ... تبني الرجاء على شفير هار
والعيش نوم والمنية يقظة ... والمرء بينهما خيال ساري
فاقضوا مآربكم عجالاً إنما ... أعماركم سفر من الأسفار
وتراكضوا خيل الشباب وبادروا ... أن تسترد فإنهن عوار
ليس الزمان وإن حرصت مسالماً ... طبعُ الزمان عداوةُ الأحرارِ

* ويقول في هذه القصيدة يرثي ولده الذي مات صغيرا:

يا كوكباً ما كان أقصر عمره ... وكذاك عمر كواكب الأسحار
وهلال أيام مضى لا يُسْتدر ... بدراً ولم يمهل لوقت سرار
عجل الخسوف عليه قبل أوانه ... فمحاه قبل مظنة الإبدار
واستلَّ من أترابه ولداته ... كالمقلة استلَّت من الأشفار
فكأن قلبي قبره وكأنه ... في طيِّه سرّ من الأسرار

ويقول في هذه القصيدة أيضاً:

إنــي لأرحــم حــاســديَّ لحـرّ مــا ضـمـت صـدورهـم مـن الأوغـار
نـظـروا صـنـيـع الـلـه بي فـعـيـونُـهـم فــي جـنـة وقـلـوبُـهـم فـي نـارِ

* قيل لأعرابي: فلانٌ مات أصحّ ما كان! فقال: أَوَ صحيحٌ مَنِ الموتُ في عنقه؟!
والمرء يرحل ويترك ما خلفه للوارثين.

* ومـا المـالُ والأهـلـون إلا وديـعـةٌ ولابـدّ يـومـاً أنْ تـردّ الـودائـع

**** ****

أمـوالُـنـا لـذوي المـيـراث نَـجْـمـعُـهـا ودورُنـا لخَـرَاب الـدّهْـر نـبـنـيـهـا
لا دارَ لـلـمـرء بـعـد المـوت يَـسْـكُـنـهـا إلاّ الـتـي كـان قـبـل الموت بَـانـيـهـا
فـإنْ بـنـاهـا بـخـيـرٍ طـابَ مَـسْـكـنـه وإنْ بَـنَـاهـا بـشـرٍّ خـابَ مَـنْ فـيـهـا!

* قال رسول الله ﷺ: «يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان ويبقىٰ واحد، يرجع أهله وماله، ويبقىٰ عمله» رواه الشيخان.

* قال ابن عباس: اختلف الناس في كل شيء إلا في الرزق والأجل، فإنهم أجمعوا أنْ لا رازق ولا مُميتَ إلا الله تعالىٰ!

* وقال الحسن وهو في جنازة: يا قوم لو أنّ هذا الرجل أخذه سلطانكم لفزعتم؟ قالوا: بلىٰ! قال: قد أخذه ربكم فلِمَ لا تفزعون؟!

* وقيل: من لم يرتدع بالموت وبالقرآن، ثم تناطحت الجبال بين يديه لم يرتدع!

* قيل لبهلول وقد أقبل من مقبرة: من أين جئت؟ فقال: من عسكر الموتىٰ! فقيل: ما قلت وما قالوا؟ فقال: سألتهم متىٰ يرحلون؟ فقالوا: ننتظر قدومكم ثم نرْتَحِل!

* قال رجل لأبي الدرداء: ما بالنا نكره الموت؟ قال: لأنكم أخربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم، فكرهتم أنْ تنتقِلُوا من العمران إلىٰ الخراب!

* ولمّا رأيتُ الودّ ليس بنافعي ... عمدْتُ إلى الأمر الذي كان أحزَما

فلستُ بمبتاعِ الحياة بسُبّةٍ ... ولا مرتقٍ من خَشْية الموت سُلّما!

* قال قَطَرِيّ بن الفُجَاءة:

أقولُ لها وقد طارت شَعَاعاً ... من الأبطال: وَيْحَكِ، لن تُراعي

فإنّك لو سألتِ بَقَاءَ يوم ... على الأجل الذي لكِ لم تُطاعي

فصَبْراً في مجال الموت صبراً ... فما نيلُ الخلود بمستطاع

سبيلُ الموت غايةُ كلّ حيّ ... وداعيه لأهل الأرض داعِ

ومن لم يغتبط يسْأمْ ويهرم ... وتُسْلِمْه المنونُ إلى انقطاع

وما للمرء خيرٌ في حياةٍ ... إذا ما عُدّ من سَقَط المتاعِ!!

* والجزع لا يرفع مكروهاً ولا يعيد مفقوداً، والرضا بقضاء الله من صفات المؤمنين، نظر رجل بالبصرة إلى امرأة، فقال: ما رأيت مثل هذه النّضَارَة، وما ذاك إلاّ من قلّة الحزن! فقالت: ما حُزْنٌ كحزني، ذبحَ زوجي شاةً، ولي صبيان يلعبان فقال أحدهما للآخر: تعال أريك كيف ذبح أبي الشاة، فذبحه! ثم خاف فهرب إلى الجبل، فافترسه ذئب، وخرج زوجي في طلبه فاشتد عليه الحرّ فمات عطشاً! فقيل لها: كيف صبرت؟ فقالت: لو وجدت في الحزن دركاً ما اخترْتُ عليه!

الصبر والمصابرة

* كتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب يذكرُ له جموعاً من الروم وما يتخوّف منهم، فكتب إليه عمر: أما بعد، فإنه مهما ينزِل بعبد مؤمن من منزلة شدة، يجعل الله له بعدها فرجاً، وإنه لن يغلب عسرٌ يسرين، وإن الله يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾.

قال الشاعر: محمد بشير الرياشي:

* إنّ الأمور إذا انسدّت مسالكها ... فالصبرُ يفتح منها كلّ ماارتتجا

لا تيأسَنْ وإنْ طالتْ مطالبة ... إذا استعنْتَ بصبرٍ أنْ ترىٰ فرَجَا

أخْلقْ بذي الصبر أنْ يحظىٰ بحاجته ... ومُدمِنِ القَرْع للأبواب أنْ يلجا!

قدِّر لرِجْلك قبل الخطو موضعها ... فمن علا زلقاً عن غرّة زلجا

ولا يغرنّك صفو أنت شاربه ... فربما كان بالتكدير ممتزجا

* عسىٰ فرجٌ يأتي به الله إنه ... له كلَّ يوم في خليقته أمرُ

إذا لاح عسرٌ فارتج اليسر إنه ... قضىٰ الله أنّ العسر يتبعُه اليسرُ!

* توكل علىٰ الرحمن في كل حاجة ... أردْتَ فإن الله يقضي ويقدّرُ

متىٰ ما يُردْ ذو العرش أمراً بعبده ... يُصبْه وما للعبد ما يَتخيّرُ

وقد يهلكُ الإنسان من وجه أَمْنه ... وينجو بإذن الله من حيث يحذرُ!

* قال إبراهيم بن كُنيف النبهاني:

وليس علىٰ ريب الزمان معوَّل ... وليس علىٰ ريب الزمان معوَّل

فلو كان يغني أن يُرىٰ المرء جازعاً ... لحادثة أو كان يغني التذلل

لكان التعزّي عند كل مصيبة ... ونائبة بالحر أولىٰ وأجمل

فكيف وكلٌ ليس يعدو حمامه ... وما لامرئ عما قضىٰ اللّه مرحل

فإن تكن الأيام فينا تبدَّلت ... ببؤْسىٰ ونُعْمىٰ والحوادث تفعل

فما لينت منا قناة صليبة ... ولا ذلّلتنا للتي ليس تجمل

ولكن رحلناها نفوساً كريمة ... تُحمَّل ما لا يستطاع فتحمل

وقينا بحسن الصبر منا نفوسَنا فصحَّت لنا الأغراض والناس هزَّل

* قال قبيص بن الخطيم الأوسي :

وما بعض الإقامة في ديار يهون بها الفتى إلا بلاء
وبعض خلائق الأقوام داء كداء البطن ليس له دواء
يريد المرء أن يعطى مناه ويأبى اللّه إلا ما يشاء
وكل شديدة نزلت بقوم سيأتي بعد شدَّتها رخاء

لحظات الفراق

* قال المزني : دخلت على الشافعي رحمه الله في مرضه الذي مات فيه ، فقلت له : كيف أصبحت؟ قال : أصبحتُ من الدنيا راحلاً ، وللإخوان مفارقاً ، ولسوء عملي ملاقياً ، ولكأس المنية شارباً ، وعلى الله وارداً ، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنّة فأُهنّيها ، أم إلى النار فأعزِّيها؟!

ثم أنشأ يقول :

ولمّا قَسَا قلبي وضاقت مذاهبي جعلْتُ الرّجا مني لعفوك سُلّما
تَعَاظمني ذنبي فلمّا قرَنْتُه بعفُوك ربي كان عفْوك أعْظما
فما زِلْتَ ذا عفْوٍ عن الذنب لم تَزلْ تجودُ وتعْفُو مِنّةً وتَكَرُّما
ولولاك لم يَغْوَ بإبليسَ عابدٌ فكيف وقد أغْوى صَفِيّك آدما!

* لمّا حضرت سلمان الفارسي رضي الله عنه الوفاةُ ، بكى ، فقيل له : ما يبكيك؟ قال : ما أبكي جزعاً على الدنيا ولكن عهد إلينا رسول الله ﷺ أن يكون بُلْغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب ، فلمّا مات نُظر في جميع تركته ، فإذا قيمتها بضعة عشر درهماً!

* ولمّا حضرت بلالاً رضي الله عنه الوفاةُ وكانت زوجته بالقرب منه تبكي وتولول

وتقول: آه واحزناه، نظر إليها وقال: لا تقولي آه، ولكن قولي واطرباه، فكأني الليلة في عرس، غداً ألقى الأحبّة محمداً وحِزْبه، فابْكِي على نفسك إنْ كنت باكية، فإني بكَيْتُ لأجل هذا اليوم سنين طويلة!

* ولما حضرت الوفاةُ الإمام أحمد رضي الله عنه قال لولده عبدالله: اذكر لي أحاديث الرجاء.

* وروى البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: أمر الله عز وجل بعبد إلى النار، فلما وقف على شفتها التفت فقال: أما والله يا رب إن كان ظني بك لحسن!، فقال الله عز وجل ردوه، أنا عند حسن ظن عبدي بي.

* ودعا رجل بعرفات فقال: اللهم لا تعذبنا بالنار بعد أن أسكنت توحيدك قلوبنا، ثم بكى، وقال: ما أخالك تفعل بعفوك، ثم بكى وقال: ولئن عذبتنا بذنوبنا لتجمعن بيننا وبين أقوام طالما عاديناهم فيك.

* ويروى أن إبراهيم الخليل عليه السلام دعا فقال: اللهم لا تشمت من كان يشرك بك بمن كان لا يشرك بك.

* وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا تلا هذه الآية ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ (النحل: ٣٨) قال: ونحن نقسم بالله جهد أيماننا ليبعثن الله من يموت، أتراك تجمع بين أهل القسمين في دار واحدة! ثم بكى أبو حفص الصيرفي بكاء شديداً.

* وقال موسى بن مسعود: كنا إذا جلسنا إلى الثوري كأن النار قد أحاطت بنا، لما نرى من خوفه وجزعه! ويروى أن أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه كان يقول: وددت أني كبش فيذبحني أهلي فيأكلون لحمي ويحتسون مرقي.

* وقال رجل للحسن: يا أبا سعيد كيف أصبحت؟ قال: بخير قال: كيف حالك؟ فتبسّم الحسن وقال: تسألني عن حالي؟ ما ظنّك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر

فانكسرت سفينتهم فتعلّق كل إنسان منهم بخشبة؟ على أي حال يكون؟ قال الرجل: على حال شديدة، قال الحسن: حالي أشدّ من حالهم!

* قال عبدالله بن محمد بن يوسف رحمه الله:

أسيرُ الخطايا عند بابك واقفٌ ... على وجَلٍ مما به أنت عارفُ
يخافُ ذنوباً لم يغبْ عَنك غيبُها ... ويرجوك فيها فهو راجٍ وخائفُ
فمن ذا الذي يُرجى سواك ويُتقى ... وما لك في فصل القضاء مخالفُ
فيا سيدي لا تُخْزني في صحيفتي ... إذا نُشِرتْ يوم الحساب الصحائفُ
وكُن مؤنسي في ظلمة القبر عندما ... يَصدُّ ذووا القربى ويجفوا المؤالفُ
لئن ضاق عني عفوُك الواسع الذي ... أُرجِّي لإسرافي فإني لتالفُ

تأملات

* قال أحد الأمراء لبعض العارفين: سلني حاجتك! فقال العارف: أوَلي تقول ذلك، ولي عبدان هما سيداك!، قال: ومَنْ هما؟ قال: الحرص والهوى، فقد غلبتُهما وغلباك، وملكتُهما وملكاك!

* يقول قيس بن الحجاج: قال لي شيطاني: دخلت فيك وأنا مثل الجزور، فصرت الآن مثل العصفور، قلت: ولِم ذاك؟ قال: تذيبني بذكر الله.

* وقال ابن مسعود رضي الله عنه: شيطان المؤمن مهزول.

* وفي الحديث المؤمن ينضي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره في السفر.

* سلْ ملوك الأرض عن دنيا الغرور ... في الملاهي خلف أستار الحرير
زلزلتهم بين أبراج القصور ... ضربة من سهمِ عريانٍ فقير

حقيقة الدنيا

* قال هارون الرشيد لابن السماك: عِظْني، وكان بيد الرشيد شربة ماء، فقال له: يا أمير المؤمنين، لو حُبستْ عنك هذه الشربة أكنْتَ تفديها بمُلْكك؟ قال: نعم، قال: يا أمير المؤمنين، لو شربْتَها وحُبسَتْ عن الخروج، أكنْتَ تُفديها بملكك؟ قال: نعم! فقال له: لا خير في مُلْك لا يساوي شربة ولا بَوْلة!

* ولو كان في التنعم في الدنيا كرامة لكان أولى الناس بها الأنبياء والمرسلون، فقد عاشوا في شدة وقسوة وشظف عيش، لكن هذه الدنيا لا قيمة لها عند الله، ومن هوانها عليه سبحانه أنه لم ينظر إليها منذ خلقها، ولو كانت تَزِنُ عنده جناح بعوضة ما سقى منها كافراً جرعةَ ماء، ولو أراد الأنبياء التوسّع فيها والأخذ بنصيب من لذائذها لكان بمقدورهم ذلك، ولكانوا في بحبوحة من العيش، ولكنهم آثروا ما يبقى على ما يفنى.

* نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثّر في جنبه، فقالوا له: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاء! فقال: مالي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها!.

* ودخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على النبي ﷺ وهو على سرير من الليف، قد أثّر في جنبه الشريف، فبكى عمر، فقال له رسول الله: ما يبكيك يا عمر؟ فقال: تذكرت كسرى وقيصر وما كانا فيه من سعة الدنيا، وأنت رسول الله تنام على سرير قد أثّر في جنبيك! فقال ﷺ: هؤلاء قوم عُجِّلتْ لهم طيباتُهم في حياتهم الدنيا، ونحن قوم أُخِّرت لنا طيباتُنا في الآخرة. رواه البخاري.

* والدنيا دار ممرّ لا دار مقرّ، والناس فيها رجلان، رجل باع نفسه فأوبقها، ورجل ابتاع نفسه فأعتقها، وإنما هي «سجن المؤمن وجنة الكافر» رواه مسلم، وحبها رأس كل خطيئة. وإنما مثل الدنيا والآخرة كمثل رجل له ضرّتان، إن أرضى إحداهما أسخط الأخرى، ومثل الدنيا مثل الحيّة ليِّنٌ مسّها وفي جوفها السمُّ الناقع، يهوي إليها الصبي

الجاهل ويحذرها الحازم العاقل. وفي الحديث الشريف: «من أحبّ دنياه أضرّ بآخرته، ومَنْ أحبّ آخرته أضرّ بدنياه، فآثروا ما يبقىٰ علىٰ ما يفنىٰ» رواه أحمد والحاكم.

* وفي وصية رسول الله ﷺ لعبدالله بن عمر: «يا عبدالله: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعُدّ نفسك من أهل القبور» رواه الترمذي.

* قال أبو حازم: بيني وبين الملوك يوم واحد، أما أمس فلا يجدون لذّته ولا أجد شدّته، وأمّا غد فإني وإياهم منه علىٰ خطر، وما هو إلا اليوم، فما عسىٰ أن يكون!

* ونظر ملك إلىٰ ملكه فأعجبه، فقال: هذا مُلْك لولا أنه هالك، ونعيم لولا أنه عديم، وغناء لولا أنه عَنَاء، وسرور لولا أنه شرور، ويوم لو كان يوثق له بغد!

* ومن يذق الدنيا فإني طعمتها ... وسيق إلينا عذْبُها وعذابها

فلم أرَها إلا غروراً وباطلاً ... كما لاح في ظهر الفلاة سرابُها

وما هي إلا جيفةٌ مستحيلة ... عليها كلابٌ همهنّ اجتذابها

فإن تجتنبها كنت سِلماً لأهلها ... وإن تجتذبها نازعتك كلابها

فدع عنك فضلات الأمور فإنها ... حرام علىٰ نفس التقي ارتكابها

* قال الأصمعي: وجدت بيتين لبعض العرب، كأنهما أُخذا من قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (الأنعام) وهما قول سعيد بن وهب:

أحْسنْتَ ظنّك بالأيام إذْ حَسُنتْ ... ولم تَخَفْ غبَّ ما يأتي به القدَرُ

وسالَمَتْكَ الليالي فاغْترَرْتَ بها ... وعند صفْوِ الليالي يحدثُ الكَدَرُ!

وصف الدنيا

* دخل أعرابي عمّر مائة وعشرين سنة علىٰ معاوية فقال له: صف لي الدنيا، فقال: سنيّات بلاء، وسنيّات رخاء، يولد مولود، ويهلك هالك، ولولا المولود باد الخلق، ولولا

الهالك ضاقت الأرض! وهذه تقلبات الزمان، وتغيرات الأحوال، وسبحان مَنْ لا يدوم إلا وجهه الكريم.

* ويروىٰ أن المسيح عليه السلام قال: اتخذوا الدنيا قنطرة فاعْبُروها ولا تعْمُرُوها.

* وقد بين الله حقيقة الدنيا الفانية لئلا يغترّ بها مخلوق فقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ (الحديد).

* والرسول ﷺ يبين حقيقتها، وأنها بما اشتملت عليه من مباهج وزينة وشهوة؛ فتنة وامتحان للإنسان: «إنّ الدنيا حُلْوةٌ خَضِرةٌ، وإنّ الله مُسْتخْلفُكم فيها فناظرٌ كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإنّ أوّلَ فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» أخرجه الترمذي وابن ماجه وابن أبي الدنيا قريباً من هذا اللفظ.

قال الحطيئة:

ولست أرىٰ السعادة جمع مال ... ولكنّ التقيَّ هو السعيدُ
وتقوىٰ الله خير الزاد ذخراً ... وعند الله للأتقىٰ مزيدُ
وما لابد أن يأتي قريبٌ ... ولكن الذي يمضي بعيدُ

* قال رجل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: صِفْ لنا الدنيا. فقال: وما أصف لكم من دارٍ مَنْ صحّ فيها ما أَمِن، ومن سَقِم فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنىٰ فيها فُتن، في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب، أوّلها عَناء وآخرها فَناء!

دار العمل

* والدنيا تكون فتنة لِمَنْ افتتن فيها وأقبل عليها ونسي الآخرة، وأمّا من اتخذها مطيّة للآخرة فنعمت المطيّة هي، ففيها يعمل الإنسان الخير ويتزوّد بالصالحات ويكثر من

الحسنات ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢)﴾ (الملك).

* كُلُّ مَنْ تَلْقَاهُ يَشْكُو دَهْرَهُ   لَيْتَ شِعْرِي هذه الدُّنْيا لِمَنْ؟

هي لمن عرفها.

* ذمّ رجلٌ الدنيا عند علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال له: الدنيا دارُ صِدْقٍ لمن صدقها، ودار نجاةٍ لمن فَهِم عنها، ودارُ غنىً لمن تزوّد منها، مَهْبطُ وحي الله، ومُصلّى ملائكته، ومسجدُ أنبيائه، ومَتْجرُ أوليائه، رَبِحوا منها الرحمة، واحتسبوا فيها الجنة!.

* إنَّ لله عِباداً فُطَنا   طلّقوا الدنيا وخافوا الفِتَنا

نظروا فيها فلما علموا   أنها ليستْ لحيٍّ وَطَنا

جعلوها لُجَّةً واتخذوا   صالح الأعمال فيها سُفُنا

* قال أبو بكر الصدِّيق لعُمَر بن الخطاب رضي الله عنهما عند موته حين استَخْلفه: أُوصيك بتقوىٰ الله، إن لله عملاً بالليل لا يَقْبَلُه بالنهار، وعملاً بالنهار لا يَقْبَلُه بالليل، وإنه لا يقبل نافلة حتىٰ تُؤدَّىٰ الفرائض، وإنما ثَقُلَتْ موازين من ثقُلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحقّ وثقَلِه عليهم، وحُقّ لميزان لا يُوضع فيه إلا الحقُّ أن يكون ثقيلاً، وإنما خَفّت موازينُ من خَفّت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدُّنيا وخفّته عليهم، وحُقَّ لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً، وإنَّ اللهَ ذكرَ أهلَ الجنَّةِ فَذَكَرهم بأحسن أعمالهم، وتجاوز عن سيِّئاتهم، فإذا سمعتَ بهم قُلْت: إني أخاف أن لا أكون من هؤلاء؛ وذكر أهل النار بأقبح أعمالهم، وأمسك عن حَسَناتهم، فإذا سمعتَ بهم قلت: أنا خيرٌ من هؤلاء، وذكر آية الرّحمة مع آية العذاب ليكون العبدُ راغباً راهباً لا يتمنىٰ علىٰ الله غير الحق. فإذا حفظت وصيَّتي فلا يكونَنّ غائبٌ أحبَّ إليك من الموت، وهو آتيك، وإن ضيّعْت وصيَّتي فلا يكونن غائبٌ أكره إليك من الموت، ولن تُعْجزَه.

هذه الدنيا

* روي أن عيسى عليه السلام صحبه رجل وقال: يا نبي الله أكون معك، فانطلقَ فانتهى إلى شاطئ نهرٍ فجلس يتغدى ومعهما ثلاثة أرغفة، فأكلا رغيفين وبقي رغيف، فقام عيسى عليه السلام إلى النهر فشرب ثم رجع فلم يجد الرغيف فقال: أين الرغيف؟ قال: لا أدري! فانطلق ومعه الرجل فرأى ظبية معها ولدان لها فدعا واحداً فأتاه فذبحه وشوى منه وأكل منه، هو وذلك الرجل ثم قال له: قم بإذن الله عزّ وجلّ فقام، فقال للرجل: أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيف؟ فقال: لا أدري! فانطلق حتى انتهى إلى مغارة فجمع عيسى عليه السلام تراباً ثم قال له: كن ذهباً بإذن الله عزّ وجلّ، فصار ذهباً! فقسمه ثلاثة أثلاث وقال: ثلث لك وثلث لي وثلث للذي أخذ الرغيف! فقال: أنا الذي أخذته! فقال: فكلّه لك، وفارقه عيسى عليه السلام، فجاء إليه رجلان وأرادا أن يأخذا الذهب ويقتلاه فقال: هو بيننا أثلاثاً، فقبلا ذلك فقال يذهب واحد إلى القرية يشتري لنا طعاماً، فذهب واحد واشترى طعاماً وقال في نفسه أجعل في هذا الطعام سماً فأقتلهما وآخذ المال جميعه، وجعل فيه السم، وقالا فيما بينهما لأي شيء نجعل له الثلث؟ إذا رجع قتلناه واقتسمنا المال نصفين، فلما رجع إليهما وثَبا عليه وقتلاه ثم أكلا من الطعام فماتا! فبقي المال في المغارة والثلاثة قتلى عنده، فمرّ عيسى عليه السلام فرآهم على تلك الحالة فقال لأصحابه: هذه الدنيا فاحذروها!

* هي الدنيا تقولُ بملء فيها ... حذارِ حذارِ من بطشي وفتكي
فلا يغرركموا مني ابتسامٌ ... فقولي مُضحك والفعل مُبكي

تقلبات الدنيا بأهلها

* والدنيا لا تستقر على حال، ودوام الحال من المحال، فما أسرع تقلّبها بأهلها وتحوّلها من شدة إلى رخاء، ومن هناءة إلى شقاء، ومن غنى إلى فقر، ومن فقر إلى غنى، وكم علا فيها من أناس ثم اتضعوا، وانتكس فيها آخرون ثم ارتفعوا، ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا

بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠). والدنيا إذا حَلَتْ أَوْحَلتْ، وإذا كَسَتْ أَوْكَسَتْ، وإذا أَيْنَعَتْ نَعَتْ، وكَمْ مِنْ مَلِك ظهرتْ له فيها علامات، فلما علا، مات!

* قال ابن خلّكان: من أعجب ما يؤرخ من تقلّبات الدنيا بأهلها ما حكاه محمد بن غسان عن ابن عبدالرحمن الهاشمي قال: دخلت على والدتي في يوم نَحْر فوجدت عندها امرأة بَرْزة في ثياب رثّة، فقالت لي والدتي: أتعرف هذه؟ قلت: لا، قالت: هذه أم جعفر البرمكي، فأقبلت عليها بوجهي وأكرمتها وتحادثنا زماناً ثم قلت: يا أمي، ما أعجب ما رأيت؟ قالت: لقد أتى عليّ يا بني عيد مثل هذا وعلى رأسي أربعمائة وصيفة، وإني لأعدّ ابني عاقاً لي! ولقد أتى عليّ هذا العيد وما مُناي إلا جلد شاتين أفترش أحدهما وألْتحِفُ بالآجر! قال: فدفعت لها خمسمائة درهم، فكادت تموت فرحاً بها، ولم تزل تختلف إلينا حتى فرّق الموت بيننا!

والفرج يأتي في لحظات

* ومن عجيب أمر الدنيا أنّ الفرج فيها يأتي باللحظات، وكذلك النكبة والشدة، فلا يغتر أحد بحال، ولا ييأس من تغيُّره.

ما بين غَمْضةِ عَيْنٍ وانتباهَتِها ... يغيّرُ الله من حالٍ إلى حالِ

* أُتي بخارجي إلى يزيد، فأراد قتله فقال:

عسى فرجٌ يأتي به الله إنّه ... له كلَّ يومٍ في خليقتهِ أمرُ

فقال: والله لأضربنّ عنقك، اقتلوه! فدخل الهيثم بن الأسود فقال: أمسكوه قليلاً فدنا منه فقال: يا أمير المؤمنين، هبْ مجرم قومٍ لوافدهم، فقال: هو لك، فانطلق الخارجي وهو يقول: تأبى على الله فأبى إلا أنْ يُكذّبه، وغالبَه فأبى إلا أنْ يغلبَه!

* وشدّ بعض العمال رجلاً إلى أسطوانة يريد ضربه، فقال: حلّني من هذه إلى هذه، فحلّه، فما حلّه إلا وقد عُزل! وشُدّ العامل إلى الأسطوانةِ بعينها!

* وأُحضر رجلٌ ليُقتل في زمن أحد الملوك، فدعا بطعام فأخذ يأكل ويضحك فقيل: تضحك وأنت مقتول؟! فقال: من الساعة إلى الساعة فرج! فسُمعتْ صيحةٌ فقيل: مات الملك! فخلوا الرجل!

* وفي الأمثال العامية: البدوي يقذف عصاه إلى أعلى ويقول: حتى تنزل إلى الأرض يخلق الله ما لا نعلم! وأمْر الله بين الكاف والنون.

تأملات

* قال الإمام مالك بن أنس، قال لي أستاذي ربيعة: يا مالك، من السفلة؟ قلت: من أكَل بدينه، فقال: مَنْ سِفْلة السِّفْلة؟ قلت: من أصلح دنيا غيره بفساد دينه! فصدَّقني.

* وقال الفضيل بن عياض: لأنْ آكل الدنيا بالطبل والمزمار، أحبّ إليَّ من أنْ آكلها بدين!

* يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها
تعيب دنيا وناساً راغبين لها وأنت أكثر منهم رغبة فيها

* كان يحيى بن معاذ الرازي يقول لعلماء الدنيا: بيوتكم كسروية، ومراكبكم قارونية، وأوانيكم فرعونية، ومآثمكم جاهلية، ومذاهبكم شيطانية، فأين الشريعة المحمدية؟!

* وفي الحديث الشريف: سيكون في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله تعالى: أبي يغترون؟ أم عليَّ يجترئون؟ فبي حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران!

الشيب والشباب

* ما بكت العرب على شيء ما بكت على الشباب! ولو لم يكن الشباب حميداً وزمانه حبيباً، لوسامة صورته، وبهجة منظره، وجمال خِلقته، واعتدال قامته، لمّا جاور الله في جنات خلده شابٌّ، كما جاء عن رسول الله ﷺ في وصف أهل الجنة «جرداً مرداً أبناء ثلاثين» رواه الترمذي.

* ويروى أن ملك الموت سأل نوحاً عليه السلام - وقد عاش أكثر من ألف سنة ولبث في قومه داعياً تسعمائة وخمسين عاماً - فقال: يا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدنيا؟ قال: كرجل دخل في بيت له بابان فقام وسط البيت ساعة ثم خرج من الباب الثاني!!

* وكَمْ نَدَب الشعراءُ أيّام الشباب وتذكروا أيام الصبا، وضجروا من رؤية الشيب:

وَلّى الشبابُ فخلِّ الدمعَ يَنْهملُ ... فَقْدُ الشباب بِفَقْدِ الرّوح متّصلُ
لا تُكذِّبَنّ فما الدنيا بأجمعها ... من الشباب بيومٍ واحدٍ بدلُ!!

* قال أبو العتاهية:

ألا ليتَ الشبابَ يعودُ يوماً ... فأخبرَهُ بما فعلَ المشيبُ

* وقال آخر:

وقد جعلتُ إذا ما قمتُ يوجعني ... ظهري فقمتُ قيامَ الشارب السّكر
وكنتُ أمشي على رجليّ معتدلاً ... فصرتُ أمشي على أخرى من الشجر!!

* قيل لأعرابي قد بلغ من الكبر عتياً: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت تُقيّدُني الشّعْرة، وأَعْثر بالبَعْرة!!

* وقالوا: من بلغ السبعين اشتكى من غير علّة!!

* قيل لشيخ: ما بقي منك؟ قال: يَسْبقني مَنْ بين يديّ، ويُدركني مَنْ خلفي، وأَذْكر

القديم، وأنسى الحديث، وأنعسُ في الملا، وأسْهر في الخلا، وإذا قمْتُ قَرُبَت الأرضُ منيّ، وإذا قعدتُ تباعدتْ عنّي!

* قال أعرابي:

لـــلــه أيــامُ الــشــبــاب وعــصــره | لــو يُــســتــعــار جــديــدُه فــيُــعــارُ
مــا كــان أقــصــرَ لَــيْــلَــه ونــهــارَه | وكــذاك أيــامُ الــســرور قِــصــارُ

الشيب علامة الخبرة

* وإذا كانت أيام الشباب والفتوة مدعاة للهو والطرب حيث أن الشباب شعبة من الجنون أو عصارته، فإن ظهور الشيب وبدوّ أمارات الشيخوخة، يجب أن تكون حاجزاً عن الفساد واللهو ومانعة من التصابي وتعاطي المحرمات.

قـبـيـحٌ بـذي الـشـيـب أن يـطـربـا | ومـا لـلـمـشـيـب ومـا لـلـصِّـبـا؟!!

* قال مسلمة بن عبدالملك: ما وعظني شِعْرٌ ما وعظني ما قال عمرو بن حطان:

صبـا مـا صبـا حتىٰ عـلا الشيـبُ رأسه | فـلـمّـا عـلاه قـال لـلـبـاطـل: ابـعـد!!

* وقيل لرجل: ألا تشرب؟ فقال: في شيب الرأس مطردة عن الكأس. وقد قيل: شيبٌ وعيب؟! وقال أعرابي: فلان وضع رداء مجونه لما بدا الفجر من ليالي قرونه.

* قال يزيد بن المهلب لابنه: ليكن جلساؤك ذوي الأسنان فالشباب شعبة من الجنون. وتأمل حكيم شيبه فقال: مرحباً بزهرة الحنكة وثمرة الهدىٰ، ومقدمة العفّة ولباس التقوىٰ!! وروي أنّ إبراهيم عليه السلام لما بدا الشيب بعارضيه قال: يا رب ما هذا؟ قال: وقار. قال: يا رب زدني وقاراً!! ونظر أحدهم إلىٰ رجل قد وخطه الشيب فقال: اتق الله فإن الموت قد غرز أعلامه في لحيتك!! وقال رجل لعبد الملك: كم لك من السنين؟ فقال: أنا في معترك المنايا ابن ثلاث وستين. وقالوا: مَنْ مات أقرانه فقد آن أوانه.

* وقال بعض الشيوخ: كنتُ أخاف أني إذا شبْت تزهدُ فيّ النساء، فلمّا شبتُ كنت أزهد منهنّ فيّ!!

أسباب ظهور الشيب

* وتختلف سرعة ظهور الشيب من شخص لآخر، وقد يكون للعامل الوراثي أثر كبير في ذلك، ولكن قد يسرع الشيب لإنسان إذا استحكمت همومه واستعصت آلامه، وطال فكره وكثر شغله.

* قيل لعبدالملك بن مروان: عَجِل عليك الشيب يا أمير المؤمنين! قال: شيّبني ارتقاء المنابر وتوقّعُ اللحن.

* وحينما سئل رسول الله ﷺ عن شيبه قال: «شيبتني هود وأخواتها» وما ذاك إلا لما تضمنته هذه السور من شدة الأهوال في الآخرة ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾ (المزمل).

* وقيل لرجل من الشعراء: عَجِل عليك الشيب! فقال: وكيف لا يَعْجلُ وأنا أعْصُر قلبي في عمل لا يُرْجىٰ ثوابه، ولا يُؤْمَن عقابه!!

* قال الحسن بن رجاء:

إنْ يشبْ رأسي فمن كَرَمٍ ... لا يشيبُ المرء من كبرهِ
وخطوبٍ قد تحلُّ به ... ومشيبُ الحرِّ في صغرهِ

* وقال آخر:

وما شبْتُ من طول السنين وإنّما ... غبارُ حروب الدهر غطّىٰ سواديا

النساء والشيب

* وإذا كان الرجال يكرهون الشيب فإن النساء أشدّ كرهاً له ونفوراً منه، وحسبك أن ظهوره مقطع للآمال ومبدد لكثير من الأحلام.

* مرّ رجل أشمط بامرأة جميلة، فقال: يا هذه إنْ كان لك زوج فبارك الله لك فيه، وإلا فأعلمينا، فقالت: كأنك تخطبني؟ قال: نعم. فقالت: إنّ فيّ عيباً! قال: وما هو:

قالت: شيبٌ في رأسي! فثنى عنان دابته، فقالت: على رِسلك فلا والله ما بلغت عشرين سنة، ولا رأيت في رأسي شعرة بيضاء، ولكنني أحببت أن أعلمك أني أكره منك مثل ما تكره مني!!

* والمرأة تكره كل ما يدل على الكبر والشيخوخة، فهي تفرح وتستبشر إذا ناديتها باسم يدل على شبابها وقوتها، ولو كانت عجوزاً شمطاء! وتغضب إذا قلت لها: يا عجوز، أو يا جدّة، ولو كانت كذلك! ولو قلت لعجوز: يا شابة!! لفرحت، ولو كانت متقوسة الظهر، مجعدة الوجه!!

* مرّ شيخ قد انحنى ظهره وتقوّس بفتى شاب، فقال له: أتبيع هذا القوس يا عمّاه؟! فقال له: إنْ كبرتَ أخذْتَها بلا ثمن!!

* قال الشاعر لبيد:

ألـيس ورائـي إنْ تـراخـتْ مـنـيّـتـي لزوم العصا تُحْنىٰ عليها الأصابعُ
أُخبّـرُ أخبـار الـقـرون الـتـي مـضـتْ أدِبُّ كـأنّـي كـلـمّـا قـمـتُ راكـعُ

* وقال آخر:

إذا رأيـتَ صـلـعـاً فـي الـهـامَـهْ وحَـدَبـاً بـعـد اعـتـدال الـقَـامَـهْ
وصـار شـعْـرُ الـرأس كـالـثَّـغـامَـهْ فَـايْـأَسْ مـن الـصـحـة والـسـلامَـهْ

- الثغامة: نبات أبيض -.

* ويروىٰ أن كسرىٰ نظر إلىٰ رجلين من جلسائه، أحدهما قد شابَ رأسُه قبل لحيته، والآخر قد شابت لحيته قبل رأسه، فقال لأحدهما: لِمَ شاب رأسُك قبل لحيتك؟ قال: لأن شعر رأسي خُلق قبل شعر لحيتي، والكبير يشيبُ قبل الصغير!! وقال للآخر: لم شابت لحيتك قبل رأسك؟ قال: لأنها أقربُ إلىٰ الصّدر موضع الهمّ والغمّ!!

الترحيب بالشيب

* وكثير من الشعراء زينوا الشيب ومدحوه، ومن أروع ما مُثّل به الشيب قول أحدهم :

أُحبُّ الشيب لما قيل ضيف ... لِحُبّي للضيوف النّازلينَا

* وقال أيضاً :

أهلاً وسهلاً بالمشيب فإنه ... سِمةُ العفيف وحليةُ المتحرّجِ

وكأنّ شيبي نظمُ درٍّ زاهر ... في تاج ذي مُلْكٍ أغرَّ متوّجِ

ضيفٌ ألمَّ بمفرقي فقَرَيْتُه ... رفض الغواية واقتصاد المنهجِ

* عجوزٌ تمنت أن تعودَ صبيةً ... وقد نَحَلَ الجنبانِ وَاحْدَوْدَبَ الظهرُ

فسارتْ إلى العطار تبغي شبابها ... وهل يصلحُ العطّارُ ما أفسدَ الدهرُ؟!

* قال أحدهم للحجام : التقط هذه الشعرات البيض ، فقال الحجام : لا تلتقطها فإنها تكثر ، فقال : فإذاً فالتقط السود فلعلها تكثر!!!

الخضاب

* وكثير من الناس يغيرون الشيب بالخضاب والأصباغ لإخفائه حتى قال أحدهم :

الشيبُ ضيفك فاقْرِهِ بخضاب ... إنَّ الخضاب هو الشباب الثاني

* وقيل لأعرابية : فلان يختضب ، فقالت : لا يُنال الشباب بالخضاب كما لا يُنال الغنى بالمنى!

* وقال ابن الرومي :

يا أيها الرجل المسوّد وجهه ... كيما يُعدَّ به من الشُّبان

أَقْصِرْ فلو سوّدتْ كل حمامة ... بيضاءَ ما عُدّت من الغربان

* وما أشبه الشيخ الذي يغير بالسواد بالعجوز التي تضع المساحيق والأصباغ لتتصابى، فهذا شباب مدلّس وفتوة مزوّرة، وصبا مغشوش.

* قال مالك بن أسماء بن خارجة لجاريته: قومي اخضبي رأسي ولحيتي، فقالت: دعْني، قد عييت بما أُرَقِّعك!!

* قال أحدهم يصف سن الشيخوخة والهرم:

فاسمع أنبئك بآيات الكِبَرْ   تقارُب الخطْوِ وضعفٌ في البَصَرْ
وقلّة الطُّعْم إذا الزادُ حضَرْ   وكثرةُ النسيان ما بي مُدّكرْ
وقلّةُ النوم إذا الليل اعْتكرْ   أوّلُه نومٌ وثُلْثاه سَهَرْ
وسِعلةٌ تعتادُني مع السّحْر   وتركيَ الحسناء في حين الطُّهُرْ
وحذراً أزدادُه إلى حَذَرْ   والناس يَبْلُون كما يَبْلى الشجرْ!!

* ومهما عمّر الإنسان فإنه يتمنى عمراً أزيد وحياة أمدد، ولو كان في ذلك الكبرُ والهرم. وتصبح أيام الشباب ومغاني الصبا بالنسبة له ذكريات يستعيدها فيستلذّ بسرد أحاديثها وينشط بسماع أخبارها. قال معاوية لمّا أسنّ: ما مرّ شيء كنتُ أستلذّه وأنا شاب فأجده اليوم كما أجده إلا اللبن والحديث الحسن!!

* قال أحدهم يمدح الشيب وينكر على مَنْ عيّره به.

عيرتني بالشيب وهو وقار   ليتها عيّرت بما هو عارُ
إنْ تكن شابت الذوائب مني   فالليالي تزينها الأقمارُ!

* قيل لأحدهم: إن فلاناً يختضب، فقال: كره أنْ يُطالب بحكمة الشيوخ!.

الرثاء والعزاء

* قال الأصمعي: قلت لأعرابي: ما بال المراثي أشرفُ أشعاركم؟ قال: لأنا نقولُها وقلوبُنا مُحْترِقة!. وقال عمر بن ذر: سألت أبي: ما بال الناس إذا وعظتهم بكوا وإذا وعظهم غيرُك لم يبكوا؟ قال: يا بني، ليست النائحة الثَّكْلى، مثلَ النائحة المستأجَرة!.

* العرب هم أصدق الناس عاطفة، وأقدر من غيرهم على تصوير ساعة الفراق وألم اللوعة وعِظَم المصاب بصورة تدمي القلوب وتجرح العيون، ولا أحد يدانيهم في رقة الطبع وجزالة اللفظ وعذوبة الكلمة إذا رثوا ميتاً أو عزَّوا مصاباً.

* جلس يزيد الرَّقاشي بين المدينة والمقبرة، فقيل له: ما أجلسك ههنا؟ فقال: أنظر إلى هذين العسكرين، فعسكر يَقْذف الأحياء، وعسكر يلْتقم الموتى!.

* وكان علي رضي الله عنه إذا دخل المقبرة قال: أما المنازل فقد سُكِنتْ، وأما الأموال فقد قُسِّمَتْ، وأما الأزواجُ فقد نُكِحتْ، فهذا خبرُ ما عندنا، فليت شعري ما عندكم؟ ثم قال: والذي نفسي بيده، لو أُذِن لهم في الكلام لقالوا: إنَّ خير الزاد التقوى.

* ولَمَّا استُشْهد زيدُ بن الخطاب باليمامة، وكان معه رجل من بني عدي، فرجع إلى المدينة، فلما رآه عمر دمعت عينه وقال: وخَلَّفْتَ زيداً ثاوياً وأتيتني! وقال عمر رضي الله عنه: ما هبَّت الصَّبا إلا وجدْتُ نسيم زيد!. وكان إذا أصابته مصيبة قال: فقْدتُ زيداً فصبرْتُ!

* وقد كثر الرثاء في الأدب العربي وخلَّف لنا الأدباء والشعراء ثروة هائلة من الرثاء والتعازي والنوادب، تعبِّر عن عمق الإحساس وصدق العاطفة ونقاء الفطرة بألفاظ شجيّة، تذيب الدموع الجامدة في محاجرها، وترقق القلوب المتحجرة في مكامنها، وتبعث على الحزن واللوعة، بأسلوب رقيق يمسح أوتار القلوب فيدميها من الأسى، وصوت لطيف حنون كترجيع الطير يترك صدعاً في القلوب وشروخاً في الوجوه من آثار البكاء والنشيج والنَّحيب.

* وإنما جُعلت المراثي تسلية لمن عضَّتْه النوائب بأنيابها ، وفرَّقت الحوادث بين نفسه وأحبابها ، وقد يكون فيها سلوان القلب وراحة النفس ، ولربما كان فيها العزاء ، والدعوة للتحلي بالثبات على حرّ المصاب والتسلح بالصبر والرضا بقضاء الله وقدره .

* لما مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ حزن رسول الله عليه كثيراً وقال : يا إبراهيم لولا أنه أمرٌ حقٌّ ووعدٌ صدقٌ ، وأن آخِرَنا سَيَلْحَقُ أوَّلَنا ، لحَزِنَّا عليك حُزناً هو أشدُّ من هذا ، وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون . تبكي العين ويَحْزَنُ القلبُ ، ولا نقولُ ما يُسْخِطُ الربَّ . . .

* وقال أبو العتاهية :

وإذا أَتَتْكَ مصيبةٌ تَشْجَى بها ... فاذْكُرْ مُصَابَك بالنبيِّ مُحَمَّدِ

* قام الحسن البصري على قبر أخيه فبكى شديداً ، فقيل له في ذلك ، فقال : ما رأيت الله عاتب يعقوب على طول بكائه على يوسف عليهما السلام بل قال : ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤)﴾ (يوسف) .

* ويروى أن فاطمة رضي الله عنها وقفت على قبر أبيها ﷺ فقالت :

ماذا على مَنْ شمَّ تربةَ أحمدٍ ... أنْ لا يشمَّ مدى الزمان غواليا

صبَّتْ عليَّ مصائبٌ لو أنَّها ... صبَّتْ على الأيامِ عُدْنَ لياليا !

* ولما دفنَ عليٌّ رضي الله عنه فاطمة بنت رسول الله ﷺ تمثّل عند قبرها فقال :

لكلِّ اجتماعٍ من خليلَيْن فُرْقةٌ ... وكلّ الذي دونَ المماتِ قليلُ

وإنَّ افتقادي واحداً بعد واحدٍ ... دليلٌ على أنْ لا يَدُومَ خليلُ

* وقيل في رثاء ملك : كان أمسِ أنْطقَ منه اليوم ، وهو اليوم أوعظُ منه أمسِ !

ابلغ المراثي

* وقال أبو ذُؤيب الهُذليّ، وكان له أولادٌ سبعة فماتوا كلّهم، إلا طفلاً، فقال يرثيهم:

أَمِنَ الْمَنُونَ(١) وَرَيْبِهِ تَتَوَجَّعُ ... والدهرُ ليس بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

قالتْ أُمَيْمَةُ: مَا لِجِسْمِكَ شَاحِباً ... مُنْذُ ابْتُذِلْتَ وَمِثْلُ مَالِكَ يَنْفَعُ

أمْ مَا لِجِسْمِكَ لا يُلائِمُ مَضْجَعاً ... إلاَّ أَقَضَّ عَلَيْكَ ذَاكَ المَضْجَعُ

فَأَجَبْتُهَا: أَنَّ مَا لِجِسْمِي إنَّهُ ... أَوْدَىٰ(٢) بَنِيَّ مِنَ البِلادِ فَوَدَّعُوا

أَوْدَىٰ بَنِيَّ وَأَعْقَبُونِي حَسْرَةً ... بَعْدَ الرُّقَادِ وَعَبْرَةً مَا تُقْلِعُ

سَبَقُوا هَوِيَّ(٣) وَأَعْنَقُوا لِهَوَاهُمُ ... فَتُخُرِّمُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ

فَبَقِيتُ بَعْدَهُم بعيشٍ نَاصِبٍ ... وَإِخَالُ أَنِّي لاَحِقٌ مُسْتَتْبِعُ

وَلَقَدْ حَرِصْتُ بِأَنْ أُدَافِعَ عَنْهُمُ ... وإذَا المَنِيَّةُ أَقْبَلَتْ لاَ تُدْفَعُ

وَإِذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لا تَنْفَعُ

فالعَيْنُ بَعْدَهُمُ كأنَّ حِدَاقَهَا ... سُمِلَتْ(٤) بِشَوْكٍ فهي عُورٌ تَدْمَعُ

حَتَّىٰ كَأَنِّي لِلحَوادِثِ مَرْوَةٌ(٥) ... بِصَفَا المُشَرَّق كلَّ يومٍ تُقْرَعُ

وتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهُمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لا أَتَضَعْضَعُ!!

---

(١) المنون: المراد به هنا الدهر. (٢) أودىٰ: هلك.

(٣) هوىٰ: هواي. وهي لغة هذيل. وأعنقوا: تبع بعضهم بعضاً. (٤) سملت: فُقئت.

(٥) المروة واحدة المرو، وهي الحجارة البيض. والمشرّق: سوق الطائف. يقول: كأنما أنا مروة في السوق تقرعها أقدام الناس ومرورهم بها، للمصائب التي تمر به فتقرعه كل يوم.

* وقال في الطفل الذي بقي له:

والنَّفْسُ رَاغِبةٌ إذَا رَغَّبْتَهَا   وإذَا تُرَدُّ إلَىٰ قَلِيلٍ تَقْنَعُ!

قال الأصمعي: هذا أبْدَعُ بيت قالته العرب!

* وأصيب أبو العتاهية بابن له، فلما دفنه وقف على قبره وقال:

كَفَىٰ حُزْناً بدفْنك ثم أني   نَفَضَّتُ تُرابَ قَبْرِكَ من يَدَيَّا

وكانت في حياتك لي عِظَات   فأنتَ اليومَ أَوْعَظُ منك حَيَّاً!

* وقالوا: أرْثىٰ بيت قالته العرب قول مُتَمَّم بن نُوَيرة في أخيه مالك، وكان قد قتله خالد بن الوليد رضي الله عنه في الردَّة، وكان متمم قَدِمَ العراق، فأقبل لا يرىٰ قبراً إلا بكىٰ، فقيل له يموت أخوك بالملا وتبكي علىٰ قبر بالعراق؟! فقال:

لقد لاَمني عند القبورِ علىٰ البكا   رفيقي لِتَذْرافِ الدموع السَّوافِكِ

أَمِنْ أجل قبرٍ بالمَلا أنْتَ نائحٌ   علىٰ كلِّ قبرٍ أو علىٰ كل هالِكِ؟!

وقال: أتَبْكِي كلّ قبرٍ رأَيْتَهُ   لقبرٍ ثوَىٰ بين اللَّوىٰ فالدَّكادِكِ؟!

فقلت: له: إن الشجا يبعث الشَّجا   فدعني فهذا كُلُّه قبرُ مالِكِ!!

ويعني بذلك أن مصابه عظيم قد ملأ الأرض كلها، فكأنه مدفونٌ بكل مكان وهذا أبلغ ما قيل في تعظيم ميِّت. ويروىٰ أن عمر قال له: ما بلغ من حزنك علىٰ أخيك؟ قال: بكيت عليه حتىٰ ساعدت عيني العوراءُ الصحيحة! قال: ثم ماذا؟ قال: سلوت! وهذا كما قيل: كل صغير يكبر إلا المصيبة فإن الله خلقها كبيرة ثم تصغر.

* وقيل: أرثىٰ بيت قالته العرب قول المُحْدَث:

علىٰ قبره بين القبور مهابةٌ   كما قبلها كانت علىٰ صاحب القبرِ

* وقيل: بل أرثىٰ بيت هو:

أَرَادُوا لِيُخْفُوا قَبْرَهِ عَنْ عَدوِّهِ	فطيبُ تُرابِ القبرِ دَلَّ علَىٰ القبرِ!

* ومن أحسن الرثاء قول حسين بن مُطَير الأسدي:

أَلَمَّا بِمَعْنٍ ثمَّ قُولاَ لِقَبْرِهِ	سقَتْكَ الغَوَادِي مَرْبعاً ثمَّ مَرْبعاً
فتىً عِيْشَ في معروفه بعد موته	كمَا كان بعد السيل مجراهُ مَرْتَعاً
أيا قبر معْن كُنْتَ أوَّلَ حُفْرةٍ	من الأرضِ خُطَّتْ للسماحة مَضْجَعاً
ويا قبر معن كيف واريْتَ جُودَهُ	وقد كان منه البَرُّ والبحرُ مُتْرَعاً!
بلىٰ قَدْ وَسِعْتَ الجودَ والجودُ مَيِّتٌ	ولو كان حياً ضِقْتَ حتىٰ تَصَدَّعا
ولمَّا مضىٰ معنٌ مضىٰ الجودُ والنَّدَىٰ	وَأصْبَحَ عِرْنِينُ المكارمِ أَجْدَعَا!

* قال أبو هلال العسكري: هذه الأبيات أرثىٰ ما قيل في الجاهلية والإسلام.

* ومن جميل الرثاء قصيدة الفرزدق التي يرثي بها زوجته النوار، ويقول فيها:

لولا الحياءُ لهاجني استعبارُ	ولزرتُ قبرك والحبيبُ يُزارُ
ولقد نظرت وما تمتّع نظرةٌ	في اللحد حيث تمكن الإحفارُ
ولّهتِ قلبي إذْ علتني كبْرةٌ	وذوو التمائم من بنيك صغارُ
لا يَلْبثُ القرناءُ أن يتفرَّقوا	ليلٌ يكرُّ عليهم ونهارُ
صلّىٰ الملائكة الذين تُخيِّروا	والطيبون عليك والأبرارُ
فلقد أراكِ كُسيتِ أحسن منظرٍ	ومع الجمال سكينةٌ ووقارُ

وقال أعرابي يرثي ابنه:

وَلَمَّا دَعَوْتُ الصَّبْرَ بَعْدَكَ وَالأَسَىٰ	أَجَابَ الأَسَىٰ طَوْعاً وَلَمْ يُجِبِ الصَّبْرُ
فَإِنْ يَنْقَطِعْ مِنْكَ الرَّجَاءُ فَإِنَّهُ	سَيَبْقَىٰ عَلَيْكَ الْحُزْنُ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ

* لما ماتت بنت الخليفة المهدي، أظهر عليها المهدي جزعاً لم يُسمع بمثله، فجلس للناس يعزونه، وأمر ألا يحجب عنه أحد، فأكثر الناس في التعازي، واجتهدوا في البلاغة، فأجمعوا على أنهم لم يسمعوا تعزيةً أوجز ولا أبلغ من تعزية شبيب بن شيبة، فإنه دخل عليه فقال: أعطاك الله يا أميرَ المؤمنين على ما رُزئت أجراً، وأعقبك صبراً، لا أجهد الله بلاءك بنقمة، ولا نزع منك نعمة، ثوابُ الله خيرٌ لك منها، ورحمة الله خير لها منك، وأحقّ ما صُبر عليه ما لا سبيل إلى رده، وأنا أسأل الله ألا يحزنك ولا يفتنك!

* ورثى ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد ابناً له مات صغيراً فقال:

عَلَى مِثْلِهَا مِنْ فَجْعَة خانني الصَّبْرُ ... فِراق حبيب دون أَوْبته الحشْرُ
وَلِي كَبدٌ مَشْطُورة في يد الأسى ... فَتَحْتَ الثَّرى شَطرٌ وفوق الثَّرى شَطْرُ
يقولونَ لي، صَبِّرْ فُؤَادَكَ بعده ... فقلتُ لَهُم: مَا لِي فؤادٌ ولاَ صَبْرُ
فُرَيْخ مِنْ الحُمْر الحواصلِ ما اكْتسى ... من الريش حتَّى ضمَّهُ الموتُ والقبرُ
إذَا قلتُ أسْلُوا عنه هَاجَتْ بلابلٌ ... يُجَدِّدُهَا فِكْر يُجدِّده ذِكْرُ
وأنظر حَوْلي لا أرى غير قَبْرِهِ ... كَأنَّ جميع الأرضِ عندي لَهُ قَبرُ
أَفَرْخَ جِنَانِ الخُلْد طِرْتَ بِمُهْجَتي ... وليسَ سِوى قَعْرِ الضَّرِيحِ لَهُ وَكْرُ!

* ومن أحسن الرثاء وأشجاه، ما نطقت به الخنساء تماضر بنت عمرو، في رثائها أخيها صخراً:

قَذَىً بِعَيْنِكَ أم بالعينِ عُوَّارُ ... أَمْ أَقْفَرتْ إذْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ
كأنَّ عَيْني لِذكْراهُ إذَا خَطَرَتْ ... فَيْضٌ يسيلُ على الخَدَّينِ مِدْرارُ
فالعينُ تبكي على صخرٍ وحُقَّ لَهَا ... ودونه من جديد الأرض أسْتَار
وإنّ صخراً لحامينا وسيدنا ... وإن صخراً إذا نشتوا لنحّارُ

وإنَّ صخراً لتأتمُّ الهداةُ بهِ كأنَّهُ عَلَمٌ في رأسِهِ نارُ
حمَّال ألوية هبَّاط أودية شهَّاد أندية للجيش جرَّارُ

* نظر عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الخنساء وبها نُدوب في وجهها، فقال: ما هذه النُّدوب يا خنساء؟ قالت: من طُول البكاء على أخَويَّ! قال لها: أخواك في النار! قالت: ذلك أطْولُ لِحُزْني عليهما، إني كنت أُشْفِقُ عليهما من النار وأنا اليوم أَبْكي لهما من النار!.

* وقالت فيه:

يُذَكِّرني طلوعُ الشمسِ صخراً وأبْكِيه لكلِّ غروبِ شمسِ
ولولا كثرةُ الباكينَ حَوْلِي على إخوانِهِم لَقَتَلْتُ نَفسي
وما يَبْكُونَ مِثْلَ أخي ولكنْ أُسَلِّي النفسَ عنه بالتَّأسِّي

* قال بعض الحكماء: موت الأب قَصْم الظهر، وموت الأخ قص الجناح، وموت الابن صدع في الفؤاد.

عزاء

* جاء رجل إلى عبدالله بن عباس رضي الله عنهما فعزاه بأبيه العباس فقال:

اصبر نكن بك صابرين فإنما صبرُ الرعية عند صبر الرَّاسِ
خيرٌ من العباس أجرُك بعده والله خيرٌ منك للعباسِ

فقال ابن عباس: ما عزَّاني أحد أحسن من تعزيته!.

عروة بن الزبير

* قدم رجل من عَبس، ضرير محطوم الوجه، على الوليد بن عبدالملك، فسأله عن سبب ضُرّه، فقال: بتُّ ليلة في بطن وادٍ، ولا أعلم على الأرض عبسياً يزيدُ مالُه على

مالي، فطَرَقَنَا سَيلٌ، فأذْهَب ما كان لي من مالٍ وولدٍ، إلا صبياً رضيعاً وبعيراً صعباً، فشرد البعير، والصبي معي، فوضَعْتُهُ واتَّبعْتُ البعير لأَحْبِسه، فما جاوزْتُ إلا ورأسُهِ في بطن الذئب قد أكله، فتركْتُهُ وأتْبعْتُ البعير فاستدار فَرَمَحَني رَمْحَةً حَطَّم بها وجهي وأذهب عيني، فأصبحتُ لا ذا مالٍ ولا ولد! فقال الوليد: اذهبوا به إلىٰ عُرْوة بن الزبير ليعلم أنَّ في الناس مَنْ هو أعظمُ بلاءً منه! وكان عروة قد أصيب بداء خبيث في إحدىٰ رجليه فقطعها، فلم يتأوَّه ولم يتوجع، وما ترك حِزْبه في تلك الليلة، وظل ذاكراً لله حتىٰ في ساعة القطع واشتداد الألم، فلما كان بعد أيام قام ابنه محمد بن عروة ليلاً فسقط من أعلىٰ السطح في اصطبل دواب الوليد، فضربْتهُ بقوائمها حتىٰ قتلتْهُ، فأتىٰ رجل إلىٰ عروة يعزيه، فقال له عروة: إن كنت جئتَ تعزي برجْلي فقد احتَسَبْتُها! فقال: بل أُعَزِّيك في محمد ابنك، فقال: وماله؟ فأخبره بشأنه، فقال:

وكُنْتُ إذَا الأيامُ أحْدَثْنَ نَكْبَةً ... أقولُ شُوىٰ ما لم يُصِبْنِ صميمي

* شوىٰ: هيِّن حقير.

ثم قال: اللهم لك الحمد، كانوا سبعة - أي أولاده - فأخذتَ واحداً وأبقيتَ ستة وكنَّ أربعاً - يعني يديه ورجليه - ، فأخذت واحداً وأبقيت ثلاثة، فإن كنت أخذْتَ فلقد أعطيت، ولئن كنت قد ابتليتَ لقد عافيتَ! ولَمَّا قدمَ المدينةنزل قصره بالعقيق، فأتاه محمد بن المُنْكَدِر، فقال له: كيف كنت؟ قال: لقد لقينا من سَفَرِنَا هذا نَصَباً! وجاءه عيسىٰ بن طلحة، فقال لبعض بنيه: اكشف لعمك عن رجلي ينظر إليها، ففعل، فقال عيسىٰ: أما والله يا أبا عبدالله ما أعْدَدْنَاك للصِّراع، ولا للسِّباق، ولقد أبقىٰ الله لنا ما كنَّا نحتاج إليه منك، رَأْيَك وعِلْمَكَ! فقال عروة: ما عزاني أحدٌ عن رجلي مثلك!

* وقال الأصمعي: رأيت بصحراء جاريةً قد ألصقَتْ خَدَّها بقبْر وهي وتبكي وتقول:

خدِّي تَقِيكَ خُشُونَةَ اللَّحْدِ ... وقَلِيلَةٌ لكَ سَيِّدي خَدِّي

يا ساكِنَ القبرِ الذي بوفاته ... عَمِيَتْ عَلَيَّ مَسَالِكُ الرُّشْدِ

اسْمَعْ أَبُثُّكَ عِلَّتِي فلعلَّني ... أُطْفِي بذلك حُرْقَةَ الوَجْدِ!

* ومن أجود الرثاء وأتقنه وأبدعه، مراثي أبي تمام حيث يقول في رثاء محمد بن حُمَيد الطوسي:

كَذَا فَلْيَجِلَّ الْخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الأَمْرُ ... فَليسَ لعينٍ لَمْ يَفِضْ ماؤها عُذْرُ
تُوُفِّيتِ الآمالُ بعد محمدٍ ... وأصبح في شغلٍ عنْ السَّفَرِ السَّفْرُ
ومَا كانَ إلا مالَ مَنْ قلَّ مالُهُ ... وذُخْراً لمن أمسى وليس لهُ ذُخْرُ

*** ***

فَتَى ماتَ بين الضربِ والطعن ميتةً ... تقوم مَقَامَ النَّصْر إذ فاته النَّصرُ
وَمَا ماتَ حتى ماتَ مَضْرَبُ سَيْفِهِ ... من الشّلِّ واعْتَلَّت عليه القنَا السُّمْرُ
وقد كان فوتُ الموت سهلاً فردَّه ... عليه الحفاظُ المرُّ والخُلُقُ الوَعْرُ
ونفسٌ تَعاف العارَ حتى كأنَّه ... هو الكفرُ يوم الرّوع أو دونه الكُفْرُ

*** ***

تردَّى ثيابَ الموت حُمْراً فما أتى ... لها الليلُ إلا وهي من سندس خُضْرُ
كأنَّ بني نَبْهان يوم وفاته ... نجومُ سماءٍ خرَّ من بينها البدْرُ
يُعَزّوْن عن ثاوٍ تُعزَّى به العُلاَ ... ويَبْكي عليه الجُودُ والبأس والشعْرُ

*** ***

مضى طاهرَ الأثواب لم تَبْقَ روضةٌ ... غَدَاةَ ثوى إلا اشْتَهتْ أنَّها قَبْرُ
عليك سلامُ الله وقْفاً فإنّني ... رأيتُ الكريمَ الحرَّ ليس له عُمْرُ!

* الشلّ: طرد الأعداء بين يديه

* وللشعراء رثاء من نوع آخر، رثاء لمجد ضاع أو أمة بادت أو وطن سلب، كما حلّ في بلاد المسلمين، حينما استولى عليها الأعداء في العصور الغابرة وسقطت في أيديهم،

وتلك هي المصائب التي تحتاج إلىٰ رثاء وتعزية، فقد ضاعت أوطان وشعوب، وأمم وبلاد!.

* اغتمَّ الحجاج بموت صديق له، وعنده شامي أوفده عبدالملك في أمر هام، فقال الحجاج: ليت إنساناً يعزيني عنه بأبيات! فقال: أقول أيها الأمير؟ قال: قل، فقال: كل خليل سوف يفارق خليله بموت أو بصلب، أو يقع فوق البيت أو يقع البيت عليه، أو يسقط في بئر، أو يكون سبب لا نعرفه! فقال الحجاج: حسبُك، فمصيبتي بأمير المؤمنين حيث أرسل مثلك في مهمّ أنْسَتْني هذه!.

تأملات

* كان الإمام أحمد كثيراً ما يحدث ابنته عن فضل الإمام الشافعي وعلمه وتقواه، فدعاه الإمام أحمد يوماً لزيارته، فلما تناول طعام العشاء، توجه الشافعي إلىٰ فراشه واستلقىٰ عليه.. ونام.. فقالت بنت الإمام أحمد: يا أبتاه، أهذا هو الشافعي الذي كنت تحدثني عنه؟ قال لها: نعم. قالت: لقد لاحظت عليه ثلاثة أمور وانتقدته فيها: إنه عندما قدمنا له الطعام أكل كثيراً... وعندما دخل الغرفة لم يقم ليصلي قيام الليل والتهجد.. وقد صلىٰ بنا الفجر من غير أن يتوضأ! فذهب أحمد للشافعي مستفسراً عن هذه الأمور، فقال له الشافعي: يا أحمد لقد أكلت كثيراً لأنني أعلم أن طعامكم من حلال وأنك كريم، وطعام الكريم دواء، وطعام البخيل داء، وما أكلت لأشبع، وإنما أكلت لأتداوىٰ بطعامك! وأما أنني لم أقم الليل، فلأني عندما وضعت رأسي لأنام، نظرت كأن كتاب الله وسنة نبيه أمام عيني، فاستنبطت اثنتين وسبعين مسألة فقهية ينتفع بها المسلمون، فلم يكن هناك فرصة لقيام الليل! وأما أني صليت بكم الفجر بغير وضوء، فوالله ما ذاقت عيني طعم النوم حتىٰ أجدد الوضوء، فلقد بقيت طوال الليل يقظاناً، فصليت بكم الفجر بوضوء العشاء!

رثاء البشر

يتحدث المعري في قصيدته هذه عن فلسفة الحياة والموت، وهذا ما يدعى: رثاء البشر، وهذه أبيات من هذه القصيدة التي كانت بالأصل رثاء للفقيه الحنفي أبي حمزة صديق المعري:

غَيْرُ مُجدٍ، في مِلّتي واعتقادي ... نَوْحُ باكٍ ولا تَرنُّم شادِ (١)
وشبيهٌ صوت النّعِيّ، إذا قيس ... بصوت البشير في كل ناد (٢)
أبكت تلكم الحمامة، أم ناحت ... على فرع غصنها الميّاد؟ (٣)
صاحِ! هذه قبورنا تملأ الرحب، ... فأين القبور من عهد عاد؟
خفف الوطء! ما أظن أديم ... الأرض إلا من هذه الأجساد(٤)
وقبيحٌ بنا، وإن قدم العهد ... هوان الآباء والأجداد
سِرْ إن اسطعت في الهواء رويداً ... لا اختيالاً على رفات العباد(٥)
ربَّ لحد قد صار لحداً مراراً ... ضاحك من تزاحم الأضداد(٦)
ودفين على بقايا دفين ... في طويل الأزمان والآباد(٧)
فأسأل الفرقدين عمن أحسَّا ... من قبيل وآنسا من بلاد(٨)
كم أقاما على زوال نهار ... وأنارا المدلج في سواد
تعبٌ كلها الحياة، فما أعجب ... إلا من راغب في ازدياد

---

(١) مجد: مغن، نافع، والترنم: الغناء. (٢) النعي: المخبر بالموت. (٣) المياد: المتعطف المتمايل. (٤) أديم الأرض: وجه الأرض. (٥) الرفات: الحطام أو العظم البالي. (٦) اللحد: القبر. (٧) الآباد: جمع أبد وهو الدهر. (٨) الفرقدين: كوكبان في بنات نعش الصغرى، قريبان من القطب يهتدى بهما في السفر.

إنّ حزناً في ساعة الموت أضعا ... ف سرور في ساعة الميلاد

خلق الناس للبقاء، فضلت ... أمة يحسبونهم للنفاد

إنما ينقلون من دار أعما ... ل إلى دار شقوة، أو رشاد (١)

ضجعة الموت رقدة يستريح ... الجسم فيها، والعيش مثل السهاد

رثاء مصلوب

* من أبلغ المراثي وأرقها ما قاله أبوالحسن محمد بن عمر بن يعقوب الأنباري، في رثاء الوزير أبي طاهر، محمد بن بقية الذي قتله عضد الدولة وصلبه وهي من نوادر المراثي:

عُلوٌّ في الحياةِ وفي المَمَاتِ ... لَحَقٌّ أَنْتَ إحدىٰ المعجِزَاتِ

كَأَنَّ الناسَ حولَكَ حينَ قاموا ... وفودُ نَداكَ(٢) أَيَّامَ الصِّلاتِ(٣)

كأَنَّكَ قائمٌ فيهم خطيباً ... وكلُّهُمُ قيامٌ للصَّلاةِ

ولَمْ أرَ قَبْلَ جَذعك قط جذعاً ... تمكّن من عناق المكرماتِ

مَدَدْتَ يَدَيكَ نحوَهُمُ احتفاءً(٤) ... كمدِّهِمَا إليهمْ بالهِبَاتِ

ولمَّا ضَاقَ بطنُ الأرضِ عنْ أنْ ... يَضُمَّ عُلاكَ من بعدِ الوَفَاةِ

أصاروا الجوَّ قبرَكَ واستعاضوا ... عنِ الأكفانِ ثوبَ السَّافياتِ(٥)

لِعظْمكَ في النفوس تَبيتُ تُرْعَىٰ ... بحُرَّاسٍ وحُفَّاظٍ ثِقاتِ

وتُوقَدُ حَولَكَ النِّيرانُ ليلاً ... كذلكَ كنتَ أيَّامَ الحياةِ

ولو أنِّي قَدَرتُ علىٰ قيامٍ ... بفرضِكَ والحقوقِ الواجباتِ

---

(١) دار أعمال: الدنيا، دار شقوة: جهنم، دار رشاد: الجنة. (٢) نداك: جودك وكرمك. (٣) الصلات: العطايا ومفردها صلة. (٤) احتفاء: احتفالاً وترحيباً. (٥) السافيات: الرياح الحاملة للتراب ومفردها سافية.

مـلأتُ الأرضَ مـن نـظـم الـقـوافـي ونُـحْـتُ بِـهَـا خِـلافَ الـنـائِـحَـاتِ
ولـكـنـي أُصَـبِّـرُ عـنـكَ نَـفْـسِـي مـخـافـةَ أنْ أُعَـدَّ مِـنَ الجُـنَـاةِ
وَمَـالَـكَ تـربـةٌ فـأقـولُ تُـسْـقَـىٰ لأَنَّـكَ قَـصْـدُ هَـطْـلِ الـهـاطِـلاتِ(١)

* ولما صنع أبوالحسن المرثية التائية هذه كتبها ورماها في شوارع بغداد، فتداولتها الأدباء، إلىٰ أن وصل الخبر إلىٰ عضد الدولة، فلما أنشدت بين يديه تمنىٰ أن يكون هو المصلوب دونه! فقال: عليَّ بهذا الرجل، فطلب سنة كاملة، واتصل الخبر بالصاحب ابن عباد وهو بالري فكتب له الأمان، فلما سمع أبوالحسن ابن الأنباري بذكر الأمان قصده فقال له: أنت القائل هذه الأبيات؟ قال: نعم، قال: أنشدنيها من فيك، فلما أنشد:

ولـم أر قـبـل جـذعـك قـط جـذعـاً تـمـكـن مـن عـنـاق المـكـرمـات

قام إليه الصاحب وعانقه وقبَّل فاه! وأنفذه إلىٰ عضد الدولة، فلما مثل بين يديه قال له: ما الذي حملك علىٰ مرثية عدوي؟ فقال: حقوق سلفت، وأياد مضت، فجاش الحزن في قلبي فرثيت! فقال: هل يحضرك شيء في الشموع، والشموع تزهر بين يديه، فأنشأ يقول:

كـأنَّ الـشـمـوعَ وقـد أظـهـرت مـن الـنـار فـي كـل رأس سـنـانـا
أصـابـع أعـدائـك الخـائـفـين تـضـرَّعُ تـطـلـب مـنـك الأمـانـا

فلما سمعها خلع عليه وأعطاه فرساً وبدرة!

ابن الرومي يرثي ابنه

بـكـاؤكـمـا يَـشـفي و إن كـان لا يُـجْـدي فـجـودا فـقـد أَوْدىٰ نـظـيـرُكُـمـا عـنـدي
بُـنـيّ الـذي أهـدتـه كـفـايّ لـلـثـرىٰ فـيا عزة الـمُـهْـدىٰ، ويا حـسـرة المهدي

(١) الهاطلات: السحب الماطرة.

ألا قاتلَ اللهُ المنايا و رميَها ... من القوم حبات القلوب على عمد
توخّى حِمام الموت أوسط صبيتي ... فلله كيف اختار واسطة العقد
على حين شِمْتُ الخير من لمحاته ... و آنستُ من أفعاله آية الرشد
طواه الردى عني ، فأضحى مزاره ... بعيداً على قرب، قريباً على بُعْدِ
لقد أَنْجَزَتْ فيه المنايا و عيدها ... وأخلفتِ الآمال ما كان من وعد
لقد قلّ بين المهد و اللحد لُبْثه ... فلم ينسَ عهد المهد، إذ ضُمَّ في اللحد
ألحّ عليه النزف حتى أحاله ... إلى صفرة الجاديّ عن حمرة الورد
و ظلّ على الأيدي تَسَاقطُ نفسُه ... ويذوي كما يذوي القضيب من الرّند
فيا لك من نفس تَساقطُ أنفساً ... تَساقط دُرّ من نظام بلا عقد
عجبتُ لقلبي كيف لم ينفطر له ... ولو أنه أقسى من الحجر الصّلْد
بودي أني كنت قُدِّمْتُ قبله ... و أن المنايا، دونه، صَمَدت صَمْدي
ولكنَّ ربي شاء غير مشيئتي ... وللرب إمضاءُ المشيئة، لا العبد
و ما سرَّني أن بعته بثوابه ... و لو أنه التخليد في جنة الخلد
و لا بعته طوعاً، ولكن غُصِبْتُهُ ... و ليس على ظلم الحوادث من مُعْدِي
و إني وإن مُتِّعْتُ بابنيّ بعده ... لَذَاكِرُه ما حنّت النيب في نجد
وأولادنا مثل الجوارح، أيها ... فقدناه، كان الفاجع البيّن الفَقْدِ
لكلٍّ مكانٌ لا يَسُدُّ اختلالَهُ ... مكانُ أخيه في جَزوع ولا جَلد
هل العينُ بعد السمع تكفي مكانَه ... أم السمعُ بعد العين، يهدي كما تَهدي؟
لعمري لقد حالت بي الحال بعده، ... فيا ليت شعري كيف حالت به بعدي

ثكِلْتُ سروري كله إذ ثَكِلْتُه … و أصبحت في لذّات عيشي أخا زُهْدِ
أريحانةَ العينين والأنف و الحشا … ألا ليت شعري، هل تغيرتَ عن عهدي
سأسقيك ماء العين ما أسعدت به … وإن كانت السُّقْيا من العين لا تُجْدي
أعينيّ جودا لي، فقد جُدْتُ للثرىٰ … بأنْفَسَ مما تُسألان من الرِّفْد
أَعيْنَيّ إنْ لا تُسْعِداني أَلُمْكُما … وإنْ تُسْعِداني اليوم تستوجبا حمدي
عَذَرْتُكما لو تُشْغَلان عن البكا … بنومٍ ومانوم الشجيّ أخي الجهدِ؟
أقرة عيني، قد أطلْتَ بكاءها … و غادرتها أقذىٰ من الأعين الرُّمد
أقرة عيني، لو فدىٰ الحيُّ ميّتاً … فديُتك بالحوباء أوّلَ من يفدي
كأني ما استمتعْتُ منك بنظرةٍ … ولا قُبْلةٍ أحلىٰ مذاقاً من الشَّهدِ
كأني ما استمتعتُ منك بضمة … ولا شمّةٍ في ملعبٍ لك أو مهد
أُلامُ لما أُبْدي عليك من الأسىٰ … و إني لأُخفي منه أضعاف ما أبدي
محمدُ، ما شيء تُوُهِّم سلوةً … لقلبيَ إلاّ زاد قلبي من الوَجْد
أرىٰ أخوَيْك الباقيين كليهما … يكونان للأحزان أَوْرىٰ من الزَّند
إذا لعبا في ملعبٍ لك لذّعا … فؤادي بمثل النار عن غير ما قصد
فما فيهما لي سلوةٌ بل حزازةٌ … يهيجانِها دوني، وأشقىٰ بها وحدي
وأنتَ وإن أفردتَ في دارِ وحشةٍ … فإني بدار الأنس في وحشة الفرد
أودُّ إذا ما الموت أوفَدَ معشراً … إلىٰ عسكر الأموات، أني من الوفد
ومن كان يستهدي حبيباً هديةً … فطيفُ خيالٍ منك في النوم أستهدي
عليك سلام الله مني تحيّة … ومن كل غيث صادق البرق و الرعد!

إلى الأمير الدمشقي

* للشاعر نزار قباني يرثي ابنه توفيق:

مكسرة كجفون أبيك هي الكلمات..
ومقصوصة، كجناح أبيك، هي المفردات
فكيف يغني المغني؟
وقد ملأ الدمع كل الدواه..
وماذا سأكتب يا بني؟
وموتك ألغى جميع اللغات..

***

لأي سماء نمد يدينا؟
ولا أحداً في شوارع لندن يبكي علينا..
يهاجمنا الموت من كل صوب..
ويقطعنا مثل صفصافتين
فأذكر، حين أراك، عليا
وتذكر حين تراني، الحسين

***

أشيلك، يا ولدي، فوق ظهري
كمئذنة كسرت قطعتين..
وشعرك حقل من القمح تحت المطر..
ورأسك في راحتي وردة دمشقية.. وبقايا قمر
أواجه موتك وحدي..

وأجمع كل ثيابك وحدي
وألثم قمصانك العاطرات . .
ورسمك فوق جواز السفر
وأصرخ مثل المجانين وحدي
وكل الوجوه أمامي نحاس
وكل العيون أمامي حجر
فكيف أقاوم سيف الزمان؟
وسيفي انكسر . .

***

سأخبركم عن أميري الجميل
سأخبركم عن أميري الجميل
عن المكان مثل المرايا نقاء ، ومثل السنابل طولا . .
ومثل النخيل . .
وكان صديق الخراف الصغيرة ، كان صديق العصافير
كان صديق الهديل . .
سأخبركم عن بنفسج عينيه . .
هل تعرفون زجاج الكنائس؟
هل تعرفون دموع الثريات حين تسيل . .
وهل تعرفون نوافير روما؟
وحزن المراكب قبل الرحيل
سأخبركم عنه . .

كان كيوسف حسناً . . وكنت أخاف عليه من الذئب

كنت أخاف على شعره الذهبي الطويل

. . . وأمس أتوا يحملون قميص حبيبي

وقد صبغته دماء الأصيل

فما حيلتي يا قصيدة عمري؟

إذا كنت أنت جميلا . .

وحظي جميلا . .

***

لماذا الجرائد تغتالني؟

وتشنقني كل يوم بحبل طويل من الذكريات

أحاول أن لا أصدق موتك ، كل التقارير كذب ،

وكل كلام الأطباء كذب . .

وكل الأكاليل فوق ضريحك كذب . .

وكل المدامع والحشرجات . .

أحاول أن لا أصدق أن الأمير الخرافي توفيق مات . .

وأن الجبين المسافر بين الكواكب مات . .

وأن الذي كان يقطف من شجر الشمس مات . .

وأن الذي كان يخزن ماء البحار بعينيه مات . .

فموتك يا ولدي نكتة . . وقد يصبح الموت أقسى النكات

***

أحاول أن لا أصدق . ها أنت تعبر جسر الزمالك ،

ها أنت تدخل كالرمح نادي الجزيرة، تلقي على الأصدقاء التحيه،
تمرق مثل الشعاع السماوي بين السحاب وبين المطر..
وها هي شفتك القاهرية، هذا سريرك، هذا مكان
جلوسك، ها هي لوحاتك الرائعات..
وأنت أمامي بدشداشة القطن، تصنع شاي الصباح،
وتسقي الزهور على الشرفات..
أحاول أن لا أصدق عيني..
هنا كتب الطب ما زال فيها بقية أنفاسك الطيبات
وها هو ثوب الطبيب المعلق يحلم بالمجد والأمنيات
فيا نخلة العمر.. كيف أصدق أنك ترحل كالأغنيات
وأن شهادتك الجامعية يوما.. ستصبح صك الوفاه!!

****

أتوفيق..
إن جسور الزمالك ترقب كل صباح خطاك
وإن الحمام الدمشقي يحمل تحت جناحيه دفء هواك
فيا قرة العين.. كيف وجدت الحياة هناك؟
فهل ستفكر فينا قليلا؟
وترجع في آخر الصيف حتى نراك..
أتوفيق..
إني جبان أمام رثائك..
فارحم أباك...

رثاء الأندلس

للشاعر الأندلسي: أبو البقاء الرّندي صالح بن شريف:

لكلِّ شيءٍ إذا ما تَمَّ نقصانُ ... فلا يُغرَّ بطيب العيش إنسانُ
هي الأمورُ كما شاهدتها دُولٌ(١) ... مَن سَرَّهُ زَمنٌ ساءَتهُ أزمانُ
وهذه الدار لا تُبقي على أحد ... ولا يدومُ على حالٍ لها شانُ
أينَ الملوكُ ذَوو التيجان من يَمَنٍ ... وأين منهم أكاليلٌ وتيجانُ؟
وأين ما شاده شدَّادُ في إرمٍ ... وأين ما ساسه في الفرس ساسانُ؟
وأين ما حازه قارونُ من ذهب ... وأين عادٌ وشدَّادٌ وقحطانُ؟
أتى على الكُل أمرٌ لا مَردَّ له ... حتى قَضَوْا فكأن القوم ما كانوا
وصار ما كان من مُلكٍ ومن مَلِكٍ ... كما حكى عن خيال الطّيفِ وَسْنانُ(٢)
كأنما الصَّعبُ لم يسْهُل له سببُ ... يومًا ولا مَلكَ الدُنيا سُليمانُ
فجائعُ الدهر أنواعٌ مُنوَّعة ... وللزمان مسرّاتٌ وأحزانُ
وللحوادث سُلوانٌ يُسَهِّلُها ... وما لِمَا حلّ بالإسلام سُلوانُ(٣)
دهى(٤) الجزيرة أمرٌ لا عزاءَ له ... هَوَىٰ له أُحُدٌ وانْهَدَّ ثَهْلانُ(٥)
أصابها العينُ في الإسلام فارتزأتْ ... حتى خَلتْ منه أقطارٌ وبُلدانُ
فاسأل (بلنسيةً) ما شأنُ (مُرسيةً) ... وأينَ (شاطبةٌ) أمْ أينَ (جَيَّانُ)
وأين (قُرطبةٌ) دارُ العلوم فكم ... من عالمٍ قد سما فيها له شانُ
وأين (حمص) وما تحويه من نُزهٍ ... ونهرُها العَذبُ فياضٌ وملآنُ

---

(١) دول: متغيرة. (٢) الوسنان: الذي غلبه النعاس. (٣) السلوان: النسيان. (٤) دهى: أصاب.

قواعدٌ كنَّ أركانَ البلاد فما | عسى البقاءُ إذا لم تبقَ أركانُ
تبكي الحنيفيةَ(٦) البيضاءُ من أسفٍ | كما بكى لفراق الإلفِ هيْمانُ
على ديار من الإسلام خالية | قد أقفرت ولها بالكفر عُمرانُ
حيث المساجد قد صارت كنائسَ ما | فيهنَّ إلا نواقيسٌ وصُلبانُ
حتى المحاريبُ تبكي وهي جامدةٌ | حتى المنابرُ ترثي وهي عيدانُ
يا غافلاً وله في الدهرِ موعظةٌ | إن كنت في سِنَةٍ(٧) فالدهرُ يقظانُ
وماشيًا مرحًا يلهيه موطنهُ | أبعد حمصٍ تَغرُّ المرءَ أوطانُ ؟
تلك المصيبةُ أنستْ ما تقدمها | وما لها مع طول الدهرِ نسيانُ
يا راكبين عتاق الخيلِ(٨) ضامرةً | كأنها في مجال السبقِ عُقْبانُ
وحاملينَ سيُوفَ الهندِ مُرْهَفةً(٩) | كأنها في ظلام النقع نيرانُ
وراتعين وراء البحر في دَعَةٍ(١٠) | لهم بأوطانهم عزٌّ وسلطانُ
أعندكم نبأ عن أهلِ أندلسٍ | فقد سرى بحديثِ القومِ رُكبانُ ؟
كم يستغيثُ بنا المستضعفونَ وهم | قتلى وأسرى فما يهتزُّ إنسانُ ؟
ماذا التقاُطع في الإسلام بينكمُ | وأنتمْ يا عبادَ الله إخوانُ ؟
ألا نفوسٌ أبيَّاتٌ لها هِممٌ | أما على الخيرِ أنصارٌ وأعوانُ
يا من لِذلَّةِ قومٍ بعدَ عزِّهمُ | أحال(١١) حالَهُمُ جورٌ وطُغيانُ
بالأمس كانوا ملوكًا في منازلهم | واليومَ هم في بلاد الكفرِ عُبدانُ

---

(٥) ثهلانُ : جبل في جزيرة العرب. (٦) الحنيفية البيضاء : الإسلام، والهيمان : المحبّ.
(٧) السِّنَة : النعاس والغفلة. (٨) عتاق الخيل : الخيل الأصلية، ومفردها عتيق.
(٩) المرهفة : المسنونة الحادة. (١٠) دعة : اطمئنان وسكون. (١١) أحال : غيَّر.

فلو تراهم حيارىٰ لا دليل لهمْ
عليهمُ من ثياب الذل ألوانُ

ولو رأيتَ بكاهُم عندَ بَيْعِهِمُ
لهَالَكَ الأمرُ واستهوتكَ أحزانُ

يا ربَّ أُمٍّ وطفلٍ حيلَ بينهما
كما تَفرَّقُ أرواحٌ وأبدانُ

وطفلةٍ مثلِ حُسْنِ الشمسِ إذْ طلعتْ
كأنما هي ياقوتٌ ومرجانُ

يقودُها العِلْجُ(١٢) للمكروه مكرهةً
والعينُ باكيةٌ والقلبُ حيرانُ

لمثل هذا يذوبُ القلبُ من كمدٍ
إن كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

* وحمص اسم بلدة في الأندلس.

حسرة مسلم

* للشاعر محمود غنيم رحمه الله:

مالي و للنجمِ يرعاني و أرعاهُ
أَمْسىٰ كِلانا يَعَافُ الغَمْضَ جَفْنَاهُ

لي فيكَ يا ليلُ آهاتٌ أردِّدُها
أوَّاهُ لو أَجْدَتِ(١) المحزونَ أَوَّاهُ

لا تَحْسَبَنِّي مُحِبَّاً أشتكي وَصَبَا(٢)
أَهْوِنْ بما فىٰ سبيلِ الحبِّ ألقاهُ

إنىٰ تذكَّرتُ و الذكرىٰ مؤرِّقةٌ
مجداً تليداً(٣) بأيدينا أضعناهُ

ويحَ العروبةِ كان الكونُ مسرحَها
فأصبحتْ تتوارىٰ فىٰ زوايـاهُ

أَنَّىٰ اتَّجهْتَ إلىٰ الإسلامِ فىٰ بلدٍ
تجدْهُ كالطيرِ مقصوصاً جناحاهُ

كمْ صرَّفتنا يدٌ كُنَّا نصرِّفُها
وباتَ يحكُمُنا شعبٌ مَلَكْنَاهُ

هل تطلبونَ من المختارِ معجزةً
يكفيهِ شعبٌ من الأجداثِ(٤) أحياهُ

---

(١٢) العِلج: الكافر من غير العرب.

(١) أجدت: نفعت. (٢) الوصب: التعب والمرض. (٣) تليد: قديم. (٤) الأجداث: جمع جدث وهو القبر.

من وَحّدَ العُرْبَ حتى صار واترُهُمْ(٥) إذا رأى وَلَدَ الموتورِ آخاهُ

وكيفَ ساسَ رُعاةُ الشاة مملكةً ما ساسَها قيصرٌ من قبلُ أو شاهُ

ورحّبَ الناسُ بالإسلامِ حينَ رأوا أن الإخاءَ و أنَّ العدلَ مغزاهُ

يا مَن رأى عُمَراً تكسوهُ بُرْدَتُهُ و الزَّيتُ أُدْمٌ(٦) له و الكوخُ مأواهُ

يَهتزُّ كِسْرَى على كرسيِّه فَرَقاً(٧) من بأسه و ملوكُ الروم تخشاهُ

هي الحنيفةُ(٨) عينُ الله تكلؤُها(٩) فكُلَّما حاولوا تشويهها شاهوا(١٠)

سلِ المعالي عنّا إننا عَرَبٌ شعارُنا المجد يهوانا و نهواهُ

هي العروبةُ لفظٌ إنْ نطقْتَ به فالشرقُ و الضادُ والإسلامُ معناهُ

استرشَدَ الغربُ بالماضي فأرشَدهُ و نحنُ كان لنا ماضٍ نسيناهُ

إنا مَشَينا وراء الغربِ نقتبسُ منْ ضيائهِ فأصابتْنا شظاياهُ

باللهِ سَلْ خلفَ بحرِ الرُّومِ(١١) عن عَرَبٍ بالأمس كانوا هنا ما بالهم تاهوا

فإنْ تراءتْ لك الحمراء(١٢) عن كثبٍ(١٣) فسائلِ الصرحَ(١٤) أين المجدُ و الجاهُ

و انزلْ دمشقَ و خاطبْ صخرَ مسجدِها عمَّن بناهُ لعلَّ الصخرَ ينعاهُ

و طُفْ ببغدادَ و ابحثْ في مقابرها علَّ امرءاً من بني العباسِ تلقاهُ

أينَ الرشيدُ و قد طافَ الغمامُ به فحين جاوزَ بغداداً تحدّاهُ(١٥)؟

---

(٥) واتر: قاتل، والوتر: الثأر. (٦) أُدم: غموس والمقصود الطعام. (٧) فرقاً: خوفاً وفزعاً.

(٨) الحنيفة: الشريعة الإسلامية. (٩) تكلؤها: ترعاها وتحفظها. (١٠) شاهوا: قبحوا. (١١) بحر الروم: المقصود به البحر الأبيض المتوسط. (١٢) الحمراء: اسم قصر الحمراء، وهو في غرناطة مشهور ببدائع الفن الأندلسي بناه محمد بن الأحمر. (١٣) كثب: قرب. (١٤) الصرح: القصر المنيف.

(١٥) يعني بتحدي الرشيد للغمام قوله للسحابة: أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك.

هــذه مــعــالــمُ خُــرْس كــلُّ واحــدةٍ   مــنهــنَّ قــامت خــطــيبــاً فــاغــراً[١٦] فــاهُ
الــلــهُ يشــهــدُ مــا قــلــبَّــتُ سِيرتَــهُــمْ   يــومــاً و أخــطــأ دمــعُ الــعــين مــجــراهُ
مــاضٍ نــعــيشُ عــلــى أنــقــاضــهِ أُممــاً   و نــســتــمــدُّ الــقــوَىٰ مــن وحــي ذكــراهُ
لا دَرَّ درُّ امــرئٍ[١٧] يُــطــري[١٨] أوائــلَــهُ   فــخــراً، ويُــطْــرِقُ إنْ ســاءَلْــتَــهُ مــا هُــو؟
إنــي لأعــتــبــرُ الإســلامَ جــامــعــةً   لــلــشرق لا مَــحْــضَ[١٩] دينٍ سنَّهُ الــلــهُ
أرواحُــنــا تــتــلاقَــى فــيــه خــافــقــةً   كــالــنَّــحــل إذ يــتــلاقــى فــي خــلايــاهُ
دســتــورُهُ الــوحــيُ و المختــارُ عــاهــلُــهُ   و المــســلــمــون و إنْ شَــتُّــوا رعــايــاه
لا هُــمَّ[٢٠] قــد أصــبحــتْ أهــواؤُنــا شِيَعــاً   فــامــنُــنْ عــلــيــنــا بــراعٍ أنــتَ تــرضــاهُ
راعٍ يُــعــيــدُ إلــى الإســلامِ ســيــرَتَــهُ   يــرعَــى بَــنِــيــهِ وعــيــنُ الــلــهِ تــرعــاهُ

أمتي

* للشاعر عمر أبوريشة :

أُمَّــتــي . . هــل لــكِ بــينَ الأُمَمِ   مِــنــبــرٌ لــلــســيــفِ أو لــلــقــلــمِ؟
أتَــلــقَّــاك وطَــرْفــي مُــطــرِقٌ   خَــجَــلاً مــن أَمْــسِــكِ المــنــصــرمِ
ويــكــادُ الــدمــعُ يَــهْــمِــي[١] عــابــثــاً   بــبــقــايــا كــبــريــاءِ الأَلــمِ
أيــنَ دنــيــاكِ الــتــي أوحَــتْ إلــى   وَتَــري كــلَّ يــتــيــمِ الــنَّــغــمِ؟
كــم تــخــطَّــيــتُ عــلــى أصــدائــه   مــلــعــبَ الــعــزِّ، ومــغْــنَى الــشَّــمَــمِ[٢]

---

(١٦) فاغراً فاه : فاتحاً فمه . (١٧) لا درّ در امرئ : لا بارك الله به . (١٨) يطري : يمدح . (١٩) محض : خالص . (٢٠) لا هم : اللهم .

(١) يهمي : يسيل .   (٢) مغنى الشمم : منزل الإباء .

وتـهـاديـتُ كـأنّـي سـاحـبٌ مـئـزري فـوقَ جِـبـاهِ الأنجُـم

أُمّـتـي كـم غُـصَّـةٍ دامـيـةٍ خَـنَـقـتْ نجـوىٰ عُـلاكِ فـي فـمـي

أيُّ جُـرحٍ فـي إبـائـي راعـفٍ(٣) فـاتَـهُ الآسـي(٤) فـلـم يَـلـتـئـم

ألإسـرائـيـلَ تـعـلـو رايـةٌ فـي حِـمَـىٰ الـمَـهْـدِ وظـلِّ الحَـرَمِ

كيـف أغْـضَـيتِ(٥) عـلىٰ الذُّلِّ ولـم تَـنْـفُـضي عـنكِ غُـبـارَ الـتُّـهَـمِ

أوَمَـا كـنـتِ إذا الـبـغْـيُ اعـتـدىٰ مـوجـةً مِـنْ لَـهَـبٍ أوْ مِـنْ دَمِ؟

فـيمَ أقـدمـتِ وأحـجـمـتِ ولـم يَـشْـتَـفِ الـثَّـأرُ، ولـم تَـنـتـقِـمـي؟

اسْـمـعـي نَـوْحَ الحَـزَانـىٰ واطْـربي وانـظُـري دمـعَ الـيـتـامَـىٰ وابْـسِـمـي

ودَعـي الـقـادةَ فـي أهـوائـهـا تـتـفـانىٰ فـي خَـسـيسِ الـمَـغْـنَـمِ

رُبَّ وامـعـتـصـمـاهُ انـطَـلَـقَـتْ مِـلءَ أفـواهِ الـصَّـبـايـا الـيُـتَّـمِ

لاَمَـسَـتْ أسـمـاعَـهُـمْ لـكـنَّـهـا لـم تُـلامـس نَـخْـوَةَ «المعـتـصـم»(٦)

تأملات

* قال أبناء الصحابي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه له - وقد رأوا الأموال تغدق علىٰ الناس من الولاة في الشام -: يأتي الملوك مَنْ ليس مثلك في الصحبة والإسلام، فهلا ذهبت؟ فقال لهم: يا بنيَّ آتي جيفة قد أحاط بها قوم! والله ما حييت لا أشاركهم فيها، قالوا: يا أبانا، إذن نهلك هزالاً! قال: يا بني لئن أموت مؤمناً مهزولاً أحب إليَّ من أن أموت منافقاً سميناً.

(٣) راعف: نازف. (٤) الآسي: المداوي. (٥) أغضي: سكت صبراً. (٦) في البيتين الأخيرين إشارة إلىٰ المرأة المسلمة التي استغاثت بالمعتصم وصرخت «وامعتصماه» وبلغ ذلك المعتصم فأنفذ جيشاً هزم الروم وفك الأسرىٰ واحتل عمورية وأحرقها!.

حب الوطن

* كان بشر بن الحارث يقول لأصحابه : سيحوا فإن الماء إذا ساح طاب وإذا وقف تغيّر! ويقال : الحركة ولود ، والسكون عاقر ، وفي الأثر : لو يعلم الناس رحمة الله للمسافر لأصبح الناس على ظهر سفر! وهو ميزان الأخلاق ، إن الله بالمسافر رحيم ، ولهذا كان من مات في الغربة شهيداً .

* قال وهب بن منبه : مكتوب في التوراة : ابن آدم ، خلقتك من الحركة للحركة ، فتحرّك وأنا معك! ومن أمثال العامة : في الحركة بركة ، وقالوا : ربما أسفر السّفر عن الظّفر!

* وسنة الله في الخليقة ، الانتقال من مكان إلى مكان ومن أرض إلى أرض ووطن إلى وطن . وقد هاجر معظم الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وتركوا البلاد التي ولدوا فيها . والله عزّ وجلّ دعا الناس للضرب في فجاج الأرض والسير في أطرافها والمشي في مناكبها طلباً للرزق وللاعتبار والاتعاظ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ (الملك) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ (الانعام) . ويروى أن موسى عليه السلام قال : لا تذُمُّوا السفر ، فإني أدركت فيه ما لم يُدرك أحد! يريد أن الله عزّ وجلّ كلّمه فيه تكليماً . وقد كرهوا طول الإقامة بالمكان الواحد ، والتجديد في كثير من الأمور مستحسن ، قيل لأعشى بكر : إلى كم هذه النُّجْعة ـ النجعة : طلب الكلاء في موضعه ـ والاغتراب ، ما ترضى بالخَفْض والدّعَة؟ فقال : لو دامت الشمس عليكم لَمَلَلْتُموها!

* قال أبو تمام :

وطولُ مقام المَرْءِ في الحيِّ مُخْلِقٌ ... لديبَاجتَيْه فاغْتَرِبْ تَتَجدّدِ
فإني رأيتُ الشّمْسَ زِيدتْ مَحبّةً ... إلى الناس إذْ ليْستْ عليهم بِسَرْمَدِ

* والمقام بالمكان الواحد يورث الملالة ويدعو للسآمة . قال المأمون : لا شيء ألذّ من

سفر في كفاية، لأنك في كل يوم تحُل محلّة لم تحُلها، وتُعاشر قوماً لم تُعاشرهم، وقالت الحكماء: لا تُنال الراحة إلا بالتعب، ولا تُدرك الدعة إلا بالنصب.

* بَصُرْتَ بالراحة الكبرىٰ فلم تَرَها   تُنالُ إلا علىٰ جسر من التعبِ

* وهل يقطع السيف إلا بالضرب، أو يجري الجواد إلا بالركض، أو يتصور تُنال نهاية أو تُدرك غاية إلا بالسعي إليها؟! وهل يصح في القياس أو يتصور في العقل أن يُحصد زرع بغير بذر، أو تُجنىٰ ثمرة بغير غَرْس، أو يُورىٰ زَنْدٌ بغير قَدْح، أو يُثْمِر مال بغير طلب؟!

* والانتقال من مكان نبا بأهله إلىٰ مكان أكثر طمأنينة وأمناً ورغداً لا ضير فيه ولا غبار عليه، ومن أجْدب انتجع - أي طلب الكلأ في موضعه - قيل لأعرابي: أين منزلك؟ قال: حيث ينزل الغيث! ولكن إذا توفرت أسباب الرزق وهناءة العيش في مكان الإقامة وبين الأهل والعشيرة فذاك الزبد بالعسل!

* إذا ما ضاقَ صدركَ من بلاد   ترحل طالباً أرضاً سواها
عجبتُ لمن يقيمُ بأرض ذل   وأرض الله واسعةٌ فضاها
فذاك من الرجال قليلُ عقل   بليدٌ ليسَ يعلم ما طحاها
فنفسك فزْ بها إن خفتَ ضيماً   وخلِّ الدار تنعي من بناها
فإنك واجدٌ أرضاً بأرض   ونفسك لم تجد نفساً سواها
ومن كانت منيته بأرض   فليس يموت في أرض سواها

* يروىٰ أن: من سعادة المرء أن تكون زوجته موافقة، وأولاده أبراراً، وإخوانه صالحين، ورزقه في بلده الذي فيه أهله. ولكن إذا كان في المكان الذي يقيم فيه شظف وشدة، فالانتقال والتحوُّل مطلب أكيد.

وما هي إلا بلدة مثل بلدتي   خيارهما ما كان عوناً علىٰ دهري

وفي الحديث «العبادُ عبادُ الله، والبلاد بلاد الله، فأينما وجدْتَ الخير فأقم واتق الله». عزاه الإمام السخاوي في المقاصد الحسنة ص٢٤٠ لأحمد والطبراني.

* وإذا كان المقام بأرض فيه ذل وصغار وضعة فعلام المكث والبقاء؟

وإذا الديار تنكّرتْ عن حالها ... فَدَعِ المقام وأسرعِ التحويلا
ليس المقامُ عليك فرضاً واجباً ... في بلدة تدعُ العزيز ذليلاً

*ما في المقام لذي عقل وذي أدب ... من راحة فدع الأوطان واغترب
سافر تجد عِوضاً عمن تصاحبه ... وانصَبْ فإن لذيذ العيش في النصب
إني رأيت وقوف الماءِ يُفسدُهُ ... إن سالَ طابَ وإن لم يجر لم يَطب
والأسدُ لولا فراق الغاب ما قنصَت ... والسهم لولا فراق القوس لم يُصب
والشمس لو وقَفَتْ في الفلك دائمة ... لَملَّها الناس من عُجْم ومن عرب
والبدر لولا أفول منه ما نظرت ... إليه في كل حين عينُ مُرتقب
والتبر كالترب مُلقىً في أماكنه ... والعود في أرضه نوع من الحطب
فإن تغرّب هذا عزَّ مطلبهُ ... وإنْ أقام فلا يعلو على رتبِ

* وقف بهلول على قوم من أهل الأدب فقال لهم: كيف ترون قول الشاعر:

وإذا نبا بك منزلٌ فتحوّلِ؟

قالوا: جيد، فضحك منهم وقال: إذا كان في حَبْس كيف يتحوّل؟ قالوا: فما عندك؟ قال:

إذا كنت في دارٍ يُهينُك أهلُها ... ولم تكُ ممنوعاً بها فتحوّلِ!

* وقيل: اليسر في الغربة وطن، والعسر في الوطن غربة.

* وقال عبدالملك للحارث: أي البلاد أحب إليك؟ فقال: ما حَسنتْ فيه حالي

وعَرض فيه جاهي، لا كوفة أبي ولا بصرة أمي، خشونة الغربة مع اليسر، أوطأ من لين الموطن مع الفقر، والسعيد يتبع الرزق، والشقي يتبع مسقط الرأس!

* ارْحَل بنفسك من أرض تُضامُ بها ولا تكن لفراق الأهل في حرق
من ذلّ بين أهاليه ببلدته فالاغتراب له من أحْسَنِ الخلق
الكحل نوع من الأحجار مُنطرحا في أرضه كالثرىٰ يُرأىٰ علىٰ الطرق
لما تغرّب نال العز أجمعه وصار يُحمل بين الجفن والحدق

* وكان يقال: ليس بينك وبين البلدان نسب فخير البلاد ما حملك!

* ولن يقيمَ علىٰ خَسْفٍ يسامُ به إلا الأذلآن: عِيرُ الحيِّ والوَتَدُ
هذا علىٰ الخسفِ مربوطٌ برمّتِه وذا يُشجُّ فلا يَرْثي له أحدُ

* وما ورد من ذمّ مغادرة الوطن كقولهم: عسرك في وطنك أطيب من يسرك في غربتك، أو قولهم: إذا وجدت بعض القوت فالزم قعر البيوت، واحفظ بلداً ربّاك، فإنما لأسباب أخرىٰ وليست كرهاً في الوطن وتنفيراً من الوفاء لبلد كانت فيه ذكريات الصبا ومغاني الشباب، ومن هذه الأسباب ما يلاقيه المغترب من الشعور بالوحدة والوحشة في الابتعاد عن الأهل والعشيرة، وما يكابده من مشقة السفر وما قد يعترضه في غربته من شدائد ومصاعب، ولهذا قالوا: الغربة ذلة وكربة! وقيل: السفر سِقَر ولكن غلط باسمه!

* وفي الحديث الشريف: «السفر قطعة من العذاب، فإذا قضىٰ أحدكم نَهْمَتَه ـ حاجته ـ فليُعجّل إلىٰ أهله» (متفق عليه. وروي بألفاظ أخرىٰ متقاربة، وسئل إمام الحرمين: لم كان السفر قطعة من العذاب؟ فأجاب علىٰ الفور: لأن فيه فراق الأحباب! المقاصد الحسنة ص٣٨٩). قيل لرجل: السفر قطعة من العذاب. فقال: بل العذاب قطعة من السفر.

* وقال الحسن رضي الله عنه في دعائه: اللهم إنا نعوذ بك أن تملّ معافاتك، فقيل له في ذلك، فقال: أن يكون الرجل في خفض فتدعوه نفسه إلىٰ سفر!

* مرَّ إياس بن معاوية بمكان فقال: أسمع صوت كلب غريب! فقيل له: بم عرفت ذلك؟ قال: بخضوع صوته وشدة نباح غيره!

* ومهما وجد الإنسان في ديار الغربة من طيب عيش وسعادة حياة فلابد إلا وأن يشعر بالذلّ وبشيء من المهانة، وقد قيل: إذا كنت في غير قومك لا تنسَ نصيبك من الذلّ.

* أراد أعرابي السفر فقال لامرأته:

عُدِّي السِّنينَ لغَيْبَتي وتَصَبَّري ... وذَرِي الشّهورَ فإنهن قِصَارُ

فأجابته:

اذكرْ صَبَابَتَنا إليك وشَوْقَنا ... وارحمْ بَناتِكَ إنّهنّ صِغَارُ

فأقام وترك السفر!

* وكان النبي ﷺ يدعو في سفره ويقول: اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل» ويقول: «اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل» رواه مسلم. وكان يقول: للمسافر: أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك. رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم. ودعا لمسافر فقال: زوّدك الله التقوىٰ، وغفر ذنبك، ويسّر لك الخير حيثما كنت.

* ومن فوائد السفر أنه يُسْفِر عن أخلاق الرجال ومعادنهم، وقالوا: لا تحمدنّ امرءاً حتىٰ تجرّبه في معاملة أو سفر، والسفر ميزان القوم.

* أراد الحسن -رحمه الله- الحج فقال له رجل: نصطحب؟ فقال: دعنا نتعايش بستر الله، إني أخاف أن نصطحب فيرىٰ بعضنا من بعض ما نتماقت عليه!

العصا .. وأدوات السفر

* قال الشَّرَقيّ بن القَطَامي : خرجت من الموصل أريد الرّقة فصحبني فتىً من أهل الجزيرة ومعه مِزْود ورَكْوة وعصا ، ورأيته لا يفارقها مشاة كنّا أو ركباناً وهو يقول : إن الله جعل جِمَاع أمر موسىٰ عليه السلام وأعاجيبه وبراهينه ومآربه في عصاه! ويكثر من هذا، وأنا أضحك متهاوناً بما يقول ، فتخلّف المُكَاري ، فكان حمار الفتىٰ إذا وقف أكرهه بالعصا ويقف حماري ، ولا شيء في يدي فيسبقني إلىٰ المنزل فيستريح ويُريح ، فقلت : هذه واحدة . ثم خرجنا من غد مُشاة فكان إذا أعيا توكأ علىٰ العصا ، وقد تفسّخْت من الكَلال ، فقلت : وهذه أخرىٰ . فلما كان في اليوم الثالث هجمنا علىٰ حيّة منكرة فسارت إلينا فأَسْلمتُه إليها وهربتُ عنها! فضربها بالعصا حتىٰ قتلها ، فقلت : هذه ثالثة وهي أعظمهن، وخرجنا في اليوم الرابع وبنا قَرَمٌ إلىٰ اللحم فاعترضتنا أرنب فحذفها بالعصا وأدركنا ذَكَاتها فقلت : هذه رابعة ، فأقبلتُ عليه فقلت : لو أنّ عندنا ناراً ما أخّرْت أكلها إلىٰ المنزل ، فأخرج عُويداً من مزوده ثم حكّه بالعصا فأَوْرت إيراءَ المَرْخ والعَفَار ، ثم جمع ما قدر عليه من الغُثَاء والحشيش وأوقد ناراً وألقىٰ الأرنب في جوفها فأخرجناها وقد لزق بها من الرماد والتراب ما بَغّضها إليّ . فعلّقها بيده اليسرىٰ ثم ضرب جُنوبَها بالعصا وأعراضها ضرباً رقيقاً حتىٰ انتثر كل شيء عليها فأكلناها وطابت النفس! فقلت : هذه الخامسة ، ثم نزلنا بعض الخانات وإذا البيوت ملآنة رَوْثاً وتراباً فلم نجد موضعاً نَقِيل فيه فنظر إلىٰ حديدة مطروحة في الدار فأخذها فجعل العصا نِصاباً لها ثم قام فجرف جميع ذلك الروث والتراب وجرد الأرض حتىٰ أظهر بياضها وطابت ريحُها ، فقلت : وهذه سادسة ، ثم نزع العصا من الحديدة فأوتدها في الحائط وعلّق عليها ثيابه وثيابي فقلت : هذه سابعة ، فلما صرنا إلىٰ مَفْرِق الطريقين وأردتُ مفارقته قال لي : لو عدلتَ معي فبتّ عندي! فعدلت معه ، فما زال يحدثني ويُطْرفني عامة الليل فخبرته بالذي أحصيتُ من خصال العصا ، فقال : والله لو حدّثتك عن مناقب العصا ليلة إلىٰ الصباح ما استنفدتُها!

* وكانت العرب تأمر بالمُحِلاّت، وهي: الدلو والفأس والسُّفْرة والقِدْر والقدّاحة. وإنما قيل لها مُحِلاّت، لأن المسافر بها يحل حيث شاء ولا يبالي ألا يكون بقربه أحد!

مفارقة الوطن

* ومن الفطر التي جبل عليها الإنسان، حبّه لوطنه الأول وحنينه له، وقالوا: فطرة الرجل معجونة بحبّ الوطن. ومن علامة الرشد أن تكون النفس إلىٰ مولدها مشتاقة، وإلىٰ مسقط رأسها توّاقة. وقد قيل: «لولا حبّ الوطن لخربت بلاد السوء» وبحب الأوطان عمارة البلدان، وقال ابن عباس: لو قنع الناس بأرزاقهم قنوعهم بأوطانهم لما شكا عبد رزقه.

* وقيل لأعرابي: كيف تصبرون علىٰ جفاء البادية وضيق العيش؟ فقال: لولا أن الله تعالىٰ أقنع بعض العباد بِشَرِّ البلاد ما وَسع خيرُ البلاد جميع العباد. ولمّا سمع أبو دلف رجلاً ينشد:

لا يَمْنَعَنّكَ خفْضَ العيش في دَعَةٍ ... نزوعُ نفسٍ إلىٰ أهلٍ وأوطانِ
تَلْقىٰ بكلّ بلادٍ إنْ حلَلْتَ بها ... أهلاً بأهلٍ وإخواناً بإخوانِ

قال: هذا ألأم بيت قالته العرب! لقلة حنينه إلىٰ إلفه ووطنه.

* والنفس يصعب عليها مفارقة الوطن والابتعاد عن مسقط الرأس، ومما يشير إلىٰ هذا قول الله تعالىٰ: ﴿**وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ**﴾ (النساء: ٦٦).

* ولما خرج النبيُّ ﷺ مهاجراً من مكة البلد الأمين ومسقط رأسه، التفت إليها وقد كادت أن تغيب عن ناظره واغرورقت عيناه بالدموع وقال: والله إنك لأحبّ البلاد إليّ ولولا أن قومَك أخرجوني ما خرجتُ.

* وفي حديث بدء الوحي، لما حدّث رسول الله ﷺ ورقة بن نوفل بما رآه قال له

ورقة: يا ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك، فقال رسول الله له: أو مخرجيَّ هم؟ ما يدل على حب الوطن وشدة مفارقته على النفس.

* ويروى أنّ أبان قدم على النبي ﷺ فقال: يا أبان كيف تركت مكة؟ قال: تركت الإذخر وقد أعذق، والنمام وقد أورق، فاغرورقت عينا رسول الله ﷺ.

* وكان بلال رضي الله عنه قد اشتّد به الشوق إلى وطنه مكة بعد أن برّح به المرض وأنهكته الحُمّى فقال:

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة   بوادٍ وحولي إذخر وجليل
وهل أَرِدَنْ يوماً مياهَ مجنّة   وهل يبدوَن لي شامة وطفيل

ويروى: «حُب الوطن من الإيمان» قال في المقاصد الحسنة ص٢٩٧: لم أقف عليه، ومعناه صحيح. وانظر ص٢٩٨ بعضاً من هذه الآثار التي تدل على حب الوطن، وفيه أنه لما اشتاق النبي ﷺ إلى مكة محل مولده ومنشئه أنزل الله تعالى عليه قوله: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ (القصص: ٨٥) أي إلى مكة.

* ومن حب الوطن ما حكي أن يوسف عليه السلام أوصى بأن يحمل تابوته إلى مقابر آبائه، فلما بعث موسى عليه السلام وأهلك الله فرعون حمله موسى إلى مقابر آبائه فدفنه بالأرض المقدسة.

*وقيل: ثلاث خصال في ثلاثة أصناف من الحيوان، الإبل تحن إلى أوطانها، وإن كان عهدها بها بعيداً، والطير إلى وكره، وإن كان موضعه مجدباً، والإنسان إلى وطنه، وإن كان غيره أكثر نفعا!

* ولما اعتلّ سابور ذو الأكتاف ببلاد الروم وكان أسيراً، قالت له بنت الملك وكانت قد عشقته: ما تشتهي؟ قال: شربة من ماء دجلة وشمة من تراب اصطخر، فأتته بعد أيام، بشربة من ماء وقبضة من تراب، وقالت له: هذا من ماء دجلة ومن تربة أرضك، فشرب واشتم بالوهم فنفعه من علته!

* وكان من عادة بعض العرب إذا غزت أو سافرت حملت معها من تراب بلدها فتنشقه عند نزلة أو صداع!

* بلاد ألِفْناها على كلّ حالة — وقد يُؤْلفُ الشيء الذي ليس بالحَسَن
ونستعذب الأرض التي لا هواء بها — ولا ماؤها عذب ولكنها وطن

* كان جدّي الحاج أسود العلي رحمه الله يضرب لنا مثلاً في حب الأوطان ـ ونحن إذ ذاك أطفال في قريتنا السّكريّة، بالمطخ جنوب حلب ـ برجل اصطاد عصفوراً ووضعه في قفص، فكان يقدم له الطعام والشراب، والعصفور يحجم عن الأكل والشرب، ويبكي ويندب بلاده ويتغنى بوطنه، حتى هزل جسمه وخارت قواه، فرقّ الرجلُ لحاله فأطلقه، فرآه بعد أيام على غصن شجرة جرداء في بادية قاحلة وهو يزهو ويلعب ويغني ويطرب، لأنه في وطنه!

هبْ جنّة الخلد اليمن — لا شيء يعدل الوطن!

* يزينُ الغريبَ إذا ما اغتَرَب — ثلاثٌ فمنهنّ حسن الأدب
وثانية حُسن أخلاقه — وثالثةٌ اجتنابُ الريب

* وصف بعضهم بلاد الهند فقال: بحرها درّ، وجبالها ياقوت، وشجرها عود وورقها عطر! وقال الحجاج لأحد عماله: ولّيتُك على بلدة حجرها الكحل، وذبابها النحل، وحشيشها الزعفران!

* قال أبو سعيد أحمد بن عبدالله المكي، سمعت الشافعي رحمه الله يقول: قلت بيتين من الشعر وأنشدنا:

إني أرى نفسي تَتُوق إلى مِصْرِ — ومن دونها خَوْض المَهَامِه والقَفْر
فوالله ما أدْري ألِلْخَفْضِ والغِنى — أُقادُ إليها أمْ أُقاد إلى قَبْري!

فدخل مصر، فمات فيها رحمه الله.

لحظات الفراق والوداع

* ومن أشد اللحظات التي تمر على الإنسان لحظات الفراق والوداع، ومن أسعدها وأحلاها ساعات اللقاء والاجتماع، قيل: لولا فرحة الأوبة لعذبت بالسفر. وقيل: كم بين لوعة الفراق وفرح التلاق!

* قال جرير:

لــو كــنــتُ أعــلــمُ أنّ آخــرَ عــهــدِكــم ... يــومُ الــرحــيــلِ فــعــلــتُ مــا لــم أفــعــلِ!

قيل لعمارة بن عقيل بن بلال بن جرير: ما كان جدك صانعاً في قوله: فعلت ما لم أفعل؟ قال: كان يقلع عينيه حتى لا يرى مظعن أحبابه!

* قال المبرد: خرجنا من بغداد نريد واسطاً، فملنا إلى دير هِزْقِل ننظر إلى المجانين، فإذا بالمجانين كلهم قد رأونا، ونظرنا إلى فتى منهم قد غسل ثوبه ونظّفه وجلس ناحية عنهم، فقلنا: إن كان فهذا! فوقفنا به فسلّمنا عليه فلم يرد السلام، فقلنا له: ما تجد؟ فأنشد شعراً رقيقاً، فقلنا له: أحسنت، فأومأ بيده إلى شيء ليرمينا به، وقال: ألمثلي يقال أحسنت؟ فولّينا عنه هاربين فقال: أقسمت عليكم إلا ما رجعتم حتى أنشدكم، فإن أحسنت، قلتم: أحسنت، وإنْ أسأت قلتم لي: أسأت، قال، فرجعنا ووقفنا عليه فأنشأ يقول:

لمّا أنَاخُوا قُبيلَ الصبحِ عيسَهُمو ... وحَمّلُوها وسارت بالدُّجى الإبلُ

وقَلّبَتْ من خلالِ السُّجْفِ ناظرَها ... تَرنُوا إليّ ودمعُ العينِ يَنْهَمِلُ

وَوَدّعَتْ بِبَنانٍ عَقْدُهُ عَنَمٌ ... ناديتُ: لا حَملتْ رِجْلاكَ يا جَمَلُ

وَيْحي من البَيْنِ ماذا حلّ بي وبهمْ ... من نازلِ البَيْنِ حلَّ البينُ وارْتحَلُوا

يا حاديَ العيسِ عَرِّجْ كيْ نُودِّعَهُمْ ... يا حاديَ العيسِ في تَرْحَالِكَ الأَجَلُ

إنّي على العهدِ لم أنْقُضْ مودّتَهُمْ ... يا ليت شِعْري لِطُولِ العَهْدِ ما فَعلُوا

لمّا علمتُ بأنّ القومَ قد رَحَلُوا   وراهبُ الدّيْر بالناقوس مشتغلُ
شبكْتُ عشري على رأسي وقلت له: يا راهبَ الديرِ هل مَرَّت بكَ الإبلُ؟
فَحَنّ لي وبكى، ورقّ لي ورثى   وقال لي: يا فتى ضاقَتْ بك الحِيَلُ!
إنّ البدور اللواتي جئْتَ تَطْلبها   بالأمْسِ كانوا هنا واليومَ قد رَحَلُوا

قال: فقلنا له: ماتوا! فصاح وقال: وأنا والله أموت، ثم شهق شهقة فإذا هو ميت، فما برحنا حتى دفنّاه!!

* ويروى: بالدُّمى: وهي الثياب التي فيها التصاوير.

نجوى

ـ للشاعر خير الدين الزِّرِكْلي، صاحب كتاب الأعلام ـ.

العينُ بعدَ فِراقِها الوطنا   لا ساكناً ألِفتْ ولا سكنا
ريانةٌ بالدمع أقلقَها   أن لا تُحِسَّ كَرىً ولا وَسَنا
كانت ترى في كُلِّ سانِحةٍ   حُسْناً، وباتت لا ترى حَسَنا
والقلبُ لولا أنّةٌ صَعِدَتْ   أنكرتهُ وَشَكَكْتُ فيه أنا
ليتَ الذين أُحِبُّهمْ عَلِموا   وَهُمُ هُنالِك ما لقيتُ هُنا
ما كنتُ أَحسَبُني مُفارِقَهُمْ   حتّى تُفارقَ روحِي البدنا

***   ***

يا موطناً عَبثَ الزمانُ بهِ   مَن ذا الذي أغرى بك الزَّمنا
قدْ كان لي بكَ عن سِواكَ غِنىً   لا كان لي بِسِواكَ عَنكَ غِنى
ما كنتَ إلا رَوْضةً أُنُفاً   كَرُمتْ وطابتْ مَغرِساً وَجَنى

عَـطَـفَـوا عَـلـيـك فـأوسَـعُـوكَ أذىً		وهُـمُ يُـسَـمّـونَ الأذىٰ مِـنَـنـا
وَحَـنَـوْا عـلـيـك فَـجَـرَّدوا قُـضُـبـاً		مَـسْـنـونـةً وتَـقـدَّمـوا بِـقَـنَـا

***		***

يـا طـائـراً غَـنّـى عـلـىٰ غُـصُـنٍ		والـنـيـلُ يَـسـقـي ذلـك الـغُـصُـنـا
زدنـي وَهِـجْ مـا شِـئْـتَ مِـن شَـجَـنـي		إنْ كُـنـتَ مِـثْـلِـي تَـعـرِفُ الـشَّـجَـنـا
أَذْكَـرْتَـنـي مـا لَـسْـتُ نـاسِـيَـهُ		ولَـرُبَّ ذِكـرىٰ جَـدَّدتْ حَـزَنـا
أذْكَـرْتَـنـي بَـرَدىٰ وَوادِيَـهُ		والـطـيـرَ آحـاداً بِـهِ وثُـنـىٰ
وأحِـبَّـةً أَسْـرَرْت مِـن كَـلَـفـي		وَهَـواي فـيـهـم لا عـجـاً كَـمَـنـا
كـمْ ذا أُغـالِـبُـهُ ويَـغْـلِـبُـنـي		دَمْـعٌ إذا كَـفْـكَـفْـتُـهُ هَـتَـنـا
لـي ذِكْـرَيـاتٌ فـي رُبـوعِـهِـمُ		هُـنَّ الحـيـاةُ تـألُّـقـاً وَسَـنـا!

***		***

إنّ الـغَـريـبَ مُـعَـذَّبٌ أبـداً		إن حَـلَّ لَـمْ يَـنْـعَـم وإن ظَـعَـنـا
لـو مَـثَّـلـوا لـي مـوطـنـي وَثَـنـاً		لَـهَـمَـمْـتُ أعْـبـدُ ذلـك الـوَثَـنـا

* قال ابن الفارض :

تلك الليالي التي أعددْتُ من عُمُري		مع الأحبّة كانت كلُّها عُرُسا
لم يَحْلُ للعين شيءٌ بعد بُعْدهم		والقلب مُذْ آنَسَ التّذكارَ ما أَنِسَا
يا جَنَّةً فَارقتْها النفسُ مُكْرهةً		لولا التّأسّي بدارِ الخُلْدِ مُتُّ أسَا!!

* قال أبو الحسن علي بن محمد بن مَهْدِيٍّ الطَّبَرِيّ:

مـا ضـاعَ مَـن كـان لـه صـاحـب		يـقـدِرُ أن يُـصْـلِـحَ مـن شـأنِـهِ

فـإنمـا الـدُّنـيـا بـسـكَّـانـهـا وإنَّـمـا المـرءُ بـإخـوانِـه

* يقول أحمد شوقي :

ولـلأوطـان فـي دم كـلّ حـرٍ يـدٌ سـلـفـت ودَيـنٌ مـسـتَـحَـقُ
ولـلـحـريـة الحـمـراء بـابٌ بـكـل يـدٍ مـضـرّجـة يـدقُّ
شـكـوت ونـحـن مـخـتـلـفـون داراً ولـكـن كـلـنـا فـي الـهـم شـرقُ
* لا مـرحـبـاً بـغـدٍ ولا أهـلاً بـه إن كـان تـفـريـق الأحـبّـة فـي غـدِ

* قال الشاعر الجاهلي مُضاض بن عمرو الجرهمي قصيدة يتشوق بها إلىٰ مكة لما أجلت خزاعة قومه عنها، ومنها هذه الأبيات :

كأن لـم يكـن بين الحَجون إلىٰ الصـفا أنـيـس ولـم يـسـمـر بمـكـة سـامـر
بـلـىٰ نـحـن كـنـا أهـلـهـا فـأبـادنـا صـروف الـلـيـالي والجـدود الـعـواثـر
وأخـرجـنـا مـنـهـا المـلـيـك بـقـدرة كـذلـك يـا لـلـنـاس تجـري المـقـادر
فـصـرنـا أحـاديـثـاً وكـنـا بـغـبـطـة كـذلـك عـضَّـتـنـا الـسـنـون الـغـوابـر
وبـدَّلـنـا ربـي بـهـا دار غـربـة بـهـا الـذئب يـعـوي والـعـدو المكـاشـر
فـسـحـتْ دمـوع الـعـين تـبـكي لـبـلـدة بـهـا حـرم آمـنٌ وفـيـهـا المـعـاشـر

* يقول ابن الرومي :

ولـي وطـنٌ آلَـيـتُ ألاَّ أبـيـعَـهُ وألاَّ أرَىٰ غـيـري لـه الـدَّهـرَ مـالِـكـا
عَـمَـرْتُ بـه شَـرْخَ الـشَّـبـابِ مُـنـعَّـمـاً بـصُـحـبـةِ قـومٍ أصـبحـوا فـي ظِلالِـكـا
وحَـبَّـبَ أوطـانَ الـرِّجـالِ إلـيـهِـمُ مـآربُ قَـضَّـاهـا الـشَّـبـابُ هُـنـالِـكـا
إذا ذَكَـروا أوطـانَـهـمُ ذَكَّـرتـهُـمُ عُـهـودَ الـصِّـبـا فـيـهـا فَـحَـنُّـوا لِـذلِـكـا

وقـد أَلِـفَـتْـهُ الـنَّـفْـسُ حـتَّـى كـأَنَّـهُ لـهـا جَـسَـدٌ إنْ بـانَ غُـودِرَ هـالِـكـا

* يقول الشاعر الصمة بن عبدالله القشيري :

أقـول لـصـاحـبـي والـعـيـس تـهـوي بـنـا بـين الـمـنـيـفـة فـالـضـمـار

تمـتـع مـن شـمـيـم عـرار نجـد فـمـا بـعـد الـعـشـيـة مـن عـرار

ألا يـا حـبـذا نـفـحـات نجـد وَرَيَّـا روضـه بـعـد الـقِـطـار

الخير للجميع

* يقول أبو العلاء المعري :

ولَّمـا أَنْ تَـجَـهَّـمَـنـي[1] مُـرادي جَـرَيْـتُ مـعَ الـزَّمـانِ، كـمـا أرادا

وهَـوَّنْـتُ الخُـطـوبَ عَـلـيَّ، حـتـى كـأنـي صِـرْتُ أَمْـنَـحُـهـا الـوِدادا

فـأَيُّ الـنـاسِ أَجْـعَـلُـهُ صَـديـقـاً وأَيُّ الأَرضِ أَسْـلُـكُـه ارْتـيـادا؟[2]

ولـو أَنَّ الـنُّـجـومَ، لَـديَّ مـالٌ نَـفَـتْ[3] كَـفَّـايَ أَكـثـرهَـا اتِّـقـادا

ولـو أَنّـي حُـبِـيـتُ[4] الخُـلْـدَ فَـرْداً لَمـا أَحْـبَـبْـتُ بـالخُـلْـدِ انـفِـرادا

فـلا هَـطَـلَـتْ عَـلَّـي ولا بِـأَرْضـي سَـحـائِـبُ لـيـس تَـنْـتَـظِـمُ[5] الـبِـلادا

تأملات

* إن المنـاصـب لا تـدوم لـواحـدٍ إن كـنـت فـي شـك فـأيـن الأول؟

فاصنع من الفعل الجميل فضائلاً فـإذا عُـزلـت فـإنـهـا لا تـعـزل

* العلم في موطنه كالذهب في معدنه، لا يستنبط إلا بالعمل الدؤوب والتعب والكدّ والنصب، ثم يجب تخليصه بالفكر كما يخلص الذهب بالنار.

(١) تجهّم: عبس وغلظ. (٢) الارتياد: الطلب. (٣) نفى: أبعد. (٤) حبيت: منحت. (٥) تنتظم: تعم.

سياسة الحكام في قيادة الأمة

* لما استُخْلِف عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه أرسل إلى سالم بن عبدالله ومحمد بن كعب، فقال لهما: أشيرا عليَّ. فقال له سالم: اجعل الناس أباً وأخاً وابناً، فبرّ أباك، واحفظ أخاك، وارحم ابنك. وقال له محمد بن كعب: أحْبِبْ للناس ما تُحبُّ لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، واعلم أنك لست أوَّل خليفة يموت!.

* وقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

* وقال المنصور لابنه المهدي: يا بني لا تُبْرِم أمراً حتى تفكر فيه، فإن فكرة العاقل مرآته، تُريه حسناته وسيئاته، واعلم أن الخليفة لا يُصلحه إلا التقوى، والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة، والرعية لا يصلحها إلا العدل، وأولى الناس بالعفو أقدرُهم على العقوبة، وأنْقص الناس عقلاً مَنْ ظلم مَنْ هو دونه.

* والعاقل إذا أراد إزالة منكر أو قمْع فساد لا يتعجل الخطى ولا يتخطى المراحل، ولا يرتجل القرار، يتأمل ويفكر ثم يبدأ مراحل التنفيذ في حكمة وحذر، قال ولد عمر بن عبدالعزيز لأبيه: يا أبت، مالك لا تنْفُذُ في الأمور؟ فوالله لا أبالي في الحق لو غَلَتْ بي وبك القدور؟! فقال له عمر: لا تعْجَل يا بني فإن الله تعالى ذمّ الخمر في القرآن مرتين وحرَّمها في الثالثة، وأنا أخاف أن أحمِلَ الناس على الحق جملة فيدعوه، وتكون فتنة!.

* وقال المهلب لابنه: يا بني، اخفض جناحك واشتدّ في سلطانك، فإن الناس للسلطان أهْيَب منهم للقرآن.

* وقال عبدالملك: عجباً لخالد بن عبدالله! وليَّته البصرة وأمرْته أنْ يجرِّد السيفَ ويمنعَ المالَ، فبذَلَ المالَ وأغْمَد السيفَ! فقال له عبدالرحمن بن حسان: لو جرَّدَ السيفَ لوجدَ سيوفاً مجرَّدة، ولو منعَ المالَ لوجدَ أيدياً منازعةً!.

* قال معاوية يوماً، وقد ذكر مَنْ كان قَبْله: أما أبوبكر فهرب من الدنيا وهربتْ عنه،

وأما عمر فأقْبلت إليه وهرب منها، وأما عثمان فأصاب من الدنيا وأصابت منه، وأما أنا فقد داستني الدنيا ودستها! فقال أحد الجلساء: سكتَّ عن علي! وأنا أقول: وأما عليّ فأصابت الدُنيا منه ولم يصب منها!.

* وكلَّم الناسُ عبدالرحمن بن عوف أن يكلِّمَ عمر بن الخطاب في أنْ يلينَ لهم فإنه قد أخافهم، حتىٰ إنه قد أخاف الأبكار في خدورهنَّ! فقال عمر: إني لا أجد لهم إلا ذلك، إنهم لو يعلمون ما لهم عندي لأخذوا ثوبي عن عاتقي!

* والناس لا يصلح معهم العنف دائماً، كما أن العفو معهم أبداً لا ينفع، حتىٰ لا يجترئ السفلة علىٰ الحاكم ويطمعوا عند الفساد بتجاوزه، فلا بد من توازن الأمرين، وتعادل الطرفين، طرفي اللين والقسوة، والعفو والعقوبة.

* وقيل: لا ينبغي للملك أن يُسْرع إلىٰ حبْس من يُكْتفىٰ له بالجفاء والوعيد، فقد تكون الكلمة عند إنسان أشد إيلاماً من طعن الرماح وجرح السنان!

* لـمَّا انصرف مروان بن الحكم من مصر إلىٰ الشام، استعمل ابنه عبدالعزيز علىٰ مصر، وقال له حين ودَّعه: أرسِلْ حكيماً ولا تُوصِه، أي بُني، انظر إلىٰ أهل عملك فإن كان لهم عندك حقٌ غُدوةً فلا تُؤخرّه إلىٰ عشيّة، وإن كان لهم عشيةً فلا تؤخرْه إلىٰ غُدوة، وأعطهم حقوقهم عند مَحلِّها، تَسْتوجِب بذلك الطاعة منهم. وإيَّاك أنْ يظْهر لرعيّتك منك كذب، فإنهم إنْ ظهر لهم منك كذب لم يصدّقوك في الحق، واسْتشِر جلساءك وأهل العلم، فإنْ لم يَسْتَبِنْ لك فاكتبْ إليَّ يأْتِك رأيي فيه إن شاء الله تعالىٰ. وإنْ كان بك غضب علىٰ أحد من رعيّتك، فلا تؤاخذْه به عند سَوْرة الغضب، واحْبس عنه عقوبتك حتىٰ يَسْكن غضبُك، ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكنُ الغضب منطفئ الجمْرة، فإنَّ أوَّل مَنْ جعل السّجنَ كان حليماً ذا أناة!، ثم انظر إلىٰ أهل الحسب والدين والمروءة فليكونوا أصحابك وجلساءك، ثم اعرف منازلهم منك علىٰ غير استرسال ولا انقباض، أقول هذا وأستخلف الله عليك!.

* قالوا: وكان زياد إذا أُتي بصاحب زلّة، أخَّر عقوبته أياماً يسأل عن قضيته مخافة

الزيادة في العقوبة. وكان مكتوباً في مجلسه الذي يجلس فيه للناس بالكوفة، في أربع زوايا بخط واضح: الوالي شديدٌ في غير عنْف، ليِّنٌ في غير ضعف، العطية لأربابها والأرزاق لأوقاتها، البعوثُ لا تُجَمَّر - لا تحبس في أرض العدو - المحسن يجازىٰ بإحسانه والمسيءُ يُؤخذ علىٰ يديه، فكان كلما رفع رأسه قرأ هذه الكلمات!.

* صعد عبدالملك المنبر فقال في خطبته: يا معشر رعيتنا! سألتمونا سيرة أبي بكر وعمر، ولم تسيروا فينا ولا في أنفسكم سيرة رعية أبي بكر وعمر! ولكن نسأل الله أنْ يعين كلاً علىٰ كل!

* وشكت الرعية بعض العمال، فارتضىٰ العامل رجلاً حَكَماً فسأله الأمير، فقال: ما في عاملك ما يُشْتكىٰ إلا أن الله أمر بأمرين، امتثل فينا أحدهما وترك الآخر، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ (النحل: ٩٠)، فعدل فينا ولم يُحْسن إلينا، وفي العدل بغير إحسان عَطَبُ الرعيّة! فقال له الأمير: صدقت، وقد ولَّيْتُك مكانه!.

* قال المغيرة: ما رأيت أحداً هو أحزم من عمر، كان والله له فضل يمنعه أنْ يخدعَ، وعقل يمنعه أنْ يُخْدع!

* ويروىٰ أن ملك الفرس كان يعرف كل شيء عن أحوال رعيته، حتىٰ إن القريب والبعيد في علمه بأحوالهم سواء، وذلك لكثرة عيونه وتيقُّظه، حتىٰ قالوا: كان يأتيه ملك من السماء! وما ذاك إلا بشدته وكثرة عيونه الذين يأتونه بالأخبار أولاً بأول من كل ناحية!!

* لما ولّىٰ عمرُ عتبة بن أبي سفيان الطائف ثم عزله، تلقّاه في بعض الطريق، فوجد معه ثلاثين ألفاً، فقال: أنّىٰ لك هذا؟ قال: والله ما هو لك ولا للمسلمين، ولكنه مال خرجْتُ به لضيْعة اشتريها، فقال عمر: عاملُنا وجَدْنا معه مالاً، ما سبيلُه إلا بيت المال! وأخذه، فلما وَلي عثمان قال لعتبة: هل لك في هذا المال، فإني لم أرَ لأخذ عمر فيه وجهاً؟ قال: والله إنَّ بنا إليه لحاجة ولكن لا تَرُدَّ علىٰ مَنْ قبْلك فيرُدَّ عليك من بعدك!

* خرج الزهري يوماً من مجلس هشام بن عبدالملك فقال: ما رأيتُ كاليوم ولا

سمعت كأربع كلمات تكلّم بهنَّ رجل عند هشام، دخل عليه فقال: يا أمير المؤمنين، احفظ عني أربع كلمات فيهنَّ صلاحُ مُلْكك واستقامة رعيتك! قال: هاتهنّ! فقال: لا تَعدَنَّ عدةً لا تثق من نفسك بإنجازها، ولا يغرنّك الـمُرْتقى وإن كان سهلاً إذا كان المنحدرُ وعْراً، واعلمْ أن الأعمال جزاء فاتق العواقب، وأن الأمور بَغَتاتٌ فكن على حَذَر! قال عيسى بن دَأب: فحدَّثت الهادي بها وفي يده لُقْمَة قد رفعها إلى فيه فأَمْسَكَها، وقال: ويحك! أعِدْ عليَّ! فقلت: يا أمير المؤمنين، أسغ لقْمتك! فقال، حديثك أعجب إليَّ!.

* بعث معاوية إلى عمر بن الخطاب وهو على الشام بمال وأدْهم، وكتب إلى أبي سفيان أنْ يدْفع ذلك إلى عمر - والأدْهم: القَيْد - وكتب إلى عمر يقول: إني وجدْت في حُصون الروم جماعة من أُسارى المسلمين مُقيّدين بقيود حديد، أنفذْتُ منها هذا ليراه أمير المؤمنين، فخرج الرسولُ حتى قَدِم على أبي سفيان بالمال والقيد، قال: فذهب أبوسفيان بالكتاب والقيد إلى عمر، واحتبس المال لنفسه، فقال عمر بعد أن قرأ الكتاب: فأين المال يا أبا سفيان؟ قال: كان عليَّ ديْن ومَعُونة، ولنا في بيت المال حق، فإذا أخرجت لنا شيئاً قاصَصْتَنا به! فقال عمر: اطرحوه في القيد حتى يأتي بالمال! قال: فأرسل أبوسفيان من أتاه بالمال، فأمر عمر بإطلاقه من القيد، فلما عاد الرسول إلى معاوية قال له: رأيتَ أمير المؤمنين أُعْجب بالأدْهم؟ قال: نعم، وطَرَح فيه أباك! قال: ولِمَ؟ قال: جاءه بالأدهم وحبس المال! قال: إي والله، والخطّابُ لو كان، لَطَرَحه فيه!.

اسلوب.. في الحكم والسياسة

* قال معاوية بن أبي سفيان: إني لا أضعُ سيْفي حيثُ يَكْفيني سوطي، ولا أضع سوْطي حيثُ يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعتْ أبداً! قيل له: وكيف ذلك؟ قال: كنت إذا مدّوها أرْخيْتُها، وإذا أَرْخَوْها مددْتُها!. وقال يوماً لزياد: أنا أسْوسُ منك، ضبطْتَ سلطانَك بالشّدة، وأنا ضبطْتُ سلطاني باللين!

* وافْتخر سليم مولى زياد يوماً عند معاوية بزياد، فقال معاوية: اسكت ما أدرك صاحبُك شيئاً قط بسيفه إلا وقد أدركْت أكثر منه بلساني!

* وقال الوليد بن عبدالملك لأبيه: يا أبت ما السياسة؟ قال: هيْبة الخاصة مع صدْق مودّتها، واقتيادُ قلوب العامة بالإنصاف لها، واحتمالُ هَفوات الصّنائع.

* ومن كلام معاوية: إني لآنَفُ أن يكون في الأرض جهلٌ لا يسعه حِلْمي، وذنبٌ لا يسعه عفوي، وحاجةٌ لا يسعها جودي، وإني لأرفع نفسي أن يكون ذنب أوسع من حلمي، وما غضبي على من أمْلِك أو ما غضبي على من لا أمْلِك! يريد: أنه إذا كنت مالكاً للمذنب فإني قادر على الانتقام منه فَلِمَ أُلْزم نفسي الغضب؟! وإن لم أكن أملكه فليس يضره غضبي، فلِمَ أغضب عليه فأضرَّ نفسي ولا أضرّه.

* وأغْلظ رجل يوماً على معاوية فحلم عليه، فقيل له: أتحلم على مثل هذا؟ فقال: إنا لا نحولُ بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا!!.

* وقال عمر رضي الله عنه: لا يصلُحُ لهذا الأمر إلا اللّين من غير ضعْف، القويّ من غير عُنْف!.

* وذكر أعرابي أميراً فقال: كان إذا وَليَ لم يُطابق بين جُفونه، وأرسل العيون على عيونه، فهو غائب عنهم شاهد معهم، فالمحْسِن راج وآمن، والمسيءُ يائس وخائف.

* وقال عبدالملك لبنيه: كلكم يترشَح لهذا الأمر، ولا يصلُح له منكم، إلا من كان له سيْفٌ مَسْلول، ومالٌ مبذول، وعدْل تطمئنّ إليه القلوب!

العدل والإنصاف

* ومدار السياسة على العدل والإنصاف، ففي ذلك إبقاء المنصب، وأساسُ الملكِ العدلُ، فإذا فُقِد الأساس أو اهتز فلا يلبث البناء أنْ ينْهار! وأسْوس الناس رعيّته، مَنْ قاد أبْدانها بقلوبها، وقلوبَها بخواطرها، وخواطرَها بأسبابها من الرغبة والرهبة.

* قال زياد: ما غلبني معاوية في شيء من السياسات إلا في واحدة: استعملْتُ رجلاً على قرية فكسر خراجها ولحق بمعاوية، فكتبْتُ إليه أن ابعثْه إليَّ، فكتب: ليس ينبغي أنْ نسوس الناس سياسة واحدة لا نلين جميعاً فتمرح الناس في المعصية، ولا نشتدّ جميعاً

فنحْمل الناس على المهالك، ولكن تكون أنت للشدة والغلظة، وأكون أنا للرأفة والرحمة! وإذا هرب هارب من باب وجد باباً يدخله والسلام.

* وخاطب المنصور يوماً أحد قواده فقال: صدق القائل، أجعْ كلبك يَتْبَعْكَ وسمِّنْه يأكلْكَ، فقال له أحد الجلساء: كلا، أما تخشى يا أمير المؤمنين إنْ أجعْته أنْ يُلوّح له غيرُك برغيف فيَتْبَعه ويَدَعَك؟! فقد قيل: مَنْعُ خَيْرك يدعو إلى صحبة غَيْرِك! فقال: صدقت!.

* وقال أحد الملوك موصياً: لا تُوَسِّعنَّ على جندك سَعَةً، يَسْتَغْنون بها عنك ولا تُضَيِّقنَّ عليهم ضيقاً يضجّون بك منه، ولكن أعطهم عطاء قَصْداً، وامنعهم منعاً جميلاً وابسُط لهم في الرجاء ولا تبسُط لهم في العطاء.

قدوة وأسوة

* وكان الملوك والخلفاء ينصفون من أنفسهم ويقضون بالحق لرعيتهم، ولو كان على ذوي قرباهم ومعارفهم، لئلا يتصدَّع الملك، وينخر دود الظلم في جسم المملكة. وطالما أن الملك لا يقدر عليه أحد من رعيته وليس فوقه إلا خالقه، فكان ذلك حرياً أن يدعوه للعدل والعفو والرفق والرحمة بالرعية.

* قال معاوية: إني لأستحي أن أظلم من لا يجد عليَّ ناصراً إلا الله!.

* لمَّا أُتي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتاج كسرى وسِوارَيْه، قال: إنَّ الذي أدَّى هذا لأمين! فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، أنت أمين الله، يُؤدّون إليك ما أدّيْت إلى الله، فإذا رَتَعْت رتَعُوا!

* قال عبدالملك: إنّ أفضل الرجال، من تواضع عن رِفْعة وزَهِدَ عن قدرة، وأنصف عن قوّة!.

* كتب عبدالله بن عباس إلى الحسن بن علي لمَّا ولاّه الناس أمرهم بعد علي رضي الله عنهما: أنْ شمِّرْ للحرب وجاهدْ عدوَّك، واشْتَر من الضنين دينه بما لا يَثْلم دينك، ووالِ أهل البيوتات تَسْتَصْلح به عَشَائرهم!.

* حكي عن بعض بني أمية أن المنصور سأله لما نكبهم، أي شيء كان أنفع لكم في هربكم؟ فقال: ما وجدنا شيئاً أنفع من الجوهر القليل الثمن، الذي تبلغ قيمة الحبة منه خمسة دنانير، لأنا استصحبنا الفاخر منه، والقريب الثمن، فما كنا نقدر على بيع الفاخر لشدة الطلب لنا، والخوف من أن نعرف به، فينبه علينا، ونؤخذ، وكان هذا اليسير الثمن، يُشترى منا، من غير أن يعرف، فننتفع به، ويخفى أمرنا، فكان أنفع. قال: فأي النساء وجدتم أفضل؟ قال: بنات العم، كن أصبر علينا وأشفق. قال: فأي الرجال، وجدتم أفضل؟ قال: الموالي. قال: فأمر المنصور المهدي، أن يتزوج ابنة عمه، واتخذ المنصور مواليه عمالاً في أعماله، وقدمهم، ورفع منهم.

نصيحة ولاة الأمر

* من حق الرعية على وليّ الأمر، أن يعدل بينهم، ولا يمنعهم حقوقهم، ومن حقّه عليهم أن يسمعوا له ويطيعوا، طالما أن الله وضعه في المقام الأسنى، والمكان الأعلى، وملّكه أمور الخلق وقلّده زمام الحكم، فبِهِ تُنْقمع المظالم وتُخمد الفتن وينتصر المظلوم ويأمن الخائف؛ لذلك كان لزاماً عليه أن يعدل ويقضي بالحق ويهتمّ بمصالح الرعية، وكان عليهم امتثال أمره والعمل بطاعته، وتقديم النصح له بالرفق واللين.

* ومن الحكم المأثورة: إمام عادل خير من مطر وابل، وإمام غَشُوم خير من فتنة تدوم، وما يَزَعُ الله بالسلطان أكثرُ مما يزع بالقرآن.

لا يَصْلُحُ الناسُ فوضى لا سَراةَ لهم ... ولا سَراة إذا جُهّالهم سادُوا
والبيتُ لا يُبْتَنى إلاّ له عَمَدٌ ... ولا عِمادَ إذا لم تُرسَ أوْتادُ
فإنْ تجمَّعَ أوْتادٌ وأعْمِدةٌ ... يوماً فقد بَلَغوا الأمْرَ الذي كادوا!

* ومن شأن الأفراد والجماعات قلة الرضى عن الحاكم وكثرة لومه والتعريض به، حتى ولو كان من الحق قريباً، ولمصالح الرعية حافظاً وأميناً، ولا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة!

* قال حذيفة رحمه الله: ما مشىٰ قوم قط إلىٰ سلطان الله في الأرض ليُذلّوه إلاَّ أذلَّهم الله قبل موتهم!

ولـمَّا قدم زيادٌ العراق والياً عليها، خطب الناس فقال: قد كانت بيني وبينكم إحَنٌ، فجعلْتُ ذلك دَبْر أذنيّ، وتحت قَدَميّ، فمن كان محسناً فليزدْ في إحسانه، ومن كان مسيئاً فلينْزع عن إساءته، إني والله لو علمْتُ أنَّ أحدكم قد قتله السِّلُّ من بُغْضي لم أكْشفْ له قِناعاً ولم أهْتك له ستْراً، حتىٰ يُبْدي صفْحَته لي!.

* وكان عمر رضي الله عنه إذا قدم عليه الوفد سألهم عن حالهم وأسْعارهم، وعمن يعْرِفُ من أهل البلاد وعن أميرهم، هل يدخل عليه الضعيف؟ وهل يعود المريض؟ فإن قالوا: نعم، حمد الله تعالىٰ، وإنْ قالوا: لا، كتب إليه: أقْبِل!!.

* لما رجع أهل المدينة من عند يزيد بن معاوية مشىٰ عبدالله بن مطيع وأصحابه ـ ابن مطيع هو الذي ولاّه أهل المدينة عليهم عندما خرجوا عن طاعة يزيد وخلعوه ـ إلىٰ محمد بن الحنفية فأرادوه علىٰ خلع يزيد فأبىٰ عليهم، فقال ابن مطيع: إنَّ يزيد يشرب الخمر ويترك الصلاة ويتعدىٰ حكم الكتاب! فقال لهم: ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظباً علىٰ الصلاة متحرياً للخير يسأل عن الفقه ملازماً للسنة، قالوا: فإنَّ ذلك كان منه تصنّعاً لك. فقال: وما الذي خاف مني أو رجا، حتىٰ يظهر إليّ الخشوع؟ أفأطلعكم علىٰ ما تذكرون من شرب الخمر؟ فلئن كان أطلعكم علىٰ ذلك إنكم لشركاؤه، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا! قالوا: إنه عندنا لحق وإن لم يكن رأيناه! فقال لهم: أبىٰ الله ذلك علىٰ أهل الشهادة، فقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ (الزخرف) ولست من أمركم في شيء، قالوا: فلعلك تكره أن يتولىٰ الأمر غيرك فنحن نوليك أمرنا! قال: ما أستحل القتال علىٰ ما تريدونني عليه تابعاً ولا متبوعاً. قالوا: فقد قاتلت مع أبيك، قال: جيئوني بمثل أبي أقاتل علىٰ مثل ما قاتل عليه! فقالوا: فمُرْ ابنيك أبا القاسم والقاسم بالقتال معنا! قال: لو أمرتهما قاتلت. قالوا: فقُمْ معنا مقاماً تحض الناس فيه علىٰ القتال، قال سبحان الله! آمر الناس بما لا أفعله ولا

أرضاه؟! إذاً ما نصحت لله في عباده. قالوا: إذا نُكْرِهك. قال: إذا آمر الناس بتقوىٰ الله ولا يُرضون المخلوق بسخط الخالق، وخرج إلىٰ مكة!

* كان عبدالله بن عمر بن الخطاب وجماعات أهل بيت النبوة ممن لم ينقض العهد، ولا بايع أحداً بعد بيعته ليزيد، كما روىٰ الإمام أحمد عن نافع. قال: لما خلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه وأهله ثم تشهد ثم قال: أما بعد فإنا بايعنا هذا الرجل علىٰ بيع الله ورسوله، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة يقال: هذه غدرة فلان، وإن من أعظم الغدر - إلا أن يكون الإشراك بالله - أن يبايع رجل رجلاً علىٰ بيع الله ورسوله ثم ينكث بيعته! فلا يخلعن أحد منكم يزيد ولا يسرفن أحد منكم في هذا الأمر، فيكون الفيصل بيني وبينه. وقد رواه مسلم والترمذي من حديث صخر بن جويرية، وقال الترمذي: حسن صحيح. البداية والنهاية لابن كثير: الجزء الثامن من المجلد الرابع ص٢٣٥ ط دار الكتب العلمية - بيروت.

الرفق واللين

* ونُصْحُ الإمام ولزوم طاعته في المعروف أمر لازم، ولا تستقر الأمور في أي مجتمع إلا بذلك، ومن كتم السلطان نصحه، والأطباء مرضه، والإخوان بثّه فقد خان نفسه. ولن تجدي النصيحة إلا إذا صاحبها اللين والرفق. تعلق رجل بالرشيد وهو يطوف بالبيت فقال: إني أريد أنْ أكلمك بكلام فيه بعض الغلظة، فقال: لا ولا نُعمىٰ! إن الله بعث مَنْ هو خيرٌ منك، إلىٰ مَنْ هو شر مني فقال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾.

* وقديماً قالوا: علّم السلطان وكأنك تتعلّم منه، وأشِرْ عليه وكأنك تستشيره، وإذا أحلّك السلطان من نفسه بحيث يسمع منك ويثق بك، فإيّاك والدخول بينه وبين بطانته، فإنك لا تدري متىٰ يتغيّر منك، فيكونوا عوناً عليك، وإيّاك أنْ تعادي مَنْ إذا شاء أنْ يطرح ثيابه ويدخل مع الملك في ثيابه فعل!.

* وقال بعضهم: انصح السلطان، وأكثر له من الدعاء بالصلاح والرشاد في القول

والعمل، فإنهم إذا صَلَحُوا صَلَح البلاد والعباد بصلاحهم، وإيَّاك أن تدعوَ عليهم فيزدادوا شراً ويزدادَ البلاء بالمسلمين، وإيَّاك أنْ تأتيهم أو تتصنَّع لإتيانهم أو تُحبّ أن يأتوك واهرب منهم ما استطعت!.

* خطب المنصور يوماً، فذكّر الناس بطاعة الله ومجانبة معاصيه، فقام إليه رجل فقال: أنت يا أمير المؤمنين أوْلى بأنْ تُذكّر بطاعة الله واجتناب معاصيه، فاتق الله وحاذر غضبه! فقال المنصور: والله ما أردْتَ بهذه النّصيحة وجه الله، ولكن أردتَ أن يُقال بين الناس: قام إلى أمير المؤمنين فنصحه!!

* وكان العقلاء يوصون مَنْ جالس الملوك والخلفاء، ونال ثقتهم وحاز على رضاهم، أن يكون أميناً لسرّهم حافظاً لغيبتهم، معترفاً بفضلهم غير ناكر لجميلهم، وإن الملوك تتحمَّل كل شيء إلا القدْح فيهم، وإفشاء السر، والتعرُّض للحرم.

* وروي أن بعض الملوك استصحب حكمياً فقال له: أصحبك على ثلاث خصال. قال: وما هنَّ؟ قال: لا أفشي لك سراً، ولا أدَّخر عنك نصيحة، ولا أؤثر عليك أحداً. قال: نعم الصاحب للمستصحب أنت!.

* قال أحد الملوك لخازن بيت ماله: إني لا أعْذرك في خيانه درهم، ولا أحْمدك على حفظ ألف ألف درهم، لأنك إنما تحْقن بذلك دَمَك، وتعمرُ به أمانتك، فإنك إنْ خنْت قليلاً، خنْت كثيراً، واحترس من خصلتين: النقصان فيما تأخذ، والزيادة فيما تعطي، واعْلم أني لم أجْعلك على ذخائر الملك وعمارة المملكة والقوة على العدو، إلا وأنْت عندي آمنٌ من موضعه الذي هو فيه، وخواتمه التي هي عليه!.

* قال معاوية لرجل من قريش: إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبي ويبطش بطش الأسد.

* وقال ميمون بن مهران: قال لي عمر بن عبدالعزيز: يا ميمون احفظ عني أربعاً، لا تصحبنّ السلطان وإن أمرْته بمعروف ونهيته عن المنكر، ولا تخلونَّ بامرأة وإنْ أقرأتها القرآن، ولا تَصِلْ من قطع رَحِمَه فإنه لك أقطع، ولا تتكلم بكلام اليومَ تعتذر منه غداً.

* وكم من إنسان صحب السلطان، ليصلحه ففسد هُوَ بِهِ فكان كما قيل:

عَـدْوَىٰ الـبـلـيـد إلىٰ الجـلـيـد سـريـعـةٌ   والجـمْـرُ يـوضـع في الـرَّماد فـيـخْـمـد!

السلطان من لا يعرف السلطان

* وقال بعض الولاة لأعرابي: قل الحق وإلا أوجعتك ضرباً! فقال: وأنت فاعمل به، فما توعّدك الله به أشدُّ مما تتوعدني به!

* وقال المأمون: لو كنت مع العامة لم أصحب السلطان!.. قيل لقائد وهو يحارب عدوه، إن عدوك معه ثمانون ألفاً! فقال: إنَّ القصّاب لا يهولُه كثرة الغنم!

* وقال زياد لأصحابه: مَنْ أغْبطُ الناس عيشاً؟ قالوا: الأمير وأصحابه! قال: كلا، إنَّ لأَعْواد المنابرِ لَـهَيْبةً ولِقَرْعِ لِجَام البريد لفَزْعة - مخافة العزل - ولكنَّ أغبط الناس عيشاً رجلٌ له دار يسكُنُها، وزوْجة صالحة يأوي إليها، في كَفَاف من عيْش، لا يعْرفنا ولا نعْرفه، فإن عَرَفَنا وعرفْناه أفْسَدْنا عليه آخرته ودنياه! وقديماً قالوا: السلطان من لا يعرف السلطان، ولا يعرفه السلطان!

إنَّ المـلـوك بـلاءٌ حـيـثـمـا حَـلُّـوا   فـلا يَـكُـنْ لـك فـي أكْـنـافـهـم ظـلُّ

مـاذا تـريـد بـقـوم إنْ هُـمُ غَـضِـبُـوا   جـاروا عـلـيـك وإنْ أرضـيْـتَـهـم مَـلُّـوا

وإنْ مَـدَحْـتَـهُـم ظَـنُّـوك تَـخْـدَعُـهُـم   واسْـتَـثْـقَـلُـوكَ كَـمَـا يُـسْـتَـثْـقَـلُ الـكَـلُّ

فـاسْـتَـغْـن بـالـلـه عـن أبـوابِـهِـم أبـداً   إنَّ الـوقـوفَ عـلـىٰ أبـوابِـهِـم ذُلُّ

* وأرسل أبو جعفر إلىٰ سفيان، فلما دخل عليه قال: سَلْني حاجتك أبا عبدالله! قال: وتقْضيها يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، قال: فإنَّ حاجتي إليك أنْ لا تُرْسل إليَّ حتىٰ آتيك ولا تُعطيني شيئاً حتىٰ أسْألك!، ثم خرج، فقال أبوجعفر: أَلْقَيْنَا الحبَّ إلىٰ العلماء فلَقَطُوا إلا ما كان من سفيان الثوري فإنه أعيانا فِراراً.

* ويروىٰ أنَّ الشعبي قال: أخطأتُ عند عبدالملك بن مروان في أربع: حدثني بحديث يوماً فقلت: أعِدْهُ عليَّ، فقال: أما علمت أن أمير المؤمنين لا يُسْتعاد! وقلت له حين أذن لي: أنا الشعبي! فقال: ما أدْخلناك حتىٰ عرفناك، وكَنَّيْت عنده رجلاً فقال: أما علمت أنه لا يُكنَّىٰ أحد عند أمير المؤمنين، وحدثني بحديث فسألته أنْ يكتبه فقال: إنا نُكَتِّبُ ولا نُكَتَّبْ!. والبعض يرىٰ أن هذه القصة لا تشبه ما يروىٰ عن الشعبي ولا تماثل أخلاقه!.

* وقال الشعبي: قال لي عبدالملك: جنبني ثلاثاً وأوْرِدْ عليَّ ما شئت، لا تُطْرِني في وجهي فأنا أعلم بنفسي، وإيَّاك أن تغتاب عندي أحداً، واحذر أن أجِدَ عليك كذبة فلا أسْكن إلىٰ قولك أبداً، وهذا مأخوذ من قول العباس لابنه عبدالله رضي الله عنهما، حيث قال له: يا بني إني أرىٰ أمير المؤمنين - يعني عمر بن الخطاب - يُدْنيك دون أصحاب محمد ﷺ، فاحفظ عني ثلاثاً: لا يَجِدَنَّ عليك كذباً، ولا تغتابَنَّ عنده مسلماً، ولا تُفْشِيَنَّ له سراً، فقيل له: يا ابن عباس، كل واحدة خير من ألف، فقال: كل واحدة خير من عشرة آلاف!.

* وكان الحسن اللؤلؤي يحضر مجلس المأمون ويجاريه الفقه، فنعس المأمون، فقال اللؤلؤي: أنعست يا أمير المؤمنين؟ فقال المأمون: سوقيّ والله! يا غلام خذ بيده.

* وقال الأصمعي للرشيد في شيء سأله عنه: علىٰ الخبير سقطت! فقال: أسْقَطَك الله علىٰ رأسك!

* ودعا المنصور جماعة من القرّاء فقال لأحدهم اقْرأ: فقرأ: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦)﴾ (الشعراء: ٢٠٥)، فغضب وأخرجه، ثم قال للآخر اقرأ، فقرأ: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥)﴾ (الدخان)، فغضب وأخرجه، ثم قال للآخر: اقرأ، فقرأ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣)﴾ (الأحزاب)، فأمر له بصلة.

* وقال الرشيد لأحد جلسائه وكانوا يلعبون: كن مع فلان - أي ضدّ الرشيد - فأبى، فغضب الرشيد، وقال: أتأنَف أن تكون معه؟ فقال: حلفْت على أنْ لا أكون على أمير المؤمنين في جدّ ولا هزل! فأُعجب بها الرشيد!

* وعلى العموم فإن لمجالسة الملوك والكبار آداباً يجب أن تُراعى، فما يُقال في مجلس العامة لا يُقال في مجالسهم، ولهم أمزجة وعادات خاصة، ولا يدخل إلى قلوبهم إلا من راعاهاوحفظها، فكم من كلمة أبْعدت صاحبها، ولفظة طردتْ قائلها، وليكن مُجالسُهم على حذر، ولتكن صحبتهم كصحبة الأسد الضاري، والفيل المغتلم والأفاعي القاتلة. وفي البعد عن مخالطتهم السلامة!.

* قيل لبعضهم: لا تصحب السلطان، فمثل السلطان مثل القِدْر، مَنْ مسّه سوَّده! قال: لئن كان خارج القدْر أسود، فداخلها لحم كثير وطعام لذيذ!!.

* اصطنع كسرى أنوشروان رجلاً لم يكن له نسب، فقيل له في ذلك. فقال: اصطناعنا إيّاه نسبٌ له!.

* ووفد حاجب بن زُرارة على كسرى فاستأذن عليه، فقال كسرى لحاجبه: سَلْه مَنْ هو؟ فقال: رجلٌ من العرب. فلما مَثَل بين يديه، قال له: مَنْ أنت؟ قال: سيد العرب! قال: ألستَ زَعمت قبل قليل أنك رجل منهم؟ قال: منذ أكْرمتني وأجلستني صِرْتُ سيّدهم! فَحَشَا فاهُ لآلئ!

الاختيار للمناصب القيادية

* قال إياس بن معاوية: أرسلَ إليَّ عمرُ بن هُبيرة فأتيْته فَسَاكتني فسكتُّ، فلما أطلْت قال: إيهٍ؟ قلت: سلْ عمَّا بَدَا لك، قال: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم، قال: أتفرِض الفرائض؟ قلت: نعم. قال: أتعرف من أيام العرب شيئاً؟ قلت: نعم. قال: أتعرف من أيام العجم شيئاً؟ قلت: أنا بها أعرف. قال: إني أريد أنْ أستعين بك على عملي! قلت: إنَّ فيَّ خلالاً ثلاثاً، لا أصلحُ معهن للعمل! قال: ما هنَّ؟ قلت: أنا دَميم كما ترى، وأنا

حديد، وأنا عَيِيٌّ!، قال: أما الدمامة، فإني لا أريد أنْ أحاسن بك الناس! وأما العِيّ، فإني أراك تُعْرب عن نفسك، وأما سوء الخلق فيقوّمه السوط! قمْ قد ولّيتك، قال: فولأني وأعطاني ألفي درهم، فهما أول مال تموّلته!

* وأحضر الرشيد رجلاً ليوليه القضاء، فقال له: إني لا أحسن القضاء ولا أنا فقيه! قال الرشيد: فيك ثلاث خلال: لك شرف، والشرف يمنع صاحبه من الدناءة، ولك حلم يمنعك من العَجَلة، ومن لم يعْجل قلّ خطؤه، وأنت رجل تشاور في أمْرك، ومن شاور كثر صوابه. وأما الفقه فسينضمّ إليك من تتفقه به، فَوَلِيَ.. فما وجدوا فيه مطْعناً!.

* وقال عدي بن أرطأة لإياس بن معاوية: دُلّني على قوم من القُرّاء أُولّهم، فقال له: القرّاء ضرْبان: ضرْب يعملون للآخرة، ولا يعملون لك، وضرْب يعملون للدنيا، فما ظنّك بهم إذا أمْكَنْتَهم منها؟ قال: وما أصنع؟ قال: عليك بأهل البيوتات الذين يستحيون لأحسابهم فَوَلّهم!.

* وسأل عمر بن عبدالعزيز أبا مِجْلز عن رجل يولّيه خراسان، فقال له: ماتقول في فلان؟ قال: مَصْنوع له وليس بصاحبها، قال: ففلان؟ قال: سريع الغضب بعيد الرضا، يسأل الكثير ويمنع القليل، ويحسد أمّه ويُنافس أباه، ويحقِّر مولاه، قال: ففلان؟ قال: يُكافئ الأكفاء ويُعادي الأعداء، ويفعل ما يشاء، قال: ما في واحد من هؤلاء خير!

* لما أراد عمرو بن العاص المسير إلى مصر، قال له معاوية: إني أريد أن أوصيك قال: أجل، فأوْصِ، قال: انظر فاقة الأحرار فاعمل في سدّها، وطغيان السفلة فاعمل في قَمْعها، واستوحش من الكريم الجائع، واللئيم الشبعان، فإنما يصول الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شبع!.

* وقال عمر بن الخطاب: دلّوني على رجل أستعمله، فقد أعْياني أمر المسلمين، قالوا له: عبدالرحمن بن عوف، قال لهم: ضعيف! قالوا له: فلان، قال: لا حاجة لي به، قالوا: فمن تريد؟ قال: رجل إذا كان أميرَهم كان كأنه رجل منهم، وإذا لم يكن أميرَهم كان كأنه أميرهم، قالوا: ما نعلمه إلا الربيع بن زياد الحارثي، قال: صدقتم.

* وكان زياد إذا ولّى رجلاً قال له: خذ عَهدك وسرْ إلى عملك، واعلم أنك مصروفٌ رأسَ سنتك، وأنك تصير إلى أربع خلال فاختر لنفسك: إنا إنْ وجدْناك أميناً ضعيفاً، استبْدلنا بك لضعفك، وسلّمَتْك من معرّتنا أمانتُك، وإنْ وجدناك خائناً قوياً، استهنّا بقوتك، وأحْسَنَّا على خيانتك أدبَك فأوْجعْنا ظهرك وأثقلْنا غرمك، وإن جمعت علينا الجُرْمين، جمعنا عليك المضرّتين، وإنْ وجدناك أميناً قوياً زدْناك في عملك، ورفعنا لك ذِكْرك، وكثَّرْنا مالك وأوطأنا عقبك!!

* وقال معاوية لابن الكوّاء: صف لي الزمان، فقال: أنت الزمان، إنْ تَصْلُح، يَصْلح وإن تَفْسد يَفْسد.

* وجاء في خطبة زياد: ومهما قصّرت فيه من أداء حقوقكم، فلن أقصر في ثلاث: لست محتجباً عن ذي حاجة ولو أتاني طارقاً بليل، ولا مُجَمِّراً لكم جيشاً حابسه في أرض العدو ـ ولا حابساً عنكم عطاءً ولا رزقاً لإبّانه، فادعوا الله لأئمتكم بالصلاح، فإنهم ساستكم المؤدِّبون، وكهْفكم الذي إليه تأوون، فإنْ تصلحوا يصْلحوا..

* أراد عمر رضي الله عنه أنْ يسْتعمل رجلاً، فبادر الرجل فطلب منه العمل، فقال عمر: والله لقد كنت أردتُك لذلك، ولكن مَنْ طلب هذا الأمرَ لم يُعَنْ عليه!.

* وقال أبوبكر الصديق رضي الله عنه: فِرّ من الشرف يتبعْك الشرفُ، واحرصْ على الموت تُوهَبْ لك الحياةُ!

النصيحة في الاختيار

* لـمَّا قَدِمَ رجال من الكوفة على عمر بن الخطاب يشكون سعد بن أبي وقاص، قال: قد أعياني أهل الكوفة؟ إن ولّيت عليهم التقيّ ضعّفوه، وإن وليت عليهم القويّ فجّروه، فقال له المغيرة الثقفي: يا أمير المؤمنين: إن التقي الضعيف له تقواه وعليك ضعْفه، والقوي الفاجر لك قوّته وعليه فجوره. قال: صدقت. فأنت القوي الفاجر، فاخرج إليهم، فلم يزل عليهم أيام عمر وصدراً من أيام عثمان وأيام معاوية حتى مات المغيرة.

* قال معاوية بن أبي سفيان: مهما كان في الملك فلا ينبغي أن تكون فيه خمس خصال: لا ينبغي أن يكون كذاباً، فإنه إذا كان كذّاباً فوعد بخير لم يُرْج، وإنْ وعد بشرّ لم يُخَفْ، ولا ينبغي أن يكون بخيلاً، فإنه إذا كان بخيلاً لم يناصحه أحد، ولا تصلح الولاية إلا بالـمُنَاصح، ولا ينبغي أن يكون حديداً، فإنه إذا كان حديداً مع القدرة هلكت الرعية، ولا ينبغي أن يكون حسوداً، فإنه إذا كان حسوداً لم يُشْرِّف أحداً، ولا يصلُح الناس إلا على أشرافهم، ولا ينبغي أن يكون جباناً، فإنه إذا كان جباناً اجترأ عليه عدوُّه!.

* بكى أحد الولاة بعد عزله فقيل له: أتبكي لأنك عُزلت؟ فقال: لا، ولكني أبكي خشية أن يأتي مَنْ لا يعرف لهذه الوجوه حقَّها، وأشار إلى العلماء والأشراف.

* وقال الأحنف: مَنْ فسدتْ بطانته كان كمن غصّ بالماء، ومَنْ غصّ بالماء فلا مساغ له، ومَن خانه ثقاته فقد أُتِي من مَأْمَنه!.

نجاح في المسؤولية

* قال الحجاج: دلّوني على رجل للشُّرَط، فقيل: أي الرجل تريد! فقال: أريده دائم العُبوس، طويل الجلوس، سمين الأمانة، أعجف الخيانة، لا ينطوي على حقد في الحق، يهون عليه سِبَالُ الأشراف في الشفاعة، فقيل له: عليك بعبدالرحمن بن عبيد التميمي. فأرسل إليه يستعمله، فقال له: لستُ أقْبلها إلا أنْ تكفيني عيالَك وولَدَك وحاشيتك! فقال: يا غلام، ناد في الناس: مَنْ طلب إليه منهم حاجة فقد برئتْ منه الذمة! قال الشعبي: فوالله ما رأيت صاحب شرطة قط مثله، كان لا يحبس إلا في دَيْن، وكان إذا أتي برجل قد نقب على قوم وضع مِنْقَبَته في بطنه حتى تخرج من ظهره، وإذا أُتي بنبَّاش حفر له قبراً فدفنه فيه! وإذا أتي برجل قاتل بحديدة أو شهر سلاحاً قطع يده، وإذا أتي برجل قد أحرق على قوم منزلهم، أحْرقه، وإذا أتي برجل يشك فيه، وقد قيل: إنه لص، ولم يكن منه شيء، ضربه ثلاثمائة سوط، قال: فكان ربما أقام أربعين ليلة لا يُؤْتى بأحد! فضمَّ إليه الحجاج شرطة البصرة مع شرطة الكوفة!.

* وفي الأمثال: لا تغترَّ بمودة الأمير إذا غشَّك الوزير، وإذا أحبّك الوزير فنمْ ولا تخش الأمير!

* والوزارة تشدّ قواعد المملكة، وكما أن أشجع الناس يحتاج إلىٰ السلاح وأفْرَه الخيل إلىٰ السوط، وأحدّ السيوف إلىٰ المِسَنّ، فكذلك فإنّ أجلّ الملوك وأعظمهم وأعلمهم يحتاج إلىٰ الوزير والمعين. قال الله تعالىٰ حاكياً عن موسىٰ عليه السلام: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠)﴾ (طه) فلو كان السلطان يستغني عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسىٰ عليه السلام. . وبين الله علىٰ لسان موسىٰ حكمة الوزارة فقال: ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢)﴾ (طه).

* وأول ما يظهر نبل السلطان، وقوة تمييزه، وجودة عقله، في انتخاب الوزراء، واستنقاء الجلساء، ومحادثة العقلاء، وكما يقال: فحِلْية الملوك وزينتهم بوزرائهم. ومن يُوقَ بطانة السوء فقد وُقي، والمعصوم من عصمه الله.

الناس على دين ملوكهم

* لما حضرتْ أبا بكر الصديق رضي الله عنه الوفاةُ كتب عهداً فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبوبكر خليفة رسول الله ﷺ عند آخر عهده بالدنيا، وأول عهده بالآخرة، في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتّقي فيها الفاجر، أني استعلمت عمر بن الخطاب فإن بَرَّ وعدل فذلك علمي به وإن جار وبدّل فلا علم لي بالغيب، والخير أردْتُ، ولكل امرئ ما اكتسب: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾ (الشعراء).

* قال رسول الله ﷺ لأبي ذر: «يا أبا ذر إني أحب لك ما أحب لنفسي، وإني أراك ضعيفاً فلا تتأمّرنَّ علىٰ اثنين ولا تلينّ مال يتيم»، رواه مسلم وأبوداود، وقال ﷺ لعبدالرحمن بن سمرة: «يا عبدالرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أُعْطِيتَهَا من غير مسألة أُعنْتَ عليها، وإنْ أُعْطيتَها عن مسألةٍ وُكِلْتَ إليها» رواه الخمسة. وقال أيضاً: «ستحرصون علىٰ الإمارة، ثم تكون حَسْرة وندامة، فنِعْمَتِ المُرْضِعة، وبئست الفاطمة» رواه البخاري والنسائي.

* وقال رجل لبشر الحافي: أوصني، قال: الزم بيتك، فتركُ طلب الرئاسة رئاسة!.

* وقال مطرف: لا تنظروا إلىٰ خفض عيش السلطان ولين لباسه، ولكن انظروا إلىٰ سرعة ظعْنه وسوء مُنْقلبه!

الحكام قدوة

* ويُروىٰ أن الناس كانوا إذا أصبحوا في زمان الحجاج يتساءلون إذا تلاقوا: مَنْ قُتل البارحة؟ ومن صلب ومن خُلِد، ومن قُطع؟ وما أشبه ذلك!. وكانوا في زمان الوليد بن هشام يتساءلون: عن البنيان والمصانع والضياع وشق الأنهار وغرس الأشجار، لأن الوليد كان صاحب ضياع واتخاذ مصانع! وكانوا في زمان سليمان بن عبدالملك يتحدثون في الأطعمة ويتغالون في المناكح والسراري ويعمرون مجالسهم بذلك، لأنه كان صاحب طعام ونكاح، فلما ولي عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه كان الناس يتساءلون كم تحفظ من القرآن؟ وكم وِرْدُك كل ليلة؟ وكم يحفظ فلان؟ وكم يَخْتم؟ وكم يصوم في الشهر، وما أشبه ذلك!، وصدق من قال: الناس علىٰ دين ملوكهم!

* وقال أحد الصالحين: لو كان عندي دعوة مستجابة لم أجعلها إلا في الإمام، فإنه إذا صلح أخصبت البلاد وأمنت العباد!

الاختيار والانتقاء

ومن سياسة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في اختيار عمّاله أنه كان إذا بعث عاملاً اشترط عليه أربعاً: ألا يركب البراذين، ولا يلْبس الرقيق، ولا يأكل النقي، ولا يتخذ بواباً، وكان يقول: لي علىٰ كل خائن أمينان: الماء والطين.

* ومرَّ ببناء يُبْنىٰ بحجارة وجَصٍّ فقال: لمن هذا؟ فذكروا عاملاً له علىٰ البحرين، فقال: أبت الدراهم إلا أن تُخْرج أعناقها!، وشاطره ماله!.

* وكان يحرص علىٰ استعمال الأمناء وتولية الأتقياء الأكفاء، ورد عليه كتاب، فقال لأبي موسىٰ الأشعري: ادع كاتبك يقرأه علىٰ الناس، فقال: إنه نصراني لا يدخل

المسجد! فقال: استعملت على أمانة المسلمين نصرانياً؟ فقال: يا أمير المؤمنين لنا أمانته وله ديانته! فقال: لا تقرّبوهم وقد أبعدهم الله، ولاتؤمّنوهم وقد خوّنهم الله. وقال له مرة: إنَّ أمر الكوفة لا ينضبط إلا به، نظراً لمعرفته بالحساب، فكتب إليه عمر: مات النصراني والسلام!

* قيل لرجل طلب من أحد الأمراء ولاية: ما ولاّك الأمير؟ فقال: ولاني ظَهْره وأعطاني منعه!!. وقال آخر: حبذا الإمارة ولو على الحجارة!!.

* وكتب زياد إلى معاوية: قد أخذْت العراق بيميني وبقيتْ شمالي فارغة! ـ يُعرّض له بالحجاز ـ فبلغ ذلك عبدالله بن عمر رضي الله عنه فقال: اللهم اكفنا شمال زياد! فخرجت في شماله قَرحة فقتلته!.

العزل من المنصب

* قيل لأحدهم: ما يمنعك من الإمارة؟ قال: حلاوة رضاعها ومرارة فطامها!

* كتب يحيى بن خالد إلى عامل: كثُر شاكوك وقلّ شاكروك، فإما اعتدلت وإما اعتزلت!

* لما عُزل المنصور بن عمران عن القضاء، جعل الناس يسبونه، وكان فيهم رجل يلج في أذنه فقال له: يا هذا هل أسأت إليك قط؟ قال: لا، قال: فما حملك على هذا الذي تأتيه؟ قال: سمعت الناس يشتمونك فساعدتهم!

* ولما ولي أبان بن عثمان المدينة كان يطوف ليلة فسمع قائلاً يقول: اللهم اعزل عنّا أباناً! فقال له أبان وهو لا يعرفه: ما فعل لك أبان؟ فقال: استطالت ولايته فمللتها! فقال: ويحك إنما له ستة أشهر! فقال: بدون هذا نفع الملك.

* وسمع أحد الولاة إنساناً يدعو عليه فقال: يا هذا هل أسأت إليك قط؟ قال: لا ولكني مللتك! فقال: أوَلم أتولَّ منذ شهرين؟ فقال: أو لم يكن في ذلك ما يمل؟ إني لأملّ كنْيتي فأغيّرها في الشهر مرتين!!

* ولما نُكب علي بن عيسىٰ جُفي جفاء عظيماً وهجره الناس قاطبة!، ثم لما رُشّح للولاية تزاحم الناس عليه! فأنشأ يقول:

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها ... فحيثما انقلبتْ يوماً به انقلبُوا

وقالوا: العزل طلاق الرجال، والبعض يلطفون كلمة العزل والإقالة والمنصب فيعبرون عنها بالإعفاء!

* وكان ليوسف بن عمر جارية وكانت علىٰ رأسه، فأتاه يوماً كتاب، فلما قرأه تغيّر لونه فقالت: أيها الأمير هذا كتاب عزل؟ قال: كيف دَرَيْت؟ قالت: لتغيُّرٍ في وجهك قلّما عهدته، وكان يعزل عنها خوف الحَبَل، فقالت: كيف أجزْت العزل لي وهذا طعمه؟! فقال: إذاً لا أعاود ذلك!

* وأراد الرشيد أن يعزل الفضل بن يحيىٰ عن خاتمه، ويصيِّره إلىٰ أخيه جعفر، فكتب إليه: قد رأىٰ أمير المؤمنين أن ينقل خاتمه من يمينك إلىٰ شمالك!.

* وكتب أحدهم يسلّي معزولاً: ما عزلت عن الديوان، ولكن عزل عنك! فأنت المهنّأ، وهو المعزّىٰ وقد كنتَ محتاجاً إلىٰ العزل ليعرف الجور من العدل!!

* استعمل المنصور رجلاً علىٰ خراسان فأتته امرأة في حاجة فلم يقضها لها، فقالت: أتدري لِمَ ولاّك أمير المؤمنين؟ قال: لا، قالت: لينظر هل يتمّ أَمْر خرسان بلا والٍ!

* ووصف رجل عاملاً فقال: كان يَجْبي خراج الوحش، ويأخذ جزية السمك، ويطلب زكاة الملائكة!. ويلتمس جمع الريح، ويروم القبض علىٰ الماء، وحصر الحصىٰ!!

* وقال المنصور يوماً: من بركتنا علىٰ المسلمين أن الطاعون رفع عنهم في أيامنا! فقال بعض الحاضرين: ما كان الله ليجمع علينا ولا يتكم والطاعون!.

التزلّف لدى بطانة السوء

* قيل للحجاج: كيف وجدْتَ منزلك بالعراق؟ قال: خيرُ منزل، لو أدركْتُ بها أربعة فتقرَّبْتُ إلىٰ الله بدمائهم! قيل: ومَنْ هم؟ قال:

* مُقاتل بن مسمع، ولي سجستان فأتاه الناس فأعطاهم الأموال، فلما قَدِمَ البصرة بسط الناس له أرْدِيَتهم، فقال: لمثل هذا فليعمل العاملون!

* وعُبيد الله بن ظَبيان، قام فخطب خُطبة أوْجز فيها، فنادىٰ الناسُ من أعراض المسجد: أكثر الله فينا من أمثالك، قال: لقد سألتم الله شططاً!!

* ومَعْبَد بن زُرارة، كان ذات يوم جالساً علىٰ الطريق فمرَّت به امرأة، فقالت: يا عبدالله، أين الطريق إلىٰ مكان كذا؟ فغضب! وقال: أَلِمْثلي يُقال: يا عبدالله!

* وأبو سِماك الأسدي، أضلّ ناقته، فقال: لئن لم يَرُدّها الله عليَّ لا صَلّيْت أبداً! فلما وجدها قال: عِلَمَ اللهُ أنّ يميني صِرّىٰ - عزيمة -!.

* قال الراوي ونسي الحجاجُ نفسه وهو خامس الأربعة بل هو أفسقهم وأطغاهم، وأعظمهم نفاقاً، بلغه أن عبدالملك بن مروان عَطَس يوماً فحمد الله وشمَّته أصحابُه فردَّ عليهم ودعا لهم، فكتب إليه، بلغني ما كان من عُطاس أمير المؤمنين، ومن تَشْميت أصحابه له وردّه عليهم، فيا ليتني كنت معهم فأفوزَ فوزاً عظيماً!.

* كان عبدالملك بن مروان يُسمَّىٰ حمامة المسجد للزومه المسجد الحرام، فلما أتاه الخبر بخلافته كان المصحف في حِجْره فوضعه وقال: هذا فراق بيني وبينك! وقال: كنت أتحرج أن أطأ نملة، وإن الحجاج يكتب إليَّ في قتل فئام من الناس فما أحفل بذلك!

* وقال له الزهري يوماً: بلغني أنك شربت الطّلاء - الخمر - فقال: أي والله والدماء! وقال: عجباً للسلطان كيف يحسن، وإذا أساء وجد مَنْ يزكّيه ويمدحه؟!

* دخل الزهري علىٰ الوليد بن عبدالملك فقال له: ما حديثٌ يحدثنا به أهل الشام؟ قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: يحدثوننا أن الله إذا استرعىٰ عبداً رعية كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات! قال: باطل يا أمير المؤمنين، أنبيٌّ خليفةٌ أكرم علىٰ الله، أم خليفة غيرُ نبي؟ قال: نبي خليفة، قال: فإن الله تعالىٰ يقول لنبيه داود عليه السلام: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ

اللهِ إنَّ الَّذينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)﴾ (ص)، فهذا يا أمير المؤمنين وعيده لنبي خليفة، فما ظنك بخليفة غير نبي! قال: إن الناس لَيُغْوونا عن ديننا.

* يقال: إيَّاك ومَنْ مودته على قدْر حاجته، فعند ذهاب الحاجة ذهاب المودّة!

* وقيل فيمن لانَ مَلْمسه وخبثت طويَّتُهُ: ذاك رجل ليس له صديق في السر ولا عدو في العلانية.

* كان الناس ورقاً لا شوك فيه فصاروا شوكاً لا ورق فيه!

* لحن الحجاج يوماً، فقال الناس: لحن الأميرُ، فأخبره بعض مَنْ حضر، فتمثّل بشعر قَعْنب بن أم صاحب:

صُمّ إذا سَمِعوا خيراً ذُكِرْتُ به ... وإنْ ذُكِرْتُ بسوء عندهم أَذِنُوا
فَطَانَةٌ فَطَنوها لو تكون لهم ... مروءة أو تقىً لله ما فَطَنُوا
إنْ يَسْمعوا شيئاً طاروا به فرَحاً ... مني وما سمعوا من صالح دَفَنُوا!!

(أَذِنوا: استمعوا)

* قدِم على عمر بن عبدالعزيز ناس من أهل العراق، فنظر إلى شاب منهم يتأهب للكلام، فقال: أكْبِروا أكبروا، فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ الأمر ليس بالسنّ ولو كان الأمر كله بالسن لكان في المسلمين مَنْ هو أسنُّ منك! فقال عمر: صدقت رحمك الله، تكلَّمْ، فقال: يا أمير المؤمنين، إنا لم نأتك رغبة ولا رهبة، أما الرغبة فقد دخلتْ علينا منازلنا، وقدمتْ علينا بلادنا، وأما الرهبة، فقد أمّننا الله بِعَدْلِكَ من جَوْرك، قال: فما أنتم؟ قال: وفْد الشُّكر! قال: فنظر محمد بن كعب القرظي إلى وجه عمر يتهلّل، فقال: يا أمير المؤمنين لا يغلبنّ جَهْلُ القوم بك معرفتك بنفسك، فإن ناساً خدعهم الثناء، وغرّهم شكر الناس فهلكوا، وأنا أعيذك بالله أن تكون منهم، فألقى عمر رأسه على صدره!

تقلّب مع المصالح!

* صعد خالد بن عبدالله القسري المنبر في يوم جمعة ، وهو إذ ذاك على مكة ، فذكر الحجاج ، فحمد طاعته وأثنى عليه خيراً ، فلما كان في الجمعةالثانيةورد عليه كتاب سليمان بن عبدالملك ، يأمره فيه بشتم الحجاج ونشر عيوبه وإظهار البراءة منه ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن إبليس كان ملكاً من الملائكة وكان يُظهر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترىٰ له به فضلاً ، وكان الله قد علم من غشّه وخُبْثه ما خفي على ملائكته ، فلما أراد الله فضيحته ، أمره بالسجود لآدم ، فظهر لهم منه ما كان مُخْفيه ، فَلَعَنوه ، وإنَّ الحجاج كان يُظْهر من طاعة أمير المؤمنين ما كُنَّا نرىٰ له به فضْلاً ، وكان الله قد أطْلع أمير المؤمنين من غشّه وخُبْثه على ما خفي عنَّا ، فلما أراد الله فضيحته أجرىٰ ذلك على يد أمير المؤمنين فَلَعَنَهُ ، فالْعَنُوه لَعَنَهُ الله! ، ثم نزل!

* وقف رجل على أحد الملوك فقال : الحمد لله الذي قتل عدوّك على يديك وملّكك ما كنت أحق به منه ، وأراحنا من عتوّه ونكده ، فقال له : كم كان رزْقك منه؟ قال : ألفان ، قال : والآن؟ قال : ما زيدَ شيء! قال : فما دعاك إلى الوقوع فيه ، وإنما ابتداء نعمتك منه ، ولم نزدْ لك!! وأمر أن ينزع لسانه من قفاه! .

تأملات

* يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله : المصلح لا يتملق المجتمع ، ولا يترضى الناس ، ولا يكترث للأوضاع العتيدة ، فإن وظيفته تقوم على المحو والإثبات فيما يرىٰ ويسمع حسبما تملي به قواعد الشرع ، والمصلح لا يحرص على المال ، ولا يجري وراءه ، ولا يغريه بريقه ، فهو قد يكلف ـ لو ورث مال قارون ـ أن ينفقه لإنجاح دعوته وإبلاغ رسالته . وفي الحديث : ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لدين الرجل من حرصه على المال والشرف . والمراد بالشرف هنا ، حب الوجاهة والظهور .

الحُجّاب على أبواب الولاة

* قال رجل لحاجبه: ـ والحاجب قديماً أشبه ما يكون اليوم بمدير المكتب أو السكرتير ـ إنك عين أنظرُ بها، وجُنّة أستنيم إليها، وقد وليتك بابي، فماتَراكَ صانعاً برعيّتي؟ قال: أنظرُ إليهم بِعَيْنكَ، وأحملُهم على قدْر منازِلهم عندَكَ، وأضعُهم في إبطائهم عن زيارتك ولزومِهم خدمتَك مواضع استحقاقِهم، وأرتّبُهم حيث وضعَهم ترتيبُك، وأحسنُ إبلاغَكَ عنهم، وإبلاغَهم عنك، قال: قد وفّيْتَ مالك وما عليك إنْ صدّقْته بفعلٍ! وكان يقال: حاجبُ الرجل، حارس عِرْضه!

* وقال زياد بن أبيه لحاجبه عجلان: إني ولّيتك حجابتي وعزلْتُك عن أربع: هذا المنادي إلى الصلاة فلا سبيل لك عليه، وطارقِ اللّيل لا تحجبه، فشرٌّ ما جاء به، ولو كان خيراً ما جاء به في تلك الساعة! ورسولِ الثّغْر، فإنه إنْ أبطأ ساعة أفْسد عملَ سنة فأدْخلْه عليّ وإنْ كنتُ في لحِافي، وصاحب الطعام، فإن الطعام إذا أُعيدَ تَسْخِينُهُ فَسَدَ!

العداوة قد تنشأ بسببهم

* وقال عمرو بن العاص لابنه وقد وُلّي ولاية: انظر حاجبك فإنه لحمُك ودمُك! ولقد رأَيْتُنا بصفّين وقد أشْرع قومٌ رِماحَهم في وجوهنا يريدون نفوسَنَا ما لنا ذنبٌ إليهم إلاّ الحجّاب!

* وقال خالد بن عبدالله القَسْريّ لحاجبه: إذا أخذْتُ مجلسي فلا تَحْجبنّ عني أحداً، فإن الوالي يحتجب عن الرعية لإحدى ثلاث: إمّا لِعِيٍّ يكره أن يُطّلَعَ عليه، وإمّا لبخلٍ يَكْرهُ أنْ يُسْألَ شيئاً، وإمّا لريبةٍ لا يُحبّ أنْ تَظْهر منه.

* قيل لبعض الحكماء: ما الجرح الذي لا يندمل؟ قال: حاجة الكريم إلى اللئيم، ثم يردّه بغير قضائها! قيل: فما الذي هو أشد منه؟ قال: وقوف الشريف بباب الدنيء ثم لا يُؤْذن له!

معيار الإذن للدخول

* وقال زياد لحاجبه: كيف تأذن للناس؟ قال: على البيوتات، ثم على الأسنان، ثم على الآداب، قال: فمن تُؤخر؟ قال: مَنْ لا يَعْبأ الله بهم! قال: ومَنْ هم؟ قال: الذين يلبسون كُسْوة الشتاء في الصيف، وكسوة الصيف في الشتاء!

* حضر باب عمر بن الخطاب رضي الله عنه جماعةٌ، منهم سهيلُ بن عمرو، وعُيينةُ بن حِصن، والأقرعُ بن حابس، فخرج الآذن فقال: أين صهيب؟ أين عمّار؟ أين سلمان؟ فتمعّرت وجوهُ القوم، فقال واحد منهم: لِمَ تتمعّرُ وجوهكم؟ دُعوا ودُعينا، فأسرعوا وأبْطأْنا، ولئن حسدتموهم على باب عمر، فما أعدّ الله لهم في الجنة أكثر!

* واستأذن رجلان على معاوية، فأَذِنَ لأحدهما، وكان أشرف منزلة من الآخر، ثم أذنَ للآخر، فدخل عليه فجلس فوق صاحبه، فقال معاوية: إنّ الله قد ألزمنا تأديبكم كما ألْزمَنا رعَايتكم، وإنّا لم نأذن له قبلك إلا ونحن نريد أن يكون مجلِسه دُونَكَ، فقمْ لا أقام الله لك وزْناً!

* ودخل شَريك الحارثي على معاوية، فقال له معاوية: مَنْ أنت؟ فقال له: يا أمير المؤمنين ما رأيت لك هفوة قبل هذه، مثلك يُنْكر مثلي من رَعِيَّته؟! فقال له معاوية: إن معرفتك متفرّقة، أعرفُ وجهْك إذا حضرْتَ في الوجوه، وأعرف اسمك في الأسماء إذا ذُكرتَ، ولا أعلم أن ذلك الاسم هو هذا الوجهُ، فاذكر لي اسمك تجتمع معرفتُك!

* وقف عبدالله بن العباس بن الحسن على باب المأمون يوماً، فنظر إليه الحاجب ثم أطرق، فقال عبدالله لقوم معه: إنه لو أَذِن لنا لَدَخلْنا، ولو صَرَفَنا لانصرفْنا، ولو اعتذر إلينا لَقَبِلْنا، وأمّا النظرة بعد النظرة، والتوقّف بعد التعرّف، فلا أفهم معناه! ثم انصرف، فبلغ ذلك المأمون، فضرب الحاجبَ ضرباً شديداً، وأمر لعبدالله بِصِلة جزيلة!

الواسطة والمعرفة

* قيل لأحدهم: إن حاجبك يُقدّم معارفه في الإذن على وجوه الناس! فقال: وما عليه، إنّ المعرفة لتنفع في الكلب العقور، والسبع الهصور، والجمل الصؤول، فكيف في رجل حسيب، ذي كرم ودين؟!

* قال أحد الملوك لابنه: لا تمكّن الناسَ مِن نَفْسِكَ، فأجْرأ الناس على السباع أكثرهم معاينة لها!

* قال المنصور لحاجبه: ابْسُط وجهك للمستَأْذنين، وصُنْ عِرْضك عن تناول المحجوبين فما شيءٌ أوقعُ بقلوبهم من سهولة الإذن وطلاقة الوجه!

شدة الحجاب

* وقيل: لا شيء أضيع للمملكة وأهْلَكَ للرعية من شدة الحجاب، ولا شيء أهيب للرعية وأكفّ لهم عن الظلم من سهولتهم.

* وقيل لبعض السلاطين: لِمَ لا تغلق الباب وتُقْعِد عليه الحجّاب؟ فقال: إنما ينبغي أنْ أحْفَظَ أنا رعِيّتي لا أن يَحفظوني!

* قال أحد الشعراء:

إذا جئْتُ ألقىٰ عند بابك حاجباً ... محيّاه من فَرْطِ الجهالة حَالِكُ

ومن عجب مغناك جنة قاصد ... وحاجبها - من دون رضوان - مالكُ

* وقال آخر:

ولقد رأيت بباب دارك جفوة ... فيها لحسن صنيعك التكْدير

ما بالُ دارِك حين تدخل جنّةً ... وبباب دارك منكر ونكيرُ!

* قال ميمون بن مهران: كنت عند عمر بن عبدالعزيز فقال لحاجبه: مَنْ بالباب؟

قال: رجل أناخ راحلته الآن، يزعم أنه ابن بلال مؤذن رسول الله ﷺ، فأذن له، فلما دخل قال: حدّثني. فقال: حدّثني أبي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من ولِيَ مِن أمرِ الناس شيئاً فاحتجبَ عن أولي الضعفة والحاجة احتجب الله عنه يومَ القيامةِ» فقال عمر لحاجبه: الزم بيتك! فما رُئِيَ على بابه بعد ذلك حاجب!

* كتب رجل إلى بعض الولاة:

إذا كان الكريم له حِجَابٌ فما فضل الكريم على اللئيم!

فأجابه:

إذا كان الكريمُ قَليلَ مالٍ ولم يُعْذر تَعَلّلَ بالحِجَاب
وأبوابُ الملوك مُحَجَّباتٌ فلا تَسْتَعظِمنَّ حجابَ بابي

* أقام رجل على باب ملك مدة طويلة فلم يؤذن له، فقال له الحاجب: اكتب كتاباً وخفّفْه أُوصِلْه لك، فقال: لا أزيد على أربعة أسطر، فكتب في السطر الأول: الأملُ والضرورة أقْدماني عليك، وفي السطر الثاني: ليس مع العدم صبر على الطلب، وفي السطر الثالث: الرجوعُ بلا فائدة شماتة الأعداء. وفي السطر الرابع: إما نَعَمْ مثمرة، وإمّا لا، مُوئسة! فوقّع الملك تحت كل سطر بأربعة آلاف درهم، فانصرف بستة عشر ألف درهم!

احذر أن يتحكم الحاجب في كل شيء

* وقال مروان لابنه عبدالعزيز وقد ولاه مصر: يا بني مُرْ حاجبَك يخبرك من حضر بابك كل يوم، فتكون أنت تأْذن وتحجب، وآنِسْ مَنْ دخل عليك بالحديث فينبسط إليك، ولا تعجل بالعقوبة إذا أشكل عليك الأمر، فإنّك على العقوبة أقدر منك على ارتجاعها.

* استأذن رجل على أحد الأمراء، فقال الأمير للحاجب: قل له إنّ الكرى قد خطب إليّ نفسي، وإنما هي هَجْعة وأهبّ، فخرج الحاجب، فقال له الرجل: ما الذي قال لك: قال، قال كلاماً لا أفهمه، وهو يريد أن لا يأذن لك!

* وقال أحد الشعراء يذمّ شدة حجّاب أحد الولاة وكثرتهم :

إذا ما أتيناه في حاجةٍ — رَفعْنا الرّقاعَ له بالقَصَبْ
له حاجبٌ دونه حاجبٌ — وحاجبُ حاجبِه مُحْتَجِبْ!!

* وقال شاعر :

إذَا كَانَ لابدّ مِنْ حَجْبةٍ — ومن حاجبٍ فاجْعلوُه رفيقاً
يخاطبُ مَنْ جاءَه بالجميل — فيأُتي صديقاً ويَمْضي صديقاً

* ولعل أحد هؤلاء «الحُجّاب» ممن لا يُطلب من وجوههم الخير، أغاظ الشاعر العربي ودفعه لأنْ يقول :

سأَتْركُ باباً أنت تَمْلكُ إذْنَه — وإنْ كنْتُ أعْمىٰ عن جميع المسَالكِ
فلو كنْتَ بَوَّابَ الجِنَانِ تَرَكْتُها — وحَوّلْتُ رِجْلي مُسْرِعاً نَحْوَ مَالكِ!

تأملات

* قال سعيد بن المسيب : إذا رأيتم العالم يغشىٰ الأمراء فاحذروا منه، فإنه لص! وفي الحديث : «من بدا جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتىٰ السلطان افتتن».

* كان أبو عثمان النَّهدي من كبار التابعين وفضلائهم ـ واسمه عبدالرحمن مَلّ ـ أسلم أبو عثمان علىٰ عهد النبي ﷺ ولم يَلْقه، وسمع جماعات من الصحابة، كان مستوطناً بالكوفة، فلما قُتل الحسين رضي الله عنه تحوَّل منها فنزل البصرة وقال : لن أسكن بلداً قُتل فيه ابن بنت رسول الله ﷺ، ومن طرف أخباره أنه قال : بلغت نحواً من ثلاثين ومائة سنة، وما من شيء إلا وقد أنكرته، إلا أَمَلي، فإني أجده كما هو! وفي الحديث : : يشب ابن آدم ويشيب ومعه خصلتان : الحرص والأمل.

السيادة والقيادة

* قيل لقيس بن عاصم: بم سُدْتَ قومَك؟ قال: لم أخاصم أحداً إلا تركتُ للصلح موضعاً. وقال أحد الفضلاء: ما شاتمت رجلاً مذ كنت رجلاً، لأني لم أشاتم إلا أحد رجلين: إما كريم فأنا أحق أنْ أُجلّه، وإما لئيم فأنا أولى أنْ أرفع نفسي عنه!!

* وقال رجل للأحنف: بم سَوَّدَكَ قومُك وما أنت بأشرفهم بيتاً ولا أصْبحهم وجهاً ولا أحسنهم خلقاً؟ قال: بخلاف ما فيك يا ابن أخي! قال: وما ذاك؟ قال: بتركي مِن أمْرِك ما لا يعنيني كما عناك من أمري ما لا يعْنيك.

وقالوا: يُسَوَّد الرجل بأربعة أشياء: بالعقل والأدب والعلم والمال.

* وقيل لعَرابة الأوسي: بم سوَّدك قومُك؟ قال: بأربع خلال: أنْخدعُ لهم في مالي، وأذِلُّ لهم في عِرْضي، ولا أحْقرُ صغيرهم، ولا أحسدُ كبيرهم. وفيه يقول الشّمّاخ:

رأيتُ عَرابةَ الأوْسيَّ يسمو ... إلى الخَيْراتِ منقطعَ القَرينِ
إذا ما رايةٌ رُفعت لمجْدٍ ... تلقّاها عَرابة باليمينِ

* وكان سَلْمُ بنُ نوفل سيّدَ بني كِنانة، فوثب رجل على ابنه وابن أخيه فجرحهما فأُتي به، فقال له: ما أمّنك من انتقامي؟ قال: فلِمَ سوّدْناك إذاً إلا أنْ تكظم الغيظ، وتَحْلُم على الجاهل، وتحتمل المكروه؟! فخلّى سبيله، وفيه يقول الشاعر:

يُسَوَّدُ أقوامٌ وليسوا بسادةٍ ... بل السّيدُ الصّنديد سَلْمُ بنُ نوفلِ

* ويروى أن رسول الله ﷺ قال للأنصار يوماً: «مَنْ سيّدكم؟» فقالوا: الجَدُّ بن قيْس على بُخْل فيه! فقال عليه السلام: أيّ داءٍ أدْوأ من البخل؟! بل سيّدُكم الجَعْدُ الأبيض عمرو بن الجموح!.

* وقال الأحنف بن قيس يوماً لقومه: إنما أنا رجل منكم ليس لي فضل عليكم ولكني أبسط لكم وجهي، وأبذل لكم مالي، وأقضي حقوقكم، وأحفظ حرمتكم، فمن فعل

مثل فعلي فهو مثلي، ومن زاد عليّ فهو خير مني، ومن زِدْتُ عليه فأنا خير منه. قيل له: يا أبا محمد، ما يدعوك إلى هذا الكلام؟ قال: أحضُّهم على مكارم الأخلاق.

* وذُكر لرجل من قريش: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية، فقال: كان معاوية أسْوَدَ منهم وكانوا خيراً منه.

* وسأل عبدالملك بن مروان روْح بن زِنْباع عن مالك بن مِسْمع، فقال: لو غضب مالكٌ لغضب معه مائةُ ألف سيف، لا يسأله واحدٌ منهم: لم غضبتَ؟! فقال عبدالملك: هذا والله السُّؤدد!!

* وقيل للحُصَيْن بن المنذر: بم سُدْتَ قومك؟ فقال: بحسب لا يُطمع فيه، ورأي لا يُستغنى عنه. وذُكر السؤدد عند معاوية يوماً فقال: إنه لينتقل في الحي كما ينتقل الظلُّ!

* قال أحد الشعراء:

إذا شئتَ يوماً أنْ تسودَ قبيلةً فبالحلم سُدْ لا بالسَّفَاهَةِ والشَّتْمِ

* قال خالد بن صفوان: شهدْتُ عمرو بن عبيد ورجل يشتمه، فقال: آجرك الله على ما ذكرت من صواب، وغفر لك على ما ذكرت من خطأ، قال: فما حسدْتُ أحداً حَسَدِي عمرو بن عُبيد على هاتين الكلمتين!

دور الأخلاق والآداب

* والسؤدد لا علاقة له بالشكل والمنظر والمظهر، وإنما متعلقه بالأخلاق والآداب والفضائل والمَخْبر. دخل ضمْرة بن ضمرة على النعمان بن المنذر، وكانت به دَمامة شديدة، فالتفت النعمان إلى أصحابه وقال: تسمع بالمُعيديّ خيرٌ من أنْ تراه! فقال: أيها الملك، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فإنْ قال، قال ببيان، وإنْ قاتَلَ، قاتَلَ بجَنَان، قال: صدقت. بحقٍّ سوّدك قومُك!

* قال الحسين بن مطير:

أحبُّ مكارمِ الأخلاق جُهدي   وأكره أن أعيبَ وأن أُعابا
وأصفحُ عن سباب الناس حِلماً   وشَرُّ النَّاسِ مَنْ يَهْوىٰ السِّبَابا
ومَنْ هابَ الرجالَ تَهَيَّبوهُ   ومَنْ حَقَرَ الرجالَ فلن يُهابا

* قال قيس بن عاصم لبنيه لما حضرته الوفاة: يا بني، احفظوا عني فلا أحد أنصح لكم مني، أمّا إذْ مِتُّ فسَوّدوا كباركم، ولا تُسوِّدوا صغاركم فيحقِر الناسُ كباركم.

الاعتماد على النفس في بلوغ السؤدد

* وإذا كان البعض يشترط للسؤدد الحسب والنسب وكثرة العشيرة، فإن البعض الآخر يرىٰ أن السؤدد يمكن أن يتحقق ولو لم تكن عشيرة أو سلاح أو حسب مرموق، وكم من رجل ساد بنفسه وعلا بهمته وارتفع بأخلاقه وفعاله.

* وقالوا: مَنْ فاته حسبُ نفسه لم ينفعه حسب أبيه. وفي الحديث الشريف: «ومَنْ بطأَ به عملُه لم يُسْرِع به نسبه». رواه مسلم.

لسْنا وإن كرُمَتْ أوَائِلُنا   يوماً علىٰ الأحْساب نَتّكِلُ
نبني كما كانت أوائلُنا   تبْني ونفعل مثلَ ما فَعلوا

* تكلم رجل عند عبدالملك بن مروان بكلام ذهب فيه كلّ مذْهب، فأعجب ذلك عبدالملك ما سمع من كلامه، فقال له: ابن مَنْ أنت؟ قال: أنا ابن نفسي يا أمير المؤمنين التي بها توصّلْت إليك! قال: صدقت!

* قال عمرو بن الأطنابة:

أبت لي عفتي وأبىٰ بلائي   وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإقحامي علىٰ المكروه نفسي   وضربي هامة البطل المشيح

وقَـولـي كـلـمـا جـشـأتْ وجـاشـت		رويـدك تحـمـدي أو تـسـتـريـحـي
لأدفـع عـن مـآثـر صـالحـات		وأحـمـي بـعـدُ عـن عِـرْض صـحـيـح

* وكتب معاوية إلى زياد: انظر رجلاً يصلح لثغر الهند فَوَلِّه، فكتب إليه: إن قِبَلي رجلين يصلحان لذلك: الأحنف بن قيس، وسنان بن سَلَمة الهُذلي، فكتب إليه معاوية: بأيّ يَوْمَي الأحنف نكافيه: أبخذْلانه أمَّ المؤمنين، أم بسعيهِ علينا يوم صفّين؟ فوجّه سناناً، فكتب إليه زياد: إن الأحنف قد بلغ من الشرف والحلم والسؤدد ما لا تنفعه الولاية ولا يضرّه العزل.

الحظوظ

* وقال بعض أهل العلم: لا سُؤدد إلا بالبخت والجَدّ والسّعْد والحظ، وذلك أنا قد رأيناهم يقولون: الأفعال المحمودة والأخلاق الجميلة توجب السؤدد والرياسة، والأفعال المذمومة والأخلاق الدنيّة تمنع من السؤدد، ثم رأينا قوماً سادُوا بأخلاق لا تُحمد، وبأفعال لا تُرْضِي، فمن ذلك: أن الحُمْقَ يمنع من السؤدد، وقد ساد عُيْينة بن حِصْن، وكان مُحَمّقاً، وساد أبو سفيان وكان بخيلاً، والبخلُ يمنع من السؤدد، وساد عامرُ بن الطُّفيل وكان عاهراً، ولا سؤدد مع العُهْر، وساد أبو جهل وماطَرّ شاربه ودخل دار الندوة وما استوت لحيته، والحداثة تمنع من السؤدد، وساد شِبْلُ بنُ مَعْبدِ البَجَلِيّ، وما بالبصرة بَجَلِيّ غيره، وهم يقولون: لا سؤدد إلا بالعدد، ولما قال قومٌ للأحنف: لولا أنا سوّدْناك ما سُدت، قال: فمن سوّد شِبْل بن مَعبد البَجَلي، وليس بالبصرة بَجَليّان؟! وساد عتبة بن ربيعة وكان فقيراً إلى أن مات، حتى قيل: إنه لم يشبع قط، ولم يفضل عن قوت أهله قوتُ ضيف واحد، وهم يقولون: إن الفقر يمنع من السؤدد. هذا كله يدلّ على أن السؤدد بالبخت والسّعْد!

* والعرب تقول: سيد مُعَمّم. يريدون أنّ كل جِناية يجنيها أحد من عشيرته معصوبة برأسه، ويقال: إن السيد منهم كان يَعْتمّ بعمامة صفراء لا يعتمّ بها غيرهُ، وإنما سُمّي الزِّبرقان بصفرة عمامته. يقال: زَبْرقْت الشيء إذا صفّرته، وكان اسمه حُصيناً.

* وقيل لابن هبيرة: من سيّد الناس اليوم؟ قال: الفرزدق، هجاني ملكاً ومدحني سُوقَةً. وقيل: مَنْ بذل معروفه وكفّ أذاه فذلك السيد! وكان يقال: أَرْبعٌ يسوِّدْن العبد: الأدب والصدق والعفّة والأمانة.

* وقد تظهر مخايل الذكاء والفطنة على وجوه الصغار وتعرف بمنطقهم وأفعالهم وهذا بشير خير ومقدمة للسؤدد والمجد.

* نظر الحطيئة إلى ابن عباس يتكلم في مجلس عمر، فقال: من هذا الذي نزل عن الناس في سنّه وعَلاَهم في قوله! ونظر رجل إلى أبي دُلَف في مجلس المأمون فقال: إن همّته ترمي به وراء سنّه.

* وقد تولّى الشباب أعلى المناصب في صدر الإسلام ووصلوا إلى قمة القمم في سلّم المجد، فقد قاد أسامة بن زيد رضي الله عنه جيشاً ضم كبار الصحابة وأبطالهم وهو لم يجاوز السابعة عشرة من عمره، وولّى رسول الله ﷺ عتّاب بن أَسِيد مكة وهو ابن خمس وعشرين سنة. وحمل الناسُ العلم عن إبراهيم النّخَعي وهو ابن ثماني عشرة سنة، وولي معاذ بن جبل اليمنَ ولم يجاوز الثلاثين.

طلب المعالي

* ويُعرف سُؤددُ الرجل بعلوِّ همَّتِه وشرفِ نفسيته وطلبِه لمعالي الأمور. قال عمر بن عبدالعزيز: إنّ لي نفساً توّاقة، لم تزل تتوق إلى الإمارة، فلما نلْتها، تاقت إلى الخلافة، فلما نلتها تاقت إلى الجنة.

* وقيل لعبدالملك بن مروان: أكان مصعب بن الزبير يشرب الطِّلاء؟ فقال: لو علم مصعب أنّ الماء يُفسدُ مُروءته ما شربه!

* وكان سبب فتح المعتصم عمورية، أن امرأة من الثَّغْر سُبِيَتْ فنادت: وامحمداه وامعتصماه، فبلغه الخبر، فركب لِوَقته وتبعه الجيش، فلما فتحها قال: لبَّيكِ أيتها المنادية!

* قال المتنبي في الحض على طلب المعالي:

إذا غـــامـــرت فـــي شـــرف مـــروم ... فـــلا تـــقـــنـــع بمـــا دون الـــنـــجـــوم
فـــطـــعـــم المـــوت فـــي أمـــر حـــقـــيـــر ... كـــطـــعـــم المـــوت فـــي أمـــر عـــظـــيـــم
يـــرى الجـــبـــنـــاءُ أن الـــعـــجـــز عـــقـــل ... وتـــلـــك خـــديـــعـــة الـــطـــبـــع الـــلـــئـــيـــم
وكـــل شـــجـــاعـــة فـــي المـــرء تُـــغـــنـــي ... ولا مـــثـــل الـــشـــجـــاعـــة فـــي الحـــكـــيـــم
وكـــم مـــن عـــائـــب قـــولاً صـــحـــيـــحـــاً ... وآفـــتـــه مـــن الـــفـــهـــم الـــســـقـــيـــم

* وكان الفرزدق يجير مَنْ عَاذَ بقبر أبيه غالب بن صعصعة! ولما هجا الفرزدق بني جعفر استعاذت امرأة منهم بقبر أبيه حتى لا يذكرها أو ينسبها ويسميها، فلم يذكر لها نسباً ولا اسماً وقال فيها:

عـجـوزٌ تـصلي الخـمس عـاذت بغـالـب ... فـلا والـذي عـاذت بـه لا أضـيـرهـا!

* وسقط الجراد قريباً من بيت بعض العرب، فجاء أهل الحي فقالوا: نريد جارك، فقال: أمَا إذْ جعلتموه جاري، فوالله لا تصلون إليه، وأجاره حتى طار، فسمّي مجير الجراد!

الطموح وعلو الهمة

* وممّن شَرُفَتْ نفسُه وبَعُدت هِمَّتُه عمرو بن سعيد، قال له معاوية: إلى من أوصى بك أبوك؟ قال: إن أبي أوصى إليّ ولم يوص بي، قال: وبم أوصى إليك؟ قال: أنْ لا يفقد إخوانُه منه إلا وجهه!!

* وقال زياد بن ظَبيان لابنه عبيدالله: ألا أوصي بك الأميرَ زياداً؟ قال: يا أبت، إذا لم يكن للحيّ إلا وصيّة الميت، فالحيّ هو الميت؟ وعبيدالله هذا هو القائل: والله ما ندمت على شيء قط، نَدَمي على عبدالملك بن مروان، إذْ أتيتُه برأس مصعب بن الزبير فخرّ لله ساجداً، أنْ لا أكون قد ضربتُ عُنقه، فأكونَ قد قتلْتُ ملِكين من ملوك العرب في يوم واحد!

* وكان أوّلُ عمل وليه الحجاج تَبَالَة، فسار إليها فلمّا قَرُب منها قال للدليل: أين هي وعلى أي سَمْت هي؟ قال: تسترها عنك هذه الأكمة. قال: لا أراني أميراً إلا على موضع تسْتر منه أكَمَة أهون! بها ولاية! وكَرّ راجعاً. فقيل في المثل: أهْونُ من تَبَالَة على الحجاج.

وقيل ليزيد بن المهلب: ألا تبني داراً؟ فقال: منزلي دارُ الإمارة أو الحبس!

وعِشْ ملكاً و مُتْ كريماً وإنْ تمت ... وسيْفُك مشهورٌ بكَفّك تُعْذَرِ

* ومن قول الفرزدق في علّو الهمة وشرف النفس:

ترىٰ الناس ما سِرنا يسيرون خَلْفنا ... وإنْ نحنُ أوْمأنا إلىٰ الناس وقّفُوا

* لّما انفرد سفيان بن عُيينة ومات نظراؤه من العلماء تكاثر الناسُ عليه، فأنشأ يقول:

خَلَت الديارُ فسُدت غيرَ مُسَوّد ... ومَنِ الشّقاء تَفرُّدي بالسُّؤدَدِ

* ولن يطلب إنسان لنفسه المجد بمثل الأخلاق والآداب، ولن يصل السؤدد إلا بالفضائل وتقوىٰ الله.

وما المرءُ إلا حيثُ يجعلُ نفسَه ... ففي صالحِ الأخلاق نفسَكَ فاجْعَلِ

صلاحُ أمْرِكِ للأخلاقِ مَرْجِعُهُ ... فقوّم النفسَ بالأخلاقِ تَسْتَقِمِ

* قال الطغرائي:

ما كنت أوثر أن يمتَد بي زَمني ... حتىٰ أرىٰ دولة الأوغاد والسفل

تقدمتني أناسٌ كان شوطهم ... وراء خطويَ لو أمشي علىٰ مَهل

هذا جزاءُ امرئ أقرانه دَرجوا ... من قبله فتمنىٰ فسحة الأجَل

فإن علاني من دوني فلا عجبٌ ... لي أسوةٌ بانحطاط الشمس عن زُحَل

فاصبرْ لها غير مُحتال ولا ضَجِر ... في حادث الدهر ما يُغني عن الحيل

أعدَىٰ عَدوك أدنىٰ من وثقت به ... فحاذِر الناس واصحبهم علىٰ دَخل

فـإنمـا رجـل الـدنـيـا وواحـدُهـا ... مـنْ لا يـعـوِّل فـي الـدنـيـا عـلـى رجـل
وحـسـنُ ظـنّـك بـالأيـام مـعـجـزةٌ ... فـظـنَّ شـراً وكـن مـنـهـا عـلـى وجـل
غـاض الـوفـاءُ وفـاض الـغـدر وانـفـرجـت ... مـسـافـةالخـلـفِ بـين الـقـول والـعـمـل
تـرجـو الـبـقـاء بـدار لا ثـبـات بـهـا ... فـهـل سـمـعـت بـظـل غـير مُـنـتـقـل؟
قـد رشـحـوك لأمـر إن فـطـنْـت لـه ... فـاربـأ بـنـفـسـك أن تـرعـى مـع الـهـمـل

عمريات

* لما أصاب الناس هول المجاعة والقحط عام الرمادة في عهد عمر بن الخطاب، كان عمر لا ينام الليل إلا قليلاً، ولا يجد الراحة إلا قليلاً، كان كل همه أن يدفع خطر المجاعة عن الناس، ومازال به الهمّ حتى اسمَّر وهزل جسمه وقال من رآه: لو استمرت المجاعة شهوراً أخرى لمات عمر من الهمّ والأسى. . وجاءته يوماً قافلة من مصر تحمل اللحم والسمن والطعام والكساء، فوزعها بنفسه على الناس، وأبى أن يأكل منها شيئاً، وقال لرئيس القافلة. . ستأكل معي في البيت. . ومنَّى الرجل نفسه بطعام شهي. . إذ حسب أن طعام أمير المؤمنين سيكون خيراً من طعام الناس. وجاءا إلى البيت ينهكهما الجوع والتعب ونادى عمر فجيء بالطعام. . وكان ما أذهل الرجل وأدهشه: إن طعام أمير المؤمنين لم يكن لحماً ولا سمناً وإنما كان كسرات من الخبز الأسود اليابس مع صحن من الزيت. . ! وعجب الرجل من صنيع أمير المؤمنين وقال له: لماذا منعتني من أن آكل مع الناس لحماً وسمناً، وقدمت لي هذا الطعام الذي لا يساغ؟ قال عمر: ما أطعمك إلا مما أطعم نفسي. . قال: وما يمنعك أن تأكل مما يأكل منه الناس وقد وزعت بيديك اللحم والطعام عليهم؟ قال عمر: لقد آليت على نفسي أن لا أذوق السمن واللحم حتى يشبع منهما المسلمون جميعاً. !!

* سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحد عماله: ماذا تفعل إذا جاءك سارق؟ قال:

أقطع يده! قال: وإذن فإن جاءني منهم جائع أو عاطل فسوف أقطع يدك! إن الله سبحانه وتعالىٰ استخلفنا علىٰ عباده لنسدَّ جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإذا أعطيناهم هذه النعم، تقاضيناهم شكرها، يا هذا، إن الله خلق الأيدي لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً، التمست في المعصية أعمالاً فأَشْغِلْها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية!

* خرج عمر ليلة من الليالي يتفقد أحوال الرعية فمر برحبة من رحاب المدينة فإذا ببيت شعر ينبعث منه أنين امرأة وعلىٰ بابه رجل قاعد، فسلم عليه عمر وسأله من هو؟ فأجابه بأنه رجل من البادية جاء يصيب من فضل أمير المؤمنين، فقال عمر ما هذا الصوت الذي أسمعه في البيت؟ قال الرجل، وهو لا يدري أنه عمر أمير المؤمنين: انطلقْ رحمك الله لحاجتك ولا تسأل عما لا يعنيك، فألح عليه عمر يريد معرفة الأمر فأجابه: امرأة تَمخَّض - أي علىٰ وشك الولادة - وليس عندها أحد! فعاد عمر إلىٰ منزله وقال لامرأته أم كلثوم بنت علي: هل لك في أجر ساقه الله إليك؟ قالت: وما هو؟ فأخبرها الخبر وأمرها أن تأخذ معها ما يحتاج إليه الوليد الجديد من ثياب وما تحتاج إليه المرأة من دهن، وأن تأخذ معها قدراً وتضع فيه حبوباً وسمناً، فجاءت به فحمل القدر ومشت خلفه حتىٰ انتهىٰ إلىٰ البيت وقال لامرأته: ادخلي إلىٰ المرأة، وجلس هو مع الرجل وأوقد النار وطبخ ما جاء به، والرجل جالس لا يعلم من هو! وولدت المرأة فقالت زوجة عمر من داخل البيت: بشر يا أمير المؤمنين صاحبك بغلام!! فلما سمع الأعرابي ذلك علم أنه مع أمير المؤمنين، فكأنه هابه، فأخذ يبتعد عنه! وعمر يقول له: مكانك كما أنت، ثم حمل القدر وأمر زوجته أن تأخذه لتطعم المرأة، فلما أكلَت ناول الرجل القدر وقال له: كُل ويحك فإنك سهرت الليل كله.. ثم خرجت زوجته، وقال للرجل: إذا كان غداً فائتنا نأمر لك بما يصلحك، فلما أصبح أتاه ففرض لابنه في الذرية وأعطاه..!

* قدمت إلىٰ المدينة قافلة من التجار وفيها النساء والأطفال فقال عمر لعبدالرحمن بن عوف: هل لك أن نحرسهم هذه الليلة؟ فباتا يحرسانهم ويصليان ما كتب الله لهما،

فسمع عمر بكاء صبي فتوجه نحوه وقال لأمه: اتقي الله وأحسني إلىٰ صبيك ثم عاد إلىٰ مكانه، فسمع بكاءً فعاد إلىٰ أمه فقال: اتقي الله وأحسني إلىٰ صبيك، ثم عاد إلىٰ مكانه فلما كان من آخر الليل سمع بكاءه فأتىٰ أمه فقال: ويحك إني لأراك أمّ سوء! ما لي أرىٰ ابنك لا يقرّ منذ الليلة؟ قالت وهي لا تعرفه أنه أمير المؤمنين: يا عبدالله لقد أبرمتني منذ الليلة! إني أريغه عن الفطام فيأبىٰ (أي أحمله علىٰ الفطام كرهاً فيأبىٰ) قال: ولم؟ قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم (أي لا يعطي للآباء عن أولادهم إلا من فطم) قال: وكم له؟ قالت: كذا وكذا شهراً قال: ويحكِ لا تعجليه. فصلّىٰ الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء. فلما سلّم قال: يا بؤساً لعمرِكم قتل من أولاد المسلمين.. ثم أمر منادياً فنادىٰ أن لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام، فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام.

* قال أسلم خادم عمر: خرجت مع عمر ليلة وبعدنا عن المدينة ونحن نتفقد أهل المنازل النائية، فبصرنا بنار من بعيد فقال عمر: إني أرىٰ هاهنا ركباناً قصّر بهم الليل والبرد، انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتىٰ دنونا منهم، فإذا بامرأة معها صبيان وقدر منصوبة علىٰ نار، وصبيانها يتضاغون (أي يتصايحون ويبكون) فسلم عمر ثم سأل المرأة ما بالكم؟ قالت: قصّر بنا الليل والبرد، قال: وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: الجوع، قال: وأي شيء في هذا القدر؟ قالت: ماء أسكتهم به حتىٰ يناموا.. والله بيننا وبين عمر! (تشكو عمر وتدعو عليه) فقال: أي رحمك الله وما يُدري عمر بكم؟ قالت: يتولىٰ أمرنا ثم يغفل عنا؟ فأقبل عليّ فقال: انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتىٰ أتينا دار الدقيق، فأخرج عدلاً من دقيق، وكبة من شحم، وقال: احمله علي، قلت: أنا أحمله عنك قال: أنت تحمل وزري يوم القيامة لا أمّ لك؟! فحملته عليه، فانطلق وانطلقت معه إليها نهرول، فألقىٰ ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئاً، فجعل يقول لها: ذري علي وأنا أحرُّ لك، وجعل ينفخ تحت القدر وكانت لحيته عظيمة، فرأيت الدخان يخرج من خلال لحيته حتىٰ طبخ لهم، ثم أنزلها وقال: ابغني شيئاً، فأتته بصفحة فأفرغها فيها، فجعل يقول لها: أطعميهم وأنا أسطح لهم (أي أبسطه حتىٰ يبرد)، فلم يزل حتىٰ شبعوا، وترك عندها فضل ذلك وقام وقمت معه، فجعلت تقول: جزاك الله خيراً، كنت بهذا الأمر أولىٰ من أمير

المؤمنين! فيقول: قولي خيراً، إذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك إن شاء الله! ثم تنحىٰ ناحية عنها، ثم استقبلها فربض مربضاً، فقلت له: لك شأن غير هذا؟ فلا يكلمني، حتىٰ رأيت الصبية يصطرعون، ثم ناموا وهدأوا! فقام يحمد الله ثم أقبل عليَّ فقال: يا أسلم، إن الجوع أسهرهم وأبكاهم، فأحببت أن لا أنصرف حتىٰ أرىٰ ما رأيت. . !!

* جاء رجل إلىٰ عمر بن الخطاب يشكو إليه واليه علىٰ مصر الذي اقتطع الضياع والبساتين واستخدم الناس لرعايتها، فلما ثبت لعمر ما بلغه عنه، أرسل إليه رجلين وأمرهما بالتحقق، فتوجها إلىٰ مصر ووصلا إلىٰ دار الوالي فطرقا الباب، فأجابهما الحراس بأنه نائم، ولم يعبأوا بأنهما رسولا الخليفة! فعملا بما أمرهما عمر، ورشّا الباب بالقطران - النفط - وحرقاه، فهاج من في الدار! وعلم الوالي، واستجاب لدعوة عمر، فركب معهما إلىٰ المدينة علىٰ جمل أقتب - ظهره بلا سنام مريح - فلما دخل علىٰ عمر قال له: من أنت؟! قال: أنا واليك علىٰ مصر! فقال عمر: أهذا ما أوصيتك به؟! ونزع عنه جبة فاخرة، وألبسه أخرىٰ مرقعة، وربط وسطه بحبل خشن، ثم أعطاه عصا، وهو يقول: البس لقد رأيت جبة أبيك، وهذه والله خير منها! اذهب إلىٰ وادي كذا، ففيه غنم للصدقة، ارْعها حتىٰ يأتيك أمري! فمضىٰ الوالي، نحو الباب، ثم رمىٰ بالعصا، وسقط علىٰ الأرض مغشياً عليه، قال: والله لا أحسن هذا، اصنع ما بدالك! فدعاه عمر، وأجلسه إلىٰ جانبه وقال له: إنْ أنا أعدتُك إلىٰ عملك، أي شيء تكون؟! فقال: والله لا يبلغك عني إلا كل خير. . . فأعاده إلىٰ الولاية، وكان بعدها من خيرة الولاة!

تأملات

* كانوا قديماً يقولون عن البصرة: هي قبّة الإسلام، وخزانة العرب، بناها الصحابي الجليل عتبة بن غزوان سنة سبع عشرة للهجرة، وسكنت سنة ثمان عشرة، ولم يُعبد فيها صنم قط.

* قال رسول الله ﷺ في آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم، لا يضلونكم ولا يفتنونكم.

نور الدين زنكي .. سادس الخلفاء الراشدين

هكذا وصف المؤرخون الحاكم المسلم نور الدين محمود زنكي، صاحب السيرة الحميدة والفعال المجيدة، الذي تردد اسمه أخيرا في الاحتفالية الثقافية التي أقيمت بمناسبة اختيار مدينة حلب السورية عاصمة للثقافة الاسلامية لهذا العام (٢٠٠٦م)، وكثير من الناس لا يعرفون من هو نور الدين هذا الذي يحتل مكانة عظيمة في تاريخنا، ونحن نستعرض أبرز محطات حياة هذا القائد وأشهر مواقفه، لنعطي صورة عن هذه الشخصية الفذة التي أعادت إلى الأمة أمجادها ومآثرها.

* ولد نور الدين أبو القاسم محمود صبيحة السابع عشر من شوال سنة ٥١١هـ بحلب، ونشأ على الخير والصلاح، وكان أبوه عماد الدين زنكي يقدمه على بقية أولاده، لما يرى فيه من مخايل النجابة والذكاء، وكانت سيرته تشبه سيرة عمر بن عبدالعزيز في تحقيق العدل والمساواة، وعمر بن عبدالعزيز عُرف في التاريخ بخامس الخلفاء الراشدين، تزوج نور الدين سنة ٥٤١هـ من عصمت الدين خاتون ابنة الأتابك معين الدين أنر حاكم دمشق، وكلمة أتابك تعني الأمير الوالد!

* بدأ نور الدين حكمه بمدينة حلب، لكنه لم يمت حتى توسعت رقعة دولته وامتدت من حدود فارس حتى صحراء ليبيا، ومن جبال الأناضول حتى بلاد النوبة واليمن، وتم كل ذلك وسط تحديات صعبة وظروف خطيرة تمثلت في الحملات الصليبية والوجود الأجنبي في بلاد المسلمين.

* اعتمد نور الدين في حكمه أسلوب التغيير الداخلي، وركز على إحداث الانقلاب والتغيير داخل النفس الإنسانية، واستمد هذا النهج من التوجيه القرآني الذي يبين سنة الله في تغيير الامم والشعوب (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)، وبذلك مهّد الطريق لظهور القيادات التاريخية العظيمة أمثال صلاح الدين، والظاهر بيبرس، وآل قلاوون، الذين قاموا بطرد الصليبيين، وتصفية الوجود النهائي لهم في البلاد الإسلامية،

بعد أن هدم الظلم والفساد والطغيان، وبنى دولة العلم والعدل والإيمان والحق والقوة، وأحدث انقلاباً شاملاً في المفاهيم والرؤى وجميع مجالات الحياة.

طلب الشهادة

كان هذا الحاكم ذا شخصية جذابة ذات هيبة ووقار، مع لين ورحمة، شديداً في غير عنف، رقيقاً في غير ضعفٍ، ويتمتع بالذكاء الخارق والقدرة على استخدام أسلوب الدهاء والحيلة مع الخصوم، وكان شجاعاً مغواراً، جريئاً ثابت القدم، حسن الرمي، أصبر الناس في الحرب، وأحسنهم مكيدة ورأياً، يتقدم أصحابه، ويتعرض للشهادة ويسأل الله أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير! وكان يقول: طالما تعرضت للشهادة فلم أرزقها! فقال له الشيخ قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي: بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين، فإنك عمادهم، وإن أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف وأخذت البلاد! فقال نور الدين: يا قطب الدين، ومن محمود حتى يقال له هذا الكلام؟ قبلي مَنْ حفظ البلاد والإسلامَ؟ ذلك هو الله الذي لا إله الا هو!

* وعندما التقت قواته في بلدة حارم مع الصليبيين الذين كانوا يفوقونهم عدداً وعدة، انفرد نور الدين عن الجيش، وخرّ ساجداً لله، ومرّغ وجهه وتضرع بخشوع وتذلل ودعا ربه فقال: يا رب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك" يشير الى المسلمين" وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك" ويشير إلى الصليبيين" فانصر أولياءك على أعدائك، إيش فُضُول محمود في الوسط؟! يعني إن نصرت المسلمين فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصرِ! وكان يقول: اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً، من هو محمود، حتى يُنصر؟!.

* وكان إذا جرى في مجلسه ذكر دمشق وطيب مناخها ورقة هوائها وجمال أزهارها ورياضها يقول لهم: إنما حبّ الجهاد يسليني عنها فما أرغب فيها!.

الاستعداد الدائم

* وكان يعشق الرياضة والصيد وركوب الخيل، وله في ذلك قصص عجيبة ومواقف طريفة، ويعتبر أن الرياضة وسيلة للمحافظة على اللياقة البدنية، والإبقاء على المهارات القتالية لئلا تنسى وتتبدد، لذلك فهو في تدريب مستمر، وجهوزية كاملة، انتقده يوماً أحد الزهاد وقال له: ما كنت أظن أنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية! فأجاب: والله ما حملني على اللعب بالكرة، اللهو والبطر، إنما نحن في ثغر والعدو قريب منا، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت الحرب، فنركب في الطلب، ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً، شتاءً وصيفاً، إذ لا بد من الراحة للجند، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماماً "اي مالت الى الراحة" لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها أيضا بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب، فيذهب جمامها وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب، فهذا والله هو الذي يبعثني على اللعب بالكرة!

كراهية الألقاب

* وكان رحمه الله متواضعاً ورعاً تقياً، يكره كثرة الألقاب والمديح، ويعتبر الزائد على الحقيقة كذب، تلقى في احد الايام هدية من بني العباس في بغداد، ومعها قائمة بألقابه التي كان يذكر بها على منابر بغداد، فأسقط جميع الألقاب، وأبقى دعاء يقول: اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي! وهذا نموذج من تلك الألقاب التي وصلته:

* اللهم أصلح المولى السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد الورع المجاهد المرابط المثاغر نور الدين وعدته، ركن الإسلام وسيفه، قسيم الدولة وعمادها، اختيار الخلافة ومعزها، رضي الإمامة وأثيرها، فخر الملة ومجدها، شمس المعالي وملكها، سيد ملوك المشرق والمغرب وسلطانها، محيي العدل في العالمين، منصف المظلوم من الظالمين، ناصر دولة أمير المؤمنين! وتضايق يوماً من كثرة الألقاب فكتب الى وزيره خالد بن

القيسراني يأمره أن يكتب له صيغة دعاء يدعىٰ له به علىٰ المنابر، فكتب: أرىٰ أن يقال علىٰ المنبر، اللهم وأصلح عبدك الفقير إلىٰ رحمتك، الخاضع لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود بن زنكي! فلما قرأ هذه الصيغة رضيها وقال: هذا لا يدخله كذب ولا تزيّد، وكتب في أعلىٰ الصفحة: مقصودي أن لا يُكذب علىٰ المنبر، أنا بخلاف كلّ ما يقال، أفرح بما لا أعمل؟! ثم التفت إلىٰ وزيره القيسراني وأمره بتعميم صيغة هذا الدعاء علىٰ الأمصار ومدحه قائلاً: الذي كتبت به جيد، اكتب به نسخاً إلىٰ البلاد.

* وكان يعظّم الشريعة ويقف عند أحكامها، وهو الذي جدّد للملوك اتباع سنة العدل والإنصاف وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك، وكان أشهىٰ شيء إليه، كلمة حق يسمعها أو إرشاد إلىٰ سنة يتبعها. ويقول: نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق، والأذىٰ الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل؟! وكان يوصي جلساءه برفع المظالم إليه ويقول: حرام علىٰ كل من صحبني ألاّ يرفع إليّ قصة مظلوم لا يستطيع الوصول إليّ! وقال لاثنين من كبار رجالاته: والله إني أفكر في والٍ وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبة بذلك أمام الله، فبالله عليكم، وإلا فخبزي عليكم حرام، لا تريا قصة مظلوم لا ترفع إلي، أو تعلما مظلمة إلا وأعلماني بها وارفعاها إليّ!

سياسة الرعية

* وكان له في العدل وسياسة الرعية أحاديث عجيبة، ورغم الحروب الصليبية التي كانت دائرة في عهده، فإنه لم يمسّ النصارىٰ في بلاده بأي أذىٰ، وعاملهم كمواطنين لهم حق الرعاية الكاملة، ولم يعرف عنه أنه هدم في حياته كنيسة ولا آذىٰ قسّاً أو راهباً.

* وكان للقضاء هيبة في دولته، وكان إذا دُعي إلىٰ مجلس القضاء لا يأنف، وإنما يستجيب ويلبي، دخل عليه مرة أحد كبار موظفيه وهو يضحك وقال بأسلوب ساخر هازئ: يقوم المولىٰ إلىٰ مجلس الحكم! وكان أحد الناس قد ادعىٰ عليه بشيء، فغضب

نور الدين من تصرّف موظفه هذا وقال: تستهزئ بطلبي إلى مجلس الحكم؟ احضروا فرسي حتى نركب إليه، السمع والطاعة **﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا: سمعنا وأطعنا﴾** ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة واستدعى أحد أصحابه وقال له: امض إلى القاضي وسلّم عليه وقل له: إني جئت هاهنا امتثالاً لأمر الشرع.

* وادعى رجل على نور الدين يوماً وقال: إن أباه أخذ من ماله شيئاً بغير حق، وانه يطالب بذلك، فقال له نور الدين: أنا لا أعلم شيئاً عن ذلك، فإن كان لك بينة تشهد لك بذلك فهاتها، وأنا أرد إليك ما يخصني، فإني ما ورثت جميع مال أبي، فقد كان هناك ورثة غيري، ومضى الرجل ليحضر البينة.

* وكان في أحد الأيام يلعب الكرة في دمشق، فرأى رجلاً من أتباعه يحدّث آخر ويومئ بيده إليه، فأرسل اليه يسأله عن حاله، فأعلمه، أن له مع نور الدين خصومة حول بعض الممتلكات، فطلب حضوره إلى مجلس القضاء، فتردّد الغلام في عرض الأمر على نور الدين، لكن هذا ألح عليه، فلما تبين لنور الدين الأمر ألقى العصا من يده، وخرج من الميدان وسار إلى القاضي كمال الدين وقال له: إنني قد جئت محاكماً فاسلك معي ما تسلكه مع غيري، فلما حضر المدعي، ساوى القاضي بينه وبين خصمه، ولما لم يثبت ضد نور الدين شيء قال للقاضي وللحضور: هل ثبت له عندي حق؟ قالوا: لا، فقال: اشهدوا أنني قد وهبت له هذا المال الذي حاكمني عليه، وقد كنت أعلم أنه لا حق له عندي، وإنما حضرت معه، لئلا يُظن أنني ظلمته، فحيثما ظهر أن الحق لي، فقد وهبته إياه! وتلك لعمر الحق غاية العدل والإنصاف، بل غاية الإحسان، وهي درجة فوق درجة العدل!.

تكريم العلم والعلماء

* عُرف عن نور الدين ـ رحمه الله ـ حبّه للعلم وتكريم العلماء وإجلالهم، وكان يحرص على التشبه بهم والاقتداء بسيرة مَنْ سلف منهم، وكان العلماء عنده في المنزلة

الأولىٰ والمحل العظيم، يُحْضرهم إلىٰ مجلسه، فيدنيهم ويتواضع لهم، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه، ويعتنقه ويجلسه معه علىٰ سجادته، ويُقْبل عليه بجديته، كأنه أقرب الناس إليه، تعظيماً وتوقيراً واحتراماً، وَوُصف مجلسه بأنه يشبه مجلس رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فهو مجلس حلم وحياء، لا تؤبن فيه الحُرم، ولا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو، ولا يتعدىٰ هذا!

حسد الأمراء للعلماء

* وكان يصون مجلسه عن الغِيبة والوقوع في الأعراض والتجريح في الآخرين، ولما ارتفع شأن العلماء في عهده، حسدهم القادة والأمراء علىٰ هذه المكانة، وكانوا يقعون فيهم عنده، فينهاهم، وإذا نقلوا عن إنسان عيباً يقول: ومن المعصوم؟ إنما الكامل من تُعَدّ ذنوبه! وحَدَث أن بعض الأكابر من الأمراء حسد الفقيه الشافعي قطب الدين النيسابوري - وكان نور الدين قد استقدمه من خراسان وبالغ في إكرامه والإنعام عليه - فنال منه يوماً عند نور الدين فقال له: يا هذا ان صح ما تقول، فله حسنة تغفر كل زلّة تذكرها، وهي العلم والدين، وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت، وليست لكم حسنة تغفرها، ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحتمل سيئة هذا إن صحت، مع وجود حسنته؟! علىٰ أنني والله لا أصدقك فيما تقول، وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأوذينك، فكف عنه!

* وكان سخياً علىٰ أهل العلم والصالحين، ويقول: هؤلاء جند الله، وبدعائهم ننصر علىٰ الأعداء، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنّة علينا!.

* وقال له أصحابه يوماً: إن لك في البلاد إدارات كثيرة، وصِلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقُرّاء، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل! فغضب وقال: والله إني لا أرجو النصر الا بأولئك، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا

تخطئ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رآني بسهام قد تخطئ وتصيب؟! ثم إن لهؤلاء القوم نصيباً في بيت المال أصرفه إليهم، فكيف أعطيه غيرهم؟

الأمانة والعفة

* وعلى الرغم من اتساع مملكة نور الدين وامتلاء خزائن الدولة في عهده، إلا أنه كان زاهداً عفيفاً محباً للخير، أميناً على الأموال العامة، كثير الإنفاق في سبيل الله وبناء المدارس والمساجد والاوقاف والمرافق العامة، متعالياً على المغريات والملذات، يقول رضيع زوجته: إنها قلّت عليها النفقة ولم يكفها ما كان قد قرره لها، فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في مخصصاتها المالية، فلما قلت له ذلك، تنكّر واحمر وجهه، ثم قال: من أين أعطيها؟ أما يكفيها ما لها؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها! إنْ كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي، فبئس الظن، إنما هي أموال المسلمين ومرصدة لمصالحهم ومعدة لفتق إن كان من عدو الإسلام، وأنا خازنهم عليها، فلا أخونهم فيها!، ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين مُلْكاً، قد وهبتها إياها فلتأخذها، قال الرضيع: وكان يحصّل منها قدراً قليلاً، نحو عشرين ديناراً!

* قال ابن كثير: كان نور الدين عفيف البطن والفرج، مقتصراً في الإنفاق على أهله وعياله في المطعم والملبس، حتى قيل: إنه كان أدنى الفقراء في زمانه، أعلى نفقة منه! من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا.

المرافق العامة والمستشفيات

أكثر نور الدين من بناء المرافق العامة ووفّر الخدمات الاجتماعية، وطوّر أجهزة الدولة ومؤسساتها، وكثرت الأوقاف في عهده، وبنى المدارس والمستشفيات والخانات في الطرق، وأقام الجسور والقناطر وشقّ الأنهار، ووسع الأسواق، فأمن الناس وحفظت أموالهم وباتوا في الشتاء في وقاية من البرد والمطر، وأقام الأبراج على الطرق العامة بين بلاد المسلمين وخصومهم الصليبيين وجعل فيها من يحفظها، ومعهم الحمام الزاجل، فإذا

رأوا أحداً من الأعداء أرسلوا الطيور، فأخذ الناس حِذْرهم واحتاطوا لأنفسهم، فلا يبلغ العدو منهم غرضاً، وطوّر نور الدين هذه الخدمات البريدية والاتصالات ونقل الأخبار عبر استخدام الحمام الزاجل، فبنى الأبراج على الطرق، وكانت محطات استراحة للحمام لاستبداله، لاختصار الوقت واختزال الزمن، واستمراراً لحالة اليقظة والترقب.

* ولما أراد بناء المستشفى الكبير في حلب، تقدم الى الأطباء ليختاروا من حلب أصح بقعة في هوائها لإقامة المستشفى عليها، فذبحوا خروفا وقطّعوه أربعة أقسام، وعلّقوها بأرباع المدينة ليلاً، فلما أصبحوا وجدوا أحسنها رائحة الربع الذي يقع فيه باب انطاكية، فبنوا المستشفى أو البيمارستان كما كان يسمى فيه! وأوقف نور الدين عليه قرية وعدداً من المزارع والطواحين والدكاكين.

* وباب انطاكية اليوم في حلب، يختلف عما كان عليه سابقاً، حيث إنه الآن محلة لبيع مواد البناء وتجمّع العمال، وهواؤه ليس نقياً كما وصفه المؤرخون في ذلك الزمان!.

العبادة.. وتحمل المسؤولية

* والجانب المشرق الآخر في حياة هذا القائد العظيم، هو عبادته وتقواه، وحبّه للجهاد في سبيل الله، وحسبنا من ذلك ما يرويه المؤرخ أبو شامة حيث يقول: قال ابن شداد: بلغنا بأخبار التواتر عن جماعة يُعْتمد على قولهم أن نورالدين كان أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلا بوجهه عليه، ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها، وكان كفار القدس يقولون: إن نور الدين له مع الله سر! فإنه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره، وانما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل، والله يستجيب دعاءه ويعطيه سؤله، وما يرد يده خائبة، فيظفر علينا! وكان من عادته رحمه الله أنه كان ينزل الى المسجد بغَلَس، ولا يزال يركع فيه حتى يصلي الصبح، وكان إذا جاء الليل وصلّى العشاء نام، ثم يستيقظ نصف الليل ويقوم إلى الوضوء والصلاة والدعاء إلى بكرة، ثم يظهر للركوب ويشتغل بمهام الدولة، وكان كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعاً للآثار النبوية، كثير التلاوة صموتاً وقوراً، وكانت له أوراد في الليل والنهار، وكان يقدم

أشغال المسلمين عليها ثم يتمم أوراده! وهذا تقدير منه للأمانة التي في عنقه، والمسؤولية التي يضطلع بها، ولا يقدم على أداء هذا الواجب المتعلق بحياة الأمة شيئاً حتى العبادة الخاصة. لأنه بفهمه العميق للإسلام يعلم أن العمل عبادة، والقيام بأمور المسلمين طاعة وقربى إلى الله.

الزوجة والأبناء

* أثّر مسلك نور الدين في حياة زوجته، وسرى حاله وعبادته إليها، فكانت عصمت الدين خاتون زوجته من أحسن النساء وأعفهن وأكثرهن خدمة، متمسكة من الدين بالعروة الوثقى وكانت لها أوقاف وصدقات كثيرة وبرّ عظيم، وكانت تكثر القيام في الليل، وحَدَث أنها نامت ليلة عن وردها، فأصبحت وهي غضبى، فسألها نور الدين عن أمرها فذكرت نومها الذي فوّت عليها وِرْدها، فأمر نور الدين عند ذلك بضرب الطبول في القلعة وقت السحر لتوقظ النائمين لقيام الليل، وخصص للضاربين أجراً جزيلاً.

* رُزق نور الدين من زوجته هذه بنتاً واحدة، وولدين، هما: الصالح إسماعيل الذي تولى الحكم من بعده، وتوفي شاباً لم يبلغ العشرين من العمر بسبب مرض ألمّ به، وأحمد، الذي توفي طفلاً، وعرف عن الصالح إسماعيل ولده حينما تولى الحكم بعد أبيه، التقوى والورع، فقد روي أنه رفض العمل بنصيحة الأطباء في شرب الخمر لإجراء عملية جراحية للمرض الذي أصيب به وهو القولنج، الذي أودى بحياته شاباً، وقال للاطباء: لا، حتى أسأل الفقهاء، فلما أفتوه بالجواز، لم يقبل، وسأل كبير العلماء وقال: إنْ قرّب الله أجلي أيؤخره شرب الخمر؟ قال: لا، قال: فوالله لا لقيت الله وقد فعلت ما حرّم عليّ!

* لبّى نور الدين نداء ربه يوم الأربعاء الحادي عشر من شهر شوال سنة ٥٦٩هـ وفارق الحياة إثر نوبة مفاجئة، فقد خرج ثاني أيام عيد الفطر الى الميدان الأخضر شمالي دمشق، لممارسة الألعاب وتمارين الفروسية والاحتفال بختان ولده الصالح إسماعيل، فما عاد الى بيته إلا وقد تمكن منه مرض الخوانيق "الذبحة الصدرية" وراح يضيق عليه الخناق، فلزم بيته

وأكثر من العبادة، واشتّد به المرض وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته، ولم تنجح كل محاولات الأطباء الذين عالجوه، ولم تمض أيام حتىٰ فارق الحياة، وحزن الناس عليه حزناً عظيماً ووقفوا يضطربون ويضطرمون. رحمك الله يا نورالدين، فلقد أيقظت الأمة وبعثت فيها الحياة، وحميت ديار المسلمين. وللتوسع في دراسة هذه الشخصية الإسلامية العظيمة، يراجع كتاب نورالدين محمود زنكي، للدكتور عماد الدين خليل.

مؤامرة استهدفت جسد رسول الله

تذكر بعض الروايات الإخبارية أن الملك العادل نور الدين محمود زنكي رأىٰ في سنة سبع وخمسين وخمسمائة، وهو في بلاد الشام رؤياً عظيمة في منامه فقدم المدينة المنورة من أجلها. . فقد رأىٰ النبي ﷺ ثلاث مرات في ليلة واحدة وهو يقول له في كل واحدة منها: يا محمود أنقذني من هذين الشخصين!! لشخصين أشقرين تجاهه، فاستحضر وزيره قبل الصبح فذكر له ذلك فقال له: هذا أمر حدث في مدينة النبي ﷺ ليس له غيرك، فتجهز وخرج علىٰ عجل بمقدار ألف راحلة وما يتبعها من خيل وغير ذلك، حتىٰ دخل المدينة علىٰ غفلة من أهلها، والوزير معه وزار وجلس في المسجد لا يدري ما يصنع، فقال له الوزير: أتعرف الشخصين إذا رأيتهما قال: نعم فطلب الناس عامة للصدقة وفرق عليهم ذهباً كثيراً وفضة وقال: لا يبقين أحد بالمدينة إلا جاء، فلم يبق إلا رجلان مجاوران من أهل الأندلس نازلان في الناحية التي تلي قبلة حجرة النبي ﷺ من خارج المسجد عند دار آل عمر بن الخطاب التي تعرف بدار العشرة، فطلبهما للصدقة فامتنعا وقالا: نحن في كفاية! ما نقبل شيئاً! فجدّ في طلبهما حتىٰ جيء بهما، فلما رآهما قال للوزير: هما هذان! فسألهما عن حالهما وما جاء بهما فقالا: لمجاورة النبي ﷺ! فقال: أصدقاني! وتكرر السؤال حتىٰ أفضىٰ إلىٰ معاقبتهما، فأقرّا أنهما من النصارىٰ، وأنهما وصلا لكي يَنْقلا مَنْ في هذه الحجرة المقدسة ـ باتفاق من ملوكهم ـ ووجدهما قد حفرا نقباً تحت الأرض من تحت حائط المسجد القبلي، وهما قاصدان إلىٰ جهة الحجرة الشريفة يجعلان التراب في بئر عندهما في البيت الذي هما فيه، فضرب أعناقهما عند الشباك الذي في شرقي حجرة

رسول الله ﷺ خارج المسجد ـ ثم أُحرقا بالنار آخر النهار، وركب متوجهاً إلىٰ الشام راجعاً! . ويذكر أنه أمر بالحفر حول قبر النبي ﷺ فلما وصلوا إلىٰ الجبل أمر بأن يصبّ حوله الرصاص، لئلا يتمكن عدو من الوصول إلىٰ جسد رسول الله ﷺ، والله أعلم بصحة هذه القصة!

تأملات

* قال عبدالله بن مسعود: إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل فيأتي القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب، فيتفرقون، فيقول الرجل منهم: سمعت رجلاً أعرف وجهه ولا أدري ما اسمه يحدّث.

* وقال عبدالله بن عمرو بن العاص: إن في البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان بن داود يوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآناً، هذه الآثار في مقدمة صحيح مسلم، والمعنىٰ أنها تقرأ شيئاً ليس بقرآن وتقول إنه قرآن، لتغرّ به عوام الناس، فلا يغترون.

* كان ابن إدريس إماماً متفقاً علىٰ جلالته وإتقانه وورعه وعبادته، يروىٰ عنه أنه قال لابنته حين بكت عند حضور موته: لا تبكي فقد ختمت القرآن في هذا البيت أربعة آلاف ختمة! قال عنه الإمام أحمد: كان ابن إدريس نسيج وحده.

* وكان أبوبكر بن عياش إماماً في العلم والفضل، قال ابنه إبراهيم: قال لي أبي: إن أباك لم يأت فاحشة قط، وإنه يختم القرآن منذ ثلاثين سنة كل يوم مرة، وقال له: يا بني إياك أن تعصي الله في هذه الغرفة فإني ختمت فيها اثني عشر ألف ختمة، وقال لابنته عند موته وقد بكت: يا بنية لا تبكي، أتخافين أن يعذبني الله تعالىٰ، وقد ختمت في هذه الزاوية أربعة وعشرين ألف ختمة؟!

* جاء رجل إلىٰ القاضي بلال بن أبي بُردة فقال: إن عاملك بالطفّ، فعل كذا وكذا، فقال بلال: اسألوا لي عن بيت هذا، فسألوا فوجدوه مغموراً عليه، فقال صدق رسول ﷺ: لا يسعىٰ علىٰ الناس إلا رجل مغمور عليه في نسبه، أو ولدته أمه لغير رِشْدة!

السجن ... والسجناء..

* أول من اتخذ السجنَ كان حكيماً، ولم يأت عمله عبثاً، وإنما ليترك لنفسه مرحلة ينفثئ فيها الغضب ويسكن فوران الدم، ثم يعاقب إن شاء - ينفثء الغضب أي يسكن وتُكْسر حِدّته -.

* ورد أن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه كان لايعاقب إلا بعد مرور ثلاثة أيام لهذا الغرض.

* والحبس تقييد للحرية وحركة الإنسان وتنقلاته بالإضافة إلىٰ ما فيه من شدة وضيق وقسوة، والسجين حي وميت وفي الدنيا والآخرة!

إلىٰ الله أشكو إنه موضع الشكوىٰ ... وفي يده كَشْف المصيبةِ والبَلْوَىٰ
خرجْنا من الدنيا ونحن من أهلها ... فلسْنا من الأحياء فيها ولا الموتىٰ
إذا جاءَنا السَّجَّانُ يوماً لحاجة ... عجبْنا وقلنا: جاء هذا من الدنيا!
وتعجبنا الرؤيا فجُلُّ حديثنا ... إذا نحن أصبحنا الحديثُ عن الرؤيا
فإنْ حَسُنَتْ لم تأتِ عَجْلىٰ وأبْطأتْ ... وإنْ قَبُحَتْ لَمْ تَحْتَبِسْ وأَتَتَ عَجْلىٰ!

ويروىٰ أن يوسف عليه السلام شكا إلىٰ الله عز وجل طول الحبس فأوحىٰ الله إليه: مَنْ حَبَسك يا يوسف! أنتَ حَبَست نفسك حيث قلت: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (يوسف: ٣٣)، ولو قلت: العافيةُ أحبّ إليَّ لعوفيت!

* كتب بعضهم علىٰ باب السجن: هذه قبور الأحياء، وتجربة الأصدقاء وشماتة الأعداء.

* والسجناء ليسوا دوماً مجرمين ومذنبين، فلقد سجن يوسف عليه السلام ظلماً، وعلىٰ مدار التاريخ كانت السجون تغصّ بالأبرياء، وهذا لا يعني بالطبع أن ليس في

المجتمعات من الأشرار والفجار من لا يصلحهم إلا السجن، ولو سألت هؤلاء عن سبب سجنهم لقالوا: مظلومين!!

ما يدخل السجن إنسانٌ فتسألُه: ما بالُ سجنك؟ إلا قال: مظلومٌ!

* اختصم خالد بن صفوان مع رجل إلى بلال بن أبي بردة، فقضى للرجل على خالد فقام خالد وهو يقول: سحابة صيف عن قليل تقشّع! فقال بلال: أما إنها لا تقشّع حتى يصيبك منها شُؤْبوبُ بَرَد، وأمرَ به إلى الحبس، فقال خالد: علام تحبسني؟ فوالله ما جَنَيْتُ جناية ولا خنْت خيانة! فقال بلال: يخبرك عن ذلك بابٌ مُصمَت وأقيادٌ ثقال وقيّم يقال له حَفْص!

* وأُمر بحبس ابن أبي علقمة في دعوى، فقال: دعْني آتي البيت لحاجة، فلم يُتْرك فتمثل بقول الله تعالى: ﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ (يس)، فدخل السجن فقال: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ (المدثر)، فالتفت فرأى المهلب فقال: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا﴾؟ (الأنبياء).

* قال يعقوب بن داود: حبسني المهدي في مكان لا أعرف فيه الليل من النهار في بئر واسعة، وفيها بئر أخرى أتغوط فيها، وأُعطى في كل يوم ماء وخبزاً حتى عفا شعري وصار أطول من شعر البهائم! حتى مضت إحدى عشرة سنة، فأتاني آت في المنام فقال: حنَّ على يوسف ربّ فأخرجه من قعر جبّ فحمد الله، فأتى على ذلك سنة، ثم أتاني ذلك الآتي فقال:

عسى فرجٌ يأتي به الله إنه له كل يوم في خليقته أمْرُ

ثم مكثت حولاً آخر فأتاني ذلك الآتي فأنشدني:

عسى الكربُ الذي أمسيْتَ فيه يكونُ وراءه فرجٌ قريبُ
فيَأمَنَ خائفٌ ويُفكَّ عانٍ ويأتي أهلَه النائي الغريبُ!

فلما أصبحت دُلِّي لي مرس فشددتُ به وسطي فخرجت ما أبصر أحداً فقلت: السلام على أمير المؤمنين. قيل: ومَنْ أمير المؤمنين؟ قلت: المهدي. قالوا: رحم الله المهدي! قلت: الهادي، قالوا: رحم الله الهادي! قلت: فمن؟ قالوا: الرشيد، قلت: السلام على أمير المؤمنين الرشيد، فقال: وعليك السلام، وأمر لي بخمسمائة ألف، وردّ عليّ ضياعي، فعولجتُ حتى عاد ضوء عيني، فاستأذنته في الحج فأذن لي. فمضى إلى الحج ومكث حتى توفي!

وما هذه الأيامُ إلا مراحلٌ ... فمن منزلٍ رحبٍ إلى منزلٍ ضنْكِ
وقد هذبتكَ النائباتُ وإنما ... صفا الذهبُ الإبريزُ قبلَك بالسبكِ
أما لكَ في الصدّيق يوسفَ أسوةٌ ... لمثلك محبوس على الظلم والإفك
أقامَ جميلَ الصبر في السجن برهةً ... فآل به الصبرُ الجميلُ إلى المُلْكِ

سجن الحجاج

* خرج الحجاج يوماً إلى الجامع فسمع ضجة عظيمة، فقال: ما هذا؟ قالوا: أهل السجن يضجون من الحر! فقال: قولوا لهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ (المؤمنون: ١٠٨)! وأُحصي مَنْ قتلهم سوى مَنْ قُتل في بعوثه وعساكره فوجد مائة وعشرين ألفاً، ووجد في حبسه مائة ألف وأربعة عشر ألف رجل، وعشرون ألف امرأة!، ولم يكن في حبسه سقف ولا ظل! وربما كان الرجل يَسْتتر بيده من الشمس، فيرميه الحرس بالحجر! وكان أكثرهم مقرنين بالسلاسل، ويُطْعمون أردأ الطعام.

* هكذا ذكرت كتب التاريخ عن الحجاج، ولا ننسى أن التاريخ يكتبه المنتصر! والذين كتبوا التاريخ عاشوا في ظل الدولة العباسية التي قضت على الدولة الأموية التي ساهم الحجاج في تثبيت أركانها! وإذا استولت جماعة على السلطة في بلد ما، وأطاحت بالحكومة السابقة فمن الذي يجرؤ على الإشادة ببعض رموز تلك الحكومة! وكم في التاريخ من قضايا وشخصيات وأحداث تحتاج إلى إعادة نظر ودراسة تحليلية لتجلية

الحقيقة! وقد يكون الحجاج ليس بالصورة التي أوردتها كتب التاريخ، وقد تكون بعض الأحداث قد ضخمت لتوظيفها والاستفادة منها في مجالات مختلفة، ولخدمة أغراض متعددة، وقد يكون الحجاج هو السفاح الذي ارتكب هذه المجازر، ولكن الأمر بحاجة إلى دراسة أكثر عمقاً وتحليلاً! وتلقّف الأخبار وأخذها على أنها حقائق ومسلّمات، أمر بعيد كل البعد عن الموضوعية.

التاريخ

* قال الشاعر محمد الأسمر:

هداك الله يا تاريخ ... يا شيخ الأضاليل
فما أقْدر كفيك ... على نسج الأباطيل
***
تحابي الحي أو تظلم ... يا تاريخ أحيانا
فما مثلك مأمون ... على أخبار موتانا

الظلم ظلمات

* الظلمُ مَرْتعه وخيم وعاقبته سيئة، إذْ إنّه يجرّ على صاحبه الذلّ والخذلان والعَارَ والشَّنَار. وبئس الزادُ إلى المعاد ظلْمُ العباد، ووالله ما عزَّ ذو باطل، ولو طلع القمرُ من بين عينيه ولا ذلّ ذو حقّ ولو اتفق العالم عليه، وللباطل جَولة ثم يضْمحلّ، وللحقّ دَولة لا تنخفض ولا تذلّ و«الظلم ظلمات يوم القيامة» رواه الشيخان. وقد توعَّد الله الظالم وعزَّى المظلوم فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢)﴾ (إبراهيم).

* كتب عمر بن عبدالعزيز إلى عامل له: إذا دَعَتْك قُدْرتُكَ على ظُلْم الناس فاذْكرْ قُدْرةَ الله عليك. وقال معاوية: إني لأَسْتحيي أنْ أظْلِمَ مَنْ لا يجد عليَّ ناصراً إلا الله.
وفي الحديث: «واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» رواه الخمسة.

لا تَـظْـلِـمـنَّ إذَا مـا كُـنْـتَ مُـقْـتَـدِراً فـالـظُّـلْـمُ تَـرْجِـعُ عُـقْـبـاه إلىٰ الـنَّـدمِ
تَـنَـامُ عـيْـنُـك والمـظـلـومُ مُـنْـتَـبِـهٌ يَـدْعُـو عـلـيـك وعيْـنُ الـلـهِ لَـمْ تَـنَـمِ

* وقال أبـو الدرداء: إيَّاك ودمْعَةَ اليتيم ودعْوةَ المظلوم، فإنها تسري بالليل والناسُ نيام. وإذا ارتفعتْ أيدي المظلومين عند السَّحر في الدعاء ضارعة، فإنها أنفذ في الأحشاء من السهام القاتلة.

أتـهْـزأ بـالـدّعـاءِ وتَـزْدَريـهِ ومـا تَـدْرِي بمـا صَـنَـعَ الـدُّعـاءُ
سِـهَـامُ الـلـيـلِ نـافـذةٌ ولـكـنْ لَـهَـا أَمَـدٌ ولـلأَمـدِ انْـقـضـاءُ
فـيُـمْـسِـكُـهـا إذا مـا شَـاءَ ربِّـي ويُـرْسِـلُـهَـا إذا نَـفَـذَ الـقـضـاءُ

* وقال أبو العيناء: كان لي خصوم ظَلَمة، فشكوتهم إلىٰ أحمد بن أبي داود، وقلت: قد تضافروا عليَّ وصاروا يداً واحدة، فقال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (الفتح: ١٠)، فقلت له: إن لهم مكراً، فقال: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ (فاطر: ٤٣)، قلت: هم فئة كثيرة. فقال: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٤٩).

احذر دعوة المظلوم

* وقال بعضهم: ما هبْتُ شيئاً قط هيبتي من رجل ظلمْتُه، وأنا أعلم أنْ لا ناصر له إلا الله، فيقول: حَسْبُك الله، الله بيني وبينك! وقال آخر: اتق الله فيمن لا ناصر له إلا الله. وفي الأثر: «يقول الله: اشتد غضبي علىٰ مَنْ ظلم مَنْ لا يجدُ له ناصراً غيري».

* ونادىٰ رجلٌ سليمان بن عبدالملك وهو علىٰ المنبر: يا سليمان اذكر يوم الأذان! فدعاه سليمان وقال: مايوم الأذان؟ قال: قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤)﴾ (الأعراف)، قال: فما ظلامتُك؟ قال: أرض لي بمكان كذا وكذا أخذها وكيلك، فكتب إلىٰ وكيله: ادفع إليه أرضه وأرضاً مع أرضه!!

* والعرب تقول عن الظالم: فلان أظلم من حيّة، لأن الحية لا تحْفر لنفسها بيتاً، وإنما تقصد كل بيت من بيوت الهَوَام فيهرب أهله، ويُخلّونه لها خوفاً منها!.

* وذُكِرَ الظلمُ في مجلس ابن عباس، فقال كعب: إني لأجدُ في كتاب الله المنزل «أن الظلم يُخْرِب الديار». فقال ابن عباس: تصديقه في القرآن الكريم: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ (النمل: ٥٢).

* ويُروىٰ أن كسرىٰ أنوشروان كان له معلّم حَسَنَ التأديب يعلمه، حتىٰ فاق في العلوم، فضربه المعلّمُ يوماً من غير ذنْب، فأوجعه، فحقد أنوشروان عليه، فلما وَلِي المُلْكَ قال للمعلم: ما حملك علىٰ ضربي يوم كذا وكذا ظلماً؟ فقال له: لَمّا رأيتك ترغب في العلم، رجوْتُ لك الملكَ بعد أبيك، فأَحْبَبْتُ أنْ أُذِيْقَك طَعْم الظُّلم، لئلا تَظْلِم: فقال أنوشروان: زه زه. أي أحسنت!.

* وحكي أن الحجاج حبس رجلاً ظلماً فكتب إليه رقعة فيها: قد مضىٰ من بُؤْسنا أيام ومن نعيمك أيام، والموعدُ القيامة، والسجنُ جهنم، والحاكم لا يحتاج إلىٰ بينة! وكتب في آخرها:

ستعْلمُ يا نَؤُومُ إذا التقيْنَا ... غداً عند الإله مَن الظّلومُ
أمَا والله إنَّ الظُّلمَ لُؤْمٌ ... ومَا زالَ الظلومُ هو المَلُومُ
سينْقطع التلذّذُ عن أُناسٍ ... أدامُوه وينقطع النعيمُ
إلىٰ ديّان يوم الدين نمضي ... وعند الله تَجْتَمِعُ الخُصُومُ!

* وكان ابن طولون قبل أنْ يتوب ويعدل ظالماً، حتىٰ استغاث الناس من ظلمه وتوجهوا إلىٰ السيدة نفيسة بنت الحسين بن زيد بن الحسين، يَشْكُونه إليها، فقالت لهم: متىٰ يركب؟ قالوا: في غد، فكتبتْ رقعة وقفتْ بها في طريقه وقالت: يا أحمد، يا ابن طولون، فلما رآها عرفها، فترجَّل عن فرسه، وأخذ منها الرقعة وقرأها، فإذا فيها: مَلَكْتُم فأَسَرْتُمْ، وَقُدْتُم فَقَهَرْتُم، وخوِّلتم فَعَسَفْتُم، ورُدَّتْ إليكم الأرزاق فَقَطَعْتُم، هذا وقد علمتُم أنَّ سهامَ الأسحارِ نافذة غير مخطئة، لا سيما من قلوبٍ أوْجعْتُموها، وأكبادٍ جوّعْتموها، وأجساد عَرّيْتموها، فمحالٌ أن يموتَ المظلومُ ويبقىٰ الظالمُ، اعملوا ما شئتم

فإنا صابرون، وجُورُوا فإنا إلى الله مُسْتَجيرون، واظْلموا فإنَّا بالله متظلّمون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون!! قالوا: فكان هذا الموقف سبباً في توبته وعدله!.

* وكتب عاملٌ لعمر بن عبدالعزيز يستأذنه في تحصين مدينته، فكتب إليه: حَصِّنْها بالعدل ونَقِّ طُرُقَهَا من الظُّلم!.

* قال أبو وائل شقيق بن سلمة الأسدي: أرسل الحجاج إليَّ فقال لي: ما اسمك؟ قلت: ما أرسل الأمير إليَّ حتى عرف اسمي! قال: متى هبطت هذه الأرض؟ قلت: حين ساكنتُ أهلها! قال: كم تقرأ من القرآن؟ قلت: أقرأ منه ما إن اتبعتُه كفاني!. قال: إني أريد أنْ أستعين بك على بعض عملي؟. قلت: إنْ تَسْتَعِنْ بي، تَسْتَعِنْ بكبير أخرق ضعيف يخاف أعوان السوء، وإن تدعْني أحبُّ إليَّ، وإنْ تُقَحِّمني أَتَقَحَّم! قال: إنْ لم أجد غيرك أَقْحَمْتُكَ، وإنْ وجدت غيرَك لم أقْحِمْك، قلت: وأخرى أكرم الله الأمير إني ما علمت الناس هابوا أميراً قط هَيْبَتَهم لك، والله إني لأتعارّ - أتقلب على الفراش ليلاً - فأذكرك فما يأتيني النوم حتى أصْبِح!!، هذا ولستُ لك على عمل! فأعجبه ذلك وقال: هيه كيف قلت؟ فأعدْتُ الحديث، فقال: إني والله ما أعلم اليوم رجلاً على وجه الأرض هو أجْرأ على دمٍ منِّي!!، قال: فَقُمْتُ فَعَدَلْتُ عن الطريق عَمْداً كأني لا أبْصِر، فقال: اهدوا الشيخ أرشدوا الشيخ!.

* كتب عبدالملك بن مروان إلى الحجاج في أسرى دير الجماجم، أنْ يعرضهم على السيف، فمن أقرَّ منهم بالكفر بخروجه على الخليفة وبخلعه البيعة، خَلَّى سبيله، ومن زعم أنه مؤمن فليضرب عنقه، فلماعرضوا على الحجاج أُتي بشيخ وشاب، فقال للشاب: أمؤمن أنت أم كافر؟ قال: بل كافر! فقال للشيخ: أمؤمن أنت أم كافر؟ قال: بل كافر! فقال الحجاج: لكن الشيخ لا يرضى بالكفر! فقال الشيخ: أعن نفسي تخادعني يا حجاج؟! والله لو كان شيء أعظم من الكفر لرضيتُ به!! فضحك الحجاج وخلّى سبيلهما!

* ثم قُدِّم إليه رجل فقال له: على دين مَنْ أنت؟ قال: على دين إبراهيم حنيفاً وما

كان من المشركين. فقال: اضربوا عنقه! ثم قدّم إليه آخر، فقال له على دين من أنت؟ قال: على دين أبيك الشيخ يوسف! فقال: أما والله لقدكان صوّاماً قوّاماً! خلِّ عنه يا غلام! فلما خلّى عنه انصرف إليه فقال له: يا حجاج سألتَ صاحبي: على دين مَنْ أنت؟ فقال: على دين إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين، فأمرتَ به فضُربتْ عنقه، وسألتني: على دين مَنْ أنت؟ فقلت: على دين أبيك الشيخ يوسف، فقلت: أما والله لقد كان صواماً قواماً، فأمرتَ بتخلية سبيلي، والله لو لَمْ يكن لأبيك من السيئات إلا أنه ولد مثلك لكفاه! فأمر به فقُتل!.

* والحجاج اسمه: كليب، وكان يعلّم الصبيان بالطائف، وأبوه يوسف معلم أيضاً، ويُروى أن المغيرة بن شعبة دخل على زوجته الفارعة بنت همام ـ وقيل إنها كانت متزوجة من الحارث بن كَلَدة ـ فوجدها تتخلل بعد صلاة الفجر، فقال لها: إن كنت تتخللين من طعام البارحة فإنك لقذرة، وإن كان من طعام اليوم إنك لنَهِمة، كُنْتِ فبِنْتِ «أي كنت زوجة لي فطلقتك» قالت: والله ما فرحنا إذ كُنّا، ولا أسفنا إذ بِنّا! وما هو بشيء مما ظننت، ولكني استكْتُ فأردتُ أن أتخلل للسواك! فندم المغيرة على ما بدَرَ منه، فخرج أسفاً، فلقي يوسف بن أبي عقيل فقال له: هل لك إلى شيء أدعوك إليه؟ قال: وما ذاك؟ قال: إني نزلتُ الساعة عن سيدة نساء ثقيف، فتزوّجْها فإنها تنجب لك، فتزوجها فولدت له الحجاج! وقيل إن الحجاج تقلد الإمارة وهو ابن عشرين سنة، ومات وله ثلاث وخمسون سنة، وكان من عنف السياسة، وثقل الوطأة، وظلم الرعية، والإسراف في القتل، على ما لا يبلغه وصف!

* روي أن رجلاً كان له قطعة أرض بجنب أرض ظالم، فكان الظالم يضم كل سنة قطعة منها إلى أرضه، فقال الرجل يوماً: ما هذا النقصان في أرضنا؟ فقال: أما سمعت قول الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ (الرعد: ٤١)، فقال: فما هذه الزيادة في أرضك؟ قال: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء؟ قال: فمن أين أوتيتَ الفضل وأوتيتُ النقص في ذلك؟ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ (المائدة: ١٠١).

* قال أحد الشعراء:

ونستعدي الأميرَ إذا ظُلمنا ... فمن يُعدِي إذا ظَلَم الأميرُ

* وقال آخر:

إذا كان الأميرُ عليك خَصْماً ... فلا تُكثِرْ! فقدْ غَلَبَ الأميرُ!

* وقال آخر: ؟

كنتُ مِنْ كُرْبتي أفرُّ إليهم ... فهُمُ كُرْبتي فأين الفرارُ!

* وذكروا أنه وجد أعرابي في سجون الحجاج وأطْلقَ سراحُه بعد موت الحجاج، وكان ذَنْبه، أنهم وجدوه يبول في أصل مدينة واسط! . فلما خرج من السجن أنشأ يقول:

إذا نحن جاوزنا مدينة واسطٍ ... خرينا وصلينا بغير حساب!

* وروي أن الحجاج قرأ يوماً في سورة هود قول الله عز وجل: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ (هود: ٤٦)، فلم يَدْر كيف يقرأ «عمل» بالضم والتنوين أو بالفتح، فبعث أحد حرَّاسه، فقال: إيتني بقارئ، فأُتي به بعد أن قام الحجاج من مجلسه، فحُبس القارئ، وبعد ستة أشهر استعرض الحجاجُ المحبوسين في سجنه يسألهم عن جرائمهم، فلما انتهى إلى القارئ، قال له: فيم حُبِسْتَ؟ قال: في ابن نوح!! أصلح الله الأمير. فأمر بإطلاقه!.

حوار صريح وملتهب

* كان سعيد بن جبير رحمه الله أحد أعلام التابعين علماً وفقهاً وتقوى وعبادة، روي أنه كان يَؤُمُّ النَّاس في شهر رمضان، فيقرأ ليلةً بقراءةِ ابن مسْعُودٍ، وليلةً بقراءةِ زَيْد بن ثابت، وأخرى بقراءة غيرهما، وهكذا أبداً، وقيل: كان أعلم التَّابعين بالطلاق سَعِيْدُ بنُ جُبَيْر، وبالحجِّ عَطَاءٌ، وبالحلال والحرام طاووس وبالتفسير مُجاهد، وأجمعهم لذلك سَعيد بن جبير، وقتله الحجَّاجُ وما على وجه الأرض أحد إلاّ وهو مفتقرٌ إلى عِلْمِهِ. وقال

الحسن البصري يوم قتله: اللهمّ أَعِنْ على فاسِقِ ثقيف، واللّه لو أنَّ أهل الأرض اشتركوا في قتله لأكبَّهم الله في النار. كان سعيد مع عبدالرحمن بن الأشعث، لما خرج على عبدالملك بن مروان، فلما قُتل عبدالرحمن وانهزم أصحابُهُ من دَيْرِ الجَمَاجِمْ هرب فلحق بمكة، وكان واليها يومئذ خالد بن عبدالله القسري، فأخذه وبعث به إلى الحجاج مع إسماعيل بن أوسط البَجَلي، فقال له الحجاج: يا شَقيَّ بن كُسَيْر أما قدمت الكوفة وليس يَؤُمُّ بها إلاَّ عربي فجعلتك إماماً؟ فقال: بلى - كان سعيد من الموالي - قال: أما وليتُك القضاء، فضجَّ أهلُ الكوفة وقالوا: لا يصلح للقضاء إلا عَرَبيٌّ، فاستقضيتُ أبا بُرْدَة بن أبي مُوسى الأشعري، وأمرته أن لا يقطع أمراً دونك؟ قال: بلى، قال: أما جعلتك من سُمَّاري وكلهم رؤوس العرب؟ قال: بلى، قال: أما أعطيتك مائة ألف درهم تفرقها على أهل الحاجة في أول ما رأيتك ثم لم أسألك عن شيء منها؟ قال: بلى، قال: فما أخرجك عليَّ؟ قال: بيعةٌ كانت في عُنُقي لابن الأشْعَثِ، فغضب الحجَّاج ثم قال: أما كانت بيعةُ أمير المؤمنين عبدالملك في عُنُقك من قبل؟ والله لأقتلنَّك؟! وقال أبو بكر الهذلي: لما دخل سعيد بن جبير على الحجاج قام بين يديه، فقال له: أعوذ منك بما استعاذت به مريم بنت عمران حيث قالت: ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾ (مريم)، فقال له الحجاج: ما اسمك قال: سعيد بن جبير، قال: شَقِيٌّ بنَ كُسَيْر، قال: أُمِّي أعلمُ باسمي، قال: شقيتَ وشقيت أُمك! قال: الغيب يعلمه غيرك، قال: لأُوردنَّك حِيَاضَ الموت، قال: أصابت إذاً أمي، قال: فما تقول في محمد ﷺ؟ قال: نبيٌّ ختم الله تعالى به الرسل وصدّق به الوحي، وأنقذ به من الهَلَكة، إمام هُدَىً ونبيٌّ رحمة، قال: فما تقول في الخلفاء؟ قال: لستُ عليهم بوكيل، إنما استحفظت أمر ديني، قال: فأيهم أحبَّ إليك؟ قال: أحسنهم خُلُقاً وأرضاهم لخالقه، وأشدُّهم فَرَقاً - خوفاً - قال: فما تقول في علي وعثمان، أفي الجنة هما أو في النار؟ قال: لو دخلتهما فرأيت أهلهما إذاً لأخبرتك! فما سؤالك عن أمر غُيِّبَ عنك؟ قال: فما تقول في عبدالملك بن مروان؟ قال: مالك تسألني عن امرئٍ أنت واحدة من ذُنُوبه؟! قال: فمالك لم تضحك قط؟ قال: لم أر ما يضحكني، كيف يضحك من خُلق من تراب وإلى التراب يعود؟ قال: فإني أضحك من اللهو قال

ليست القلوب سواءً، قال: فهل رأيت من اللهو شيئاً؟ ودعا بالنَّاي والعُود، فلما نفخ بالنَّاي بكى، قال: ما يبكيك؟ قال: ذكَّرني يوم ينفخ في الصور، فأمَّا هذا العُود فمن نبات الأرض، وعسى أن يكون قد قطع من غير حقِّه، وأما الأوتار فأمعاء شاة يبعث بها معك يوم القيامة، قال: إني قاتلك! قال: إن الله عز وجل قد وقَّت لي وقتاً أنا بالغه، فإن يكن أجلي قد حضر فهو أمر قد فرغ منه، ولا محيص ساعة، وإن تكن العافية، فالله تعالى أولى بها، قال: اذهبوا به فاقتلوه، قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله أستحفظكها يا حجاج حتى ألقاك يوم القيامة!! فلما تولَّوا به ليقتلوه ضَحِكَ، قال له الحجاج: ما أضحكك؟ قال: عجبت من جرأتك على الله وحلم الله جل وعلا عليك! ثم استقبل القبلة فقال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾ (الانعام) قال: اقتلوه عن القبلة، قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)﴾ (البقرة) قال: اضربوا به الأرض، قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥)﴾ (طه) قال: اضربوا عُنُقه، قال: اللهم لا تسلطه على أحد يقتله من بعدي! فلما قتله لم يزل دمه يجري حتى علا وفاض حتى دخل تحت سرير الحجاج، فلما رأى ذلك هاله وأفزعه، فبعث إلى صادق المتطبِّب فسأله عن ذلك، قال: لأنك قتلته ولم يهله - لم يخف - ففاض دمه ولم يجمد في جسده، ولم يخلق الله عز وجل شيئاً أكثر دماً من الإنسان! فلم يزل به ذلك الفزع حتى مُنع النوم، وجعل يقول: مالي ولك يا سعيد بن جبير! وكان في جملة مرضه كلما نام رآه آخذاً بمجامع ثوبه يقول: يا عدوَّ الله فيم قتلتني، فيستيقظ مذعوراً ويقول: مالي ولابن جبير! وقتل ابن جبير، وله تسع وأربعون سنة.

* قال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: الوليد بالشام، وقُرَّةٌ بمصر، والحجاج بالعراق، وعثمان بن حيان بالحجاز، امتلأت الأرض والله جورا!! وكان قُرَّةٌ بن شَريك القيسي أمير مصر، عسوفاً ظالماً، قيل: كان إذا انصرف الصناع من بناء جامع مصر دخله فدعا بالخمر والملاهي، ويقول: لنا الليل ولهم النهار! قبحه الله.

بين الهدية.. والرشوة

الهدية مفتاح باب المودة، وعنوان تذكار المحبة، ولله درّ القائل:

هدايا الناس بعضهم لبعض ... تُولِّدُ في قلوبهم الوصالا
وتزرع في القلوب هوىً وودّاً ... وتكسوك المهابة والجلالا

* أهدى رجل إلى المتوكل قارورة ذهب وكتب معها: إنّ الهدية إذا كانت من الصغير إلى الكبير فكلما لطفت ودقّت كانت أبهى وأحسن، وإذا كانت من الكبير إلى الصغير فكلما عظمت وجلّت كانت أوقع وأنفع!

* وقد قيل: يعرف فضل المرء بفضل هديته وسخافته بسخافة برّه. ثلاثة تدل على عقول أربابها: الهدية، والرسول، والكتاب. فالكتاب يدل على عقل كاتبه، والرسول يدلّ على عقل مرسله، والهدية تدلّ على عقل مهديها.

* والهدية أمارة على فضل صاحبها أو نقصه، وقد حكى الله تعالى عن بلقيس أنها قالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥)﴾ (النمل) فجعلت جواب الهدية دلالة وأمارة! وبعث صديق لصديقه بنعلين مخصوفتين وكتب إليه: بعثتُ إليك بهما وأنا أعلم أنّ بك عنهما غنى، ولكني أحببتُ أن تعلم أنك مني على ذكْر.

يبقى الثناء وتنفد الأموال ... لكل دهرٍ دولةٌ ورجالُ
ما نال مَحْمَدةَ الرجال وشكرهم ... إلا الصبور عليهم المفضالُ

* ومن جميل ما يروى في الأخبار من الاعتذار عن إهداء شيء صغير، ما قيل: أن سليمان عليه السلام مرّ بعشّ قنبرة، فأمر الريح أن تتجنب عشّها الذي فيه فراخها، فجاءت القنبرة لما نزل سليمان فرفرفت على رأسه وألقت جرادة، هدية له لما فعل! فقال سليمان: هي مقبولة فكلٌّ يهدي على قدر وُسْعه!

* يقال إن الهدية إذا وصلت لصاحبها فجلساؤه شركاء معه فيها. وفي الأثر: من أتته

هدية وعنده قوم جلوس فهم شركاؤه فيها! وقد حدّث أحدهم بهذا الأثر، فما أتمّ حديثه حتى طلعت هدية موجهة له فقال: ما خلا هذه!

* بلغ الحسن بن عمارة أن الأعمش يقع فيه ويقول: ظالم وَلِيَ المظالم، فأهدى إليه هدية، فمدحه الأعمش بعد ذلك، وقال: الحمدلله الذي ولّى علينا من يعرف حقوقنا! فقيل له: كنت تذمه ثم الآن تمدحُه! فقال: صدق رسول الله ﷺ: «جُبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها وبغض من اساء إليها».

المنّة في الهدية

* ومما يجب تجنّبه في الهدية، الامتنان بها فإن هذا من اللؤم وقلة المروءة. أهدى رجل للأعمش بطيخة فلما أصبح قال: يا أبا محمد كيف كانت البطيخة؟ قال: طيبة! ثم أعاد عليه ثانياً وثالثاً فقال: إنْ خفّفْت من قولك وإلا قِئتُها!

* وأهدى أبو الهذيل إلى أستاذٍ له ديكاً، فكان بعد ذلك إذا خاطبه أرّخ بديكه، فيقول: إنه كان يوم أهديت إليك الديك، وأنه كان قبل الديك بكذا وبعد الديك بكذا، وكلما ذكر شيئاً بجمال أو سمن قال: هو أحسن أو أسمن من الديك الذي أهديته إليكم؟ وما كان بين ذلك وبين إهداء الديك إلا أيام قلائل! وأصبح هذا مثلاً لمن يستعظم الهدية!

الهدية للحكام

* والهدية للحكام غالباً ما تكون رشوة وإن لبست ثوب الهدية، لذلك يحذّر رسول الله ﷺ من قبولها «من استعملناه على عمل ورزقناه منه رزقاً فما أخذه بعد ذلك غلول» رواه أبو داود.

* ولعن رسول الله ﷺ كل من اشترك في الرشوة أو كان طرفاً فيها لأن فيها إبطال الحقوق وأكل أموال الآخرين بغير حق: «لعن الله الراشي والمرتشي والرّائش بينهما - يعني الذي يمشي بينهما: الواسطة».

وقد قيل: إذا دخلت الهدية من الباب خرجت الأمانة من الكوة! وإذا ملك الظالم

المال واستطاع الوصول للحاكم وقدّمه له فإنه يقلب القضية ويصبح الظالم مظلوماً والمظلوم ظالماً! ومن يقوىٰ علىٰ مواجهة خصم عنيد يستميل القلوب كالدراهم؟!

* وكان عمر رضي الله عنه يقول: لا تولوا اليهود ولا النصارىٰ فإنهم يقبلون الرِّشَا، ولا يحل في دين الله الرشا، قال بعضهم وأصحابنا اليوم أقبل للرشا منهم!

* وفي نوابغ الحكم: البراطيل تنصر الأباطيل.

* قال أحدهم:

وكنت إذا خاصمتُ خصْماً كَبْبُتُه   علىٰ الوجه حتىٰ خاصمتني الدّراهم
فلما تنازعنا الحكومة غلبتْ   عليّ وقالت: قمْ فإنّك ظالمُ!

* قال بعضهم: كنت في طريق مكة فإذا أعرابي يختصم إليه الناس فيقضي بينهم بالحق، فلما تفرقوا قلتُ: أخذتَ العلم عن أحد؟ قال: لا. قلت: فما هذا الفهم؟ قال: يوفق الله! قلت: أرأيت لو تحاكم إليك اثنان فأهدىٰ إليك أحدهما أكنت تقضي له؟ فقال: إذاً لا ينزل التوفيق.

* ذُكر أن امرأة من قريش كان بينها وبين رجل خصومة، فأراد أن يخاصمها إلىٰ عمر، فأهدت المرأة إلىٰ عمر فَخِذ جزور ثم خاصمته إليه، فوجه القضاء عليها، فقالت: يا أمير المؤمنين افصل القضاء بيننا كما يُفْصل فخذ الجزور. فقضىٰ عمر عليها وقال: إيّاكم والهدايا!

* وكان الحجاج قد استعمل المغيرة بن عبدالله الثقفي علىٰ الكوفة فكان يقضي بين الناس، فأهدىٰ إليه رجل سراجاً من نحاس أصفر، وبلغ ذلك خصمه، فبعث إليه ببغلة، فلما اجتمعا عند المغيرة جعل يحمل علىٰ صاحب السراج، وجعل صاحب السراج يقول: إنّ أمري أضوأ من السراج، فلما أكثر عليه قال: ويحك إن البغلة رمحت السراج فكسرته!

* كتب أحد الموظفين علىٰ لوحة صغيرة فوق مكتبه: ادفع بالتي هي أحسن!!

الخليفة المعتضد

* كان الخليفة المعتضد شجاعاً فاضلاً من رجالات قريش حزماً وجرأة وإقداماً، مات سنة ٢٨٩هـ ودامت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر.

* قال القاضي ابن سريج إسماعيل بن إسحاق: دخلت يوماً على الخليفة المعتضد فدفع إليّ كتاباً فقرأته، فإذا فيه الرّخص من زَلَلِ العلماء.. قد جمعها له بعض الناس..! فقلت: يا أمير المؤمنين إنما جمع هذا زنديق..! فقال: كيف؟ فقلت: إنّ من أباح المتعة لم يبح الغناء.. ومن أباح الغناء لم يبح إضافته إلىٰ آلات اللهو. ومن جمع زَلَلَ العلماء ثم أخذ بها ذهب دينه..! فأمر بتحريق ذلك الكتاب.

* اجتاز الخليفة المعتضد يوماً في بعض أسفاره بقرية فيها مقثاة، فوقف صاحبها صائحاً مستصرخاً بالخليفة، فاستدعاه وسأله عن أمره، فقال: إن بعض الجيش أخذوا لي شيئاً من القثاء وهم من غلمانك.. فقال: أتعرفهم؟ قال: نعم، فعرضهم عليه فعرف منهم ثلاثة، فأمر الخليفة بتقييدهم وحبسهم.. فلما كان الصباح نظر الناس ثلاثة أنفس مصلوبين على جادة الطريق..! فاستعظم الناس ذلك واستنكروه، وعابوه على الخليفة.. وقالوا: قَتَل ثلاثة بسبب قثاء أخذوه..؟! فأراد الخليفة أن يبين حقيقة الأمر لأمرائه ورجال دولته، فاتفق مع أحد جلسائه أن يُنكر عليه ويتلطف في مخاطبته بحضرة الأمراء، فقام الرجل وقال: يا أمير المؤمنين، إن الناس ينكرون عليك تسرّعك في سفك الدماء..! فقال: والله ما سفكت دماً حراماً منذ وليت الخلافة إلا بحقه..! فقال له: فما بال الثلاثة الذين قتلتهم على القثاء..؟ فقال: والله ما كان هؤلاء الذين أخذوا القثاء.. وإنما كانوا لصوصاً قد قتلوا وأخذوا المال فوجب قتلهم.. فبعثت فجئت بهم من السجن فقتلتهم وأريتُ الناس أنهم الذين أخذوا القثاء! وأردت بذلك أن أُرْهب الجيش لئلا يفسدوا في الأرض ويتعدوا على الناس، ويكفوا عن الأذى..! ثم أمر بإخراج أولئك الذين أخذوا القثاء فأطلقهم بعدما استتابهم وخلع عليهم وردّهم إلىٰ أرزاقهم..!!

* من القصص المؤثرة التي وردت عن المعتضد ما حدّث به بعض التجار قال: كان لي

علىٰ بعض الأمراء مال كثير فماطلني ومنعني حقي، وجعل كلما جئت أطالبه حجبني عنه ويأمر غلمانه يؤذونني، فاشتكيت عليه إلىٰ الوزير فلم يفد ذلك شيئاً، وإلىٰ أولياء الأمر من الدولة فلم يقطعوا منه شيئاً، وما زاده ذلك إلا منعاً وجحوداً، فأيست من المال الذي عليه ودخلني همّ من جهته، فبينما أنا كذلك وأنا حائر إلىٰ من أشتكي، إذ قال لي رجل: ألا تأتي فلاناً الخياط - إمام مسجد هناك - فقلت وما عسىٰ أن يصنع خياط مع هذا الظالم، وأعيان الدولة لم يقطعوا فيه؟ فقال لي: هو أقطع وأخوف عنده من جميع من اشتكيت إليه، فاذهب إليه لعلك أن تجد عنده فرجاً! قال فقصدته غير محتفل في أمره، فذكرت له حاجتي ومالي وما لقيت من هذا الظالم، فقام معي فحين عاينه الأمير قام إليه وأكرمه واحترمه وبادر إلىٰ قضاء حقي الذي عليه فأعطانيه كاملاً من غير أن يكون منه إلىٰ الأمير كبير أمر، غير أنه قال له: ادفع إلىٰ هذا الرجل حقه وإلا أذّنْت! فتغير لون الأمير ودفع إليّ حقي!

قال التاجر: فعجبت من ذلك الخياط مع رثاثة حاله وضعف بنيته كيف انطاع - انصاع واستمع - ذلك الأمير له، ثم إني عرضت عليه شيئاً من المال فلم يقبل مني شيئاً، وقال: لو أردت هذا لكان لي من الأموال ما لا يحصىٰ! فسألته عن خبره وذكرت له تعجبي منه وألححت عليه فقال: إن سبب ذلك أنه كان عندنا في جوارنا أمير تركي من أعالي الدولة، وهو شاب حسن، فمر به ذات يوم امرأة حسناء قد خرجت من الحمام وعليها ثياب مرتفعة ذات قيمة، فقام إليها وهو سكران فتعلق بها يريدها علىٰ نفسها ليدخلها منزله، وهي تأبىٰ عليه وتصيح بأعلىٰ صوتها: يا مسلمين أنا امرأة ذات زوج، وهذا رجل يريدني علىٰ نفسي ويدخلني منزله، وقد حلف زوجي بالطلاق أنْ لا أبيت في غير منزله، ومتىٰ بتّ ها هنا طلقت منه، ولحقني بسبب ذلك عار لا تدحضه الأيام ولا تغسله المدامع! قال الخياط: فقمت إليه فأنكرت عليه وأردت خلاص المرأة من يديه فضربني بدبوس في يده فشج رأسي، وغلب المرأة علىٰ نفسها وأدخلها منزله قهراً، فرجعت أنا فغسلت الدم عني وعصبت رأسي وصليت بالناس العشاء ثم قلت للجماعة: إن هذا قد فعل ما قد علمتم فقوموا معي إليه لننكر عليه ونخلّص المرأة منه، فقام الناس معي فهجمنا علىٰ داره فثار إلينا

في جماعة من غلمانه بأيديهم العصي والدبابيس يضربون الناس، وقصدني هو من بينهم فضربني ضرباً شديداً مبرحاً حتىٰ أدماني، وأُخْرجنا من منزله ونحن في غاية الإهانة، فرجعت إلىٰ منزلي وأنا لا أهتدي إلىٰ الطريق من شدة الوجع وكثرة الدماء، فنمت علىٰ فراشي فلم يأخذني نوم، وتحيرت ماذا أصنع حتىٰ أنقذ المرأة من يده في الليل لترجع فتبيت في منزلها حتىٰ لا يقع علىٰ زوجها الطلاق، فألهمت أن أؤذن الصبح في أثناء الليل لكي يظن أن الصبح قد طلع فيخرجها من منزله فتذهب إلىٰ منزل زوجها! فصعدت المنارة وجعلت أنظر إلىٰ باب داره وأنا أتكلم علىٰ عادتي قبل الأذان هل أرىٰ المرأة قد خرجت، ثم أذنت فلم تخرج، ثم صممت علىٰ أنه إن لم تخرج أقمت الصلاة حتىٰ يتحقق الصباح! فبينما أنا أنظر هل تخرج المرأة أم لا، إذ امتلأت الطريق فرساناً ورجالة، وهم يقولون: أين الذي أذّن هذه الساعة؟ فقلت: ها أنا ذا، وأنا أريد أن يعينوني عليه، فقالوا: انزل، فنزلت فقالوا: أجب أمير المؤمنين، فأخذوني وذهبوا بي لا أملك من نفسي شيئاً، حتىٰ أدخلوني عليه، فلما رأيته جالساً في مقام الخلافة ارتعدت من الخوف وفزعت فزعاً شديداً، فقال: ادن، فدنوت فقال لي: ليسكن روعك وليهدأ قلبك! ومازال يلاطفني حتىٰ اطمأننت وذهب خوفي، فقال: أنت الذي أَذّنت هذه الساعة؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين فقال: ما حملك علىٰ أن أذنت هذه الساعة، وقد بقي من الليل أكثر مما مضىٰ منه؟ فتُغِرّ - توهم - بذلك الصائم والمسافر والمصلي وغيرهم. فقلت: يؤمنني أمير المؤمنين حتىٰ أقص عليه خبري؟ فقال: أنت آمن، فذكرت له القصة. قال: فغضب غضباً شديداً، وأمر بإحضار ذلك الأمير والمرأة من ساعته علىٰ أي حالة كانا، فأُحْضرا سريعاً، فبعث بالمرأة إلىٰ زوجها مع نسوة من جهته ثقات، ومعهن ثقة من جهته أيضاً، وأمره أن يأمر زوجها بالعفو والصفح عنها والإحسان إليها، فإنها مُكرهة ومعذورة، ثم أقبل علىٰ ذلك الشاب الأمير فقال له: كم لك من الرزق؟ وكم عندك من المال؟ وكم عندك من الجوار والزوجات؟ فذكر له شيئاً كثيراً! فقال له: ويحك أما كفاك ما أنعم الله به عليك حتىٰ انتهكت حرمة الله وتعديت حدوده، وتجرأت علىٰ السلطان، وما كفاك ذلك أيضاً حتىٰ عمدت إلىٰ رجل أَمَرَك بالمعروف ونهاك عن المنكر فضربته وأهنته وأدميته؟ فلم يكن له جواب. فأمر به

فجعل في رجله قيداً وفي عنقه غل ثم أمر به فأدخل في جوالق - كيس كبير - ثم أمر به فضرب بالدبابيس ضرباً شديداً حتىٰ خفت وخمد! ثم أمر به فألقي في دجلة فكان ذلك آخر العهد به! ثم أمر بدراً صاحب الشرطة، أن يحتاط علىٰ ما في داره من الحواصل والأموال التي كان يتناولها من بيت المال، ثم قال لذلك الرجل الصالح الخياط: كلما رأيت منكراً صغيراً كان أو كبيراً ولو علىٰ هذا - وأشار إلىٰ صاحب الشرطة - فأعلمني، فإن اتفق اجتماعك بي وإلا فعلىٰ ما بيني وبينك الأذان! فأذّن في أي وقت كان أو في مثل وقتك هذا! قال: فلهذا لا آمر أحداً من هؤلاء الدولة بشيء إلا امتثلوه، ولا أنهاهم عن شيء إلا تركوه خوفاً من المعتضد. وما احتجت أن أؤذن في مثل تلك الساعة إلىٰ الآن. البداية والنهاية لابن كثير: ٦/ ٩٥، ونشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي التنوخي: ١/ ٣١٢.

ولعل هذا هو الأصل في ما درج علىٰ ألسُن الناس «لو أذّنت فلن أعطيك كذا. . .» عندما يريد أحدهم التحدي والإصرار علىٰ التمسك بأمر ما، وعدم إعطائه للآخرين!

ابن الفرات

* استدعىٰ نائبُ مصر يوماً ابن الفرات فقال له: ويحك إن نيتي فيك سيئة، وإني في كل وقت أريد أن أقبض عليك وأصادرك، فأراك في المنام تمنعني برغيف، وقد رأيتك في المنام من ليال، وإني أريد القبض عليك، فجعلت تمتنع عليّ، فأمرت جندي أن يقاتلوك، فجعلوا كلما ضربوك بشيء من سهام وغيرها تتقي الضرب برغيف في يدك، فلا يصل إليك شيء!! فأعلمني ما قصة هذا الرغيف؟ فقال: أيها الوزير إن أمي منذ كنت صغيراً كل ليلة تضع تحت وسادتي رغيفاً، فإذا أصبحت تصدقت به عني، فلم يزل كذلك دأبها حتىٰ ماتت. فلما ماتت فعلت أنا ذلك مع نفسي، فكل ليلة أضع تحت وسادتي رغيفاً ثم أصبح فأتصدق به. فعجب الوزير من ذلك وقال: والله لا ينالك مني بعد اليوم سوء أبداً!

* كان أبو الحسن علي بن الفرات من أجلّ الناس وأعظمهم كرماً وجوداً، وزر للمقتدر أول مرة لما وقعت له الفتنة، وخُلع، وبويع ابن المعتز، ثم استظهر المقتدر

واستقرت الخلافة له، وولي ابن الفرات الوزارة ثلاث دفعات للمقتدر، وكان إذا ولي الوزارة يغلو الشمع والثلج والكاغد، لكثرة استعماله لها، لأنه ما كان يشرب أحد كائناً من كان في داره، في الفصول الثلاثة، إلا الماء المثلوج، وما كان أحد يخرج من عنده بعد المغرب إلا وبين يديه شمعة كبيرة نقية، صغيراً كان أو كبيراً، وكان في داره حجرة معروفة «بحجرة الكاغد» - الورق - كل من دخل واحتاج إلىٰ شيء من الكاغد أخذ حاجته منها. وقد وزر أول مرة، في سنة ٢٩٦هـ، وثاني مرة سنة ٣٠٤هـ، ووزر للمرة الثالثة في سنة ٣١١هـ، فأطلق يد ولده المحسن في الناس، فآذاهم وعذبهم، فتألبوا عليه، وأفسدوا رأي المقتدر، فقبض عليه وعلىٰ ولده في سنة ٣١٢هـ وقتلهما صبراً!

خوارزم شاه

* لمّا انهزم الناس عن الملك خوارزم شاه محمد بن تكش سنة أربع وستمائة، - وهو ملك بلاد ما وراء النهر - بعد حروب طويلة مع كفار الخطا، سقط الملك أسيراً بأيديهم مع جماعة من أصحابه وأعوانه، أسره رجل وهو لا يشعر به ولا يدري أنه الملك. . ! وأسر معه أميراً يقال له: مسعود، فلما وقع ذلك وتراجعت العساكر الإسلامية إلىٰ مقرها فقدوا السلطان فاختبطوا فيما بينهم واختلفوا اختلافاً كثيراً وانزعجت خراسان بكاملها. . ومن الناس من حلف أن السلطان قد قتل. . ! وأمّا ما كان من أمر السلطان وذاك الأمير، فإن الأمير مسعود قال للسلطان: من المصلحة أن تترك اسم الملك عنك في هذه الحالة، وتظهر أنك غلام لي. . ! فقبل منه ما قال وما أشار به، ثم جعل الملك يخدم ذلك الأمير يلبسه ثيابه ويسقيه الماء ويصنع له الطعام ويضعه بين يديه. . ولا يألوا جهداً في خدمته. . ! فقال الذي أسرهما: إني أرىٰ هذا يخدمك فمن أنت؟ فقال: أنا مسعود الأمير. . وهذا غلامي. . ! فقال: والله لو علم الأمراء أني قد أسرت أميراً وأطلقته لأطلقتك، فقال له: إنما أخشىٰ علىٰ أهلي. . فإنهم يظنون أني قد قُتلت ويقيمون المأتم، فإن رأيت أن تفاديني علىٰ مال وترسل من يقبضه منهم فعلت خيراً. . ؟ فقال: نعم، فعيّن رجلاً من أصحابه، فقال له الأمير مسعود: إن أهلي لا يعرفون هذا ولكن إنْ رأيت أن أرسل معه غلامي هذا

فعلت ليبشرهم بحياتي فإنهم يعرفونه، ثم يسعىٰ في تحصيل المال. .؟ فقال: نعم، فجهّز معهما من يحفظهما إلىٰ مدينة خوارزم شاه، فلما دنوا من مدينة خوارزم، سبق الملك إليهما. . فلما رآه الناس فرحوا به فرحاً شديداً، ودقت البشائر في سائر بلاده وعاد الملك إلىٰ قوته. . وأما الذي كان قد أسره فإنه قال يوماً للأمير مسعود: الذي يتوجه لي أن خوارزم شاه قد قتل. .! فقال: لا، هو الذي كان في أَسْرك. .! فقال له: فهلاّ أعلمتني به حتىٰ كنت أرده موقراً معظما. .؟ فقال: خفتك عليه. .! فقال: سِر بنا إليه. . فسارا إليه فأكرمهما إكراماً زائداً وأحسن إليهما. .!!

بديع الزمان

هو الشيخْ سعيد النُّوْرْسِي، ويلقب ببديع الزمان، واسمه سعيد بن ميرزا النُّورسي، كُرديٌّ الأصل تركيٌّ المولد والوفاة. ولد في عام ١٢٩٣ من الهجرة، في قرية من قرىٰ خيزَان التابعة لمحافظة بتليس، تسمىٰ نُورس، من بلاد شرق الأناضول في تركيا، وتوفي في مدينة أُورْفَة في ليلة الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٣٧٩هـ عن ٨٦ سنة رحمه الله ولُقِّب ببديع الزمان تشبيهاً ببديع الزمان الهَمَذاني أحمد بن الحسين المولود سنة ٣٥٨، والمتوفىٰ ٣٩٨هـ عن أربعين سنة رحمه الله تعالىٰ، وكان آية من آيات الله في قوة الذكاء، وسرعة الحفظ، وصفاء الذهن، وقوة النَّفس، صاحبَ عجائب وبدائع، منها أنه كان يُنشَدُ الشعرَ، لم يَسمعه قط، وهو أكثر من خمسين بيتاً فيحفظ القصيدة كلَّها، ويؤديها من أولها إلىٰ آخرها لا يَخرمُ حرفاً، وينظُرُ في الأربعة والخمسة الأوراق، في كتاب لم يَعرفه ولم يَره، نظرةً واحدةً خفيفة، ثم يَهزُّها عن ظهر قلبٍ هزّاً، وهذا حاله في الكتب الواردة وغيرها. وكان يُقترَحُ عليه عملُ قصيدة وإنشاءُ رسالة، في معنىٰ بديع وباب غريب، فيَفرُغُ منها في الوقت والساعة، وكان ربما كَتَب الكتاب المقترَحَ عليه، فيبتدئُ بآخره ثم هلُمَّ جراً إلىٰ أوله، ويُخرجه كأحسن شيء وأملحه! وكان سعيد النورسي يُشبهه في جملة من هذه الصفات.

الخطبة الشامية

* في عام ١٣٢٧هـ غادر النورسي تركيا إلىٰ دمشق، وخطب في الجامع الأموي خطبته المعروفة بالخطبة الشامية، ومما قاله فيها: إن أمريكا وأوروبا حاملتان بالإسلام، فكما أن الامبراطورية العثمانية كانت حاملة بأوروبا فَوَلّدت! فلابد أن يولد من أوروبا دولة للإسلام.

* وقع الشيخ النورسي مع مجموعة من طلابه في الأسر، في حربهم مع الروس فنقلوا مع من نُقل إلىٰ مجاهل سيبيريا، وبقي في معسكر الأسرىٰ في منطقة (كوسترما) سنتين، كان يقوم خلالها بإرشاد من هناك من الأسرىٰ من ضباط وجنود، ويعرفهم بالإسلام، ويعلمهم العزة والحمية الإسلامية، ويُثبِّتها عملياً. وذات يوم زار معسكر الأسرىٰ أحد ضباط جيش روسيا البارزين، كان الأسرىٰ يرتعدون خوفاً من هذا الضابط الشرس، وهذا ما كان يُرضي ذلك القائد، إلا أن شيئاً واحداً استرعىٰ انتباهه، حيث إنَّ واحداً من بين جميع الأسرىٰ لم يأبه لمقدم هذا الضابط ولم يقم له، وتكرر الحادث ثلاث مرات، حتىٰ اشتد غيظُه، فجاء إليه وقال: لعلك لم تعرفني؟ أجاب: لقد عرفتك! فيكولو نيكولوفيتش، ضابط في الجيش الروسي! فدُهش القائد وقال: فلم لم تقم لي إذن؟ قال: إني أعتز بديني، وتلك العزة تمنعني من أن أقوم احتراماً لأحد! وبذلك كان حبل المشنقة قاب قوسين أو أدنىٰ من رقبة بديع الزمان، الذي فضَّل الموت بعزٍّ علىٰ الحياة بُذلّ، إلاَّ أنَّه بهذا الموقف كبُرَ في قلب القائد، فعفا عنه بعد ما حكم عليه بالإعدام!

* وفي أحد الأيام اجتمع مصطفىٰ كمال ببديع الزمان في ديوان الرئاسة، بحضور عدد كبير من النواب، فقال كمال: إننا بحاجة إلىٰ شيخ بطل أمثالك، طلبنا مقابلتكم لكي نستفيد من أفكاركم النيرة، فكان أول ما طلبتموه منا، إقامةُ الصلاة، فأوقعتم الخلاف بيننا! فقام بديعُ الزمان بتلاوة الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، التي تبين مقام الصلاة ومكانتها، ثم أشار محتداً إلىٰ عين رئيس الدولة وقال: باشا باشا إن أعظم الحقائق التي تلي الإيمان هي الصلاة، إن تارك الصلاة خائن، وحُكمُ الخائن مردود!

* قال الشاعر التركي محمد عاكف :

تـأمَّلْ سُـهُـولَ الـبيـدِ أو قِـمَـمَ الـصَّخْـرِ دَمُ الـشـهـداءِ الخـالـديـن بـهـا يَـجـري

هُـمُ رَكَـعُـوا صَـرْعَىٰ ولـولا ركـوعُـهـمْ لمـا سَـجَـد الـعُـبَّـادُ لـلَّـهِ فـي الـدهـرِ

من عجائب الحكام والولاة

* يروىٰ أن أول من اتخذ بيتاً يطرح الناس فيه القصص - قصاصات الأوراق التي تكتب عليها المظالم والشكاوىٰ - هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه. قال محمد بن سيرين : اتخذ علي رضي الله عنه بيتاً يُلقي الناس فيه القصص ، حتىٰ كتبوا شتْمَه فألقوه فيه فتركه ، ثم اتخذه المهتدي أيام خلافته . قال محمد بن اسحاق : كان المهتدي يجلس للمظالم ويُدخل القصص إليه ، فارتشىٰ أصحابه علىٰ تقدم بعضها علىٰ بعض ، فاتخذ بيتاً له شباك حديد علىٰ الطريق ، وأمر فنودي بطرح القصص فيه ، فكان يدخله وحده فيأخذ ما يقع بيده أولاً فينظر فيه ، لا يُقدّم بعضها علىٰ بعض ، وكان المهتدي في بني العباس نظير عمر بن عبدالعزيز في بني أمية ، وكان حميد السيرة ، فيه شجاعه وصلاح ، وكانت مدة خلافته أحد عشر شهراً وعدة أيام ، بويع بالخلافة بعد خلع المعتز سنة ٢٥٥هـ ولم يلبث أن انتفض عليه الترك فقتلوه .

* قال أحمد بن سعيد الدمشقي : قدم رجل من الرّملة بفلسطين يتظلم إلىٰ المهتدي فأنصفه ، فاستخفّه الفرح حتىٰ غُشي عليه ، فعاناه المهتدي وداراه بنفسه ، فلما أفاق قال : ما حسبت أني أعيش حتىٰ أرىٰ هذا العدل ، فلما رأيته داخلني من السرور مازال معه عقلي! فقال : كان الواجب أن نُنصفك في بلدك ، فإذا لم نُطق ذلك فنعطيك ما أنفقت في طريقك ، وكان أنفق عشرين ديناراً ، فأمر له بخمسين ديناراً ، واستحلّه من تأخّر حقه . فما سمع بهذا منه أحد إلا خَشَعَ قلبه!

* ويروىٰ أن «أنوشروان» قال : خِفْت أن يُحجب عني المظلوم فعلّق علىٰ أقرب الأستار إليه أجراساً ووصلها بسلسلة ونادىٰ مناديه : مَنْ ظُلم فليُحركّ السلسلة . وهذا هو الأصل في قول الناس : حرَّك فلان السلسلة علىٰ فلان ، إذا وشىٰ به! - الأوائل للعسكري .

* وزياد ابن أبيه أول من شدّد أمر السلطان، ووكّد أمْرَ المُلك، وأخذ بالظِّنة، وعاقب على الشبهة، وخاف الناس من سلطانه، حتى أَمِن بعضهم بعضاً، وكان الشيء يسقط من الرجل والمرأة، فلا يعرض له أحد، حتى يأتي صاحبه فيأخذه، وتبيت المرأة لا تغلق بابها عليها! ومما ورد من قسوة زياد أنه كان يؤخر العشاء الآخرة حتى يصليها آخر من يصلي، ثم يأمر رجلاً فيقرأ سورة البقرة أو مثلها يرتل ترتيلاً ثم يمهل قدْر ما يرى أن إنساناً يبلغ الخُريبة - موضع بالبصرة - ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج، فلا يرى إنساناً إلا قتله، فأخذ ذات ليلة أعرابياً فأتى به زياداً فقال له: هل سمعت النداء؟ قال: لا والله، قدْمتُ بحلوبة لي وغشيني الليل، فاضطررتها إلى موضع وأقمت لأصبح، ولا علم لي بما كان من الأمير، قال: أظنك صادقاً ولكن في قتلك صلاح الأمة، فأمَر به فضُربت عنقه!

* قيل لمعاوية: أنت أدهى الناس أم زياد؟ فقال: إنه لا يدع الأمر يتفرق عليه، وإنه يتفرق عليّ ثم أجمعه. وقال له معاوية: أنا أَسْوس منك، ضبطت سلطانك بالشدة، وأنا ضبطتُ سلطاني باللين. وكان زياد يرقع ثيابه لئلا يستحي غيره من ترقيع ثوبه، ولا يحمل على نفسه في استشرائه واستجادته، وكان يعطي الكثير، وربما أعطى القليل، لئلا يأنف المسؤول عن تقليل العطية عند تعذّر الإمكان، ولئلا تقطع حجة السائل عن المسؤول إذا أعطاه قليلاً، وكان يقول: ما بال الرجل يأخذ عطاءه ألفين فلا يبلغ الحوْل حتى يدان أكثر من ذلك؟ فقيل له: تذهب أموال الناس في الكسوة، فصدّر قميصه - شق صدر قميصه فجعل له صدراً جديداً - وجلس فيه فصدّر الناس ثيابهم، وكان الرجل حين ينشق ثوبه يلقيه، فاتخذ الزيادية - نوع من الثياب - ولبسها فلبسها الناس معه، وكان الناس يتكلفون للعيد مراكب يركبونها، فمشى إلى العيد ومشى الناس معه، والناس يقتدون برؤسائهم في أكثر أمورهم حتى يسمون بأسمائهم، ويكنون بكناهم، ويفعلون ما يقدرون عليه من أفعالهم - كتاب الأوائل لأبي هلال العسكري -.

* وكان معاوية قائداً عظيماً وهو أحد الدهاة المشهورين، وكان حاضر الجواب سريع البديهة، قوي الحجة، ورد عن المِسْوَر بن مَخْرَمة أنه خلا بمعاوية، فطلب منه معاوية أن

يخبره بما ينقمه عليه، فذكر المسور أموراً، فقال معاوية: يا مسور ألك سيآت؟ قال: نعم، قال: أترجو أن يغفرها الله؟ قال: نعم، قال: فما جعلك أرجىٰ لرحمة الله مني؟ وإني مع ذلك، والله، ما خُيِّرت بين الله وبين سواه، إلا اخترت الله علىٰ ما سواه، والله لَمَا آليه من الجهاد وإقامة الحدود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أفضل من عملك، وأنا علىٰ دين يقبل الله من أهله الحسنات، ويتجاوز لهم عن السيآت! ـ المنتقىٰ من منهاج الاعتدال للذهبي ـ تحقيق محب الدين الخطيب ص٢٦٢.

* أتي المهدي بن المنصور، برجل قد رمي بالزندقة، فسأله عن ذلك، فقال الرجل: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً صلىٰ الله عليه وسلم، رسوله، وأنّ الإسلام ديني، عليه أحيا، وعليه أموت، وعليه أبعث! فقال له المهدي: يا عدوّ الله، إنّما تقول هذا مدافعة عن نفسك، هاتم السياطِ، فأحضرت، وأمر بضربه، فضرب، وهو يقرّره! فلما أوجعه الضرب، قال له: يا أمير المؤمنين، اتق الله، فقد حكمت عليّ، بخلاف حكم الله تعالىٰ، وخلاف حكم رسوله ﷺ، فإنّ الله بعث محمداً ﷺ، يقاتل الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلا اله، فإذا قالوها، عصموا دماءهم، وأموالهم، إلاّ بحقهما، وحسابهم علىٰ الله، وأنت قد جلست تطالبني، وتضربني، حتىٰ أكفر، فتقتلني. قال: فخجل المهدي، وعلم أنّه قد أخطأ. فأمر بإطلاقه!

* ويظهر أن المهدي اتخذ من الاتهام بالزندقة، حجة للتخلص من خصومه السياسيين. والزندقة: تهمة غير واضحة المعالم، اتخذت في أيام العباسيين سبباً لقتل أو تشريد من يراد قتله أو تشريده، لسبب من أسباب السياسة! فقد اتهم بالزندقة كل من أوّل نصاً من نصوص القرآن أو الحديث، تأويلاً منافياً للأصول الاعتقادية، كما اعتبر زنديقاً، كل من اتهم بأنه من أتباع ماني، أو من أصحاب مزدك، أو من اتهم بالثنوية، أو بأنه يقول بقدم العالم، أو بإنكار وجود الله، أو إنكار الحكمة الإلهية، أو اتهم بعدم التدين بدين، أو أنكر الحياة الآخرة، أو اتهم بالقول بالدهر، أو بإنكار النبوات، والكتب المنزلة.

* يذكر ابن الأثير في الكامل وابن كثير في البداية والنهاية أن جيوش بني العباس لما

دخلوا الشام أعملوا في أهلها السيف، فقُتل في دمشق خمسون ألفا، وبقي جامع بني أمية اصطبلاً لخيولهم سبعين يوماً، ونبشوا قبور خلفاء بني أمية. . ولما وجدوا جثة هشام بن عبدالملك لا تزال سليمة جلدوها بالسياط وعلقوها أمام أعين الناس عدة أيام ثم أحرقوها وذرّوا رمادها!! وقتلوا كل طفل من بني أمية ثم بسطوا فراشهم على جثثهم التي كانت لا تزال تتلوى وتنتفض وقعدوا يأكلون!! وعلقوا أناساً من ألسنتهم ثم رموهم في الشوارع طعمة للكلاب!

* يتحدث علي بن الحسين رضي الله عنه، عن موقف تعرض له عقب مأساة كربلاء التي راح ضحيتها ثلة من خيرة آل بيت النبوة فيقول: غيّبني رجل منهم، وأكرم نُزلي واختصني وجعل يبكي كلما خرج ودخل! حتى كنت أقول: إن يكن عند أحد من الناس خير ووفاء، فعند هذا، إلى أن نادى منادي ابن زياد: ألا من وجد عليّ بن الحسين فليأت به فقد جعلنا فيه ثلاثمائة درهم. . فدخل والله عليّ وهو يبكي وجعل يربط يديّ إلى عنقي وهو يقول: أخاف. . فأخرجني والله إليهم مربوطاً حتى دفعني إليهم وأخذ ثلاثمائة درهم!!

* كان تيمورلنك أعرج. ولما انتصر على بايزيد الأعور، سلطان الأتراك، وأَسَرَه، أحضره بين يديه، فلما رآه تيمورلنك، استولت عليه نوبة ضحك شديدة! فوبّخه السلطان على إهانته، واستخفافه فأجابه: إني لا أهزأ بشقائك! ولكنني لم أتمالك نفسي من الضحك، عندما فكّرت، كيف يتصرف الله بأقدار البشر، فيسلّم زمام الممالك إلى أعرج مثلي، وأعور مثلك!

* يذكر ابن خلدون وابن الأثير أن ثورة قامت في الموصل ضد السفاح فبعث أخاه يحيى لقمعها وإخمادها فأعلن يحيى في الناس: مَنْ دخل المسجد الجامع فهو آمن. . فهرع إليه آلاف من الناس، فجعل حرسه على أبواب المسجد فأبادوا هؤلاء اللاجئين المستأمنين! فمات في ذلك أحد عشر ألفا!! وحين سمع يحيى في الليل بكاء ونحيب من قتل رجالهن في ذلك اليوم، أمر بقتل النساء والأطفال!! وظلت البلدة تسبح في الدماء

ثلاثة أيام. . وكان في جيش يحيىٰ أربعة آلاف زنجي هتكوا أعراض نسوة الموصل واغتصبوهن، فأمسكت امرأة بلجام فرس يحيىٰ وعيّرته قائلة: ألست من بني هاشم؟ ألست ابن عم رسول الله ﷺ؟ أما تأنف للعربيات المسلمات أن ينكحهن الزنج؟! فتملكته الغيرة. . فأغرىٰ الزنج من عسكره بأخذ الرواتب والإنعامات فاجتمعوا لذلك فأبادهم عن آخرهم!!

يوسف بن عمر.. والٍ أحمق

* كان يوسف بن عمر الثقفي من أعظم الناس لحية، وأصغرهم قامة، كانت لحيته تجوز سرته! وقد ولي العراق واليمن أيام هشام بن عبدالملك، وهو ابن ابن عم الحجاج.

وكان يُضرب به المثل في التّيه والحمق، فيقال: أتيه من أحمق ثقيف! وهو يوسف بن عمر! قيل: كان أَتْيهَ وأَحْمقَ عربي أَمَرَ ونهىٰ في دولة الإسلام، فمن حمقه أن حجاماً أراد أن يحجمه فارتعدت يده، فقال لحاجبه: قل لهذا البائس، لا تخف، وما رضي أن يقول له بنفسه!

* وكان الخياط إذا أراد أن يفصل ثيابه، فإن قال: يحتاج إلىٰ زيادة ثوب آخر، أكرمه وحَبَاهُ، وإن فضل شيء أهانه وأقصاه، لأنه يكون قد نبه علىٰ قصره ودمامته!

* قُتل يوسف بن عمر بدمشق سنة ست وعشرين ومائة وهو ابن نيف وستين سنة. ولما قتل أخذوا رأسه عن جسده وشدوا في رجليه حبلاً، فجعل الصبيان يجرونه في شوارع دمشق، فتمر المرأة به فترىٰ جسداً صغيراً فتقول: في أي شيء قتل هذا الصبي المسكين؟ لِماَ ترىٰ من صغر جثته!

قال بعضهم: رأيت يوسف بن عمر وفي مذاكيره حبل وهو يجر بدمشق، ثم رأيت بعد ذلك يزيد بن خالد القسري قاتله وفي مذاكيره حبل وهو يجر في ذلك الموضع! فسبحان القادر علىٰ كل شيء. . وكما تدين تدان.

* ولّىٰ يوسف بن عمر أعرابياً علىٰ عمل له، فأصاب عليه خيانة فعزله فلما قدم عليه

قال له: يا عدو الله؛ أكلت مال الله؟ قال الأعرابي: فمالُ مَنْ آكل إذا لم آكل مال الله؟! لقد راودت إبليس أن يعطيني فلساً واحداً فما فعل. فضحك منه وخلى سبيله.

* خطب أحد الأعراب في عمل وَلِيَهُ فقال في خطبته: إن الله خلق السموات والأرض في ستة أشهر! فقيل له: في ستة أيام. فقال: والله أردت أن أقولها ولكن استقللتها!

* قال يوسف بن عمر لكاتبه وقد احتبس عن ديوانه يوماً: ما حبسك؟ قال: اشتكيت ضرسي.. قال: تشتكي ضرسك وتقعد عن الديوان؟!! ثم دعا الحجام وأمره أن يقلع ضرسين من أضراسه!!

عجائب.. في السباق.. والمصارعة.. والسباحة!!

* من أعجب الأشياء المتولّدة في زمن معزّ الدولة، السّعْي والصراع[١]، وذلك إنّ معزّ الدولة، احتاج إلى السعاة، ليجعلهم فيوجاً[٢] بينه وبين أخيه ركن الدولة، إلى الري، فيقطعون تلك المسافة البعيدة، في المدة القريبة، وأعطى على جودة السعي الرغائب - العطايا الجزيلة التي يرغب فيها الناس - فحرص أحداث بغداد وضعفاؤهم على ذلك، حتى انهمكوا فيه، وأسلموا أولادهم إليه. فنشأ ركابيّان لمعز الدولة، يعرف أحدهما بمرعوش، والآخر بفضل، يسعى كل واحد منهما، نيفاً وثلاثين فرسخاً في يوم[٣]، من طلوع الشمس إلى غروبها، يترددون ما بين عكبرا وبغداد - عكبرا: قرية تبعد عن بغداد عشرة فراسخ -. وقد رتب على كل فرسخ من الطريق، قوماً يحضّون عليهم، فصاروا أئمة السعة ببغداد، وانتسب السعادة إليهم، وتعصّب الناس لهم!

* واشتهى معزّ الدولة الصراع، فكان يعمل بحضرته حلقة في ميدانه، ويقيم شجرة

(١) الصراع: صرع الإنسان خصمه، طرحه على الأرض، والصراع فن من الفنون الرياضية، له أصول وأحكام، ومعاهد يدرس فيها، وله هواة ومحترفون.
(٢) الفيج: الرسول الذي يسعى على قدميه.
(٣) الفرسخ: ما يقرب من ثمانية كيلو مترات.

يابسة تنصب في الحال، ويجعل عليها الثياب الديباج، والعتّابي، والمروزي[1]، وتحتها أكياس فيها دراهم، ويجمع على سور الميدان المخانيث بالطبول والزمور، وعلى باب الميدان الدبادب[2]، ويُؤْذن للعامة في دخول الميدان، فمن غلب، أخذ الثياب والشجرة والدراهم!

ثم دخل في ذلك أحداث بغداد، فصار في كلّ موضع صراع، فإذا برع أحدهم، صارع بحضرة معزّ الدولة، فإن غلب، أجريت عليه الجرايات ـ الجراية: الرزق اليومي الذي يخصص لشخص كالراتب ـ فكم من عين ذهبت بلطمة، وكم من رجل اندقّت! وشغف بعض أصحاب معز الدولة بالسباحة، فتعاطاها أهل بغداد، حتى أحدثوا فيها الطرائف. فكان الشاب يسبح قائماً، وعلى يده كانون ـ الكانون: الموقد ـ فوقه حطب يشتعل تحت قدر، إلى أن تنضج، ثم يأكل منها، إلى أن يصل إلى دار السلطان!!

الأرزاق مقسومة

* قال أبو بكر يعقوب بن شيبة: لمّا ولدت، دخل أبي على أمّي، فقال لها: إنّ المنجّمين قد أخذوا مولد هذا الصبي، وحسبوه، فإذا هو يعيش كذا وكذا، وقد حسبتها أيّاماً، وقد عزمت على أن أُعدّ له لكلّ يوم ديناراً، مدّة عمره، فإن ذلك يكفي الرجل المتوسّط، له ولعياله، فأعدّي له حبّاً ـ وعاء كبير ـ فارغاً، فأعدّته، وتركته في الأرض، وملأه بالدنانير. ثم قال: أعدّي حبّاً آخر، أجعل فيه مثل هذا استظهاراً، ففعلت، وملأه. ثم استدعى حبّاً آخر، وملأه بمثل ما ملأ به كلّ واحد من الحبّين، ودفن الجميع، فما نفعني ذلك، مع حوادث الزمان، فقد احتجت إلى ما ترون! قال أبو بكر السقطي: ورأيناه فقيراً يجيئنا بلا إزار، ونقرأ عليه الحديث، ونبرّه بالشيء بعد الشيء!! فسبحان مقسم الأرزاق.. ومقدر الآجال.

---

(١) الديباج: ضرب من الثياب الفاخرة الملونة، والعتابي: الثوب المعلم بخطوط بيضاء وسوداء متوازية، والمروزي: نسبة إلى مرو.

(٢) الدبادب: طبول صغار.

وسائل التبريد

* كانت ثياب الخَيْش وسيلة من وسائل التبريد للنوم منذ عهد الخليفة المنصور، يتخذها الميسورون لدفع الحر عنهم إذا ناموا، وقد كان قبل ذاك وسائل أخرى يتبردون بها. ذَكَر الطبري عن عليٍّ بنُ محمد بن سليمان الهاشمي، أن أباه محمداً حدَّثه أن الأكاسرة كان يُطيَّنُ لها في الصيف سَقفُ بيت في كل يوم، فتكون قائلة الملك فيه، وكان يؤتى بأطنان القصب والخِلاَف طُوالاً غلاظاً، فترُصف حول البيت، ويؤتى بقطع الثلج العظام، فتجعل ما بين أضعافها، وكانت بنو أمية تفعلُ ذلك، وكان أوَّل من اتخذ الخَيْشَ المنصور. وذكَرَ بعضُهم أن المنصور كان يُطيَّنُ له في أول خلافته بيتٌ في الصيف يَقيلُ فيه، فاتخذ له أبو أيوب الخُوزِي ثياباً كثيفة، تُبلُّ وتوضَعُ على سبائك - أي قِطَعٌ مَعْدِنية مستطيلة يكونُ بينها فراغات يَمرُّ الهواءُ النديُّ منها - فيجدُ بَرْدَها، فاستظرفها وقال: ما أحسَبُ هذه الثياب إن اتُّخِذَتْ أكثف من هذه إلاَّ حَمَلَتْ من الماء أكثر مما تحمل، وكانت أبرَدَ، فاتُّخِذَ له الخَيْشُ، فكان ينصبُ على قُبَّة، ثم اتخذ الخلفاءُ بعده الشَّرائج، واتخذها الناس!

* كان الماء الذي يشربه الخليفة الناصر لدين الله ابن المستضيء بأمر الله تأتي به الدَّوَاب من فوق بغداد بسبعة فراسخ ويُغلى سبع غلوات كل يوم غلوة، ثم يحبس في الأوعية سبعة أيام، ثم يُشرب منه! ومع هذا ما مات حتَّى سُقي المُرقِدَ مرات، وشُقّ ذَكَره، وأخرج منه الحصى ثم مات منه!.

مهارات

* قال الإمام القرافي صاحب كاتب الفروق: بَلَغني أن الملِكَ الكامل، صُنِعَ له شمعدان - هو عَمودٌ طويلٌ من نُحاس، له مراكزُ يُوضَعُ عليها الشَّمْعُ للإنارة - كلَّما مَضَى من الليل ساعةٌ انفتَحَ بابٌ منه، وخَرَج منه شخصٌ يقفُ في خدمة الملك، فإذا انقضت عشرُ ساعات، طلع الشخصُ على أعلى الشَّمعَدَانِ وقال: صبَّح الله السلطان بالخير والسعادة، فيعلمُ أنَّ الفجر قد طَلَع! وقد عَمِلتُ أنا - المتكلِّمُ القرافي - هذا الشمعدان،

وزدتُ فيه أنَّ الشمعة يتغيَّرُ لونها في كل ساعة، وفيه أسدٌ تتغيرُ عيناه من السَّواد الشديد، إلىٰ البياض الشديد، إلىٰ الحُمرة الشديدة، في كل ساعة لها لونٌ، وتسقُطُ حصاتان من طائرين، ويدخُلُ شخصٌ ويخرج شخص غيره، ويُغلق بابٌ ويفتحُ باب، فإذا طلع الفجر، طلع الشخص علىٰ أعلىٰ الشمعدان، وإصبعه علىٰ أذنه يشير إلىٰ الأذان، ولكني عَجَزتُ عن صنعة الكلام، ثم صنعتُ صُورة حيوان يمشي ويلتفت يميناً ويساراً، ويُصفِّرُ ولا يتكلَّمُ!

* حدث في سنة ٦٣٧هـ أنه صلب إنسان أعجمي خياط، كان في خدمة الأمير جمال الدين قَشْتَمر كان قد جرح جاراً له بمقص فمات. وكان هذا الخياط قد برع في صناعة الخياطة، وعمل أشياء عجيبة، منها: أنه حبس نفسه في صندوق، ومعه ثوب غير مُفصّل، وعلق الصندوق مقابل باب جمال الدين قشتمر، من أول الليل، ثم حُطَّ الصندوق وقت الصبح، وفتحوه فوجدوه قد فصّل الثوب، وخيّطه، وطواه، ورام جماعة بعده أن يفعلوا كذلك فعجزوا عنه! وكان هذا الرجل الخياط شيخاً قصيراً جداً أعرج أحدب، أوحد عصره في الخياطة، غير محمود الطريقة!

* وفي يوم الأحد ثاني شهر شوال من سنة ٦٤١هـ لعب إنسان من أجناد زعيم الّلحْف ـ ناحية من نواحي بغداد ـ علىٰ حبلين، نصبهما عن الأرض نحو أربعين ذراعاً، فكان يمشي عليهما مشياً سريعاً، ماضياً وراجعاً إلىٰ وراء، وفي رجليه قباقب، وعلىٰ رأسه طفل صغير، قيل: إنه ولده! ثم أخذ سيفاً مشهوراً، وتركه معرضاً علىٰ الحبل، وقام علىٰ أمّ رأسه، ورفع رجليه، وجعل يَلْبس سراويله ويخلعُه مقلوباً، ثم أخذ جرَّة مملوءةً ماءً، وجعلها علىٰ رأسه، ومشىٰ بها مهرولاً، من أول الحبل إلىٰ آخره، وفي رجليه القباقب، وعلىٰ رأسه الجرَّة، ثم رماها وتعلَّق بالحبلين بإبهام رجليه، ولعب لعباً يُذهل العقول! فلما فرغ من لعبه ونزل إلىٰ البدرية ـ أحد أبواب دار الخلافة منسوب إلىٰ بدر مملوك المعتضد ـ خُلع عليه، وأعطي فرساً ومائتي دينار، ثم مضىٰ إلىٰ بيوت الأمراء، فحصل ما يزيد علىٰ ثلاثة آلاف دينار!

* يروىٰ عن الشيخ أحمد الزرقا رحمه الله أنه كان يقول: شاهدت في مدينة حلب رجلاً يمشي في الأسواق، وينادي بصوته أنه يستطيع أن يمسك البرغوث ـ الحيوان الصغير القارص، الذي هو بحجم السمسمة ـ بإصبعيْ يد، والشعرة بإصبعيْ يد، ويقلب يديه إلىٰ خلفه وراء ظهره، ويعقد الشعرة علىٰ البرغوث، ثم يعيد يديه إلىٰ الأمام، وفي إحداهما بين إصبعيه رأس الشعرة، وفي أسفل الشعرة البرغوث مقيداً ينُطُّ، وكذلك يمكن أن يفكه هكذا. قال: فأخرج الرجل من قَنّينة معه برغوثاً، وأمسكه بإصبعيْ يده: السبابة والإبهام، ثم جاء بشعرة طويلة وأمسكها بإصبعي يده الأخرىٰ، ولوىٰ يديه خلف ظهره فترة ما، وعقد الشعرة علىٰ البرغوث، ثم أعاد يديه إلىٰ الأمام، ورأس الشعرة بين إصبعيه وهي مدلاة، والبرغوث معلق فيها مربوطاً ينط، وجعل الرجل يلعب به والناس يشهدونه مجتمعين عليه، ويعجبون من مهارته وحذاقته الخارقة!

تأملات

* قال سعيد بن سليمان: كنت بمكة وإلىٰ جانبي عبدالله بن عبدالعزيز العُمري ـ من أحفاد وذرية عمر بن الخطاب ـ وقد حج هارون الرشيد، فقال له إنسان: يا عبدالله، هو ذا أمير المؤمنين يسعىٰ، وقد أُخلي له المسعىٰ، قال العمري للرجل: لا جزاك الله عني خيراً، كلفتني أمراً كنت عنه غنياً، ثم قام فتبعه، فأقبل هارون الرشيد من المروة يريد الصفا، فصاح به: يا هارون! فلما نظر إليه قال: لبيك يا عمري! قال: ارق الصفا، فلما رقاها قال: ارم بطَرْفك إلىٰ البيت، قال هارون: قد فعلت، قال: كم هم؟ قال: ومن يحصيهم؟ قال: فكم في الناس مثلهم؟ قال: خلق لا يحصيهم إلا الله، قال: اعلم أيها الرجل أن كل واحد منهم يُسأل عن خاصة نفسه، وأنت وحدك تُسأل عنهم كلهم، فانظر كيف تكون! فبكىٰ هارون، فقال العمري: وأخرىٰ أقولها لك، قال: قل يا عم، قال: والله إن الرجل ليسرف في ماله فيستحق الحجر عليه، فكيف بمن أسرف في مال المسلمين؟! قال البغوي: فبلغني أن هارون الرشيد كان يقول: إني لأحب أن أحج كل سنة، ما يمنعني إلا رجل من ولد عمر، يُسمعني ما أكره!

الشعر... والشعراء

* الشعر مَعْدِنُ عِلْم العرب، وسِفْرُ حِكْمتها وديوان أخبارها، ومُسْتَوْدَعُ أيّامها والسّورُ المضروب على مآثرها، والشاهد على أحكامها، حتى لقد بلغ من كَلَفِ العرب به وتفضيلها له، أن عمدت إلى سبع قصائد تخيّرتها من الشعر القديم، فكتبتها بماء الذهب، وعلّقتها بين أستار الكعبة، ومن هنا يقال مُذهّبة امرئ القيس ومُذّهبة زهير، وتسمى المُعلّقات. - وبعض الدراسات الحديثة ترى بطلان الرأي القائل بأن اسم المعلقة جاء من تعليقها على أستار الكعبة، وإنما سميت بذلك لأنها علقت بالأذهان لنفاستها! -

* وخير الشعر ما معناه إلى قلبك أسرع من لفظه إلى سمعك، سمع أعرابيٌ رجلاً يُنْشد شعراً لنفسه فقال: كيف ترى؟ قال: سُكّر لا حلاوة له! وقيل للأصمعي: أي بيت تقوله العرب أشعر؟ قال: الذي يُسابق لفظه معناه. وقيل لأبي عمرو بن العلاء: أي بيت تقوله العرب أشعر؟ قال: البيت الذي إذا سمعه سامعُه سوّلت له نفسُه أن يقول مثله، ولأن يُخدش أنفُه بظُفر كلب أهونُ عليه من أن يقول مثله!

* وقيل في جواب ذلك أيضاً: البيت الذي لا يحجبه عن القلب شيء.

قال زهير:

وإنّ أشعر بيت أنت قائلُه ... بيتٌ يُقال إذا أنْشَدْتَه صَدقَا

* وقد ذُمّ الشعر المتكلف والسطحي ورديء النّسْج، وكانوا يقولون عن الشعر الذي تَمجُّه الأسماع: أمْلس المتون قليل العيون، وما كان مثله من الشعر يسمى مغسولاً!

* أنشد رجل أعرابياً شعراً وقال: هل تراني مطبوعاً؟ فقال: نعم، على قلبك!

* وأنشد رجل الفرزدق شعراً وقال: كيف تراه؟ فقال: لقد طاف إبليس بهذا الشعر في الناس فلم يجد أحمق يقبله سواك!

* وأنشد رجل يزعم أنه من أهل البيت شاعراً أبياتاً ثم قال له: ما تقول في شعري؟ فقال: صدق الله العظيم ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ (يس: ٦٩).

* ويروى أن سيف الدولة بن حمدان انصرف من حرب وقد نُصر على عدوه فدخل عليه الشعراء، فأنشدوه، فدخل معهم رجل شامي فأنشده:

وكانوا كفأر وسوسوا تحت حائط — وكنت كسنور عليهم تسلقا

فأمر بإخراجه، فقام على الباب يبكي، فأخبر سيف الدولة ببكائه فرقّ له وأمر بردّه، وقال له: مالك تبكي؟ قال: قصدت مولانا بكل ما أقدر عليه، أطلب منه بعض ما يقدر عليه، فلما خاب أملي بكيت، فقال له سيف الدولة: ويلك! فمن يكون له مثل هذا النثر يكون له ذلك النظم!؟ فكم كنت أمّلت؟ قال: خمسمائة درهم، فأمر له بألف، فأخذها وانصرف!

* وقيل: عرض اثنان على أبي الحسن النيسابوري شعراً لهما فسمع للأول ثم قال: أنت أردأ شعراً منه، قال: كيف تقول هذا ولم تسمع قول الآخر؟ قال: لأن هذا لا يكون أردأ منه!

* قدّم أحد الشباب مجموعة قصائده إلى أحد الشعراء الكبار وطلب إليه أن يصارحه برأيه فيها؟ فقرأها ولم يستحسنها. وبعد أيام جاءه الشاب يستطلع رأيه فقال له: قل لي، هل هددّك أحدٌ بالقتل إذا لم تنظم هذه الأشعار!

قال: لا. فقال: إذن، لا عذر لك في نظمها!

* جاء شاعر إلى بشار بن برد، فأنشده شعراً ضعيفاً، وقال له: كيف تراه؟ فقال له: أحسنت، إذ أخرجته من صدرك، ولو تركته لأورثك الفالج!

* زعم أحد الولاة أنه شاعر، فأنشد قصيدة له أمام أبي الغصن جحا، وقال له: أليست بليغة؟ فقال أبو الغصن: ليست بها رائحة البلاغة! فغضب الوالي وأمر بحبسه في الاصطبل مدة شهر، وبعدما خرج نظم الوالي قصيدة أخرى وأنشدها أبا الغصن، فقام أبو الغصن مسرعاً، فسأله الوالي: إلى أين؟ فقال: إلى الاصطبل!

* وسمعت من أحد الفضلاء في مدينة حلب أنه نظم أبياتاً وعرضها على صديقه،

وكانت غير موزونة على بحر من بحور الشعر، فلاطفه الصديق قائلاً: يظهر أنها جاءت عبر البر ولم تأت عبر البحر. !

* من لطائف المنقول عن المغفلين من الشعراء أن بعضهم دخل مسجد الكوفة يوم الجمعة وقد نُمي خبر المهدي أنه مات، وهم يتوقعون قراءة الكتاب عليهم بذلك، فقال رافعاً صوته:

مات الخليفة أيها الثقلان!

فقالوا: هذا أشعر الناس، فإنه نعى الخليفة إلى الإنس والجنّ في نصف بيت. ومدّت الناس أبصارهم وأسماعهم إليه، فقال:

فكأنني أفطرت في رمضان!

قال: فضحك الناس، وصار شهرة في الحمق!

* وقالوا: أشعر الناس: النابغة إذا رَهِب، وامرؤ القيس إذا ركب، وزهير إذا غضب، وجرير إذا رَغِب، والأعشى إذا طَرِب.

* وقيل لكُثَيِّر عَزّة: لِمَ تركْتَ الشعر؟ فقال: ذهب الشباب فما أعجب، وماتت عزّة فما أطرب، ومات ابن أبي ليلى - عبدالعزيز بن مروان - فما أرغب.

حالات استجلاب الشعر

* وأسلس ما يكون الشعر في أول الليل قبل الكَرى، وعند اجتماع النفس واستحضار الفكر، وأقوى ما يكون على قدر قوة أسباب الرغبة والرهبة.

* وقد يمتنع الشعر على قائله فلا يقوى على إنشاد بيت واحد. قال: الفرزدق: أنا أشعر الناس عند اليأس، وقد يأتي عليّ الحين وقَلْع ضِرْس عندي أهون من قول بيت شعر!

* وللشعر حالات وأسباب يستجلب بها، ولم يُستدع شارد الشعر بأحسن من الماء الجاري والمكان الخضر الخالي، والشرف العالي.

* قيل للحطيئة: مَنْ أشعر الناس؟ فأخرج لساناً رقيقاً، كأنه لسان حيّة وقال: هذا إذا طمع!

* لقي أبو العتاهية الحسن بن هانئ «أبو نواس»، فقال له: أنت الذي لا تقول الشعر حتى تُؤتى بالرياحين والزهور فتوضع بين يديك؟ قال: وكيف ينبغي للشعر أن يقال إلا على هكذا؟ قال: أما إني أقوله على الكَنيف ـ المرحاض ـ قال: ولذلك توجد فيه الرائحة!

* وأمسك الشعر على النابغة الجعدي أربعين يوماً، فلم ينطق بالشعر، ثم إن بني جعدة غزوا فظفروا، فاستخفه الطرب والفرح، فرَامَ الشعر، فذلّ له ما استصعب عليه، فقال له قومه: والله لنحن بإطلاق لسان شاعرنا أسرّ منا بالظفر بعدوّنا!

* سئل الأصمعي عن شعر النابغة الذبياني، فقال: إنْ قلتَ ألين من الحرير صدقت، وإنْ قلتَ أشدَّ من الحديد صدقتَ. ـ النابغتان: سميا بذلك لأنهما عاشا دهراً لا يقولان شعراً ثم نبغا فيه ـ.

* مرّ الفرزدق بمؤدب وكان ينشد بيتاً من الشعر رقيقاً فنزل وسجد! فقال المعلم: ما هذا؟ فقال: هذه سجدة الأشعار نعرفها كما تعرفون سجدة القرآن! وكثير من الكبار كانت تأخذهم الأريحية ويهزهم الطرب وتسكرهم النشوة عند سماع القصيدة أو البيت الرقيق.

الهجاء لدى الشعراء

* ومما يؤخذ على الشعراء: تسرّعهم في الهجاء، للرزق والتكسّب، والطعن في الأعراض وذكر مثالب الآخرين، وفضح عيوبهم بغية الجائزة والصلة.

* لمّا عفا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن الحطيئة بعد أن سجنه بسبب الزبرقان، قال له: إياك والشعر! فأخرج لسانه وقال: ما لأولادي كاسب غيره! قال عمر: فلا تهجهم! فقال: إن لم أهجهم لم يَفْرقوني فلا يعطوني! قال: اذهب فبئس الكسب كسبك! وقلما تجد من يمنعه حِلمه ويحجزه عقله عن هجاء الآخرين والتشهير بهم. قيل للعجاج: إنك لا تحسن الهجاء! فقال: إنّ لنا أحلاماً تمنعنا من أن نَظْلِمَ، وأحساباً تمنعُنا من أَنْ نُظْلم، وهل رأيت بانياً لا يُحسن أنْ يهدم!

* قالوا: وما عُصي الله بشعر ما عُصي بشعر عمر بن أبي ربيعة، وقد ولد يوم مات عمر بن الخطاب، فسُمّي باسمه، فقالت العلماء: أي خير رُفع، وأيّ شرّ وُضع. ويقال إنه تاب في آخر حياته وتنسّك ونذر لله أن يعتق رقبة بكل بيت يقوله.

* وكثير من الشعراء قد تاب في آخر أيامه وتنسّك وأقبل على القرآن. حتى قيل: إن أبا مِحْرز، خلف الأحمر: تنسّك فكان يختم القرآن كل يوم وليلة، وبذل له بعض الملوك مالاً جزيلاً على أنْ يتكلم في بيت من الشعر شكّوا فيه، فأبى!

* ولجنوح الشعراء كثيراً عن الحق واتباعهم طرق الضلال، فقد كان الصالحون يذمّون الشعر، لهذا المعنى. وربنا سبحانه وتعالى قد ذم الشعراء الذين يتنكبون عن الحق ويفسدون، واستثنى المؤمنين الذين يقولون الحق وبه ينطقون ﴿ **وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا** ﴾ (الشعراء) والرسول ﷺ كان يقول: إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما يفاخر أو ينافح عن رسول الله! رواه الترمذي وأبو داود.

* ومن أقذع الهجاء ما قاله الطرماح، وهو أهجى بيت قالته العرب وهذا يمثل تجاوزات الشعراء ومبالغاتهم، بل وأكاذيبهم!:

ولو أنّ بُرْغُوثاً على ظهر قَمْلة ... رَأَتْه تميمٌ يوم زحْفٍ لولّتِ

ولو أنّ عُصفوراً يُمدّ جناحه ... لقامت تميمٌ تحته واسْتظلّتِ!

* وقال أحد الشعراء مفتخراً:

إذا بَلَغَ الفطَامَ لنا صبيٌّ ... تَخِرُّ له الجَبَابِرُ ساجدينَا!

* قالوا ومن أخبث الهجاء، قول زياد الأعجم:

قالوا الأشاقُر تهجوكم فقلتُ لهم ... ما كنتُ أَحْسبُهم كانوا ولا خُلقُوا

وهم من الحَسَب الزّاكي بمنزلةٍ ... كطُحْلب الماء لا أصْلٌ ولا ورَقُ

لا يكثرُون وإنْ طالتْ حياتُهم ولو يَبولُ عليهم ثَعْلبٌ غَرِقُوا!

والأشاقر: هم بنو عائذ بن دوس.

* أهدىٰ بعضهم أحمد شوقي مقالة للدكتور محمد حسين هيكل تحت عنوان «شوقي وحافظ» فأغضب شوقي اقتران اسمه بالشاعر حافظ! لما بينهما من خصومة هي ميراث الأدباء! أو داء الأدباء! فتمثل بقول شاعر قديم ساعة قراءته المقال إذ قال:

ألم تر أنَّ السيف يصغر قدره إذا قيل إن السيف خير من العصا!

فبلغ حافظ غضب شوقي وما استشهد به، فقال وهو ضاحك: ما بال شوقي والغضب، ألم يَرِد في المثل - بصل وعسل؟ - ثم استلم حافظ من قرينه شوقي بيتاً من الشعر تنكيلا به يقول فيه:

وأودعت إنساناً وكلباً وديعة فضيعها الإنسان والكلب حافظٌ!

فأجابه حافظ إبراهيم علىٰ هذه السخرية، ولكن بأسلوب لم يَرْقَ إلىٰ مستوىٰ طعن شوقي به:

يقولون إن الشوق نار ولوعة فما بال شوقي أصبح اليوم بارداً؟!

* كان الشاعران شوقي وحافظ يسيران في أحد شوارع العاصمة، فأراد حافظ استعمال القول اللاذع بعد أن يغلفه باللفظ البريء في ظاهره، فانبرىٰ يستوضح ويستعلم ماكراً ومذكراً ببيت شعر نظمه في رفيقه:

يقولون إن الشوق نار ولهفة فما بال شوقي أصبح اليوم بارداً؟

ولم يسكت شوقي عن هذا النعت المهين وأضمر الثأر، فلما بلغ الاثنان منزل صديقهما أبصر شوقي طفلاً ينتعل حذاء جديداً. فدعاه وداعبه وقال: حافظ علىٰ جزمتك يا ابني!.

* كان لشاعر النيل حافظ إبراهيم جار فقير، له بنت واحدة يرعاها ويحسن إليها حتىٰ كبرت فلما أصبحت في سن الزواج، خطبها رجل متوسط الحال، فوافق والدها مضطرا

ليخف عليه الحمل والمؤونة. وعاشت الفتاة في بيت زوجها، الذي كان يُحْضرها إلىٰ بيت أبيها كلما ولدت لتكون في رعاية أهلها طول مدة الولادة والنفاس، ولما تكررت وزاد عدد المرات التي يُحْضر فيها الزوج زوجته إلىٰ بيت أبيها في كل ولادة، اشتكىٰ الرجل الفقير إلىٰ جاره الشاعر حافظ إبراهيم سوء الحال وعدم استطاعته وقدرته علىٰ مصاريف ابنته وأولادها في كل مرة لشدة فقره وحاجته. تفهم حافظ إبراهيم مأساة جاره فكتب له بيتين من الشعر وطلب منه أن يسلمهما إلىٰ زوج ابنته وهما:

أيا صهري رعاك الله دوماً ومنّ عليك يا ولدي برِفْد
أفي عقد الزواج قد اتفقنا عليك الشّحْن والتفريغُ عندي؟

* استضاف سعد زغلول في مصيفه بعض أصدقائه، وكان فيهم حافظ إبراهيم والدكتور محجوب ثابت، فأصبح الدكتور يوماً فذكر لهم أنه رأىٰ حلماً، فسأله سعد عن الحلم، فقال: رأيتني راكباً جملاً كبيراً، ومن خلفه عدد كبير من الحمير، ثم جاءني رجل ومعه رسالة من شخص عظيم، وأعطاني إياها! فنظر سعد إلىٰ حافظ وقال له: فسِّر لنا هذا الحلم يا حافظ! فقال حافظ: أما الجمل الذي يركبه فهو كرسي مجلس النواب، وأما الرسالة فهي تكليف بتوليه وزارة الصحة - وكان يتطلع إليها! -، وأما الحمير فهم الذين انتخبوه في مجلس النواب!

* قيل: آفة الشاعر البخل، لأنه يقول خمسين بيتاً وفيها بيت رديء، فلا يحتمل قلبه أنْ يُسْقطه، وهو كالصيرفي يجتهد في أن يروّج ما في كيسه من الزيوف.

* ومن فوائد الشعر، الوصول للحاجة بأسلوب رقيق ينفذ إلىٰ القلب، وكان السلف يوصون المؤدبين بتعليم أبنائهم الشعر حتىٰ تعذب ألسنتهم، كتب معاوية إلىٰ زياد وقد أحسّ أنّ ابنه لا يحفظ الشعر: ما منعك أن تُروِّيه الشعر؟ فوالله إن كان العاقّ لَيَرْويه فيبرّ، وإن كان البخيل ليرويه فيسْخو، وإن كان الجبان لَيَرْويه فيقاتل! ولقد هممْتُ بالهرب يوم صفين فما ثبتني إلا قول القائل:

أقول لها إذا جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تَسْتريحي

الرسول... والشعر

* وقد كان النبي ﷺ يحب سماع الشعر ويخلع على قائله ويكرمه، وقال: إن من البيان سِحْراً، وإن من الشعر حِكَماً! رواه أبو داود. وقال النبي ﷺ لرجل كان معه: تَرْوي من شعر أمية بن أبي الصّلْت شيئاً؟ قلت: نعم، قال: فأنشدني، فأنشدته، فجعل يقول بين كل قافيتين: هِيهِ حتى أنشدتُه مائة بيت! رواه مسلم. وفي رواية أنه قال: كادَ أميةُ أن يسلم.

* وكان الرسول ﷺ يجنّد الشعراء لمحاربة المشركين، وقال لحسان: شُنّ الغطاريف على بني عبدمناف، فوالله لشعرك أشدُّ عليهم من وقْع السهام في غلس الظلام وتحفّظْ ببيتي فيهم. قال: والذي بعثك بالحق نبيّاً لأسُلَّنَّك منهم سلَّ الشعرة من العجين! ثم أخرج لسانه فضرب به أرْنبة أنفه، وقال: والله يا رسول الله إنه ليخيّل لي أني لو وضعته على حجر لفَلَقه، أو على شَعْر لحَلَقه! فقال ﷺ: أيّد الله حساناً في هَجْوه برُوح القُدس. - روى طرفاً من هذا الحديث البخاري ومسلم -.

* وقدم أبو ليلى، النابغة الجعدّي على رسول الله ﷺ، فأنشده شعره الذي يقول فيه:

بَلَغْنا السماءَ مجدنا وسناؤنا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مَظْهراً

* فقال له النبي ﷺ: إلى أين يا أبا ليلى؟ فقال: إلى الجنة يا رسول الله. فقال ﷺ: إلى الجنة إن شاء الله، فلما انتهى إلى قوله:

ولا خيرَ في حِلْم إذا لم تكُنْ له ... بوادِرُ تَحْمي صَفْوه أنْ يُكدَّرا

ولا خيرَ في جَهْل إذا لم يكن له ... حَليم إذا ما أوْرد الأمْرُ أصْدرا

قال النبي ﷺ: لا يَفْضُض الله فَاك، فعاش مائةً وثلاثين سنة لم تُنفض - تتحرك - له ثنيّة!

* وقال ابن عباس عن بيت طرفة:

سَتُبدي لكَ الأيامُ ما كنْتَ جاهلاً ويأتيك بالأخبار مَنْ لم تُزَوِّدِ

إنها لكلمة نبي! وكان النبي ﷺ يتمثل بالشطر الأخير من البيت. رواه الترمذي.

* وقال ﷺ: أصدقُ كلمة قالها الشاعر، كلمةُ لبيد: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطل. رواه الشيخان.

تأملات

* يُروىٰ للشافعي رضي الله عنه:

نَعِيبُ زمانَنا والعيبُ فينا وما لزمانِنا عيبٌ سوانا

وقد نهجُو الزّمانَ بغير جُرْمٍ ولو نطق الزمانُ بنا هَجَانا

فدُنْيانا التّصنُّعُ والتّرائي ونحن به نُخادع مَنْ يَرَانا

وليس الذّئبُ يأكل لحْمَ ذئْبٍ ويأكُلُ بعضُنا بعضاً عياناً!

* الكلب الطليق خيرٌ حياةً من الأسد المربوط!

* اللسان الطويل، دلالة علىٰ اليد القصيرة!

* عُمْري بروحي لا بِعَدِّ سنيني فلأَسْخَرنَّ غداً من التسعينِ

جسمي إلىٰ السبعين يزحفُ مسرعاً والروحُ ثابتةٌ علىٰ العشرينِ

أبيات لا مثيل لها

* أبْرعُ وأبدع بيت قالته العرب، قولُ أبي ذؤيب الهُذلي:

والـنـفـسُ راغـبـةٌ إذا رغّـبْـتـهـا ... وإذا تُـردُّ إلـى قـلـيـلٍ تَـقْـنـعُ

* وأصدق بيت، قول لبيد:

ألا كـلُّ مـا خـلا الـلـه بـاطـلُ ... وكـلُّ نَـعـيـم لا مـحـالـة زائـلُ

* وأفخر بيت قالته العرب وأحكم بيت قالته لحسان بن ثابت: فأما أفخر بيت فقوله:

وبـيـوم بَـدْرٍ إذْ يَـرُدّ وجـوهَـهـم ... جـبـريـلُ تحت لِـوائـنـا ومـحـمّـدُ

* وأما أحكم بيت فقوله:

وإنّ أمـرأً أمـسـى وأصـبـح سـالمـاً ... مـن الـنّـاس إلا مـا جـنى لَـسـعـيـدُ

* وأشعر نصف بيت قالته العرب: قول أبي ذؤيب الهذلي:

والـدهـرُ لـيـس بمُـعْـتـب مَـنْ يُـجْـزعُ

* وأحسن ما قيل في الكِبَر. قولُ حُمَيْد بن ثور الهلالي:

أرىٰ بَـصـري قـد رَابَـنـي بـعـد صِـحّـةٍ ... وحَـسْـبُـك داءً أنْ تَـصِـحَّ وتَـسْـلَـمـا

* وأحسن ما قيل في وصف قساوة القلب، بيت المُخبّل:

يُـبْـكي عـلـيـنـا ولا نَـبْـكـي عـلى أحـدِ ... لـنـحـنُ أغْـلـظُ أكْـبـاداً مـن الإبـلِ

* وخير ما قيل في الاستعفاف، بيت عبيد:

مَـنْ يَـسْـألِ الـنـاسَ يَـحْـرِمُـوه ... وسـائِـلُ الـلـه لا يَـخِـيـبُ

* وأَغْرب من ابتدأ قصيدة، النابغة في قوله:

كِـلِـيـنـي لِـهَـمٍّ يـا أُمَـيْـمَـةَ نـاصِـبِ ... ولـيـلٍ أُقـاسِـيـهِ بَـطِـيءِ الـكـواكـبِ

* ومن أحسن ما قيل في وصف الليل، قول امرئ القيس:

وليلٍ كموْجِ البحر أرْخىٰ سُدُولَه ... عليّ بأنواعِ الهُمومِ ليبتلي

* وأحسن ما قيل في الجُبْن، قول نَهْشل بن حَريّ:

فلو كان لي نفسان كنْتُ مُقاتلاً ... بإحداهما حتىٰ تَموتَ وأَسْلَمَا

* وأحسن من ابتدأ مرثيّة أوس بن حجر في قوله:

أيتُها النفسُ أَجْملي جَزَعا ... إنّ الذي تَكْرهين قد وَقَعا

* وأحسن ما قيل في الإقدام قول كعب بن مالك:

نَصِلُ السيوفَ إذا قَصُرْنَ بخَطْوِنَا ... قُدُماً ونُلحِقُها إذا لم تَلْحَقِ

* وخير ما قيل في الصبر. ما قاله قَطَريّ بن الفُجاءة:

أقولُ لها وقد طارت شَعاعاً ... من الأبطال ويْحَكِ لا تُراعي

فإنكِ لو سألتِ بقاءَ يومٍ ... علىٰ الأجَلِ الذي لكِ لم تُطاعِي

* وأحسن ما قيل في الجود، ما قاله مسكين الدارمي:

طَعَامي طَعَامُ الضّيفِ والرَّحْلُ رَحْلُهُ ... ولم يُلْهِنِي عنه الغزالُ المُقَنّعُ

* وقوله في حسن الجوار:

ناري ونارُ الجار واحدةٌ ... وإليه قَبْلي تُنْزَلُ القِدْرُ

ما ضَرّ جاراً لي أُجاوِرُه ... ألاّ يكونَ لِبابِهِ سِتْرُ

* وبيت جميل، خير ما قيل في الرضىٰ بالقليل:

أُقَلِّبُ طَرْفي في السماءِ لعلَّهُ ... يُوافقُ طَرْفي طَرْفَها حين تَنْظُرُ

* وأحسن ما قيل في إنفاق المال والتوكل علىٰ الله قوله:

كُلُوا اليومَ من رزق الإلهِ وأبْشِرُوا ... فإنّ علىٰ الرحمن رِزْقَكُمُ غَدَا

* وخير ما قيل في الشجاعة. ما قاله العباس بن مرداس:

أشُدُّ على الكتيبةِ لا أبالي أَحَتْفي كان فيها أمْ سِواها

* وفي الجهل بيت عمرو بن كُلْثُوم:

ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا فَنَجْهَلَ فوقَ جَهْلِ الجاهلينا

* وفي ترك الإلحاح، بيت النابغة:

فاسْتَبْقِ وُدَّكَ للصديق ولا تكُنْ قَتَباً يَعَضُّ بغَارِبٍ مِلْحاحا

* وبيت المُتَلَمِّس في المال وتثميره:

قليلُ المالِ تُصْلِحه فَيَبْقى ولا يَبْقى الكثيرُ على الفسادِ

* وقول الحطيئة في قِصَر الهمّة:

دَعِ المكارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيتها واقْعُدْ فإنّك أنت الطاعِمُ الكاسِي

* وأَغْرَبُ ما قيل في مجوسي، قول أعرابي:

شَهِدْتُ عليك بطيبِ المُشَاش وأنَّك بَحْرٌ جوادٌ خِضَمّ

وأنَّك سيّدُ أهلِ الجَحيم إذا ما تَرَدَّيْتَ فيمن ظَلَمْ

* وفي القِلّة والخمول، قول جرير في التّيم:

وإنّك لو رأيتَ عبيدَ تَيْمٍ وتَيْماً قلتَ أيُّهما العبيدُ؟

ويُقْضى الأمْرُ حين تَغيبُ تَيْمٌ ولا يُسْتَأْذَنون وهم شُهُودُ

* وأحسن ما قيل في الهيبة، بيت الفرزدق:

يُغْضي حَيَاءً ويُغْضى من مَهَابتِه فما يُكَلَّمُ إلاّ حينَ يَبْتَسِمُ

* وأحسن ما قيل في المدح بالكرم والجود:

ألستم خيرَ مَنْ ركب المطايا وأندى العالمينَ بُطونَ راحِ

جرير... والفرزدق

* قال ابن خلكان: أجمعوا على أنه ليس في شعراء الإسلام مثل شاعري العصر جرير والفرزدق، وكذلك الأخطل وكانت بين جرير والفرزدق مهاجاةٌ وتفاخرٌ، وفُضِّل جَرِيرٌ ببيوته الأربعة: الفخر، والمدح، والهجاء، والتشبيب، فالفخر قوله في قومه:

إذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ ... حَسِبْتَ النَّاس كُلَّهُمُ غِضَابا

والمدح قوله:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا ... وَأَنْدَىٰ العَالَمِيْنَ بُطُونَ رَاحِ

والهجاء قوله:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ ... فَلاَ كَعْبَاً بَلَغْتَ وَلاَ كِلاَبَا

والتشبيب قوله:

يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبِّ حَتَّىٰ لا حِرَاكَ بِهِ ... وَهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللَّهِ أَرْكَانَا

* وعاش جرير عمره كله يناضل شعراء زمنه ويساجلهم. وكان هجاءاً مراً. فلم يثبت أمامه غير الفرزدق، والأخطل، وكان عنيفاً، وهو من أغزل الناس شعراً!

* ومن أحسن قصائد جرير قصيدته في عبدالملك التي أولها:

أَتَصْحُوا أَمْ فُؤادُكَ غَيْرُ صَاحِ ... عَشِيَّة هَمَّ صَحْبُكَ بالرَّوَاحِ

يقال: إنه لما أنشد عبدالملك هذا المطلع، قال له: بل فؤادك يا ابن الفَاعِلة، وعدّه بعضهم من الورطات في حسن الابتداء.

ومن القصيدة المذكورة:

سَأَشْكُرُ إنْ رَدَدْتَ عَلَيَّ رِيْشي ... وَأَنْبَتَّ القَوَادِمَ مِنْ جَنَاحي

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا ... وَأَنْدَىٰ العَالَمِيْنَ بُطُونَ رَاحِ

وقال عبدالملك: مَنْ مدحنا فليمدحنا بمثل هذا أو فليسكت! ووهبه مائة ناقة، فسأله الرعاء، فوهبه ثمانية أعبد، ورأىٰ صحاف ذهب بين يديه، فقال: يا أمير المؤمنين والمَحْلَبُ ـ الإناء ـ وأشار إليها! فنحاها إليه بالقضيب، وقال: خذها لا نفعتك!

الفرزدق يمدح زين العابدين

* قال أبو عمرو بن العَلاَء: شهدت الفَرَزدق وهو يجود بنفسه، فما رأيت أحسن ثقة بالله منه، وتُرجىٰ له الزلفىٰ والفائدة وعظيم العائدة بحميته في أهل بيت رسول الله ﷺ ومدحه لزَيْن العابدين علي بن الحسين، وإعرابه عن الرَّغبة والرَّهبة، وذلك أن زين العابدين لما أراد استلام الحجر في زحمة الناس انفرجوا عنه هيبةً ومحبةً، ولم تنفرج لهشام بن عبدالملك! فقال شاميٌّ: من هذا؟ فقال هشام: لا أعرفه! خاف أن ترغب عنه أهل الشام، فقال الفرزدق: أنا أعرفه، فقال الشاميُّ: من هو يا أبا فِرَاس؟ فقال:

هـذا سَليـلُ حُسـينٍ وابـن فـاطمـةٍ ... بـنـتِ الرسـول مـن انجابـت بـه الـظُّلَـمُ
هـذا الـذي تعـرفُ الـبطحـاءُ وَطْأَتَـه ... والـبيـتُ يَـعْـرِفُـهُ والحِـلُّ والحَـرَمُ
إذَا رَأَتْـهُ قُـرَيْـشٌ قَـالَ قَـائِـلُـهَـا ... إلَـىٰ مَـكَـارِمِ هَـذَا يَـنْـتَـهِـي الْـكَـرَمُ
هَـذَا ابـنُ خَـيْـرِ عِـبَادِ الـلَّـهِ كُـلِّـهِـمُ ... هَـذَا الـتَّـقِـيُّ الـنَّـقِـيُّ الـطَّـاهِـرُ الْـعَـلَـمُ
يَـسْـمُـو إلَـىٰ ذُرْوَةِ الْـعِـزِّ الَّـتِـي عَـجَـزَتْ ... عَـنْ نَـيْـلِـهَـا عَـرَبُ الإسْـلاَمِ وَالْـعَـجَـمُ
يَـكَـادُ يُـمْـسِـكُـهُ عِـرْفَـانُ رَاحَـتِـهِ ... رُكْـنُ الحَـطِـيْـمِ إذَا مَـا جَـاءَ يَـسْـتَـلِـمُ
بِـكَـفِّـهِ خَـيْـزُرَان رِيـحُـهُ عَـبَـقٌ ... مِـنْ كَـفِّ أَرْوَعَ فِـي عِـرْنِـيـنِـهِ شَـمَـمُ
يُـغْـضِـي حَـيَاءً وَيُـغْـضَـىٰ مِنْ مَـهَـابَـتِـهِ ... فَـمَـا يُـكَـلَّـمُ إلاَّ حِـيـنَ يَـبْـتَـسِـمُ
يـنـشـق ثـوب الـدجـىٰ مـن نـور غُـرَّتـهِ ... كَالشَّمْسِ تنجاب عن إشراقها الظلم
مُـشْـتَـقَّـةٌ مِـنْ رَسُـوْلِ الـلَّـهِ نَـبْـعَـتُـهُ ... طَـابَـتْ عَـنَـاصِـرُهُ وَالخِـيْـمُ وَالـشِّـيَـمُ
الـلَّـهُ شَـرَّفَـهُ قَـدْراً وَعَـظَّـمَـهُ ... جَـرَىٰ بِـذَاكَ لَـهُ فِـي لَـوْحِـهِ الْـقَـلَـمُ

هُوَ ابنُ فَاطِمَةٍ إنْ كُنْتَ جَاهِلَهُ ... بِجَدِّهِ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ قَدْ خُتِمُوا
وَلَيْسَ قَوْلُكَ مَنْ هَذَا بِضَائِرِهِ ... الْعُرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرْتَ وَالْعَجَمُ
كِلْتَا يَدَيْهِ غِيَاثٌ عَمَّ نَفْعُهُمَا ... تَسْتَوْكِفَانِ وَلاَ يَعْرُوهُمَا عَدَمُ
سَهْلُ الخَلِيقَةِ لاَ تُخْشَىٰ بَوَادِرُهُ ... يَزِينُهُ اثنانِ حُسْنُ الخُلْقِ والشِّيَمُ
مِنْ مَعْشَرٍ حُبُّهُمْ دِينٌ وبُغْضُهُمُ ... كُفْرٌ وَقُرْبُهُمُ مَنْجىً وَمُعْتَصَمُ
إنْ عُدَّ أَهْلُ التُّقَىٰ كَانُوا أَئِمَّتَهُمْ ... أَوْ قِيلَ: مَنْ خَيْرُ أَهْلِ الأَرْضِ؟ قِيلَ هُمُ
مُقَدَّمٌ بَعْدَ ذِكْرِ اللَّهِ ذِكْرُهُمُ ... فِي كُلِّ بَرٍّ وَمَخْتُوم بِهِ الكَلِمُ
يَأْبَىٰ لَهُمْ أَنْ يَحلَّ الذَّمُّ سَاحَتَهُمْ ... خِيمٌ كِرَامٌ وأيدٍ بِالنَّدَىٰ دِيَمُ
مَنْ يَعْرِف اللَّهَ يَعْرِفْ أَوَّلِيةَ ذا ... والدِّينُ مِنْ بَيْتِ هَذَا نَالَهُ الأُمَمُ
مَا قَالَ لاَ قَطُّ إلاَّ فِي تَشَهُّدِهِ ... لَوْلاَ التَّشَهُّدُ كَانَتْ لاَءَهُ نَعَمُ!

فلما سمع هِشَامُ ذلك أَنِفَ، وحبس عطاءَ الْفَرَزْدَقِ أو حبسه هو، فأنفذ له زَيْنُ العابدين اثني عشر ألف درهم، فردها، وقال: مدحته لله لا للعطاء، فقال زين العابدين: إنَّا أَهْلُ بيتٍ إذَا وهبنا شيئاً لا نستعيده، فقبلها الْفَرَزْدَقُ!

* قال عثمان البني: رأيت جريراً وما تُضمّ شفتاه من التسبيح، فقلت: وما ينفعك هذا؟ فقال: سبحان الله والحمدلله ولا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد، إن الحسنات يذهبن السيئات، وعدٌ من الله حق!

* سأل رجل الشاعر جرير وقال له: من أشعر الناس؟ فأخذ بيده وأدخله على أبيه، وإذا هو يرتضع من ثدي عنز! فاستدعاه فنهض واللبن يسيل على لحيته، فقال جرير للذي سأله: أتبصر هذا؟ قال: نعم، قال: أتعرفه؟ قال: لا، قال: هذا أبي، وإنما يشرب من ضرع العنز لئلا يحلبها فيسمع جيرانه حِسَّ الحلب فيطلبوا منه لبنا! فأشعر الناس من فَاخَر بهذا ثمانين شاعراً فغَلَبهم!

أبو فراس الحمداني

* قال الثعالبي: كان أبو فراس الحمداني، فَرْد دهره، وشَمْسَ عصره، أدباً وفضلاً، وكرماً ومجداً، وبلاغةً وبراعةً، وفروسيةً وشجاعةً، وشعره مشهور سائر بين الحُسْن والجودة والسهولة والجزالة، والعذوبة والفخامة والحلاوة والمتانة، ومعه رواء الطبع، وسِمَة الظرف، وعزّة الملك. وكان الصاحب بن عبَّاد يقول: بُدئ الشعر بملك، وخُتم بملك! يعني امرأ القيس وأبا فراس! وأبو فراس شاعر الدولة الحمدانية وفارسها، واسمه الحارث بن سعيد، وكان المتنبي يشهد له بالتقدم والتبريز، ويتحامى جانبه فلا ينبري لمباراته، ولا يجترئ على مجاراته، وإنما لم يمدحه ومدح من هو دونه من آل حمدان تهيباً له وإجلالاً، لا إغفالاً وإخلالاً. وكان سيف الدولة يُعجب جداً بمحاسن أبي فراس، ويميِّزه بالإكرام على سائر قومه، ويصطنعه لنفسه ويستصحبه في غزواته، ويستخلفه في أعماله، وأبو فراس، هو ابن عم سيف الدولة الحمداني.

وكانت الرُّوم قد أسرته في بعض وقائعها وهو جريح قد أصابه سهم بقي نصله في فخذه، وذلك في سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة، وأقام في الأسر أربع سنين، وفداه سيف الدولة، وكانت مدينة منبج إقطاعاً له.

وكان ينشد ابنته لما حضرته الوفاة:

نُوحي عَليَّ بحسرةٍ ... من خلف سِترِكِ والحجابْ
قُولي إذا كلمتني ... فعييتُ عن رَدِّ الجوابْ
زينُ الشبابِ أبو فراسٍ ... لم يُمَتَّعْ بالشبابْ

* ومن شعر أبي فراس وقد سمع حمامةً تنوح بقربه على شجرةٍ عاليةٍ وهو في الأسر فقال:

أقول وقد ناحت بقربي حمامةٌ ... أيا جارتا هل بات حالك حالي

معاذ الهوىٰ ما ذقت طارقة النوىٰ   ولا خطرت منك الهموم ببالِ
أتحمل محزون الفؤاد قوادمٌ   علىٰ غصن نائي المسافة عالي
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا   تعالي أقاسمك الهموم تعالي
تعالي تريْ روحاً لديَّ ضعيفةً   تردَّدُ في جسمٍ يُعَذَّبُ بالي
أيضحك مأسورٌ وتبكي طليقة   ويسكت محزون ويندب سالي
لقد كنتُ أولىٰ منك بالدمع مقلةً   ولكنَّ دمعي في الحوادث غالي

* وقال وهو في الأسر قصائد تعرف بالروميات. وقتل أبو فراس سنة ٣٥٧هـ وكان في السابعة والثلاثين من عمره.

أراكَ عَصِيَّ الدمعِ

* ومن شعر أبي فراس:

أراكَ عصيَّ الدَّمعِ شيمَتُكَ(١) الصَّبْرُ   أما لِلْهَوىٰ نَهْيٌ عليكَ و لا أمْرُ؟
بَلىٰ، أنا مُشْتاقٌ وعنديَ لَوْعَةٌ   ولكنَّ مِثْلي لا يُذاعُ لهُ سِرُّ!
إذا اللّيلُ أَضْواني(٢) بَسَطْتُ يَدَ الهوىٰ   وأذْلَلْتُ دمْعاً من خَلائقِهِ الكِبْرُ
تَكادُ تُضِيءُ النارُ بين جَوانِحي   إذا هي أذْكَتْها(٣) الصَّبابَةُ والفِكْرُ
مُعَلِّلَتي بالوَصْلِ، والمَوتُ دونَهُ   إذا مِتُّ ظَمْآناً فلا نَزَلَ القَطْرُ!
وَفَيْتُ، وفي بعضِ الوَفاءِ مَذَلَّةٌ،   لفاتنةٍ في الحَيِّ شيمَتُها الغَدْرُ
تُسائلُني من أنتَ؟ وهي عَليمَةٌ   وهل بِفَتىً مِثْلي علىٰ حالِهِ نُكْرُ؟
فقلتُ كما شاءَتْ وشاءَ لها الهوىٰ:   قَتيلُكِ! قالت: أيُّهمْ؟ فَهُمْ كُثْرُ!
فقلتُ لها: لو شِئْتِ لم تَتَعَنَّتي(٤)   ولم تَسْألي عَنّي وعندكِ بي خُبْرُ!

فقالتْ: لقد أَزْرىٰ(٥) بكَ الدَّهْرُ بَعدنا ... فقلتُ: معاذَ اللهِ بل أنتِ لا الدَّهرُ

وقلَّبْتُ أمري لا أرىٰ ليَ راحةً ... إذا البَيْنُ أنساني أَلَحَّ بيَ الهَجْرُ

فلا تُنْكِريني، يابْنَةَ العَمِّ، إنّهُ ... لَيَعْرِفُ من أنكَرْتِهِ البَدْوُ والحَضْرُ

ولا تُنْكِريني، إنّني غيرُ مُنْكَرٍ ... إذا زَلَّتِ الأقدامُ، واسْتُنْزِلَ النَّصْرُ

وإنّي لجَرّارٌ لِكُلِّ كَتيبَةٍ ... مُعَوَّدَةٍ أن لا يُخِلَّ بها النَّصرُ

وإنّي لَنَزّالٌ بِكُلِّ مَخوفَةٍ ... كَثيرٍ إلىٰ نُزّالِها النَّظَرُ الشَّزْرُ

فَأَظْمأُ حتىٰ تَرْتَوي البيضُ والقَنا ... وأَسْغَبُ(٦) حتىٰ يَشْبَعَ الذِّئبُ والنَّسْرُ

ولا أُصْبِحُ الحَيَّ الخَلُوفَ(٧) بغارَةٍ ... ولا الجَيْشَ ما لم تأتِهِ قَبْلِيَ النُّذْرُ

ويا رُبَّ دارٍ، لم تُخِفْني، مَنيعَةٍ ... طَلَعْتُ عليها بالرَّدىٰ، أنا والفَجْرُ

****

أُسِرْتُ وما صَحْبي بعُزْلٍ(٨) لَدىٰ الوَغىٰ، ... ولا فَرَسي مُهْرٌ، ولا رَبُّهُ غُمْرُ(٩)

ولكنْ إذا حُمَّ(١٠) القَضاءُ علىٰ امرئٍ ... فليسَ لَهُ بَرٌّ يَقيهِ، ولا بَحْرُ

وقال أُصَيْحابي: الفِرارُ أو الرَّدىٰ؟ ... فقلتُ: هما أمرانِ، أحْلاهُما مُرُّ

ولكنّني أمْضي لِما لا يَعيبُني، ... وحَسْبُكَ من أمْرَينِ خَيرُهما الأَسْر

يَقولونَ لي: بِعْتَ السَّلامَةَ بالرَّدىٰ ... فقُلْتُ: أما واللهِ، ما نالني خُسْرُ

وهلْ يَتَجافىٰ عَنّيَ المَوْتُ ساعَةً ... إذا ما تَجافىٰ عَنّيَ الأسْرُ والضُّرُّ؟

هو المَوتُ، فاخْتَرْ ما عَلا لكَ ذِكْرُهُ ... فلم يَمُتِ الإنسانُ ما عَلِيَ(١١) الذِّكْرُ

يَمُنّونَ أن خَلَّوْا ثِيابي، وإنّما ... عليَّ ثِيابٌ، من دِمائِهِمُ حُمْرُ

وقائِمُ سَيْفٍ فيهِمُ دُقَّ نَصْلُهُ ... وأعْقابُ رُمْحٍ فيهِمُ حُطِمَ الصَّدْرُ

سَيَذْكُرُني قومي إذا جَدَّ جِدُّهُمْ، وفي اللّيلةِ الظّلْماءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ
فإنْ عِشْتُ فالطَّعْنُ الذي يَعْرِفونَهُ وتِلْكَ القَنا والبيضُ والضُّمَّرُ(١٢) الشُّقْرُ
وإنْ مُتُّ فالإنْسانُ لابُدَّ مَيِّتٌ وإنْ طالَتِ الأيامُ، وانْفَسَحَ العُمْرُ
ولو سَدَّ غيري ما سَدَدْتُ اكْتَفوا بهِ وما كان يَغْلو التِّبْرُ(١٣) لو نَفَقَ الصُّفْرُ(١٤)
ونَحْنُ أُناسٌ، لا تَوَسُّطَ عندنا، لنا الصَّدْرُ دونَ العالمينَ أو القَبْرُ
تَهونُ علينا في المعالي نُفوسُنا ومن خَطَبَ الحَسْناءَ لم يَغْلُهُ المَهْرُ
أعَزُّ بَني الدُّنيا وأعْلى ذَوي العُلا وأكْرَمُ مَنْ فَوقَ التُّرابِ ولا فَخْرُ!

تأملات

* إذا ازداد حبنا، تضاعف خوفنا من الإساءة إلى من نحب.
* لا كرامة في الحب.. ولا في الحرب! ـ هتلر ـ.
* من أحبك لشيء أبغضك لفقده!
* ليس المهم أن نولد أشرافاً، ولكن المهم أن نحيا أشرافاً.
* العقول الصغيرة تناقش في الأشخاص، والعقول المتوسطة تناقش في الأشياء، وأما العقول الكبيرة فإنها تناقش في المبادئ!
* حين تدخل العواطف من الباب، يفرّ العقل من النوافذ.
* قلب الزعيم يجب أن يكون في رأسه!

(١) الشيمة: السجية والخلق. (٢) أضواني: أضعفني وأهزلني. (٣) أذكى: أجّج. (٤) تعنَّتَ: تشدد وكابر. (٥) أزرى به: أهانه وقصّر بحقه. (٦) أسغب: أجوع. (٧) الخلوف: المتخلف عن القتال. (٨) عزل: جمع أعزل وهو الخالي من السلاح. (٩) الغمر: القليل التجربة. (١٠) حم: نزل. (١١) ما علي: ما دام عالياً. (١٢) الضمَّر: جمع ضامر وهو الخفيف البطن من الخيل. (١٣) التبر: الذهب. (١٤) الصفر: النحاس.

أبو العلاء المعري... ما قال وما قيل فيه

* أبو العلاء المعري هو أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخي، اللغوي، الشاعر العباسي الفيلسوف، وَصَفه بعض المؤرخين بالقول: صاحب التصانيف المشهورة والزندقة المأثورة! والذكاء المفرط، والزهد الفلسفي، مات سنة تسع وأربعين وأربعمائة للهجرة، وله من العمر ست وثمانون سنة، ودفن بالمعرة، وهي بلدة تقع في الجنوب الغربي لمدينة حلب السورية، وهي منسوبة إلى الصحابي الجليل: النعمان بن بشير الأنصاري رضي الله عنه، ويقع قبره الآن في ساحة المركز الثقافي فيها، وقد زرت المعرة صيف سنة ٢٠٠٥م مع بعض الأفاضل، ومررنا بقبره ووقفنا عليه، وتذّكرنا بعض أشعاره وقصائده. أصيب المعري بمرض الجدري وهو ابن ثلاث سنين، فذهب بصره، فكان مجدّر الوجه نحيف الجسم، إحدى عينيه نافرة والأخرى غائرة جداً وكان يقول: كأنما نظر المتنبي إليّ بلحظ الغيب حيث يقول:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي … وأسمعت كلماتي من به صمم

وسمّى نفسه رهين المحبسين! للزومه منزله، ولذهاب عينيه.

* ومكث مدة خمس وأربعين سنة لا يأكل اللحم تديناً! لأنه كان يرى رأي الحكماء المتقدمين وعلى طريقة البراهمة الفلاسفة، وهم لا يأكلونه، كيلا يذبحوا الحيوان، ففيه تعذيب له، وهم لا يرون إيلام جميع الحيوانات! وترك أكل البيض واللبن واللحم وحرم اتلاف الحيوان.

* ويقال إنه أوصى أن يكتب على قبره:

هذا جناه أبي عليّ … وما جنيت على أحد!

وهذا أيضاً متعلق باعتقاد الحكماء فإنهم يقولون إيجاد الولد وإخراجه إلى هذا العالم جناية عليه، لأنه يتعرض للحوادث والآفات.

* حضر مرة مجلس الشريف المرتضى في بغداد، وكان الشريف يغض من المتنبي، والمعري يثني عليه، فقال المعري: لو لم يكن من شعره إلا قوله:

لـك يـا مـنـازل فـي الـقـلـوب مـنـازل　　أقـفـرت أنـت وهـن مـنـك أو اهـل

لكفاه، فأمر الشريف بإخراجه، وقال: ما أراد القصيدة، فإنها ليست من غرر قصائده، إنما أراد البيت فيها وهو قوله:

وإذا أتـتـك مـذمـتـي مـن نـاقـص　　فـهـي الـشـهـادة لـي بـأنـي كـامـل

* وقد اختلف العلماء فيه، فمنهم من يرىٰ أنه كان فاسد العقيدة، يظهر الكفر، ويزعم أنّ له باطناً وأنه مسلم في الباطن، وله أشعار تدل علىٰ كفره.

* ومنهم من يثني عليه ويمدحه، قال في العبر: لعله مات علىٰ الإسلام وتاب من كفرياته، وزال عنه الشك.

* وَرَد أن الشيخ علي بن أحمد الهكاري الملقب بشيخ الإسلام، لقي أبا العلاء المعري وسمع منه، فلما انفصل عنه سأله بعض أصحابه عما رآه منه وعن عقيدته، فقال: هو رجل من المسلمين! والهكاري هو الذي سئل: أنت شيخ الإسلام؟ فقال: بل أنا شيخ في الإسلام! ويروىٰ أن ابن دقيق العيد سئل عن أبي العلاء المعري فقال: هو في حيرة! وهذا أحسن ما قيل فيه.

* قال ابن الجوزي: قد رأيت لأبي العلاء المعري كتاباً سماه: الفصول والغايات في معارضة السور والآيات! علىٰ حروف المعجم في آخر كلماته، وهو في غاية الركاكة والبرودة، فسبحان من أعمىٰ بصره وبصيرته! ويقال: أن أبا العلاء اجتمع براهب في بعض الصوامع في مجيئه من بعض السواحل آواه الليل عنده فشككه في دين الإسلام! وكان يتقوت بالنبات وغيره، وأكثر ما كان يأكل العدس ويتحلىٰ بالدبس والتين! وكان لا يأكل بحضرة أحد، ويقول: أكل الأعمىٰ عورة!

* قال ابن كثير: وكان غاية في الذكاء المفرط علىٰ ما ذكروه، وأما ما ينقلونه عنه من الأشياء المكذوبة المختلقة من أنه وُضع تحت سريره درهم وقال: إما أن تكون السماء قد انخفضت مقدار درهم أو الأرض قد ارتفعت مقدار درهم، أي أنه شعر بارتفاع سريره عن

الأرض مقدار ذلك الدرهم الذي وضع تحته، فهذا لا أصل له، وكذلك يذكرون عنه أنه مرّ في بعض أسفاره بمكان فطأطأ رأسه فقيل له في ذلك فقال: أمَا ها هنا شجرة؟ قالوا: لا، فنظروا فإذا أصل شجرة كانت هناك في الموضع الذي طأطأ رأسه فيه، وقد قطعت، وكان قد اجتاز بها قديماً مرة فأمره من كان معه بأن يطأطئ رأسه لما جازوا تحتها، فلما مر بها المرة الثانية طأطأ رأسه خوفاً من أن يصيبه شيء منها! فهذا لا يصح، وقد كان ذكياً ولم يكن زكياً! وله مصنفات كثيرة أكثرها في الشعر، وفي بعض أشعاره ما يدل على زندقته وانحلاله من الدين، ومن الناس من يعتذر عنه ويقول: إنه إنما كان يقول ذلك مُجوناً ولعباً، ويقول بلسانه ما ليس في قلبه، وقد كان باطنه مسلماً، قال ابن عقيل لما بلغه هذا: وما الذي ألجأه إلى أن يقول في دار الإسلام ما يُكفّره به الناس! والمنافقون مع قلة عقلهم وعلمهم أجود سياسة منه، لأنهم حافظوا على قبحائهم في الدنيا وستروها، وهذا أظهرَ الكفر الذي تسلط عليه به الناس وزندقوه، والله يعلم أن ظاهره كباطنه، والله أعلم بحاله ومآله.

* اجتمع أبو نصر أحمد بن يوسف السليكي المنازيُّ الكاتب بأبي العلاء المعري بمعرة النعمان، فشكا أبو العلاء إليه حاله، وأنه منقطع عن الناس وهم يؤذونه، فقال: ما لهم ولك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة؟! فقال أبو العلاء: والآخرة أيضا؟ وجعل يكررها، ويتألم لذلك، وأطرق ولم يكلمه إلى أن قام!

* قال أبو العلاء المعري رداً على جواب كتاب ورد إليه من بعض الكبراء، كما في معجم الأدباء:

وافى الكتابُ فأوجب الشكرا ... فضممته ولثمته عشرا
وفضضته وقرأته فإذا ... أجلى كتاب في الورى يُقرا
فمحاه دمعي من تحدّره ... شوقاً إليك فلم يدع سطرا

* اجتاز نصر بن مالك في طريقه من بغداد إلى مصر بمعرة النعمان، وبالمعرة يومئذ أبو العلاء المعري، فأضافه واعجب بعلمه وفقهه وأدبه وشعره، وفي ذلك يقول أبو العلاء من جملة أبيات:

والمالكي ابن نصر زار في سفر بلادنا فحمدنا النأي والسفرا
إذا تفقّه أَحْيا مالكاً جدلا وينشر الملك الضّليل إنْ شَعرا

* وذلك أن سفره ونأيه عن بلده بغداد، مكننا أن نحظى بفضله ولقائه، ولولا نأيه وسفره عنها لما مر بنا ولما حظينا بذلك، فالحمد للنأي والسفر من هذه الناحية.

* أي ويحيي امرأ القيس إذا قال الشعر، لبلاغته وفصاحته وجزالته، وجمال معانيه وإبداعه، والملك الضليل لقب امرئ القيس-.

* ثم توجه إلى مصر فحمل لواءها، وملأ بالعلم أرضها وسماها، واستتبع سادتها وكبراءها، وتناهت إليه الغرائب، وانثالت في يديه الرغائب، فمات لأول ما وصلها! من أكلة اشتهاها فأكلها! وزعموا أنه قال في مرضه وهو يتقلب ونفسه يتصعد ويتصوب: لا إله إلا الله، إذا عشنا متنا! وهو الذي يقول:

* متى يصل العطاش إلى ارتواء إذا استقت البحار من الركايا
ومن يثني الأصاغر عن مراد وقد جلس الأكابر في الزوايا
وإنّ ترفّع الوضعاء يوماً على الرفعاء من إحدى الرزايا
إذا استوت الأسافلُ والأعالي فقد طابتْ منادمةُ المنايا!

* يقول أبو العلاء المعريّ:

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعلُ عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ
تعدُّ ذنوبي عند قوم كثيرةً ولا ذنبَ لي إلا العُلا والفضائلُ
وقد سار ذكري في البلاد فمن لهم بإخفاء شمسٍ ضوءُها متكامل
وإني وإن كنت الأخير زمانهُ لآت بما لم تستطعه الأوائلُ
وإني جوادٌ لم يُحَلَّ لجامه ونصلٌ يمانٍ أغفلته الصياقلُ

ولما رأيت الجهل في الناس فاشياً تجاهلتُ حتى ظُن أني جاهل
فوا عجباً كم يدّعي الفضل ناقصٌ ووا أسفا كم يُظْهر النقص فاضلُ
وطال اعترافي بالزمان وصرفه فلست أبالي من تغول الغوائلُ
إذا وصفَ الطائيَ بالبخل مادرٌ وعيَّر قساً بالفهاهة باقلُ
وقال السهى للشمس أنت ضئيلةٌ وقال الدجى للصبح لونك حائلُ
وطاولت الأرض السماء سفاهةً وفاخرت الشهب الحصى والجنادلُ
فيا موت زُرْ إنّ الحياة ذميمةٌ ويا نفس جدي إنّ دهرك هازلُ!

* ويقصد بالطائي: حاتم الطائي الذي سار به المثل بالجود، وما در، رجل يضرب به المثل في البخل. وسقى إبله مرة من حوض، فلما شربت، سلح في الحوض لئلا يشرب منه غيره!

تأملات

* عندما يتكلم المال، يصمت الصدق!

* البخيل هو شخص ينتحر جوعاً، ليقتل ورثته بالتخمة!

* الغني من زاد دخله على نفقته، والفقير من زادت نفقته على دخله!

* من ادعى بغض الدنيا فهو كذاب، إلا أن يثبت صدقه، فإذا ثبت صدقه فهو مجنون!

* عن عبدالجليل بن عامر بن عبيدة الباهلي عن أبيه قال: أتيت عبدالملك بن يعلى، لما ولي القضاء، فوجدت بابه مغلقاً والناس مجتمعون، فاستأذنت، فأذن لي، وهو يتململ كالمرأة الماخض، فقلت له: مالك؟ قال: وليت القضاء، فلما عزل أتيته وهو يتململ، فقال: عزلت، واشماتة الأعداء!

أبو تمام

* يروىٰ أن المنجمين حكموا لما خرج المعتصم إلىٰ الروم بأنه لا يرجع من وجهه، فلما فتح ما فتح وخرب عمورية في شهر رمضان سنة ٢٢٣هـ وانصرف سالماً، قال أبو تمام قصيدته العصماء التي مطلعها:

السيف أصدق أنباءً من الكتبِ ... في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعبِ

وقيل إنه كرر إنشاد هذه القصيدة ثلاثة أيام فقال له المعتصم: لم تجلو علينا عجوزك؟ قال: حتىٰ أستوفي مهرها يا أمير المؤمنين؟ فأمر له بمائة وسبعين ألف درهم عن كل بيت منها ألف! وأبو تمام هو: حبيب بن أوس الطائي من فحول شعراء العربية عاش في العصر العباسي ومات سنة ٢٣١هـ.

* ومن باب الجود قول أبي تمام:

بيُمن أبي إسحاق طالت يد الهدىٰ ... وقامت قناةُ الدين واشتد كاهله

هو البحر من أيّ النواحي أتيته ... فلجّتُهُ المعروف والجود ساحله

تعوّد بسط الكف حتىٰ لو أنّه ... دعاها لقبضٍ لم تجبه أنامله

* لما مات أبو تمام رثاهُ محمد بن عبدالملك الزَّيَّات وزير المُعْتَصِم فقال:

نبأٌ أتىٰ مِنْ أَعْظَمِ الأنْبَاءِ ... لَمّا ألمَّ مقلقل الأحشاء

قالوا حبيب قد ثوىٰ فأجبتهم ... ناشدتكم لا تجعلوه الطائي!

* كان أحمد بن أبي دؤاد يقول: ثلاثة ينبغي أن يُبَجَّلوا وتعرف أقدارهم: العلماء وولاة العدل والإخوان، فمن استخف بالعلماء أهلك دينه، ومن استخف بالولاة أهلك دنياه، ومن استخف بالإخوان أهلك مروءته!

* يروىٰ أن المعتصم غضب علىٰ رجل من أهل الجزيرة الفراتية وأحضر السيف والنطع، فقال له المعتصم: فعلتَ وصنعتَ، وأمر بضرب عنقه فقال له ابن أبي دؤاد: يا

أمير المؤمنين، سَبَقَ السيفُ العَذَلَ، فتأنَّ في أمره فإنه مظلوم، قال: فسكن قليلاً، قال ابن أبي دؤاد: وغمرني البول فلم أقدر على حبسه، وعلمت أني إن قمت قُتل الرجل، فجعلت ثيابي تحتي وبُلتُ فيها حتى خلّصت الرجل، قال: فلما قمت نظر المعتصم إلى ثيابي رَطبة! فقال: يا أبا عبدالله كان تحتك ماء؟ فقلت: لا يا أمير المؤمنين، ولكنه كان كذا وكذا، فضحك المعتصم ودعا لي، وقال: أحسنت بارك الله عليك، وخلع عليه وأمر له بمائة ألف درهم!!

* كان الواثق قد أمر أن لا يرى أحدٌ من الناس محمد بن عبدالملك الزيات الوزير إلا قام له، فكان ابن أبي دؤاد إذا رآه قام واستقبل القبلة يصلي!! فقال ابن الزيات:

صَلى الضُّحى لما استفاد عَداوَتي ... وأراهُ يَنْسُكُ بعدها ويَصُومُ
لا تَعْدَمَنَّ عداوةً مَسمومَةً ... تركَتْكَ تَقْعُدُ تارةً وتَقُومُ

* ومدح أبو تمام ابن أبي دؤاد بقصيدة طويلة ومن ألطف أبياتها:

وإذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فَضيلةٍ ... طُويَتْ أتاحَ لها لسانَ حَسُودِ
لولا اشْتِعالُ النار فيما جاوَرَتْ ... ما كانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العود

* لبس ابن أبي دؤاد طيلساناً فزال عن منكبه فقال: ما أُحسِن ألبس الجديد، فقال له أبو العلاء المنقري: إن كنت لا تحسن أن تَلْبَسَهَ فإنك تحسن أن تُلْبسه! فرماه إليه.

وقعة عمورية

قال أبو تمام في وقعة عمورية:

السيفُ أَصدقُ إنباءً من الكتبِ ... في حَدِّهِ الحَدُّ(1) بين الجِدِّ واللَّعبِ
بيضُ الصفائحِ(2) لا سودُ الصحائف(3) ... في مُتُونِهنَّ جلاءُ الشكِّ والرِّيَبِ
والعِلمُ في شُهُبِ الأرماحِ لامعةً ... بين الخميسينِ(4) لا في السبعة الشُّهُبِ

أَيْـنَ الـروايـةُ بـلْ أَيْـنَ الـنـجـومُ ومـا صـاغـوهُ مـن زُخْـرُفٍ فـيهـا ومـن كَـذِبِ؟
فَتْحُ الـفـتـوحِ تـعـالَـىٰ أَنْ يُـحـيـطَ بـهِ نـظـمٌ مـن الـشـعـرِ أَو نـثـرٌ مـن الخُـطَـبِ
فـتـحٌ تَـفَـتَّـحُ أَبـوابُ الـسـمـاءِ لـهُ وتَـبـرُزُ الأَرضُ في أَثـوابِهـا القُـشُـبِ(٥)
يـا يـومَ وقـعـةِ عَـمُّـوريَّـةَ انـصَـرفـتْ عنـكَ المنىٰ حُفَّلاً(٦) معسولـةَ الحَلَبِ(٧)
لـقـد تَـركـتَ ـ أَمـيـرَ المؤمـنـينَ ـ بـهـا لـلـنـارِ يـومـاً ذلـيـلَ الـصـخـرِ والخَـشَـبِ
غـادرتَ فـيهـا بَـهـيـمَ الـليـلِ وهْـو ضُـحىً يَـشُـلُّـهُ(٨) وسْـطَـهـا صـبـحٌ مـن الـلَّـهـبِ
حـتـىٰ كـأَنَّ جَـلابـيـبَ الـدُّجَـىٰ رَغـبـتْ عـن(٩) لـونِهـا، أَو كـأَنَّ الـشـمـسَ لـم تَـغِـبِ
تـدبـيـرُ مـعـتـصـمٍ بـالـلَّـهِ، مـنـتـقـمٍ لـلَّـهِ، مـرتـقِـبٍ فـي الـلَّـهِ، مـرتـغِـبِ
لـمْ يَـغْـزُ قـومـاً ولـمْ يَـنْـهَـدْ إلـىٰ بـلـدٍ إلاَّ تَـقَـدَّمَـهُ جـيـشٌ مـن الـرُّعُـبِ
بَـصُـرْتَ بـالـراحـةِ الـكـبـرىٰ فـلـم تـرَهـا تُـنـالُ إلاَّ عـلـىٰ جـسـرٍ مـن الـتَّـعَـبِ

تأملات

* ثقافة المرء هي التي تحدد سلوكه!

* ليس هناك جميل ولا قبيح، وإنما تفكير الإنسان هو الذي يصور الجمال والقبح للإنسان.

* يقول أحد القادة: أنا لا أخاطب أحداً بخشونة، ولكني لا أحجم عن قطع رأس من يرفض تنفيذ أوامري!

---

(١) الحدّ: الفصل. (٢) الصفائح: جمع صفيحة وهي وجه السيف. (٣) الصحائف: الكتب. (٤) الخميس: الجيش. (٥) القشب: جمع قشيب وهو الحديد. (٦) الحفل: جمع حافلة وهي الممتلئة. (٧) معسولة الحلب: امتزج حليبها بالعسل. (٨) يشله: يطرده. (٩) رغب عنه: عكس رغب فيه.

إيوان كسرى

* قال البحتري يصف إيوان كسرى:

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدَنِّسُ نَفْسِي ... وَتَرَفَّعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جِبْسِ[1]
وَتَمَاسَكْتُ حَيْثُ زَعْزَعَنِي الدَّهْرُ ... الْتِمَاساً مِنْهُ لِتَعْسِي وَنُكْسِي[2]
حَضَرَتْ[3] رَحْلِيَ الْهُمُومُ فَوَجَّهْتُ ... إِلَى أَبْيَضِ الْمَدَائِنِ عَنْسِي
أَتَسَلَّى عَنِ الْحُظُوظِ وَآسَى ... لِمَحَلٍّ مِنْ آلِ سَاسَانَ[4] دَرْسِ
ذَكَّرَتْنِيهِمِ الْخُطُوبِ التَّوَالِي ... وَلَقَدْ تُذْكِرُ الْخُطُوبُ وَتُنْسِي
فَكَأَنَّ الْجِرْمَازَ[5] مِنْ عَدَمِ الأُنْسِ ... وَإِخْلاَلِهِ بَنِيَّةُ رَمْسِ
لَوْ تَرَاهُ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّيَالِي ... جَعَلَتْ فِيهِ مَأْتَماً بَعْدَ عِرْسِ
وَهُوَ يُنْبِيكَ عَنْ عَجَائِبِ قَوْمٍ ... لاَ يُشَابُ الْبَيَانُ فِيهِمْ بِلَبْسِ[6]
فَإِذَا مَا رَأَيْتَ صُورَةَ أَنْطَا ... كِيَةَ ارْتَعْتَ بَيْنَ رُومٍ وَفُرْسِ
وَالْمَنَايَا مَوَاثِلُ وَأَنُو شَرْ ... وَانَ يُزْجِي[7] الصُّفُوفَ تَحْتَ الدِّرَفْسِ
فِي اخْضِرَارٍ مِنَ اللِّبَاسِ عَلَى أَصْفَرَ ... يَخْتَالُ[8] فِي صَبِيغَةِ وَرْسِ
وَعِرَاكُ الرِّجَالِ بَيْنَ يَدَيْهِ ... فِي خُفُوتٍ[9] مِنْهُمْ وَإِغْمَاضِ جَرْسِ
مِنْ مُشِيحٍ[10] يَهْوِي بِعَامِلِ رُمْحٍ ... وَمُلِيحٍ مِنَ السِّنَانِ بِتُرْسِ
تَصِفُ الْعَيْنُ أَنَّهُمْ جِدُّ أَحْيَاءٍ ... لَهُمْ بَيْنَهُمْ إِشَارَةُ خُرْسِ
يَغْتَلِي[11] فِيهِمِ ارْتِيَابِيَ حَتَّى ... تَتَقَرَّاهُمُ يَدَايَ بِلَمْسِ
لَيْسَ يَدْرِي أَصُنْعُ إِنْسٍ لِجِنٍّ ... سَكَنُوهُ أَمْ صُنْعُ جِنٍّ لإِنْسِ
غَيْرَ أَنِّي أَرَاهُ يَشْهَدُ أَنْ لَمْ ... يَكُ بَانِيهِ فِي الْمُلُوكِ بِنِكْسِ[12]

فَكَأَنِّي أَرَىٰ الْمَرَاتِبَ وَالْقَوْ م إذَا مَا بَلَغْتُ آخِرَ حِسِّي

عُمِّرَتْ لِلسُّرُورِ دَهْراً فَصَارَتْ لِلتَّعَزِّي رِبَاعُهُمْ وَالتَّأَسِي(١٣)

* والبحتري هو: أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري. ولد بمنبج عام ٢٠٦هـ ومنبج بلدة تقع في الشمال الشرقي لمدينة حلب، تبعد عنها ما يقرب من ثمانين كيلو متراً. وعاش في العراق واتصل بالمتوكل وتوفي سنة ٢٨٤هـ. وهو من أرق الشعراء العباسيين شعراً.

تأملات

* المال جواز سفر عالمي يمكن لصاحبه السفر إلى كل البلاد، ما عدا السماء، وهو يجلب كل شيء ما عدا السعادة!

* من يؤمن بأن المال هو كل شيء، يفعل أي شيء من أجل الحصول عليه!

* الفقر ليس عيباً، ولكن من الأفضل إخفاؤه.

* قوام الحرب ثلاثة: المال والمال والمال! ـ نابليون ـ.

---

(١) الجدا: العطاء. والجبس: اللئيم، الجبان الفدم. (٢) نكسي: إذلالي. (٣) حضرته: جعلته حاضراً. والهموم: الناقة الحسنة المشي. وأبيض المدائن: القصر الأبيض لكسرى. والعنس: الجمال السمينة التامة. (٤) آل ساسان: ملوك الفرس من نسل أردشير حفيد ساسان مؤسس السلالة الساسانية. ودرس: بال. (٥) الجرماز: أحد أبهاء القصر. وأخلاله: بلاه، والرمس: القبر. (٦) اللبس: الالتباس. (٧) يزجي: يسوق. والدرفس: راية الفرس المقدسة، وهي رمز تحرير بلادهم على يد بطلهم الاسطوري أفريدون، ومعناها راية الحداد، وكانت محلاة، بالجواهر الكريمة. (٨) يختال: يتبختر تكبراً. والورس: نبات أصفر يصبغ به. (٩) الخفوت: السكوت. والجرس: الخفي من الصوت. (١٠) المشيح: المقبل عليك المانع لما وراء ظهره. والمليح: المحاذر خوفاً. (١١) يغتلي: يتعاظم. وتتقراهم: تتبعهم، أي أنه يلمسهم ليرى أصور مرسومة هم، أم أشخاص أحياء يتحاربون! (١٢) النكس: المقصر عن غاية الكرم. (١٣) أراد بالتعزي والتأسي: البكاء عليهم.

كِرَام الناس

* قال الشاعر المرقش الأكبر:

إنّا مُحَيُّوكِ يا سَلْمى فَحَيِّينا ... وإنْ سَقَيْتِ كرامَ الناسِ فاسْقِينا

وإن دَعَوتِ إلى جُلَّى(١) ومَكرُمة ... يوماً سَراةَ(٢) كِرامِ الناسِ فادْعِينا

إنَّا بَني نَهْشَلٍ لا نَدَّعي لأَبٍ ... عنه ولا هو بالأَبناءِ يَشْرِينا

إن تُبْتَدَرْ غايةٌ يوماً لمكرُمةٍ ... تَلْقَ السَّوابقَ منَّا والمصلِّينا(٣)

وليس يَهلِكُ منَّا سيِّدٌ أبداً ... إلا افْتَلَينا(٤) غلاماً سيِّداً فينا

إنا لَنُرخِصُ يومَ الرَّوعِ أنفسَنا ... ولو نُسامُ بها في الأَمنِ أُغْلِينا

بيضٌ مَفارقُنا تَغلي مَراجِلُنا ... نأْسو(٥) بأَموالِنا آثارَ أَيدينا

إنيِّ لَمِنْ مَعْشَرٍ أَفْنَى أوائلَهُمْ ... قِيلُ الكُماةِ(٦) أَلاَ أينَ المُحامونا؟

لو كان في الأَلفِ منَّا واحدٌ فَدَعَوْا ... مَن فارسٌ؟ خالَهمْ إِيَّاهُ يَعْنونا

إذا الكُماةُ تَنَحَّوْا أَنْ يُصيبَهُمُ ... حَدُّ الظُّباةِ(٧) وَصَلْناها بأَيدينا

ولا تَراهمْ وإن جَلَّتْ مُصيبتُهمْ ... مع البُكَاة على مَن ماتَ يَبْكونا

* والشاعر: المرقش الأكبر اسمه: عمرو بن سعد، من شعراء الجاهلية الفرسان شارك في حرب البسوس، وكان كاتباً في بلاط الغساسنة.

---

(١) الجلى: الأمر العظيم. (٢) السراة: جمع سريّ وهو السيد. (٣) المصلون: جمع المصلي وهو الذي يلي السابق. (٤) افتلى: انتقى. (٥) نأسو: نداوي. (٦) الكماة: جمع كمي وهو الفارس المسلح. (٧) الظباة: جمع ظبة وهي حد السيف.

* قال صفي الدين الحِليّ المتوفى سنة ٧٤٠هـ:

سَل الرِّماحَ العوالي عن معالينا ... واستشهد البيضَ هل خاب الرجافينا
لقد سَعينا فلم تضعُف عزائمُنا ... عما نرومُ ولا خابت مساعينا
قوم إذا استُخْصموا كانوا فَراعنة ... يوماً وإن حكموا كانوا موازينا
إذا ادَّعوا جاءت الدنيا مُصدِّقة ... وإن دَعَوا قالت الأيام آمينا
إنا لقوم أبت أخلاقنا شرفاً ... أن نبتدي بالأذى من ليس يُؤذينا
بيض صنائعنا سودٌ وقائعُنا ... خضر مَرابعنا حُمر مواضينا
لا يَظهر العجزُ منَّا دون نيل منى ... ولو رأينا المنايا في أمانينا

تأملات

* بعض الناس عظماء، لأن المحيطين بهم حقار صغار النفوس!

* من العظماء من يشعر المرء بحضرته أنه صغير، ولكن العظيم بحق هو من يشعر الجميع في حضرته بأنهم عظماء!

* الرجل العظيم، من يتحمل نتائج عمله.

* أنا لا أحترم إلا أولئك الذين يقاومونني على الدوام، ولكنني لا أستطيع الصفح عنهم!

* لعمرك ما الرزية فَقْدُ مالٍ ... ولا فرسٌ يموتُ ولا بعيرُ
ولكنّ الرزيةَ فَقْدُ حرٍّ ... يموت لموته خَلْقٌ كثيرُ

ابن الرومي

* الشاعر ابن الرومي هو صاحب النظم العجيب، والتوليد الغريب، يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكامنها ويبرزها في أحسن صورة، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ولا يبقي فيه بقية! وله القصائد المطوّلة والمقاطيع البديعة، وله في الهجاء كل شيء ظريف، وكذلك في المديح، ومن معانيه البديعة قوله:

وَإِذَا امْرُؤٌ مَدَحَ امْرأً لِنَوَالِهِ ... وَأَطَالَ فِيْهِ فَقَدْ أَرَادَ هِجَاءَهُ
لَوْ لَمْ يُقَدِّرْ فِيْهِ بُعْدَ المُسْتَقَى ... عِنْدَ الوُرُوْدِ لَمَا أَطَالَ رِشَاءَهُ

* كان المفضّل بن سلمة الضبي متصلاً بالوزير إسماعيل بن بلبل فقيل له: إن ابن الرومي الشاعر قد هجاه، فشق ذلك على الوزير، وحرم ابن الرومي عطاياه، فعمل ابن الرومي في المفضل أبياتاً وهي:

لو تلفّفت في كساء الكسائي ... وتفرّيت فروة الفرّاءِ
وتخللت بالخليل وأضحى ... سيبويه لديك رَهْنَ سباء
وتكونت من سواد أبي الأسود ... شخصاً يكنى أبا السوداء
لأبى الله أن يَعُدّك أهل العِلم ... إلا من جملةِ الأغبياء!

وكان المفضل من كبار الفقهاء، ومتقدميهم وكان مفرطاً في الذكاء وله تصانيف كثيرة، ولكن هكذا يفعل البغض والحسد.. من الشعراء..!

* وكان ابن الرومي كثير الطيرة، وربما أقام المدة الطويلة لا يتصرف تطيّراً لسوء ما يراه أو يسمعه، حتى إن بعض إخوانه من الأمراء افتقده وعرف بحاله في الطيرة فبعث إليه خادماً اسمه إقبال ليتفاءل به، فلما أخذ أهبة ركوبه قال للخادم: انصرف إلى مولاك! وقد قلب ابن الرومي اسم إقبال، فإذا هو: لا بقا! فتطير منه!! وكان هجّاء شديد الهجاء يخاف الناس سطوته وبذاءة لسانه. وكان سبب موته، أن الوزير أبا الحسين القاسم بن عبيدالله بن

سليمان بن وهب وزير المعتضد كان يخاف من هجوه وفَلَتات لسانه بالفحش، فدس عليه ابن فراس، فأطعمه أكلة مسمومة وهو في مجلسه، فلما أكلها أحس بالسم فقام، فقال له الوزير: إلى أين تذهب؟ فقال: إلى الموضع الذي بعثتني إليه! فقال له: سلّم على والدي!، فقال: ما طريقي على النار! وخرج من مجلسه وأتى منزله وأقام أياماً ومات. وكان الطبيب يتردد إليه ويعالجه بالأدوية النافعة للسم، فزعم أنه غلط في بعض العقاقير.

* قال إبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدي المعروف بنفطويه: رأيت ابن الرومي يجود بنفسه فقلت: ما حالك؟ فأنشد:

غلط الطبيبُ عليَّ غلطَة مُوردٍ ... عجزت موارده عن الإصدار

والناس يَلحَوْنَ الطبيبَ وإنما ... غلطُ الطبيب إصابة المقدار

* وقال أبو عثمان الناجم الشاعر: دخلت على ابن الرومي أعوده فوجدته يجود بنفسه، فلما قمت من عنده قال لي:

أبا عثمان أنت حميدُ قومِكْ ... وجودُك للعشيرة دون لومِكْ

تزوَّدْ من أخيك فما أراه ... يراكَ ولا تراهُ بعدَ يَوْمِكْ

تأملات

* المتشائم هو من يقول: لو اتجرت في الأكفان ما مات أحد!

* إن أقبلت باض الحمام على الوتدْ ... أو أدبرت بال الحمار على الأسدْ

هذا وصف للدنيا وتقلباتها.

* ما فائدة الدنيا الواسعة، إذا كان حذاؤك ضيقاً.

* الحظ كالزجاج، لامع، ولكنه سهل الكسر!

المتنبي.. شاعر الدنيا بلا منازع!!

* هو أبو الطيب، أحمد بن الحسين بن الحسن الجعفي الكوفي ومولده بالكوفة في سنة ثلاث وثلاثمائة في محلة تسمى كِنْدَة، فنسب إليها، وليس هو من كِنْدِة التي هي قبيلة، بل هو جعفي القبيلة من مذحج، ومات في رمضان بين شيراز والعراق وله إحدى وخمسون سنة، قيل: ليس في العالم أحد أشعر منه أبداً، وأما مثله فقليل!!

قَدِمَ الشام في صباه، واشتغل بفنون الأدب، ومهر فيها، وتضلع من علم اللغة.

مدح جماعة من الملوك، ووصله ابن العميد بثلاثين ألفاً، وأتاه من عضد الدولة صاحب شيراز مثلها!

* وسمي المُتَنَبِّي لأنه ادّعى النبوة في بادية السماوة، وتبعه خلق كثير من كَلْب وأخرج إليه لؤلؤ أمير حمص نائب الإخشيذية فأسره واستتابه، وتفرّق أصحابه، وكان كافور الإخشيذي يقول لما هجاه: من ادّعى النبوة، أَمَا يدعي المُلك؟!

* قتل مع المتنبيِّ، ابنه مُحَسَّدٌ، وغلامه مُفْلِحٌ، ولما رأى المتنبي الغلبة فرَّ، فقال له الغلام: لايُتحدث عنك بفرار وأنت القائل:

الخَيْلُ وَاللَّيلُ وَالبيداءُ تَعْرِفُني ... وَالطَّعْنُ والضَّرْبُ والقِرْطَاسُ والقَلمُ

فكرَّ راجعاً فقتل!

* قال الناميُّ الشاعر: كان قد بقي من الشعر زاوية دخلها المتنبي، وكنت أشتهي أن أكون قد سبقته إلى معنيين قالهما، ما سُبق إليهما، أحدهما قوله:

رَماني الدَّهر بالأرزاء حتَّى ... فؤادي في غشاء مِنْ نبالِ

فصرتُ إذا أصابتني سِهَامٌ ... تكسَّرَتِ النِّصالُ على النِّصالِ

والآخر قوله :

فـي جـحـفـل سـتـرَ الـعُـيـونَ غُـبـارُهُ ... فـكـأنمـا يُـبْـصِـرْنَ بـالآذانِ

* وينسب إلى المتنبي هذان البيتان :

أبِـعْـينِ مُـفـتـقـرٍ إلـيـكَ نـظَـرتـنـي ... فـأهـنـتـنـي وقـذَفـتـنـي مـن حـالِـقِ

لَـسـتَ الـمـلـومَ أنـا المـلـومُ لأنـنـي ... أنـزلـتُ آمـالـي بـغـيـرِ الخـالـقِ!

* ولما مات فاتك أبو شجاع الرومي الإخشيدي رثاه المتنبي بقصيدته التي أولها :

الحُـزْنُ يُـقْـلـقُ والـتـجـمُّـلُ يـردعُ ... والـدَّمـع بـيـنـهـمـا عَـصِـيٌّ طَـيِّـعُ

إنـي لأجـبُـنُ مـن فـراق أحـبَّـتـي ... وتحـسُّ نـفـسـي بـالحِـمـام فـأشـجـعُ

ويـزيـدنـي غَـضَـبُ الأعـادي قـسـوةً ... ويُـلـمُّ بـي عَـتْـبُ الـصَّـديـقِ فـأجـزعُ

تَـصْـفـو الحـيـاةُ لجـاهـلٍ أو غـافـلٍ ... عَـمَّـا مـضـى مـنـهـا ومـا يُـتَـوَقَّـعُ

ولمـن يُـغـالـط فـي الحـقـيـقـة نـفـسـهُ ... ويَـسُـومُـهـا طـلـبَ المُـحـال فـتـطـمعُ

أيْـنَ الـذي الـهَـرْمـان مـن بـنـيـانـه ... مـا قـومـه مـا يـومـه مـا المـصـرعُ

تـتـخـلَّـفُ الآثـار عـن أصـحـابـهـا ... حِـيـنـاً ويُـدركـهـا الـفـنـاء فـتـتـبعُ

وهي من المراثي الفائقة .

* وقال المتنبي :

يـا مَـنْ ألـوذُ بـهِ فـيـمـا أؤمِّـلُـه ... ومَـنْ أعـوذُ بـهِ ممّـا أحـاذرهُ

لا يـجـبرُ الـنـاسُ عـظـمـاً أنـتَ كـاسـرهُ ... ولا يـهـيـضـونَ عـظـمـاً أنـتَ جـابـرهُ

* ويعلق الإمام ابن كثير في البداية والنهاية على هذين البيتين فيقول : وقد بلغني عن شيخنا العلامة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله أنه كان يُنْكر على المتنبي هذه المبالغة

في مخلوق! ويقول: إنما يصلح هذا لجناب الله سبحانه وتعالى! وأخبرني العلامة شمس الدين بن القيم رحمه الله أنه سمع الشيخ تقي الدين المذكور يقول: ربما قلت هذين البيتين في السجود، أدعو الله بما تضمناه من الذل والخضوع!

* يقول المتنبي يصف الحمى:

وَزَائِرَتي كأَنَّ بها حَياءً ... فلَيْسَ تَزُورُ إلاَّ في الظَّلام(١)

بذَلْتُ لَها المَطَارف والحَشَايَا ... فَعَافَتها وباتَتْ في عظامي(٢)

يضيقُ الجلدُ عَنْ نَفسِي وعنها ... فَتُوسِعُهُ بِأنواعِ السَّقَام(٣)

كأَنَّ الصبحَ يطْرُدُها فتجرِي ... مَدَامِعُها بأَربعة سجام

أُراقِبُ وقْتَها مِنْ غَيْرِ شَوْقٍ ... مُرَاقَبَةَ المَشُوق المُسْتَهَام(٤)

ويَصْدُقُ وعْدُهَا والصِّدْقُ شرٌّ ... إِذَا أَلْقاكَ في الكُرَب العِظَام(٥)

أَبِنتَ الدَّهْرِ عِنْدِي كلُّ بِنْتٍ ... فكيف وَصلْتِ أَنتِ مِن الزِّحام؟(٦)

* قال المتنبي:

إذا رأيتَ نُيوبَ الليثِ بارزة ... فلا تَظُنَّن أن الليثَ يَبْتَسمُ

أعيذُها نظراتٍ منك صادقةً ... أن تحسبَ الشحم فيمَن شحمه ورمُ

---

(١) الواو واو رب أي رب زائرة لي، يريد بهذه الزائرة الحمى وكانت تأتيه ليلا، يقول: كأنها فتاة ذات حياء، فهي تزورني تحت سواد الليل! (٢) المطارف: جمع مطرف كمكرم وهو رداء من خز، الحشايا: جمع حشية وهي الفراش المحشو، وعافتها: أبتها. يقول هذه الزائرة أي الحمى لا تبيت في الفراش، وإنما تبيت في العظام. (٣) يقول: جلدي يضيق عن أن يسع أنفاسي ويسعها، فهي تذيب جسمي وتوسع جلدي بما تصيبه به من أنواع السقام. (٤) يقول إنه يراقب وقت زيارتها خوفاً لا شوقاً. (٥) يريد بوعدها وقت زيارتها، ويقول إنها صادقة الوعد لأنها لا تتخلف عن ميقاتها، وذلك الصدق شر، لأنها تصدق فيما يضر. (٦) يريد ببنت الدهر الحمى، وبنات الدهر شدائده، يقول للحمى: عندي كل نوع من أنواع الشدائد، فكيف لم يمنعك ازدحامهن من الوصول إليّ؟

أنـا الـذي نـظـر الأعـمـىٰ إلـىٰ أدبـي ... وأسـمـعـتْ كـلـمـاتـي مـن بـه صـمـمُ
ومـا انـتـفـاعُ أخـي الـدنـيـا بـنـاظـرهِ ... إذا اسـتـوت عـنـدهُ الأنـوارُ والـظـلـمُ
يـا مـن يـعـزُّ عـلـيـنـا أن نُـفـارقـهـمْ ... وجْـدانـنـا كـلُّ شـيء بـعـدكـم عـدمُ
إن كـان سَـرَّكـم مـا قـال حـاسِـدُنـا ... فـمـا لجـرح إذا أرضـاكـم ألـمُ
وبـيـنـنـا لـو رَعَـيْـتـم ذاك مـعـرفـة ... إن المـعـارفَ فـي أهـلِ الـنُّـهـىٰ ذِمَـمُ
كـم تـطـلـبـون لـنـا عـيـبـاً فـيـعـجـزُكـم ... ويَـكـرَه الـلـهُ مـا تـأتـونَ والـكـرَمُ
إذا تـرحَّـلـت عـن قـوم وقـد قَـدَروا ... ألا تُـفـارقـهـم فـالـرّاحـلـون هُـمُ

تأملات

* عامل ابنك كالأمير خمس سنين، وكالأجير عشر سنين، وكالصديق طوال العمر!

* إذلال الطفل يولّد لديه مناعة ضد النصائح التي تلقىٰ عليه، وسلب كرامته يسوّغ له عمل القبائح.

* الأطفال يحتاجون إلىٰ القدوة، لا إلىٰ الانتقاد.

* الحياء في الصبي خير من الخوف، لأن الحياء يدل علىٰ العقل، أما الخوف فيدل علىٰ الجبن!

* الأطفال الأشقياء، هم أطفال الغير فقط!

* جماله أو قبحه ليس هو السبب في حبي له، بل لأنه طفلي!

* قال أحد الحكماء: حفيت قدماي يوماً، فلم أستطع شراء حذاء، من شدة الفقر فتبرمت وضجرت، فدخلت مسجد الكوفة وأنا ضيق الصدر، فوجدت رجلاً بلا رجلين! فحمدت ربي وشكرت نعمته عليّ!

صالح عبدالقدوس

* كان صالح بن عبدالقُدوس حكيماً أديباً فاضلاً مجيداً، كان يجلس للوعظ في مسجد البصرة ويقص عليهم، اتهمه المهدي أمير المؤمنين بالزندقة فأمر بحمله إليه وأحضر بين يديه فلما خاطبه أعجب بغزارة مادته وعلمه وأدبه وبراعته وحسن بيانه وكثرة حكمته، فأمر بتخلية سبيله فلما ولى رده وقال له: ألست القائل:

والشيخ لا يترك أخلاقه ... حتى يوارى في ثرى رمسه

إذا ارعوى عاد إلى جهله ... كذي الضنى عاد إلى نكسه

قال: بلى يا أمير المؤمنين، قال: فأنت لا تترك أخلاقك ونحن نحكم فيك بحكمك في نفسك ثم أمر به فقتل، وصلب على الجسر. ويقال: إن المهدي أبلغ عنه أبياتاً يعرض فيها بالنبي ﷺ فأحضره المهدي وقال له: أنت القائل هذه الأبيات؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين، والله ما أشركت بالله طرفة عين فاتق الله ولا تسفك دمي على الشبهة وقد قال النبي ﷺ «ادرءوا الحدود بالشبهات» وجعل يتلو عليه القرآن حتى رق له وأمر بتخليته فلما ولى قال: أنشدني قصيدتك فأنشده حتى بلغ البيت الذي أوله:

والشيخ لا يترك أخلاقه.

فأمر به فقتل، وقيل إن المهدي ضربه بنفسه بالسَّيْفِ فَشَطَرَهُ شَطْرَيْنِ، وَعُلِّقَ بِضْعَةَ أَيَّامٍ لِلنَّاسِ ثُمَّ دُفِنَ. قال أحمد بن عبدالرحمن بن المعبر: رأيت صالح بن عبدالقدوس في المنام ضاحكاً مستبشراً فقلت ما فعل بك ربك؟ وكيف نجوت مما كنت ترمى به؟ قال: إني وردت على رب لا تخفى عليه خافية فاستقبلني برحمته وقال: قد علمت براءتك مما كنت تقذف به.

* ومن مختار شعر صالح بن عبدالقدوس قوله:

إن الغني الذي يرضى بعيشته ... لا من يظل على ما فات مكتئبا

لا تحقرن من الأيام محتقراً ... كل امرئ سوف يجزئ بالذي اكتسبا
قد يحقر المرء ما يهوئ فيركبه ... حتى يكون إلى توريطه سبباً

* وأشهر شعره قصيدته البائية التي مطلعها:

صَرَمَتْ حِبَالَكَ بَعْدَ وَصْلِكَ زَيْنَبُ ... وَالدَّهْرُ فِيهِ تَصَرُّمٌ وَتَقَلُّبُ
وَكَذَاكَ ذِكْرُ الْغَانِيَاتِ فَإِنَّهُ ... آلٌ بِبَلْقَعَةٍ وَبَرْقٌ خُلَّبُ
فَدَعِ الصِّبَا فَلَقَدْ عَدَاكَ زَمَانُهُ ... وَاجْهَدْ فَعُمْرُكَ مَرَّ مِنْهُ الأَطْيَبُ

* الآل: ما يرى كالماء وليس بماء، السراب.

* وَمِنْهَا:

وَاحْذَرْ مُعَاشَرَةَ الدَّنِيِّ فَإِنَّهَا ... تُعْدِي كَمَا يُعْدِي الصَّحِيحَ الأَجْرَبُ
يَلْقَاكَ يَحْلِفُ أَنَّهُ بِكَ وَاثِقٌ ... وَإِذَا تَوَارَىٰ عَنْكَ فَهْوَ الْعَقْرَبُ

* ومِنْ شِعْرِهِ:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ ... إِنَّمَا الْمَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ
إِنَّمَا الْمَيْتُ مَنْ يَعِيشُ كَئِيباً ... كَاسِفاً بَالُهُ قَلِيلَ الرَّجَاءِ

* ومن محاسن شعره قوله:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه ... حتى يوارئ في ثرئ رمسه
إذا ارعوئ عاد إلى جهله ... كذئ الضني عاد إلى نكسه
وإن من أدبته في الصبا ... كالعود يسقي الماء في غرسه
حتى تراه مورقا ناضرا ... بعد الذي أبصرت من يبسه

القافية

* وشعر صالح كله أمثال وحكم وآداب، ومن مستحسنات قصائده، القصيدة القافية وهي:

المرءُ يجمعُ والزمانُ يُفرّقُ ... ويظل يرقع والخطوبُ تمزقُ
ولئن يُعادي عاقلاً خير له ... منْ أنْ يكونَ له صديقٌ أحمقُ
فاربأ بنفسك أن تصادقَ أحمقاً ... إنَّ الصديقَ على الصديقِ مصدقُ
وَزِنِ الكلامَ إذا نطقتَ فإنما ... يُبدي عيوب ذوي العقولِ المنطقُ
ومن الرجالِ إذا استوتْ أحلامُهم ... من يستشار إذا استشير فيطرقُ
حتى يجول بكل وادٍ قلبهُ ... فيرى ويعرف ما يقول فينطق
فبذاك يوثقُ كل أمرٍ مطلقٌ ... وبذاك يطلقُ كل أمرٍ يوثقُ
وإنْ امرؤ لسعته أفعى مرةً ... تركته - حين يجر حبل - يفرقُ
لا ألفينك ثاوياً في غربة ... إن الغريبَ بكلِّ سهم يرشقُ
ما الناسُ إلا عاملان فعاملٌ ... قد مات من عطش وآخر يغرقُ
والناسُ في طلب المعاشِ وإنما ... بالجدِّ يرزقُ منهم من يرزقُ
لكنه فضل المليك عليهم ... هذا عليه موسع ومضيقُ
وإذا الجنازةُ والعروسُ تلاقيا ... ورأيت دمعَ نوائح يترقرقُ
سكت الذي تبع العروس مبهتاً ... ورأيتَ من تبع الجنازةَ ينطقُ
لو سار ألف مدجج في حاجةٍ ... لم يقضها إلا الذي يترفقُ
إن الترفقَ للمقيمِ موافقٌ ... وإذا يسافرُ فالترفقُ أوفقُ
بقي الذين إذا يقولوا يكذبوا ... ومضى الذين إذا يقولوا يصدقوا

* وعلى كل حال فشعر صالح بن عبدالقدوس في غاية الحسن

* قال السموأل بن عادياء:

إذا المرءُ لم يَدْنَسْ من اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميلُ
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها ... فليس إلى حسن الثناء سبيل
تعيِّرُنا أنا قليلٌ عديدنا ... فقلت لها: إن الكرامَ قليل
وما قل منْ كانتْ بقاياه مثلنا ... شباب تسامى للعلا وكهول
وما ضرنا أنا قليلٌ وجارنا ... عزيزٌ وجارُ الأكثرين ذليلُ
لنا جبل يحتله منْ نجيرُهُ ... منيعٌ يردُّ الطرفَ وهو كليلُ

* أراد بذكر الجبل العز والسمو. وقيل إن هذا الجبل هو حصن السموأل الذي يقال له الأبلق الفرد بناه أبوه، وقيل بناه سيدنا سليمان عليه السلام!

لامية العرب

* يقول الشنفرى الأزدي في قصيدته المعروفة بـ لامية العرب، واسمه ثابت بن أوس:

وإنّ مُدّت الأيدي إلى الزاد لم أكنْ ... بأعجلهم إذْ أجشعُ القوم أعجلُ
وما ذاك إلا بَسْطةٌ عن تفضلٍ ... عليهم وكان الأفضلَ المتفضّلُ

والقصيدة جميلة ويقول في مطلعها:

أقيموا بني أمي صدور مَطِيّكم ... فإني لقومٍ سواكم لأَمْيلُ
فقد حمَّت الحاجات والليل مقمرٌ ... وشدّت لطيَّات مطايا وأرحل
وفي الأرضَ منْأىً للكريم عن الأذى ... وفيها لمن خاف القِلى مُتعزّلُ
لَعَمْرُكَ ما بالأرضِ ضيقٌ على امرئٍ ... سَرَى راغباً أو راهباً وهو يَعْقلُ

* الشنفرىٰ هو العظيم الشفتين، وكان الشنفرىٰ من عدّائي العرب الذين لا تلحقهم الخيل، وحلف ليقتلن من بني سلامان مائة رجل، فقتل منهم تسعة وتسعين، وكان إذا وجد الرجل منهم يقول له: لطرفك! ثم يرميه فيصيب عينيه! فاحتالوا عليه فأمسكوه، وكان الذي أمسكه أسير بن جابر أحد العدائين، وقد رصد له حتىٰ نزل في مضيق ليشرب الماء، فوقف له فيه، فأمسكه ليلاً ثم قتلوه، فمر رجل منهم بجمجمته فضربها برجله فدخلت فيها شظية من الجمجمة فمات منها! فتمت القتلىٰ مائة! والله أعلم بصحة القصة. والشنفرىٰ من أهل اليمن ومات سنة ٥١٠م. ومن عدائي العرب غيره: سليك بن سليكة، وعمر بن برق وأسير بن جابر، وتأبط شراً.

أبو الصلت الأندلسي

* كان أبو الصَّلت أُميَّة بن عبدالعزيز بن أبي الصَّلت الدَّاني الأندلسي، صاحب الفلسفة، ماهراً في علوم الأوائل الطبيعي، والرياضي، والإلهي، كثير التصانيف، بديع النظم، وكان رأساً في معرفة الهيئة، والنجوم، والموسيقا.

ومن جميل شعره:

وقائلةٍ ما بالُ مثلِكَ خامِلاً ... أأنتَ ضعيفُ الرأي أم أنتَ عاجزُ
فقلتُ لها ذنبي إلىٰ القوم أنَّني ... لِمَا لَمْ يحوزُوه من المَجْد حَائزُ
وما فاتني شيءٌ سوىٰ الحظّ وحدهُ ... وأمّا المعالي فهي عندي غرائزُ!

* ومن شعره:

عَجبتُ مِنْ طَرْفِكَ في ضعفهِ ... كيفَ يصيدُ البَطَلَ الأصيدَا
يَفْعلُ فِينَا وهُو في غِمْدِهِ ... ما يفعلُ السيفُ إذا جُرِّدا

* وقال أبياتاً أوصىٰ أن تكتب علىٰ قبره وهي:

سَكنتكِ يا دارَ الفَناءِ مُصدِّقاً ... بأني إلىٰ دَارِ البَقَاءِ أصيرُ

وأعظم ما في الأمر أنّيَ صائرٌ إلى عادلٍ في الحكم ليس يجورُ
فيا ليتَ شِعري كيف ألقاهُ عندها وزادي قليلٌ والذنوبُ كثيرُ
فَإنْ أَكُ مَجْزِيّاً بذنبي فإنني بشرٍّ عقاب المذنبينَ جديرُ
وإن يَكُ عفوٌ منه عني ورحمة فَثَمَّ نعيمٌ دائمٌ وسرورُ

أبو الحسن التهامي

* كان أبو الحسن التهامي شاعراً مجيداً، وله نظم لطيف، قال عنه ابن خلكان في وفيات الأعيان: وله مرثية في ولده وكان قد مات صغيراً، وهي في غاية الحُسْن، ومن جملتها بيتان في الحُسَّاد ومعناهما غريب:

إنـي لأَرْحَم حاسِديَّ لحرِّ ما ضمَّت صدورهمُ من الأوغارِ
نظروا صنيع الله بي فعيونُهم في جنَّة وقلوبُهم في نارِ

ومنها في ذمّ الدُّنيا:

جُبِلت على كدرٍ وأنت تريدها صفواً من الأقذاءِ وَالأكدارِ
ومكلِّفُ الأيام ضد طِبَاعِهَا متطلبٌ في الماء جَذْوَةَ نَارِ
وإذا رَجَوْتَ المُسْتَحِيْل فإنما تبني الرجاءَ على شفيرٍ هارِ

ومنها:

جَاوَرْتُ أعدائي وجاورَ رَبَّهُ شَتَّان بين جِوارِهِ وجِوَاري
وتلهُّبُ الأحشاءِ شَيَّبَ مفرقي هذا الشعَاعُ شُواظُ تلكَ النارِ

* وله بيت بديع من قصيدة وهو:

وإذا جَفَاكَ الدَّهْرُ وهو أبو الورىٰ طُراًّ فلا تَعْتب علىٰ أولادهِ

* ورآه بعض أصحابه بعد موته في النوم، فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، قال: بأي الأعمال؟ قال: بقولي في مرثية ولدي:

جَاوَرْت أعدائي وجَاوَرَ رَبَّهُ ... شَتَّان بين جِوَارِهِ وجِوَارِي!

الكون مشحون بالأسرار

* قال الشاعر الشيخ علي بديوي رحمه الله:

لله في الآفاق آيات لعل ... أقلها هو ما إليه هداكا
و لعل ما في النفس من آياته ... عجب عجاب لو ترى عيناكا
و الكون مشحون بأسرار إذا ... حاولت تفسيراً لها أعياكا
قل للطبيب تخطّفته يَدُ الردى ... من يا طبيب بطبِّه أَرْداكا؟
قل للمريض نجا و عوفي بعدما ... عجزت فنون الطب: مَنْ عافاكا؟!
قل للصحيح يموت لا من علة ... من بالمنايا يا صحيح دهاكا؟
قل للبصير و كان يحفر حفرة ... فهوى بها ما ذا الذي أهواكا؟
بل سائل الأعمى خطى بين الزحام ... بلا اصطدام من يقود خطاكا؟
قل للجنين يعيش معزولاً بلا ... راع و مرعى من الذي يرعاكا؟
قل للوليد بكى و أجهش بالبكاء ... لدى الولادة من الذي أبكاكا؟
و إذا ترى الثعبان ينفث سمه ... فاسأله من ذا بالسموم حشاكا؟
واسأله كيف تعيش يا ثعبان ... أو تحيا و هذا السم يملأ فاكا؟
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت ... شَهْداً وقل للشَّهْد من حلاكا؟
بل سائل اللبن المصفى كان ... بين دم و فرث من الذي صفاكا؟

و إذا رأيت الحي يخرج من حنايا ميت فاسأله من يا حيّ قد أحياكا؟
قل للهواء تحسه الأيدي ويخفىٰ عن عيون الناس من أخفاكا؟
قل للنبات يجف بعد تعهدٍ و رعاية من بالجفاف رماكا؟
و إذا رأيت النبت في الصحراء يربو وحده فاسأله من أرباكا؟
و إذا رأيت البدر يسري ناشراً أنواره فاسأله من أسراكا؟
و اسأل شعاع الشمس يدنو وهي أبعد كل شيء ما الذي أدناكا؟
قل للمرير من الثمار من الذي بالمر من دون الثمار غذاكا؟
و إذا رأيت النخل مشقوق النوىٰ فاسأله من يا نخل شق نواكا؟
و إذا رأيت النار شب لهيبها فاسأل لهيب النار من أوْراكا؟
و إذا ترىٰ الجبل الأشم مناطحاً قمم السحاب فسله من الذي أرساكا؟
و إذا ترىٰ صخراً تفجر بالمياه فسله من بالماء شق صَفَاكا؟
و إذا رأيت النهر بالعذب الزلال جرىٰ فسله من الذي أجراكا؟
و إذا رأيت البحر بالملح الأجاج طغىٰ فسله من الذي أطغاكا؟
و إذا رأيت الليل يغشىٰ داجياً فاسأله من يا ليل حاك دُجاكا؟
و إذا رأيت الصبح يسفر ضاحياً فاسأله من يا صبح صاغ ضحاكا؟
ستجيب ما في الكون من آياته عجبٌ عجابٌ لو ترىٰ عيناكا
ربي لك الحمد العظيم لذاتك حمداً و ليس لواحد إلاّكا
يا مُدْرك الأبصارِ و الأبصارُ لا تدري له ولِكُنْهِه إدراكا
إن لم تكن عيني تراك فإنني في كل شيء أستبين علاكا

يـا مـنـبـت الأزهـار عـاطـرة الـشـذىٰ ... مـا خـاب يـومـا مـن دعـا و رجـاكـا
يـا مـجـري الأنـهـار عـاذبـة الـنـدىٰ ... مـا خـاب يـومـاً مـن دعـا ورجـاكـا
يـا أيـهـا الإنـسـان مـهـلاً مـا الـذي ... بـالـلـه جـل جـلالـه أغـراكـا؟

تأملات

* لا تعتذر إلا لمن يحب أن يجد لك عذراً.
* إعادة الاعتذار، تذكيرٌ بالذنب.
* أذلّ الناس معتذر إلى لئيم!
* أنت تستحق الإكبار، بقدر ما تبحث للآخرين عن أعذار!
* الصفح الجميل، عفو بلا تقريع! «فاصفح الصفح الجميل».
* قال المأمون لبعض أصحابه: لا تعص الله بطاعتي، فيسلطني عليك!
* أن تكون فرداً في جماعة الأسود، خيرٌ لك من أن تكون قائداً للنعاج!
* ليست الشجاعة في عدم الشعور بالخوف، ولكنها في التغلب على هذا الشعور.
* الضمير لا يمنعك من ارتكاب الخطأ، ولكنه يمنعك فقط من الاستمتاع به وأنت ترتكبه.
* لا يوجد إنسان ضعيف، ولكن يوجد إنسان يجهل في نفسه موطن القوة المعوِّضة.

ولد الهدى

وُلِدَ الْهُدَىٰ فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءُ — وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَسَنَاءُ
الرُّوحُ وَالْمَلأُ الْمَلائِكُ حَوْلَهُ — لِلدِّينِ والدنيا بِهِ بُشَرَاءُ
وَالْعَرْشُ يَزْهُو والْحَظِيرَةُ تَزْدَهِي — وَالْمُنْتَهَىٰ وَالسِّدْرَةُ الْعَصْمَاءُ
وَالْوَحْيُ يَقْطُرُ سَلْسَلاً مِنْ سَلْسَلٍ — وَاللَّوْحُ وَالْقَلَمُ الْبَدِيعُ رُوَاءُ
يَا خَيْرَ مَنْ جَاءَ الْوُجُودَ تَحِيَّةً — مِنْ مُرْسَلِيْنَ إِلَىٰ الْهُدَىٰ بِكَ جَاءُوا
بِكَ بشَّرَ اللَّهُ السَّمَاءَ فَزُيِّنَتْ — وَتَضَوَّعَتْ مِسْكاً بِكَ الْغَبْرَاءُ
يَوْمٌ يَتِيهُ عَلَىٰ الزَّمَانِ صَبَاحُهُ — وَمَسَاؤُهُ بِمُحَمَّدٍ وَضَّاءُ
يُوحَىٰ إِلَيْكَ النُّورُ فِي ظَلْمَائِهِ — مُتَتَابِعاً تُجْلَىٰ بِهِ الظَّلْمَاءُ
وَالآيُ تَتْرَىٰ وَالْخَوَارِقُ جَمَّةٌ — جِبْرِيلُ رَوَّاح بِهَا غَدَّاءُ
دِيْنٌ يُشَيَّدُ آيَةً فِي آيَةٍ — لَبِنَاتُهُ السُّورَاتُ وَالأَضْوَاءُ
الحَقُّ فِيهِ هُوَ الأَسَاسُ وَكَيْفَ لاَ — وَاللَّهُ جَلَّ جَلاَلُهُ الْبَنَّاءُ
بِكَ يَا ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ قَامَتْ سَمْحَةٌ — بِالْحَقِّ مِنْ مِلَلِ الْهُدَىٰ غَرَّاءُ
بُنِيَتْ عَلَىٰ التَّوْحِيْد وَهْوَ حَقِيْقَةٌ — نَادَىٰ بِهَا سُقْرَاطُ وَالْقُدَمَاءُ
وَمَشَىٰ عَلَىٰ وَجْهِ الزَّمَانِ بِنُورِهَا — كُهَّانُ وَادِي النِّيلِ وَالْعُرَفَاءُ
واللَّهُ فوقَ الخلق فيها وحده — والناسُ تحت لوائها أكفاءُ
وَالدِّيْنُ يُسْرٌ والْخِلاَفَةُ بَيْعَةٌ — وَالأَمْرُ شُورَىٰ وَالْحُقُوقُ قَضَاءُ
الإِشْتِرَاكِيُّونَ أَنْتَ إِمَامُهُمْ — لَوْلاَ دَعَاوَىٰ الْقَوْمِ وَالْغُلَوَاءُ
دَاوَيْتَ مُتَّئِداً وَدَاوَوْا طَفْرَةً — وَأَخَفُّ مِنْ بَعْضِ الدَّوَاءِ الدَّاءُ

الْحَرْبُ فِي حَقٍّ لَدَيْكَ شَرِيعَةٌ   وَمِنَ السُّمُومِ النَّافِعَاتِ دَوَاءُ
وَالْبِرُّ عِنْدَكَ ذِمَّةٌ وَفَرِيضَةٌ   لاَ مِنَّةٌ مَمْنُونَةٌ وَجِبَاءُ
جَاءَتْ فَوَحَّدَتِ الزَّكَاةُ سَبِيلَهُ   حَتَّى الْتَقَى الْكُرَمَاءُ وَالْبُخَلاءُ
أَنْصَفْتَ أَهْلَ الْفَقْرِ مِنْ أَهْلِ الْغِنَى   فَالْكُلُّ فِي حَقِّ الْحَيَاةِ سَوَاءُ
يَا مَنْ لَهُ الأَخْلاقُ مَا تَهْوَى الْعُلاَ   مِنْهَا وَمَا يَتَعَشَّقُ الْكُبَرَاءُ
زَانَتْكَ فِي الْخُلُقِ الْعَظِيمِ شَمَائِلٌ   يُغْرَى بِهِنَّ وَيُولَعُ الْكُرَمَاءُ
فَإِذَا سَخَوْتَ بَلَغْتَ بِالْجُودِ الْمَدَى   وَفَعَلْتَ مَا لاَ تَفْعَلُ الأَنْوَاءُ
وَإِذَا عَفَوْتَ فَقَادِراً وَمُقَدِّراً   لاَ يَسْتَهِينُ بِعَفْوِكَ الْجُهَلاءُ
وَإِذَا رَحِمْتَ فَأَنْتَ أُمٌّ أَوْ أَبٌ   هَذَانِ فِي الدُّنْيَا هُمَا الرُّحَمَاءُ
وَإِذَا خَطَبْتَ فَلِلْمَنَابِرِ هِزَّةٌ   تَعْرُو النَّدِيَّ وَلِلْقُلُوبِ بُكَاءُ
وَإِذَا أَخَذْتَ الْعَهْدَ أَوْ أَعْطَيْتَهُ   فَجَمِيعُ عَهْدِكَ ذِمَّةٌ وَوَفَاءُ
يَا مَنْ لَهُ عِزُّ الشَّفَاعَةِ وَحْدَهُ   وَهُوَ الْمُنَزَّهُ مَا لَهُ شُفَعَاءُ
لِيَ فِي مَدِيحِكَ يَا رَسُولُ عَرَائِسٌ   تُيِّمْنَ فِيكَ وَشَاقَهُنَّ جَلاءُ
هُنَّ الْحِسَانُ فَإِنْ قَبِلْتَ تَكَرُّماً   فَمُهُورُهُنَّ شَفَاعَةٌ حَسْنَاءُ
مَا جِئْتُ بَابَكَ مَادِحاً بَلْ دَاعِياً   وَمِنَ الْمَدِيحِ تَضَرُّعٌ وَدُعَاءُ
أَدْعُوكَ عَنْ قَوْمِي الضِّعَافِ لأَزْمَةٍ   فِي مِثْلِهَا يُلْقَى عَلَيْكَ رَجَاءُ

* الشاعر: أحمد شوقي

قبسٌ من الصحراء

قبسٌ من الصحراء شعشعَ نورُهُ ... فجلا ظلام الجهلِ عنْ دنيانا
ومشى وفي أردانِه عبقُ الهُدى ... وأريجُ فضلٍ عطّرَ الألوانا
بعثَ الشريعةَ من غياهبِ رمسها ... فرعى الحقوقَ وفتَّحَ الأذهانا
مرحى لأميٍّ يَعلّمُ سفرُهُ ... نبغاءَ يعرُبَ حكمةً وبيانا
من ذا يجاذبُهُ الفخارَ وقد حمى ... أُمَّ اللغاتِ وشرَّفَ العُربانا؟
أمحمَّد والمجد نسجُ يمينه ... مُجّدتَ في تعليمكَ الأديانا
وسحقتَ رأسَ الشرِّ حين وطئته ... وزرعتَ في قلبِ العتيِّ حنان
ونشرتَ ذكر اللهِ في أُمةٍ ... وثنيةٍ ونفحتها الإيمانا
وأمرتها بالبرِّ فاعتزّتْ بهِ ... وتسابقتْ في نشرها الإحسانا
بُعثَ الجهادُ لدن بُعثتَ وجُرّدَتْ ... أسيافُ صحبكَ تفتحُ البلدانا
وتساعدُ الضعفا وتصقعُ منْ طغى ... صعقات صدقٍ تُزهقُ البهتانا
إني مسيحيٌّ أُجلُّ محمداً ... وأراهُ في سِفْرِ العُلى عُنوانا
وأطأطئ الرأسَ الرفيع لذكرِ من ... صاغَ الحديث وعلّم القرآنا
إني أباهي بالرسولِ لأنّهُ ... صقلَ النفوس وهذَّبَ الوجدانا
ولأنهُ داسَ الجهالةَ وانتضى ... سيفَ الجهادِ فحطّم الأوثانا
ولأنه حفِظَ العروبةَ وابتنى ... للعربِ مجداً رافقَ الأزمانا
صانَ الفخارُ البكرُ ذكرَ محمَّدٍ ... وهفا فشنَّفَ باسمهِ الآذانا
والخلدُ صافحنا وشادَ بذكرنا ... فعنى أُسودَ المجد حينَ عنانا

أمعزِّز الفُصحىٰ ومُطلع شمسها ... ذكراك عيدٌ يُذهبُ الأشجانا
ذكراك تجمعنا وتجمعُ حولنا ... إخوانَ صدقٍ عانقوا الإخوانا
إنا حلفنا أن نصونَ إخاءنا ... بسياجِ عزٍ لنْ يمسَّ هوانا
فلقد ربينا في ظلالِ عروبةٍ ... عرباءَ تُشْرقُ عزّةً وأمانا
ما نحنُ إلاَّ إخوةٌ نسعىٰ إلىٰ ... إسعادِ أمتنا وصون حمانا

* القصيدة للشاعر عبدالله يوركي حلاق، صاحب مجلة الضاد في حلب بسوريا.

مَنْ مثلكم لرسول الله ينتسب

من مثلكم لرسول الله ينتسبُ ... ليت الملوك لها من جدّكم نسبُ
ما للسلاطين أحسابٌ بجانبكم ... هذا هو الشرف المعروف والحسبُ
أصلٌ هو الجوهر المكنون ما لعبت ... بهِ الأكفّ ولا حاقت به الريبُ
خير النبيين لم يُذكر على شفةٍ ... إلا وصلّت عليه العُجْم والعربُ
خير النبيين لم تُحصر فضائله ... مهما تصدت لها الأسفار والكتب
خير النبيين لم يُقرَن به أحدٌ ... وهكذا الشمس لم تُقرَن بها الشهب
واهتزت الأرض إجلالاً لمولده ... شبيهة بعروس هزّها الطرب
الماء فاض زلالاً من أصابعه ... أروىٰ الجيوش وجوفُ الجيش يلتهبُ
والظبي أقبل بالشكوىٰ يخاطبه ... والصخر قد صار منه الماء ينسكب
ساداتنا الغرّ من أبناء فاطمةٍ ... طوبىٰ لمن كان للزهراء ينتسبُ
مِنْ نسلِ فاطمةٍ أنعمْ بفاطمة ... من أجل فاطمةٍ قد شُرّف النسبُ!

* القصيدة للشاعر الإدريسي

فاطمة الزهراء... سيدة النساء

نسبُ المسيحِ بَنىٰ لمريمَ سيرةً ... بقيت علىٰ طول المدىٰ ذكراها
والمجد يشرق من ثلاث مطالع ... في مهد فاطمة فما أعلاها
هي بنتُ مَنْ؟ هي زوْجُ مَنْ؟ هي أمّ مَنْ؟ ... من ذا يداني في الفخار أباها
هي ومضة من نور عين المصطفىٰ ... هادي الشعوب إذ تروم هداها
هو رحمة للعالمين، وكعبة ... الآمال في الدنيا وأخراها
من أيقظ الفِطَرَ النيام بروحه ... وكأنه بعد البِلىٰ أحياها
وأعاد تاريخ الحياة جديدة ... مثل العرائس في جديد حلاها

* الشاعر محمد إقبال

تأملات

* إذا أنت أسديت إلىٰ إنسان جميلاً، فحاذر أن تذكره، وإذا أسدىٰ إليك إنسان جميلاً فحاذر أن تنساه!

* أشرف الثأر، العفو!

* إذا قدرت علىٰ عدوك، فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه!

* العاقل يتغافل عن المقابح ويذكر المحاسن، يروىٰ أن عيسىٰ عليه السلام مرّ مع الحواريين علىٰ كلب ميت، قد غلب نَتْنه، فقالوا: ما أَنْتن هذه الجيفة! فقال عيسىٰ عليه السلام: ما أحسن بياض أسنانه! تنبيهاً علىٰ أن الذي ينبغي أن يذكر من كل شيء أحسن ما فيه!

* الدنيا كالماء المالح، كلما ازداد صاحبها شراباً، ازداد عطشاً.

نهج البردة

رِيمٌ عَلىٰ القاعِ بَينَ البانِ وَالعَلَمِ ... أَحَلَّ سَفْكَ دَمي في الأَشهُرِ الحُرُمِ
لَمّا رَنا حَدَّثَتني النَفسُ قائِلَةً ... يا وَيحَ جَنْبِكَ بِالسَهمِ المُصيبِ رُمي
جَحَدْتُها وَكَتَمتُ السَهمَ في كَبِدي ... جُرحُ الأَحِبَّةِ عِندي غَيرُ ذي أَلَمِ
يا لائِمي في هَواهُ وَالهَوىٰ قَدَرٌ ... لَو شَفَّكَ الوَجدُ لَم تَعذِل وَلَم تَلُمِ
لَقَد أَنَلْتُكَ أُذناً غَيرَ واعِيَةٍ ... وَرُبَّ مُسْتَمِعٍ وَالقَلبُ في صَمَمِ
يا ناعِسَ الطَرفِ لا ذُقتَ الهَوىٰ أَبَداً ... أَسهَرتَ مُضناكَ في حِفظِ الهَوىٰ فَنَمِ
يا نَفسُ دُنياكِ تُخفي كُلَّ مُبكِيَةٍ ... وَإِن بَدا لَكِ مِنها حُسنُ مُبتَسَمِ
صَلاحُ أَمْرِكَ لِلأَخلاقِ مَرجِعُهُ ... فَقَوِّمِ النَفسَ بِالأَخلاقِ تَستَقِمِ
وَالنَفسُ مِن خَيرِها في خَيرِ عافِيَةٍ ... وَالنَفسُ مِن شَرِّها في مَرتَعٍ وَخِمِ
إِنْ جَلَّ ذَنبي عَنِ الغُفرانِ لي أَمَلٌ ... في اللَهِ يَجعَلُني في خَيرِ مُعتَصَمِ
أُلقي رَجائي إِذا عَزَّ المُجيرُ عَلىٰ ... مُفَرِّجِ الكَرْبِ في الدارَينِ وَالغُمَمِ
إِذا خَفَضتُ جَناحَ الذُلِّ أَسأَلُهُ ... عِزَّ الشَفاعَةِ لَم أَسأَل سِوىٰ أَمَمِ
وَإِن تَقَدَّمَ ذو تَقوىٰ بِصالِحَةٍ ... قَدَّمتُ بَينَ يَدَيهِ عَبرَةَ النَدَمِ
لَزِمتُ بابَ أَميرِ الأَنبِياءِ وَمَنْ ... يُمسِك بِمِفتاحِ بابِ اللَهِ يَغتَنِمِ
مُحَمَّدٌ صَفوَةُ الباري وَرَحمَتُهُ ... وَبُغيَةُ اللَهِ مِن خَلْقٍ وَمِن نَسَمِ
وَنودِيَ اقرَأْ تَعالىٰ اللَهُ قائِلُها ... لَم تَتَّصِل قَبلَ مَن قيلَت لَهُ بِفَمِ
هُناكَ أُذِّنَ لِلرَحمَنِ فَامتَلأَتْ ... أَسماعُ مَكَّةَ مِن قُدسِيَّةِ النَغَمِ
سَرَت بَشائِرُ بِالهادي وَمَولِدِهِ ... في الشَرقِ وَالغَربِ مَسرىٰ النورِ في الظُلَمِ

أَتَيتَ وَالناسُ فَوضىً لا تَمُرُّ بِهِم إِلّا عَلى صَنَمٍ قَد هامَ في صَنَمِ

أَسرى بِكَ اللَهُ لَيلاً إِذ مَلائِكُهُ وَالرُسْلُ في المَسجِدِ الأَقصى عَلى قَدَمِ

لَمّا خَطَرتَ بِهِ التَفّوا بِسَيِّدِهِمْ كَالشُهْبِ بِالبَدرِ أَو كَالجُندِ بِالعَلَمِ

صَلّى وَراءَكَ مِنهُم كُلُّ ذي خَطَرٍ وَمَن يَفُزْ بِحَبيبِ اللَهِ يَأتَمِمِ

جُبْتَ السَماواتِ أَو ما فَوقَهُنَّ بِهِم عَلى مُنَوَّرَةٍ دُرِّيَّةِ اللُجُمِ

مَشيئَةُ الخالِقِ الباري وَصَنعَتُهُ وَقُدرَةُ اللَهِ فَوقَ الشَكِّ وَالتُهَمِ

حَتّى بَلَغتَ سَماءً لا يُطارُ لَها عَلى جَناحٍ وَلا يُسعى عَلى قَدَمِ

وَقيلَ كُلُّ نَبِيٍّ عِندَ رُتْبَتِهِ وَيا مُحَمَّدُ هَذا العَرشُ فَاستَلِمِ

يا رَبِّ هَبَّتْ شُعوبٌ مِن مَنِيَّتِها وَاستَيقَظَتْ أُمَمٌ مِن رَقدَةِ العَدَمِ

رَأى قَضاؤُكَ فينا رَأيَ حِكمَتِهِ أَكرِم بِوَجهِكَ مِن قاضٍ وَمُنتَقِمِ

فَالطُف لِأَجلِ رَسولِ العالَمينَ بِنا وَلا تَزِد قَومَهُ خَسْفاً وَلا تُسُمِ

يا رَبِّ أَحسَنتَ بَدءَ المُسلِمينَ بِهِ فَتَمِّمِ الفَضلَ وَامنَحْ حُسنَ مُختَتَمِ

ـ عارض الشاعر أحمد شوقي في هذه القصيدة «البردة» للبوصيري التي مطلعها:

أمن تذكر جيران بذي سَلَمٍ مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

تأملات

* لا تستحي من إعطاء القليل، فإن الحرمان أقلّ منه!

* من يُعط بسرعة فكأنما أعطى مرتين!

* العطاء مع الوجه البشوش، حسنة مضاعفة.

* الإحسان أن تصون وجه السائل من ماء المذلة!

إلى عرفات الله

إلَىٰ عَرَفَاتِ اللَّهِ يَا خَيْرَ زَائِرٍ
عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ فِي عَرَفَاتِ

وَيَوْمَ تُوَلِّي وِجْهَةَ الْبَيْتِ نَاضِراً
وَسِيْمَ مَجَالِ الْبِشْرِ وَالْقَسَمَاتِ

عَلَىٰ كُلِّ أُفْقٍ بِالحِجَازِ مَلائِكٌ
تَزُفُّ تَحَايَا اللَّهِ وَالْبَرَكَاتِ

لَدَىٰ البَابِ جِبْرِيلُ الأَمِيْنُ بِرَاحِهِ
رَسَائِلُ رَحْمَانِيَّةُ النَّفَحَاتِ

وَفِي الْكَعْبَةِ الغَرَاءِ رُكْنٌ مُرَحِّبٌ
بِكَعْبَةِ قُصَّادٍ وَرُكْنُ عُفَاةِ

وَزَمْزَمُ تَجْرِي بَيْنَ عَيْنَيْكَ أَعْيُناً
مِنَ الْكَوْثَرِ المَعْسُولِ مُنفَجِرَاتِ

لَكَ الدِّينُ يَا رَبَّ الحَجِيجِ جَمَعْتَهُمْ
لبيتٍ طَهُورِ السَّاحِ والشُّرُفَاتِ

أَرىٰ النَّاسَ أَفْوَاجاً وَمِنْ كُلِّ بُقْعَةٍ
إِلَيْكَ انْتَهوا مِنْ غُرْبَةٍ وَشَتَاتِ

تَسَاوَوْا فَلاَ الأَنْسَابُ فِيهَا تَفَاوُتٌ
لَدَيْكَ وَلاَ الأَقْدَارُ مُخْتَلِفَاتِ

وَيَا رَبِّ هَلْ تُغْنِي عَنِ الْعَبْدِ حَجَّةٌ
وَفِي العُمْرِ مَا فِيهِ مَنْ الْهَفَوَاتِ

وَتَشْهَدُ مَا آذَيْتُ نَفْساً وَلَمْ أُضِرْ
وَلَمْ أَبْغِ فِي جَهْرِي وَلاَ خَطَرَاتِي

وَلاَ حَمَلَتْ نَفْسٌ هَوىً لِبِلاَدِهَا
كَنَفْسِي فِي فِعْلِي وَفِي نَفَثَاتِي

وَقَدَّمْتُ أَعْذَارِي وَذُلِّي وَخَشْيَتِي
وَجِئْتُ بِضَعْفِي شَافِعاً وَشَكَاتِي

وَأَنْتَ وَلِيُّ العَفْوِ فَامْحُ بِنَاصِعٍ
مِنَ الصَّفْحِ مَا سَوَّدْتُ مِنْ صَفَحَاتِ

وَمَنْ تَضْحَكِ الدُّنْيَا إِلَيْهِ فَيَغْتَرِرْ
يَمُتْ كَقَتِيلِ الغِيدِ بِالْبَسَمَاتِ

إِذَا زُرْتَ بَعْدَ الْبَيْتِ قَبْرَ مُحَمَّدٍ
وَقَبَّلْتَ مَثْوَىٰ الأَعْظُمِ العَطِرَاتِ

وَفَاضَتْ مِنَ الدَّمْعِ الْعُيُونُ مَهَابَةً
لأَحْمَدَ بَيْنَ السِّتْرِ وَالحُجُرَاتِ

وَأَشْرَقَ نُورٌ تَحْتَ كُلِّ ثَنِيَّةٍ
وَضَاعَ أَرِيجٌ تَحْتَ كُلِّ حَصَاةِ

فَقُلْ لِرَسُولِ اللَّهِ يَا خَيرَ مُرْسَلٍ — أَبُثُّكَ مَا تَدْرِي مِنَ الحَسَرَاتِ
شُعُوبُكَ فِي شَرْقِ البِلَادِ وَغَرْبِهَا — كَأَصْحَابِ كَهْفٍ فِي عَمِيقِ سُبَاتِ
بِأَيْمَانِهِمْ نُورانِ: ذِكْرٌ وسُنَّةٌ — فَمَا بِالُهُمْ في حَالِكِ الظُّلُماتِ!
وَقُلْ رِبِّ وَفِّقْ لِلْعَظَائِمِ أُمَّتِي — وَزَيِّنْ لَهَا الأَفْعَالَ والْعَزَمَاتِ

* الشاعر: أحمد شوقي

تأملات

* إذا لم يكن في حوزتك غير مطرقة، فستتعامل مع أي شيء على أنه مسمار.

* بقدر قيمتك يكون النقد الموجه إليك.

* إن حظي كدقيق — فوق شوك نثروه
ثم قالوا لحفاة — يوم ريح: اجمعوه
صعب الأمر عليهم — ثم قالوا: أهملوه
إنَّ من أشقاه ربي — كيف أنتم تسعدوه!

* أن تدعو إلى الإحسان شيء، وأن تجود بالقمح فهذا أمر آخر! ـ مثل أسباني

سلو قلبي

سَلو قَلبي غَداةَ سَلا وَتابا … لَعَلَّ عَلى الجَمالِ لَهُ عِتابا

وَيُسأَلُ في الحَوادِثِ ذو صَوابٍ … فَهَل تَرَكَ الجَمالُ لَهُ صَوابا

وَكُنتُ إِذا سَأَلتُ القَلبَ يَوماً … تَوَلّى الدَمعُ عَن قَلبي الجَوابا

وَلي بَينَ الضُلوعِ دَمٌ وَلَحمٌ … هُما الواهي الَّذي ثَكِلَ الشَبابا

تَسَرَّبَ في الدُموعِ فَقُلتُ وَلّى … وَصَفَّقَ في الضُلوعِ فَقُلتُ: ثابا

وَلَو خُلِقَتْ قُلوبٌ مِن حَديدٍ … لَما حَمَلَتْ كَما حَمَلَ العَذابا

وَلا يُنْبيكَ عَن خُلُقِ اللَيالي … كَمَنْ فَقَدَ الأَحِبَّةَ وَالصَحابا

أَخا الدُنيا أَرى دُنياكَ أَفعى … تُبَدِّلُ كُلَّ آوِنَةٍ إِهابا

فَمَن يَغتَرُّ بِالدُنيا فَإِنّي … لَبِسْتُ بِها فَأَبلَيْتُ الثِيابا

جَنَيتُ بِرَوضِها وَرداً وَشَوكاً … وَذُقتُ بِكَأسِها شَهْداً وَصابا

فَلَم أَرَ غَيرَ حُكْمِ اللَهِ حُكماً … وَلَم أَرَ دونَ بابِ اللَهِ بابا

وَأَنَّ البِرَّ خَيرٌ في حَياةٍ … وَأَبقى بَعدَ صاحِبِهِ ثَوابا

نَبِيُّ البِرِّ بَيَّنَهُ سَبيلاً … وَسَنَّ خِلالَهُ وَهَدى الشِعابا

وَكانَ بَيانُهُ لِلهَدْيِ سُبْلاً … وَكانَت خَيْلُهُ لِلحَقِّ غابا

وَعَلَّمَنا بِناءَ المَجدِ حَتّى … أَخَذْنا إِمرَةَ الأَرضِ اغْتِصابا

وَما نَيلُ المَطالِبِ بِالتَمَنّي … وَلَكِن تُؤخَذُ الدُنيا غِلابا

وَما استَعصى عَلى قَومٍ مَنالٌ … إِذا الإِقْدامُ كانَ لَهُمْ رِكابا

أَبا الزَهراءِ قَد جاوَزتُ قَدري … بِمَدحِكَ بَيدَ أَنَّ لِيَ انتِسابا

فَـمـا عَـرَفَ الـبَـلاغَـةَ ذو بَـيـانٍ إذا لَـم يَـتَّـخِـذْكَ لَـهُ كِـتَـابـا

مَـدَحـتُ المـالِـكـينَ فَـزِدتُ قَـدراً فَـحـينَ مَـدَحـتُـكَ اقـتَـدتُ الـسَّـحابَا

سَـأَلـتُ الـلـهَ فـي أَبـنـاءِ ديـنـي فَـإِن تَـكُـنِ الـوَسـيـلَـةَ لـي أَجَـابَـا

وَمـا لِـلـمُـسـلِـمـينَ سِـواكَ حِـصـنٌ إذا مـا الـضُّـرُّ مَـسَّـهُـمُ وَنَـابـا

* الشاعر : أحمد شوقي

تأملات

* إذا ظفر العاشق بالمعشوق مرة، نقص تسعة أعشار عشقه!

* العشق هو استحسان يضاف إليه طمع!

* إذا ركلك الناس من الخلف، فاعلم أنك في المقدمة!

* من تهز المهد بيسراها تستطيع أن تهزّ العالم بيمناها.

* يروى أن عمر بن الخطاب كان كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات :

لا شيء مما ترى تبقى بشاشتُه يبقى الإله ويودي المال والولد

لم تُغْنِ عن هرمزٍ يوماً خزائنه والخلدَ قد حاولت عادٌ فما خلدوا

ولا سليمان إذ تجري الرياحُ له والإنس والجن فيما بينها تَرد

أين الملوك التي كانت لعزتها من كل أوب إليها وافدٌ يفد

حوضٌ هنالك مورود بلا كذب لا بد من ورده يوماً كما وردوا

* ولو أن الحياة تبقى لحي لعددنا أضلنا الشجعانا

وإذا لم يكن من الموت بدّ فمن العجز أن تكون جباناً

* إن الذي خلق الحقيقة علقماً لم يخل من أهل الحقيقة جيلاً

حديث الروح

حَـدِيْـثُ الـرُّوْحِ لِـلأَرْوَاحِ يَـسْـرِي ... وَتُـدْرِكُـهُ الْـقُـلُـوبُ بِـلاَ عَـنَـاءِ
هَـتَـفْـتُ بِـهِ فَـطَـارَ بِـلاَ جَـنَـاحِ ... وَشَـقَّ أَنِـيْـنُـهُ صَـدْرَ الْـفَـضَـاءِ
وَمَـعْـدِنُـهُ تُـرَابِـيٌّ وَلَـكِـنْ ... جَـرَتْ فِـي لَـفْـظِـهِ لُـغَـةُ الـسَّـمَـاءِ
لَـقَـدْ فَـاضَـتْ دُمُـوعُ الْـعِـشْـقِ مِـنِّـي ... حَـدِيْـثـاً كَـانَ عُـلْـوِيَّ الـنِّـدَاءِ
فَـحَـلَّـقَ فِـي رُبَـى الأَفْـلاَكِ حَـتَّـى ... أَهَـاجَ الْـعَـالَـمَ الأَعْـلَـى بُـكَـائِـي

*** ***

تَـحَـاوَرَتِ الـنُّـجُـومُ وَقُـلْـنَ صَـوْتٌ ... بِـقُـرْبِ الْـعَـرْشِ مَـوْصُـولُ الـدُّعَـاءِ
وَجَـاوَبَـتِ الْـمَـجَـرَّةُ عَـلَّ طَـيْـفـاً ... سَـرَى بَـيْـنَ الْـكَـوَاكِـبِ فِـي خَـفَـاءِ
وَقَـالَ الْـبَـدْرُ هَـذَا قَـلْـبُ شَـاكٍ ... يُـوَاصِـلُ شَـدْوَهُ عِـنْـدَ الْـمَـسَـاءِ
وَلَـمْ يَـعْـرِفْ سِـوَى رِضْـوَانَ صَـوْتِـي ... وَمَـا أَحْـرَاهُ عِـنْـدِي بِـالْـوَفَـاءِ

*** ***

شَـكْـوَايَ أَمْ نَـجْـوَايَ فِـي هَـذَا الـدُّجَـى ... وَنُـجُـومُ لَـيْـلِـي حُـسَّـدِي أَمْ عُـوَّدِي
أَمْسَيْتُ فِـي الْـمَـاضِـي أَعِـيْـشُ كَـأَنَّـمَـا ... قَـطَـعَ الـزَّمَـانُ طَـرِيـقَ أَمْـسِـي عَـنْ غَـدِي
وَالـطَّـيْـرُ صَـادِحَـةٌ عَـلَـى أَفْـنَـانِـهَـا ... تُـبْـكِـي الـرُّبَـى بِـأَنِـيْـنِـهَـا الْـمُـتَـجَـدِّدِ
قَـدْ طَـالَ تَـسْـهِـيْـدِي وَطَـالَ نَـشِـيْـدُهَـا ... وَمَـدَامِـعِـي كَـالـطَّـلِّ فِـي الْـغُـصْـنِ الـنَّـدِي
فَـإِلَـى مَـتَـى صَـمْـتِـي كَـأَنِّـي زَهْـرَةٌ ... خَـرْسَـاءُ لَـمْ تُـرْزَقْ بَـرَاعَـةَ مُـنْـشِـدِ

*** ***

قِـيـثَـارَتِـي مُـلِـئَـتْ بِـأَنَّـاتِ الْـجَـوَى ... لا بُـدَّ لِـلْـمَـكْـبُـوتِ مِـنْ فَـيَـضَـانِ

صَعَدَتْ إلَىٰ شَفَتَي خَواطِرُ مُهْجَتِي ... لِيَبِيْنَ عَنْهَا مَنْطِقِي وَلِسَانِي
أَنا ما تَعَدَّيْتُ الْقَنَاعَةَ وَالرِّضَا ... لَكِنَّمَا هِيَ قِصَّةُ الأَشْجَانِ
يَشْكُو لَكَ اللَّهُمَّ قَلْبٌ لَمْ يَعِشْ ... إلاَّ لِحَمْدِ عُلاَكَ فِي الأَكْوَانِ

*** ***

مَنْ قَامَ يَهْتِفُ بِاسْمِ ذَاتِكَ قَبْلَنَا ... مَنْ كَانَ يَدْعُو الواحِدَ الْقَهَّارَا
عَبَدُوا الْكَوَاكِبَ وَالنُّجُومَ جَهَالَةً ... لَمْ يَبْلُغُوا مِنْ هَدْيِهَا أَنْوَارا
هَلْ أَعْلَنَ التَّوْحِيْدَ دَاعٍ قَبْلَنَا ... وَهَدَىٰ الْقُلُوبَ إلَيْكَ وَالأَنْظَارَا
نَدْعُو جَهَاراً لاَ إلَهَ سِوَىٰ الَّذِي ... صَنَعَ الْوُجُودَ وَقَدَّرَ الأَقْدَارا
إذَا الإيْمَانُ ضَاعَ فَلاَ أَمَانٌ ... وَلاَ دُنْيَا لِمَنْ لَمْ يُحْيِي دِيْنَا
وَمَنْ رَضِيَ الْحَيَاةَ بِغَيْرِ دِيْنٍ ... فَقَدْ جَعَلَ الفَنَاءَ لَهَا قَرِيْنَا
وَفِي التَّوْحِيدِ لِلْهِمَمِ اتِّحَادٌ ... ولَنْ تَبْنُوا العُلاَ مُتَفَرِّقِينَا
أَلَمْ يُبْعَثْ لأُمَّتِكُمْ نَبِيٌّ ... يُوَحِّدُكُمْ عَلَىٰ نَهْجِ الوِئَامِ
وَمُصْحَفُكُمْ وَقِبْلَتُكُمْ جَمِيعاً ... مَنَارٌ لِلأُخُوَّةِ وَالسَّلامِ
وَفَوْقَ الكُلِّ رَحْمَنٌ رَحِيم ... إلَهٌ وَاحِدٌ رَبُّ الأَنَامِ

* الشاعر: محمد إقبال

درب الفلاح

الــــلــــيــــل ولّــى لــــن يــــعــــود ... وجـــــاء دورك يــــا صــــبــــاح
وســـفـــيـــنـــة الإيـــمـــان ســـارت ... لا تـــبـــالـــي بـــالـــريـــاح
وحـيـاتـنـا أنـشـودة صـيـغـت ... عـــلـــى لحـــن الـــكـــفـــاح
وطـــريـــقـــنـــا مـــحـــفـــوفـــة ... بـالـشـوك بـالـدم بـالـرمـاح
يـا دربـنـا يـا مـعـبـر الأبـطـال ... يـــا درب الـــفـــلاح
إنـــا إذا وضـــع الـــســـلاح ... بـوجـهـنـا ضـج الـسـلاح
وإذا تـلـعـثـمـت الـشـفـاه ... تـكـلـمـت مـنـا الجـراح
يـا دربـنـا يـا مـعـبـر الأبـطـا ... ل يـــا درب الـــفـــلاح

* وهذه الأبيات للشاعر إقبال أيضاً.

تأملات

* إن قرحة المعدة لا تأتي مما تأكله، ولكنها تأتي مما يأكلك من القلق والهموم وتوتر العواطف والخوف.

* العلماء والباحثون لا يصابون بانهيارات عصبية، لأنه لا فراغ لديهم، والقلق حبيب الفراغ!

* قال بديع الزمان الهمذاني:

إذا مـا الـدهـر جـرَّ عـلـى أنـاس ... مـصـائـبـه أنـاخ بـآخـريـنـا
فـقـل لـلـشـامـتـين بـنـا أفـيـقـوا ... سـيـلـقـى الـشـامـتـون كـمـا لـقـيـنـا

رباعيات الخيام

سَمِعْتُ صَوتاً هَاتِفاً في السَّحَرْ   نَادَىٰ مِنِ الْغَيْبِ غُفَاةَ الْبَشَرْ
هُبُّوا امْلأُوا كَاسَ الْمُنَىٰ قَبْلَ أَنْ   تَمْلأَ كَأْسَ الْعُمْرِ كَفُّ الْقَدَرْ

***   ***

لا تَشْغَلِ الْبَالَ بِمَاضِ الزَّمَانْ   وَلاَ بِآتِي الْعَيْشِ قَبْلَ الأَوَانْ
واغْنَمْ مِنَ الْحَاضِرِ لَذَّاتِهِ   فَلَيْسَ فِي طَبْعِ اللَّيَالي الأَمَانْ

***   ***

غَدٌ بِظَهْرِ الغيب واليومُ لي   وكمْ يَخيبُ الظَنُ في الْمُقْبِلِ
ولَسْتُ بالغافل حتىٰ أرَىٰ   جَمال دُنياىَ ولا أجتلي

***   ***

القلبُ قد أضْناه عِشْق الجَمال   والصَدرُ قد ضاقَ بما لا يُقال
يا ربِ هل يُرْضيكَ هذا الظَما   والماءُ يَنْسابُ أمامي زُلال

***   ***

أولىٰ بهذا القلبِ أن يَخْفِقا   وفي ضِرامِ الحُبِّ أنْ يُحرَقا
ما أضْيَعَ اليومَ الذي مَرَّ بي   من غير أن أهْوىٰ وأن أعْشَقا

***   ***

أفِقْ خَفيفَ الظِلِ هذا السَحَرْ   نادىٰ دَعِ النومَ وناغِ الوَتَر
فما أطالَ النومُ عُمراً ولا قَصَّرَ   في الأعمار طولُ السَهَر

***   ***

فكم تَوالى الليل بعد النهارِ وطال بالأنْجُم هذا المدار
فامْشِ الهُوَيْنا إنَّ هذا الثرى من أعْيُنٍ ساحِرَةِ الإحْوِرار

***

لا توحِش النَفْسَ بخوف الظُنون واغْنَمْ من الحاضر أمْنَ اليقين
فقد تَساوى في الثَرى راحلٌ غداً وماضٍ من أُلوفِ السنينْ

***

أَطْفِئْ لَظى القلبِ بشَهْدِ الرِّضاب فإنما الأيامُ مِثلُ السَحابْ
وعَيْشُنا طَيفُ خيالٍ فَنَلْ حَظَّكَ منه قبلَ فَوتِ الشباب

***

لَبِستُ ثوبَ العيش لم أُسْتَشَرْ وحِرتُ فيه بين شتى الفِكر
وسوف أَنْضُو الثوبَ عني ولم أُدْرِكْ لماذا جِئْتُ أينَ المفر

***

يا من يَحارُ الفَهمُ في قُدرَتِك وتطلبُ النفسُ حِمى طَاعَتِكْ
أسْكَرَني الإثم ولكنَّني صَحَوْتُ بالآمال في رَحمَتِك

***

إن لم أَكُنْ أَخلصتُ في طاعتِكْ فإنني أطمَعُ في رَحْمَتِك
وإنما يَشْفعُ لي أنني قد عِشْتُ لا أُشرِكُ في وَحْدَتِك

***

تُخفي عن الناس سنا طَلعتِك وكلُّ ما في الكونِ من صَنْعَتِك

فـأنـت مَـجْـلاهُ وأنـتَ الـذي تـرىٰ بَـديـعَ الـصُـنْـعِ فـي آيَـتِـك

*** ***

إنْ تُـفْـصَـلِ الـقَـطـرةُ مِـن بَـحْـرِهـا فـفـي مَـداهُ مُـنْـتَـهـىٰ أَمـرِهـا

تَـقـارَبَـتْ يـا رَبِّ مـا بَـيْـنَـنَـا مَـسـافـةُ الـبُـعْـدِ عـلـىٰ قَـدْرِهـا

*** ***

يـا عـالـمَ الأسـرار عِـلـمَ الـيَـقـينْ وكـاشِـفَ الـضُـرِّ عـن الـبـائـسـين

يـا قـابـلَ الأعْـذار عُـدْنـا إلـىٰ ظِـلِّـكَ فـاقْـبَـلْ تَـوبَـةَ الـتـائـبـين

* ترجمة الشاعر: أحمد رامي.

تأملات

* الشيب علّة لا يُعاد منها، ومصيبة لا يُعزّىٰ عليها!

* تخطو نحو الشيخوخة يوماً مقابل كل دقيقة من الغضب والانفعال.

* إذا رأيت المرأة تشكو من مرآتها كثيراً، فاعلم أنها كبرت!

* وفد هلال بن سراج بن مجّاعة إلىٰ عمر بن عبدالعزيز بعدما ولي الخلافة بكتاب كتبه رسول الله ﷺ إلىٰ مجّاعة، فأخذه عمر ووضعه علىٰ عينيه ومسح به وجهه، رجاء أن يصيب وجهه موضع يد رسول الله ﷺ.

ثورة الشك

أَكَادُ أَشُكُّ فِي نَفْسِي لأَنِّي ... أَكَادُ أَشُكُّ فِيكَ وَأَنْتَ مِنِّي
يَقُولُ النَّاسُ إِنَّكَ خُنْتَ عَهْدِي ... وَلَمْ تَحْفَظْ هَوَايَ وَلَمْ تَصُنِّي
وَأَنْتَ مُنَايَ أَجْمَعُهَا مَشَتْ بِي ... إِلَيْكَ خُطَى الشَّبَابِ الْمُطْمَئِنِّ
يُكَذِّبُ فِيكَ كُلَّ النَّاسِ قَلْبِي ... وَتَسْمَعُ فِيكَ كُلَّ النَّاسِ أُذْنِي
وَكَمْ طَافَتْ عَلَيَّ ظِلالُ شَكٍّ ... أَقَضَّتْ مَضْجَعِي وَاسْتَعْبَدَتْنِي
كَأَنِّي طَافَ بِي رَكْبُ اللَّيَالِي ... يُحَدِّثُ عَنْكَ فِي الدُّنْيَا وَعَنِّي
عَلَى أَنِّي أُغَالِطُ فِيكَ سَمْعِي ... وَتُبْصِرُ فِيكَ غَيْرَ الشَّكِّ عَيْنِي
وَمَا أَنَا بِالْمُصَدِّقِ فِيكَ قَوْلاً ... وَلَكِنِّي شَقِيتُ بِحُسْنِ ظَنِّي
وَبِي مِمَّا يُسَاوِرُنِي كَثِيرٌ ... مِنَ الشَّجَنِ الْمُؤَرِّقِ لاَ تَدَعْنِي
تُعَذِّبُ فِي لَهِيبِ الشَّكِّ رُوحِي ... وَتَشْقَى بِالظُّنُونِ وبِالتَّمَنِّي
أَجِبْنِي إذْ سَأَلْتُكَ هَلْ صَحِيحٌ ... حَدِيثُ النَّاسِ خُنْتَ، أَلَمْ تَخُنِّي؟
أَكَادُ أَشُكُّ فِي نَفْسِي لأَنِّي ... أَكَادُ أَشُكُّ فِيكَ وَأَنْتَ مِنِّي!

* الشاعر: الأمير عبدالله الفيصل.

تأملات

* شاهد أحدهم صديقه يبكي موت ولده بكاءً مراً، فقال له: إن دموعك لا تفيد شيئاً يا صديقي! فقال: أجل إني أبكي لأن دموعي لا تفيد!

* لكل شمس مغرب.

* لا شيء يجف بسرعة أكثر من دموع المرأة!

أبيات.. للاستشهاد

في زخرف القول تزيين لباطله ... والحق قد يعتريه سوء تعبير

تقول: هذا مُجاج النحل تمدحه ... وإن تشأ قلت: ذا قيء الزنابير

مدحاً وذماً، وما جاوزت وصفهما ... والحق قد يعتريه سوء تعبير

* أين فؤادي؟ أذابه الوجد ... وأين قلبي؟ فما صحا بعدُ

يا سعد زدني جوىٰ بذكرهم ... بالله زدني - فُديتَ - يا سعدُ

* قف دون رأيك في الحياة مجاهداً ... إن الحياة عقيدة وجهاد

* سريعُ إلىٰ ابن العم يلطم خدّه ... وليس إلىٰ داعي الندىٰ بسريع

* فيا له من عمل صالح ... يرفعه الله إلىٰ أسفل!

* إذا محاسني اللاتي أدلّ بها ... كانت عيوباً فقل لي: كيف أعتذر

* أمامك فانظر أيَّ نهجيك تنهجُ ... طريقان شتّىٰ مستقيم وأعوجُ

* كلُّ خليلٍ كنت خاللته ... لا تَركَ اللهُ له واضحة

كلهم أَرْوغ من ثعلب ... ما أشبه الليلة بالبارحة

* سقوف بيوتي صرن أرضاً أدوسها ... وحيطان داري ركّع وسجود

* ذمّ المنازل بعد منزلة اللوىٰ ... والعيش بعد أولئك الأيام

* ومن يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت إيلام

* وخير الناس ذو حسب قديم ... أقام لنفسه حسباً جديدا

* سَكَبْناه نحسبه لُجيناً ... فأبدىٰ الكير خبث الحديد

ـ اللجين: الفضة.

* ومن أتعس الناس في الأيام قاطبة	من يمتطي الليث أو من يحكم اليمنا

* الأم مدرسة إذا أعددتها	أعددت شعباً طيب الأعراق

* دع المقادير تجري في أعنّتها	ولا تبيتنّ إلا خالي البال

ما بين غمضة عين وانتباهتها	يغيّر الله من حال إلى حال

* إذا سَكَتوا رأيتَ لهم جَمَالاً	وإنْ نَطَقُوا سمعْتَ لهم عقولاً

* سَعِدتْ أعينٌ رأتْك وَقرَّتْ	والعيونُ التي رأتْ مَنْ رآكا

قال زهير بن أبي سُلْمى :

* سَعَى بعدهم قوم لكي يُدركُوهُم	فلم يفعلوا ولم يُلاموا ولم يَألوا

قال صُرّدُرّ :

تموتُ النفوس بأوصابها	ولم يدْرِ عُوّادُها ما بها

وما أنصفَتْ مُهْجةٌ تشتكي	أذاها إلى غير أحبابها

* وعاينْتَ بَدْراً لا يَرىٰ البدرُ مثلهَ	وخاطبْتَ بحراً لا يرىٰ العِبْرَ عائمُهْ

* العِبْر : الشاطئ.

* مَنْ لم يُقَدْ ويُدسَّ في خيشومه	رَهَجُ الخميس فلن يَقُود خميسا

* سارتْ مُشرِّقةً وسِرْتَ مُغَرِّباً	شتّان بين مُشَرِّقٍ ومُغرِّبِ

* قال الشاعر عاصم بن الحسن البغدادي يمدح الفقيه أبا اسحاق الشيرازي :

تراه من الذّكاءِ نَحيفَ جسمٍ	عليه من تَوَقُّدِهِ دَليلُ

إذا كان الفتى ضَخْم المَعَالي	فليس يَضيرُه الجسْمُ النّحيلُ

* وقال عليّ بن السَّلاَّر العُقَيلي في أبي اسحاق:

كَفَانِي إذا عزَّ الحوادثُ صارِمٌ يُنيلُني المأكولَ بالإِثْرِ والأَثَرْ
يَقُدُّ ويَفْري في اللقاء كأنه لسانُ أبي إسحاقَ في مجلس النّظَرْ

* قال أبو هلا العسكري:

لي خمس وثمانون سنة فإذا قدّرتها كانت سنة
إن عمر المرء ما قد سرّه ليس عمر المرء مرّ الأزمنة

* لا تحقرن الرأي وهو موافق حكم الصواب إذا أتى من ناقص
فالدرّ وهو أعز شيء يقتنى ما حط قيمته هوان الغائص

* الصدق حلو وهو المرّ والصدق لا يتركه الحر
جوهرة الصدق لها زينة يحدها الياقوت والدر

* قال عبدالله بن المبارك:

اغتنم ركعتين زلفى إلى الله إذا كنت فارغاً مستريحا
وإذا ما هممت بالنطق في الباطل فاجعل مكانه تسبيحا
فاغتنام السكوت أفضل من خوض وإن كنت بالحديث فصيحا

* على الذمّ بتْنا مجمعين وحالنا من الخوف حال المجمعين على المدح

* قال المتنبي:

أشدّ الغم عندي في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

* قال أبو العتاهية:

إن كان يعجبك السكوت فإنه قد كان يعجب قبلك الأخيارا

ولئن ندمت على سكوتك مرة … فلقد ندمت على الكلام مرارا
إن السكوت سلامة ولربما … زرع الكلام عداوة وضرارا
وإذا تقرب خاسر من خاسر … زاد بذلك خسارة وتبارا

* وما الحُليّ إلا زينة من نقيصة … يتمم من حُسْن إذا الحسن قصّرا
وأما إذا كان الجمال موفراً … كحسنك لم يحتج إلى أن يزوّرا

* قال مسلم بن الوليد الأنصاري:

شكوت إليها حبها فتبسمت … ولم أر شمساً قبلها تتبسم
فقلت لها: جودي فأبدت تجهما … لتقتلني يا حسنها إذ تجهم

* أخي وإن كان جمع المال يعجبني … فليس بعدك عندي صحة الجسد
المال زين وفي الأولاد مكرمة … والسقم ينسيك ذكر المال والولد

* يا أيها الظالم في فعله … والظلم مردود على من ظلم
إلى متى أنت وحتى متى … تشكو المصيبات وتنسى النعم

* خلقان لا أرضى طريقهما … بطر الغنى ومذلة الفقر
فإذا غنيت فلا تكن بطراً … وإذا افتقرت فَتِهْ على الدهر

* نزلنا هاهنا ثم ارتحلنا … كذا الدنيا نزولٌ وارتحالٌ
يظنّ المرءُ في الدنيا خلوداً … خلودُ المرءِ في الدنيا مُحالُ

* قال عمر بن الخطاب:

ومن الناس من يعيش شقياً … جاهلَ القلب غافل اليقظهْ
فإذا كان ذا وفاء ورأيٍ … حَذِرَ الموتَ واتقى الحفظهْ

إنما الناس راحل ومقيم فالذي بَانَ للمقيم عِظه

* قال أحمد بن فارس:

بلادٌ بها شُدّتْ عليَّ تمائمي وأول أرض مسّ جلدي تُرابُها

ـ التمائم: خرزات كان الأعراب يلقونها على أولادهم يتقون بها العين بزعمهم، وقد نهى رسول الله ﷺ عنها بقوله: من علّق تميمة فقد أشرك ـ.

* وله أيضاً:

قد قال فيما مضى حكيمٌ ما المرءُ إلا بأصغريهِ
فقلت قولَ امرئٍ لبيبٍ ما المرءُ إلا بدرهميهِ
مَنْ لم يكن معه درهماه لم تلتفتْ عِرْسُه إليه
وكان من ذُلّهِ حقيراً تبول سِنّوْرُه عليه!

* عرس الرجل: امرأته.

* قال أبو جعفر أحمد بن اسحاق بن البهلول:

رأيتُ العيبَ يلْصقُ بالمعالي لُصُوقَ الحِبْر في لِفْقِ الثيابِ
ويخفى في الدَّنيء فلا تراه كما يخفى السوادُ على الإهابِ

* اللِّفْق: شقة من شقتي الملاءة. والإهاب: الجلد.

يريد أن العيب في العظماء وأهل المعالي يظهر جلياً، كما يظهر الحبر في نظيف الثياب، وعلى النقيض في السفهاء، فإنه يخفى السواد على الجلد الأسود.

* تَودُّ عَدوِّي ثم تزعمُ أنّني صديقُك إنّ الرأي منك لعَازبُ
وليس أخي مَنْ وَدَّني رأي عَيْنه ولكنْ أخي مَنْ وَدَّني وهو غائبُ

* قال أبو تمام:

يـنـالُ الـفـتـىٰ مِنْ عَـيْشـه وهـو جـاهـلٌ ... ويُـكْـدي الـفـتـىٰ فـي دهـره وهـو عـالـمُ
ولـو كـانـت الأرزاق تجـري عـلـىٰ الحجـا ... هَـلَـكْـنَ إذاً مـن جَـهْـلـهـنّ الـبـهـائـمُ

ـ يُكْدي: يقل ماله.

* فـمـا لـي حـيـلـةٌ إلا رجـائـي ... لـعـفـوك إنْ عـفـوْتَ وحُـسْـنَ ظَـنِّـي
فـكـم مـن زَلّـةٍ لـي فـي الخَـطَـايـا ... عَـضـضْـتُ أنـامـلـي وقـرعْـتُ سِـنِّـي
يَـظـنُ الـنـاسُ بـي خـيـراً وإنـي ... لَـشَـرُّ الخـلْـق إنْ لـم تـعْـفُ عـنّـي

* ومـا مـن يـدٍ إلا يـد الـلـه فـوقـهـا ... ولا ظـالـم إلا سـيُـبْـلـىٰ بـأظـلـم

* الـيُـمْـنُ يَـتْـبَـعُ ظِـلَّـهْ ... والمجـدُ يمـشـي فـي رِكـابـهْ

* إذا اعـتـاد الـفـتـىٰ خـوض المـنـايـا ... فـأيـسـر مـا يمـرُّ بـه الـوُحُـولُ

ـ الوحل: الطين.

* إذا قـالـت حـذام فـصـدِّقـوهـا ... فـإنّ الـقـول مـا قـالـت حَـذامِ

ـ حذام: امرأة عربية اشتهرت بصدق الحدس.

* ومَـنْ يـكُ ذا فـمٍ مُـرٍّ مـريـضٍ ... يَـجـدْ مُـرّاً بـه المـاءَ الـزُّلالا

* قـومٌ إذا الـشّـرُّ أبْـدىٰ نـاجـذيـه لـهـم ... طـاروا إلـيـه زَرافـاتٍ ووُحْـدانـا

* ولّمـا قَـلَّـتِ الإبـلُ امْـتـطـيْـنـا ... إلـىٰ ابـن أبـي سـلـيـمـان الخُـطُـوبـا

* وكـم أبٍ قـد عـلا بـابـن ذُرا شَـرَفٍ ... كَـمـا عَـلاَ بـرسـول الـلـه عـدنـانُ

ـ قاله ابن الرومي في مدح اسماعيل بن بُلْبُل.

* قال أبو فراس الحمداني :

إنّــا إذا اشــتــدّ الــزمـــا نُ ونـــاب خـــطْـــبٌ وادْلَـــهـــمْ
ألْــفــيــتَ حــولَ بــيــوتــنــا عُــدَد الــشــجــاعــة والــكــرمْ
لِـلِـقـا الـعِـدَا بـيـضُ الـسـيـو فِ ولـلـنـدىٰ حُـمْـرُ الـنَّـعـم
هــذا وهــذا دأْبــنــا يُــودَىٰ دمٌ ويُــراقُ دَمْ

- عدد الشجاعة : آلات الحرب . عدد الكرم : وسائل الجود والعطاء . حمر النعم : الإبل الحمراء . يُودىٰ دم : تُعطىٰ ديته ، أي نحن شجعان نقتل أعداءنا ، وبعد الظفر نؤدي دية القتلىٰ . ويراق دم : يُسال للقِرىٰ .

* أَرُوني بخيلاً طالَ عُمْراً ببخلهِ وهاتوا كريماً مات من كثرة البذلِ!
* ألا أيُّها الليلُ الطويلُ ألاَ انْجَلِ بصبحٍ وما الإصباحُ منك بأَمْثلِ
* قفا نبْكِ من ذكرىٰ حبيب ومنزلِ بسقْط اللّوىٰ بين الدَّخُول فحوْملِ
* عشْ عزيزاً أو مُتْ وأنت كريمٌ بين طعْنِ القَنَا وخفْقِ البُنُود

- البنود : جمع بند وهو العَلَم الكبير ، وخفقها : اضطرابها .

* وليلٍ كموج البحر أَرْخىٰ سُدُوله عليّ بأنواعِ الهموم لِيَبْتلي

* قال دِعْبل الخُزاعي :

ما أكثر الناس لا ، بل ما أَقَلَّهم! اللهُ يعلمُ أَنِّي لم أَقُلْ فَنَدا
إني لأفتحُ عيني حين أفتحُها على كثير ولكن لا أرىٰ أحدا

- الفَنَد : الكذب .

* قال شاس بن نهار يخاطب عمرو بن المنذر بن امرئ القيس، لما همّ بغزو قومه من قصيدة طويلة:

فإن كنتُ مأكولاً فكن خيرَ آكل وإلا فأدركني ولّما أُمزَّقِ

فلما سمعها تركهم، وقد تمثل بهذا البيت عثمان بن عفان رضي الله عنه يوم الدار.

* كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرْها وأعيا قرنه الوعل

البيت من قصيدة للشاعر الأعشى ومطلعها:

ودّع هريرة إنَّ الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجلُ

* عقم النساء فلم يلدن شبيهه إن النساء بمثله عقم

نزْر الكلام من الحياء تخاله ضَمِناً وليس بجسمه سقم

* إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى تَرْجُمان

- للشاعر عوف بن محلّم الشيباني.

* لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

- للشاعر الأبْله البغدادي.

* نزف البكاء دموع عينيك فاستعر عيناً لغيرك دمعها مدرار

منذا يعيرك عينه تبكي بها؟ أرأيت عيناً للبكاء تعارُ!

- العباس بن الأحنف.

* لاتَنْه عن خلق وتأتيَ مثله عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

- للشاعر المتوكل الليثي.

* إذا لم يكن صدر المجالس سيداً فلا خير فيمن صدرته المجالس

وكم قائل: مالي رأيتك راجلاً؟ فقلت له: من أجل أنك فارس!

- ابن خالويه، الحسين بن أحمد.

* وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعضع

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

* ومَنْ مَلكَ البلادَ بغير حربٍ يهونُ عليه تسليمُ البلاد

* وإنا لنفرح بالأيام نقطعها وكل يوم مضى نقص من الأجل

* قد تُنكرُ العينُ ضوءَ الشمس من رَمَدٍ ويُنْكر الفمُ طعمَ الماء من سَقَمِ

* وأبغض إذا أبغضت بغضاً مقارباً فإنك لا تدري متى أنت راجع

وأحبب إذا أحببت حباً مقارباً فإنك لا تدري متى أنت نازع

* جاءني ابني يوماً وكنت أَراهُ لي ريحانةً ومصدرَ أُنْسي

قال: ما الروحُ؟ قلت: إنك روُحي قال: والنفسُ؟ قلت: إنك نفسي

* مدحْتُكم بمديحٍ لو مدحْتُ به بحر الحجاز لأغنتني جواهرُهُ

لا عيبَ لي غير أنّي من دياركم وزامرُ الحي لم تُطْربْ مزامِرُهُ

* بحر الحجاز: أي بحر عُمان حيث يُستخرج اللؤلؤ بالغوص.

* أَسِرْبَ القطا هل من يُعير جناحه لَعَلّي إلى مَنْ قد هَويتُ أطيرُ

* رثاء كاتب:

- استشعر الكُتّاب فقْدك سالفاً وقَضَتْ بصحة ذلك الأيامُ

فلذاكَ سُوِّدتِ الدُّوِيُّ كآبةً أسفاً عليك وشُقّت الأقلامُ

* يا ابنتي إن أردْتِ آية حسن وجمالاً يزين جسماً وعقلاً

فيانْبُذي عادة التبرج نبْذاً   فجمالُ النفوس أسْمى وأعلى
يصنع الصانعون ورداً ولكن   وردةُ الروض لا تُضارع شكلاً

* أصُونُ أديمَ وجهي عن أناس   لقاءُ الموت عندهمُ الأديبُ
وربُّ الشعر عندهم بغيضٌ   ولو وافى به لهم حبيبُ

ـ هذان البيتان للشاعر سراج الدين الورّاق، وهو شاعر رقيق، برع في التورية وغيرها من أنواع البديع، مات سنة ٦٩٥هـ ويقصد بقوله «حبيب» الشاعر أبا تمام، واسمه حبيب بن أوس، فورّى الشاعر عنه وستره بالمعنى القريب، المتبادر إلى الذهن.

* قال ابن سناء الملك في الاقتباس:

رحلوا فلست مسائلاً عن دارهم   أنا باخعٌ نفسي على آثارهم

* وقال أبو جعفر الأندلسي:

لا تُعادِ الناس في أوطانهم   قلّما يُراعى غريبُ الوطن
وإذا ما شئتَ عيشاً بَيْنهمْ   خالق الناس بخلْقٍ حَسَن

* قال أعرابي يمدح الفضل بن يحيى البَرْمكي:

ولائمة لامَتْك يا فضلُ في الندى   فقلت لها: هل أثّرَ اللومُ في البحر؟
أتَنْهيْنَ فضلاً عن عطاياهُ للورى؟   ومن ذا الذي ينهى الغمام عن القَطْر؟!

* أنا ابن جلا وطلاّع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفوني

ـ تمثل بهذا البيت الحجاج في مطلع خطبته بالكوفة، والبيت لسُحيم بن وثيل الرياحي. وجلا: اسم من أسماء العرب، وابن جلا: كناية عن الواضح الأمر.

والثنايا: جمع ثنية في الجبل يريد أنه يطلع في الغارات من ثنية الجبل على أهلها. متى أضع العمامة: كناية عن الحرب.

* وماذا تبتغي الشعراء مني وقد جاوزت حدّ الأربعين

* قومي همُ قتلوا أميم أخي فإذا رميتُ أصابني سهمي

فلئن عفوت لأعفون جَلَلاً ولئن سطوت لأوهننّ عظمي

ـ الحارث بن وعلة الجرمي.

* إذا ما غضبنا غضبة مضريَّة هتكنا حجاب الشمس أو أقطرت دماً

ـ الشاعر قُحيْف بن خُميْر، من العهد العباسي.

* فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يَغْو لا يعدم على الغي لائما

ـ المرقّش الأصغر.

* لو كان بغير الماء حلقي شَرِق كنت كالغصّان بالماء اعتصاري

ـ عدي بن زيد العبادي.

* والعيش لا عيش إلا ما تقرُّ به عين ولا حال إلا سوف ينتقل

والناس من يلْقَ خيراً قائلون له ما يشتهي ولأمِّ المخطئ الهَبَلُ

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

وربما ضرّ بعض الناس حزمهم وكان خيراً لو أنهم عجلوا

ـ الشاعر القطامي، عمير بن شُيَيْم التغلبي.

* كلُّ امرئ صائرٌ يوماً لشيمته وإن تخلّق أخلاقاً إلى حين

ـ الشاعر ذو الأصبع العدواني، حرثان بن محرب.

* من راقب الناس مات همّاً وفاز باللذة الجسور

ـ الشاعر: سَلْم الخاسر، وسمي الخاسر لأنه باع مصحفاً واشترى بثمنه طنبوراً!

* وإن امرأً يمسي ويصبح سالماً   من الناس إلا ما جنى لسعيد

- الشاعر: المعلوط القُريعي.

* ألا ليت اللحى كانت حشيشاً   فنعلفها خيولَ المسلمينا

- الشاعر: ابن مفرّغ الحميري، يزيد بن ربيعة، قال هذا البيت في عبّاد بن زياد، وكان عظيم اللحية!

* أريد حياته ويريد قتلي   عَذيرَك من خليل من مراد

- الشاعر: عمرو بن معدي كرب، قاله لقيس بن مكشوح المرادي، وتمثل به علي رضي الله عنه لما رأى الشقي عبدالرحمن بن ملجم المرادي الذي قتله.

والعذير: النصير والعاذر، وهو منصوب بتقدير فعل أطلب.

* وما طلب المعيشة بالتمني   ولكنْ ألْقِ دلوك في الدلاء

تجئك بمائها يوماً، ويوماً   تجئك بحَمْأة وقليل ماء

- الشاعر: أبو الأسود الدؤلي، قاله لابنه أبي حرب لما قعد عن الكسب وقال إن رزقي يأتيني!

* قال زهير بن أبي سلمى في معلقته:

وما الحربُ إلا ما علمتَمْ وذُقْتمُ   وما هو عنها بالحديث المرُجّمِ

ومن يجعلْ المعروف في غير أهله   يكن حمدُهُ ذَمّاً عليه ويَنْدمِ

ومَنْ لم يَذُدْ عن حوضِهِ بسلاحه   يُهدَّمْ ومَنْ لا يظلمِ الناس يُظلمِ!

ومن يَغْرب يحسِبْ عدوّاً صديقَه   ومَنْ لم يُكْرِمْ نفسه لم يُكْرمِ

ومهما تكن عند امرئ من خليقةٍ   وإنْ خالها تخفى على الناس تُعْلمِ

وكم ترى من صامت لك مُعجب   زيادتُه أو نقصُه في التكلُّمِ

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده   فلم يَبْقَ إلا صورةُ اللحمِ والدمِ

* رُبَّ ورْقَاءَ هَتُوفٍ في الضُّحىٰ ذَاتِ شَجْوٍ صَدَحَتْ في فَنَنِ[1]
ذَكَرَتْ إِلْفاً ودهْراً سَالِفاً فَبَكَتْ حُزناً فَهاجتْ حَزنَي[2]
فَبُكائي رُبَّمَا أَرَّقَها وبُكاها رُبَّما أَرَّقَني[3]
ولَقدْ تَشْكو فَمَا أَفْهمُها ولقدْ أشكو فَما تَفهمُني
غيْرَ أنِّي بالجوىٰ أَعْرِفُها وهي «أيضاً» بالجوىٰ تعْرفُني[4]

تأملات

* كان عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يُعرف بـ«صاحب النعلين»، فكان إذا قام ﷺ ألبسه إياهما، وإذا جلس جعلهما في ذراعيه حتىٰ يقوم. وقد أفرد جماعة من الأعلام بالتأليف ما يتعلق بالنعال النبوية؛ كابن عساكر، والبلقيني والبستي، والمقري صاحب كتاب: قرة العينين في تحقيق أمر النعلين، وغيرهم، وأشهرهم الإمام أبو العباس المقري التلمساني له كتاب: النفحات العنبرية في وصف نعلي خير البرية، وفتح المتعال في مدح خير النعال، وهذا الأخير ألّفه عند رجلي المصطفىٰ ﷺ بالمسجد النبوي، وألّف كتاباً في العمامة النبوية، عند رأسه ﷺ بالمسجد النبوي، وقيل: إنه بلغ عدد المصنفات في النعال النبوية أكثر من خمسين مصنفاً، ومن الشعر ما يزيد علىٰ مائة وثلاثين ما بين مقطوعة صغيرة وكبيرة. التراتيب الإدارية: ١/ ٣٦. * انظر صفحة ٣١٠ من هذا الكتاب.

(١) الورقاء: الحمامة في لونها بياض إلىٰ سواد. والهتوف: كثيرة الصياح. والشجو: الهم والحزن. والصدح: رفع الصوت بالغناء، والفنن: الغصن. (٢) الإلف: الأليف. (٣) الأرق: السهر، وأرقها: أسهرها. (٤) الجوىٰ: الحرقة وشدة الوجد.

عشاق.. ومحبون

* قال أبو يعقوب البُوَيطِيّ: قلت للشافعيّ: قد قلتَ في الزهد، فهل لك في الغزل شيء؟ فأنشدني:

يا كاحلَ العين بعد النَّوم بالسهرِ ما كان كحُلك بالمنْعوتِ للبصَرِ
لو أن عيني إليك الدهرَ ناظرةٌ جاءتْ وفاتي ولم أشبع من النَّظرِ
سُقْياً لدهرٍ مضَى ما كان أطيبَهُ لولا التَّفرّقُ والتنغيص بالسّفرِ
إنَّ الرسولَ الذي يأتي بلا عِدَةٍ مثلُ السّحابِ الذي يأتي بلاَ مَطرِ

* وقال الربيع بن سليمان: كنتُ عند الشافعي إذ جاءه رجل برُقعة فقرأها ووقَّع فيها فمضى الرجل، وتبعته إلى باب المسجد، فقلت: والله لا تفوتني فُتْيا الشافعيّ! فأخذت الرُّقعة من يده فوجدت فيها:

سلِ المُفْتِيَ المكّيَّ هل في تَزاورٍ وضَمَّةِ مُشتاقِ الفُؤادِ جُناحُ

فإذا قد وقَّع الشافعي:

فقلتُ مَعاذَ اللّهِ أن يُذهِبَ التُّقَى تلاصُقُ أكبادٍ بهنَّ جِراحُ

قال الربيع: فأنكرت على الشافعي أن يُفْتِيَ لحدَثٍ بمثل هذا، فقلت: يا أبا عبدالله تُفتي بمثل هذا لمثل هذا الشاب! فقال لي: يا أبا محمد، هذا رجل هاشميٌّ قد عرَّس في هذا الشهر - يعني شهر رمضان - وهو حدث السِّن، فسأل هل عليه جناح أن يُقبِّل أو يَضُمّ مِن غير وطء، فأفتيتُه بهذا. قال الربيع: فتبعتُ الشاب، فسألته عن حاله، فذكر لي أنه مثل ما قال الشافعي. قال: فما رأيتُ فراسة أحسن منها!

عمر بن أبي ربيعة

* شاعر أموي مشهور عرف بالغزل والنسيب، قيل: لم يكن في قريش أشعر منه، وهو كثير المُجُونِ والتَغَزُّلِ بالثُّرَيَّا ابنة علي بن عبدالله بن الحارث بن أمية بن عبدشمس الأموية، التي جَدَّتها قُتَيْلة ابنة النَّضْر بن الحارث المنشدة في قتل أبيها النضر بن الحارث يوم بدر الأبيات وقال النبي ﷺ: لَوْ سَمِعْتُ شِعْرَهَا قَبْلَ أَنْ أَقْتُلَهُ لما قَتَلْتُهُ!. واستُدل بهذا القول الصحيح أنَّ النبي ﷺ كان له أن يجتهد في الأحكام. وكانت الثُّرَيَّا موصوفة بارعة الجمال، وتزوَّجها سُهَيْل بن عبدالرحمن بن عوف، ونقلها إلىٰ مصر، وفيهما يقول عمر بن عبدالله بن أبي ربيعة:

أَيُّهَا الْمُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلاً ... عَمْرَكَ اللَّهِ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ

هِيَ شَامِيَّةٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّتْ ... وَسُهَيْلٌ إِذَا اسْتَقَلَّ يَمَانِي

وهو القائل:

إنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ عِنْدِي ... قَتْلُ بَيْضَاءَ خودة عَطْبُولِ

كُتِبَ القَتْلُ والقِتالُ عَلَيْنَا ... وَعَلَىٰ الغَانِيَاتِ جَرُّ الذُّيُولِ

* ولد عمر هذا في ليلة قَتْل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك ليلة الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجَّة سنة ثلاث وعشرين، وكان الحسن البصري يقول فيها: أيُّ حَقٍ رُفع؟ وأيُّ بَاطِلٍ وُضع؟ يعني مقتل عمر بن الخطاب، ووضع عُمر بن أبي ربيعة! وكان جدُّه أبو ربيعة يُلقب بذي الرُمحين، وأبوه عبدالله أخو أبي جهل بن هشام لأمه، توفي في سفينة غرقاً!

وَجدُ محب

* ومن شعر عمر بن أبي ربيعة:

* قالَ لي صاحبي لِيعْلَمَ ما بي: ... أَتُحِبُّ القَتُولَ أُختَ الرَّبابِ؟

قلتُ: وَجْدي بها كَوَجْدِكَ بالعَذْ ... بِ إذا ما مُنِعْتَ طَعْمَ الشَّرابِ

مَنْ رسولي إلى الثُّريَّا بأنّي ... ضِقتُ ذَرْعاً بهَجْرِها والكتابِ؟(١)

أَبْرَزوها مثلَ المهَاةِ تَهادَىٰ ... بينَ خَمسٍ كَواعبٍ أَتْرابِ(٢)

وهْيَ مَكنونةٌ(٣) تَحَيَّرَ منها ... في أديمِ الخَدَّينِ ماءُ الشَّبابِ(٤)

دُمْيةٌ عندَ راهبٍ ذي اجتهادٍ ... صَوَّروها في جانبِ المحرابِ

ثم قالوا: تُحِبُّها؟ قلتُ: بَهْراً(٥) ... عَدَدَ النَّجمِ والحصَىٰ والتُّرابِ

غَصَبَتْني مَجَّاجَةُ(٦) المِسْكِ نفسي ... فَسَلُوها ماذا أَحَلَّ اغتِصابي؟

تأملات

* عندما قُدِّم الشاعر «أغريين» للقتل، سأله الطاغية «نيرون»: من أشقى الناس؟ فأجابه معرِّضاً به: مَنْ إذا ذَكَر الناسُ الاستبداد كان مثالاً له في الخيال!

* شرُّ الحكام من خافه البريء، وأمنه المجرم.

* قالت الزوجة المريضة لزوجها: إذا أنا متّ فاكتب على قبري هذه الجملة: في السماء راحة وسلام! فقال لها زوجها: بل سأكتب: كان في السماء راحة وسلام!.

* إذا عدمت المرأة جمال الأسنان ضحكت بعينيها!

---

(١) والكتاب: الواو هنا واو القسم. (٢) الأتراب: جمع تِربْ وهو من يساويك في السن وتطلق على المذكر والمؤنث. والكواعب: جمع كاعب وهي الفتاة في أول صباها. (٣) مكنونة: مخبأة. (٤) تحير منها في أديم الخدَّين ماءُ الشباب: امتلأ وجهها بنضارة الشباب. (٥) البهر: العجب، وما غلب على النفس حتى أجهدها. (٦) مج الماء من فيه: قذفه.

كُثَيِّر عزة

* روي أن عَزَّة دخلت على أُمِّ البنين ابنة عبدالعزيز أخت عمر بن عبدالعزيز، وزوجة الوليد بن عبدالملك، فقالت لها: رأيت قول كُثَيِّر:

قَضَى كُلُّ ذِي دَيْنٍ فَوَفَّى غَرِيمَهُ ... وَعَزَّةُ مَمْطُولٌ مُعَنًّى غَرِيمُهَا

فقالت: ما هذا الدَّين؟ قالت: وعدته قُبْلَةً فَتَحَرَّجتُ منها! فقالت أمُّ البنين: أَنجزيها وعليَّ إثمها! فقيل: إن أُمَّ البنين ندمت وأعتقت عن ذلك رقاباً، قيل أربعين رقبة! وحكي أن عبدالملك حين أراد الخروج لقتال مُصْعَب بن الزُّبير، عَرَضَتْ له زوجته عَاتِكة بنت يزيد بن مُعاوية، فلم يقبل منها، فبكت وبكى حَشْمُهَا، فقال عبدالملك: قاتل الله كُثَيِّراً كأنه رأى موقفنا هذا بقوله:

إذا مَا أَرَادَ الْغَزْوَ لَمْ يَثْنِ عَزْمَهُ ... حَصَانٌ عَلَيْهَا نَظْمُ دُرٍّ يَزِيْنُهَا

نَهَتْهُ فَلَمَّا لَمْ تَرَ النَّهْيَ عَاقَهُ ... بَكَتْ فَبكى مِما شَجَاهَا قَطِيْنُهَا

والقَطِينُ: الخَدَمُ.

* ذكر أن عَزَّة تبدَّلت في غير زيِّها وتعرَّضت لكُثَيِّر، فراودها غير عالم بها، فقالت: اذهب إلى محبوبتك عَزَّة، فقال: ومن عَزَّةُ حتى تقاس بكِ؟ فسفرت عن وجهها وشتمته، فأطرق حياءً ولم يذكرها إلى سنة! ثم بعد السنة أنشد تائيته الطَّنَّانة التي سارت بها الرُّكْبَانُ، التي مطلعها:

هَنِيْئاً مَرِيْئاً غَيْرَ داءٍ مُخَامِرٍ ... لِعَزَّةَ مِنْ أعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتِ!

* وكُثَيِّر: تصغير كثير وإنما صغر لأنه كان حقيراً شديد القصر. وكان إذا دخل على عبدالعزيز بن مروان يقول: طأطئ رأسك لئلا يؤذيك السقف، ! يمازحه بذلك؛ وكان يلقب «زب الذباب» لقصره، وقال بعضهم: رأيت كثيّراً يطوف بالبيت، فمن أخبرني أن طوله كان أكثر من ثلاثة أشبار فقد كذب!

* دخل كُثَيِّر عَزَّة على عبدالملك بن مروان في أول خلافته، فقال: أنت كُثَيِّرٌ؟ قال: نعم، فاقتحمه ـ ازدراه ـ وقال: تسمع بالمُعَيْدي خير من أن تراه..! فقال: يا أمير المؤمنين، كل إنسان عند محلّه رحب الفِناء، شامخ البناء، عالي السّناء..

* وقد تغيّر شعر كثير بعد وفاة عزة، فقال له قائل: ما بال شعرك تغيّر وقد قصرت فيه؟! فقال: ماتت عزة ولا أطرب، وذهب الشباب فلا أعجب، ومات عبدالعزيز بن مروان فلا أرغب، وإنما ينشأ الشعر عن هذه الخلال..!

تأملات

* يهب الله كلّ طائر رزقه، ولكن لا يلقيه له في العش!

* خرج سعيد بن المسيب ـ رحمه الله ـ مع جيش المجاهدين، وقد جاوز الثمانين وكُفَّ بصره، فقيل له: إن الله قد عذرك من ناحيتين، إنك شيخ كبير، وإنك أعمى، فقال: أريد الخروج، وأنا أستطيع أن أعمل شيئين لكم: أحفظ زادكم ومتاعكم، وأُكثِّر سوادكم!

* تقاربوا بالمودة، ولا تتكلوا على القرابة.

* تعاشروا كالإخوان، وتعاملوا كالأجانب! أي ليس في التجارة محاباة.

* التسلط على المماليك دناءة.

المنى والأماني

* مُنىً إنْ تكن حقاً تكن أطيب المنى ... وإلا فقد عشنا بها زمناً رَغْدا

ـ وقال آخر:

إذا ازدحمت همومي في فؤادي ... طلبت لها المخارج بالتمني!

* وقيل لبنت الخس: أي شيء أطول إمتاعاً؟ قالت: التمني. وقال بشار الشاعر: الإنسان لا ينفك من أمل، فإن فاته الأمل عوّل على المنى، إلا أن الأمل يقع بسبب، وباب المنى مفتوح لمن تكلف الدخول فيه. وقال ابن المقفع: كثرة المنى تُخْلِق العقل، وتطرد القناعة، وتفسد الحسن. وقال إبراهيم النظام: كنا نلهو بالأماني، ونطيب أنفسنا بالمواعيد، فذهب بعد فقطعنا أنفسنا عن فضول المنى وقال الشاعر:

إذا تمنيت بت الليل مغتبطا ... إن المنى رأس أموال المفاليس

وقال آخر:

* إن المنى طرف من الوسواس.

ـ للمستشار حيرة فليمهل حتى يغبّ رأيه.

غزل عفيف

وَداعٍ دَعا إذْ نَحْنُ بالخَيْفِ مِنْ مِنىً ... فَهَيَّجَ أَحْزَانَ الفُؤَادِ وما يَدْرِي

دَعا باسْمِ لَيْلى غَيرِها فكأنَّما ... أطارَ بِلَيلَى طائِراً كانَ في صَدْرِي

أَقُولُ لَهَا يوماً وقد شَطَّ بِي النَّوى(١) ... مَتى الملتقى؟ قالَتْ: قَرِيبٌ من الحَشْرِ

حَلَفْتُ لَهَا باللّهِ، ما بَيْنَ ذي الحَشَى ... سِواَها حَبِيبٌ مِنْ عَوانٍ(٢) ومِنْ بِكْرِ

جَعلنَا علاماتِ المودَّةِ بَينَنا ... تَشابُكَ لحْظٍ هُنَّ أَخْفَى مِنَ السِّحْرِ

فأعرِفُ منها الوُدَّ مِنْ لِينِ طَرْفِها ... وأَعرِفُ منها الهَجْرَ بالنَّظَرِ الشَّزْرِ(٣)

إِذا عِبْتُهَا شَبَّهْتُها البَدْرَ طالِعاً وحَسْبُكَ مِنْ عَيْبٍ يُشَبَّهُ بالبَدْرِ
هي البَدْرُ حُسناً والنِّساءُ كواكبٌ فَشَتَّانَ ما بَينَ الكواكبِ والبَدْرِ
إذا ذُكِرَتْ يَرْتَاحُ قَلْبي لِذِكْرِها كما انتفضَ العُصْفُورُ بُلِّلَ من قَطْرِ
وتزعُمُ لَيلَىٰ أَنَّني لا أُحِبُّها بَلىٰ واللَّيالي العَشْرِ والشَّفْعِ والوَتْرِ
بَلَىٰ والذي ناجىٰ من الطُّورِ عَبْدَهُ وشَرَّفَ أَيَّامَ الذَّبيحَةِ والنَّحْرِ
بَلَىٰ والذي نَجَّىٰ من الجُبِّ يُوسُفاً وأَرْسَلَ داوداً وأَوحَىٰ إلىٰ الخَضْرِ
بَلَىٰ والذي لا يَعلَمُ الغَيبَ غَيرُهُ بقدرتهِ تَجري المراكبُ في البَحْرِ
سأَصبِرُ حتَّىٰ يعلمَ النَّاسُ أَنَّني علىٰ نائباتِ الدَّهرِ أَقوىٰ من الصَّخرِ
سلامٌ علىٰ مَنْ لا أَمَلُّ حَديثَها ولو عَاشَرَتْها النَّفسُ عَشْراً إلىٰ عَشْرِ
عَزَائِي وصَبْرِي أَسْعِداني علىٰ الأَسَىٰ فأَحمَدُ ما جَرَّبْتُ عاقِبَةُ الصَّبْرِ
وفي كُلِّ يومٍ غَشْيَةٌ من صُدُودِها أَبيتُ علىٰ جَمْرٍ وأُضْحِي علىٰ جَمْرِ
عَلَيْهَا سلامُ اللَّهِ ما طَارَ طَائِرٌ ومَا سَارَتِ الرُّكبانُ في البَرِّ والبَحْرِ

* للشاعر: قيس بن الملوح، الذي عرف في التاريخ بمجنون ليلىٰ، شاعر أموي من مشاهير عشاق العرب.

تأملات

* الحقيقة مثل النحلة، تحمل في جوفها العسل، وفي ذنبها إبرة!

* من لم يصن نفسه ابتذله غيره.

---

(١) شط بي النوىٰ: طال الفراق. (٢) العوان من النساء: التي كان لها زوج. (٣) النظر الشزر: نظر فيه إعراض، أو نظر الغضبان بمؤخر العين.

أغداً ألقاك

أَغَداً أَلْـقَاكَ يـا خَوْفَ فُـؤَادِي مِنْ غَـدِي ... يَـا لَشَوْقِي وَاحْـتِرَاقِي فِي انْتِظَارِ المـوعِدِ
آهِ كَمْ أَخْشَىٰ غَدِي هَذَا وَأَرْجُوهُ اقْتِرَابَا ... كُنْتُ أَسْتَدْنِيهِ لَكِنْ هِبْتُهُ لَـمَّا أَهَـابَا
وَأَهَلَّتْ فَرْحَةُ الْقُرْبِ بِهِ حِينَ اسْتَجَابَا ... هَكَـذَا أَحْتَـمِلُ الْـعُمْرَ نَعِيـماً وَعَذَابَاً
مُهْجَةً حَرَّىٰ وَقَلْباً مَسَّهُ الشَّوْقُ فَذَابَا

*** ***

أَنْتَ يَا جَنَّةَ حُبِّي وَاشْـتِيَاقِي وَجُنُونِي ... أَنْتَ يَا قِبْلَةَ رُوحِي وَانْطِلاَقِي وَشُجُونِي
أَغَداً تُـشْرِقُ أَضْوَاؤُكَ فِي لَيْلِ عُيُـونِي ... آهِ مِنْ فَرْحَةِ أَحْلاَمِي وَمِنْ خَوْفِ ظُنُونِي
كَمْ أُنَادِيكَ وَفِي لَحْنِي حَنِينٌ وَدُعَـاءْ ... يَـا رَجَـائِي كَـمْ عَذَّبَنِـي طُـولُ الـرَّجَـاءْ
أَنَا لَـوْلاَ أَنْـتَ لَـمْ أَحْفِلْ بِـمَنْ رَاحَ وَجَاءْ ... أَنَا أَحْيَا فِي غَدِي الآنَ بِأَحْلاَمِ اللِّـقَاءْ
فَـــــأْتِ أَوْ لاَ تَـــــأْتِ أَوْ ... فَـافْـعَـلْ بِـقَـلْـبِـي مَـا تَـشَـاءْ

*** ***

هَـذِهِ الـدُّنْيَا كِـتَابٌ أَنْـتَ فِيـهِ الْـفِكَرُ ... هَـذِهِ الـدُّنْيَا لَيَـالٍ أَنْـتَ فِيـهَا الـعُـمُرُ
هَـذِهِ الـدُّنْيَا عُـيُونٌ أَنْـتَ فِيـهَا الـبَصَرُ ... هَـذِهِ الـدُّنْيَا سَمَـاءٌ أَنْـتَ فِيـهَا الْـقَمَرُ
فَـارْحَـمِ الْـقَـلْـبَ الَّـذِي يَـصْبُـو إِلَـيْـكْ ... فَـغَـداً تَـمْـلُـكُـهُ بَـيْـنَ يَـدَيْـكْ
وَغَـداً تَـأْتَـلِـقُ الجَـنَّـةُ أَنْـهَـاراً وَظِـلاَ ... وَغَداً نَنْسَىٰ فَلاَ نَأْسَىٰ عَلَىٰ مَاضٍ تَوَلَّىٰ
وَغَداً نَزْهُـو فَلاَ نَعْرِفُ لِـلْغَيْبِ مَـحَلاَ ... وَغَداً لِلْحَاضِرِ الزَّاهِرِ نَحْيَا لَيْسَ إِلاَّ
قَـدْ يَـكُـونُ الْـغَـيْـبُ حُـلْـواً ... إِنَّـمَـا الْـحَـاضِـرُ أَحْـلَـىٰ!

* القصيدة للشاعر السوداني: الهادي آدم.

* عــذابُــه فــيــك عَــذْبُ وبُــعْــدُهُ فــيــك قُــرْبُ
وأنــتَ عــنــدي كــرُوحــي بــل أنــتَ فــيــهــا أحــبُّ
حَــسْــبــي مــن الحــبّ أنــي لِمــا تُــحــبُّ أُحــبُّ

تأملات

* أفضل مزايا القادة، برودة الأعصاب!

* قال لقمان لابنه: يا بني إياك والكسل والضجر، فإنك إذا كسلت لم تؤد حقاً، وإذا ضجرت لم تصبر على حق.

* وكان يقال: أربع لا ينبغي لأحد أن يأنف منهن وإن كان شريفاً أو أميراً: قيامه عن محلّه لأبيه، وخدمته لضيفه، وقيامه على فرسه، وخدمته للعالِم!

* قال بعض الحكماء: إذا رغبت في المكارم، فاجتنب المحارم.

* قال لقمان لابنه: ثلاثة لا يعرفون إلا في ثلاثة مواطن: لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا في الحرب، ولا تعرف أخاك إلا عند الحاجة إليه.

* من لم يركب الأهوال لم ينل الآمال.

* من لجأ إلى الزمان أسلمه.

* من لا يكرم نفسه لا يكرم.

* من غالب الأيام غُلب.

* من عمل دائماً أكل نائماً.

* الحب كالبنج، والزواج كالعملية، ومن المؤلم أن نفيق خلال العملية!

* كان قتيبة بن مسلم يُجْري على محمد بن واسع الأرزاق الكثيرة، وهو شيخ هرم ضعيف، فعوتب على ذلك فقال: أصبعه في الدعاء أبلغ في النصر من رماحكم هذه!

الأطلال

يَـا فُـؤَادِي لاَ تَـسَـلْ أَيْـنَ الْـهَـوَىٰ — كَـانَ صَـرْحـاً مِـنْ خَـيَـالٍ فَـهَـوَىٰ
إسْـقِـنِـي وَاشْـرَبْ عَـلَـىٰ أَطْـلاَلِـهِ — وَارْوِ عَـنِّـي طَـالَـمَـا الـدَّمْـعُ رَوَىٰ
كَـيْـفَ ذَاكَ الْـحُـبُّ أَمْـسَـىٰ خَـبَـراً — وَحَـدِيْـثـاً مِـنْ أَحَـادِيْـثِ الْـجَـوَىٰ

*** ***

لَـسْـتُ أَنْـسَـاكَ وَقَـدْ أَغْـرَيْـتَـنِـي — بِـفَـمٍ عَـذْبِ الْـمُـنَـادَاةِ رَقِـيْـقْ
وَيَـدٍ تَـمْـتَـدُّ نَـحْـوِي كَـيَـدٍ — مِـنْ خِـلاَلِ الْـمَـوْجِ مُـدَّتْ لِـغَـرِيْـقْ
وَبَـرِيْـقٍ يَـظْـمَـأُ الـسَّـارِي لَـهُ — أَيْـنَ فِـي عَـيْـنَـيْـكَ ذَيَّـاكَ الْـبَـرِيـقْ

**** ****

يَـا حَـبِـيْـبـاً زُرْتُ يَـومـاً أَيْـكَـهُ — طَـائِـرَ الـشَّـوْقِ أُغَـنِّـي أَلَـمِـي
لَـكَ إِبْـطَـاءُ الْـمُـذِلِّ الْـمُـنْـعِـمِ — وَتَـجَـنِّـي الْـقَـادِرِ الْـمُـحْـتَـكِـمِ
وَحَـنِـيْـنِـي لَـكَ يَـكْـوِي أَضْـلُـعِـي — وَالـثَّـوَانِـي جَـمَـرَاتٌ فِـي دَمِـي

*** ***

أَعْـطِـنِـي حُـرِّيَّـتِـي أَطْـلِـقْ يَـدَيَّـا — إِنَّـنِـي أَعْـطَـيْـتُ مَـا اسْـتَـبْـقَـيْـتُ شَـيَّـا
آهِ مِـنْ قَـيْـدِكَ أَدْمَـىٰ مِـعْـصَـمِـي — لَـمْ أُبْـقِـيْـهِ وَمَـا أَبْـقَـىٰ عَـلَـيَّـا
مَـا احْـتِـفَـاظِـي بِـعُـهُـودٍ لَـمْ تَـصُـنْـهَـا — وَإِلاَمَ الأَسْـرُ وَالـدُّنْـيَـا لَـدَيَّـا

*** ***

أَيْـنَ مِـنْ عَـيْـنِـي حَـبِـيْـبٌ سَـاحِـرٌ — فِـيْـهِ عِـزٌّ وَجَـلاَلٌ وَحَـيَـاءْ
وَاثِـقُ الْـخُـطْـوَةِ يَـمْـشِـي مَـلَـكـاً — ظَـالِـمُ الْـحُـسْـنِ شَـهِـيُّ الْـكِـبْـرِيَـاءْ

عَبِقُ السِّحْرِ كَأَنفَاسِ الرُّبَىٰ سَاهِمُ الطَّرْفِ كَأَحْلاَمِ الْمَسَاءْ

*** ***

أَيْنَ مِنِّي مَجْلِسٌ أَنْتَ بِهِ فِتْنَةٌ تَمَّتْ سَنَاءً وَسَنَىٰ

وَأَنَا حُبٌّ وَقَلْبٌ هَائِمٌ وَفَرَاشٌ حَائِرٌ مِنْكَ دَنَا

وَمِنَ الشَّوْقِ رَسُولٌ بَيْنَنَا وَنَدِيمٌ قَدَّمَ الْكَأْسَ لَنَا

*** ***

هَلْ رَأَىٰ الْحُبُّ سُكَارَىٰ مِثْلَنَا كَمْ بَنَيْنَا مِنْ خَيَالٍ حَوْلَنَا

وَمَشَيْنَا فِي طَرِيقٍ مُقْمِرٍ تَثِبُ الْفَرْحَةُ فِيهِ قَبْلَنَا

وَضَحِكْنَا ضِحْكَ طِفْلَيْنِ مَعاً وَعَدَوْنَا فَسَبَقْنَا ظِلَّنَا

وَانْتَبَهْنَا بَعْدَ مَا زَالَ الرَّحِيقْ وَأَفَقْنَا لَيْتَ أَنَّا لاَ نُفِيقْ

يَقْظَةٌ طَاحَتْ بِأَحْلاَمِ الْكَرَىٰ وَتَوَلَّىٰ اللَّيْلُ واللَّيْلُ صَدِيقْ

وَإِذَا النُّورُ نَذِيرٌ طَالِعٌ وَإِذَا الْفَجْرُ مُطِلٌّ كَالْحَرِيقْ

وَإِذَا الدُّنْيَا كَمَا نَعْرِفُهَا وَإِذا الأَحْبَابُ كُلٌّ فِي طَرِيقْ

*** ***

أَيُّهَا السَّاهِرُ تَغْفُو تَذْكُرُ الْعَهْدَ وَتَصْحُو

وَإِذَا مَا الْتَأَمَ جُرْحٌ جَدَّ بِالتَّذْكَارِ جُرْحُ

فَتَعَلَّمْ كَيْفَ تَنْسَىٰ وَتَعَلَّمْ كَيْفَ تَمْحُو

*** ***

يَا حَبِيبِي كُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاءْ مَا بِأَيْدِينَا خُلِقْنَا تُعَسَاءْ

رُبَّمَا تَجْمَعُنَا أَقْدَارُنَا ذَاتَ يَوْمٍ بَعْدَ مَا عَزَّ اللِّقَاءْ
فَإِذَا أَنْكَرَ خِلٌّ خِلَّهُ وَتَلاَقَيْنَا لِقَاءَ الْغُرَبَاءْ
وَمَضَى كُلٌّ إِلَى غَايَتِهِ لاَ تَقُلْ شِئْنَا فَإِنَّ الْحَظَّ شَاءْ

* القصيدة للشاعر: إبراهيم ناجي. والكلمة الأخيرة: «فإنَّ الحظَّ شاء» تجري على ألسنة الشعراء وهي غير مقصودة، فإن الأمور بالمقادير، وليست الدنيا حظوظاً وبخوت، وإنما كل شيء بقدر، وتجاوزات الشعراء منذ القديم معروفة!.

تأملات

* من أشهر ما حدث من فكاهات في أول إبريل في أوروبا وكان له دوي كبير، أن صحيفة انكليزية واسعة الانتشار أعلنت في ٣١ مارس سنة ١٨٤٦م أن غداً «أول ابريل» سيقام معرض حمير عام! في غرفة الزراعة لمدينة اسلنجتون، فهرع الناس لمشاهدة تلك الحيوانات، واحتشدوا في ذلك المكان، وظلوا ينتظرون، فلما أعياهم الانتظار، سألوا عن وقت عرض الحمير، فلم يجدوا شيئاً، وأدركوا أنهم إنما جاؤوا يستعرضون أنفسهم، فكانوا هم المقصودين وهم الـ . . . !

* سؤال: أيّ امرأة أكثر وفاء وإخلاصاً لزوجها؟ ذات الشعر الأشقر . . أم ذات الشعر الأسود . . أم ذات الشعر الأحمر؟

جواب: إنّ أكثر النساء وفاءً لزوجها هي ذات الشعر الأبيض!

* ثلاثة لا يستخف بهم: السلطان، والعالم، والصديق، فمن استخف بالسلطان ذهبت دنياه، ومن استخف بالعالم ذهب دينه، ومن استخف بالصديق ذهبت مروءته.

أضْحَى التّنائي بديلاً مِنْ تَدانينَا

* للشاعر ابن زيدون الأندلسي.

أَضْحَى التَّنَائي بَدِيلاً مِنْ تَدَانِيْنَا ... وَنَابَ عَنْ طِيْبِ لُقْيَانَا تَجَافِيْنَا
وَقَدْ نَكُونُ، وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا ... فَاليومَ نَحْنُ وَمَا يُرْجَى تَلاقِيْنَا
يَا لَيْتَ شِعْرِي وَلَمْ نُعْتِبْ أَعَادِيَكُم ... هَلْ نَالَ حَظاً مِنَ الْعُتْبَى أعادِينَا
لَمْ نعتقدْ بعدكمْ إلاَّ الْوَفَاء لَكُمْ ... رَأياً وَلَمْ نَتَقَلَّدْ غَيرَهُ دِينَا
مَا حَقَّنَا أَنْ تُقِرّوا عَينَ ذِي حَسَدٍ ... بِنَا ولاَ أَنْ تَسُرّوا كاشِحاً فِيْنا
كُنَّا نَرَى اليَأْسَ تُسْلِينا عَوَارِضُهُ ... وَقَدْ يَئِسْنَا فَمَا لِليَأْسِ يُغْرِيْنَا
بِنْتُم وَبِنَّا فَمَا ابتلَّتْ جَوَانِحُنَا ... شَوْقاً إلَيْكُمْ وَلاَ جَفَّتْ مَآقِينَا
نكادُ حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمَائرُنَا ... يَقْضي علَينا الأَسَى لَوْلاَ تأسِّينا
حَالَتْ لِفقدكُمُ أَيَّامُنَا فَغَدَتْ ... سُوداً وكانتْ بِكُمْ بيضاً لَيَالِينَا
إذْ جَانِبُ العَيْشِ طَلْقٌ من تألُّفِنا ... وَمَرْبَعُ اللهْوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينا
وَإذْ هَصرْنَا فُنُون الوَصْلِ دانيةً ... قِطَافُها فَجَنَيْنَا مِنْهُ مَا شِينَا
لِيُسقَ عَهدُكُمُ عَهدُ السُّرُورِ فَما ... كُنْتُمْ لأروَاحِنَا إلاَّ رَيَاحِينَا
لا تَحْسَبُوا نَأيَكُمْ عَنَّا يغَيِّرُنا ... أَنْ طالما غَيَّرَ النأيُ المُحِبِّينا!
والله مَا طَلَبتْ أهواؤنا بدلاً ... مِنْكُم، ولاَ انصرفتْ عنكمْ أمانينَا
يا ساريَ البَرْقِ غادِ القصرَ واسقِ به ... مَنْ كَانَ صِرْفَ الهَوىٰ وَالوُدَّ يَسْقِينا
واسألْ هُنَالِك: هَلْ عَنَّى تَذكُّرنا ... إلفاً تذكُّرُهُ أمسَى يعنّينا؟
وَيَا نسيمَ الصَّبَا بلّغْ تحيتنا ... مَنْ لَوْ علىٰ البُعْدِ حَيّاً كان يحيينا

يا جنَّةَ الخُلدِ أُبْدلنا، بسدرَتِها ... والكوثرِ العذبِ، زقُّوماً وغسلينَا
كأنَّنا لَمْ نَبِتْ والوصلُ ثالثُنَا ... وَالسَّعدُ قَدْ غَضَّ من أجفانِ وَاشينَاً
إنْ كان قد عزَّ في الدنيا اللقَاءُ بكمْ ... في مَوقفِ الحشرِ نَلقاكُمْ وَتَلْقُونا
سِرَّانِ في خاطرِ الظلماءِ يكتُمُنا ... حتَّى يكاد لسانُ الصبحِ يفشينا

تأملات

* قال أبو هلال العسكري:

جلوسي في سوق أبيع وأشتري ... دليلٌ على أنّ الأنام قرود
ولا خير في قوم يذل كرامهم ... ويعظم فيهم نذلهم ويسود!

* قال نيتشة: من أراد أن يرتاح فليعتقد، ومن أراد أن يكون من حواريي الحقيقة فليسأل!

* خيالك في عيني وذكرك في فمي ... ومثواك في قلبي فأين تغيب؟

* من الشعر المنسوب لابن سينا ـ الرئيس أبو علي الحسين بن عبدالله بن سينا الحكيم المشهور ـ:

اجْعَلْ غِذاءكَ كلَّ يوم مرةً ... واحْذَرْ طعاماً قبل هَضْم طَعامِ
واحفَظْ منيَّكَ ما استطعت فإنه ... ماءُ الحياة يُراق في الأرحامِ

* وله أيضاً:

لَقَدْ طُفتُ في تلك المعاهد كلِّها ... وسَيَّرْتُ طرفي بين تلك المعالمِ
فلم أر إلا واضعاً كفَّ حائرٍ ... على ذقَنٍ أو قارعاً سِنَّ نادمِ

لا تعذليه

* قال محمد بن زريق البغدادي وهو يعلن ندمه على الإفراط في طلب الدنيا وكان قصد الأندلس في طلب الغنى فلم يرجع لبغداد:

لا تعذُليهِ فإن العذل يولعُه ... قد قلتِ حقاً ولكن ليس يسمعُه
جاوزتِ في لومه حداً أضر به ... من حيث قدّرت أن اللوم ينفعه
فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلا ... من عنفه فهو مضنى القلب موجعُه
قد كان مضطلعاً بالخطب يحمله ... فضُيقتْ بخطوب البين أضلعه
يكفيه من لوعة التفنيد أن له ... من النوى كل يوم ما يروّعه
ما آب من سفر إلا وأزعجه ... رأي إلى سفر بالعزم يجمعه
كأنما هو من حل ومرتحل ... موكلٌ بفضاء الأرض يَذْرعه
إذا الزمان أراه في الرحيل غنى ... ولو إلى السند أضحى وهو يزمعه
تأبى المطامع إلا أن تجشّمه ... للرزق كدّاً وكم ممن يودعه
وما مجاهدة الإنسان توصله ... رزقاً ولا دَعَة الإنسان تقطعه
والله قسّم بين الخلق رزقهُمُ ... لم يخلق الله مخلوقاً يضيعه
لكنهم مُلئوا حرصاً فلستَ ترى ... مُسْترزقاً وسوى الغايات تقنعه
والحرص في الرزق والأرزاق قدقسمت ... بغيٌ ألا إن بغي المرء يصرعه
والدهر يعطي الفتى ما ليس يطلبه ... يوما ويمنعه من حيث يطمعه
أستودع الله في بغداد لي قمراً ... بالكَرْخ من فلك الأزرار مَطلعه
ودّعته وبودي أن يودعني ... صفوُ الحياة وأني لا أودِّعه
وكم تشفّع بي أن لا أفارقه ... وللضرورات حال لا تشفعه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى ... وأدمعي مستهلات وأدمعه

لا أكذب الله ثوب العذر منخرق ... عني بفرقته لكن أرقّعه
إني أوسّع عذري في جنايته ... بالبين عنه وقلبي لا يوسعه
أعطيتُ ملكا فلم أحسن سياسته ... وكل من لا يسوس الملك يخلعه
ومن غدا لابساً ثوب النعيم ... بلا شكر عليه فعنه الله ينزعه
اعتضت من وجه خلي بعد فرقته ... كأساً أجرع منها ما أجرعه
كم قائلٍ ليَ ذقت البين قلت له ... الذنب والله ذنبي لست أدفعه
هلا أقمت فكان الرشد أجمعه ... لو أنني يوم بان الرشد أتبعه
إني لأقطع أيامي وأنفذها ... بحسرة منه في قلبي تقطعه
بمن إذا هجع النوام بت له ... بلوعة منه ليلي لست أهجعه
لا يطمئن بجنبي مضجع وكذا ... لا يطمئن له مذ بنت مضجعه
ما كنت أحسب أن الدهر يفجعني ... به ولا أن بي الأيام تفجعه
حتى جرى الدهر فيما بيننا بيد ... عسراء تمنعني حظي وتمنعه
بالله يا منزل القصر الذي دَرَست ... آثاره وعفت مذ غبت أربعه
هل الزمان معيد فيك لذتنا ... أم الليالي التي أمضته ترجعه
في ذمة الله من أصبحت منزله ... وجاد غيث على مغناك يمرعه
من عنده لي عهد لا يضيعه ... كما له عهدُ صدق لا أضيعه
ومن يصدع قلبي ذكره وإذا ... جرى على قلبه ذكري يصدعه
لأصبرن لدهر لا يمتعني ... به ولا بي في حال يمتعه
علما بأن اصطباري معقب فرجاً ... وأضيق الأمر إن فكرت أوسعه
عسى الليالي التي أضنت بفرقتنا ... جسمي ستجمعني يوما وتجمعه
وإن تَنلْ أحداً منا منيّتُه ... فما الذي بقضاء الله يصنعه

الحب.. يجلب المتاعب

أقـول أمـام الـنـاس : لـسـت حـبـيـبـتـي / وأعـرف فـي الأعـمـاق كـم كـنـت كـاذبـا
وأزعـم أن لاشـيء يـجـمـع بـيـنـنـا / لأبـعـد عـن نـفـسـي وعـنـك المتـاعـبـا
وأنـفـي إشاعـات الـهـوىٰ وهـي حـلـوةٌ / وأجـعـل تـاريـخـي الجـمـيـل خـرائـبـا
وأعـلـن فـي شـكـل غـبـيٍ بـراءتـي / وأذبـح شـهـواتـي وأصـبـح راهـبـا
وأقـتـل عـطـري عـامـداً مـتـعـمـداً / وأخـرج مـن جـنـات عـيـنـيـك هـاربـا
أقـوم بـدور مـضـحـك يـا حـبـيـبـتـي / وأرجـع مـن تمـثـيـل دوري خـائـبـا
فـلا الـلـيـل يـخـفـي لـو أراد نجـومـهُ / ولا الـبـحـر يـخـفـي لـو أراد المـركـبـا

* القصيدة للشاعر : نزار قباني .

تأملات

* قال عمر بن الخطاب : العمائم تيجان العرب!

* وقيل لأعرابي : مالك لا تضعُ العمامة علىٰ رأسك؟ قال : إنّ شيئاً فيه السمعُ والبصر لحقيق بالصَّون!

* وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : جمال الرجل في عِمّته، وجمالُ المرأة في خُفِّها!

* وقال الأحنف : استجيدوا النِّعال فإنّها خلاخيل الرّجال!

عندما يتفجر الشعر في أعماق النفس

منذ أحببتك الشموس استدارت والسموات صرن أنقىٰ وأرحبْ
منذ أحببتك البحار جميعاً أصبحت من مياه عينيك تشربْ
حبك البربري أكبر مني فلماذا علىٰ ذراعيك أصلبْ
خطأي أنني تصورت نفسي ملكاً يا صغيرتي ليس يُغلبْ
وتصرَّفت مثل طفلٍ صغيرٍ يشتهي أن يكون أبعد كوكبْ
سامحيني إذا تماديت في الحلم وألبستك الحرير المقصَّبْ
أتمنىٰ لو كنتِ بؤبؤ عيني أتراني طلبت ما ليس يُطلبْ
أنت أحلىٰ خرافة في حياتي والذي يتبع الخرافات يتعبْ
كل يومٍ يصير وجهك جزءاً من حياتي ويصبح العمر أخصبْ
قد تسرَّبتِ في مسامات جلدي مثلما قطرة الندىٰ تتسربْ
اعتيادي علىٰ غيابك صعبٌ واعتيادي علىٰ حضورك أصعبْ
كم أنا كم أنا أحبك حتىٰ إن نفسي من نفسها تتعجبْ!
يسكن الشعر في حدائق عينيك فلولا عيناك لا شعرَ يُكتبْ

* القصيدة للشاعر: نزار قباني

زرقاء اليمامة

* يقال في الأمثال: **أبصر من زرقاء اليمامة**، وهي زرقاء بنت نمير، وكانت تبصر الشعرة البيضاء في اللبن، وتنظر الراكب على مسيرة ثلاثة أيام، وكانت تنذر قومها الجيوش، إذا غزتهم، فلا يأتيهم جيش إلا وقد استعدوا له، حتى احتال لها بعض من غزاهم، فأمر أصحابه، فقطعوا شجراً أمسكوه أمامه بأيديهم، ونظرت الزرقاء فقالت:

إني أرى الشجر قد أقبل إليكم! قالوا: قد خَرِفْتِ ورقّ عقلك، وذهب بصرك، فكذبوها وصبحتهم الخيل، وأغارت عليهم، وقتلت الزرقاء. قال: فقوروا عينيها، فوجدوا عروق عينيها قد غرقت في الإثمد؛ من كثرة ما كانت تكتحل به! وقصة ذلك أن تُبّعاً لما عزم على غزو قومها وكان منهم على مسافة يوم وليلة أقام في جبل هناك وأمر رجلاً أن يصعد الجبل فينظر ماذا يرى، فلما صعد الجبل دخل في رجله شوكة فأكبّ على رجله يستخرجها فأبصرته اليمامة وكانت زرقاء العين فقالت: يا قوم إني أرى على الجبل الفلاني رجلاً وما أظنه إلاّ عيناً فاحذروه! فقالوا لها: ما يصنع؟ فقالت: إما يخصف نعلاً أو ينهش كتفاً، فكذّبوها، ثم إنه قيل للملك: مُرْ أصحابك ليقطعوا من الشجر أغصاناً ويستتروا بها ليشبهوا على اليمامة وليسيروا كذلك ليلاً، فقال تبع: أوَفي الليل تبصر مثل النهار؟ قيل: نعم أيها الملك بصرُها بالليل أشد، فأمر تُبّع أصحابه بذلك فقطعوا الشجر وأخذ كل رجل بيده غصناً حتى إذا دنوا من اليمامة ليلاً نظرت اليمامة فقالت: يا آل جديس سارت إليكم الشّجْراء أو جاءتكم أوائل خيل حِمْير، فكذبوها فصَبّحتهم حِمْير.

تأملات

وثيقة من التاريخ

* إلى صاحب العظمة خليفة المسلمين هشام الثالث الجليل المقام.

من جورج الثاني ملك إنجلترا والسويد والنرويج إلى الخليفة ملك المسلمين في مملكة الأندلس صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام. بعد التعظيم والتوقير نفيدكم أننا سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة... فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج من هذه الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يحيط بها الجهل من أركانها الأربعة، وقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة (دُوبَانت) على رأس بعثة من بنات الأشراف الإنجليز لتتشرف بلثم أهداب العرش والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم، وقد زودت الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل.. أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص. الإمضاء: من خادمكم المطيع/ جورج الثاني...!

الاستذكار لابن عبد البر: ١/ ٤٣.

تأملات

* الحياة عبء ثقيل على بعض الناس، وبعض الناس عبء ثقيل على الحياة!

* لا تَبُلْ في قليب قد شربت منه! مَثَل يُضرَب لمن يسيء القول فيمن أحسن إليه.

* لا تصحب من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له. أي لا تصاحب من لا يشاكلك ولا يعتقل حقك.

* لا أعرفنك بعد الموت تندبني ... وفي حياتي ما زودتني زادي

يُضرب لمن يضيع أخاه في حياته ثم يبكيه بعد موته!

* أعدَّ أحد الأغنياء وليمة فاخرة حوت ما لذَّ وطاب من مختلف الأطعمةِ، إلا صنفاً واحداً لم يستطع الحصول عليه وهو السمك.. وقبل موعد تناول الطعام بنحو ساعة دخل القصر صياد يحمل سمكةً كبيرة.. ففرح صاحب القصر.. وسأل الصياد عن ثمن السمكة فقال: ثمنها أن تضربني عشرين سوطاً وجنيهاً ذهبياً!! فدهش الرجل.. ولكن الصياد أصر على طلبه.. وقبل أن يُضرب الصياد.. قال: إن لي شريكاً أحبّ أن يقاسمني الثمن! فقال صاحب القصر: ومن هو؟! قال الصياد: حارس الباب، فإنه لم يسمح لي بالدخول إلا بعد أن وعدته بأن أعطيه نصف ما آخذ من المكافأة!! وضُرب الحارس عشرين سوطاً ثم أعطى صاحب القصر للصياد جنيهاً ثمناً للسمكة!

* دخل «أبو نخيلة» اليمن فلم ير بها أحداً حسناً، ورأى نفسه أحسن من فيها، وكان قبيحاً جداً، فقال:

لم أر غيري حسنا ... منذ دخلت اليمنا

فيا شقاء بلدة ... أحسن من فيها أنا

* قال الشاعر أبو الحسن بن سكرة الهاشمي:

وفـي وجـه إنسـانـة كـلـفـت بـهـا	أربـعـة مـا اجـتـمـعـن فـي أحـدِ
الـوجـه بـدر والـصـدغ غـالـيـة	والـريـق خـمـر والـثـغـر مـن بَـرَدِ!!

*قال بعض الشعراء:

تـوهـمـهـا طـرفـي فـأصـبـح خـدُّهـا	وفـيـه مـكـانَ الـوهـم مـن نـظـري أثـرُ
وصـافـحـهـا قـلـبـي فـأدمـى بـنـانـهـا	فـمـن لمـس قـلـبـي فـي أنـامـلـهـا عَـقْـرُ

* الإسلام لم يعرف حرب الأجناس، فالله عز وجل لم يفضل لوناً على لون، ولم يؤثر بكرامته جنساً دون جنس، فلا يجوز أن تنسب هذه الحروب الداعرة إلى أي دين. والله عز وجل رفع شأن العرب وأعزهم بالإسلام: إن الله أعزنا بالإسلام ومهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله. والعربية لسان لا دم، ومن تعلم لغة العرب وامتزج بهم، صار منهم. وإسماعيل عليه السلام عبراني نزح من بلاده مهاجراً إلى الجزيرة العربية تعلم العربية فيها واكتسب فيها جنسيته العربية الجديدة، فالاستعراب أصل في تكوين العرب.

والناس في أصل الخلقة سواسية، لا يمتاز عنصر على عنصر، وإنما يتفاوتون بالأعمال والوفاء لهذا الدين «إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

وخلوّ الإسلام - كما يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله - من تفضيل جنس على جنس، وتسويته المطلقة بين من اعتنقوه كافة، سمح للفرس والروم والترك وسائر الموالي أن يزاحموا العرب بالمناكب في ميادين النشاط العلمي والأدبي والفني، وأن ينتزعوا القياد منهم في هذه الآفاق الحرة، فلم تمض خمسون سنة على ظهور الإسلام حتى كانت الكثرة الساحقة من فقهاء الأمصار الكبرى رجالاً من الأعاجم وغيرهم، وصلوا إلى أماكن الصدارة دون أن يجدوا أمامهم عائقاً، وعلوم

الشريعة من تفسير وسنة وتشريع، وعلوم اللغة العربية، بلغت تمامها واعتلت قمتها على أيدي رجال لا يمتون للعروبة إلا بصلة التجنس، ولولا الإسلام وما بثه في النفوس والجماعات من سماحة مشكورة ما حدث هذا قط. يقول الشيخ الخضري في كتابه: «تاريخ التشريع»: إن الموالي وجدوا في جميع الأمصار، وشاركوا الصحابة وكبار التابعين من العرب في العلم والتعليم، فقلما يذكر عبدالله بن عباس إلا ومعه راويته ومولاه عكرمة، وقلما يذكر عبدالله بن عمر إلا ومعه مولاه نافع، وقلما يذكر أنس بن مالك إلا ومعه مولاه محمد بن سيرين، وكثيراً ما يذكر أبوهريرة ومعه مولاه عبدالرحمن بن هرمز الأعرج، وهؤلاء الأربعة أكثر الصحابة حديثاً وفتوى، ولمواليهم الأربعة فضل كبير، ومن الخطأ أن يحسب أن حظ العرب من الفقه ورواية الحديث كان أحسن، وإنما كانت المشاركة، فلم يوجد مصر إلا وفيه من الفريقين عدد وافر، إلا أن بعض الأمصار كان الامتياز فيه للموالي كالبصرة، وعلى رأسهم الحسن البصري، وفي بعضها كان الامتياز لفقهاء العرب كالكوفة.

* كتب أبوبكر الصديق ليزيد بن أبي سفيان، قائد المسلمين بجهة فلسطين يقول له: إني قد وليتك لأبلوك وأجربك وأحرجك، فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك، وإن أسأت عزلتك، فعليك بتقوى الله، فإنه يرى من باطنك مثل الذي يرى من ظاهرك، وإنّ أوْلى الناس بالله، أشدهم تولياً له، وأقرب الناس من الله أشدهم تقرباً إليه بعمله. وقد وليتك عمل خالد - الوالي الذي كان قبله وهو خالد بن سعيد بن العاص - فإياك ونخوة الجاهلية، فإن الله يبغضها ويبغض أهلها، وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم، وابدأهم بالخير، وعِدْهم إياه، وإذا وعظت فأوجز، فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً. وأصلح نفسك يصلح لك الناس، وصلِّ الصلاة لأوقاتها، بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها، وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم، وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم

جاهلون. ولا ترينهم حقيقة جيشك، فيروا خللك ويعلموا علمك، وأنزلهم في ثروة عسكرك، وامنع من قبلك من محادثتهم، وكن أنت المتولي لكلامهم، ولا تجعل سرك لعلانيتك فيختلط أمرك، وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة، ولا تخذل عن المشير خبرك فتؤتى من قبلك. واسمر بالليل في أصحابك، تأتك الأخبار وتنكشف عندك الأستار، وأكثر حرسك وبدّلهم في عسكرك، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك. فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه، وعاقبه في غير إفراط. واعقُب بينهم بالليل والنهار، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة، فإنها أيسرها لقربها من النهار. ولا تخف من عقوبة المستحق، ولا تَلِجَّنَّ فيها ولا تسرع إليها، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولا تجسس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلانيتهم، ولا تجالس العبائين، وجالس أهل الصدق والوفاء، واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس، واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر ويدفع النصر، وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له!

هذه وصية الحاكم لأحد قادة جيوشه تنمّ عن فقه عميق في سياسة الدين والدنيا، وتدل على درايته وخبرته بدقائق الأمور العسكرية وتفصيلاتها، ويتوّج الحاكم وصاياه ونصائحه بالتأكيد على أمر التقوى والصلاة ليظل الجندي والقائد على اتصال بالله سبحانه يطلبون منه العون والمدد، فتقوى عزائمهم، ويتعمق اليقين في قلوبهم عند اللقاء ومواجهة الأعداء! وهكذا يتحقق النصر ويُكتب لمثل هذا الجيش الفوز، وإنك لتعجب أشد العجب عندما تعلم أن الصلاة في بعض جيوش البلدان الإسلامية اليوم تهمة يحاكم الجندي على أساسها، ويُراقب ويُعاقب!.

* قال عمر بن هياج : أَتَتْ شريكاً امرأة من ولد الصحابي جرير بن عبدالله رضي الله عنه، وهو في مجلس الحكم فقالت : أنا بالله ثم بالقاضي، أنا امرأة من ولد جرير ورددت الكلام فقال : إيهاً عنك الآن، مَنْ ظلمك؟ قالت : الأمير موسى بن عيسى، كان لي بستان على شاطئ الفرات ورثته عن آبائي وفيه نخل فقسمته بيني وبين إخوتي، بنيت حائطاً وجعلت فيه فارساً يحفظ النخل، فاشترى الأمير من إخوتي حقوقهم، وسامني أن أبيع فأبيت، فلما كان في هذه الليلة بعث بخمسمائة فاعل فقلعوا الحائط فأصبحت لا أعرف من محلتي شيئاً! فختم طينة ثم قال لها : امض إلى بابه حتى يحضر معك، فجاءت المرأة بالطين فأخذها الحاجب ودخل على موسى فأعلمه، فبعث بصحاب الشرطة إليه، وقال : يا سبحان الله، امرأة ادّعت دعوى لم تصح أعديْتها عليّ! فقال له صاحب الشرطة : أعفني، فأبى فخرج وأمر غلامه أن يتقدم إلى الحبس بفراش وغيره! فأدى الرسالة إلى شريك، فقال خذوا بيده فقال : قد تقدمت بما أحتاج إليه وعلمت أنك ستفعل! وبلغ الخبر موسى، فوجه حاجبه، فقال : هذا من ذاك ما على الرسول، فألحقه بصاحبه، فبعث إلى إسحق بن الصباح وجماعة من الوجوه فقال : امضوا إليه فقد استخف بي، فمضى وهو جالس في مسجده بعد العصر، فلما أدوا الرسالة قال : مالي أراكم جئتم في غيره من الناس! مَنْ ههنا من فتيان الحي، يأخذ كل رجل بيد رجل إلى الحبس! قالوا : أنت جادّ؟ قال : حقاً، حتى لا يمشوا برسالة ظالم، فركب موسى إلى الحبس ليلاً فأخرجهم، فبلغ شريكاً، فختم القمطر وتوجه إلى بغداد، فركب موسى في موكبه فلحقه بقنطرة الكوفة فجعل يناشده الله، ويقول : تسببت وانظر إخوانك تحبسهم قال : نعم لأنهم مشوا لك في أمر لم يجب أن يمشوا فيه، ولستُ براجع أو يُردوا إلى الحبس جميعاً، وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين فاستعفيته، فأمر بردّهم إلى الحبس! وجاء السجان فأخبره، ثم أمر أعوانه أن يردوا موسى إلى مجلس الحكم، وجلس له وللجريرية، ثم أخرج أولئك من الحبس وحكم عليه بردّ حائطها ثم قام فأجلسه إلى جنبه وقال : السلام عليك أيها الأمير!

* قال ابن الرومي يصف العباد من قوّام الليل:

تتجافى جنوبهم ... عن وطيء المضاجع
كلهم بين خائف ... مستجير وطامع
تركوا لذة الكرى ... للعيون الهواجع
لو تراهم إذا هموا ... خطروا بالأصابع
وإذا هم تأولوا ... عند مرّ القوارع
وإذا باشروا الثرى ... بالخدود الضوارع
واستهلت عيونهم ... فائضات المدامع
ودعوا: يا مليكنا ... يا جميل الصنائع
اعف عنا ذنوبنا ... للعيون الدوامع
أنت - إن لم يكن لنا ... شافع - خير شافع
فأُجيبوا إجابة ... لم تقع في المسامع
ليس ما تصنعونه ... أوليائي بضائع
وابذلوا لي نفوسكم ... إنها في ودائع

* تبينت أن الحق إن لم تتح له ... بواسل - يخشى ظلمها - فهو باطل
لعمرك لو أغنى عن الحق أنه ... هو الحق ما قام الرسول يقاتل
فلا تحسبن الحق ينهض وحده ... إذا ملت عنه فهو - لا شك - مائل
أقمه وأسنده ودعّم بناءه ... وذُدْ عنه ذود الليث والليث صائل
ولا تسندن الحق بالقول وحده ... فإنّ عماد الحق ما أنت فاعل

من العدل أن لا يطلب الحق عاجز ... فليس على وجه البسيطة عادل

ولكن قوي يشرب الدم سائغاً ... إذا خضبت يوم الورود المناهل

* يقول الشاعر الرصافي موصياً بضرورة تربية البنات:

ولم أر للخلائق من محل ... يهذبها كحضن الأمهات

فحضن الأم مدرسة تسامت ... بتربية البنين أو البنات

وأخلاق الوليد تقاس حسناً ... بأخلاق النساء الوالدات

وليس ربيبُ عالية المزايا ... كمثل ربيب سافلة الصفات

وليس النبت ينبت في جنان ... كمثل النبت ينبت في الفلاة

* ثم يناجي أم المؤمنين ويبثها حزنه لجهل المؤمنات اليوم:

أم المؤمنين إليك نشكو ... مصيبتنا بجهل المؤمنات

فتلك مصيبة يا أم منها ... نكاد نغص بالماء الفرات

*** ***

نرى جهل الفتاة لها عفافاً ... كأن الجهل حصن للفتاة

ونلزمهن قعر البيت قهراً ... ونحسبهن فيه من الهنات

لئن وأدوا البنات فقد قبرنا ... جميع نسائنا قبل الممات!

* قيل لرجل حنفي المذهب: أتتبع كلام أبي حنيفة؟ قال: لا، أتبع كلام الله ورسوله، كما فسره أبو حنيفة. وهذا جواب مقلد يصور طبيعة التقليد.

عمرو بن العاص أول من حفر قناة السويس

جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من حمل الطعام من مصر في بحر أيلة «البحر الأحمر» إلى المدينة.

قال في التراتيب الإدارية ٢/ ٥٣، وذلك في الخليج الذي فتح بعد فح مصر، وكان يمتد من الفسطاط إلى السويس، والذي تولى حفره عمرو بن العاص في خلافة عمر سنة ٢٣هـ وفرغ منه في ستة أشهر، وجرت فيه السفن ووصلت إلى الحجاز في الشهر السابع، ومسافته خمسة أيام، وكان مسلك التجار وغيرهم، وعرف بخليج أمير المؤمنين، وصار الصلة العظمى بين مصر والبحر الأحمر والهند. وبقي مفتوحاً إلى زمن أبي جعفر المنصور، ولما ظهر محمد النفس الزكية بالحجاز، أمر عامله على مصر بردم خليج مصر لقطع الميرة عن البلاد الحجازية، فردم وصار نسياً منسياً، وبقي كذلك ألف سنة إلى أن حفرت «قناة السويس» في العصر الحديث. وفي الخطط للمقريزي عن سبب حفر هذا الخليج، أن الناس في المدينة قحطوا فأعانهم عمرو بن العاص بعير أولها كان بالمدينة، وآخرها بمصر، فأمر عمر بفتح هذا الخليج ليتيسر النقل في البحر بدل الظهر، فلم يأت الحول حتى سارت فيه السفن، فصار يحمل فيه ما يراد للحرمين الشريفين، ثم غلب عليه الرمل، والعوامل البيئية والإهمال، ولم يلق العناية المطلوبة، فرُدم وانقطع آخر الدولة الأموية وهذان سببان لردم هذا الخليج: إما العوامل البيئية، وإما أمر محمد النفس الزكية بداية تأسيس الدولة العباسية، لقطع الصلة بين مصر والحجاز.

وقيل إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ربما توقف في فتح هذا الخليج أولاً لئلا يكون هذا الاتصال سبباً لغارات الروم وهجومهم على الحجاز، عندما يرون الطريق مفتوحاً، ولذا كان بعض المؤرخين والكتاب يرون عندما حفرت قناة السويس، أن فتحها، فتح على مصر أبواباً من الشر لم تكن بعد ذلك قادرة على إقفالها «وأن فتح خليج السويس كان من أشد الآفات على ممالك الشرق!».

* وإنما نهى عمر بن الخطاب عن ركوب البحر واستعماله أولاً، لأن المسلمين كانوا يجهلون علومه وأحواله، لذلك لما أتقنوا هذه العلوم البحرية، أذن لهم في ركوب البحر، ولذلك اتخذوا بعد ذلك الأساطيل البحرية، وحفروا الخلجان والترع، ولم يكن لهم استغناء عن البحر.

جاء في الموسوعة العربية الميسرة: ٢/ ١٤٠٠:

وفكرة ربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر بقناة فكرة قديمة، وتم حفرها قبل الميلاد، ثم ردمت، ولما فتح عمرو بن العاص مصر أعاد حفرها، وسماها: خليج أمير المؤمنين.

* ثم حفرت في منتصف القرن التاسع عشر على يد قائد الحملة الفرنسية فرناد ديلسبس. في عهد الخديوي إسماعيل، وفتحت للملاحة العالمية لأول مرة في العصر الحديث عام ١٨٦٩م ويبلغ طولها ١٧٣كم، ومتوسط عرضها ٦٠م، وعمقها ١٣م.

العلَم.. والهلال

كان رسول ﷺ يعقد الرايات والألوية لأمراء البعوث والسرايا، وقد حملها كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وعلي والزبير بن العوام وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة ومصعب بن عمير، وذلك في غزوات متفرقة، وكان لرسول الله راية سوداء تسمى: العقاب، وراية بيضاء تسمى: «الربية» وقيل، كانت رايته عليه السلام سوداء، ولواؤه أبيض، ومكتوب على لوائه: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

* واللواء: هو العلم الذي يحمل في الحرب ليعرف به موضع صاحب الجيش، وقيل: اللواء هو الراية، ويسمى العلم. وقال ابن عباس: كانت راية رسول الله سوداء، ولواؤه أبيض. وهذا ظاهر في التغاير بين اللواء والراية، وقيل: اللواء: ما يعقد في طرف الرمح ويلوى عليه، والراية ما يعقد فيه ويترك حتى تصفقه الرياح. وقيل: اللواء العلم الضخم، والعلم علامة لمحل الأمير، يدور معه حيث دار.

* وقد يستأنس لأصل رسم صورة الهلال في الراية الإسلامية، بما ورد من أن سعد بن مالك الأزدي وفد على النبي ﷺ وعقد له راية على قومه سوداء وفيها هلال أبيض. ولعل هذا هو الأصل الذي دفع الملوك العثمانيين لوضع رسم الهلال على رؤوس مآذن المساجد.

* وللرايات والألوية والأعلام احترام واعتبار وتقدير لدى جميع الأمم، وكل دولة اتخذت علماً رمزاً لها، تميزه بالشكل والألوان والرسومات، وكان الأصل في سر اتخاذ الأعلام والرايات، هو أنها رمز للاجتماع والاتحاد والالتحام، فيكون هذا اللواء علامة على اجتماع الكلمة ودلالة على اتحاد القلوب، فيكون القوم كالجسم الواحد، وإذا كانوا في معركة فإنهم ـ طالما أن رايتهم مرفوعة ـ لا ييأسون من الظفر، فتقوى همتهم، ويشتد عزمهم، ولكن إذا سقط اللواء أخذوا من جانب العدو، وركبهم الخوف والرعب، وكانوا عرضة للهزيمة والانكسار، بخلاف ما إذا كان العلم مرفوعاً خافقاً منتشراً مزدهياً. التراتيب الإدارية ١/ ٣٢٠.

* قال أحد ملوك الأندلس:

نحن قوم تذيبنا الأعين النجل ... على أننا نذيب الحديدا

فترانا لدى الكريهة أحرا ... راً وفي السلم للملاح عبيدا

***

* جاء في بعض الآثار، يقول الله تعالىٰ: أهلُ ذِكْري أهلُ مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أؤيسهم من رحمتي، وإنْ تابوا فأنا حبيبهم ـ إن الله يحب التوابين ـ وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب حتىٰ أطهرهم من المعائب.

* كان النبي ﷺ إذا أتاه أمر يسره قال: الحمدلله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا أتاه الأمر يسوءه قال: الحمدلله علىٰ كل حال.

* كان النبي ﷺ يقول في الصلاة: اللهم بعلمك الغيب وبقدرتك علىٰ الخلق أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القَصْد في الفقر والغنىٰ، وأسألك نعيماً لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلىٰ وجهك، وأسألك الشوق إلىٰ لقائك من غير ضراء مضرّة ولا فتنة مضلّة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين» رواه أحمد والنسائي.

* دلائل العشق لا تخفىٰ علىٰ أحـد   كحامل المسك لا يخلو من العبق

* والحمد لله أولاً وآخراً، وبدءاً وختاماً، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد صاحب الشريعة الغراء والرسالة العصماء، ما دامت الأرض والسماء، وما قامت بربها الأشياء، وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين، والحمدلله رب العالمين.

ـ تم الكتاب ـ

المصادر

* البداية والنهاية لابن كثير.

* أخبار القضاة ـ لوكيع.

* معجم الأدباء لياقوت الحموي.

* نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري.

* العقد الفريد لابن عبدربه الأندلسي.

* محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصبهاني.

* من شوارد الشواهد ـ علي الطنطاوي.

* عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري.

* بهجة المجالس وأنس المُجالس وشحذ الذاهن والهاجس لابن عبدالبر النمري القرطبي.

* صفحات من صبر العلماء ـ عبدالفتاح أبو غدة.

* المستطرف في كل فنّ مستظرف للأبشيهي.

* الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لابن قيم الجوزية.

* نزهة الناظرين في الأخبار والآثار المروية عن الأنبياء والصالحين لتقي الدين عبدالملك بن أبي المنى الحلبي.

* تحفة المودود بأحكام المولود لابن قيم الجوزية.

* الأذكياء لابن الجوزي.

* أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي.

* الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي.
* إحياء علوم الدين للغزالي.
* حلية الأولياء لأبي نعيم.
* المقاصد الحسنة للسخاوي.
* مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي.
* التاج الجامع للأصول للشيخ منصور علي ناصف.
* العلماء العزاب ـ عبدالفتاح أبو غدة.
* نشوار المحاضرة للتنوخي.
* ابتسم ـ عائض القرني.
* جواهر الأدب للهاشمي.
* متعة الحديث ـ عبدالله الداود
* مجمع الأمثال للميداني.
* شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد.
* وفيات الأعيان لابن خلكان.
* طبقات الشافعية الكبرىٰ للسبكي.
* تاريخ الطبري.
* من روائع حضارتنا ـ للسباعي
* معجم البلدان لياقوت الحموي.
* فتاوىٰ معاصرة للقرضاوي.

* أخلاقنا الاجتماعية ـ للسباعي .

* الطبقات الكبرىٰ لابن سعد .

* الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر .

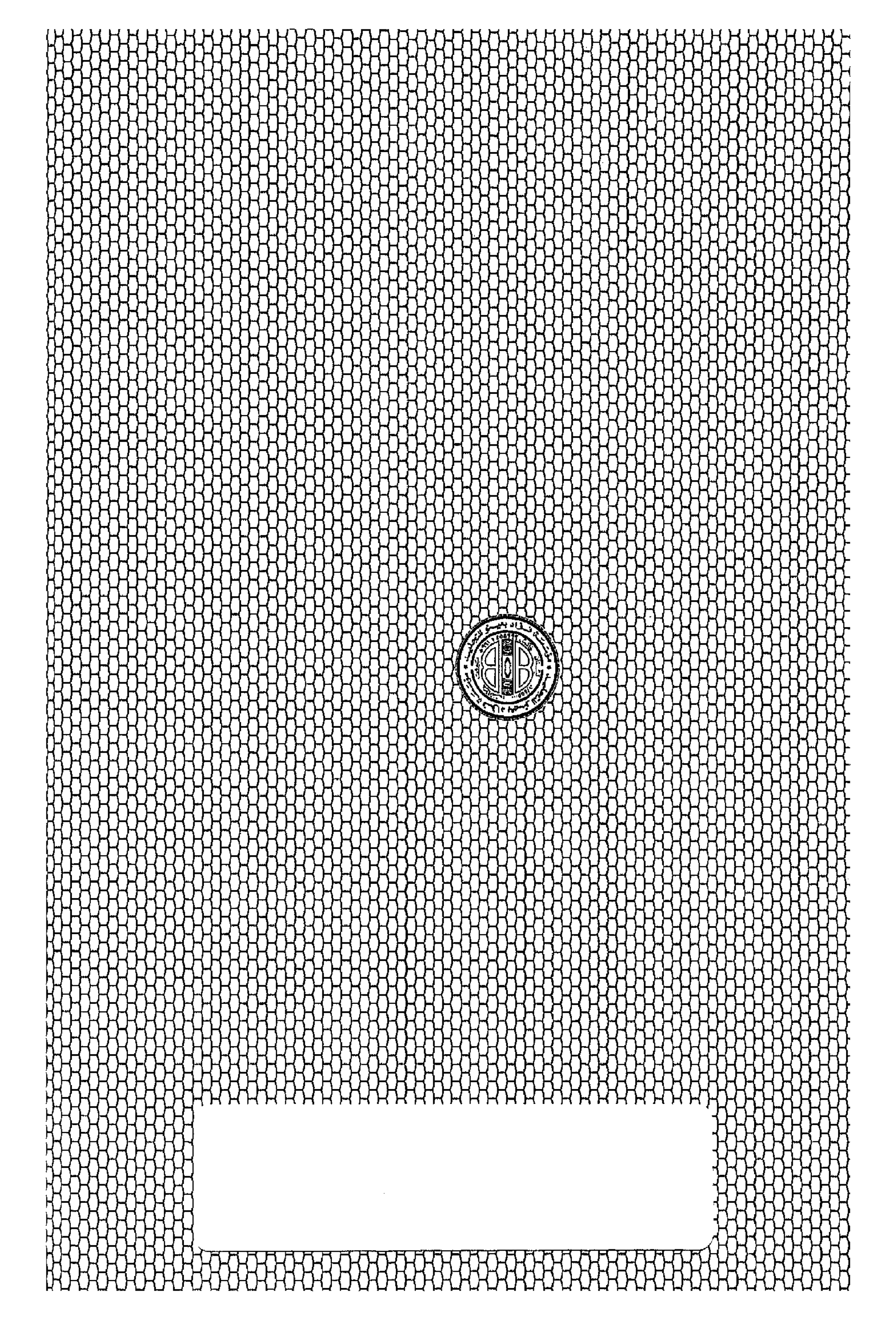
* المرأة بين الفقه والقانون ـ للسباعي .

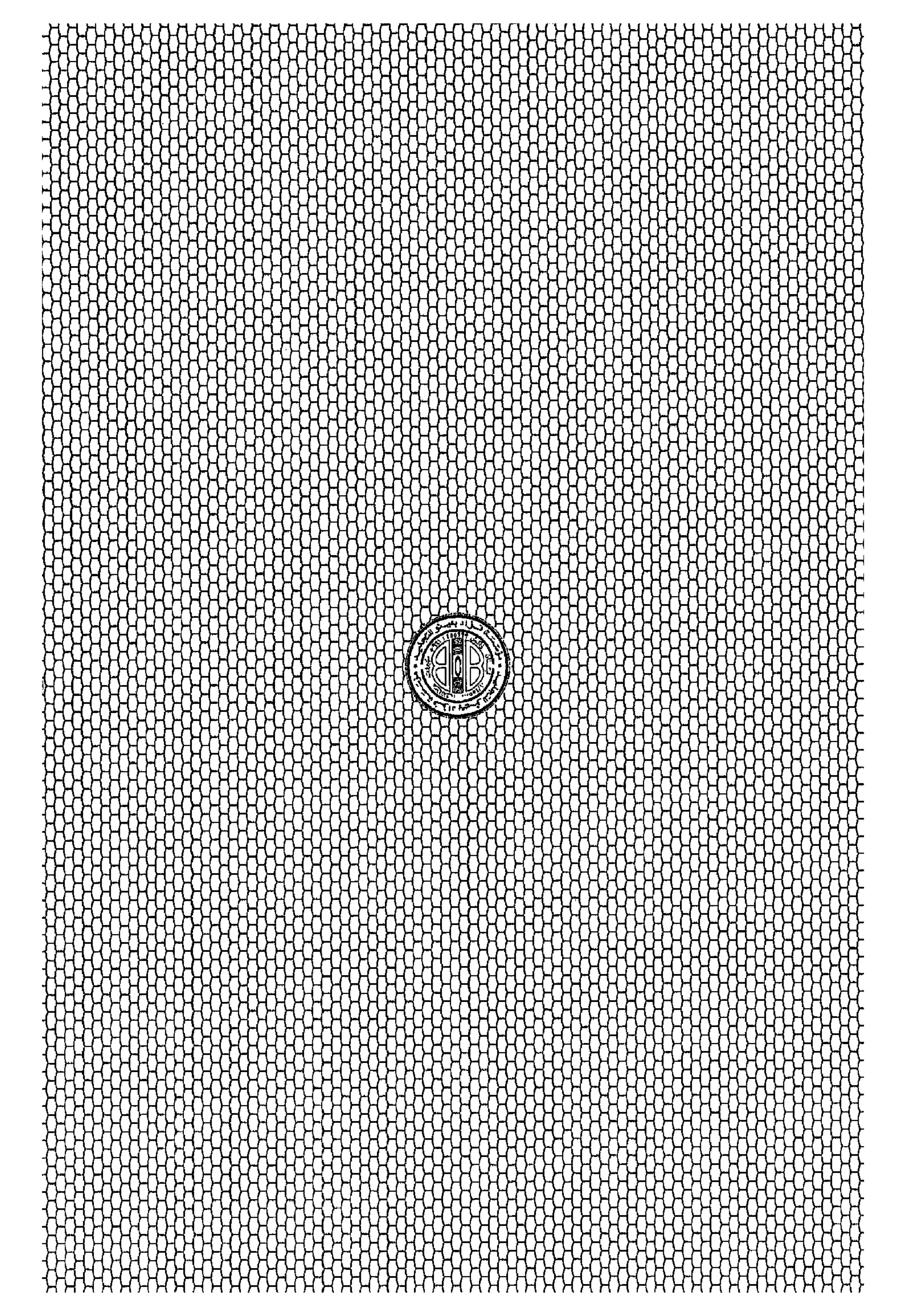
* صفة الصفوة لابن الجوزي .

* حياة الصحابة للكاندهلوي .

* نفح الطيب للمَقّري .

الفهرس






صفوة الأخبار
ومنتقى الآثار